

**الموسوعة التاريخية
للأمة الشريسية "الأديغة"
المجلد الأول - الطبعة الثانية**



الموسوعة التاريخية للأمة الشركسية "الأديغة"

من الألف العاشر ما قبل الميلاد إلى الألف الثالث ما بعد الميلاد

الاستاذ الدكتور

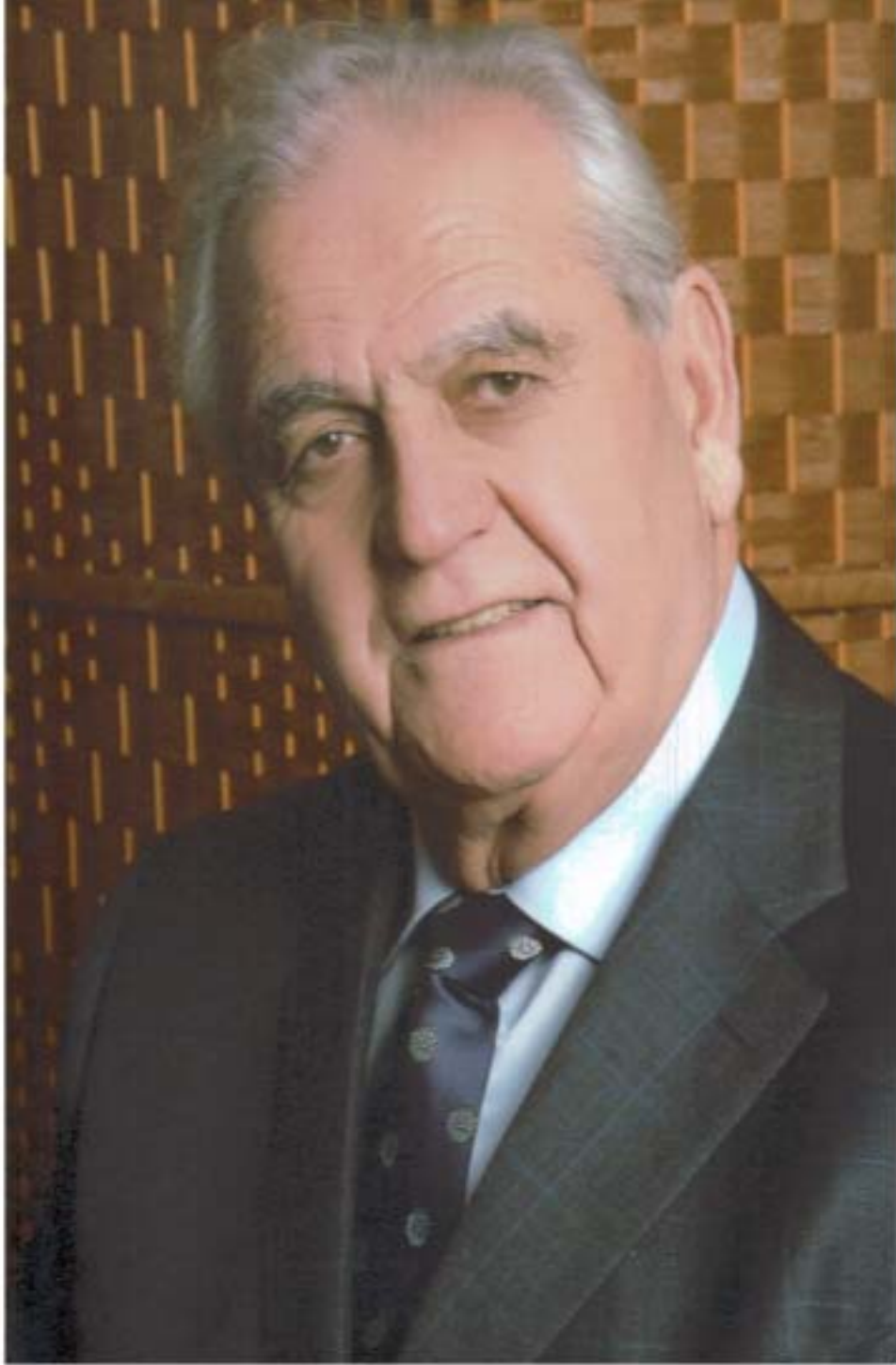
محمد خير مامسريتسج

المجلد الأول

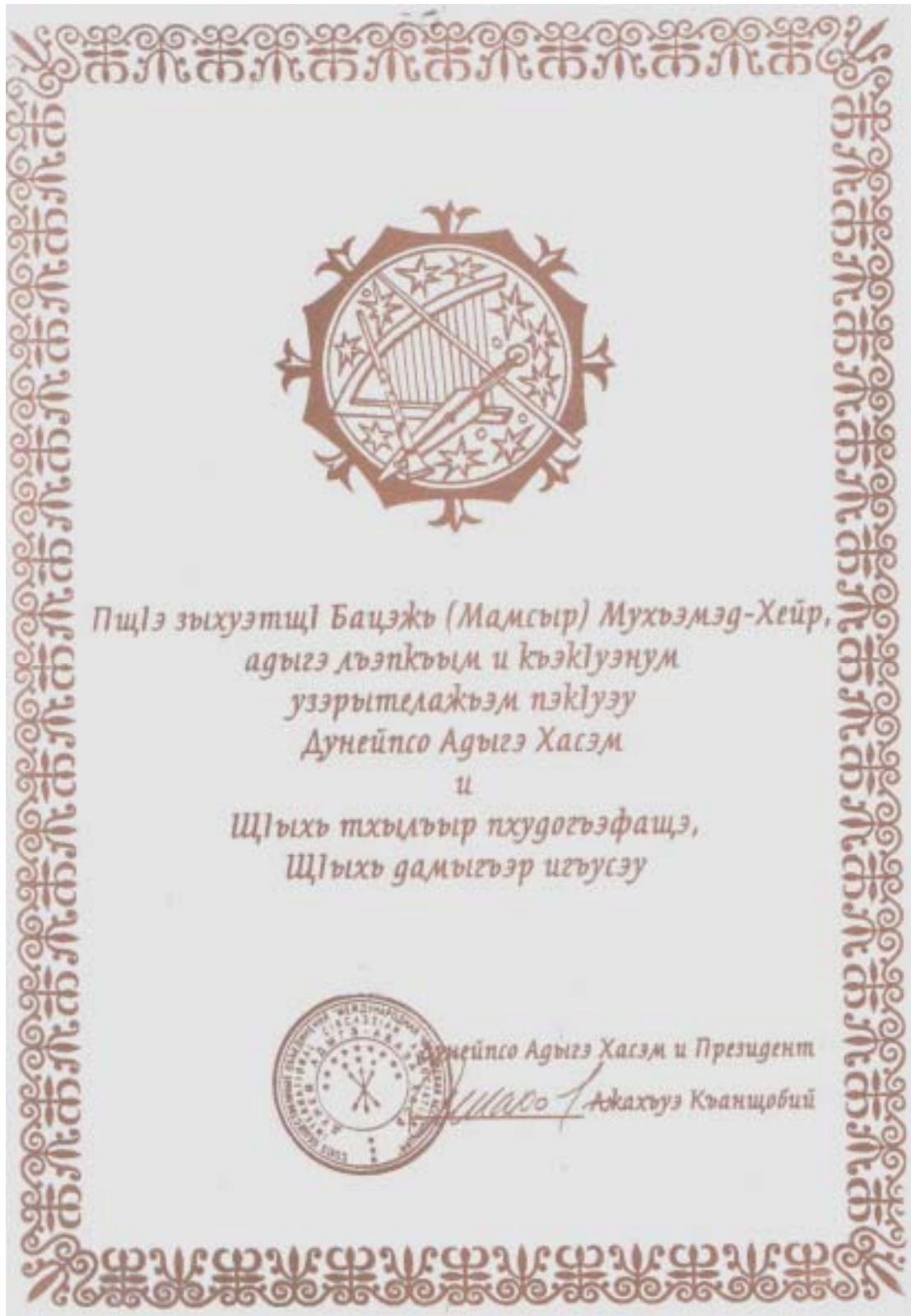
تاريخ الأمة الشركسية في الوجود
منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث

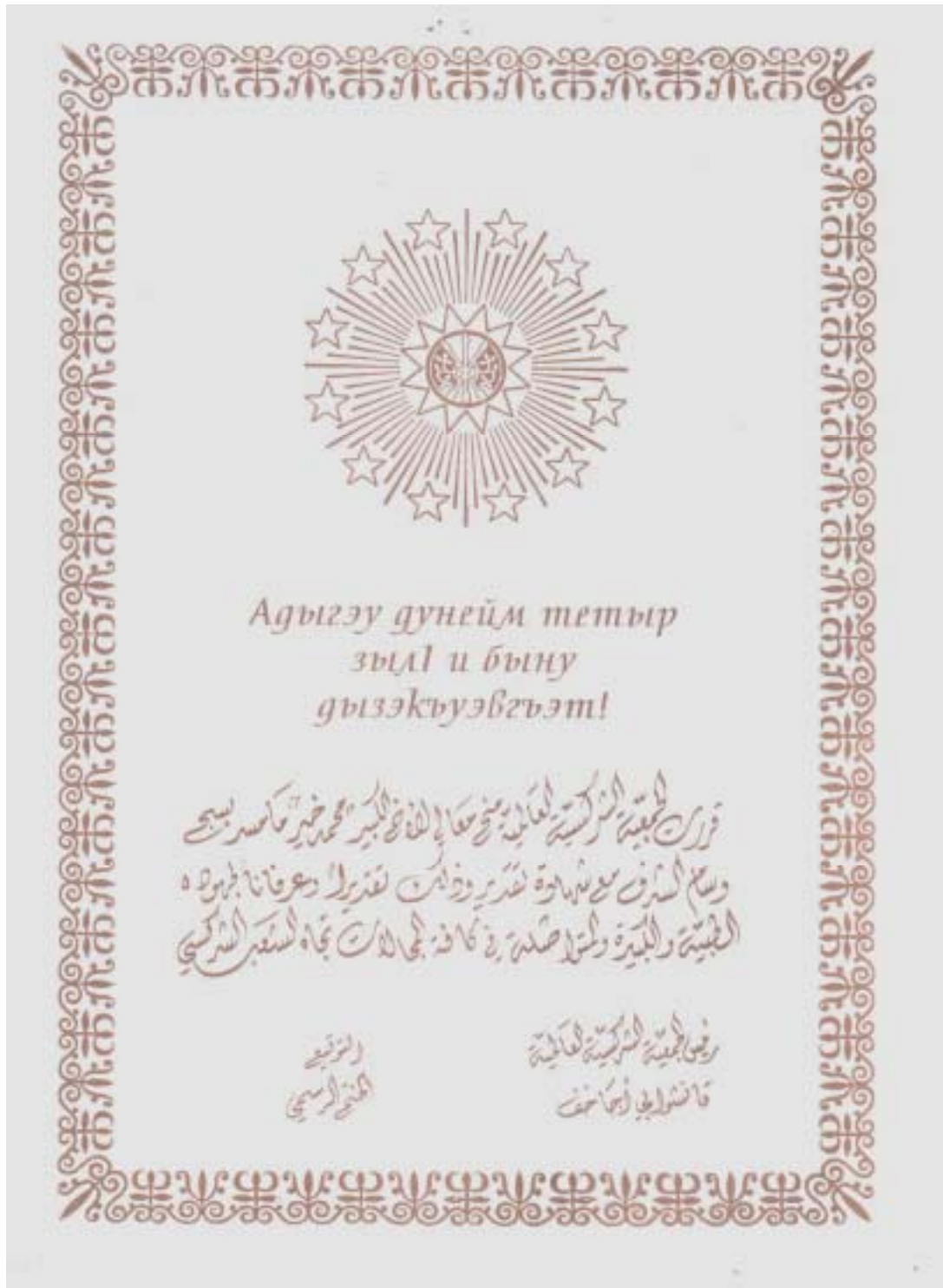
الطبعة الثانية

عام ٢٠١١



بتسج محمد خير مامسر





المجلد الأول
تاريخ الأمة الشركسية
في الوطن الأم منذ فجر التاريخ
وحتى العصر الحديث

فهرس

أجزاء المجلد الأول

الصفحات	الموضوع
8	* مقدمة الطبعة الأولى
9	* مقدمة الطبعة الثانية
12	* مؤلف الموسوعة في سطور
13	الجزء الأول: أصل الشراكسة وموطنهم منذ فجر التاريخ
	الجزء الثاني: الخصائص القومية للأمة الشركسية منذ فجر التاريخ وحتى العصر
87	الحديث
199	الجزء الثالث: الحضارات القديمة للأمة الشركسية منذ فجر التاريخ
	الجزء الرابع: الأبعاد الحضارية التراكمية للأمة الشركسية في الوطن الأم منذ
227	فجر التاريخ وحتى العصر الحديث
	الجزء الخامس: وقائع وأحداث حروب الأمة الشركسية في الوطن الأم منذ فجر
432	التاريخ وحتى العصر الحديث
	الجزء السادس: الشراكسة في الوطن الأم في ظل الحكم الروسي خلال الفترة
568	(١٨٦٤م - ٢٠١١م)
	الجزء السابع: عظماء ومشاهير سياسيين، ومفكرين، وأدباء، وقادة عسكريين
657	للأمة الشركسية في الوطن الأم منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث ..

مقدمة

الطبعة الأولى

التزاماً بالإمانة العلمية من المؤلف، كان لا بد من التحدث عن المراحل التي مر بها منذ أن بدأت الموسوعة ك فكرة في عام ٢٠٠٤م، إلى أن أصبحت حقيقة. وصدرت منتصف عام ٢٠٠٩ في حوالي (٥٠٠٠) صفحة، موزعة على ثماني مجلدات، حيث بدأت الفكرة بعد نقاش حاد بين المؤلف وبين بعض المتحدين في يوم الحدا الوطني الشركسي في عمان بتاريخ ٢١ / ٥ / ٢٠٠٤م، توصل بعدهم إلى فناعة تامة بأننا جميعاً (بمن فيهم المؤلف نفسه) والذين يعتبرون أنفسهم مختصون في تاريخ الأمة الشركسية وقضاياها، نجهل تماماً الوقائع والأحداث الحقيقية عن تاريخهم، ومن هنا بدأت فكرة إعداد موسوعة تاريخية عن الأمة الشركسية بأسلوب علمي وموضوعي.

عرضنا الفكرة على أكثر من باحث من المهتمين بالتاريخ عامة والتاريخ الشركسي خاصة... وكان ردهم بأن إعداد موسوعة يتطلب وجود فريق من المختصين في التاريخ عامة وتاريخ الشراكسة خاصة، وأنه يتعين على شخص أو اثنين أو ثلاثة إعداد مثل هذه الموسوعة.

لم أياس خاصة وأني كنت بدأت بالتفكير الجدي / حالة نفسي على التقاعد من عملي الأكاديمي عند بلوغي سن السبعين... فكانت المرحلة الأولى، حيث بدأنا بجمع أكبر عدد ممكن من المراجع والمصادر، من كتب ومخطوطات، ووثائق، ودراسات، واستطعنا قبل نهاية عام ٢٠٠٤م من جمع أكثر من (٢٠٠٠) مرجع ومصدر منشور باللغات العربية والإنجليزية والروسية والفرنسية والتركية والشركسية، من خلال زيارة كل من المكتبات الوطنية في لندن واسطنبول ونالتش في جمهورية (كبادينا - بلقاريا)، والاسكندرية، ودمشق، إضافة إلى المراجع والمصادر التي جمعناها من المكتبات المحلية المتخصصة في القضايا الشركسية ومن مواقع على شبكة الأنترنت وعددها حوالي (٧٠٠) موقع، كما تم جمع مئات البيانات والوثائق والمخطوطات وأشرطة التسجيل (الفيديو) وأقراص (CD و DVD)، وغيرها من المعلومات ذات العلاقة بتاريخ الأمة الشركسية والتي تم جمعها من خلال اللقاءات الشخصية التي أجريتها مع العشرات من المختصين والمهتمين وكبار السن في كل من: جمهوريات الوطن الأم، وشراكسة بعض جمهوريات روسيا الاتحادية وشراكسة تركيا، والأردن، وفلسطين، والعراق، وليبيا، وألمانيا، وهولندا، وإيطاليا، وفرنسا، وأمريكا، وكندا، وأستراليا.

وفي المرحلة الثانية، التي امتدت من شهر كانون ثاني من عام ٢٠٠٥م، وحتى نهاية شهر كانون أول من نفس العام، قمنا بتصنيف وتبويب المراجع والمصادر التي ضمت كتب، وموسوعات، ومخطوطات، ووثائق بالإضافة إلى الأبحاث والدراسات والتقارير والمطالعات والتحقيقات، المنشورة في مجلات متخصصة، كما قمنا بالاستعانة ببعض المختصين في اللغات الروسية والفرنسية والتركية لترجمة بعض الموضوعات الهامة ذات العلاقة بموضوعات الموسوعة حيث توصلنا إلى حقيقة عدد المراجع والمصادر التي قمنا بجمعها تجاوز (٢٥٠٠) مرجع ومصدر (من غير المصادر والمراجع التي قام المؤلف نفسه بجمعها) وإن هذه المراجع كتبت في أكثر من عشرين لغة (كما هو مبين في الملاحق).

وفي المرحلة الثالثة، تفرغ المؤلف تفرغاً كاملاً لكتابة موضوعات الموسوعة، وهي المرحلة التي استغرقت (٣٣) شهراً وطرد (ألف) يوم تقريباً، بمعدل ثماني ساعات يومياً خلال الفترة من شهر كانون الأول من عام ٢٠٠٥م، إلى نهاية شهر أيار من عام ٢٠٠٨م، حيث تم خلالها طباعة مجلدات الموسوعة طباعة أولية، كما تمت عمليات التصميم والإخراج الفني التي تضمنت عمليات إضافة الأشكال التوضيحية، والخرائط التفسيرية، والمناظر الطبيعية، والصور الشخصية لقيادات سياسية وعسكرية وأدبية وتربوية ودينية، وثقافية وفنية من الوطن الأم ومن شراكسة الشتات في بلاد المهجر.

وفي المرحلة الرابعة والأخيرة التي امتدت لستة أشهر، ابتداءً من شهر حزيران من عام ٢٠٠٨م، حتى نهاية شهر كانون الأول منه، قام المؤلف وبعض المختصين بتفريق شامل للمجلدات الستة للموسوعة للتأكد من ملائمة اللغة، ودقة الصياغة، ووضوح المعنى، كما تم خلالها وضع فهرس مستقل للموضوعات الرئيسية والفرعية لكل مجلد من مجلدات الموسوعة على حدة، حيث تم حمد الله وتوفيقة من الانتهاء من طباعتها طباعة نهائية مطلع عام ٢٠٠٩م، وتم إشهارها يوم ٣١ / ٥ / ٢٠٠٩م.

المؤلف

الدكتور محمد خير مامسر بتسج

مقدمة

الطبعة الثانية

في مثل هذا اليوم من عام ٢٠٠٩ تم إصدار الطبعة الأولى من الموسوعة التاريخية للأمة الشركسية، وقد تم بحمد الله تعالى تسويق أكثر من (ألف مجموعة) تضم ثمانية آلاف مجلد من مجلدات الموسوعة في أقل من سنة، والموسوعة اليوم محفوظة لدى أكثر من ألف عائلة شركسية وغير شركسية موزعة في أنحاء العالم عامة وفي الأردن، والبلدان العربية، وتركيا، وألمانيا وأجلترا وبلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا واليابان وكوريا خاصة، كما أن عدداً كبيراً منها محفوظة في مكتبات أكبر الجامعات والمؤسسات والمراكز العلمية في الدول التي يتواجد فيها شركاسة الشتات وفي الوطن الأم.

واتصل مع المؤلف خلال السنتين السابقتين العشرات بلطات من المسؤولين في المؤسسات العلمية والمثقفين من الشركاسة ومن غير الشركاسة من المهتمين وذوي الاختصاص يطالبون بترجمتها إلى لغات أجنبية عامة وإلى اللغات الشركسية والروسية والتركية والإنجليزية خاصة. وإن أكثر من مؤسسة علمية لديها الاستعداد لترجمتها إن أمكن اختصار عدد مجلداتها.

واليوم ونزولاً عند رغبة تلك الفئات من المثقفين الراغبين في التعرف على تاريخ الأمة الشركسية للشعوب غير الناطقة باللغة العربية فإنه يسعني أن أقدم الطبعة الجديدة للموسوعة... وهي طبعة منقحة ومختصرة عن الطبعة الأولى.

وكذلك فهي طبعة أعدت موضوعاتها بأسلوب قد يسهل على القارئ الأجنبي فهمها واستيعابها.

والله الموفق

المؤلف

الدكتور محمد خير مامسر بتسج

٢٠١١ / ٥ / ٣١

مؤلف

الموسوعة في سطور

احتفظت عائلة المؤلف بالوثيقة (المخطوطة) المرفق صورة عنها مكتوبة بخط يد الإمام جانخو الخزكي إمام مسجد قرية (أبي قواجا) الواقعة في منطقة نهر الترك وعلى بعد ٦٠ كم من مدينة نالتشك حالياً، وهي قرية من قرى القبرطاي التي تأسست عام ١٩٦٤.

تشير بيانات الوثيقة المرفقة التي شهد على صحتها (٤) من شراكسة القرية، بأن أول أجداد باتسج مامسر هو (جوجي) من قبيلة (برخنو) التي كانت تقطن على نهر (شغف). وإبنه ياس، وإبن ياس لوستن، وإبن لوستن كوشوك، وإبن كوشوك مزه، وإبن مزه قيتوقه، وإبن قيتوقه يوسف، وإبن يوسف مامسر، وإبن مامسر عبدالله.

وبالبحث عن تفرعات عائلة (باتسج) منذ القرن التاسع عشر وحتى اليوم، وجدنا بأنها تنفرع إلى ثلاث فروع رئيسية وعلى النحو التالي:

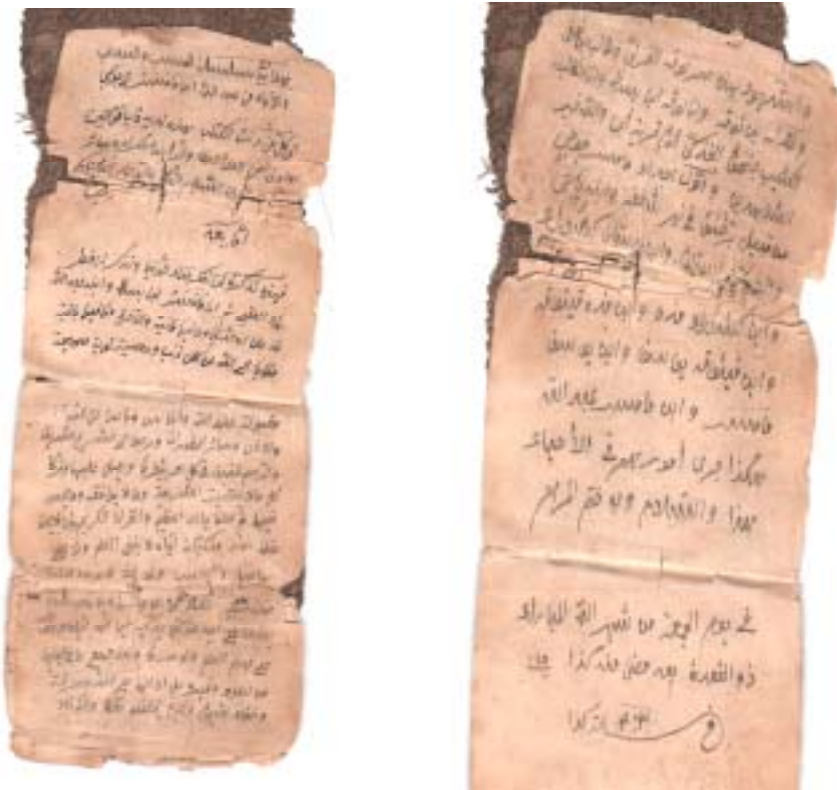
الفرع الأول: عائلة باتسج مامسر، وهاجرت عام ١٩٠٠ ضمن مجموعة كبيرة من عائلات القبرطاي (جلاخستتي) التي هجرها سلطات روسيا القيصرية قسراً إلى الأردن، واستوطنت غربي (خربة عمان) مدينة عمان حالياً، وسمي بحي المهاجرين.

إصطحب باتسج مامسر معه كل من إبنه عبدالله وبرفقته ولديه حاج - بي وعلي، كما إصطحب معه إبنه الثاني سادولة (سعد الله) وبرفقته إبنته حج - كواشة.

الفرع الثاني: عائلة باتسج بشي أبشوقه، وهاجرت إلى سورية ضمن العائلات الشركسية التي هجرتها قسراً سلطات روسيا القيصرية عام ١٨٨٨ واستوطنت في قرية الحميدية قرب دمشق في المرحلة الأولى، ثم إنتقلت للعيش في منطقة حمص أواسط سوريا.

الفرع الثالث: عائلة باتسج بطش، وهو الفرع الذي نجا من التهجير القسري من قبل سلطات روسيا القيصرية، وبدأت حياتها من جديد في منطقة القبردي، وتكونت هذه العائلة من أبناء بطش وهم: حمزة، حنزة، حج مرزة، مدار، ومحمد، وابنتين هما: ناوجن ودغة.

ويعيش اليوم أبناء وأحفاد (باتسج بطش) في كل من (مرتزيه قالة ونارت قالة)، نذكر منهم كل من: المهندس حمشة وأولاده انزور وفاطمة وزارينا وكذلك أبناء وأحفاد باتسج حمزة نذكر منهم كل من: مشه وأولغا وحج ومار وأبنائه المهندس الدكتور حاج بي وبورسبي وقشاهو بي وأمور بي.



وثيقة بخط اليد تتضمن حسب ونسب عائلة باتسج مامسر كتبت عام ١٨٦٤م، وشهد على صحة ما جاء فيها من معلومات أربعة من الشهود الرجال من اهل قرية (أبي قواجا)

مولد المؤلف ونشأته:

ولد المؤلف عام ١٩٣٧ في عمان ووالده هو (باتسج علي) من مواليد (ابي قواجة) في منطقة الترك في بلاد القبرطاي عام ١٨٩٦ ووالدته هي امينة أحمد باترودك من مواليد قرية بئر عجم في الجولان السوري عام ١٩٠٢ وزوجته عصمت عزت قندور من مواليد الأردن / عمان ولهما ولد وابنة هما: نارت وزوجته لارا برسيق من شراكسة الأردن، ولهما ولدان هما: زيد وحمزة، والأبنة هي تمارا وزوجها نارت نالتشك من شراكسة الأردن ولها ولد وابنة هما: كريم وسلمى.

- شقيقه الأكبر هو (محمد شريف) وزوجته رمزية أمين كرف من مواليد قرية بئر عجم في الجولان السورية ولهما ولد واحد وهو (ناورز) وخمس بنات وهن: فاطمة، جانسيت، جانيت، سونيا، سوزان.
 - وشقيقه الثاني هو (أدهم) وزوجته فايضة توفيق قموق من مواليد القنيطرة في الجولان السورية ولهما ولدان هما تامبي وجانتي.
 - وشقيقه الثالث هو (أكرم) وزوجته نهلة شعيب لي من مواليد الأردن - عمان ولهما ثلاثة اولاد هم ينال، مدار، ويلدار وابنة واحدة هي دانا.
- قضى المؤلف السنوات الأولى من طفولته في قرية (مُدارية) على بعد خمسة كيلومترات من مدينة القنيطرة في الجولان السورية وأسمها حالياً العدنانية**.

المؤهلات العلمية للمؤلف:

درس المراحل الابتدائية والاعدادية والثانوية في عمان واستكمل دراساته العليا في كل من الأردن، ومصر، والولايات المتحدة الأمريكية، وحصل على الدرجات العلمية التالية:

- درجة الدكتوراه في فلسفة التربية.
- دبلوم عالي في رعاية الشباب.
- درجة الماجستير في التربية.
- بكالوريوس في تربية الرياضة.
- دبلوم عالي في التربية.

مجالات عمل المؤلف:

أمضى المؤلف نصف قرن من حياته العملية وفي الفترة من ١٩٥٨-٢٠٠٨، في خمس مجالات رئيسية وعلى النحو التالي:

المجال الأول: وهو المجال الأكاديمي، ويشير سجل مسيرته الذاتية بأنه ساهم في إنشاء أربع جامعات رسمية في الأردن وهي الأردنية، واليرموك، والعلوم التكنولوجيا ومؤسسة في جناحيها (المدني والعسكري)، بالإضافة إلى مساهمته في إنشاء جامعتين خاصتين هما جامعة الاسراء الخاصة وجامعة عجلون الوطنية الخاصة.

وتدرج المؤلف في عمله الأكاديمي من محاضر إلى استاذ مساعد، إلى استاذ مشارك، وإلى استاذ منذ عام ١٩٩٢.

كما تدرج في المناصب الإدارية والأكاديمية من: رئيس قسم إلى مدير، وعميد، ونائب رئيس ورئيس بالوكالة ونائب رئيس مجلس أمناء، ورئيس مجلس أمناء (وهو أعلى منصب أكاديمي في نظام التعليم العالي في الأردن).

** سبق أن رحلت عائلة المؤلف إلى الجولان السورية في عقد الثلاثينات وعاشت فيها بضع سنوات ثم عادت للأردن عام ١٩٤٤.

المجال الثاني: وهو المجال السياسي: حيث دخل السلك السياسي في عقدي الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي بتوليه حقيبة وزارة التنمية الاجتماعية في حكومتين متتاليتين، وحقيبة وزارة الشباب والرياضة في حكومة ثالثة، كما سبق أن تولى منصب وكيل وزارة الشباب في مرحلة سابقة، كما شارك في عضوية اللجنة الملكية للميثاق الوطني الأردني ضمن ستون شخصية سياسية أردنية كلفوا من جلالة الملك حسين بن طلال وضع الميثاق الوطني الأردني لعام ١٩٩١، وكان العضو الوحيد في اللجنة من أصل شركسي، ومنح على مشاركاته السياسية أعلى ثلاثة أوسمة رسمية في الأردن.

المجال الثالث: هو مجال الرياضة والشباب في الأردن، شارك المؤلف بفعالية في تأسيس الحركة الرياضية والشبابية في الأردن منذ مطلع عقد الخمسينات من خلال مشاركته كلاعب دولي، ومدرّب منتخب وطني، وحكم دولي لأكثر من رياضة ورئيس لأكثر من اتحاد رياضي، ورئيس للنادي الأهلي ورئيس اللجنة الأولمبية الأردنية (وهي أعلى سلطة في سلم إدارة الرياضة الأهلية في الأردن)، ومنحته اللجنة الأولمبية الدولية وسام وقلادة أولمبية وهو أعلى وسام أولمبي تقديراً لاسهاماته في تطوير الحركة الأولمبية الوطنية وهو الوسام الذي يمنح لشخصية رياضة سياسية من كل قارة مرة كل أربع سنوات.

كما يعتبر المؤلف مؤسس حركة الرياضة الجامعية في الأردن، ابتداء من عام ١٩٦٣ كما يعتبر من المساهمين الأوائل في تأسيس أربعة كليات للتربية الرياضية وعلوم الرياضة في الأردن، وقسمين رياضيين في كل من الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان.

المجال الرابع: هو مجال العمل الاجتماعي الرسمي والتطوعي الأردني:

ساهم المؤلف في إنشاء وتطوير مؤسسات المجتمع المدني الأردني عامة والعمل الاجتماعي التطوعي خاصة، على مدى أربعين عاماً، وكانت أكثر مساهماته في مجال وضع الاستراتيجيات الوطنية من خلال عمله وزيراً للتنمية الاجتماعية في حكومتين متتاليتين وبالأخص الاستراتيجيات الخاصة برعاية وحماية كل من:

- المرأة من الإساءة إليها.
- الأطفال من الإساءة إليهم من الاستغلال من قبل البالغين.
- كبار السن عامة وكبار السن الذين لا راعي لهم خاصة.
- الحد من انتشار المخدرات عامة وبين الشباب خاصة.
- اطفال الشوارع من استغلالهم من قبل الآباء (الفقراء وأسرهم) أو من قبل البالغين الغرباء الذين يجبرون الأطفال لامتھان (الشحادة في الشوارع).

كما كان له دور فاعل في الجمعية الخيرية الشركسية في الأردن في أكثر من مرحلة ومن خلال انتخابه لعضوية مجلس إدارة الجمعية لدورتين، وكذلك من خلال مساهماته في أعمال اللجان الداخلية على مدى أكثر من أربعين عاماً.

المجال الخامس: هو مجال التأليف والبحث العلمي وإجراء الدراسات ذات العلاقة بتاريخ الشراكسة عامة، وشراكسة الشتات خاصة وله أكثر من دراسة علمية منشورة في مجلات جامعية علمية منها مجلة جامعة موسكو العلمية بعنوان: **خصائص المجتمع الشركسي الأردني والتطورات التي طرأت عليها في الفترة (١٨٧٨-٢٠٠٠).**

وأما مساهماته العلمية الكبيرة فتتمثل بإعداده هذه الموسوعة التاريخية للأمة الشركسية التي تتكون من (٨) مجلدات وعدد صفحاتها خمسة آلاف صفحة.

المجلد الأول

الجزء الأول

أصل الشركاء كسة وموطنهم

منذ فجر التاريخ

فهرس فصول الجزء الأول

تاريخ الأمة الشراكسية في الوطن الأم منذ فجر التاريخ

الصفحة	الموضوع
15	الفصل الأول: النظريات والفرضيات التي تبحث في أصل الشراكسية.
	الفصل الثاني: الشعوب والقوميات قوقازية الأصل التي عاشت في شمال
29	القفقاس منذ فجر التاريخ
	الفصل الثالث: شعوب وقبائل الأمة الشراكسية كانت تسكن في
	الوطن الأم منذ القرون الوسطى وحتى نهاية القرن التاسع عشر
42	الميلادي
	الفصل الرابع: الأسماء والألقاب التي عرفت بها الأمة الشراكسية منذ فجر
64	التاريخ وحتى العصر الحديث
	الفصل الخامس: الموطن الأصلي لشعوب وقبائل الأمة الشراكسية منذ فجر
74	التاريخ وحتى العصر الحديث

الفصل الأول

النظريات والفرضيات التي تبحث في أصل الشراكسة

تضاربت آراء المؤرخين واختلفت تفسيرات خبراء دراسة الأقوام، وتعددت الفرضيات والنظريات التي تبحث في (أصل الشراكسة) وفي تحديد من هم اجدادهم، فمنهم من يقول بأنهم من أصل حثي، ومنهم من يؤكد بأنهم من أصل سومري وفئة ثالثة تذهب إلى القول بأن أجداد الشراكسة هم الكميرون أو أن الشراكسة قد قدموا من الجزيرة العربية وأنهم من أصل عربي، و (هيردوت) يميل للقول بأن القوقازيين ذوي البشرة السوداء (الغامقة) هم من أصول مصرية كما اعتقد (سترابون) بأنهم من أصل هندي، لكن بعض المؤرخين الشراكسة ومنهم (اتيك ناموتوك) يميل للقول بأن (الميثوت) هم اجداد الشراكسة، ويعتقد (سمكوغ) بأن أجداد الشراكسة هم قوم (نارت) الذي انحدروا من الشعب الكاسي.

وللتحقق من (أصل الشراكسة) وللتأكد من حقيقة من هم اجداد القدامى الشراكسة، كان لا بد لنا من اجراء دراسة معمقة للتحقق من النظريات والفرضيات التي افترضها الباحثون والدارسون لمسألة (أصل الشراكسة)، مستخدما في هذه الدراسة الأسس والقواعد العلمية منها والانثروبولوجية التي يعتمد عليها خبراء (الأنثوغرافيين) وهم علماء (وصف الأقوام) في تحديد أصل ونسل أي قوم من الأقوام القديمة والحديثة.

وفيما يلي أهم القواعد والأسس المستخدمة في اثبات اصل أي قوم او شعب من شعوب العالم:

- ١- المقاييس البيولوجية والجسمية، ومن أهم هذه المقاييس: شكل الرأس وأبعاده ولون البشرة، والتكوين الجسمي عامة من حيث وجود تطابق أو تماثل في المقاييس البيولوجية والجسمية لقوم آخر.
- ٢- اللغة القومية، مدى وجود تطابق أو تشابه بين لغة أو أكثر من حيث تشابه الاحرف الهجائية في اللفظ والمعنى.
- ٣- الادوات والمعدات، من حيث وجود تشابه بين الالات والادوات التي تستخدم لدى قومين أو شعبين أو أكثر مثل: الادوات المستخدمة في الزراعة والصناعة وكذلك وجود تشابه في المعدات الحربية والاسلحة الشخصية. الخ.
- ٤- الملابس القومية من حيث وجود تشابه بين الملابس القومية لشعبين أو أكثر مع وجود تشابه في مقاييس ومعايير أخرى، فالقوزاق مثلا كانوا يلبسون ملابس هي نفس الملابس القومية للشراكسة، إلا أنهم ليسوا شراكسة.
- ٥- الفلكلور الشعبي، خاصة الموسيقى والرقص من حيث وجود تشابه بين الرقصات والموسيقى الشعبية المستخدمة لدى الشراكسة مع ما هو موجود لدى الشعوب القديمة الأخرى.
- ٦- المعتقدات الدينية من حيث وجود تشابه بين المعتقدات الدينية بين شعبين أو أكثر (الطبيعية منها أو الوثنية) مثل التشابه في أسماء الآلهة، وتطابق في ممارسة الطقوس الدينية المستخدمة في حالات الوفاة مثل طريقة وضع الجسم عند الدفن أو في الاشياء التي تدفن مع المتوفي.
- ٧- الاسماء من حيث وجود تشابه في المصطلحات والاسماء المستخدمة في اللغة او وجود تشابه في أسماء القبائل أو أسماء العائلات أو أسماء الأشخاص والمواقع الجغرافية بين شعبين أو أكثر.

٨- العادات والتقاليد من حيث وجود تشابه بين العادات والتقاليد الشركسية وعادات وتقاليد قوميات أخرى، وبالأخص العادات المتعلقة بالزواج والتربية والعلاقات الاجتماعية مثل احترام الكبير واحترام المرأة واحترام الضيف والكرم والشجاعة.

٩- أماكن السكن من حيث التجاور في مناطق السكن وتواجدهم معاً في نفس المكان لفترات طويلة.

وبتطبيق القواعد والأسس العلمية والانثروبولوجية سألقة الذكر تم التوصل إلى ست نظريات وأربع فرضيات تبحث كل واحدة منها عن أصل الشراكسة الذين عاشوا في القفقاس قبل الألفية الرابعة قبل الميلاد.

النظرية الأولى: وتبحث في الفرضية القائلة بأن الحثيين هم اجداد الشراكسة

يؤكد أصحاب هذه النظرية بأن الشراكسة (الأديغة) هم أحفاد (الهات - هيت) أو الحثيين Hitties فالشراكسة حسب هذه النظرية يعتبرون من الشعوب القديمة كالمصريين والصينيين، ويرجع الفضل في معرفة تاريخ الهاتيين (الحثيين) للعلامة الانجليزي (سايس) الذي حل رموز الكتابات والنقوش التي وجدت في آثار الحثيين الكثيرة بآسيا الصغرى واستدل منها على تاريخهم، ومدينتهم العظيمة، وما كانوا عليه من تقدم ورقي، وقد خدم العلامة (سايس) التاريخ خدمة جليلة لا حد لها بكشفه القناع عن رموز الحثيين وآثارهم.

كما يرجع الفضل أيضاً للعلامة (مورجان) الذي أظهر بعد البحث والتدقيق أن الحثيين هم أجداد الجراكسة وأن باقي الأمم التي كانت ضمن "الاتحاد الامبراطوري لحكومات الحثيين" هم أيضاً اجداد الشعوب الأخرى في القفقاس.^(٩)

كما يؤكد المؤرخ (لونورمانت Lenormant) صراحة أن الحثيين (Les Hittites) أصلهم من القفقاس. كما توصل هؤلاء العلماء بأن عادات وتقاليد الحثيين وملابسهم ولغتهم وتكوينهم الخلقي وأحوالهم الاجتماعية تتشابه وتتطبق تماماً مع ما هو موجود فعلاً لدى الشراكسة^(١٠).

ومن الثابت تاريخياً أن عصر الحثيين الذهبي في القفقاس كان في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وكان أعظم ملوكهم في قفقاسيا الغربية وعلى سواحل البحر الأسود هو (أيتس ae'tes) المشهور بعظمته وجبروته وأمواله الطائلة وهذه الشهرة كانت سبباً في اعلان الحروب عليه طمعاً في ماله كما جاء ذلك في أسطورة (أرجونوت Argonautes) اليونانية.

وبالبحث عن تاريخ الحثيين وجد بأنهم كانوا ينقسمون إلى قسمين رئيسيين هما:

الأول: "هتيت" القفقاس وهم سكان القسم الشمالي من القفقاس.

الثاني: هتيت (قبادوسيا Cappadoca) وهم سكان القسم الجنوبي في آسيا الصغرى، ودام هذا التقسيم لغاية القرن التاسع قبل الميلاد، ثم رحلوا من آسيا بعد انتصارات (الاشوريين) وغيرهم عليهم، وعادوا إلى وطنهم الأصلي في العراق وعاشوا مع مواطنيهم وعشائريهم الأولين، ومن هنا يبدأ تاريخ (الهات تي: Hittites) في القفقاس.

ويؤكد (جونا توقة) في كتابه (تاريخ القوقاز) على وجود أكثر من دليل بأن الحثيين هم أجداد الجراكسة (الأديغة) ومن هذه الدلائل هي:

الدليل الأول: التشابه في شكل الوجوه والتركيب الجسماني للحثيين مع ما تتصف به اجسام الشعوب القفقاسيين الحاليين.

الدليل الثاني: أثبتت الدراسات بأن لغة الحثيين تشبه كثيراً اللغة المستخدمة لدى الجراكسة (الأديغة) حتى يومنا الحاضر (انظر فصل أصل اللغة الشركسية).

الدليل الثالث: التشابه الكبير بين غطاء الرأس (القلب) المصنوع من الفراء، وكذلك تشابه الملابس التي كان يستخدمها الحثيين بالملابس القومية للرجال من الشراكسة (أديغة فاشه) المؤلفة من الجاكيت

الطويل (تسيه) والمعطف الطويل (شاكوه) والخنجر (القاما).. الخ وهي نفس الملابس التي يلبسها (الجراسكة - الأديغة) حتى يومنا الحاضر.

الدليل الرابع: ترك جزء طويل من شعر الرأس (وحلق باقي الشعر) عند الحثيين وهي عادة كانت منتشرة عند قدماء الشراكسة والهدف هو التعرف على موتاهم في ساحة المعركة، خوفاً من تمثيل الأعداء بهم وكذلك وجود تشابه بين الأسلحة المستخدمة لدى الشراكسة وهي الرمح والقاما والخنجر مع ما كان يستخدمه الحثيون.

الدليل الخامس: العثور على آثار للأصنام التي كان يعبدها الحثيون خصوصاً الصنم المسمى (ابسطارطة) في جبال القفقاس وفي مدائن (الكوبان) في بلاد القبرطاي.

الدليل السادس: يلاحظ أن الشارات والعلامات التي كان يدمغ بها أمراء الجراسكة وأحرارهم من الورق لغاية يومنا هذا على أدواتهم المنزلية وأسلحتهم المختلفة وسروج الخيل والوسط (القامش) والتي اصطلاحوا على تسميتها (دامغة) ما هي إلا بعض العلامات والأشكال المقتبسة من اللغة (الهيروغليفية الحثية).

الدليل السابع: وجود تشابه بين الأسماء التي كان يستخدمها الحثيون، والأسماء المستخدمة لدى قدماء الشراكسة. منها على سبيل المثال اسم الملك (ماؤو - زر) ومعناه الملك ماؤو الأول وأيضاً (ماؤو - طور) وكلمة "طو" معناها (الثاني) فيكون اسمه الملك (ماؤو الثاني). وكذلك فإن أسماء الجراسكة الشائعة الاستعمال ليومنا هذا (ماو - داو - تاو) وكل هذه الأسماء وما شابهها من أسماء كان يستخدمها الحثيون أيضاً.

الدليل الثامن: العثور ضمن منظومة أسماء القبائل الحثية التي اتحدت في حروبها ضد قدماء المصريين (الفراعنة) على أسماء قبائل تعيش في آسيا الصغرى ويقطنون ساحل البحر الأسود في القفقاس شبيهة بأسماء قبائل الحثيين القدماء.

الدليل التاسع: استخدم الحثيون بيوتاً متقلة على عجالات تجرها خيول أو ثيران وهي تشبه البيوت التي كان يستخدمها الشراكسة حتى عام ١٨٧٠ (١١).

الدليل العاشر: استوطن الحثيون في شمال الاناضول بالقرب من موطن الشراكسة (الأديغة) وهذا يعني أنهم جاؤوا الشراكسة واختلطوا معهم بل أنهم سكنوا لفترة من الزمن في بعض مناطقهم.

الدليل الحادي عشر: وجود تشابه في بناء المساكن لدى كل من الحثيين وقدماء الشراكسة وهي القائمة على (الزاوية) مع وضع دعائم لسند الجدران بالأغصان المتشابكة والاعمدة الخشبية وهي التي وردت عنها في قصص أساطير (قوم نارت) منها النص التالي: "يسكن قوم (النارت) في بيوت ذات جدران مائلة يسندها العديد من الدعائم دوماً" وهذا ما أكدته مؤلف (تاريخ العالم) حيث قال بأن الحثيين كانوا يستخدمون نفس الأسلوب المستخدم لدى (النارتيين) في شكل وأسلوب بناء المنازل القائمة على (الزاوية) والدعائم المساندة للجدران والأغصان المتشابكة^(١٨).

الدليل الثاني عشر: وجود تشابه في أسلوب تغطية القبور بأكوام من التراب، وكلما كان المتوفى ذا مكانة عالية أو شخص عزيز جداً كانت (كومة التراب) أكبر وأعلى وقد تصل بعضها إلى شكل تلال مرتفعة وهي عادة كانت منتشرة لدى قوم (النارتيين) كما أن (كورغوتان) مايكوب وهو نفس الأسلوب الذي كان يستخدمه الحثيون أيضاً.

نستنتج من كل ما تقدم من أدلة بأن الشراكسة قد يعود منشأهم إلى الحثيين الذين عاشوا في بلاد القفقاس قبل (١٥) قرناً قبل الميلاد، وأن من بقي منهم في بلاد القفقاس بعد رحيل ملوكهم في القرن التاسع قبل الميلاد وعودتهم إلى بلادهم الأصلية (بلاد الرافدين) في العراق. ربما كانوا هم أجداد الشراكسة.

كما نستنتج أيضاً بأن العلاقة بين الحثيين وأجداد الشراكسة كانت علاقة قوية جداً، وأن قدماء الشراكسة تأثروا بالحضارة الحثية.

إلا إننا نرجح بأنهم ليسوا فعلاً هم أجداد الشركاسة لعدة أسباب. أولها: تواجد الشركاسة في بلاد القفقاس قبل مجيء الحثيين بزمان بعيد، وأن وجودهم سابق لوجود الحثيين في القفقاس، والسبب الثاني: هو بقاء الشركاسة في القفقاس وعدم رحيلهم مع الحثيين عندما رحلوا عنها في القرن التاسع قبل الميلاد.

وبعد كل ما تقدم فإنني أرجح الرأي القائل بأن:

- (١) بعض القبائل الشركسية ربما تكون من بقايا الحثيين مثل قبيلة (حاتوقي) ومعناها (ابن حات) علماً أن (حات) كان اسماً من أسماء الحثيين القديمة كما سبق ذكره.
- (٢) تأثر الشركاسة بالحثيين كما أن الشركاسة كان لهم تأثير على الحثيين في بعض العادات واللغة والأسماء القديمة... الخ.

النظرية الثانية: وتبحث في الفرضية القائلة بأن الكيمريين هم أجداد الشركاسة

يشير بعض المؤرخين اليونانيون بأن (الكيمريين) عاشوا على ساحل البحر الأسود وغربيها والقفقاسيين من أجداد الشركاسة عاشوا أيضاً ما بين البحر الأسود وبحر الخزر في الألف الرابع والثالث ما قبل الميلاد وأسسوا فيها دولة عظيمة.

وورد اسم (الكيمريين) في اللغة اليونانية والرومانية القديمة بأسماء مختلفة مثل (كيمري - غومري - شومري - سومري - سيمري) وغيرها

وبالبحث في تاريخ الكيمريين وجد بأنهم كانوا يسكنون في مواقع ثلاثة وهي:

- موقع (أوننيته) على نهر ألبه في الغرب.
- موقع (فاتيانوفو) في أعالي نهر الفولغا.
- موقع حوض نهر الكوبان في القفقاس.

كما ورد في الأثر القديم بالتوراة أن العرق الأبيض هو من نسل (يافث بن نوح) وإن اختلف العلماء الكتابيون أو اليافثيون في كثير من تفاصيل كيفية نشوء وانتشار هذا النسل، ولكن الذي لا خلاف عليه هو أن (يافث بن نوح) أعقبه ابنه (غومر) وأعقب هذا ابنه (تورغوم) ثم ابنه (يتراس) والتوراة تشير إلى أن الموطن الأصلي لنسل (يافث) كان في بلاد الأناضول والقفقاس، وعلى ذلك (فالكيمريون) أخذوا هذا الاسم عن (غومر) وأنهم في الحقيقة من سكان القفقاس الأوائل وأن العلماء يسمون اليافثيين (كاسيون) و (الإرتيون) وقد ذهب كثير من المؤرخين إلى أن الكيمريين والكيركاسيين هم أخوة أو أنهم أبناء عم^(١٢).

كما أثبتت الاكتشافات الأثرية أن الكيمريين كانوا يشغلون (القفقاس الشمالي) وشبه جزيرة القرم وشمال البحر الأسود وحوض نهر الدون في الوقت الذي أنشأ فيه اليونانيون مستعمرات لهم في تلك المناطق.

ومن الأدلة التي يستند عليها أصحاب هذه النظرية بأن (الكيمريين) هم أجداد الشركاسة هي الدلائل المادية التالية:

الدليل الأول: وجود قبيلة جركسية من الادبغة في قفقاسيا وتسمى (كيمر كوي) ويلفظها الأبراخ منهم (جمكوي) وكذلك وجود موقع (كيمر كوي) على الساحل الجنوبي لبحر أزور، كما توجد في الداغستان قرية اسمها (كيمري) أو (غمري) وهي مسقط رأس الامام شامل.

الدليل الثاني: إن كلمة (أنت) التي وردت في تواريخ اليونان كاسم لقبيلة من قبائل الدولة الكيمرية لا تزال تعيش في حوض نهر الكوبان وفي الداغستان بنفس المدلول.

الدليل الثالث: ورد اسم قبائل (تور - توريت) بين سكان الأوائل من شعب الميئوت في القرم وهي نفس الأسماء الموجودة حالياً بين العائلات الشركسية، كما يوجد ساحل اسمه ساحل (تورا).

الدليل الرابع: إذا تتبعنا ما وصل إليه علماء (الأنسال) في أبحاثهم الأخيرة، وخاصة العالم الروسي (بانتيووف) ^(١٣) يتضح لنا أن الشراكسة الذين سكنوا من قديم الزمان على سواحل بحر آزوف الشرقية وسواحل البحر الأسود وحوض نهر كوبان، ينتسبون أصلاً إلى (الكيريين).

كما أكد (مورجان) بأن الكيريين حاربوا (الأسكيت) القادمين من آسيا حوالي القرن السابع قبل الميلاد في مناطق شمال قفقاسيا الغربية وفي سواحل بحر آزوف الشرقية، ويؤيد هذا الرأي ما جاء في آثار الآشوريين أيضاً الذين وجدوا قبل ظهور التوراة التي أكدت بأنهم هم (الكيريين) ^(١٤). وكذلك بأن المؤرخ (ماسبرو) يؤكد بأن الآشوريين كانوا يسمون جبال القفقاس في عهد السارغينيين بالجبال (الكيرية).

واستناداً على ما تقدم فإن أصحاب هذه النظرية يؤكدون بأن الكيريين يمكن أن يكونوا هم أجداد الشراكسة ^(١٥).

نستنتج مما تقدم بأن (الكيريين) عاشوا فترة من الزمن مع الشراكسة في القفقاس وأن أصلهم من نسل (يافث بن نوح) إلا أنه من غير المرجح بأنهم هم أجداد الشراكسة لأن وجود الشراكسة في القفقاس سابق لوجود شعب الكيريين والأرجح بأن قبيلة من قبائل الشراكسة وتسمى قبيلة (الجمكوى - كمير كوى) هم من بقايا شعب الكيريين.

النظرية الثالثة: وتبحث في الفرضية القائلة بأن الشراكسة هم من السلالة الأرية

يرجح أصحاب هذه النظرية بأن الشراكسة يعودون في أصلهم إلى السلالة (الأرية)، وأنهم أوروبيو الجنس وأنهم (والشعوب الأوروبية) من سلالة واحدة وهي Indo - Europeenes .

ووفقاً لأصحاب هذه النظرية فإن سكان قفقاسيا الأصليين هم من السلالة الأرية، مثلهم مثل سكان أوروبا الأقدمين، وأن جميع هذه السلالات تعود بنسبهم إلى أبناء (يافث بن نوح) عليه السلام والدليل الأساسي الذي يستند إليه أصحاب هذه النظرية هو تطبيق القواعد العلمية التي وضعها علماء الاجناس للحكم على (نسب الإنسان وجنسه وعرقه وبنيتة) مثل قياس حجم الجمجمة وأبعاد الجسم، وكذلك التعرف على لون العيون والشعر والبشرة، حيث تبين من تطبيق هذه القواعد العلمية بأن الشراكسة هم من السلالة (الأرية) وليسوا من السلالة الطورانية وأنهم لا يعتبرون ضمن مجموعات نسل (الكيريين القدماء) الذين ينحدرون من سلالة الكلث أو (السلت) والاسكيت وانما ينتسبون للسلالة الأرية التي ينتسب إليها سكان أوروبا الأقدمون.

ومن المرجح حسب رأي بعض المختصين في علم الاجناس بأن الشراكسة من قبائل الشابسوغ والحاتقول والنتخوج هم أكثر قبائل الشراكسة التي تشابهت مقاييس بنائهم الجسمي ولون العيون والبشرة والشعر مع مقاييسها وصفاتها لدى الأريين. الأمر الذي يرجح ان تكون هذه القبائل من نسل (هند اوروبي) (Indo - Europeene).

نستنتج من هذه النظرية ترجيحاً مفاده بأن بعض قبائل الشراكسة هم من نسل الجنس هندي اوروبي وهي فرضية مقبولة علمياً لأن الشراكسة هم من العرق الأبيض الذي يمتد وجوده إلى أوروبا وآسيا وهو العرق المعروف بالعرق القوقازي لكن يستبعد ان يكون الأريون هم أجداد الشراكسة لأنهم لم يسبق أن استوطنوا في بلاد الشراكسة والعكس هو الصحيح، فإن اقواماً منحدرة من سلالات قفقاسية هاجرت إلى أوروبا في عصور ما قبل الميلاد وما بعده واستوطنت في أكثر من منطقة في أوروبا خاصة في الشمال منها، حيث ثبت للمؤرخين بأن الحضارات الأوروبية القديمة بنيت من قبل شعوب أخرى عاشت في أوروبا قبل مجيء العرق الأري إليه. وأن علماء الآثار عثروا على سلسلة من الآثار تعود للعصور الحجرية المختلفة وفي مناطق القفقاس والقرم وشمال البحر الأسود وصولاً إلى غربي أوروبا وبالتحديد إلى إيرلندا وإيسلندا. كما أكد المؤرخون بأن شعوباً قفقاسية سبق لها أن هاجرت إلى أوروبا وسكنت فيها ومن أهم هذه الشعوب هي:

١) شعب الأتروسك (التوسكانيين) الذين استوطنوا في إيطاليا وشكلوا مدناً زاهرة قبل حكم الرومان وهم من السلالة القفقاسية.

٢) شعب الباسك وهو من نسل (اتروسك) أيضا هاجر إلى القفقاس واتجه إلى أوروبا وسكن في جبال البيرنة ما بين فرنسا وإسبانيا والمعتقد بأنهم هم من أجداد الابخاز وأن لغتهم أقرب ما تكون للغة الباسغ الابخازية.

٣) شعب هيرتسل، ويعيش في بلاد المجر، ويمتازون عن الشعوب التي جاورتهم من الأقوام السلافية، واثبت علماء الاجناس بأنهم من السلالة القفقاسية أيضا.

٤) شعب (أ - خه - ي) وهو شعب رحل إلى بلاد آسيا الصغرى في عصر الفرسان ومنهم أيضا شعب (اشه) المذكور في تاريخ (الدروي) كما اورد كل من هيردوت وسترابون اسم (اخه) ضمن القبائل الشركسية في القفقاس وهم سكان بحر (أ. خه - ي) اليونانية.

٥) شعب الآتيكة الذي يعيش في المناطق التي تحمل اسم القبيلة نفسها في اليونان تتشابه مع الاسم القومي للشراكسة وهو (اديكه) وهو اسم محرف عن كلمة (اديغة)^(١٩).

نستنتج مما تقدم وجود رابطة عرقية قومية بين القوقازيين الأصليين وبين بعض الشعوب الأوروبية القديمة وأن هذه الرابطة حدثت بحكم هجرة بعض القبائل القوقازية إلى أوروبا.

النظرية الرابعة: وتبحث في الفرضية القائلة بأن اجداد الشراكسة هم الشعب الكاسي

يؤكد أصحاب هذه النظرية ومنهم المؤرخ العربي (ابن خلدون) بأن أجداد الشراكسة هم الشعب (الكاسي) ويستندون في نظريتهم على بعض الحقائق التاريخية نذكر منها الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: عاش شعب (كاس أو كيركاس) في شمال القفقاس على الساحل الغربي لبحر الخزر، وعلى ذلك فالغربيون يسمون بحر الخزر أو بحر قزوين بالبحر (الكاسي). كما جاء في كتب التاريخ العربي القديم ومنها مقدمة (ابن خلدون) عن وجود أربع قبائل في القفقاس أسماؤها (أركس / تركس / كسا / أس) وهي قبائل تعد من أصول شعب كاس.

الحقيقة الثانية: يؤكد المؤرخون بأن (الكاسيين) هم من الأرييين الذين شكلوا فيها الحكومة (الكاسية) في القسم الشمالي الغربي للفقاس في القرن الخامس قبل الميلاد.

الحقيقة الثالثة: توصل (آبه - زاو)^(١٩) في بحثه حول منشأ ومهد شعب (كاس) بأن هذا الاسم يدخل حالياً في أسماء قفقاسية عديدة منها:

١- قفقاس: ويلفظ هذا الاسم، وغيره، بأشكال مختلفة حسب الأقوام التي تنطق بها فيقال: (قفقاس - أو كافكاس - أو كاوكاز - أو قاقاز) وما شابه ذلك، وعلى كل فإن هذا الاسم مكون من مقطعين هما:

الأول: كاف والثاني كاس.

و (كاف) هو اسم جبل عال في قفقاسيا الشمالية ويلفظ احيانا بجبل (القاف). (وكاس) هو اسم شعب (كاس).

وبربط (القاف مع الكاس) يصبح معناه بلاد (كاف - كاس) أي بلاد جبل الكاسيين وأحيانا يلفظ بالقاف - فيصبح قاف قاس.

٢- وجود قبائل تحمل اسم كاسك = (قازبك) في أعلى جبال القفقاس.

٣- يوجد بين الشعوب القديمة والحديثة في القفقاس قبائل تحمل أسماء (سيركاس - سيراكس - جيركاس - جركس) وكلها تحمل مقطع (كاس).

٤- يوجد بين أسماء العائلات والأفراد الشركسية أسماء كثيرة لا تزال قيد الاستعمال مثل: (كاسوق - كسي - كاسيولات - قاسبي - القاس) وغيرها وكلها تحمل مقطع (كاس) والذي يلفظ بالشركسية (قاس) وما يجلب انتباهنا من بين الأسماء التي أوردناها الأسماء الثلاثة التالية:

٥- كيركاس: وهو اللفظ (الغربي) الذي يطلق على (الجراسكة) من قبل الأوربيين. وإذا علمنا أن مقطع (كير..) يعني باللغة اللاتينية (حقيقي) كما أنه يعني باليونانية (سيد) فإنه يتبين لنا أن معنى هذه الكلمة هو (الكاس الحقيقي) أو (سيد الكاس).

٦- كاسبي: وكان اسماً لشعب تاريخي قديم يعيش بجوار بحر الخزر، وإذا علمنا أن مقطع (بي) في اللغة (الكرجية) ما هو إلا أداة نسبة، يكون معنى هذه الكلمة هو (الكاسيون).

٧- كاساك / قازاق - هم الأوكرانيون: ومقطع (أك) في اللغة السلافية الروسية هي أداة نسبة وربما كان (كاساك) هم (الكاسيون)، ومعلوم أن المواطن الأولى للقوزاق كانت في حوض نهر الدون شمال القفقاس، وعليه ربما كانوا في الأصل قفقاسيون وارتحلوا إلى الشمال الغربي منذ القديم (إلا أن لغتهم هي سلافية). علماً بأن القوزاق لا يزالون إلى اليوم يقلدون الجراسكة إلى حد كبير في ملابسهم وأسلحتهم ولوازم خيلهم وفروسياتهم وفي كثير من مظاهر حياتهم. وهم ليسوا من (الروس السلافيين) ولكنهم كانوا مسيحيين، فلما أعلنت روسيا الحرب على بلاد الشراكسة استغلهم أبشع استغلال واستخدمهم في محاربة الشراكسة مستغلين النعرة الدينية عندهم وتقديرهم وعود كبيرة بالاستقلال وإنشاء وطن لهم في الأراضي المحتلة من بلاد الشراكسة.

وبناء على ما تقدم من الإيضاحات، لا شك بأن العلاقة وثيقة جداً بين (الكاسيين) وشعوب القفقاس وأن (الكيركاس) هم من سكان القفقاس حقيقة ثابتة بلا شك، وهكذا نكون قد اهتدينا إلى أسباب إطلاق المؤرخين اسم (الكاسيون) على العرق الأبيض الغربي، وإلى الموطن الأصلي لشعب (الكاس) الذي نحن بصدد البحث عن علاقتهم مع الشراكسة.

نستنتج مما تقدم بأن العلاقة بين الشعب الكاسي والشعوب القوقازية عامة والشركسية خاصة علاقة ثابتة وأنه من الأكثر ترجيحاً بأن اجداد الشراكسة وأجداد الكاسيين واحد وأنهم من نفس النسل والعرق وهو العرق الأبيض القوقازي الذي يعود نسبهم إلى احفاد يافث بن نوح عليه السلام.

النظرية الخامسة: وتبحث في الفرضية القائلة بأن الشراكسة والسومريين هم من نسل واحد

يرجح أصحاب هذه النظرية وجود صلة قرابة بين قدامى الشراكسة والسومريين، مما جعل العديد من المؤرخين ينسبونهم أصلاً إلى القفقاس، ويستندون في نظريتهم هذه إلى الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: دلت الآثار المكتشفة في منطقة (مايكوب) وهي (عاصمة جمهورية الأديغة حالياً) بأن اسم (سومر - شومر - غومر) هو اسم الشعب القفقاسي الكيمري القديم.

الحقيقة الثانية: ورد في كتب التاريخ القديم للوطن العربي بأن: السومريين قدموا إلى العراق من بلاد القوقاز وهضبة أرمينيا وأخذوا يستوطنون تدريجياً جنوب العراق وعملوا في الزراعة التي نبغوا فيها. كما ورد في كتاب (التاريخ والحضارة في الأزمنة الغابرة)^(٢١) بأن السومريين كانوا يستوردون النحاس من القفقاس، والفضة من طوروس، وكانوا يسمونها جبال (الفضة) كما جاء في كتاب (العصور القديمة) أن الجبليين الذي أقاموا شرقي وشمال وادي الفرات، لم يكونوا ساميين، ولا علاقة تربطهم بالقبائل الرحل السامية التي كانت تقيم في بادية العرب، ويتعذر أن نجد لهم أية صلة بالأجناس الأخرى التي نعرفها، وكل ما لدينا عنهم من أخبار بأنهم كانوا (حليقي الرؤوس) ولبسوا (تنورات) من الصوف الخشن، وكانوا يستعملون الأدوات الحجرية، ومر بعضهم من مضائق الجبال الشرقية، وقاموا بتجفيف الأراضي في جوار مصبي الرافدين، وجعلوها صالحة للزراعة، وانتشرت مساكنهم المبنية من (الطين) شمالاً على ضفاف نهر الفرات، في الفترة ما قبل (٣٠٠٠ ق. م.)^(٢٢)

ويؤكد المؤرخون بأن هؤلاء الجبليين كانوا بلا شك من (الجنس الأبيض) وهم أقرب ما يكون إلى الجنس (الهندي الأوروبي) الذي كان قد انتشر في البلاد الواقعة إلى الشمال والشرق من بحر قزوين في بلاد القفقاس منذ زمن قديم جداً، واستولوا تدريجياً على سهل (شنعار) فدعيت المنطقة التي استولى عليها (سومر) وكانت الزعامة والقيادة بيد السومريين، ويتسلطون على (الأكديين) الذين

كانوا أقل حضارة منهم وأقرب إلى البداوة، خاصة وأن القبائل البدوية السامية كانت ترتاد بلادهم للإقامة فيها.

الحقيقة الثالثة: تدل اللوحة الذهبية من الآثار المكتشفة في منطقة (مايكوب) والتي يمثل رسماً (لنهرين) ينبعان من سلسلة جبلية ويصبان في موقعين متقاربين في البحر، حيث تم تفسير ذلك على النحو التالي:

١- النهران يمثلان نهري (دجلة والفرات)، وكنا يصبان في البحر في العصور القديمة في مصبين مختلفين حتى عام (٣٥٠٠ ق.م).

٢- السلسلة الجبلية المرسومة على اللوحة المذكورة ما هي إلا سلسلة جبال القفقاس (آبه زاو).

الحقيقة الرابعة: وجود تشابه كبير بين اللغة الشركسية واللغة السومرية في المعنى واللفظ، كما نستدل عليها من ألواح سومر (الإثني عشر) وكذلك من قاموس (لابات) الذي تضمن كلمات باللغة الشركسية ومرادفاتها باللغة السومرية (انظر النظرية التي تبحث في أصل اللغة الشركسية) ونقتبس من هذا القاموس بعض الكلمات الشركسية ومرادفاتها باللغة السومرية والعربية وهي:

الكلمة بالعربية	المعنى بالشركسية	المعنى بالسومرية
طبيب	أزه	A-2A
يد	أ	A
خنزير	قوه	Ku
جثمان الميت	حده	Ada
كبير	ين	En

الحقيقة الخامسة: تم اكتشاف آثار قديمة تعود إلى ما قبل (٣٥٠٠ ق.م) في بلاد الرافدين (العراق) تضم خنجراً مستقيماً (قاما شركسية) وعلى قبضته زخرفة من الذهب والأحجار الكريمة متفنن بشكل بدیع وهو يشبه (القاما) المكتشفة في آثار (مايكوب) في حوض نهر الكوبان في بلاد الشراكسة في القفقاس^(٢٣).

تلك هي بعض الحقائق العلمية التي توصل إليها أصحاب هذه النظرية وهي حقائق تدل على وجود علاقة قوية بين الشراكسة والسومريين وأنهم من نسل واحد وأن جدهم واحد. إلا أن هذا لا يعني أن الشراكسة هم السومريون، وأنهم ينحدرون من نسل واحد وعرق مشترك وهو العرق القفقاسي الأبيض.

تلك هي أهم النظريات التي تبحث في أصل الشراكسة وفي نسبهم ونسلهم والاقوام التي انحدر منها قدماء الشراكسة واجدادهم.

اما الفرضيات التي افترضها أكثر من مؤرخ من المؤرخين القدماء اليونانيين والعرب حول اصل قدامى الشراكسة ونسبهم هي الفرضيات التالية:

الفرضية الأولى: وهي الفرضية القائمة على الرأي القائل بأن الشراكسة من سلالة (بني قريش العربية) يستندون في فرضيتهم هذه على الوقائع المنقولة من (نوح المرتوقي الجركسي القفقاسي) في كتابه (نور المقابس في تواريخ الجراكس)^(٢٤) وملخص الواقعة التي استند عليها المرتوقي هي:

حدث بأن قبيلة تدعى (بني عامر) واميرهم يقال له (كساء) اسمه (ابن عكرمة بن عمرو بن ود العامري) وحدث أثناء لعبه في فرح، فطاحت (جريدة) وقيل (قصبة) من يد الأمير (كساء) فأصابت عين أحد العربان ويدعى (فهيد) ففقدت عينه فاشتكى إلى أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) فأراد أن يقتص منه لخصمه شرعاً. فسأل عنه أمير المؤمنين فقيل له (سرى) وقيل (جرى) أي هرب ووصل إلى أرض الروم طلباً للنجاة بنفسه فسمي من ذلك اليوم (جرى كساء) واجتمع عليه خلق كثير من بني عمه وأقاربه ولحقوا به وانتقلوا من أرض إلى أرض حتى جاوز بأهله بلاداً كثيرة، وكان عدد قبيلته زهاء (ثلاثين الفا) وكان كل من عارضه من أرض الروم

يحاربه ويقتله حتى خافه الناس، وبلغ ذلك الملك (قسطنطين) فأعطاه أماناً سمح له بأن يجتاز الخليج القسطنطيني ويتخير من الأرض ما يريد فتجاوزها بأهله حتى وصل بلاداً تعرف قديماً بأرض (النيارق) من أرض (البلغار) كانت تعيش فيها عدة طوائف. فحاربهم وتغلب عليهم واستوطن بلادهم، وهي التي تعرف الآن بأرض الجراكسة.

والخلاصة بأن (الأمير كساء) عرف بين القبائل العربية بخروجه عن طاعة الخليفة وأنه (سرى ليل) خوفاً على نفسه من القصاص، فأضيف إلى اسمه لفظة (سرى) وبتركيب الكلمتين تصبح (سرى كسا) وبعضهم سماه (جرى كسا) ونحو ذلك، وانسحب ذلك الحكم على نسله وعقبه وأصبحوا من سكان القفقاس واندمجوا مع السكان الأصليين. وسموا (جرا - كسا) نسبة إلى الكنية التي يحملها الأمير (كساء).

ويذهب أصحاب هذه الفرضية إلى احتمال مفاده بأن قسماً كبيراً من قبيلة الأمير (كسا بن عكرمة) رجعوا إلى بلاد (الإسلام) فمنهم من عاد ظاهراً إلى مصر وعرفوا (كأشراف بني عامر) بأرض مصر، حيث سكنوا الجهة القبلية منها، ومنهم من عاد متخفياً منفرداً (كالسلطان الملك الظاهر برقوق بن أنص الجركسي) مؤسس (دولة الجراكسة البرجية) في مصر فإنه كان مملوكاً للسلطان الملك (المنصور على بني الأشرف شعبان) وهو الملك الثالث والعشرون من ملوك أكراد الأيوبيه (بديار مصر) وكان (برقوق بن أنص) هذا شاباً حسناً جميلاً قدم إلى قسطنطينية الكبرى مهاجراً بصحبة بعض المسافرين فانقض عليهم اللصوص فقتلوا جماعته وأسروه وباعوه وأتوا به مصر. وفي يوم من الأيام حدث أن تخاصم مع بعض (أمراء الأمويين) قبل أن تتولى الحكم بالديار المصرية، وعابره بأنه (عبد مملوك) فغضب وبحث عن أصله واثبات نسبه بأنه (برقوق بن أنص بن تمر بن قان بن جهانكير بن رستم بن جهان شاه بن يهبر نفاق بن ازبك بن اينال بن ترخان شاه بن عكرمة ابن عمرو بن ود العامري سيد بني عامر) وهو من عظماء قریش واثبت ذلك بأنه ليس (عبدًا مملوكًا) وإنما قبض عليه اللصوص فأسروه وباعوه كالعبيد وتمكن من اثبات نسبه بعد أن أرسل إلى مسقط رأسه في القفقاس وأحضر منها سجلاً قديماً مؤرخاً فيه ذكر أصله وحسبه ونسبه واتصاله بنسب للأمير (كسا العامري القرشي). ولا شك بأنها قصة أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع والحقيقة.

وأما القصة الحقيقية (للسلطان برقوق) التي نقلها الإمام الصفدي بقوله: "أن برقوقاً كان صغيراً لم يبلغ الحلم فأغار عليه بعض (البلغار) من اللصوص وباعوه فجلب إلى (قسطنطينية العظمى) فاشتره طشتمر المعروف بالصاحب وأحضره إلى ديار حلب ثم إلى الشام ثم إلى الديار المصرية فاشتره (الملك المنصور علي بن شعبان) ودرّجه في المناصب حتى آلت إليه الرئاسة وأفضت إليه السلطنة فجلس على سرير المملكة بالديار المصرية".

ونستدل من هذه الفرضية بأن عدداً كبيراً من قبيلة بني عامر سكنوا بلاد الشركس وانهم اختلطوا معهم وأنهم انصهروا على مر الزمان مع السكان الأصليين الشراكسة إلا أن هذا لا يدل بأن أصل الشراكس يعود إلى بني قریش، وأنهم من عرب الساميين. وهي فرضية ضعيفة جداً لأكثر من سبب منها بأن الشراكسة مستوطنين في بلاد القفقاس قبل (التاريخ الافتراضي) لمجيء (كسا) بالآلاف السنين.

الفرضية الثانية: وهي الفرضية القائمة على الرأي القائل بأن الشراكسة يمتدون في أصلهم إلى (قدماء المصريين)، ومن أصحاب هذه النظرية المؤرخ (هيروdot) ^(٢٨) الذي توصل إلى هذه الفرضية عندما كان يجول ببلاد (الكولخيد) في الداغستان، حيث وجد بين أهالي تلك البلاد عامة وفي القفقاس نفسها خاصة، بعض السكان من (سود الوجوه) فتحرير (هيروdot) من ذلك ودهش، فعمد إلى البحث والتدقيق عنها حتى علم أن هؤلاء (السممر) يمتد أصلهم إلى قدماء المصريين. بالإضافة إلى دليل ثانٍ هو وجود عادة (الختان) بينهم إذ من الثابت أن عادة الختان تعلمها أهل القفقاس من (المصريين) الذين كانوا يختنون منذ القدم، والدليل الثالث أن (رمسيس الثاني) فرعون مصر، في ذلك الوقت وصل في حروبه إلى القفقاس وعند عودته إلى مصر ترك فيها حامية من الجنود المصريين، فيحتمل أن يكون هؤلاء (ذو البشرة السوداء) من نسل أولئك المصريين، وأما الدليل

الرابع هو أن (رمسيس الثاني) كان يعرف عند الشراكسة باسم (ساء وسريس) وكانوا يقدسونه ويحترمونه حسب قول مؤرخ الجراكسة (نغموقة) ^(٢٩).

أما الدليل الخامس فهو العثور على نقود مصرية قديمة في بلاد الكولخيد، وبالتحديد في حوض نهر (ريدن)، وكذلك العثور على النقوش الهيروغليفية في بعض (المدافن) المصرية.

بالرغم من تعدد الأدلة التي اعتمد عليها اصحاب هذه الفرضية فإنها لاقت اعتراضا كبيرا من قبل كل من البروفسور (رنتر) والمؤرخ الفرنسي (مورجان) كما يعارضها ايضا كل من (استرابون) و (اجزافون) اليونانيين، فالأول يعتقد بأن السكان ذوي الوجوه (السمراء) هم من بقايا الهنود، والذين سبق أن استوطنوا في مقاطعة (بنارس) في القسم الشمالي الغربي من بلاد القفقاس، وشكلوا فيها الحكومة عام (٥٠٠) ق. م ^(٣٠).

وأما (مورجان) فإنه لا يعتقد أن (رمسيس الثاني) أمكنه الوصول إلى بلاد القفقاس، وعلى فرض وصوله فإنه يستحيل بقاء (حامية مصرية قليلة العدد) في وسط (أشداء محاربين) لمدة طويلة. ويرجح بأن هؤلاء (السمر) جاءوا إلى القفقاس من الهند، بقصد التجارة، وبهذه الوسيلة أمكنهم التوطن فيها ^(٣١).

أما (سترابسون) و (اجزافون) فإنهما لم يجدا أثرا للجنس الإفريقي مطلقا بالقفقاس في القرن الأول للميلاد، ولم يذكر شيئا عنهم.

وفي كل الاحوال فإن (جوناتوقة) يؤكد بأن هؤلاء ذوي البشرة السمراء انتهى أمرهم بالانقراض في الفترات ما قبل الميلاد، إما لعدم ملائمة الجو، لأجسادهم أو أنهم انتهوا باندماجهم ضمن سكان البلاد الاصليين.

والدليل السادس هو ما توصل إليه بتشجالوقة في كتابه ايقاظ المؤرخين، حول التشابه بين اسماء الآلهة المصرية القديمة مع اسماء اشخاص ومواقع في بلاد القفقاس.

الدليل السابع كشف البدري ^(٣٢) بأن المعلومات التاريخية المتوفرة تشير إلى أن المصنوعات التي وجدت في صعيد مصر من أدوات صوانية وأدوات فخارية وغيرها من المكتشفات تدل على تطور الصناعات لديهم قبل عشرة الاف سنة قبل الميلاد، وان هذه المصنوعات انتقلت إلى أوروبا من جهة شمال البحر الاسود، الذي يرجحه (البدري) بأن تكون بلاد القفقاس مركز هذه الحضارة، وكذلك فإن المصريين عرفوا بلاد القفقاس منذ زمن بعيد وسموها (موطن الاموات) وان جميع الاسماء الواردة في الاساطير المصرية مطابقة للاسماء المستخدمة في وادي القفقاس.

الفرضية الثالثة: وهي الفرضية القائمة على الرأي القائل بأن الميئوت هم اجداد الشراكسة وان السارمات والامازون أيضا هم شعب واحد ايضا، وللتحقق من هذه الفرضية بفرعها قمنا بدراسة وتحليل ما قام به مؤرخون يونانيون (رومان وبيزنطيون وفرنسيون وعرب) من دراسات وأبحاث حول شعوب الميئوت ومن جوارهم من شعوب في منطقة شمال القفقاس، كذلك حول اصل السارماتين والامازون حيث كتب أكثر من كاتب حول هذه الشعوب منهم:

هيرودت، وبلوتارت وستيفان البيزنطي وهيرمولارس وبطليموس وبلين من المؤرخين القدامى، وديمترىوس، وسميتوس الخيوسي وموانير الخوريني، الجغرافي الأرمني، وغيرهم ^(٣٤)، حيث توصلنا إلى بعض البيانات والمعلومات والحقائق المتعلقة بتاريخ شعوب الميئوت وعلاقتهم بأجداد الشراكسة وهي على النحو التالي:

١- إن بعض المؤلفين يجعلون الميئوت والسارمات شعبا واحدا، وكان ديمترىوس Demetrius يسمى الميئوت أيازامات Iazamates اي سارمات، بينما سيمينوس الخيوسي Scymnus de Chios فيعتبرهما شعبا من الميئوت. وهو من المؤلفين القلائل الذين يعتبرون الميئوت شعبا سكيثيا ولا يقرون بالقرابة الاثنية بين الميئوت والسارمات.

٢- تأكد بأن عددا من قبائل الميئوت، مثل الداندار Dandares والاربخ Arikhes والتوركاى Turcae والسير Serse والسارد Sardes أو السيرب Serbes هم من جنس السارمات، حيث أكد أحد المؤرخين (مجهول الاسم) اعتبر كل Apsoghi والابخازي Abkhasi هما شعبا سارماتيا وانهما من قوم سارماتيا.

٣- كان اليونانيون في عهد هيرودوت يعرفون السارمات Sarmates أو الساورومات Sauromates الذين كانوا يسكنون شرق نهر التنايس (الدون)، والذين لم يكونوا جزءاً من (المجموعة السكيتية). وأن السارمات ينحدرون من الامازونات Amazones اللاتي كن يقطن على ضفاف نهر الترمودون Thermodon ومن السكيت الذين كانوا يسكنون على شواطئ الميئوتيد (بحر آزوف) وكانوا يتكلمون اللغة السكيتية حسب قول هيرودوت، ولكن بشكل سيئ.

٤- يذكر المؤرخ (مات) قائمة هامة بأسماء الشعوب القاطنة في بلاد السارمات، حول الميئوتيد (بحر آزوف) وحتى جبل سيراوني (Ceraunien) (بالقرب من بحر قزوين). وبلغ عددها حوالي (٥٤) قبيلة وشعباً، وأضاف المؤرخ بطليموس إلى هذه القائمة (٨) قبائل أخرى، وكذلك كان يتحدث عن شعب جبلي آخر في سارماتيا وهو شعب (بروخس Brukhes) الذي لم يذكره المؤرخون الآخرون، وكانوا يقطنون في بلاد اللان Alans والزيخ Zikhes في شمال "الاباسك".

٥- يقول هيرودوت من المستحيل الكلام عن السارمات دون التحدث عن الامازون، وبالإضافة إلى الروايات القديمة التي سجلها حول السارمات والامازون، فإن كثيراً من المؤلفين اليونان والرومان قد شهدوا بوجود الامازون في سارماتيا في المنطقة الواقعة فيما وراء جبال ريفيه (Riphees) بالقرب من السكيت والكيمرين والسيسانيين (Cissiantes) والجورجيون (الكرج). إلا أن أكثر المؤلفين يقولون أنهم (أي الامازون قبيلة النساء المقاتلات) كن يستوطن بالقرب من نهر تنائيس (الدون) ومن بحر الميئوتيد (آزوف) وكلهم يتحدثون عن التأثير الكبير الذي كن يمارسنه على السارمات الآسيويين، وحسب قول (سترابون) كن يسكن في شمال القفقاس، بالقرب من (الغار غار) (Gargares) أي في بلاد الشيشان والانغوش، بينما يكتب (بلوتارك) بأنهن كن يقطن إلى الشرق أكثر، بالقرب من بحر قزوين.

٦- جرى استبدال سكيتيا (Scythie) بسارماتيا (Sermatie) القريبة وكانوا ينقسمون إلى قسمين: سارماتيا الأوروبية (Sarmatie d'Europe) وسارماتية الآسيوية (Sarmatie d'Asia) والذي فصلهما عن بعضهما البعض نهر التنايس (Tanais) (الدون) والميئوتيد (بحر آزوف). وكذلك فإن المفهوم الاتني (القومي أو العرقي) للسارمات (Sarmates) أصبح مع الأيام مفهوماً جغرافياً، له مدلول أوسع جداً، بحيث أصبح يشمل كل الأراضي الواسعة التي تمتد ابتداءً من جبال الأورال وبحر قزوين حتى جبال الكاربات (Carpathes) ونهر الفيستول (Vistule) وكانت تعيش عليها أمم عديدة جداً ومختلفة كثيراً من ناحية أصلها، ومن ناحية درجة الرقي في حضارتها.

ورغم ذلك الغموض فإنه مما لا شك فيه بأن قوماً سارماتيا حقيقياً كان موجوداً، وإن دراسة العلاقات التي كانت سائدة في ذلك الوقت بين هذه العائلة من الشعوب السارماتية وبين القبائل الساحلية والتي كانت تسكن في بلاد الشركس في الأزمنة السحيقة الغابرة. تؤكد صلة القرابة التي كانت بينهم وبين حوالي (٢٥) قبيلة من اجداد الشركسة.

٧- توصلنا من مقارنة أسماء قبائل (الميئوت) على ساحل بحر قزوين مع أسماء القبائل الشركسية التي كانت تعيش في المنطقة الجغرافية نفسها في القرون الوسطى وحتى أوائل القرن السابع عشر الميلادي، فتوصلنا إلى أن أكثر من عشرة أسماء لقبائل الميئوت ظلت مستخدمة لدى الشعوب الشركسية القفقاسية حتى القرن السابع الميلادي، ومن هذه الأسماء مثل - التحات والسيرني وهابي اوثالي، بالإضافة إلى أسماء القبائل الشركسية المستقلة عن مجموعة الميئوت مثل: كيركت او سرت، زيخ والباسك.. والسانيغ وهنيو Henou المعروف بما نبوخ.

نستنتج من كل ما تقدم ما يلي:

١- التأكيد على الفرضية القائلة بأن الميثوت هم اجداد الشراكسة وأن معظم القبائل الشركسية التي كانت متواجدة على أرض الوطن الأم القفقاس قبل حرب الإبادة واحتلال روسيا القيصرية لمواطني الشراكسة هي قبائل منحدرية من أصل (ميثوتي) لكن التساؤل يبقى مفتوحاً حول اجداد قدامى الشراكسة في عهد ما قبل عهد الميثوت وهو السؤال الذي لم يجب عنه حتى الآن أي مؤرخ.. وهو من هم اجداد الميثوت؟ وهل هم من أحفاد الكيمريين أم الكاسيين أم الحثيين؟ الخ فإن السؤال يبقى مفتوحاً حتى نجد الإجابة المنطقية عنه.

٢- التأكيد على صلة القرابة بين الميثوت والسارمات وبالتالي فإن القرابة أو الصلة بين السارماتيين والشراكسة هي صلة مؤكدة وأن بعض القبائل الشركسية الحديثة قد تكون قد انحدرت عن السارماتيين.

٣- التأكيد بأن (الامازون) هم من أصل سارماتي حسب روايات هيرودوت وسكيمونسي حيث تزوجن من شباب من شعب الاسكيت ورحلن معهم إلى ما وراء نهر التنايس أي نهر (الدون) وسكنوا فيها بالقرب من قبائل السارماتيين^(٣٥).

الفرضية الرابعة والاختيرة: وهي الفرضية القائمة على الرأي القائل بأن الأمة التي ينتسب إليها الشراكسة يمكن أن تكون هي أمة ((النارتيين)) وهي فرضية وإن لم يكتب عنها أي مؤرخ من المؤرخين القدامى من يونانيين ((اغريق)) ورومانيين وبيزنطيين إلا أن المؤرخ الشركسي (برزج سمكوغ) يؤكد في كتابه (أساطير النارتيين) مدى انتشار هذه الأمة قديماً، وأن استيطانها امتد من القفقاس الشمالي ابتداءً من نهر الدون وساحل شمال البحر الأسود، وأن مجالسهم هي مجالس النارتيين، وكل قارئ لهذه الأساطير يتأكد من هذه الحقيقة وهي انتساب القفقاسيين الشماليين الغربيين جميعاً إلى أمة (نارت) وهم ذات الحضارة الزراعية وتربية الماشية وأنها وجدت في الألف الثالثة ق.م.^(٣٦)

ويعتمد أصحاب هذه الفرضية على الوقائع والاحداث التالية:

١- لم يكتب أحد من المؤرخين القدامى عن أمة (نارت) لأن تاريخ ظهورها ونشأتها يعود إلى عصور قديمة جداً، حيث لم يوجد وقتها كتابة ولا تاريخ مكتوب.

٢- ظهر (النارتيون) في العصر الذي كان فيه الحكم للأمم أي انهم نشأوا في مرحلة سيطرة الأم على الأسرة وهي المرحلة التي كانت تسمى (الأسرة الامومية) وعبادة الالهة الأم الاكبر.

٣- يقول المؤرخ الشركسي نوغموقة^(٣٧) بأن كلمة (نارت) اصلها (نارانت) ومعناها أم (الانتيين)، وبالتالي فإن الشراكسة (الأديغة) هم أحفاد النارتيين والانتيين.

٤- قدمت أساطير (النارتيين) تفاصيل عن حياة مجتمعات بأكملها وعن أمراء وحكام كما تتحدث عن جوانب ثقافية واقتصادية واجتماعية ودينية، وبالتالي فإن هذه الأساطير لا يمكن أن تكون بأكملها من نسج الخيال، ولا بد من وجود أساس مادي وواقعي لها. الأمر الذي افترضه بعض المؤرخين الشراكسة، وبالذات (سمكوغ) إلى وجود أمة أو قوم أو شعب باسم (قوم نارت) أو (نارانت) أو (نات) كما يلفظها أهل الشابسوغ.

٥- الدليل الأكبر على وجود قوم يحمل اسم (نارت) نشأ واستوطن شمال القفقاس وعلى بقعة واسعة منها هو تداول قصص وأساطير (النارتيين) لدى مختلف الشعوب والقوميات القفقاسية، بالإضافة إلى الشراكسة وبالأخص الابخاز والشيشان والانجوش والأساتنين، مما يدل بأن هذا القوم ربما كان فعلاً موجوداً وأنهم هم أجداد شعوب قفقاسيا الشمالية بأكملها وهي الفرضية التي أرجح صحتها أكثر بكثير من الفرضيات والنظريات السابقة الذكر.

مراجع ومصادر الفصل الأول

- ١- ناميتوق، اتيك، مصدر سابق، ص: ٧.
- ٢- مورجان، المجلد الأول، مصدر سابق، ص: ٧.
- ٣- مجلة بني قفقاسيا، عدد ايلول عام ١٩٦٢، ص: ١٥.
- ٤- جريدة زاربا، فونستو الصادرة في تفليس يوم ١٩٦١/٦/١ تحت عنوان (أعماق العصور).
- ٥- مورجان، المكتشفات الاثرية في الكوبان.
- ٦- ناميتوق، اتيك، مصدر سابق، ص: ٨.
- ٧- المصدر نفسه، ص: ٧.
- ٨- المصدر نفسه، ص: ٩.
- ٩- مورجان (مؤرخ فرنسي) تاريخ ومنشأ أمم القفقاس، المجلد الثاني، ص: ٩٣.
- ١٠- جوناتوق، تاريخ القوقاز، مصدر سابق، ص: ٩٤.
- ١١- آبه زاو، موسوعة تاريخ القفقاس، مصدر سابق، ص: ١٢٤.
- ١٢- المصدر نفسه، ص: ٧٧-٨٠.
- ١٣- بانتيو هوف (عالم روسي مختص بدراسة الأجناس) مؤلف كتاب تقويم القفقاس، نشر بالروسية عام ١٩١٢ ص: ٥٣٩.
- ١٤- مورجان، مصدر سابق، ص: ٢١٧.
- ١٥- م. مايسبرو، تاريخ الامم الشرقية القديمة ص: ٣٩٢-٣٩٤.
- ١٦- السيرجون، تاريخ العالم، المجلد الثاني، ص: ١٩٦.
- ١٧- آبه زاو، مصدر سابق، ص: ٧٦؟.
- ١٨- السيرجون، تاريخ العالم، المجلد الثاني، تعريب وزارة المعارف المصرية، ص: ١٩٦-١٩٧.
- ١٩- آبه زاو، مصدر سابق، ص: ٧٤-٧٥.
- ٢٠- المصدر نفسه، ص: ٧٠-٧٢.
- ٢١- انور الرفاعي وبسام كرد علي - كتاب اكايمي، دمشق الفصل الثامن، ص: ٦٧.
- ٢٢- طه الهاشمي، تاريخ الحضارة في الازمة الغابرة، المجلد الأول، ص: ٥٤٥.
- ٢٣- هنري براستد (عضو أكاديمية العلوم في برلين) العصور القديمة، تعريف داوود كوبان، ص: ٨١.
- ٢٤- طه الهاشمي، مصدر سابق، ص: ٥٤٦.
- ٢٥- المرتوقي، نوح الجركسي القفقاسي، من شراكسة مصر، مؤلف كتاب نور المقابس في تواريخ الجراكس المنشور في بلدة قران (باللغة العربية) عام ١٩١٢ ص: ١٩١٢.
- ٢٦- مورجان، مصدر سابق، ص: ٧٩.
- ٢٧- جونا توقة، مصدر سابق، ص: ٦٥.
- ٢٨- هيرودوت، مصدر سابق.

- ٢٩- نغموقة، مصدر سابق، ص: ٧١-٧٢.
- ٣٠- آبه زاو، مصدر سابق، ص: ١٠٧.
- ٣١- جوناتوقة، مصدر سابق، ص: ٧٩.
- ٣٢- محمد علي بتشجالقوة - ايقاظ المؤرخين، منشور باللغة التركية، ترجمها محمد جمال امين عام ١٩٩٦، انظر ص(١١١) من كتاب موسوعة تاريخ القفقاس والجرکس.
- ٣٣- المؤرخ العربي البدرى في كتابه (مكتشفات صعيد مصر)، ص: ٤٠-٤١.
- ٣٤- ناميتوق أتیک، مصدر سابق، ٣١-٥٠.
- ٣٥- المفتي، شوکت، مصدر سابق ص٧-١٠.
- ٣٦- سمکوخ، برزج، مصدر سابق، ص: ٨٥-٩٠.
- ٣٧- نغموقة، مصدر سابق، ص: ١٠٤.

الفصل الثاني

الشعوب والقوميات القوقازية الأصل التي عاشت في شمال القوقاز منذ فجر التاريخ

يشير ((اسماعيل برقوق))^(١) بأن المؤرخين اليونانيين القدماء الذين عاشوا في دولة (اليسفور اليونانية) منذ القرن التاسع قبل الميلاد قدموا لنا معلومات ووثائق هامة عن تاريخ الشعوب القفقاسية التي عاشت ما بين البحرين الأسود وقزوين منذ الألفية الرابعة ما قبل الميلاد وحتى القرن الأول ما بعد الميلاد.

وبدراسة وتحليل تلك المعلومات والوثائق التاريخية نستنتج بأن القوميات والقبائل التي كانت تسكن في منطقة القفقاس هي القوميات والقبائل المبينة في المخطط وعلى النحو التالي:



وفيما يلي دراسة موجزة لتاريخ الشعوب والقوميات التي كانت تكون الكتلة الغربية في فجر التاريخ

يؤكد المؤرخون بأن قوميات الكتلة الغربية كانت تتكون من (٨) مجموعات من القبائل الشركسية كما هو مبين في المخطط وهي (١) الانت (٢) ألمه وِت، (٣) كركت، (٤) آخين، (٥) زيخ (أو جيخ أو زيخ) (٦) حانوخ، (٧) سانوخ، (٨) باشك أو (آباسك) أو (باشيخ).

وفيما يلي دراسة موجزة لكل مجموعة من هذه القبائل الشركسية الأصل.

(١) القبائل والعشائر المكونة لجماعة (المنويوت) أو (ألمه - وِت) Meot-Maita-Maiotains

يؤكد المؤرخون بأن شعوب (ألمه وِت) انحدرت من سلالة ((الكاسيين)) الذين ظهروا في بلاد القفقاس في فترة ما قبل (٦٠٠٠) آلاف سنة قبل الميلاد، كما أنهم كانوا يشكلون الاتحاد (الكميري) الذي تشكل في فترة ما بين الألفية الثالثة والرابعة قبل الميلاد وامتد حكمهم حتى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد وامتد موطنهم ما بين البحرين الأسود وقزوين في بلاد القفقاس

والتي كانت تسمى (بالإمبراطورية الكمبرية) وامتد حكم شعب (ألمه - وُت) من منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وبالتحديد من عام (٥٤٠) ق. م وحتى القرن الثالث الميلادي، ومن غير المعروف لماذا أطلق عليهم مؤرخو اليونان القدامى اسم جامعة (ألمه - وُت) وأن تسميتهم بذلك ربما كانت تعود لتعدد قبائلها أولاً، وإلى حضارتها المتميزة ثانياً، واتحادها مع دولة البسفور اليونانية ثالثاً.^(٢)

ويؤكد (هيردوت)^(٣) الإغريقي بأن شعب (ألمه - وُت) هم أصل القبائل الشركسية في القفقاس، وأن الوثائق اليونانية تشير بأن قوم (ألمه - وُت) كان مكوناً من (٢٥) عشيرة، أو قبيلة. ويعتبر المؤرخون اليونانيون والرومان البيزنطيون القدامى التالية أسماؤهم أفضل من كتبوا عن شعب (ألمه - وُت) وهم:

- بلونارت، وهيرودت واندرون، وستيفان البيزنطي، وهيرمولارس وبطليموس، وبلين).
- وكذلك فإن أفضل من نقل عن المؤرخين السابق ذكرهم عن نشأة وتطور شعوب مجموعة (ألمه - وُت) هم المؤرخون التالية أسماؤهم:
- * البرفسور الشركسي ايتك ناميتوق في كتابه (اصل الشراكسة) المنشور في باريس باللغة الفرنسية عام ١٩٣٨ وترجمه إلى العربية الدكتور فؤاد نوغوج عام ١٩٩١.
- * المؤرخ الشركسي اسماعيل برقوق في كتابه (قفقاسيا في التاريخ) المنشور في الاستانة باللغة التركية عام ١٩٥٨.

- * المؤرخ الشركسي برزج أمين سمكوغ في كتابه (الشركس في فجر التاريخ - شعوب شمال القفقاس الأصلية حتى عصور الميلاد والمنشور باللغة العربية في دمشق عام ١٩٩٥.
- وبالرجوع إلى ما كتبه ناميتوق^(٤) وبرقوق^(٥) نقلا عن المصادر اليونانية والرومانية والبيزنطية القديمة نجد بأنهما يقسمان مجموعة (ألمه - وُت) إلى (٢٥) قبيلة ويتفقان في ذلك مع اختلافهما في بعض أسماء القبائل وعددها (٥) قبائل كما هو مبين في الجدول المرفق:

جدول بأسماء قبائل "ألمه - وُت"

(١) السند أو سنت Sinde	(١٤) فسنيوفاجس Phthinophages
(٢) داندار أو تيندار Dandares	(١٥) بسيس Pasesses
(٣) التوربت Torbetes	(١٦) سيزي Seize
(٤) التحات Thates	(١٧) خانيد Khanides
(٥) اسبور جيناس Aspurganacs	(١٨) خوانتس Kuantise
(٦) دوسك Doskhes	(١٩) ترانخونس Tranukhenes
(٧) كونابسين Konapsenes	(٢٠) أبريناتاي Abrinatai
(٨) أنت أو آند	(٢١) آساي - ازاى Azai
(٩) سيرني Serni	(٢٢) بساكات - زاكات Zakates
(١٠) فيكور Phicores	(٢٣) سيت أو تاسين Syet
(١١) أوبي دياكنس أو بسكاي Pscae	(٢٤) نوخجه أو ماتيان Nukhkeh
(١٢) تيرامب Tyrambes	(٢٥) غه لاري Ghahlary
(١٣) هالي أو فالي - فالي Vali - Hali	

والاسماء المختلف عليها هي :

الرقم	عن اسماعيل برتوق	الرقم	عن اتيك نامتوق
٨	الانت أو الاند	٤	الاعريان
١٨	خوانتس	٥	الاربخ
٢٣	سيت	٧	الأديغة ياكين
٢٤	نوخة اماتان	٨	السيتاكن
٢٥	غه لاري	١١	ايسيس



خارطة

تبين مواقع سكن جماعة الموت وبعض القبائل القديمة في القوقاز الشمالية الغربية

نستنتج من الجدول السابق بأن أكثر من مؤرخ اتفق على عدد قبائل (ألمه - وت) وهو (٢٥) قبيلة إلا أن (أحدهم) أورد اسم قبيلة (الانت) أو (الاند) ضمن قبائل (ألمه - وت) بينما اعتبرها (اتيك) قبائل مستقلة تماماً عن (ألمه - وت) وانهم عاشوا في فترة سابقة لفترة ظهور مجموعة (ألمه - وت) ويتفق معه في ذلك (برزج) الذي يعتبر (الانت) من سلالة قوم (نارت) الذين عاشوا في مرحلة

(الأسرة الأموية) وعبادة آلهة (الام الكبرى) والتي سميت في مراحل لاحقة بآلهة (الخصب والعطاء)^(٦).

وفيما يلي تحليل موجز لنشأة وتطور كل قبيلة من قبائل مجموعة (ألمه - وُت) حسب ما أوردها كل من المؤرخين اليونانيين:

أولاً: لم تكن جميع قبائل (ألمه - وُت) داخلية في نطاق نفوذ (دولة البسفور اليونانية) وأن أهم القبائل التي كانت ضمن نفوذها هي (١) السيند (٢) الداندارا (٣) التوربت (٤) التحات (٥) اسبورجينا (٦) دوسك (٧) كونابسين.

وان عشائر أخرى من مجموعة (ألمه وُت) لم تكن ضمن نفوذ (دولة البسفور) اليونانية وأهمها: (١) سيرني (٢) فتيكور (٣) أوبي دياكنس (بسكاي) (٤) تيرامب (٥) هالي (٦) فيسنوفاجس (٧) بسيس.

أما القبائل العشرة الأخرى فإنها كانت تعيش خارج حدود القفقاس، واختلف المؤرخون على تبعية لجماعة (ألمه - وُت) كما حددها المؤرخون اليونانيون والرومان والبيزنطيون بالقبائل التالية: (١) سيزي (٢) خانين (٣) خوانتس (٤) تروخنس (٥) إيريناتاي (٦) أساي (٧) زكات (٨) سيت اوتامين (٩) نوخجه ماتيان (١٠) غه لاري.

وفيما يلي وصف لأهم أربع قبائل كان لها دور كبير في نشأة وتطور جماعة (ألمه - وُت)

القبيلة الأولى: وهي قبيلة سيند أو (سنت): وهي من قبائل الاتحاد الكميري أولاً ومن أحد القبائل التسعة لـ (ألمه - وُت) المشاركة في اتحاد الكميرين ثانياً. وفي الغالب بأن هذه القبيلة كانت ضمن نفوذ دولة البوسفور اليونانية في المراحل الأخيرة من حكمها وبيدأ حدود هذه القبيلة من ساحل البحر الأسود من منطقة نهر (بشات) في الجنوب ويمتد إلى الشرق من حوض (القوبان) ومنطقة القباردا وعاصمتها (ستريكا) كما كانت تتمتع بمدينة مزدهرة، ويتحدث المؤرخون اليونانيون بأن شعب (السند) كانوا يشتركون في ألعاب الألبمبياد الإغريقية القديمة وأنهم على الأغلب كانوا يحرزون الدرجات الأولى، وهذا يدل على مدى اندماجهم باليونانيين وتأثرهم بهم، مع المحافظة على طابعهم القومي الشركسي.

ونجد اسم (السند) داخلاً في أساطير قوم (نارت) كما يوجد موقع أثري (خربة) في منطقة القبرطاي تحمل اسم (سانت) وقد تكون محرفة عن كلمة (سنت) وهو الاسم الذي كان يعرف به شعب (سند) قديماً.

القبيلة الثانية: هي قبيلة الداندارا أو (تيندار أو داودار): وكان شعباً مستقلاً في الحكم وعاصمته بلدة (فتسه) ومعناها (البلدة السوداء) باللغة الشركسية وامتد وجود قسم من (الداندارا) إلى الشاطئ الشرقي لمضيق كرتش [تأمان]، أما الأكثرية منهم فكانت تعيش مقابل الساحل الشرقي لشبه جزيرة (القرم)، وإن الأسماء التي لا تزال مستخدمة حتى اليوم، تدل على انتشار هذه القبيلة الكبيرة على الساحل الشمالي والغربي وامتدادهم للبحر الأسود حتى (داكيا وتراقيا) ومنطقة بحر إيجه، وأطلق عليهم اليونانيون لقب (الداندرا ذو الوطن الفسيح)^(٧).

القبيلة الثالثة: وهي قبيلة (التوربت) وكانت فرعاً أو عشيرة من عشائر (ألمه - وُت) إلا أنها انفصلت عنهم ليؤلفوا قبيلة مستقلة وسكنوا حسب رأي المؤرخ (بلين) في شمال (أكيركت)، وجنوب (السند) ويعتبرهم المؤرخون من القبائل التي انحدر عنها الشراكسة^(٨).

القبيلة الرابعة: هي قبيلة (التحات) وكانت من أهم القبائل التي شكلت جماعة (ألمه - وُت) وكان اللقب الرسمي لملك المؤت هو (ملك ألمه - وُت وجماعة السند والتحات).

وأما باقي القبائل لم يكن لها أدوار بارزة في تاريخ جماعة (ألمه - وُت) وأن المؤرخين اختلفوا على حقيقة انتسابهم إلى تلك المجموعة، خاصة وأن أكثر من (١٠) قبائل منهم كانت تعيش خارج حدود قفقاسيا عامة وقفقاسيا الشمالية خاصة.

يلاحظ من تحليل ما كتب عن نشأة وتطور تاريخ قبائل جماعة (ألمة - وُت) وجود غموض كما يلاحظ غياب الكثير من المعلومات الأساسية عنها حتى يمكن الحكم على دورهم الحضاري وعلى انتماءاتهم الاثنية (العرقية) وعلاقاتهم مع الشعوب والأمم الأخرى المستوطنة والمجاورة لهم.

ومن هذه الملاحظات هي:

(١) لم يذكر المؤرخون (جميعاً) فيما كان يوجد لجماعة (المه - وُت) (لغة مشتركة واحدة) أم عدة لغات، وان وجدت فما هي تلك اللغة أو اللغات، باستثناء ما ذكره (المؤلف المجهول لكتاب جولة حول البحر الأسود) الصادر حوالي عام (١٩٠٠م) بقوله: إن بعض قبائل (المه - وُت) كانت تتكلم اللغتين القوزية والتاورية.^(٩)

(٢) تجاهل كل من كتب عن تاريخ جماعة (المه - وُت) البحث في طبيعة الحكم والنظم الاقتصادية والاجتماعية والدينية لقبائل هذه الجماعة، كما أنهم لم يذكروا لنا عن مدى مساهمتهم في الحضارات التي كانت سائدة في القفقاس في نفس المرحلة الزمنية التي وجدت فيها قبائل هذه الجماعة.

(٣) لم يحدد لنا المؤرخون عن بداية ونهاية حكم جماعة (المه - وُت) كما لم يحددوا لنا انتماءاتهم الاثنية إلا ما ندر كما أنهم اختلفوا في انتماء بعض القبائل فالبعض منهم اعاد انتماء بعض قبائل (المه - وُت) إلى السريانيين والبعض الآخر اعادهم إلى الكيمريين... الخ.

ولاستكمال دراسة وتحليل أوضاع القبائل السبعة الأخرى التي كانت تشكل الكتلة الغربية لبلاد القفقاس قمنا بمراجعة ما كتبه المؤرخون اليونانيون والبيزنطيون القدماء الذين أوردتهم كتاب فرنسيين منهم:

هيزيخيوس Hesychius ، سيلاكس Seylax ، ارتيميدور Artemidore وسترابون Stabon ، وبلين Pline وميلا Mela ، أمينين مارسيلان Amnien Marcellan ، وديني Denny ، بطليموس وهيلانيكوس Hellanicus، وبروكوب Procope ، واسماعيل برقوق.

وكذلك فإن أفضل من كتب باللغة العربية عن القوميات الشركسية السبعة التي كانت تجاور مجموعة قبائل (ألمه - وُت) في الجزء القفقاسي الغربي هو (اسماعيل برقوق)^(١٠).

وفيما يلي ملخص لكل قومية من القوميات السبعة (الشركسية) الأخرى كما أوردته (ناميتوقه):

القبيلة الأولى: وهي قبيلة كيركت Kerkete وفي بعض المراحل كانت تسمى (جرجت أو سرست) وكانت تسكن عند مصب نهر (بشات) على ساحل البحر الأسود، كما توجد في كولخيديا (الدغستان) عشيرة اسمها قبيلة (الكركت) تتصل بصلة الرحم والقرباة (بالمأوت) بواسطة قبائل (السند والأكين والتورت)، وكان الكركتيون ملاحين مهرة، وقد هاجر قسم كبير منهم إلى بيزنطة وتعيش عشيرة شركسية في بلاد طرابلس الغرب حتى اليوم تحمل اسم (كركت).

القبيلة الثانية: قبيلة (أكين) ويطلق عليهم أيضاً (Akhains - آخاينس): حيث كان (الأكيون) يعيشون جنوب قبائل (الكركت) على امتداد الساحل القفقاسي على البحر الأسود نحو (طوابسه) الحالية. وقد ورد اسم قبيلة [أكين] بين عشائر قبيلة (قوش) التي هاجرت إلى "مصر" حسب اقوال وذلك (هيرودوت واسترابون) بأن قبيلة (آخه) كانت ضمن قدماء الجراكسة، ثم أن قبيلة [آشه] دخلت إلى اليونان من آسيا الصغرى ثم هاجرت إلى مصر.

ويؤكد بعض المؤرخين القدماء بأن (الأكائيين) لم يكونوا إلا البيوتيين الاركومينيين (Byothiens d' Orchomene)، الذين جاؤوا إلى القفقاس بعد الاستيلاء على طروادة (Troie)، بقيادة يالمين (Yalmene) بأن الرياح قد أوصلتهم إلى القفقاس بعد خوضهم معركة ضد الطرواديين (Troyens). كما أن البعض الآخر ينسبون أرجيا (Argienne) اليونانية إلى (الأكائيين) القاطنين في بلاد الشركس، كما ذكر اوستاش (Eustathe) في تعليقاته على كتاب دينس بيريجيت Dennys le

Periegete ، بأن الملك أبيتاد (Apetiade) الذي قاد (الآخائيين) أثناء قدومهم إلى القفقاس لم يكن إلا (أغامنون) نفسه، وفي هذه الحالة فإن الآخايوي (Akhaioi) يسمون في بعض القصائد الشعرية (أيناخوي) رمزاً لنهر ايناخ (Inakh) في اليونان، وكان القدماء يصفون (الآخائيين) بأنهم كانوا قراصنة رهيبيين وشجعانا جدا وعنيفين أيضا ^(١١).

القبيلة الثالثة: وهي قبيلة (جيخ) ويطلق عليهم زيخ أو زيغ Zygue-zitihe أوزيك وحسبما كتب مؤرخو اليونان فإن (الزيك) كانوا يعيشون جنوب (الآخين). وفي القرن الأول قبل الميلاد تقريباً رحلت من منطقة الكوبان إلى موقعها الحالي على ساحل البحر الأسود (طؤابسه) والمعروف الآن باسم (سوتشي).

وهذه القبيلة معروفة عند جميع الجراكسة باسم (أوبوخ) ويجتهد البعض أن كلمة (زيخ) محرفة عن (تسوخ) أي الإنسان باللغة الجركسية، وكان اليونانيون يسمون بلاد الجراكسة فيما سموها [تسوخيا - أوجيخيا]، ومؤرخو الكرج أسموهم [جيخ] وأطلقوا اسم (جيكت) على بلادهم، ويؤكد (سترابون) بأن (الزيخ Ziukes) هذه القبيلة كانت ضمن قبائل المجموعة التي كانت تشكل (المه - و٢) ^(١٢).

القبيلة الرابعة: وهي قبيلة (حانوخ Heniokhs) كانت مستوطنة جنوب قبيلة (الجيخ) وامتدت بلادهم إلى الداخل على السلسلة الجبلية حتى مضيق (داريال) وحتى البحر الأسود وكانت لهم بعض المستعمرات في الأناضول كما كانوا يشكلون أحد الشعوب الهامة في بلاد الشركس في العصور القديمة كما كانوا شعباً من المحاربين الأقوياء ومهرة في ترويض الخيول يعيد بعض المؤرخين أصلهم إلى الإسبارطيين اليونانيين. وكلمة (حانوخ) دارجة الاستعمال عند الجراكسة حتى الآن، ومعناها الحرفي (الكلب ذو العيون الواسعة) ويلقبون بها الأولاد والبنات إلى يومنا الحاضر.

القبيلة الخامسة: وهي قبيلة (سانوخ) أو (سانغ Sanigs) وكانت تسكن جنوب (الحانوخ)، وكان هذا الاسم يذكر في المنقولات التاريخية حتى القرن الثاني عشر للميلاد، وإلى يومنا هذا توجد مواقع وعائلات باسم [سانيك - ساني - سانوخ] ولا تزال (قبيلة القبارطاي) تستعمل [مشروب السانوخ] وهو المشروب الذي يصنع من العسل المخمر.

وبعض مؤرخي اليونان يكتب هذا الاسم بمعنى [زانيخ] مما يدل على أنها من أوائل عشيرة (ازانه) الجركسية الموجودة حتى اليوم موزعة بين (الأبزاخ) وبين (الأبخاز) وتلفظ أحياناً (جانا).

القبيلة السادسة: وهي قبيلة (باسك أو أباساك) (Abaskes) ومن المحتمل أن اسم [آبخاز/ أبازة] المستعمل حتى اليوم مشتق من هذا الاسم ومن الاحتمال الكبير بأن قوم (الباسك) الذين يعيشون في الجبال بين (فرنسا وأسبانيا) هم من قدماء هذه القبيلة.

والآبخاز (الباسك) يعيشون إلى اليوم في موطنهم الأصلي على ساحل البحر الأسود القفقاسي ويشغلون حوض نهر (اينغور) حتى منطقة كولخيديا، ولدى تدقيق المناطق التي أشغلها الجراكسة قبل وبعد الميلاد يتبين لنا أن القسم الشمالي منهم يشكلون قبائل (الماوت) المنتشرة شمالاً وغرباً، أما القسم الجنوبي منهم وهم (السانوخ) فقد انتشروا إلى الجنوب حتى الأناضول.

القبيلة السابعة: وهي قبيلة الآنت أو (الاند) لقد ورد في الخريطة التي رسمها [لاب] اعتماداً على خريطة (كل من بطليموس ولين) اسم [آنتيخة] في المنطقة الكائنة عند اتصال فرع نهر (لا) بنهر (الكوبان) كما أن مؤلف [دربند نامه] يسمي سكان المناطق الممتدة من نهر ترك إلى سواحل البحر الأسود غرباً، في (منطقة الأديكة) يسميها [جولي آنت].

ويؤكد المؤرخ الفرنسي (برقوب بول) ^(١١) في كتابه (السلالة الآنتية) المنشور عام ١٩١١ في باريس، يؤكد بأن (الآنتيين) كانوا أمة قائمة بذاتها وأنها من السلالة القفقاسية ذات العرق الأبيض، كما يؤكد (جوناتوقه) في كتابه (تاريخ القوقاز) المنشور عام ١٩١٢ ^(١٢) بأن اسم (أديجة) مشتقة من جمع اسم (آنت) وهي (آنتيخة) أو (آتخه) و (آنتخه) هو نفس ما كان يلفظها شيوخ القبرطاي قديماً كما ورد في الأشعار القومية الشركسية وأمثالهم اسم (آنت) كثيراً بقولهم [الآنت الذي لا يعرف الكلل ولا

[الملل] وكذلك [انتي بشه يقوه] ومعناها [ابن اميرانتي] و [أنتيغ شاوه] ومعناه [شاب أنتي و [أنتيغ شو] ومعناها [فارس أنتي] وغيرها.

وفي القرن الأول للميلاد وجد (بولص دياكونس) خلال تجواله في المناطق الشمالية لبلاد القفقاس قبيلة اسمها (أنت) تسكن على ضفاف نهر (الدينير).

وفي كل الاحوال فإن معظم المؤرخين القدامى يتفقون بأن الأمة التي ينتسب إليها الشركس وشعوب شمال القفقاس الأصلية انتساباً مباشراً وبشكل لا ريب فيه هو ما ورد في كل أساطيرهم التي لا حصر لها وتتجاوز عدة آلاف هي أمة (النارت) التي استوطنت وانتشرت في القفقاس الشمالي، وحتى نهر الدون ومصبه في شمال البحر الأسود.

وازداد هذا الاستيطان على ما يبدو في العصور القديمة حول مجاري الأنهار وسهولها التي تجري فيها نهري (الكوبان والترك) وفي جنوب السلسلة الجبلية التي تجري فيها أنهار: كورا وأراكس وريوني وأجاري وكورخ.

وقوم (نارت) هو القوم الذي تنسب إليه الشعوب في شمال القفقاس منذ العصور الحجرية ولا نعلم إلى أي مدى يمكن أن تعود في القدم ولكن تحليلها (المقطعي) يمكن أن يدلنا على مرحلتها الحضارية التي يمكن أن تعود لأواخر عصر (الميزوليت أو النيوليت) ولبدائيات مرحلة عبادة الأم وكانت تلفظ (نات) بدون حرف الراء، لأن الراء ما هو التعريف (ن + ت) وتعني عطاء الأم أي أنهم اعتبروا أنفسهم عطاء تلك الأم الإله الكبرى. على اعتبار أن (ن) معناها (الأم)، (ت) معناها باللغة الشركسية (أعطي) و (ن + ت) تعني (عطاء الأم) .. أي أنهم كانوا يعبدون الأم (الآلة الكبرى) .. وبالتالي اطلق عليهم (نات) بمعنى القوم الذي وهبوا أنفسهم للآلهة الكبرى وهي (الأم).

وكذلك فإن كلمة (نات) تدخل في بعض الألقاب والتعابير الشعبية مثل (نارت - شاوه) بمعنى فارس (انتي)، وكذلك في أسماء كثير من اقاليم ومواقع في القوقاز، فمثلاً نجدتها في اسم اقليم (نات - قواج Nat-Quaj) ومعناه بلد النار (وهو في الجزء الغربي من مقاطعة الكوبان) (نات سان Nartsana) وهو اسم نبع للمياه المعدنية المعروفة في مقاطعة القبرطاي، وكذلك فإن وجود (الأنت) قديماً كأمة ذات كيان حقيقية لا تقبل الجدل. ومما يزيدها رسوخاً في هذا الاعتقاد هو ورود كلمة (نات) في كثير من أسماء الأسر والعائلات المعروفة والموجودة لليوم، مثل عائلة (ناتوقه) أي ابن النار، و (نارتيتز) أي النار القديم.

وأما البطل القومي للأمة الشركسية (نارت سوسيروقه Nart Sosiroka) ومعناه قوم نارت أو (سوسيروقه الأنتي). وقد جرت العادة أيضاً أن يلقب الأبطال الأشاوس بلقب (نارت) تقديرًا لأعمالهم الشجاعة. وأخيراً تسمى الذرة الصفراء أيضاً (ناتيف Natif) ومعناه (ذرة الناريتين).

وفي فترة لاحقة تم استبدال اسم (نارت) أو (نات) إلى اسم (أنت) وتحمل نفس معنى كلمة (نارت) بلهجة القبرطاي حيث أن حرف (ن) يعني بالقبرطاي (أم) وحرف (ت) يعني (أعطي) وبالتالي فإن (نت) معناها (الأم المعطاءة).

واليونانيون كانوا يطلقون على الشراكسة اسم (أنت) كما أن المؤرخ (بول) كان يطلق أسم (أنت) على القوم الذي كان يسكن نهر يصب في شمال البحر الأسود وهو نهر (دون الأننت).

ومؤلف (دربند نامه) سمى القوم الذي يسكن حوض نهر (الترك) على سواحل بحر الأسود (بجولي أنت).

وورد في الأساطير الشركسية بأن (أنت) استخدم كاسم (إله الزراعة) وهو (إله للاننتين) وكذلك فإن تسمية (أنت) تلازمت وترافقت مع دخول (أمة أنت) لعمل الزراعة وتربية المواشي.

وربما كان من أقدم المؤرخين الذين كتبوا حول قوم (أنت) هو: المؤرخ (سترابو Strabo) في القرن الأول قبل الميلاد حيث كتب حول منشأ الاننت وتاريخهم وسمى نهر الكوبان على اسمهم (أنتي كيتس Antikitis) والمؤرخ (بروكوب Procopius) قال في سنة ٦٥٠م "أن أمة الاننت تلفظ

بالجركسية: نات) وكانت محاطة في مواطنهم عند البحر الأسود بأقوام سلافية تختلف عنهم عرقاً. فالأنت كانت أمة قائمة بذاتها".

وقال أيضاً "ان سواحل البحر الأسود كانت مأهولة ومكتظة بقبائل الانت، والسلافيون يحيطون بهم من جهتي الغرب والشمال، فاستنتج من ذلك أن الأنت لم يكونوا سلافيين، بل جيرانهم ويمتون عرقاً إلى سلالة أخرى غير السلافية.

وأما المؤرخ (بلينيوس Plinius) يقول في الجزء الرابع من الفصل (٣٥) من كتابه المسمى (التاريخ الطبيعي) بأن قوم (الانتى Anti) كان من جملة الاقوام التي ذكرها والذين كانوا يقطنون بين بحر آزوف وبحر الخزر. وأما (بطليموس Ptolemaus) فكان يعلم أيضاً بوجود أمة (الانتى) في تلك البقاع الواقعة بين البحرين المذكورين، بينما كتاب الاغريق كانوا يؤكدون بأن اماكن سكنى (الانتيين) كانت في القرم وضواحيها، مع العلم أن تلك الاماكن المذكورة كانت مشغولة من قبل السارمات أيضاً. وإذا امكن قبول الرأي القائل بأن شعب (الانتى) الذي ذكره (بلينيوس) وشعب (الانت) الذي ذكره مؤرخون آخرون كلاهما شعب واحد، ومن المؤكد بأن شعب (الانت) لم يكن أصلاً من عرق (السلافي) كما يدعي مؤرخي الروس.

وفي العصور التي تحولت فيها السلطة من (حكم الأم) إلى حكم (الاب) تحول معها اسم (نارت وأنت) إلى اسم (اديغة Adyxah) أو (أديغيت) حب اللهجات القوقازيين التي اختلفت وتميزت بين لهجات وكان الجزء الشرقي والجزء الغربي من القفقاس والتي اختلفت فيما بعد واصبح لكل قومية منها لغة خاصة بها، وبالتالي فإن الشراكسة (الاديغة) من سكان الجزء الغربي وهم (الشراكسة، والأويخ والابخاز) الذين أطلق عليهم قبائل (الاديغة).

أما سكان الجزء الشرقي من شمال القفقاس وهم قبائل (غلفاني الداغستاني) قفقاسية الأصل وأطلق عليها اسم (داغستان) حيث نجد بعد حذف الأحرف الزائدة وهي (آ) التي هي أداة نداء أو (ست) وتعني البلد، والباقي من الاسمين هو مقطع (ديغ) والمعروف أن حرف (د) وكذلك الحرف (ت) أو (آت) تدل على (الأب) في هذه اللغات وهكذا فإن هذه التسمية تتوافق مع المرحلة الحضارية التي تبدلت فيها الأسرة من نمط النظام الأمومي إلى النظام الأبوي و(الأسرة الأبوية) والتي سيطرت فيها الذكورة.

وبالتالي فإن ترجمة كلمة (اديغة) في مقطيعيها (اد- يغة) تصبح (أد) بمعنى الأب و (بيه) بمعنى (ملكه أو الخاص به).

ويصبح المعنى الحرفي لترجمة (أديغة) بمعنى القوم الذي يملكه أو يختص به (الاب) أو قوم (الاب).

وبنفس المعنى فإن اضافة (ست) ومعناها باللغة الداغستاني (بلد) يصبح معنى كلمة (داغيستان) (بلد أو موطن الاب).

نستنتج مما تقدم أن قوم (نارت) وكذلك أمة (أنت) وأخيراً شعب (الاديغة) هي الأمة التي نشأت عنها شعوب وقبائل الشعوب القوقازية عامة والأمة الشركسية في الوطن في شمال القفقاس خاصة.

وخلاصة القول فإن أصل ومنشأ أجداد الشراكسة (الاديغة) هم قوم (نارت) ومن بعدهم أمة (أنت). وهي الأمة التي عاشت في شمال القفقاس في عصور ما قبل الميلاد.

كما ذكر (بروكوبيس) ^(١٣) في كتابه (الحرب القوطية) بأن أمة (الانت) كانت تسكن في مملكة متسعة الأطراف وبيجاورهم في الغرب شعوب (الاسلاو) الذين كانوا يقطنون بالقرب من نهر الدانوب، وأكد المؤرخ (سترابون) في كتابه الذي نشره عام (٤٢٠ق.م) بأن نهر كوبان الحالي كان اسمه أنتي كيتيس) نسبة إلى أمة (الانت).

ويقول (نغموقة) في كتابه (تاريخ الأديغة) ^(١٤) بأن أمة (الآنت) كانت تسكن حول (نارت سان) فترة من الزمن وأن (الآنتيين) هم آباء الكيمريون وأجداد الشراكسة.

تلك هي بعض المعلومات عن الشعوب الرئيسية التي كانت تعيش قديماً في بلاد الشركس في العهدين (اليوناني - الروماني) وهي على الأقل الشعوب التي وصلت إلينا عنها معلومات مختلفة بحكم إقامتها على الشاطئ الذي كان يسمح لهم بالاتصال الدائم مع العالم الخارجي من خلال (بحر أيجي) والبحر الأبيض المتوسط.

ويقول (ناميتوق) بأن الدراسة الانتوغرافية (وصف الأقوام) لبلاد الشركس القديمة لا يمكن أن تقتصر على هذا العدد فقط من القبائل، وأن البحث في طبيعة وتاريخ القبائل التي كانت تعيش داخل البلاد القفقاسية له نفس القيمة والأهمية التاريخية التي تتمتع بهما القبائل التي كانت تقيم على السواحل. وأن حقيقة كون المعلومات المتوافرة عن (قبائل الداخل) أقل عدداً وأقل دقة من المعلومات عن قبائل الساحل.

ويشير (ناميتوق) بأن الاغريق كانوا كلما صادفوا صعوبات في تحديد الانتماء القومي أو العرقي للشعوب التي كانت تعيش في الداخل والبعيدة عنهم، كانوا يتجاوزونها دون أن يحاولوا البحث عن حقيقتها.

وفي كل الأحوال فإن المعلومات والبيانات التي نقلها إلينا المؤرخون المشار إليهم سالفاً عن تاريخ حياة الشعوب والقبائل (الثمانية) سابقة الذكر تحتاج إلى تدقيق لوجود تعارض أو تناقض في أقوال بعض المؤرخين إلا أن هذا لا يعني أن تلك المعلومات والبيانات خاطئة أو أنها غير دقيقة وإنما العكس صحيح فإن المعلومات الأساسية التي نقلت إلينا كانت دقيقة وهامة أما بالنسبة للاختلاف في أسماء بعض القبائل وأماكن سكنهم وكذلك الاختلاف في بعض التواريخ لا يغير من قيمة ما وصل لنا عن هذه الأقوام.

بالرغم من عدم تطرق المؤرخين عن مستوى معيشة القبائل (المشار إليها سابقاً) فإن المعلومات التي وردت عن معظمهما يجعلنا نتفق بأنها كانت قبائل على مستوى عالٍ من المعيشة وكان لدى بعضها تقدم حضاري والدليل على الحقائق التالية:

١) اتقان فنون الملاحة البحرية، حيث يؤكد المؤرخون اليونانيون بأن شعب الكركيت كان شعباً متقدماً في الحضارة المدنية وأنهم كانوا على اتصال مع الأمم والدول في الخارج، وفي هذا المجال فإن نيقولا الدمسقي (Nicolas de Damas) ينقل لنا هذه العادة العجيبة: إذا اقترف أحد (الكركيت) جريمة ما، فإنه كان يحرم من ممارسة طقوس العبادة المقدسة، وإذا برهن على عدم مهارته أثناء قيادته لسفينة أو زورق، كان كل المشتغلين بالبحر يقتربون كل بدوره (ويصقون على وجهه الواحد بعد الآخر) وربما يجدر بنا أن نذكر هنا أن بعض الباحثين أشاروا إلى أن الشراكسة احتفظوا إلى زمان قريب نسبياً بذكريات عن الأهمية الكبيرة التي كانت (للكركيت) في مجال الملاحة البحرية ^(١٧).

٢) اشتهرت بعض القبائل مثل قبيلة (حانوخ) بتربية وترويض الخيول وكانوا يصدرون الخيول المدربة إلى دول مجاورة.

٣) وصلت بعض القبائل مثل قبيلة (حانوخ) من التطور والتقدم الحضاري إلى مستوى عالٍ، حيث بنوا مستعمرات في الأناضول وتوسعوا في تجارتهم مع الدول المجاورة.

٤) كما أن بعض المجموعات من هذه القبيلة كانت تمارس القرصنة البحرية مع جيرانهم (الآخيين) وادخلوا الرعب في قلوب الشعوب والقبائل اليونانية والرومانية وذكر أحد المؤرخين بأنهم كانوا يستخدمون قوارب صغيرة (٢٥-٣٠) راكباً كان يسميها اليونانيون (كاماروي Kamaroi)، وكانوا يتجولون فيها في البحر الأسود في كل الاتجاهات، ويعتبرونها ملجأ لهم، وأحياناً كانوا يصلون إلى الشواطئ التراسية (غرب البحر الأسود).

وأن أبيات الشعر التي نظمها الشاعر اليوناني أوفيد (Ovide) شاهدة على الرعب الذي كانوا يسببونه على تلك السواحل:

اقتبس منها (ناميتوق) الابيات التالية:

* كما ينطلق النباح الوحشي من شواطئ سكيلا (Scylla) الشيطانية،
فإن سفن الحنيوخ تسبب الذعر للبحارة،
* ولا يستطيع أحد أن يقارنهم مع الاخيين (Acheens) الرهيبيين،
وهاوية شاربيده (Charybde)، تقذف ثلاث مرات،
* الأمواج التي ابتلعته على ثلاث دفعات،
إن هولاء الغزاة يقضون حياتهم دون شك،
* في التجول على الضفة اليمنى للبحر،
ولكن الضفة الأخرى التي اسكن عليها ليست في أمان أكثر من الأولى.

وهذه القرصنة إن كان في ظاهرها عمل (غير قانوني) إلا أنه يدل على مدى قوة وشجاعة وجسارة التصدي لقوافل البواخر الكبيرة التي يمتلكها امبراطورية مثل امبراطورية البسفور اليونانية.

ثانيا: قوميات الكتلة الشرقية والوسطى القفقاسية وتتكون من الشعوب التالية:

(١) نوخجي = (جاجان) (٢) الأوار اندلال، (٣) اللزكي لاق = (لاخ)، (٤) لزكي (أو جيخ أو زيكي).

واكد المؤرخون والرحالة من مختلف الجنسيات بأن المنطقة الشرقية والوسطى من بلاد القفقاس كانت مأهولة من قبل قوميات رئيسة تتكون من القبائل الاربع سابقة الذكر وهي على النحو التالي:

القبيلة الأولى - نوخجي = شيشان أو جاجان: يجمع المؤرخون على ان الجاجان هم الشيشان من قبائل جامعة ألمه و٢ت، فقد ورد أن قبيلتنا [نوخجه ماتيان - و - غه رري] التي كانت تعيش في شرق بحر أزاك من الماوت، والذين درسوا أوضاع قبيلة (الجاجان) وجدوا عندهم أسماء [نوخجي - غالغاي - توسق] والحقيقة أن (الجاجان) قبائل عدة وهم يسمون أنفسهم (نوخجي) بلغتهم القومية وفرع ثان وهم قبيلة [اينكوش] تسمى نفسها [غالغاي] وفرع ثالث يسمى نفسه [توش] ومن أكبر فروعهم الأينكوش (الأنجوش).

ومنطقة (الشيشان) الحالية تحد شمالاً وغرباً بمجرى نهر (الترك) ووادي (قاجقالين) ومنطقة قبيلة القبرطاي، وجنوباً بجبل (أندي) وسلسلة القوقاز، وشرقاً يفصلها عن الداغستان نهر [آق طاش] وأن نهر [سونجا] أحد روافد نهر (الترك) يقسم منطقة (الجاجان) إلى قسمين هما: ١- بلاد الججن الصغرى أو الجنوبية ٢- بلاد الججن الكبرى أو الشمالية، وعاصمتها حالياً (جروزني).

القبيلة الثانية - الأوار = (الاندلال): يبدأ موطن قبيلة (الأوار) في الداغستان حالياً شمالاً من [سيربوردي] حتى [زاقاتالي] في الجنوب على امتداد (١٦٠) كيلوا متراً، وعرضها عند بلدة [هونزاق] حوالي (٧٥) متراً، وهذه المنطقة تقسم بلاد الداغستان إلى قسمين.

وكلمة [آوار] هي كلمة تركية ومعناها (البدو الرحل)، وهذا الاسم أطلقه عليهم (القوموق) وهم من الأصل الداغستاني لأنهم كانوا يقومون بغارات تشبه غارات الآوار الطورانيين، ثم أخذه الروس عنهم وعمموا استعماله بقصد التفرقة بين القبائل القفقاسية، وبمرور الزمن عم استعماله وصار اسماً لهم.

ويقول بعض مؤرخي الروس أن الآثار (الأوار) كانوا فيما مضى قد انتشروا من موطنهم الأصلي إلى الشمال، وأنهم كانوا يعيشون آنذاك (بدوا رحلاً) في سهل القوموق، ولكن هجرات العناصر الطورانية القوية، أجبرتهم على الالتجاء إلى الجبال.

ويؤكد بعض المؤرخين بأن مقطع (لال) في لغة الأوار هو أداة نسبة فالاسم [أند - لال] يعني (الأنديون - الأنتيون) أي أنهم يمتون بصلة للأنتيين وأنهم من أصول شركسية، وأنهم كانوا يقطنون منطقة الكوبان، فالاندلال هم الأنتيون الذين التجأوا إلى المناطق الجبلية وهم من قبائل (كاس) الأصلية.

القبيلة الثالثة - قبائل اللزكي: اتفق غالبية المؤرخين بأن (اللزكي) هم من القوميات القفقاسية القديمة الأصل، وذكر القائد الروماني (بومبي) في مذكراته بأن قبيلة باسم (ليجي) كانت تعيش في بلاد الداغستان، وأنهم من أقدم سكان القفقاس، كما ذكر المؤرخ (فريدريك موللر) في تصنيفه للشعوب القفقاسية بأن (لزوجي) تتكون من (١٢) عشيرة وهي: لزجي وقويين وأغول وروتول وتاباساران وأرجين وغازي قوموق ودارغي وقوماجي وديديو وأوار وأندي.

وقبيلة (لزكي) ما هي إلا من قبائل (الكاس) حيث كانت توجد قبيلة تحمل اسم [لز - زيل Zil, Liz] بين الكاسيين، هذا وإن وجود قرابة بين (اللزكي) و (أندلال) معترف به من الطرفين، وهذا يدل على أن (اللزكي) رغم اختلاط عناصر تركية بهم فقد احتفظوا بلغتهم وطابعهم القفقاسي كما كان عند الأوار - الاندلال.

القبيلة الرابعة - هي قبيلة لاخ أو لاق أو غازي قوموق وتعيش هذه القبيلة في القسم الجنوبي والشرقي من الداغستان قريباً من بحر الخزر وجبالها قليلة أفقر منطقة من حيث الطبيعة الجغرافية، ولكنهم كانوا أكثر القبائل عملاً في الصناعات، ويعتقد المؤرخون من الأرمن والكرج أن (اللاخ) من الجامعة الكيميائية. وعلى ذلك فهؤلاء أيضاً قد نزحوا إلى هذه المنطقة مع الأندلال، والتقارب القومي بين اللاخ والأندلال يثبت هذا القول.

وقبيلة (اللاخ) سميت بعد الإسلام باسم [غازي قوموق] وهم غير قبيلة (قوموق) التركية الأصل التي تعيش في الداغستان مختلطة مع (اللاخ)، كما أن هؤلاء هم (غير القالموق) الذين هم من أصل مغولي.

ثالثاً: قوميات الكتلة القفقاسية الجنوبية

تتكون القوميات التي كانت تعيش في المناطق الجنوبية لبلاد القفقاس من (ثلاث) قوميات رئيسية وهي:

- القومية الكرجية: وهم في الأصل ينتمون للجنس الآري وهم أجداد الجورجيين الحاليين.
- القومية الأرمنية: وينتسبون في الأصل إلى الجنس الآري، وينحدرون من نسل (هاكبخ ين توعامور).
- القومية الألبانية: وهم من أصول آرية وأطلق عليهم اليونانيون (بالألبانيين) نسبة لطبيعة بلادهم الجبلية الصخرية وكان يحد بلادهم من الشمال بلاد الداغستان، ومن الجنوب بلاد الأرمن، وشرقاً بحر الخزر وغرباً الحوض الأوسط لنهر (تر) وهم يعرفون اليوم (بالأذربيجانيين).

رابعاً: قوميات وشعوب بلاد القفقاس بعد الاحتلال الروسي وفي العصر الحديث

يجد الدارس للتاريخ الحديث للقوميات والشعوب المستوطنة في منطقة القفقاس عامة وفي بلاد الأمة الشركسية خاصة بأن (٢٨) قومية وشعباً تسكن هذه المنطقة حالياً، كما هو مبين في الخارطة المرفقة بعد أن كان عددها منذ مطلع القرون الوسطى حوالي (١٠) قوميات.

مصادر ومراجع الفصل الثاني

- ١- برقوق، اسماعيل، مصدر سابق ١٦٧.
- ٢- ناميتوق آتيك، مصدر سابق ص ٣٢.
- ٣- هيرودوت، مصدر سابق.
- ٤- ناميتوق، آتيك، مصدر سابق ص: ٣٣-٤١.
- ٥- برقوق، اسماعيل ، مصدر سابق ص: ١٦٧-٢٠٠.
- ٦- سمكوغ، برزج، مصدر سابق، ص: ٢١٩-٢٢٠.
- ٧- المصدر نفسه، ص ٢٩٥.
- ٨- ناميتوق، آتيك، مصدر سابق ص: ٣٥.
- ٩- ناميتوق، آتيك، مصدر سابق ص: ٣٥.
- ١٠- ناميتوق، آتيك، مصدر سابق ص: ٤١.
- ١١- آبه- زاو، موسوعة تاريخ القفقاس ص: ٢٩٥.
- ١٢- آبه - زاو ، مصدر سابق ص: ٢٩٥.
- ١٣- برقوب بول، السلالة الأنتية، نشر في باريس عام ١٩١١.
- ١٤- جونانوق، مت يوسف عزت، تاريخ القوقاز، مصدر سابق، ص ٨٣.
- ١٥- م. يروكوبيس - الحرب القوطية، تاريخ بلا ص: ٤٢.
- ١٦- نغموقة، باكمزرا شورا - تاريخ الاديغة، مصدر سابق ص ١٨-١٩.
- ١٧- ناميتوق، آتيك، مصدر سابق، ص: ٤٦.
- ١٨- المصدر نفسه ص: ٤٢.
- ١٩- المصدر نفسه ص ٤٥.

الفصل الثالث

شعوب وقبائل الأمة الشركسية التي كانت تسكن في الوطن الأم خلال المرحلة الممتدة من القرون الوسطى وحتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي

الدارس لتاريخ حياة الأمة الشركسية منذ القرون الوسطى وحتى العصر الحديث يجد بأن قبائل هذه الأمة عرفت بأكثر من اسم، وأن تلك الاسماء تبدلت وتغيرت تغييراً جزئياً أحياناً، و كلياً أحياناً أخرى وأن هذه التغيرات حدثت في ثلاث مراحل أساسية وهي على النحو التالي:

المرحلة الأولى: وهي المرحلة الممتدة من القرون الوسطى وحتى القرن الرابع عشر الميلادي وتكونت الأمة الشركسية خلالها من سبع قبائل وهي الزيوخ، والاباسك والأدمي، وكشك، وجيكيت، وسيركاسيا.

وفي المرحلة الثانية التي امتدت من القرن الرابع عشر وحتى نهاية حرب الإبادة في عام ١٨٦٤، وهي المرحلة التي أصبحت فيها الأمة الشركسية تتكون من ثلاثة شعوب هي: الأديغة والابخاز (الابازة) والأوبيوخ.

حيث أصبح شعب الأديغة مكوناً من أربعة شعوب

- **شعب القبردي،** وتضم ثلاث قبائل وهي قبردي الكبرى والقبردي الصغرى، وقبردي مزدوج، كما واصبح يطلق عليها قبائل (جلاخستني، وبسلني وقبردي مزدوك المسيحيين).
- **شعب الكياخ أو التشتاخ** وتضم (١٦) قبيلة شركسية كما هو موضح في الدراسة اللاحقة.
- **شعب الابخاز** فكانوا ينقسمون إلى قسمين رئيسيين هما:
 - **قسم الابخاز،** ويتكون من سبعة فروع أو قبائل.
 - **قسم الابازة أو الابازيين،** ويتكون من (٣١) فرعاً أو قبيلة.
- **شعب الأوبيوخ، أو بخ أو بيوخ** كما يطلقونه على أنفسهم وكانوا يسكنون على شواطئ البحر الأسود.

وأما المرحلة الثالثة فهي المرحلة الممتدة ما بعد انتهاء حرب الإبادة في عام ١٨٦٤ وحتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وفي هذه المرحلة تعددت القبائل واختلف المؤرخون وبعض الباحثين المختصين في دراسة شعوب شمال القفقاس حول عدد القبائل وأسمائها وحول أماكن تواجدهم.

وفيما يلي دراسة مختصرة لكل قبيلة من قبائل تلك المراحل.

■ قبائل المرحلة الأولى وهي المرحلة الممتدة من القرون الوسطى وحتى القرن الرابع عشر الميلادي.

إن الدارس لأوضاع الشعوب والقبائل الشركسية المستوطنة في قفقاسيا الشمالية في (الوطن الأم) لا بد له من الرجوع إلى ما كتبه المؤرخون الفرنسيون والرومان والبيزنطيون أولاً، وكذلك الرجوع لما كتب عن هذه المرحلة نقلاً عن الرحالة والمؤرخين الأجانب أمثال: يروكوب، وكوتستانتين، جان دوكران والجغرافي الجورجي فاخوشت، والرحالة انترينانو، وريان وغيرهم، بالإضافة لما كتبه قدامى المؤرخون العرب وعلى رأسهم المؤرخ الجغرافي المشهور (المسعودي) والجهاني، والبكري والعريزي.

هذا بالإضافة للاطلاع على ما كتبه المؤرخين الشراكسة نقلاً عن المؤرخين الأجانب المذكورين اعلاه وبالأخص المؤرخ (أتيك ناميتوق) في كتابه أصل الشراكسة المنشور في باريس عام ١٩٣٨ باللغة الفرنسية.^(١) حيث أكد بأنه استمر استخدام بعض أسماء القبائل (الشركسية التي

كانت تستخدم في مرحلة ما قبل الميلاد وحتى مرحلة العصور الوسطى وما بعدها).. ومنها الأسماء التالية:

* **الأباسغ Abasqhes** وكانوا يعيشون في بداية العصور الوسطى على أرض (اللاز) كما كان موطنهم في تلك الفترة أوسع بكثير مما كان عليه في المراحل السابقة الذي لم يكن يخصص لهم إلا جزءاً من الساحل على شمال الأبسيل (Apsiles) بينما باقي الساحل كان يسكنه شعب اللاز.

* **الزيخ - Zikhes** وتحدث عنهم الإمبراطور البيزنطي (كونستانتين بروفروجنيت Constantin Prophrogenet)، في كتابه (إدارة الإمبراطورية) والذي أملاه على أحد أبنائه في عام (٩٤١م) تحدث فيه قائلاً وكان شعب (كاساخ) يعيش وسط جزيرة كبيرة تسمى (أتبخ) (Atekh) بالقرب من كاساخ^(٢).

* **قبائل آدمي - هات** وفي عام ٩٤٩م أضاف المؤرخ العربي (المسعودي) معلومات جديدة على المعلومات التي ذكرها المؤرخ البيزنطي حول قبائل (ادم - هات) كما قال: بأنه فيما وراء (الالان) بين القفقاس وبحر الروم (أي البحر الأسود)، يعيش الكشك (Kesheks) (أو كاساك Kasak) الذين هم بالتأكيد نفس القوم الذي أشار (كونستانتين Constantin Porphyrogenete) إليهم باسم (كاساخ) (Kasakhe)، وهم الذين تذكرهم الوثائق الروسية باسم كوسوغ (Kassoghes) ويسميه الأوسيت (الأسيتين) كسغ (Kossoghes) وما زال (الأسيتين) يدعون الشركس حتى الآن باسم (كسغ) وخاصة للقردياي. وكذلك فإن المنغوليين (Mingreliens) كانوا يطلقون على الشركس اسم (كاشاك Kachak) وأضاف المسعودي بقوله: كانوا يملكون الحصون على ساحل البحر ويتصل عن طريق البحر بطرابزون ومن الجانب الآخر كان مجاوراً (للالان) وهكذا فإن (الكشك) الذين يشير إليهم (المسعودي) كانوا يسيطرون على كل الأرض الشركسية (أديغة)، أي على كل شمال غرب القفقاس. وأنشأوا القلاع القوية على شاطئ البحر والتي كانت تحميهم من غارات (الالان).

* الكشك

وفي مقطع آخر من كتاب ذلك الجغرافي العربي (المسعودي) نجد معلومات تفيد بأن (الكشك) كانوا يفدون بأعداد كبيرة إلى المعارض والأسواق التي كانت تقام في (طرابزون)، ووصفهم بأنهم شعب ذو أخلاق حميدة ويديين بالديانة الوثنية. ولا يوجد أي شعب آخر من الشعوب التي تقطن في هذه الأرجاء أو في الأقاليم الأخرى، عنده من الكمال الجسماني والأخلاقي، واللون الصافي، والرجال الوسمين والنساء الجميلات مثل هذا الشعب إطلاقاً ولا يوجد في أي مكان آخر في العالم مثل هؤلاء الناس في رشاقة أجسامهم وتناسق أعضائهم^(٣).

* الحيكيت:

أطلق (الجورجيون) أواخر القرن السادس الميلادي، وبالتحديد ابتداء من (٥٧٥م) اسم (جيكيت Jikth) وهم أجداد (الأبخاز) والجغرافي (فاخوست)^(١١) كان يميز بين (الجيك - Djik) وبين الإبخاز (الأديغ) القاطنين في الشمال قائلاً: الأبخاز والجيك يلبسون ويتسلحون مثل الشركس (Teherkes) تماماً.

ومهما يكن، فإنه لم يكن اسم جيك (Djik) يطلق إلا على جزء صغير من سكان الساحل: وهو الجزء الذي كان يعيش في جنوب الأوبخ (Oubykh) وفي شمال الإبخاز (Abkhazes) وكان العلماء يبحثون عن أصل بعض الكلمات مثل (جيجيت). (Djighit. Djighitovka) ويؤكد هذا المؤرخ أن الزيوخ (Zikhes) أو الأديغة (Adyghe) كانوا يقطنون في الأراضي التي تمتد على الساحل ابتداء من نهر (تاناون Tanaon) أي (الدون) حتى (البسفور - Bosphore)، وخليج القديس حنا (Saint-Jean) وخليج بحر زاباشه (Zabache) أو بحر كانا (Cana) الذي كان قديماً يسمى "بالوس ميئونيس" وهو ما يسمى اليوم (بحر آزوف). ثم تمتد أراضيهم بعد ذلك على طول البحر نحو الجنوب، حتى خليج بويس (Buis) في اتجاه الفاز (Phase)، ويتصل هنا بالأفوغازيا (Avogasia) التي هي جزء من كولخيديا (Colchida) وكل هذه الضفة التي تسير بمحاذاة (بحر آزوف) يقرب

طولها من (٥٠٠) ميل. وهي تتسع لأكثر من مسيرة خمسة أيام نحو الشرق وإلى داخل الأراضي العائدة لهم.

كما كان يسكن (الزيخ) في كل هذه البلاد دون أن يكون عندهم أي مدن محصنة أو محاطة بالأسوار، وأكبر مدينة لهم وأكثرها سكانا ومركزا للتجمع البشري عندهم كانت مبنية داخل واد صغير يقع في قلب بلادهم واسمه (كراموق أو كراموس) (Caramus) وتسمى الآن (تيمروق).

يؤكد المؤرخون البيزنطيون والعرب بأن عدداً من قبائل الامة الشركسية لم يعد لهم ذكر بعد العصور الوسطى مثل قبائل (المئوت والسند) كما أن جزءاً كبيراً من بلادهم، وكذلك فإن المناطق التي كان يسكن فيها شعوب (الكركيت) الشركسية تحولت إلى منطقة يسكنها قبائل (أخايفتيوس- Achaia vetus) وإن قبائل (زيخيا)^(٤) وهي التي سماها (المسعودي) قبائل (الكشك أو كازاك أو كاساك)^(٥).

وأما المناطق التي كان يسكنها (الأخائيين) فأصبحت تسكنها قبائل (الزيخ) بينما المناطق التي كان يسكنها قبائل (الحنيوخ) أصبحت مأهولة بقبائل (السانغ) وفي وقت لاحق صارت موطناً (للاباسغ).

وخلاصة القول إنه لم يعد أي ذكر لقبائل المئوت، والسند والاخائيين والسانغ التي كانت تسكن الشمال الغربي للقفقاس في المراحل السابقة للعصور الوسطى. كما أن اسم (كركيت) أصبح يعرف باسم (سركاس) عند الايطاليين، وباسم تشيركيس أو تشيركاس عند الروس والنتار^(٥).

وأشار المؤرخون بأن تناقص أعداد القبائل الشركسية التي كانت موجودة ومعروفة منذ عصور ما قبل الميلاد في أوائل القرون الأولى لميلاد المسيح، لا يعني اختفاء هذه القبائل، أو أنها قد زالت عن الوجود، بل إن الواقع هو حدوث تغييرات في التسميات فأصبح لها تسميات جديدة وأن بعضها اندمجت مع قبائل أخرى أو أنها رحلت من المناطق التي كانت تسكن فيها.

مقارنة الاسماء القديمة للشراكسة بالاسماء التي كانت مستخدمة في العصور الوسطى

نجد من مقارنة أسماء القبائل التي كانت موجودة ومعروفة في عصور ما قبل الميلاد وحتى القرون الأولى ما بعد الميلاد مع اسمائها في القرون الوسطى وحتى القرن السابع عشر الميلادي بأنها أصبحت على النحو التالي:

قبائل عصور ما قبل الميلاد وحتى القرون الأولى للميلاد	قبائل العصور الوسطى وحتى القرن السابع عشر الميلادي
* النارتيون	* الزيخ
* الانت	* الاباسغ
* المه وت	* آدمي - هات
* كركت	* الكشك - كاساك - كوسوغ - كسغ
* آخين	* جيكييت - الجيك
* زيخ - زيك	* سيركاسيا - سيركاس
* حانوخ	
* سانوخ	
* الباسك	

ويلاحظ من هذه المقارنة ظهور خمس حقائق وهي:

الأولى: اختفت أسماء نارت، والانت والمه - وت - وكركت وأخن وحانوخ، وسانوخ، وأستمر استخدام أسماء الزيوخ (الزيك) والأباسغ (باسك).

الثانية: ظهور أسماء جديدة لم تكن معروفة في العصور القديمة وهي:

أدمي هات، الكشك وكاساك وكسوغ (اوكسغ) وجيكيت أو (الجيك) وسيركاسيا أو سيركاسي.

الثالثة: أصبح الشركاسة يطلقون على أنفسهم اسم (أديغة - Adiga).

الرابعة: كان أول من استخدم اسم (سرکاسي - Ciucassi) هو جان دوکاريان عام ١٢٤٥م. كما ان أول خارطة ظهر عليها اسم (سيركاسيا) هي الخارطة التي وضعها الجغرافي الصيني كنج شي كاتيان في عام ١٣٣١.

▪ قبائل المرحلة الثانية وهي المرحلة التي تمتد من القرن الرابع عشر وحتى قرن نهاية حرب الدمار والإبادة للأمة الشركسية في عام ١٨٦٤

للتحقق من تاريخ وأسماء شعوب الأمة الشركسية في الفترة المبينة أعلاه قمنا بدراسة وتحليل ما كتبه كل من :

- القنصل الفرنسي في القرم وهو (غلاناني Xaverio Glavani) عام (١٧٢٤م) وكذلك ما كتبه قنصل فرنسي آخر في القرم أيضاً وهو (م. دي بسونيل - M. De Peyssonel).
- الباحث (كولد ينشتيد Guldenstaed) الذي زار القفقاس على رأس بعثة علمية في عام ١٧٦٨.
- ح. رانيغ والذي زار القفقاس عام ١٧٩٠.
- المؤرخ (بالاس Pallas) الذي كتب عن بلاد الشركس عام ١٧٩٣.
- الرحالة الفرنسي (كلابروت Klaproth) الذي زار بلاد الشركس عامي ١٨٠٧-١٨٠٨.
- بالإضافة إلى ما كتبه كل من برونيفسكي Broncwski ولوليه. Lulie ودوبويس - Doboïs وأيضاً بيل Bell J.s الذي زار بلاد الشركس عامي ١٨٣٧-١٨٣٩.
- دراسة وتحليل ما كتبه هؤلاء المؤرخون والرحالة توصلنا إلى مجموعة من الوقائع والحقائق التاريخية:

الحقيقة الأولى

قام قنصل فرنسا في القرم غلافاني (Xaverio Glavani) في عام ١٧٢٤ بتقسيم بلاد الشركس إلى أربع عشرة منطقة (كانتون) أو امارة. وعلى الرغم من أن الوصف الذي قام به لم يكن كاملاً ولا دقيقاً، إلا أنه كان أول مؤلف أوروبي يصنف الفروع المختلفة للشعب الشركسي، كما أنه يكتب أسماء المناطق بشكل لا يمكن العثور عليه في كتابات أخرى. فمثلاً كتب (ببزيديو Bizedou) بدلاً من (ببذدغو Bjedoukh) مما يجعله يستنتج أن الحرف الأخير (خ kh) ما هو إلا علامة للجمع. كما أنه يسجل اسم قيمييرغيا (Gemirgia) بدلاً من (قمرغوي) كما يكتبه المؤلفون الروس، وكذلك يقول (بيسني أو بيسيني Besney ou Bessini) بدلاً من (بيسلني Besleney)، وهكذا فإنه أورد، على سبيل المثال، اسم (كراباي Karabay) المرتبط حسب رأيه ب (غيمير غيا Gemirgia) بينما زعم (كلابروت Klaproth) أنه يعود إلى فرع البذدغو (Bjedoukhe) ^(٥).

الحقيقة الثانية

قام قنصل فرنسي آخر في القرم وهو (م. دوبيسونيل M.de Peyssonel) عام ١٧٢٥ بتنظيم جدول بأسماء القبائل الشركسية. وكان يحوي ثلاثين اسماً بعضها صعب التمييز، مثل: تولاني، جيغوريتز بيتشون، أوك، بالش، برتيباي، Aoug، Bitchoune، Djeguritz، Tolani،

(Balchi, Bertebai) وبالمقابل فإنه يحوي الفروع الهامة التي كان يجهلها زميله السابق (كلافاني Glavani) مثل: (حاجوكاي Hadjoukai) و (حاتيكوي Hatiboi) و (بجركواي Egherkoai) و (ابزاش Abezaches) و (أبازاخ Abazakh) كما أنه يسجل أسماء القبائل الصغيرة التي نسيها كل المؤلفين الآخرين مثل (السيدي Seidi) وهم فرع من الأبازة. كما أنه يدون بعض الاسماء بطريقة صحيحة أكثر من غيره مثل: (كيمر - كوي Kemir - Keui) الذي هو أقرب إلى الاسم الحقيقي الصحيح. بينما اكتفى الروس بكتابته بشكل (تيمركوي Temirgoi) مقلدين بذلك النثر الذين سبقوهم إلى تحريف ذلك الاسم.

الحقيقة الثالثة

يعتبر (كولد ينشيد) أفضل من كتب منذ عام (١٧٦٨م) عن بلاد الشركس والأباز حيث قدم كثيراً من المعلومات القيمة التي أصبحت مرجعاً لمن أتى بعده من الباحثين خاصة بالنسبة لقبائل الاباز وقسمها لثلاثة أقسام وهي:

قسم الجنوب الغربي: ومنها أبازيا القديمة وتضم (شيربيت، تشاجي، سادز، وآبييكا Chirpit, Tschadcschi, Sads et Aipga) وهو القسم التي يسمها الشركس كوشاسيب Kuschasip ومعناه (ما وراء الجبل).

قسم الشمال الغربي: وتضم (توبي، اولوخ، شايسيك، اوشابسو، أشة، وروكوش Tubi, Uleuch, Schapsich, ou schapso, Ache et Rokush).

قسم الشمال الشرقي: أو (كيسيك) وتضم كل من القبائل (قزلبك، تام، شكراي، باروكاي، أوباخ، باشلباي وسابار).

أما بالنسبة لبلاد الشركس الأصلية فإنها تقسم إلى ثمانية أقسام: (قباردا الكبرى، بيسلين، تيمركوي - مانيشاخ، أبازيخ، بشيدوع، حاتوكاي، بشانه Gran de-Kabardia, Beslen-) (Temirgoi-Manischach-Abazech-Bscheduch-Hatukey-Bschane).

الحقيقة الرابعة:

قام (بالاس) الذي زار بلاد الشركس عام ١٧٩٣ بتقسيم بلاد الاباز إلى قسمين رئيسيين هما:

أ- ابازا الصغرى ومنها يشق فروع وهي: شانتيمر، كليتش، كيشا، لو، بيبيرت ودوداروك (Schantemir, Klitsch, Kescha, Lou, Bibert et Dudaruk).

ب- ابازا الكبرى أو ابازة الشمال الغربي ومنها ستة فروع أيضا هي: بيشلباي، باراكاي، توبي واوبوخ، شايسيك، ناتوخاش أو ناتشو، كايتش (Beschilbai, Barakai Tubi et Ubuk, Schapsich, Natuchasch ou Natchu, Kaitch).

وأما بالنسبة للشركس الأصليين، فمثلهم مثل المؤرخين الآخرين الذين ظلوا يخطئون مدة طويلة بتصنيف الشابسوغ والناتخوي (Chapsoug et Natkhoi) بين الابازة (Abazes)، مع أن هؤلاء يتكلمون لغة الأديغة (Adyghe) ولا يعتبرون أنفسهم إطلاقاً ابازة، كما أن بالاس (Pallas) كتب اسم (جانا بشكل سانا) (Jane = Sane)، وذلك ما لا نجده عند أي مؤلف حديث آخر، ولكنه مطابق تماماً للاسم القديم ساني أو سانينغ (سانينغوي) (Sanigoi Sani ou Sanig).^(١٠)

الحقيقة الخامسة

قدم لنا المؤرخ الشركسي آيتك ناميتوق في كتابه أصل الشركاسة^(١١) تلخيصاً لما كتبه الرحالة والمؤرخون الفرنسيون عامة، وبالتحديد نقلاً عما كتبه كل من كلايرد، وبرونيفسكي، ولوليه، وديوبيسن وبيل، وكذلك عن أهم الرحالة والباحثين الذين زاروا بلاد الشركس (الأديغة) في النصف

الأول من القرن التاسع عشر وبالتحديد ما بين اعوام (١٨٠٧-١٨٣٩)م عن القبائل الشركسية (الأديغة) وأقسامها وأسمائها وأماكن استيطانها ونلخصها على النحو التالي:

أولاً: يقسم الأمة (الشركسية) إلى ثلاثة شعوب وهي:

* شعب الشركس، الذين يسمون انفسهم (أديغي Adyghe).

* شعب الأوبيخ، ويعتبرون من شعوب (أديغي Adyghe). ولكن لهجتهم تختلف عن لهجة الأديغة بشكل بَيِّن.

* شعب الأباز - أبازة (Abkhaso-Abaze). ولغتهم المعاصرة تختلف عن لغة الأديغة أيضاً.

وفيما يلي وصف ملخص لكل شعب من هذه الشعوب الثلاثة:

* الشعب الشركسي (الأديغي) وينقسمون إلى مجموعتين هما:

مجموعة القباردية (أو القبردي) ومجموعة الكباخ أو تشتاخ واعتمد في هذا التقسيم على المنطقة الجغرافية التي تتواجد فيها كل مجموعة، وكذلك على اللهجة المستخدمة لدى كل من قبائل المجموعتين.

وضمت مجموعة الكياخ (التشتاخ) القبائل والفروع التالية:

١- كرون (Grouun) الذين يقيمون في شبه الجزيرة التي تمتد بين خليجي اسك (Eisk) وبيسوك (Beisug) وهذه القبيلة الشركسية لم تعد تسكن في المكان نفسه، إذ اضطرت بالفعل بعد احتلال تلك المنطقة من قبل الروس إلى الهجرة نحو الجنوب وإلى الاختلاط بالقبائل (الشركسية الأخرى).

٢- الهاتقو أو الهتيوك (Hatko ou Hetouk) وكانوا يعيشون في جزيرة تامان (Taman)، وانسحبوا إلى الضفة اليسرى لنهر الكوبان بعد احتلال الروس للقرم. وفي عام ١٧٩١م عندما استولى الروس على نهر أنابه (Anapa) هلك الكثير منهم في القتال وانقرضوا تقريباً أو اندمجوا بالقبائل المجاورة لهم. ويطلق عليهم أيضاً الاسم التتري (أدالي Adaly) أي سكان الجزيرة، وقد ذكرهم دوبيسونيل (De peyssonnel) باسم آدا (Ada) والبعض يرجع الاسم الوطني للشركس (أديغ) إلى هذه الكلمة التترية (آدا ومعناها جزيرة).

٣- التشبين (Tchebein) وقد اندمجوا مع الناتكوى (Natkoï) فيما بعد.

٤- الخياك (Khegak) وكانوا يسكنون قرب مدينة أنابه (Anapa) وبقياء هذه القبيلة التي حصدها الطاعون الذي انت به الجيوش الروسية عام ١٨١٢م، قد تفرقت خلال القرن التاسع عشر، وكثير منهم اختلطوا بالناتكوى ويقول بعض الباحثين أن اسمهم مشتق من كلمة (khi) ومعناه البحر باللغة الشركسية.

٥- زاني / جاني (JANE) وكانوا يقطنون قديماً على الضفة اليمنى لنهر الكوبان، ولكن البظدغو (Bjedoukh) دفعوهم نحو جزيرة دنلياسف (Detliasf) (قره- كوبان Kara, Kouban).

وفي عام ١٧٧٨م عند اقتراب الروس، رحل (الزاني) إلى الضفة اليسرى لنهر الكوبان وعاشوا حتى عام ١٨٦٤م على ضفاف انهار بتشيتس وخوخاي (Pchets et Khokhai) بالقرب من أنابا (Anapa) وعلى ضفاف نهر اداغوم (Adagum) وكان يرأسهم الامراء سانيكو (Saneko) وزاني أو ساني (Zane ou Sane) وميداووكو (Medawoko).

٦- الناتوكوي أو الناتخوي، ناتخواج (Natkoï ou Natkhoï, Natkhoaj) وكانوا يسكنون بالقرب من السلسلة الأخيرة للجبال السوداء الواقعة على شواطئ البحر الأسود بدءاً من شبه جزيرة تامان حتى بلاد الأوبيخ (Oubykh) في الجنوب وبين عشرة وديان، وفي الثابت أن هذه القبيلة تتشكل من الابازة.

٧- الشابسوغ أو الشابسوخ (Chapsoughou Chapsoukh) وكان موطنهم إلى الشرق وعلى أنهار اوبن (Ubin)، وبسيكابي (Psikabe)، وشيبس (Chips)، وافيبس (Afips) وأيل، وكذلك على السفح الجنوبي لسلسلة جبال القفقاس، حيث كانوا يسكنون في وادي بسيزوي (Psizuy)، وذهب بعض الباحثين منهم إلى اعتبار أصل هذه القبيلة واحداً من أصل القبرداي (كلابروث Klaproth)، وآخرون صنّفوهم بين قبائل الابازة (Abazes) (مثل غول دينشتيدت وبالاس وغيرهما (Guldenstaedi Pallas etc))، وفئة ثالثة اعتبرتها خليطة أديغي- أبازي (Abaze-Adyghe) (مثل برونيفسكي (Bronevski)). ولكن مهما يكن فإن لهجة هذه القبيلة لا تختلف أبداً عن لهجة (بظدوغ وكيميرغوي) (Bjedoukh-Kemirgoi) (بظدغو، تشامركوي أو تشامكوي) وباقي القبائل الشركسية من مجموعة تشاخ (أو كياخ).

٨- البظدوغ (Bjedoukh) وكانوا يسكنون شرقي (الشابسوغ) على ضفاف أنهار بسيش (Psich) وبسيخومات (Psikhomat) أو مارت (Mart) وبيتشاش (Ptchach) وبسيقوبس (Psecups) (٢٤) وتشبي (Tchebi) واونابات (Unabat)، وسوب (Sup). وكانوا ينقسمون إلى فرعين (كركناي (Kerkeney) و(خمشاي- Khamichey) الذين سميا باسم اخين بطلين اعطيا اسميهما لقسمي القبيلة وهما الاميران (كركن - Kerken) و(خاميش - Khamich). وكان قسم من البظدوغ يقطن الضفة اليمنى (أي الشمالية) لنهر الكوبان قبل وصول القوزاق ولكنهم هجروها حينذاك، والآن يقيمون فقط على الضفة اليسرى منه، وهم يشكلون مع الكمرغوي الكتلة الأساسية للشركس - الجياخ (تشاخ) (Circassiens-Kiakhs) الذين بقوا في القفقاس. لقد كان (البظدوغ) مشهورين ببراعتهم في التعدين، وإن استثمار مناجم الفضة بالقرب من لابابه Labape الواقعة في بلادهم، كان يعطيهم شهرة كبيرة.

٩- الحاتيكوي Hatikoi (حاتيقواي) وكانوا يقيمون بين نهري (صحاكواش وبسيب) (Shagoache, Psip) وقديما كانوا يصلون إلى الغرب حتى أحواض أنهار افيبس، اوبين، غيل، ايل (Afips, Ubin, Ghil Eyel).

إن الحاتكو Hatko الذين كانوا يسكنون في جزيرة تامان ليسوا فرعاً من هذه القبيلة كما يبدو، كما نعلم أيضاً أن جزءاً من الحاتقواي قد انفصل عن مجموع القبيلة ليذهب وينضم إلى الشابسوغ والنايكوي، بينما كان قسم ثان من الباقيين يندمج مع الكمرغوي.

١٠- الكمرغوي Kemirgoi وكانوا يقطنون شرقي البظدوغ والحاتقواي بين نهري الكوبان وأنهار لابا (Laba) وصحاكواش (Shagoache) وعلى ضفاف أنهر (بسيناسوغ، غياغا، فارز، ول، دزاغو، وتشوكراج - Psinasug, Ghoaga Ul, Farz, Dzago et, Tchokradj). وكانوا يتصلون بالموخوش (Mokhoch) على ضفة نهر (أريم Arim) بالقرب من البلدة القديمة (جيراكي Dkiraki جراقي).

١١- الأدمي Ademi ويسكنون على ضفاف نهر بسيغا (Psega) وبالقرب من بسيش (Psich).

١٢- اليجركوي Eghekhoy أو (يجرقواي) يسكنون حول جراقي وراتازي (Djiraki et Ratazi).

١٣- الكيراي Kirai ويسكنون بالقرب من قبيلة (الأدمي).

١٤- الابزاخ (Abazakh, Abzakh)، وكانوا يسكنون حوض نهر صحاكواش (Shagoache) وروافده، كورجيبس (ومعناه النهر الجورجي) بشيخا، بخاتز، تفيزيس (Kurdjips, Pkhatz, Tfizeps) وكذلك حوض نهر لابا وروافده بشيزوي، شيغوبسين، حاغور وفارز، (Psizuy, Chegupsin, Hagur, et Farz) وأيضاً حوض بسيش (Psich) وروافده: نارت، بتشاص (Mart, Ptcharch) ومنهم من كان يسكن أيضاً حوض بسيكوبس (Psecups) وكذلك حوضي ونابات سوب (Unabat Sup) وهذا الأخير هو الذي يشكل الحد الفاصل بين الابزاخ والشابسوغ ويعتقد بشكل عام أن الابزاخ خليط من (الأديغي والابازة) وبشكل أكثر من (الأديغي والابويخ) حتى أن اسمهم يؤكد تلك الفرضية بينما يزعم البعض الآخر أن هذه القبيلة

أخذت اسمها: أبازاخ من اسم فتاة شركسية جميلة كانت تعيش قديماً في منطقته، أما التفسير الذي يقدمه الشركس أنفسهم لذلك الاسم هو: أبازام (م) + يخ = Abaza (m) + ikh وذلك يعني (ما دون الابازة أو ما بعد الابازة). وفي الواقع فإن (الابزاخ) يجاورون (الابازة) من ناحية الشرق.

يشكل الابزاخ واحدة من أهم القبائل الشركسية. وقد كانوا يتمتعون بدستور وبقوانين ديمقراطية، كما كانوا يشتغلون بالتعدين وفي استثمار مناجم الحديد في وادي نهر بتشاش (Ptchach) ومناجم الرصاص في وادي نهر كورجيبس (Kurdjips) تلك المناجم التي كانت مشهورة جداً كما لعبت هذه القبيلة مع قبيلة الاوبيخ دوراً هاماً جداً في السنين الأخيرة من الحرب ضد روسيا.

١٥- الموخوش Mokhoch كانت مواطنهم واقعة في جنوب شرقي الكمرغوي وعلى ضفاف نهر (فارز) وعلى سفوح الجبال السوداء. وبلادهم هذه كانت تحتازها انهار شيمبلوناخي (Chimblonakhe) تشوكراج (Tchokradj) بسيفير (Psifir) وعلى ضفاف هذا النهر الاخير كانت توجد بلدتي مربري (Merberi) وكورغوكاي (Kurgokai) وكذلك نهر بسيخوش (Psekuch) وكالخ (Kalkh) وأريم (Arim). وكان على رأس قبيلة الموخوش منذ زمن طويل الأمراء من آل بوغارسوق (Bogarsoko).

١٦- الأغوي Agoi (أكوي) وكانوا يقطنون جنوب الناتكوي (ناتخوأي أو ناتخواج) على شاطئ البحر الأسود بالقرب من طوابسه (Tuapse) ويدعوهم الكمرغوي (Kemirgoi) وبعض القبائل الشركسية الأخرى باسم حاكوش (Kakoutch) (حاكوتش، حاكوتسو) بينما يطلق عليهم البظدوغ والشابسوغ والناخوأي اسم (أغوي). ومن هذا الاسم اشتق اسم غويتخ (Goitkh) وهو الاسم الذي يطلق على الوديان الواقعة قرب طوابسه وأغويه (Tuapse, Aghuya)، وهذا الاسم الاخير يطلق على نهر صغير مجاور لطوابسه.

▪ **قبائل شعب القبرطاي:** وتضم كل من قبائل كباردا الكبرى، وكباردا الصغرى وهم البسلني منذ عام ١٧٥٩ علماً بأنهما كانت قبيلة واحدة قبل ذلك. حيث قام الامير كورغوكو ومؤيده بالانفصال (على إثر خلافات على الزعامة) بعد موت والدهم أمير الامراء (اينال الكبير) واستوطنوا الضفة اليسرى لنهر (التيرك) وقاموا بتأسيس مدينة كباردى الصغرى. وأما الذين لم يغادروا موطنهم الأصلي أطلق عليهم اسم كباردى الكبرى، وكانوا يقيمون في احواض أنهر شجم، باخسان، مالكا، يودكوموك، كوما (Tehegem, Baksan Malka, Podkoumok, Kouma)، وكذلك فإن قسماً من قبائل كباردا يعيشون في منطقة مزدوك وهم من الشركاسة الذين يؤمنون بالديانة المسيحية.

كما أنهم كانوا يقيمون في القرى والمدن الخاصة بهم في منطقة زيلينتشوك (Zelentchuk) ومعناها بالشركسية: ينزج، ينزج، وتسمى الآن (قرشاي شركس) وهم (البسلني) ^(١٣).

▪ **شعب الاوبيخ Oubykh (وبخ)** الذين يطلقون على أنفسهم اسم بخ أو بيوخ (Pekh, Piokh)، وهم يقطنون حول منابع (Shagoache, Pcheha) أي (صحكواشه، بشج) وعلى شواطئ البحر الأسود ويجري في بلادهم انهر زوييرة، لون، نيغة، باتخ، داغوميس، بسيخ، ساخه (Zuebze, Lon, Nighe, Batkh, Dagomeps, Psikh, Sakhe) ويجاورهم الناتخوأي والاغوي والابزاخ في الشمال والشرق، والابزاخ من الجنوب، وهم يشكلون نقطة الانتقال أو مرحلة وسط بين (الاديغي والابزاخ) وعلى الرغم من أن كثيراً من المؤلفين يعدونهم من قبيلة الابازة، إلا أن لهجتهم تختلف اختلافاً فنياً عن لهجة الابازة وانها لهجة وسط بين الابازة ولهجة الاديغة.

* شعب الابزاخ ويمكن تقسيمهم إلى قسمين (فرعين اثنين) هما:

* الابزاخ. * الابازة.

ويطلق الشركس على القسم الأول الاسم العام (ازيغ أو ازاغة Azyg Azghe) بينما يسميهم الاوبيخ اديغة Adzyghe وهؤلاء هم الابازة المقيمون وراء الجبال. أما الابازة فإنهم يسمون الاباخز باسم ايسوفي (Apsowi) والجورجيون يدعونهم اوبيزا، اوبازا، ايسيلي (Obesa, Apsili) وتتكون قبيلة الاباخز من العشائر التالية:

- البزبية (Bzibe) وهم جيران الاوبيخ من الجنوب.
- الاخيبيس (Akhips): ويمتد سكنهم من سوخوم (Soukhom) حتى كاييتي (Kabeti).
- الايبغا (Aibga) وهم القاطنون على ضفاف نهر كودور (Kodor).
- الزامبال (Zambal) وهم الذين يدعوهم الروس باسم تزيبلديننتزي Tzeblintzi ويقيمون في وديان كودور (Kodor)، ودال (Dal).
- الخربيس (Khirpis) وهم يجاورون السوان (Svanes) من الشرق.
- التشاجي (Tchaji) ويقطنون ضفاف أغر (Aghir) ومارمار (Marmar).
- الساذزة (Sadze) (أو الزادس Zads حسب قول كلايرون) ويسكنون على ضفاف نهر اوخوم Okhum.
- أما الابازة (ابازين) الذين يسميهم الاباخز عموماً باسم أشو (Acho) أو آبسغاتش (Apsgatch) فإنهم ينقسمون إلى عدد كبير من القبائل الصغيرة التي تحمل أسماء متعددة، وفيما يلي أهمها:
- التابانتا (Tapanta) ذلك هو الاسم الذي يطلقه على أنفسهم الابازة من الفروع الستة (التي - كيسيك أباز Alti-Kessek Abaza كما يلقبهم التتر) أما الشركس فيدعونهم (الأديغة) فإنهم يدعونهم باسكي (Baski).
- وهؤلاء يشكلون المجموعة الشرقية من الابازة، فهم يسكنون بالفعل بالقرب من منابع الكوبان وزيلينتشوك الكبير والصغير وكانت منطقتهم تمتد في بداية القرن الماضي إلى حوضي الكوما والبودكوموك (Podkounok).
- الباتشلباي أو الباشلباي - ويقطنون في الوديان العليا لنهري اوروب (Ouroup) (وارب Uarp)، وزلنتشوك الكبير.
- الميدوا (Medwa) (أو ميداوي Midawe) أو (ماجوا - Madjwa) وكانوا يقيمون على الضفاف العليا لنهر (لابا) بالقرب من الابزاخ، وكان مركزهم موجوداً في المكان الذي تشغله حالياً بلدة باغسكايا (Bagaskaya).
- الكازيلبك (Kazilbeg) أو الكازيلبيكييت^(٣٣) وكانت مساكنهم في الجبال بالقرب من منابع نهري (لابا) الكبير والصغير وتمتد بلادهم حتى البحر الأسود تقريباً، وكانوا يتصلون من ناحية الشمال بالبسليني.
- الشجراي (Ghegrey) وكانوا يسكنون في وادي لابا الصغير.
- الايبيكو (Haibiko) وهم الجيران المباشرين (للشجراي) السابق ذكرهم.
- السييدي (Seidi) وهي عشيرة لم يذكرها إلا دوبيسونيل (De peysonnel). وكانوا يسكنون بالقرب من الايبيكو.
- الباغ (Bag) وكانوا يعيشون في المجرى الأعلى لنهر فاذز (Fadz) وغير (خودز Khodz).
- إن هذه العشائر الخمسة الصغيرة الأخيرة ترتبط بقبيلة بالميدوا (Medwa).

- التام أو تامكيت (Tam, Tamkit) وكانت منازلهم على الضفاف العليا لنهر لبا الكبير، وبالقرب من منابع اوروب.
- الكوجو (Koujou) ويسميه الشركس (كوجو - Kojou)، بينما يدعوهم الروس كوفتشينسكي - أول (Kouvchinski aoul).
- الججين (Djedjene) وهم عشيرة صغيرة وهم جيران الرابي.
- البرزنديج (Berzendig) وكانوا يسكنون إلى جوار الكوجو السابقين.
- السارابي (Sarapi) وهم جيران الججين، وكانوا يعيشون بين الوديان العليا لنهر لبا الكبير وأوروب بالقرب من بلدة بريغرادنايا (Pregradnaya).
- وتقول الروايات الشعبية التي يتناقلها الأبازة، أن بلاد السارابي (Sarapi) كانت مفضلة من قبل أبطال النار الذين كانوا يترددون عليها كثيراً، وفي هذه المنطقة بالذات وفي داخل غابة قيباغا (Qibaga) توجد المقبرة التي يرونها للناس ويقولون عنها أنها مقبرة الناريتين.
- البراقي (Prakey) وكانوا يقطنون في ضفاف نهر غويس (Gups) وفادز (Fadz)، وهم ينتمون إلى نفس الأصل الذي يرجع إليه الميداوا (Medwa) وهم أقرباء أيضاً للابخاز المقيمين في منطقة سوخوم التي لم يكونوا بعيدين عنها أكثر من ٤٠ كم.
- التوبي (Toubi) ويسكنون بالقرب من منابع صكواش Shagoache وبشيجا Pcheha.
- الهاتشيبس (Hatchipsi) وهم جيران الأوبيخ مثل العشائر الأخرى.
- سيسيشيري (Sisipchire) ويقطنون إلى الغرب من السارابي (Sarapi).
- الشاشي (Chachi) وقد ذكرهم بيسونيل (Peysonnell) وكانوا يقطنون على شواطئ البحر الأسود، بالقرب من الأوبيخ.
- اراتخواس (Aratkhowas). ويسكنون بالقرب من الشاتي.
- تالكو (Talko) وهم يسكنون بالقرب من الأوبيخ.
- كوببخان (Koubikhan) وكانوا يسكنون على ضفاف البحر الأسود في جوار نالكوبي - مادجاوا وإيبسب (Ibsip Nalkoupi Madjawa).
- ويلاحظ أن التقسيم السابق إلى ثلاثة فروع للشركس اعتماداً على لهجاتهم لا ينطبق تماماً على الحقائق الانتوغرافية (وصف الاقوام) حيث أن (ظانة) عند الأديغة والأبازة، وكذلك (الشابسوغ والناخووي) يصنفهم البعض مع (الأبازة). ونجد (الاغوي) بين الناخووي والحاتقوي وعند (الشابسوغ والكمروغوي). و"اليجر قواي" الذين هم فرع من "الكمروغوي" نجد قسماً منهم من "الناخووي" مثلما نجد "باغ" بين الأبازا والأوبيخ.
- كوصحة - ظانة Kusha-Jane ومعنى ذلك الظانة الجيليون، وهم ظانة وامبير (وامبير بساريرخ - لبا صغير Wampir Psarerkh-Petit Laba)، وإن صفة (الجيلي) قد أضيفت إلى اسمهم لتمييزهم عن الظانة الأديغة. وعلى الرغم من أن هاتين القبيلتين (ظانة) تتكلمان بلهجتين مختلفتين: فإنه من الواضح أنهما لم يكونا في الأصل إلا قبيلة واحدة.^(١٣)

قبائل المرحلة الثالثة، وهي المرحلة الممتدة من عام ١٨٦٤ وحتى نهاية القرن التاسع عشر ربما كان أفضل من صنف القبائل الشركسية في هذه المرحلة هم الكتاب والباحثون التالية أسماؤهم وعلى النحو التالي:

التصنيف للكاتب (جموخة) * في كتابه The Circassians^(١٤) حيث تضمن القبائل الشركسية التي كانت تعيش في الوطن الأم في شمال القفقاس في السنوات الأخيرة من الحرب الروسية القفقاسية التي انتهت عام ١٨٦٤. إلى ثلاث عشرة قبيلة وهي:

- (١) قيردي / كباردينا - Kabardians . (٦) زانه او جانه - Zhanin .
- (٢) بسليني - Beslany . (٧) موخوش - Mokhosh .
- (٣) تيمر قوي / تيمر كوي - Temirgoi . (٨) تشلوقه - Tcheluga .
- (٤) بظه - دوغ/بزدوغ - Bzhedugh . (٩) نارت خواج - Nantkhuaj .
- (٥) أبزاخ - Abzakh . (١٠) حتوقوي - Hutuqwey .
- (١١) حاكوج - Hakuch وتضم عشائر خمش - Ximisch وتشيرشيني - Cherchenay، فينيل Vepsne وآدامي - Adamey^(١٤) .
- (١٢) أبازة / أبخازيا - Abkhazia - Abaza وهي قبيلة تعتبر أصلاً من القبائل الشركسية إلا أنها مع مرور الزمن أصبح لها لغة تختلف عن اللغة الشركسية لانقطاع اتصالها مع الشراكسة.
- (١٣) أوبيخ - Ubbykhs .

التصنيف الثاني:

وبالرجوع إلى التقرير السري الذي كتبه الجنرال الاستخباراتي الروسي (يوتنانت تورناو) عام ١٨٣٩م الذي سبق أن دخل حدود الأراضي الشركسية عام ١٨٣٤ من منطقة الكوبان عن طريق البحر الأسود بمهمة التجسس، (ألقوا القبض عليه ووضعوه تحت الإقامة الجبرية لمدة سنتين)، حيث جاء في تقريره بأنه زار قبيلة شركسية عام ١٨٣٤ وهي قبيلة بسليني وتقع في الطرف الأيسر من نهر كوبان وفي العام نفسه وقعت تحت احتلال الحكومة الروسية. غير أنهم رحلوا سراً إلى الطرف الأيمن من (النهر) عند مصب نهر (وارب) وأشار في تقريره لأسماء القبائل الشركسية التي كانت تعيش في حينها في شمال القفقاس وعلى النحو التالي:

(١) الكمرکوي أو ليزروقة

وكان يحكمها الأمير (بلوتوقه) ومن بعده الأمير (شرلوقه)، وكان موطنهما في عام (١٨٣٤) في الأراضي الواقعة، ما بين نهري (لايه) و (صحة كواشه) وفي العام نفسه قام (الجنرال زاس) الذي كان الشراكسة يلقبونه (بالرأس المثقوب) بتهجير (الكمرکوي واليزروقة) و (المخوص) من مواقع سكنهم إلى الطرف الأيسر من (نهر لابه).

(٢) المخوص:

كانت بإمرة الأمير (باغرسقو) ويقيمون في الطرف العلوي من الجهة اليسرى من (نهر لابه).

* الكاتب امجد حجوخة هو من الجيل الثالث من شراكسة المهجر في الأردن ومن المهتمين بكتابة تاريخ الأمة الشركسية باللغة الانكليزية وله أكثر من كتاب وبحث.

(٣) الحاتيقواي:

كانت قراهم موزعة على جانب (نهر لابه) وعلى الجانب الأيسر من نهر (صحه كواشه)، وأمرأؤهم كانوا موالين للحكومة القيصريّة الروسية.

(٤) البظه دوغ:

وكانت تسكن على جانب الأنهر (بسه قويس وبشيش) تحت وصاية أمرائهم (جه جناي - خمشي) وأصبحت القبيلة تحت إشراف الحكومة القيصريّة الروسية.

(٥) القبرطاي:

كانوا يقيمون في الطرف الأخير من نهر (بشيز) وعند نهري (تيزن - وارب) وكذلك (ينج) الصغير، وأقام القبرطاي في ذلك المكان وبعلم الحكومة الروسية وكل قرية من قراهم، تحت إمرة أمرائهم أو نبلائهم.

(٦) الشابسوغ:

وقال عنهم الجنرال تورنادو ^(١٥) (هم أناس طيبون جداً وذوو همة عالية وشديدو المراس ورجالات حرب)، كانوا يقيمون قرب منبع (بسه قويس) وحتى نهر (الكوبان) وعلى شاطئ البحر الأسود من (أنابه) إلى نهر (صاقة). وأراضي الشابسوغ قسمان: القسم الأول: - شابسوغ* الكبير: وهم سكان الجبل على محاذة نهر الكوبان، والقسم الثاني: شابسوغ الصغير: وهم سكان شاطئ البحر الأسود. ولم يكن لدى الشابسوغ أمراء ولا نبلاء، وكانوا يحترمون كبار السن (التحامادة) ويخضعون لأرائهم ونصائحهم وكانت قرى الشابسوغ الكبير تتبع نظاماً واحداً، وطرارز معيشتهم متشابه.

أما قرى الشابسوغ الصغير فكانت كل قرية فيها مستقلة عن الأخرى، وكان رئيس القرية هو الحاكم الإداري لها، وهو من كبار السن ومن ذوي الرأي والخبرة، وكلا القبيلتين كانتا تتحدان وتتعاونان وتقفان صفاً واحداً حين المجابهة مع الروس، والشابسوغ المقيمين على شواطئ البحر الأسود، اختاروا مناطق لسكنائهم في سفوح الجبال القريبة من الساحل لتكون تحت أنظارهم ولمراقبة جميع الطرق والمسالك المؤدية إلى البحر الأسود وعلى امتداد البصر. ورغم مخاطر الحرب ظل سكان الشابسوغ الصغير يربون المواشي ونسأؤهم يتمتعن بحرية أكبر، وكان تمسكهم بالدين ضعيفاً.

(٧) الأبزاخ:

يفصل بين الأبزاخ والشابسوغ (نهر بسه قويسة) وكانوا موزعين على أطراف سفوح جبال القفقاس حتى نهر (صحه كواشه) للتمويه والاختفاء عن أعين الجيش الروسي، واختاروا مناطق الجبال والوديان والغابات لكي لا يؤخذوا على حين غرة. غير أنهم كانوا يفتقرون للأراضي الزراعية والمراعي والمياه الكافية.

وكان الأبزاخ غير خاضعين لإمرة أحد من الأمراء ولم يكن لديهم أمراء إلا أنهم كانوا يحسبون حساب النبلاء لكثرة عددهم، ولم يكن النبلاء أغنياء، لذا كانوا يعيشون بدرجة الكفاف، أما النصف الباقي، فكانوا يغيرون على الأراضي التي استولى عليها الروس، وينهبون السكان، وعند الغارات كان الأبزاخ يتلقون المعونة من أخوانهم القبرطاي، وكذلك فإن شعب الأبزاخ كانوا غير متمسكين بأهذاب الدين الإسلامي بصورة كاملة، إذ كان الدين عندهم في عهده الأول، وكانوا يفتقرون إلى العلماء والمشايخ ورجال الدين.

(٨) الأوبيخ:

كانت أراضيهم مجاورة للتلال من جهة ما يسمونه (بشاقة) حيث تكثر مناجم الحديد، وبالقرب من نهر (بشاقة) وغابة (مزمارجية) يوجد بعض الأمكنة التي تتبع منها المياه المعدنية والكبريتية القابلة للاستحمام والعلاج.

* شابسوغ باللغة الشركسية معناها (الحصان المضمّر) أو السائيس الذي يضمّر الحصان حيث أن (ش) معناها (حصان).

وأما الكاتب الشركسي (مرتقوه قاسم) من جمهورية اديغة في الوطن الأم ربما كان أفضل من حدد سكن القبائل الشركسية في منطقة (الاديغة) وكذلك كان يعتبر خبيراً في وصف أسماء القبائل الشركسية التي كانت تعيش في منطقة الكوبان في السنوات الأخيرة من حرب الإبادة والدمار الروسية والتي انتهت باحتلال الوطن الأم عام ١٨٦٤.

تناول (مرتقوه) في كتابه (تاريخ أسماء الاديغة) أسماء القبائل الشركسية التي تعيش في منطقة (الاديغة) وفي بعض المناطق الشركسية المحيطة فيها وبالأخص القبائل التي كانت تسكن اقليم ساحل البحر*.

وكذلك فإن (مرتقوه) هو أفضل كاتب قدم لنا وصفاً دقيقاً لمواقع سكن القبائل الشركسية في منطقة (الاديغة) وقدم تحليلاً دقيقاً أيضاً لأسماء قبائل هذه المنطقة ومعنى اسم كل قبيلة ومدلولاته ومغزاه. حيث تناول (مرتقوه) في بحثه تاريخ (١٥) قبيلة شركسية وهي على النحو التالي:

القبيلة الأولى - آب دزاخ - أبزاخ ABD3Ax^(١٦)

الموقع والحدود

امتدت أراضيها عبر السلسلة الجبلية في القفقاس الغربي من منخفض "توبه" وحتى مدينة "بس قاب" الحالية، التي تعرف أيضاً بأسم "جوريانتش كليوتش" وتتبع من أراضيها عدة أنهار منها:

- بش حا ، به قوبس ، بش ض ، لا به .

وتتشترك حدود هذه القبيلة مع حدود قبيلة "شابغ" غرباً ومع حدود قبيلتي "بجدغو" و "حاتي قواي" شمالاً، وحدود قبيلة "مام خيع" شرقاً، في حين تمتد أراضيها في الجنوب الغربي إلى حدود قبيلة "ويخ" وأقامت القبيلة في قرى وبلدات عامرة، وانتشرت أهم مدن القبيلة في مختلف أنحاء أراضيها، منها على سبيل المثال:

- توبه ، داور حابله ، حاتقوه حابله ، نه دجقوه حابله ، يدج حابله.

اهتمام الرحالة بالقبيلة

تأخر اهتمام الرحالة بهذه القبيلة إلى أواسط القرن الثامن عشر، حيث أخذ بعض الرحالة الأجانب يترددون على هذه القبيلة، عبر المسالك الجبلية السرية، ويعود تأخر الاهتمام الجاد بهذه القبيلة إلى الطبيعة الجبلية الصعبة لأراضيها، حيث حالت هذه الطبيعة دون وصول الرحالة حتى وقت متأخر.

مصدر اسم القبيلة

تختلف الآراء حول معنى اسم القبيلة "آب دزاخ - أبزاخ" ويعيد معظم الباحثين هذا الاسم إلى الموقع الجغرافي لأراضي القبيلة، حيث تقع أسفل أراضي الأباز والابازة، ويعتمدون في ذلك إلى تحليل الكلمة إلى مقطعين ويعطي هؤلاء المقطع الثاني "خ = X" معنى "أسفل، أدنى، منخفض" بحسب اللغة الشركسية (الأدي غيه). وبذلك يكون معنى الكلمة برأي هؤلاء هو: "الجماعة التي تعيش أسفل أراضي الأبازة".

إن التدقيق في الكلمة يثير الشك في المعنى الذي أعطي لها، اعتماداً على معنى المقطع الثاني "خ = X"، إذ يرد هذا المقطع في العديد من أسماء القبائل الأخرى، دون أن يأخذ هذا المعنى.

* ولم يتطرق لأسماء القبائل الشراكسة في منطقة تشركسيا والقبرطاي وكرسندار .

فروع القبيلة

كانت تتألف القبيلة من فرعين: عرف الأول بأسم "أبزاخ الأراضي العالية" والفرع الثاني باسم "أبزاخ الأراضي المنخفضة" وهذا ما يؤكد اختلاف اللهجة في القبيلة وتقع مواطن الفرع الأول في المناطق الجنوبية الشرقية من أراضي القبيلة، وبالتحديد منطقة "توبه" وهي منطقة جبيلة، وقد عرف هذا الفرع أيضا بالأبزاخ الأصليين في حين تمتد أراضي الفرع الثاني في المنطقة الشمالية الغربية لأراضي القبيلة، ولا سيما في المنطقة التي تقع فيها اليوم مدينة "بس فاب".

المعالم الجغرافية

في أراضي القبيلة مواقع ومعالم جغرافية كثيرة، تحمل حتى الآن أسماء شركسية منها على سبيل المثال:

جبل الأبزاخ، ممر الأبزاخ، طريق الأبزاخ، مرعى الأبزاخ، نبع الأبزاخ، غابة الأبزاخ، وغيرها، ولا تزال هذه الأسماء متداولة.

النظام الاجتماعي واللهجة:

لم يوجد في القبيلة نظام ملكي أو نظام الإمارة خلافاً للقبائل الأخرى، وإنما كانت تتبع نظام (تحامدة) أو زعامة وقيادة كبار السن وللقبيلة لهجة أبزخية خاصة بها إلا أن عدد المتحدثين فيها حالياً تراجع بسبب انتشار لهجة الأديغة الأدبية المستخدمة حالياً غير أن بعض كبار السن يتحدثون بهذه اللهجة حتى اليوم إضافة إلى الشباب الذين يتكلمون مزيجاً من اللهجة الأبزاخية واللغة الأدبية، دون أن يؤثر هذا على أولوية اللغة الأدبية.

عدد أفراد القبيلة

كان عدد أفراد القبيلة في مطلع القرن التاسع عشر هو ٢٠٠ ألف نسمة ولم يبقَ منهم بعد التهجير القسري إلى تركيا سوى (١٦) ألف شخص.

القبيلة الثانية - قبيلة صابسيغ أو شاببيغ

الحدود والموقع

تنقسم أراضي هذه القبيلة إلى قسمين، عرف الأول منها باسم "بلاد الصابسيغ الكبرى" في حين عرف الثاني باسم "بلاد الصابسيغ الصغرى" وتمتد أراضي الصابسيغ الكبرى بين حدود قبيلة "أبزاخ" والضفة اليمنى لنهر "أطاقوم" بما في ذلك الجزء الشمالي الغربي من سلسلة جبال القفقاس، في حين تمتد أراضي الصابسيغ الصغرى، من الضفة اليسرى لنهر "أطاقوم" وحتى أواسط شبه جزيرة تامان بما في ذلك مناطق "أناب" و "تسته مز" على ساحل البحر الأسود.

أهم المدن:

المدن الساحلية وأهمها:

يس به، أجوي، تسته بس، صؤه يقو، حادج قو، صحه فيت، تحا غابص، صه حه كي الكبرى، صه حه كي الصغرى .

المدن في جمهورية الأديغة حالياً

توزع من بقي بعد التهجير على أربع بلدات (قرى) في محافظة واحدة في الأديغة وهي:

أف بس ب، به نه حه س، بس ي تكو ، حاش تكو .

إضافة إلى هذه البلدات الأربع، هناك عدة قرى "صابسيغية"، لا تزال قائمة في منطقة البحر الأسود، أي الإقليم الساحلي.

اشتقاق الاسم

يعود اسم صابسيغ لأحد الاحتمالات التالية:

الأول: نفسر كلمة صابسيغ أو شابسيغ بمعنى (اصحاب الخيل) أو المهتمين بالخيل.. اما لاحتمالات الأخرى هي:

- صاب = اسم علم + يسوغ = نحيف، رفيع، اي الشاب الوسيم.
- صخ سيغ = اعطى الجواد ومضى أي الفارس الذي انطلق ورحل.
- صب = صقيع + ستينغ = من حرق حرقاً، أي المنطقة التي تكثر فيها حالات الصقيع الذي يحرق النبات ويكوي البشرة أو ولد وقت الصقيع الحارق.
- تشه به = حبل، تل + يسوغ = رفيع، أي سكان الجبل الرفيع.
- صح = مائة + يسوغ = رفيع، أي ما يعادل مائة شخص نحاف الجسم.

عدد أفراد القبيلة

كان يبلغ عددها في عام ١٨٣٠ (١٥٠) ألف نسمة بقي منهم في الوطن الأم بعد التهجير القسري إلى تركيا في الأعوام ١٨٥٨ - ١٨٦٤ (٢١١٤) نسمة فقط.

المعالم الجغرافية

كانت بلاد الشابسوغ تضم نوعين من المعالم الجغرافية الأول الساحل والثاني الجبل وتم احتلالها بالكامل في عام ١٨٦٤ بعد حرب الإبادة والدمار. وربما كانت هذه القبيلة أكثر القبائل الشركسية تعرضاً للإبادة والتشريد من قبل قوات السلطات القيصيرية الروسية.

النظام الاجتماعي واللهجة

اتبعت هذه القبيلة منذ القدم نظام (التحامدة) وكانت الزعامة لكبار السن ولم يتبع فيها النظام الطبقي الذي كان متبعاً لدى قبائل القبرطاي والقبائل الشركسية الأخرى.

القبيلة الثالثة: قبيلة بجدغو - بجه دغو

الحدود والموقع

ارتحلت هذه القبيلة عدة مرات، وعاشت في مرحلة زمنية سابقة على ساحل البحر الأسود، وكانت حدود أراضيها، بحسب الخريطة التي أعدت في عام ١٨٣٠ على النحو الآتي:

- شمالاً: نهر "بصر = كوبان" - غرباً: أراضي قبيلة "شابسيغ".
- جنوباً: أراضي قبيلة أبزاخ. - شرقاً: أراضي قبيلة "حاتي قواي".

أهم مدن القبيلة:

يسكن حالياً افراد قبيلة البجدوغ في مدن وبلدات عديدة منها:

به نج قواي، أصه قه لاي، قوننش قوه حابل، غوه به قواي، وتشه بيشي، دجه دجه حابل، يتش حابله، قواي.

معنى اسم بجدغو:

تختلف الآراء حول معنى كلمة "بجدغو أو بجه دغو" ويعتقد معظم الباحثين أن الكلمة تعني: الذي أخذ البجه "أي الكأس" ويعتمدون في ذلك على تحليل الكلمة إلى مقطعين هما:

بجه = كأس + تغو = سرق أو أخذ أو نال ويعتقد الكاتب "يش ماف أوله" غير هذا المعنى، فيقول إن الكلمة مشتقة من اسم شجرة من الأشجار المعروفة بمتانة خشبها وتعرف باسم "بجه د - ويقول إن المقطع الثاني "غ - غو" يأتي بمعنى الجامع، أي من جمع يجمع جمعا، وهكذا يكون معنى

الكلمة برأي هذا الكاتب هو: الذي يجمع خشب، أو حطب شجرة ال "بجه د"، أي أن اسم القبيلة جاء نسبة إلى هذه الشجرة.

اهتمام الرحالة بالقبيلة

ازداد اهتمام الرحالة والمؤرخين بهذه القبيلة، منذ بدايات منتصف القرن السابع عشر، وقد استطاع أفرادها أن يحافظوا على ترابطهم ووحدهم، بعد انتهاء الحرب القفقاسية، أكثر من بعض القبائل الشركسية الأخرى، وينتشر أفرادها اليوم في العديد من المدن والبلدات والقرى الشركسية، ولا سيما في تلك التي تقع في محافظتي - توتشوج وتختم قواي.

نزوح القبيلة:

تضم القبيلة فرعين أساسيين، الأول يعرف باسم "بجدغو المنطقة الغربية" أما الثاني فيعرف باسم "بجدغو المنطقة الشرقية" ويعرف كل فرع من هذه الفرعين باسم آخر أيضاً، وذلك على النحو الآتي:

- الأول: خ م شه ي

- الثاني: تش تش ناي.

المعالم الجغرافية

أكثر ما يميز أماكن سكن هذه القبيلة هي تعدد الانهار التي تجري في موطنها الأصلي ومن أهمها الانهار التالية:

- يش ض - مارت - بيه قوبيس - تصء بي - صوء بس - بكا ص

عدد أفراد القبيلة

كان عدد أفراد هذه القبيلة في أوائل القرن التاسع عشر حوالي (٤٠) ألف نسمة ولم يبق في الوطن الأم بعد التهجير القسري سوى (١٢) ألف نسمة.

النظام الاجتماعي واللهجة

اتبعت هذه القبيلة النظام الاجتماعي الاقطاعي وكان الحكم فيه قائم على نظام الأمراء (بشي) مثل قبائل القيرطاي ولهم لهجة خاصة واحتفظوا بها أكثر من قبيلة الابراخ بالرغم من تأثرها باللغة الادبية المستخدمة حالياً في جمهورية الأديغة.

القبيلة الرابعة - قبيلة جانه

الحدود والموقع

القبيلة معروفة منذ القرن الثاني قبل الميلاد وتنتقلت كثيراً في بلاد شمال القفقاس إلا أن أفرادها كانوا يسكنون في عام ١٧٧٨ على الضفة اليسرى من نهر الكوبان وعاشوا هناك حتى عام الاحتلال الروسي (١٨٦٤).

أهم مدن قبيلة جانه

تعتبر هذه القبيلة من أكثر القبائل الشركسية التي تعرضت لعمليات الغزو الخارجي والعدوان التوسعي، وبشكل يكاد يكون متواصلاً، ولا سيما من قبل خانات القرم والأتراك العثمانيين، فقد تعرضت هذه القبيلة لما يزيد عن (٣٣٠) غزواً وكادت عمليات الغزو الخارجي أن تقضي نهائياً على هذه القبيلة، وبالتالي فلم يبق لهم إلا العدد القليل من المدن والقرى كما تضاعل عدد سكانها كثيراً.

ومن أهم مدنها (حاكورته حابل، واده - مي) و (به - نه - خس)

معنى اسم جانه

تباينت الآراء حول معنى كلمة "جانه" فهناك من يعتقد أنها مشتقة من كلمة "زانه" أي "ز" = 3bl - واحد أو وحيد"، ومنهم من يقول أن الكلمة تعني "ذات العيون السوداء".

عدد أفراد القبيلة

لم يبق منها في عام ١٨٣٠ سوى (١٢٠٠) نسمة، وقد توزع هؤلاء على بقية القبائل الشركسية. ولم يعد عودة الذين يعتبرون أنفسهم من بقايا قبيلة "جانه" سوى (٢١) شخصا في عام ١٨٨٣، وتوزعوا على بلدات "حاكورنه حابل"، "آده مي" و "به نه خس" أما اليوم فلم يبق من هذه القبيلة سوى اسمها، الذي يصادفه المرء في علم الاجناس.

فروع القبيلة

عرفت القبيلة باسم (سونه - أو "سانه) منذ القرن السابع عشر ويقسم نهر "آبن - Abbin" بلاد (الجانة) إلى قسمين يعرف الأول باسم "بلاد جانه الكبرى" في حين يعرف الثاني باسم "بلاد الجانه الصغرى".

القبيلة الخامسة: كه جوي - كم جوي**الحدود والموقع الجغرافي**

امتدت أراضي هذه القبيلة على ضفاف الانهار ولا سيما أنهار: صحة جواش وبسج كوبان، ولا به. وكانت أراضيها تجاور أراضي قبيلتي "مام خيغ" و "مه خوص" وقد عرفت هذه القبيلة بشكل أكثر منذ القرن الثاني عشر. وكانت تعتبر من القبائل الشركسية الكبيرة.

أهم المدن والقرى

لم يذكر لنا المؤرخون أي شيء عن القرى القديمة التي كانت تسكنها هذه القبيلة، أما اليوم فاستطاعت هذه القبيلة مثل قبيلة "بجدغو" أن تحافظ نسبيا على نفسها، أكثر من غيرها من القبائل الشركسية الأخرى ويتوزع أبناؤها اليوم على عدة قرى وبلدات في ثلاث محافظات هي: "صودجن" "كوش حابل" "كرستود جفارديسك".

ولعل من أشهر القرى والبلدات التي يعيش فيه اليوم أبناء هذه القبيلة هي:

- حات غوج قواي - حاكه مزيي - يه دجر قواي - مام ضيع - بيش ج حابل - دجان يه تشي - آده مي - دج رافي - قو قه به حابل.

معنى اسم القبيلة ولهجتها

لم يتفق الباحثون حول معنى اسم هذه القبيلة ولا يزال الجدل قائما حول تفسيره ويعتقد الكاتب (يش ماف أوله) أن الكلمة تتألف من مقطعين، الأول "كه م، كم = أناس" والثاني "جوي - القلب الواسع أو الكبير" وقد أخذت لهجة هذه القبيلة لتكون أساس اللغة الأدبية في جمهورية (الآدي غي).

القبيلة السادسة - قبيلة مام خيغ - مامكيغ

تمتد مواطن هذه القبيلة بين نهري "كوردجس" و "صحة جواش" بما فيها أراضي منطقة مايكوب، وقد أقام أفرادها في العديد من القرى والبلدات، من أهمها البلدات التالية:

- باط قواي، كانت هذه البلدة تقوم على الضفة اليسرى لنهر كوردجيس. - به جه ناي - "ده تشه حابل" وكانت هاتان البلدتان تقومان على الضفة اليمنى لنهر كوردجيس وفي مجراه العلوي وله

ب تسه حابل، وكانت تقوم على الضفة اليمنى لنهر "غوناي" وقويج حابل كانت تقوم في المنطقة التي تقع بالقرب من النقاء نهري كوردجيس وصحة جواش.

ازداد الاهتمام بهذه القبيلة منذ أواسط القرن السابع عشر، وقد بلغ تعداد أفرادها، نحو (٥) آلاف نسمة في عام ١٨٣٤، ولم يبق من أفراد هذه القبيلة في الوطن الأم سوى (١٢٥٨) نسمة في عام ١٨٨٣ وتعرضت هذه القبيلة، كغيرها من القبائل الشركسية، إلى التشرذم والانقراض نتيجة الحرب القفقاسية.

ويوجد اليوم في جمهورية (الأدي غي) بلدة كبيرة تحمل اسم هذه القبيلة، ينتمي معظم سكانها إلى هذه القبيلة، وتقع هذه البلدة على يسار مجرى نهر فارز الذي يمر بين هذه البلدة وبين مدينة "صود جن حابل" وتبعد البلدة عن عاصمة الجمهورية، مدينة مايكوب، نحو (٦٥) كم، ولا يعرف حتى الآن معنى كلمة "مام خيغ".

معنى اسم القبيلة

تتألف الكلمة من مقطعين الأول "مام" والثاني "خيغ" ويمكن وضع الاحتمالات التالية في تقسيم هذه الكلمة:

- مام = اسم علم + خيغ - اختصار كلمة "بلد"، وطن: أي بلاد، وطن، أرض.
- مام - مشتقة من مامر - هدوء، استقرار + خيغ = اختصار كلمة بلد، وطن، أرض: أي البلاد الهادئة، وربما يعود الهدوء والاستقرار هنا إلى طبيعة الطقس في المنطقة.
- مام = اسم علم + خيغ - حصاد، غلة، محصول: أي حصاد أو غلة أو محصول مام.
- مام = اسم علم + خيغ - حصاد: أي الوقت الذي يحصد فيها مام.
- مام = من أنواع الحبوب + خيغ - وقت الحصاد: أي وقت حصاد بات المام.
- مام = من أنواع الحبوب + خيغ - اختصار كلمة بلاد، وطن، أرض: فيكون المعنى هو بلاد نبات المام، وربما كان "مام" هو اسم نبات الذرة الصفراء عند بعض القبائل الشركسية التي انقرضت.
- لا يزال الشركس يستخدمون كلمة "مام" كاسم علم مذكر.

القبيلة السابعة: قبيلة نه ت خوي أو نت خوي أو ناتخوي

تقول كتب التاريخ أن هذه القبيلة تعود في أصلها إلى قبيلة "شابسينغ" وكانت تنتشر في منطقة "أناب" على ساحل البحر الأسود، وقد بدأ الاهتمام بهذه القبيلة يزداد مع بدايات القرن الثامن عشر وتجري في أراضيها أنهار عديدة، من أهمها الأنهار التالية:

- آطه قوم - صو يس - كودا قو.

لقد بلغ تعداد أفراد هذه القبيلة نحو (١٠٠) ألف نسمة في عام ١٨٣١، لم يبق منهم في الوطن، بعد الحرب القفقاسية سوى (٤٠٠) نسمة بعد أن أباد الجيش الروسي القسم الأكبر منهم، وهجر القسم الآخر إلى تركيا.

ولم يبق من بلدات هذه القبيلة وقراها سوى بلدة واحدة تدعى "نت خوي" اطلق عليها في بدايات العهد السوفيتي اسم "سوفوروف تشيركسك" غير أن أهالي هذه البلدة، هاجروا في عام ١٩٢٤ إلى محافظة "تحتم قواي" في جمهورية (الأدي غي)، وأسسوا بلدة جديدة، في موقع غير بعيد عن بلدة "شه ندجي" عرفت أيضا باسم "نت خوي".

يعتقد بعض الباحثين أن كلمة "نت خوي" تعني "العيون الزرقاء" ويستندون في ذلك إلى تقطيع الكلمة على النحو التالي: "نه = عين، تخوه، صخوه = أزرق أو مشتقات الأزرق + بي = له" فيكون معنى الكلمة هو أتباع صاحب العيون الزرقاء أو جماعة العيون الزرقاء.

معنى اسم القبيلة:

يمكن تحليل كلمة "نت خوي" على النحو الآتي:

- نه = عين + تخوه - خرمش يخرمش + أي = كثير، أي الذي يمد يده إلى العيون.
- نه = عين + ت = عطاء + خوي = كثير: أي الكرم والتضحية.
- نه = عين + تخوه = عكر، قرش + أي = كثير، شديد، أي (صاحب العيون القاسية أو الغاضبة أو غير الصافية) وربما يقصد العكس كما هو عادة الشعوب في وصف الشيء أحياناً بعكسه، أي العيون الجميلة.
- نت = اختصار كلمة نارت + خو = قو = ابن + أي = بي = له، فيكون المعنى هو (ابن نارت أو أحفاد النارتيين).
- نت = الكيس المصنوع من جلد الماعز + خوي = كثير، فيكون المعنى هو أصحاب هذا النوع من الأكياس للدلالة على كثرة هذا النوع أو الشراء.

القبيلة الثامنة - قبيلة آده مي - آدمي

من القبائل الشركسية القديمة واستوطنت ضفاف الأنهار، ولا سيما أنهار: صحه جواش - بش ش - بصاد

تعتبر هذه القبيلة فرعاً من قبيلة "كه م جوي" كم جوي والتي تعتبر من أكبر القبائل الشركسية، وتتباين الآراء حول معنى اسم القبيلة، بعضهم يعتقد أن الكلمة تركية، وتعني "إنسان" في حين ينسب بعضهم الاسم إلى "آدم" بينما يقول البعض إن الكلمة تتألف من مقطعين الأول "آد" والثاني "مي".

هناك علاقة بين اسم قبيلة "آده مي" واسم بلدة "آده مي" التي تقع في جمهورية الأديغة ويعتقد أن اسم القبيلة يعني "بلدة آدم" وذلك على أساس تقطيع الكلمة على النحو الآتي: آدم + بي = ملك لآدم.

القبيلة التاسعة - قبيلة سوباي

تعتبر من أقدم القبائل الشركسية وكانت تعيش في الحوض الأعلى لنهر - آف بس - ويلاحظ هنا أن أخبار هذه القبيلة لا ترد كثيراً في كتب التاريخ، وقد اندمج أفرادها مع القبائل الشركسية الأخرى، ولم يتمكن الباحثون حتى الآن من معرفة المعنى الدقيق لكلمة سوباي - ويرد في التوبونيمية الشركسية اسم جبل يحمل اسم هذه القبيلة، الأمر الذي يؤكد مواطن هذه القبيلة التي اندثرت وتلاشت عن الوجود.

القبيلة العاشرة - قبيلة حه غاكه حر

أشار الرحالة أوليا جلي لأول مرة إلى وجود هذه القبيلة في منطقة - أناب - وذلك في الفترة (١٦٤١ - ١٦٦٦)، وقد قضت الحروب والأوبئة على هذه القبيلة، التي بلغ تعدادها في ذلك الوقت نحو (٥) آلاف نسمة، إذ لم يبق من أفرادها في عام ١٨٨٣ سوى (١٠) أشخاص، منهم (٧) ذكور.

ويعتقد بعض الباحثين أن اسم القبيلة يعني الأراضي المنخفضة أو السفلية، ويعتمدون في هذا على تقطيع الكلمة إلى مقطعين، الأول "حه غا" = اختصار لكلمة بلاد، أرض" والثاني "كه، كاخ" - أسفل، أدنى" فيكون معنى الكلمة هو سكان الأراضي المنخفضة أو سكان الأراضي التي تقع في الأسفل، أو ما شابه ذلك.

وأورد (مرتوقة) عدة احتمالات لمعنى اسم هذه القبيلة منها

* خه غا = اختصار كلمة ضواحي + كاخ = جديد، حديث، فيكون المعنى هو سكان الضواحي الجديدة أو الذين سكنوا حديثاً في الضواحي.

* يمكن ان تأتي بمعنى المزارعين أو الذين يستصلحون الأراضي المنخفضة أو السفلية، أو الضواحي.

* خه غا = من فعل بكى يبكي + كآخر = الحديث، فيكون المعنى هو الذي بكى مؤخراً، حديثاً.

القبيلة الحادية عشر - قبيلة مه خوه ص - مخصص

امتدت أراضي هذه القبيلة ما بين نهر "لابه" شرقاً ونهر "فارز" وحدود قبيلة أبزاخ غرباً وبين حدود قبائل: يدجرقواي، مام خيغ، بس له في الجنوب الشرقي، والأراضي التي استوطن فيها "النغوى" في الشمال، وتجري في أراضي القبيلة عدة أنهار، منها على سبيل المثال:

- فارز - بس فه - شه خورادج.

أخذت أخبار هذه القبيلة ترد في كتب التاريخ بشكل أكثر منذ بدايات القرن الثامن عشر، وكانت بلدة "ساسرقواي" مركز هذه القبيلة، وقد بلغ تعداد أفرادها، نحو (١٠) آلاف نسمة في عام ١٨٣٠، بقي منهم بعد الحرب القفقاسية فقط (١٥٠) نسمة، واندمج من بقي من أفراد هذه القبيلة مع القبائل الشركسية الأخرى، ويرد اليوم اسم "مه خوص" في اللغة الشركسية كأسماء أفراد وعائلات، ولم يتمكن الباحثون حتى الآن، من تفسير كلمة "مه خوص".

القبيلة الثانية عشرة - قبيلة يه دجه رقاوي - يد جرمواي

ترد أخبار هذه القبيلة في كتب التاريخ منذ القرن الرابع عشر، وكانت تجاور قبيلة "كم جوي" وتشترك حدود أراضيها مع حدود قبيلة "مه خوص" مخصص في الغرب، وحدود قبيلة مامكغ في الجنوب الغربي، حتى الموقع الحالي لمدينة مايكوب.

يعتقد بعضهم أن اسم القبيلة مستمد من اسم "يه دجه رقاو" أي نسبة إلى شخص يدعى "ابن يه دجه" ويتوزع أفراد هذه القبيلة اليوم، على العديد من القرى والبلدات الشركسية في جمهورية (الأدي غي)، كما هو حال العديد من القبائل الشركسية الأخرى، وهناك في الجمهورية بلدة تحمل حتى اليوم اسم هذه القبيلة.

وفسر (مرتوقة) اسم هذه القبيلة بقوله :

يمكن تقطيع هذه الكلمة وفق الآتي: "يه بمعنى سيء، مصيبة + دجر = منادي + قوة = ابن + يي = له، ملكه، اتباعه. فيكون المعنى هو صاحب الحظ السيئ أو الصوت السيئ أو ما شابه ذلك، وربما ولد "يه دجر" وفي وقت عصيب أو ترافقت ولادته مع حدث سيئ، فيكون المعنى هو الذي ولد في ساعة المحنة أو الخطر. وربما كلمة "به دجر" تعني "قارئ" فيكون المعنى "ابن القارئ" أو تعني المنادي فيكون المعنى "ابن المنادي أو الذي يصرخ كثيراً".

القبيلة الثالثة عشرة - قبيلة حاكوتشو

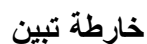
وهي فرع من قبيلة "صابسيغ"، ويعتبر معظم أبناء بلدة "تعا غابص" التي تقع على ساحل البحر الأسود، من أبناء هذه القبيلة.

القبيلة الرابعة عشرة - قبيلة حاتي قواي - حاتقواي

تعد هذه القبيلة من القبائل الشركسية التي ارتحلت كثيراً، وقد استوطنت في فترة من الزمن على ضفاف الانهار التالية:

ويقول بعضهم أن اسم القبيلة يعود إلى شخص يدعى "حات يقوه = ابن حاتي"، وتوجد بلدة على نهر "لابه" تحمل اسم هذه القبيلة، ويعتقد أن بعض أبناء هذه القبيلة، هم الذين أسسوا هذه البلدة، وتعني الكلمة "بلدة ابن حات" وذلك على الأساس التالي: حات = اسم علم + يقو = ابن + يي = له.

قبيلة شركسية قديمة، عاشت في شبه جزيرة تاسان، وعرفت أيضاً باسم آخر هو "ح تكو" وتقول كتب التاريخ أن أفراد هذه القبيلة، اندمجوا مع الزمن مع قبيلة "نات خواي" وقد بقي اسم "أداله" دون تفسير حتى الآن.^(١٦)



مواطن القبائل الشركسية "الإديغة" قبل الاحتلال الروسي للوطن الأم عام ١٨٦٤

مصادر ومراجع الفصل الثالث

- ١) نامتيوق، أتيك، مصدر سابق ص ٧١-٧٧.
- ٢) Constatin porphytrgenetc إدارة الامبراطورية نشر عام ٨٤١.
- ٣) المسعودي، المؤرخ الجغرافي العربي عام ٨٤٣م.
- ٤) نامتيوق، أتيك، مصدر سابق ص: ٧٥.
- ٥) المسعودي، مصدر سابق، ص: ٧٧.
- ٦) نامتيوق، أتيك، مصدر سابق، ص ٧٤.
- ٧) المصدر نفسه، ص: ٧٤.
- ٨) المصدر نفسه، ص ١٣-١٥.
- ٩) م. جولدن، شيدت M. Guldensstaedt زار القفقاس عام ١٧٦٨ وكتب عن حياة بلاد الشركس والابخاز وقدم الكثير من المعلومات القيمة التي اعتبرت معلومات أساسية لمن جاء بعده من الباحثين.
- ١٠) ن، بالاس N. Pallas زار المنطقة الشمالية من بلاد الابخاز وهو افضل من كتب عن أوضاع الابخاز والابازين (الاباظة) عام ١٧٩٣.
- ١١) نامتيوق، أتيك، مصدر سابق، ص: ١٥-٢٢.
- ١٢) جوناتوقة، ت (عزت يوسف) ص: ١٨٠.
- ١٣) نامتيوق، أتيك، مصدر سابق، ص: ١٩-٢٢.
- ١٤) جموخة، أمجد - The Circassians منشور في بريطانيا عام ٢٠٠٠ ص: ٢٠-٢١-٢٣-٢٩.
- ١٥) الجنرال برتتان تورنادو، ذكريات من القفقاس، جورجيا، طبعة عام ١٨١٩ . ص ٢٠-٢٤.
- ١٦) مرتقوة، قاسم ، تاريخ أسماء الأديغة، (باللغة الشركسية) دراسة وترجمة عز الدين سطاس من شراكسة المهجر في سوريا، ونشر تحت عنوان (الشركس حضارة ومأساة) في دمشق عام ١٩٩٩.
- ١٧) مجلة الآباء، الجمعية الخيرية الشركسية، فرع وادي السير، العدد (١٤٢) السنة الرابعة والثلاثون، نيسان/ حزيران ٢٠٠٧.

الفصل الرابع

الاسماء والالقباب التي عرف بها الشراكسة

منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث

قبل البحث في الاسماء او المسميات التي عرف بها الشراكسة منذ العصور القديمة وحتى العصر الحديث لا بد لنا من البحث اولا عن أهم الاسماء الرئيسية التي دار حولها جدل كبير منذ القدم واختلف عليها العديد من المهتمين بتاريخ القفقاس وشعوبها عامة وبتاريخ الأمة الشركسية خاصة وكان أهم الاسماء التي اختلف على منشئها أو مصدرها هي:

الاسم الأول: النارتيون أو قوم نارت.

الاسم الثاني: الانتيون أو أمة الآنت.

الاسم الثالث: الأديغة (الاديكة أو اديخة أو اديغي)

الاسم الرابع: الشراكسة (جركس أو جراكسة أو شراكسة أو سراكس أو سيركسيا)

وفيما يلي تحليل موجز عن مصدر ومنشأ كل من هذه الالقباب الأربعة.

الاسم الأول: النارتيون أو قوم نارت

عرف الشراكسة منذ القدم بقوم (نارت) أو (النارتيين) فهو اسم رمزي استعمله الشراكسة في ملاحظتهم الشعرية وقصصهم وأساطيرهم منذ العصور القديمة، ويقول (ناميتوق) بأن استخدام اسم (نارت) يعود إلى زمن بعيد جداً، وهي تسمية لا نعلم ان كانت تعود إلى العصور الحجرية القديمة منها والحديثة (النيوليت) ام قبل ذلك وفي زمن لم تكن فيه الكتابة مكتشفة ولا التاريخ مكتوباً كما يقول أن (النارتيين) هم الأقوام أو الامة التي ينتسب إليها الشراكسة اصلاً، وقد يكون هذا المصطلح هو أقدم مصطلح يطلق على الشراكسة في الملاحم الشعرية والاساطير والقصص التي تصف حياة امة متكاملة تضم آلهة وشعوباً وامراء وشخصيات، بالإضافة إلى وصف لعادات ومفاهيم لا يمكن ان تكون جميعها من نسج الخيال ولا بد أنها تصف وتحدث عن وقائع وحقائق ومع الزمن أضيفت إليها بعض الاحداث والحوادث الخيالية^(١).

أما المؤرخ الشركسي (نغموقه) فهو ايضا يتبنى فكرة ان (نارت) هو اسم لشعب، حيث يعتبر النارتيين احفاداً الانتيين وأسلافاً للأديغة.

وحسب رأيه فإن كلمة (نارت) أصلها (نارانت) التي تعني (أم الانتيين) مما يفسر حسب اعتقاده العلاقة بين النارتيين والانتيين خاصة وأن الانتيين شعب ثبت وجوده تاريخياً واعتبر الشركس الأديغة هم أحفاداً للانتيين والنارتيين^(٢).

وكذلك فإن (سمكوغ) يؤيد ما ذهب إليه كل من (ناميتوق ونغموقه) ويفترض بأن (نارت) وهي التسمية الموهلة في القدم والتي انتسبت إليها الشعوب الشركسية منذ العصور الحجرية وحياة القنص وقطف الثمار، ولا نعلم إلى أي مدى يمكن أن تعود في القدم ولكن تحليلها المقطعي يمكن أن يدلنا على مرحلتها الحضارية ويمكن أن تعود لأواخر الميزوليت أو النيوليت ولبدائيات مرحلة (عبادة الأم) ويمكن ان تلفظ (نات) بدون حرف (راء) لأن (راء) ما هي إلا أداة التعريف (ن + ت) وتعني (عطاء الام) إذ يعتبرون أنفسهم عطاء الام الآله الكبرى التي كان يعبدها النارتيون.

ويفسر لنا (سمكوغ) كلمة نارت في التحليل التالي:

١- حرف (ن أونا) هو حرف وجذر يدخل مجموعة كبيرة من الكلمات (والألف) هنا حرف صوتي يدل على الفتحة وتأتي للفصل بين حرفين ولا معنى لها (والنون) حركت بالفتحة بسبب الألف وهي في الأصل حرف (ن) ويعني (أم).

٢- حرف (التاء) يعني العطاء والمنح والهبّة (باللغة الشركسية) وهكذا تصبح هذه الكلمة ن + ت ومعناها بالشركسية (عطاء الام) و (هبة الأم) وهي التسمية الطبيعية التي تمثل مرحلتها الحضارية عندما كانت هذه الأقوام تعيش عصر (الأسرة الامومية) وعبادة الآلهة (الأم الكبرى) وهي التي تطورت فيما بعد وسميت بآلهة الهبة والعطاء^(٣).

أما المؤرخ الشركسي (اوزبك) فيؤكد على ما ذهب إليه الآخرون قائلاً: إذا ما تفحصنا تعبير (نات) أو (نارت) نجده مؤلفاً من جزأين: الأول (نا) أو (نار) والثاني (ت)، وبالنسبة للأول فإن (نه) تعني (عين) وبالنسبة للثاني فإن (ت) أو (تن) وتعني (اعطى، أهدى) ويكون المعنى الكامل معاً (نارت) أي الذي (يضحى بعينه أو يهدي عينه) فالناتيوخاج والشابسوغ يستعملان لفظ (نات) أو (ناتة) دون إظهار حرف الراء في الكلمة^(٤).

وأما رأي (حادا غالة) المؤرخ المختص بأساطير النارتيين من شراكسة الوطن الأم فيعتقد بأنه يجب على الباحثين التحقق من مدلول كلمة (نارتي) ضمن المعنى الذي يدل على (فتح العين)، حيث إن الأديغة يستعملون تعبير (أنت مثل عيني، أنت مثل قلبي) أو (اعط عينك لتحفظ وجهك) وعندما يقول أحد من (الأديغة) بأنه يضحى (بعينه) لأجل أحد ما. فهذا يعني أن هذا الشخص ذو قيمة كبيرة لا تقدر بثمن، والأشخاص الذين عندهم استعداد للتضحية بأنفسهم من أجل الآخرين يدعون (نه - يت) أو (نيت) حيث يتغنّى عامة الناس بأفعاله ثم يتحول تعبير (نتة) بالتدريج رمزاً للبطولة بكل أشكالها لدى الآسيتين وبقية شعوب الشركسية في القفقاس.

ويرفض (حادا غالة) أن يكون (نارت) هو اسم لأمة أو قوم أو شعب، إنما هو اسم أو رمز لقصص وأساطير^(٥).

نستنتج مما تقدم وجود اتفاق بين ثلاثة من الباحثين والمؤرخين الشراكسة حول معنى مصطلح (نارت) ويؤكدون بأنه أول اسم عرف به أجداد (الأمة أو القوم) الشركسي وانهم جذور الأمة الشركسية وأجدادهم الحقيقيون، وأن لم يكن أحد من المؤرخين القدامى قد ذكرهم أو كتب عنهم علماً بأنهم ربما يكونون من الأمم القديمة التي سكنت منطقة القفقاس منذ فجر التاريخ قبل الكاسيين والكميريون والحثيين الخ... وحيث أن نشوء هذه الأمة قد يعود إلى العصر الحجري وفي زمن لم تكن الكتابة مكتشفة، والتاريخ غير مدون وأن علماء الآثار لم يكتشفوا آثارهم وبقاياهم. "إلا أن عدم اكتشافها لا يعني أنها غير موجودة في الطبقات السفلى من الأرض التي كانوا يعيشون عليها وهي الطبقات التي لم يصل إليها علماء الآثار حتى الآن لوجودها في الطبقات السفلى وعلى أبعاد عميقة.

وانطلاقاً من هذه الفرضية فإنني (شخصياً) من الذين يرجحون بأن اسم (نارت) هو اسم لقوم أو أقوام أو شعوب عاشت فعلاً في زمن يعود تاريخه إلى ما قبل الميلاد، وعلى علماء الآثار عامة والشراكسة منهم مواصلة البحث للتحقق من صحة هذه الفرضية.

الاسم الثاني: الانتيون أو (أمة الآنت)

يقول (سمكوغ) في كتابه (الشركس في فجر التاريخ) ((مع انتشار الزراعة المروية وبناء المدن تعددت الآلهة وتجاوزت أعدادها منها آلهة الزراعة (أنته) كما هي واردة في الأساطير الشركسية وتعني (عطاء وهبة إله السماء) ويبدو أن تسمية (أنت) تلازمت مع الدخول إلى عصر الزراعة وتربية الماشية)).

كما تشير الأساطير الشركسية بأن (الآنت) كان اسماً يطلق على الشراكسة في عصر لاحق لعصر قوم (نارت) وبعض المؤرخين يعتقدون بأن اسم (أنت) أطلق على الأمة الشركسية في الفترة ما بين (٣٠٠-٤٠٠) سنة قبل الميلاد كما جاء في مرثية مقتل (أمير باقسان).

وتحليل كلمة (أنت) إلى ثلاثة مقاطع أو أحرف نجد بأنها تتكون: من الحرف الأول وهو حرف الالف في أول الكلمة وهي أداة النداء بمعنى (أ + جال) ومعناه ياشاب (أ + باشاش) ومعناه يا بنت.

والحرف الثاني هو الحرف (ن) ومعناه الأم وعندما اقترنت بأداة النداء غدت اسم علم للسماء والحرف (ن) بلغة الأبخاز لا تزال تعني (الأم).

والحرف الثالث هو الحرف (ت) وتعني العطاء أو الهبة.

وهكذا يكون معنى الكلمة (هبة إله السماء) أو (عطاء إله السماء)، وهذا يوافق المرحلة الحضارية للبرونز المبكر المتوافقة مع بدايات التحول إلى نظام (الأسرة الأبوية) وعبادة قوى الطبيعة، وقد عرفت هذه المجتمعات عبادة (إله السماء والشمس) نستدل عليها من الرسوم الشاعية وأوضاع الدفن بشكله المثلث باتجاه الشمس والشرق مع رفع اليدين إلى أعلى، ونثر مادة المغرة الحمراء. وهي تشبه أوضاع الدفن في كل حضارات أسية الغربية، وشعوب الأسرة القفقاسية واستيطانها في هذه المواطن بدءاً من عصر (النيوليت) وحتى فجر التاريخ^(٦).

لقد ورد ذكر كلمة (أنت) لدى الكثير من المؤرخين وخاصة اليونان الذين كانوا يستوطنون حول بحر أزوف وشمال البحر الأسود وكل الساحل الشرقي للبحر الأسود وحوض الكوبان وحتى مصب نهر الترك شرقاً، إلى القفقاس الشمالي الغربي حتى ساحل البحر الأسود، وتعتبر المنطقة السابقة البؤرة المركزية لتوزيع أسرة شعوب القفقاس غرباً نحو أوروبا وجنوباً في آسيا الصغرى ومرتفعات إيران وصولاً إلى جنوب الرافدين.

ولإثبات صحة ما تقدم ينبغي علينا الرجوع إلى الشعر الشركسي القديم وأخذ بعض الأمثلة منه. فمثلاً إذا دققنا كلمة (أنتي نوكوبش anty-nokopjesh) وجدنا أن معناها ابن أمير أنتي و (أنتيغ شاوه) antigishua معناها شاب أنتي و (أنتيغ ورق antigi-worq) معناها نبيل أنتي كما أن (أنتيغ شو antig shou) معناه فارس أنتي. ويقول (نغموقه) بأن صحة ما أوردناه حول (الأنت) يؤيدها شهادة بعض مؤلفي الإغريق الذين كانوا يطلقون أسماء شعوبنا على المواقع والأقاليم التي كانت تسكنها هذه الشعوب قديماً^(٧).

وكذلك نجد أن الخارطة التي وضعها (لابي Lapie) والذي اهتم بجمعها وتنسيقها كل من (بتولوميوس ptolemaeus) و (بلينيوس Plinius) نجد كلمة (أنتي سه Antisa) تطلق على ضفتي نهر الكوبان أي عند ملتقى هذا النهر بنهر اللابا.

كما أن (سترابون - Strabon) يسمي في مؤلفه الذي نشره عام ٢٦ ق.م نهر الكوبان (أنتي كيتس antikittiss)، غير أن مؤلف كتاب (الدربندنامة Derben Nama) يسمي جميع الشعوب القاطنة في البلاد الواقعة ما بين نهر (الترك terk) وسواحل البحر الأسود الشرقية شعوب (جولي أنت Djuli Ant).

وكذلك نستدل من الروايات المتداولة أن (أمة الأديكة) كانت تقطن قديماً البلاد الواقعة ما بين نهر الترك في الشرق ونهري (الفولجا Volga) و (الدون Don) في الشمال. وقد كانت هذه التسمية معروفة قديماً لدى الإغريق والرومان، كما أن البيزنطيين يطلقون على دلتا نهر الكوبان ابتداءً من نهاية شبه جزيرة تمان اسم (أتيخه) وفي الموقع الذي يرفد فيه نهر (اللابا) نهر (الكوبان) كان يسمى (أنيثا).

وكذلك فقد أطلق سترابون على منطقة نهر الكوبان اسماً معناه باللغة الجركسية: (المقيمون في وادي الأنث) مع ملاحظة أن المقطع (تيس) هو أداة نسبة في اللغة اليونانية^(٨).

نستنتج مما تقدم بأن اسم (أنت) كان يطلق على (الأمة الشركسية) عندما كانت تقطن على ضفتي نهر الكوبان شمال القفقاس حسب رأي المؤرخين اليونانيين والبيزنطيين منذ القرن الخامس والرابع قبل الميلاد^(٩).

الاسم الثالث: وهي الأديغة Adyge أو اديكة

وتلفظ بأكثر من لفظ منها (أديخة وأديجة، وأديكة وأتيخة) ... الخ. ومهما اختلف اللفظ فالمعنى واحد فهو الاسم (القومي للشراكسة).

والقاموس الذي جمع ونشر بمعرفة (لجنة علمية) برئاسة العالم (جول تروسو) في الجزء الثاني صفحة (٩٥) يعرف كلمة (أديغة) بأنها اسم (الجراسكة الأصلي) ومعناها نجيب، أصيل، انسان، نبيل، وباللغة (السنسكريتية) معناها أصيل، نجيب أيضا.

والمواقع ان الجراسكة يستعملون هذا اللقب للدلالة على معنى (الانسان الكامل). فإذا أعجبهم شخص بأخلاقه ورجولته قالوا عنه انك: (أديكة) أو (أنت أديكة له)، وإذا اقترف أحدهم نقيصة وعباً ما يعيرونه بقولهم: (أنت لست أديكة) و (لا تحمل صفات الأديكة) ^(١٠).

وقد اصطلح الشراكسة وأجمعوا على أن اسمهم القومي (أديغة) وان اصلها جاء من كلمتي (اتي - خه) وبمرور الزمن بدلت التاء (وأصبحت دالا) فصارت (أديغة) أما الخاء فتلفظ ما بين الخاء والغين المخففة.

وفيما يلي بعض الفرضيات التي تبحث في أصل اسم أديغة:

وبالرجوع إلى ما كتبه العشرات من المؤرخين والباحثين القدماء ومنهم المحدثين في أصل ومنشأ المصطلح (أديغة) توصلنا إلى أكثر من فرضية وأهمها:

الفرضية الأولى:

يعتمد اصحاب هذه الفرضية على ما ورد في الشعر والأغاني والروايات القديمة الشركسية حول كلمة (أنت أنت) (Ant) (وأنتي) مع مرور الزمن تم تحريفها (إلى (أديكة Adyga) أو (أديخة Adyche) باستبدال التاء بالدال للتخفيف وإضافة المقطع الأخير وهي (خه che) إلى الاسم الأصلي. (أنتي) وهذا المقطع ليس الا أداة تلحق آخر الكلمة في حالة (الجمع) باللغة الشركسية. ولا تزال جماعة حتى يومنا هذا من الكبار في بلاد القبرطاي يلفظون هذه الكلمة على الطريقة القديمة دون أن يغيروا من لفظها الأصلي فيقولون (أنتي خه antiche) والآخرين يقولون (أتي خه atiche) تبعاً لمقتضيات اللهجة التي يتكلمون بها ^(١١).

الفرضية الثانية:

يقول (جوناتوقة) نقلا عن (نوغموقة) بأن لفظ (تسوخ) هو أول من عبر به عن الجراسكة وان لقبهم (الأديغة) اشتق من اسم (هات - تي - خا) القديم الذي كانت تطلقه عليهم الشعوب القديمة في عصور ما قبل الميلاد خاصة الاغريق ^(١٢).

الفرضية الثالثة:

توجد في القفقاس جزيرة تحمل اسم آتيخ (Atekh) وهي الجزيرة المحصورة بين فرعي من الكوبان، وكانت تسمى ADA باللغة التترية ومنه أتى اسم أدالي (Adaly) اي سكان الجزيرة، الذي اطلق على الحانقو (Hatko) وهو اسم يمكن تقريبه إلى آتيخ (Atekh) نفسه، حيث إن كلمة آدا (Ada) تعني جزيرة باللغات التترية والتركية. وفي كل الأحوال، فإن اسم آتيخ (Atekh) قريب من اسم أديغة (Adyghe)، وإذا كانت الكلمة تترية الأصل، فإنها ستبقى بحاجة إلى تفسير. ^(١٣)

الفرضية الرابعة:

يدعي اصحاب هذه الفرضية بأن اسم (أديغة Adyhe) جاء من آسيا الصغرى، وأنها مشتقة من اسم بلدة (أديغكو) (Adyghko) الموجود في شمال القفقاس، وخلفية هذه الفرضية تعود إلى قصة الشعب المجهول الذي كان يعيش قديما في بلاد آسيا الصغرى بالقرب من سينوب (Sinope) وكان ذلك الشعب يعبد تلبش (Tlepsh) أو ليبش Lepch وهو (رب النار والحديد) كما كان يقدس مزتحة Mezitha أي رب الغابات.

وعندما بدأ انتشار الإسلام، أرسل النبي محمد صلى الله عليه وسلم صهره (علي) رضي الله عنه إلى (سينوب) لنشر الدين الإسلامي بين شعب (لبش) و (مزتحة)، وقد اجتمع (علي) مع رؤساء

الشعب وعرض عليهم الدين الجديد وطلب منهم اعتناقه. وقد قابل الرؤساء ذلك الكلام بصمت مطبق ومعناه (الرفض)، ولكن (علي) جدد الطلب بإلحاح أكثر، وممثلي الشعب صامتون لا يجيبون، فغضب (علي) وحاول سحب سيفه من غمده، ولكن السيف لم يمثل له بمعجزة إلهية، وتعجب (علي) كثيراً وامتنى صهوة جواده وحاول الهجوم على الحاضرين، ولكن حصانه دودول (Doudoul) لم يتحرك، وتعجب (علي) من كل هذه المعجزات، ويغادر الاجتماع ويعود من حيث أتى، بينما فرح ممثلو الشعب الحاضرون ويهللون ويدعون الشعب إلى اجتماع عام، ويقيمون احتفالات وابتهالات للرب (مزتحة) رمزاً للاعتراف بالجميل الذي فعله بصنع هذه المعجزات، وبعد سنوات عديدة من ذلك، قامت حرب (دينية) في الاناضول بين المسيحيين والمسلمين، وعندها اراد الشعب الذي ظل وفيًا للاله (تليش) و (مزتحة) ان يحتفظ بدينه القديم، فانقسم إلى قسمين اتجه احدهما بطريق البحر إلى القرم، والثاني إلى شمال القفقاس، وبالتحديد في المنطقة التي كانت توجد فيها بلدة أديغكو Adygheko وقد اختار القسم الثاني من المهاجرين مكاناً لاحتفالاتهم الدينية ومجالسهم القضائية، (تلة) مغطاة بغابات عذراء كثيفة دلالة على تواجد (الرب مزتحة) معهم.

وقد وجد القادمون الجدد في المكان الذي حلوا به شعباً مسالماً ومرحبا ومشتغلاً بالتجارة، وكان اسم ذلك الشعب غوى أو (أغوى) (Goi) on (Agoi) وقد نشأت فيما بعد علاقات حسنة بين هذا الشعب والمهاجرين القادمين الجدد، ومن الاختلاط بين (الطرفين) تشكل شعب (الأديغة) الذي اشتق اسمه من اسم المدينة اديغكو (Adygheko) وكانت واقعة إلى القرب من الغابة المقدسة (مزتحة) وذلك الاسم نفسه الذي أطلق على شعب مكون من اسم العلم آدي (Ady) وكو (Ko) بمعنى (ابن آدي) وكانت هذه الرواية منتشرة بين الشابسوغ يرويها الأب لابنه، وظلت هذه التلة مقدسة لديهم، حتى منتصف القرن الثامن عشر، وكانوا يجتمعون عليها وبين ادغالها لإقامة الدعوات والابتهاال للرب (مزتحة) الذي انقذ اجدادهم من آسيا الصغرى وانقذ دينهم القديم.

إلا أن هذه الفرضية فيها شيء من المغالطة التاريخية لأن الإسلام دخل إلى جنوب القفقاس من بلاد آسيا الصغرى عام (٢٢) هجرية بينما الشركاسة كانوا متواجدين في آسيا الصغرى وفي شمال القفقاس قبل ذلك التاريخ بالآلاف السنين وربما كانت القصة صحيحة إلا أنها لا علاقة لها بالإسلام، والصحيح هو ان بعض المهاجرين من الشعوب القفقاسية القديمة سكنوا آسيا الصغرى قبل استيطانها في منطقة Adygheko^(١٤).

الفرضية الخامسة:

ورد في آثار البيزنطيين أن شعب (الكيركاس) كانوا يطلقون على أنفسهم اسم (آنت أو أدিকে) كما كان منطقة قريبة من أثينا تسمى (اتيكا). وفي إيطاليا كان يوجد نهر باسم (اتيخ) وكذلك في مصر كان في منطقة بالقرب من ساحل البحر الأحمر موقع يسمى (آتيك)، ويلاحظ مما سبق أن جميع التسميات تشترك في أسماء (حات - آت - أنت) فلو أضفنا إليها ضمير الجمع (خه) وهي تلفظ مثل الخاء الألمانية، لحصلنا على أسماء (حاتخه - آتخه - أنتخه) ونرى بوضوح قربها من كلمة (أديغة) التي هي الاسم القومي للجراكسة حالياً والذي كان شائع الاستخدام من قبل الشعوب التي استوطنت أو حكمت بلاد (الأديغة) في العصور ما قبل الميلاد.

الفرضية السادسة:

تعتمد هذه الفرضية على ان كلمة (أديخة) أو (أتيخة) مكونة من مقطعين اثنين، هما (أد) أو (آت) ومعناها باللغة الشركسية ولدى جميع القبائل (اب) وهذا يعني بأن الأمة الشركسية عندما تحولت من نظام (سلطة الام) إلى نظام (سلطة الأب) أصبح اسم (أديخة) أو (أتيخة) بمعنى جماعة (الأب) أو التابعين (للأب) حيث ان (خه) هي أداة (جمع) وهو نفس التفسير الذي قدمه (ناميتوق) عند بحثه عن اصل الأمة التي ينتسب إليها الشركس^(١٦).

الاسم الرابع: وهو الشركس وجمعه (شراكسة)، جركس وجمعها جراكسة.

وجد كلمة شركس (سيركاسي Circassi) مدونا لأول مرة في كتاب (جان دوكاربان Jeandu de Carpin)، الذي أوفده البابا إنيوسنت الرابع (Le pape innocent IV) في عام (١٢٤٥م) إلى بلاد القفقاس وأصبح اسم شركس يظهر في الكتب والرسائل منذ ذلك التاريخ كما ورد على الخريطة الصينية التي رسمها كينغ شي تاتيان (Kingshi Ta Tien) في عام (١٣٣١م) اسم بلاد يدعوها (سا-ر - كوزير Sa-rh-ko-sz) ^(٦).

يكتب (شركس) باللغة العربية بأكثر من طريقة وتلفظ على أكثر من شكل منها: جركس، وجمعها جراكسة، سرکس، وجمعها سراكسة، وجيركاس وجمعها جيراكسة وباللغة الانجليزية (Circassians) وبالتركية (Tcherkess) والباحث في مصدر كلمة (شركس) وأصلها يجد وجود اختلاف بين آراء الباحثين وتباين حول أصلها ومصدرها، وإن المؤرخين الإغريق والبيزنطيين القدامى ومن بعدهم المؤرخين الفرنسيين والأتراك والعرب قالوا بأن الأمة الشركسية عرفت بأكثر من اسم، وإن تلك الأسماء والمسميات اختلفت باختلاف الأمم والشعوب التي كان لها اتصال مباشر مع الشعوب الشركسية عبر العصور القديمة والمتوسطة كما اختلفت باختلاف جنسيات المؤرخين والفترات التي عاشوا فيها مع الشعوب الشركسية في قفقاسية الشمالية.

وأما بالنسبة للأسماء والمسميات التي عرفت بها شعوب وقبائل الأمة الشركسية في كل من العصور القديمة والوسطى والمعاصرة وهي على النحو التالي:

أولاً: التسميات التي أطلقها الإغريقون:

أطلق قدماء الإغريق أكثر من اسم على الشراكس مثل (زيك Zyg)، (كركت Kerket)، وبعض المؤرخين أطلقوا عليهم اسم (جيك djik) وعلى بلادهم (جيكيتيا djichetia).

وكان من أكثر الأسماء ذبوعاً في التاريخ القديم عند الإغريقين (سرست) و (جيخ) أو (تسيخ). ومن الراجح أن تكون كلمة (جيخ) أو (تسيخ) مشتقة من (تسوخ) أو (تسي ف) التي تأتي بمعنى (إنسان) باللغة الشركسية.

والمؤرخ (أريان Arian) اليوناني ذكر في كتابه المسمى (Peuplus ponti euxeni maris erythrci) بأن اليونان يطلقون اسم (zyg) على شعب كان يقطن سواحل البحر الأسود الشرقية، وأنهم كانوا يجاورون شعب (زاناخ sanich) وهي قبيلة (جان jan) أو (سان) الشركسية والمعروفة حتى اليوم.

كما جاء تفسير كلمة (كركت) من قبل العالم (J.Klapprotb) في كتابه (Asia polylotta).

يقول (الكركت) كان شعباً قائماً بذاته وينتسبون إلى أمة (الأديكة) كما هو الحال مع شعب (السند - sind) أحد شعوب جامعة (مأوت) أو (مه - وٲ) التي كانت أحد شعوب الاتحاد الكميروني في القرن (الثالث) ق. م.

ثانياً: التسميات التي أطلقها الروس

أطلق المؤرخون الروس قديماً على الشراكسة اسم (قاسوغي) كما أنهم كانوا يطلقون على قبائلهم التي كانت تسكن شمال نهر الكوبان اسم (السركس) كما كان يسمى المؤرخ الروسي (قسطنطين بورغرانونوري) القبائل الجبلية في القفقاس باسم (قازاخ) وبلادهم (قازاخيا).

وفي عهد القيصرية كانوا يطلقون على (الشركس) اسم الجبليين ومنهم المؤرخ (إبراموف) الذي عاش مع القبائل الشركسية أكثر من ثلاث سنوات (١٨٨٢-١٨٨٥) كما أطلق المؤرخ (الاستعماري) الروسي (روسكا باستارينا) الذي عاصر حرب الإبادة الروسية، أطلق على السكان الأصليين في القوقاز مصطلح (توزيميتس) بمعنى (البدائيين المتوحشين) وهي التسمية التي رفضها بشدة المؤرخ الروسي (أبراموف) بقوله:

ولما كنت قد أقيمت السنوات الثلاث الأخيرة (١٨٨٢ - ١٨٨٥) في منطقة (الترك) مع قبائل القبرطاي وجهت عدة مرات سؤالا إلى ممثلي السلطة المحلية الروسية وإلى العلماء المحليين الروس.. وإلى أناس عاديين (من المستوطنين الروس في بلاد الشراكسة) ما هي الأسباب الحقيقية لهجرة الشراكسة؟

فكان الجواب: (لأنهم متوحشون) وأنهم (بدائيون) كما أنهم (كسالي) وغيرها من الصفات الرديئة.

واستطرد قائلا: بعد التدقيق في مثل هذه الاتهامات وبعد التأكد من حقيقة الصفات التي أطلقها الروس والقوزاق على الشراكسة، وجدت بأنها كيدية ولا أساس لها من الصحة، (بل العكس هو الصحيح). وإذا قارنا بين ما قام به السكان الأصليون القوقازيون والذي نفذناه (قمنا به) نحن الروس فإنه يجب ان نعترف بأن الأمة الأقل حضارة وأقل حبا للعمل هي الأمة الروسية (وليس الجبليين الشراكسة). وأنه ليس من الانصاف ان نتهم (الجبليين) بالكسل في الوقت الذي حولوا فيه (الصخور العارية) إلى أرض زراعية بجهدهم وعرقهم وبالدم.

وفي العصر الحديث وبعد حرب الإبادة الروسية وبدء الاحتلال الروسي القيصري لبلاد الشراكسة منذ عام ١٨٦٤ اتبعت السلطات الروسية القيصيرية سياسة تفتيت الشعوب الشركسية (الأديغة) إلى جماعات اثنية صغيرة وأطلقوا على كل منها تسمية خاصة تحمل أسماء قبائلهم القديمة مثل:

١- القبردي - Kabardinians والمعروفين باسم (القبرطاي) خارج روسيا وفي دول المهجر.

٢- تشركيس Cherkess .

٣- واديغي Adigey .

والهدف الأساسي منها هو تحويل الأمة الشركسية إلى تجمعات صغيرة تسكن كل منها في منطقة منفصلة عن المناطق الشركسية الأخرى داخل الوطن الأم.

ثالثا: التسميات التي أطلقها الفرنسيون.

اهتم أكثر من مؤرخ وعالم فرنسي بتاريخ الأمة الشركسية قديما ومن أهمهم:

المؤرخ (سترابون) الذي أطلق في القرن الأول للميلاد على الشراكسة اسم (جيكسا وجيكت) كما أطلق عليهم المؤرخ (أدريان) اسم (توخي).

أما (بلين) فسماهم (سرسيت) أو (كركس)، كما سمى قبيلة أخرى باسم (سيراكس). (١٧) وكان أول من استخدم اسم سيركاس (Cir cassi) هو الكاتب الفرنسي Carpin عام ١٢٤٥م

هذا بالإضافة إلى العالم الجغرافي الفرنسي (لاب) الذي أطلق على منطقة من مناطق الشراكسة أسم (أديغة) وهي التسمية التي اقتبسها (لاب) عن خريطة كل من (بطليموس وبلين).

وبالرجوع إلى دائرة المعارف الفرنسية المنشورة في القرن التاسع عشر وجدنا بأنها تعرف الجراكسة باسم (انتخة) أو (انتتي) (٢١).

نستنتج مما تقدم بأن الأسماء التي أطلقها المؤرخون الفرنسيون على الأمة الجركسية ما هي إلا أسماء لبعض القبائل الشركسية. وهي مشتقة من جمع (انت) باللغة الشركسية، حيث أن مقطع (خه) يعني مجموعة أو (جماعة) باللغة الشركسية وبالتالي جمع (انت) هو (انتخه) .

رابعا: التسميات التي أطلقها الإيطاليون

أطلق الإيطاليون اسم الشركس (Circasses) و (سيركاس) على (الأديغة) والتسمية جاءت من (الكتاب) الذي ألفه رحالة إيطالي واسمه انترينانو (Interiano) الذي ذهب إلى سيركاسيا (Circassise) أي إلى بلاد الشركس، في عام (١٥٠٢م) وهو بالفعل، يبدأ كتابه بالحديث عن أخلاق وعادات (الزيخ) بالجملة التالية: زيخي Zychi كما يقال لهم بلغة البلغار واليونان والطلينان، بينما

يدعوهم النتر والترك باسم سيركاسي (Circassi) أما هم وبلغتهم الأصلية، فإنهم يطلقون على أنفسهم اسم أديك أو اديغة (Adige).^(٢١)

خامسا: التسميات التي أطلقها العرب

أطلق العرب على (الجركس) أسماء عديدة منها: (سركس - سراكس - شركس - جركس).

كما أن ابن خلدون والبدر العيني، وغيرهما من كبار المؤرخين العرب يؤكدون بأن (الجركس) كان يتكون من أربع قبائل هي: (تركس)، (أراكس)، (كسا)، و (أص). وتتفرع من تلك القبائل الأربع (بطون وأفخاذ) كثيرة والمسعودي أشار في (مروج الذهب) بأن الجراكسة كانوا يعرفون قديما باسم (كشك) وباسم (كساق) كما جاء في كتاب تقويم البلدان (لأبي الفداء) نقلا عن المؤرخ (العريزي).

أما نوح المرتوقي الشركسي فيقول بأن (جراكس) أو (سراكس) جاء من اسم الأمير العربي (كسا من بني عامر القرشي) الذي هرب خوفا من قصاص الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي قرر الاقتصاص من (كسا) لقلعه عين أحد العربان خلال لعبه بالرمح في احتفال شعبي... وسأل عمر عن (كسا) فقيل له (سرى) بمعنى (جرى) أي هرب (كسا) حتى وصل مع قبيلته إلى بلاد الشركس واستقر هناك، ومن هنا أطلق اسم (سرى كسا) على جماعته.^(٢٤)

كما اتفق بعض المؤرخين المعاصرين المهتمين بتاريخ الأمة الشركسية بأن الكلمة المستعملة في تسمية شعوب (شمال القفقاس)، ما هي إلا كلمة من مقطعين هما: (سير - كاس) والمقطع الأول كان نعتاً أو صفة واضيف على المقطع الثاني الذي هو الاسم القديم لهذا الشعب وأصبح يلفظها كل قوم حسب لغته. وان (الجراكس) هم بقايا شعب (كاس) من أوائل الشعوب التي سكنت بلاد القفقاس، وأن المؤرخين العرب المحدثين تمسكوا باسم (جركس). وأن الشراكسة في بلاد المهجر بالدول العربية يعرفون (الاديغة) اليوم باسم (الشراكسة) أو (الجراكسة).^(٢٤)

سادسا: التسميات التي أطلقها الفرس:

يؤكد المؤرخون الفرس، ومنهم بعض المؤرخين الاتراك والعرب بأن كلمة (الجركس) مشتق من كلمتين هما (جهار وكاس) والتي تفيد معنى (الأربعة الكاسيون) أو (الأربعة رجال) باللغة الفارسية حيث أن كلمة (جهار) معناها بالفارسية (الأربعة) و (كاس) مشتق أو كنية لشعب (كاس) الذي كان يعيش في القفقاس في عهد ما قبل الألفية الرابعة قبل الميلاد، وأما مصدر (الأربعة) عدد القبائل التي كانت تحمل اسم (كاس) وهي: (تركس، أركس، كسا، آس) وهي القبائل التي كانت تعيش في المواقع التالية:^(٢٥)

- ١- قبيلة (تركس)، هم سكان ضفاف نهر (تيرك) في الشمال الشرقي من جبال القوقاز ويقال لهم أيضا شركس و شراكسة وما شابه ذلك مثل (جركس) وانحدر منهم شعب الداغستان.
- ٢- قبيلة (أراكس) وهم القاطنون دون نهر (أركس) القديم عند مصب نهر (الرس) ونهر (كر) عند ساحل بحر الخزر. وهم سكان (البانيا) قديما واذربيجان حاليا.
- ٣- قبيلة (أص أو آس) هم شعب (اللان) كما يذكره (الحافظ الشهابي العجمي) في كتابه (لب اللباب) وكانوا يقيمون في الجنوب الغربي من قمة جبل (البروز) حتى البحر الأسود.
- ٤- قبيلة (كسا) يقال لهم أيضا (كاساك) و (كساق) وهم سكان ما وراء جبل (البروز) في الشمال الغربي من جبال القوقاز إلى سهول نهر القوبان وما حولها وهم (الاديغة) حاليا.^(٢٥)

سابعا: التسميات التي أطلقها الاتراك:

يقول الأتراك أن اسم (جركس) أطلقه أحد المؤرخين الاتراك على (الأديغة) لصفاتهم البدنية ولبراعتهم في القتال، فـ (جرى) بمعنى (جندى) باللغة التركية، ومقطع (كس) بمعنى (الرجل)، فيكون معنى (جركس) هو (الجندى الرجل) أو (الجندى البارِع).

كما أن بعض المؤرخين الأتراك يقولون بأن (أتيفغ خان) بن (كيمر خان) الملك الحثي الذي استولى على آسيا الصغرى كان قد سبق أن تزوج فتاة شركسية اسمها (جير غاس) بنت (كمير خان) بن (أوغوز خان) فاشتهرت (أنسال أتيفغ خان) من زوجته الشركسية (جير غاس)، ثم أصبحت تلفظ (جركس) مع مرور الزمن^(٢٦).

ثامنا: التسميات التي أطلقها الانجليز:

ربما كان الانجليز الوحيدين الذين تمسكوا بتسمية واحدة للشراكسة (قديمًا وحديثًا) وأن هذه التسمية هي Circassians كما أطلقوا على بلادهم Cir-arcasia كما هو وارد في (دائرة معارف برتانيكا) الانجليزية^(٢٨).

الخلاصة:

نستنتج مما تقدم بأن الأمة الشركسية بقيائها المختلفة عرفوا بأكثر من اسم منذ القدم، وأن أسماءها قد تعددت واختلفت. وأن هذا الاختلاف كان نتيجة اختلاف لغات الأمم التي كان (الشراكسة) على اتصال مباشر وغير مباشر معهم في عصور ما قبل الميلاد وفي العصور الوسطى والحديثة، إلا أن المؤرخين على اختلاف جنسياتهم، وتباين ثقافتهم، اتفقوا في كثير من الأحيان على اسم أو أكثر، كما أن دوائر المعارف المختلفة من أجنبية وعربية اتفقت على ثلاث تسميات للشراكسة وهي التسميات التي تعرف بها الشراكسة في وقتنا الحاضر وهذه الأسماء هي:

١- (الشراكسة) وتلفظ وتكتب بأكثر من طريقة وهي: جراكس وسراكس وشراكس، وبالانجليزية (Circassians) وأن هذه التسمية لا تشمل القوميات القوقازية الأخرى مثل الداغستان والشيشان والانجوش، والاستين كما كان عليه الحال في العصور القديمة.

٢- (أديغة) وتلفظ وتكتب بأكثر من طريقة وهي: أدبكة، أدبكة، وأديخة، وأديغي وبالانجليزية (Adigey) وهذا هو الاسم القومي الذي يطلقه الشراكسة على أنفسهم، ويشمل هذا الاسم جميع القبائل الشركسية التي تتكلم لغة واحدة وهي (أديغا - بزة) أي (اللغة الشركسية) مع اختلاف اللهجات باختلاف القبائل التالية: قيردي وبلسيني، وتيمرقوي، وإبزاخ، وشابسوغ، وحتوفي، وزانه (جانه) وموخوش وحات - قوي، ونارت - خواج، وحاكوج، وأباطة، ولا يشمل قبيلتي الابخاز والابويخ ولهما لغتهما الخاصة.

٣- أطلق الروس في عهدهم الثلاثة (القياصرة والشيوعيين وروسيا الاتحادية) يطلقون ثلاثة القاب على الشراكسة الذين يعيشون في الوطن الأم ثلاثة أسماء وهي الاسم الأول (القبردي) أو كباردين ويطلق على الشعب الشركسي الذي يعيش في (جمهورية كباردينيا بلقاريا) والاسم الثاني (شركسيا) ويطلق على الشعب الشركسي الذي يعيش في جمهورية (قراشاي تشيركسيا)، أما الاسم الثالث (الأديغي) فيطلق على الشراكسة الذين يعيشون في جمهورية (الأديغي).

أما قبيلة الشابسوغ التي تعيش في منطقة كروسندا الروسية تعرف بنفس الأم.

وفي عام ٢٠١٠ عقدت منظمات الأديغة خاسه في جمهوريات الأديغي والقبردي - بلقاريا والقراشاي شركس وبعض منظمات المجتمع المدني "مؤتمر الشعب الشركسي الطارئ" في شركيسك عاصمة القراشاي - شركيس لبحث اقتراح إقامة "شركسيا الكبرى" لتضم تحت لوائها الشراكسة في الجمهوريات الثلاثة وتقدموا بطلب إلى المركز الفدرالي بخصوص توحيد شراكسة القفقاس في جمهورية واحدة ضمن بنية الفدرالية الروسية.

وإذا تحقق هذا المطلب فإن الشعب الشركسي وقبائله الذين يعيشون في روسيا الاتحادية عامة والجمهوريات الفيدرالية الشركسية الثلاثة سابق الذكر يصبح اسمهم شعب الأديغة - شركيسيا واسم جمهوريتهم الجديدة جمهورية شركسيا الكبرى.

مصادر ومراجع الفصل الرابع

- ١- ناميتوق، ايتك، اصل الشركس، مصدر سابق، ص ٢١٩.
- ٢- نوغمو، شورا بلمرزا (نغوموق) تاريخ الادب (الجركس) القديمة، ترجمه إلى اللغة الالمانية أدولف برجه ونقلها للعربية شوكت المفتي، ص: ٨٣.
- ٣- سميخ، برزج أمين - الشركس في فجر التاريخ، مصدر سابق، ص: ٤٣-٤٤.
- ٤- اوزبك، باتري - اساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة، ترجمة احمد راتب زنداقي، دمشق عام ١٩٨٨، ص: ١٠٤-١٠٥ (نقلا عن كتاب (نارت) للمؤرخ الشركسي حداغاله المنشور في كراسنودار عام ١٩٦٧).
- ٥- حداغاله، اسكر وبكيت احيانا (هاديغاله) اصدر سبع مجلدات ابتداء من عام ١٩٦٨ وحتى عام ١٩٧١ كما سبق ان اصدر عام ١٩٦٧ في كراسنودار وكتاب ملحمة البطولة في الجذور ومنشور باللغة الروسية ص: ١٠.
- ٦- باتريك، ايتك، مصدر سابق، ص: ٤٣.
- ٧- جوناتوق، مصدر سابق، ص: (٨١).
- ٨- المصدر نفسه، ص: ٨٣.
- ٩- المصدر نفسه، ص: ٨٤.
- ١٠- ناميتوق، ايتك، مصدر سابق، ص ٧٣.
- ١١- المصدر نفسه، ص: ٢٦-٢٧.
- ١٢- جوناتوق، مصدر سابق، ص ٨٠.
- ١٣- ناميتوق، ايتك، مصدر سابق، ص: ٤٣.
- ١٤- أبراماموف، القوقازيون، مصدر سابق، ص ٣١-٣٥.
- ١٥- نغمو، مصدر سابق، ص: ٨.
- ١٦- دائرة المعارف الفرنسية المنشورة في القرن التاسع عشر.
- ١٧- المؤرخ الايطالي انتريانو Interiuno في كتابه رحلة إلى بلاد سيركيسيا Circassise عام ١٥٠٢ ترجمة أيتك ناميتوق ص: ٧٤.
- ١٨- دائرة المعارف الاسلامية ص ٢٤٧-٢٤٨ اعداد فيصل خبطوش ابزاخ عمان ١٩٩٩.
- ١٩- آبه زاو، مصدر سابق، ص: ٤٤.
- ٢٠- دائرة المعارف الإسلامية، المجلد السادس، نقلها إلى العربية احمد الشيناوي وآخرون، ص: ٢٣٨.
- ٢١- دائرة المعارف الفرنسية المنشورة في القرن التاسع عشر.
- ٢٢- المؤرخ الايطالي انتريانو Interiuno - في كتابه رحلة إلى بلاد سيركيسيا Circassisa عام ١٥٠٢ ترجمة أيتك ناميتوق ص: ٧٤.
- ٢٣- دائرة المعارف الاسلامية، ص ٢٤٧-٢٤٨.
- ٢٤- نوح المرتوقي الجركسي، قهر الوحدة بذكر نسب الجراكسة من قریش ١٢٨٧ هـ اعداد فيصل خبطوش ابزاخ عمان ١٩٩٩.
- ٢٥- آبه زاو - مصدر سابق، ص: ٤٤.
- ٢٦- دائرة المعارف الإسلامية، المجلد السادس، نقلها إلى العربية احمد الشيناوي وآخرون، المجلد السادس، ص: ٢٣٨.
- ٢٧- جوناتوق، مصدر سابق، ص: ٨٠.
- ٢٨- دائرة معارف برتانيكا، المجلد الثالث.

الفصل الخامس

الموطن الأصلي لشعوب وقبائل الأمة الشركسية

منذ فجر التاريخ

يؤكد علماء وصف الشعوب والأقوام القديمة (الإنثوغرافيين)، وعلماء طبائع الأقوام القديمة (الباليونتولوجيين) وكذلك علماء الآثار (الأركيولوجيين) بالإضافة إلى علماء (الأنثروبولوجيين)، بأن شمال القفقاس هو (متحف) الأقوام القديمة، وأن التقدم الحضاري لهذه الأقوام لم يأت من الخارج، وأن الآثار التي اكتشفت ليست مستوردة وإنما هي من صنع أجداد الشراكسة والأقوام التي استوطنت في شمال القفقاس.

كما أجمع علماء التاريخ القدامى منهم والمعاصرين بأن موطن أجداد الشراكسة هي منطقة القفقاس منذ الألف الثامن ما قبل الميلاد وأن هذه المنطقة تتمتع بمزايا جغرافية وبيئية ربما لا تتمتع بمثلها أي منطقة في العالم (قديمًا وحديثًا)، الأمر الذي أدى لغزوها من قبل عشرات الأمم والشعوب والدول القديمة منها والمعاصرة، وأن آخر هذه الدولة هي دولة روسيا القيصرية التي احتلت وطنهم الأم بالكامل بعد أن قتل أو نفي أكثر من مليونيين منهم واقتلاع مليونيين آخرين وطردهم بقوة السلاح إلى الولايات التركية في عهد الخلافة العثمانية خلال الفترة من ١٨٦٤م إلى ١٩٢٠م.

وللتأكد من صدق ما نقول حول المزايا الجغرافية والخصائص البيئية للموطن الأصلي للشراكسة كان لا بد لنا من استعراض شهادات عدد من علماء الجغرافيا الأجانب وكذلك التعرف على وصف عدد من الباحثين والرحالة والعسكريين الروس وغيرهم من الأوروبيين.

نذكر منها الأقوال والشهادات التالية:

■ **الشهادة الأولى هي شهادة الباحث الكسندر غريغولا** وكتب في الأطروحة التي أعدها لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة بنسلفانيا تحت عنوان: العدالة والعادات في القوقاز.. قائلًا "منذ القدم أثارت القوقاز اهتمام الشعوب، فبالنسبة للمصريين كانت حدود المعمورة. وبالنسبة لليونان كانت أرض العجائب والرخاء، الغنية بخصوبة تربتها وتوفر الثروات المعدنية فيها والمزدهرة ببساتين الفاكهة ودوالي العنب المتسلق على الأشجار والجدران والمصاطب ومياه الأنهار والسيول التي تحمل ذرات من تير الذهب فيلجأ المواطنون إلى غمس جلود الغنم في مياه سيولها الجبلية ويجمعون ذرات تير الذهب التي تعلق بها. كما كان بالنسبة للإغريق بأنها أرض (الصوف الذهبي) ومسرح أساطيرهم الجميلة المشهورة. فأسطورة الأرغنون ومغامرات إبطال الإغريق تدور حول بحثهم عن (الصوف الذهبي) في أرض الكولخيين القديم. كما وأن أسطورة (بورميثوس) التي تسرد كيف قيد على قمة عالية من جبال القوقاز. (واخيلوس) الذي خلد في شعره العالمي مكانة، وجبال القوقاز المكسوة بالثلوج وتغنى بأرض القوقاز التي يقبع فيها مقيداً وسجيناً (بروميثوس) الذي سرق شعلة نار من السماء وجلبها للأرض منفعة للبشرية.

"وسفينة نوح التي رست على قمة جبل إرارات الواقعة في الطرف الجنوبي من القوقاز. كما اعتبر علماء الأصول العرقية بأن القوقاز هو مهد الإنسان، بينما اعتبرها آخرون بأنه ملجأ ومخبأ لأقوام عديدة. (١)

■ **الشهادة الثانية وهي شهادة المارشال أندريه غورميكو** (وزير دفاع روسيا سابقاً) معترفاً بالتضاريس الطبيعية المتمثلة بجبالها الشاهقة وبسهولها الخصبة وأنهارها المتعددة وبحيراتها العذبة، ومياهها المعدنية وغاباتها الكثيفة المملوءة بالحيوانات البرية المتعددة وممراتها الطبيعية ذات الأهمية الاستراتيجية وثرواتها الطبيعية المدفونة منها والظاهرة، ومناجمها المدفونة في الأعماق وآبارها البترولية والغازية المزروعة في كل مكان. وأضاف بأن تنوع وتعدد

تضاريسها الطبيعية تجعل بلاد القفقاس نموذجاً لتكامل التضاريس التي لا يمكن ان يوجد منها في بقاع الكرة الأرضية فهي عبارة عن كرة أرضية مصغرة في تكوين طبيعتها الجغرافية^(٢).

- **الشهادة الثالثة جاءت على لسان أجنيس هيربرت في كتابها (ذكريات من القوقاز) طبيعة القفقاس قائلة:**

"وليس في العالم بلد له ما للقوقاز من تأثير على النفس.. فإذا نظرت حولك تولدت لديك عشرات الألوف من المشاعر المختلفة لتعدد تضاريسها وغازرة ألوانها وخصوبة أرضها. فهنا ريف انكلترا الأخضر، وهناك هضاب اسكتلندا الحرجية بألوانها الخضراء والذهبية، وفي مواقع أخرى مروج وسهوب افريقيا الواسعة أو صحاريها الملتهبة حيث تتصاعد زوابع رملية وكأنها تمتد من الأرض باتجاه الشمس، بينما نشاهد في الأفق القريب القمم الشامخة المغطاة بالثلوج الدائمة تذكرنا بغموض وجبروت المناطق المتجمدة الشمالية"^(٣).

- **والشهادة الرابعة هي للكاتب الانجليزي فتزوري ماكلين الذي قال: (القوقاز نهاية حدود المعمورة وأغلب الناس يفتتهم سحر المناطق الحدودية. والقوقاز بسلسلة جبالها الشامخة التي تشكل حاجزاً كبيراً من البحر الأسود إلى بحر قزوين وتفصل أوروبا عن آسيا والغرب عن الشرق والمسيحية عن الإسلام، وهي من أجمل المناطق الحدودية في العالم وأكثرها سحراً. فمنذ أقدم الأزمنة كانت القوقاز تشكل منطقة رومانسية خيالية. فبالنسبة لبعضهم كانت سلسلة جبال القوقاز بمثابة حدود المعمورة.. وما وراءه خيال وغموض. فأبحر إليها (جيسون مع الأرغوت) بحثاً عن الخلود ذات الصوف الذهبي. وعندما تطلّعوا ذات يوم وشاهدوا قمماً ثلجية بيضاء وكأنها معلقة بين البحر والسماء وتتألق فوق منسوب السحب عرفوا أنهم وصلوا إلى القوقاز.. ويستطرد قائلاً:**

"فهنا في بلاد (الابخاز) مارست (ميديا) سحرها، وعلى قمة جبل (كازيك) قام الاله (زيوس) بتقييد (بروميثوس) بالسلاسل الحديدية وأرسل النور الكاسرة تنقر عينيه وتنهش قلبه عقاباً له على جرأته وقيامه بسرقة شعلة نار من السماء لخدمة البشرية. وهنا وحوش مرعبة ذات عين واحدة تحرس الكنوز الذهبية وتتقاتل فيما بينها. وهنا عاشت نساء الامازون الشرسات اللواتي كرهن الرجال. والساحر في قصص ألف ليلة وليلة يهدد بأنه سينقل مدينة خصمه إلى ما وراء جبال (القاف) والمقصود به جبال القفقاس ويحول أهلها إلى حجارة"^(٤).

- **والشهادة الخامسة هي للسير جون مانديفيل الذي كتب حول جبال جورجيا قائلاً: "توجد في مكان ما بين جبال جورجيا منطقة يكتنفها ظلام حالك بسبب الضباب الكثيف، ويتعذر على الإنسان أن يرى فيها شيئاً ولا يجرؤ على التوغل فيها. إلا أن المواطنين المجاورين لتلك المنطقة يدعون بأنهم كثيراً ما يسمعون منها صوت إنسان أو صهيل حصان أو صياح ديك، وهم واثقون بأنه يعيش في تلك المنطقة قوم يجهلون عنهم كل شيء"^(٥).**

- **والشهادة السادسة هي للرحالة الفرنسي البير جاك الذي زار تشيركيسيا في القرن السابع عشر وبالتحديد عام (١٦٧٠) وكتب قائلاً: "تشيركيسيا بلاد جميلة وجيدة ذات تنوع طبيعي كبير، ففيها السهول والغابات والجبال والتلال والعديد من الينابيع التي يكفي واحد منها سبعة أو ثمانية تجمعات سكنية تقع حوله .. إن التربة هناك غنية بحيث ان كمية الثمار تشكل وفرة كبيرة ولا تحتاج إلى جهد خاص لجنيها.. وتتكون الثروة الرئيسة من القطعان وخاصة الخيول الجميلة التي تشبه الاسبانية كثيراً، كما أنه توجد لديهم أعداد كبيرة من الأغنام والماعز ذات الشعر الجيد مثله مثل الاسباني، أما الأبقار والثيران فليست بذلك المستوى حيث أنها لا تهم الشراكة كثيراً، فلداهم من اللحم الجيد والدجاج اللذيذ وطرائد الصيد أكثر مما يستطيعون استهلاكه.. وهم لا يستعملون للصيد الكلاب أو الطيور فلداهم خيول رائعة إلى حد أنهم يجبرون القنينة على الاستسلام في أثناء مطاردتهم لها.."^(٦)**

- **والشهادة السابعة هي للروسي ديفيد توتاييف الذي وصف لنا طبيعة بلاد القوقاز واثرواتها الدفينة وتضاريسها الطبيعية بقوله:**

"القوقاز غنية من عدة وجوه.. أراضيها الخصبة، ومياهاها الغزيرة، وطقسها المناسب، ومصحاتها الشهيرة، ومناطق الصيد ومراعي السياحة، وسفوح التزلج على الثلج، وآبار البترول والغاز، ومناجم المعادن والخامات المختلفة، ومحطات توليد الطاقة الكهربائية. وكانت القوقاز المصدر الوحيد للبترول في الاتحاد السوفيتي مما جعل احتلالها هدفاً رئيسياً للاستراتيجية العسكرية الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية، وكان يمثل إنتاج القوقاز ٩٤% من مجموع إنتاج الشاي في الاتحاد السوفيتي السابق.

▪ **والشهادة الثامنة هي للسائح الفرنسي فرانس شيراك الذي زار القفقاس وفي عهد روسيا الاتحادية وعبر عن دهشته قائلاً: "إن الله تعالى قد أظهر قدرته وبراعته بتجميل الطبيعة في هذه البلاد".**

▪ **والشهادة التاسعة هي للكاتب (أسطورة كاوس) اليونانية، والتي تقول: "أثناء محاولة الآله الأعظم خلق الأرض أصبحت الأرض في حالة غليان شديد لا تستقر فأمر الإله ملاكاً يدعى (سوفوكليس) أن يأخذ قبضة من جواهر الجنة فينثرها على الأرض لتستقر وتهداً، وفعل الملاك ما أمر به فنثر قبضة من جواهر الجنة في القفقاس واستقرت الأرض".^(٧)**

وأخيراً شهادة المؤرخ الشركسي الأصل (جوناً توقة) الذي وصف جمال الطبيعة الجغرافية لبلاد القفقاس الشمالي موطن اجداد الشراكسة منذ العصور الحجرية بقوله: "إذا قارنا القفقاس ببلاد سويسرا لوجدنا أنها تكبرها بأحدى عشرة مرة، ويزيد سكانها عن سكان سويسرا خمسة أضعاف، وأنها ستكون يوماً ما سويسرا الشرق لما امتازت بها من جمال الطبيعة وجمال التكوين".^(٨)

هذا هو الموطن الأصلي للشراكسة، وتلك هي البلاد التي نشأ فيها اجداد الشراكسة منذ العصر الحجري القديم الأدنى وهي بلاد جميلة في تضاريسها الطبيعية وغنية بثرواتها المعدنية ومتطورة في إنتاجها الزراعي والحيواني منذ (٨) آلاف سنة قبل الميلاد.

كما كتب العشرات من الباحثين وعلماء الجغرافيا حول ابرز وأهم الخصائص الجغرافية والبيئية للوطن الأم للشراكسة نذكر منها الخصائص التالية:

*** أولاً: اتساع مساحة منطقة القفقاس عامة وموطن الشراكسة في شمال القفقاس خاصة.**

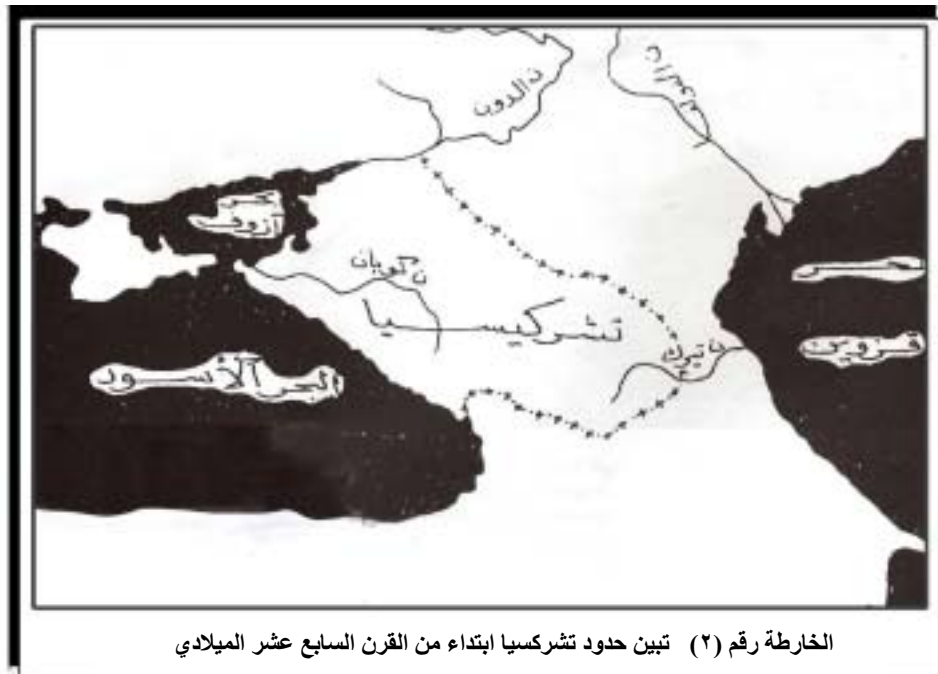
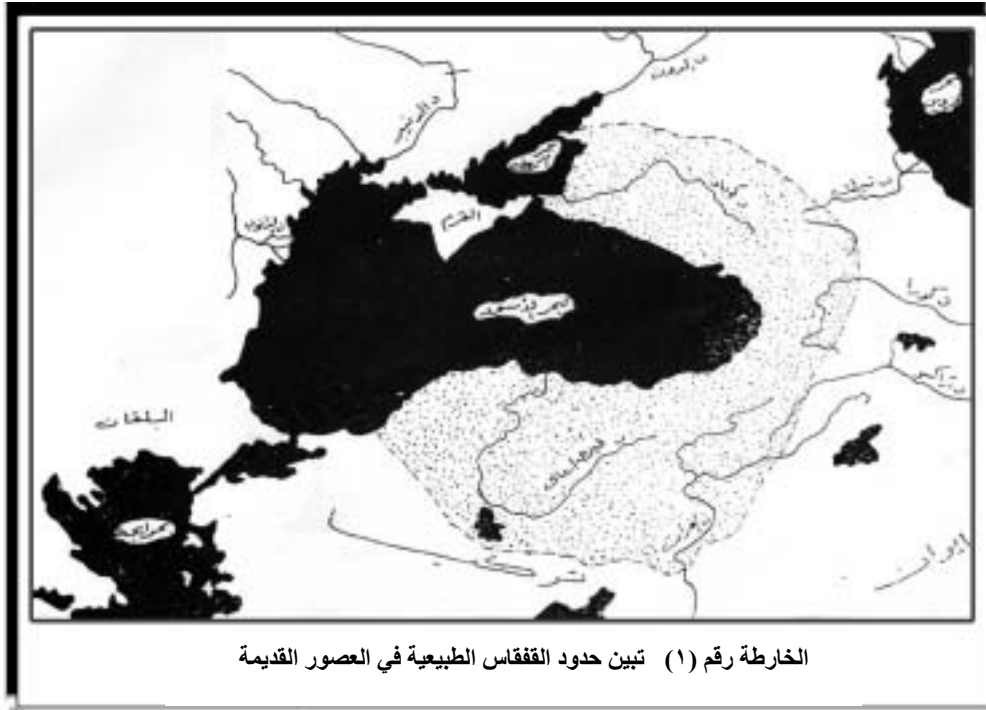
يشغل القفقاس مساحة واسعة (كما هو مبين في الخارطة المرفقة حيث يبلغ عرضها في أضيق حدوده الواقع على خط (بوني - ماخاتشكالا) حوالي (٥٠٠) كيلومتراً والمساحة الممتدة من الحدود الشمالية للقفقاس حتى حدوده الجنوبية حوالي ألف كيلومتر، كما تمتد حدوده البرية مع تركيا وإيران في الجنوب حوالي ١٣٨٢ كيلومتراً منها ٧٨٠ كيلومتراً مع تركيا ويحده من الشرق بحر قزوين (بحر الخزر سابقاً) ومن الغرب البحر الأسود (وتم حفر قناة بين البحرين) يمتد بين نهر استراخان ونهري الدون وال فولغا وتعادل مساحة القفقاس نحو ثلث مساحة الولايات المتحدة الأمريكية وربع مساحة أوروبا وتقدر مساحته بحوالي ٦٠٠,٠٠٠ كيلومتر مربع^(٩).

وابتداء من القرن السابع عشر الميلادي أطلق على جميع المناطق التي تسكنها القبائل الشركسية المكونة من الأديغة والأوبخ والابخاز والاباطة اسم (تشركسيا) وتقدر مساحتها حوالي ٢٥٠,٠٠٠ كيلومتر مربع.

وفي عام ١٨٦٤، وبعد استيلاء سلطات روسيا القيصرية للوطن الأم للشراكسة تم تقسيمه إلى أربع (جمهوريات)، مقاطعات صغيرة.

يلاحظ كما تقدم أن (مجموع مساحات المقاطعات) التي حددت لسكن الشراكسة الذين نجوا من القتل أو التهجير عام ١٨٦٤ لم تتعد (٤٢٠٠٠) كيلو متر وهي مساحة لا تشكل أكثر من ١٢% من المساحة الأصلية لبلاد الشراكسة.

وفيما يلي مجموعة من الخرائط التي تبين مدى تآكل أراضي الموطن الأصلي للأمة الشركسية منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث.

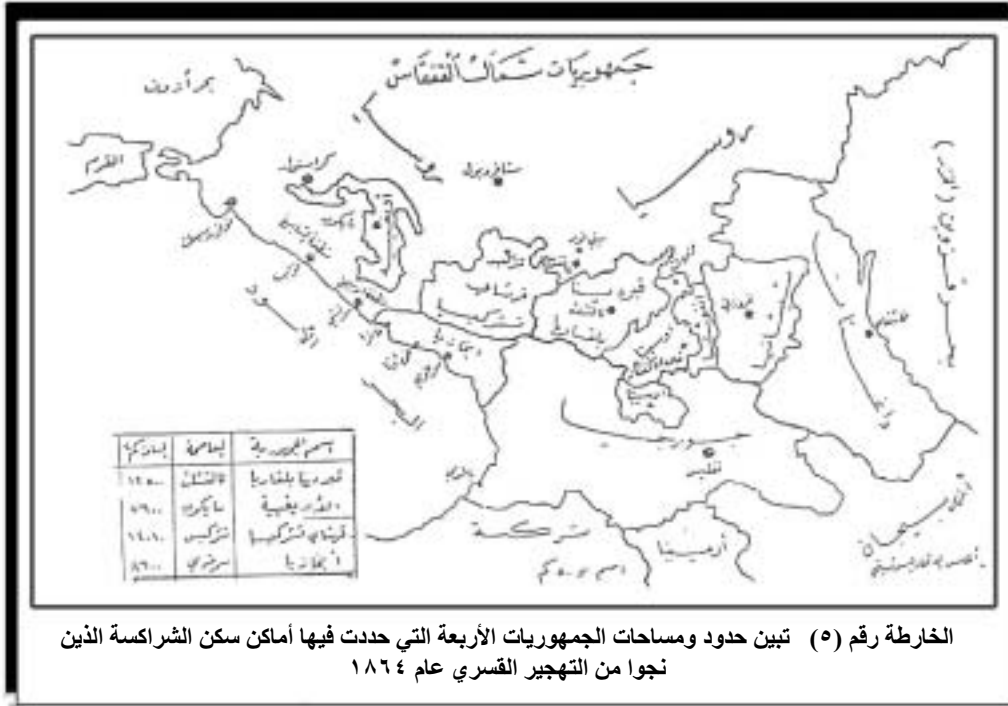




الخارطة رقم (٣) تبين حدود الوطن الأم في شمال القفقاس قبل الاحتلال الروسي عام ١٨٦٤



الخارطة رقم (٤) تبين حدود الجمهوريات الاربعة التي حددت فيها سكن الشركاسة ما بعد الاحتلال الروسي عام ١٨٦٤



ثانيا: تميز بلاد القفقاس بجمالها الشاهقة والأنهار والحمامات المعدنية والمنتجات الطبيعية

تشكل السلسلة الرئيسية الجبلية في القفقاس التي تمتد من شبه جزيرة أبشرون على ساحل بحر الخزر شرقا حتى شبه جزيرة تامان على الساحل بين البحر الأسود وفرعه بحر آزاق في الشمال الغربي بطول ١٣٠٠ كيلومتر تقريبا.

كما تشكل هذه السلسلة سداً طبيعياً بين شمال القفقاس وجنوبه وبين البحر الأسود والداخل، ولهذه السلسلة امتدادات في الشمال ومنحدراتها ذات ميل تدريجي مشكلاً ودياناً واسعة طويلة حول مجرى الأنهار، وبعض هذه الوديان تضيق عند نهايتها حتى تشكل مضيقاً جبلياً يفصل الوادي الداخلي عن السهول الشمالية ويلبها إلى الشمال السهول والسهوب، أما الامتدادات الجنوبية لسلسلة جبال القفقاس فهي أشد ميلاً ولها امتدادات جبلية تجعل منطقة جنوب القفقاس في جورجستان (جورجيا) وأرمينيا وأذربيجان بلداً جبلياً وأعلى منطقة في سلسلة القفقاس تبدأ شرقاً من مرتفعات (ياروبولا) حيث منابع نهر (اندقويسو) حتى منابع نهر (تيبرد) غرباً، وهذا القسم بطول ٣٥٠ كم. وهو يحتوي على أعلى القمم وأعظم الجموديات وفيه كتلة تمتد مسافة ٦٠ كم. تضم أعلى جبال القفقاس ومحورها جبل ألبروز وارتفاعه ٥٦٣٣ م.

والكاتب الروسي مؤلف كتاب (Exploration of the Caucasus) يقول: "يوجد في قفقاسيا حوالي (٤١) جبلاً ارتفاع قممها ما بين (٥٦٣٣ م و ٤٢٨٩ م) منها (٩) قمم ارتفاعها ما بين (٥٦٣٣ م و ٥٠٠٤ م) و (٢٢) قمة ارتفاعها ما بين ٤٥٣٠ م، و ٤٥٣٤ م كما هو مبين في الجدول التالي:

ثالثاً: تمتع بلاد الشركاسة بشبكة مائية نهريّة لا مثيل لها في كثير من المناطق في العالم

يقول الجنرال (غورميكو) في كتابه (ملحمة القفقاس) بأن أنهار القفقاس الشمالي تجري بصورة عامة موازية للجبال، وتستقي منها روافد عديدة بالمئات، والقفقاس يملك شبكة مائية نهريّة لا مثيل لها وخاصة في الهضبة الوسطى كما أن هذه المنطقة تحتوي على ينابيع معدنية كثيرة متعددة الصفات وأهمها في (نارتسان) أي بلاد النار ولكثرة المياه فيها يسميها الجركس (بس كون) أي مستودع المياه. والمنابع الأولى لهذه الأنهار تتغلغل إلى أعماق السلسلة الجبلية وتشكل ودياناً طويلة

ملتوية وفروعها الكبرى تكون سهولا رائعة حول مجاريها تمتاز جميعا بالخصب الزائد والبهاء والرونق الطبيعي الذي يأخذ بمجامع القلوب، كما أن الغابات الخضراء تكسبها جمالا طبيعيا لا يوجد مثيل له (١٢).

وأن أشهر انهار القفقاس هي:

كوبان - وتيرك - وقوما - ومانيج في الشمال، وفي الجنوب انهار ريون، وكر، وأراس، وفيما يلي وصف ملخص لكل نهر من تلك الأنهار:

نهر كوبان: ويسمى بـسيف باللغة الشركسية وتتكون منابعه الأصلية من وديان كتلة جبل البروز، وبعد أن تتجمع روافده الأولى وتنفذ إلى السهل شمالاً يتجه النهر نحو شمال غرب البلاد حيث يرفده العديد من الأنهار التي تتحدر من وديان الجبال مث: انهار لايبا - ولايا واينجيج وشحه كواشه... الخ.. وفي شبه جزيرة تاملان ينقسم نهر كوبان إلى قسمين يصب فرعه الشمالي في بحر آزوف وفرعه الجنوبي في البحر الأسود. وطول هذا النهر ٨١٠ كم وفروعه حوالي ١٤٠٠٠ فرع.

نهر مانيج: منابعه في السهول الشمالية في منطقة مستنقعات مانيج والبحيرات المالحة يجري باتجاه الشمال الغربي ويصب في بحر آزوف.

نهر تيرك: المنبع الأصلي لهذا النهر هو المكان الذي يسمى (كريستولا) ويقع في ممر داريال، ويتجه في مسيله إلى الشمال الشرقي وترفده عشرات الأنهار التي

تسيل من وديان الكتلة الجنوبية الوسطى مثل انهار سونجا وروافده وصولاق وروافده ويصب في بحر الخزر بدلتا واسعة، واضيق محل فيه (١٠٠م) ويبلغ عرضه عند مصبه (٥٠٠م).

نهر قوما: توجد منابع روافده من كتلة جبل البروز الوسطى، وتتجه فروعه نحو الشمال ثم الشرق وتتلاقى ويتابع النهر مسيله في سهول الاستبس حتى يصب في بحر الخزر.

اما الانهار التي تجري في بلاد الشركس فهي على النحو التالي:

تجرى في جمهورية كبادينا بلغاريا (٩) انهر رئيسية ابتداء من نهر باخسان وتيرك وبلقا وتشيرك بالإضافة لأنهار ارغودان وشحيم وكوركوترين واوروخ ولبسكن.

وفي جمهورية تشيركس فرشاي تجري انهار الكوبان (ينجج الكبير وينجج الصغير) واللابا، دنيادرا.

وفي جمهورية اديغي فإن امتداد انهار الكوبان واللابا، وبشكوبس، كيشا، شخاريا، خودز، اداس يمر فيها.

أما البحيرات فإنها تمتد بالمئات منها (١٠٠) بحيرة في جمهورية كبادينا بلغاريا وحدها وأهمها:

تسيركل، جلوبيا السفلي، جلوبيا العليا، كيلنثيس وتقع ٥٥% من هذه البحيرات ما بين نهر باخسان ونهر ملقا.

وهناك في جمهورية تشيركس قراشاي خزانات مياه طبيعية، مثل خزان تشيريكس، ويبلغ مجموع مساحة مسطحاتها المائية أكثر من مائة ألف متر مربع (١٣).

رابعا: تتميز بلاد القوقاز عامة وبلاد الشراكسة خاصة بالحمامات المعدنية والمصحات والمنتجعات الشهيرة

يوجد في القفقاس (٦٠٠) نوع من المياه المعدنية تصل درجة حرارة المياه الحارة فيها ما بين (١٠) درجة إلى (٦٠) درجة مئوية كما يوجد في القوقاز

(١١٤) من مجموع (٤٢٣) مصحاً في روسيا الاتحادية موزعة على النحو التالي:

٢٠ مصحاً في جمهورية أذربيجان. ٩ مصحات في جمهورية أرمينيا.

٦٤ مصحاً في جمهورية جورجيا. ٢١ مصحاً في شمال القوقاز.

جدول لمصحات الشهيرة في القوقاز

المصدر: مجلة Cancasion Review Vol. 1, 1955

الرقم	اسم المصح	فتح المصح للزوار	معدل الامطار مم	معدل عدد الساعات المشمسة في السنة
١	اباستوماني	طول السنة	٦١٨	١٩٨١
٢	انابا	=	٦٨٠	٢٥٥٦
٣	آرزي	١١/١٥-٥/١٥	٣٥٠	١٩٦٣
٤	بورزهوي	تموز وأكتوبر	٥٨٠	١٧٠٠
٥	غاغا	طول السنة	١٣٠٠	١٨٥٠
٦	غيليند زهك	مايو - أكتوبر	٧٠٠	٢٤٠٠
٧	ديلزهان	طول السنة	٥٤٠	٢٠٩١
٨	اسنتوكي	=	٥١٩	٢٢٤٠
٩	زغيرنوفودسك	=	٥١٩	٢٢٤٠
١٠	بارداكياني	=	١٢٠٠	٢٠٠٠
١١	نالتشك	١١/١-٥/٥	٦٠٠	٢٢٨٩
١٢	بياتيغورسك	طول السنة	٦٠٠	٢١٨٦
١٣	سوتشي	=	٦٨٢	٢٠٠٠
١٤	سوخومي	=	٨٦٠	١٨٩٥

خامسا: الثروات الزراعية والحيوانية وتتكون من الثروات التالية:

(١) الغابات والأحراج:

تغطي ٣٥% من مساحة القفقاس كما تغطي كامل سلسلة القفقاس الرئيسية وسطوحها حتى ارتفاع (١٥٠٠-١٨٠٠)م بالأحراش والغابات وأغلب أشجارها من النوع الدائم الخضرة. كما تغطي الغابات السلسلة الجبلية الأصلية على امتدادها بعرض ٢٥ كم من كل جانب، وتغطي سفوح جميع الجبال الفرعية في الشمال والجنوب وتمتاز الجبال على ساحل البحر الأسود بجمال مناظرها.

(٢) أنواع الأشجار والمزروعات

يوجد في سلسلة جبال القفقاس أنواع من الشجر التي تستخدم في صناعة أجود أنواع الخشب كما تحتوي الغابات أنواع كثيرة من الأشجار المثمرة (الطبيعية) غير مملوكة لأحد مثل البندق والجوز والكستناء والكمثري والتفاح والخوخ والتين والأعنان، وأنواعاً أخرى عديدة، وحتى عهد قريب كانت منطقة مزدوك (الغابة الصماء) مكسوة بأحراش كثيفة يصعب المشي خلالها، وكذلك حوض نهر كوبان.^(١٥)

وتمتاز أراضي القفقاس بأنها تصلح لجميع أنواع الزراعة حتى أن القفقاس كان يعد (المزرعة الأولى) في الاتحاد السوفياتي كله (سابقاً) ويعتبر مستودعاً مهماً لتأمين التموين وكانت كولخزات المزارع التعاونية السوفيتية في القفقاس تأخذ دائماً الدرجة الأولى في الانتاج الزراعي على كافة مناطق الدولة.

كما يزرع الذرة الصفراء في القفقاس بشكل دائم وينتج منها أجود الأنواع وكذلك الشعير والجلبان والبقول والخضراوات والفواكه والشمندر السكري الذي يؤمن جانباً كبيراً من احتياج الاتحاد السوفياتي (سابقاً)، وبساتين الفواكه بجميع أنواعها حتى المشمش والحمضيات تنمو بشكل جيد جداً على السواحل وفي جنوب القفقاس.

وربما يمتاز القفقاس عن أوروبا في امكانية زراعة الكروم على ارتفاعات تزيد على (١٦٠٠م) عن سطح البحر بينما في أوروبا لا تعيش الكروم على ارتفاعات تزيد على ٩٠٠م فوق سطح البحر.

وأما القطن فيتم زراعته على ارتفاع ٦٨٠م عن سطح البحر والحبوب حتى ارتفاع ٢٣٠٠م عن سطح البحر. كما يزرع الشاي في مناطق عدة ويعطى محصولاً وافراً، كما تعطي أهمية كبرى لزراعة نبات دوار الشمس، وقد اشتهرت مؤخراً بزراعة التبغ وتنتج منه أنواعاً ممتازة ومحصولاً وافراً. وأخصب الأقاليم وأكثرها ملاءمة للزراعة هي منطقة الأبخاز (أباطة) وفي الشرق ساحل البحر الأسود.

(٣) النباتات البرية:

تنمو النباتات البرية في جبال القفقاس على ارتفاعات لا تصل إليها في جبال أوروبا. وفي جبال القفقاس أنواع من النباتات وتزدهر بكثافة أكثر مما في جبال الألب، والنباتات بصورة عامة في القفقاس تشابه نباتات فرنسا الغربية أكثر من مشابهتها لنباتات حوض البحر المتوسط، ومع ذلك فإن مناطق (بوتس وصخوم وكوتائيس) تحتوي على نباتات منطقة حوض البحر المتوسط وغرب أوروبا خاصة في سواحل البحر الأسود وبحر الخزر التي تتأثر بالإقليم البحري^(١٦).

وأكثر الاعشاب والنباتات نمواً في بلاد القفقاس هي الازهار البرية ذات الروائح الطيبة، والبهاء والرواق بالإضافة إلى أعشاب طبية متعددة ومتنوعة.

(٤) الحيوانات البرية:

تعيش على جبال القفقاس وهضابها وممراتها عشرات الأنواع من الحيوانات البرية أهمها: النمر والفهد والثور الهندي والدب والذئب والثعلب والقط البري والغزال والماعز البري والوعل والجواميس البرية والطيور الجارحة مثل العقبان والنسر.

(٥) الحيوانات الأليفة:

تشير الدراسات المتعلقة بالثروة الحيوانية (الأليفة) في بلاد القفقاس الشمالي بأن جميع أنحاء بلاد القفقاس ذات شروط مشجعة جداً لتربية الماشية بجميع أنواعها لكثرة مراعيها وأعشابها التي تغطي الجبال والسهول والغابات واطراف المزارع لذلك يتم فيها تربية قطعان الغنم والماعز والبقر والجواميس بكثرة، كما أن البقر القفقاسي الأصل من أضخم أنواع البقر في العالم كله، كما كانت تربي فيها قطعان الخيول، خاصة اجود الأنواع منها مثل الخيول الأصلية الكريمة وهي (الب، فاره بسوغ - بروبيل - بجقان - شولوخ) وان اجود أنواع الخيول تمتاز بالقوة والضخامة والسرعة هي (فار هيسوغ، وهي ضامرة جميلة سريعة كالريح). أما الحمير والجمال فإن الشراكسة لم يكونوا يهتمون بتربيتها.

(٦) الطيور والدواجن:

وهي منتشرة بكثرة لسهولة تأمين غذائها ولا يوجد ببيت شركسي يخلو من عشرات او مئات طيور الدجاج والبط والوز والحمائم وغيرها من انواع الطيور النادرة.

سادساً: المصادر الطبيعية والثروات الدفينة في بلاد الشراكسة

يعد القفقاس من أكثر المناطق في روسيا وأوروبا غناءً في ثرواتها الطبيعية وبالأخص الثروات التالية:

- ٢) **البترول:** ويستخرج من سهول الكوبان في بلاد الشركس (بالقوقاز) وفي (باكو) في أذربيجان و (غروزني) في الشيشان و (مايكوب) في بلاد الأديغي و (مزدوك) في منطقة القبرطاي المسيحيين بالإضافة إلى منطقة سونترتال.
- ٣) **المعادن:** تستخرج من أرض القفقاس المعادن التالية: المنغنيز، والفحم، والحديد (كان القفقاسيون أول من استخدم الحديد في الصناعة في العالم)، والذهب والالمنيوم والفضة والتوتياء والقصدير والكوبالت والنحاس.
- ٤) **البراكين:** يوجد في القفقاس جبال بركانية صخرية وفيها أيضاً العديد من الفوهات البركانية الخاملة في منحدرات جبال (هرمة) منذ القدم^(١٧).



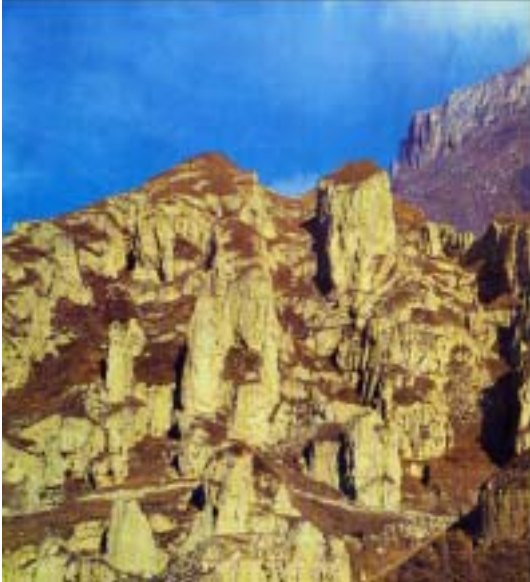
منظر عام لقمة جبل البروز في منطقة القبرطاي في الوطن الأم ويبلغ ارتفاعه ٥٦٣٣ م من الجهة الغربية و ٥٥٩٥ م من الجهة الشرقية

نماذج

من المناظر الطبيعية في بلاد الشراكسة في الوطن الأم في شمال القفقاس

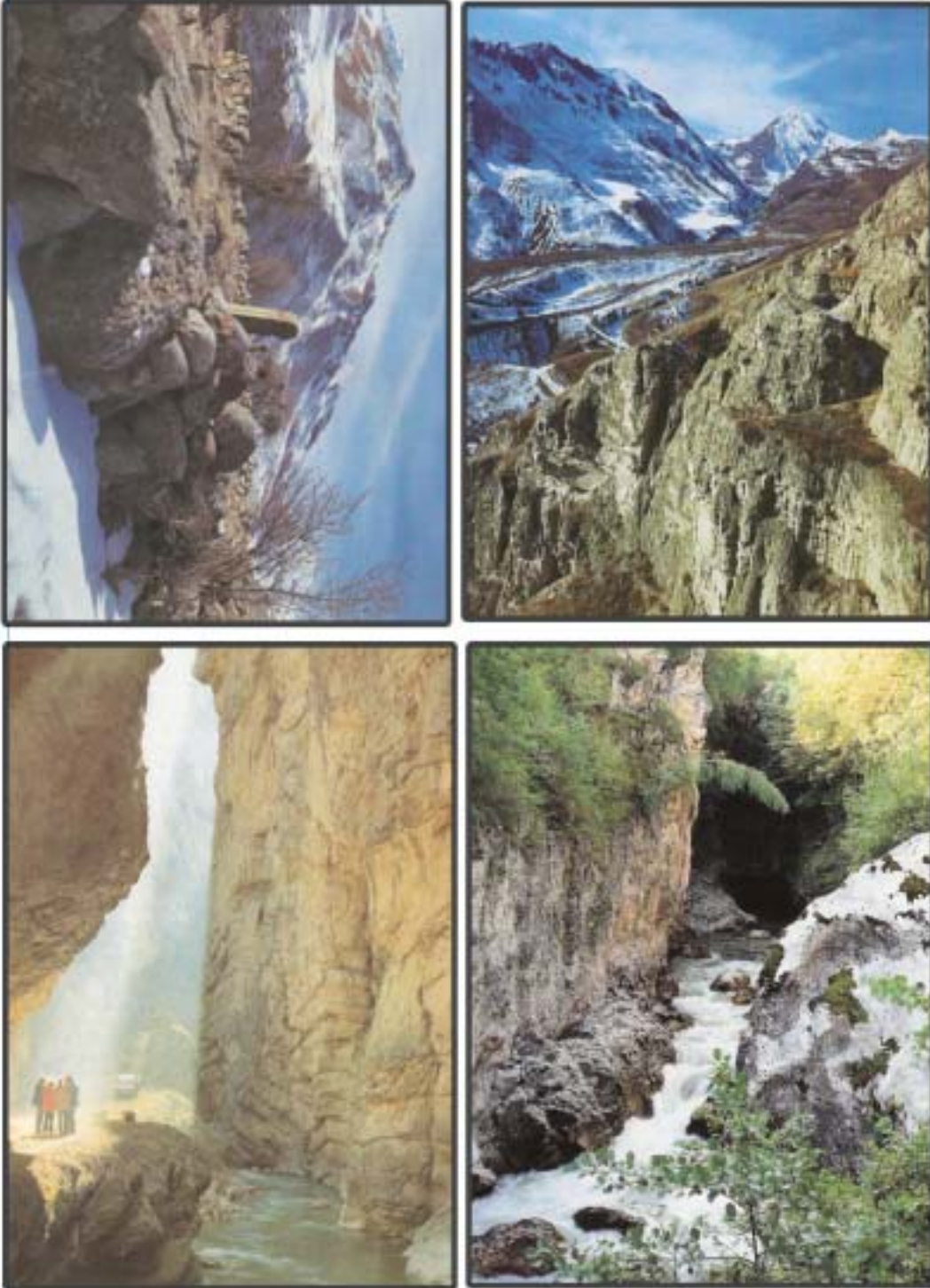


منظر لمنطقة التزلج في جبل البروز



مناظر طبيعية لبعض جبال في الوطن الأم للشراكسة في شمال القفقاس

مناظر طبيعية لجبال وشلالات وأنهار في مناطق القبرطاي في الوطن الأم



مصادر ومراجع الفصل الخامس

- (١) الكسندر غريغولا: العدالة والعادات في القوقاز وسكان المناطق الجبلية في جورجيا - اطروحة دكتوراه - جامعة بنسلفانيا ص: ١٧.
- (٢) المارشال اندريه غورمبكو (وزير الدفاع السوفيتي السابق)، ملحمة القفقاس (باللغة الروسية) تعريب اللواء الركن عبد الرزاق الدردري والعميد الركن عبد العزيز جركس، دمشق ١٩٧١، ص: ١٦.
- (٣) اجنيس هيربرت - ذكريات من القوقاز منشور باللغة الانجليزية ترجمة سعيد بينو، عمان ١٩٩٧ ص: ١٥.
- (٤) فتزوري ماكلين، القوقاز نهاية حدود المعمورة، منشور باللغة الانجليزية، ترجمة سعيد بينو عام ١٩٩٧ ص: ١٥-١٦.
- (٥) السيرجون ماندفيل، جبال جورجيا، منشور باللغة الانجليزية ترجمة سعيد بينو عام ١٩٩٧ ص: ١٦.
- (٦) البيرجاك، رحالة فرنسي عاش في الفترة (١٦٠٥-١٦٨٦) وزار بلاد تشيركيسيا في عام ١٦٧٠ وكتب تقريراً عن أوضاعها الاجتماعية والزراعية وعن جمال طبيعتها.
- (٧) محمد صادق آبه زاو، مصدر سابق، ص: ٣٢.
- (٨) جوناتوفه يوسف عزت، تاريخ القوقاز، منشور باللغة التركية، عام ١٩١٢ ترجمة عبد الحميد بك غالب خوست (من شراكسة مصر) ونشر في جمعية الاخاء الشركسي بمصر عام ١٩٤٠ (وهو أول كتاب باللغة العربية عن تاريخ الشراكسة.
- (٩) آبه زاو محمد صادق، مصدر سابق، ص: ١٧.
- (١٠) مالتوف، استكشاف القوقاز - Exploration Caucasus المنشور عام ١٨٩٦ ونقلها إلى العربية سعيد بينو وأوردها في كتابه الشيشان والاستعمار الروسي، المنشور عام ١٩٩٧ في عمان ص: ٣٣.
- (١١) المصدر نفسه ص: ٣٤.
- (١٢) الجنرال غورميكو - ملحمة القفقاس، مصدر سابق، ص: ٢٩.
- (١٣) دليل أهلنا، الجمعية الخيرية الشركسية - فرع صويلح، مصدر سابق، ص: ٢٨-٣٣.
- (١٤) مجلة القفقاس Caucasus Review عدد (١) عام ١٩٥٥ عن سعيد بينو في كتابه - الشيشان - مصدر سابق، ص: ٣٦.
- (١٥) آبه زاو، محمد صادق - مصدر سابق، ص: ١٨.
- (١٦) مجلة دركسي - عدد شهر نيسان ١٩٥٣، باللغة التركية، ترجمة جمال صادق آبه زاو ص: ٣٣.
- (١٧) آبه زاو، محمد صادق - نقلاً عن مجلة الاتحاد السوفيتي، عدد (٣) سنة ١٩٦٣ ص(٣٠).

المجلد الأول

الجزء الثاني

الخصائص القومية للأمة الشركسية

منذ فجر التاريخ وحتى عصرنا الحديث

فهرس فصول الجزء الثاني

الخصائص القومية للأمة الشركسية منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث

الصفحة	الموضوع
89	تقديم
	الفصل الأول: الخصائص الاجتماعية للأمة الشركسية منذ فجر التاريخ وحتى
90	العصر الحديث
	الفصل الثاني: اللغة القومية للأمة الشركسية خصائصها (ونشأتها وتطورها) منذ
102	فجر التاريخ وحتى العصر الحديث
	الفصل الثالث: المعتقدات الدينية للأمة الشركسية خصائصها (ونشأتها وتطورها)
117	منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث
	الفصل الرابع: الأديغة خابزة العادات والتقاليد الشركسية خصائصها ونشأتها
135	وتطورها منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث
	الفصل الخامس: الخصائص والصفات القومية المميزة لشخصية الإنسان الشركسي
180	منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث

تقديم:

تؤكد الدراسات الاجتماعية والاثروبولوجية القديمة منها والحديثة بأن الأمة الشركسية من الشعوب القديمة التي تميزت بخصائصها القومية وأن هذه الخصائص انتقلت من جيل الأجداد الذين عاشوا في فجر التاريخ إلى جيل الآباء والأحفاد وعلى مدى آلاف السنين في كل الوطن العربي في أكثر من خمسين دولة موزعة على القارات الخمسة.

كما أكدت تلك الدراسات بأن أكثر الخصائص القومية التي تميزها الأمة الشركسية هي الخصائص الاجتماعية، واللغوية، والمعتقدات الدينية، و(الأديغة خابزة) وهي العادات والتقاليد والأعراف التي تعتبر دستور حياة عند الشركسية منذ فجر التاريخ وكذلك الخصائص القومية المميزة للإنسان الشركسي (مرجالا ونساء).

وفيما يلي دراسة تحليلية لكل خاصية من الخصائص القومية للأمة الشركسية منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث والتي تمثل بالخصائص والصفات الخمسة التالية:

- الخصائص الاجتماعية للأمة الشركسية .
- خصائص اللغة القومية للأمة الشركسية .
- خصائص المعتقدات الدينية للأمة الشركسية .
- خصائص الأديغة خابزة (العادات والتقاليد الشركسية) .
- الصفات والخصائص القومية المميزة لشخصية الإنسان الشركسي .

الفصل الأول

الخصائص الاجتماعية للأمة الشركسية

منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث

تميزت الأمة الشركسية منذ عصر الاجداد، وابتداء من الألف الثاني ما قبل الميلاد بقوة نظامها الاجتماعي ومثاقه، كما تميزت بتماسكها وتعااضدها وتكاتفها الاجتماعي.

وفيما يلي تحليل موجز لنشأة وتكوين المجتمعات الشركسية، وتطورها مع تطور الحياة وتقدم المدنية فيها وتشعبها، حتى أصبح النظام الاجتماعي لدى الشركاسة ركنا من اركان تقدمها وبعداً من أبعادها الحضارية.

أولاً: نشأة المجتمعات الشركسية في الوطن الام

تشير الدراسات الانثروبولوجية بأن المجتمعات الشركسية نشأت وتطورت على مراحل زمنية وهي:

المرحلة الاولى:

في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، وظهرت الملكية الخاصة في المجتمعات القوقازية عامة، وبين الشركاسة خاصة، ونتيجة لتطور الزراعة بعد البدء في تصنيع المحاريث واستخدامها بدلاً من الفؤوس الحجرية حيث ظهرت الحاجة إلى أيدي عاملة أكثر عدداً من السابق، ومن هنا ظهرت (العمالة المأجورة) وتكونت طبقة (الفلاحين العاملين لدى اصحاب الاراضي) ومن هنا نشأة أول مجتمع لقدماء الشركاسة، وأصبح المجتمع الواحد يضم ملاكين وعمال وفلاحين وأغنياء يملكون الأراضي وفقراء لا يملكون أراضي زراعية وانما يعملون لديهم بالاجرة.

المرحلة الثانية:

وهي المرحلة التي حدثت فيها الخلافات على ملكية الأراضي الزراعية الرعوية، ومصادر المياه، حيث تطورت هذه الخلافات إلى نزاعات مسلحة بين القبائل أو العشائر، خاصة بعد البدء في تصنيع الاسلحة والادوات الحادة مثل: صناعة (القامة) وصناعة رؤوس الحراب من المعدن بالإضافة إلى اختراع الدروع الواقية، وغيرها من الادوات والاسلحة المصنوعة من نوع من انواع المعادن المكتشفة في بلاد القفقاس، ومع تطور النزاعات المسلحة وتعددها ظهرت طبقة الاسرى الذين أسروا بعد النزاعات والغزوات، واستخدموا كعبيد لدى الملاكين ورؤساء وشيوخ القبائل، وربما كان افضل وصف كتب حول مرحلة ظهور (العبيد) المتمثلة في أسرى الحروب هو ما كتبه (برزج) بقوله:

"لقد زاد النمو السكاني، وزادت الأرض المستغلة، وزاد السكان المستقرين، وحدثت صدامات عنيفة حول الأرض، وقوي الشعور بملكية الأراضي، وظهرت أخطار الحروب وبدأت الهجرات الجماعية والصدامات المسلحة المحلية، وعمت سلطة الزعماء وتركزت الثروة في أيديهم عن طريق غنائم الحرب، وخير دليل على ذلك تلك الثروات التي تشاهدها في المدافن الغنية بالحلى والادوات حتى اننا نجد قطعاً من المعادن الثمينة، ومن هنا وجدت طبقة العبيد لدى الأسر الغنية، والذين كانوا على الغالب اسرى الحروب وبقيت هذه (العبودية) على مستوى الزعماء فقط، وظهر بعد ذلك التفاوت الاجتماعي وظهرت الأرستقراطية الحربية يمثلها الفرسان، وكان الحصان دائماً محملاً بالأسلحة الثمينة الغالية، والمعدات المتنوعة الكثيرة، ودخلت القبائل المتجاورة في اتحادات كبيرة للوقوف في وجه الاعداء، مما استدعى وجود روابط تنظيمية للسلطة، وهكذا تشكلت هذه المجتمعات على شكل ديمقراطيات حربية" (٢٣).

المرحلة الثالثة:

بدأت في هذه المرحلة مفاهيم اقطاعية جديدة في المجتمعات الشركسية، ويؤكد بعض المؤرخين بأن الاقطاعية الشركسية ظهرت بعد ظهور الاقطاعية في أوروبا ابتداء من القرن الرابع الميلادي أولاً، وبسبب انحلال وانتهاء الحكم في الدول والدويلات واتحادات القبائل الشركسية بسبب حروب (السكيت والهون والقوت) وغيرهم ثانياً، حيث تفككت تلك الدول وتفرقت وظهرت القبائل والعشائر الشركسية المتعددة في مختلف انحاء قفقاسيا الشمالية كما أشرنا إليها سابقاً.

كما يؤكد هؤلاء المؤرخون نشوء نظامين رئيسيين من نظم الحكم لدى الأمة الشركسية في الوطن الام منذ القرن الرابع بعد الميلاد.

فالنظام الاول هو الذي سمي (بنظام حكم الامراء) وهو ما يشبه النظام الارستقراطي الذي كان سائداً في أوروبا في العصور الوسطى وكان مطبقاً لدى قبائل القبرطاي والبسلني والبيدوغي.

أما النظام الثاني فهو الذي سمي (بنظام المساواة) أو نظام الحكم الشعبي، كما اطلق عليه في مراحل لاحقة (بالنظام الشركسي القفقاسي) وهو نظام ديمقراطي يعتمد على حكم الشعب من خلال مجالس شعبية يرأسها (تحمادات) منتخبين من الشعب.

وبالبحث عن مفاهيم كل نظام من النظامين السابقين تبين ما يلي:

١- يلاحظ بأن نظام الامراء كان مصبوغاً بصبغة اقطاعية اكثر من النظام الثاني، إلا أن النظامين يلتقيان في كثير من الامور والتشريعات المشتركة والمتشابهة، وقد اقتبس كل منهما بعض تشريعاته من النظام الاقطاعي الذي كان سائداً في العالم اجمع تقريباً في ذلك العصر.

٢- الاختلاف الاساسي بين النظامين يكمن في أن (النظام الشركسي) لم يكن يقبل بوجود سادة وعبيد، بينما (نظام الامراء) كان يعتمد على ذلك، بالإضافة إلى وجود امتيازات خاصة للامراء والنبلاء في كثير من امور الحياة، كما اصبحت السلطة وكثيراً من المناصب وراثية، داخل عائلات معينة في هذا النظام.

٣- إن سلطة سن القوانين والتشريعات كانت من صلاحيات (المجالس) المنتخبة من الشعب، وكانت القرارات والمشاريع التنظيمية التي يجري اعدادها من قبل تلك المجالس تخضع لموافقة المؤتمرات الشعبية العامة حتى تصبح قوانين نافذة. بل أن الامراء في نظام الامراء او الزعماء وفي النظام الشعبي كان يجري انتخابهم وتعيينهم في المجالس والمؤتمرات الوطنية^(٢٤).

المرحلة الرابعة: وهي مرحلة ظهور الطبقة في المجتمعات الشركسية في الوطن الأم

مع حلول القرن السادس عشر ظهر في بلاد الشراكسة نظم اجتماعية تعتمد على تعدد الطبقات الاجتماعية، حيث قام العديد من الباحثين والرحالة الذين زاروا القفقاس بدراسة النظم التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر وقدموا لنا تصوراً عاماً عن اقسام وانواع الطبقات التي كان يتكون منها المجتمع الشركسي في ذلك الوقت ومن اهمها:

• تقسيمات الرحالة الاجانب الذين زاروا بلاد الشراكسة خلال القرن التاسع عشر:

١- تقسيم دوليز دومونتبارو (١٨٣٩) وقسم الشركس إلى خمس فئات وهي على النحو التالي:

١- الامراء. ٢- النبلاء. ٣- الاحرار. ٤- الخدم. ٥- الاتباع.

إلا أن (مونتبارو) كتب بشكل موجز دون توضيح تاريخي او تمييز بين التقسيمات في مختلف القبائل الشركسية^(٢٥).

٢- تقسيم ن.ج. دانيليفسكي (١٨٤٧) حيث قام بتقسيم مجتمع القبرطاي إلى خمسة اقسام وعلى النحو التالي:

- ١- الامراء. ٢- أصحاب السلطة الروحية. ٣- اوزدن (النبلاء). ٤- الفلاحون.
- ٥- غير الاحرار - الاسرى (٢٦).

٣- تقسيم ث. لابينسكي (١٨٦٣) الخبير بتاريخ مجتمع الشراكسة حيث قسم شراكس الغرب إلى (٤) فئات عام ١٨٦٣ وهي:

- ١- الامراء. ٢- النبلاء. ٣- الاحرار. ٤- العبيد. (٢٧).

٤- تقسيم الباحثة ساندرز (١٩٤٤) حيث قامت بتقسيم المجتمع الشركسي إلى خمس طبقات وهم:

- ١- الامراء. ٢- النبلاء. ٣- الاحرار. ٤- العبيد. ٥- التابعين (الاتباع) (٢٩)

٥- تقسيم (جاباغي) عام (١٩٦٩) الذي قسم شراكسة تركيا إلى ثلاث طبقات فقط. (٣٠)

- ١- الامراء (بشي). ٢- النبلاء (ورق). ٣- الفلاحون الاحرار (تليقوتل).

يلاحظ من تقسيمات الرحالة الاجانب المشار إليهم اعلاه، العمومية في التقسيم، وعدم الدقة فيها وانها تقسيمات لبعض القبائل الصغيرة وليست للفئات الطبقية لدى القبائل الكبيرة.

الفئات الطبقية وانواعها لدى الشراكسة من وجهة نظر بعض المؤرخين الشراكسة.

ربما كان من اكثر المؤرخين الشراكسة دقة في وصف النظام الاجتماعي لدى الامة الشركسية في الوطن الام منذ القرن السادس عشر هو المورخ (خان كراي) مؤلف كتاب "مشاهير الجراكسة" عام ١٨٣٥. كما ان الامير (جان خواتوقة بسلان) قام بإدخال بعض التعديلات على الفئات الطبقية التي كانت سائدة في القرن السادس عشر بعد الميلاد. وكذلك فإن المؤرخ الشركسي (شورا نغموقة) يعتبر افضل من وصف النظام الاجتماعي لدى الامة الشركسية في الوطن الام، حيث يقدم لنا تصنيفا دقيقا وشاملا للفئات الطبقية التي كانت سائدة لدى مختلف القبائل الشركسية منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر، وبالتحديد حتى قيام الفلاحين وعامة الشعوب الشركسية بانتفاضات وثورات شعبية أدت إلى إلغاء النظام الطبقي منذ مطلع القرن التاسع عشر، وفيما يلي وصف لكل فئة من الفئات الطبقية كما حددها (نغموقة).

• الاعيان لدى القبرطاي:

يقول (نغموقة) بأن اعيان الشراكسة كان يتكون من خمس طبقات هي على النحو التالي:

الفئة الاولى: لقوه لاش - وهي كلمة مركبة من ثلاثة ألفاظ وتأتي بمعنيين:

- بمعنى الشهير المعروف المنتمي لثلاثة جود امجاد.

- مشتقه من كلمة (لاب قوش) وتأتي بمعنى حائز لأوصاف الشهامة.

والشجاعة وأصله من ثلاثة جود أبطال فما فوق.

الفئة الثانية: ديزنوقة وهي مركبة من كلمتين (ديظين - و - قوه) بمعنى "ابن الفضة" وتطلق على اولاد الامراء من الطبقة الثانية.

الفئة الثالثة: كوه دز (كوه دس) من المعتقد أنها تطلق على اعيان ونبلاء الاجانب الذين تجرّكسوا واستوطنوا مع الجراكسة.

الفئة الرابعة: بشيش ورق (بسلان ورق) وتطلق على الورق الموجودين في معية الامراء "البشي".

الفئة الخامسة: ورق صاوه له غوسه - كلمة مركبة من ثلاثة ألفاظ وهي:

(ورق - صاوه له - غوسه) ومعناها الرفيق الأصل الشجاع المرافق للورق ويلاحظ بأن القاب الشرف الثلاثة الأول تطلق اليوم على النبلاء والعظماء من الدرجة الأولى.

وهذه الأوصاف والألقاب التي ابتكرها أمير القبرداي (جان باسلان) كما ذكرها (شورانوغموقة) غير مستخدمة إلا في قبائل القبرداي. ولا يؤيد هذا الرأي (خانكراي) مؤلف (مشاهير الجراكسة) سنة ١٨٣٥. بقوله: "إن هذه الألقاب والدرجات كانت موجودة ومحترمة ومرعية في عموم القبائل بلا استثناء" وليس فقط لدى قبائل القبرداي. (٢٨).

وفيما يلي وصف ملخص لكل فئة من فئات الطبقات الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمعات الشركسية في الوطن الأم حتى مطلع القرن التاسع عشر.

(١) الامراء (البشي):

البشي هو أعلى درجة في طبقة الامراء النبلاء عند الشركس، أما دوره الحقيقي ووظيفته فكانتا مختلفتين من قبيلة إلى أخرى. ليس فقط بين القبرداي بل أيضا بين (بيسليني، البجادوغ، الأوبيخ، الابخار)، وكان أقل وضوحا عند الأبخاخ والشابسوغ، وعلى هذا فإن البشي يأخذ عند الشركس أعلى درجة في التصنيف الاجتماعي.

ويلاحظ أن كلمة بشي بالذات لها ثلاثة معاني:

المعنى الأولي (كما ذكر سابقا): أعلى طبقة بين الامراء.

"لقد كان عند البجادوغ، القبارداي، الكيميرغوي، والهاتيكواي أمراء نصّبوا أنفسهم أيضا قضاة للفصل في قضايا شعوبهم لقد كان بيدهم حق إعلان الحرب وإقرار السلم واتخاذ القرارات الأخرى الهامة" (دانيليفسكي) (٣١).

"وعند القبارداي كان النظام المتميز بحاكمية الامراء متطورا جدا. وكان هناك اتباع بدرجات مختلفة، فلاحون وبشل". (لاينسكي) (٣٢).

لقد كان الامراء كما (ذكر سابقا) واعين تماما لوضعهم، وكانوا لا يحبذون التزاوج مع الطبقات الأدنى، ومع ذلك كان بإمكان (البشي) أن يتزوج امرأة من أي طبقة أدنى إذا وافق والده على ذلك. أما بالنسبة للاميرات فكان مسموح لهن بالزواج من طبقة النبلاء وليس أقل من ذلك، وحتى هذا لم يكن مقبولا ومرضيا عنه، ولذا كان نادرا أن يحدث ذلك. حيث كان من المقبول اجتماعيا زواج احد النبلاء من طبقة أدنى وليس العكس، كما كان يعتبر زواج إحدى النبيلات من طبقة أدنى عارا وغير مقبول إطلاقا.

لقد لعب (الأمير) دور الحامي والكفيل لأتباعه. وإذا أصاب أحدهم ضرر ما كان على الأمير أن يتصدى لإعادة الحق إلى نصابه، بل قد يصل الأمر إلى حد تعويض الاضرار من ماله الخاص.

وفي بلاد القبرداي يقال بأن الامراء قسموا الشعب إلى درجات وحددوا حقوق وواجبات كل درجة فيها، ومن الملحوظ أن الصراعات بين النبلاء كانت تنتهي بتجريد المهزوم من سلطته أو طرده ولم يكن يقتل، بينما كانوا يقتلون الامراء في مثل هذه الصراعات مما يوحي بأن الأمير والامارة ما هي إلا ترتيبات جديدة على المجتمع الشركسي جاءت قد تكون من الخارج، ثم جرى رفضها فيما بعد.

المعنى الثاني للبشي هو كل من يرأس مجموعة. فيمكن ان تفهم كلمة (بشي) على انها مرادف لـ (تحمادة) (لاينسكي) (٣٤).

المعنى الثالث للبشي هو اللقب الذي تطلقه الزوجة على زوجها او حماها أو ابو حماها (الجد) إن كان حيا.

٢- طبقة النبلاء (لقوالاش)

صنف (داينليفسكي عام ١٨٢٧) نبلاء القبارداي ونبلاء البيسليني إلى (٣) فئات. فالفئة الأولى: هي فئة النبلاء الكبار، وهم في المرتبة بعد الامراء مباشرة، والفئة الثانية: ولهم نفس المرتبة ولكن سلطتهم اقل. وأما الفئة الثالثة: فهي تشمل النبلاء الفقراء والذين يتبعون ويخضعون لنبلاء الدرجات الاعلى، ويدعى نبلاء الدرجة الاولى والثانية: الازدان الكبار (النبلاء الكبار) اما نبلاء الدرجة الثالثة فكانوا يدعون (النبلاء التابعين للنبلاء الكبار).

لقد كان النبلاء متكاتفين ومتماسكين ويتزاجون فيما بينهم، حفاظا على ميزاتهم، وإن حدث وأن يتزوج بعض النبلاء من طبقات أدنى فإن أولاد هذه الزيجات يعتبرون من الاحرار (فقولء)

ويقول (جباغي) بأن الامراء والنبلاء كانوا محبوبين ومقربين إلى شعوبهم، ويندر أن تجد عند الشراكسة عامة والابزاخ خاصة امثال فيها انتقاد او انتقاص من طبقة الامراء والنبلاء^(٣٥).

٣- طبقة الاعوان (ورق):

هم طبقة من الفرسان الاعوان ويعتبرهم القبرطاي بعد طبقة النبلاء مرتبة، ويعظمهم الناس وينسبون إلى اسمائهم القرى والاحياء التي يقيمون فيها هم وأفراد عائلاتهم واتباعهم^(٣٣).

٤- طبقة الفلاحين (تلاقوتل) أو (فوتول)

ويمكن تفسير كلمة (تلاقوتل) في لغة الأديغة: (تلاقو)، ومعناها تقريبا (القبيلة - العشيرة) أما (تل) فمعناها (رجل) ويصبح معنى تلاقوتل (أعضاء العشيرة او رجال القبيلة).

والقسم الاكبر من الشعب الشركسي انتمى، وينتمي إلى هذه الفئة من فئة الفلاحين الاحرار. وقد اختلفت قوة هذه الطبقة وتأثيرها السياسي من قبيلة إلى أخرى، فمنهم من تمتعوا بحرية غير محدودة في بلاد (الابزاخ) والشابسوغ مثلا. اما عند القبارطاي والابزاخ فكانوا تابعين للأمرأ أو النبلاء ويصف (داينليفسكي -١٨٤٧) الفلاحين القبارطاي بقوله:

"انهم مرتبطون بالأرض ويعاملون تقريبا (كالعبيد) مع انهم ليسوا كذلك وفي بعض الحالات الضرورية يمكن ان يباعوا كأفراد او كعائلات واغلب الفلاحين يتبعون النبلاء وفئة صغيرة منهم يتبعون الامراء^(٣٦).

اما (لابنسكي) الذي كتب عن احرار الابزاخ (١٨٦٣) فيقول بأن "كل شركسي (تلاقوتل) (حر ينتمي إلى قبيلة). وإذا أراد امير أو نبيل الانضمام إلى قبيلة، فإنه يصبح فيها ايضا (تلاقوتل). ويحوز بذلك على حقوق وحماية القبيلة، وبين الاحرار لا توجد فروق، فكلهم متساوون مع بعضهم بشكل كامل" وفي عام ١٧٩٠ وبعد الثورة الاهلية للابزاخ انتقلت السلطة بكاملها إلى الاحرار (تلاقوتل).^(٣٧)

وطبقة الاحرار كانوا يتزاجون فيما بينهم ومعظم افراد هذه الطبقة هم من الفلاحين الكبار ميسوري الحال (خاصة عند الابزاخ والشابسوغ). ولم يجدوا غضاضة في القيام بالعمل، بعكس الامراء والنبلاء الذين لم يكن يعملون على الإطلاق.

٥- طبقة ال (بشيل) (الاتباع أو رجال الأمير)^(٣٨)

إن كلمة (بشيل) باللغة الشركسية ترجمت من قبل العديد من الرحالة والمؤرخين خطأ (بالعبيد) ومع الاعتراف بأنهم كانوا يعدون من ملكية الامراء أو النبلاء أو الورق، حيث كانوا يشترون أو يؤخذون أسرى في الحروب، مما أدى لوصفهم (بالعبيد) علما بأنهم كانوا يحملون السلاح ويشكلون جزءا من القوات المحاربة ويقدمون أعطيات معينة أو العمل عنده والمحاربة من أجله. وفيما عدا ذلك فإنهم كانوا يتمتعون بنفس الحريات تقريبا التي تتمتع بها الفئات الاخرى، كما كان لهم حق مقاضاة سيدهم (النبيل الأذن) والمثول امام القاضي كما كان (سيده) ملزما بتحمل كامل نفقات معيشته. وأما (بشيل) أبتاع قبائل (القبرطاي) فلم يكن لهم الكثير من الحقوق والحريات المذكورة سابقا، وكانوا يعتبرون في غالب الاحيان من أملاك الامراء او الاغنياء. صحيح انه كان من حقهم

مقاضاة سادتهم، إلا أن الغرامات المفروضة على الأتباع تجاه سادتهم كانت أكبر من تلك المفروضة على السادة تجاههم.

وكانت شروط حياة الأتباع الملحقين بسادتهم في القبائل الشركسية الأخرى أفضل من شروط حياتهم لدى القبرطاي، خاصة ما يتعلق منها بعبادات الزواج والدفن وغيرها من أمور الحياة اليومية فكانت نفس عادات الأحرار^(٣٩).

ويؤكد (بيل) الذي كتب عن نظام الطبقة لدى الشركاسة عام (١٨٤٠) بأن الأتباع يصبحون (اتباعاً) في إحدى الحالات التالية:

- أسرى الحرب: سواء كانوا من قبائل شركسية أخرى أو من شعوب أخرى.
- الأشخاص الذين أصبحوا اتباعاً بحكم قضائي (الأمر المألوف عند القبارطاي عندما لا يتمكن البعض من دفع الغرامات للأمير يصبحون (اتباعاً- بشل).
- المسروقين أو (المخطوفين) من القبائل الأخرى خلال الغزوات والنزاعات القبلية.
- الأتباع المسروقين أو (المخطوفين) من غير الشركس أثناء غزوة يقوم بها شخص أو أكثر من القبائل الشركسية^(٤٠).

ويشير (لابينسكي) في كتابه جزء (١) المنشور عام (١٨٦٠) بأن طبقة (البشل) من اتباع الأمراء كانوا يشكلون ربع سكان قبائل الأوبيخ وعشر قبائل الأبراخ وخمس قبائل القبرطاي^(٤١).

ويؤكد (لابينسكي) بأن (الاتباع) (البشل) عند الأبراخ كانت لديهم حقوق أكثر من الأتباع في القبائل الأخرى ولم يكن عليهم العمل لفترة أطول من أي سيد آخر في القبيلة، وكانت لهم بعض الممتلكات الخاصة المنقولة، وعائلاتهم الخاصة، ويسكنون بيوتاً خاصة بهم، كما يمكنهم استصلاح وزراعة قطعة من الأرض إلى جانب السماح لهم بتربية المواشي وغيرها من الحقوق الشخصية.

٦- طبقة الخدم (وونة - أوت)

ومعناها خدم البيوت أو الترجمة الحرفية لها (الذين يقفون أمام البيت) فهم أدنى طبقة في التنظيم الطبقي في المجتمعات الشركسية القديمة. ونستدل على ذلك من المثل الشركسي القائل إن تكون من الأتباع (البشل) شيء جيد، أما إن تكون من الخدم (وونة - أوت) فإنه أمر سيئ جداً^(٤٢).

يؤكد المؤرخون للنظام الطبقي في المجتمعات الشركسية، بأنه كان نظاماً مختلفاً عن النظام الطبقي الأخرى التي كانت سائدة منذ العصور الوسطى في المجتمعات الأوروبية، وإن هذا الاختلاف يكمن في عدم وجود حواجز الانتقال من طبقة إلى طبقة أخرى، هذا بالإضافة بأن مفهوم العبودية بالمعنى المتعارف عليه في نظام (الرق) لم يكن موجوداً لديهم وفئة (البشل) الذين يعتبرون من اتباع الأمراء كانت لهم حقوق وحرية شخصية من حيث السكن، والزواج، والعمل، وكذلك الأمر بالنسبة لأدنى طبقة في المجتمع الشركسي وهم (وونة أوت) أي الخدم (العاملين في البيوت) فكان لهم الكثير من الحقوق كما كانوا يعاملون معاملة حسنة من قبل الأمراء والنبلاء والأعيان التابعين لهم ويقومون بخدمتهم^(٤٣).

* الثورات والانتفاضات الشعبية في الوطن الأم:

يشير المؤرخون للمجتمعات الشركسية في القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادي إلى حدوث تحول كبير في النظام الاجتماعي الطبقي لدى الأمة الشركسية في الوطن الأم، كما يشيرون إلى الثورات والانتفاضات الشعبية التي حدثت ضد الأمراء (البشي) والنبلاء (أذن) والأحرار (الورق) من طبقة الأغنياء ملاكي الأراضي الزراعية، والذين كانوا يسيطرون على الثروات الزراعية والحيوانية. ففي عام ١٧٦٧ انتفض حوالي عشرة آلاف قروي بزعامة (داميلي ما مسرقوه) بثورة شعبية ضد زعماء القبرطاي إلا أن تكاتف وتحالف رجال الدين والزعماء، أدى للقضاء على هذه الانتفاضة، كما قامت انتفاضات أخرى في مناطق البزادوغ إلا أنها لم تكن بحجم انتفاضة

(مامسرقوه) ومن أجل القضاء عليها كان بعض الزعماء والأمراء والشراكسة يطلبون المساعدة من الروس.

وفي سهول الكوبان، نشطت القبائل الشركسية واستطاعت أن تجمع قواتها ضد امرائهم ونبلائهم وفي الأعوام ما بين ١٧٩٠ ولغاية ١٨١٠ استطاعوا القضاء على نظام الاقطاع مما اضطر الكثير منهم إلى اللجوء إما إلى روسيا أو إلى القرم.

ومع حلول عام ١٨١٠ استطاعت جماهير الشعب الشركسي أخذ الصلاحيات من الامراء والنبلاء في عموم مناطق شمال غرب القفقاس مما صبغ هذه الحركة بصبغة العصيان أو التمرد التي أدت لحدوث انقلاب اجتماعي بمعنى الكلمة، وحركة تصحيح عامة، وكانت البداية الاولى الحقيقية لبدء سقوط نظام الاقطاع الشركسي الذي كان منتشرًا في تلك المنطقة. (٤٥)

كما أكد كل من (تشيراسي وليجوت) وهما من المؤرخين الشراكسة في (مايكوب) على قيام ثورات شعبية، تحولت إلى حروب اهلية (عام ١٧٧٠) دامت لأكثر من عشرين عاما، وأدت إلى قتل غالبية الامراء الشراكسة في قبائل الازاخ، وطرد النبلاء وتجريدتهم من سلطاتهم واماراتهم، وكذلك قيام احرار الشابسوغ بتجريد الامراء والنبلاء من سلطاتهم (سلميا) دون سفك الدماء، وان هذه الثورة تزامنت مع الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر. كما هاجر كثير من النبلاء الفرنسيين إلى روسيا، فإن الكثير من امراء الشراكسة هاجروا إلى روسيا. (٢٠)

وفي عامي ١٨٤٦ - ١٨٤٧ قامت ثورات أخرى ضد زعماء وامراء الشراكسة عندما قام احرار وفلاحو الناتخواج والازاخ بمصادرة بيوتهم وتحرير اكثر من (٥٠٠٠) فلاح وعبد (بشل) من تبعية الامراء والنبلاء. (٤٧)

بالرغم من قيام السلطات القيصرية في القفقاس بإجراءات عسكرية لحماية الأمراء والنبلاء وارسال حملتين تأديبيتين لبلاد الشابسوغ والناتخواج فإن رد فعل شعوبهما هو الاستيلاء على كل ممتلكات النبلاء الذين التحقوا بالروس، أما النبلاء الذين بقوا في ما وراء الكوبان، وخوفا من فقد كل ممتلكاتهم وبقي عبيدهم وجدوا حلا وسطا مع كبار الشعب بحيث يصبحون متساوين في الحقوق مع باقي الشعب تحت طائلة الطرد من أراضيهم في حال مخالفتهم لهذا الحل، كما كان الصراع الاجتماعي حادا لدى (الأديغة) من المجموعة الارستقراطية الذين كانوا يعتبرون انفسهم خاضعين لروسيا.

كانت اكبر وآخر الانتفاضات الشعبية تلك التي قام بها فلاحو البجدوغ في شباط عام ١٨٥٦ التي عرفت باسم (حرب الامراء والنبلاء)، ولم يستطع النبلاء والامراء البجدوغ اخماد الانتفاضة إلا بالاستعانة بالقوات الروسية، فقد تم تنظيم عدة حملات تأديبية روسية ضد البجدوغ نتج عنها تدمير الكثير من القرى. (٤٧)

المؤسسات الاجتماعية للأمة الشركسية في الوطن الام في مرحلة ما قبل طردهم من الوطن الأم

ومع نهاية القرن الثامن عشر تكوّن مجتمع الأمة الشركسية من عشرات المؤسسات الاجتماعية والتي تسمى اليوم بمؤسسات المجتمع المدني، من اهم هذه المؤسسات هي:

- **البيت:** وهي اللبنة الاولى المكونة لمجتمعات الأمة الشركسية وتتكون من اسر كبيرة تضم (الجد والابن والحفيد) والتي تسمى بمفهوم علم الاجتماع الحديث (بالاسرة الممتدة) أي ان الاسرة تكونت من ثلاثة اجيال.
- **المسجد:** كان المسجد المؤسسة الهامة في المجتمعات الشركسية بعد اعتناقهم للديانة الاسلامية، فكان له دور تربوي وتنقيفي جنبا إلى جنب مع الدور الديني.
- **مجالس المضافات** وربما كانت الأمة الشركسية أكثر امة متميزة في مضافاتها التي كانت تعتبر مؤسسة تربوية واجتماعية وسياسية وقضائية. فالمضافات الشركسية والتي تسمى (حاشيش) كانت مؤسسة لها مكانتها ودورها في المجتمعات الشركسية قديما وحديثا. ففيها تلتقي مختلف

طبقات الشعب من امراء ونبلاء واحرار وفلاحين وحتى التابعين للامراء (البشل) كان لهم حق حضورها كما كان يحضرها المغنون والمنشدون ورواة الحكايات والاساطير. كما كانت المضافات هي مكان اقامة الضيوف من مختلف الاجناس والاقوام الذين كانوا يلقون كل ترحاب وتكريم، وكان الويل والعار للمضيف الذي يهمل ضيفه او يعجز عن حمايته .

• **مجالس الشعب**، وهي المجالس التي تضم في عضويتها الامراء والنبلاء والاعيان الممثلين والمنتخبين من عامة الشعب.

وكانت المجالس هي اعلى سلطة في النظام الاجتماعي والسياسي لدى الامة الشركسية وتحولت في مراحل لاحقة من القرن الثامن عشر إلى مجالس نيابية قومية منتخبة من الشعب مباشرة.

في مرحلة ما قبل طردهم من الوطن الأم تكون المجتمع الشركسي من الفئات التالية:

• **فئة الحكام**، وهم الامراء والنبلاء وزعماء ورؤساء القبائل أو الامارات والدويلات التي كانت تتكون منها مجتمعات الأمة الشركسية.

• **فئة رجال الدين (المولات أو الشيوخ)** وهم الفئة التي تشرف على دور العبادة وتطبيق الشريعة الاسلامية.

• **فئة القضاة** وهي الفئة التي كانت تسهر على نشر العدالة والفصل بين المنازعات في المجتمعات الشركسية.

• **فئة الفلاحين (المزارعين)** وهي الفئة الغالبة في المجتمعات الشركسية في تلك الفترة.

• **فئة الحرفيين**، وهم الذين يمتنون مختلف الحرف اليدوية من نجارين وحدادين، وصاغة سروجية وصانعي الاسلحة وخياطين وبنّاءين... الخ.

• **فئة الفنانين** وهم المغنون والموسيقيون.. الخ.

• **فئة الشعراء ورواة الاساطير** وهم فئة متخصصة في تأليف القصائد والأشعار وكذلك فئة (الرواة - حكاواتية).

• **فئة المقاتلين**: وهي الفئة التي كان يتكون منها مجموعات المقاتلين المدافعين عن الأرض والعرض خلال حروب الدمار والابادة التي تعرضت لها الامة الشركسية وهي فئة متطوعة وغير محترفة.

• **فئة التربويين** وهي فئة ظهرت في مراحل لاحقة بعد أن أنشئت المدارس والمعاهد التعليمية.

• **فئة رجال الامن (الحراس)** وهم بعض المحاربين أو قسم من الجيش المفرغين لحفظ الأمن والسهر على سير القوانين وتنفيذها، بالإضافة بعض الرماة المسلحين المعنيين لحفظ الامن وتطبيق القانون في كل قرية، بحيث يخصص رجل امن واحد اذا كانت القرية صغيرة، وعدد أكبر من الرجال في كل قرية كبيرة أو بلدة.

خصائص المجتمعات الشركسية ومقوماتها:

تميزت المجتمعات الشركسية منذ عصر الاجداد في فجر التاريخ وحتى عصرنا الحديث بمجموعة من الصفات والخصائص والمقومات الاجتماعية، كان أهمها هي:

علاقة الفرد بأسرته في المجتمع الشركسي:

ربما كان المثل الشركسي التالي خير دليل على خصوصية علاقة الفرد بالاسرة ومجتمعه وهو المثل القائل (تتشكل القرية من مجموعة من الاسر)، أما المعنى الاوسع للمثل فهو (صلاح المجتمع من صلاح الاسرة)، فإذا كانت العلاقة بين افراد الاسرة علاقات صحيحة، يسودها الحب والتعاون، واذ كان كل من افرادها يدرك حقوقه وواجباته ودوره في الاسرة، فإن مثل هذه الاسرة، لا

بد أن تكون اسرة سعيدة تتمتع بالمواصفات اللازمة لبناء العلاقة السلمية بالمجتمع الكبير الذي تعيش ضمنه.

وهذه المظاهر كانت تتجلى بشكل واضح في الاسرة الشركسية منذ القدم، فالمجتمع الرعوي الزراعي، وحياة الفروسية، والحروب المستمرة، كانت كلها اسبابا مساعدة لتتامي العلاقات الجيدة بين افراد الاسرة، بحيث نتج عنها تراث كبير من العادات والتقاليد والاغاني والقصص والاشعار والامثال وكلها وضعت لتحكم تلك العلاقات وتوجهها بشكل صحيح.

* العلاقة بين الجيران في المجتمع الشركسي

نأتي إلى العلاقة الاوسع قليلا، وهي العلاقة بين الجيران بعضهم ببعض، ولنستعرض بعض الامثال الشركسية كمدخل للتعرف على هذه العلاقة في التراث الشركسي نذكر منها:

المثل الذي يشبهه (الجار باللباس) فكما ان اللباس يستر عورة الانسان فإن الجار الصالح، يستر عورة جاره، ويظل اقرب الناس إليه بعد اسرته، لا بل ان المثل الشركسي يقول بأن الجار الجيد اشبه بالاخ، كما أن مثلاً آخر يشبهه (الجار الصالح بالأخ الصالح) وبمعنى آخر فإن الجار الصالح أفضل من الأخ الطالح!!

هذا بالإضافة إلى أن من المعايير الحقيقية (للأديغا خابزة) هو مدى المحافظة على حرية الجيرة واعتبار الجار قبل الدار، ومن الامثلة التي تدل على ذلك المثل الشركسي القائل: (إن جارك القريب افضل من قريبك البعيد) وكذلك (من يعيش بجوارك يمت لك بالقربى اكثر من اهلك البعيدين)، فإنك تجد جارك عندما تحتاجه وتقاسمه احزانك وافراحك في الحياة، وان الشركسي يحافظ على جاره مثل محافظته على قميصه الداخلي الابيض نظيفا.

مفهوم الاخوة والصداقة في المجتمع الشركسي:

إن قواعد (الأديغا نيميس) تؤكد على متانة علاقات الصداقة بين الرجال والنساء، حيث تتصف هذه العلاقات بأنها الأكثر متانة وعمقا واخلاصا، وإذا لم يكن بالإمكان أحدهم الوثوق بصداقة، فإنه يعتبر غير محترم اجتماعيا، والصديق المعتمد (وفق معايير تلك الايام) أقرب الناس إليك هو بمثابة أخيك، وإن لم يكن بالدم فبالروح، وانك تتقاسم معه الأفراح والأتراح وصعوبات الحياة ومسراتها، والصديق يصارح صديقه بالحقيقة مهما كانت مؤلمة، ويحاول دائما ان يفهم ويدرك وضع ومزاج الصديق، ويغفر له تصرفاته وفاء للصداقة، وان الشركسي يكون مستعدا للتضحية حتى بحياته من اجل صديق، وان انقاذ صديق له يعتبر شرفا كبيرا له. ومثل هذه الصداقات كانت تمتد إلى عائلات الصديقين، وخاصة إلى ابنائهم. وإذا ما توفي أحد الصديقين، فإن من بقي حيا منهما يأخذ على عاتقه وحتى نهاية عمره الاهتمام بعائلة صديقه المتوفى وخاصة ما يتعلق بتنشئة اطفاله الايتام.

فتقول (رايا مامخيغ) حول خصوصية الصداقة في القفقاس بأن ثمة كلمة متعارف عليها هي (كوناك)، وهي الصديق من مرتبة الاخ ويقدمون كل ما لديهم فداء هذا الصديق حتى الحياة نفسها.

كما أكد الرحالة الذين زاروا بلاد الشراكسة على انتشار عادة (قسم الاخوة) الذي أدى إلى تعاضد وتكاتف الشراكسة في كل المراحل الزمنية وهو (القسم) الذي يتم بعد ان يتقدم من بين صفوف الجماعة التي تنقسم بالاخوة رجل ينعقد الرأي على احترامه، بينما تتقدم سيدة من بين الجماعة الاخرى وتعرض على الرجل صدرها، ويختتم هذا الحفل بالقسم على القرآن.

مفهوم التعاون في المجتمع الشركسي:

من العادات المتأصلة في نفوس الجراكسة التعاون، فهم يتعاونون ماديا ومعنويا واجتماعيا. وبذلك تقل الفروق بين طبقاتهم.

ومن مظاهر التعاون الجميلة عندهم تطوع الشباب والرجال في عملية لإنجاز عمل لأحدهم لا يستطيع انجازه وحده في اسابيع مثل بناء بيت أو حراث أرض، أو حصاد زرع، أو درس بيدر، أو جلب ما يحتاج إليه من حطب. وقد يكون غير قادر على القيام بهذا العمل، لأنه ينقصه بعض

مستلزماته من آلة وما شابه ذلك. ففي مثل هذه الحال، فإنهم يتبعون عادة من أجمل العادات وهي: قيام صاحب العمل باقامة حفلة غداء في مكان العمل، تشترك في تحضيره واعداده قبل يوم العمل (الجات) وهكذا يقومون بالعمل دون ان يشعروا بتعب او ملل، وعند الانتهاء منه يعودون إلى بيوتهم على انغام موسيقاهم الجركسية، واغانيم الحماسية، ورقصاتهم الرياضية، متمنين من صميم قلوبهم ان يدوم العمل الجدي على هذا الشكل المبهج والمفرح، وان لا ينقطع ابدا، وبذلك ينجز صاحب العمل عمله، وما خسر إلا قليلا، لأن الأكل قد شاركت بتحضيره جارات زوجة صاحب البيت، فكل واحدة منهن تبرعت بأكلة من عندها.

ولم تكن "العونة" تقتصر على امور الزراعة بل كانت تشمل كثيرا من الاعمال التي كانت تتطلب التعاون والعمل الجماعي.

كما كانت هناك انماط اخرى من الحياة الاجتماعية التي تعكس مظاهر هذا التعاون، فهناك فرن (الطابون) المشترك في الحارة، والذي كان يستعمل من قبل اكثر من عائلة، حيث كان لكل منها دور في استخدامه لاعداد خبزهم، كما كانت العائلات المتجاورة تتعاون في اكثر من عمل، فالبرغل (المادة الرئيسية لصناعة الباسطة) والذي لم يكن يخلو أي بيت شركسي منه، كان يتم صنعه عن طريق العونة تماما مثل (تصويل القمح)، أي غسله وتنظيفه تمهيدا لطحنه، وتحضير مستلزمات طبخة (العاشوراء) الذي كان يتم في اماكن محددة في القرية، والتي يتواجد فيها (الجرن الخشبي) الذي يستعمل لإزالة قشرة الذرة الصفراء والقمح المادتين الرئيسيتين لهذه الطبخة.

كما كانت المعونة في اعداد وتوفير مستلزمات البناء وصيانة البيوت من حجارة واخشاب وقصب واغصان شجر الدفلى والتراب المخصص لاعداد القصار في البيوت الطينية والتراب اللازم لبناء الطوب والذي كان يستخرج من اماكن محددة على اطراف القرية. كل هذه المظاهر التي ذكرتها وغيرها، تدل دلالة واضحة على التعاون (ولو بطريقة غير مباشرة) في الحياة الاجتماعية الشركسية.

وبفضل هذا التعاون لم تكن هناك حاجة لطلب العون من مناطق اخرى الا نادرا، فكل المهن اللازمة لحياة القرية الشركسية في كل قرية كانت متوفرة، من الحداد إلى النجار والبناء والطحان وصانع الجلود والادوات الزراعية وحتى والمعالجين بالطب الشعبي.

* مفهوم التكافل والتضامن في المجتمع الشركسي

يؤكد المؤرخون والباحثون الاجتماعيون بأن المجتمعات الشركسية تكاد تخلو من (المتسولين) وان فقراءهم لا يمدون اليد، لأن الأمة الشركسية من الامم القديمة التي طبقت مفهوم التكافل والتضامن منذ ان كانوا وثنيين وقبل اعتناقهم للديانة المسيحية ومن ثم الدين الاسلامي، ومن أهم مظاهر التكافل التي كانت تطبق منذ عهد الاجداد هي:

- مبدأ كفالة الاطفال الايتام من قبل اصدقاء ابائهم او من قبل جيرانهم، لأن من اكثر العادات التي كان يتمسك بها الشركاسة منذ القدم هو قيام اصدقاء الالباء او جيرانهم برعاية اطفالهم بعد موتهم او استشهادهم في المعارك.

- مبدأ (العونة) التي تحدثنا عنها، وكذلك مبدأ اعتبار الارض ملكا مشاعا بين الناس، وبعبارة ادق فإن الشركاسة كانوا يؤمنون بأن لكل انسان الحق في الحصول على قطعة ارض لإعالة عائلته. فكان الرجال في قرية ما، يعزقون الارض ويحراثونها ثم يزرعونها، بجهد مشترك، وعند الحصاد والاثمار يقسمون الأرض وناتجها فيما بينهم. فالعائلة الاكبر عددا والاقل حظا، تأخذ الحصة الاكبر. والحصة الثانية تذهب إلى العائلة التي تليها في الترتيب، وهكذا إلى ان تحصل كل عائلة على ما يكفيها، وإذا حدث جفاف أو قحط، وانعدم الحصيد والثمار، هبت القرية المجاورة إلى مساعدة سكان القرية المنكوبة. وإذا عجزت عن الوفاء بكل الالتزامات هب أهالي القرية التي تليها في سد النقص، وإذا اصاب الولاية كلها، قحط أو نكبة ما، تقدمت الولاية المجاورة للمساعدة. وهذا ما حدث في الحروب الاخيرة التي جرت بين ابخازيا وجورجيا حيث

هبت الجمهوريات والمجتمعات (الأديغة) في الوطن الأم إلى مساعدة الابخاز، ولما اشتكى الجورجيون إلى الروس، حاول الروس أن يوقفوا تدفق المساعدات إلى ابخازيا، وفشلوا في تحقيق ذلك، لأن الشعب أصر على التمسك بمبدأ أو نظام (العونة) الشركسية واستمرت الشاحنات والقطارات تفرغ حمولاتها في مختلف مناطق الابخاز.

• مبدأ تخصيص حصة من المزروعات للفقراء والمحتاجين والغرباء وابن السبيل:

كان من عادات الشراكسة منذ القدم هو قيام الفلاحين في القرية بزراعة الاراضي الخاصة بالأرامل والايتم وكبار السن والضعفاء أو المرضى، كما كانوا يقومون بحصدها بشكل جماعي، هذا بالإضافة إلى قيام اهل القرية بزراعة قطع اراضي اضافية من غير الاراضي المخصصة لكل عائلة وتخصيص انتاجها للفقراء أو للغرباء الذين قد يصادف حضورهم عند الحصاد، وهو النظام الذي كان يسمى بالشركسية (حامة - أحه) ومعناها (حصة الغريب) لأن الشراكسة كانوا يؤمنون بالمبدأ الشعبي القائل (اللي بحضر السوق بتسوق).

• مبدأ المسؤولية الجماعية في المجتمعات الشركسية:

لم يكن يوجد أحد في المجتمع الشركسي قديما وحتى إلى وقت قريب في الوطن الأم أو في بلاد المهجر شيخ يعيش وحيدا بلا رعاية أو ايتام هائمون أو اطفال شوارع أو اطفال أسر مفككة وذلك بفضل (الأديغة - خابزة) التي تجبر أبعد قريب لذلك الشيخ أو (الطفل اليتيم) أو (المرأة الوحيدة) عن رعايتها، وإن لم يوجد مثل هذا القريب يعتبر أهل القرية أو الحي مسؤولون عن رعاية هذه الفئة المهمشة.

• مبدأ احترام العمل والعمل في المجتمع الشركسي:

اعطت العادات والتقاليد الشركسية (الخابزة) اهمية كبرى للعمل والعمل، والتراث الشركسي الشفوي غنية في الاقوال والحكم التي تعتبر العمل قيمة اجتماعية كبيرة، وأنه متأصل في المجتمعات الشركسية منذ القدم، وأن اهمية العمل لا تقتصر على كونه وسيلة الانسان لتوفير مأكله وملبسه وحاجاته وحسب، بل أنه يمنح الانسان، الثقة بنفسه، ويكسبه احترام الآخرين، وينمي لديه الطموح والأمل، والفرد الذي يأكل من عرق جبينه هو الذي يعرف قيمة الحياة ويشعر بلذتها وينسى متاعبها، كما يتضح ذلك في المثل الشركسي القائل: (ألذ الزاد، أصعبه منالاً).

كذلك المثل القائل: (كل من كدك، لأن زاد الاحسان لا يشبع).

وكذلك فإن المجتمعات الشركسية كانت تنظر إلى المكانة الاجتماعية للانسان الشركسي وقيمه بقدر اقباله على العمل واتقانه له، كما يتضح في المثلين التاليين: (قيمة الانسان تقاس بمقدار ما ينجزه من عمل).

(جمال الانسان بعمله، وجمال الاشجار بثمارها)

واعتاد الشراكسة منذ القدم على احترام العمل، وعدم الخجل منه، ولو كان عملاً متواضعاً، وهذا ما تعكسه قصة "الحكيم جباغي"، عندما جاءه شخصان يريدان استشارته، فلما رأياه يعمل في الحقل مع زوجته، عاد أحدهما من حيث أتى قائلاً: وهل يمكن أخذ الحكمة من رجل يعمل مع زوجته في الحقل؟ فكان رد (جباغي) المشهور (لا تحتقر العمل الشريف، مهما كان حقيراً).

مبدأ قرابة (الاتالق) والاخوة بالرضاعة أو بالتعاهد:

فقرابة الاتالق هي القرابة التي تنشأ بين أسرة (الولد) المطلوب تربيته ويسمى (قان) وأسرة المربي ويسمى (الاتالق) حيث كان من عادات الشراكسة منذ القدم تربية طفل من أسرة ما عند أسرة أخرى، بهدف اقامة علاقة قرابة بين الاسرتين، ويصبح الزواج محرماً بين هاتين الاسرتين، وكان الامراء والنبلاء يرسلون ابناءهم إلى عائلات (الورق) ليربونهم ويدربونهم لمدة سبع سنوات ثم يعود

الشاب إلى منزله في السادسة عشرة من عمره، وتسمى هذه العادة عند القبرطاي (أوزدن) والوالد المربي (بوف خاكوه) والطفل المربي (قان) وكان المربي يغني للطفل "أنت اليوم طفل صغير وغدا ستغدو بطلا عظيما فإذا ما اشتدت ساعدك، لك ان تغزو وتأتي بقطعان الخيل والغنائم والاسلاب عليك ان لا تنساني أنا مربيك العجوز" وقد يغدو الولد (المربي) أعلى من الولد الحقيقي وعند الشراكسة اسطورة شعبية تقول بأن امرأة انقذت ولدها (القان) من حريق قبل ولدها الحقيقي الذي مات حرقاً.

والمبدأ الثاني هو مبدأ الاخوة بالرضاعة الناشئة من ارضاع طفل او اكثر من قبل جارة او مربية، وفي هذه يكون الاولاد او البنات اللاتي رضعن على ابن او بنت المرضعة محرماً للتزاوج بينهم وهي عادة كانت مطبقة من قبل الدخول في الاسلام.

واما الاخوة بالاتفاق او التعاهد وهي الاخوة الناشئة عن اداء قسم التأخي ويصبح من المحرمات بالزواج من بعضهم البعض وهو ما يعرف باللغة الشركسية (آخرة زش) أو (آخرة قدش) ومعناها أخوة حتى يوم القيامة، وهو مبدأ شائع حتى يومنا الحاضر في كل من الوطن الام وبلاد المهجر.

مبدأ رفض الكسل واحتقار العاقل عن العمل:

ربما كان من اكثر الاشخاص ازدياء واحتقارا في المجتمعات الشركسية هو الشخص الكسول العاقل عن العمل وهو قادر على ذلك، وهناك امثلة شركسية عديدة تعبر عن الموقف الرافض للمجتمعات الشركسية للكسل والعاقل عن العمل:

(ان الرزق يأتي مع العمل، كما تأتي المشاكل مع الكسل).

(يوم الكسول طويل).

(من لا يتقن الحصاد، يتعلل بسوء منجله).

(العاقل عن العمل، أكل).

(من يزرع أشجار الغابة، لا ينتظر أن يأكل من ثمرها).

(لا تغتر بجمال مظهرك، بل باتقان عملك).

(الذي يأتي بالسهل، يذهب بالسهل).

وربما كانت الابيات الشعرية التهامية التالية خير دليل على احتقار الذين يأكلون من كد وتعبد غيرهم.

(نحو العمل لا يندفع لكن السباق عند الأكل).

(يستصعب حلب البقرة وذبيك عند أكل القشطة).

(يستقل ما يأكله ويستكثر ما يعمل).

الفصل الثاني

اللغة القومية للأمة الشركسية

(نشأتها وتطورها منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث)

يعود تاريخ نشأة الكتابة التصويرية اللفظية إلى الألف الثالث قبل الميلاد^(١)، وهناك دلائل مادية تشير إلى نشأة اللغة كلغة تخاطب مع نشأة العلاقة بين اللغتين السومرية والشركسية قبل خمسة آلاف سنة^(٢).

والدارس لنشأة اللغة الشركسية وتطورها يجد أنها مرت في خمس مراحل زمنية وعلى النحو التالي:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة نشأة اللغة كوسيلة للتفاهم والتخاطب بين افراد المجتمعات القديمة وهي المرحلة التي نشأت فيها اللغة الشركسية كلغة خاصة بقوم (النارتيين).

ويتضح ذلك من اساطير النارتيين التي تحدثت حول احداث حدثت في العصور الحجرية والبرونزية، وبالتالي فإن نشأتها تعود للألف الرابع قبل الميلاد.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة (الكتابة الصورية) التي كانت تعتمد على الرموز للمقاطع الصوتية شبه المجردة... وهي الكتابة في العصور القديمة بدلالاتها الصوتية للمقاطع، وكما هو الحال في الكتابة الهيروغليفية الأولى وإن تشابه الكتابات التي وجدت في صوخومي مع كتابات مايكوب لا يدع لنا مجالاً للشك أنه ما بين عام (١٣٠٠ - ١٢٠٠) ق.م كانت هناك لغة واحدة تستخدم كتابة واحدة على مساحة كبيرة تمتد من صوخومي وحتى مايكوب. وانتقلت هذه الكتابة الصورية إلى ايجاد رموز للمقاطع الصوتية شبه المجردة بجانب المقاطع التصويرية، وكانت بداية الانتقال للكتابة ذات الدلالات الصوتية للمقاطع، وقد انتقلت هذه الكتابة خارج القفقاس الشمالي إلى الساحل السوري الفينيقي، وكان العالم النمساوي البرفسور (انطون ايركو) هو أول من شك بأن الكتابة الهيروغليفية الأولى في فينيقية هي كتابة قفقاسية المنشأ.

وربما كان (سمكوغ) افضل من كتب في هذا الموضوع، حيث أكد في كتابه (الشراكسة في فجر التاريخ) بأن الأقوام ذات الأرومة والأصل والواحد والتي غدت مع الزمن واستمرار الاستيطان والاستقرار في أحواض الأنهار شعوبا وبدأت الفروق اللهجية تتوضح وتزداد حتى غدت لغات مستقلة ذات أصل ومنشأ واحد، وكلها لغات مقطعية يظهر أصلها المشترك بشيء من التحليل البسيط، وهذه الشعوب هي التي خرجت حاملة نمطها الحضاري المميز والمتشابه من ظلمات العصور الحجرية المعدنية (ما قبل التاريخ) إلى سدة التاريخ فاخترعت الكتابة الأولى في سومر (٣١٠٠ ق.م. دون أن ننسى باقي الشعوب من أرومتها والتي وضعت كتاباتها الخاصة بها (الكتابة الميخية، والكتابة الهيروغليفية الحديثة في قبادوكيا، والكتابة الصوتية الكريدية في مسينا والأشوية في الكوبان) واعتبر المؤرخون هذا الحدث بأنه أسبقه سومر في اختراع الكتابة وأنه الثورة الثانية الهامة في سلم الحضارة الإنسانية.

ويقول (سمكوغ) "كانت هذه الكتابة والكتابات الأخرى الخاصة بلغات مقطعية جمعية (حرفية، مقطعية، ووصفية) لا يمكننا بأن نتصور بأن الشعوب ذات اللغات الاشتقاقية قد شاركت في وضعها أو اكتشافها، ونبني حكمنا هذا على خصوصيتها الشديدة بتلك اللغات المقطعية والبون الشاسع بين طبيعة وشكل اللغات المقطعية واللغات الاشتقاقية، وكذلك من منطلق انشغال الشعوب ذات اللغات الاشتقاقية بنمط الحياة القاسية والتنقل الدائم، وإنما يمكننا التأكيد على أن هذه الكتابة الصورية تطورت إلى كتابة مقطعية مسمارية، وقد تمت استعارتها لكتابة اللغات الاشتقاقية بها فيما بعد، وجرى تطويرها حتى يتم التغلب على الصعوبات التي نشأت عن كتابة هذه اللغات الاشتقاقية بكتابة وضعت أصلاً للغات مقطعية، وربما كان هذا التطوير هو السبب غير المباشر في الوصول في النهاية إلى

وضع الابدنيات التي تصلح لكل أنواع اللغات، لذلك فإن المنتبج لتطوير واسلوب الكتابة الصورية المقطعية، من صورة أولى مفردة تدل وحدها على المرأة (صورة امرأة) ثم صورة ثانية للجبل (صورة جبل) يجد بأن المقصود من هاتين الصورتين ليست المرأة وليس الجبل وإنما اسم العلم الذي تدل عليه هاتين الصورتين وهي (الخادمة) لأن اسم الخادمة مكون من مقطعي (الجبل والمرأة) ربما لأنهم كانوا يأتون بها من الجبل، أي أن عبارة (امرأة الجبل) صارت اسم علم ويمكن ان نزيد هذا الأمر وضوحاً فنأخذ مثلاً من اللغة الشركسية (الأديغة) التي هي الأخرى لغة مقطعية إن اسم العلم الذي يدل على (الزعيم) أو الرئيس هي كلمة (تحمادة) وهي تعني زعيم القوم وكبيرهم ولا يفهم منها معانيها المقطعية حتى يتم تحليلها إلى مقاطعها التي كونت هذه الكلمة وهي (تحة) وتعني (إله) (والميم) بمثابة اللام الجارة في اللغة العربية و (أده) تعني الوسيلة أو الأداة، ويصبح معنى المقطعين (وسيلة الإله أو أداة الإله) وربما احتوت المعنى المجازي نائب الإله، ولكن القارئ والمتكلم لا يفهم هذه المعنى لأنها غدت مجتمعة اسم علم يعني الزعيم أو الرئيس، وهكذا فاسم العلم في اللغات المقطعية يتألف من مقاطع وحروف وصفية، وهذا غير موجود في اللغات الاشتقاقية لذلك كانت الكتابة السومرية الصورية المقطعية خاصة بالسومريين ولم يشاركهم أحد في اكتشافها. (٣)

وكذلك فإن العالم الفرنسي (ديونان) له وجهة نظر مشابهة حول كيفية ظهور الكتابة الخطية بقوله:

"... وهكذا أصبحنا نعلم كيف ظهرت الكتابة الخطية الفينيقية بعد ظهور الكتابة الآشورية في بابلوس، وهذا ما حصل للكتابة اليونانية التي تأسست بدورها على رسوم الكتابة الفينيقية الكنعانية الخطية التي كانت قد تأسست على أساس الكتابة المقطعية اللفظية الآشورية ويفيدنا أن نذكر هنا أن أقدم الكتابات الفينيقية في بابلوس تعود للقرن الرابع عشر ق. م. في حين تعود الكتابات الآشورية في بابلوس إلى القرن العشرين ق. م.

وهي الكتابة التي سميت (بالكولخدية) الابخازية القديمة حسب رأي عالم (تورتشانيثوف) مؤلف كتاب (اكتشافات وفك الرموز القديمة الآشورية) (٤).

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة التي نشأت فيها الكتابات الخاصة باللغة الشركسية (أديغابزة) وهي المرحلة التي اختلف فيها علماء اللغة وخبراء الاقوام القديمة حول منشأ اللغة الشركسية وأصلها، وهذا الاختلاف أدى إلى ظهور أكثر من نظرية وكل واحدة منها تعتبرها مصدر ومنشأ وأصل الكتابة باللغة الشركسية... فمنهم من يؤكد بأن لغة الكتابة الشركسية كانت تستخدم كاحدى اللغات السبعة التي كان يستخدمها الحثيون في الالف الثاني قبل الميلاد، بينما فئة ثانية من العلماء يفترضون بأن اللغة الشركسية استخدمت الاحرف الفينيقية، وفئة ثالثة اكدت بأنها لغة مشتقة من اللغة السورية القديمة، وذهبت فئة رابعة للقول بأن اللغة الشركسية تعود إلى اللغة الايبيرية (وهي احدى اللغات الهندأوروبية) وتعتبر من اقدم اللغات في العالم.

واما العالم (تورتشانيثوف) فيقول بأن الآثار المكتشفة في (صوخومي) اولا وفي (مايكوب) ثانيا تؤكد بأن اللغة الشركسية تنتمي إلى اللغة الآشورية (الابخازية) القديمة.

ويؤكد الباحثون في أصل ومنشأ اللغات القوقازية عامة واللغة الشركسية خاصة بأنها بقيت لغة تكتب بالاحرف التصويرية الخاصة بها حتى القرن الرابع (٤).

المرحلة الرابعة: وهي مرحلة نشوء اللغات القومية القوقازية وتشعبها إلى لهجات قبلية محلية.

حيث قام بعض العلماء الغربيين من أمثال تودنستد وبالاس الالمانيان، وادولف دبر الانجليزي، وكذلك العالم الكرجي الشهير تيغولامار بالبحث في أصل اللغات القومية التي ظهرت في مراحل وعصور ما قبل الميلاد وتوصلوا لحقيقة بأنها لغات مشتقة من أصل لغوي واحد وان اللغات التي ظهرت في القوقاز في القرون الوسطى وما بعدها ما هي إلا لغات اشتقاقية حتى اصبح الفقاس من اكثر المناطق في العالم تعددا في لغاتها القومية ولهجاتها المحلية.

وفيما يلي نتائج الدراسات التي قام بها العديد من علماء اللغة الغربيين والروس وغيرهم..

أولاً: قام العالمان (تودنستد وباللاس) في القرن الثامن عشر بتصنيف اللغات القفقاسية إلى ستة أصناف وهي:

١- لغة التتار = تركية	٤- لغة أوست = إيرانية
٢- لغة لزكي = داغستانية	٥- لغة الجركس = أديكية
٣- لغة كيسيت = جاجانية	٦- لغة الكرج

ثانياً: الدراسات التي قام بها كل من العلماء (كالابروث وبروس وروزه شيغنر واوستر وفريدريك موللر) وأخيراً وفي عام ١٨٩٢ العالم (ر.فون أركت) بعنوان (Disprachen des Kaukasischen Stammes)

كما تشير نتائج هذه الدراسات بأن جميع اللغات قد تفرعت من أصل واحد بعينه، وأساساتها تعود إلى لغة واحدة وهي اللغة الأم. القوقازية (الايبرية).

ثالثاً: ذهب العالم (أدولف ديرر) إلى القفقاس وعاش فيها سنين عديدة، وأجرى دراساته في شرقي القفقاس وتوصل إلى أن اللغات القفقاسية تنقسم إلى ثلاثة أقسام وهي:

- * قسم اللغة الفارتوالية: وهي لغة الايبريين أي الكرج.
- * قسم اللغة الأديكية: وهي لغة الأباظة والأوبيخ والجركس (أديكة).
- * قسم لغة الجاجان والداغستان وهي سكان المنطقة الشرقية في شمال القفقاس.

وأكد أن هذه اللغات الثلاث مشتقة من أصل واحد، أو أنها ثلاثة شعوب متفرعة من أصل واحد وانها ليست لغات مختلفة لقوميات مختلفة.

رابعاً: قام عالم اللغات الشهير الكرجي (نيقولامار) بجمع أكبر عدد من اللغات القفقاسية تحت اسم (اللغات اليافثية) ووزعها إلى أربع لغات وهي:

١- لغة اللزكي	٢- لغة الججن
٣- لغة آباظة	٤- لغة قارتوه ل.
٥- لغة الأدكة	

كما قالوا اللغات القفقاسية الشمالية تنقسم إلى صنفين، شرقية وغربية، لكن الصنف الشرقي يحتوي على لغات الجاجان والداغستان، والصنف الغربي لغة الأديكة والأباظة.

فالصنف الأول - تتكلم به قبائل (لزكي - جاجان - اينكوش)

والصنف الثاني - تتكلم به قبائل الأديكة والأبخاز والأوبيخ.

خامساً: قسم العالم (فريدريك موللر) اللغات القفقاسية إلى ثلاثة أصناف، كما قال بأن هذه الأصناف الثلاثة تعود إلى أصل واحد، ولكن الانكماش بين الجبال وعدم الاختلاط، لعدم وجود وحدة سياسية، مئات وربما آلاف السنين "أثر عليها بمرور الزمان فأصابها التغيير والتبديل، كما حدث في اللغات السامية".

نستنتج من الدراسات السابقة بأن القفقاس هو بلد (اللسن) وتتعدد فيها اللغات واللهجات إذ تصل إلى المئات ونستدل على هذه الحقيقة من قول كل من:

* المؤرخ اليوناني (سترابون) في القرن الأول للميلاد القائل بأن الذين يدخلون إلى بلدة دياسكارايوس (بجوار صخوم الحالية) على البحر الأسود، بقصد البيع والشراء يجدهم يتكلمون سبعة لغات ولهجة مختلفة.

* وأما المؤرخ الروماني (بلين) واعتمادا على كلام (ديموستين) فإنه قد رفع هذا الرقم إلى ثلاثمائة لغة كما عقب قائلا: "نحن الرومان ننجز معاملاتنا مع الاهالي باستخدام ١٣٠ ترجمانا.

* وكذلك المؤرخ العربي (العزیز) سمى قفقاسيا الشرقية بجبل الألسن.

وأما المؤرخون الروس الذين كانوا أكثر المتحمسين من المؤرخين الآخرين لإبراز اختلاف اللغات وتعدد القوميات في القفقاس لتحقيق الدعاية المغرضة والدس وقلب الحقائق بقصد إيقاع التفرقة والفتن بين القفقاسيين على قاعدة (فرق تسد) حيث اعتبرت كل لهجة من لهجات اللغة الواحدة، لغة قومية مستقلة بذاتها، وجعلوا لها إدارة محلية ويغذونها بأفكار التنافر القبلي والعرفي كما حدث مع الأمة الشركسية.

إلا أن علماء منصفين حياديين شغلوا أنفسهم في دراسة اللغات القفقاسية دراسة علمية موضوعية لا يقصدون منها سوى معرفة الحقائق، وهي دراسات حيادية موضوعية تهدف إلى الوصول لنتائج علمية فقط، والكشف عن ادعاءات علماء الروس أولا وتصحيح المعلومات الخاطئة التي سبق ان توصل إليها علماء اليونان والعرب حول تعدد اللغات القفقاسية القديمة ثانياً^(٥)، حيث كانوا يعتقدون بأن كل لهجة عبارة عن لغة قائمة بذاتها فمثلا كان عدد القبائل الشركسية (الأديغة) في القرن الثامن عشر مثلا حوالي (١٨) قبيلة وكل قبيلة لها لهجة تختلف عن لهجة القبائل الأخرى.. فالمؤرخون او الرحالة الرومان أو الفرنسيون أو الانجليز كانوا يعتبرون كل لهجة لغة، علما بأن (١٨) لهجة هي لغة واحدة. وكذلك الأمر بالنسبة للقوميات الأخرى وخاصة الداغستان فربما كان فيها أكثر من (٨٠) لهجة بينما عدد لغاتها لا تتعدى (٣٠) لغة فعليا.

وفي عهد الاتحاد السوفيتي فإن عدد اللغات في القفقاس ارتفع إلى (٥١) لغة إلا أن أكثر من نصفها هي لغات غير قوقازية الأصل وانما هي لغات لشعوب واقوام وفدت واستوطنت في بلاد القفقاس. كما هو مبين في الخارطة اللغوية التالية.



خارطة

تبين توزيع اللغات في الجمهوريات القوقازية في العصر الحديث

المرحلة الخامسة: وهي مرحلة دراسة اللغة الشركسية من قبل علماء اللغة.

تتنتمي اللغة الشركسية إلى اللغات القفقاسية، وتعد في حد ذاتها الشقيقة الكبرى لهذه اللغات سابقة الذكر، والمقصود بالانتماء هنا، هو أن اللغة الشركسية أصلاً منبثقة عن اللغة القفقاسية الأيبيرية الأم، تماماً مثلها مثل اللغة العربية المنبثقة من اللغة السامية الأم، ومثلما اللغة الانجليزية المنبثقة من اللغة التيتونية (الجرمانية) وبالتالي فهي لغة مستقلة تمام الاستقلال يطلق عليها علماء اللغات اسم اللغات القفقاسية، ويعتبرونها أقدم كثيراً من اللغات الهندوأوروبية والسامية والطورانية وغيرها.

وتزايد اهتمام علماء اللغة بدراسة اللغة الشركسية دراسة لغوية واتمولجية. وتعتبر (حضارة مايكوب) التي ظهرت في العصر البرونزي الحضارات التي تلتها، والمنسوبة إلى شعوب (المينوت والسند من اجداد الشراكسة القدامى) موضوع دراسات مكثفة من قبل عدد كبير من علماء الآثار والتاريخ واللغات. وقد أجرى هؤلاء العلماء في فترات متفاوتة، أبحاثاً هامة في أصول وتطور اللغة الشركسية وحسب التواريخ التالية:

- * العالم الإيطالي ج. انتريانو - في القرن السادس عشر.
- * العالم الألماني فايترسن - بداية القرن الثامن عشر .
- * العالممان جولد نشات وبلاس - في نهاية القرن الثامن عشر .
- * في القرن التاسع عشر - مجموعة من العلماء تضم كلا من:
جوليوس ف. كلا بروث، بروسيت، ج. روزن، أ. شيفنر، ب. ك. اوسلار، ف. ميلر، ل. لوايوا، ر. ف. ايركيرت، ل. لوباتنسكي.
- ولم يقتصر البحث في أصول اللغة الشركسية وتاريخها على هؤلاء العلماء فقط، بل هناك مجموعة كبيرة أخرى ابدت اهتماماً فائقاً في دراسة هذه اللغة ووضعت مؤلفات قيمة كثيرة مثلها مثل لغات عالمية مختلفة، وأخص بالذكر في هذا المجال العلماء:-
- * البرفسور ج. ديترز - جامعة بون.
- * الدكتور ج. نوبلوخ. - عضو معهد أبحاث إنسبورك (النمسا).
- * البروفسور ن. ف. ياكوفليف (الاتحاد السوفياتي) - (ويعتبر هذا العالم اللغة الشركسية إحدى اللغات التي كانت موضع بحث وتدقيق علماء اللغة).
- * البروفسور ج. دومزيل الذي قام بزيارة تركيا مرتين لدراسة لغة قبيلة (الأوبوخ) وله مؤلفين بهذا الخصوص.

توصل هؤلاء العلماء إلى حقيقة أساسية هي أن تاريخ الكتابة باللغة الشركسية تاريخ قديم ويعود إلى سنة (٢٠٠٠) قبل الميلاد.. وشاركهم في هذا الرأي كل من العالم البلغاري ب. جيوجيف (١٩٥٧) والعالم ارن تشيكوبا (مايكوب) في كتابه عن اللغة القفقاسية الأيبيرية المجلد الثاني الصادر في مدينة مايكوب عام (١٩٦٣) بقوله: (إن اللغة الحثية واللغات الأباكو شركسية تشترك مع بعضها البعض في أصول جذرية واحدة). وقد تمكن عالم اللغات الروسي ج. ف. تورشانيتوف المختص بنظم كتابات اللغات القفقاسية، من حل الكتابة الغربية التي وجدت محفورة على (بلاطة) حجرية كبيرة استخرجت في العصر الحديث من حفرية مدينة (مايكوب) في مقاطعة الأديغي ذات الاستقلال الذاتي. بقوله إن الرموز المحفورة على هذه البلاطة مكتوبة بحروف فينيقية وبلغت أباكو شركسية، وأن تاريخ البلاطة يعود إلى القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد^(٧).

وفي عام ١٧٧٣ عثر العالم الألماني (جولد نشات) أثناء تجواله في بلاد القبردي بالقرب من ضفة نهر (بساطقوه) على تمثال حجري محفور عليه باللغتين اليونانية والشركسية وفي نهاية الحفر كتب تاريخ وضع التمثال هناك وهو القرن الرابع قبل الميلاد.

وللوصول إلى تاريخ بدء كتابة اللغة الشركسية لأول مرة بحث علماء اللغة في قواميس اللغات الشركسية والابخازية والويخ عن الكلمات التي تتعلق بالكتابة ووجدوا توافقا تاما للمفردات المستعملة في هذه اللغات ودلالات تؤكد بأن كتابتها قديمة منها:

(١) باللغة الشركسية - كلمة (تخ) بتسكين التاء وكسر الخاء المخففة تعني أكتب.

كلمة (تخا) بتسكين التاء وفتح الخاء المخففة تعني كتب.

كلمة (تخل) بتسكين التاء واللام المميعة وكسر الخاء المخففة تعني كتاب او رسالة.

(٢) بلغة الويخ: كلمة (تخ) مثل الشركسية لفظا ومعنى.

كلمة (تخل) مثل الشركسية لفظا ومعنى.

(٣) بلغة الابازة: كلمة (اتخره) كسر التاء وتسكين الخاء المخففة.. بمعنى (كتاب).

والملاحظ هنا، ان هذه الكلمات موجودة في اللغة بصفة اصلية منذ فجر التاريخ وليست مستعارة من اللغات الاخرى التي احتكت بها اللغة الشركسية في تاريخها القديم والحديث مثل اللغات الاسكيتية والمغولية والتركية والارمنية والروسية والعربية وغيرها. وهذا يدل على ان الشركاسة كانوا يكتبون لغتهم في الازمنة الغابرة بوسيلة او بأخرى. ويؤكد هذه الفكرة وجود علامات (دامغة) خاصة بكل عائلة شركسية كانوا يدمغون بها اسلحتهم وخيولهم ومواشيهم وبيوتهم، وما زالت عائلات كثيرة تحتفظ بهذه العلامات إلى يومنا هذا. ولو دققنا النظر في هذه العلامات لوجدنا ان اشكالها تشمل تقريبا جميع الاحرف اليونانية واللاتينية وغالبية الاحرف السلافية.

ان اول ذكر عن الكتابة الشركسية في تاريخ هذه اللغة، قد ورد على لسان العالم الالماني الكبير (ي. فون ميزاروس) في كتابه لغة (الويخ) - شيكاغو عام ١٩٣٤، حيث قال:

اننا لو قارنا لغتي (الويخ) و (الحثيين) لوجدنا تقاربا شديدا في اصول اللغتين، والمدهش حقا هو التناسق الغريب بين قواعد اللغتين، مما يشجع كثيرا على اعتبارهما لغة واحدة. والمعروف ان تاريخ اللغة الحثية المكتوبة يعود إلى عام (٢٠٠٠) ق. م كما ذكرنا سابقا. أضف إلى ذلك بأن اللغة الجركسية تحتوي على الاسماء الخاصة بوسائل القراءة وادوات الكتابة مثل (الكتاب، والورق، والقلم، والمدرسة، والمعلم) فمن البديهي أن يكون الشركاسة قد مارسوا فن الكتابة والقراءة في دور من ادوار حياتهم منذ الازمنة التاريخية القديمة ويعتقد ان هذا الدور كان في زمن الحضارة الاغريقية، او قبل ذلك اي في زمن الامبراطورية (الكيمايرية) التي كانت من اعضائها قبائل السند والكركت وغيرهما من اجداد الشركاسة*

ومن الواضح بأن اللغة الشركسية لم تكتب منذ القرن الرابع الميلادي وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وان اول من فكر بإحياء كتابة اللغة واوجد لها حروفا خاصة هو العالم الشركسي نغموقه شورا بكمززا في عام ١٨٤٠، وقد استعمل الاحرف السلافية في بادئ الامر ثم وضع الف باء اخرى مستعملا الحروف العربية في عام (١٨٤٣) وسيتم مناقشته في (المرحلة السابعة) من تاريخ نشأة وتطور اللغة الشركسية^(٢٢).

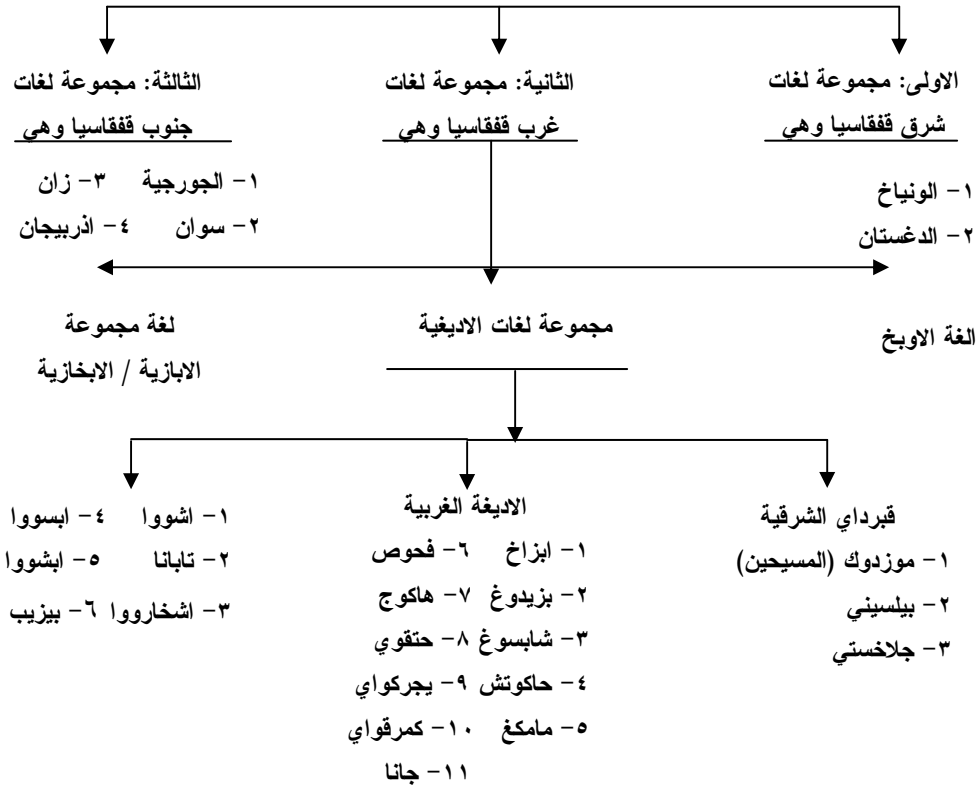
المرحلة السادسة: مرحلة توقف الكتابة باللغة الشركسية واستخدامها كلغة تخاطب وتفاهم فقط، حيث تشير الوقائع التاريخية بأنها لم تكتب بأي شكل من الاشكال لأكثر من (١٥) قرنا وهي المرحلة الزمنية الممتدة من القرن الرابع وحتى القرن التاسع عشر ميلادي وهي الفترة التي تعرضت فيها

* لمزيد من المعلومات حول تاريخ كتابة اللغة الشركسية يمكن الرجوع للمؤلفات التالية:

(١) كوبرز (١٩٥٥) في كتابه: (الفونيم والمورفيم في لهجة القبردي) الصفحة العاشرة.
(٢) العالمين ن. ف. ياكوفليف والبروفسور د. أ. اشحاماف (من الادبي) اعضاء اكااديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي الصادر في موسكو عام ١٩٤١، كتاب قواعد اللغة الادبية الشركسية ص: ٣.
(٣) احمد شردم، تاريخ كتابة اللغة الشركسية، مجلة الواحة - الجمعية الخيرية الشركسية/ عمان، العدد (١٦) السنة الثانية لعام ١٩٧٦ ص: ١٤-١٥.

الأمة الشركسية إلى مئات الغزوات البربرية وعشرات الحروب المدمرة من قبل دول وشعوب وأمم من خارج القفقاس ومن داخلها، وكان آخرها حرب الإبادة والدمار التي تعرضت لها الأمة الشركسية من قبل روسيا القيصرية وبمساهمة مباشرة وغير مباشرة من العثمانيين الأتراك والإيرانيين وتنازل القرم والآنجليز والفرنسيين وهي الحروب التي انتهت باحتلال الأراضي القفقاسية عامة والأراضي الشركسية خاصة من قبل المستعمر الروسي القيصري ابتداء من عام ١٨٦٤^(٦).

المرحلة السابعة: وهي مرحلة تعدد اللغات القفقاسية واللهجات لدى الأمة الشركسية (الأديغة) وظهرت في هذه المرحلة لغات قفقاسية متعددة بعد أن كانت في فجر التاريخ لغة واحدة ويقسمها (كليمواف) إلى ثلاث مجموعات لغوية، وهي على النحو التالي: (٧)



وفيما يلي تحليل للغات كل مجموعة، وعلى النحو التالي:

أولاً: لغة مجموعة غرب قفقاسيا وهي مجموعة الشراكسة في الأديغي

يؤكد الباحثون المختصون بتاريخ اللغة الشركسية (الأديغة) بأن الشراكسة الذين يسكنون المنطقة الممتدة من نهر "دون" شمالاً وحتى شواطئ نهر "أزوف" يتكلمون ويكتبون اللغة الشركسية المعتمدة على لهجة الكمرقووي.

كما يتحدث بها قرى الشابسوغ على سواحل البحر الأسود وفي كراسنودار، وكما يتحدث بلهجة الأديغة الشرقية والمسماة (قبرطاي) في جمهورية قباردينا بلقاريا وفي منطقة قراشاي - تشركيسك وفي ولاية ستافروبول.

وتنقسم لغة الأديغة الغربية (لغة الأديغة القديمة القومية) من حيث اللهجة إحدى عشرة لهجة بمعدل لهجة واحدة لكل قبيلة من القبائل المذكورة في مجموعة لغة الأديغة الغربية كما هو مبين في المخطط السابق:

كما تعتبر لهجة مخصص ولهجة جانه من اللهجات التي انقرضت حيث لا يوجد أي شخص الآن يتحدث بها.

ثانياً: مجموعة لهجة لغة الاديغة الشرقية (لغة القبرطاي)، وهي لغة لا تختلف لهجاتها إلا ببعض الفروق الصوتية في أواخر الكلمات وتنقسم إلى ثلاث لهجات:

(١) لهجة بسلني. (٢) لهجة جيلاخستتي. (٣) لهجة أهل مزدوج.

وتكتب لهجات لغة الاديغة الغربية بأحرف ابجدية معتمدة على لهجة ال "كميرقواي" أساساً لها، واللهجات الشرقية تعتمد في أحرفها الأبجدية على لهجة ال "جيلاخستتي"، ولا يوجد في أي من الأبجديتين ما يشكل فارقا كبيراً حيث يتعدى الاختلاف بينهما أكثر من (٣٠-٥٠) كلمة، وهي الكلمات التي دخلت إلى اللهجة الشرقية من اللغات الأجنبية.

كما أن الاختلافات في الأصوات بسبب اختلاف المناطق تبلغ ثمانية أصوات فقط، كما أن هنالك اختلافات في زوائد نهايات الكلمات.

ثانياً: مجموعة لغة الابخاز (الاباظة)

وهو فرع من لغات القفقاس الغربية، ولغة الباسك التي تتحدث بها الشعوب التي تسكن في منطقة جبال بيرية على الحدود الفرنسية الإسبانية هي أيضاً من نفس الفرع.

في عام ١٩٦٤ تم العثور بجوار "مايكوب" على كتابة من داخل حفريات أثرية تعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وعلى أثر الأبحاث والدراسات التي أجراها العلماء المتخصصون في علوم تاريخ ولغات القفقاس في الاتحاد السوفياتي فقد تم الحصول على نتيجة أن لغة الاديغة ولغة الاباظة كانت تشكل لغة واحدة.

وفي سنة (٨٠٠) بعد الميلاد كان الابخاز (الاباظة) يشكلون دولة كبرى في قفقاسيا، وفي تلك الفترة كانت لغة الابخاز منتشرة في قسم من جورجيا وفي مناطق الاديغة أيضاً.

واليوم يبلغ عدد الذين يتحدثون بلغة الابخاز في كل من الجمهوريتين (١٦٠) ألف نسمة فقط.

وتنقسم لغة الابخاز إلى (٦) لهجات وأهمها هي:

(١) أبسوا: وهي اللغة القومية لجمهورية ابخازيا ذات الحكم الذاتي ومركزها سوخوم (أكو) وتتفرع إلى فرعين: اببوا وبزيب، وتم في نهاية القرن التاسع عشر المباشرة بكتابتها بأحرفها الأبجدية، واليوم لديهم أدب متطور بهذه اللغة.

(٢) ابازين: ويتحدث بها الابخاز الذين يقطنون في منطقة قرشاي - تشركيسك ذات الحكم الذاتي. وتنقسم إلى فرعين هما: أشبوا (تابانتا) وأشكها روبا.

وأما اللهجات الأربعة الأخرى للابخاز وهي تابانتا، واشخارووا، وابودا وابشوا، وببزيب منها لم تعد مستخدمة حالياً.

ثالثاً: لغة الاوبيخ:

يصف العلماء المختصون بلغات القفقاس بأن لغة الاوبيخ هي وسط بين لغة الابخاز ولغة الاديغة ويسمى الاوبيخ انفسهم (بيخ) ويسميهم الابخاز (سادز).

وفي عام ٥٠٠ للميلاد قام (الزيخ) وهم اجداد الاوبيخ بتوحيد كامل قبائل شمال غرب القفقاس ضمن اتحاد فيدرالي. ومع مرور الزمن تحول هذا الاتحاد الفيدرالي المستقبل للقبائل الممتدة من ابخازيا إلى شبه جزيرة تاملان إلى دولة (زيخيا) واثناء ذلك أصبحت لغة الاوبيخ لغة مؤثرة في جميع مناطق شمال غرب القفقاس.

وفي القرن التاسع عشر كان (الأوبيخ) يعيشون في المناطق الممتدة من جاجري على شواطئ البحر الأسود جنوباً إلى نهر شاخ شمالاً، وكان عددهم آنذاك يتراوح من ٥٠ - ٨٠ ألف نسمة.

وفي عام ١٨٤٠ للميلاد وبناء على قرار مجالسهم القومية قرروا تبني لغة الأديغة كلغة رسمية لهم .

واليوم لا يوجد في قفقاسيا من (الأوبيخ) سوى بعض العائلات والتي تم اسكانها في مناطق أخرى. ولا يتحدثون بلغة الأوبيخ، كما يعيش في كل من قرى تركية وسورية والأردن ما يتراوح من ٢٥-٣٠ ألف نسمة من الأوبيخ ويتحدثون بلغة الأديغة بدلاً من لغتهم التي اندثرت تقريباً.

حيث كان آخر شخص في العالم يتحدث بلغة الأوبيخ هو "توفيق اسنش" من قرية حاجي عثمان في تركيا وقام البروفوسير (جورج دوميزيل) المختص بلغات القفقاس في جامعة السوربون بدراسة لغة الأوبيخ لعدة سنوات، وقام بكتابة خمسة كتب تتعلق بقاموس اللغة الأوبيخ وكتاب القواعد اللغوية للغة الأوبيخ وكتاب التاريخ والأقوال.***

أما بالنسبة للغات المجموعة الشرقية والمجموعة الجنوبية في القفقاس والمتعلقة بلغات الويناخ والداغستان والجورجيين والأذربيجان والتسوان والزان فإنها خارجة عن موضوع بحثنا في هذه الموسوعة.

النظريات والفرضيات التي تبحث في منشأ اللغة الشركسية وأصلها (أديغة بزة)

نستنتج من الدراسات والأبحاث التي أجراها علماء اللغة عامة وعلماء الشركاسة خاصة (بالرغم من قلة عددهم) نستنتج وجود أكثر من نظرية وفرضيات تبحث في منشأ اللغة وأصلها الشركسية (أديغة بزة) وأن عدد النظريات تصل إلى خمس نظريات والفرضيات إلى أربع فرضيات يمكن تلخيصها على النحو التالي:

النظرية الأولى: وخلصتها بأن اللغة الشركسية (أديغة بزة) هي لغة حثية:

ومن أصحابها المؤرخ الروماني (ديموستين) وهو من المؤرخين الذين أكدوا بأن منشأ اللغة الشركسية هي إحدى اللغات الحثية (السبعة) وتوصل أصحاب هذه النظرية إلى هذه النتيجة من الدلائل والقرائن التالية:

- ١- اللغة الحثية ثابت بأنها لغة تركيبية ، واللغة الجركسية أبرز مثال للغات التركيبية.
- ٢- في اللغة الحثية تحرك آخر حرف في الكلمات، وهذا يشابه اللغة الجركسية تماماً.
- ٣- أظهر الاكتشافات الأثرية في جنوب القفقاس وجود تشابه كبير بين الحروف والعلامات التي تستعملها العائلات الجركسية لدمج الحيوانات الخاصة بهم وتسمى (دامغة) ومن الأحرف الحثية.
- ٤- إن اللغات القفقاسية الحالية هي سبع لغات (الأديغة والأبخاز وأوبخ والجاجان والزركي والداغستان والسفانية) وهي التي تكوّن اللغات الحثية السبعة.
- ٥- العديد من أسماء ملوك الحثيين لها معاني باللغة الشركسية ومن أمثلة ذلك:

* مجلة قفقاسيا الجديدة، استانبول ١٩٥٨، عدد ١١.

*** كاتبه الدكتور ريكس سميث، حول اللغة الشركسية/ جامعة ليدن، هولندا، ١٩٧٤.

* بيتحاناش - الملك المؤسس للدولة الحثية - وكلمة حاناش معناها باللغة الجركسية (الكلب الاحول).

* لابرناش - ملك حثي - ومعنى (لابر) (في الحائية لابرنا).

* ماؤزير - ملك حثي ومعناه ماؤ الأول أي أن (زير) معناه الواحد وكذلك فإن اسم ماو دارج الاستعمال إلى اليوم لدى الشركاسة.

* ماؤطور - ملك حثي، ومعناه ماؤ الثاني (طؤ) معناه (اثنين) باللغة الشركسية.

٦- وجد العديد من اسماء المواقع والمدن والعشائر لدى الحثيين لها معاني مرادفة لها في اللغة الشركسية منها:

* طؤابسين: ومعناه النبع المزدوج أو البئر المزدوج.

* تحابسين: ومعناه بئر الله (تح) معناه (الله) (بسين) معناه منبع أو ماء.

* حاتوشاش: وهي عشيرة شاش موجودة بين الجراكسة حتى وقتنا الحاضر.

* شاسي، حاتي، وهي أسماء لعشائر جركسية موجودة حالياً في قفقاسيا.

* حاتوكوي اسم بلدة جركسية في القفقاس ومعناه موطن الحات.

* كاسخي: قاسوخي: قبيلة حثية، لعلها قبيلة الشابسوغ الجركسية التي كانت تسمى قديماً (قاسوغي) أو قاسوغ.

* ليك: قبيلة حثية، (وليك) هو الاسم القومي حالياً للداغستان.

* تحة شؤب: اسم (إله حثي) ومعناه الصريح باللغة الجركسية (الإله الردي) ولعله كان إله الشر أو إله الحرب لدى قدماء الشركاسة.

* حت أو حات: وهو الاسم القومي للحثيين وحائقواي اسم لقبيلة جركسية كبيرة ومعناه (منشأ الحات) وحتوة اسم لعشيرة من الأبراخ ومعناها ابن (حت). (٢٤)

النظرية الثانية: وخلصتها بأن اللغة الشركسية مشتقة من اللغة الفينيقية

يؤكد بعض المؤرخين بأنه كان للشركاسة قديماً علاقات تجارية وثقافية مع اليونانيين والفينيقيين وانهم استعملوا أحرفاً شبيهة بالأحرف الفينيقية في لغتهم وحجتهم في ذلك، الدلائل والقرائن التالية:

١- تدل الاكتشافات الأثرية في قفقاسيا وجود كتابات فينيقية في بلاد الأبخاز القدامى منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

٢- أصحاب هذه النظرية، يؤكدون على وجود تشابه كبير بين الكثير من الكلمات الاغريقية والكلمات الشركسية والقفقاسية، ويتضح ذلك من تحليل اللغة اليونانية القديمة كما جاء في كتاب (الاناضول القديم).

٣- من الأدلة التي يستند عليها اصحاب النظرية القائلة بأن اصل اللغة الشركسية مشتقة من اللغة اليونانية هي نتائج الدراسات التي أكدت بأن دولة من دول اليونان القديمة جاورت بلاد الجركس وأنهم أنشأوا في الأعوام ما بين ١٠٠٠ - ٢٠٠٠ ق. م. مستعمرة تجارية على سواحل البحر الأسود الجنوبية وفي منطقة قفقاسيا الشمالية بالتحديد والتي تعتبر الموطن الاصلي للشركاسة (الأديغة) منذ القدم حيث تم اكتشاف مسكوكات نقدية في بلاد (الأديغة) مكتوب عليها بالأحرف اليونانية.

النظرية الثالثة: وخلصتها بأن اصل اللغة الشركسية مشتقة من اللغة السومرية

وصاحب هذه النظرية هو العالم اللغوي الشركسي (ابراهيم ادهم بج) مكتشف العلاقة بين اللغتين الشركسية والسومرية حيث جمع مئات الكلمات والمصطلحات المكتوبة باللغة السومرية وقارنها بكلمات ومصطلحات مستخدمة في اللغة الشركسية فوجد تطابقاً (شبه) كامل بين اللغتين السومرية والشركسية من حيث اللفظ والمعنى.

وفيما يلي نماذج من مقارنة كلمات ومصطلحات سومرية ومصطلحات شركسية معتمداً في ذلك على الدلائل والشواهد التالية:

١- الكتابة السومرية تستخدم الكتابة المسمارية ولها ثلاثة انواع من العلامات

وتمثل كل واحدة (العلامة) الدالة، (المقاطع الصوتية) فعلامة الضم مثلاً تلفظ (gu) والعلامة الدالة توضع قبل الكلمة لتحديد معناها مثل كلمة (Daza) ولها أكثر من معنى فإن وضعت علامة أو صورة (اسنان) (Daza) تعني (سن) وان وضع صورة جنود وعساكر يكون المعنى (جيش) ويلاحظ بأن اللغة السومرية تتضمن بعض الكلمات التي لها أكثر من ثلاثة وأربعة معاني، وكذلك الأمر في اللغة الشركسية فلها نفس المعاني.

٢- اللغة السومرية لغة مقطعية، وكذلك اللغة الشركسية (لغة الادبغة)، وهذا يعني حقيقة هامة أن لكل حرف من حروف هذه اللغات المقطعية معنى، فحرف (أ) تعني اليد، وحرف (ب) تعني طرف أو أنف والمقطع المؤلف من حرفي (أب) يعني طرف اليد والكلمة تتألف من مجموعة من المقاطع والحروف فيها مجموع معانيها فاحرف (أ ب ش) تعني (رسغ طرف اليد).

٣- معاني الحروف ثابتة لا تتبدل مع الزمن ومع تطور اللغة لأنه إذا تبدل معنى أحد الحروف فسبب ذلك معاني مئات الكلمات التي يدخل في تركيبها هذا الحرف ويؤثر على اللغة من أساسها لذلك كان من المستحيل أن يتبدل معنى الحرف مع الزمن. وهذا هو سر احتفاظ اللغة الشركسية وعدم اندثارها أو اختفائها كما حدث في لغات قديمة كثيرة.

٤- ثبات معاني الحروف والمقاطع، وبالتالي ثبات الكلمات هو الذي يمكننا من فهم اللغة السومرية بعد قرابة خمسة آلاف عام. إن الكلمة السومرية لا نفهم للوهلة الأولى باللغة الشركسية لقدمها، ولكننا عندما نحللها إلى مقاطعها وحروفها ونرى معانيها الثابتة يتبين لنا المعنى واضحاً وهو يطابق تماماً المعنى الذي أعطي للكلمة السومرية اصلاً.

٥- ثبات معاني الحروف والمقاطع هو من خصائص هذه اللغات. ولولا هذه الخاصية لضاعت هذه اللغات وحدثت فيها اخطاء إلا أن هذا الثبات لا يعني أن هذه اللغات لم تتطور وإنما التطور الحاصل فيها يحدث في أسلوب جمع الحروف والمقاطع وترتيب الجملة ونلاحظ هذا التطور تماماً بمقارنة اللغة السومرية القديمة وباللغة الشركسية اليوم.^(٢٥)

٦- بالرجوع للقاموس السومري^(٢٦) وجد بأن أكثر من ٨٠% من الكلمات والاحرف السومرية لها نفس اللفظ ونفس المعنى باللغة الشركسية وفيما يلي بعض المقارنات بين اللغتين السومرية والشركسية:

اللفظ بالسومري	اللفظ بالشركسي	المعنى بالعربي
A-ZU	أزه	طبيب
A	أ	يد
ku	قُ	خنزير
αd-dα	أدا	أب
en- yen	ين	كبير
gα	شا	حليب
gissu	جاو	أمل
Tus	طس	اجلس
Nin	نن	أم
Kα-gα	جا	فم
Ku	كو	أذهب

نستنتج مما تقدم وجود تطابق في اللفظ والمعنى في الكلمات والمصطلحات في اللغتين السومرية والشركسية مما يدل على ان اللغة الشركسية مشتقة من اللغة السومرية او العكس.

النظرية الرابعة: خلاصتها بأن اللغة الشركسية تعود في أصلها للغة الايبيرية

وهي احدى اللغات (الهندوأوروبية) وهي من اقدم اللغات في العالم واصحاب هذه النظرية يعيدون أصل اللغة الشركسية إلى اللغة القفقاسية الأم (الأيبيرية) وهي لغة شبيهة باللغة الباسكية الحالية واللغة الاندوسيكية القديمة المستخدمة في شمال ايطاليا، وان اللغة الايبيرية كانت تستخدم قديما في آسيا الصغرى واصحاب هذه النظرية يعتبرون اللغة الشركسية من أقدم اللغات (الهندوأوروبية) وانها اقدم من السامية والطورانية والتركية.

وأصحاب هذه النظرية يقدمون لنا بعض الادلة والشواهد اللغوية لإثبات صحة ما يذهبون إليه حول اصل اللغة الشركسية وعلى النحو التالي:

١- الشراكسة ينتمون عرقيا إلى السلالة (الهندية الاوروبية) وبالتالي لا بد من ان تكون لغتهم واحدة او متشابهة.

٢- توصل علماء اللغة الاوروبيين إلى وجود تشابه بين قواعد اللغة الشركسية وبعض اللغات الاوروبية، وكذلك تشابه من حيث تركيب الكلمات ومخارجها ويؤكدون على ذلك بالأمثلة التالية^(٢٧).

٣- (خاء فوقها نقطتان): يلفظ كما تلفظ (ch) الالمانية (خه) كما في كلمة (خاسه) بمعنى (المجلس) وتتطق بالخاء والهاء مدغمتين.

٤- الهمزة إذا تقدمها حرف (ب) الساكن ينطقان معا. وكذلك إذا تقدمها (ج) و (ص) و (ك) و (ف) مثل (بئه) بمعنى فراش و (جنئه) بمعنى جديد.

أمثلة لبعض الكلمات الجركسية المشابهة لفظا ومعنا للكلمات الاوروبية (أي الهندية الاوروبية):

جركسي	لغات اوروبية	عربي
طو	Deux (فرنسي)	اثنين
مازه	Mois (فرنسي)	شهر
وونه	Vona (هلاندي)	مسكن
خبزه	Habit (انجليزي)	عادات
واصه	Wasa / (روسي)	مهر (صداق)
بسه	Psy (رومي)	روح
تحه	Theo (رومي)	اله
طو	دو (فارسي)	اثنين
شي	شه (فارسي)	ثلاثة
مازه	ماه (فارسي)	شهر
ارى	ارى (فارسي)	نعم

النظرية الخامسة: وهي احدث نظرية وخلصتها ان اللغة الشركسية تنتمي إلى اللغة الاشوية القديمة لأجداد الاباطة والابخاز والابيج.

وظهرت هذه النظرية عام (١٩٦٣) بعد (مكتشفات مايكوب) عاصمة جمهورية الاديجية الحالية في الوطن الام، ونشرت المعلومات الاولية عن الكتابات القديمة التي تعود إلى القرنين الثالث والثاني عشر قبل الميلاد وصدر كتاب حول نتائج تحليل هذه الكتابات وسميت بالكتابة (الكولخيدية) الابخازية القديمة) وفي عام ١٩٦٨ تغير اسم الكتابة إلى (الاشوية) بعد اكتشافات منطقة (صوخومي) على ساحل بحر الاسود والتي يعود تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد ويقول العالم (تورتشانيوف) مؤلف كتاب (اكتشافات وفك الرموز القديمة) الموجودة على اللوحات البرونزية العائدة للقرن التاسع عشر قبل الميلاد وعلى إنائين فضيين وجدا في مقبرة مايكوب الشهيرة والعائدة في تاريخها لمنتصف الالف الثالث قبل الميلاد حيث وجدت خارطة محفورة على احد الإنائين تبين البلد الذي صنع فيه الاناء. يستدل منها انه صنعت في بلد (الاشويين) والذين كانوا يقطنون على مساحة كبيرة في ذلك الوقت تبدأ من ساحل البحر الاسود جنوبا ومن (مايكوب) شمالا ونهر (الكوبان) في الشمال الغربي ووصولاً إلى (ربون) في الجنوب الشرقي وهي المنطقة التي كان يسكنها الشركاسة (الاديجة) قبل التهجير في منتصف القرن التاسع عشر ويضيف قائلاً... "بأن الابخاز حتى الآن يسمون الاباطة (اشبوا) اما سكان (اشو) كما هو وارد في الاساطير القديمة فيسمون (أشي) وهي منطقة على ساحل البحر الاسود شمال غرب القفقاس ويعتقد بأنها كانت الموطن الاصلي لقبيلة الاباطة^(٢٨).

نستنتج مما تقدم بأن اللغة الشركسية، هي لغة قائمة بذاتها وأن لها قواعدها، وفقها وأن الشركاسة منذ عصر الأجداد استخدموا اكثر من أحرف في كتابة لغتهم في أكثر من مرحلة من مراحل العصور التي مرت فيها أجداد الشركاسة وحتى يومنا الحاضر، حيث استخدموا في مرحلة الأحرف الفينقية، وفي مرحلة ثانية استخدموا الأحرف الحثية، وفي مرحلة ثالثة استخدموا الأحرف السومرية، كما استخدموا في المرحلة الرابعة الأحرف الاشوية، وفي العصور الحديثة فإنهم استخدموا الأحرف العربية، ثم الأحرف اللاتينية، وفي وقتنا الحاضر يستخدمون الاحرف السلافية وبالتالي فإن استخدام أحرف لغة من اللغات سابقة الذكر لا يعني بالضرورة أن تكون اللغة الشركسية مشتقة من تلك اللغة أو أنها تعود في أصلها إلى لغة من اللغات التي استخدمت أحرفها. وقد يعود في أصلها إلى اللغة الأيبيرية القوقازية، وأنها من اللغات القديمة في العالم ويرجع منشأها إلى ما قبل ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد على الأقل.

مصادر ومراجع الفصل الثاني

- (١) توزتشانيتوف غ. ف.، اكتشافات وفك رموز الكتابات القديمة في القفقاس من منتصف الالف الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الرابع بعد الميلاد، مخطوطة باللغة الروسية، ترجمة الدكتور عمر شابسوغ، دمشق عام ١٩٩٠، ص ١٠.
- (٢) بيج، منذر: العلاقة بين اللغتين السومرية والشركسية (أسطورة، ملحمة، تراث) حلب عام ١٩٩٦.
- (٣) سمكوغ، برزج، الشركس في فجر التاريخ، مصدر سابق، ص ٣٣-٣٥.
- (٤) تورتشانيتوف، مصدر سابق، ص: ٣١.
- (٥) أبه زاو - مصدر سابق، ص: ٣٦٩-٣٣١.
- (٦) نغموقة - مصدر سابق، ص: ٤٠.
- (٧) م. كليموف، تقسيم اللغات القفقاسية - منشور في عام ١٩٦٩، ص: ١٣٤-١٣٥ ترجمة باتري اوزبيك عام ١٩٨٨.
- (٨) نغموقة، قاموس الالفاظ الشركسية عام ١٨٤٠.
- (٩) حاتوقشوق، الهجاء الجركسي بالحروف الروسية عام ١٩٦٠ (لا يوجد منها نسخ حالياً) حسب قول شورا بكرمزة في كتابه تاريخ القوقاز ص: ٢٣٤-٢٣٥.
- (١٠) جموخة أمجد، مصدر سابق، ص ٢٤٨.
- (١١) رشدي، راسم (باحث مصري من اصل شركسي)، دائرة المعارف الاسلامية، ص: ٢٣٩.
- (١٢) بالاس. ب س، رحلات إلى الاقاليم الجنوبية الشركسية من الامبراطورية الروسية ١٧٩٣ - ١٧٩٤ (باللغة الروسية) تجميع واعداد وصفي ميرزا، ترجمة واخراج فهمي شما، عمان ١٩٨٢.
- (١٣) المصدر نفسه ص: ٢٥٢.
- (١٤) برزج، نهاد، اللغات القفقاسية (باللغة التركية)، ترجمة سمير الدغستاني، عمان ١٩٨٨، ص: ٧.
- (١٥) المصدر نفسه: ص ٨.
- (١٦) سمكوغ، أمين، مدخل إلى تاريخ الشراكسة دمشق ١٩٨٤، ص: ٥٦.
- (١٧) برزج، نهاد، مصدر سابق، ص: ٧.
- (١٨) جموخة، امجد، مصدر سابق، ص: ٢٥٥.
- (١٩) المصدر نفسه، ص ٢٥٦-٢٥٧.
- (٢٠) سمكوغ، أمين، مصدر سابق، ص: ٥٦.
- (٢١) برزج، نهاد، مصدر سابق، ص: ٧.
- (٢٢) المصدر نفسه، ص: ١١-١٤.
- (٢٣) جموخة، امجد، مصدر سابق، ص: ٢٤٠-٢٦٠.
- (٢٤) ابه زاو، محمد جمال صادق، مصدر سابق، ص ١٢٤-١٢٧.
- (٢٥) بيج، منذر، العلاقة بين اللغتين السومرية والشركسية، حلب عام ١٩٩٦ ص ٥٧-٦٣.
- (٢٦) المصدر نفسه ص ١١١-١٤٣.
- (٢٧) جوناتوقه، مصدر سابق، ١٦٣-١٦٨.
- (٢٨) غ. ف تورنشانيتوف - اكتشافات لفك رموز الكتابات القديمة في القفقاس - مصدر سابق، ص: ٦-١١.
- (٢٩) أبه زاو، مصدر سابق، ص: ٦٥.
- (٣٠) تورنشانيتوف - مصدر سابق، ص: ٣١.
- (٣١) سطاس، عز الدين، كلام في توحيد اللهجات الشركسية، مجلة الاخاء الشركسية - اصدار الجمعية الخيرية الشركسية في وادي السير الاردن، العدد (١٢١) اذار ٢٠٠٢، ص ١٠-١١.

الفصل الثالث

المعتقدات الدينية للأمة الشركسية خصائصها (ونشأتها وتطورها)

منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث

نشأة وتطور الفكر الديني لدى الأمة الشركسية

بالرجوع إلى ما كتبه المؤرخون القدامى والمعاصرون حول تاريخ الأمة الشركسية منذ العصر الحجري القديم عامة وحتى العصر الحديث تبين لنا بأن الأمة الشركسية مرت في ست مراحل أساسية في فكرهم ومعتقداتهم الدينية والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

* المرحلة الأولى: نشأة وتطور الفكر الديني

أقر العلماء المختصون في دراسة الأديان القديمة ان الانسان توصل أولا إلى تعلم الكلام ثم اكتشف الكتابة، وبعدها توصل إلى مجموعة من العادات والتقاليد التي تنظم حياة الانسان ابتداء من العصر الحجري القديم (باليوليت) وبعدها ظهرت المعتقدات الدينية، وفي البداية كان هناك خلط بين المعتقدات الدينية وانظمة الحياة الاجتماعية ويقول (دغوظ) بأن الشراكسة كانوا يطلقون في قديم الزمان على مثل هذه المعتقدات (تحة - خابزة) أي العادات الالهية وبمعنى ان الدين لديهم كان عبارة عن العقيدة الالهية أو النظام الالهي^(١).

وفي العصر الحجري الوسيط (ميزوليت) ومنذ الالف السادس قبل الميلاد كان الشراكسة ينتمون إلى (سلطة الام) وسيطرتها، وكان يسمى عصر (نظام الاسرة الامومية) وهذا النظام كان قائما على سلطة النساء عامة والامهات خاصة وهن اللواتي تولين حكم الاسرة وقيادتها كما كان الانتساب (للام) وليس (للأب).

وكذلك كان الأفراد ينتمون إلى عشيرة الام لا إلى عشيرة الاب، والميراث ينتقل إلى عشيرة الامهات، وظهرت خلال هذه الفترة معتقدات دينية سميت بأرباب العشائر وفكرة التوائم ومفردة (توتم) أي تعويذة أو قرينة. واتخذت كل عشيرة (توتما) لها إما من الطيور أو من الحيوانات وتعتبرها حامية لأفراد العشيرة (ورباً) لجماعتها وبدأ الاعتقاد بوجود نوعين من الجن (الابيض والاسود) وظهر الوسطاء بين الجن والانسان اطلقوا عليهم (الكهنة والعرافين) وغيرهما من الاسماء وهم الذين كانوا يقيمون الاحتفالات الدينية والابتهالات إلى الله (تحة) قبل الشروع في اي عمل تنوي الجماعة القيام به واستمر العمل بهذه المعتقدات الدينية حتى العصر الحجري الحديث (النيوليت) والنظر إلى الام (كألهة كبرى).

* المرحلة الثانية: مرحلة "الوثنية"

وفي بداية عصر المعادن ومنذ الالف السادس قبل الميلاد وحتى الالف الثالث قبل الميلاد وهو العصر الحجري / النحاسي الذي تم فيه اكتشاف البرونز كما تغيرت في هذه المرحلة السلطة والسيطرة في الاسرة من (الام) إلى (الاب)، ومن النساء إلى الرجال وبدأ عصر سيطرة الاب والمسمى بعصر (باترياركة) أو رئيس العشيرة أو الشيخ وظهر خلال هذه الفترة الفكر الديني الذي يعتمد على عبادة الظواهر الطبيعية وبعد ان كان الفكر الديني في عهد (سيطرة الام) يعتمد على فكرة (التوتمة) أو (التعويذة) واتخاذ بعض الحيوانات بمثابة (الارباب) حماة من الجماعة من الشر.

ويقول (ماكس موللر) بأن تكامل العقائد الدينية تعود إلى أسباب بيسيكولوجية بحتة، فالمظاهر الطبيعية كانت تسبب الخوف، كما كانت توحى إليه بالأمل، وبالحيرة في أحيان أخرى، كما كان الاعتقاد بأن الشمس والنار والبرق والعواصف والأمطار تملك القدرة على الأذى والتخريب والاعتقاد أيضاً أنها تملك القدرة على وهب الحياة والخيرات للنبات والحيوان والإنسان وأن الشمس ترسل الضياء والنور ومعها الاطمئنان من غدر الظلام وتوفير شروط الأمن للسعي وراء الرزق والحياة.

وأن النار التي هي قبس من تلك الشمس، تدفئه في الشتاء وتثير حلقة الظلام وتخيف الوحوش، وقد اكتشف فيما بعد أنها تشوي اللحوم فتحسن طعمها، ثم تذيب المعادن وتسهل طرقها وتصنعها فكانت الوسيلة الأولى لاختراع الأسلحة الدفاعية والمعدات الحربية.

فالشراكسة أيضا مثل الشعوب القديمة الأخرى لم تخل حياتهم منذ القدم من الفكرة الإلهية والعقيدة الدينية لأنها منغرس في النفس البشرية وموجودة في فطرتهم، وإنه لم يخل قوم (أينما كانوا) ومهما كانوا في رقيهم أو تأخرهم من الفكرة الإلهية والعقيدة الدينية مع اختلاف مظاهرها ومستوياتها وأنواعها.

قسم العالم شورتانوف الآلهة عند الشراكسة إلى خمس أنواع من الآلهة، على النحو التالي:

- ١ - الآلهة الكونية: وتضم الآلهة التالية: (تحاشكوه)، واشخو، غوبج غوش، بساتحا، شبله.
- ٢ - الآلهة المحلية: وتضم الآلهة التالية: تحاغالج، اميش، تلبش، اخين، ميزيتحا، شوزيريش، كوديس، نيسرين، زيكوتحا، جيفوباتحا، اوشجبرجي، إيلا.
- ٣ - آلهة الإناث: وتضم الآلهة التالية: سنتاي، ميليشيبخو، اديف، جيج كواشا، حانتسيه-كواشا، خيبا-كواشا، بسخوة - كواشادة - كواشا، تحار كواشا، ميز - كواشا، ماريم.
- ٤ - آلهة الحُماة/ القبائل: وتضم الآلهة التالية: نواكشه، تشاشتا، تحارالي، تحاتاباس، توخليتحا، ديغوديش، حاؤتس حاش، تحاغيشو، اوتخوي-كاس، شو-موتشو، خو-موخ، تحاكوافيشو، حادريخ، تحاشيو تحاشيريبخو، شخوسكا، حاكوستاش، كوديش، بشيشان، سوتراش.
- ٥ - آلهة المخلوقات العجيبة: وتضم الآلهة التالية: نيج، بلاغو، ييمينيج، حاشحا، فيتلا، الماستا، ناغوتشيتسا.

وقدم لنا المؤرخ الشركسي ك. شوجين في كتابه (أرض الأديغة)* ثلاثون إسما لآلهة قدامى الشراكسة وحُمااتهم وعلى النحو التالي: ايرج، ايميس، اليي، انتسفا، اوشيج، افي، أخاميدا، ديبيش، جاغه، دزاقوش، تيميش، زيسحان، إيسا، ماميش، ميزيتل، ميسته، موسى، سوسروق، ستاوتغا، تلخوميش وشيبيريز، توغوزيتحا، توغوبلاخو، وازرميس، شيبيرس، شحاغوشا، شيرغوبس.

أما (باتريك) اوزبك فقد قدم لنا في كتابه (أساطير النارتيين) نقلا عن أقوال عشرات الرحالة الذين عاشوا بين القبائل الشركسية في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين أسماء ٢١ إلهاً من الآلهة التي وردت أسمائهم في قصص وأساطير النارتيين^(٥) وهي:

(١) أميتش	(٢) أوجيدج	(٣) ييمش
(٤) ميريسا او (ميريم)	(٥) ميزيتحا	(٦) أوشحاماخو
(٧) باكوي	(٨) بساتحا	(٩) بسيتحا كواشة
(١٠) زيكوتحا	(١١) سوسيريز (سوسيريش)	(١٢) شيبيلة
(١٣) تحاغيليدج	(١٤) تلبش	(١٥) تيغوبتلوق
(١٦) واشا	(١٧) جيتحا	(١٨) آخين
(١٩) بله ووص: رب الرقص	(٢٠) ساوسرس: رب الزوابع والانواء	
(٢١) يه له: رب الصواعق.		

* A.K. Sheugen, G.A. Galkin, N.E. Aleshin, A.A. Kushu, B.E. Sheugen, Zemlia Adyghov (The Land of the Adyghas). Maikop. 1996.

* المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الديانة المسيحية وامتدت من عام (٥٢٧م) وهو العام الذي بدأ فيه انتشار المسيحية في بلاد القفقاس عامة وبلاد (الأديغة) الشراكسة خاصة وحتى عام ١٧١٧:

وفيما يلي مراحل انتشار المسيحية في القفقاس بصورة جدية وواسعة وابتداء من عهد الامبراطور (جوستنيان البيزنطي) Justinian في الفترة (٥٢٧-٥٦٥م) حيث أوفد كاهناً يدعى (بونتوك) لنشر الدين على سواحل البحر الاسود، والقيصر (جوستنيان) يسميه الشراكسة (جوستين) وكان حليفاً لأمة الأنت (الجراس) حتى أنه كان يلقب بالفارس (الأنتي)، وحارب (الغوت) بمعاونة (الأديغة) وأحرز عليهم النصر، وما زالت ذكريات هذه الملحمة ترد في أغاني (الأديغة) القديمة.

قام (جوستين) بنشر الديانة المسيحية بين شعوب (الأديغة) ولاقت دعوته نجاحاً، وأقاموا الكنائس، وكانوا يسمون الراهب أو الخوري باللغة الشركسية شوجن^(٢٦). كما نجح اليونانيون في نشر الديانة النصرانية بين قبائل القبرطاي ولا يزالون يذكرون اسم الموقع الذي أقام فيه أول أسقف قدم إليهم من اليونان وهو مكان قريب من مدينة (نالشيك الحالية) ويسمى حتى الآن (مزكورغان) أي (غابة الرابية)، وهو ثل مرتفع تكسوه الأشجار الكثيفة. وكان الشراكسة يقدسون هذا المكان ويحترمونه ويجلونه كما كانوا يكثر من الثناء والمديح للخوري شوجن بقولهم:

(شوجن) هو حامينا ومربي ضعافنا وأطفالنا، وهو نور أرسله الله إلينا لينقذنا من الظلمات، وهو الذي هدانا إلى المولى وجعلنا بنصره في الأعالي وشيد للخالق برجاً من الحديد ذا أبواب من الفضة، وفيه حلت واستقامت روح الله ذي النور القدس وهو يرفرف بروحه ويرتفع كالطير في الفضاء حتى يمس السحب ويرى الظالمين من تلك الأعالي وأما أضلاعه فليست من عظام فانية تبلى، بل إنها من العاج الخالص يقاوم الدهر والأيام، وأما الصليب الذي يتدلى على صدره فهو من الذهب الخالص الوهاج، وضياؤه الحب والحنان^(٢٧).

ويقول (أبه زاو) في كتابه (موسوعة تاريخ القفقاس والجراس) بأنه كان يوجد بين الرهبان ورجال الدين من أصل شركسي ويقولون عن رجل الدين الرومي (روم شوجن) (Rome Shogen) وعن الجراسي (كركه شوجن) (Karkshogen) كما كان بينهم أيضاً خوارنه من (اللاتين) حيث كان يوجد في بلاد (الأديغة) رهبان ورجال دين يتبعون الكنيسة اللاتينية، ويوجد حتى الآن كنائس قديمة بنيت على الطراز الاغريقي وتوجد واحدة منها على المجرى العلوي لنهر (الكوبان)، واثنان بين نهري (الكوبان والتبردي) وهي مبنية من الحجر والأجر، وتسمى الأولى (شونة) وهي مختصرة من (شوونه) أي (بيت الفرسان) فقد عثر فيها على (المعالف والمزاود والمناهل) من الأجر الحجرية، والثانية تسمى (خاسه ميفه) أي (صخرة المجمع) وهو المكان الذي كان يجتمع فيه مجلس القضاة من الخوارنة ويوجد بداخلها (مرأة القضاء) وصخرة منقوش عليها حذوة (جواد) ورجل على هيئة (كلب)، وفيها فتحة (فوهة) تتسع لمرور شخص (عاري الجسم) وحسب القصص الشعبية كان هذا المكان مخصصاً للكشف عن المجرمين من خلال تمرير المتهمين والمذنبين من هذه الفوهة فالبريء مهما كان ضخماً وسميناً كان يمر منها بسهولة، أما المذنب ومهما كان نحيلاً كان يعلق فيها ولا يستطيع المرور دلالة على أنه مذنب ويحال لمجلس القضاة^(٢٨).

كما يوجد بين (نهري الكوبان ولسنجوق) بعض الأبنية من (الأجر) مبنية فوق التلال (الرابية) وحسب الروايات القديمة فإن هذه الابنية كانت مخصصة لسكن بعض الرهبان والقسيسين.

والشراكسة لم يكونوا يعمدون أطفالهم إلا بعد بلوغهم السنة الثامنة من عمرهم. والعماد عندهم عبارة عن رش قليل من الماء (المبارك) وتلاوة صلاة قصيرة من قبل الراهب.

وكذلك فالنبلاء منهم لم يكن يدخلون الكنيسة للصلاة إلا بعد بلوغهم الستين من أعمارهم، إذ من عاداتهم وهم في سن الشباب الخروج للغزو، وإن هذه الاعمال لم تكن تتفق مع احكام الدين والكنيسة لذلك كانوا يعتقدون أن دخولها قبل (سن الستين) انتهاك لحرمتها، كما كان الشبان منهم

* الرهبان كانوا يدعون (شوكن Shogen) ومعناه (معلم الاولاد)، واليوم هناك أسر عديدة بين الجراس يدعون بهذا الاسم لكونهم احفاد اولئك القساوسة ورجال الدين الذين كانوا قسماً من الاغريق الاورثوذكس وقسماً من اللاتين.

يحضرون الصلاة وهم واقفون أمام باب الكنيسة أو راكبون على ظهور الخيل، وبعد بلوغهم سن الستين من العمر وتركهم أعمال الغزو يدخلون الكنيسة للقيام بالصلاة والعبادة داخل الكنيسة.

وبقي الشعب على عادته القديمة في الذهاب إلى (جولات)؛ لأداء قسم اليمين بقولهم: (الله يجعلني أمر من التترتوب إذا لم أكن صادقاً)، وهو الاسم الذي سميت به (الجولات) بعد احتلالها من قبل خانات التتر فأصبح اسمه (تترتوب).

ولا تزال الروايات الشعبية تذكر أيضاً بأن قدماء الشركاسة كانوا يقدسون (أوشى كركه) وهو (اليسوع اليوناني) ويدعون النبي (الياس) باسم (باليزا) والنبي موسى باسم (إيمش) أو (أيمم) والنبي داود (له يابش)، وقد يكون معناها (ملك الرجال)، وكذلك يذكرون أن القدماء كانوا يحرمون على أنفسهم أكل اللحم في بعض أيام الربيع. (٢٩)

هذا ما كان من أمر انتشار الدين المسيحي بين شعوب الأديكة في الأزمان الغابرة، وظل الدين قويا خلال المدة التي استمر فيها الاغريق في إرسال الوفود الدينية لبلاد الشركاسة ولكن بعد سقوط الامبراطورية البيزنطية اعتراه ضعف وانحلال لعدم وجود رجال دين اكفاء.

ومن رأي المؤرخين (مورجان) و (شوبان) أن الجراكسة لم يطبقوا النصرانية بحذافيرها بل أخذوا منها ما شاءوا وتركوا منها ما لم يوافقهم ولم يتماشى مع أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم.

كما يقول بعض مؤرخي الافرنج أنه نظرا لما في الدين المسيحي من بعض التعاليم المغلقة المعقدة التي أشكل على الجراكسة فهمها فإنهم لم يتعمقوا كثيرا في النصرانية بل اكتفوا بتطبيق بعض التعاليم التي راقت لهم. (٣٠).

ويلاحظ بأن قسما كبيرا من الشركاسة وخاصة بعض قبائل شركاسة الغرب ظلوا وثنيين ولم يعتنقوا الديانة المسيحية. وأكد المؤرخ (شوبان) على هذه الحقيقة بقوله: إن الجراكسة كانوا يميلون دائما إلى معتقداتهم الوثنية القديمة رغم انتقالهم إلى المسيحية، وكانوا يقيمون بعض تلك المظاهر العالقة بأذهانهم من زمن الجاهلية الأولى وكانوا يقدمون الضحايا لأرواح الموتى ويطعمون الطعام في حبهم ويعظمون (له بش) رب الحديد وأمثاله من الآلهة. (٣١)

والخلاصة أن معتقدات الشركاسة كانت خليطا من الوثنية والمسيحية وبعض المبادئ الإسلامية الأولية وكانت العقائد مضطربة غير مستقرة في هذه المرحلة من حياتهم.

ويقول (ناشخوا) حول مدى انتشار الديانة المسيحية في بلاد الشركاسة "رغما عن أن جميع النشاطات التبشيرية المدعومة بالقوة العسكرية والنفوذ السياسي فإن المسيحية لم تنتشر وترسي قواعدها بين الشركاسة، لأن أحكامها وشرائعها لم تكن تنطبق مع ميولهم وأخلاقهم وفطرتهم، ووصف أحد المؤرخين الذين زاروا بلاد الشركس (الأديغة) في القرن السادس عشر بأن الشباب الشركاسة لم يكونوا يدخلون الكنائس طول سن الشباب، بل كانوا يقفون خارج الكنيسة أيام الأحد وهم على ظهر الجواد، على اعتبار أن عنفوان الشباب لا يتفق مع تعاليم الدين المسيحي التي تدعو إلى التسامح عملا بقول المسيح عليه السلام: (إن صفحك (ضربك) على خدك الايمن أدر له خدك الايسر) (٣٢).

وبالتالي فإن الديانة المسيحية لم تكن تجد صدى لدى الشباب، لأنهم كانوا منذ آلاف السنين يقضون حياتهم في كفاح ونضال دائم ضد الغزاة والطامعين حتى أصبح القتال والحرب والعنف (جزء) من حياتهم اليومية.

ويقول (نغموقة) بأن اعتناق الشركاسة الديانة المسيحية ساهم في إحداث تطور في حياتهم ونهضة جديدة في أفكارهم ومجتمعهم، وربى فيهم ميلا إلى الثقافة والاهتمام بالصنائع والفنون الجميلة، إلا أنهم لم يقلعوا عن حياة العنف بل استمروا فيها وظلوا يزاولون أعمالهم الحربية ويفتدون بآثار آبائهم في العادات (الخشنة) مفاخرين بشجاعتهم، إلا أن اعتمادهم على قوتهم وبسالتهن واستصغارهم لأعدائهم جعلهم يبقون على ما كانوا عليه في سالف الأزمان، وأثر ذلك على تقدمهم وحضارتهم. (٣٣).

* المرحلة الرابعة: مرحلة اعتناق الشعوب القوقازية عامة والشركسية خاصة الدين الاسلامي.

بالرجوع إلى تاريخ الفتوحات الإسلامية عامة وفتوحاتها في بلاد القفقاس خاصة توصلنا بأن أكثر من قائد من القادة المسلمين، وأكثر من دولة من الدول الإسلامية كان لها دور فاعل في دعوة الشعوب القوقازية لاعتناق الدين الإسلامي الحنيف، ابتداء من عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، والعباسيين، ودولة شراكسة مصر (المماليك البرجية والبحرية) والدولة العثمانية، وخانات القرم بالإضافة لدور التجار المسلمين من عرب وإيرانيين وأتراك وكذلك الامبراطورية المغولية كما كان للجماعات الصوفية واصحاب الطريقة النقشبندية دور في نشر الإسلام في بلاد القفقاس.

(١) فيما يلي ملخص لدور كل من الدول والجماعات وأصحاب الطرق الصوفية في نشر الدين الإسلامي في القفقاس عامة وفي بلاد الشراكسة خاصة.

أولاً: دور خلفاء الراشدين



أول مأذنة إسلامية أقيمت في القفقاس في القرن
١٣م - في منطقة مايكوب (للفنان عبد الله
برسيقوف)

في عام ٢١هـ - ٦٤٢م أمر الخليفة عمر بن الخطاب القائد سراقه بن عمر بالتقدم لفتح مدينة - باب الابواب - دربند - وجعل في مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة ومعه حذيفة بن اسير الغفاري وبكير بن عبد الله الليثي ليقودا جناحي الجيش ومعهم سليمان بن ربيعة الباهلي، ثم امدهم بحبيب بن مسلمة الفهري وتمكن من فتح الباب - دربند - سلما.

وفي السنة نفسها ارسل سراقه القائد بكير بن عبد الله إلى (موقان) وحبيب ابن مسلمة إلى (تفليس) وحذيفة بن اليمان إلى جبال (اللان). ولكن القائد سراقه توفي بعد أن تمكن من تعريف الاسلام لكثير من اهالي البلاد، وخلفه عبد الرحمن ابن ربيعة في القيادة وأمره الخليفة عمر بن

الخطاب بغزو بلاد الترك في شمال الباب دربند والتقدم شمالاً.. فتقدم وفتح مدينة - بلنجر - ولكنه عاد دون ان ينجح في محاولته. واستمر حبيب بن مسلمة وسلمان بن ربيعة على قتالهم مع الارمن.

وكان عياض بن غنم قد دخل في عام ١٩هـ - ٦٣٩م - بلاد الكرج حتى بلغ مدينة (تفليس) وبقي يحارب هناك حتى عام ٢٠هـ - ٦٤٠م ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى أرمينيا القفقاسية.

كما وصلت جيوش عربية إلى سواحل بحر قزوين ففتحوا (الري وجرجان وطبرستان) على يد القائد نعيم بن مقرن عام ٢٢هـ - ٦٤٣م.

وفي عهد عثمان بن عفان وبعد ان توفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه عام ٢٣هـ - ٦٤٤م أمر باستعادة فتح اران في اذربيجان بقيادة نعيم بن المقرن في عام ٢٤هـ.

وفي عام ٣٠هـ - ٦٥١م ارسل الخليفة عثمان القائد حذيفة بن ربيعة على فتح باب اللان وفي عام ٣٢هـ - ٦٥٣م حاول عبد الرحمن بن ربيعة مرة اخرى التقدم نحو الشمال إلى بلاد الترك من باب الابواب دون موافقة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولكنه قوبل بمقاومة شديدة واضطر لمقاتلة الترك والخزر معا. فانهزم واستشهد عبد الرحمن بن ربيعة، فارسل سعيد بن العاص اخاه سلمان بن ربيعة الذي تمكن من انقاذ بقية الجيش من الوقوع في الاسر فعينه مكان اخيه حاكماً على الباب.

ونتيجة للحروب التي كان قد قام بها حبيب بن مسلمة الفهري وسلمان بن ربيعة في تلك البلاد حتى عام ٢٥هـ - ٦٤٦م كان المسلمون قد تمكنوا من فرض سيطرتهم على اقاليم اران في اذربيجان "والبانيا التاريخية" وعلى جورجيا التي كانت تسمى عند العرب (جرزان) ولكن لم يستتب الهدوء تماماً لأن الروم كانوا ينازعون العرب السيطرة على تلك البلاد التي كانت تدين في الاصل بالديانة المسيحية. فقد كان العرب ينتصرون فيها مرة وتبقى البلاد تحت سيطرتهم، ومرات اخرى

كانت القوات البيزنطية التي كانت تساعد أرمينيا وجورجيا تتمكن من الاستيلاء على البلاد من جديد ليعود العرب المسلمون إلى استعادتها مرة أخرى. وبالرغم من كل هذه القلاقل والفتن بقيت هذه البلاد تحت حكم المسلمين دون أن تتمكن القوات المسيحية والخزيرية من إجلائهم عنها.

ثانيا: دور الامويين

في عام ١٠٤هـ عين يزيد بن عبد الملك الجراح بن عبد الله الحكمي عاملا على أرمينية وأمره بغزو الخزر وغيرهم. فدخل باب الابواب - دربند - وفتح مدينة بلنجر عنوة وسار في البلاد إلى حصن الربند، ولكن بعد مدة ثار أهل البلاد مما اضطره إلى طلب نجدة من يزيد الذي وافقه المنية. ولكن هشام بن عبد الملك جدد له الولاية على أرمينية وبلنجر وباب الابواب. وفي عام ١١٢هـ. ٧٣٠م هزم وهو يحاول فتح باب "اللان" داربال حاليا. فتقدمت جيوش الخزر واستشهد في مرج أربيل وخلفه أخوة عبد الملك مسلمة بن عبد الملك مكانه على إقليم باب الأبواب وأرمينية، فحاول بدوره فتح البلاد الواقعة في شمال هذا الإقليم ولكنه لم ينجح وانتصر عليه الخزر وكان مسلمة بن عبد الملك قد وصل إلى باب اللان واحتل قلعتها.

بعد هذه الهزيمة عين هشام بن عبد الملك مروان بن محمد حاكما على أرمينية وأذربيجان وعلى البلاد الخاضعة للمسلمين في جنوبي القفقاس، وكان ذلك في عام ١١٤هـ ٧٣٥م ووضع تحت تصرفه قوات كبيرة من الجنود والمرترقة بلغت ١٢٠,٠٠٠ فردا مكنته من التغلب على الخزر واخذ الثأر منهم، كما نجح في احتلال أبخازيا التي كانت تدين بالمسيحية في تلك الأزمنة.

ثالثا: دور العباسيين

لما آلت الخلافة للعباسيين لم تهدأ الحالة في البلاد، بل بقي التنازع بين العرب والسكان مستمرا بتشجيع من الدول المسيحية المجاورة، ومع ذلك بقيت هذه البلاد محكومة تقريبا من قبل المسلمين العرب منذ أيام الخلفاء الراشدين.

ورغم كل التغييرات التي جرت في جنوب القفقاس، بسبب تعرضهم لغزو متواصل من جهات مختلفة ووقوعها تحت حكم دول ذات ديانات متباينة، بقيت البلاد خاضعة للنفوذ الإسلامي وتعاليمه وبقيت تسير على النظم الإدارية التي كانت قد أدخلت أيام الخلفاء الراشدين على أيدي حكام مثل عتبة بن فرقد وحبيب بن مسلمة وعبد الرحمن بن ربيعة ونعيم بن المقرن وغيرهم، وكذلك من قبل قواد مثل هشام بن عبد الملك ومروان بن محمد. وبقيت البلاد في أيدي المسلمين مع ادخال تغييرات طفيفة في الإدارة تتناسب مع الوضع العسكري والأنظمة التي كان يفرضها الحكام والدول التي كانت تتغير وتتبدل باستمرار كما كانت البلاد الخاضعة للخلافة الإسلامية مقسمة إلى دويلات مثل (جرزان) - جورجيا الحالية، والباينا القديمة أذربيجان الحالية والتي كانت تعرف باسم (اران)، وأرمينية التي بقيت تحمل نفس الاسم دون تغيير وكانت اللغة العربية هي اللغة المسيطرة كلغة للثقافة والتعليم الديني، خاصة في شمال القفقاس، وفي كل من الداغستان والشيشان وبعض مناطق الشراكسة.

وفي عام ٨٠٠م كان كل سكان الداغستان وبلاد الشيشان يدينون بالدين الإسلامي وفي عام ٢٨٧هـ - ٩٠٠م - كانت أكثرية سكان شمال القفقاس قد دخلت الدين الإسلامي. باستثناء الشعوب الشركسية التي تأخر انتشارهم للقرن الثامن عشر الميلادي.

رابعا: دور ملوك الدولتين البحرية والبرجية الشركسية في مصر

كان لملوك مصر من اصل شركسي في عهد المماليك وهم أول من بدأوا في نشر الاسلام في بلاد الشركس حسب ما كتبه ابن بطوطة في كتابه المسمى (تحفة الانظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار) حيث قال بأن محمد ازبك خان الذي ولي في عام ١٣١٣-١٣٤٠ على مكان يدعى (بيش داغ) ويسمى الآن بالروسية (بياتيكورسك) واصبح هذا المكان مع مرور الزمان مدينة كبيرة تقع في شمال القفقاس في بلاد القبردي من بلاد الشراكسة. وفيها ينابيع مياه معدنية كثيرة، يفد إليها

الناس للاستشفاء. ويروى أن (اوزبك خان) هذا قد عاش في بلاد الشركاسة كلاجيء وكان يجيد التكلم باللغة الشركسية كما كان يوجد حي خاص للشركاسة في سراي عاصمة ملكه.

ويقول ابن بطوطة انه قابل في بلاط اوزبك خان الشريف نقيب الشرفاء عبد الحميد مربى ولده، والقاضي حمزة والامام بدران القوامي والامام المقرئ حسام الدين البخاري وغيرهم، مما يدل على ان الدين الاسلامي كان قد انتشر إلى داخلية البلاد الشركسية، مع العلم ان القوات الاسلامية بقيت خارج حدودها. ومع ذلك كانت لها علاقات مع البلاد العربية، وكان ذلك ايام دولة المماليك البحرية التركية والمماليك البرجية الشركسية وفي ايام الايوبيين من قبلهم، وكان من الطبيعي والحالة هذه ان يكون للسكان الالمام بالشيء الكثير عن الديانة الاسلامية عن طريق ابنائهم واقاربهم الذين عاشوا في مصر لمدة ستة قرون متواصلة تقريبا، والذين كانوا يقومون بزيارة بلادهم او يستضيفون اقاربهم في مصر. إلا اننا لا نمتلك وثائق تاريخية لنعرف منها النشاطات التي كانوا يقومون بها لنشر الدين الاسلامي في موطن آبائهم واجدادهم.

إلا اننا نعرف انهم كانوا يعودون إليها او يزورونها وهم مسلمون متعلمون ومتعصبون للإسلام، وجميعهم كانوا يتخرجون من مدارس خاصة انشأت لتعليم المماليك تعرف باسم الطباقي في القلعة في مدينة القاهرة، وكانوا يتفقهون في العلوم الدينية ويجيدون اللغة العربية قراءة وكتابة كأحد ابنائهم، يمكنهم من تلقين اهلهم واقاربهم ومعارفهم اصول الدين على اسس سليمة. وللأسف لا توجد لدينا معلومات تساعدنا على تقدير مدى انتشار الاسلام بين الشركاسة عن طريق هؤلاء المماليك ومع ذلك سنذكر اسماء بعض السلاطين والأمراء الذين عادوا إلى بلادهم او احضروا إلى مصر اقاربهم لزيارتها وهم:

١- في عام ٧٨٢هـ الموافق ١٣٨٠م حضر إلى مصر والد برقوق الشركس وهو لا يزال قائد جيش، وكان اسمه (انس) ومعه عدد كبير من اقاربه واولاده واخوته بصحبة التاجر فخر الدين الخوارزمي.

٢- تحالف السلطان برقوق مع توختمش خان القبجاقى ضد تيمورلنك، وكان ذلك بين عامي ١٣٩٤-١٣٩٥م وكان ثالث سلطان مصري يعقد حلف مع القبجاق.

٣- زار الامير يشبك الدوادار عام ٨٧٥هـ - ١٤٧١م ايام سلطنه الاشرف قايتباي بلاد القفقاس وكتب عن رحلته ابو حامد بن خليل يوسف المقدسي.

٤- سافر سنة ٨٨٣هـ - ١٤٧٨م الامير قانصوه الالفي إلى بلاد القفقاس للتداوي من توعك اصابه في اذنيه وعينيه وعاد منها سنة ٨٨٤هـ - ١٤٧٩م.

٥- جاءت في سنة ٨٧٧هـ - ١٤٧٣م من بلاد الشركاسة إلى مصر اخت السلطان قايتباي واسمها - جان كين - ومعها ولدها.

٦- سنة ٩٠٠هـ - ١٤٩٤م سافر الامير قانصوه (الخمسائة) إلى القفقاس.

٧- حضر سنة ٩٢١هـ - ١٥١٥م من القفقاس إلى مصر شخص يقال إنه ابن اخ السلطان قانصوه الغوري.

ولا شك بأن هذه الزيارات كان لها دور في نشر الاسلام في المناطق التي وصل إليها ملوك وسلاطين مصر من اصول شركسية في عهد المماليك البحرية والبرجية.

خامساً: دور ملوك المغول

* كان لامبراطورية المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر دورها في نشر الدين الاسلامي حيث كان ملوك المغول من العشيرة الذهبية وخانات تشغتاي قد اهتموا إلى الاسلام ودخلوا الاسلام على يد (النوغاي) في القوقاز الأوسط في القرن الثاني عشر. وفي نهاية القرن الخامس عشر اعتنق دين الاسلام معظم البلقر والكراتشاي والقبرطاي والشركس الشرقيون.

سادساً: دور جماعات الصوفية والنقشبندية

ظهرت الجماعات الصوفية من أصحاب الطريقة النقشبندية التي سجلت الموجه الثانية من انتشار الاسلام في القوقاز كما ظهر في داغستان وشيشانيا دعاة النقشبندية القادمون من شيرفان وآسيا الوسطى، وكانت المقاومة الشديدة والمستعمرة التي خاضها قبائل القوقاز وتصدوا بها للزحف الروسي هي ثمرة دعوى مريدي النقشبندية، وإليهم يرجع الفضل في نشر الاسلام نهائياً بين الشيشان في مطلع القرن التاسع عشر والشركس الغربيين والابازا.

تاسعاً: دور الحركة المريدية

كان لأصحاب الحركة المريدية دور هام في نشر الاسلام في القفقاس عامة وفي بلاد الشراكسة في وقت متأخر خاصة، حيث قام اصحاب الطريقة النقشبندية والحركة المريدية بنشر الاسلام بين شراكسة غرب القفقاس الشمالي.

حاول الشيخ شامل ادخال المريدية إلى بلاد الشراكسة في غرب القفقاس، وعندما طلبوا منه ارسال من ينوب عنه لتنظيم المقاومة والادارة في البلاد سعياً وراء توحيد المقاومة ضد الغزو في الشرق والغرب بإحداث قيادة موحدة وتنظيمات متجانسة، لم يكن في الامكان إتمام مثل هذه الاعمال الكبيرة على اسس الدين بالإضافة إلى روح الوطنية التي كانت تستند عليها مستلزمات الجهاد في الدفاع عن الوطن الام، والسبب هو عدم وجود لغة واحدة مشتركة للتفاهم بين شرقي القفقاس وغربه، ولذا كانت الآمال كلها معقودة على توحيد الدين وتقويته في نفوس الافراد، وتكوين الرابطة التي ستمكنهم من الوقوف صفا واحدا امام الخطر الداهم لكلا الطرفين، فأرسل الشيخ (شامل) عام ١٨٤٢ نائبه الحاج محمد ثم الحاج سليمان في عام ١٨٤٤ ولكن النجاح لم يكن من نصيبهما. واخيرا ارسل إليهم النائب (محمد امين) وهو شاب ذكي ونشيط، في عام ١٨٤٦، وبعد ان درس أحوال البلاد عن كثب اعلن الغاء القاب الامراء والاشراف والنبلاء ليتخلص الشعب من تحكم الطبقة الخاصة، كما شدد على اعتناق الاسلام لكل من لم يكن قد اعتنقه من سكان البلاد حتى ذلك التاريخ. حيث ان كثيراً من الشراكسة كانوا ما زالوا وثنيين، فقام (النائب) بتعليمهم تعاليم الاسلام. وقام بالدعوة للحرب المقدسة. وكانت البلاد في ذلك الوقت متأهبة لمثل هذه الدعوة. اضافة إلى ان كثيراً من الأمراء كانوا قد دخلوا الاسلام وبمساعدة هؤلاء الأمراء استطاع ان ينشر الاسلام بين جميع سكان الاقليم تقريباً، فالدعوة انتشرت بين جميع الأديغة في وقت قصير ولكن هذا لم يجعل النائب يشعر بالرضا، فبعد إشاعة الاسلام في كل المنطقة قام بإطلاق سراح كل الأسرى من جنود الأعداء ودعاهم لاعتناق الاسلام وجعلهم نواة لجيش صغير، وبمساعدة هذه الفرقة المحاربة استطاع القضاء على المشاكل القائمة، وأصبح يجمع الضرائب والمتطوعين وتجولوا في الجبال مع مرافقيه يدعون الناس للاجتماع واداء الصلاة ودفع الضرائب الحربية وكل من يعترض على ذلك كان يعاقب دون رحمة.

يقول جيمس بل، الذي زار القفقاس عام ١٨٣٧ واقام فيها لمدة ثلاث سنوات، في كتابه - الإقامة في القفقاس - المجلد الاول - صفحة ٣٣٨.

يقول بأن "امراء القبائل لم يكونوا يتمتعون بأي نوع من نفوذ او امتيازات في ايامه ويعزي ذلك إلى الدخول في الديانة الاسلامية التي ساوت بينهم، كما كانت لجنة المحلفين تدور في البلاد لتنظيم (اليمن) على أفراد الشعب ليقبوا مخلصين على تحالف القبائل، حيث كان العلماء والمشايخ الذين يرافقونهم هم الذين يتولون عملية التحليف ويطلبون من كل فرد ان يحلف على القرآن الكريم لا على كتاب آخر، مما يدل على ان الدين الاسلامي كان منتشرًا بينهم ويسير الناس بموجب تعاليمه.

ويقول بعض المؤرخين لا يمكن ان يعزى كل ما جرى من التغييرات في بلاد الشراكسة إلى نشاط النائب محمد امين بل كانت البلاد مستعدة عند مجيئه لقبول أفكاره التحريرية الجريئة، ومع ذلك يجب أن لا ننكر على هذا الرجل ما قدمه للشراكسة من خدمات في تنظيم البلاد إدارياً وعسكرياً على اسس دينية محاولاً ايجاد تقارب ان لم يكن اتحاداً بين شرق القفقاس وغربه، واصبحت البلاد تدار من قبل مجلس مكون من ١٥ شخصاً من ابناء القبائل المذكورة عرف باسم - مجلس الميثاق القومي - غير ان الامبراطورية الروسية كانت له بالمرصاد، ولم تعطيه الفرصة للقيام بأعمال كبيرة.

ويجدر بنا ان نذكر ان شرقي القفقاس الذي كان قد اسلم على ايدي العرب بقي مسلما واصطبغ بالاسلام منذ دخوله فيه، ولكن الاسلام وجد مقاومة في غربي القفقاس، الشمالية والجنوبية، لم يجده في الشرق، وذلك بسبب قرب المناطق الغربية من الامبراطورية البيزنطية والقسطنطينية التي كانت تتمركز فيها زعامة الديانة المسيحية الارثوذكسية التي كانت تدين بها سكان المناطق الغربية قبل وصول الاسلام إليها، وإلى البلاد الاخرى المحيطة بالبحر الاسود مثل ارمينيا وجورجيا ومنغوليا وابخازيا - وبلغاريا ورومانيا وروسيا بعد ان اصبحت الاخيرة من دول البحر الاسود، وورثت الزعامة الارثوذكسية بعد زوال الدولة البيزنطية، هذه الدول كانت كلها مسيحية تحاول دائما وبكل الطرق المحافظة على الديانة المسيحية وحمايتها في مختلف المناطق القفقاسية، مما ساعد على بقاء جورجيا وارمنيا ومنغوليا وحتى ابخازيا مسيحية إلى يومنا هذا. ولذا فإن سكان بلاد الشراكسة تأخروا في دخول الدين الاسلامي حتى القرن السادس عشر، ولم يعم الاسلام فيها إلا في اوائل القرن الثامن عشر على يد خانات القرم والدولة العثمانية.

ويلاحظ بأن الذين اسلموا من سكان القفقاس على ايدي العرب على ايدي الفاتحين العرب يتبعون الامام الشافعي، بينما الشراكسة الذين اسلموا على ايدي خانات القرم وولاية الدولة العثمانية ومبشرها يتبعون المذهب الحنفي.

نستنتج مما تقدم بأن الانتشار الحقيقي للدين الحنيف بين مختلف الامارات الشركسية في شرق وغرب القفقاس قد تمت على فترات متباعدة ابتداء من اواسط القرن السادس عشر؛ اي ابتداء من عام (١٥٥٧) وحتى عام (١٨٦٠) ويمكن تلخيصها على النحو التالي:

الفترة الاولى: وهي الفترة الممتدة من اواسط القرن السادس عشر ابتداء من عام (١٥٥٧) إلى عام (١٧١٧)

حيث بدأ اعتناق بعض أمراء الشراكسة الإسلام، وبعض عامة الشعب من مختلف القبائل الشركسية التي كانت سكنت في المنطقة القريبة من بلاد (القرم) وذلك بتأثير (خانات) القرم المجاورين لبلاد الشراكسة من الشمال، وامتدت إلى منطقة حوض نهر (الترك) وتلاقت مع المسلمين في القسم الشرقي من القفقاس، إلا أن المناطق الداخلية من ساحل البحر الاسود والقسم الاوسط والأدنى من حوض (الكوبان) فقد تأخر انتشار الاسلام بين سكانها من (الأديغة) عامة والقبرطاي خاصة.

ولإعطاء فكرة واضحة عن الأوضاع الدينية التي كانت سائدة لدى الشراكسة (الأديغة) في هذه الفترة لا بد من اقتباس بعض الفقرات من كتاب (Quelquejay)^(٣٣) ترجمة (نيازبا توكه) وهو أفضل من كتب عن هذه الفترة، حيث يقول في الفصل الخاص بالبنية الاجتماعية والسياسية والدينية في القفقاس الشمالي بالقرن السادس عشر^(٣٣). بدأت العلاقات بين روسيا (والقبرطاي) عام ١٥٥٧ اي بعد سنة من احتلال (خانية استراخان) من قبل الجيش الروسي الذي كان في حينه الجيش الذي لا يقهر في نظر القفقاسيين. وفي تموز من عام (١٥٥٧) توجه سفير الامير (تمروق) احد أمراء (القبرطاي) إلى موسكو طالبا الحماية من القيصر ضد اعدائهم (الداغستانيين والنجويين) الاشقياء و (خانات القرم). وتؤكد الوثائق الروسية بأن بعض عائلات الامراء من (القبرطاي) كانوا من المسلمين وكذلك الامير (تمروق بن ايدار) كان مسلما لكن ابنته (ماري) اعتنقت الديانة المسيحية الارثوذكسية عندما تزوجت القيصر (ايفان الرهيب).

ومن مظاهر (التذبذب) الديني لدى بعض أمراء الشراكسة في هذه الفترة هي ظاهرة تأثرهم بديانة (الدول) والسلطات التي يتعاملون معها.. فأولاد الأمراء الذين كانوا على اتصال مع القياصرة الروس كانوا يعتنقون المسيحية، اما الاولاد الذين كانوا على اتصال مع العثمانيين فكانوا يعتنقون الدين الاسلامي، وكذلك فإن المقيمين منهم في البلاد كانوا مسلمين، ومن الذين اعتنقوا المسيحية هو أحد أحفاد الأمير (تمروق) وابن (مامستروق) و (كانشوف) بينما شقيقهم (قانساف) كان مسلما، كما كان جميع أعضاء أسرة الأمير (تمروق) مسلمين.

وفي عام ١٥٥٨ أخذ الأمير قانبولات شقيق ابنه (خورشاي) إلى بلاط القيصر بهدف طلب الحماية الروسية، وأصبح ابنه مسيحياً وعمد تحت اسم (بوريس) بينما ابن آخر لقانبولات وهو الأمير (كودنت) الذي بقي في القفقاس كان مسلماً، ولكن ابنه الثالث (أرسلان) الذي عاش في موسكو مع طبقة (الستولنيك Stolnik) اعتنق المسيحية وسمى نفسه (ياكوف).

نستنتج مما تقدم بأننا أمام ظاهرة تكاد تكون فريدة في نوعها في تاريخ الإسلام وهي وجود بعض من أعضاء العائلة الواحدة يدينون بالمسيحية الأرثوذكسية والبعض الآخر بالإسلام.

وفي عام ١٥٦٦ قرر القيصر (إيفان) دفع حركة التصير إلى أبعد من ذلك في بلاد (القبرطاي) فأرسل أحد القادة العسكريين المقربين إليه واسمه (جرمينسوف) إلى بلاد (القبرطاي) على رأس جيش كبير ضم العديد من القساوسة الأرثوذكس بهدف ادخال الشركس عامة و (القبرطاي) خاصة إلى الديانة المسيحية إلا أن هذه المحاولة لم تتجح وقد حدث العكس حيث أدت المحاولة الخاطئة لتخويف (القبرطاي) من هذه الحملة فكانت النتيجة بأن أعداداً كبيرة تركت المسيحية واعتنقوا الإسلام بعد عام ١٥٦٠.

وفي تموز عام ١٥٦٣ حينما كان الأمير (تمروق) المدعوم من قبل القيصر يناضل ضد منافسيه الأميرين (سبيوق وقانوق) من بشتاو واللذين كانا من قبل في خدمة القيصر، يحملان اسمين مسيحيين هما (الكسي) و (غاقريل) هربا من موسكو ليتوجها أولاً إلى (ليتوانيا) ومن هناك إلى (القرم). وهكذا فإن أمراء (القبرطاي) كانوا في فوضى من الناحية الدينية والسياسية، فالحزب الموالي للروس كان على رأسه أمير شركسي مسيحي بينما كان القبرطاي المسلمون يتوجهون إلى معسكر التاتار (في القرم).

هكذا كان الوضع الديني لدى الشراكسة (القبرطاي) الذين كانوا يسكنون القسمين الأوسط والشمال من بلاد القفقاس. أما الشراكسة الذين كانوا يقطنون المنطقة الغربية منها مثل (الأبازة) فكان وضعهم الديني يتسم بالتذبذب أيضاً خلال القرن السادس عشر ما بين مبايعة خانات القرم والإسلام من جهة والتابعة الروسية والمسيحية من جهة أخرى، ولم يتم اعتناق (الأبازة) للإسلام إلا في القرن الثامن عشر.

ويقول المؤرخ (Quel Quejay) عندما تكلم عن البنية الاجتماعية والسياسية والدينية في القفقاس في القرن السادس عشر بأن الوضع عند الشراكسة الغربيين كان أكثر تعقيداً وأكثر اضطراباً عنه لدى (القبرطاي) في الشمال بسبب غياب الهرم الإقطاعي عندهم، كما هو الحال عند جيرانهم (القبرطاي)، فقد كانت الطبقة النبيلة حتى عام ١٥٦٠ تدين جزئياً بالمسيحية وجزئياً بالإسلام مع احتمال وجود أقلية (تدين بالوثنية)، كما كان إقطاعيو (الأديغة) يبدلون دينهم من حين لآخر وأما طبقات الفلاحين والأحرار والخدم، فكانوا بشكل عام يدينون بمذهب وجود الروح في الكائنات الحية (Animistes)، كما كانت القاعدة عند نبلاء الشراكسة الذين توجهوا لخدمة القيصر أن يصبحوا مسيحيين (تحت اسم جماعي جركاسي Gerkasi) واقدم تعمد للشراكس الغربيين يعود إلى عام ١٥٥٠ عندما توجه أحد الأبازة (القاليج) Alqalig ابن (ايزبولوق) إلى موسكو وتعمد تحت اسم (إيفان) كما كان ابن (غردنوق) يعيش حينئذ في بلاد القيصر (إيفان) وهو من اصل ابازي. وفي عام ١٥٥٥ أرسل أمير قبيلة (جاني) الشركسية واسمه (سبيوق) ابنه (كوداد يقوه) إلى موسكو وتعمد تحت اسم (الكسندر) وفي عام ١٥٦٠م أرسل القيصر (إيفان) عدداً كبيراً من الشراكسة المسيحيين الذين كانوا يعيشون في موسكو ضمن حملة تضم قساوسة بهدف ادخال عائلة (جاني) إلى المسيحية، وساهم رؤساء قبيلة (جاني) في الأعوام ١٥٥٦-١٥٦٠ مساهمة فعالة في محاولة الأمير (ديمترى فيشنيفسكي) لاحتلال القلاع العثمانية (آزاق، وتامان، وتمروق)، وانتهت محاولة (فيشنيفسكي) بمساعدة قبائل الشركس لاحتلال القلاع بالفشل النهائي عام ١٥٦٠ وبدأ الإسلام يتأصل بقوة لدى الشراكسة الغربيين بعد هذه المحاولة بعام واحد حيث اعتنق نبلاء قبيلة (جاني) الإسلام شيئاً فشيئاً.

والدارس للأرشيف العثماني في القرن السادس عشر، يجد بأن بعض أمراء الشراكسة عامة وقبيلة (جاني) خاصة اعتنقوا الدين الإسلامي ابتداء من عام ١٥٦٠ وفي عام ١٥٦٥ أرسل كبير

(البكوات) العثمانيين واسمه (بيلربي) خبرا يعلمهم فيه بأن أحد زعماء الشركاسة يرغب الحضور إلى اسطنبول ليعتق الدين الإسلامي، كما أعلم أحد ضباط (الباب العالي) بأن قبائل شركسية تحمل علم السلطان وتدفع له الجزية باستثناء قبيلة جاني (جاتقوك) كانت متمردة وتهدد خانات القرم. وفي نفس الوقت فقد أخبر الضابط الحكام بأن رئيسا شركسيا وهو (انقوتوقه) (اسمه لا يكشف عن انتماؤه الديني) كان ينوي القدوم إلى اسطنبول، ربما لاعتناق الاسلام.

في عام (١٥٧٤) أصدر قاضي (صمصون) التتري أمرا يعلن فيه إباحة بيع الأسرى من الشركاسة (غير المسلمين). وفي عام (١٥٨٢) أصدر أمرا آخر إلى بيك البكوات (بيلربي) في (باطوم) يصف فيه الإبزاز (إبازة في النص العثماني) وشركاسة الجبال الذين يغزون منطقة باطوم بأنهم (كفار)، وبعد عام ١٥٩٠ ازداد عدد زعماء الشركس (المسيحيين) الذين يرغبون القدوم إلى اسطنبول للمبايعة واعتناق الاسلام ويبدو بأنه مع نهاية القرن السادس عشر كانت جميع القبائل (الغربية) ذات البنية الاقطاعية قد دخلت إلى الإسلام.

كما أكد (الأبخازي هزارفين) كاتب اليوميات العثمانية (أن الذين يقطنون في الغرب من بلاد الشركس مثل قبيلة (جاني) من سنجاق تامان يعترفون بقواعد الشريعة ويتقبلون القضاة المعينين من قبل الباب العالي، وبالتالي فلا يحق لنا أسرهم، لكن الذين يقطنون شرق قبيلة (جاني) وحتى شركاسة القبرطاي فإنها (دار حرب) ويمكن ان نأخذهم أسرى. نستنتج من ذلك بأن قبائل الشركاسة الشرقية ومنها (البسلني) اعتبرهم (العثمانيون) كفارا، لأنهم كانوا يدينون (بالوثنية Animists) ويعتقدون بأن الكائنات الحية لها أرواح، ووصفتهم الوثائق العثمانية في ذلك العهد بأنهم (كفار) (٣٤).

الفترة الثانية: وهي الفترة الممتدة من تاريخ قتل الاساقفة والخوارنة الارثوذكس من أصول بيزنطية أو شركسية في عام ١٧١٧ وحتى عام ١٨٥٠ وهو العام الذي انتهى فيه محمد أمين نائب الامام شامل من مهمة نشر الدين الاسلامي بين جميع القبائل الشركسية في الغرب.

يقول (نوغموقة) في كتابه تاريخ الادبكية (الجرکسي) القديم: إن الضربة القاضية التي أصابت الديانة المسيحية في القفقاس، كانت عام ١٧١٧، حينما امر سلاطين الاتراك خان القرم (دولت كراي Dewlet Girai) و (غاز كراي Ghaz-Girai) بنشر الديانة الاسلامية بين (الادبكية) بقوة السيف، وقتل رؤساء الدين المسيحيين والخوارنة (شوجن) وإحراق كتبهم المقدسة وتحطيم عصيهم، مما أدى إلى ترك أثر كبير في نفوس الشركاسة المسيحيين وضربوا امثالا للتعبير عن استيائهم، منها المثل القائل (ليتهم يسلبوا متاعك وملكك كما سلبت عصي الاساقفة).

إلا أن القادة العسكريين لخانات القرم أساؤوا التصرف مع القبائل الشركسية التي اعتنقت الدين الإسلامي حيث فرضوا على كل عائلة شركسية إيواء أربعة من رجالهم العساكر مع خيولهم، وأجبروا الأهالي على إطعامهم وإيوائهم، ثم عينوا في كل بلدة إماما (مولى) لتعليم الأهالي قواعد الدين الاسلامي، وبقي (جيش القرم) محتلا بلاد قبيلة (القبردي) من شركيسيا عدة سنوات، وقبل بعض السكان منهم اعتناق الدين الاسلامي بينما رفض آخرون، وظلوا يمارسون شعائر دينهم القديم خفية، خوفا من اضطهاد التتار لهم.

وفي عام ١٧٢٥م أمر (أمير قبائل القبردي) الشركسية كل شركسي من سكان المقاطعة قتل كل من يعثر عليه من (الأتراك) وأهل (القرم) أينما كانوا وحيثما وجدوا ولما خيم الظلام قام أهل (القبردي) قومة رجل واحد وسلطوا السيوف على رقاب الغاصبين خانات القرم والأتراك، وأبادوهم عن آخرهم، حتى لم يبق منهم أحد على قيد الحياة. وفي عهد الامير الشركسي (حاتوظوقه) دخل فريق من شعب الادبغة (الشركاسة) بالاسلام، وعندما تسلم الإمارة أخوه (عادل كراي Adil Girai) الحكم وكان قد تعلم اللغة العربية والتركية، أخذ بنشر الدين الاسلامي بين عشائر القبردي الشركسية التي لم تكن قد اعتنقت الدين الاسلامي، كما اهتم في بناء المساجد وتعيين الائمة والمشايخ وعلماء الدين الاسلامي في كل انحاء منطقة القبردي الشركسية، وهكذا أخذ الدين الحنيف بالانتشار ذاتيا، وعلى يد أمراء الشركس انفسهم وبأسلوب الإقناع والترغيب، وقد أدى تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية إلى انتظام الاحوال المدنية والاجتماعية في بلاد القبردي الشركسية.

أما قبائل الشراكس الأخرى التي كانت تسكن وسط وشمال قفقازيا الشمالية وشواطئ البحر الأسود الشرقية، فقد تأخر انتشار الدين الإسلامي بينهم حتى سنة (١٨٤٢م) عندما قرر الكثير من أبناء تلك القبائل الدخول في الدين الإسلامي نتيجة الحركة المريدية على يد (الإمام شامل) الذي قاد حركة الاستقلال ضد روسيا في القرن الثامن عشر الميلادي، فقد أرسل عام (١٨٤٢) أحد نوابه وهو (الحاج محمد أمين) إلى بلاد الشراكسة في منطقة الأديغي قادما من بلاد الداغستان، فأخذ النائب يبث الدعاية للإمام (شامل)، ويصوره للأهالي بأنه محارب شجاع ومن (أولياء الله المطهرين)، ووعد بأنه سيعينهم على الروس إذا قبلوا الإسلام ديناً لهم، واتبعوا إرشاداته وتعاليمه. وتبين للقبائل الشركسية الشمالية أن ما يطلبه منهم الإمام شامل مقابل مساعدته لهم ضد الروس، يختلف عما قدمه الأتراك سابقاً، وايقنوا أن دخولهم في الإسلام هو الطريق الوحيد للخلاص من عدوان الروس عليهم والحصول على المساعدات اللازمة لإخراجهم، وكانت أولى القبائل الشركسية الشمالية التي اعتنقت الإسلام هي قبيلة (الأبزاخ)، وساعد على انتشار الإسلام بين أبناء هذه القبيلة غضب العامة من حكم أمرائهم ونبلاتهم، فقبلوا الدين الجديد واستطاعوا القضاء بمساعدة (الإمام محمد أمين) على هذه الطبقة من الحكام، وفرضوا قوانين الشريعة الإسلامية في شمال القفقاس وبناء المساجد^(٣٥).

حاول النائب (محمد أمين) بعد أن استتب له الأمر في بلاد (الأبزاخ) الشركسية أن يمد نفوذه وينشر الدين الإسلامي في منطقة (الأوبيخ والشابسوغ) إلا أنه وجد في منطقة (الأوبيخ) مقاومة شديدة حيث صمد له سكانها الذين كان أكثرهم يدين بالمسيحية فاضطر إلى تأجيل هذه المنطقة من برامجه، ووجه اهتمامه إلى قبيلة (الشابسوغ) التي كانت من أمهات القبائل الشركسية في الغرب وأقواها، إلا أن الأمور لم تتيسر له في بلاد الشابسوغ، حيث أن هذه القبيلة لم تكن تعاني من تسلط نظام الإقطاع عليها، ولم تكن لديها طبقة نبلاء وامراء حتى يتمكن النائب من تحريض طبقة العوام عليهم كما فعل في منطقة (الأبزاخ)، عدا أن وجود مسلمين ومسيحيين بين أبناء قبيلة الشابسوغ قسم الرأي العام منهم إلى قسمين بين مؤيد لاستقبال (نائب الامام شامل) ومعارض له. أما أهالي منطقة (ناتخواج) من القبائل الشركسية أيضاً التي كانت تسكن شمال بلاد الأديغة، فكانوا ميالين لاستقبال النائب لاحتياجهم لمساعدته الحربية أكثر من سواهم بسبب قربهم من حدود الروس، أما سكان الأقسام الجبلية من بلاد الشابسوغ، وبخاصة القاطنين بين نهري (شيس) و (أفيس)، فقد تسلحوا لمقاومته حربياً.

وفي عام ١٨٤٩م جمع النائب (محمد أمين) جيشاً كبيراً من قبائل الشركس التي اعتنقت الإسلام، وفي مقدمتها قبيلة (الأبزاخ) التي جمعت له (٢٠ ألف) مقاتل و (٤ آلاف) من مسلمي الشابسوغ أنفسهم وجرت معركة بين المعارضين للدخول في الدين الإسلامي من قبيلة الشابسوغ، وكان عددهم ستة آلاف مقاتل وبين جيش النائب (محمد أمين) البالغ عدده (٢٤ ألف) مقاتل من (الأبزاخ والشابسوغ) عند ضفاف نهر (دوغاي) أسفرت عن صمود المعارضين وقتل خمسمائة محارب من كلا الطرفين، ولم يستتب الأمر للنائب (محمد أمين) إلا بعد عدة معارك مع المعارضين حدثت عند أنهر (أبين) و (أيل) و (حابل) و (بوغندور). بعد ذلك أخذ النائب يسرع في تقدمه وقيم عند كل نهر اسبوعاً كاملاً، يقوم خلاله بجمع السكان وإجبارهم فرداً فرداً على أداء كلمة الشهادة وتلاوة بعض السور القرآنية، وكان يسجل اسم من يؤمن ويجبره على الالتحاق بجيش المسلمين. ثم توجه بجيشه الذي بلغ ٢٥ ألف مقاتل إلى منطقة قبيلة (ناتخواج) حيث استقبله الأهالي بحفاوة بالغة وأعلنوا إسلامهم راغبين، ونقضوا هدينتهم مع الروس إذ كانت بلادهم متاخمة للبلاد الروسية، وعقدوا مؤتمراً شعبياً عاماً تقرر خلاله أنه ليس بمقدور أية جماعة أو قبيلة بمفردها أن تهادن الروس وأن كل مفاوضة أو اتفاق أو حرب مع الروس يجب أن يشترك فيه جميع قبائل الأمة الشركسية. وبعد انتهاء النائب (محمد أمين) من أعماله في بلاد الشابسوغ والناتخواج وجه نظره إلى بلاد الأوبيخ والأقسام الجبلية من الشابسوغ التي كان قد تركها وشأنها في بادئ الأمر، لأن سكان هذه البلاد الممتدة على ساحل البحر الأسود من (صوجاق) (ميناء على ساحل البحر الأسود الشرقي) حتى حدود بلاد الأوبيخ، كانوا أشد الناس تعنتاً وتعصباً لدينهم المسيحي^(٣٦).

ثم غير النائب (محمد أمين) من أسلوبه ولجأ إلى أسلوب الإقناع وتوسيط أبناء الشابسوغ المسلمين لإقناع إخوانهم من أهالي شابسوغ الجبال بالدخول في الدين الإسلامي، وإنشاء محاكم في

كل (المدن الساحلية على شاطئ البحر الأسود الشرقي)، وقد نجح أخيراً في إدخال (شابسوغ) الجبلين في الدين الإسلامي. وقد قضى النائب (محمد أمين) شتاء سنة ١٨٤٩-١٨٥٠م وهو يحاول إنشاء محكمة إسلامية في بلاد الأوبيخ إذ لقي من أهلها العصيان لإرادته، غير أن أهالي بلاد (الأوبيخ) لما رأوا أن جميع الأمة الشركسية قد اعترفت نهائياً بنباية (محمد أمين) وسيادته عليها لم يقاوموه حربياً، وهكذا نجد أن الفضل في انتشار الدين الإسلامي بين الأمة الشركسية في الغرب يعود للنائب (محمد أمين نائب الامام شامل)، وليس للدولة العثمانية التي عجزت عن تنظيم البلاد الشركسية، كما نجح هذا النائب في تقسيم البلاد الشركسية إلى مراكز وإدارات وأقام المحاكم والمساجد في جميع أنحاء بلاد الشركس.^(٣٧)

الفترة الثالثة وهي فترة حرب الشعارات والتي تتداخل مع الفترة الزمنية الثالثة وحتى بدء التهجير القسري لشعوب شمال القفقاس عامة والشراكسة خاصة (١٨٢٩م-١٨٦٠م).

تميزت هذه الفترة بأربعة ظواهر دينية / سياسية وهي:

الظاهرة الأولى: وهي ظاهرة حرب الشعارات الدينية التي أطلقها كل من اصحاب الحركة المريدية التي قادت المقاومة الإسلامية شمال قفقاسيا عامة والداغستان خاصة، وهي حركة كانت تتبع (الطريقة النقشبندية) التي أسسها محمد البخاري المتوفى سنة ٧٩١هـ، وبدأت حركة إصلاح ديني إلا أن الإمام (محمد البرغلي) أعطاه طابعاً سياسياً وتولى قيادتها محمد الغمري المعروف باسم "غازي مولا" من بلاد الداغستان، وفي عام (١٨٢٩م) وجه نداء عاماً لشعوب الداغستان بالجهاد في سبيل نشر الدين الإسلامي، واستشهد عام ١٨٣٢، بعد عدة معارك مع القوات الروسية، وتولى الامام (فخرات) قيادة المريدية إلا أنه اغتيل بعد عامين من قيادته من قبل (الحاج مراد) وهو من قبيلة (باخويخي زعيمة خونزاح الداغستانية) وتولى القيادة من بعده الإمام (شامل) عام ١٨٣٤، وأمضى في تنظيم الحركة المريدية (عسكرياً) خلال السنوات (١٨٣٤-١٨٣٧) وفي عام ١٨٣٨ بدأ حرباً مفتوحة على القوات الروسية في كل من بلاد الداغستان والشيشان وشراكسة الغرب واستمر في قتاله حتى استسلم عام (١٨٥٧) ^(٣٨).

وتميزت الفترة التي قاد فيها (شامل) الحركة المريدية برفع شعارات دينية سياسية، ومن هذه الشعارات:

- الجنة تحت ظلال السيوف.
- جميع الروس لا يدينون بدين الاسلام.
- من شروط الإسلام كره الروس.
- كل ما هو عائد للروس فهو محرم على المسلمين.
- لا يقبل الدين قطعياً ذهاب المريض للعلاج عند الاطباء الروس.
- كل شخص لا يحارب الكفرة الروس مصيره إلى جهنم.
- إن أمة محمد لا يمكن ان تعيش تحت إدارة الكفرة من غير المؤمنين بالله.
- على كل مسلم أن يفكر بالجهاد وفق الشريعة السمحة ^(٣٩).

الظاهرة الثانية: وهي رفع الشعارات المضادة للشعارات (المريدية النقشبندية) الإسلامية من قبل جماعة عدوانية من قبائل القوقاز المدعومين من حكام روسيا القيصرية وهي الجماعة التي سمت نفسها بالطائفة (الزباروزية) التي اعتنقت الديانة المسيحية حديثاً.. فرفعت هذه الطائفة شعارات تمجد الديانة المسيحية على اعتبارها أفضل الأديان والتحريض على قتل القفقاسيين.

وكان من الشعارات التي رفعتها الطائفة الدينية المتعصبة هي:

- أفضل الأديان هي المسيحية.
- يجب قتل كل قفقاسي يرفض ذلك.
- وهذه أهم مهام للزباروزية.

ولا شك بأن هذه الدعاية المركزة من قبل الطرفين أدت إلى عدم تحكيم التفكير السليم والعقلاني في موضوع المقاومة والحرب في شمال القفقاس وعدم التفاهم للتعايش واستمرار الحروب الدامية لسنوات طويلة.^(٤٠)

الظاهرة الثالثة: وهي وقوع صراعات ونزاعات وصدامات دموية بين الأمراء والنبلاء من جهة وعامة الشعوب الشركسية من جهة أخرى لدى قبائل (القبرطاي والابزاخ) وهي الصراعات التي وصفها الجنرال (بريفانسكي) نائب القيصر الروسي في رسالته المطولة التي أرسلها إلى القيصر ونصها كما في مذكرات الجنرال الشيشاني (كندوفوف) ونقتبس منها الفقرات الخمسة التالية:^(٤١).

الفقرة الأولى من رسالة الجنرال: وفيها وصف الصراعات القائمة بين الأمراء والنبلاء وعامة الشعب بقوله: ((مع ان النظام العسكري الجديد الذي طبق في القفقاس في الفترة الأخيرة يعطي الأمل في الحصول على صداقة هذه المنطقة، فإن الاستسلام الحاصل نتيجة قوة السلاح والذي يعتبر ضررا لنا لأنه يحاول بالواقع منع المد الديني بالطريقة المريدية، فلذا يجب العمل على إزالة هذه الفكرة من الوجود. فالمريدية ليست عقيدة دينية فقط بل هو قانون يمنح الامتياز الطبقي ويعتبر الناس سواسية بدون تمييز او طبقية، ويوحد أبناء الشعب، والمريدية نظام يفرض الحكم العلماني ولا يقبل إلا بالحكومة التي تطبق أحكام الإسلام وهم لا يعترفون بسلطان عليهم إلا السلطان العثماني (سلطان جميع المسلمين) وبالنسبة لهم فإن الشريعة هي القانون الوحيد الذي يمكن ان يحافظ على حقوق وأرواح المسلمين)).

واستطرد قائلاً: من هنا يتضح أنه إذا لم نتمكن من إضعاف طريقة المريدية ونضع العوائق والموانع في طريق تقدمهم وازديادهم فإن النصر العسكري الذي حققناه في قفقاسيا سوف يذهب هباء بظهور إمام قوى يستطيع أن يوحد الشراكسة مرة ثانية، والطريقة الحتمية لذلك هي إحياء النظام الذي يعتمد على الطبقية في قفقاسيا، وبذلك فإن أي حكومة تعتمد على الطبقية ستضعف التيار الديني بأقصر الطرق، وبالطبقية سيبدأ تطبيق العادات الشركسية بدلا من الاحكام الشرعية وستظهر المحاكمات التي تؤيد العادات والتقاليد.

الفقرة الثانية من الرسالة المذكورة: وركز فيها على مدى تأثير الطريقة المريدية على الشعوب الشركسية بقوله:

"وتم اعتماد الجهاد كمبدأ ديني بطريقة المريدية واعلنت الحرب ضد الكفرة الموجودين في قفقاسيا أو يحاولون الدخول إليها. وبهذا فقد انتشر الحس الديني في قفقاسيا التي كانت مفرغة من كل فكر مخالف لنا وانضم الجميع تحت لواء الشريعة الاسلامية. فبتأسيس هذه الوحدة الدينية والوطنية في جبال القفقاس وازدياد اهمية الائمة المستمرة اجبرنا على تقوية وزيادة عدد افراد قواتنا العسكرية في المنطقة، وفي الحقيقة قديما كنا بحاجة إلى قوة صغيرة لإيقاف العصيان أو التمرد الحاصل في المنطقة. أما اليوم فإننا بحاجة إلى ألوية من الجيش لإيقاف مثل هذه العصيان أو التمرد.

الفقرة الثالثة: فقد خصصها لشرح الحركة المريدية والتأكيد على أنها ليست عقيدة دينية فقط وإنما هي قانون يمنع الطبقية بين شعوب القفقاس عامة والشراكسة خاصة.

وفي الفقرة الرابعة من الرسالة المذكورة: يقترح فصل الاعمال الدينية عن الاعمال الادارية كما يقترح احياء النظام الطبقي بقوله: هذا وسيكون طريقا سهلا لكي تفرض الحكومة الروسية سيطرتها وأن تضع الاعمال الادارية تحت سيطرتها وتوجيهها حسب ما تراه مناسباً. وبإحياء النظام الطبقي سوف يضعف رجال الدين الإسلامي (مادة ومعنى)، فالشعب الذي سيتخلص من نفوذ رجال الدين سوف يتهرب من دفع الضرائب التي فرضها عليهم. فلهذا السبب سيضطر أخيراً رجل الدين للتخلي عن قيادة الأمة، وسقوط رجال الدين وقطع علاقاته مع أبناء الشعب، فالمسلمون من الناحية الاخلاقية ستبقى العلاقة الدينية كل حسب ما يشعر أنه يلزمه، ومع مرور الزمن سوف يتخبط الشعب في معتقداته، وبالتالي سوف تجد الحكومة الروسية شعباً تقوده كيفما تشاء بدلا من شعب تحسب له ألف حساب. ولهذا يجب أن يرى المسلم الذي فقد أسلوب إدارته عقيدة تتناسب مع روح العصر وجب علينا أخذ التدابير اللازمة، لذلك، ومنذ الآن وحتى يتمكن ذلك المسلم من المقارنة بين عقيدته

الإسلامية والعقيدة الجديدة ان يرى افضلية العقيدة الجديدة ويقدرها أضعاف اضعاف العقيدة الإسلامية.

وفي الفقرة الخامسة والاخيرة من الرسالة المذكورة: ركز الجنرال على وجوب نشر الارثوذكسية بقوله: "أعتقد بوجوب نشر الارثوذكسية في القفقاس من خلال تأسيس الكنائس وإيجاد أساليب لإنشائها، وبذلك نكون قد وضعنا حجر الأساس لهدفنا في الوقت الحاضر. إن الفئات السلبية حول ديننا والتي يجعلها غير مرغوب فيها مع الأسف فإن رجال الدين المسيحي ليس لهم أي احترام أو تقدير في نظرنا نحن كما لشيوخ ورجال الدين الإسلامي، نحن الآن وصاعداً يجب ان نضع رجال الدين في المكان اللائق بهم ونحترمهم ومن أجل ما ذكر أجد في نفسي الشجاعة لإصراري على ما ذكر واعتماد الأسس التي ذكرتها بالبداية فوراً في تأسيس كوادرنشر الدين المسيحي في قفقاسيا".

واستطرد قائلاً: "عندما تمكنا من الدخول في قفقاسيا بعد عناء طويل وجدنا أن هناك صراعا بين الفئة المسلمة التي تتمسك بروحية الاسلام وبين الفئات الاخرى مما زعزع في مواقعهم وقوتهم، ومن هذه الفئات وجدنا ان الامراء والبكوات وزعماء العشائر يحكمون البلاد بالعادات والتقاليد المتوارثة اكثر بكثير من اتباعهم أصول الشريعة والدين".

وعلى هذا الأساس فإن تأييد من يتفق ووجهات نظراتنا السياسية هو إحدى الوظائف التي تقع على عاتق حكومتنا. ولكن نتيجة الأسلوب الخاطئ حالياً فإن هذا الموضوع الذي هو مطلب طبيعي لكل إنسان والذي يمكن ان يكسب تأييد الشعب بأسرع الطرق لم يدرس ولم يؤخذ بالشكل المطلوب لغاية الآن. فالإسلام يرى المستقبل بوحدة الجماهير تحت اسم الطريقة المريدية وفي الحقيقة أن الشعب يفضل حكم الشريعة الإسلامية أكثر من حكم طبقة النبلاء الذي يعتمد على العادات. وهكذا فإن ممثلي حكومتنا في النهاية يقعون في أول خطأ قاتل يبدأ من عدم معرفتهم بوضع الشعب. والآن وبسقوط الطبقة الارستقراطية التي كانت تسهل علينا حكم شعوبهم لانقسامهم إلى قبائل متعددة، ذلك الشعب اتحد تحت لواء ديني واحد أدى إلى وجود زعيم إداري وديني واحد لكل المنطقة بأسرها. (٤٢)

الظاهرة الرابعة: وهي المتمثلة بخلق مناخ مناسب لتهجير القفقاسيين عامة والشراكسة خاصة إلى الأراضي العثمانية تنفيذاً لسياستها المخطط لها مسبقاً وبإحكام تام ورفع شعارات وبث دعايات مستغلا في ذلك النعرة الدينية المتأصلة لدى الشعوب القفقاسية عامة والشركسية خاصة، ومن الشعارات الدينية التي نشرها العثمانيون بين الشعوب القفقاسية هي:

- لا يمكن العيش والبقاء في بلد كافر وتحت إدارة الكفرة، لذا وجب الحرب أو الموت أو الهجرة إلى البلاد الإسلامية.
- الهجرة قدرنا ومكتوبة لنا فلا مناص إلا إطاعة امر الخالق.
- الهجرة موجودة في الإسلام، فلقد هاجر اتباع محمد صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة كما هاجر محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.
- ستذهب إلى البلاد الإسلامية فقط ومن ثم نستعد ونعود لتحرير الوطن.
- من يموت في غير الديار الإسلامية يذهب إلى جهنم ومن يريد الجنة يجب ان يموت في ديار الخلافة الإسلامية.
- ما أوله بلاد الشام آخره بلاد الشام. (٤٣)

* **الفترة الرابعة:** وامتدت من عام ١٨٦١ إلى عام ١٨٦٤.

بدأت هذه الفترة من تاريخ قيام القيصر الكسندر بزيارة إلى بلاد الشراكسة يوم ١١/١٨ من عام ١٨٦١، تلك الزيارة التي كشفت عن نوايا القيصر الاستعمارية والاضطهادية وتهديد الشراكسة قبل البدء بهذه الزيارة وإصراره على استسلام الشراكسة والرضوخ لحكمه بقوله: لا خيار أمامكم أنتم شعوب قفقاسيا الشمالية عامة والشراكسة خاصة غير خيار واحد من ثلاثة خيارات وهي:

- إما الموت بلا قبور أو
- الهجرة لبلاد العثمانيين أو

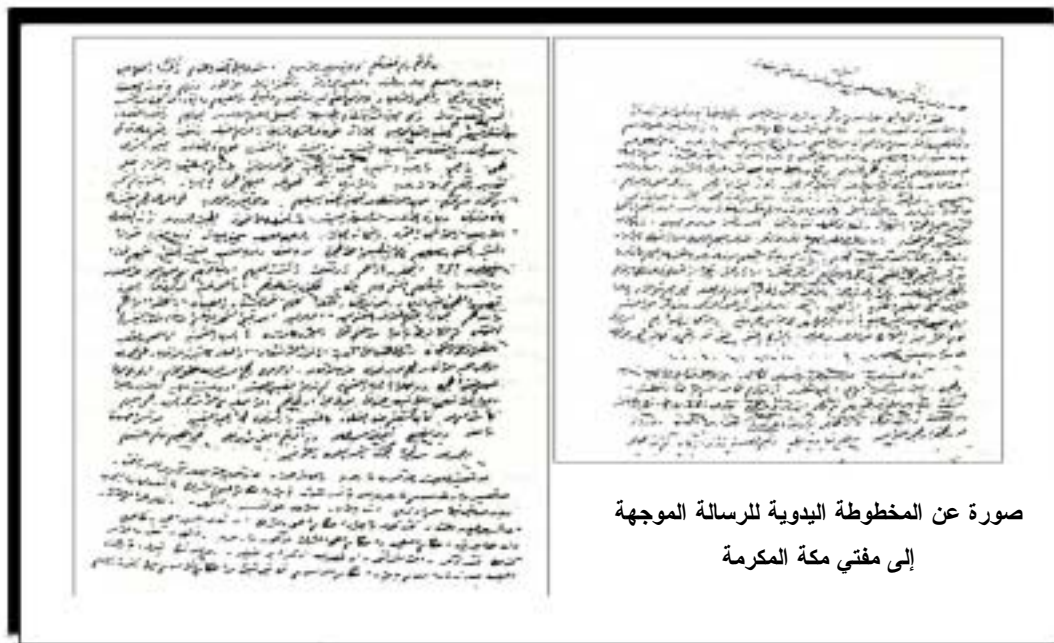
• اعتناق الديانة المسيحية.

كما كشف الجنرال (نقولاوي) قائد القوات الروسية في بلاد القفقاس في هذه الفترة عن سياسته والمتمثلة بمحاولة (استرضاء الأمراء والنبلاء الشركاسة بإيجاد وظائف لهم) وكذلك محاولتهم تحسين الأحوال المعيشية لدى الطبقات العامة في بلاد (الأديغة) مع تكثيف حملات التبشير وإعادة تنصير الذين اعتنقوا الدين الاسلامي.. إلا أن قادة الشركاسة واتباعهم رفضوا تلك السياسة التهديدية بقوة، وتمثل هذا الرفض في الكلمة التي ألقاها أحد كبار السن من الأبخاز (الأباطة) واسمه "لصه صوته قولسبه تو" أمام القيصر الكسندر وحاشيته تقتطف منها الفقرات التالية:

"جلالة القيصر قال: لنا ما ينبغي قوله من وجهة نظره، ولا نعتب عليه... أما ما سأقوله أنا فلن يتوافق مع ما يريده القيصر واستطرد قائلاً: القيصر الروسي أعجبت به بلادنا وحاربنا من أجلها (٦٠) سنة وحاول الاستيلاء عليها بالقوة، ونحن نحب بل نقدر أرضنا ووطننا الأم، وسندافع عنه بأرواحنا وانفسنا، وعلينا أن نعطي الجواب: بأن آباءنا وأجدادنا والرب الذي خلقنا جميعهم شهدوا بأننا لم نتهاون يوماً في الدفاع عن أرضنا الحبيبة وأن الموت خير لنا من أن نعيش عبيداً وبلا أرض أو وطن.

"إن الله ليس مع القوة الطاغية بل مع الصادقين... سنحارب حتى النهاية وقال بأن (الوطن، والشعب، والحرية) هي شعارنا فإن سقطنا شهداء من أجلها، فليس عيباً. ويمكن للروس أن يستولوا على بلادنا القفقاس، لكن الشركاسة لن يكونوا عبيداً لهذا القيصر طالما يجري في عروقهم دم شركسي^(٤٤).

وفي هذه الفترة وبعد ان تأكد لزعماء الشركاسة بأن العيش في الوطن الأم وبين الروس (الكفرة)، وكذلك فإن جواز العيش في ظل حكم مستعمر كافر أصبح بحاجة إلى افتاء ديني لذلك قام بعض الفقهاء من الشركاسة ورجال دين بإرسال ثلاث رسائل إلى كل من مفتي مكة المكرمة ومفتي الديار المصرية، ومفتي الديار الشامية يستفتونهم في حالتهم وفي القلق الذي كان ينتابهم حول جواز الفرار بدينهم من ظلم الروس الكفرة في الوقت الذي كانوا متمسكين فيه بأرض الوطن وعدم الرغبة في تركه للكفار.^(٤٥) كما هو مبين في المخطوط المنسوخ باليد عن النسخة الاصلية.



صورة عن المخطوطة اليدوية للرسالة الموجهة
إلى مفتي مكة المكرمة

مراجع ومصادر الفصل الثالث

- (١) دغوظ، فؤاد يحيى، العادات والقوانين الشركسية، وتاريخها، دراسة علمية الجمعية الخيرية الشركسية عمان عام ١٩٨٩.
- (٢) مولر، ماكس، نشوء العادات والعقائد الدينية لدى الشعوب القديمة، اقتباس أبه زاو - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس دمشق عام ١٩٩٦، ص ٣١٧-٣١٨.
- (٣) برقوق، اسماعيل، قفقاس في التاريخ منشورة في الاستانية عام ١٩٥٨ (باللغة التركية) ونقل بعض موضوعاته إلى اللغة العربية محمد جمال أبه زاو وضمنها في كتابه موسوعة تاريخ القفقاس الجركسي ص: ٣٣٧.
- (٤) م. لوف، مؤرخ انجليزي، كتب عن الآلهة التي كان يعبدها الأديغة (الشراكس) منذ القدم ونقل عند أبه - زاو ص ٣٢.
- (٥) يزيك، باتريك، اساطير الناريتين والتاريخ الحديث للشراكسة، مصدر سابق، ص: ١٧-١٨٠.
- (٦) حداغالة، اسكر، موسوعة للامم نارت - جزء (٤) ١٩٧٠، ص: ٨٠.
- (٧) المصدر نفسه، جزء (٧) عام ١٩٧١، ص: ١٠٦.
- (٨) ايليا جيليني، ١٩٦٩، وهان ١٩٦٨ الآلهة عند الشراكسة .
- (٩) الرحالة توكاريف، رحالة روس، ونشر بحثا عام ١٩٦٨ عن الآلهة لدى الشراكسة، ص ٢٤٧.
- (١٠) حداغالة، مصدر سابق، الجزء (١) عام ١٩٦٨، ص ١٠٩-١١٣.
- (١١) المصدر نفسه، الجزء (٧) ١٩٧١ ص: ١٠٧.
- (١٢) المصدر نفسه، الجزء (١) ١٩٦٨، ص: ٨٦-١٠٣.
- (١٣) نويمان، رحالة انجليزي زار بلاد الأديغة عام ١٨٤٠، وكتب عن اوضاع الشراكسة والتهتم - ص ١٠٨-١٠٩.
- (١٤) شتيدت، بودن، رحالة المانية زارت بلاد الأديغة عام ١٨٤٨ وكتبت عن احوال الشراكسة والتهتم، ص: ٢٠١.
- (١٥) المصدر نفسه، ص: ٢٠٢.
- (١٦) دانييلفسكي، رحالة ايطالي زار بلاد الأديغة عام ١٨٤٧ وكتب عن اوضاع الشراكسة الأديغة: ص: ٩٤.
- (١٧) تروبيزكوي، رحالة تجول في شمال القفقاس وعاش بين قبائل الشابسوغ لأكثر من عام، وكتب عن عاداتهم وآلهتهم، ص: ١٠٩.
- (١٨) نويمان، مصدر سابق، ص ١٠٩.
- (١٩) تروبيزكوي، بودن، مصدران سابقان، ص: ١٨٠-١٨١.
- (٢٠) توكاريف، مصدر سابق، ص: ٢٤١-٢٤٧.
- (٢١) مونتيير دوبويس، رحالة تجول في بلاد الأديغة عام ١٨٤٢، وكتب عن عاداتهم ومجتمعهم وآلهتهم عدة اجزاء، ص: ٧٩.
- (٢٢) شتيدت، بودن، مصدر سابق، ص: ٢٠١-٢٠٢.
- (٢٣) نويمان - مصدر سابق عام ١٨٤٠، ص: ١٠٨-١٠٩.

- (٢٤) توكاريف - مصدر سابق، ص: ٢٤٦.
- (٢٥) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد السادس، مصدر سابق، ص: ٣٤٢.
- (٢٦) نغموقة، مصدر سابق، ص: ٤١-٤٢.
- (٢٧) المصدر نفسه، ص: ٤٣.
- (٢٨) ناشخوا، جودت، ص: ٨٥.
- (٢٩) نغموقة، مصدر سابق، ص: ٤٤.
- (٣٠) مورجان، (مؤرخ فرنسي) كتب عن تاريخ القوقاز، ص: ٢١٨.
- (٣١) كيليجان وبيتفيسن، المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي، مترجم إلى اللغة العربية، عام ١٩٧٠.
- (٣٢) ابه زاو، مصدر سابق، ص: ٣٣٦.
- (٣٣) س. ل كويل قوجي، C. L Quelquejay في كتابه البنية الاجتماعية والسياسية والدينية في القفقاس الشمالي في القرن السادس عشر ترجمة نياز باتوقة مكتبة الجمعية الخيرية الشركسية ص: ١٣٩.
- (٣٤) المصدر نفسه، ص: ١٣٩-١٤١.
- (٣٥) المفتي، شوكت، مصدر سابق، ص: ١٥٥.
- (٣٦) ناشخوا، جودت، مصدر سابق، ص: ٩١.
- (٣٧) المفتي، شوكت، مصدر سابق، ص: ١٥٦.
- (٣٨) الشيشاني، احمد، مصدر سابق، ص: ٧٩.
- (٣٩) برزج، نهاد، تهجير الشراكسة، مصدر سابق، ص: ٩٦-٩٧.
- (٤٠) المصدر نفسه، ص: ٩٧.
- (٤١) كندوقوف، موسى، جنرال شيشاني، مذكرات موسى كندوقوف، عام ١٨٦٥، ص: ١٠٥.
- (٤٢) برزج، نهاد، مصدر سابق، ص: ٩٩-١٠١.
- (٤٣) المصدر نفسه، ص: ٩٧-٩٨.
- (٤٤) رسلان، مخلص، تاريخ حرب القفقاس ونتائجها من أحداث ومظالم، ترجمة واعداد احمد اسماعيل، دمشق، عام ١٩٩٥، ص: ٤٠-٤١.

الفصل الرابع

الأديغة خابزة

العادات والتقاليد الشركسية خصائصها (ونشأتها وتطورها)

منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث

عندما ظهر بنو البشر على وجه الأرض لم تكن لديهم أية قواعد ونظم تنظم حياتهم وتحدد أسلوب معيشتهم، إلى أن أصبحت لديهم لغة للتفاهم فيما بينهم، ثم بدأوا يضعون ويحددون بعض النظم والقواعد لحياتهم اليومية وهي التي أصبحت فيما بعد تسمى عادات وأعراف يتقيدون بها، ويعود هذه العادات وتلك التقاليد عند الأمة الشركسية إلى العصور الحجرية وارتبطت في البداية بالمعتقدات الدينية القديمة كما ارتبطت بسلوك (الامهات) اللواتي تولين الحكم والقيادة (آنذاك) كما كان الإنسان الشركسي ينتسب إلى عشيرة الأم وليس إلى عشيرة الأب، فكانت العادة أن ينتقل الرجل إلى بيت الزوجة، كما كان الإرث ينتقل إلى عشيرة الأم (ونستدل على هذه الحقائق من التراث الشركسي القديم عامة ومن أساطير النارتيين خاصة)، ثم تحولت السلطة إلى مجالس الامهات وهي التي كانت تضع مجموعة العادات والتقاليد والتي سرعان ما تتحول إلى مجموعة أنظمة وقواعد وقوانين تنظم حياتهم.

وفي العهد البرونزي تحولت عند الشراكسة السلطة إلى الأب، فأصبح لكل عشيرة رئيسا (تحمادة) ومن مجموع العشائر تكونت القبائل وهي التي استوطنت شمال قفقاسيا. وتغيرت العادات التي كانت سائدة في عهد (سلطة الامهات) خاصة ما يتعلق منها بالزواج والميراث، وأدوار كل من الرجل والمرأة، كما ظهرت عادات تتعلق بدفن الموتى، كما كان أهم التقاليد (آنذاك) أن المرأة لها زوج واحد وأن الرجال كانوا يتزوجون أكثر من امرأة، كما كانت التقاليد تمنع الزواج من الأقارب والجيران وكان لا بد لهم من البحث عن الزوجة في القرى والقبائل الأخرى، ومن هنا ظهرت عادة (الكواسة) وهي عادة (الزواج بالفروسية) والمتمثلة بختف الفتاة عندما يرفض الأهل تزويج ابنتهم من شاب قادم من قبيلة أخرى ومن مكان بعيد وهي العادة التي وضعت لها القواعد والأعراف وبما يتمشى مع حدود الأدب والشرف، وبما يتناسب مع المبادئ الأخلاقية المرتبطة بالفروسية. وفي تلك العصور أيضا وضعت العديد من العادات ومُرسّت مجموعات كثيرة من التقاليد والتي تتعلق بتنظيم الحياة العامة، وتحديد العلاقات بين الرجل والمرأة، وبين الرئيس والمرؤوس، وبين الأمير (بشه) والرعية من الأحرار مثل (اوزدن) وعامة الناس لهم وهم (الفلاحين) وفي مرحلة لاحقة وهم التابعين للأمير (ابشل).

أما بالنسبة للعادات المتعلقة بالمعتقدات الدينية تم تحديد العلاقة مع بداية عبادة المظاهر الطبيعية وكان الشراكسة يعتقدون بوجود إله أكبر اسمه (تحة) وكان من أبرز آلهتهم إله البرق (تحة شيبيله) وإن أبرقت المساء وأرعدت كان ذلك فألا حسنا ودليل رضا (إله البرق) فإذا انتصروا في الحرب قاموا بتقديم الأكباش السمينة قربانا له وإذا أصاب البرق مواشيهم، يقوم الرعاة بتعليق الحيوان الذي قتله البرق على شجرة أو عامود ويذبحون عجلا فداء لماشيته، ويطعمونه لأهل القرية في حفلات يتخللها أناشيد المديح والتقرب من (إله البرق)، وكانت العادة أن لا يبكي أحد أبدا حتى لا يغضب منه (الإله) وإله آخر هو إله الروح (تحة - بسه) كما كانوا يصيدون شجرة اسمها (كادوش) يتعبدون في ظلها، ويقال أنه كان لكل عائلة شجرة مقدسة، فإذا نوى شخص القيام بعمل هام كان يذهب إلى الشجرة المقدسة ويدعو طالبا منها التوفيق والنجاح فإن نجح يقيم حفلة تحتها ويعلق على أعضائها المأكولات، وإن عاد مخذولا حقد عليها وقام بقطعها وحرقها، ويتخذ شجرة أخرى للعبادة.

وبالنسبة (للموتى) فكانت العادة ان تفرغ احشاؤهم وعرضهم على الناس لمدة اسبوع، إن كان من علية القوم وتجلس بجانبه زوجته (بدون بكاء)، كما تقف عند رأسه فتاة شابه تهش الذباب والحشرات. وبعد انتهاء مراسم العزاء كانوا يدفنون الموتى بكامل ملابسهم مع أسلحته وقسما من اشيائهم الثمينة ويقيمون على القبر (تل ترابي) يسمى (كورغان) وكلما كان التل كبيرا كان مقام الميت كبيرا.^(١)

وفي عهد انتشار المسيحية في بلاد القفقاس عامة ومنطقة (الشراكسة - الأديغة) خاصة في زمن حكم الامبراطور (جوستيان) البيزنطي في الفترة ما بين ٥٢٧ و ٥٦٥) كان الشراكسة يسمونه (جوستين) وكما لقب بالفارس (الانتي) أي الفارس (الأديغة) فظهر بين الشراكسة رهبان ورجال دين (شوجن). وسموا يوم (الاحد) يوم الله أي (تحه - مافه) ويوم الجمعة يوم (مريم) أي يوم مريم (مافه) فظهرت عادات جديدة تتناسب مع الديانة المسيحية، فمثلا عند وفاة شخص ما كان يوضع مقص مفتوح فوق بطنه، وتضع المرأة بعد انتهائها من عجن العجين إشارة صليب (+) فوق العجينة، ولتجديد الصداقة بين شخصين تخاصما كانا يذهبان إلى المعابد الجبلية في بلاد القبرطاي واسمها (الجولات) لتجديد الصداقة بينهما، وايضا فإن عادة عدم الزواج من الأقارب قد يعود إلى تعاليم السيد المسيح... وهكذا.

وفي الفترة ما بين (١٦٨٤-١٧٥٠) ظهر المفكر والفيلسوف الشركسي الكبير (قازنوقه جباغي) في منطقة القبرطاي، وكان من طبقة العمال الذين يعملون في خدمة الامير (البشه) فأحببه الامير ومنحه الحربة وتبناه فأرسله إلى منطقة (البقر) وهو في الرابع من عمره ليعيش في كنف أحد النبلاء "الاتالق" وتحت إشراف مباشر من قبل شخص يتميز بكل الصفات الجيدة من علم ودين وخلق، فكان لهذا النبيل الاثر الاكبر في بناء شخصية (جباغي) في هذه المرحلة المبكرة من عمره فعاد إلى قبيلة القبرطاي عام ١٧٠٠ تقريبا وهو فارس ملم بالعادات والتقاليد وأصبح ذو شهرة عظيمة وهو ما زال في سن الخامسة عشرة من عمره وتكونت شخصيته الفذة من مرافقته للأمير "حتوقشوقه" وحضوره مجالس واجتماعات النبلاء والامراء.

واستطاع اقناع الامراء بوضع قواعد لتهديب بعض العادات القديمة والتي لم تعد تتناسب مع مبادئ الدين الاسلامي. ومن هذه القواعد التي وضعها (جباغي) هي:

- الدعوة لإنهاء الطبقية في المجتمع الشركسي عامة ولدى القبرطاي خاصة.
- احترام المرأة وإيقاف تعدد الزوجات.
- احترام واعتبار العمل شرف والوسيلة الوحيدة للكسب الحلال وكل من لا يعمل فهو ليس بإنسان شريف.
- لا فرق بين ما يتم كسبه عن طريق النهب والسلب وما يتم كسبه عن طريق السرقة وكلاهما حرام.
- إن ما تقوله الاغلبية هي الحقيقة وما تفعله الاغلبية هي العادة.
- وقام (جباغي) وبعد اقناع الامراء بوضع قواعد لتهديب بعض العادات القديمة والضارة بالمجتمع وكان على الجميع مراعاة هذه القواعد.
- وفيما يلي بعض هذه القواعد الجديدة التي وضعها (جباغي):
- احترام المرأة ولا يجوز القيام بعادة الخطيفة بدون موافقة الفتاة.
- لا يجوز تناول المشروبات الروحية والقيام بأعمال مشينة تزعج المواطنين.
- على الصغار احترام الكبار.
- الدفاع عن الوطن واجب مقدس على جميع المواطنين دون استثناء، ومن يتخلف عن هذا الواجب يحق من قبل المجتمع.

- الاتحاد والتعاون هما من اسباب القوة، فعلى الجميع السعي للاتحاد والتعاون.
- على أمراء ونبلاء القبردي التخلص من غرورهم والانفتاح على المجتمعات الاخرى، وبناء الصداقات مع زعماء هذه المجتمعات وعليهم ان يعلموا ان مصير شعوب شمال القفقاس مصير واحد.
- كما ركز (جباغي) على اهمية التمسك بالعادات وان مخالفة تلك العادات والقيام بأعمال منافية لها هو (عيب كبير) وقد رسخ في نفوس الشعب الشركسي مفهوم العيب (حينابه) وحفره في عقولهم، وأصبح لهذه الكلمة مفعول كبير جدا، وبدأ ينشر أفكاره في منطقة القبرطاي وفي جميع المناطق الشركسية الاخرى في شمال القفقاس مقدما الامثلة والحكم التي تعبر عن القيم الشجاعة والرجولة نذكر منها:
- كل عمل له قيمة، ولكن على الانسان ان يختار عملا يتقنه.
- لا تدر ظهرك لعدوك مهما صغر.
- لا تقم بعمل وأعصابك ثائرة حيث أنك ستكون بدون أي منطق في هذه الحالة.
- لا تتهرب من الحقيقة وقل الحقيقة حتى وإن ادت إلى موتك.
- احترام العادات والتقاليد واحترام بعضنا بعضا ضرورة.
- لا تتجرف خلف اهوائك مثل أوراق الشجر الجافة التي تتقاذفها الرياح.
- كونوا دائما بجانب الخير والصدق فإن ما لم يمنحه الخير لن يعطيه الشر.
- فكر وتكلم، وانظر جيدا واجلس، وتأكد دائما من موطيء قدميك.
- الكبار أعمدة البيت واحترامهم واجب.
- إن نهاية الأشرار دائما الهلاك.
- لا حدود زمنية للصداقة الحقيقية.
- إن النبل في جوهر الإنسان وليس في اسمه.
- وكانت آخر اقوال (جباغي) وهو على فراش الموت:
- عليكم احترام النساء.
- يجب انهاء جميع قضايا القتل خارج المحاكم ومعاقبة القاتل من قبل القضاء ونبذ عادة الثأر.
- يجب ان لا يستبيح الاقوياء حقوق الضعفاء.
- يجب ان تعرفوا اعداءكم جيدا.
- وكانت لأفكار الفيلسوف (جباغي) الفضل الأول والأخير لتتقيح العادات القديمة، وتكيفها بما يتناسب مع مبادئ الدين الاسلامي الحنيف اولا، وبما يتماشى مع روح العصر الذي كان سائدا أواخر القرن الثامن عشر ثانيا، ثم بما يتوافق مع الروح القتالية التي كانت تتطلبها الحروب التي كان يشنها جنود التتار وقياصرة الروس ثالثا.

فمن هو قازانوقوه جباغى



تمثال قازانوقوه جباغى

هو الحكيم والفيلسوف الشركسي الذي عرف بسعة أفقه، وعمق تفكيره، بحيث تمكن من حل معضلات كثيرة جابهت الحكام عامة والناس خاصة، وتناول مختلف شؤون الحياة، وأمن الوطن القومي حيث كان (قازانوقوه) يعالج كل ما يستثار به بتأن وروية ويعمل دون تحيز أو محاباة، فيخرج بأحكامه العادلة التي أَرْضَت الجميع (الرابع منهم والخاسر) محاولاً في ذلك ترسيخ المبادئ القومية، وتدعيم روح التسامح، وإحلال الوثام محل الحقد والبغضاء، ولعلنا نلاحظ فيما نقل إلينا من أحكامه وحكمه ملامح من شخصيته الفذة، حيث كان قادراً على الإقناع وعلى نزع فتيل الشر في أحلك الظروف. وإخماد نار الثأر بين العائلات والقبائل، مستثيراً في النفس النزعات القومية وكان (قازانوقوه) نظرة شمولية أدى إلى اكتساب المحبة والتقدير العام فقربه الامراء والحكام وأحبه عامة الشعب. كما نال تقدير كافة شعوب القفقاس من شركاسة وشيشان وانجوش وقرشيه.

وعمل خلال حياته مع عدد كبير من حكام القبردي مثل الأمير (أرسلان قيتوقه) والأمير (حتوخجوقه) وقد اسند إليه منصب القاضي العام في منطقة القبردي، وعندما مرض (قازانوقوه) وأحس بدنو أجله طلب إعادته إلى قريته على ضفاف نهر (شروج) حيث أمضى معظم أيام حياته وأوصى بدفنه على تلة فيها كانت مكانه المفضل للاستجمام والراحة، وطلب ان يقيموا له نصبا فوق قبره.

ونفذت وصية الحكيم، إلا أن الشعب الذي أحبه اصر على تخليده في أكثر من موقع حيث اقيم له نصب تذكاري في المكان الذي عمل فيه مع الامير (حتوخجوقه) في قرية "زيقوه" اليوم. وأقيم له نصب ثالث على تلة تدعى (أوشحة تسج) حيث كان يعقد عليها الاجتماع العام لكافة قبائل القبردي.

أما النصب الرابع فقد اقيم في قرية (قانجة) حيث كانت تقع على مفترق طرق. كل ذلك ليكون "قازانوقوه جباغى" قريباً بأفكاره ومثله من الشعب الذي أحبه.

ولعلنا ننصف "قازانوقوه" حين نقول أن خلوده في ذاكرة الشعب الشركسي يعود أولاً وأخيراً إلى شخصية (قازانوقوه) نفسه وإلى مصداقيته في التعامل وأمانته في خدمة شعبه وإلى إنسانيته التي تركت بصماتها على وجه الزمن.^(٣)

وأما (رايا مامخيغ) والتي تعتبر افضل من كتبت عن العادات الشركسية القديمة وعن نشأتها وتطورها وتطبيقها في الوطن الأم. حيث تقول بأن: (أديغا نيميس) و (أديغا خابزة) هما في المضمون شيء واحد، وبحسب تصورنا فإنها ما هي إلا مجموع النظم والعادات التي يتقيد بها الشركاسة في حياتهم وتصرفاتهم، كما تقول لقد أوجد الشركاسة مجموعة هذه العادات الشائقة والمعقدة والمدروسة بكل عناية لتحيط بكل جوانب المجتمع بشكل مدهل، وبكل جوانب الحياة والنشاطات، وتأخذ بالاعتبار التعقيدات والعلاقات المتبادلة في الأسرة والمجتمع وحتى على مستوى الدولة.

لقد لعبت (الاديجا خابزة) دوراً هاماً في حياة الشركاسة، ومع ذلك فقد انتقلت من جيل إلى آخر شفهيًا، على الرغم من ان الشركاسة كانوا يبدون اهتماماً كبيراً بالتقافة والعلوم وحب المعرفة للحياة الانسانية^(٥).

وتعرف (مامخيغ) (الاديغا نيميس) بأنها مجموعة العادات والتقاليد (إتيكيت)، وكلمة إتيكيت مشتقة من الكلمة اليونانية *ethos ethika* وهي تعني العادات. وللتعريف العلمي للحدود الاخلاقية للاتيكيت نسوق قول ارسطو طاليس الذي تضمن:

"يعتبر الفلاسفة ان الاتيكيت تشكل بطريقة عفوية من خلال العلاقات الاجتماعية للناس، وقد ظهر نتيجة الفصل بين انشطة النظريات الدينية والتطبيقات المادية في الحياة، وكان على الاتيكيت ان يحل المشاكل ذات الطابع المهني العملي الاخلاقي التي تواجه الناس في حياتهم، كيف يجب ان نتصرف؟ ما الجيد وما الذي يعتبر شيئاً ما مهم للإنسان وما الغاية من حياته؟"

أما في قاموس الكلمات الاجنبية في اللغة الروسية فقد ورد أن الاتيكيت هو: "... النظام الموضوع بدقة حول طريقة التعامل خلال العهود الاقرب إلينا كما نجد كلمة إتيكيت في (قاموس الاتيكيت): "بأنها مشتقة من الكلمة الفرنسية، *etiquette* وهي مجموعة قواعد السلوك المرتبطة بظاهر العلاقات وفيما يخص التعامل مع الناس والتعامل مع الوسط المحيط، واسلوب لقاء التحية، وكيف تتصرف في الاماكن العامة، وكيف تتحرك وماذا ترتدي..." أي إن الاتيكيت هو مجموعة جزئيات السلوك الظاهري في المجتمع الذي يشكل (الثقافة الخاصة بالسلوك).

ومن وجهة نظر أخرى، فإن كلمة (نمس) ربما كانت مشتقة من الكلمة العربية (ناموس) وانها تعني الجدارة والسمعة الحسنة والقُدوة والاحترام، وعند الشراكسة تستعمل هذه الكلمة لإعطاء تصور عن شخصية المرء، ويقولون بأنه شخص (لبق مربى بحسب الاصول)، ويعمل بما يقتضيه الناموس، ومؤخراً صار غالباً ما يقال وللأسف شاع تعبير "إنسان بلا ناموس أو قيم".

وكما قال المثل الشركسي القديم: "حيث لا يوجد الناموس لا توجد السعادة أيضاً" (٥).

المصطلحات القومية التي تعبر عن مفهوم العادات والتقاليد الشركسية

نستنتج مما تقدم بأن الشراكسة منذ عهد الاجداد يستخدمون (أربعة) مصطلحات قومية للتعبير عن مجموعة العادات والتقاليد والاعراف والقيم القومية الشركسية وهي:

المصطلح الاول: هو أديغة خابزة أي العادات الشركسية

ويمكن تعريفها، بأنها الاعراف والقيم والمعتقدات والاتجاهات التي تنظم سلوك الشعوب الشركسية منذ القدم وتوضع لها قواعد لتنظيم الامور السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والفنية... إلخ لتصبح مع مر الزمان في قوة القانون والدستور (غير المكتوب). وان هذه القواعد هي نتائج جميع القضايا المتعلقة بحياة الناس على اختلافهم رجالاً ونساء كباراً وصغاراً، حكاماً ومحكومين، متقفين وغير متقفين. كما هي التي تنظم العلاقات بين الزوج والزوجة، والابناء والآباء، والكبار والصغار كما أنها تنظم المراسم المتعلقة بالزواج او الولادة او الموت كما تحدد اسلوب تربية الاولاد وتوزيع الادوار الاجتماعية بين الرجال والنساء.

المصطلح الثاني: هو اديغة "تمس أو ناموس"

وهي مجموعة العادات والتقاليد التي تتعلق (بالاتيكييت) وهي العادات التي تتعلق بأداب التعامل مع المرأة والاكبر سناً ومع الضيف، وهي الآداب التي تتضمن قيماً اخلاقية منها احترام كبير للآخرين، ومن العار ان يوصف الشخص الشركسي بأنه بلا (ناموس) أي لا قيم له. أما الشخص الذي يتمتع بعادات مرتبطة (بالناموس) فهو شخص لبق تمت تربيته حسب (الاصول).

المصطلح الثالث فهو: اديغة نابه

وتعني حرفياً (الوجدان والضمير أو الشرف الشركسي) ويفسر ذلك بأن الوجدان كتصنيف اخلاقي ليس صفة لفئة معينة من الناس بل لكامل الأمة، ولذلك لا يزال حتى يومنا هذا يستعمل لدى الشراكسة تعابير: (ضمير الامة والشعب والقبيلة أو العشيرة) (بلا شرف، بلا ضمير، عديم الوجدان).

وكلمة (نابه) وبحسب ورودها في النص يمكن ان تعني (ضميرا او وجدانا أو شرفا) ويقال: "ذو ضمير، انساني، اخلاقي، مستقيم) وفي التعابير القديمة المستعملة لدى الشيوخ وكبار السن يقال:

"لنأمل ان يكون لقاؤنا في العالم الآخر بأصفي (ضميرا ونية) وان نلقى الله (بوجوه بيضاء) فإذا ما تصرف احد ما بشكل غير لائق يقول الشركسي: يا للعار يا للفضيحة التي جلبتها. وإذا ما وقع احد ما في موقف حرج وشعر بالخجل فيقال عنه: إن هذا الشخص فقد الاحترام والاعتبار وأصيب بالعار واسودّ وجهه ونال الخزي وافتضح امره.

لقد أولى الشركاسة منذ القدم اهتماما جديا لهذا الرقي من الصفات الانسانية كأمور وجدانية وكانت صفة احمرار الوجه (خجلا) هي صفة محمودة إذا ما حدث وتصرف المرء بشكل شائن والانسان الذي يحمر وجهه خجلا يكون قد اعترف بتصرف ما كان يجب عليه عدم القيام به، ومثل هذا الشخص مؤهل لأن يرفع من مستوى اخلاقياته ويطورها ويرقى بنفسه روحيا.

لقد كان الشركاسة يثقون بالرجل صاحب الوجدان والضمير الحي، ذلك أن الضمير هو الذي يراقب الانسان، وهو الذي يذكره بالتزاماته تجاه الآخرين.

وكثيراً ما نسمع في اللغة الشركسية تعابير مثل: "بحسب ما يراه ضميرك، إذا سمح لك ضميرك، ضميرك يتحمل بقدر ما تسمح انت".

المصطلح الرابع: اديغة- له أو (أديغال) ومعناها (رجل شركسي بحق وحقيقة)

ويجب أن يتصف الرجل الشركسي الذي يستحق هذا اللقب أن يكون:

- كامل الرجولة، شجاع، مقدام، جريء.
- يتمتع بروح معنوية عالية معطاء قادر على التضحية في سبيل الوطن والآخرين.
- لديه حكمة قادرة على معالجة الامور بموضوعية وتجرد.
- قادر على التصرف بلباقة وكياسة وأدب مع النساء أولا ومع الاكبر سنا ثانياً.

وخلاصة القول، فإن الرجل الشركسي الذي يطبق العادات والتقاليد والاعراف التي تفرزها (الاديغة خابزة) وكذلك الذي يحافظ على (الاديغة نابه) بضميره الحي وبمحافظة على الشرف وبقدر تمتعه بالقيم الاخلاقية فإنه رجل يستحق ان يكون (اديغة - له) بمعنى انه رجل شركسي بحق وحقيقة^(٥).

نستنتج من استعراض نشأة وتطور العادات والتقاليد الشركسية الحقائق التاريخية التالية:

الحقيقة الاولى: ان اجداد الشركاسة وضعوا القواعد لتنظيم حياتهم اليومية والتي اصبحت فيما بعد عادات وتقاليد كما كانت السلطة بيد الامهات ابتداء من العصور الحجرية، ثم تغيرت هذه العادات وخاصة ما يتعلق منها بالزواج والميراث وادوار كل من الرجل والمرأة بعد ان تحولت السلطة إلى الاباء في العصر البرونزي في الالفية الثالثة قبل الميلاد.

الحقيقة الثانية: ظهرت العادات المتعلقة بالمعتقدات والفكر الديني مع بدء عبادة المظاهر الطبيعية مثل عبادة ظاهرة (البرق) وعبادة إله اسمه (شبله تحه)؛ أي إله (البرق) وغيرها من عشرات بل المئات من آلهة المظاهر الطبيعية.

الحقيقة الثالثة: تغيرت وتبدلت العادات والتقاليد القومية الشركسية بعد اعتناق اجداد الشركاسة للديانة المسيحية في عهد الامبراطور البيزنطي (جوستنيان) في منتصف القرن السادس الميلادي، فتخلّى أجداد الشركاسة عن بعض العادات والتقاليد التي تتعارض مع تعاليم الدين المسيحي و اضافوا عادات وتقاليد اخرى تتوافق مع تعاليم هذا الدين.

الحقيقة الرابعة: عندما انتشر الدين الاسلامي في بلاد شمال القفقاس، واعتنق اجداد الشركاسة الدين الاسلامي الحنيف ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي وحتى القرن الثامن عشر وبالتحديد حتى

عام (١٧١٧) وهو العام الذي قام به خانات القرم بالقضاء على رجال الدين المسيحي في بلاد الشراكسة عامة وفي بلاد القبرطاي خاصة تغيرت بعض العادات الشركسية التي تتعارض مع تعاليم الدين الإسلامي.

الحقيقة الخامسة: ربما كان آخر تنقيح ومراجعة للعادات والتقاليد الشركسية القومية قد تمت على يد المفكر والفيلسوف الشركسي (قازنوقة جباغي) الذي عاش في الفترة من (١٦٨٤-١٧٥٠) حيث استطاع اقناع الامراء تهذيب بعض العادات القديمة والتي لم تعد تتناسب مع مبادئ الدين الاسلامي اولا، وضرورة انتهاء الطبقة في المجتمع الشركسي ثانياً.

■ العادات والتقاليد الشركسية من وجهة نظر الرحالة والكتاب الاجانب

ربما كان خير وصف للعادات والتقاليد الشركسية التي كانت سائدة في المجتمعات الشركسية في الوطن الام عامة ولدى قبيلة القبرطاي خاصة... هو وصف الجنرال الروسي ^(٦) (ايفان فيدروفيتش بيرغ) الذي رصد خلال عشر سنوات من حياته (١٨٣٠-١٨٤٠) المجتمع الشركسي حيث كتب واصفا حياة الشراكسة بقوله: "... إن الطاعة العمياء للأهل، واحترام الكبير وللطاعين في السن معمول بهما لدى هذا الشعب بمنتهى الدقة وإن الابن لا يبيح لنفسه الجلوس بحضرة والده، أو أن يجلس الابن الاصغر بحضور الاخ الأكبر سنا، وهم لا يتكلمون مع الأكبر سنا بحضور الغرباء، كما ان صغار السن المتواجدين بحضرة من هم أكبر سنا لا يتكلمون بصوت عال ابدأ، ولا يبتسمون، وعليهم فقط الرد عندما يطرح عليهم أي سؤال، وتفرض العادات على الأصغر الوقوف عند ظهور كبار السن رجالا أم نساء، حتى لو كان القادم أقل منزلة اجتماعية، ويمكن الجلوس فقط بعد ان يتوجه الشخص الذي وقفوا احتراماً له بقوله (ف. تسه) ومعناها (اجلسوا) ولا يمكن هنا أبدا تجاهل هذه التقاليد، وهم متعصبون جدا للحفاظ على هذه العادات الصعبة.

كما قال "... إن الشراكسة في حياتهم الخاصة ليسوا سيئين أبدا، ولا ينقصهم التفكير السوي، وهم مضيفون وأضياف، معتدلون ومتواضعون في طعامهم وتعاطيهم للشراب، مخلصون في صداقتهم، شجعان، مقدمون في الحروب...".

واستطرد قائلاً: ... وبحسب العادات المتداولة منذ القدم ليس للأمراء ان يقوموا بتربية ابنائهم في منازلهم أو بإشرافهم، وعليهم ما أمكن باكراً (ليس بعيداً عن زمن الولادة) إرسالهم ليتربوا في بيت آخر، أي بيت النبلاء (الاوزدن) ويبدلون قصارى جهده من أجل الحصول على هذا الشرف. والمنزل الذي يقع عليه اختيار تربية الأمير يعتبر ذلك ثقة كبيرة وشرفاً كبيراً لتلك الاسرة.

ويدعى المربي المختار في تلك الحالة (اتالق)، وعليه ان يعلم الشركسي ويطعم (المربي) حتى يحين موعد إعادته إلى أهله، وهو غالبا عند بلوغه سن الرجولة وبعد ان تكون تربيته قد تمت.

وتتضمن التربية المذكورة التدريب على مختلف الرياضات العضلية المجهدية، والتي تؤدي إلى القوة الجسدية والمهارة في ركوب الخيل وأساليب الإغارة والقتال العسكري والرمي بالقوس والبندقية والمسدد وغيرها، كما أن التربية تشمل أسلوب الحديث والمناقشة والمعالجة مما يساعده على التحدث في الاجتماعات واللقاءات العامة.

ولهذا الغرض يقوم المربي (الاتالق) بتدريب المربي لديه (القان) على كل ما يقوِي لديه البنية أو الذكاء، مستعملاً أحيانا بعض الحيل للتوصل إلى ذلك.

وعندما يبلغ المربي سن الشباب، أو كما يقول الشراكسة أصبح مستوعبا لفنون القتال، يعيده مربوه لأهله وذويه بوجود والده وجميع أقاربه، حيث تقام وليمة فاخرة (يؤكل فيها نوع من الحبوب) وتهدى إلى المربي (الاتالق) هدايا قيمة من الأسلحة والمواشي والجياد.

ويبقى المربي طوال حياته مجال احترام من قبل أسرة الشاب الذي تربي لديه، ويتعاملون معه كفرد من العائلة.

أما اطفال الاسر العادية فيتربون في كنف أسرهم أو أسر مشابهة لهم اجتماعيا، ويتدربون على الحراثة وليس على فنون القتال، وهذا بسبب النظرة السياسية والاجتماعية حيث يجب أن لا يشكل هؤلاء عند كبرهم خطرا على الأمراء الذين يرغبون بإبقائهم بمنزلهم كتابعين لهم (بشل).

وأما بنات الامراء فيتربن ايضا في بيوت أخرى، وتتولى تربيتهن نساء الـ (أوزدن) من النبلاء، حيث يخضعونهن إلى الطاعة العمياء، ويعلمونهن الخياطة والتطريز بخيوط الذهب والفضة وغيرها من الاعمال اليدوية، ولا يسمح لهن بالتحدث إلى الغرباء بل مع الـ (أهل فقط)، وذلك لا يعني انهن يعشن حياة الرهينة، وإذا ما اضطررن للرد على سؤال أحد الغرباء فإنهن تأدبا يقمن بذلك وقد استدرن بنصف دورة تقريبا وعيونهن مسبلة للأسفل.

ويلتقي الشباب من كلا الجنسين باستثناء سلالة الأمراء، ويتم ذلك في كافة التجمعات وبحضور الأهل، ويقضون اوقاتهم في الرقص وبممارسة الألعاب المختلفة، وهم بذلك يتعارفون من خلال طقوس القرية الذاتية.

ويستطرد قائلا: "لا تتمتع الفتيات الشركسيات فقط بشهرة الجمال الخلاب الموروث عن أسلافهن، بل إن لديهن ميزة هامة تتبع من المعطيات الروحية لهذا الشعب، ونحن نتكلم هنا عن عادة الاحترام والتقدير الفائق الذي يكنه الشراكسة للمرأة ويتمثل هذا الاحترام من توقف القتال فورا وانهاء سفك الدماء، ان قامت امرأة مكشوفة الرأس برمي نفسها بين فارسين يقتتلان خاصة إذا كانت المرأة متقدمة في السن أو من أسرة مشهورة.

وكذلك يكفي أي مطارذ ان يأوي أو يختبئ لدى امرأة حتى يصبح من المحرم المساس به، وكذلك لا يمكن ايقاع أية عقوبة به أو انتقام وخاصة القتل بوجود امرأة، وان كان من المتعارف عليه في أوساط الشراكسة أنه من العار اللجوء إلى حماية المرأة، ولذلك لا يلجأ إليها إلا في حالات نادرة.

وكذلك فإن كتابات الداعية السياسي الانجليزي الاصل (جيم بل) حول العادات الشركسية عامة وعادات كرم الضيافة خاصة خلال عيشه في المجتمع الشركسي في منطقة القبرطاي وتشركيسيا عام ١٨٣٧-١٨٣٩.. يقول في إحدى كتاباته:

"لقد ادهشني عدد الأشخاص ذوي الطلعة الجميلة، إن تقاطيع وجوههم الرائعة وقاماتهم المديدة، والصدور العريضة، والاكثاف المتينة مع خصور نحيلة، واقدام متوسطة الحجم، كل ذلك يضاف إلى العيون المشبعة بالحيوية بشكل مدهش..."

"... في أثناء وجودك هناك يمكنك القول بكل ثقة إن هؤلاء الرجال هم خير عطاء قدمته هذه الأرض..."

بعدها يتابع جيم بل:

"... إنهم لا يستعملون أية ألقاب عند التخاطب حتى إن التابعين يخاطبون رؤوسهم بأسمائهم المباشرة، وإنما لا تجري مخالفة التقاليد باحترام الكبار في السن والمستوى..."

"... لقد نسيت التذكير حول الشرف الرائع الذي منحني إياه مضيفي مساء البارحة، فبعد الصلاة (وبحضور عدد من الشهود بمن فيهم مترجمي) توجه صاحب الدار من عند المذكورين باتجاه منزله حيث قام أحمد (أي المضيف صاحب الدار) شخصا بالتضحية (بجعل صغير) من أجل توطيد الصداقة الاخوية بيننا، وقال لي: "عليك ان تعتبر نفسك منذ الآن فردا من أفراد العائلة التي على كل منا احترامها وحمايتها".

ويتذكر بيل منزل آخر كان يحل فيه ضيفا بقوله:

"... لقد استقبلني الاخ الأكبر لمضيفي بمنتهى الحفاوة القلبية وخاطبني باحترام كبير ولباقة مميزة قائلا:

"سوف نعتبر ان لدينا أما وإبا آخراً منذ الازل"، وقد قيلت منه هذا القول مع بعض التحوير المعنوي، ثم طلب مني (محمد) ان نتبادل ملابسنا كي أصبح أكثر شبها بالشراكسة، وهكذا قام بحشر

أكتافه العريضة ذات العضلات في معطفي الأنيق، بينما سعدت أنا كثيرا لشعوري بالارتياح الكبير وأنا ارتدي ملايسه الواسعة علي والمصنوعة من الجوخ الغامق، وكانت موشاة بالذهب والفضة عند الاكمام وخيطة على صدرها جيوب صغيرة للرصاص..

... أما عن غذائنا اليومي أو بالأحرى (أغذيتنا) فقد غطت على عشائنا البارحة، لقد حاولت لفترة طويلة ان أحصي عدد أصناف الطعام وكنت أخطئ في كل مرة، وقد قال لي خادمي فيما بعد إنني لم أر إلا جزءا يسيرا منها فقط بعد أن تأكدوا أننا "تغدينا" من فترة وجيزة فلم يقدموا الباقي. وقد لبينا دعوة العشاء مجازاة للعادات وتذوقت بعض اصناف الطعام حيث لم يكن بالامكان رفض هذا الشرف...

وقد أكد (خادمي) الذي كان يرافقني أنه رأى صفوفًا من الطعام على إحدى الموائد كأنها في تنظيم عسكري، وقد عد في إحدى المآدب (اثنتين وأربعين صنفًا)، بينما تكونت أخرى من خمسة وأربعين، ولقد تساءلت إن كانت مضيعة المنزل قد حاولت جمع المعلومات عن عدد الاصناف التي قدمتها جارتها...

ومما أثار دهشة (بيل) أيضا المشهد التالي الذي يذكره بكل إعجاب:

"... في الطريق خرج لاستقبالنا أحد الزعماء مرتديا درعا من الزرد، وكان مظهره عسكريا تماما، وسبقه مرافقوه للقائنا ثم ما لبث ان انضم إلينا شاب كان قد لاحظته سابقا حيث كان مميزا حتى عن ممثليه ببنيتة القوية وبحيوية، فقام هذا الشاب باستعراض مهارته أمامنا من فن قيادة الخيول وشهر السلاح في كافة حالات الركوب ورفع غطاء السلاح وإطلاق النار على قبة ملقاة على الأرض، إضافة إلى استعراض براعات أخرى كالقفز من السرج مع تعمر السلاح في وقت واحد أو خطف السيوف من اغمادها..."^(٧)

وكذلك فإن "بويكو" يقول في مقدمة كتابه (الخداع في القفقاس):

"... إن كلاسيكي الأدب الروسي قد فتدوا الاكاذيب بمؤلفاتهم الرائعة عن الصفات التي لا تنسى للقفقاسيين، ومن هؤلاء الكتاب أملات بيك، بستوجيف، مارلينسكي، كازبيتش، بيل، متسير، م، يو لير منتوف وآخرون."

ويمضي مؤلف (الخداع في القفقاس) أكثر من ذلك، حيث إنه وبكل صراحة يمتدح شعبا بأكمله وليس أشخاصا محددين بقوله:

"... كم أحب طبيعة الشرف البدائية لديهم، خذ الشركسي وتمحص فيه كإنسان، كم هو محب لعائلته، متدين ولا يعرف الكفر أو الالحاد على الرغم من المناسك القاسية لديانته، كم هو واع ومتفهم ومتواضع في متطلباته وحياته! إنه يؤمن بالصدقة ويحترم الحياة الروحية، كما يحترم كبار السن وبجل والديه، وأما عن الشجاعة فماذا يمكن القول وهي معروفة للجميع، كما انه ينصاع مغمض العينين لتقاليد القديمة التي تعتبر بمثابة القانون، وعندما يدعو الواجب الاجتماعي العام للتطوع فإنه يندفع بكل قواه هاجرا كل شيء، متناسيا عداوته وحتى ثأره وسفك الدماء الحاصل"^(٨)

وفي عام ١٨٣٣ كتب العالم المشهور (فريدريك) وهو جغرافي وعالم طبيعة وأثار عن مشاهداته في بلاد الشركاسة قائلا: "... إن الوضع الحالي للشركاسة يثير في الذاكرة صور الحضارة في أيامها الأولى في ممالك ألمانيا وفرنسا، حيث المظاهر الاقطاعية والنبلاء وأرستقراطيات العصور الوسطى والبطولات لدى وجهاء اليونان القديمة. كما ان الروح القبلية نامية للغاية وهي أقوى مما كانت عليه في المانيا وفرنسا، ويشكل الأمراء ونبلاء الريف والمحاربون وفلاحو الأراضي والاقنان طبقات المجتمع الشركسي الخمس.

ويتابع قائلا:

"إن سكان السواحل من الشركاسة طوال القامة، ذوو أجسام متناسقة وأنيقة، وهم يحرسون دائما على الحفاظ على هذا الجمال بشد خصورهم بالقشط الجلدية، ومشيتهم خفيفة ورشيقة، برؤوس

متطاولة وعيون داكنة، أما أنوفهم فهي دقيقة وجميلة، وعظام الفك طويلة وحسنة التوضع...". " ... من أكبر الاساءات في المجتمع الشركسي الزواج غير المتكافئ اجتماعيا". " ... وكما كانت الحال لدى (إسبارطة القديمة)، فإن المتزوج من الرجال لا يظهر امام الآخرين بصحبة زوجه ابداء، وهو يقابلها منفردا فقط، أما الحديث مع الزوج عن أمور تخص الزوجة فهو من قلة الادب والعيب. وإنما مع تقدم الأشخاص في السن يمكن ان يخف التقيد بذلك وينسب محدودة..".

كما يصف المآكل ونظام الحياة ومزاجهم وشدة تحملهم غير الطبيعية والصبر والجلد وعدم التذمر خلال اعمالهم.

وكذلك فإن جورجيو انتريانو الرحالة والجغرافي الايطالي وعالم دراسة تاريخ الشعوب: "إن هؤلاء الزيوخ (التسمية القديمة للشراكسة) جميلو الطلعة بغالبيتهم ومشوقو القوام، وقد تصادف في القاهرة في (مصر) اناسا متميزين بضخامة اجسادهم من المماليك والأمراء وهم بغالبيتهم كما يقال من هذه القبائل، ويمكن ذكر الشيء نفسه عن نسائهم اللواتي يعتبرن في تلك البلاد اكثر الناس إكراما للضيف حتى بالنسبة للغرباء.

ويكتب انتريانو عن المستوى الاخلاقي للشراكسة قائلا: "إن لديهم اعتقادا بأنه لا يجوز اعتبار أي انسان عريقا إذا ما وجدت مسموعيات عن قيامه بعمل شائن في وقت ما، حتى لو كان لدى هذا الإنسان سلالة عريقة ومن نسل القيصر نفسه".

وهم لا يرغبون في ان يمارس اتباعهم اية اعمال تجارية باستثناء بيع منتجاتهم الخاصة، كما يقولون بأن واجب الانسان العريق ان يفقد قومه فقط ويدافع عنهم، إضافة إلى ممارسته رياضة الصيد والتمارين القتالية.^(١٠)

وصف موجز لأهم العادات والتقاليد القومية الشركسية

وفيما يلي وصف موجز لأهم العادات والأعراف والتقاليد والقيم الشركسية التي تشكل مبادئ دستورية يلتزم بها الامراء والنبلاء واعيان القوم قبل عامة الشعب كما يطبقها الصغار قبل الكبار، ويتمسك بها كل من الرجال والنساء على حد سواء كما يطبقها الاغنياء قبل الفقراء.. وخلاصة القول بأن مجتمع الشراكسة اينما كانوا يلتزمون بها التزاما حرفيا منذ عصر الاجداد وحتى يومنا الحاضر .

ويمكن ايجازها في (احدى عشرة) مجموعة من العادات والتقاليد والاعراف وهي على النحو التالي:

المجموعة الاولى: وهي العادات والتقاليد المرتبطة باحترام المرأة الشركسية

قال الانثربولوجي رادكليف بروان: إذا كانت المرأة في الغرب تتمتع بحرية أكبر فالمرأة الشركسية تحظى باحترام أوسع.

والدارس للعادات الشركسية المتعلقة باحترام المرأة وحقوقها في المجتمعات الشركسية في الوطن الأم أو في بلاد المهجر يجد بأن أبرز هذه العادات هي:

- ١- تقديم المرأة على الرجل في المجالس عامة.
- ٢- وقوف الرجال إن كانوا جالسين عند مرور امرأة في الطريق العام او في أي مكان آخر.
- ٣- التحدث مع المرأة بأدب واستخدام تعابير خاصة تدل على الاحترام الشديد والتبجيل لها. وكانت العادة اذا تشاجر رجالان وحضرت امرأة ورمت منديلها يتم ايقاف الشجار حالا، ومن عاداتهم ايضا تحريم القتل تحت سقف بيتها أو بحضورها.
- ٤- احترام بل تحريم المساس بأي شخص أصبح دخيلا على امرأة مهما كان ذنبه أو جريمته التي ارتكبها.

- ٥- التوقف عن الحديث والوقوف عندما تبادر المرأة بالتحية، فالعادة أن المرأة هي التي تمد يدها للمصافحة.
- ٦- إن صادف رجل وهو على ظهر جواده، فلا يجوز له الاقتراب من المرأة بالجواد بل عليه التراجع عن الجواد والاقتراب منها ممسكا بالجام، ثم يلقي عليها التحية، ويرافقها ماشيا بضع خطوات ثم يتابع طريقه إن لم تكن بحاجة لمساعدتها.
- ٧- على الرجل الماشي إن صادف امرأة في طريقه أن يدعها تمر عن يمينه (لأنه يحمل سلاحه بالجانب الايسر).
- ٨- احتراما للمرأة جرت العادة أن لا يتجادل الرجال أو يتخاصموا أو يتعاركوا بحضور امرأة، بل إن العادة أن يتوقف عن كل ذلك عندما تظهر امرأة أو تطلب منهم ذلك.
- ٩- مراعاة حسن مظهر الرجال عند زيارة أو مقابلة امرأة (خاصة الجارات أو القريبات منه) كأن يظهر أمامها حافيا أو أشعث الشعر أو في ملابسه الداخلي... الخ.
- ١٠- تقديم العون والمساعدة للمرأة إن طلبت ذلك أم لم تطلب، خاصة إذا صدف أن كانت تقوم بجهد بدني أو عمل من أعمال الرجال مثل التحطيب أو حمل شيء ثقيل.
- ١١- ضرب المرأة من المحرمات في (الناموس) الشركسي وليس من الرجولة أيضا إهانة امرأة أو التحدث معها بألفاظ نابيه، وكل من يفعل ذلك كان يحاكم ويحاسب أمام مجلس الكبار (التحمادة) كما كان ينبذ من المجتمع.
- ١٢- من المحرمات حسب العادات الشركسية قتل امرأة (اية امرأة) وأكبر دليل على ذلك الحادثة التي ذكرها (جون بادلي) وخلصتها بأن المقاتلين الشركس كانوا يحاصرون موقعا روسيا ويطلقون النار عليه تمهيدا لاقتحامه، وحدث أن مرت أمامهم زوجة قائد الموقع، فتوقفوا عن إطلاق النار، وتراجعوا عن الموقع لأنه من أكبر العيوب والنقائص إطلاق النار على امرأة.
- ١٣- ومن عادة الاوانس الجركسيات أن لا يحتجن ما دمن غير متزوجات ويخالطن الرجال ويجلسن في مجالسهم ويرقصن معهم ويشاركن الرجال في أحوال كثيرة وكل هذا في دائرة الحشمة الوقار.
- ١٤- من عادة الشراكسة تعظيم النساء عامة والعرائس والاونس منهن خاصة، ونستدل على ذلك من حرص الجميع على منادة العروسة بـ (كوأشه نيسه) يعني العروسة السيدة، والوالدات المسنات بـ (كوأشه نان) يعني السيدة الجدة، والرجال بـ (زي ويس حن) يعني الذي "افندي" والأولاد الذكور بـ "دينه - نف" يعني نور العيون. كما كانت العروس تتنادي اخت (الحمي) بأسماء مستعارة تعبر عن مشاعرها الخاصة تجاهها مثل: "دشه" الذهب "أديغة"، الشمس "الف"، الضوء "داخة"، وحلوتي، وغير ذلك.
- وبحسب المبدأ نفسه كانت الكنة تتنادي أخت الزوج: بالرشيقة أو الخفيفة الحركة، يا ذات البشرة البيضاء، يا ذات الوجه الوضاء. (وكان البياض أحد أهم معالم الجمال لدى الشراكسة)، ولذلك كان اسم ببيضاء البشرة، البيضاء، يستعمل كثيرا كأسماء مستعارة.
- وايضا كلمة الرشيقة، سريعة الحركة، العذبة.. والمقصود هنا الجاذبية والنعومة واللفظ، وكانت تستعمل كذلك كلمات مثل (فاتنة العينين وذهبية العينين أو سوداء العينين وذات العينين الحور) وغيرها أو ببيضاء الوجه أو الحسناء ذات العيون الكستنائية.
- كما كان يختار لشقيق الزوج أسماء بحسب المبدأ ذاته: مثل الفارس، شاب نارتي، فارس مقدم، بطل... الخ.

أما والدا الزوج فعليهما أن تتاديهما بالجد والجدة أو (تحمادة) للجد أو "وكواشة" للجدة أو الحماية ولا يجوز ذكر اسمائهم الحقيقية أمام الآخرين من داخل العائلة أو خارجها.

ومن الاحداث والوقائع النادرة التي نستدل منها مدى قوة وتأثير العادات هي الرواية التالية: "حدث أن كانت امرأة شركسية تتلو القرآن حتى وصلت إلى موضع وردت فيه كلمة (حسن) وتلعثمت ثم قرأت (قرضا صاواتسوك) عوضا عن (قرضا حسنا) مع العلم أن المسلم لا يسمح له بتغيير الفاظ القرآن وإلا اعتبر ذلك خطيئة كبيرة، وبالنسبة لهذه المرأة فقد كان (حسن) اسم شقيق زوجها الذي لا يسمح لها حسب العادات بلفظ اسمه الحقيقي وهكذا فقد غيرت اسمه عامدة مفضلة تحمل إثم تغيير القرآن على إثم الانحراف عن العادات الشركسية.

تلك هي (مظاهر احترام المرأة الشركسية وحقوقها) حسب العادات والتقاليد الشركسية وبالمقابل فإن العادات تلزمها طاعة الوالدين طاعة عمياء وكذلك طاعة زوجها إن كانت متزوجة، وتقديم كل ما يلزم من خدمات لإسعاد الزوج، وأن تكون زوجة مثالية وأما وفيه وأن تقوم بكل متطلبات الحياة الزوجية والأسرية.

كما أن الامثلة الشركسية تؤكد على أهمية دور المرأة الشركسية عامة والزوجة خاصة، ومن هذه الامثال المأثورة .

- دار لا امرأة فيها كأرض بلا نبات.
- الحظ يأتي مع الزوجة الصالحة.
- المرأة الفاجرة تجعل زوجها يخرف "يصاب بلوثة عقلية" قبل الأوان.
- انظر إلى الام وتزوج الابنة.

المجموعة الثانية: وهي العادات والتقاليد المرتبطة باحترام كبار السن من الجنسين

ربما كان أفضل وصف للعادات المرتبطة بكبار السن هو ما قاله بعض الكتاب الروس والألمان حول مبدأ احترام الكبار لدى الشراكسة ونقتبس منه بعض الفقرات التي أوردها الكاتب الشركسي في الوطن الأم (ب. خ.) بغجنوقة.

ويقول مؤرخ القرن التاسع عشر الروسي المعروف برونشكي بأنه "لا يحق للفتى الجلوس أمام والده فقط، كما لا يحق له الجلوس بحضرة أخيه الأكبر أيضا، ولا يحق له مشاركة الكبار في أحاديثهم، وإذا ما كانوا في مجلس للكبار فعليهم أن لا يرفعوا أصواتهم في الحديث، أو الضحك، كما عليهم الاجابة بتواضع عن اسئلة الكبار".

ويقول العالم الألماني "كوخ" بهذا الصدد: "في الوقت الذي لم تكن فيه الحكومة الألمانية، وللأسف، تعير المسنين اهتماما كافيا، هؤلاء الذين يعتمدون في حياتهم على الشباب بشكل رئيسي، نجد أن شيوخ الشراكسة كانوا يتمتعون باحترام عام وكامل، ولم تكن الاساءة لهم تقابل باحتقار المجتمع فقط، بل وكان المسيء يعرض نفسه إلى عقاب يقرر في اجتماع عام وحسب اساءته".

وأما ضابط الجيش الروسي "ترناو"، والذي كان في أسر الكباردينين لمدة عامين (١٨٣٦-١٨٣٨) يقول في كتابه (الادبغة):

"للمر عند الجبليين (الادبغة) مكانة سامية، وعلى الشاب، وبغض النظر عن نسبه وأصالته القيام احتراماً لكل مسن ولو لم يكن يعرفه، وعليه أن يخلي له مجلساً ويقدمه له، ولا يجلس حتى يأذن له بذلك، كما أن عليه المحافظة على الصمت والهدوء امامه والاجابة عن اسئلته باختصار واحترام. وأن كل ما يعمل به الشاب في خدمة ذوي الشعور البيضاء تزيده شرفاً وعلواً، ونجد أيضاً أنه حتى المسنين غير المقتردين غير معفيين من هذه القاعدة".

واما الكاتبة الشركسية من الوطن الأم (مامخينغ) فنقول: "يولي الشركسي اهتماما خاصا بالكبار مثل: الأكبر في العائلة والأكبر في العشيرة، والأكبر في المجموعة وقد يكون الأكبر في السن أو في المنصب.

ومن المفيد ملاحظة ان كلمة (كبير) تستعمل في اللغة الشركسية بصيغة المفرد غالبا، مع التعدد في المفاهيم، وهذا يعني بالنسبة للشركسي أن كل كبير من الأهل أو غيرهم أو من الاقرباء أو المعارف أو حتى من غير المعارف له كل الحق بالاحترام، وعلى الشركسي أن يستمع للأكبر بشكل خاص وإلى أي ملاحظة يديها ويتقبلها كمعلومة، وأن يتقدم له بالشكر".

وتقول ايضا: "ومنذ وقت ليس بالبعيد كان لا يمكن ان نرى فتى أو فتاة شابة عبر عن رأيه أو مشاعره بشكل غير لائق، أو ان يتصرف بشكل غير مناسب، أو لا يتمتع بالمظهر المقبول، فقد كان أحد الكبار يدنو منه حتما ويحييه ثم يتعرف إليه من أية أسرة أو أية عشيرة هو، ثم يعبر له عن رأيه حول تصرفه، وما كان الشباب في تلك الحالة ليعترضوا، بل كانوا يصغون بكل انتباه حتى نهاية حديثه، ثم يعتذرون منه ويشكرونه على ملاحظته ويتوارون بأقصى سرعة".

وربما كان أحد مظاهر سوء (التربية) أو انعدامها هو اعتراض الأصغر سنا على ملاحظات الأكبر، أو إبداء أي شكل من أشكال عدم الرضا لملاحظاته.

كما يجب أن نلاحظ ان آداب المخاطبة عند الشراكسة تتضمن صيغة الجمع ولا توجد مفردات خاصة بالكبار، أي يؤخذ بالاعتبار ايضا تغير لهجة ونبرة الحديث وغيرها من الأساليب اللغوية الأخرى المعبرة عن الفكرة المطلوبة مثل:

(الوقفة، النظرة، ترادف الكلمات المستعملة، وتيرة الصوت)، وإليك مثلا كيف يعامل الأكبر سنا وفقا للعادات الشركسية:

- لا يمر احد قاطعا الطريق من أمامه ولا بأية حال، بل يتوقف الأصغر سنا حتى يعبر الأكبر سنا طريقه.
- لا يقطع حديثه أبدا ولا يتكلم أحد بصوت مرتفع بحضور الكبار، ولا يثار أي ضجيج ولا يتمادون في المزاح، أو العراك أو الجدال أمامه فذلك كله غير وارد نهائيا بوجود الكبار.
- للأكبر سنا أفضل الأماكن على مائدة الطعام وفي أي المجالس ووسائل المواصلات.
- لا ينادي على الأكبر سنا في الطريق لسؤاله عن شيء ما، بل يسير خلفه وكذلك لا يتجاوزوه.
- يخصص للأكبر سنا المقاعد الأمامية وهي ابعد زاوية عن الباب وفي أثناء المسير يرافقه الاصغر سنا، وعادة يمشون معه وفق الترتيب التالي:
- إذا ما كان المرافق واحدا فإنه يمشي عن يسار الأكبر ويبقي له الطرف الايمن خاليا، أما إذا كانوا ثلاثة فإن الأكبر يمشي في الوسط وعن يساره من يليه في السن والأصغر عن يمينه، وكان هذا ملائما من حيث انه إذا ما دعت الحاجة إلى تكليف أصغرهم بأمر ما وبقي اثنان، لم يكن ثمة حاجة إلى تبادل الأماكن في السير.
- وإذا ما سأل احد الكبار في الطريق من هو أصغر منه عن مكان ما، فلا يجوز الإشارة بالإصبع أو الشرح، بل كانوا يقومون بمرافقته إلى حيث يريد ويتابعون سيرهم، ولكن حتى الكبار في السن كانوا يتوجهون بمظاهر الاحترام عند لقائهم أشخاصا معتبرين اجتماعيا كأبطال للأمة والذين هم قدوة للآخرين كافة.

ويكتب عن مثل ذلك "ت. م. كيراشيف" في روايته (ابنة الشابسوغ) قائلا:

... لاح له في الطريق بمواجهته فارس ما، وتبين له أنه فلاح عجوز، وعندما اقترب كل منهما من الآخر توقف العجوز وترجل عن جواده، وتوجه إليه ماشيا جارا جواده خلفه، معبرا بذلك عن احترامه للضيف الذي يبدو أنه قد عرفه، وأسرع الضيف إليه أيضا قائلا له:

- وصولا ميمونا (حاتخه محمد)، بادر العجوز، فرد الضيف: أطل الله في عمرك.
- وكان (حاتخه محمد) نجما مشهورا لدى الشابسوغ، قائدا لمجموعة مقاتلة، وقد نظم الشعراء من الأغاني والأساطير حول بطولاته وشجاعته.
- وبعد تلك التحية قام (الشيخ) بكل احترام بمساعدة الضيف على امتطاء حصانه، ممسكا للجام بإحدى يديه والركاب بالأخرى، وتقديرا للضيف المجيد قام (العجوز) بالالتفاف ومرافقة الضيف سائرا عن يساره.
- وبعد مضي بعض الوقت أوقف (حاتخه محمد) جواده وشكر العجوز لما أبداه له من الاحترام، وطلب منه متابعة طريقه إلى حيث كان يبغي...
- استشارة الكبار في السن في العائلة الواحدة والأخذ برأيهم، وعدم ازعاجهم، والقيام بخدمتهم شخصيا مثل قص الاظافر وتمشيط الشعر، وإطعام الكبير في السن ومرافقته في نزهة خارج المنزل وحتى النوم معه ليلا في غرفته أو حتى في فراشه ان كانت صحته تسمح بذلك.
 - وفي موائد الطعام يخصص للكبير سنا أفضل الطعام خاصة قطع اللحم أو الدجاج.. ولا يبدا الطعام إلا بعد أن يسمح بذلك الاكبر سنا على المائدة.
 - لا يقوم أحد من الابناء أو الاحفاد بالتدخين أمامه وبحضوره وقد يصبح عمر الابن ستين عاما ولم يقم بالتدخين امام والده.
 - إن دخل احد كبار السن مكانا أو مجلسا تعطى له الصدارة، وكان أحد ابنائه أو احفاده مشاركين في الحفلة ينسحبون فورا ويقفون بالصفوف الخلفية خاصة في حفلات الرقص الشركسي.
 - من مظاهر احترام الكبار، الحادثة التي اوردها احد المسنين من شراكسة المهجر في تركيا الحادثة التالية:

"لاحظ احد الشبان ابنه في اثناء لعبه وقد اقترب من حافة منحدر خطير وتعلق به خشية السقوط، وعلى بعد خطوات توقف بعض كبار السن دون ان ينتبهوا إلى ذلك، فما كان من الأب إلا ان اقترب من الطفل ووطأ بقدمه على قميصه مانعا إياه من السقوط إنقاذاً لحياته، دون ان يهرع لحمله بين يديه بوجود المسنين".

المجموعة الثالثة: وهي العادات المرتبطة بالتربية القومية الشركسية

ربما كانت العادات المرتبطة بالتربية القومية لدى الشراكسة من العادات التي اعطت خصائص مميزة للشخصية القومية الشركسية من الجنسين... إن الانظمة التربوية التي كانت سائدة في المجتمعات الشركسية منذ عصر فجر التاريخ وفي العصر الحديث كانت انظمة تنفرد بها الأمة الشركسية منذ عصر الاجداد... وان أحدا من المؤرخين لم يذكر بأن شعبا أو قوماً من الاقوام القديمة كان لديها انظمة تربوية مشابهة للانظمة التي كانت سائدة لدى الأمة الشركسية وان كان اليونانيون في عهد (اسبارطة) يتبعون نظاما تربويا مشابها للنظام التربوي الشركسي المسمى (تربية الاتالق) إلا أن الدولة هي التي كانت تقوم بتربية اطفال في اسبارطة وليس الاشخاص أو العائلات كما هو الحال في النظام التربوي الشركسي.

وللوقوف على العادات المرتبطة بالنظام التربوي القومي الشركسي قمنا بمراجعة بعض الدراسات التي قام بها بعض المهتمين من الباحثين الشراكسة منهم دراسة (يخول) ولخص لنا المراسم المرتبطة بتربية الطفل منذ الولادة وحتى نهاية السنة الاولى من عمره.

وبتحليل هذه الدراسة توصلنا إلى أن الشراكسة كانوا يولون المراسم المرتبطة بكل مرحلة من المراحل العمرية منذ السنة الاولى من ولادة الطفل والتي تضمنت اربعة انواع من المراسم وهي على النحو التالي: (١١)

- (١) مراسم مرحلة الولادة: وتتم في الشهور الستة الأولى وهي المرحلة التي يتم فيها وضع الطفل في (الكوشة) أي سرير الطفل الخشب الهزاز.
- (٢) مراسم اطعام الطفل: وتبدأ بعد ستة أو سبعة أشهر من عمر الطفل حيث يتم فيها تقديم طعام اضافي للطفل مع حليب الرضاعة وعندما يصبح عمره سنة يقدم له طعام الكبار تقريباً.
- (٣) مراسم مشي الطفل، وفيها يتم تفصيل لباس أحمر جميل ويزين بألوان مزركشة بهدف الهاء الناظر للطفل بهذه الزركشة وابعاد عين الحسد عنه.
- (٤) مراسم مرحلة قص شعر الطفل: وكانت العادة قص شعر الطفل لأول مرة وعلى (الصفير) باحتفال خاص عندما يبلغ عمره سنة... وتقديم الطعام للحاضرين في هذا الاحتفال.
- * عادة إرضاع الطفل من نساء شركسيات من جيران الأم أو من اقربائهن بهدف توسيع صلة الاخوة بين ابناء الشراكسة.
- * عادة تربية ابناء الامراء والنبلاء^(١٢) عند مربين من الدوق او النبلاء ويسمون (الاتالق) والطفل الربيب يسمى (قان) .
- * عادة ابعاد الطفل عن والده، وعدم مداعبته ولا يأكل معه حتى طفولته المتأخرة وتركه مع أمه ومع المربين بالنسبة لأبناء الأمراء^(١٣).
- * عادة تربية الفتيات على السلوك الذي يجب ان يسلكوه بعد زواجها وعلى الاسلوب الذي يجب ان تتبعه في تعاملها مع الحماة والحماية وكبار السن في أسرة الزوج.^(١٤)

المجموعة الرابعة: وهي العادات والتقاليد المتعلقة بالزواج عند الشراكسة

ربما كان (الزواج) من أكثر مكونات حياة الشراكسة منذ القدم تنظيماً وانضباطاً وفق احكام العادات والتقاليد وبما يتماشى مع تعاليم الدين الاسلامي الحنيف وربما كان الشاعر الروسي (مينتوف) افضل من وصف بعض العادات المتعلقة بالاعراس في رواية، له حيث كان شاهد عيان وقد دون ذلك بأسلوبه الشعري قائلاً: يقرأ، "الملا" آيات من القرآن قبل كل شيء، ثم تقدم الهدايا للعروسين واقربائهما جميعاً، ثم يأكل الناس ويشربون (البوزا) ويقصد بها (الباخسة) ويبدأ استعراض العاب الفرسان بشخص قذر يرتدي اسمالاً من الملابس، فيمتطي حصاناً أعرج ويقوم بحركات مضحكة يسلي بها الناس، حتى إذا جاء المساء بدأ في القاعة شيء يشبه أن يكون حفلة رقص، ثم يأخذ رجل عجوز بالضرب على الاوتار الثلاثة من آلة موسيقية، فينهض الشباب والصبايا ويصفقون صفين متقابلين ويصفقون، ثم يتقدم إلى وسطهم فتاة وفتى يتناشدان بصوت رتيب ما يخطر على بالهما من أبيات يرددها الناس بعدهما كأنهم جوقة" ويتابع (مينتوف) روايته قائلاً: "عرف الزواج (بالخطف) عند كثير من الشعوب ومنهم (الامرئيد) في امريكا الشمالية حيث تخطف العشائر زوجاتهم، ويتم ذلك في حفلات صاخبة يشارك فيها رجال العشيرة التي (خطفت) منهم الزوجة، وهذا النوع من الزواج يوافق عليه المجتمع شريطة ان لا يكون للخاطف علاقة سابقة بالزوجة المخطوفة قبل زواجهما. وتسمى هذه العادة عند الشراكسة القدامى (الخطف بالفروسية).

وفيما يلي تحليل لأهم العادات والتقاليد المرتبطة بالمراحل المختلفة للزواج في المجتمعات الشركسية منذ القدم وحتى العصر الحديث.

العادات المتبعة بتعارف الشاب بالفتاة الشركسية:

وفيها يتم التعارف بين الشاب والفتاة وتسمى مرحلة (البسة - لوخ) وترجمتها الحرفية (البحث عن الروح) إلا ان معناها الحقيقي هو البحث عن شريك أو شريكة حياة وهي بمثابة البحث عن الروح.

ويتم التعارف عادة في (بيت) الفتاة حيث تسمح العادات الشركسية بأن يزور أي شاب شركسي أي (بيت) شركسي والالتقاء مع أية فتاة بحضور شقيقتها الصغرى أو إحدى صديقاتها وأحياناً بحضور الأخ الأصغر (وليس الأخ الأكبر) لأن العادة أن لا يحضر مثل هذه اللقاءات (الأب أو الأم أو الأخ الأكبر... الخ).

وإذا تم التعارف وأصبح هناك نوع من الإعجاب المتبادل تصبح الفتاة بمثابة خطيبة أو (قشن) غير رسمي وبعد تكرار الزيارات بمعرفة أهل الفتاة (وليس بالضرورة أن تتم بموافقتهم أو رضاهم) لأن من أكبر العيوب في المجتمع الشركسي أن يلجأ أي فرد من أفراد عائلة الفتاة إلى منع أو استئصال أو رفض زيارة أي شاب شركسي لأي فتاة شركسية، مهما كان مستوى الشاب الاجتماعي أو الاقتصادي أو الثقافي.

العادات المرتبطة بالخطبة (الجاهة) أو الكواسة

يتم الزواج عادة بإحدى الطريقتين التاليتين: الأولى: الطريقة التقليدية وفيها يقوم أهل الشاب بإرسال اثنين أو ثلاثة من وجهاء الشراكسة أو من كبار العائلة أو الأصدقاء إلى أهل الفتاة (القشن) لطلب يدها رسمياً من والدها إن كانت الفتاة على ثقة بأن أهلها سيوافقون على زواجها من ذلك الشاب (السلوخ) وكانت العادة في هذه الحالة أن يقوم أحد أفراد (الجاهة) وكانت العادة في هذه الحالة أن يقوم أحد أفراد (الجاهة) بتعليق (الكراوخة) أي المسدس الشخصي للخطيب التقدم لخطبة الفتاة ويفهم أهل الفتاة بتقصدها الجاهة وطلبهم، فإن وافق أهلها تبدأ مراسم الزواج (بالأسلوب الذي سيرد لاحقاً)، أما إذا كان أهل جميعاً أو أحد أفراد له موقف أو معترض على الخطيب، يلجأ كل من الشاب والفتاة إلى إتمام الزواج وفق عادة (الكواسة) ومعناها اتفاق بين الشاب والفتاة على إتمام الزواج عن طريق انتقال الفتاة سرا وبدون علم الشخص المعترض عليه من أسرة الفتاة وأحياناً من أسرة الشاب برفقة امرأة أو فتاة محرمة على الشاب (السلوخ) (أي الخطيب) مع أحد أصدقائه إلى بيت وجيه من الوجهاء الشراكسة أو لبيت كبير عائلة الشاب. وبمجرد دخول الفتاة (القشن) لبيت مضيفها، تصبح ضيفة وجب حمايتها ورعايتها من قبل (الوجيه) وأهله أو من قبل كبير العائلة. وتنتهي هنا مهمة (السلوخ) أي الخطيب ويحرم عليه دخول ذلك البيت حتى إتمام مراسم عقد النكاح وفق أحكام الشريعة الإسلامية. وهذه العملية هي ما يطلق عليها خطأ في الدول العربية (بالخطيفة) فهي عملية لا علاقة لها (بالخطف) إطلاقاً لأن كل شيء يتم برضا وموافقة الشاب والفتاة وفي حدود العرف والعادات الشركسية.

ومن أهم مظاهر أو شروط الزواج عن طريق (الكواسة) هي:

- موافقة الفتاة الصريحة ومعاودة (الخطيب) أي (سلوخ) عن عدم تراجعها مهما اشتدت معارضة الأهل.
- أن لا ترافق عملية انتقال الفتاة إلى بيت الضيافة المؤقتة والتي تسمى بـ (القانة) إلى إكراه أو تضليل أو إساءة للفتاة.
- أن لا تتم عملية (الكواسة) مع (الخطيب) وحده بل يجب أن يرافقه فيها (نساء أو أصدقاء) يكونون بمثابة (الأخوات أو الأخوة له).
- إبلاغ أهل الفتاة من مجرد وصولها إلى بيت (المضيف) مع إعلامهم بأن مراسيم عقد النكاح ستتم لاحقاً، وإبلاغهم عن تاريخ وموعد عقد القران، فإن لم يحضر أحد من طرف أهل الفتاة يصبح من حق الفتاة توكيل أحد الأقارب أو الأصدقاء لإتمام عملية عقد القران.

وإذا بحثنا في التاريخ القديم أو الحديث لعمليات (الكواسة) لن نجد حالات عادت فيها الفتاة لأهلها دون إتمام الزواج إلا ما ندر، خاصة إن كان هدف الفتاة من (الكواسة) هو التخلص من قرار الأهل تزويجها لشخص ما وهي لا ترغب في الزواج منه.. وهي حالات نادرة جداً، وتعود الفتاة في مثل هذه الحالة لأهلها في حال تعهدهم بعدم إكراهها على الزواج من شخص هي لا ترغب فيه أو تحبه.

وأما بالنسبة للعادات المرتبطة بخطف (الفتاة) بالقوة أو الاكراه فإنها أصبحت منسوخة وغير منطقية في الوطن الام وفي بلاد المهجر، وهي عادات كانت تطبق قديماً في إحدى الحالتين التاليتين:

الحالة الأولى: في حال قيام الفتاة باحتقار الشاب أو رفضها وتحديها له.

الحالة الثانية: رفض الأهل للشباب كعريس لابنتهم لأي سبب كان في حين ان الفتاة موافقة وانها تحب الشاب وترغب بالزواج منه.

ففي هاتين الحالتين كانت تتم عملية خطف الفتاة باستخدام القوة والعنف في الحالة الاولى، وباستخدام الرجولة والفروسية في الحالة الثانية، وكان للخطف بهذا الاسلوب شروط وتقاليد صارمة منها:

- ١) ان يتم الخطف بواسطة الخيل.
- ٢) وجوب مرافقة الاصدقاء المقربين للشباب الخاطف، وان لا يتم الخطف من قبل الشاب وحده.
- ٣) عدم المساس بالفتاة بأي اذى جسدي وان حدث فهو عار يحاسب عليه الخاطف.
- ٤) وضع الفتاة لدى احد (التحامدات) من كبار السن كأمانة الى حين اتمام مراسم الزواج.
- ٥) قيام اصدقاء الشاب الخاطف بالتطوع لمساعدة الشاب الخاطف، وذلك بدراسة الطرق المؤدية إلى قرية (العروس) وأيتها يسلكون في ذهابهم، وإيابهم؟ وهل هي قريبة تقوى الخيل على قطعها دفعة واحدة، أو بعيدة تحتاج إلى تبديلها؟ وعن مراكز الكمين لمنع تقدم المطاردين، وعدد المدافعين، وعند من سيضعون (العروس)، ومن يستجرون به، فإذا ما فرغوا من ذلك كله، امتطوا ظهور جيادهم، وخرجوا من قريتهم خلسة، وذهبوا في الساعة المتفق عليها من الليل، فينتقم العريس ويحمل العروس التي تكون بانتظاره على ظهر حصانه، ثم يقف ورفاقه الشجعان على حدود القرية ويطلقون العيارات النارية الثلاثة المتفق عليها بين القبائل، ايذاً لشباب القرية عن إتمام عملية (خطف عروس)، فيهب الفرسان من نومهم ويلبسون عدة القتال، ويسرجون ويلجمون خيولهم في دقائق معدودة ويلحقون بالخاطفين وعندما يقتربون من (الكمين) المنسوب لإعاقة اللاحقين، يندهم بإطلاق عيار ناري عليهم، وتقضي التقاليد عند ذلك بوجوب الانصياع لهذا الانذار وعدم اجتياز هذه الكمين، والتفتيش عن غيرها، ولكن قد يحدث (ونادراً ما يحدث ذلك) من تأخذه العصبية من بين هؤلاء المهاجمين، فيصر على اقتحام الكمين، فيندهم الكمين ثانية، ولكن بأسلوب آخر، وهو قتل جواد المغير بعيار ناري، فإن لم يعودوا عملاً بالتقاليد المتعارف عليها، وأصر أحدهم على اقتحام الكمين فيحق للكمين أنذاك ان يدافع عن نفسه ويقتل (المهاجم) ولا يطالب أبداً بدمه، وما دام قد أنذره أولاً، وقتل جواده ثانياً. وإذا وقع اختلاف وسوء تفاهم في ذلك، عرضه الطرفان على مجلس التحامدات ليحكموا بينهم، وحكمهم هو القول الفصل، وعلى الجميع ان يتقبلوه بدون اعتراض.

العادات المرتبطة بالفرشة وفيها يتم (انتقال العروس) لبیت العريس بعد عقد النكاح

من العادات المتبعة في حال اتمام عقد النكاح في بيت الوجيه (المضيف) بعد عملية (الكواسة): يتم نقل العروس إلى بيت العريس أو إلى بيت اهله باحتفال يسمى (فرشه) يشارك فيه أهل العريس وأصدقائه ومعارفه من الجنسين وتشبه عادة الفاردة أو (الزفة) عند العرب ومن شروط اتمام زفة (الفرشه) أن:

* لا يشارك العريس في الزفة ولا يسمح له بذلك.

* لا يشارك اهل العروس عامة والكبار منهم خاصة بمراسم (فرشه)، ومن حق أصدقاء وصديقات (العروس) منع خروجها من بيت أهلها ان كان عقد النكاح في بيت أهلها ما لم يقم اهل العريس بدفع مبلغ من المال إرضاء للشباب من الجنسين من اصدقاء العروس (حيث يتظاهرون) بأنهم غير راضين على زواج جارتهم أو صديقتهم دون موافقتهم أو دون علمهم ويتم إقامة حفل غداء

أو عشاء بقيمة المبلغ المدفوع وهي التي تسمى (غنكبشة) ومعناه دفع فدية أو غرامة حتى يسمحوا للعروس بالخروج من بيت أهلها.

* من حق خال (العروس) طلب مسدس أو (قائمة) من أهل العريس قبل خروجها من البيت وهي عادة موجودة حتى وقتنا الحاضر.

* في حال كانت العروس من قرية أو مدينة ثانية فإن شباب قريتها يضعون الحواجز على الطريق الذي تمر فيه الزفة بهدف تعطيلها خاصة إن كان شباب قرية العروس غير راضين على هذه الزيجة ولا يسمحوا بمرور الزفة ما لم يدفعوا (فدية).

* يخرج العريس (الشاوة) من بيته قبل وصول موكب العروس، ويحل ضيفا على أحد أصدقائه المقربين ويسمى (شاوا قوت) أي (شبين العريس) ولا يسمح للعريس بالعودة إلى بيته إلا ليلا وبعد انتهاء مراسم حفلات (الجوك) الراقصة ويغادره صباحا باكرا ولا يراه أحد من الابوين أو الكبار في عائلته.

العادات المتبعة في إقامة حفلات العرس

تبدأ مراسم الاحتفالات في مكان تواجد العروس (في بيت الأهل) وكذلك في مكان تواجد العريس في بيت الصديق الذي يستضيف العريس (الشاهو - قوت) ففي بيت أهل العريس تقام كل ليلة تقريبا الحفلات الراقصة بمشاركة الفتيات والشباب وتسمى (الجوك) أو أحيانا تستمر الحفلة حتى طلوع الشمس.

ومن أهم وأبرز القواعد والأتيكيت المتبعة في هذه الحفلات هي:

- يسمح لجميع أبناء الشراكسة من نفس القرية أو من أية قرية أخرى حضور حفلات (الجوك) ولا يجوز الاعتراض على حضور أحد منهم.
- لا يسمح بحضور حفلات الجوك الشباب من الأعراق غير الشركسية.
- يشارك في حفلات (الجوك) كل من الفتيات والشباب أو كبار السن من الرجال ولا يسمح للمرأة الشركسية المتزوجة المشاركة بالرقص وإن كان يسمح لها الحضور ومشاهدة الرقص من بعيد ومن خلف حلبة الرقص.
- في حال حضور كبار السن من الآباء أو الأجداد فتكون لهم أولوية الرقص كما أن الأبناء أو أحفادهم ينسحبون من حلبة الرقص احتراما لأبائهم أو أجدادهم وحتى لإخوانهم الأكبر سناً.
- تبدأ وتنتهي حفلات (الجوك) برقصة من قبل أحد الشباب الحاضرين من الأصدقاء أو الأقرباء من أهل العريس ويسمى (حاتياقوة).
- من أهداف إقامة حفلات (الجوك) إتاحة الفرصة للشباب من الجنسين للتعرف قبل أو بعد الحفلة برضى وموافقة الطرفين ودون أي نوع من الضغط أو الإكراه وهو ما يعرف بعادة (بسلوخ) ومعناها غير المباشر (الباحث عن شريك الحياة) أو الباحث عن خطيبة (قشن).
- بالإضافة إلى ما تقدم من مراسم وقواعد حفلات (الجوك) التي تستمر أحيانا لأكثر من اسبوع هناك عادات أخرى تمارس خلال فترة العرس منها:
- قيام مجموعة من صديقات وقريبات وأصدقاء أهل (العريس) دعوة فتيات من مناطق أخرى قريبة أو بعيدة من أهل العريس للمشاركة بحفلات الرقص ويتم إحضارهن مشيا على الأقدام إن كن يسكن في منطقة قريبة أو بالعربات إن كن يسكن مناطق بعيدة، كما يتم إعادتهن برفقة نفس المجموعة إلى أهلن في نفس الليلة، أما بالنسبة للشباب فالدعوة مفتوحة للمشاركة بحفلات الرقص (الجوك) كما سبق ذكره.

- من العادات المحببة عند الشراكسة قيام مجموعة من الشباب والفتيات من أصدقاء العريس (بالسطو) على عشا أو حظيرة الدجاج أو الحبش الخاص بأهل العريس وجيرانهم وأقربائهم ومسك عدد من الطيور والدواجن وجلبها إلى بيت العريس أو إلى بيت أحد الأصدقاء لقيام الفتيات بطبخها وتقديمها في حفل عشاء أو غداء في اليوم التالي لعملية (السطو المشروع) بحكم العادات الشركسية.

واما بالنسبة لمراسم الاحتفال في بيت الصديق الذي يستضيف (الشاواة) أي العريس ويسمى (شاواقوت) فهي تشبه ما يتم في بيت أهل العريس مع بعض الإضافات منها:

- تنظم حفلات ساهرة لا يتخللها الرقص وإنما يتم فيها ممارسة بعض الألعاب المسلية منها ما يسمى (أجوتيوه) وهي عبارة عن لعبة تبدأ بقيام (عريف الحفل) بالضرب على (كف) أحد الحضور، وهذا بدوره يختار فتاة لتجبير الضربة لها، والفتاة (تجير الضربة) لأحد الشباب وقد يكون (البسلوخ) للانتقام من الضارب الأول، خاصة وإن كانت الضربة قوية وشديدة ... وهكذا يستمر اللعب.

- يخصص مقعد يسمى (لوج) ومن يجلس عليه من الشباب يصبح (ملكا) في تلك الليلة ويختار إحدى الفتيات للجلوس معه على اللوج لتصبح (ملكة) تلك الليلة، ومن قواعد هذه اللعبة هو: إعطاء الحق لكل من (الملك والملكة) إصدار أحكام مختلفة على الحضور، وعلى من صدر بحقه أي حكم عليه تنفيذه حسب قواعد هذه اللعبة، والأحكام قد تتضمن القيام بالغناء أو الرقص أو القاء نكتة، أو القيام بأي عمل أو جهد بدني، وفي نهاية تلك الليلة تقوم المحكمة المؤلفة من الرجال الأكبر سنا من المشاركين بالحفلة بإصدار حكم على الشاب الذي مثل دور الملك بالتكفير عن أحكامه الجائرة بإحضار (حلويات أو صدر كنافة) أو إقامة حفل عشاء لجميع الحضور في اليوم التالي لصدور الحكم عليه، كما يتم كذلك قيام الشاب الذي قام بدور الملك تكريم الفتاة التي قامت بدور الملك بإهدائها هدية شخصية ثمينة.

العادات المرتبطة بالونيشة

وفيها يتم تقديم العروس إلى (أم العريس) وإلى كبار السن من النساء في عائلة (العريس)، وتتضمن هذه المراسم الخطوات التالية:

- يجتمع أهل العريس من كبار السن من النساء في البيت الذي أقيمت فيه احتفالات العرس.
- تعتبر حفلة (الونيشة) يوم تنقيط للعروس فيقوم كل من حضر هذه الحفلة بتقديم هدايا للعروس كل حسب إمكانياته ومقدرته المادية ودرجة القرابة من أهل العريس.
- في نهاية يوم (الونيشة) تقام وليمة كبيرة للحاضرين إذا ما بانتهاء المراسم الرسمية للزواج.

العادات المرتبطة (بالشاوا - شيش)

وفيها يقوم أصدقاء (العريس) بإعادة العريس إلى (بيت) الأهل في (عراضة) كبيرة وتكون مشيا على الأقدام (إن كان مكانه قريبا) أو بالحافلات إن كان بعيدا وتتضمن المراسم الخطوات التالية:

- يتم تقديم أحد أصدقاء (العريس) على والد وكبار السن بديلا عن (العريس) أولا وللتأكد بأنهم يعرفون ابنهم (العريس) وكل ذلك على سبيل المزاح.
- يرفض الأب ومن معه من الكبار العريس البديل، ويقولون أين ابنا ماذا فعلتم بابنا نريده الآن، ومن ثم يتم تقديم العريس الحقيقي إلى الوالد وإلى الحضور من كبار السن، وأثناء دخول العريس لبيته يقوم أصدقاؤه بوزعه (بالدابيس) لاختبار قدرته على تحمل (الأذى) من وخز الأبر. وتقام في هذه المناسبة حفل تقدم فيه (الباخسمة) وهي شراب مصنوع من الدقيق والعسل ويتم تخميرها وتصبح مسكرا حيث يتم تدوير (الباخسمة) بين الشباب

والرجال الحاضرين للشرب منها، ويقوم البعض بإلقاء قطع من النقود داخل الوعاء بهدف طرطشة شاربها وكذلك بهدف جمع نقود تكفي لإقامة حفل عشاء للشباب من اصدقاء العريس فيما بعد.

العادات المرتبطة بحفلة (لج - غاشخة)

وفيها يتم دعوة كبار السن من الرجال من أهل العريس واقربائهم واصدقائهم إلى وليمة كبيرة تذبح فيها (خرفان) وتكون خاتمة مراسم الاحتفال بالعرس.

عادات ومراسم ما بعد انتهاء حفلات (العرس)

يجد الدارس للعادات الشركسية (الحقيقية) في مرحلة ما بعد انتهاء (مراسم العرس) وبدء الحياة الزوجية في (بيته) أو (بيت) اهله يجد بأن عادات (صارمة) تطبق على حياة كل من (العريس والعروس) وكذلك على الأب والأم ومن أهم هذه العادات هي:

- لا يجوز للعروس ان تكلم الحماية أو الحماة لفترة قد تطول لأكثر من سنة خاصة الحماة، وذلك تعبيراً عن احترامها لهما... ويتم التقاهم فيما بينهم وتخطب العروس مع الحماية أو الحماة بالاشارات أو بالكتابة.
- لا يجوز للحماة ان يرى عروسة ابنه لفترة من الزمان قد تصل لأكثر من سنة... وإلى ان يتم تقديمها له في احتفال عائلي مقابل إهدائها هدية ثمينة ويسمى هذا الاحتفال بـ (تجيشة).
- لا يجوز للحماة ان يشاهد (العريس والعروس) معا في البيت لمدة من الزمن وإلى حين انجاب طفلهما الاول.
- لا تقوم العروس بالجلوس على سفرة (الحماة والحماية) وإنما تقوم بتناول الطعام مع الأصغر سنا من أفراد العائلة.
- لا يقوم الأب بحمل أو ملاطفة أبنائه في حضور الجد.
- لا تتنادي العروس (حماتها أو حماها وأحيانا أخوة الزوج - العريس) بأسمائهم الحقيقية وإنما تطلق عليهم جميعاً أسماء مستعارة فيها نوع من التحبب والتعظيم.
- إذا ذكر اسم الحماة أو الحماية، وكذلك اسم الزوج بأية مناسبة (تقف) العروس من مكان جلوسها احتراماً لذكر اسمائهم الحقيقية.
- جرت العادة ان لا ينادي على (العروس) باسمها الحقيقي من قبل الحماة أو الحماية وفي العادة أن تطلق الحماية اسم (مستعار) على العروس أو ينادونها (عروسة) أو عروستنا... "دي - نسة".

العادات المرتبطة بتعارف أهل العروسين:

جرت العادة ان يقوم والد العريس ووالدها بدعوة والد العروسة والكبار في السن من أهل العروس من الجنسين لحفل غداء أو عشاء بهدف التعارف أو بهدف انهاء أي خلاف كان قد حدث نتيجة خروج ابنتهم من البيت دون علمهم وفقاً لعادة (الكواسة).

العادات المرتبطة بمراسم الزيارة الأولى للعروس من أهلها:

في العادة أن تقوم (العروس) بزيارة إلى أهلها بعد سنة تقريباً من زواجها... ومن أهم المراسم التي تطبق في هذه الزيارة هي:

- تحمل العروس معها هدية لكل فرد من عائلتها صغيراً وكبيراً وكذلك هدية للكبار في السن من الجنسين خاصة الأكثر قرابة لأهلها.

- ترافق (العروس) في زيارتها بعض أفراد عائلة زوج العريس من النساء.
 - يقام حفل غداء أو عشاء على شرف المرافقات للعروس.
 - تقيم العروسة في بيت أهلها مدة اسبوع أو أكثر ثم تعود إلى بيتها محملة بالهدايا مماثلة للهدايا التي حملتها معها عند عودتها لأهلها.
- وبانتهاء مراسيم هذه الخطوة تصبح الحياة طبيعية في بيت العروسين.

العادات التي تنظم علاقة الزوج بالزوجة يمكن تلخيصها على النحو التالي:

- يقيم الرجل الشركسي - كزوج - من خلال علاقته بشكل رئيسي مع زوجته ومن خلال المحافظة على شرفه وعفته وأخلاقه وإخلاصه لأسرته وزوجته وإحساسه بالواجب تجاهها، وأنه رأس العائلة والمدافع عن شرف زوجته ووجارته بأسرته متعلقة بمدى محافظته على سمعة زوجته.
- الشركسي المربي وفق التقاليد، لا يقوم أبداً أمام الملأ وبوجود الغرباء وكبار السن من أقربائه بالتحدث عن علاقته الزوجية، ولن يذكرها أبداً في حديثه، أو يعبر عن تعاطفه معها في أثناء مرضها، ولا يتحدث عن تعبها وإرهاقها ولا يمتدحها مهما كانت تستحق ذلك، كما أنه لا يمدح أطفاله أمام الغرباء، فكل ذلك ليس من صميم العادات الشركسية.
- وأن الحياة المشتركة بين الزوجين بكل دعة ووافق، وحدها تنبئ عن حب الزوج واحترامه لزوجته، وأنه لن يفرط بها أبداً، كل ذلك بلا أية كلمة مباشرة وكل شيء يجب أن يكون مفهوماً من تلقاء نفسه وبطريقة غير مباشرة.
- وكذلك فهو لا يمدحها ولا يذمها ولا يدلي بأي معلومة تخصها، وأيضاً لا يصرح لها بحبه بلا مناسبة، وأن أفضل أساليب في التعبير عن مشاعره هو تصرفاته وطريقة تعامله معها.
- ترتبط سمعة الرجل الشركسي بسمعة زوجته ويتبين هذا من الأمثال الشعبية القديمة (إن الرجل الجيد إنما تصنعه زوجته) ومثال آخر (إذا ساءت سمعة الرجل بسبب زوجته، فلا يمكن لقريته أن تحسنها، أما إذا ساءت سمعته بسبب قريته، فبإمكان زوجته أن تحسنها) ومثال ثالث (بإمكان الزوجة الصالحة أن تحسن من سمعة زوجها التي ساءت بسبب اصدقاء السوء).
- إلا أن (جباغى) الفيلسوف الشركسي الذي وضع قواعد وأسس (الأديغة خابزة) المعاصرة في القرن الثامن عشر لفت انتباه الناس إلى دور الزوج في تطوير علاقته بزوجته في رفع سوية علاقتهما بقوله: (إن الزوج تكونه زوجته والزوجة يكونها زوجها) كما قال: (إن من لا يمد يده لمساعدة امرأة ليس زوجاً حقيقياً) ودعا الأزواج إلى التفاهم والاحترام المتبادل وحذر قائلاً: (كلما كنت معادياً لزوجتك، كان هناك إمكانية أن تعادي العالم).

المجموعة الخامسة: وهي العادات المرتبطة بالرقص القومي الشركسي

أشارت ل. غ. ناغايتسييفا^(٢٣) إلى مجموعة من القواعد التي تنظم الرقص الشركسي (القافا) الذي يشارك فيه كل الشباب والشابات برقصات مزدوجة أو رقصات جماعية مثل:

القاعدة الأولى: لا يفترض بالشباب أن يلامس الفتاة، بل عليه أن يرقص على بعد ذراع منها دون أن يلامس حتى ملابسها، ومن الكبائر عند الشراكسة لمس الفتاة (باليد أو الجسم أو الرجل)، وإن حدث ذلك بدون قصد يحق للفتاة مقاضاة الشاب لعدم قدرته السيطرة على حركاته خلال الرقص، وأما إذا شعرت بأنه يقصد ذلك فيحق لها التوقف عن الرقص ومغادرة الحلبة، كما يحق لها مقاضاته أمام (مجلس التحامدات) من كبار السن.



لقطة لشاب وشابة تبين رجولة الشاب أمام الفتاة بما يتفق مع آداب الرقص الشركسي.

القاعدة الثانية: على الشاب ان يتصرف خلال الرقصة بكل عنفوان محاولاً ان يظهر انه راقص جيد، وان يحافظ على سلاحه وملابسه، وأن يدرك خفايا الرقص وحركاته وتفصيلاته بعيداً عن الفتاة. كما هو مبين في الصورة المرفقة.

القاعدة الثالثة: على الفتاة ان تلتزم خلال الرقص بالجدية والتواضع، مسدلة أهدابها وان تردد حركة الشاب إذا استجابت لدعوته في الرقص، حتى لو كان الشاب ممن لا ينال إعجابها فإنها لن تظهر هذه المشاعر ابداً خلال الرقص.

اما الكاتب (خان جيري) فيقول حول قواعد وآداب (الإتيكيت) بأن "الراقصون يستطيعون التكلم مع مراقبيهم من الفتيات بحرية، وتستطيع الفتيات ان يجبن بلا أي وجل وطبعاً مع الالتزام بالسلوك المهذب وبلا أية قهقهة أو استعمال تعابير مناقضة لطبيعتهن الانثوية أو تسيء لسمعتهن، وبالحد الأقصى من الاعتبارات التي تملئها القوانين الاجتماعية العامة.

كما أن الكاتب الشركسي المعروف (تيمبوت كيراشيف) الذي يلم بالثقافة الشركسية بشكل جيد جداً يقول: (... وسريعاً كالسهم انطلق من اوساط الرجال شاب متناسق القوام داعياً للرقص معه الفتاة واسمها (نفيسة) وكانت الهرمونيكا (الأكورديون) تعزف ألحان الرقص الشركسي المعروفة، وضجت اكثر أصوات التصفيق وآلات النقر الخشبية، وعلى ما يبدو فقد كان الشاب (أنزور) راقصاً مشهوراً، فأخذت تعلو من اوساط شباب (الجوك) أصوات محببة، وتأجج كل شيء بشكل ملحوظ، وكانت (نفيسة) تتبع راقصها حول حلبة (الجوك) بكل سلاسة، ولكن وبصورة مفاجئة وبدا وكأن قلبها قد تحول عن الشاب فابتعدت الراقصة نحو وسط الحلقة شامخة برأسها نحو الأعلى بكل كبرياء، ولم تلق إليه حتى نظرة، أما (أنزور) الشاب الذي ابتعدت عنه حبيبته فقد قام دون أن يرحم ساقيه بالاندفاع نحوها مبالغاً إياها، ولكنها لم تعره أي اهتمام، وتابعت تحليقها حول الحلبة بكل كبرياء فما كان من الراقص (أنزور) الذي ابدى استياءه وغيبرته من هذه الفتاة العنيدة إلا انه ابتعد عنها راسماً (عدة حلقات في وسط الجوك)، ثم انطلق طائراً نحوها مرة ثانية وكأنه يقول لها: انظري أيتها المتعالية أي شاب انا متابعاً للرقص واثقاً من نفسه، فاردا ذراعيه حول الفتاة وكأنه يحميها.

وكان قلب الشاب (أنزور) يخفق من الحب، وكان وبلا كلل يدور راقصاً حولها مندفعاً كذئب هائج، ولكن قلب الفتاة لم يرق حيث كانت مهتمة برقصتها فقط وغير مبالية وتابعت بكل عناد طيرانها كحمامة، فاردة ذراعيها كأجنحة طائفة حتى اصبح الموقف وكأنهما باتا (غريبين) وتجمد الدم في عروقهما نتيجة خلافهما الصامت يتابعان الرقص منفصلين عن بعضهما بعض.

لكن (نفيسة) التي كانت تريد ان تختبر مشاعر العاشق (أنزور) الذي يراقصها، اندفعت فجأة نحوه بكل دلال وترحاب وما كان من (أنزور) ألا ان تدفقت الدماء من جديد في أرجاء جسمه حتى أبدع في الرقص الرجولي فأثبت لنفسيته المتمردة بأنه (يحبها) ... وهكذا تنتهي الرقصة بابتسامة رومانسية ونظرة اعجاب من (نفيسة) .. (٣٣).

واما اهم آداب الرقص التي تفرضها العادات المتعلقة بالرقص فيمكن تلخيصها على النحو التالي:

- يدخل الشاب إلى حلبة الرقص أولاً، ثم تتبعه الفتاة التي لها دور في الرقص، وجرت العادة ألا ترفض أية فتاة الرقص مع أي شاب طالما دورها في الرقص، وقد يحدث أحياناً أن

تعطي الفتاة صاحبة الدور، دورها لفتاة أخرى إن لم ترغب في الرقص من الشاب المتواجد على الحلبة أو ان الشاب هي (بسلوخ) لإحدى الفتيات في الحلبة.

- من آداب الرقص ان لا يترك الشاب الحلبة أو التوقف عن الرقص ما دامت الفتاة في حلبة الرقص وإن حصل ذلك يحق للفتاة التي تركت في حلبة الرقص مقاضاة الشاب الذي فعل ذلك امام (مجلس التحامدات) أي مجلس الحكماء من الكبار والحكم عليه بإقامة حفلة ترضية لها ولصديقاتها أو إهدائها هدية ثمينة إلخ.
- الأصل في الرقص ان تكون مواجهة ولا يجوز ان يعطى (الشاب أو الشابة) الظهر للآخر عند الرقص في الحلبة إلا اذا كانت طبيعة الرقصة تتطلب ذلك.
- لا يجوز للشاب ترك حلبة الرقص أو التوقف عن الرقص طالما الفتاة في الحلبة، كما لا يجوز خروجه من الحلبة قبل الفتاة، وان حدث يحق للفتاة مقاضاة الشاب على فعلته التي تعتبر اهانة للفتاة وعدم احترام لها.
- لا يجوز لعازف الاوكرديون أو اية آلة موسيقية التوقف عن العزف خلال قيام الشاب والفتاة بالرقص وان حدث عليهما مقاضاة العازف.

المجموعات السادسة: وهي العادات والتقاليد المتعلقة بالضيافة عند الشراكسة (الحشة والبسم)

الضيافة لدى الشراكسة قديمة جدا وتعود إلى العصور الأولى من نشأتهم، وتطورت مع مرور الزمن وتغيرت بعض قواعدها واصولها، ولإلقاء الضوء على مدى تمييز الشراكسة بهذه العادة لا بد من استعراض اقوال بعض الرحالة والكتاب الأجانب نفتبس منها. (٢٠)

- قال الكاتب المعروف "جورجيو انتربانو" في القرن الرابع عشر "من عادات الشراكسة.. كرم الضيافة، واستقبال أي انسان بمنتهى الحفاوة".
- اما "جوفاني لوكا" فيؤكد على كرم الضيافة عند الشراكسة بقوله "ليس في العالم كله من هو اكثر منهم لطفا وسعادة عند استقبالهم للغرباء".
- و"ستاليس" ذكر قبل مائتي عام: (إن من أهم عادات الشراكسة هو كرم الضيافة).
- اما (شورا نوغوموقه) فقد قال في أوائل القرن التاسع عشر "إن كرم الضيافة الذي اشتهر به الشراكسة تاريخيا سيبقى في الأذهان وعلى الرغم من كل النوائب والتبدلات السياسية التي حاقت بهم فإن هذه الصفة الخيرة لم تضعف إلى الآن".
- كما قال (غاردانوف): "إن حق الإنسان الغريب تماما، في أن يكون ضيفا في أي منزل، والتزام صاحب المنزل في أن يقدم له كل ما يريحه وكل ما في إمكانياته، تلك هي الميزة الأساسية في عادة كرم الضيافة لدى أديغا".
- فأما (خان جيرى) من تشركيسيا فإنه يؤكد بأن عابر السبيل المتعب والمنهك عطشا وجوعا يجد ملجأ مضيافا له أينما اتجه في بلاد الشراكسة، وسبقا له صاحب المنزل بكل بشاشة من دون ان يعرفه ابدا، ودون ان يسأله من هو ومن أين أتى ولماذا قدم؟
- وكذلك فإن الكاتب الروسي (ن. ديروفن) يؤكد في كتابه (الشراكسة) الصادر في كراسندار عام ١٩٢٧ "بأن كرم الضيافة منتشر جدا وبشكل واسع لدى الشراكسة ويكون واحدا من اهم الصفات الخيرة لدى هذا الشعب، لقد كان الضيف عند الشراكسة شبه مقدس خاصة لدى صاحب المنزل الذي عليه ان يستضيفه ويحميه من أي ازعاج، وكان مستعدا للتضحية بحياته من أجل ضيفه حتى وإن تبين له أن ذلك الضيف كان قد ارتكب إثما أو حتى مطلوباً بئثار له"، ثم يتابع قائلاً: "... إن أي شركسي مسافر يتوقف أين يشاء متى داهمه الليل وإن كان يفضل أن يتوقف عند من يعرفهم إضافة إلى أن يكونوا من الذين بإمكانهم استقبال الضيوف دون أن يسبب لهم ذلك أي إرهاق أو صعوبة. ويستطرد قائلاً: وبمجرد أن يسمع صاحب المنزل بوصول ضيف إلى قرب

منزله يهرع إليه ويمسك بركاب فرسه وهو ينزل عن صهوة جواده ولا يوجد بنظر أي شركسي ما يمكن أن يعتبر مهينا لصاحب المنزل ما دام يقدم للضيف مهما كان الفرق بينهما كبيرا في الطبقة الاجتماعية، وبمجرد أن ينزل الضيف عن حصانه، يقوم صاحب الدار بأخذ سلاحه منه مدخلا إياه إلى مقر الضيافة، ويقوده إلى مكانه الذي فرش بالسجاد والوسائد، وهو في أكثر الأماكن احتراماً وهي زاوية الغرفة (الأبعد عن الباب)، ويقوم قبل إجلاسه بأخذ ما تبقى من سلاحه ويعلقه على الجدار أو يأخذه إلى داخل المنزل.

- وأما (نيومان) فإنه يخبرنا (نقلاً عن أرخانجيلو لامبيرتي) الذي ساح في غرب القفقاس في القرن التاسع عشر "ليس هناك في كل هذا العالم... شعب، يرحب بالغريب أفضل من هؤلاء فهم يخدمون الضيف بأنفسهم ثلاثة أيام كما يخدمه أولادهم وبناتهم حاسري الرأس يغسلون (أقدامه) بينما تغسل نساؤهم ثيابه.

لا شك بأن كرم الضيافة هي عادة اجتماعية مرتبطة بدرجة أو بأخرى بأنها من الخصائص القومية الشركسية، ويتعامل الشركاسة مع هذه العادة بوصفها من أرقى العادات الإنسانية، وبقيت هذه العادة القديمة على حالتها الأولى دون أن يطرأ عليها تغيرات جوهرية رغم ما أصاب الأمة الشركسية من المصائب والمحن في مختلف الأزمان والعصور، إذ لا يزالون يعتبرون كل مسافر يحل ضيفاً في أي بيت يستحق كل عناية وتقدير، ويجب على المضيف أن يستقبل ضيفه بكل حفاوة ويعامله بما يستحق من الإكرام، ويقدم إليه أحسن وأفضل ما عنده من طعام وشراب، وإذا رحل عنه وجب عليه أن يرافقه ويحميه من كل اعتداء طارئ.

وفيما يلي أهم القواعد والنظم التي تضبط العلاقة بين الضيف ومضيفه وكذلك أهم الواجبات والحقوق لكل من الضيف (حاشة) والمضيف (البسم).

- من حق الضيف اختيار مضيفه في أول زيارة له، وكل عائلة ملزمة بالقيام بواجب الضيافة إن وقع اختيار الزائر عليها، وكانت القاعدة إن كان الضيف (شركسيا) ضرورة اختيار (هاتشيش) (مضافة) لعائلة من نفس طبقته الاجتماعية.
- المضيف مسؤول أمام كل الناس عن سلامة ضيفه، ومن لم يدفع عن ضيفه ضرراً ما حتى ولو كان مجرد إزعاج، تجري محاكمته ومعاقبته لأنه يتوجب على المضيف حسب العادات التضحية بروحه دفاعاً عن ضيفه.
- لا يسمح للضيف دخول بيت مضيفه، بل كان يستقبل في (المضافة) حيث يجد العناية اللازمة، كما يحصل على الحماية اللازمة.
- وحالما يقدم الضيف نفسه مهما كان مستواه وحتى ولو كان مجرماً أو عدواً للعائلة أو عبداً على المضيف قبوله وتكريمه وحمايته.

وروت (رايا مامكيغ) في كتابها لمحات عن العادات الشركسية رواية تؤكد مدى التزام الشركاسة بأداب وقواعد الضيافة مهما كانت صفة الضيف أو الزائر، وملخصها على النحو التالي:

بينما كان رب عائلة في أحد الأيام يمارس بعض الأعمال في ساحة داره، دخل شاب غريب هارب يبحث عن ملجأ، فأخفاه رب الدار في بيته، وبعد قليل وصل بعض شبان القرية ممتهنين خيولهم وسألوا الرجل: هل رأيت شاباً هارباً؟ إننا نبحث عنه لنقتله فقد (اغتال ابنك) فأجابهم الرجل بأنه لم ير أحداً، وهكذا ابتعدوا لمواصلة البحث، أما الرجل فقد أكرم الشاب دون أن يبدو عليه أنه يعرف بما حدث، ودون أن يلحظ الشاب منه أي شيء. وبعد أن هدأت غضبة فرسان القرية جهز الرجل لضيفه الشاب جوادا وزادا وقاده ليلاً على موضع آمن خارج القرية وتركه ينصرف، وهكذا فقد حمى قاتل ابنه التزاماً منه بتقاليد الضيافة الشركسية، وإن كان فعل عكس ذلك فإنه يتعرض لمحاكمة صارمة.

- يعامل الضيف بأجل احترام وتقدير، ويجلس في مكان الصدارة الذي لا يشاركه فيه أحد، وقد كتب (بيل) عن تقليد إعطاء الضيف مكان الصدارة دون أن يعرف مكانة هذه العادة في التقاليد بقوله:
- لقد قامت صداقة عميقة بيني وبين ذلك الشاب النبيل ومع ذلك لم أفلح في جعله يجلس في المضافة إلى جانبي، وحتى في غياب الآخرين إلى هذا الحد اعتادوا احترام الغريب الاجنبي (الضيف).
- ويسمح للجيران بدعوة الضيف بعد إعلام مضيفه وأخذ موافقته على ذلك. وبالمقابل لا يحق للضيف قضاء الليل عند شخص آخر أو قبول دعوته بدون إذن المضيف الذي هو في ضيافته وهكذا فإن حرية الضيف محدودة ضمن قواعد وأصول الـ (بيسيم) أي المضيف. وكذلك سلوكه تنظمه تلك العلاقة، والمثل القائل (الضيف أسير مضيفه) يمكن أن نسمعه أينما كان.
- إن القواعد التي تحكم صلة الضيف بمضيفه تمتد آثارها إلى المستقبل فعلى الضيف إن عاد يوما ما إلى زيارة القرية نفسها عليه أن ينزل عند نفس المضيف السابق (ولا يجوز تبديل المضيف) وكل سلوك مخالف لذلك يعد إخلالا بأصول (بيسيم حاتشئة) وخروجا على العرف الاجتماعي.
- وإذا حدث رغم ذلك أن اختار الضيف مضيفا آخر، فيجب على المضيف الجديد تقديم (كفارة) وذلك بإقامة حفلة، حيث تكون تكاليف الحفلة هي الغرامة المفروضة عليه، ولا ينجو المضيف بحد ذاته من التغيريم، ولكن تغريم الضيف يختلف من حالة لأخرى حسبما يقرر مجلس المسنين (تحاماتة) الذين يكون المضيف القديم قد دعاهم للاجتماع، وفي الكثير من القرى الشركسية ما زالت هذه الإجراءات محترمة كوسيلة لضمان عدم انتهاك العادات المتعلقة بالضيافة.
- إذا دخل أحد ما المضافة (هاتشئيش) أو (غرفة الضيوف في هذه الأيام) فعلى جميع الموجودين القيام بما فيهم (التحاماتة) وهو كبير القوم ولو كان الداخل أصغر سناً.
- إن الداخل للمضافة لا يجلس حتى يطلب الضيف (أو أحد الكبار) منه الجلوس، وإن دخل كبير في السن أخلى له الصغير مكانه للجلوس وكذلك فإن تم تقديم شراب للموجودين أثناء تكلم أحدهم، فلا يبدأ أحد بالشرب حتى ينتهي المتحدث من كلامه.
- لا يسمح للأصغر سناً بالشرب أثناء وجود (التحاماتة) وإذا تناول التحاماتة شرابا ما، فعلى الأصغر سناً الوقوف له.
- إذا أراد أحد ما مغادرة غرفة المضافة فعليه ألا يدير ظهره أثناء الخروج للضيف أو للتحاماتة، بل يرجع إلى الورا حتى الباب ثم يغادر.
- إذا أراد أحد مغادرة المضافة فعليه استئذان الضيف، وإن لم يكن هناك ضيف فعليه استئذان الأكبر سناً بين الموجودين والذي يقوم مقام (التحاماتة).
- مدة الضيافة حسب الأعراف الشركسية قديما هي ثلاثة أيام، أما إذا طال مكوث الضيف أكثر من ذلك فإن دوره كضيف ينتهي ويعامل كأحد أفراد العائلة، وهذا ما أكدته (ماريا) بقولها: إن الضيف يجب أن يبقى ضيفاً من يومين إلى ثلاثة وعليه بعد ذلك أن يشارك في أعمال مضيفه، ومن المعتاد عليه اليوم في القرى الشركسية مشاركة الضيف في أعمال مضيفه بعد ثلاثة أيام من قدومه.
- لا يجوز مبادرة الضيف فور وصوله بسؤاله من أين جاء ومتى يذهب، ولكن طريقة تعليقه القماشة (السوط) على الجدار تدل على ما إذا كان سيتابع السفر بعد مكوث قصير أو أنه ينوي البقاء طويلاً: (فإن علق سوطه من آخره بحيث يتدلى بكامله للأسفل، فإن هذا يدل على أنه لن يطيل المكوث، أما إن علقه من منتصفه فإن هذا يدل على أنه ينوي قضاء وقت أطول).

- إن إجابة الضيف عن السؤال المألوف للمضيف المتعلق بعشيرته والفرع الذي ينحدر منه تدل ما إذا كان الضيف شركسيا أم لا، كما تعطى فكرة عن الطبقة التي ينتمي إليها إن كان شركسيا.
 - يجتمع بالضيف عشية وصوله للمضافة برجال القرية للترحيب به ويسهر معه الرجال المعادلين له في السن لفترة أطول، بينما يغادر الآخرون بعد الترحيب به، أما إذا كان الضيف ذا مكانة اجتماعية (تحاماته)، فإن جميع رجال القرية أو المنطقة يأتون في نفس المساء وعلى أبعد تقدير في صباح اليوم التالي للترحيب به.
 - ليس للضيف حقوق فقط، بل عليه واجبات أيضا إذ يتوقع الجالسون ان يسمعون منه ما جد من أخبار وأمور في المناطق التي جاء منها أو مر بها، ويتطور الأمر إلى حوار يشارك فيه الجميع، وحسب العادة قد يتطور الأمر إلى سرد قصص والحديث عن البطولات التي قدمها المقاتلون في الماضي.
 - من حق الضيف ليلة وصوله أن يقرر متى يود النوم للاستراحة من عناء السفر، واعتبارا من الليلة الثانية قد تمتد السهرات إلى ساعات متأخرة من الليل.
 - إذا كان المضيف ميسورا فلا بد ان يهدي ضيفه يوم رحيله فرسا أو سيفا أو ما شابه ذلك من أنواع الهدايا ويعتبرون ذلك من متطلبات الضيافة الحقيقية.
 - بالإضافة إلى ما تقدم من واجبات الضيافة قديما، فإن بعض كتاب الشراكسة في المهجر لخصوا واجبات أخرى للضيافة نذكر منها:
 - الضيف شخص مقدس لا يساء إليه وتأتي معه السعادة والخير ومن الامثال التي تقال بهذا الصدد: "يأتي الخير مع قدوم الضيف".
 - عادة اكرام الضيف تعم وتشمل جميع الشراكسة. ويثبت هذا المثل القائل "افقر الشراكسة مضياك كأغناهم".
 - من واجب الفقير اكرام الضيف بما لديه ويطعم جواده ويجد لها المأوى والراحة ولا عيب من أن يأخذ من جاره ما يحتاج ضيفه ان لم يجد لديه ما يكفي لواجبات الضيافة، ويعتبر ضيف احد من أهل القرية ضيفا على القرية بأكملها.
 - يُسأل الضيف أولا عن صحته ثم عن الاخبار التي يعرفها.
 - يتحاشى الشراكسة سؤال الضيف عن خاصياته أو سبب ضيافته أو أي شيء من المحتمل احراجه بها. ويمنع خلال الثلاث أيام الاولى السؤال عن من يكون وإلى أين ذاهب أو من أين أت.
 - وبعد انتهاء ثلاثة ايام، وتقديم كل ما يجب تقديمه للضيف من مراسيم وواجبات الضيافة يستطيع المضيف ان يسأل ما يشغل ضيفه وبما يستطيع مساعدته به ويعتبر أن من واجبات المضيف المقدسة السعي لتلبية مطلب الضيف الذي جاء من أجله.
 - واجب كل شركسي دعوة أي شخص يرى أنه من المحتمل ان يكون بحاجة إلى مأوى ومأكل. واي غريب يدخل قرية يسمع من كل فرد فيها الكلمة المعروفة (تفضل) وهو يدعوك بكل صدق لاستضافتك.
 - لا فرق في الضيف كبيرا كان أم صغيرا، غنيا أم فقيرا، رجلا أم امرأة، عدواً أو صديقاً. والأمثلة التالية تدل على ذلك:
- (١) لا يوجد ضيف شاب.
 - (٢) لا يوجد ضيف زائد.
 - (٣) لئن جاءك عدوك ضيفا فهو صديق.

- وأكثر الضيوف تكريماً أكثرهم بعداً عن وطنهم، ويتضح هذا من قولهم "أعلى من الضيف هو الضيف الغريب".
- وهذا يفسر الحفاوة التي كان يلقاها الرحالة في بلاد الشراكسة، مما حدا بالرحالة أن يكتبوا عنها كثيراً.
- تكون أبواب المضافة مفتوحة ليل نهار ويستطيع أي عابر أن يدخل ويتصرف داخلها كما يشاء دون السؤال أو الاستئذان من صاحب البيت، والضيف القادم ليلاً يدخل هذا البيت دون أن يلاحظه أحد من أصحابه، لذا كانت العادة دائماً عند الشراكسة أن يقوم رب البيت بتفقد مضافته قبل الذهاب إلى الفراش كل ليلة، وفي بعض الأحيان كان يعرف بوجود الضيف بواسطة مربوط الخيل الملحق بالمضافة.
- كان من الواجب الاحتفاظ بمؤونة دائمة لأي ضيف من الممكن حضوره في أي لحظة، وتوجد أمثلة بهذا الصدد:
- قد يأتيك ضيف، فتموّن، ولا تقل قد طال انتظاره فتأكل مؤنته.

المضافة (الحاشيش) عند الشراكسة

إن الاهتمام الخاص براحة الضيوف والعناية بهم قد اقتضى أن يتواجد لدى الشراكسة مكان خاص في كل منزل يدعى (المضافة وهاتشيش) حيث كانت تبني في أكثر الأماكن ملائمة في الحوش، أي بعيداً عن (الدار) وأقرب إلى باب الحوش، ويوجد بالقرب منها عادة مربوط للخيول حتى يبقى الضيف مطمئناً على جواده، وكانت المضافة أكثر الأماكن تجهيزاً وراحة في المنزل، وكان يتواجد فيها مناضد (طاولات) الطعام ثلاثية القوائم وتسمى بالشركسية (أنة)، وسريراً ومجموعة من الأغطية إضافة إلى السجاد والحصر، كما تعلق على الجدران بعض الأسلحة والأدوات الموسيقية.

وجرت العادة أن تبني "المضافة" على مستوى القرية على أطراف بيوت القرية وليس وسطها وبين البيوت، والحكمة من ذلك هو عدم تقييد حرية تحرك النساء داخل القرية لممارسة أعمالهن اليومية ولعدم اضطرابهن للتوقف من السير إلى أن يمر الضيف أو القادمين للمضافة من الرجال حسب العادات الشركسية، ويروي لنا (باتري أوزبك) في كتابه (أساطير النارتيين) القصة التالية:

لقد (سافر مرة فلاح شركسي مع ابنته بالباص إلى المدينة وعند الوصول غادر كلاهما السيارة واتخذا طريقهما لزيارة أقارب لهما وسار الوالد في المقدمة والفتاة حسب الأصول خلفه، وكان الوالد يحادثها أثناء الطريق في مختلف الأمور ودون أن يلتفت إلى ابنته، وعند وصوله دار أقاربه التفت خلفه، فلم يجد أثراً لابنته، وحاول أن يجد تفسيراً لاختفاء ابنته، وبعد أن طال انتظاره دون أن تأتي الفتاة عاد إلى محطة الباصات ليجدها "واقفة هناك دون حراك" إذ كان عليها حسب التقاليد الشركسية أن تفسح الطريق للرجال المارين وما أكثرهم في المحطة) (٢١).

أهمية المضافة ودورها الثقافي والاجتماعي والتربوي:

تعود أهمية المضافات (المجالس) إلى كونها تلعب دوراً على المستوى الثقافي والاجتماعي والسياسي، كما أنها تستخدم كملتقى لمختلف شرائح وطبقات مجتمع القرية أو المدينة ولها دور تربوي بارز تحل محل المدرسة في تثقيف وتربية جيل الشباب من الأبناء والاحفاد. ولعبت المضافات عبر العصور أدوار كبيرة في المجتمعات الشركسية قديماً وحديثاً نذكر منها:

- ١) المحافظة على التراث الشركسي وديمومته، واستمراريته ونقله من جيل إلى جيل من خلال سرد القصص والأساطير عامة، وأساطير النارتيين خاصة، وكذلك من إلقاء الأشعار القومية والشعبية وأشعار الرثاء والحزن (الفيزة).

٢) كان يتم في جلسات المضافة (هاتشئيش) سرد القصص والحكايات القديمة المعروفة، وإن كان الضيف نفسه مغنيا متجولا فإنه يتحف الحضور بما عنده، فتحفظ القصائد مباشرة عن ناظمها، ويتم تداولها وتصبح من الأدب الشعبي، وبالتالي فإن هذه المجالس كانت أمكنة لتعلم التاريخ والآداب والفنون، لذلك فليس من العجب أن تبقى تواريخ وتفاصيل أحداث جرت قديما وعلى مر الزمان محفوظة في أذهان الناس بسبب تناقلها من جيل إلى جيل في مثل هذه المجالس.

٣) المحافظة على التقاليد ونقلها من جيل إلى جيل مع الإضافة أو الحذف حسب متطلبات كل عصر أو زمان.

٤) قيام المضافات عبر العصور مقام المدرسة من حيث نقل المعارف وتربية الأجيال من خلال الأنشطة الثقافية التي كانت تمارس في المضافات.

٥) قيام المضافات (المجالس) بوظيفة المنتدى الثقافي حيث كان يتم فيها مناقشة الأحداث اليومية، وكذلك متابعة الأحداث الجارية في المناطق الأخرى، كما كان يتم فيها معالجة المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، بالإضافة إلى تبادل المعلومات والخبرات، خاصة مع الضيوف الأجانب الزائرين للقرية.

المجموعة السابعة: وهي العادات والمراسم المتعلقة بآداب المائدة والولائم

يقول المثل الشركسي في "الاعتدال في الأكل والشراب والكلام دليل على حسن التربية" والشراسة شديدي الاهتمام بالآداب والمراسم المتعلقة بموائد الطعام عامة والولائم التي يحضرها ضيوف كبار السن خاصة...

ومن أهم المراسم والقواعد المرتبطة بعادات تنظيم موائد الطعام خاصة وموائد الولائم في حضور ضيوف وكبار السن خاصة هي:

* المراسم المرتبطة بتنظيم الجلوس على الموائد.

١- تقسم موائد الطعام الشركسية إلى قسمين غير متساويين، حيث يخصص القسم الأول لكبار السن وللضيوف والقسم الآخر فيخصص للمدعوين الأصغر سنا وللحاضرين من أهل المضيف، كما يتم ترتيب الجلوس بحسب السن والمكانة والمركز الاجتماعي.

٢- يجلس (التحمادة) والأكبر سنا من الضيوف على المائدة أولا، ثم الأصغر سنا.

٣- يكون مكان جلوس (التحمادة) في وسط المائدة وعلى يمينه الضيف الأكبر سنا، وبجانبه الضيوف الآخرون وأما المضيف فيجلس في الجهة المقابلة للتحمادة والمضيف.

٤- يقف أبناء المضيف من الشباب حول المائدة ويبعد قليلا عنها للمساعدة في توزيع الطعام وتقسيم اللحمة وغيرها من أنواع المساعدة التي تتطلبها واجبات الضيافة، أما الفتيات من بنات المضيف أو قريباته من الفتيات فيقمن بإحضار الطعام أولاً بأول (حيث من العادات الشركسية عدم إحضار جميع اصناف الطعام التي المائدة دفعة واحدة) والهدف هو تقديم طعام ساخن وطازج.

* المراسم المتعلقة بدور (التحمادة) على الموائد:

(التحمادة) هو الشخص الأكبر سنا والأكثر خبرة والقادر على التعامل مع مختلف طبائع الموجودين، ويمتلك طلاقة اللسان بلغة قوم، ملما بالإتيكيت الشركسي وآداب الموائد ويعرف كيف يدير الجلسة وأحاديثها بكل لباقة.

وعلى عاتق التحمادة كانت تقع مهمة ليست بالبسيطة، ألا وهي إدارة وتنظيم سير توزيع الطعام على أفضل وجه، وكان عليه أن يأخذ بالاعتبار عادات وتقاليد الضيوف من القوميات الأخرى.

إضافة إلى ذلك على (التحمادة) أن يمتلك عددا آخر من الصفات الضرورية اللازمة لهذه المهمة، منها أن يعرف العادات المحلية بشكل جيد بحيث لا تصدر عنه أي إساءة أو إزعاج لأي من ضيوف مائدة الطعام، وأن يعرف ماهية (الخواخة) أي رفع (النخب) التي يتوجب عليه أن يعرفها، وليس بإمكان (التحمادة) أن يغادر مائدة الطعام، ومن ثم يعود إليها إلا للضرورة القصوى، وعموما فإن أهم واجباته كان عدم الإسراف في تقديم الشراب، والاهتمام الجيد بالضيوف، وتقديم الاحترام الذي تمليه العادات، ولا يجوز لأي من الجالسين أن يرفع نخبا بلا إذن (التحمادة)، حيث أن من مظاهر الاحترام التي تفرضها آداب مائدة الطعام تتطلب الوقوف في أثناء رفع (الانخاب) على شرف الأكبر سنا أو الضيوف، أما مضمون الانخاب وتسلسلها فكان يحددها أعمار الموجودين، والمكانة الاجتماعية، ومدى قربتهم من صاحب الدار، وغير ذلك.

إن الاتيكيت الشركسي على مائدة الطعام يعبر عن مظاهر مذهشة ودقيقة من العلاقات المتبادلة قد لا تكون ملحوظة من قبل الغرباء، وأحيانا غير مفهومة ابدا بالنسبة إليهم، وخاصة عدم السماح للشباب الذين يقومون على خدمة المائدة بالجلوس مع الآخرين حتى بعد انتهاء الأعمال الموكلة إليهم، وبالرغم من طلب المضيف قائلا: "ليذهبوا فيرتاحوا أو ليجلسوا معنا" هذا ما يقوله الضيوف غالبا إلا أن المضيف لا يقبل ذلك، حيث إن الهدف من تواجد الشباب حول المائدة هو اكسابهم العديد من العادات والاعراف ويتعلمون آداب المائدة من الكبار، ويوسعون معارفهم بسماعهم أحاديث الأكبر سنا وخبراتهم وقصصهم وأغانيمهم وطريقة مزاحهم.

مراسم توزيع الطعام على المدعوين الجالسين على المائدة

من أكثر المراسم والعادات المرتبطة بآداب الموائد الشركسية هي المراسم المتعلقة بتوزيع الطعام وتقسيمها وتقديمها للتحمادة والضيوف.. ومن هذه المراسم هي:

* يوضع امام اكثر الضيوف مكانة او التحمادة، لحم الكتف ثم يتم توزيع باقي أجزاء الذبيحة بحسب سن المدعوين، وقد اعتبر لحم الكتف التالي بالأهمية والقيمة المعنوية بعد (الجزء الايمن من رأس الذبيحة)، ومن ثم يأتي دور لحم عظام الحوض، ثم لحم الصدر فيليه لحم الفخذ، ومن ثم لحم الضلوع وعظام الظهر.

أما القطع الأقل شأنًا من الذبيحة فتوضع امام الأصغر سنا على المائدة، مثل الرقبة، وفقرات الصدر، ثم لحم ما قبل الكتف، ويليه عظام الكتف، وبعدها عظام الساق، ويقوم على خدمة مائدة الطعام اثنان من الشباب يدعيان مقدمي الطعام والشراب، وعلى عاتقهما يقع الاهتمام بكل الأمور على طاولة الطعام، وفي أثناء تنظيف المائدة من امام الضيوف والانتباه إلى من يجب ابدال طعامه، وأي صنف من الطعام قد حان دوره وكذلك الشراب، وعلى الشباب الذين يقومون بالخدمة مهمة المراقبة الدقيقة لإشارات وإيماءات (وجه التحمادة وتعابير وجهه) إضافة للضيف، وإدراك ما الذي يجب عمله أولاً بأول.

ولذلك لم يكن أي شاب يصلح لمهمة كهذه، وكانوا يمرنون الفتية ويعلمونهم الدقة والانتباه لحركات الكبار، والسرعة في الأداء والحركة، وكان وجود مثل هؤلاء الشباب حول المائدة كفيلا أن يكون كل شيء خلال المائدة ضمن الحدود، فلا يتم الإفراط في الشراب أو غيره، حيث أن ذلك لم يكن محبذاً.

وقبيل الانتهاء من الطعام يتم عادة جلب نصف رأس الذبيحة الايمن، وهي عادة من رأس الخراف أو الماعز الذي تم نحرها على شرف الضيف، وهناك العديد من التساؤلات المتعلقة بهذه العادة مثل متى يجب ان يقدم رأس الخروف أو الجدي؟ وأي نصف رأس يجب تقديمه؟ أمام من يجب وضعه؟ كيف يجب ان يقدم؟ من الذي يجب عليه تقسيمه وتوزيعه؟ وكم جزءاً يجب تقسيمه

ولمن تقدم الاجزاء؟ وكيف يجب ان تعامل هذه الأجزاء من قبل الضيوف؟ ماذا يجب ان نفعله بقسم الرأس الآخر؟

للإجابة عن مثل هذه التساؤلات يمكن ذكر اهم المراسم المتعلقة بتقديم وتوزيع الطعام عامة ورأس الخروف خاصة وعلى النحو التالي:

* يقوم بتقديم رأس الخروف الأيمن الأكبر سنا من الضيوف، ولكنه على الغالب يعتذر ويطلب من صاحب الدار ان يقوم بذلك، وتتم القسمة على الشكل التالي:

يقص (أذن) الخروف بواسطة سكين حادة وتقدم لأصغر الجالسين، أو إلى احد الشباب الذين يقومون بتقديم الطعام، ثم يفصل الجزء الخلفي من الرأس وحتى العينين ويقدمه إلى أكبر الضيوف سنا، ثم يأخذ الجزء الامامي من الرأس حتى الانف فيعطيه من يليه في المجلس، ويترك لنفسه الجزء الأوسط من نصف رأس الخروف والذي يحوي العين.

أي ان نصف رأس الخروف يقسم إلى أربعة اجزاء فقط، ولكل منها معنى ومغزى، ويتم استعمال السكين لقطع الأذن أما باقي الأجزاء فيتم فصلها باليدين.

* يرافق تقديم كل قطعة بكلمات ترحيب وثناء ومديح للشخص الذي تقدم إليه، وكان على الذين ينالون ميزة الحصول على إحدى هذه القطع الوقوف ومد اليدين ضامين كفيهما إلى بعضهما، ثم يجلس بعد ان يأخذ الجزء المخصص له.

* لالقاء الضوء على أهمية الجانب الايمن لرأس الخاروف تحدثنا الكاتبة (مامخيغ) نقلا عن (ب. خ بفاجتكوف) حادثة جرت مع أحد (البقار) وهم من اصل تركي ويعيشون مع الشركاسة في جمهورية (كباردينا بلقاريا) في الوطن الام بقولها "عندما حل أحد "البقار" ضيفا لدى عائلة شركسية، لفت انتباهه أن جزء رأس الخروف الذي وضع امامه كان الجزء الايسر، فما كان منه إلا ان قال مبديا انزعاجه "أنا لست من اليسار، لست قليل الاحترام، لقد اتيتكم وأنا على اليمين، محترما اجلبوا لي الجزء الايمن من رأس الخروف، فما كان من صاحب البيت، السيء الحظ، الذي كان قد تصرف بالجزء الايمن من رأس الخروف إلا ان ذبح خروفا آخر، وكان على الضيوف المرافقين كافة الانتظار حتى تم طهوه، وتقديم الجزء الايمن من رأس الخروف للضيف البلقاري". (٢٤)

فهذه الحادثة تدل على مدى أهمية الجزء الايمن من الرأس وعلى مدى التقيد بهذا التقليد الذي يمارس منذ عهد اجداد الشركاسة (٢٤).

المجموعة الثامنة: وهي بعض العادات والتقاليد المرتبطة بالعلاقات والمناسبات الاجتماعية عند الشركاسة

يمارس الشركاسة منذ عصر الاجداد حتى يومنا الحاضر عشرات العادات والتقاليد التي تنظم العلاقات الاجتماعية نذكر منها:

(١) العادات المتعلقة بالتهاني والتبريك او التعزية او المواساة... الخ

ربما كان افضل من كتب عن مثل هذه العادات هو الكاتب الشركسي (بغاجنكوف) في مقالة له بعنوان: (المرجعية الفكرية لتعابير التمني في اللغة الشركسية) (٢٧) وتوصل فيها "بأنه يوجد في اتيكيت التخاطب كم كبير من الصيغ التقليدية المخصصة للتعبير عن التمني والشكر والامتنان او التحيات، أو التعبير عن التعاطف والمباركة بحدث سعيد، ولقاء استلام هدية، او ابداء اهتمام خاص وتقدير مميز واحترام زائد وغير ذلك كما وجدت في اتيكيت اللغة الشركسية صيغ تقليدية للتعبير عن كل احداث الحياة السعيدة منها والحزينة. ويقال مثلا لقاء الشكر على الطعام: (ليضاعف الله لكم طعامكم) (ليضاعف الله لكم مخزون الطعام) وعندما يقدم ماء الشرب على المائدة لأحد الضيوف يقال لمن قدمه (لتكن محبوبا مثل هذا الماء)، أو (اطال الله عمرك)، أو (لتعش طويلا)، وعندما يشتري احد ما ماشية او طيورا يباركون له قائلين: (ليتكاثر ويتضاعف ما اشتريته)، وعند المرور بقرب من

يقوم بجمع محصوله الزراعي يقولون: (لتأكله بالعافية)، وعندما يقتضي الأمر مواساة شخص ما تكون حالته المرضية في وضع سيء جدا: (نتمنى لك الخير وتما العافية). وعند دخول العروس منزل الزوجية كانوا يتمنون لكل اسرة العريس بقولهم (لتجلب قدمها السعادة إلى داركم). أما لأهل العروس فيقال لهم: "ليكن الاثر أو الذكرى الذي تركته ابنتكم ذكرى سعيدة" وهذا القول محاولة لتخفيف وطأة الوداع على الأهل.

وفي حالات الوفاة اعتاد الشراكسة ان يقولوا لأهل المتوفى عبارة تعني: "أن لا يحل عليكم مصيبة أكبر تتسيكم هذه المصيبة".

وعندما يكون المتوفى شابا كانوا يقولون: (ليصف الباقي من عمره إلى حياتكم أو "البقية بحياتكم") اما اذا كان المتوفى شيخا كبيرا في العمر فكانوا يقولون في العزاء (ليغفر له الله ذنوبه) "الله يغفر له ويجعله من اهل الجنة".

وعندما يولد للأسرة طفل جديد كانوا يتمنون له بقوة البنية وصحة الجسم، اما في حال الانتقال إلى سكن جديد فكانوا يباركون له بالقول: (ليمنحك الله السكنى والهدوء في بيتك الجديد) أو (ليمنحك الله الصحة في بيتك الجديد).

ويلاحظ بالطبع ان الشراكسة يتمنون السعادة والنجاح للآخر عند أي حدث مهما كان صغيرا في الحياة.

والشراكسة منذ عصر الاجداد كانوا يهتمون بالعادات المرتبطة بالتهاني في كل موقف أو حدث من احداث الحياة، وانهم كانوا يستخدمون صيغة الجمع في التعبير عن التهاني أو المواساة مثل: تقبلوا تهنئتنا، تقبلوا منا، تقبلوا باسم الاسرة. كما كانوا يرفضون التهاني أو المواساة عبارة الرجاء من الله، أو التوسل إلى الله. لتحقيق السعادة أو الصحة أو النجاح. بقولهم: ليزودك الله سعادة.. أو بارك الله لك تحملك.. أو نسأل الله العلي القدير أن يكون مأواه الجنة، في حالة التعزية.. الخ.

(٢) العادات المرتبطة بالقاء السلام والتحية

نقول (مامخيغ) تتضمن اللغة الشركسية العديد من الكلمات والجمل التعبيرية المستعملة في القاء التحية والتي تختلف بحسب الحالات والاقوات. ونحن نعتقد ان هذا التعدد يعتبر مظهرا من مظاهر تطور اللغة نفسها والثقافة الاجتماعية.

اشكال وصيغ التحية وتنقسم إلى فئتين هما:

الأولى: بحسب اوقات بالقاء التحية أو السلام مثل:

ليكن صباحك سعيدا - (صباح الخير) - نهارة سعيدا - مساء الخير.

والثانية: حسب طبيعة العمل

فلكل نوع عمل أو مهنة تحية خاصة بها من حراثة وحصاد وجني المحصول، فمثلا يقال: ليكن حصادك مباركا أو غلالا مباركا، ومن التعابير المستحبة في القاء التحية منذ القدم تعبيران تقليديان هما: كيف الحال... وكيفك.. بالإضافة إلى تعابير مثل: ما الاخبار وما هو الجديد لديكم.. فالجواب يكون حسب مقتضيات الامور مثل: اخبار حسنة.. أو اخبار غير سارة.. أو لا توجد اية اخبار.. الخ.

وليس من عادة الشراكسة الاطالة في القاء التحية وتحويلها إلى قصة.. أو طرح مشاكل. وانما يجب ان تكون التحية قصيرة وخاطفة

كما جرت العادة ان يستخدم كلمة (السلام) ... وكلمة (مرحبة) بين الاصدقاء والمقربين والمتعادلين في الوضع الاجتماعي والسن.

وعند اللقاء التحية المسائية أو ليلاً قبيل النوم يتمنى الناس بعضهم لبعض (نتمنى لك ليلة طيبة)، وغالباً ما تستعمل تعابير مثل (ليكن صباحك سعيداً) - (لتكن ليلتك هادئة ولطيفة)، أما الأهل فإنهم يخاطبون أطفالهم: (لتكن أحلامكم سعيدة) - وللمغادرين في سفر ما يقولون (نتمنى لك طريقاً أو سفرأ سعيداً) أو (ليكن الله معك لأجل قضاء أوقات طيبة). وغالباً ما يجيب المغادر (ليرض الله عنك) أو (ليسمع الله منك) أو (اتمنى لك العافية) أو (ليهدنا الله إلى الخير) وهي هنا بما يقابل تعبير (إلى اللقاء) في اللغات الأخرى^(٣٨).

(٣) العادات المرتبطة بآداب التعارف:

جرت العادة أن يقوم (الصديق المشترك) بمبادرة التعارف بين اثنين أو أكثر من الأشخاص، معرفاً كلا منهم باسمه واسم والده واسم عائلته، وإذا ما دعت الضرورة يذكر الحالة الاجتماعية، ويتم تسلسل التعريف بحسب كبر السن والحالة الاجتماعية وبحسب وجود نسوة بين الحضور.

أما الشكل واللهجة المطلوبة في مديح المعرفين في أثناء تقديمهم فتتعلق بكل حالة على حدة، وبحسب الهدف من التعارف فمثلاً عند زيارة مجموعة من أقرباء العائلة بعد زواج الابن أو الابنة فعلى الشخص المكلف بمهمة التعريف ذكر اسم العائلة أولاً ثم اسم الأب والكنية وصلة القرابة بالعائلة، وفي هذه الحالة ليس من المناسب ذكر الحالة الاجتماعية.

أما إذا حصل لقاء على طاولة غداء أو مائدة مع أشخاص ليسوا من الأقارب وإنما من الغرباء الذين يمثلون مرجعيات مختلفة، وكان من بينهم أشخاص لا يعرفون بعضهم، فمن اللازم في هذه الحالة ذكر الحالة الاجتماعية والمركز الوظيفي بعد ذكر اسم العائلة أولاً ثم الاسم واسم الأب. وأحياناً وبحسب ما يراه صاحب الدار القائم بالتعريف يمكن إضافة بعض صفات الإطراء والمديح دون ذكر مستوى قرابته.

(٤) العادات المرتبطة بآداب المصافحة واللقاء وتضم أكثر من عادة فرعية منها:

* عادة مصافحة المعارف والأقرباء:

عند لقاء المعارف وتعبيراً عن تعاطف كل منهما مع الآخر فيتصافحان وقد أمسك كل منهما يد الآخر بكلتا يديه مع الاحتفاظ بها لفترة أطول، مع ذكر بعض التعبيرات المتعارف عليها في الاتيكيت (أحييك) (كيف الحال)، (السلام)، (كيف تعيش) (كيف الصحة).

* عادة مصافحة الغرباء:

فنتم بالمصافحة باليد اليمنى فقط، مع الإشارة إلى عدم الشد بعنف على اليد وإنما الشد باعتدال، لأن عدم الشد نهائياً يعتبر أيضاً إشارة غير مرغوب فيها، وينطبق الشيء نفسه على العناق لدى إظهار مشاعر الحفاوة عند اللقاء.

* عادة لقاء الأقارب والأهل:

جرت العادة عند الشراكسة أن يتم اللقاء (بالعناق) ثلاث مرات مع وضع الرأس على كتف اليمين الآخر ووضع اليد اليمنى خلف ظهر المحققي به.. وليس من عادات الشراكسة التقبيل للرجال أو النساء. وكذلك فإن مصافحة المرأة لا تتم إلا إذا هي بادرت بمد يدها للسلام.

(٥) آداب التخاطب والتحدث مع الآخرين

ربما كان من أجمل عادات التخاطب أن لا يذكر الاسم الأول فقط للشخص المتخاطب بدون اسم العائلة مثال ذلك: إذا كان أحدهم اسمه "عمر" مثلاً من عائلة "ينال" فيجب أن ينادى بـ (ينالوقه عمر) أي ابن ينال. و "قة" معناها (ابن) وقد اصطلاحوا على ذلك للدلالة على أصولهم وانسابهم. وبما أن الشراكسة يعرفون عائلاتهم حق المعرفة، ويعرفون فروعها المختلفة فلا تفوتهم معرفة المنشأ بمجرد ذكر لقب العائلة وهذه ميزة يحافظون عليها ليومنا هذا. أما العائلات النبيلة التي منهم "البشي" و "الورق" فلا حاجة لأفرادها الحاملين لألقاب (التشريف) أن يذكروها مع أسمائهم لأنهم يعرفون بمجرد ذكر أسمائهم متصلة بعائلاتهم فقط، فمثلاً: إذا ذكر اسم (زانحواتوقه باسلان) يعلم في الحال

ان "باسلان" هذا أمير ابن أمير، وكذلك ليس من عادات التخاطب المناداة بصوت عالٍ ومن مكان بعيد.. وانما من الواجب التخاطب من على قرب وبصوت معتدل.

ومن آداب التخاطب ايضا

- الأكبر سنا هو الذي يبدأ بالحديث اولاً.
- يقف الاصغر سنا عند مخاطبة التحمادة او الاكبر سنا له (ان كان جالسا).
- تتم المخاطبة بدون رفع الاصوات.
- من آداب المخاطبة والمحادثة ان لا تستخدم (الإشارات) بتحريك الايدي خاصة مع الاكبر سنا.

(٦) العادات المرتبطة بمكانة واحترام الجهة اليمنى لدى الشراكسة

منذ القدم اعتبر الشراكسة "المكان الايمن" أكثر احتراماً وقدرًا من المكان (الجهة) الايسر فمثلاً يتم تحديد مكان الأكبر سنا وقدرًا في الجهة اليمنى دائماً، ويجلس الضيف على يمين صاحب الدار الأكبر في السن أو (من ينوب مكانه من كبار السن في العشيرة) وعندما يسير شخصان في الطريق فإن الأكبر سنا يلزم الجانب الايمن ويسير الأصغر عن يساره متأخراً قليلاً عنه. أما التقدم عنه فهو تعبير عن انعدام الاحترام للكبير سناً.

(٧) عادة تناول الاشياء واستلامها من الكبار سنا باليد اليمنى

إن استلام او تسليم أي شيء للأكبر سنا او مكانة يجب ان يتم باليد اليمنى ومد اليد اليسرى للأكبر دليل عدم احترام وسوء تربية.

(٨) عادة دخول المنزل بالقدم اليمنى

كان دخول المنزل يتم بالقدم اليمنى، اعتقاداً منهم أنه يجلب السعادة، أما إذا خطأ أحدهم ودخل إلى دار بقدمه اليسرى، فهذا دليل شؤم موجه لأصحاب البيت والمقيمين فيه. ولذلك كانت العادة دخول العروس إلى دار الزوجية بالقدم اليمنى اولاً.

وكذلك فإن دخول الضيف بقدمه اليمنى هي إشارة إلى أنه يحمل خيراً إلى منزل مضيفه.

(٩) عادة تقديم النصف الايمن من رأس الخروف

وفي ولائم الاعياد والمناسبات، يضعون أمام اكبر الجميع سنا (التحمادة) الجانب الايمن من رأس الذبيحة (خروف - ماعز) أما الجانب الايسر من الرأس فلا يوضع على المائدة بل يرمى خارج الدار. (كما سبق ذكره).

(١٠) عادة التفاؤل الشراكسة بكل حدث يبدأ او يتم باليمين

كانوا يعتقدون أنه إذا حك المرء كفه الأيمن فهذا فال بأنه سيستلم هدية او نقوداً، أما إذا حكته كفه اليسرى فإنه سيفقد شيئاً ما او يتضرر. وإذا حك الجانب الايمن من وجهه او غمرت عينه اليمنى فعليه ان يتوقع امراً حسناً، أما إذا حصل العكس فيتوقع شراً، وعندما تطن الاذن اليمنى يتوقع الانباء السعيدة، أما إذا طنت الاذن اليسرى فيتوقع انباء سيئة ومزعجة.

(١١) عادة تربية الاطفال على استخدام اليد والقدم اليمنى

كانوا يعلمون الاطفال ان يضعوا أقدامهم في احذيتهم بدءاً من اليمنى فاليسرى، ونزع الحذاء يكون بدءاً من اليسرى، وإذا ما لاحظ الشراكسة أن الطفل يستعمل يده اليسرى أكثر من اليمنى، قاموا بتوبيخه عدة مرات، فإذا ما تبين ان التنبيه عديم الفائدة، كانوا يضربونه ضرباً خفيفاً على اليد اليسرى إذا ما مدها لتناول شيء ما، فإذا ما اعيتهم الحيلة في ذلك، كانوا يلجأون إلى جرح أحد

أصابع اليد اليسرى جرحاً خفيفاً، ثم يضمّدونها ويربطونها إلى كفه بشكل جيد إلى أن يعتاد الطفل استعمال يده اليمنى، وبهذا كانوا يدرّبونه على استعمال اليد اليمنى في الأمور الصعبة الحياتية عامة.

(١٢) المرجعية الدينية لتفضيل اليمنى على اليسرى عند الشركاسة

يؤكد (مامخينغ) بأن المفهوم الرمزي لدى الشركاسة المتعلق بالجهة اليمنى له مرجعيته الدينية، فالشركاسة يؤمنون أنه وبحسب القرآن والعقيدة الإسلامية يتواجد لدى كل إنسان ملاك على كتفه الايمن يقوم بتسجيل اعماله الصالحة كلها، وعلى كتفه الأيسر ملاك يسجل الاعمال السيئة كلها، حيث سيتم موازنتها يوم القيامة فمن رجحت كفة ميزان حسناته ذهب إلى الجنة والعكس يذهب إلى النار وكذلك فإن الموازنة بين الحسنات في الجهة اليمنى والسيئات في الجهة اليسرى، الموجودة في الديانات السماوية الثلاث الإسلامية والمسيحية واليهودية وغيرها من الديانات القديمة الأخرى، ترتبط مع أصل الأفكار الانسانية حول بدء الخليقة، وحول الصراع الأبدي بين الخير والشر، وحول وجود عالمين روعي ومادي.

أما المفهوم الرمزي التشاؤمي للجهة اليسرى لدى الشركاسة فإنها تتمثل في الاستخدامات التالية:

- الفارس الذي يحمل نبأ سيئاً مثل نبأ وفاة، كان يسرع منطلقاً بالقدم اليسرى وكانوا يخبرون الفارس الذي يحمل نبأ سيئاً يهزم حصانه بيده اليسرى ويمسك المقود اللجام باليمنى، بينما في الأحوال العادية يكون العكس، وحامل النبأ السيئ كان ينزل من على صهوة جواده بوضع قدمه اليسرى على الأرض أولاً.

ومن العادات التي كانت متبعة بعد العودة من دفن (الموتى) إلى منزل الأهل أن يقوم من يرغب في قول شيء لأهل المتوفى أن يرفع يده اليسرى ممسكاً شحمة الأذن اليسرى ويقول (أحسن الله عزاءكم)، وأما رفع اليد اليمنى مقام اليد اليسرى فهو غير محبوب لأن رفع اليمنى للدلالة على الفرح والسرور.

المجموعة التاسعة: وهي عادات ومراسم المآتم لدى الشركاسة (الحدافة)

مارس قدماء الشركاسة واجدادهم مجموعة من الطقوس والعادات في حالات الوفاة منذ عهد الفكر الديني الوثني قبل الآلاف السنين، منها:

- تفريغ احشاء الميت وعرضه لمدة اسبوع بكامل ملابسه على الناس.
- جلوس زوجة المتوفى (الكبرى) عند رأسه بدون بكاء كما يقف بجواره اثنان من اقربائه من كبار السن بجواره فيما تقوم فتاة بعملية (كش) الذباب من على وجهه بمنديل من الحرير.
- دفن الميت بكامل ملابسه وزينته وقسماً من ممتلكاته الثمينة.
- ربط الحصان على القبر، وتركه يدور حوله ثلاث مرات ثم قطع أذنه اليمنى ورمىها داخل القبر.
- عرض ملابس المتوفى وأسلحته وجواده بكامل تجهيزاته قبل دفنه بعدة أيام.
- ذبح الذبائح وإقامة الولائم للميت، وتسمى (حده اوس).
- تقديم العاب استعراضية على الخيول بعد الدفن واطلاق السهام في الهواء.

وأما العادات التي كانت تتم في الفترة التي كان الشركاسة فيها مسيحيين هو وضع مقص مفتوح (على شكل صليب) على بطن الميت اعتقاداً منهم بأن ذلك يساعد على عدم انتفاخ الجثة، وظلت هذه العادة مستخدمة حتى بعد اعتناقهم الإسلام.

وأما العادات والمراسم التي كانت تمارس بعد دخولهم الإسلام في حال حدوث وفاة يمكن تلخيصها على النحو التالي:

- جرت العادة أن تقام صلاة الجنازة في المقبرة وليس في المسجد.
- يعود جميع من شاركوا في الجنازة إلى بيت المتوفى والوقوف في صف أو نصف دائرة ويقومون بالدعاء للمتوفى بشكل جماعي وهي المراسم التي تسمى بالشركسية (دوة) أي الدعاء الجماعي.
- من العادات المتعارف عليها عدم جواز القيام بأية زيارة للاقارب أو الاصدقاء بعد المشاركة بالجنازة، واعتبارها نذر شؤوم لأهل الشخص الذي تمت زيارته.
- قيام أهل المتوفى وأصدقائهم من الجنسين بتلاوة القرآن في العزاء ويتم فيها ختم القرآن.
- مدة العزاء عند الشركاسة أسبوع كامل، كما أن العزاء يكون مفتوحاً صباحاً ومساءً.
- من العادات التي يلتزم بها الشركاسة هو الدعاء للميت وقراءة الفاتحة عند دخول شخص أو مجموعة من الأشخاص لبيت العزاء، حيث يقف الأكبر سناً من المعزين بقوله: (أمين) وهو يعني أن يقف جميع من في العزاء ورفع الأيدي والدعاء للمتوفى ثم قراءة الفاتحة، وأحياناً يكون الدعاء علناً حيث يقوم الجميع بقول (أمين) بعد كل دعاء.
- لا يجوز لأهل المتوفى مغادرة بيت العزاء خلال فترة العزاء والذهاب لأي مكان لتناول الطعام وإنما يقوم الأقرباء والأصدقاء المقربين والجيران بإحضار الطعام إلى بيت العزاء يومياً.
- تقدم خلال فترات الصباح أو المساء (اللحم) للموجودين في بيت العزاء وهي اكلة شركسية مصنوعة من (العجين المحلى) مقطع بشكل قطع مستطيلة صغيرة ويتم قليها بالزيت.
- يفتح بيت العزاء أيام الاثنين والخميس من كل اسبوع لمدة اربعين يوماً لاستقبال النساء المعزيات اما عزاء الرجال فهي سبعة ايام فقط.
- تتم دعوى الال من النساء والرجال في اليوم الاربعين من تاريخ الوفاة لقراءة القرآن وعمل ختمة للقرآن ويقدم خالهم طعام الغداء.

المجموعة العاشرة: وهي العادات المرتبطة (بالخواخة) عامة "رفع الانخاب"

يقول (جموخة) بأن الانخاب (الخواخة) بدأت كتعبير عن تعويضات (سحرية) والتوسل لإطلاق القوى الخفية، أو لاسترضاء الآلهة. وكانت صناعة الطقوس المعقدة تسبق وتترافق مع المناسبات والفعاليات الاجتماعية. كما كان قوم (النارتين) يرفعون الانخاب في مناسبات عديدة منها أنخاب للقم، والحراثة، وتوالد القطيع، والموسم الزراعي الوفير، والحياة الزوجية. الخ كما كانت العادة أن ترفع الانخاب تضرباً إلى إله الغابات (فر - تحه) قبل الخروج للصيد^(١).



صور تمثل اسلوب رفع الانخاب (الخواخة) عند الأمة الشركسية في الوطن الأم

وكذلك فإن (بخول) يقول في مقال له بعنوان (الخواخة - الأدعية الشركسية، نشأتها، وتطورها) بأن الانسان كان يضطر قديماً لاعطاء تفسيرات للعديد من الظواهر الطبيعية ولكن من الأمور التي تعترضه في حياته.

فمثلاً كان يعتقد بأن المرض يأتي من الأرواح الشريرة، فيعمد إلى طرد هذه الأرواح بالنفخ على المريض مع ترديد بعض الادعية.

كما يجدون في الرقص فوائد جسمانية ونفسية يقومون بالرقص في كثير من المناسبات، مرددين بعض الأدعية، وكذلك إذا سمع أحدهم صوت الرعد كان يقوم بتزديد بعض الادعية التي يتقي بها شراً.

بالبحث في تاريخ (الخواخوة) منذ عصر الأجداد وجد بأنه يتكون من نوعين من (الأنخاب) فالأول، الأنخاب التي تلقى في الولائم ويخاطب فيها أحد الآلهة التي كان يعبدها الجراكسة. والثاني، يعتقد بأنه أكثر قدماً، ويتألف من مجموعة من الأنخاب هي أقرب إلى الرغبات أكثر منها توسلات للآلهة فعلى سبيل المثال:

إذا انحس المطر كانت هناك أدعية معروفة يتم التقرب بها من (إله المطر) وانطبق هذا على الشراكسة عندما كانوا متأثرين بالمعتقدات المجوسية (الوثنية) حيث كانوا يعتقدون أن لكل شيء (إله) يتحكم فيه، فكان للمطر عندهم إله، وللريح والرعد والجمال والغلال آلهة، حتى بلغ عددها بالمئات إن لم يكن بالآلاف، وكانوا يتقربون إلى هذه الآلهة بالأدعية المتعلقة بكل منها.

* أنواع الخوخوة:

نشأت "الخواخوة" واصبحت من طقوس المناسبات المختلفة مثل مناسبات الاعراس حيث كانت هناك "خواخوة" تتعلق بالعريس وأخرى تتعلق بالعروس. و"خواخوة" خاصة بالطفل في يوم وضعه في (الجوشه) السرير، وأخرى في يوم تعليمه المشي، وخواخوه عند تجهيز سكة المحراث، وعند الخروج إلى العمل، وعند الخروج إلى العمل، وعند دخول البيت الجديد، وعلى مآدب الأكل والشراب وعند ولادة قمر جديد.

حيث كانت العادة أن يقدم نخب "ولادة القمر الجديد" بقولهم:

القمر الجديد الذي طلع ... لينشر نوره علينا

ليته يكون لطيفاً معنا ... ليته يكون صحيحاً معافى

ويأتينا بالجو المفيد ... والخط السعيد في أوله.

ليته يبقينا سالمين وصالحين! ... نتمنى ونصلي

لأن تفتح الحرب والقتال ... الطريق إلى السلام والانسجام (٣٢)

ومع مرور الزمن تطورت عادة (الخواخوة) وبما يتناسب مع تطور وتغيير الحياة الاجتماعية والعقيدة الدينية، فمثلاً لم يعد هناك مجال لتوجيه الدعاء إلى الآلهة المتعددة بعد انتشار الأديان السماوية التي تحرم الاعتقاد بتعدد الآلهة.

كما أن تغير مظاهر الحياة الاجتماعية الشركسية ألغى الكثير من المناسبات التي مر ذكرها، وأصبح تداول "الخواخوة" مقتصرًا وبشكل مبسط على المآدب والمآتم والأعراس واستقبال الضيوف وتوديعهم.

وفي العصور اللاحقة أصبحت (الخواخوة) وسيلة تربوية، إرشادية مهمة، تشكل شخصية الفرد وتعطيه الثقة بالنفس وتنمي فيه ملكة الخطابة وتساعد على روح الود والمحبة بين أفراد المجتمع.

ولم يكن بين الشراكسة من كبار السن، من لا يتقنها بدرجات متفاوتة والشخص الذي يقول (الخواخوة) كان في الغالب، من كبار السن ممن لديهم تجربة كبيرة في حياتهم ويتميزون بقوة لغتهم وفصاحتهم وغازاة الألفاظ والمعاني التي يحفظونها.

والخواخوة القوية المشهورة كانت تنتقل بالتواتر من داخل المحيط القريب ثم البعيد ويتم ترديدها في المناسبات ذات الصلة بنفس المناسبة.

وقد وصلنا الكثير منها، بعد أن تم توثيقها في الوطن الأم في قفقاسيا.

كما أن هناك "خواخوات" مشهورة ارتبطت بأسماء واضعيتها وذلك لقوتها وشهرتها ونذكر من أصحاب (الخواخوات) المشهورة في أوائل القرن العشرين: لا شي اغتوقوي، بيتشميرزي باشا، فيلشيفوي سيجاجي، وجميعهم كانوا فنانيين وموسيقيين وشعراء أيضاً. (٢٢)

وتشير الوقائع بأن ما من شركسي من كبار السن في بلاد المهجر لم يكن يملك القدرة في قول (الخواخوة) بكلمات ملائمة لجميع المناسبات الاجتماعية، خاصة وإن عادة (الخواخوة) كانت جزءاً من التراث الشعبي الشركسي في بلاد المهجر التي يتواجد فيها الشراكسة في قرى ومدن وتجمعات ذات أغلبية شركسية في كل من تركيا والأردن وسوريا وفلسطين وفي بعض مناطق الولايات المتحدة الأمريكية مثل ولاية نيوجرسي، وأناهيم في كاليفورنيا، وفي المانيا خاصة في مدينة ميونخ.

* طقوس رفع الانخاب (الخواخوة) على الموائد: (٢٥)

يطبق الشراكسة حتى يومنا الحاضر الطقوس والمراسم المتعلقة بعادة (الخواخوة) ورفع الانخاب بالمناسبات الاجتماعية والولائم.. وتتلخص بالطقوس والمراسم التالية:

- يبدأ (بالخواخوة) ورفع النخب (التحمادة) أو الأكبر سناً على المائدة ويكون (شرب النخب) على شرف أكبر الضيوف سناً في حال وجود ضيوف أو على شرف المضيف.
- يبقى (التحمادة) جالساً في مكانه ومعه أكبر الضيوف سناً ويتكلم وهو جالس بينما يقف جميع الجالسين على المائدة إلى أن ينهي (التحمادة الخواخوة).
- لا يجوز لأي شخص على المائدة تناول الطعام أو الشراب خلال عملية الخواخوة كما لا يجوز بأي حديث جانبي على المائدة.
- يبدأ تناول الطعام بعد انتهاء طقوس (الخواخوة) بدعوة من التحمادة أو الأكبر سناً.
- بعد فترة من انتهاء (الخواخوة) الأول يطلب أكبر الضيوف سناً من (التحمادة) السماح له (برفع نخب) رداً على (الخواخوة) الأول ويرفعها وهو جالس إن كان كبير سن كما يبقى (التحمادة) جالساً في مكانه بينما يبقى الآخرون وقوفاً خلال عملية (الخواخوة).
- هكذا يتم تبادل رفع الانخاب من قبل الضيوف والمضيف وبحسب ترتيب السن أو المكانة ويكون المضيف آخر من يقوم بعملية (الخواخوة) إلا أن مراسمها تنتهي برفع نخب التحمادة، ويباشر الضيوف الذين ينهضون عن المائدة بإبداء تحياتهم الطيبة لصاحب الدار قائلاً (ليكثر الله من خيراتك وليتضاعف لديك الخبز والملح) فيجيب صاحب البيت (هنيئاً لكم ما أكلتم وشربتم). (٢٦).
- في حال ما تطلب الأمر أن يجري خلال رفع الانخاب طرق الاقداح، فإن الأصغر سناً يبقى كأسه أدنى مستوى من كأس الأكبر سناً.

المجموعة الأخيرة: وهي عادات اجتماعية متفرقة:

- * من العادات الاجتماعية المتعارف عليها بأنه لم يكن الإنسان الشركسي يهدي سلاحه أو (قلبه) (طاقيته) كما كان حريصاً كل الحرص أن يضعه في مكان مناسب، والويل إن قام بإسقاط قلبه شخص ما على الأرض أو أحد رماه على الأرض.. لأنه يمثل رمزاً لشرف الرجل الشركسي.
- * لم تكن تسمح العادات الشركسية أن يسكن أو يقيم الصهر في بيت أهل الزوجة مهما كانت الظروف والأسباب.

* جرت العادة ان لا يستعمل الشراكسة أية القاب عند التخاطب حتى إن التابعين (البشل) كانوا يخاطبون مرؤوسيهم بأسمائهم المباشرة، مع عدم مخالفة التقاليد باحترام الكبار في السن والمكانة..

* من العادات الشركسية ان لا يتباهى الشخص ببطولاته او انجازاته عامة وامام والده خاصة. والكاتب الشركسي (ت. م كيراشيف) يقدم لنا في روايته (الفارس الوحيد) وصفا لإحدى المواقف التي تعبر عن مدى تمسك الشراكسة بهذه العادة قائلا:

"... وصلت إلى مسامع الأب الأنباء عن الأعمال البطولية التي قام بها ابنه عندما كان الوطن يتعرض للخطر، ولا شك ان تلك الانباء كانت سارة جدا بالنسبة للاب، ولكنه لم يبد في تصرفاته الظاهرة للعيان أي مظهر من مظاهر السرور والاعجاب، ومع ان الابن كان في ريعان الشباب، فقد تفهم ذلك تماما وتصرف بشكل مناسب، وادرك انه من غير اللائق بالنسبة للرجل الشركسي التباهي امام والده بأعماله البطولية، ولكن وفي إحدى المرات وبعد انتصاره على الجميع من في مبارياته الرياضية، لم يتمالك نفسه وروى كيف هزمهم في مختلف أنواع الرياضات، وفورا وجه إليه والده ملاحظة قائلا يا بني: "إن من يتفاخر بالبطولات الصغيرة لن يحقق الكبيرة منها ابدا".

عادات (الشابشة) وهي الحفلات التي تقام للشباب الذي يجرح في الحرب أو الذي يصاب بكسر في احد اعضاء جسمه.

وفيها يقوم الشباب من الجنسين بزيارة المصاب في بيته وتنظيم حفل هادئ بهدف (الترفيه عنه) وتخفيف آلام الإصابه ومن أهم مراسم (الشابشة) هو تنظيم ألعاب خفيفة يشارك فيها الشباب من الجنسين، ومن هذه الالعاب لعبة "أوباوة" حيث تقوم إحدى الفتيات بصنع (قرص دائري من الخبز أو الكعك) القاسي وفي منتصفه (تفاحة) أو أي فاكهة أخرى دائرية الشكل ويعلق (القرص) في سقف البيت بحبل... وتبدأ اللعبة بوقوف اثنين من الشباب متقابلين وبينهما القرص الممتدلي من السقف (واليدان مشبكتين وراء ظهرهما)، ويتم أرجحة القرص مثل تأرجح (بندول الساعة)، وعلى كل من الشابين قضم قطعة من القرص في كل حركة... والشاب الذي يصل إلى (التفاحة) يفوز باللعبة، وتنتهي اللعبة في وسط من المرح والسرور والابتهاج.

العادات والتقاليد والطقوس التي (نسخت) او تغيرت مع تغيير المعتقدات الدينية والنظم الاجتماعية... الخ.

يجد الدارس للعادات الشركسية وتقاليدها واعرافها وطقوسها التي كان يمارسها قدام الشراكسة واجدادهم منذ الاف السنين حدوث (نسخ) او تغير او تعديل او إضافة أو الغاء، ومن أهم العادات التي نسخت بالكامل أو تغيرت مع مرور الزمان هي:

(١) نسخ عادة قتل المسنين

يقول (مخوص) يولد الإنسان طفلا صغيرا ويربى ويهدد حتى يكبر، فإذا أصبح مسنا اعدوه إلى المهذو وكالطفل هدهده، واعتنوا به وإن لم يمت أخذوه إلى جبل وتركوه، وحده هناك.

ومن القصص التي وردت في اساطير النارتيين، بأنه حدث في إحدى المرات أن حمل النارتي (بادينقو) والده على ظهره، وذهب به إلى الجبل ليرمييه حسب العادة القديمة، وزلت قدمه أثناء الصعود، فوقع فضحك والده، ولم يفهم (بادينقو)، كيف يضحك ابوه بدلا من ان يحزن، فسأله ما الذي اضحكك، فأجاب الوالد: يا بني، قبل سنوات طوال، وبينما كنت احمل والدي، في نفس هذا المكان، زلت قدمي في نفس هذا الطريق، فضحك والدي، ولم افهم ذلك في حينه، والان فهمت، لماذا ضحك، وإنني اعرف الآن، ان ابنك ايضا، سيحملك إلى هنا ويقتلك، لذلك اضحك!!^(٢٩) ونسخت هذه العادة بعد تلك الحادثة.

(٢) نسخ عادة قيام قاتل الزوج بزواج امرأة (عدوه) حتى ولو كان متزوجا.

(٣) الغاء من عادات نساء الجراكسة قديماً هو قيامهن بتصغير أقدامهن بوضعها منذ الصغر في احذية ضيقة ليعقن نموها ولتصبح شكلها صغيرة وجميلة، كما كن يلبسن مشدات في الوسط ليصبحن نحيلات الخصور ممشوقات الجسم.

(٤) الغاء عادة الخياطة حول صدور الفتيات

كانت العادة أن يخاط حول صدور الفتيات غلاف من الجلد قبل تجاوزهن السابعة من عمرهن كي يمنعن نمو الصدر ويكسبن الجسم قواماً ممشوقاً. وعندما تتزوج الفتاة كان على الزوج ليلة الزفاف ان يقطع خيوط الغلاف الجلدي المخاط حول صدرها (بالقامة) دون ان يؤذي صدرها او يحز في الغلاف نفسه، فإذا ما اخطأ أثناء ذلك واصاب جسمها او الغلاف الجلدي بجرح او خدش اعتبر ذلك عاراً عظيماً. وبعد ازالة الغلاف كان يبدأ صدر المرأة بالنمو السريع، ويتضخم ثدياها بسرعة فائقة حتى يكتمل نموها وهذه العادة القديمة بقيت متبعة حتى تهجير الشركاسة عام ١٨٦٤.

(٥) نسخ عادة الثأر من جميع افراد عائلة القاتل

كانت العادة عند حدوث قتل او اغتيال متعمد وغدراً بأن تقوم عائلة المغدور بالانتقام من كل فرد من ذوي عائلة وعشيرة القاتل صغيراً وكبيراً، أي أن اولاد القاتل كانوا يثأرون له واحدا واحداً دون تمييز.

واذا اراد القاتل الخلاص من الانتقام من قبل اقارب القاتل كان عليه ان يأخذ بنفسه او بواسطة احد اصدقائه ولدا ذكراً من بيت المقتول أو عائلته ويتخذه (قان) اي (ربيبا) وأن يعنى بتربيته كأحد اولاده او احسن منه، ثم يكسوه بأحسن ما عنده من الملابس ويهديه خير ما يملكه من الخيل والاسلحة، ثم يرده إلى بيت ابيه بكل حفاوة واکرام وبمراسم خاصة وفي هذه الحالة كان يعتبر هذا الغلام (المربي) مقابل دم ابيه القاتل.

(٦) نسخ العادات المرتبطة (بالخطف) بالاكراه او القوة

تغيرت العادات المتعلقة (بالكمين) للخاطفين وقتل الحصان، او قتل المهاجمين (في بعض الحالات) إلى عادة وضع عوائق على الطريق الذي يسلكه الخاطف واصدقاؤه وطلب فدية ان تمكنوا من اللحاق بهم... الخ.

وأما (الكواسية) بالطرق السلمية والشرعية ما زالت مطبقة حتى يومنا الحاضر في الوطن الأم وفي بلاد المهجر بشكل قليل جداً.

(٧) نسخ جميع الطقوس والعادات الوثنية التي كانت تطبق في حالة حدوث وفاة بعد اعتناقهم الديانة المسيحية ومن بعدها الدين الاسلامي الحنيف ولم يعد من تلك العادات الوثنية اية عادة اطلاقاً باستثناء (حدة اوس) وهي اقامة الولائم بعد الدفن مع بعض التعديلات عليها، فالولائم تقام في الوقت الحاضر بعد (الاربعين) يوماً من الوفاة، اما عادة التمثيل بإطعام الميت من قبل الال فقد نسخت واستبدل بها إطعام الفقراء والمساكين.

(٨) نسخ عادة قيام الزوجة بزيارة قبر الزوج مدة اربعين يوماً والجلوس على القبر عدة ساعات يومياً، وكانت تسمى عادة (الجلوس على القبر) بل العكس، فإن العادة وحسب الشريعة الاسلامية بأن الزوجة تبقى في المنزل ولا تخرج اطلاقاً إلا في حالات المرض او الضرورة القصوى حتى انتهاء مدة (العدة) وهي ثلاثة اشهر.

(٩) نسخ عادة (الديور) وهي العادة التي ادخلها الشيوخ (المولا) الاتراك إلى بلاد الشركاسة في الوطن الام وكانت هذه العادة متمثلة بمفهوم (شراء ذنوب وخطايا الشخص المتوفى) من قبل الحاضرين في الجنازة.. حيث كان يطلب (المولا) من أهل المتوفى وضع مبلغ من المال داخل (صرّة) والقيام بتمرير هذه الصرة من شخص إلى شخص آخر من الاشخاص العائدين من الجنازة الذين كان يصطفون في ساحة منزل المتوفى.. وكانت مراسم (الديور) تتمثل بتمرير (الصرّة) التي تحتوي على نقود من يد (المولا) أولاً إلى الشخص الذين يقف على يمينه قائلاً

(هل تقبل شراء ذنوب وخطايا المتوفى) فيجب الشخص المتلقي للصرة (نعم قبلت ذلك) ... وهذا يمرر (الصرة) بدوره للشخص الذي يليه... وهكذا إلى ان تعود الصرة (للمولا) او الشيخ فتصبح الصرة بما فيها من اموال من حق (المولا) أو (الشيخ).

١٠) نسخ عادة انتقال الزوج إلى بيت الزوجة وكذلك توريث اهل الزوجة بعد انتهاء سلطة الام وانتقال السلطة لدى قدماء الشراكسة إلى الاباء.

١١) الغاء العادات المرتبطة بالطبقية بعد انتهاء عهد سيطرة الامراء (البشي) والنبلاء (الاوزدن) والرؤساء (التحامدات) خاصة ما يتعلق منها بالاتباع (البشل) والخدم (ونه - وت) وكذلك عادات منع التزاوج بين انسال الامراء والنبلاء والامراء وبين الفئات الاخرى من طبقات الشعب.

حاضر ومستقبل العادات والتقاليد والاعراف (الخابزة) الشركسية في الوطن الام وفي بلاد المهجر

ان من اكثر القضايا القومية التي تشغل بال المفكرين والمهتمين بالدراسات القومية الشركسية والتراث القومي داخل الوطن الام وخارجه في بلاد الشتات هو حاضر ومستقبل العادات القومية الشركسية (الخابزة) التي يعود تاريخ بعضها إلى آلاف السنين، والبعض الآخر إلى اكثر من ثلاثمائة سنة ومن اكثر الباحثين والباحثات الشراكسة الذين يبدون تخوفا كبيرا على حاضر ومستقبل العادات الشركسية (أديغا - خابزة) هي الكاتبة الشركسية (رايا مامخيغ) التي قدمت دراسة في كتابها (لمحات عن العادات والتقاليد الشركسية) ونقتبس منها الفقرات التالية:

"أما فيما يخصنا نحن (الأديغا) فقد آن الوقت من زمن للتوقف والتمعن: هل نحن اليوم فعلا شراكسة مقارنة (بالأديغاخابزة) والتقاليد الشركسية، نحن الذين ساد الزي الوطني الخاص بنا منطقة شمال القفقاس كلها، بما في ذلك جورجيا ولدى قوزاق نهر تيرك وكوبان؟!

وتقول أيضا: "يجب ان نملك الشجاعة للاعتراف: كلا للأسف لقد فقدنا الكثير ولا زلنا نفقده مع الزمن، ولهذا أسبابه طبعاً منها ما هو موضوعي ومنها الذاتي، ولكن السبب الاساسي يعود إلينا، وإلى التربية البيئية والأسرة الشركسية".

وتستطرد (مامخيغ) قائلة:

"...الناموس الشركسي هو فخرنا القومي والذي لا يعرفه إلا القليلون في أيامنا هذه: أي مواصفات اخلاقية يفترض وجودها لدى الشباب والفتيات؟ وما حدود السلوك المرسومة لكل نواحي الحياة والنشاط الاجتماعي والإنساني؟"

"إلا أن الصفات القومية والشخصية الوطنية تختفي رويدا رويدا عند افتقاد اللغة القومية، وتختفي معها الثقافة الوطنية والتاريخ ايضا.

فما الذي سيمحو آثامنا؟

"بعد ثورة أكتوبر اعجبنا كلنا بـ "الاتحاد الابدي للجمهوريات الحرة"، و"الاخ الأكبر العظيم والصداقة الأممية"، ولم يتعمق الكثيرون منا في مغزى الكلمات (قومية في الشكل واشتراكية في المحتوى).

"وبغرض تربية الأجيال الشابة، بذلت أجهزة الراديو والتلفزة الروسية المركزية، جهودها وأصبحنا نمارس عادة التخاطب باللغة الروسية وبالأغاني والحكايا والثقافة الروسية، والأدب والتاريخ الروسي، حتى إننا في وقت ما كدنا ننسى اننا شراكسة، ونجمل إن تذكرنا ذلك.

وقالت أيضا: وحين استيقظنا في (البيروسترويكيا) وجدنا انفسنا، اننا لم نصبح روسا بعد ولكننا لم نعد اديغا، وأي أديغا نحن؟ إذا كان شبابنا وخاصة في المدن لا يكتبون ولا يقرؤون ولا يؤلفون بلغتهم الأم؟ ويمكنهم التعرف على مؤلفات الكتاب الشراكسة والشعراء والنقاد فقط من خلال اللغة الروسية (بعد الترجمة)، حتى تاريخ الشعب الشركسي لا يصل إليهم باللغة الروسية.

ثم تساءلت قائلة: "من الواضح ضمن هذه الظروف في أي حال هو مستوى معرفتهم بالأديغة خابزة والناموس الشركسي".

ومما يدعو للحزن والشفقة والسخرية ان نرى العديد من الشباب المتقف (إلى حد ما) يتحدثون مفاخرين بالصفات القومية (للأديغة) التي تذكرها مؤلفات الكتاب الأوربيين دون أن يخجله أنه هو نفسه لا يمتلك هذه الصفات. وللأسف فإن العديد من كبار السن ابتعدوا أيضا عن الاهتمام بتربية الشباب وحتى بالنسبة للمقربين منهم متماشين مع واقع الحال.. (إن الزمن الحاضر هكذا ومن غير الواقعي أن تخالف هذا الواقع).

نعم. إن الزمن الحالي صعب، وأصبح الناس أكثر جلافة ومادية وأتانية، أما الرومانسية وحب الجمال فقد اندحرا امام أفضلية المصلحة الشخصية وحب الذات، ويضيع أثر الصداقة الحقيقية والإخلاص للواجب، وما كان شائعا كونه مفخرة سكان القفقاس (احترام كبار السن) مهدد بالانقراض.

من المعروف ان كل أمة لها فكرها القومي الخاص وهو في أساس صفاتها القومية، وهذا ما يجب أخذه بالاعتبار عند تربية الاجيال الناشئة، وإذا لم نغذ في الشباب الناشئ فكره الوطني والقومي الخاص فمن الممكن ان يتربى طبيعيا بأفكار قومية أخرى، وسيعيش غريبا بتفكيره، ومفتقدا لقوميته، وليس علينا ان نذهب بعيدا لنحصل على مثال عما يحدث لشبابنا اليوم فحياتنا اليومية وسلوك شبابنا خير دليل على ما نقول.

فليس من النادر ان تسمع في أيامنا هذه احكاما مثل: "... من له الحق في إيماننا هذه، أيام العهد الديمقراطي ان يلزمنا بتدريس اطفالنا بلغة الأديغة؟!". ليست هذه إشارة الخطر؟ خاصة عندما تصدر من رئيس مجموعة تدريسية تمارس منذ زمن تعليم وتربية الاجيال الناشئة لبلدة كاملة؟! إن منافساتنا بخصوص مواضيع ممارسة العادات قد أماطت اللثام عن الكثير من الضياع وخير دليل على ذلك هو ما قالته إحدى شابات في القبرطاي قبل إقدامها على الزواج: "سوف ابدأ حياتي الزوجية بأن أوقف زوجي عند حده قبل كل شيء" ويمكن التكهن أيضا أنها اخذت بالحسبان اهل زوجها وحددت لهم مكانتهم...

نعم لقد وصلنا إلى هذا الحد من تجاهل العادات الشركسية متجاهلين الاسس الوطنية، وبالنتيجة وعوضا عن تكون مجموعة متصادقة من مختلف القوميات تكونت أجيال من الناس (مسلوخة) من مميزاتها القومية.

وتختتم (مامخيغ) مخاوفها من اندثار واختفاء العادات والتقاليد الشركسية بقولها:

"واليوم عندما تؤثر المسألة المعاشية على طريقة تفكير الناس بشكل رهيب، وتقضي على تصوراتهم السابقة عن الحدود الاخلاقية، نرى أنه من الضروري العودة بشكل خاص إلى أفضل ما في عاداتنا القومية وتقاليدنا، وأن ندعوها لتساعدنا في تربية اجيالنا القادمة".

كما تقول: طبعاً يجب التعامل مع هذا الموضوع بشكل موضوعي، والأخذ بالاعتبار الخصائص الزمنية والمتطلبات المعاشية والاخلاقية لمجتمعنا الحالي.

ونحن ندرك أن ليس كل ما تحويه العادات الشركسية يمكن الأخذ به حالياً ونطبقها في حياتنا الحاضرة، بل نوافق على هذه، وندع ذاك بحسب الواقع، وإنما المهم هو دراسة هذه العادات بعمق وتحليلها بشكل موضوعي ومبدع، وتحديد الغاية الاخلاقية من كل منها، والمتماشية مع التراث الفكري الانساني.^(٣٠)

وكذلك فإن (ينال إيبار) يقول في كتابه (لمحات عن عادات الابخاز): (إن المحافظة على العادات لا تتم عن طريق تعليبها كما هو الحال بالنسبة للأصنام المقدسة، وإنما فقط من خلال الحياة اليومية وسلوك الناس، إن التقاليد تعيش وتؤثر باستمرارها فقط في المجتمعات الإنسانية، وإذا توقفنا عن الأخذ بهذه التقاليد ولو لجيل واحد فقط، فقدت للأبد بدون أي امل بإعادة بعثها في المستقبل).^(٣١)

* العوامل الداخلية والخارجية التي لها علاقة على درجة تطبيق العادات والتقاليد وعلى مستوى الحفاظ على التراث القومي الشركسي

يستنتج الدارس عن كل ما كتب حول حاضرمستقبل (الأديغا خابزة) في الوطن الام وفي دول الشتات في المهجر عامة وفي الدول العربية وتركيا خاصة. بأن العادات والتقاليد القومية الشركسية مطبقة في الوطن الام، وفي بلاد المهجر، إلا ان تطبيقها يختلف باختلاف العوامل التالية:

العامل الأول: مكان السكن والإقامة الدائمة:

سكان القرى والمدن الصغيرة ذات الاغلبية الشركسية ما زالوا يطبقون العادات الشركسية بشكل جيد ويحافظون على التقاليد القديمة دون تبديل او تغيير، اما سكان المدن الكبيرة فإنهم اصبحوا اقل التزاما بالعادات والتقاليد.. وان هذه العادات تأثرت بعادات وتقاليد المجتمعات غير الشركسية الذين يعيشون في الوطن الأم إلا أن الشراكسة الذين يعيشون في المدن الكبيرة في بلاد المهجر هم اكثر تأثرا منهم في الوطن الام.

العامل الثاني: العمر

الشراكسة الاكبر سنا اكثر تمسكا بالعادات والتقاليد الشركسية القومية من الاصغر سنا في كل من الوطن الام وفي بلاد المهجر.

العامل الثالث: نوع التجمعات الشركسية وطبيعتها في الوطن الأم وبلاد المهجر

تشير الدراسات بأن الشراكسة الذين يعيشون في مجتمعات شبه مغلقة داخل المدن الكبيرة ذات الاغلبية غير الشركسية في الوطن الام او في بلاد المهجر اكثر حفاظا على العادات والتقاليد من الشراكسة الذين يعيشون في المجتمعات المحلية غير الشركسية. وحكمهم هو نفس حكم الذين يعيشون في القرى او المدن الشركسية.. فكل ما كانت البيئة الشركسية هي الغالبة في أي مجتمع، كان التمسك بالعادات أفضل كما هو الحال لدى الشراكسة الذين يعيشون في كل من ولايتي نيوجرس في باترسون واناهايم في كاليفورنيا، وكذلك بالنسبة لشراكسة دمشق الذين كانوا يعيشون في حي المهاجرين، وشراكسة الاردن الذين كانوا يعيشون في كل من مناطق الشابسوغ وجبل عمان القديم والمهاجرين، فإن محافظتهم على العادات كانت اكثر بكثير من الذين عاشوا في اماكن متفرقة في المدن الاردنية.

العامل الرابع: وهو عامل الزمن من حيث قرب وبعد وقت الهجرة من الوطن الام

من الواضح جدا بأن عامل المدة التي مرت على هجرة الشراكسة من الوطن الام وعلى مدة تواجدهم في بلاد المهجر، له اثر كبير على القدرة في المحافظة أو التمسك بالعادات والتقاليد الشركسية مثلما حدث مع شراكسة مصر في عهد ملوك الشراكسة الذين انتقلوا بطريقة وأخرى من الوطن الام إلى الديار المصرية ابتداء من القرنين الثاني والثالث عشر بعد الميلاد الذين تشتتوا ايضا (بعد مذبحة القلعة في عام (١٨١١م) في كل من السودان وليبيا، وسوريا والعراق. حيث لم يعد للعادات والتقاليد الشركسية بين هذه الفئة من شراكسة الشتات وجود، وإن كان جيل الاحفاد يتذكرون بعض العادات التي كان يمارسها الاجداد، وأنهم معززون بانتمائهم للأمة الشركسية، وكذلك الأمر بالنسبة لأحفاد الشراكسة الذين هجروا وطردوا من الوطن الام قبل انتهاء حرب الإبادة والدمار الروسية او بعد انتهائها مباشرة فإن هؤلاء الاحفاد أقل تمسكا بالعادات والتقاليد من أحفاد الشراكسة الذين هاجروا في مراحل زمنية لاحقة، أي ان عامل الزمن يؤثر تأثيرا سلبيا على درجة التمسك بالعادات والتقاليد في حال غياب او في حال عدم توفر العوامل الأخرى سابقة الذكر.

العامل الخامس: درجة تقبل الانظمة السياسية للشراكسة في بلاد المهجر

نستنتج من الخبرات التي مرت بها الشعوب والمجتمعات الشركسية في بلاد المهجر بأن الانظمة السياسية المطبقة في تلك البلاد كانت لها ادوار سلبية وأخرى ايجابية كبيرة على درجة ممارسة الشراكسة لعاداتهم وتقاليدهم وتراثهم القومي... والأمثلة (السلبية) على ذلك كثيرة نذكر منها ما يلي:

المثال الأول: تمسك الشراكسة في تركيا في عهد العثمانيين كان أكثر بكثير من تمسكهم فيها في عهد (كمال أتاتورك) الذي حارب القومية الشركسية وأصدر الأنظمة والقوانين التي تحرم على الشراكسة التحدث بلغتهم وممارسة عاداتهم والاحتفاظ بترائهم القومي حتى وصل الأمر من التطرف بأن أصدر قانوناً يحرم استخدام أسماء العائلات الشركسية وتغييرها إلى أسماء تركية.

المثال الثاني: كان تمسك الشراكسة في سوريا في عهد العثمانيين أكثر بكثير من الفترات اللاحقة التي تم فيها إلغاء المدارس الشركسية وجريدة (مارج)، وتغيير أسماء مؤسسات المجتمع الشركسي من جمعيات خيرية تعاونية قومية شركسية إلى جمعيات المقاصد الخيرية وحذف (اسم الشركسية منها).

المثال الثالث: ظل الشراكسة في الديار المصرية حتى انتهاء حكم دولة الشراكسة فيها وبدأ حكم العثمانيين فيها وكذلك تاريخ بدء حكم (الالبانيين) في عهد محمد علي الكبير أصبح ممارسة العادات الشركسية وتقاليدها من المحرمات بحكم مقاومة العثمانيين أولاً ، وتخلص محمد علي الكبير من المصريين من أصول شركسية ثانياً، حيث تم القضاء التام على هذه العادات وتلك التقاليد ولم يعد لها وجود في تاريخ مصر المعاصر.

وأما الأمثلة الإيجابية على علاقة التمسك بالعادات والتقاليد بالانظمة السياسية والايديولوجيات في بلاد المهجر فهي أيضاً كثيرة تذكر منها:

المثال الأول: استمر تمسك الشراكسة في الاردن بالعادات والتقاليد لفترات أطول من غيرها من المجتمعات في الدول العربية الأخرى بفضل دعم وتشجيع نظام الحكم الهاشمي في الأردن، وأن هذا الدعم ساهم كثيراً في الحفاظ على التقاليد وفي المحافظة على الفلكلور القومي الشركسي مثل (الرقص) حتى أصبح هذا الفلكلور جزءاً من فلكلور الشعب الأردني، وكذلك بقاء تماسك المجتمعات الشركسية وتطور مؤسساتها الشركسية وتزايد أعدادها، وتزايد أعداد المؤسسات التعليمية التي تهتم بتدريس اللغة الشركسية وتعليم الفلكلور الشركسي عامة والرقص الشركسي خاصة، ويوجد في الأردن اليوم ثلاث فرق فلكلورية على مستوى فني عال جداً، كل ذلك بفضل وتشجيع السلطات الأردنية عامة والشعبية خاصة، وبفضل دعم الاسرة الهاشمية الحاكمة في الأردن ابتداءً في عهد الملك عبدالله المؤسس لامارة شرق الاردن في عام ١٩٢١ ومروراً بعهدي الملك طلال بن عبدالله، والملك حسين بن طلال في الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٩٩ وحالياً في عهد الملك عبدالله الثاني الذي سار على درب الاباء والاجداد في دعم وتشجيع شراكسة الأردن على التمسك بعاداتهم وممارسة فلكلورهم والحفاظ على هويتهم القومية الشركسية.

المثال الثاني: ان الشراكسة في الدول التي تتعامل مع الشراكسة في بلادها (كأقليات إثنية)، مثل الولايات المتحدة الأمريكية، واسرائيل، والدول الأوروبية عامة، وفي ألمانيا وهولندا وبلجيكا وفرنسا خاصة... أكثر قدرة على التمسك بعاداتهم وتقاليدهم ولديهم الحرية الكاملة للاحتفاظ بهويتهم القومية، من خلال منظمات ومؤسسات المجتمع المدني فيها إلا ان قلة أعداد الشراكسة في هذه البلاد، وصغر حجم المجتمعات الشركسية فيها تؤثر تأثيراً سلبياً على استمرار تطبيق وممارسة العادات والتقاليد الشركسية فيها.

مراجع ومصادر الفصل الرابع

- (١) أبه - زاو، مصدر سابق، ص: ٢١٠.
- (٢) نغموقة، مصدر سابق، ص: ١٨٠.
- (٣) خوانقوه نادية حربي، خالدون، قازانوقه جباغي، مجلة نارت، العدد (٥٥) السنة (٢٤)، ١٩٩٥.
- (٤) دغوظ، فؤاد يجي، محاضرة حول الاديغة خابزة في الجمعية الشركسية في عمان ١٩٨٩/٧/٨ ص: ١-٩.
- (٥) مامخيغ، رايا عادل، لمحة عن العادات الشركسية، نشر باللغة الروسية في نالتشك في جمهورية كبادونيا بلقاريا، عام ١٩٩٣: وترجمه إلى اللغة العربية، نزيه جلاحج، دمشق عام ٢٠٠٥، ص: ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٨.
- (٦) ببرغ، ايفان فيدروفيتش (رحالة روسي) حياة الشراكسة في شمال القفقاس (١٨٣٠-١٨٤٠).
- (٧) بل، جيم (رحالة انجليزي) كتب عن عادات الشراكسة وحياتهم الاجتماعية بعد أن تجول في بلاد القبرطاي وتشيركسيا أعوام ١٩٣٧-١٨٣٩.
- (٨) س. ب بويكو، الخداع في القفقاس، ونقلت عنه (مامخيغ) في كتابها لمحات عن العادات الشركسية، مصدر سابق.
- (٩) دي مونبير، فردريك، جغرافي وعالم طبيعة ومختص في الآثار، عاش في الاوساط الشركسية عام ١٨٣٣ وكتب عن حياة الشراكسة وعاداتهم وتقاليدهم في شيء من التفصيل.
- (١٠) انتريانو، جورجيو، تاريخ الزيوخ (أجداد الشراكسة) عام ١٨٣٢.
- (١١) يخول، عاطف سعيد طاس، مقالة بعنوان سنة حلوة يا جميلة (من التراث الشركسي) دراسة منشورة في مجلة الاخاء، الصادرة عن فرع جمعية وادي السير.
- (١٢) جنكات، محمد خير، دراسة حول النظام التربوي مجلة الواحة عدد (١٣) السنة الثانية لعام ١٩٧٦ ص: ٨-٩.
- (١٣) برزج، نهاد، تهجير الشراكسة، منشور باللغة التركية ترجمة عصام حتك، عمان ١٩٨٧، ص: ٨٧-٨٨.
- (١٤) مامخيغ، رايا، مصدر سابق، ص: ٨٩.
- (١٥) المصدر نفسه، ص: ٩٠.
- (١٦) شركس، مصطفى، التربية الشركسية، مصدر سابق، ص: ٩.
- (١٧) باولي، جون، كتاب احتلال القفقاس، ونقلت عنه رايا مامخيغ في كتابها لمحات عن العادات الشركسية.
- (١٨) مامخيغ، رايا، مصدر سابق، ص: ٩٠.
- (١٩) المراجع الخاصة بالعادات المتعلقة بالزواج.
- (٢٠) مامخيغ، رايا، مصدر سابق، ص ١٣١-١٣٥.
- (٢١) اوزبك، باتريك، مصدر سابق، ص: ٧٥.

- (٢٢) المصدر نفسه، ص: ٧٣.
- (٢٣) ل. غ. باغايتسييفا، العلاقات بين الشباب والفتيات في المجتمعات الشركسية، ص: ٩٦-٩٨.
- (٢٤) مامخيغ، رايا، مصدر سابق، ص: ١٤٢-١٤٣.
- (٢٥) ن. دوبروفين، الشراكسة، كورسندار عام ١٩٢٧.
- (٢٦) مامخيغ، رايا، مصدر سابق، ص: ١٤٣.
- (٢٧) ب. خ، بغاجنكوف، المرجعية الفكرية لتعابير التمني في اللغة الشركسية المنشور باللغة الشركسية في الأديغة.
- (٢٨) مامخيغ، رايا، مصدر سابق، ص: ١٢١-١٢٢-١٢٤.
- (٢٩) مخوص، ارسلان، مصدر سابق.
- (٣٠) مامخيغ، ريا، مصدر سابق، ص: ١٩-٢١.
- (٣١) ايبار، ينال، لمحات عن عادات الابخاز، ص: ٢٠.
- (٣٢) جموخة، امجد، مصدر سابق، ص: ١٩٧-١٩٨.
- (٣٣) يخول، عاطف الحاج طاس، مجلة الاخاء، الجمعية الخيرية الشركسية، فرع وادي السير، الأردن، العدد (١٢٢) اصدار شهر حزيران ٢٠٠٥، ص: ١٤.
- (٣٤) مامخيغ، رايا، مصدر سابق، ص: ٣١-٣٣. (نقلا عن كتابات جيم بل، الرحالة الانجليزي الذي تجول في بلاد القبرطاي وتشركيسيا في الاعوام ١٩٣٧-١٩٣٩، مصدر سابق.

الفصل الخامس

الخصائص والصفات القومية المميزة للإنسان الشركسي منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث

يؤكد علماء الأنثروبولوجيا عامة والمختصون منهم بعلم دراسة الاجناس خاصة، بأن الرجل الشركسي كان يتصف بصفات قومية محددة ويمتلك خصائص نفسية وعقلية واخلاقية واجتماعية ومدنية ميزته عن غيره من الرجال في عصره، وان العشرات من علماء التاريخ واختصاص دراسة الاقوام، وكذلك العشرات من الادباء والشعراء والمؤرخين والرحالة تحدثوا دون تحفظ عن الصفات والخصائص والمزايا والخصال الحميدة التي كان يتحلى بها ((الرجل الشركسي)) منذ القدم مما جعل الشراكسة قوماً يتميزون برجولة رجاله ورزانة وجمال نسائه.

أولاً: أهم الصفات (القومية) التي تميز شخصية ((الرجل الشركسي - الأديغا - له)).

الصفة الاولى: الشجاعة والرجولة والمروءة:

ان من أهم الصفات القومية التي تميز شخصية الرجل الشركسي هي الشجاعة - ونستدل على ذلك من اقوال وكتابات العشرات من علماء الاجناس والمختصين في دراسة الشعوب القومية، كما هو مبين في الاقتباسات التالية:

كتب العالم المجري المختص بدراسة ثقافة الشعوب "جان شارل دي بس" عام ١٨٢٩ في أثناء جولاته.

"على الرغم من ان الشراكسة شعب كبير، شجاع ومقدام وصامد، إلا أن الأوروبيين يعرفون القليل عنهم، لذلك لن يكون من قبيل الإطالة إضافة بعض الملاحظات عن صفات هذا الشعب وهذا ما سأفعله، واستطرد قائلاً:

"... لقد ذكر اسلافي من الكتّاب والرحالة أن كلمة شركسي مأخوذة من مقطعين في اللغة التتارية نصفها يعني ((طريق)) ونصفها الآخر يعني ((قاطعاً)) ولكنهم لم يفكروا بأخذ معنى الكلمة من الصفات الحقيقية لهذا الشعب ويقول مستدركاً:

"يجب الانتباه إلى ان معنى مقطعي الكلمة باللغة الفارسية هو (ذات شخصية ورجولة فائقة او محارب شرس) ومن هنا نستنتج ان ((الفرس)) هم من أعطوا التسمية الحالية للشراكسة، وأنا أمل ان علماء دراسة ثقافات الشعوب سوف يجدون الأصل العلمي واللغوي العادل المتناسب مع نظرهم للموضوع"^(١).

ثم يتابع قائلاً:

وأما القس الايطالي (جوفاني لوكا) قاد مهمة تبشيرية إلى القرم في القرن الثامن عشر ونفتبس هنا مقاطع من كتابه:

"... وفي تلك الغابات كان واحد من الأديغا يجبر عشرين تتارياً على الفرار من أمامه.. إنهم يحترمون الكبار كثيراً... أهم شراب لدى هذا الشعب هو الماء المغلي مع العسل والمضاف إليه دقيق (البروسا) حيث يترك لفترة عشرة أيام لتخمّر^(٢) وكذلك فإن ((مارتن برونوفسكي)) الدبلوماسي البولوني يتحدث في كتابه ((منطقة بيتيغورسك وسكانها)) الصادر في كيلين عام ١٥٩٥ باللغة اللاتينية والذي صدرت منه عدة طباعات وترجم إلى عدد من اللغات، عن القبرطاي وصفات الشراكسة كالشجاعة والبراعة العسكرية والكرم والنبالة.^(٣)

وأما "دورتيلي" فإنه يبرز المزايا القتالية للشراكسة بقوله: "... إنهم /يقصد التتار/ يهابون الذهاب إلى تشركيسيا حيث يتواجد هناك شعب مقاتل للغاية" كما يقول:

"... إن الشراكسة يفخرون بأصولهم ودمائهم النبيلة، ويكن لهم الاتراك احتراماً بالغاً ويدعونهم (تشيركيسي سباغا) أي الفرسان الشراكسة النبلاء.^(٤)

وأما "جورج انتريانو" من جنوا في إيطاليا كتب حول أصول الشراكسة في عام ١٥٠٢، ونقّس منها الفقرات التي تتحدث عن شجاعة الشراكسة وشهامتهم ورجولتهم فيقول:

"وحيث ينأمون في فراشهم يتوسدون دروعهم المصنوعة من الحلقات الحديدية المتصلة ويضعون باقي أسلحتهم على جوانبهم لكي تكون في متناول يدهم إذا قاموا من نومهم فجأة، وفراشهم مصنوع من الجلد المملوء بالقش.

"... وأما مساكنهم فمصنوعة من الخشب والقصب إذ من العار عندهم أن يحيط سيد أو أمير بيته بسور عال، أو حائط مرتفع، أو يبني لنفسه بيتاً من الحجر، لأنهم يعتبرون ذلك دليلاً على جبنه وضعفه، وأنه عاجز عن حماية نفسه، ولا تجد في طول البلاد الشركسية وعرضها سورا أو حصناً، فيسكنون تلك البيوت الخشبية البسيطة".

"... وأما القلاع والحصون القديمة الباقية في بلادهم فلا يستعملها إلا بعض الفلاحين لايواء الحيوانات أو حفظ الغلة فيها وغير ذلك، والنبلاء منهم يخلطون من الاختباء فيها، وهؤلاء يصنعون السهام بأيديهم وهم على ظهور خيلهم ويتقنون صناعتها كل الاتقان حتى أنه يمكن القول بأنه لا مثيل لها في أقطار المجاورة لبلادهم".

ويقول أيضاً:

"... وأنهم يحلقون شعر صدورهم كلما أرادوا خوض معركة لأنهم يعتبرون من العار أن يجد العدو شعراً على صدورهم، وفي الحرب يقدفون على بيوت أعدائهم المصنوعة من الخشب والقش مصنوعة من الخشب.

ويختتم كلامه بقوله:

"ومما لا شك فيه أن مقدرتهم الحربية عظيمة حتى أن فئة قليلة منهم تكفي لقهر جيش من التتر، لأنهم أمهر منهم بكثير في الأمور الحربية، ويساعدهم على ذلك جودة أسلحتهم الدفاعية، فهي الخوذة الحديدية للرأس التي هي على النمط ((البونتي)) أي البحر الأسود، ولها حزام عنقي يربطها بالفك الأسفل وتشبه الخوذ التي تراها بالتمائيل القديمة^(٥).

وتقول (ماميخغ) بأنه كان من الصفات المتعلقة بالشجاعة، هو كتم مشاعر الألم، وقالت بأن أحد الشباب كان مصاباً بجرح قاتل كان يبذل أقصى جهده وقواه لكي لا يصدر أنيناً بحضور والده، مع أن كل من شاهده كان يدرك أن قواه على حافة الانهيار، ولكنه يبدي تماسكه ورباطة جأشه أمام والده ويتكلم بكل هدوء، وأما الأب الذي تفهم وضع ابنه فقد سارع في الخروج. كما تقول (ماميخغ) بأن التاريخ نقل لنا جمالية ورجولة وشهامة الرجال الشراكسة وإخلاصهم لوطنهم وقلقهم المستمر حول مصير شعبهم، وإن هذه الصفات القومية للرجل الشركسي قد انتشرت بعيداً وأثارت اهتماماً كبيراً لدى الأوساط التقدمية في أوروبا.

وقال الحسن بن عبد الله العباسي في كتابه "آثار الأول في ترتيب الدول" عند ذكره لأجناس البشر (والوفاء والحنو في الجركس والآلفة أيضاً)، كما قال العلامة "جودت باشا" جبت أرضهم طولا وعرضاً فوجدتها نظيفة طاهرة من جميع الأدران ووجدتهم قوماً عقلاء قابليين للحضارة والمدنية وذوي شجاعة وجسارة صادقين في أقوالهم ثابتين فيها لا يتكلمون بالكذب أصلاً، ولا يحلفون إيماناً كاذباً.

وكان من علامة شجاعة الرجل عند الشراكسة القدماء أن يحلق شعر صدره حتى لا يكون حاجزاً بينه وبين سلاح خصمه، ومن يتركه يعد جباناً يخاف الموت كما كان المقاتلون الشجعان يُكافأون بجعل مكانهم في الصفوف الأمامية للجيش ليكونوا الدرع الواقي لباقي المقاتلين. كما كان من العار أن يظهر المقاتل الشركسي جبناً أو خوفاً أو فر من ساحة المعركة، حيث كان من نصيبه

الاحتقار والازدراء كما كانوا يلبسونه ((قبعة قذرة ويركبونه جوادا أجرب)) ويعرضونه أمام الجماهير، وهم يلاحقونه بالتصفيق والتشهير والاستهزاء كما كان تفرض عليه غرامة بقيمة (ثورين) على الأقل.

الصفة الثانية: صفة اللباقة في التعامل مع الكبار والجنس الآخر:

يقول العالم المجري (جان شارل) "... إذا ما صادف فارس شركسي امرأة راجلة في طريقه فإنه يترجل ويعرض عليها جواده، وإذا رفضت فإنه يبقى ماشيا إلى جوارها حتى تصل إلى منزلها".

ويقول "انتريانو" "الشراكسة لبقون مؤدبون للغاية في تعاملهم، وعندما يتحدث أحدهم إلى من هو أكبر منه لقبا فإنه يحمل قبعته بيده، وإن هذه اللباقة لم تكن لباقة أنية وإنما هي من الصفات المتأصلة في المواقف التي تتطلب ذلك".

الصفة الثالثة: الصفات الجسمية التي يتميز بها الرجل الشركسي

كتب الداعية السياسي الانكليزي "جيم بل" الذي مثل أكثر اوساط البرجوازية الانكليزية عدائية للشراكسة، والذي سره الاستيلاء على شواطئ البحر الاسود في أعوام ١٨٣٧-١٨٣٩ بما فيها تشركيسيا:

"... لقد أدهشني عدد الأشخاص ذوي الطلعة الجميلة في عداد المجتمعين، وفي تقاطيع وجوههم الرائعة وقاماتهم المديدة، والصدور العريضة، والأكتاف المتينة مع خصور نحيلة، وأقدام متوسطة الحجم، كل ذلك يضاف إلى العيون المشبعة بالحيوية بشكل مذهش.. واستطرد قائلا: "... في أثناء وجودك هناك يمكنك القول بكل ثقة إن هؤلاء الرجال هم خير عطاء قدمته هذه الأرض..."^(٦)

كما اعترف الدبلوماسي الرحالة ((ابري - دي - لاموتر)) الذي تجول في بلاد الشراكسة في القرن الثامن عشر بأنه تعلم من الشراكسة طريقة التطعيم ضد مرض الجدري وقال: "... لقد لاحظت أن جميع الشراكسة جميلو الوجوه ولا يحمل أي منهم بقايا مرض الجدري، ولقد قررت أن أوجه سؤالاً: ألا يوجد سر ما في حماية أنفسهم من البشاعة التي يخلفها هذا المرض عدو الجمال لدى غيرهم من الشعوب؟ وقد اجابوني بثقة أن التطعيم يعطي من يحتاج إليه" ولذا قررت ان اشاهد هذه العملية بنفسى إن امكن وسألت في كل القرى التي زرتها عن الحالات التي عولجت بهذه الطريقة حتى وجدت حالة لطفلة في الرابعة اجريت لها هذه العملية، وبعدها طلبت منهم تعليمي سر ذلك^(٧). ويتابع في الوصف قائلا: "إن سكان السواحل من الشراكسة طوال القامة، ذوو اجسام متناسقة وانيقة، وهم يحرصون دائما على الحفاظ على هذا الجمال بشد خصورهم بالقشط الجلدية، ومشيتهم خفيفة ورشبية، برؤوس متطاولة وعيون داكنة، أما انوفهم فهي دقيقة، وجميلة، وعظام الفك طويلة وحسنة المظهر...". ومن أكبر الاساءات في المجتمع الشركسي الزواج غير المتكافئ اجتماعيا".

وأما الجغرافي العربي المسعودي يقول: "إن لهذا الشعب اخلاقا حميدة، ولا يوجد اي شعب آخر من الشعوب التي تقطن في هذه الأرجاء أو في الأقاليم الأخرى من عنده من الكمال الجسماني والكمال الاخلاقي واللون الصافي...! مثل هذا الشعب اطلاقا، ولا يوجد اي مكان آخر في العالم مثل هؤلاء الناس في رشاقة أجسامهم وتناسق اضلاعهم ونحافة خصورهم وتناسب اضلاعهم... وهو يريد أن يقرر حقيقة انترولوجية عرفت في العصر الحديث وهي أن الشراكسة هم من اصل العرق الأبيض المعروف بالعرق القفقاسي^(٨).

وأما ((انتريانو)) الرحالة والجغرافي الايطالي وعالم دراسة تاريخ الشعوب "إن هؤلاء الزيوخ ((التسمية القديمة للشراكسة)) جميلو الطلعة بغالبيتهم ومشوقو القوام، وقد تصادف في القاهرة اناسا متميزون بضخامة اجسادهم من الممالك والأمراء وهم بغالبيتهم كما يقال من هذه القبائل، ويمكن ذكر الشيء نفسه عن نساءهم اللواتي يعتبرن في تلك البلاد أكثر الناس إكراما للضيف حتى بالنسبة للغرباء^(٩)".

كما قال (أتيك): "بأن الاقوام القليلة العدد، والمنتبثة في غابات وجبال القفقاس قد حافظت على لغاتها واشكالها الجسدية وصفاتها القومية بشكل سليم، وأنه من الصعب جدا العثور على جماعات مختلفة من الناس محتفظة بمقومات بقائها على رقعة صغيرة مثل القفقاس، في أي مكان في العالم خارج القفقاس، فإن القفقاس، في الواقع نسيج وحده".

وقال "أبو الثناء محمود الأمشاطي" المتوفى سنة ٨٩٩هـ في كتابه "القول السديد": (انهم أصحاب قدود وقوة وشدة، وبأس وعصبية، دأبهم المغالبة، وفيهم غلظة وجبروت وكبر وخبلاء، لا يرون لأحد عليهم فضلا، ويزعمون أنهم مستحقو كل شيء من المكرمات ولا يستحق ذلك أحد غيرهم ولهم شجاعة، وقوة على الحرب، ولهم الصدمة الأولى لا يقاومهم فيها أحد.. وصالحهم صالح لا نظير له وطالحهم طالح لا مثل له، وألوانهم مختلفة، فالأبيض المشرب بحمرة يكون ذكيا فهما عاقلا ذا رأي وحكمة، والأشقر لا نظير له في الشرور والخلاف وقليل الخير والمعروف أما الاسمر فيكون شجاعا كبير الهمة مقداما...) (١٠)

ويقول فريد وجدي نقلا عن ابن خلدون والبديري: "الجركس جيل من الناس يسكنون حوالي جبال القوقاس، وهم معدودون أكمل بني آدم خلقه، وأحسنهم وجوها، وأشجعهم قلبا، وأشدّهم للشدائد مقاومة" ثم ذكر بعض أحوالهم التاريخية والجغرافية في نحو صفحتين.

وقال البستاني في دائرة المعارف الاسلامية (١٠-٤٤٠): هم طوال القامات، عراض المنكبين، نحاف الجسوم، صغار اليدين والرجلين، حداد النظر لهم هيبه وبأس، وسائمه وخيول، وأسلحة مشهورة، وقد قال فيهم بعض واصفيهم: هم أعلى الناس همة وأشجعهم وأجملهم" (١١).

وربط الشراكسة كمال الجسم وجماله بجمال الاخلاق ورزانه الادب، وقالوا "ان جمال الجسد هبة من الله وان ما يجعل الانسان جميلا هو سلوكه النبيل واخلاقه الحميدة.

الصفة الرابعة: الاعتزاز بالنفس:

الشراكسة شديدا الاعتزاز بالنفس، وكان يصعب عليهم التسامح إذا ما لحقتهم إهانة أو مُست كرامتهم ومن عاداتهم سرعة الانتقام لكرامتهم بكل الوسائل الممكنة مهما كانت الظروف كما انهم يتصفون بالتواضع وعدم المغالاة في سلوكهم، حتى اصبحت من الصفات المتأصلة في شخصية الشراكسة عامة والامراء خاصة كما كانوا يعاشرون بقية طبقات الشعب ويعاملونهم على قدم المساواة ويأخذونهم باللين واللفظ، دون ان يظهروا في حديثهم أو معاملتهم أي نوع من الكبرياء أو عجرفة أو غطرسة، لذلك كان الشعب يحبهم إلى درجة التقديس.

وكان الامير مهما كبر شأنه وكثر ماله يسكن بيتا لا يختلف كثيرا عن بيوت عامة الشعب والنبلاء، وكذلك طعامه لا يختلف عن طعام غيره، ويكتفي في أكثر الاحيان بقطعة من اللحم المسلوق مع قرص من عجينة الدخن (باستا Pasta) وشراب (البوزا Busa) المحلى بالعسل. (١٢)

وكان بعض الامراء يحصل على ما يكفيه من الأموال والحاجيات الضرورية لمعيشتهم من اتباعهم دون مقابل، وبالمقابل فإن الأمير لم يكن يبخل على التابعين له بشيء، فإذا رأى احد التابعين مثلا عند سيده كسوة جميلة أو سلاحا جيدا فله أن يطلبه لنفسه، وكان الأمير لا يرد طلبه أو يبخل عليه.

كما انهم كانوا يتحلون بصفة عدم المغالاة في لبسهم أو التباهي في غناهم حتى لا يجرحون مشاعر الذين لا يستطيعون مجاراتهم، وكان اكثر الامراء لا يُحَلون سلاحهم أو تزيين خيولهم بالذهب والفضة، مراعاة لشعور الناس، وأما المسكن، فلكل بيته الخاص، ولا يزيد الغني على الفقير إلا بغرف الضيافة. أما المأكَل فقلما تجد شيئا عند الغني ليس عند الفقير منه.

الصفة الخامسة: حب العمل والنشاط الدائم:

لا شك ان نظام التربية الشركسية ساعد على غرس صفات حميدة وجعلت منهم أمة تحب العمل والنشاط حتى اصبح معروفا منذ اقدم العصور ذلك المثل المضروب فيهم وهو:

(الآنت * الذي لا يعرف الكلل ولا الملل)

فكان رجال الشراكسة يهملون مظاهرهم الخارجية ولا يعتنون بهندامهم وكثيرا ما يأتي احدثهم إلى (الاندية والمجالس) دون ان يغير ملابس العمل التي يعلوها غبار المهنة التي يعمل بها، وما كان يلام في المجتمعات من يحضرها دون استعداد سابق أو تأنق زائد. كما كان يحترمون الرجل العامل النشط اما الرجل الكسول او الاتكالي فكان ينتقده عامة الناس والفنيات خاصة^(١٣).

الصفة السادسة: الاخلاق الحميدة والادب الجم:

كتب ((انتريانو)) عن المستوى الاخلاقي للشراكسة قائلا: "ان لديهم اعتقادا بأنه لا يجوز اعتبار أي انسان عريقا إذا ما وجدت مسموعات عن قيامه بعمل شائن في وقت ما، حتى لو كان لدى هذا الانسان سلالة عريقة ومن نسل القيصر نفسه".

أولت القبائل الشركسية اهتماما خاصا للشكل الظاهري المتعلق بالهيئة والجسم الممشوق والتناسق، وقد اعتبر الشحم الزائد المتراكم في الجسم دليلا على ان صاحبه من العامة وليس دليل ارستقراطية، وبالمفهوم الشركسي فإن الصحة البدنية لا تساوي شيئا بغير الصحة المعنوية ((الأخلاق والأدب)) وإن الجمال الجسدي هبة من الله ولا يجب استخدامه واستغلاله في العلاقات الاجتماعية وما يجعل الانسان جميلا هو سلوكه واخلاقه قبل كل شيء. والانسان الحقيقي فقط هو الجدير بحمل هذا التصور، وكانت العادة ان يحترم الذي يعيش من عرق جبينه ويعمل باستمرار ولا يعيش عالة على أهله وعشيرته.

الصفة السابعة: الاخلاص والوفاء والانتماء

لقد أحاطت ((الأديغا نيميس)) بكل العادات المتعلقة بالحياة وبنشاط الرجل الشركسي، وبحسب هذه التقاليد فإن الرجل الشركسي يجب أن يكون مخلصا ووفيا لقومه، وأن يكون وطنيا حقا وجاهزا لخدمة قومه بصدق واخلاص، كما يجب عليه ان يمتلك الرجولة والعزم والثبات المعنوي والبداهة والحس الذاتي والاخلاص للواجب والمسؤولية، وان يكون مستعدا دائما للتضحية في سبيل الله والقوم والوطن.

الصفة الثامنة: البر بالوالدين:

الرجل ابن والديه، وبهذا الخصوص تقيم صفاته الانسانية من خلال حالة والديه المادية والمعنوية ومن مدى اهتمامه بهما ومدى انتباهه إلى حاجتهما وعنايته بهما، ومراقبة وضعهما الصحي ومتطلباتهما اليومية وهي من معايير الحكم عليه ان كان بارا لوالديه، وهو بذلك يعطي مثالا حيا عما يجب ان تكون عليه علاقاته مع الال من اب وام وزوجة وابناء وهكذا تنتقل من جيل إلى جيل فكرة احترام الكبار في العائلة والاهتمام بهم ورعايتهم.

الصفة التاسعة: الحفاظ على العهد

لقد كان من اهم ما أكدت عليه أل (الأديغانيمس) توافق كلام وأفعال الرجل، وكان اعطاء الوعد وعدم تنفيذه غير مقبول بأي شكل من الاشكال في المجتمعات الشركسية قديما وحديثا، وكانوا يرفضون التعامل مع مثل ذلك الشخص لا يقبلونه فيهم وينظرون إليه بأنه شخص لا يمكن الاعتماد عليه في اللحظات الحرجة، ولهذا فإن من أهم معيار التقييم وفق ((الاتيكت)) الشركسي "بأن الرجل الشركسي الحقيقي هو الشخص القادر على الوفاء بعهوده في كل زمان ومكان وتحت اية ظرف او حالة".

الصفة العاشرة: متانة الصداقة وقسدية التأخي:

إن قواعد "الأديغا نيميس" تؤكد على متانة علاقات الصداقة بين الرجال في المجتمعات الشركسية، حيث تنصف هذه العلاقات بأنها الأكثر متانة وعمقا واخلاصا، وإذا لم يكن بالإمكان

* "الآنت" اسم اطلق على اجداد الشراكسة في العصور القديمة.

الوثوق بصداقة رجل ما فإنه يكون غير محترم اجتماعيا، والصديق المعتمد (وفق معايير تلك الأيام) أقرب الناس إليك، وبمثابة أخيك وإن لم يكن بالدم فيالروح، وإنك تتقاسم معه الأفراح والاتراح وصعوبات الحياة ومسراتها والصديق يصارح صديقه بالحقيقة مهما كانت مؤلمة، ويحاول دائما أن يتفهم ويدرك وضع ومزاج الصديق ويغفر له تصرفاته وفاء للصداقة وإن الرجل يكون مستعدا للتضحية حتى بحياته، وإن إنقاذ حياة صديق له يعتبر شرفا كبيرا ومثل هذه الصداقات كانت تمتد إلى عائلات الصديقين وخاصة أبناءهم وإذا ما توفي أحد الصديقين، فإن من بقي حيا منهما يأخذ على عاتقه وحتى نهاية عمره الاهتمام بعائلة صديقه المتوفى وخاصة رعاية وتنشئة أطفاله.

فنتقول "مامخيغ" بأن الصداقة في القفقاس تسمى "كوناك" وهو من مرتبة الاخ، ويقدمون كل ما لديهم فداء هذا الصديق حتى الحياة نفسها^(١٧).

كما أكد مؤرخون ورحالة زاروا بلاد الشركاسة بأن عادة "قسم الاخوة" ادت إلى تعاضد وتكاتف الشركاسة في كل المراحل الزمنية، وهو القسم الذين يتم بعد ان يتقدم من بين صفوف الجماعة التي تنتم بالاخوة رجل ينعقد الرأي على احترامه، بينما تتقدم سيدة من بين الجماعة الاخرى وتعرض على الرجل صدرها ويختتم هذا الحفل بالقسم على القرآن.

الصفة الحادية عشرة: الحفاظ على حرمة الجيرة وحق الجوار

من المعايير الحقيقية "للاديجا خابزة" هو مدى المحافظة على حق الجوار واعتبار الجار قبل الدار ومن الأمثلة التي تدل على أهمية الجار المثل الشركسي القائل: "إن جارك القريب أفضل من قريبك البعيد" وكذلك "من يعيش بجوارك يمت لك بالقرب أكثر من أهلك البعيدين" فإنك تجد جارك عندما تحتاجه وتقاسمه أحزانك وأفراحك في الحياة وربما كان المثل الشركسي القائل "حافظ على جارك مثل محافظتك على قميصك الداخلي الأبيض" هو أكبر دليل على مدى اهتمام الشركاسة بالجوار.

الصفة الثانية عشرة: الصراحة في القول:

الرجل الشركسي صريح في كلامه لا يعرف المهادنة أو المسايرة في المواقف التي تتطلب ذلك، كما أنه لا يعرف الكذب ويقول ما يعتقده صحيحا ولو أدى ذلك إلى أسوأ المواقف. كما أن صراحة الرجل الشركسي صراحة مبدئية وليست انتقائية، فهو صريح في كلامه أمام أكبر المسؤولين مثل ما هو صريح أمام أقرانه وزملائه.. إلا أنه يجاهر بصراحته بأدب وبدون استغزاز.. وسكان المجتمعات المعاصرة في بلاد المهجر، يعرفون هذه الصفة في الرجل الشركسي ويتقبلونه بصدر رحب بقولهم ((انها صراحة الشركسي)).

الصفة الثالثة عشرة: النزاهة والاستقامة:

ففي أساطيرنا ورواياتنا القديمة بأن الشركاسة منذ القدم كانوا لا يعرفون للغش والخداع معنى ان من عاداتهم المتأصلة كانت صفة النزاهة في معاملاتهم بدون غش وخداع وعكس ذلك فهو عار يلاحقه مدى الحياة.

الصفة الرابعة عشرة: الطاعة واحترام الكبار والنساء

الطاعة أولا، ثم احترام الكبار والنساء ثانيا، هما من الصفات المميزة لشخصية الانسان الشركسي... وخير دليل على ذلك ما كتبه الجنرال الروسي (ايفان فيدروفيتش بيرغ) الذي رصد خلال عشر سنوات من حياته (١٨٣٠-١٨٤٠) المجتمع الشركسي.

"... إن الإطاعة العمياء للأهل، واحترام الكبير للطاعنين في السن معمول بهما لدى هذا الشعب بمنتهى الدقة، إن الابن لا يبيح لنفسه الجلوس بحضرة والده، أو ان يجلس الابن الاصغر بحضور الاخ الأكبر سنا، وهم لا يتكلمون مع الاكبر سنا بحضور الغرباء، كما ان صغار السن المتواجدين بحضرة من هم أكبر سنا لا يتكلمون بصوت عال ابداء، ولا يبتسمون، وعليهم فقط الرد عندما يطرح عليهم اي سؤال، وتفرض العادات على الاصغر الوقوف عند ظهور كبار السن رجالا

ام نساء حتى لو كان القادم اقل منزلة اجتماعية، ويمكن الجلوس فقط بعد أن يتوجه الشخص الذي وقف احتراماً له: بقوله ((تيس)) اي اجلس، وكذلك لا يمكن هنا ابدا تجاهل هذه التقاليد، وهم متعصبون جدا للحفاظ على هذه العادات الصعبة...^(١٤).

الصفة الخامسة عشرة: حب التعاون والتطوع لمساعدة الآخرين

ومن العادات المتأصلة في نفوس رجال الجراكسة سنة التعاون فهم يتعاونون ماديا ومعنويا واجتماعيا. وبذلك نقل الفروق بين طبقاتهم.

ومن مظاهر التعاون الجميلة عندهم هو تطوع الشباب والرجال في عملية تسمى (شَه - حَاخ) لإنجاز عمل لأحدهم لا يستطيع إنجازها في اسابيع مثل بناء بيت أو حرث أرض، أو حصاد زرع، أو درس بيدر، أو جلب ما يحتاج إليه من حطب. وقد يكون غير قادر على القيام بهذا العمل، لأنه ينقصه بعض مستلزماته من آلة وما شابه ذلك. ففي مثل هذه الحالات، صاحب العمل، في مكان العمل حفلة غداء، تشترك في تحضيرها واعدادها قبل يوم العمل الجارات، وهكذا يقومون بالعمل دون ان يشعروا بتعب أو ملل، وعند الانتهاء منه يعودون إلى بيوتهم على أنغام موسيقاهم الجركسية، وأغانيتهم الحماسية، ورقصاتهم الرياضية، ويتمنون من صميم قلوبهم أن يدوم العمل الجدي على هذا الشكل المبهج المفرح، وأن لا ينقطع أبدا وبذلك ينجز صاحب العمل عمله، وما خسر إلا قليلا، لأن الأكل قد شاركت بتحضيره جارات زوجة صاحب البيت، فكل واحدة منهن تبرعت بأكلة من عندها.

الصفة السادسة عشرة: اجارة المستجير او (المستجد):

من عادات الرجل الشركسي ان يحمي من لجأ إليه طالبا الحماية ولو كان ذلك عدوا له، ومن الاحداث التي تروى في التاريخ الشركسي، بأن احد الاشخاص التجأ إلى بيت أحد النبلاء بعد ان قتل شخصا آخر، فأكرمه وحماه وحافظ عليه علما بأن النبيل كان يعلم بأن الشخص الذي قتله المستجير هو "ابنه". وبالرغم من ذلك لم يمسه بأذى طوال بقائه في بيته.

الصفة السابعة عشرة: الكرم والنبيل

تحدث أكثر من رحالة وعالم اجتماع عن صفات كرم القفقاسيين عامة والنبيل عند الشراكسة خاصة فيقول (انتريانو): ((عموما يوجد لديهم عادات كرم وسعادة كبيرة باستقبال الضيوف، ويسمى صاحب البيت ضيفه "كوناك" إلى الصديق الأخ، وعندما يغادر الضيف يصاحب المضيف "الكوناك" الغريب، ويقوم بحراسته في طريقه، وإن اقتضى الامر يقدم المضيف حياته ثمنا لذلك كما لو كان أقرب الناس إليه)).^(١٦)

اما ((بيل جيم)) فيؤكد على أن كرم الضيافة صفة متأصلة في الرجل الشركسي ويذكر لنا ما شاهده بنفسه من ضيفه الشركسي قائلا:

".. لقد نسيت أن أذكر الشرف الرائع الذي منحني إياه مضيفي مساء البارحة، فبعد الصلاة ((وبحضور عدد من الشهود بمن فيهم مترجمي)) قام صاحب الدار شخصا بالتضحية بعجل صغير من أجل توطيد الصداقة الاخوية بيننا، وقال لي عليك ان تعتبر نفسك الآن فردا من أفراد العائلة التي على كل منا احترامها وحمائتها".

ويصف "بيل" كرم منزل آخر كان يحل فيه ضيفا بقوله:

"... لقد استقبلني الأخ الأكبر لمضيفي بمنتهى الحفاوة القلبية وخاطبني باحترام كبير ولباقة مميزة وقال لي:

"سوف نعتبر أن لدينا أختا منذ الأزل"، وقد قبلت منه هذا القول مع بعض التحوير المعنوي، ثم طلب مني ان نتبادل ملابسنا كي أصبح أكثر شيئا بالشراكسة، وهكذا قام بحشر اكتافه العريضة ذات العضلات في معطفي الانيق، بينما سعدت أنا كثيرا لشعوري بالارتياح الكبير وأنا ارتدي ملابسه الواسعة علي والمصنوعة من الجوخ الغامق، وكانت موشاة بالذهب والفضة عند الاكمام وخيطة على صدرها جيوب صغيرة للرصاص".^(١٥)

وأما عن الكرم المقرون بالنبل لدى الشراكسة فيقول ((انتريانو)) "انهم يقدرّون النبالة عالياً، وهم يهدون الغير كل ما يملكون ما عدا الحصان والسلاح والجزمة فهذه لا يجوز إهداؤها ابداً، ففي هذه الملكية يكمن الحرص كله، وهم يتنازلون في الكثير من الأحيان عن كل ممتلكاتهم مقابل حصان اعجبهم، وليس لديهم ما هو أغلى من حصان جيد". ولا يرضى اشرافهم ان تربى الخدم الجياد الاصيل، وإذ ما حصل ان ولد لأحد تابعيهم مهر ما يقومون بأخذه بمجرد أن يكبر مقدمين له ثورا بدلاً عنه، وهذا ما يفيد الخدم وليس الحصان".

كما أكد ((انتريانو)) على عادة الكرم الشركسي بقوله ((... انها من عادات الشراكسة، كرم الضيافة واستقبال أي غريب بمنتهى الحفاوة)).

والشراكسة من شدة تمسكهم بعادات الكرم والعطاء بسخاء، فإن الدارس للمجتمعات الشركسية عامة وفي العهود الاقطاعية خاصة يجد بأنهم كثيراً ما كانوا يهبون ما لديهم من متاع ومقتنيات بسخاء ما عدا أسلحتهم وخيلهم كما كانوا يبالغون في اهداء ملابسهم الخاصة، ولذلك كان النبلاء، وحتى الامراء منهم يرتدون ملابس "ارداً" من ملابس غيرهم من الاتباع. ويعتبرون رفض طلبهم عاراً عظيماً وبخلاً لا مثيل له وجرت العادة أن يهدوا سائر ملابسهم الجديدة لأول سائل ويأخذون منه ملابسهم القديمة التي يرتديها، وفي أكثر الأحيان يستبدلون الملابس (رثة) بالقمصان الحريرية الحمراء الزاهية بالرغم من حبههم الشديد ورغبتهم في الاحتفاظ بها إلا أنهم يخشون ان يقال عنهم بخلاء.

ويقول ((جيوفاني لوكا)) حول مدى تأصل صفة الكرم والسخاء والعطاء الشركسي للآخرين، سواء كان ضيفاً غريباً او ضيفاً محلياً بقوله: "لا يوجد في العالم شعب أكثر لطفاً وأكثر سروراً وترحباً بالغرباء من هذا الشعب".

الصفة الثامنة عشرة: المحافظة على الشرف والكرامة:

إن رمز الحياة لدى الشراكسة ((أفردا وشعباً)) هو الشرف. وأن الهدف المهم لديهم هو حماية هذا الشرف. وإن الوقوع في "الأسر" لدى الاعداء كان يعتبر أكبر اهانة وأن الموت لديهم أفضل من العيش بدون شرف، ومن هذا المنطلق فإن وصمة العار لا تزول عن صاحبها حتى بعد موته.

وكان من المفخر التي يتغنى بها الشراكسة منذ القدم هي حماية العرض والمحافظة على الشرف وصيانة الكرامة، وبلغوا في ذلك شأنًا عظيماً لم ينافسهم فيه الكثيرون، ولهم في ذلك أقوال مأثورة منها: ((الأرواح رخيصة في سبيل الكرامة)).

لذلك فكل شركسي كان يضحي بروحه فداء لشرفه ولا يتحمل الاحتقار قطعاً، وكل من يتهاون في حفظ الشرف او صيانة الكرامة كان يطرد من القبيلة وتنزع منه الالقاب التشريفية ان كان حاملاً لاحداها، كما كان الشعراء ينظمون في حقه الاغاني المشينة وتتغنى بها فتيات القبيلة أعواماً وسنين وتصب عليه اللعنات ويصبح اسمه محاطاً بالسخرية والازدراء.

ثانياً: الصفات السلبية في شخصية الرجل الشركسي:

ربما كان أول من حاول الكتابة في وصف الصفات والخصائص السلبية لشخصية الانسان الشركسي هو احد الكتاب من أصل شركسي في الأردن وهو "محمد خير عيسى" في مقالة له تحت عنوان ((جولة في اعماق الانسان الشركسي)) وهي المقالة التي تعبر عن وجهة نظر فردية تكونت لديه من خبراته الشخصية المحدودة وملاحظاته الخاصة وليس بالضرورة أن تكون صحيحة حيث كتب قائلاً:

"سأحاول بجهد المقل أن أطرح الموضوع بالشكل الذي يترأى لي متأكداً بأنني لن أوفي الموضوع حقه كما انني أمل ان يكون هذا بداية لحوار شامل يتحقق من خلاله التعرف الاكمل على هذا المجال؟

"... ولا بد لي قبل ان أبدأ حديثي ان أوكد بأنني لن أكون نعمة أخرى في فرقة الصبح والتزمير بحمد الجنس الشركسي الذي ساد سنوات طويلة كما ان ألواني لن تكون مضيئة ودافئة بقدر ما ستكون قاتمة وباردة، وذلك ليس لأنني أود هذا، بل لأن الحقيقة هي التي تفرض نفسها..."

"... لأنني لا أؤمن بأسطورة تفوق عرق على آخر ((والعرق الشركسي)) كان ولا يزال كأى عرق آخر فيه من جوانب القوة، بقدر ما فيه من الجوانب الضعيفة، وقد يحدث لأي عرق أن يكتشف جوانب قوته فيعززها ويستفيد منها فتصبح له بين الامم سطوة وسلطان، كما يمكن لعرق آخر ان يهمل هذه الجوانب فيفسح لجوانب الضعف ان تلعب دورها عن طريق المؤسسات التربوية وبعض العادات التي لا تتفق مع الاسلوب التربوي العلمي الصحيح، فتصاب الأمة بالكثير من الاورام الاجتماعية التي تتعكس بدورها على حياة كل فرد من أفراد هذه الامة.

ويتابع (عيسى) تحليله قائلا:

"الانسان الشركسي صلب الخلق والخلق، محارب محترف يعيش على الرعي والغزو وتكاد وسائل المعيشة الاخرى كالزراعة والصناعة لا تأخذ أي نصيب من حياته، وهو متهور اكثر من كونه شجاعا، عنيد إلى حد ركوب الرأس، يسترخى حياته في سبيل اتفه الاسباب احيانا، وهو عاطفي اكثر منه، ليست له استراتيجيه او تكتيك في المعارك، يدخل القتال دون ان يملك سوى حماسه وسلاحه، انه امي يحفظ الاشعار او يقولها احيانا وهي في اغلبها "مراثي" وهو مع ذلك صاحب نخوة وعزة نفس، وعاداته وتقاليده تقوم مقام القانون في الدول وكانت تؤدي دورها بفعالية في تلك الظروف القاسية حيث كانت انعكاساتها.

"... وبصرف النظر عن بعض العادات التي كانت ولا تزال مثالا في الحكمة والجمال فإن العادات التي كانت تحدد الاساليب التربوية والعلاقات بين الكبار والصغار قد اضررت بالفرد اكثر مما افادته. وتعدى الامر مجال احترام الصغير للكبير إلى درجة تلاشي شخصية وقيمة الاول في سبيل الثاني، والحقيقة ان الشيء الذي ساد: هو دكتاتورية الكبار امام الصغار ودكتاتورية القوي امام الضعيف. والكلمة الاولى والاخيرة للاب أو القوى أو الزعيم ولقد كان الفرد في ذلك الوقت شيئا لا كائنا، انسانا بلا رأي بلا هوية وماذا ادى هذا الاسلوب؟؟ لقد ادى إلى انطواء الانسان الشركسي وتشرنقه كما ادى إلى تراجع للحرية الفردية وحرية التعبير عن الرأي واخراج قطاع الشباب من ساحة العمل الاجتماعي والحياتي الذي هو القطاع التي تعول عليه اية امه في بناء صرحها.

"أما المرأة فلا حاجة لي ان اتطرق إلى الدور الذي تلعبه ايدا فهي لم يتعد دورها انجاب الاطفال وهي وان كانت تخرج إلى الحقول احيانا فإنها كانت تفعل ما تفعل لأنه اريد لها ذلك وليس لأنها أرادت هي ذلك، انها كانت انسانة من الدرجة الثانية".

ويتابع عيسى قائلا:

"انه مما يؤسف له فعلا أن الشركسي دخل القرن العشرين بعقلية قبلية عشائرية. دخل القرن العشرين وهو لا يزال راكبا صهوة جواده وبنفسية الرجل الذي اصبح القتال لديه غاية بدل الوسيلة، وبنفسية الرجل الذي يعذب لصوت السلاح ويتشوق لرؤية الدم دخل القرن العشرين وهو لا يعرف القراءة او الكتابة ولكن لا يمكن ان نضع اللوم كله عليه، فهو ربما لم يكن له مناص من هذا الأمر، لقد قدر له ان يصرف حياته في القتال فقط. لم يستطع ان يجد وقتا للنقاط انفاسه ليتفرغ إلى العلم والعمل، ومرة اخرى اقول ان افتقاده للعلم كان شر كارثة عليه.

ثم تحدث عن الانسان الشركسي بعد الهجرة قائلا: "وهكذا فإننا نجد ان الشركسي قد عاش نوعين من الغربة. غربة عن الوطن وغربة عن المحيط، ونتيجة لكل ذلك فإن الاطار الذي احاط بالصورة الشركسية هنا كان اطارا من التحدي والرفض، تحدى البيئة، تحدى المجتمع الآخر، تحدى القبائل الشركسية الاخرى وبالتالي رفضه لها كلها، وكل ذلك ادى إلى تكريس وتعميق صورة الانسان الشركسي العدواني الانطوائي.

أما إذا سلطنا الاضواء على القواعد التربوية المتمثلة في العادات والتقاليد فإنها في سني الهجرة الاولى لم تتغير ايضا وظلت تؤدي دورها بنفس الفاعلية والقوة، وذلك لأن المجتمع الشركسي ظل مغلقا - كما قلنا - وعلى هذا فإن حكم الكبار لم تخف وطأته وظلت كل السموم التربوية التي مر ذكرها تفعل فعلها في افساد الانسان الشركسي. وسارت عجلة الزمان، وبدأ غبار المعارك يهدأ شيئا فشيئا واصبحت العدوات تتخذ اشكالا اكثر ليانا وذلك نتيجة انبعاث السلطة الحكومية في الساحة. كما ان الزراعة بدأت تشكل القاسم المشترك الأعظم في حياة الأفراد وافتتحت المدارس ودارت عجلة التقدم بسرعة وإن كان حظ الفرد الشركسي منها ضئيلا، لقد كان الأب يفتقر إلى الأيدي العاملة ولم يكن التعليم قد أصبح مهما بالنسبة له بعد، وهكذا فقد ظل الإنسان الشركسي في الأغلب موظفا في خدمة الذين أصابهم قدر من العلم، وكانوا قلة معظمهم لم يستقر على مقاعد الدراسة سنوات تزيد على أصابع اليد الواحدة ومرة أخرى ظل الإنسان الشركسي أميا.

ويتابع ((عيسى)) تحليله قائلا: "أما الإنسان الحديث، إنسان هذا الجيل فقد ترك الزراعة ودخل المدارس وأبصر كمية اكبر من نور العلم وانفتح على العالم والمجتمع وربما امتلأت جيوبه، ولكن يا للأسف لم يصمد كفرد ولا كمجتمع، لقد كان انسانا هشاً انسانا لا يملك قوة ذاتية، وإذا اضعف ذلك إلى كونه اقلية فإنه كان لا بد ان يفقد هويته وهذا ما حدث بالفعل لم يعد يمتلك من مقومات وجوده كأنسان شركسي أي شيء وإن ظل شيء فهو القليل جدا، لقد كانت التيارات الخارجية قوية جدا وكانت مناعته ضعيفة جدا".

ثم قال: "ومرة أخرى غياب العلم كسلاح عن ساحة المعركة من ايام ما قبل الهجرة هو الذي ادى إلى هذه الكارثة، فلو دخل العلم البيت الشركسي القديم لتغيرت كثيراً من العادات التربوية ((السيئة)) التي ظلت تغربك لنا الانسان الشركسي صاحب الطموح الميت الكسول، المتهور الانطوائي الذي يعوض عن نقصه بالثرثرة ومهاجمة الآخرين، صاحب الانتصارات الوهمية والتعلق بقيم ساذجة".

واختتم عيسى مقاله الذي بث فيه أفكاره السوداوية بقوله:

"والان هل انتهى الانسان والمجتمع الشركسي؟؟

أليس هناك أي شعاع من الضوء في حياة هذا المجتمع؟؟

إن الجواب على هذين السؤالين فيه إطالة وفيه خروج عن الموضوع وربما يتسنى الحديث عنهما في وقت آخر.

إنني لا أتفق مع الكاتب ((عيسى)) في كثير من شطحاته ونظراته التشاؤمية التي لا تعتمد على البحث العلمي بقدر ما يعتمد على ملاحظاته وخبراته الشخصية المحلية.

ونظرا لحساسية الخوض في دراسة الصفات السلبية لشخصية الانسان الشركسي الذي عاش في عصر غير عصرنا، وفي مجتمع غير مجتمعنا المعاصر.. مجتمع لا يوجد لدينا عنه المعلومات والدراسات الكافية حتى نستنتج منها الاسباب والعوامل التي ادت بالامة الشركسية إلى تبني نظام تربوي صارم وحياة اجتماعية شبه مغلقة، ولذلك كان لا بد من الرجوع إلى ما كتب عن الشخصية الشركسية، والبحث في اقوال الرحالة، والمؤرخين، وعلماء الاجناس حتى نكون فكرة عن البيئات الداخلية والخارجية التي ساهمت في تكوين بعض السمات السلبية؛ توصلت لبعض المعلومات والبيانات التي تؤكد بأن الانسان الشركسي يتصف ببعض الصفات السلبية بقدر اقل بكثير عن الصفات الايجابية التي تميز فيها شخصية الرجل الشركسي كما أشرنا إليها في الفقرات السابقة:

وفيما يلي خلاصة لأهم هذه الصفات السلبية التي توصلت إليها:

الصفة السلبية الأولى: انغلاق الانسان الشركسي وشدة تمسكه بآرائه:

ربما كانت الصفات السلبية الواضحة في شخصية الانسان الشركسي عامة والرجال منهم خاصة هي الانغلاق على نفسه وعلى مجتمعه وعدم الانفتاح عبر العصور على المجتمعات والامم الخارجية ومع الامم والشعوب التي استوطنت بلاده.

وكذلك فإن الشركسي شديد الاعتداد بنفسه والتمسك بآرائه وليس من السهل التخلي على آرائه وافكاره التي يؤمن بها؛ أي أنه شخص ليس من السهل عليه التكيف السريع مع الثقافات الأخرى.

الصفة السلبية الثانية هي: حدة الطباع والسمة العصبية للانسان الشركسي:

ربما كانت البيئة المناخية التي كان يعيش بها الشركسي والأحداث الاجتماعية والحروب التي مر بها كانت اسبابا قوية ليصبح الشركسي صاحب مزاج وطبع حاد، كما ان التقاليد التي تمنع الفتية والشباب الاصغر سنا من التعبير عن آرائهم وافكارهم امام الكبار في كل من البيت والمجالس الاجتماعية قد ساهمت بطريقة غير مباشرة في تكوين شخصية تنسم بالعصبية وعدم قدرة البعض التعبير عن نفسه إن اتاحت له الفرصة بدون تشنج.

الصفة السلبية الثالثة: الخجل والحياء الزائد:

ربما كان من الصفات التي تصل إلى درجة صفة سلبية هو شعور بعض الشراكسة بالخجل والحياء في المواقف الاجتماعية المختلفة خاصة في حضور النساء... ولا شك بأن هذه الصفة السلبية قد نشأت وتكونت نتيجة العادات التي لا تسمح للصغار والشباب من التحدث أو التعبير عن انفسهم في مجتمع الكبار حيث تفرض العادات ان لا يتحدث الاصغر سنا بحضور ووجود الاكبر سنا إلا اذا طلب منه ذلك، ونادرا ما يطلب منه ذلك. كما ان هذه العادة كانت تطبق داخل الاسرة الواحدة فالاب أو الاخ الاكبر هو الذي يشارك في الحديث عند التزاور أو حدوث مناسبة اجتماعية أو عائلية.

الصفة السلبية الرابعة هي: الفردية والميل للانعزال:

الانسان الشركسي في غالبه فردي النزعة، ونسبة منهم يميلون لحياة العزلة وغير منفتحين اجتماعيا وربما كان منشأ هذه الصفة السلبية هو النظام التربوي الذي كان مطبقا منذ عهد الاجداد وهو النظام الذي يبعد الاطفال منذ الصغر عن مجتمع الكبار من اباء واجداد كما كان يتم تربية ابناء الامراء والنبلاء من قبل "الاتالق" وابناء عامة الشعب من قبل الامهات والاخوة الاكبر، فالنظام التربوي القومي لدى الشراكسة له فوائد كبيرة جدا في اكساب الابناء صفات ايجابية كثيرة جدا، إلا انه هو السبب في اكساب الصفة الفردية والميل للانعزال. ولذلك نجده كفرد يبدع ويتفوق في عمله إلا انه غالبا ما يفشل في العمل ضمن فريق أو عمل جماعي.

الصفة السلبية الخامسة هي الجدية الزائدة في التعامل مع الآخرين:

ربما كانت هذه الصفة من الصفات الواضحة في المجتمعات الشركسية قديما وحديثا، فالشراكسة جديون أكثر من اللازم في المواقف والاحداث التي لا تتطلب ذلك كما انهم قليلو المزاح والهزار مع الاصدقاء المقربين، وهذه الصفة تحول دون توسيع نطاق الصداقة فنجد صداقة الانسان الشركسي قليلة إلا أن صداقتهم تكون ابدية ولها قدسية لدى الشراكسة، والمثل القائل "ربما كان لك أخ لم تلده امك" هو المثل الذي ينطبق على صداقة الشراكسة.

سادسا: صفات سلبية ثانوية أخرى منها:

الانسان الشركسي تكون طموحاته محدودة في مختلف مجالات الحياة مثل: الدراسة والعمل وينتج عن هذه الصفة صفة ثانوية مرافقة لها وهو ان الانسان الشركسي لا يحب المنافسة وإن تفوق الآخرين عليه لا يثيره كثيرا؛ لذلك نجد الشباب الشركسي، وبالرغم من تمتعهم بالذكاء فإن المتفوقين منهم في الدراسة العلمية مثلا قليلون. كما أن الذين يصلون إلى مراكز وظيفية عليا قليلون أيضا بالرغم من اخلاصهم في العمل وتقانيهم في اداء واجبه الوظيفي.

ثالثاً: الادوار الرئيسية للرجل في المجتمع الشركسي:

يجد الدارس لتاريخ الامة الشركسية بأن (الرجل الشركسي) كانت له ادوار ايجابية في تسعة مجالات منذ عصر الاجداد والاباء وحتى القرن التاسع عشر في الوطن الام، هي على النحو التالي:

الدور الأول: تكوين أسرة والحفاظ على شرف العائلة وكرامتها وتأمين حاجياتها من مأكّل وملبس وماوى وأثاث وادوات منزلية.

الدور الثاني: بناء الاقتصاد الوطني للامة الشركسية من خلال مشاركته في الفلاحة والزراعة وتربية الحيوانات والطيور وفي الاعمال التجارية والاعمال الصناعية، خاصة في الحرف والصناعات اليدوية والصناعات الاولى.

الدور الثالث: الدفاع عن الارض والعرض وحماية الوطن من الغزاة والمعتدين، وربما كان هذا الدور دورا اساسيا للانسان الشركسي منذ تعرض بلاد الاجداد للاعتداء ابتداء من القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن العشرين بعد الميلاد، حيث لم يكن لدى الشراكسة جيش نظامي محترف ومنفرغ، وانما كان كل انسان شركسي بالغ يعتبر مجنداً للدفاع عن الوطن في أي وقت يتعرض فيه لخطر الاحتلال، وكان لكل شركسي دور محدد في فترات الحروب، وان هذا الدور كان يختلف بحسب الطبقة او الفئة التي كان ينتمي إليها المواطن الشركسي، فالامراء والنبلاء والاحرار هم القادة والمقاتلون الاساسيون، وكان الفلاحون والتابعون يساعدونهم على تقديم الخدمات "اللوجستكية". كما كانوا يقومون بأعمال الحراسة وغيرها من الأعمال العسكرية.

الدور الرابع: المشاركة في الاجتماعات الشعبية والمجالس القومية التي كانت تعقد بشكل دوري لتسيير الامور الحياتية للمجتمع الشركسي اولا، ولاتخاذ القرارات الوطنية والقومية المصيرية مثل اعلان الحرب او اعلان التعبئة لصد هجوم وتعيين القادة العسكريين في حالات السلم ثانياً، وكانت هذه المجالس بمثابة برلمانات شعبية يتم فيها إقرار السياسة الداخلية والخارجية للأمة الشركسية.

الدور الخامس: حضور مجالس (المضافات) وهي المجالس التي كانت تلقى فيها القصائد الشعرية الشعبية والراثية وتسرد فيها القصص والاساطير، ويتم فيها الاستماع لأخبار المجتمع وتتناقل فيها الاخبار مع الشعوب والاقوام الاخرى، كما كانت هذه المجالس بمثابة مدارس مفتوحة لتعليم الكبار والصغار بأسلوب غير مباشر فهي بمثابة السجل التاريخي الذي حافظ على استمرارية الثقافة القومية وعلى العادات والتقاليد والأعراف القومية الشركسية في زمن لم يكن فيه كتابة ولا وسائل لتسجيل الأحداث والوقائع والتراث.

الدور السادس: المساهمة في الحفاظ على التراث القومي والثقافة القومية الشركسية والعمل على نقلها من جيل إلى آخر في زمن لم تكن اللغة الشركسية لغة كتابة، وفي عصر لم تكن فيه أية وسيلة من وسائل التوثيق، فاعتمد اجداد الشراكسة والاباء على ((حفظ)) الاحداث والوقائع التاريخية في الذاكرة ونقلها من جيل إلى جيل، والمحافظة على التراث القومي والثقافة الوطنية بنقلها للأجيال، جيلا بعد جيل.

وبفضل هذه المساهمة الجماعية للانسان الشركسي ادى إلى بناء تراث شعبي ثقافي وفلكلور قومي يندر ان يعز نظيره لدى أي شعب من الشعوب والقوميات القديمة، حتى وصلت بعض أنواع الفلكلور القومي الشركسي إلى مستوى العالمية.

الدور السابع: الحفاظ على العادات والتقاليد والأعراف الشركسية ونقلها من جيل إلى جيل وعلى مدى أكثر من سبعة آلاف سنة، وكذلك مراجعة وتنقيح وتعديل ونسخ بعض العادات التي لم تعد تتناسب مع المعتقدات والفكر الديني الذي كان يؤمن به أجداد الشراكسة وأباؤهم من وثنية ومجوسية ومسيحية، واخيرا الاسلامية، وكان الدور البارز للانسان الشركسي من أجداد وأباء وابناء هي المحافظة على الجيد من العادات والعمل على نقلها من جيل إلى جيل بالرغم من انها لم تكن مدونة، كما أنها لم تكتب خلال الفترة الممتدة من القرن الرابع قبل الميلاد وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

الدور الثامن: المساهمة في الحفاظ على ((الأدب القومي الشركسي)) والعمل على تطويره على مر العصور. حيث لعب الآلاف من أدياء الأمة الشركسية على مر العصور في تكوين التراث الأدبي القومي الشركسي، والذي كان له طابع خاص مميز، يمكن تمييزه عن غيره من ادبيات الشعوب والقوميات القوقازية وان لم يرق إلى المستوى العالمي، إلا أنه أدب له طابع مميز يتكون من الفروع الأدبية التالية:

- أدب أساطير النارتيين.
- أدب فقه اللغة.
- أدب المسرح والتمثيل.
- أدب الشعر والنثر، والقصائد العاطفية، وقصائد الرثاء.
- أدب التراث الشعبي والأمثال والحكم.

كما كان لبعض الفلاسفة والحكماء الشراكسة دور أولي في بناء علم الفلك عند الشراكسة القدامى، وظهر بعض الحكماء الذين وصلوا إلى درجة الفلاسفة مثل الحكيم الشركسي ((قازانوقه جباغي)) والذي يعتبر أبو الحكمة الشركسية ويشبهونه بالفيلسوف الصيني (كونفوشيوس) في وعده الناس إلى التحلي بالأخلاق وإلى وضع مفاهيم أساسية تحدد أسلوب تعامل الناس مع بعضهم البعض وكذلك وضع قواعد للعادات والتقاليد تصل إلى مستوى التشريع القانوني. وهو صاحب ((قانون الاضداد)) كما بحث في سر الشمس والقمر وفي مفهوم الباطن والظاهر كما درس دوافع الخوف والقلق وفي ظاهرتي الشر والخير وفي السعادة والشفاء.. الخ.

الدور التاسع والآخر هو مجال التربية والتعليم، لم يكن الرجل الشركسي كأب له دور مباشر في تربية أطفاله وابنائهم، وإنما ترك هذا الدور للمرأة (الأم) في مرحلة الطفولة المبكرة ثم اسند دور التربية والتدريب ((للاتالق)) بالنسبة لأبناء الأمراء والنبلاء، أما تربية عامة الناس فكانت الأسرة تقوم بها بطريقة التقليد والمحاكاة، أما دور الرجل الشركسي في ((التربية)) فكان يتم في المجالس وفي المضافات كما كان له دور في تدريب الأبناء على مهارات المهن، وتعليمه الحرف اليدوية المناسبة.

رابعاً: الصفات (القومية) المميزة لشخصية المرأة الشركسية:

* شخصية المرأة الشركسية من وجهة نظر العلماء والمؤرخين والرحالة.

لم يكن (الرجل) الشركسي الوحيد الذي أشاد علماء الاجناس والرحالة والمؤرخون المختصون بالأقوام القديمة بصفاته القومية وخصائصه النفسية والاجتماعية والاخلاقية والجسمية، وإنما أيضاً تغنوا بأخلاق المرأة الشركسية وبجمالها وحيويتها وإخلاصها وتفانيها واعتدادها بنفسها واعتزازها بأنوثتها.

وكان الفيلسوف الالماني المشهور والمختص بعلم دراسة الشعوب يوغان غوتفيلد غيردر من أوائل الذين كتبوا عن المرأة الشركسية، قائلاً: "... أما الشركسيات فالكل يعرف جمالهن ويقر لهن بجمال الحواجب السوداء الحريرية الدقيقة، وعيونهن السوداء التي تشع كالنار، وجباهن الناصعة الملساء، ووجوههن المدورة ذات الشفاء الناعمة... إنه لمن قبيل السعادة أن أوروبا ليست بعيدة عن هذا الجمال الاخاذ. إن الكثيرين من سكان أوروبا قد عاشوا في وقت من الاوقات بين مناطق البحر الاسود وبحر قزوين أو عبروا من هناك، وعلى أية حال فإن الأوروبيين ليسوا بعيدين عن هؤلاء السكان...".

كما وصفهن رحالة الماني آخر بقوله: "ان الناظر للفتاة الشركسية يجد روعة أجسادهن والليونة الفائقة لخصورهن.. كل الفتيات كن جميلات وبعضهن كن فائقات الجمال. أيديهن كانت رائعة الجمال ايضاً. أما البريق الذي في أعينهن الواسعة المكحلة على الطريقة الشرقية فلا تستطيع ريشة أي رسام التعبير عنه. لقد رأيت الشركسيات عن قرب للمرة الاولى، واعترف أنني وجدت فيهن كل ما قرأته وسمعته. أما شعورهن فكانت مقسمة إلى ثلاث ضفائر واحدة إلى الخلف واثنان إلى

الامام، تصلان إلى الخصر المزين بأحزمة موشاة بالفضة، وأخيرا يلبس في أقدامهن أحذية ذات الوان مختلفة".

ويستطرد قائلا: "وكن يتمترن في المعاطف الثمينة، وعليهن أحزمة مصنوعة من خيوط من شعر الماعز والغنم المذهب، إضافة إلى الأحذية الجميلة المطرزة... ومن مظاهر الجمال كانت القائمة الفارعة المشدودة، والرقبة الطويلة الجميلة، إضافة إلى الخصر النحيل والاقدام والكفوف الصغيرة مع أصابع رقيقة واطافر طويلة، بياض في البشرة مع بعض الاحمرار الوردي، والجبين العالي والحواجب الضيقة والعيون البراقة الجميلة فاتحة اللون او لوزية غامقة مع أهداب كثيفة، اما الاسنان فصغيرة بيضاء ناصعة في فم ضيق.. وكان على الفتيات والنساء ان يمشين بمنتهى الرشاقة والخفة والاناقة".^(١٨)

واما الرحالة (دوبرو) فقال: "كانت الفتيات الشركسيات يتحدثن بكل تواضع واعتزاز، ولم يكن لجمالهن ما يشبهه منذ القدم وجوه في منتهى كمال التقاطيع، قامات مشوقة، اياذ واقدام صغيرة. لقد كانت حركاتهن ممثلة بعزة النفس والثقة... إن كل من اتيح له ان يرى النساء الشركسيات سيقرب أنه يوجد بينهن من ذوات الجمال الذي لا يستطيع الناظر إليه إلا ان يبقى اسير هذا الانبهار".^(١٩)

وتقول (مامخيغ) كان اهم متطلبات الجمال الانثوي لدى الشركسيات "الشعر الكثيف الطويل الاسود او الكستنائي، حيث كان يجدل في ضفيرتين تمتدان على طول الظهر وتصلان احيانا إلى الركب، ويلاحظ ان ترك الشعر طليقا منسابا بدون ضفائر لم يكن مقبولا بل بالعكس كان مرفوضا، كما كان من قواعد الاتيكيت الشركسي بأن يكون الشعر طليقا، كذلك كان قص شعر الفتيات بمثابة اهانة لها ويعرض صاحبه للسخرية والانتقاد".

ويقول ((رستم)) ان المرأة الجركسية من احسن نساء العالم جمالا وكمالا، ولها في ذلك شهرة عالمية، وهي سيدة بيت من الطراز الاول، وموضع الاحترام عندهم مع تمتعها بحرية واسعة. وهي غير محجة ولا تشترك في اعمال الحقل، وتستقبل الضيف في غياب رب البيت محافظة على الكرم وآداب اللياقة المقدسة عند الجراكسة ومن أمثالهم "إن بيتا لا سيدة فيه كحقل لا زرع فيه" ولل سيدات المكان الاول في الاجتماعات وأكثر ما يغشين الحفلات وهن آنسات قبل الزواج، وان رجال الجنسيات الاخرى خصوصا كبار رجال الدول من قياصرة وسلاطين وامراء ورؤساء ووزراء ورجال العلم والمال تبحث بمختلف الطرق للتشرف بالنسب الجركسي عن طريق الزواج إذ يرون في ذلك رفع مكانتهم بين طبقاتهم، وتحسين نسلهم، وتهذيب نفوسهم وتنظيم حياتهم.^(٢٠)

وكذلك الكاتب الروسي كيراشيف، فيقول: "لم يتمن الشراكسة أكثر من أن يستطيعوا إلباس بناتهم أجمل الثياب، وقد اعتبروا أن الملابس الجميلة تفرض على الفتاة السلوك الحسن والمعتبر، وكان ذوقهم في مجال الملابس رفيعا، فلا توجد إضافات لا معنى لها، او الوان فاقعة قبيحة المنظر، لقد كانت رهافة الحس الجمالي موسومة في كل أزيائهم". واستطرد قائلا:

"اذن السلوك الجيد والمعتبر هو ما حدده الناموس الشركسي للنساء والفتيات، هو الاساس الذي يحدد طريقة حياتهن في مختلف المجالات، وعلى الأغلب فإن طريقة سلوكهن قد حددتها أهميتهن الاجتماعية في الحياة، إن يكن جميلات لكي يسرن الناظر ويسترعين الثناء والاحترام".^(٢١)

وكذلك فقد كتب الجنرال بيرغ، حول جمال الشركسيات بقوله: "لا تتمتع الفتيات الشركسيات فقط بشهرة الجمال الخلاب الموروث عن اسلافهن، بل ان لديهن ميزة هامة تتبع من المعطيات الروحية لهذا الشعب، ونحن نتكلم هنا عن الاحترام والتقدير الفائق الذي يكنه الشراكسة للمرأة الشركسية نستدل عليها من الحقيقة التاريخية التالية التي تؤكد بأنه إذا ما قامت امرأة ما سافرة الشعر باقتحام قتال دائر بين فارسين متقاتلين يتوقف القتال فورا، وينهى سفك الدماء، خاصة اذا كانت المرأة متقدمة في السن أو من أسرة مشهورة" كما تؤكد الوقائع التاريخية بأنه:

"يكفي لأي مطارذ ان يأوي إلى امرأة حتى يصبح من المحرم المساس به"، وكذلك لا يمكن إيقاع أية عقوبة او انتقام وخاصة القتل بوجود امرأة، علما بأنه من المتعارف عليه في اوساط الجنسين انه من العار اللجوء لحماية الجنس اللطيف، ولذلك لا يلجأ إليها إلا في حالات نادرة.^(٢٢)

وأما الشاعر الروسي ميخائيل ليرمنتوف الذي عاش فترة من حياته منفيا بين الشركسية، سبق له أن دون ملاحظاته عنهن في رائعته ((بطل من هذا الزمان)) حيث تحدث عن الفتاة الشركسية وأصالتها كما في الخيول. إنك لا تعرف الشركسيات، شتان بينهما وبين "الجورجيات" إن لهن قواعد خاصة في السلوك وقد نشأت على تربية أخرى وهو حين يتحدث عن عفة الفتاة الشركسية "بيلا" التي أحبها وأحبته قالت له وهي تحتضر "إنها تأسف على أنها ليست مسيحية ذلك لأن روحها وروح "بتشورين" لن يلتقي في العالم الآخر وإن امرأة أخرى ستكون خليلته في الجنة، وعندما اقترح عليها أن تكون مسيحية، قالت: لا بل أموت على ديني الذي ولدت عليه".^(٢٣)

نستنتج مما تقدم بأن أهم الصفات التي تتحلى بها المرأة الشركسية بشكل عام يمكن إيجازها كما يلي:

- * الاخلاص: المرأة الشركسية تخلص لبيتها وزوجها وتتفانى في تربية اولادها وفي خدمة زوجها وعائلتها.
- * الطاعة: تتصف المرأة الشركسية بالطاعة دون ضعف وبالقناعة بنصيبها في الحياة الزوجية دون شكوى أو تذمر.
- * الحيوية والنشاط: تتمتع المرأة الشركسية بنشاط وحيوية دائمة، ولا تكل أو تمل في القيام بواجباتها المنزلية وبتقديم العون للأهل وللجارات.
- * الوفاء: هي سمة من سمات المرأة الشركسية الايجابية، وكذلك حفظ الجميل لمن يحسن إليها ويحترمها.
- * الصبر: من مميزات المرأة الشركسية في كل المواقف الصعبة والحرجة هو قدرتها على الصبر وأنها لا تتذمر أو تشكو لأحد من أهلها وعائلتها أو حتى لأقرب صديقاتها.
- * كتومة ومحافظة على اسرار الزوجية ونادرا ما تبوح بها حتى لأهلها.
- * تتمتع بحرية شخصية في التخطيط لمستقبل حياتها عامة وفي اختيار شريك حياتها دون تدخل من الأهل، وإن تدخلوا فلها الحق بحكم عادة الكواسة أن تقرر الاقتران بمن تحب وترغب وتوكل من تشاء لعقد قرانها حتى وإن عارض الأهل في ذلك
- * الاعتداد والثقة بالنفس، دون كبرياء، من السمات المميزة للمرأة الشركسية دون كبرياء.
- * الاعتزاز بأنوثتها وجمالها دون غرور أو تعجرف.
- * الحياء والادب الجم وهي صفة ميزتها عن كثير من نساء قوميات أخرى، فضلا عن تواضعها في كل المواقف حتى وإن كانت من اسرة غنية أو فقيرة.
- إلا أن الباحثين في شخصية المرأة الشركسية وصفاتها وادوارها يؤكدون وجود بعض السمات السلبية.

خامسا: الصفات السلبية في شخصية المرأة الشركسية:

تقتضي الامانة العلمية في بحثنا حول الصفات والخصائص القومية المميزة في شخصية المرأة الشركسية أن نتحدث عن الصفات السلبية في شخصيتها والتي يمكن إيجازها على النحو التالي:

- * المغالاة في التفاني الزائد لزوجها واولادها واسرتها، وهذه الصفة وإن كانت ايجابية في حد ذاتها إلا أن المغالاة فيها تكون على حساب صحتها وحياتها الاجتماعية الخاصة، وهو الامر الذي يؤدي بالمرأة الشركسية لظهورها وكأنها اكبر من سنها كما انها تهرم قبل سن الشيخوخة.

* تؤكد الدراسات الحديثة عن المرأة الشركسية المعاصرة عامة بأنها تخلصت من كثير من هذه الصفات السلبية وبين نساء شركاسة الشتات في دول المهجر خاصة.

* ذوبان شخصيتها وانصهارها كلياً بشخصية الزوج وأهله، ويصبح إخلاصها لأهل الزوج بلا حدود وهي صفة وإن كانت تبدو وكأنها سلبية في ظاهرها إلا أنها إيجابية في باطنها وربما كان من الأسباب الرئيسية لانخفاض نسبة الطلاق في المجتمعات الشركسية القديمة هو الإخلاص لأسرتها حتى وإن وجدت خلافات زوجية.

* محدودية علاقات المرأة الشركسية خارج بيتها وأهلها، إذ يقتصر دورها كما رأينا سابقاً في حفظ بيتها وأسرته، ولم يكن لها دور يذكر خارج البيت بحكم العادات والتقاليد.

* محدودية المشاركة في اتخاذ القرارات القومية والوطنية، وعدم مشاركتها في الاجتماعات والمجالس القومية بحكم النظام الاجتماعي الطبقي الذي كان سائداً في المجتمعات الشركسية في العصور القديمة والوسطى والمدنية.

سادساً: ادوار المرأة في المجتمع الشركسي:

لا شك بأن العادات والتقاليد كانت تحد ادوار المرأة الشركسية في كل من البيت والمجتمع منذ القدم كما ان هذه العادات كانت تفصل فصلاً واضحاً ادوار الرجال عن ادوار المرأة، فلكل واحد منهما ادواره التي لا تتداخل مع بعضها البعض وكان من اهم ادوار المرأة بحكم العادات الشركسية هي:

الدور الاول: تفرغ المرأة لشؤون بيتها تفرغاً كاملاً وقيامها بالمسؤوليات التالية:

- * تربية الاطفال ومتابعة كل ما يحتاج البيت ومن الجنسين في سن الطفولة.
- * متابعة تربية وتدريب البنات على الاعمال والافعال التي تخصها كأنثى.
- * متابعة شؤون اعداد وطهي الطعام، فالمرأة الشركسية طاهية جيدة لجميع انواع واصناف المأكولات القومية الشركسية.
- * العناية بنظافة وترتيب البيت بالغسل والكوي والحياسة واشغال الصوف فالنساء الشركسيات هن المسؤولات عن شؤون البيت من مأكّل وملبس وتحرص الواحدة منهن كل الحرص على ان يكون بيتها انيقاً في متاعه ونظافته، كما عرف عنها بأنها مغرمة بتتسيق بيتها وتجميله من الداخل والخارج مهما كان بناء البيت متواضعاً.
- * اشغال الخياطة والتطريز، وكان يندر ان لا يوجد بيت شركسي بدون ماكينة خياطة خاصة بها، فالمرأة الشركسية كانت تقوم بحياكة ملابس زوجها واولادها، كما انها كانت تحيك ملابسها الشخصية اليومية.
- * اشغال الصوف، فالمرأة الشركسية مشهورة بمهاراتها في اشغال الصوف منذ عصر الاجداد.

الدور الثاني: صناعة الأغذية من اللحوم ومشتقات الالبان وحفظها

ففي العصور التي لم يكن يوجد فيها ثلاجات ووسائل حفظ المواد الغذائية مبردة.. كانت المرأة الشركسية تصنع العديد من أنواع الغذاء، وقد ابتكرت طرقاً عديدة لحفظها مثل حفظ الجبنة المدخنة، والجبنة المحفوظة في الماء المالح، وكذلك صناعة جميع انواع المربى "التطلي" بالإضافة إلى عمل البرغل والفريكة وأنواع مختلفة من مشتقات العجين الناشف وهو ما يشبه انواع المعكرونة.

الدور الثالث: المشاركة في الحفاظ على الفلكلور والتراث القومي الشركسي:

شاركت المرأة في الحفاظ على الموسيقى، وفن التطريز واعمال الزخرفة حيث كان للمرأة الشركسية دور فاعل في الحفاظ على الفلكلور عامة والموسيقا خاصة حين لم يكن ((النوتة)) معروفة كما كان لها دور في الحفاظ على فلكلور ((الرقص)).

يتضح مما تقدم بأن دور المرأة الشركسية كان مقتصرأ على الاعمال والاشغال الخاصة بشؤون البيت والاسرة، وفي الحفاظ على فلكلور والتراث القومي وليس لها أي مهام خارجها كما هو

الحال مع نساء قوميات قوقازية أو اسيوية أخرى مثل نساء الاكراد والأتراك والأعاجم والروس حيث كانت نساؤهم يعملن في داخل البيت وفي الحقل كما كانت تعمل في الاعمال الخارجية الشاقة.

الدور الرابع: بالإضافة للدوار الرئيسية للمرأة الشركسية بحكم العادات والتقاليد فإن بعض الوقائع والاحداث التاريخية تسجل بأنها قامت بأدوار استثنائية خاصة في الأيام واللحظات الحرجة في حروب الابداء والدمار التي تعرض لها الشراكسة ومن هذه الادوار:

* حملت السلاح وشاركت المقاتل الشركسي في السنوات الاخيرة من حرب الابداء والدمار الروسي وقاومت المعتدين.

* قامت بدور الحماية والدفاع عن بيتها واطفالها ضد الغزاة الروس والقوزاق خاصة عندما كان الرجال يقاتلون على الجبهات.

* قامت بدور اخفاء الخيول والمواشي في مناطق آمنة قبل وقوع الغزوات والهجمات على القرى الامنة.

* ساهمت المرأة الشركسية في تأمين حاجيات اسرتها في فترات انشغال الرجال في القتال، علما بأن العادات الشركسية لا تسمح بعملها خارج المنزل مثل العناية بالحظائر واخراج الحيوانات للرعي... الخ.

(٧) سجل تاريخ الامة الشركسية ظهور نساء بطلات ايضا مثل المصارعة الشركسية (لاشنيكاي Lahinkai) التي صرعت بطل ابطال قوم خانات القرم المدعو (قيسين Kaissyn).

وتتلخص قصة هذه المصارعة الشركسية التي حدثت في القرن الثالث عشر الميلادي في الرواية التالية: عندما اقترب جيوش الخان (كيتاي خان Kitai Chan) الذي فتح كثيرا من البلاد المجاورة من حدود بلاد "الاديغة" وانتشر خبر انتصاراته وقدمه والطرق التي سلكها، قام زعماء "الاديغة" بجمع جيوشهم واستعدوا للقتال وصد غارة التتر. إلا أن الخان غير خطته وعدل عن الحرب وارسل رسله إلى زعماء "الاديغة" ليقولوا لهم بأنه لا يهدف من قدومهم إلى بلادهم محاربتهم، بل الشوق إلى معرفتهم عن قرب ورؤيتهم وجها لوجه وانه لا يريد ان يكون عدوا بل صديقا لما سمعوا عن شجاعتهم الفائقة وقوة جيشهم العظيم.

وقال ايضا "لكي اجرب قوتكم انتخب بطلا من عندي وهو (قيسين Kaissyn) وهو احسن مصارع في جيشي وأشداهم قوة، فإذا اردتم انتم ايضا ان تنتخبوا من بين صفوفكم من ترون فيه الكفاءة والمقدرة لمنازلة بطلنا، فسوف تتم المباراة بينهما فإذا تغلب بطلنا على بطلكم وجب عليكم ان تعتبروا انفسكم مهزومين ولا يحق لكم الامتناع عن دفع "الجزية". وإذا كان النصر حليف بطلكم فسنكون نحن المهزومين وانا مستعد لدفع ما يجب علينا دفعه وسوف نقبل بكل خدمة تكفلوننا اياها.

فقبل قادة الاديغة بهذه الشروط واختاروا امرأة من عامة الشعب وهي (لاشنيكاي Lashinkai) والبسوها ملابس الرجال لإخفاء معالم جنسها.

فبدأت المنازلة ودامت اكثر من ساعة وكان الفوز للمرأة الشركسية فاكفهر وجه ((الخان)) وتغيرت ملامحه، وكظم غيظه، واعترف بأنه هزم وهنأ الاديغة بفوز بطلهم.

ومن باب المفاخرة كشف قادة الشراكسة بأن البطل الذي هزم بطلهم هي ((امرأة)) عادية من عامة الشعب، وطلبوا إليه ان ينتخب من جيشه بطلا آخر اذا أراد أن يختبر قوة رجال الاديغة.

فرفض "الخان" الطلب واكتفى بما حدث وقال: "إن امرأة عادية من عامة شعبكم تغلبت على أقوى أبطالنا الذين كنا نعتمد عليهم، فسأبر بوعدي وائفذ شروطي التي وضعتها بنفسي قبل بدء المنازلة وفوق ذلك كله فإنني اهدي اميركم سبعة من رجالي ثم انصرف ورجع فوراً إلى بلاده".

وأشد احد الشعراء في هذه المناسبة قائلاً "كان قيسين فارسا مغوارا ومحاربا رابط الجأش تخشاه الجموع، لكن ساعد المرأة ((لاشنيكاي)) كسر عزمه وسلبه شهرته، لقد أطعمت وسقيت جوادك سدى يا ((قيسين))! وقد جهزت عدتك واصلحت قوسك وصقلته حتى بدا لامعا وملأت كنانتك بالسهم

اللامعة، وجعلت درعك ساطعا تبهر بضيائها الابصار، ولكن سبق السيف العذل اذ المرأة الشركسية ((لشنقاي)) القت ارضا مبارز "الخان" الوقح، نعم لقد خر صريعا بضربة من يد امرأة عادية، انظروا اليوم فخارنا، أما كفانا شرفا رجوع (الأديكة) مثقلين بالهدايا والغنائم كأنها ارباح تاجر كبير^(٢٤).

وقيل ان مسرح هذه المباراة التي جرت بين "الاديغة" و"كيتاي خان" كان بالقرب من نهر (شكم Shagem) أي فوق حصن شكم الحالي في بلاد القبرطاي، ويسمى ذلك الموقع حتى اليوم (لاشنسكايا Lashinskaya).

مصادر ومراجع الفصل الخامس

- ١) دي، جان شارل، عالم مجري، ثقافة الشعوب القفقاسية، ١٨٢٩، ص: ٢٧.
- ٢) لوكا، جوفاني، قس ايطالي من المذهب الدومنيكي، كان في مهمة تبشيرية في بلاد الشراكسة ((الأديغا)) في القرن الثامن عشر الميلادي، وكتب عن حياة الأديغا عامة وعن شجاعتهم خاصة. ص ٢٦.
- ٣) برونوفسكي، مارتن، في كتابه عن منطقة بيتغورسك وسكانها، عام ١٥٩٥.
- ٤) دورتيلي، رحالة ايطالي كتب عن الشراكسة في "تشيركسيا" في القرن السادس عشر.
- ٥) انتريانو، جورج، عالم جغرافي ايطالي من جنوا، كتب عن احوال الشراكسة (الجراكسة) ونشره عام ١٥٠٢.
- ٦) بيل، جيم، داعية سياسية انجليزي الجنسية، زار بلاد تشركسيا عامي ١٨٣٧ - ١٨٣٩، وكتب عن حياة الشراكسة فيها.
- ٧) لاموتر، بري - دين، دبلوماسي رحالة تجول في بلاد الشراكسة في القرن الثامن عشر وكتب عن احوالهم الاجتماعية والسياسية.
- ٨) المسعودي، مؤرخ عربي زار بلاد الشراكسة التي سماها بلاد الكشك.
- ٩) انتريانو، جورج، رحالة جغرافي من ايطاليا، كتب عن حياة "الزيخ" في منتصف القرن السادس عشر ونشر كتابه عام ١٥٠٢.
- ١٠) أبو الثناء الامشاطي، ابو الثناء محمود، المتوفي عام ٨٩٩هـ. دائرة المعارف الاسلامية (ج ٣ - ٨١)
- ١١) وجدي، فريد، دائرة المعارف الاسلامية، (ج ١٠ - ٤٤٠).
- ١٢) انتريانو، جورج، مصدر سابق، ص: ٢٣.
- ١٣) بيل نجم، مصدر سابق، ص: ٣٢-٣٣.
- ١٤) بيرغ، ايفان فبروفيتش، مصدر سابق، ص: ٨٠.
- ١٥) بيل، جم، مصدر سابق، ص: ٣٠-٣٣.
- ١٦) انتريانو، جورج مصدر سابق، عام ١٥٠٢، ص: ١٢ - ١٥.
- ١٧) مامخيغ، راياء، لمحات عن العادات والتقاليد الشركسية "الأديغا خابزة".
- ١٨) غيردر، يوغان غوتفيلد، عالم مختص بدراسة الشعوب، كتب عن الشعب الشركسي في القرن السابع عشر الميلادي.
- ١٩) م. دوبرو، رحالة، تجول في بلاد "القبرطي" وكتب عن حياتهم الاجتماعية.
- ٢٠) رستم، رشدي، دائرة المعارف الاسلامية (٨-٨٢).
- ٢١) كيراشيف، م. ت، كاتب روسي، زار بلاد الأديغة اكثر من مرة وكتب عن العادات والتقاليد والناموس الشركسي.
- ٢٢) بيرغ، مصدر سابق، ص: ٨٥.
- ٢٣) ليمونتوف، ميخائيل، بطل من هذا الزمان، ونقل عنه محمد عبد الحميد الحمد في كتابه تاريخ الشركس وآل انزور دمشق عام ٢٠٠٢، ص: ٥٥.
- ٢٤) نغموكة، مصدر سابق، ص ٦٤-٦٥.

المجلد الأول

الجزء الثالث

الحضارات القديمة للأمة الشركية منذ

فجر التاريخ

فهرس فصول الجزء الثالث

حضارات الأمة الشركسية القديمة

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول: مراحل تشكل الحضارات القديمة في منطقة القوقاز في الفترة ما بين ٤٠٠٠ - ٨٠٠ ما قبل الميلاد	201
الفصل الثاني: حقائق حول المكتشفات الأثرية في المناطق التي كان يسكنها اجداد الشركسة في الوطن الأم منذ الألفية الرابعة ما قبل الميلاد	207
الفصل الثالث: نماذج من المكتشفات الأثرية في منطقتي مايكوب ونالتشك في الوطن الأم للشركسة	214

الفصل الأول

مراحل تشكل الحضارات القديمة في منطقتي القوقاز

في الفترة ما بين ٤٠٠٠ - ٨٠٠ قبل الميلاد

يعتقد علماء (الأنثوغرافيين) المختصين بوصف الأقوام القديمة وعلماء (الأنثروبولوجيين) المختصين بدراسة الإنسان (فيزلوجيا وحضاريا) بأن القوميات القديمة عامة والشركسية منها بشكل خاص قد تشكلت في هذه المرحلة، وأن حضارات قفقاسيا الشمالية بدأت تتشكل ما بين (٤٠٠٠ - ٢٠٠٠) ق.م وبالأخص الحضارات التالية:

الحضارة الأولى: حضارة مايكوب في العصر البرونزي المبكر:

أطلق هذا الاسم نسبة الى مدينة (مايكوب) الواقعة على نهر (بلايا) أحد روافد نهر (الكوبان) حيث عثر على (كورغان مايكوب) الشهير، وهي عبارة عن تلة ترابية ارتفاعها (١١) متراً تحتها بناء قبري وهذا (الكورغان) لا يمثل حضارة مايكوب فقط وإنما تمثل حضارة الجزء الشمالي الغربي والأوسط من القفقاس الشمالي والتي تعتبر موطن لكل من القبائل الشركسية الثلاثة (الأديغة، والأبوخ والأبخاز).

ازدهرت هذه الحضارة في عصر البرونز المبكر (٤٠٠٠-٢٠٠٠) ق.م وهي تشمل كل المنطقة الواقعة إلى الشرق من سواحل البحر الأسود وبحر آزوف بما فيها الكولخيد وجزء النصف الغربي لما وراء القفقاس إلى خط يجتاز جبال (بيتاغورسك) وحتى مجرى نهر (الترك) في القفقاس الأوسط.

ويقول مكتشف (كورغان) مايكوب بأنه يؤرخ المرحلة المبكرة من الحضارة (المايكوبية) وامتدت هذه الحضارة من شبه جزيرة تمان وحتى (الشيشان أنقوش) لذا فإنها تعتبر حضارة تمثل منطقة الشمال الغربي للقفقاس الشمالي في عصر البرونز كما يؤكد (تورتشيانينوف) بأن مقبرة مايكوب يعود تاريخها إلى الألف الثالثة ق.م.^(٦)

كما كانت هذه الحضارة منتشرة في مناطق نالتشك في مناطق القبردي الشركسية، وهي تبدو مدافن مبنية بحجارة ضخمة مستطيلة الشكل مشغولة ومنحوتة بشكل متقن والمعتقد بأنها هي تمثل عصر التحول إلى أسلوب الدفن (الدولميني)، وكما عثر على كميات كبيرة من الحلي الذهبية والفضية ومصنوعات حجرية وعظمية وأوان فخارية كما وجدت آثار المساكن والمواقد فيها.^(٧)

وتميزت حضارة مايكوب بما يلي:

١- تطور في صناعة التعدين باستخدام مختلف أنواع المعادن منها الفضة والذهب والقصدير والنحاس والبرونز.

٢- وضع في عهد هذه الحضارة أول خارطة جغرافية في العالم مكتوب عليها بأسلوب الكتابة الصورية المقطعية القفقاسية وهي الخارطة التي رسمت على (الإناء الفضي الأول) وتم حفر شكل جبال مؤلفة من ثلاث سلاسل جبلية متتالية بارتفاعات مختلفة، ويظهر على جسم الإناء موقع (نهرين) ويظهر عليهما اتجاه سير الماء ويصب النهران في بحيرة أو في بحر تظهر الأمواج على سطحها* كما يظهر على سطح الإناء وعلى جسمه صور (حيوانات ونباتات بشكل متسلسل) والكتابة كانت (باللغة الأشووية) وهو الاسم الذي يطلقه (الأبخاز) على أنفسهم حتى اليوم. علماً أن هذه الكتابة المقطعية بقيت مفهومه وبنفس الدرجة لدى كل

* يؤكد علماء الآثار بأن صورة الجبال تمثل جبال القفقاس، والنهرين يمثلان نهر (الدجلة والفرات) في العراق مما يدل على وجود علاقة بين الحضارة المايكوبية والحضارة السومرية في العراق.

اللغات في مجموعة (أديغة، أوبخ، أبخاز) وقد قرأ النص المكتوب على الانائين على النحو التالي: ^(٨)

الإناء الأول: (١) الخارطة (٢) بلد الموقع (الآشوي) (٣) اسم صانعة (غيانتش بن حيا)

الإناء الثاني: (١) ملك (سادز الأسد) من عائلة أنتشبه (٢) توجد هنا روح الملك الملعون سارق الروح. ^(٩)

٣- ظهور الكتابة الآشولية (الآشوية) وهي لغة استخدمها قدماء الأيغة، والأوبخ، والأبخاز وهي اللغة التي كانت مستخدمة في الفترة من (١٣٠٠-٢٠٠٠) ق.م.

الحضارة الثانية: هي حضارة (كورا أراكس):

تكونت هذه الحضارة في النصف الشرقي للقفقاس الشمالي في عصر البرونز المبكر (٤٠٠٠-٢٠٠٠) ق.م وأكدت المعطيات الأثرية أن هذه الحضارة بدأت منذ عصر البرونز المبكر أيضا (٤٠٠٠) ق.م. وانتشرت بدءاً من المناطق الجبلية وما قبل الجبلي في الشيشان وكامل الداغستان وشواطئ بحر قزوين وحوضي نهري (كورا وأراكس) وفي الأناضول الشرقي. وتميزت هذه الحضارة في فن العمارة وبناء المساكن حيث تم بناء البيوت بشكل صفوف فوق بعضها على المنحدرات الجبلية وكان البيت مقسوماً إلى قسمين، وشكله دائري بقطر (٥-٦)م، وفيه (جرار) فخارية وحفر مطمورة في الأرض للتخزين كما استخدمت قوالب الأجر في البناء وطلبت بالطين من الداخل والخارج.

كما اشتهرت بصناعات معدنية متطورة جداً حيث كان انسان هذه الحضارة على دراية بخصائص الخلائط المعدنية، واستعملوها بمهارة فائقة وخاصة البرونز وصنعوا منها (الفؤوس والشفرات والسكاكين وحلي وأواني). كما أتقنوا صناعة الفخار بشيها في أفران عالية الحرارة مع زخرفتها بالألوان.

كما تميزت هذه الحضارة بأسلوب زراعة المصاطب (التراس) وهو نوع خاص من الزراعة في الجبال، وقد زرعت الأرض بأنواع من القمح (القاسي والطرقي) كما استخدموا (نظام تهجين) في المزروعات كما اشتهرت قرية (غيلارسك) في الداغستان بزراعة نباتات النسيج، كما ظهرت البيادر (الدراسة باستخدام الحيوان) وقد أدى ذلك إلى زيادة الإنتاج وظهور مستودعات الحبوب على شكل حفر عميقة في الأرض وكان الطحن يتم على (مهارس) حجرية. أما في مجال تربية الحيوانات فكانت تربية الماشية التي تعتمد على الانتقال بها في فصل الصيف إلى المراعي الجبلية العالية بعيداً عن مناطق السكن الأساسية، وقد كان هذا سبباً في ظهور المساكن (الصيفية) كما استعملت الثيران والعربات في عمليات الجر والنقل.

وبالنسبة للمعتقدات الدينية فقد كان بناء هذه الحضارة يقصدون (الام) من خلال عبادة (الهة العطاء والخصب) كما عبدوا (الشمس) وتم انتقال رئاسة الأسرة من (المرأة إلى الرجل) وتؤكد المكتشفات الأثرية في منطقة الداغستان بأنه تم استخدام المدفن الجماعي خارج القرى، كما خصصت مدافن منفصلة لرؤساء القبائل والعائلات الغنية والحاكمة، كما وجد تماثيل نسائية لآلهة الخصب والعطاء في (كورغان) مدينة دربند الداغستانية.

الحضارة الثالثة: هي حضارة (الكاتكومب) وظهرت في عصر البرونز الأوسط (١٠٠٠-٢٥٠٠) ^(١١)

وتنقسم هذه الحضارة إلى حضارتين، هما حضارة القفقاس الشمالي الغربي، وحضارة الدولمن، وفيما يلي تحليل موجز لكل من هاتين الحضارتين:

* حضارة القفقاس الشمالي الغربي:

انتشرت هذه الحضارة على معظم مناطق القفقاس الشمالي الغربي حتى بداية الجبال الداغستانية شرقاً ومن الجنوب إلى منطقة ما وراء القفقاس ووصلت شمالاً إلى منطقة السهوب، حيث كانت هناك منطقة واسعة اختلطت فيها قبائل القفقاس الشمالي مع سكان السهوب حضارياً وديموغرافياً. والمكتشفات الأثرية في هذه الفترة متنوعة منها (الكورغانات) في السهول والمناطق ما قبل الجبلية (ومدافن ضخمة) تحتوي على قبور بشكل صناديق حجرية، وقد استخدم الحجر بشكل واسع في بناء القبور، كما وجد فيها الأواني السيراميكية المتقنة وفؤوس حربية معكوفة صنعت من حجر أخضر سميت (بالفؤوس القبردينية)، وأزرار ضخمة مشغولة من صخور أشد قساوة من سابقتها، وأوان طينية بشكل دائري.. إلخ.

وامتدت حدود هذه الحضارة إلى (حوض الكوبان حتى ستافروبول ومناطق كبادرينيا بلقاريا وأوسيتيا الشمالية والشيشان)، أي كل القفقاس الشمالي جغرافياً ما عدا منطقة الداغستان.

اعتمد سكان هذه الحضارة على تربية الماشية خاصة (التيوس) الصغيرة منها والضخمة من الماعز والضأن، بالإضافة إلى تربية الخيول التي كانت تستخدم للترحال والتنقل.

وفي مجال الزراعة فقد كان القمح والشعير من المزروعات الأساسية خلال هذه الحضارة، كما أن صناعة التعدين كانت متقدمة خاصة الصناعات النحاسية. وكانت (السلطة الأبوية) هي السائدة في مجتمعات هذه الحضارة، كما أن التمايز الطبقي كان أخف من حضارة الكوبان.

* الحضارة الدولمينية: (١٢)

انبثقت هذه الحضارة عن حضارة قفقاسيا الشمالية والتي تميزت بالأمور التالية:

- ١- تم استخدام الحصان في ظل هذه الحضارة وبالتحديد خلال عام (٢٥٠٠ ق.م) للتنقل.
- ٢- انتشر اعتقاد عند الناس في هذه الحضارة بوجود الحياة الثانية في (الآخرة) فقد وجد في إحدى المقابر جميع أنواع الأواني التي كان يستخدمها الإنسان في الأكل وكذلك أنواع من أدوات العمل.
- ٣- الإيمان بوجود علاقات حميمة مع الحضارات القفقاسية الأخرى مثل حضارات (الكاتاكومب) وحضارة (كورا أراكس).
- ٤- ظهور الطبقة في هذه الحضارة، حيث ظهرت طبقة من الارستقراطيين واصطدمت مع القبائل التي كان يرأسها الارستقراطيون مع قبائل أخرى، كما أدت تلك الصدمات إلى أسر بعض السكان وتحويلهم إلى عبيد.. ونستدل على ذلك من تخصيص حجرات كبيرة في المدافن لرؤساء القبائل وأخرى صغيرة دفن فيها العبيد الذين قتلوا مع أسيادهم.
- ٥- العثور على قبور مؤلفة من قطع حجرية ضخمة محفورة كلياً من الصخر حيث تم اكتشاف أكثر من (٢٢٠٠) قبراً من هذا النوع ويلاحظ انتشار هذا النمط من القبور على جزء محدود من ساحل البحر الأسود بين شبه جزيرة تامان وحتى الشاطئ الأديغي - الأبخازي.
- ٦- بالنسبة للصناعة التعدينية فقد عثر على بقايا (مشغل لصب المعادن) وكان من إنتاجه، الفؤوس والخناجر والحليات والأزرار ذات الشكل الدائري والأطواق. وانتشر أسلوب جديد في طلاء سطح الأنية بطين سائل تم زخرفتها بشكل (كشاكش وأكاليل مثلثية الشكل).
- ٧- السلطة السائدة في هذه الحضارة كانت سلطة الأسرة الأبوية.

- ٨- وجود المدافن الجماعية في هذه الحضارة فقد بلغ في أحد القبور (٥٠) جثة والاعتقادات الدينية ظلت كما هي في السابق. ويظهر التداخل الكبير بين هذه الحضارة المحلية وحضارة

القفقاس الشمالي الغربي حيث تطورت هذه الحضارة بالنسبة للنصف الثاني من الألف الثانية (١٥٠٠-١٠٠٠) إلى حضارة سميت بالحضارة (الكايكتنية الخورثشيفية) والتطور الحاصل كان في مجال الدفن فقط فأصبح دفناً فرادياً أو زوجياً وفي صناديق حجرية.

٩- وفي مجال تربية الماشية ظهر نوع جديد وهو تربية (قطعان الخيول) واستخدامها للركوب وجر العربات. وبقيت الصناعة المعدنية على تطورها مقابل تراجع أصحاب الصناعة الفخارية، وتكونت الأسرة الصغيرة مع بقاء الارتباط العشائري قوياً.

١٠- انتشرت في هذه الفترة الرسوم على الصخور والرسم بالألوان والحفر على الصخر، وشكلت الرموز الشمسية مكانة كبيرة ودخل رمز الشمس في رسومات الحيوانات تضمنت مناظر لحيوانات منزلية وبرية ورسومات الخيول والفرسان وتمثيل نسائية موضوعة فوق القبور ودخلت أساليب النحت الصخري في المقابر وأقدمها ما عثر عليه في منطقة (نالتشك) عاصمة جمهورية القبرطاي حالياً.

١١- ساد في هذه الفترة نظام الفروق الطبقة. ويلاحظ بأن الدولمينات كانت مجهزة بفتحات دائرية لإدخال الميت فيها واحتوت كل واحدة منها على عدد يتراوح بين (١-٣) من الجثث، وضعوا (بشكل مطوي) مع وضع الغرة الحمراء بشكل كثيف على الجثث وكانت هذه المقابر لزعماء القبائل، كما ظهرت مدفونات جماعية في وضعية الجلوس تعود لفترة ازدهار الحضارة الدولمينية في النصف الأول من الألف الثاني ق.م، وظهر البناء الدولميني عند قبائل شمال القفقاس على شاطئ البحر الأسود وهي قبائل (الأديغة والأبخاز).



خارطة

تبيين المناطق التي وجدت فيها الدولمينات في قفقاس الغربية

الحضارة الرابعة: حضارة القفقاس الشمالي:

وظهرت هذه الحضارة في العصر البرونزي المتأخر (٨٠٠-١٠٠٠) سنة ق. م وتميزت بالزراعة وتربية الماشية وهما أساس الحياة الاقتصادية للسكان في هذه الحضارة حيث ظهرت

الزراعة المنتظمة مثل زراعة (القمح الطري والقمح القاسي إلخ..) وكان الحصاد يتم بمناجل برونزية حديدية.

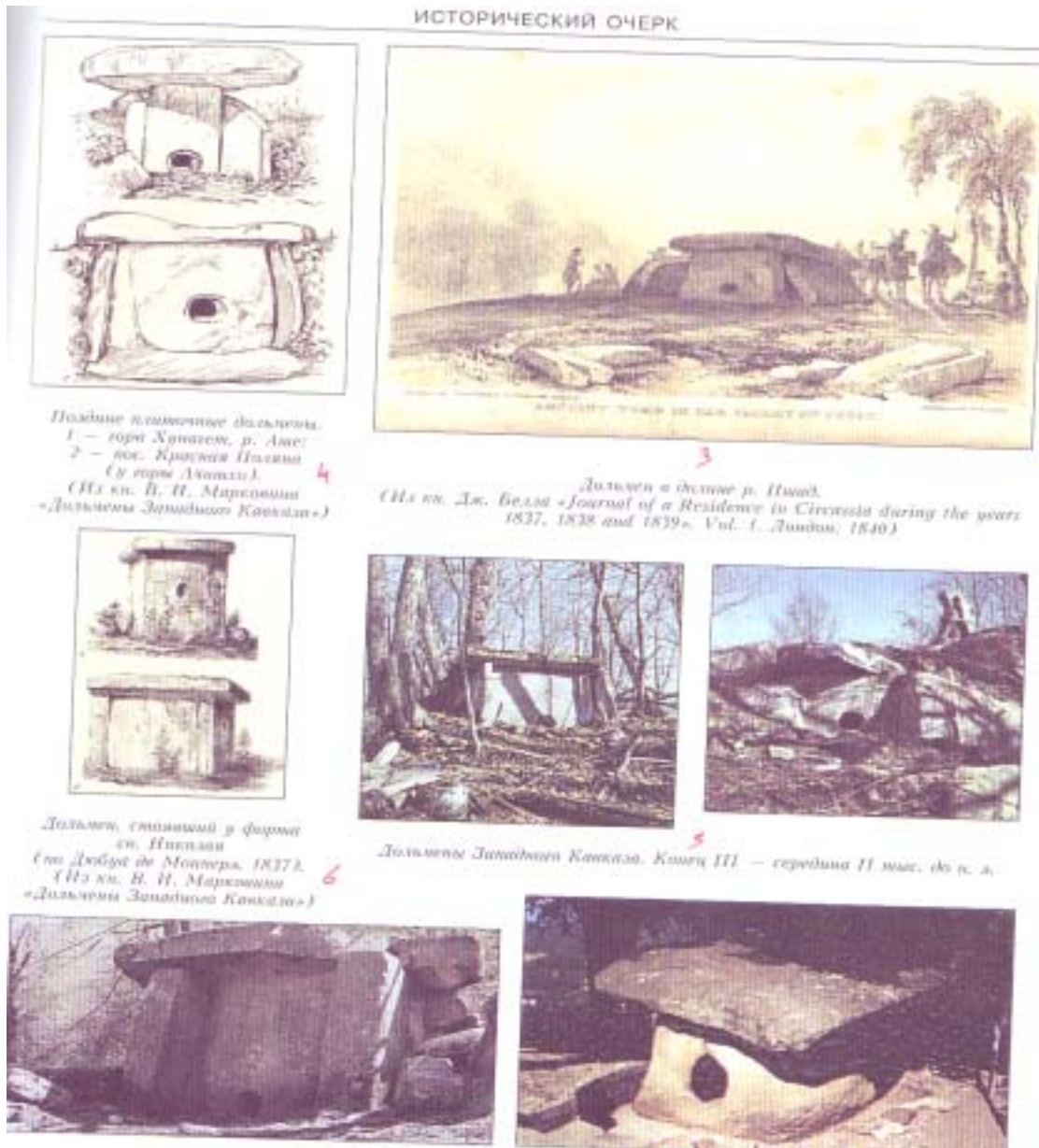
كما تطورت صناعة التعدين في هذا العصر، فالأدوات البرونزية عكست مهارة عالية ومعرفة عميقة لعملية الطرق والسكب وكافة العمليات الأخرى، وصنعت قوالب الصب للانتاج (بالجملة) والصب المعقد على مراحل، واعتبرت هذه المعرفة العميقة بتكنولوجيا معادن (البرونز والنحاس) واحدة من أهم الإشارات على الاكتشاف المبكر للحديد؛ إضافة إلى الخبز الحديدي المنتشر بكثافة في طبقات الألف الثاني وحتى الألف الأول، وقد وجد البرونز المخلوط بالحديد في مدافن نهاية الألف الأول في كل من (أوسيتيا والشيشان وأنقوش) والذي اعتبر دليلاً إضافياً على المعرفة المبكرة للحديد.

الحضارة الخامسة: الحضارة الكابانية:

وهي إحدى الحضارات التي ظهرت في العصر البرونزي المتأخر أيضاً، وسميت كذلك استناداً إلى مدافن (كابان) المكتشفة في (أوسيتيا) حيث عكست حياة الاستقرار في المواقع المرتفعة المحصنة بشكل طبيعي، وتم بناء المساكن في هذه الحضارة من (الحجر والخشب المغطى بالطين) وهي مقسومة إلى قسمين الأول للسكن والثاني للعمل، كما وجدت فيها بقايا شغل (بالعظام والحجر والفخار والمعدن) والدفن كان يتم في (صندوق حجري) ووضع الميت بشكل مطوي على الجانب الأيمن أو الأيسر مع وضع اليدين قرب الصدر وأمام الوجه، كما دفنت الأواني الفخارية والبرونزية والمواد الغذائية مع الميت، كما كان يدفن أحياناً مع الميت (حصانة) بلوازمه كاملاً، وأدوات حربية مختلفة، كما وجد في القبور النسائية أواني فخارية وإبر خياطة وأدوات نسائية وحلي وأسلحة مما يدل بأن أصحاب هذه الحضارة كانوا يعتقدون بوجود حياة ثانية بعد الموت.

نماذج

من الدولمينات التي وجدت في حوض نهر تشاد ومنطقة فورت سانت نيكولاس في القفقاس الغربية



الفصل الثاني

حقائق حول المكتشفات الأثرية في المناطق التي كان يسكنها أجداد الشركاسة في الوطن الأم منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد

بالرجوع إلى مؤلفات للمؤرخين (مورجان وارانست) حول المكتشفات الأثرية التاريخية التي وجدت في بلاد القفقاس عامة ومناطق أجداد الشركاسة في شمال القفقاس خاصة، وكذلك بدراسة المحتويات الأثرية في المتحف الأثري الموجود في تفليس (عاصمة جمهورية جورجيا) حالياً والمتحف الأثري في نالتشك (المكتشفة في حوض نهر الكوبان وبالتحديد في منطقة مايكوب) في الفترة ١٨٩٧-١٩٠٩ وكذلك بعد الاطلاع على نص الرسالة التي أرسلت إلى المؤلف الروائي الشهير (الكساندر دوماس) من شخص يدعى (ديستوشف مارلينسكي) حول سد القفقاس العظيم.

وكذلك بمراجعة نتائج الحفريات التي جرت في منطقة (نالتشك) ونتائج التنقيبات التي جرت في حوض نهر الترك ونهر أرغون عام ١٩٣٦ توصلنا إلى حقيقة:

ان بلاد الشركاسة في الوطن الأم في شمال القفقاس عبارة عن متحف للآثار القديمة المصنوعة من الذهب والفضة والبرونز والحديد والخشب، بالإضافة إلى الأدوات المصنوعة باتقان من الحجر المصقول والتسمية التي أطلقها (انفيموف)* على الكوبان في كتابه (ذهب الكوبان القديم) وكذلك التسمية التي أطلقها (سمكوغ) على القفقاس (متحف الاقوام) هي تسميات وتعبيرات صادقة نستدل عليها من الحقائق التي توصلنا إليها في بحثنا وأهمها هي:

الحقيقة الأولى: اكتشف المؤرخ (مورجان) في القفقاس العديد من المقابر العائدة للعصور الحجرية القديمة حيث وجد فيها الكثير من الأدوات البيتية وأدوات الزينة، وخاصة في حوضي نهر كوبان ونهر الترك.

كما أكد (مورجان) بأنه اكتشف في القفقاس العديد من المقابر العائدة للادوار الحجرية، وأنه وجد فيها كثيراً من الأدوات البيتية وأدوات الزينة في حوضي نهر (كوبان) ونهر (ترك) كما اكتشف آثاراً معدنية غنية تثبت أن هذه المنطقة كانت مهداً لبداية استعمال المعادن ويعود تاريخها لألفي عام قبل ميلاد المسيح، وأن صناعة البرونز والحديد قد انتقلت من هناك إلى أوروبا.

كما يذكر (مورجان) أنه أجرى تحقيقات ودراسات على الموميات الحثية المحفوظة في مصر وتبين أن أصحابها من أصل قفقاسي، وأن مظاهر الحثيين وملابسهم تشبه كثيراً ما لدى القفقاسيين إلى يومنا هذا. (١٣)

الحقيقة الثانية: بالرغم من الجهود الروسية الهادفة إلى فرض التعتيم على الحضارات القفقاسية القديمة إلا أن العلماء والباحثين من جمهورية "أديغي" قاموا بأعمال التنقيب، وعثروا على لقيات أثرية، في غاية الأهمية، وأهمها الآثار المكتشفة هي مقبرة كبيرة "تحت أرضية" يعود تاريخ بنائها إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. وقدر العلماء أن خمسة عشر ألف عامل، عملوا على مدار عدة عقود لإتمام بناء هذا القبر. ووصف عالم الآثار الروسي فارماكويسكي هذا (الكورغان) بأنه على ارتفاع التل الترابي فوق حجرة الدفن (١١) متراً وتحت سور حجري، وفي منتصفه حفرة المقبرة، متجهة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي بعمق لا يتجاوز ١,٤٢م تحت التراب والقبر مستطيل الشكل بزوايا مستديرة، وجدرانه مقعرة مكسوة بالخشب وتغطي القبر طبقتان من الأخشاب المتعاكسة بينهما تراب بسماكة (١٠سم) والقبر مقسم بداخله إلى قسمين متساويين (جنوبي وشمال) والشمال مقسم بدوره إلى قسمين أيضاً ففي الغرفة الجنوبية وضع الميت مضطجعا في منتصفها بشكل ملتو

* ن. ق انفيموف، مؤلف كتاب (ذهب الكوبان القديم) المنشور في كراسنودار عام ١٩٨٧.

على جانبه الأيمن، ورأسه إلى الجنوب ووجهه إلى الشرق ويداه مرفوعتان بمستوى رأسه والهيكل العظمي مصبوغ بدهان أحمر غامق.

وفي الجزأين الشماليين دفنت امرأتان لهما نفس الوضعية السابقة، والهيكل العظمي للرجل مغطى بالحلي الذهبية عددها (٦٨ شكل أسد و ٣٨ خاتماً ذهبياً وعشرة ورود ذات خمس وريقات) بالإضافة إلى أشكال الخرز بحجوم مختلفة مصنوعة من الفيروز والذهب وتحت الجمجمة شريطتان ذهبيتان وخمس خواتم ذهبية وأربع حلقات أذن ناعمة وأربع عصي مصنوعة من أنابيب ذهبية فضية مجوفة (وفي أسفل كل عصا أشكال ثيران ذهبية على العصي) وفي الجزء الأعلى من كل عصاة يوجد شريط خيوط عليه أشكال أسود وثيران من صفائح ذهبية، ووجدت مجموعة من الأزرار والحلق تجسد مناظر جبلية ووحوش وأربع قطع فضية بأشكال ضخمة للثيران من الذهب والفضة ووعاء حجري بغطاء من الذهب وفؤوس من البرونز وسكاكين ونهايات سهمية من حجر الكريمن (الصوان) كما وجد عند الحائط الشرقي في الغرفة الرئيسية (أنيتان ذهبيتان و ١٤ أنية فضية).^(٧)

وفي الأعوام ١٨٩٨-١٩٠٩ واصل علماء الآثار عملهم في (مايكوب) وحولها فوجدوا مدافن للقدماء حيث وجدوا أنها تحتوي على ما كان يملكه الميت من أشياء عزيزة عليه، حتى الطعام والشراب، ووجد في بعضها الهياكل العظمية لرجل وامرأة، وفي أخرى بقايا عربات فهم منها أنها كانت تقاد بستة أزواج من الخيل، كما وجدت بينها مصنوعات فضية وذهبية ونحاسية وتمائيل حجرية.

ومن بين الآثار التي وجدت في (مايكوب) أيضاً قطعتان ذهبيتان جلبت الاهتمام والتدقيق ودارت حولها أبحاث كثيرة، كما وجد بينها حجر مسنن وقطع ترزينية للأحزمة وقاما (خنجر مستقيم) أشبه بورقة شجرة الدفنة، استرعت الانتباه الزائد لأن القطع الترينية للأحزمة والخنجر المسنن (والقاما) لا تزال مستعملة عند الجراكسة إلى اليوم الحاضر.

ومن أهم مكتشفات منطقة (كوبان) أيضاً كما جاء في كتاب تاريخ العالم - المجلد الثاني هي:

- صورة عن اللوحة الذهبية الرمزية المكتشفة في مايكوب، مع مزهريتين من الفضة عليها رسوم بديعة تعود إلى أكثر من (٢٥٠٠) ق. م.

- صورة لهيكل عربية مصنوعة من الأغصان المتشابكة المطلية بالطين عثر عليها في مقبرة (اولسكي) بالفقاس.

- مجسمات لمجموعات معدنية بديعة وجدت في مايكوب يرجع تاريخها إلى ٣٠٠٠ سنة ق. م وفيها ثلاثة ثيران ذهبية فضية تخترقها قضبان والمعتقد أنها كانت تستعمل لأغراض دينية، وفيها إكليان من الذهب مطعمان بخيوط ذهبية جميلة وفيها نماذج معدنية لصناعات نفيسة ودقيقة سميت بالفن الاسكودي والصحيح بأنه الفن الفققاسي الحقيقي، لأن الاسكود كانوا بدأوا رحلاً متوحشين لا يعقل أن يكون لهم فنون بهذا المستوى.^(١٤)

- مقابر عديدة مليئة بالهياكل العظمية للنساء والخيل والبقر والغنم وبقايا العربات تقاد بستة أزواج من الجياد كما وجد فيها الكثير من الأشياء العائدة للميت كالأسلحة والأدوات والأواني، وآثار من الأطعمة والأشربة في أوان فخارية وحجرية وعدد من الحلي والتماثيل الفضية والحجرية.

- إن أهم المناطق الحثية في عظمتها كانت في حوض نهر (قيزيل إيرماق) في تركيا وفي شمال سورية، فسلح القاما (السيف المستقيم القصير) الذي اكتشف في كوبان مثلاً، هي تماماً تشبه مثيلاتها مما اكتشف من القاما الذهبية في آثار (الاجاهيوك) في تركيا. وكذلك ما اكتشف في بلاد سومر جنوب العراق - ونجد في وقتنا الحاضر أن الجراكسة والفققاسيين جميعاً يتمنطقون بمثيلاتها وفي الوضعية التي كانت لدى الحثيين الأقدمين. وقد دققها علماء الآثار زمنياً وتناقشوا مدلولاتها طويلاً، فوجدوا بأن القاما التي تشبه (ورق الدفلى) المصنوع

من الحجر المسنن والحزام الجلدي، تشبهان القاما والحزام المستخدم في اللباس الجركسي القومي حتى يومنا الحاضر^(١٥).

- العثور على اسلحة حربية عديدة مثل (السيف والعصي والسهام والدروع) ولم يصادف وجود مثل هذه الأدوات الحربية في المدافن القديمة للشعوب الأخرى في العالم.

يتضح مما ذكر بوضوح أن قدماء الجراكسة كانوا يعتقدون بخلود الروح وبعث الموتى لذلك كانوا يدفنون معه جميع لوازمه وما يحتاج إليه من الدنيا والآخرة - كما هو الحال عند قدماء المصريين وبعض الشعوب الأخرى، وانهم كانوا يقدمون الأضاحي قرابين للميت لكي يخلصوا روحه من العذاب.

وكانت المدافن تبنى بشكل مربع أو مستطيل مدخله من عند الرأس وقد وجدت نقوش تزيينية وصلبان ، ولكنها ليست إلا نقوشاً لأنها رسمت قبل الميلاد بمئات السنين.

ويعتقد علماء الآثار بأن عمر الآثار المكتشفة في مايكوب بحوالي [٢٥٠٠] سنة قبل الميلاد، ولكن اللوحة الذهبية التي عثر عليها وفيها رسم السلسلة الجبلية والنهران اللذان يصبان في البحر في مصبين مختلفين كما تحتوي على رسوم بعض الحيوانات، والتي تقرر أنها تمثل سلسلة القفقاس ونهري الفرات والدجلة، تدل على أن هذه الخارطة تعود إلى عهد أقدم من ذلك، لأن دراسات علماء الجيولوجيا، أظهرت أن التقاء مصبي نهر دجلة والفرات حدث بعد عام ٢٥٠٠ ق.م^(١٦)

الحقيقة الثالثة: تم الكشف في منطقة الكوبان (جنوب غرب بلدة فلادي قفقاس) على آثار هامة جداً، تدل أنها كانت مركزاً لصناعة البرونز، كما عثر على تزيينات برونزية، وفؤوس حجرية مصقولة وعلاقة [جنكل] جذب اهتماماً كبيراً لخصوصية صناعته.

وان اختلاط الآثار الحجرية بالمعدنية في هذه المنطقة يكشف عن الدور الانتقالي من الحجر المصقول إلى النحاسي، فالبرونزي هذا وعثر على مدافن تحتوي على هياكل عظمية لأشخاص عديدين كما شوهد في بعضها آثار لحرق الموتى.

كما عثر في منطقة المياه الساخنة (بيتاغورسك) على أدوات من السيراميك وآثار تعود للدور النحاسي والبرونزي كما عثر فيها على مدافن الدور الكلاسيكي (دفن الميت بعد طي أطرافه) كما اكتشفت فيها مدافن جماعية (دفن أشخاص عديدين في قبر واحد) كما وجدوا آثاراً تدل على تغسيل الموتى قبل الدفن وعثروا أيضاً في هذه المناطق على رسوم للنسر والحصان والكلب والثور والانسان منقوشة على الصخر^(١٧).

وتشير الدراسات الأثرية بأن المعادن المستخرجة من الأرض في منطقة الكوبان كانت تقى بالحاجة المحلية، وكانت الواردات الأجنبية قد توقفت، فأخذت المناجم المحلية تنتج للأسواق المحلية، وفيما يختص بصناعة النحاس وأدواتها فيرجع ظهورها إلى سنة (٣٠٠٠) ق.م في الكوبان حسب مكتشفات عام ١٨٩٧ ويعتبر الألف الثاني قبل المسيح عصر غزارة في إنتاج الأدوات النحاسية في منطقة الكوبان.^(٢٠)

الحقيقة الرابعة: يقول الدكتور البروفسور جورجي في مؤلفه [سومر] عند تعرضه لذكر القفقاس: "أن الآثار القفقاسية تمتد بشكل سلسلة متوالية حتى الجزر البريطانية سلسلة غنية متجانسة ومتطورة وطويلة الأمد".

ويضيف إلى ذلك قوله، من المهم أن نتذكر أن الحضارة القفقاسية غير بعيدة عن الحضارة السومرية، فالآثار التي وجدت في مايكوب وغيرها من الأمكنة عثر فيها على آثار ذات قيمة تاريخية عظيمة.

فالآثار القفقاسية، وخاصة القسم الشمالي منها، تتكامل وتتجانس مع الآثار العراقية والمصرية والأناضولية منذ العهد [٣٠٠٠-٣٥٠٠] سنة قبل الميلاد وتترابط معها بروابط قوية.^(١٨)

الحقيقة الخامسة: وقد جاء في كتاب (تاريخ القوقاز) تأليف (جوناتوقه) تبين من المدافن القديمة في القوقاز أنهم كانوا يدفنون مع الموتى مقتنياتهم الثمينة واسلحتهم وغذاء لهم، وقد وجدت آثار الأطعمة في أوان فخارية داخل القبور، كما أنهم كانوا يقيمون الولائم لهم بعد موتهم بجانب قبورهم حسب مراسيم خاصة، ويفهم من ذلك أنهم كانوا يعتقدون بخلود الروح.

وظهر أن اسلحتهم كانت قديما هي القاما والسيف والترس والقوس والقلنسوة والسهم الحديدية المدببة والدرع المنسوج من زرد الحديد، حتى الخيل كان لها سراويل من الزرد.

كما كانوا يستعملون اقراطاً من الحديد، ومن ثم الفضة والذهب يزينون بها آذانهم وشعورهم الطويلة المعقودة من الخلف ويضعون الخاتم في ايديهم وأرجلهم ويتمنطقون بأحزمة جلدية مختلفة العرض محلاة بقطع من الحديد ثم الفضة والذهب.

ومن الثابت أن أجداد الجراكسة اخترعوا إبرة الخياطة بمختلف الأحجام باستخدام العظم والبرونز والحديد، وكذلك الأمشاط بمختلف الأحجام.

ومن المشاهد في آثارهم القديمة أنهم رسموا النسر والعقاب والتيل [الوعل أو الايل] والحصان والخنزير البري والأسد والثور البري غير أن الانسان كان يرسم دائما بدون رأس، ويعتقد المؤرخ مورغان أن عدم رسم الرأس ربما يرجع إلى اعتقاد ديني قديم ولا يعود للإسلام حسب ما ذهب إليه بعض المؤرخين.

ومما يجدر ذكره هنا أن الحثيين كانوا يغتسلون ويتطهرون من الجنابة كما يفعل المسلمون، وإن من يدخل المعبد وهو غير طاهر، وخاصة الكاهن يجازى حتى الموت، كما أنهم كانوا يعدون براز الكلب والخنزير نجساً وكما كان يجب تطهير الاناء الذي شرب أو أكل أو لعق فيه الكلب أو الخنزير.

وقد وجدت في شمال القفقاس عظام بشرية وعظام الخراف والخيول والثيران وبقايا قطع من أطباق الخزف على قبور الموتى، ولعل هذا يدل على أنهم كانوا يضحون بالانسان والحيوان افتداء لأرواح الموتى^(١٩).

الحقيقة السادسة: تدل الآثار المكتشفة في القسم الشرقي الأوسط من قفقاسيا الشمالية عامة وفي منطقة نالتشك وهي (عاصمة قبائل القبرطاي من شراكسة الوطن الأم حالياً) فإن هذه المنطقة قديمة جداً قد يعود تاريخها إلى ما قبل أكثر من (٢٠) ألف عام قبل الميلاد.

وفيما يلي أهم المكتشفات في هذه المنطقة من بلاد القبرطاي:

- عثر في [بيتغورسك] التي يسميها الجركس [يسي فابه = المياه الحارة] على جمجمة يرجح أنها من فصيلة النياندرتال، كما سبق أن أشرنا إليه.
- عثر في ربوة منخفضة بمنطقة نالتشك على [١٣٠] هيكل عظميا ملوثا بالأوكر، وهو نوع من التراب الفخاري، وكانت أهم محتويات القبور هي من (اسنان حيوانات وحشية وأنيابها كالخنازير البرية، ومن تمثال حجري لامرأة مع أساور حجرية وخاتم نحاسي وعقد من العقيق).
- عثر في مكان مجاور على أوان ذات قعر رديء التدوير، وأحجار من الصوان المسنن المستعملة في صنع السهم، ولم يكن هناك أي أثر لعظام الحيوانات الأليفة.
- عثر أيضا على آثار مهمة تعود للدور الحجري، وأخرى تعود للدور النحاسي والبرونزي.
- كشفت التنقيبات الأثرية التي جرت عام ١٨٣٦م في أحواض نهري [تيرك وآرغون] على آثار تدل على أنها كانت مناطق سكن في الدور النحاسي والبرونزي وهذه الآثار تشبه إلى حد كبير ما وجد في منطقة القبرطاي.

- كما وجدت في المقابر على خلاخل (سوار بدون جرس) وحلق للاذان مصنوع من الذهب والفضة وأسورة وخواتم، وفي عهد متأخر ظهرت لديهم المشدات (كورسية) والأحزمة المعدنية (٢٠).

الحقيقة السابعة: يقول (أنفيموف) في كتابه (٢٣) (ذهب الكوبان القديم) في الألف الثالث قبل الميلاد وإلى الجنوب من نهر الكوبان ظهرت حضارة مايكوب وازدهرت فيما بعد وامتدت إلى الشرق حتى الداغستان وإلى الغرب حتى شبه جزيرة تمان وأجزاء من شواطئ البحر الأسود حتى ما يعرف اليوم باسم (تسنه مز) ووصلت مايكوب الذروة في استعمال المعادن في المرحلة الأخيرة من حضارتها. وكان من بين المكتشفات الأثرية في مقابر اثريائهم وأغنيائهم كثير من الأدوات الذهبية والفضية. ووصف (أنفيموف) محتويات مقبرة (الكورغان) التي تم اكتشافها عام ١٨٩٧ على النحو التالي:

ففي إحدى المقابر الضخمة التي تعود إلى أحد قادة القبائل الجابرة، وأصبحت مشهورة في علم الآثار لما احتوته من كنوز ذهبية وفضية ثمينة يعود تاريخها إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.

ومما تم اكتشافه في نفس السنة في منطقة مايكوب هي:

- ١- وعاء من الفضة عليه نقوش تمثل
- ٤- إبريق مصنوع من الذهب.
- منظراً طبيعياً
- ٥- عقود من الذهب والفضة والعقيق
- ٢- مجسم لعجل مصنوع من الذهب.
- الأحمر والفيروز.
- ٣- مجسمات ذهبية لحيوانات.
- ٦- تاج من الذهب.

كما تم اكتشاف مقتنيات أثرية أخرى في الكوبان منها:

- ١- لوحات رسم لها قيمة علمية وفنية كبيرة.
- ٤- مرآة من الفضة عليها نقوش جميلة.
- ٢- سيوف قصيرة (قامات) ذات أغمدة ذهبية.
- ٥- بروش ذهبي على شكل نمر وحيوانات.
- ٣- فؤوس حربية مزخرفة مصنوعة من
- ٦- زبدية (جاط) عليها صور لطيور
- الذهب.
- وحيوانات.

ومن بين المكتشفات الأثرية التي ذكرها (أنفيموف) خاصة تلك التي وجدت في المناطق التي كان يسكنها (السنديون) وقبائل (المثيوت) من اجداد الشراكسة في المناطق المنخفضة من حوض نهر (الكوبان) وشبه جزيرة (تمان) بمحاذاة شواطئ البحر الأسود وحتى موقع مدينة (أنابا) موقع مدينة قديمة عرفت باسم (الآخوة السبعة Seven Brothers) تقع على سبعة تلال على الضفة اليسرى من نهر الكوبان، وهي تضم اليوم مقابر نبلاء السنديين الذين عاشوا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

وهؤلاء السنديون هم إحدى قبائل الميثوت وقد ازدهرت المدينة عندهم في القرن الخامس قبل الميلاد فكانت من أكبر مراكزهم محمية (بجدران عملاقة وأبراج) وكانت هذه المدينة مركزاً اقتصادياً وسياسياً هاماً.

وفي عامي ١٨٧٥-١٨٧٦ تم الكشف عن (سبع مقابر كبيرة) يعود تاريخها إلى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد تضم نبلاء السنديين وجد فيها مجسمات لخيول وسروج وأسلحة وحلي مصنوعة من الذهب وقرون تستعمل كأواني للشرب بالإضافة إلى أواني فضية وبرونزية وزبادي خشبية مرصعة بالذهب.

ونذكر فيما يلي بعض المكتشفات الهامة في تلك المقابر السبعة:

- ١- خاتم ذهب.
- ٢- طوق ذهب.
- ٣- إسوارة ذهب.
- ٤- عقد من الذهب.
- ٥- خاتم ذهب منقوش.
- ٦- قرن من الفضة.
- ٧- رؤوس من الذهب لثيران وخرفان وأشخاص.
- ٨- قرن ذهب ينتهي برأس كلب.
- ٩- قرن ذهب ينتهي برأس كبش.
- ١٠- مجسمات لأيل مصنوعة من الذهب.
- ١١- نقوش لحيوان الدراغون مصنوعة من الذهب.
- ١٢- نقوش لحيوان وطيور.

الحقيقة الثامنة: مكتشفات منطقة ابخازيا على ساحل البحر الأسود وبالتحديد في قرية (كسراستويا) الكائنة في وادي [أشي] طبقتين من الآثار لدورين تاريخيين مختلفين هما:

الطبقة السفلى: ويعود للدور الحجري واصحابها هم أقوام [الدولمه. ن] وهم الاناس الذين كانوا يدفنون موتاهم تحت الحجارة الضخمة ثم يطمرونها بكومة من التراب، يشبه المدافن المنتشرة في شمال أوروبا والتي يسمونها مدافن [الدولمه. ن] كما يسميها البعض [مذابح الدرويدي] لأنها تدل على أن ضحايا بشرية وحيوانية كانت تدفن مع الميت الغالي، وهذه العقيدة الدينية تسمى بالعقيدة [الدرويدي].

الطبقة العليا: وتعود للدور الحجري بأزمان طويلة، وفي كلتا الطبقتين وجدت أشياء مصنوعة من النحاس والبرونز، وهي تشبه إلى حد كبير ما عثر عليها من (الكوبان).

الحقيقة التاسعة (٢١): يقول الروائي الشهير (الكسندر دوماس) في المجلد الثالث الذي كتبه عام ١٨٣٣ بأن شخصاً اسمه (ديستوشف) مارلينسكي ارسل إليه رسالة ورد فيها معلومات عن (سد القفقاس العظيم ويسميه بعض المؤرخين بسور الكوبان الكبير) ولخص (دوماس) فحوى الرسالة على النحو التالي:

"إن ما يدعو إلى الاستغراب الشديد أن هذا السد يحوي صفات مما ذكرها [دنون] عن اهرامات مصر، وهو عدم وجود أي قوس فيه، ومع أي تعقبت جميع السرايب، حتى التي تصل إلى منابع المياه، أو التي تشكل مجاري المياه إلى قلاع السد، فإنني لم اصادف فيها على أي أثر لانحناء كأقواس الأقبية".

"ومع أن أبواب بلدة (دربند) المتممة لهذا السور ذات أقواس، فمن المعروف أنها جددت ورممت في زمن (كيخسرو) ملك ايران وسميت (باب الأبواب).

وهذا دليل على أن هذا السد القفقاسي قديم في بنائه كالأهرامات، لأنه انشئ في وقت لم يصل فيه الفن المعماري لبناء الأقواس والأقبية. انتهى الاقتباس (٢١) وكتب (الكسندر دوماس) مذكرات عن سياحاته في القفقاس والتي تعرض فيها لوصف ذلك السد بقوله إن "عرض السد يساعد على مرور العربات فوقه، وطوله يمتد من بحر الخزر إلى البحر الأسود لمسافة تزيد عن ستمائة كيلومتراً، وأنه بُني قبل سور الصين العظيم ومعاصر للأهرامات المصرية وأنه بني في الفترة ما بين (٤٥٠-٤٥٤) قبل الميلاد".

الحقيقة العاشرة: اكتشف في اقليم (قره شاي) وفي هضاب (قازبك) بناء كبير ينسبه بعض المنقبين إلى شعب [مه وٲت]، وبناء آخر وراء الكوبان يسمى [سينتا] ويظهر أن هذا الاسم يدل على من كان يسكن هذا الموقع.

* ذكر بعض المؤرخين بأن السومرين أنشأوا سور سمي (سور الاله عموروا) في مناطق البادية والصحراء ولم أجد أية معلومات وتفاصيل حول هذا السور.

وتذكر الروايات القديمة أنه كان يوجد على ضفاف نهر المالقاً مدينة قديمة تدعى [مالقاله]، كما كان يوجد بين نهري (شكم وباقسان) بقايا قلاع وحصون ما زالت خنادقها واسوارها ظاهرة للعيان، ونظراً لقدم عهدها لا يستطيعون تعيين زمن بنائها والذين بنوها.

وعلى الضفة اليمنى من نهر [بودقوموق] جبل مرتفع رباعي مستطيل الشكل، والجهة التي تطل على النهر المذكور ذات انحدار شديد يميل بشكل عمودي تقريباً، وبالقرب من الجهة المقابلة جبل ثان أقل ارتفاعاً من الأول يصل بينهما جسر صخري طبيعي كبير، والأول يحيط بقمته المنبسطة من جميع الجهات جدار صخري طبيعي يبدو للناظرين من بعيد كأنه سور حجري اصطناعي، وفي الجهة المطلّة على النهر ست درجات عظيمة منحوتة في الصخر تؤدي إلى فتحة في الجبل حيث يبدأ سلم صخري منحوت من الجبل يقود إلى أعلاه، وقد وجد في مواقع مختلفة فيها التماثيل الحجرية والآثار الغنية الأخرى، كما عثر على أكواب وملاعق فضية قديمة وعلى بعض الصلبان الحديدية التي تشبه صلبان الكنائس الروسية.

كما جاء في تلك الروايات عن وجود مدينة اسمها [يوغوسانت] ومعناها [مجتمع الجمع الصغير من الآنت] ويسمى الروس هذا الموقع [يرغستان].

وأما موقع [نارت سان] فهو عبارة عن عين من الماء الجاري، وهذا الاسم محرف ومختصر من اسم [نارت بسين] بمعنى [نبح النار] والنارت هم قدماء الجراكسة حسب أساطيرهم، ويقول البعض إن هذا الاسم هو [آنت بسينا] بمعنى [عين الآنت ونبعهم] والآنت هم اجداد الشراكسة حسب بعض المؤرخين^(٢١).

الحقيقة الحادية عشرة : يوجد في بلاد الأديغة بقايا بعض (الكنائس القديمة) التي بنيت على الطراز الإغريقي والتي تشبه صلبانها صلبان الكنائس الإغريقية، وتوجد واحدة في المجرى العلوي لنهر الكوبان، واثنان بين نهري الكوبان والتبردي، وهي مبنية بالحجر والأجر، والأولى من هاتين تسمى [شونه] أنها مختصرة من [شونه] أي بيت الفرسان فقد عثر فيها على المعالف والمزاود والمناهل من الأجران الحجرية.

والثانية تسمى [خاسه ميفه] أي صخرة الاجتماع أو اجتماع مجلس القضاء، ويوجد فيها بدلا من [مرأة القضاء] صخرة منقوشة عليها حدود جواد ورجل كلب، وفيها فوهة تتسع لمرور شخص عاري، وفي القصص الشعبية أن هذا المكان كان يستعمل لإمرار (المتهمين) منها فالبريء مهما كان ضخماً وسميناً يمر منها بسهولة، أما المذنب، مهما كان نحيلاً، يعلق بها ولا يستطيع المرور.

ويوجد بين نهري الكوبان ولسنجوق بعض الأبنية من مادة الأجر فوق التلال وتسمى [آديوخ] بلهجة القبرطاي و [أديف] بلهجة الابزاخ ومعناه [الساعد الأبيض]، وحسب الروايات فإن هذه الأبنية كانت تستخدم مساكن للربان والقسيسين.

وتوجد أيضاً أبنية حجرية عند نهر [كفار] وعلى ضفاف نهر سلسنجوق تسمى [آليات خه ياوونه] بمعنى مساكن الإغريق.

وعند المجرى العلوي لنهر الترك حيث يلتقي به نهر [مالقا] عدد من القلاع والمآذن ويسمى القبرطاي [جولات] ويظهر أنها اختصار لكلمة [جورتيلا آنت] بمعنى معبد الآنت، وفي القصص أنها بنيت من قبل الجركس، وكانوا يلجأون إليها بغية التعبد والتوبة، ولتقديم الضحايا، ولتجديد الصداقة بين شخصين سبق أن اختصما، فإذا اختصم شخصان لسبب ما ثم تصالحا يذهبان إلى (جولات) ومع كل منهما قوس وسهم ويمسك كل منهما أحد طرفي السهم ويعاهد رفيقه على أن لا يخونه ولا يؤذيه ولا ينازعه، ثم يكسران السهم معاً، وكانوا يسمون هذه العادة [الذهاب إلى جولات].

الفصل الثالث

نماذج من المكتشفات الأثرية في مختلف مناطق الوطن الأم

ربما كان من أشهر المكتشفات الأثرية في منطقة مايكوب هي الآنية المصنوعة من الذهب والفضة، وتمثل شكل حيوان (الرايتون) الاسطوري، والذي يشبه الحصان ذو أجنحة، عليها رسومات تمثل الصراع بين الالهة. والجبابرة، وهي بارتفاع ٣٧,٧سم ويعود تاريخها إلى القرن الخامس قبل الميلاد واكتشفت في قرية (ولابه) عام ١٩٨٢، في منطقة مايكوب، وموجودة في متحف الفن الشرقي في موسكو كما هو مبين في القطعة الأثرية التالية:



(١) مجسم لرأس غزال مصنوع من الذهب له قرون من الفضة بحجم ١٢,٢ × ١٢,٥ سم يعود تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وموجود حالياً في متحف الفن الشرقي بموسكو.



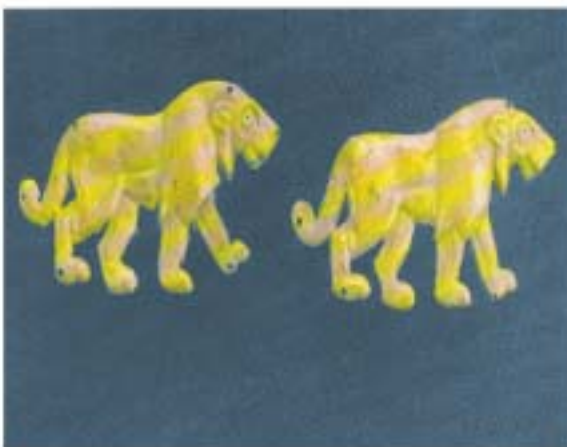
(٢) مجسمات الأسود، يعود تاريخها للقرن الرابع قبل الميلاد مصنوعة من الذهب الخالص وموجودة في متحف الفن الشرقي بموسكو.



(٣) مجسم عجل مصنوع من الذهب



(٤) مجسمان لحيوان الأسد

(٥) عقود من الذهب والفضة
والعقيق الأحمر والفيروز

(٦) خنجر (قاما شركسية)





(٨) زبدية مزينة بصور
حيوانات



(٩) مجسم ذهبي لحيوان
غريب الشكل



(١٠) بروش ذهبي على
شكل تمساح



(١١) فأس حربي مصنوع من
الذهب



(١٢) طوق مصنوع من الذهب
والاحجار الكريمة



(١٣) قرن مصنوع من الفضة



(١٤) عقد من الذهب



(١٥) أسوارة ذهب (بروش)



(١٦) نقوش حيوانات وطيور



(١٧) نقوش لحيوان الدراغون



(١٨) تاج من الذهب



نماذج

من المكتشفات الأثرية في مناطق القبرطاي عامة وفي نالتشك خاصة ومحفوظة في متحف نالتشك الوطني*
كما هو مبين في اللوحات التي تحتوي على عشرات المكتشفات الأثرية تعود إلى العصور الحجرية
والمعدنية المختلفة من (حديد وذهب وفضة وبرونز)



اللوحة رقم (٢)



اللوحة رقم (١)



اللوحة رقم (٤)



اللوحة رقم (٣)

* قام بتصويرها المؤلف شخصيا عام (٢٠٠٦)

اللوحة رقم (٥)



اللوحة رقم (٦)



اللوحة رقم (٧)



اللوحة رقم (٨)



من المكتشفات الأثرية في مناطق قفقاس الغربية في عهد المأوت، والسرماطين والكتين في القرون الأربع الأولى في عصر ما قبل الميلاد





مصادر ومراجع الفصول الأول والثاني والثالث

- ١- وول ديورانت، قصة الحضارة - المجلد الأول، والمجلد الثاني ترجمة.
- ٢- اسماعيل برقوق، قفقاسيا في التاريخ الأستانة ١٩٥٨ (باللغة التركية اللاتينية).
- ٣- غوسار وصفي - الآثار التاريخية القديمة في القفقاس - مجلة بني قفقاسيا. أيلول ١٩٦٢ (مترجم).
- ٤- دو موفنيووت - المكتشفات الأثرية في جنوب القفقاس، المجلد الأول ١٨٣٣-١٩٣٤ (باللغة الروسية).
- ٥- أبه زاو، محمود صادق- موسوعة تاريخ القفقاس والجركس - دمشق ١٩٩٦ (باللغة العربية).
- ٦- السيرجون أ. هامرتن - تاريخ العالم، عدة مجلدات - ترجمة إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم المصرية.
- ٧- الهاشمي، طه باشا، تاريخ الحضارة في الأزمنة الغابرة - بلا تاريخ.
- ٨- م. مورجان (عالم فرنسي) - تاريخ ومنشأ أمم القفقاس.
- ٩- م. مورجان (عالم فرنسي) - دراسات أثرية تاريخية في القوقاز.
- ١٠- شانتر أرنتس ، (عالم فرنسي)، مباحث بشرية في القوقاز.
- ١١- باسماتوف، اسكندر، (مؤرخ روسي)، دراسات أصول المكتشفات الأثرية في القفقاس عامة وفي موقع تريبولي خاصة.
- ١٢- هيرودوت، (ابو التاريخ) مؤرخ يوناني، تاريخ شعوب القفقاس القرن الخامس، ق. م.
- ١٣- ج. سترابون، عالم جغرافي إغريقي - بلاد القفقاس في القرن الأول قبل الميلاد.
- ١٤- الجوهري، يسرى- الإنسان وسلالاته، القاهرة.
- ١٥- ياور، فرنسيس، حضارات في العصر الحجري القديم، ترجمة د. سلطان محيسن - بيروت.
- ١٦- سليم، أمجد، تاريخ الشرق الأدنى القديم، بيروت
- ١٧- بيلارت، جيمس، أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، تعريب محمد طلب، القاهرة.

المجلد الأول

الجزء الرابع

الأبعاد الحضارية (التراكمية)

للأمة الشركسية في الوطن الأم

منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث

فهرس فصول الجزء الرابع

الصفحة	الموضوع
	الفصل الأول: الأبعاد الزراعية والصناعية والتجارية التراكمية في حضارة الأمة
228	الشركسية في الوطن الأم
228	أولاً: البعد الزراعي والثروة الحيوانية لحضارة الأمة الشركسية
239	ثانياً: البعد الصناعي لحضارة الأمة الشركسية
262	ثالثاً: البعد التجاري لحضارة الأمة الشركسية
269	الفصل الثاني: الأبعاد السياسية لحضارة الأمة الشركسية التراكمية
284	أولاً: البعد الديمقراطي وحرية التعبير في حضارة الأمة الشركسية التراكمية
293	ثانياً: بعد التنظيم السياسي والإداري للدولة في حضارة الأمة الشركسية التراكمية
305	ثالثاً: البعد القانوني لحضارة الأمة الشركسية التراكمية
305	الفصل الثالث: الأبعاد التربوية والمعرفية والعلمية في حضارة الأمة الشركسية التراكمية ..
305	أولاً: البعد التربوي والتنشئة الاجتماعية في حضارة الأمة الشركسية التراكمية
327	ثانياً: بعد المعارف العلمية العامة في حضارة الأمة الشركسية التراكمية
345	ثالثاً: بعد المعمارى وفن الزخرفة في حضارة الأمة الشركسية التراكمية
	الفصل الرابع: أبعاد التراث الثقافي والأدبي والفلكلور القومي في حضارة الأمة الشركسية
369	التراكمية
369	أولاً: بعد التراث الثقافي/ الأدبي في حضارة الأمة الشركسية التراكمية
379	ثانياً: بعد الفلكلور القومي في حضارة الأمة الشركسية التراكمية
	الفصل الخامس: أبعاد الثقافة القومية للفروسية والرياضية في حضارة الأمة الشركسية
408	التراكمية
408	أولاً: بعد ثقافة الفروسية في حضارة الأمة الشركسية التراكمية
421	ثانياً: بعد الثقافة الرياضية في حضارة الأمة الشركسية التراكمية

الفصل الأول

الابعاد الزراعية والصناعية والتجارية التراكمية في

حضارة الأمة الشركسية في الوطن الأم

أولاً: البعد الزراعي والثروة الحيوانية في حضارة الأمة الشركسية

يؤكد المؤرخون القدامى بأن الإنسان القفقاسي خرج من الكهوف قبل (٣٥) ألف سنة، وأنه سكن في مساكن عرفت بمساكن (الصيد الجماعي المؤقت)، وأن أول نشاط (اقتصادي) مارسه الإنسان القفقاسي هو الصيد، وأن أول إله لهم كان اسمه إله الصيد والصيادين واسمه (زيجوت Zeigut)، وهو الإله الذي ورد ذكره في أساطير النارتيين، حيث كانوا يركبون خنزيراً برياً شعره ذهبي اللون، كما تحدثت هذه الأساطير عن صيد البحر وعن جامعي الأقوات، خاصة النساء اللواتي كن يلقطن الثمار والجذور النباتية لتأمين قوت يومهم.

استخدم الشركسة في الصيد والقنص السهام الحجرية المصنوعة من حجر الصوان المسنن، وفي مراحل لاحقة استخدموا الرماح الخشبية مثبتة عليها رؤوس مدببة مصنوعة من النحاس بالإضافة إلى السهام النحاسية أو الحديدية التي استخدمها في مراحل لاحقة.

كما عاش أجداد الشركسة القدامى في المراحل الأولى من حياتهم على صيد الحيوانات البرية مثل: الغزلان والإبل والحلوف والجاموس البري والبقر القفقاسي بالإضافة إلى صيد الطيور البرية^(١).

واستمر الشركسة في ممارسة مهنة الصيد حتى العصر الحديث كما هو مبين في الصور المرفقة.





убанская охота в присутствии великого князя Сергея Михайловича. Убитый олень



صور تعبر عن مهنة الصيد لدى الشراكسة منذ القدم وحتى العصر الحديث

وفي الألف الخامسة قبل الميلاد انتقل الإنسان الشركسي إلى تدجين الحيوانات حيث استطاعت قبائل الكميريين (وهم اجداد الشراكسة) تدجين (التيوس الجبلية) ثم انتقلوا إلى تربية الابقار والاغنام والخنازير، كما سبق وأن دجنوا الحصان منذ الألف الثالث قبل الميلاد^(٢).

ونستدل على قيام اجداد الشراكسة بتدجين الحيوانات من التدقيق في التماثيل والرسومات التي وجدت على جدران الموقع الأثري المعروف بـ (طاش مغارة) وهي المغارة الحجرية التي تعد أول معلم أثري يدل على تواجد الشراكسة في عصور ما قبل التاريخ في القفقاس والكلوف ويلاحظ بأن تلك الرسومات كانت تمثل النسر والعقاب والأيل والحصان والكلب والثور والإنسان^(٣).



صورة تمثل عصر ما قبل تدجين التيوس الجبلية في

مناطق الأديغة منذ الألف الثالث قبل الميلاد

وبعد مرحلة تدجين الحيوانات بدأت مرحلة حياة الرعي لدى اجداد الشراكسة وتشير الاساطير الشركسية بأن قوم (نارت) من شدة اهتمامهم بتربية ورعي الحيوانات خصصوا عددا كبيرا من آلهتهم (لرعاية وحماية) الحيوانات ومن هذه الآلهة.

- الآله (أميش) وهو إله تربية الماشية (ويلفظ أيضا يمش).
- الإله (بيريجون) وهو راعي الخنازير.
- الإله (آخين) وهو الرب الحامي للخراف والمواشي عامة وسمي أيضا بإله (القطعان).
- الآله (ميرسيا أو ميريم) وهي حامية النحل^(٤).

ولا شك بأن تعدد الالهة التي ترعى الحيوانات لهو أكبر دليل على مكانة ودور الحيوانات في حياة أجداد الشركاسة منذ فجر التاريخ، وأن استئناس الحيوانات وتدجينها كانت (مهنتهم) الثانية لهم بعد (مهنة) الصيد وجمع الثمار.

ولا يزال حتى يومنا الحاضر وجود بعض أسماء عائلات حيوانات تدل على ذلك فمثلا يوجد لدى الشركاسة اسم لكل نوع من انواع الرعي، كراعي البقر وراعي العجول وراعي الغنم فراعسي الماعز.. الخ. بالإضافة إلى رعاة الطيور فهناك راعي الاوز وراعي الحبش وراعي البط وراعي الدجاج. فقد كانت هذه الطيور تخرج من القرية بأعداد كبيرة ولها رعاتها لترعى في الحقول والمراعي الخاصة بكل عشيرة، حيث كان يخصص لكل عشيرة (محميات ومراعي خاصة بهم).

وفي بداية حياة أجداد الشركاسة كانت أعداد رؤوس القطيع قليلة، وكانت تستخدم في تقديم الأضاحي وإقامة الولائم والمقايضة بأنواع يحتاجها الشركاسة وسرعان ما أصبح القطيع رمزا للثراء. كما كان الحليب يقدم قربانا للالهة ثم أصبح يقدم للكهنة والأمراء حتى أصبح فيما بعد شراب العامة، وقد جاء في الأمثال الشركسية "اللحم شر والحليب خير". وكانوا لا يذبحون الشاة والحصان إلا في الاعياد الكبيرة وعند حضور ضيف لهم وكانوا يعتمدون في غذائهم على الصيد والحيوانات الأليفة، حيث اعتبرت رأس مال غير مستثمر، وهم لا يبيعون حيواناتهم المكتملة النمو، فليست قطعانهم ثروة حقيقية بل رصيد احتياطي، ولم يكن يقربونها إلا تحت الحاجة الماسة ولا يبيعونها ولا يستبدلونها بالنقود.^(٥)

كان لدى قبائل (الادبغة) قديما الاكتفاء الذاتي أي أن انتاج القبيلة كان يستهلك من قبلها مباشرة (من اليد إلى الفم) وقد عاشوا على هذه الحالة آلاف السنين.

ولم يكتف أجداد الشركاسة بتربية الحيوانات والطيور على اختلاف أنواعها، وإنما اكتشفوا (النحل) واهتموا بتربيتها واستفادوا من عسلها وأنتجوا عشرات الأنواع من العسل وربما كانوا من اقدم شعوب العالم في هذا المجال، كما أنهم عرفوا (دودة القز) في مراحل لاحقة واستخدموا (خيوطها الحريرية) في صناعة أقمشة الحرير^(٦).

وفي نهاية القرن الثالث قبل الميلاد انتقل الشركاسة إلى مرحلة الزراعة وتشير اساطير النارتيين بأن الاله (تحة غاليدج) كان خبيرا في الشؤون الزراعية، وكان من حق قوم (النارتيين) القيام بزراعة ما يستطيعون زراعتها من أراضي، كما خصصوا إليها للغابات باسم (مزتحة) وهو الحامي للغابات، كما كان ايضا لدى بعض القبائل الشركسية (الها) لحماية الحيوانات، وكانت عادة قدماء الشركاسة الصلاة لهذا (الاله) قبل الخروج للصيد اعتقادا منهم بأنه يساعد في الحصول على صيد (وافر).

وفي عام (٢٢) بعد الميلاد وجد (سترابون) المؤرخ الجغرافي الذي زار بلاد القفقاس بأن سكان سهول القفقاس وساحل البحر الأسود ينتجون أكثر من ثلاثين نوعا من المحاصيل الزراعية وكان لليونانيين حق امتياز الاتجار بها وأنهم كانوا يستوردون منها كل سنة (٢,١٠٠,٠٠٠) قديم (وهي وحدة كيل قديمة).

يرى العالم الانجليزي (غوردون. ف. تشايلد): بأن الثورة الاجتماعية الاولى حدثت في العصر الحجري الحديث، حيث خرج الانسان من أطر العيش الطفيلي الصرف (الصيد والقنص والتقاط الجذور) إلى اقتصاد الكفاف، ثم انتقل إلى حراثة الأرض وتربية الماشية^(٧).

(١) مراحل نشأة الثروة الزراعية والحيوانية في الوطن الأم

تشير الدراسات بأن نشأة وتطور الزراعة لدى الأمة الشركسية منذ عصر الأجداد قد مرت بأربع مراحل، هي:

المرحلة الأولى: وظهرت فيها الزراعة البعلية منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، واستخدم في هذه المرحلة سكة المحاريث المصنوعة من العظام والخشب، وهي المرحلة التي يعتبرها المؤرخون أنها بداية تدخل الإنسان في سير الطبيعة، وحصوله على قوته عن طريق العمل، وكانت هي مرحلة طفرة كبرى في مسيرة الإنسان الحضارية، وبدأ منها شعوره بالانفصال والاستقلالية عن الطبيعة.

المرحلة الثانية: وسميت بمرحلة (الثورة النيوليتية الكبرى) وهي المرحلة التي تميزت بتطور الاقتصاد الزراعي للأمة الشركسية نتيجة ظهور عوامل عديدة منها:



المحراث ذو السكة الحديدية التي اخترعها أجداد الشركاسة في عصر الثورة النيوليتية الكبرى في الألف الثالث قبل الميلاد

- اختراع المحراث ذي السكة الحديدية (المعدنية) وحلت مكان السكك العظمية والخشبية، واستخدام الثيران لجر المحاريث.
- ابتكار نظام الري باستخدام الأقفية المائية القديمة، التي وجدت بقاياها في أكثر من منطقة في القفقاس.
- استخدام السماد في تطوير، وتحسين الأراضي الزراعية.
- ظهور الحرف اليدوية ذات العلاقة بصنع الأدوات المستخدمة في الحراثة والدراسة والبذار، وكذلك الأدوات المستخدمة في الحفر والنكش والعزق والتمشيط... إلخ.
- استصلاح الأراضي الزراعية بنزع وإزالة الأشواك الضارة منها.

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة التي تطورت فيها الزراعة في بلاد الشركاسة بعد ان نشأت فيها الملكية الخاصة، وأصبحت الأمة الشركسية تعيش في إطار مجتمع ذي اقتصاد مركب من الزراعة المروية وتربية المواشي، والحرف اليدوية (المنزلية) المتنوعة. وهي المرحلة التي تزايدت فيها أعداد السكان وكانت كذلك بداية ظهور المدن ذات الأسوار الحجرية والبيوت المبنية من الحجر والطوب المشوي.. وتميزت هذه المرحلة عن المراحل السابقة بمزايا عديدة منها:

- تطور طرق الري والتسميد ووسائل اصلاح الأراضي.
- تطور صناعة الادوات المستخدمة في الزراعة والحراثة وجني المحاصيل ودراستها.
- تحسين اساليب حفظ وتخزين الحبوب في حفر معدة خصيصا لذلك، وكذلك تحسين أساليب حفظ الطحين، ومنتجات الألبان في أواني فخارية كبيرة.
- الانتقال من زراعة الحبوب والبقول، إلى زراعة الاشجار المثمرة مثل اشجار الفواكه والعنب، بالإضافة لزراعة الخضروات^(٧).
- البدء بالاستفادة من ثمار الاشجار البرية مثل التفاح الذي يعتبره المؤرخون بأن القفقاس هو الموطن الأصلي له في العالم، وكانت تشكل غابات كثيفة بالإضافة إلى أن هذه المرحلة هي المرحلة، التي ظهرت فيها أنواع أخرى من اشجار الفواكه البرية مثل: البرقوق، والدراق، والكرز، والبندق، واستخدمت كغذاء أساسي للشركاسة في هذه المرحلة.

المرحلة الرابعة: وهي المرحلة التي سميت فيها بلاد القفقاس عامة والقفقاس الشمالي خاصة (بسلة الفواكه والخضار والحبوب والسمن والعسل) كما سماها قدماء المؤرخين بالجنة الموعودة. كما ازداد في هذه المرحلة انتاج المحاصيل الزراعية زيادة غير محدودة، حتى اصبح الانسان الشركسي لا يعمل أكثر من (٣٠) يوماً في السنة لتأمين ما يكفيه من انتاج المحاصيل الزراعية لسنة كاملة.

وعبر المؤرخ (نغموقة) عن مدى التقدم الحضاري في بعدها الزراعي والثروة الحيوانية في هذه المرحلة بقوله:



صورة تمثل الطقس الاحتفالي الكبير الذي كان مقام عند العودة من انتهاء موسم الحصاد

"اهتم الشراكسة بتربية الحيوانات للاستفادة من لحومها، ولبنها كغذاء، وصوفها كلباس، ودهنها كمادة للإضاءة، كما طوروا طرق فلاحية الأرض وزراعتها، حيث كانوا يزرعون جميع أنواع الحبوب مثل: الذرة، والشعير، والدخن، والقمح، والكثير من الخضار النافعة، كالبصل، والثوم، والجزر الأحمر، وغيرها، وتتضمن اللغة الشركسية جميع أسماء الحبوب ما عدا (الأرز) وكان من عاداتهم القيام ببعض الطقوس بعد الحصاد وجني الثمار، مثل تلاوة الأدعية وإقامة الصلوات تبركاً، وإعداد الطعام من الغلة الجديدة ودعوة الأقرباء والأصحاب إلى (وليمة) ليأكلوا ما طاب لهم من المحصول الجديد وتدعى (حم نؤموخوه Ham Umucho) وبعدها يصبح الشخص حر التصرف بمحصوله، ويحق له بيع ما زاد عن حاجته أو التصديق به على المحتاجين^(٨).

كما كانت العودة من موسم الحصاد تتم وفق طقس احتفالي كبير كما هو مبين في الصورة:

وفيما يلي نماذج من أنواع الثروة النباتية والحيوانية التي يشتهر بها شراكسة الوطن الأم قديماً وحديثاً.

نماذج

لأنواع نباتات الزينة التي تنمو في الوطن الأم في شمال القفقاس



منظر عام لحديقة نالتشك الوطنية



شجرة زينة نادرة تنمو في بلاد القبرطاي في
الوطن الأم

نماذج

لأنواع من اشجار الزينة في منطقة القبرطاي بالوطن الأم



نماذج

لأنواع الحيوانات الأليفة والحيوانات البرية والدواجن والطيور التي تشتهر بها بلاد
الشراكسة في الوطن الأم

قطيع من الغزلان التي تشتهر بها بلاد الشراكسة في الوطن الأم





قطيع من
الجواميس



صورة للذئب
القوقازي الأسود



صورة لحيوان
دارغون

النسر الذهبي
القوقازي



الدجاج الحبشي
(الفرغر) القوقازي



طائر نادر يعيش في
بلاد القفقاس اسمه
الطائر القمرية
Turtle Dove



مصادر ومراجع

- (١) حاداغالة، عسكر، مصدر سابق، جـ ٧ ص: ٢٨٠.
- (٢) المصدر نفسه، ص: ١٨١.
- (٣) جوناتوقة، عزت منة، مصدر سابق، ص: ٢٤١.
- (٤) اوزيك، باتري، أساطير الناريتين، مصدر سابق، ص: ١٧٠-١٧٣.
- (٥) حادا غالة، مصدر سابق، ص: ٢٩٠.
- (٦) اوزيك ، باتري، مصدر سابق، ص: ١٤٧.
- (٧) تشايلد، غوردون. ت، بداية الزراعة وظهور المدن، ترجمة إلياس شاهين، موسكو ١٩٨٥ (ونقل عنه محمد عبد الحميد في كتابه تاريخ الشركس وآل أنزو، ص: ٧١).
- (٨) نغموقة، شورا، موجز تاريخ الأديغة، مصدر سابق، ص: ٣١-٣٢.
- (٩) يا. ابراموف، القوقازيون الشركسة، مصدر سابق، ص: ٣١-٣٢.
- (١٠) المصدر نفسه، ص: ٣٥.
- (١١) دليل اهلنا.. للتواصل والمحبة، اصدار الجمعية الخيرية الشركسية (فرع صويلح) الأردن عام ٢٠٠٦، ص: ٣٠-٣٥.
- (١٢) مجلة نارت، اصدار الجمعية الخيرية الشركسية - عمان، العدد (٥٢) السنة (٢١) لعام ص: ١٤.
- (١٣) الحمد، محمد عبد الحميد، تاريخ الشركس وآل أنزور، دمشق، ٢٠٠٢، ص: ٦٠.

ثانياً: البعد الصناعي في حضارة الأمة الشركسية

يؤكد علماء الآثار بأن صناعة المعادن وجدت لأول مرة في التاريخ البشري في قفقاسيا، وانتشرت منها إلى أوروبا، إلا أن هذه (النظرية) ظلت عند حدها الأدنى ولم تحظ باهتمام كبير من البحث والتدقيق من قبل العلماء فترة طويلة من الزمن، إلى أن قام العالم الأثري (ارنست شانتز) بنشر معلومات هامة في كتابه (مباحث سرية في القوقاز) بالإضافة لما نشرتها اللجنة الروسية المكلفة بإجراء التنقيب عن الآثار في جنوب القفقاس، وكذلك ما أورده المؤرخ الفرنسي (مورجان) حول أدوات الزينة التي وجدت في المقابر العديدة العائدة للعصر الحجري والمعدني في حوض نهر (كوبان) ونهر (ترك) وهي معلومات واكتشافات تثبت بأن المناطق القوقازية عامة، والمناطق التي استوطنتها ويستوطنها حتى وقتنا الحاضر الشركاسة... كانت المناطق التي بدء منها استخدام المعادن في الصناعات اليدوية منذ الألفية الثالثة والرابعة قبل الميلاد^(١).

وكذلك فإن الحفريات التي تمت في الفترة ما بين (١٨٩٨-١٩٠٩) في حوض (الكوبان) ومنطقة (مايكوب) كشفت عن وجود أدوات فخارية وحجرية، بالإضافة إلى العثور على بقايا عربات ذات العجلات تقاد بستة أزواج من الجياد وقد وجد فيها الكثير من الحلي المصنوعة من النحاس والفضة والذهب، والعديد من التماثيل الفضية والحجرية.

كما تم اكتشاف أدوات حجرية منها (القائمة) ومعها حزام جلدي يشبه تماماً (القائمة)، والحزام الشركسي الذي يرتديهما الرجال في الزري القومي الشركسي حتى وقتنا الحاضر، كما عثر في المقابر التي اكتشفت في شمال القفقاس أسلحة حربية هامة مثل السيف، والسهم، والتروس، والرماح، والدروع، يقول عنها علماء الآثار بأنه "لم يسبق أن عثر على مثل هذه الأدوات الحربية في مدافن أي شعب من الشعوب القديمة في العالم". كما وُجدت في مناطق أخرى بالقفقاس مقابر مستطيلة الشكل تحتوي على خلاخل (بدون جرس) وحلق للأذان مصنوعة من الذهب والفضة واسورة وخواتم. وفي عهد متأخر ظهرت لديهم المشدات (كورسية) والأحزمة المعدنية النسائية، كما عثر على (إبرة) الخياطة و (المشط) المصنوع من العظم، ويقدر علماء الآثار بأن تاريخ الآثار المكتشفة يعود إلى (٢٥٠٠) سنة قبل الميلاد. كما تم اكتشاف اللوحة الذهبية التي تضم رسماً لـ (السلسلة الجبلية) و (النهرين اللذين يصبان في البحر في مصبين مختلفين) كما تضم رسوم بعض الحيوانات وهي كالرسومات التي تقرر بأنها تمثل سلسلة جبال القفقاس، ونهري الفرات والدجلة في العراق، وتدل هذه الخارطة بأن تاريخها يعود إلى عهد أقدم من تقدير العلماء، لأن دراسات علماء الجيولوجيا أظهرت بأن عهد انصباب نهري الرافدين في البحر بمصبين مختلفين يعود تاريخه إلى ما قبل (٣٥٠٠) سنة قبل الميلاد.

كما أنّ نتائج الحفريات التي قامت بها البعثات الأثرية بالقفقاس عامي (١٨٣٣-١٨٣٤) بإشراف عالم الآثار (دوبريز دومونتورن) التي نشرت أعمالها في ستة مجلدات وأطلس واحد، تدل على وجود آثار لمصنوعات يدوية في الأدوار الحجرية والبرونزية والنحاسية في تسلسل منتظم تدل على مدى التطور الصناعي الذي كان يتمتع بها اجداد الشركاسة القدماء.

وفي منطقة (غوري) في جنوب القفقاس من بلاد جورجيا أظهرت الحفريات وجود سبع طبقات لقرى قديمة، وعثر في الطبقة الثالثة منها على أدوات للحراثة من قرون الوعل، ومناجل حصاد مصنوع من حجر الصوان، بالإضافة إلى العثور على رؤوس سهام وقامات نحاسية تعود إلى الألفية الثالثة والرابعة قبل الميلاد.^(٣)

نستنتج مما تقدم من مكتشفات أثرية في مختلف المناطق القفقاسية عامة وفي المناطق التي تقطنها شعوب الأمة الشركسية القديمة خاصة بأن القفقاس هي مهد ظهور الصناعات اليدوية والتي ويعود تاريخها إلى (٤٠٠٠-٥٠٠٠) سنة قبل الميلاد.

كما نستنتج بأن أهم الصناعات اليدوية التي اشتهرت بها شعوب القفقاس عامة وشعوب الأمة الشركسية خاصة في فجر التاريخ تضمنت الأنواع التالية من الصناعات:

الصناعات اليدوية في العصر الحجري

وجد علماء الآثار المختصين في بلاد أجداد الشراكسة في مناطق الكوبان، والترك الأنواع التالية من الصناعات:

- أساور حجرية.
- قاما مصنوعة من الحجر المسنن.
- تمثال حجري.
- حزام جلدي معلق عليه القامة.
- سهام مصنوعة من الحجر المسنن.
- مناجل مصنوعة من الحجر.
- فؤوس من الحجر المصقول.
- محاريث من قرون الوعل.
- فؤوس صوانية مثقوبة من الوسط.

الصناعات اليدوية في العصر الحديدي:

دلت المكتشفات الأثرية بأن أهم الصناعات التي كانت قائمة في هذا العصر هي (على سبيل المثال لا الحصر):

- قامة معدنية وقامة ذهبية.
- سيوف واطراس.
- سهام معدنية.
- تروس معدنية.
- رماح معدنية.
- خوذ ودروع معدنية.
- خواتم وأساور معدنية.
- أواني نحاسية للطعام.
- أحذية معدنية للسيدات.
- تماثيل ذهبية.
- أواني برونزية ذات أرجل عالية.
- بلطات معدنية.
- فؤوس معدنية.
- عربات مصنوعة من المعدن والخشب.
- مزهريات من الفضة.
- قدور واباريق.
- قبقاب حديدي للسيدات.
- عجلات ذات اصابع.
- براميل نحاسية.
- ايدي هاون.
- رحي مطاحن يدوية.

الصناعات اليدوية والحرف المهنية التي اشتهرت بها شعوب الأمة الشركسية في مراحل ما بعد انتهاء العصور (الحديدية) ابتداء من الألفية الاولى ما قبل الميلاد وحتى القرن التاسع عشر بعد الميلاد:

بالرغم من الحروب المستمرة وقيام الأمة الشركسية في الدفاع عن وجودها، وبالرغم من أنواع العذاب والهوان التي تعرضت لها شعوب الأمة الشركسية عبر أكثر من عشرين قرناً، وبالرغم من التفتيل والتشريد والتهجير من بلادهم وأراضيهم في الوطن الأم لأكثر من مرة وعلى يد أكثر من عدو من أعداء الأمة الشركسية مثل القبائل الهون والقوط وشعوب الاوار الهمجية، وجيوش المغول بقيادة (جنكيز خان) وغزوات التتار بقيادة (تيمورلنك) البربرية.

وبالرغم من الأدوار المظلمة التي عاشتها شعوب القبائل الشركسية تحت حكم العديد من الأمم والشعوب المحتلة والغازية لبلادهم واضطرارهم بالانشغال في الحروب (الدفاعية) فإن العديد من الباحثين في تاريخ الصناعات اليدوية والحرف المهنية لدى الأمة الشركسية خلال الفترة الزمنية الممتدة من القرن العاشر قبل الميلاد وحتى القرن التاسع عشر بعد الميلاد يعترفون بتطور الصناعات الحرفية بين (الجبليين) الشراكسة وانهم كانوا حرفيين وصناعاً مهرة، وكان لديهم اكتفاء ذاتي في هذا المجال، وأنهم صنعوا جميع أنواع الآلات والأدوات والمعدات التي كانت من متطلبات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية في أي مجتمع مستلزمات الفلاحة والزراعة والتصنيع الغذائي والنقل ومواد البناء، وغيرها من متطلبات تربية الحيوانات والطيور والأسماك، كما يعترفون بأنهم صنعوا مختلف أنواع الأسلحة الخفيفة التي كانت تتناسب مع طبيعة الحروب في تلك المراحل مثل البنادق، والمسدسات، والرماح، وكذلك السهام التروس ودروع وسيوف، بالإضافة لصناعتهم للأسلحة الشخصية مثل (القامة) والحرا، هذا بالإضافة إلى إتقانهم للأعمال الخشبية في صناعة أثاث المنازل، ومتطلبات تربية الطيور والحيوانات من حظائر، بالإضافة إلى شهرتهم التي كانت (ذائعة) في الصناعات الجلدية وحياسة الملابس وفن التطريز وفن الزخرفة. وكان أكبر اعتراف للمؤرخين قول أحدهم: "إن الشراكسة قوم يصنعون كل متطلبات ولوازم الحياة من الإبرة إلى صناعة الحرير وحتى صناعة البندقية وملح البارود". كما قال البعض الآخر: "إنه لا يوجد شعب من الشعوب والقوميات القديمة لديها ما لدى الشراكسة من صناعات خفيفة وحرف يدوية..."

وفيما يلي نماذج من أنواع الصناعات اليدوية التي كان يصنعها أجداد الشراكسة منذ فجر التاريخ وابتداء من الألفية الأولى ما قبل الميلاد وحتى القرن التاسع عشر الميلادي.

١- أدوات الحراثة المصنوعة من الخشب والحجر العظم والحديد التي صنعها اجداد الشراكسة منذ القدم كما هو مبين في الشكل رقم (١).

٢- أدوات ولوازم دراسة المحاصيل الحبوب من قمح وشعير.. الخ والمصنوع من ألواح الخشب، ومغروس في أسفله قطع حجرية أو مركب عليها (دولاب حجري) كما هو مبين في الشكل رقم (٢)

٣- أدوات ولوازم الحفر، والنكش، والعزق، والتمشيط، وتنظيم الأرض حيث كانت تصنع إيديها من الخشب، بالإضافة لأدوات الحفر المصنوعة من المعدن مثل: الفأس، والكريك، والمجرقة، وغيرها من أدوات الحفر التي صنعها اجداد الشراكسة منذ القدم كما هو مبين في الاشكال رقم (٣).

٤- أدوات الحصاد وجمع المحاصيل وتمشيط وتنظيف الأرض بعد جني المحاصيل: حيث كانت الأيدي تصنع من الخشب وأدوات القطع أو أدوات التمشيط أو التنظيف من المعدن حيث صنعوا عشرات الأنواع من مناجل قصيرة ومناجل طويلة، وأمشاط وشعاب خشبية وغيرها من اللوازم التي ابتكرها اجداد الشراكسة منذ القدم كما هو مبين في الاشكال رقم (٤).

٥- أدوات ولوازم جمع، وحفظ وتنظيف (وتنقيب) الحبوب وكانت تصنع من الخشب والأغصان الجافة، مثل المنجل والمذراة وسلال حفظ الثمار... إلخ كما هو مبين من الأشكال رقم (٥).

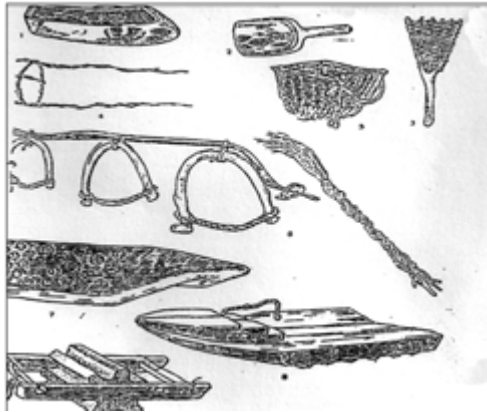
٦- عربات نقل المحاصيل الزراعية وهي العربات التي انفرد اجداد الشراكسة في صناعتها منذ القدم وكان الهيكل يصنع من ألواح وقضبان وأغصان خشبية، والعجلات من الخشب المغطى بالمعدن، كما قام اجداد الشراكسة بصناعة أحجام وأشكال متعدد منها. كما هو مبين في الأشكال رقم (٦-١، ٦-٢).

٧- الأدوات والأوعية المستخدمة في الصناعة الغذائية عامة، وصناعة الزبدة والجبنه والألبان خاصة وكانت تصنع من الخشب، وهي على عدة أنواع مثل: البراميل الخشبية المستخدمة في استخلاص الزبدة، وكذلك البراميل الخشبية لعمل الأجبان وحفظها، وأخرى لعمل الألبان وحفظها وظل الشراكسة في بلاد المهجر يستخدمون مثل هذه الادوات حتى منتصف القرن العشرين... الخ كما هو مبين في الأشكال رقم (٧).

٨- الأدوات الخاصة بتربية النحل: وكانت تصنع من الخشب مثل صناديق المناحل والأدوات المستخدمة في مسك وإعادة النحل (المهاجر) إلى المناحل وربما كان اجداد الشراكسة من أوائل القوميات في القوقاز الذين ابتكروا مثل هذه الأدوات كما هو مبين في الاشكال رقم (٨).

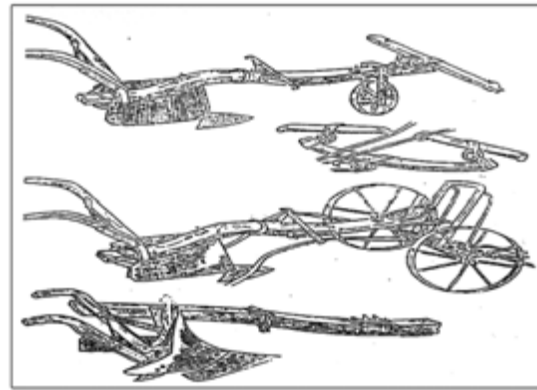
٩- أثاث البيوت ولوازمها الخشبية: وجميعها كانت مصنوعة من أنواع مختلفة من الخشب وهي متنوعة ومتعددة تشمل جميع أنواع الأثاث والأدوات والمعدات المنزلية من مقاعد، وكراسي، وأسرة، ودواليب وطاولات سفرة وخزائن وصناديق حفظ، وربما كان السرير المنزلي من أكثر انواع الاثاث المنزلي اتقاننا حسب ما ذهب إليه المؤرخ الشركسي (نوح المرتوقي) في كتابه "نور المقابس في تاريخ الجراكس" قال: "فكان لهم سرير مصنوع من خشب صنعا عجيبا متطابقة القشور بقشور صغار منقوبة على التناسب، وعيدان طوال وارجل متناسبة مرفوعة عن الأرض قدر شبر" وصناعة اثاث البيوت هي من أكثر أنواع الصناعات التي اتقن صنعها أجداد الشراكسة منذ القدم كما هو في الشكل رقم (٩-١، ٩-٢).

١٠- أدوات ولوازم المطبخ والطعام والشراب الخ: ويلاحظ بأن بعض هذه الادوات كانت مصنوعة من الخشب وبعضها الآخر مصنوعة من نوع من أنواع المعدن مثل النحاس أو من السراميك مثل المعالق والمغارف والصواني وأواني حفظ الطعام والهاون، وفناجين الشراب وفناجين الشاي بالإضافة إلى السكاكين والطناجر والأباريق والحلل المصنوعة من المعدن أو السراميك والسلال التي تعتبر من اقدم الحرف اليدوية في تاريخ البشرية كما هو مبين في الشكل رقم (١٠-١، ١٠-٢، ١٠-٣).



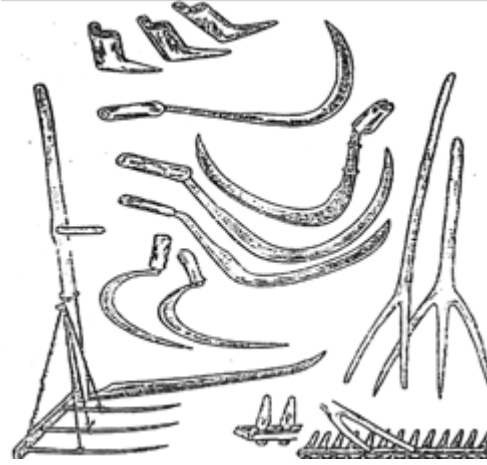
شكل (٢)

أدوات ولوازم دراسة المحاصيل الزراعية



شكل (1)

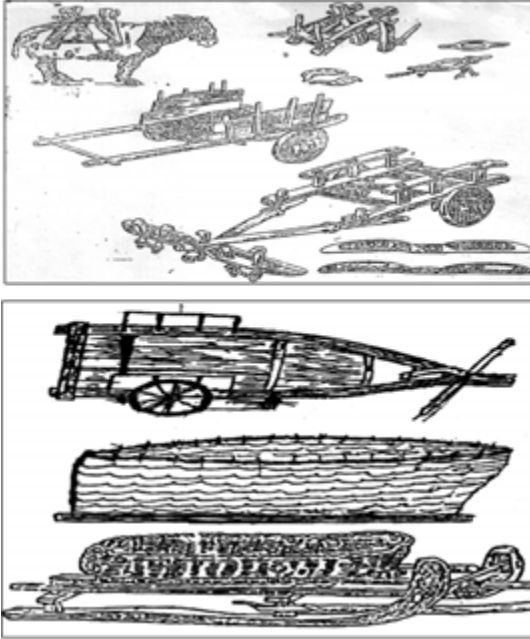
نماذج من ادوات الحراثة



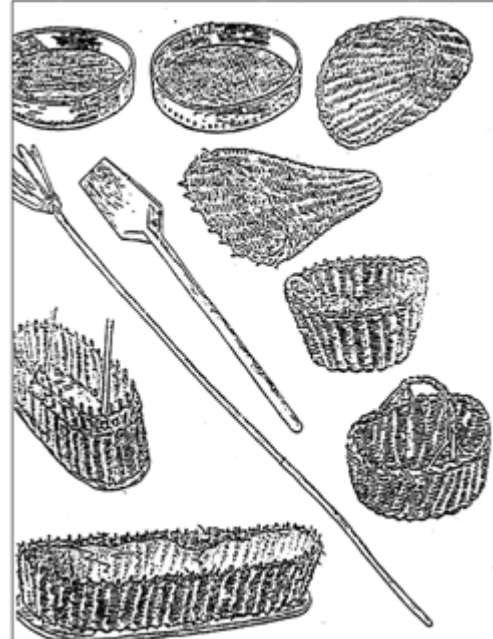
شكل (4)
أدوات ولوازم الصيد



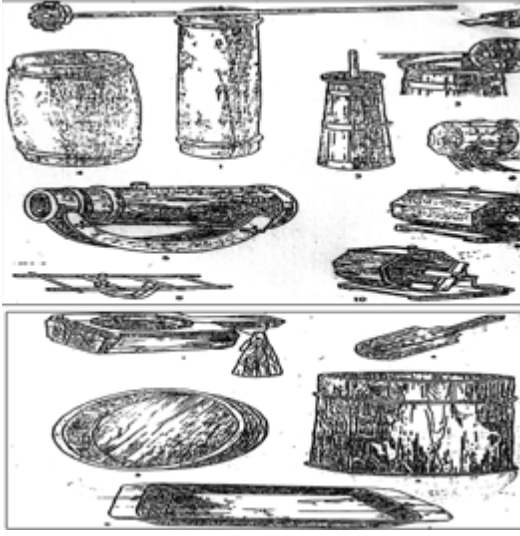
شكل (3)
أدوات ولوازم الحفر



شكل (6-A)
نماذج من عربات نقل عامة
والمحاصيل الزراعية خاصة

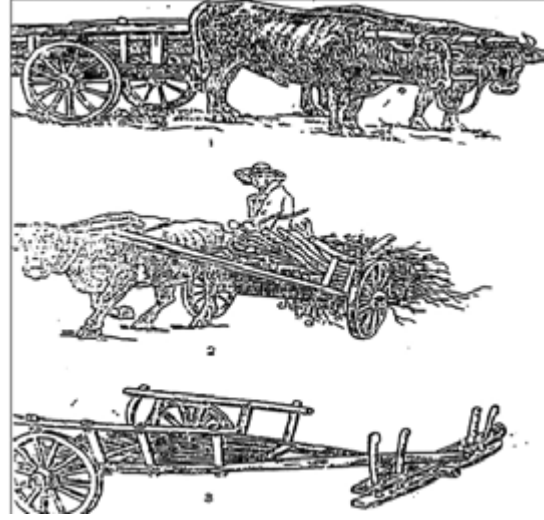


شكل (5)
لوازم وأدوات جمع وحفظ
وتنظيف الحبوب

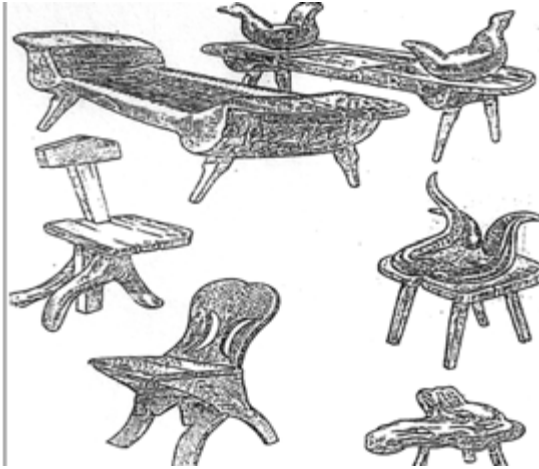


شكل (7)

الادوات والأوعية المستخدمة في صناعة
مشتقات الألبان



شكل (6-B)



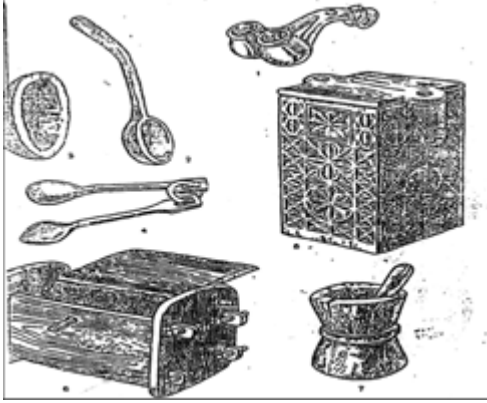
شكل (9-A)

أنواع من الأثاث المنزلي المصنوع من الخشب



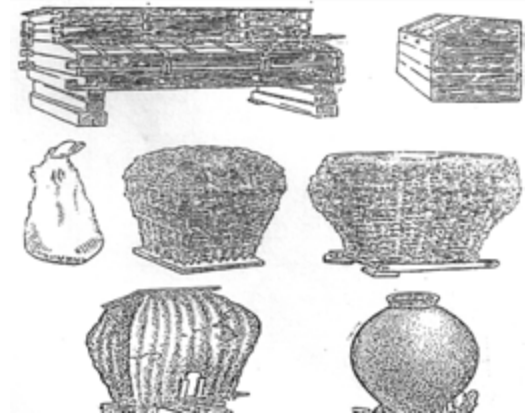
شكل (8)

الأدوات الخاصة بتربية الخيل



الشكل (10-A)

ادوات المطبخ والطعام الشركسي



الشكل (9-B)

اثاث منزلي مصنوع من الخشب



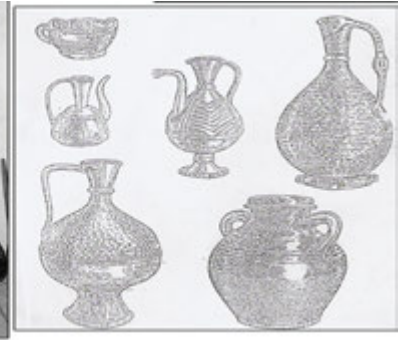
الشكل (10-C)



الشكل (10-B)



الشكل (10-E)



الشكل (10-D)

ادوات ولوازم المطبخ والطعام الشركسي

ويقول أحد الباحثين في الصناعات الشركسية اليدوية بأن (وعاءً كبيراً) من بين أوعية الطعام التي كانت توجد في بيوت الأمراء والنبلاء وهو عبارة عن الصحن الثقيل الذي يتجاوز قطره نصف متر ومنحوت من قطعة واحدة من خشب الجوز، وتصنع هذه الأوعية بواسطة طواحين دولاب مائية صغيرة مخصصة لهذا الغرض. والدولاب عبارة عن ناعورة صغيرة، يديرها تيار قوي من الماء يأتي بواسطة مجرى خاص من جدول مائي قريب، وتدير هذه الدواليب محاور يمر بمركزها وعلى الطرف الآخر من ذلك المحور يثبت قرص خشبي مأخوذ من جذع شجرة كبيرة، ويدور مع دوران الناعورة ويجري تجويفه وحفره بواسطة سكين معكوفة بشكل خطاف مثبت قرب الحافة العلوية للقرص الخشبي، وكان يجلس الصانع قرب نهاية المحاور المذكورة، مهمته تحويل القرص الخشبي إلى صحن كبير، وفي وسط الصحن توجد طاسة صغيرة محفورة من الخشب، وعلى أطراف الصحن تنقش رموز خاصة بالعائلة. وكان هذا النوع من الصحن مخصص لتقديم عصيدة الذرة وعليها قطع اللحم المسلوق^(٥).

١١- صناعة تجهيزات الخيول

وهي الصناعة التي كان يساهم في صنعها خمسة حرفيين وهم:

- النجار: ويصنع هيكل السرج.
- السروجي: ويلبس السرج بالجلد ويصنع مقبض اللجام والمخدات والجيوب والسوط.
- الحداد: ويصنع الاجزاء الحديدية من لوازم تجهيزات الحصان مثل الركاب واللجام والحدوات.
- الصايغ: ويقوم بتزيين مقبض اللجام (الرسن) والسرج.. الخ بصفائح من الفضة المنقوشة بخيوط الذهب.
- المرأة: وتقوم بعملية تعديل السوط الصغير باللاوتار الجلدية المطرزة بخيوط حريرية وفضية كما هو مبين في الشكل رقم (١١).

١٢- اللوازم والأدوات الخاصة بمهنة الحدادة: تعتبر مهنة الحدادة من المهن المحببة لدى الشركاسة منذ القدم، كما كانوا يقدسون هذه المهنة في مراحل المعتقدات الدينية الوثنية للشركاسة، حيث كانوا يعبدون إلها اسمه (لبش) وهو إله الحديد، وكما كان في كل بيت ورشة حدادة تسمى (جيش) ويسمون الحداد (جيشت) واخترعوا أجهزة وآلات وأجهزة لصهر الحديد وتطريقه، وطاولات لقطع وقص الحديد وتثنيه ولية، كما ابتكروا لوازم تحريك الفحم، ولوازم صنع التماثيل والتحف من المعادن وقوالب الصب. إلخ كما هو مبين في الشكل رقم (١٢-١، ١٢-٢، ١٢-٣).

١٣- لوازم صناعة النجارة التي اتقن اجداد الشركاسة صناعتها، واشتهر في استخدامها في صناعة كل ما يلزمه من أعمال المنجور في المجتمعات الشركسية.

١٤- صناعة الغزل والنسيج:

دلت الحفريات الاثرية في مناطق (الكوبان والترك ومايكوب) بأن صناعة النسيج في صورتها الاولى بدأت في الألفية الثالثة قبل الميلاد، وخاصة الانسجة الصوفية من بسط (سجاد) وحياسة ملابس باستخدام الخيوط الحريرية، وذكر (المسعودي) في القرن العاشر في كتابه (مروج الذهب) بأن امة (الكشك) ويقصد بها (الجراسكة) وكانوا يصنعون أنواعاً من الثياب من نبات (القنب) كما اشتهرت نسائهم في مراحل لاحقة في نسج الأقمشة بأنواعها، وأبدعوا في نسج أقمشة العباءات من اللباد المطرز بخيوط مذهب كما أبدعوا في شغل المخرز ونسج الأقمشة من القطن والكتان والحرير، مما يدل بأن صناعة النسيج كانت متطورة في بلاد الشركاسة وصلت إلى مستوى تصديرها إلى بلاد القرم وروسيا وبعض الدول الاوربية منها إيطاليا (روما).

وفي القرنين التاسع عشر والعشرين توقفت صناعة النسيج تقريبا في بلاد الشركاسة، واندثرت هذه الصناعة نهائيا وأن تقرير الانتاج الصناعي في الجمهوريات الاتحادية الروسية التي

يسكنها شراكسة الوطن الام لا تتضمن أي منتجات نسيجية باستثناء (السجاد) الذي تنتجه بعض مصانع جمهورية (كباردينا-بلقاريا).

ويقول (نوح المرتوقي الشركسي) في فصل الصناعات في كتابه نور المقابس في تواريخ الجراكسة بأن: ^(١٠)

"نساء الشراكسة كن ينسجن الصوف نسجا متقنا بآلة (النول والمشط) ويعملن منها (الرداء) وكذلك فإنهن أتقن نسج الكتان والقطن، وعملن منها القمصان والسرراويل، بالإضافة لنسج الحصير (السجاد) نسجا عجبيا متقنا، من خيوط نباتات مخصوصة منها ما يشبه القصب وتسمى (ثمام) وهو نبات لا قشر له كالقصب، ولونه مائل إلى السواد، ومنها نبات ذو ساق بيضاء، تتكون من طبقات تنبت في المستنقعات والمياه الراكدة على شواطئ الانهار كما هو مبين في الشكل رقم (١٤).

١٥- مهنة بناء البيوت والحظائر والأسوار الخشبية: اشتهر اجداد الشراكسة منذ القدم ببناء البيوت الخشبية المتحركة منها والثابتة، كما أنهم أتقنوا بناء حظائر الحيوانات والأسوار والحوارج الخشبية حول الحقول والمزارع والمراعي كما هو مبين في الشكل رقم (١٥).

١٦- مهنة بناء القلاع: لم يكن بناء القلاع لدى اجداد الشراكسة من المهن الرائجة، حيث لم يكن المقاتلون منذ عصر الأجداد في عصور ما قبل التاريخ يقبلون الاحتماء بالقلاع في حروبهم، وكانوا يعتبرون الاحتماء بالقلاع جبنا، إلا أن تطور أساليب الحروب، واختراع أنواع من الأسلحة غير التقليدية، اجبر اجداد الشراكسة إلى اللجوء لبناء القلاع في السهول لحمايتهم من هجمات وغزوات الاعداء الذين كانوا يشنون هجماتهم بشكل مفاجئ وبأعداد كبيرة، وفيما يلي نماذج من القلاع التي وجدت في بلاد (الأديغة) لدى كل من شعوب القبرطاي، وشراكسة ما وراء الكوبان في الشمال الغربي كما هو مبين في الشكل رقم (١٦).

١٧- مهنة التجارة البحرية وصناعة القوارب

يقول (نيقولا الدمشقي) بأن (الكركيت) كانوا شعبا بحريا من الدرجة الاولى وينقل لنا عادة من عاداتهم الغربية ومضمونها إذا اقترف أحد أفراد الكركيت جريمة ما، كان يحرم من ممارسة طقوس العبادة المقدسة، وإذا برهن على عدم مهارته اثناء قيادته لسفينة أو زورق، كان كل المشتغلين بالبحر يقتربون كل بدوره (ويبصقون على وجهه) الواحد بعد الآخر وكما ان بعض الباحثين زعموا ان الشركس احتفظوا إلى زمان قريب نسبيا بذكريات عن الأهمية الكبيرة للملاحة التي امتهنها شعب الكركيت الشركسي الاصل وكانوا يسافرون كثيرا إلى بلدان عديدة وانهم تقدموا في الحضارة والمدنية اكثر من بقية قومهم، كما يضيفون بأن بعض الروايات الشركسية كانت تقول بأن غالبية شعب (الكركيت) فضلوا الهجرة إلى (بيزنطة) لانزعاجهم من تخلف جيرانهم حضاريا ^(١٠).

كما يشير بعض المؤرخين بأن قبائل شركسية قديمة مثل قبيلة (حانوخ) كانت قد وصلت من التطور والتقدم الحضاري إلى ما قادهم إلى بناء مستعمرات لهم في الاناضول وتوسعوا في تجارتهم مع الدول المجاورة، كما ان بعض المجموعات من هذه القبيلة كانت تمارس صناعة القوارب والبواخر وانهم كانوا يستخدمون مركبة تتسع لـ (٣٠٠) راكب كان يسميها اليونانيون (كاماروي Kamaroi) كما هو مبين في الشكل رقم (١٧)، وكانوا يتجولون فيها في البحر الأسود في كل الاتجاهات، وأحيانا كانوا يصلون إلى الشواطئ التراسية (غرب البحر الأسود).

وأن أبيات الشعر التي نظمها الشاعر اليوناني أوفيد (Ovide) شاهدة على الرعب الذي كانوا يسببونه لجيرانهم من ممارسة اعمال القرصنة احيانا، نفتبس منها الابيات التالية:

• كما ينطلق النباح الوحشي في شواطئ سكيلا (Scylla) الشيطانية،

فإن سفن (الحانوخ) تسبب الذعر للبحارة،

• ولا يستطيع أحد أن يقارنهم مع الأخيين (Acheens) الرهيبيين،

• الأمواج التي ابتعلتها على ثلاث دفعات،

إن هؤلاء الغزاة يقضون حياتهم دون شك،

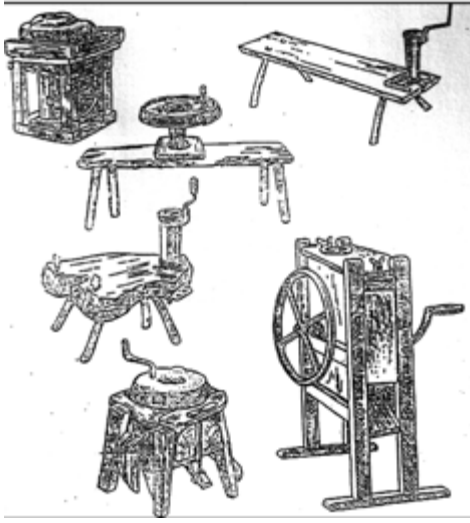
- في التجول على الضفة اليمنى للبحر،

ولكن الضفة الأخرى التي اسكن عليها ليست في أمان أكثر من الأولى.

وهذه القرصنة ان كان في ظاهرها عمل (غير قانوني) إلا أنه كان كرد فعل تتسم بقوة وشجاعة وجرأة التصدي للبواخر الكبيرة التي كانت تمتلكها امبراطورية مثل امبراطورية البسفور اليونانية القديمة.

نماذج

من اللوازم والأدوات للصناعات (١١-٢١)



الشكل (12-A)

لوازم وأدوات الحدادة عند الشراكسة منذ القدم



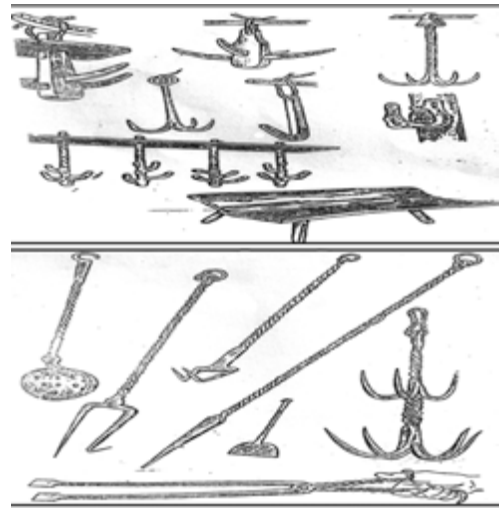
الشكل (١١)

نموذج للسرج الشركسي وتوابعه



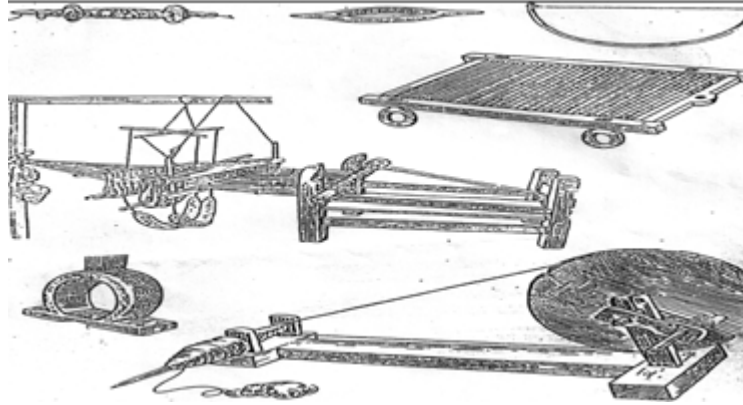
الشكل (13)

لوازم وأدوات مهنة النجارة



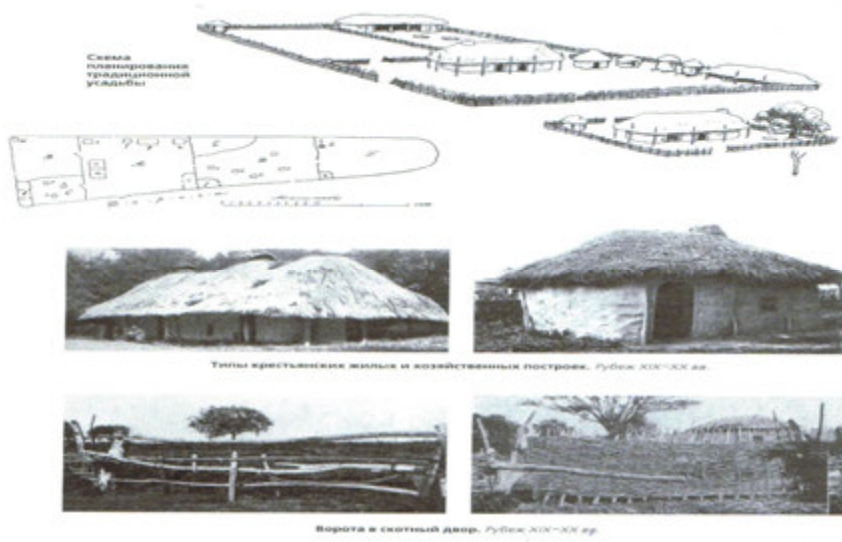
الشكل (12-B)

لوازم وأدوات الحدادة عند الشراكسة منذ القدم



الشكل (14)

نماذج من الادوات والأجهزة التي استخدمها اجداد الشراكسة منذ القدم في صناعة النسيج والغزل



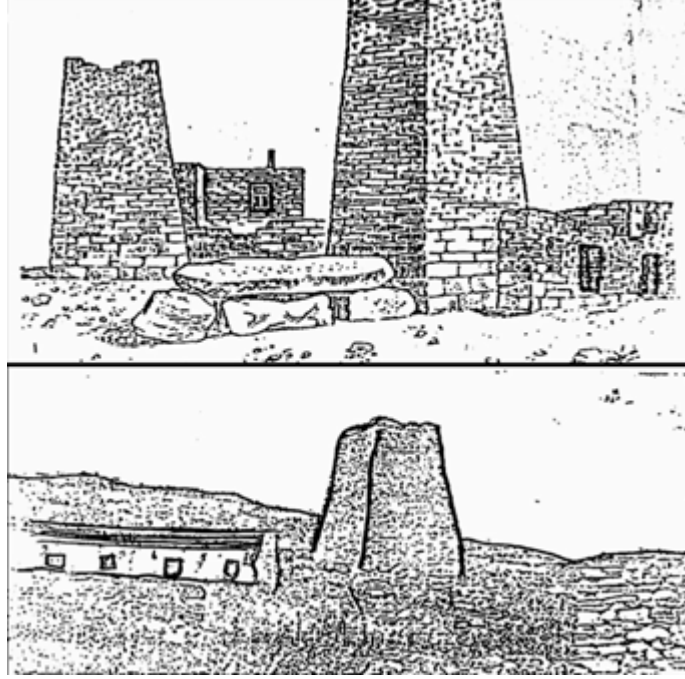
الشكل (15)

نماذج من تصاميم البيوت الشركسية قديما في الوطن الأم



الشكل (15-A)

نماذج من البيوت الحديثة للشراكسة في الوطن الأم



الشكل (16)

نماذج من القلاع القديمة في بلاد الشراكسة



Черкесский военный корабль. (Неизвестный художник).

شكل (17)

سفينة حربية قديمة من صنع اجداد الشراكسة

١٨- **صناعة البارود:** توصل الشراكسة إلى صناعة ملح البارود من ثلاث مواد هي (الكبريت - وفحم الحطب - والملح الخالص) الموجود في اسفل الجبال في قفقاسيا أو نبات ذي ساق خضراء تسمى (بلسانهم) وكان يتم غليها جيدا لمدة اربع ساعات أو أكثر، ثم تصب في اناء كبير ويترك حتى يتجمد ويرسب الملح في اسفله ويترك حتى يجف ثم يؤخذ لاضافتها إلى المادتين الاخرين هما: الكبريت والفحم. ويلاحظ بأن الشراكسة اهتموا بصناعة ملح البارود في أواخر العصور الوسطى، إلا أنهم لم يتمكنوا من صناعة المدافع.

١٩- **مهنة الصياغة:** تعتبر الصياغة من المهن القديمة جدا عند الشراكسة، مثلها مثل صناعة الحدادة، واشتهرت الأمة الشركسية منذ العصور الحجرية والادوار (المعدنية) المختلفة في (مهنة الصياغة) ثم تطورت هذه الصناعة بعد اكتشاف الذهب والفضة والبلاطين، والصياغة هي مهنة احترفها العديد من الاجداد كما حافظت عليها الاجيال اللاحقة، ويسمى الصانع باللغة الشركسية (ديشك) والعديد من العائلات الشركسية تحمل هذا الاسم حتى وقتنا الحاضر. وتزامن مع صناعة الصياغة فن الزخرفة باستخدام الرقائق والخيوط الذهبية والفضية، حيث استخدم هذا الفن في تزيين الزي القومي الشركسي للرجال والنساء، وفي زخرفة الأسلحة النارية من مسدسات وبنادق، وكذلك في تزيين الأسلحة الشخصية مثل (القامة) أي (الخنجر الشركسي) و(السيف الشركسي)، بالإضافة لزخرفة الاحذية النسائية والرجالية بخيوط فضية أو ذهبية، ومن أهم أنواع أشغال الصياغة وفن الزخرفة بالفضة والذهب لدى الشراكسة هي:

* صناعة الخواتم، والأساور والأطواق والحلق وغيرها من ادوات الزينة للنساء من مادتي الذهب والفضة كما هو مبين في الاشكال رقم (١٨).

٢٠- **صناعة الحياكة والتطريز:** تستدل من الكتابات الاثرية بأن الشراكسة منذ عصر الاجداد في فجر التاريخ بأنهم احترفوا مهنة الحياكة "الخياطة" وانهم ابدعوا في هذه المهنة وخاصة في حياكة الملابس القومية للرجال والنساء التي عم استخدامها لدى معظم الشعوب القوقازية، كما اشتهرت النساء في اعمال التطريز والزخرفة كما هو مبين في الاشكال رقم (١٩).

٢١- **صناعة أشغال الصوف والنسيج:** اشتهر الشراكسة منذ القدم بأشغال الصوف وفي صناعة السجاد وغيرها من النسيج كما هو مبين في الاشكال رقم (٢٠).

٢٢- **صناعة الاسلحة الخفيفة وأدوات الدفاع عن النفس:** يؤكد الباحثون في تاريخ حروب الأمة الشركسية على مر العصور، بأن مقاتليها كانوا يستخدمون مختلف أنواع الأسلحة النارية وأدوات مختلفة من السلاح الشخصي الذي كان يستخدم في القتال (بالسلاح الابيض) وهي على أنواع وأشكال مختلفة وهي:

- المسدسات الطنبجة وهي ايضا على اشكال مختلفة.
- السيوف وبأحجام مختلفة.
- القامات وبأشكال وأنواع مختلفة.
- الرماح والسهام وهي بأشكال مختلفة.
- التروس والدروع والخوذ.

كما هو مبين في الاشكال رقم (٢٠)

وفيما يلي وصف تفصيلي لأهم الأسلحة وأدوات الدفاع عن النفس التي كان يصنعها الحرفيون الشراكسة بإتقان^(١).

الخوذة الفولانية: مخروطية الشكل، مصنوعة من نصفين، وتغطي الرأس والعنق والرقبة من الخلف، وتكون الخوذة مزينة بنقوش فضية محفورة بأشكال متعاقبة متشابكة، وتحمل بعض الخوذ أسماء صانعيها، وتاريخ صنعها وأشهرهم كان المعلم (علي حاجي بك) في سنة ١٢٨٠م. ومعظم

هذه الخوذ مزودة بحلقة في الأعلى وتثبت عليها قطعة من الجلد الأحمر مزينة بشريط حريري مطرز.

قمصان الزرد الفولاذية: كانت تصنع من حلقات تتداخل كل واحدة منها مع أربع حلقات متجاورات. والقميص مفتوح عادة في أعلى الصدر ليسهل ارتداؤه ومفتوح أيضا من الأسفل لئلا يعيق حركة المحارب. وكان الإيرانيون والعثمانيون زبائن دائمين لشراء قمصان الزرد. ومنذ عام ١٦٦١م وبعد أن توطدت العلاقات بين موسكو والقبرداي انتقل بعض الصانع لعمل هذه الدروع في موسكو. وكتب الشاعر الروسي (ميخائيل ليرمنتوف) عن الفارس القبرديني الجسور (اسماعيل بك انزور).

الرمح الخشبي: تطور عن طريق (عصا الحفر) المدببة والمتقبة بالنار، حيث كانت تلين القناة بالزيت والدهن أولا ثم تعزز بالرماد الحار لتصبح كالمعدن في صلابتها وقد استخدمها الشراكسة في الحرب والصيد.

الأقواس: ينتمي القوس الأديغي إلى النمط المعقد، لأنها مكونة من عدة طبقات من القرون، والخشب، والأتار العضلية المجففة الملتصقة إلى بعضها، وكانت الطبقة المصنوعة من القرون تشكل السطح الداخلي للقوس، وتؤمن للقوس شدة التوتر. والطبقة الوسطى مؤلفة من أوتار عضلات الحيوانات الملتصقة بواسطة الصمغ المصنوع من عظام السمك، ومهمتها اكساب القوس المرونة اللازمة، التي يشد إليها وترها من صفائح عظمية، ويغطي ظهرها القوس المصنوع من الخشب، بطبقة تلتصق إليه من الجلد الأسود تزين بنجوم ذهبية صغيرة.

السهم أو النبال: وتصنع منزليا، وكان النبلاء يصنعون سهامهم يوميا، وقيل فيها إنها تطير بثبات إلى مسافات كبيرة، وكذلك رؤوسها تصب من الفولاذ، وتسقى ثم تسن حتى تصبح دقيقة الحدين.

وتختص النساء بصنع الكنانات، وأغلفة الأقواس، المصنوعة من الجلد الأحمر، أو الأسود وتزين بعدها بشرائط من الحرير المذهب، وهي صناعة كانت تختص بها النساء.

ظلت الأقواس والسهم مستعملة مع السلاح الناري حتى عام ١٧٥٠م تقريبا. لقد ذكر الكاتبان الانكليزي (جيمس كوك) عن قدرة السهم الشركسية انها أدق وأفتك على مسافة ٥٠ مترا من بنادقه المصنوعة في القرن الثامن عشر. (٧)

سيوف الأديغة: يسمى السيف (بسه شخوة) وقد حرف الروس الاسم فأصبح (باشكا) وان كل من زار بلاد الأديغة في (كبردينا - بلقار) كان يلفت نظره أناقة السيوف الشركسية ذات (النصال) الأنيقة الضيقة ومقابضها الفضية الموشاة بزخارف من أوراق النباتات، ويغضي المقبض دروب من الزخارف والخطوط المتكسرة المحفورة بأداة حادة من المعدن، وهذه الطريقة في تنفيذ الخلفية تميز الأسلوب الأديغي عن غيره.

قامات الأديغة: كانت تصنع نصالها من الفولاذ ومقابضها من الفضة، ولم تكن كالسيوف سلاحا فخريا ينتقل بالوراثة من جيل إلى آخر بل كانت سلاحا فرديا يستخدم في الحياة العادية، وقد برع الداغستان في هذه الصناعة وعنه انتقلت إلى غرب القفقاس. (٧)

وفيما يلي نماذج من أنواع الأسلحة التي اشتهر أجداد الشراكسة في صناعتها، واستخدامها في حروبهم على مدى آلاف السنين.

نماذج

نماذج من اعمال الصياغة التي اشتهر في صناعتها اجداد
الشراكسة منذ القدم



الشكل (18-B)



الشكل (18-A)

نماذج من اعمال الغزل والحياكة عند
اجداد الشركس منذ القدم



الشكل (19-B)



الشكل (19-A)

نماذج من حياكة الزي القومي لكل من المرأة والرجل الشركسي

الشكل (19-C)



نماذج من اشغال التطريز الشركسي التي اشتهرت فيها النساء الشركسيات منذ العصور القديمة

الشكل (19-D)



نماذج من الأسلحة الشركسية في القرن الثامن عشر الشكل (20-A)



Интерьер черкесского дома.
(Из кн. Тебу де Мариньи «Recueil
de vues et costumes pour le voyage
en Circassie». Брюссель, 1821)

نموذج للباس الحربي للمقاتل الشركسي الشكل (20-B)

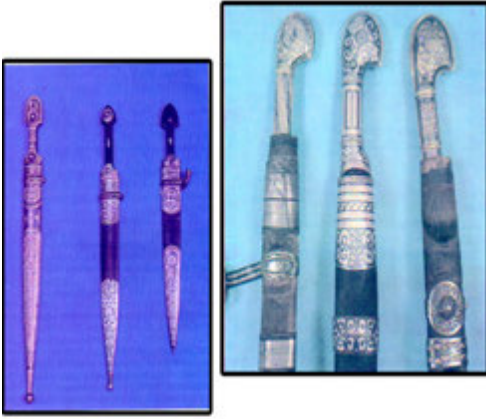
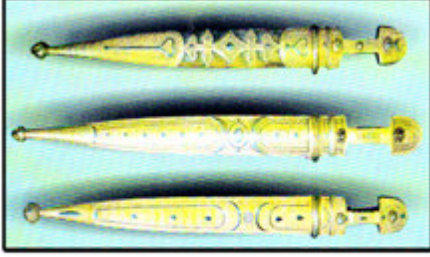


نماذج من (البندقية جراخوة) التي اشتهر أجداد
الشراكسة بصناعتها واستخدامها في الحروب



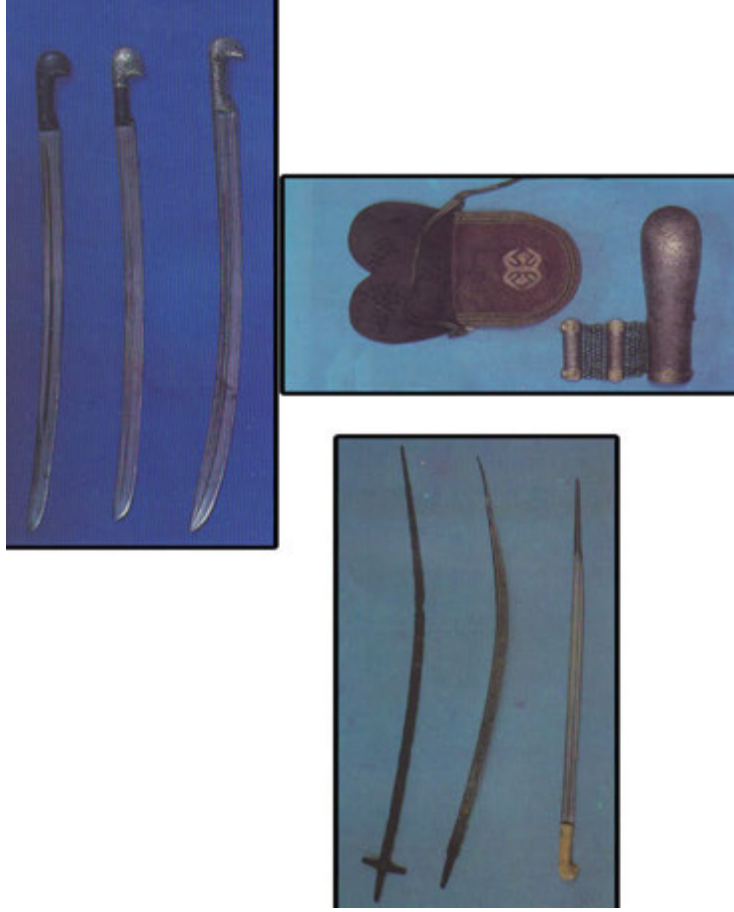
الشكل (20-C)

نماذج من (القامات) أي السيوف التي اشتهر
بصناعتها الشراكسة واستخدامها في حروبهم

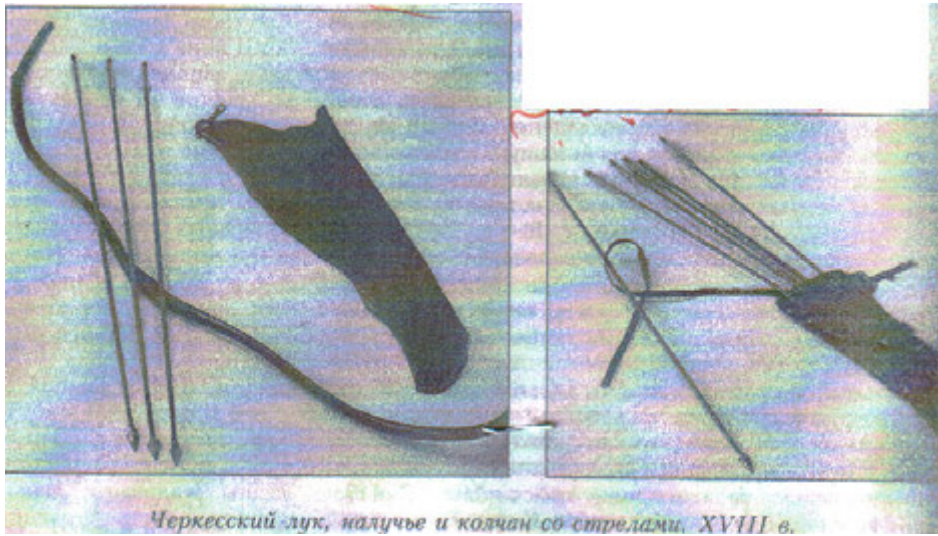


الشكل (20-D)

نماذج من السيوف الشركسية القديمة التي صنعها اجداد الشركاسة قديما واستخدموها في حروبهم



الشكل (20-C)



الشكل (20-E)

الصناعات والحرف المهنية لدى الشركاسة في ظل الحكم الروسي القيصري والشيوعي وروسيا الاتحادية (١٨٦٤-٢٠٠٦):

يجد الباحث في حياة الشركاسة (الأديغة) الذين تمسكوا بأرض الوطن الأم ولم يهاجروا أو يُهجّروا إلى الدولة العثمانية، بأن السلطات القيصرية ومن بعدهم السلطات الشيوعية البلشفية قامت بتحديد أماكن سكن (بقايا الشركاسة) في أربع مقاطعات أو جمهوريات ذات حكم ذاتي وهي*:

- جمهورية كبادينا - بلقاريا الفيدرالية.
- جمهورية تشركيس - قراشاي.
- جمهورية الأديغة.
- جمهورية ابخازيا.

وبالبحث في المهن والصناعات التي استمر الشركاسة في احترافها، والاشتغال بها في هذه المناطق الاربعة توصلنا إلى الحقائق التالية:

الحقيقة الاولى:

استمر الشركاسة في مزاوله الحرف المهنية والاشتغال بالصناعات الخفيفة اليدوية والشبه (آلية) التي سبق تناولها سابقا حتى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وبعد ذلك بدأ الشركاسة يتحولون تدريجيا عن مزاوله المهن القديمة والاشتغال بالصناعات اليدوية التقليدية سنة بعد سنة، كنتيجة حتمية لتطور الصناعات في روسيا، وظهرت صناعات كبرى، ومهن تخصصية في المناطق التي يسكنها الشركاسة، وتحول قسم منهم لمزاوله مهن صناعية جديدة تتطلبها طبيعة المصانع الكبرى التي انتشرت في القفقاس، مع بقاء الغالبية من شركاسة الوطن الأم تعمل في المهنة الرئيسية للشركاسة في (أوقات السلم) وهي الزراعة والرعي وأصبحت المهن القديمة والصناعات اليدوية جزءا من التراث الفلكلوري المهني الشركسي، كما أصبحت العديد من الصناعات اليدوية التقليدية (الخفيفة) تسوق كهدايا تذكارية للسياح والزوار الأجانب.

الحقيقة الثانية:

تخصص الشركاسة الذين عاشوا تحت الحكم الروسي القيصري ومن بعدهم الحكم الشيوعي ثم حكم روسيا الاتحادية الفيدرالية في المهن الجديدة واشتغلوا في المصانع التي أنشئت في كل منطقة من مناطق (الجمهوريات ذات الحكم الذاتي) وعلى النحو التالي:

* **الشركاسة من سكان جمهورية كبادينا- بلقاريا:** (والتي تحولت إلى جمهورية فيدرالية في عهد روسيا الاتحادية) ويشكلون ٥٢% من سكان الجمهورية من أصل (٩٠١٤٩٤٩) ويشغلون في المصانع التي تنتج:

- (١) الفحم، والرخام، والماس، والتنجسن، والاولمنيوم.
- (٢) الآلات والمعدات والآليات ذات العلاقة بالفلاحة والزراعة.
- (٣) الالكترونيات الدقيقة، والكريستال.
- (٤) المنسوجات عامة والسجاد خاصة.
- (٥) المنتجات الغذائية من معلبات وسكاكر وزيت.. الخ.

* تحولت هذه الجمهوريات ذات الحكم التركي في عهد روسيا الاتحادية إلى جمهوريات اتحادية.

بالإضافة إلى اشتغالهم في الصناعات المتعلقة بالسياحة عامة والسياحة العلاجية خاصة، وهي من الصناعات التي تطورت كثيرا في هذه الجمهورية لتوفر البنية التحتية الطبيعية من مياه معدنية وكبريتية، حيث يوجد فيها أكثر من (١٧) نوعا من هذه المياه بالإضافة لتوفر البنية التحتية للرياضات الشتوية مثل التزلج ورياضات المغامرات كتسلق الجبال.

* الشراكسة من سكان جمهورية تشركيس - قراشاي:

تحولت هذه الجمهورية من مقاطعة ذات حكم ذاتي إلى جمهورية فيدرالية عام (١٩٩١) على إثر تفكك الاتحاد السوفيتي (سابقا) وقيام روسيا الاتحادية ويشكلون نسبة ٢٢% ويشغلون بالمصانع الروسية التي تنتج المواد التالية:

- (١) الرخام، على اختلاف أنواعه وهي من أجود الأنواع في روسيا الاتحادية.
- (٢) مواد البناء، مثل الاسمنت والخراسانات والطوب والدهانات.
- (٣) مشتقات الالبان.
- (٤) اللحوم والخضراوات المعلبة.
- (٥) العسل والنباتات العطرية والعلاجية وازهار الزينة.
- (٦) الخضراوات التي تزرع داخل البيوت الزجاجية والتي تعتبر الاكبر من البيوت الزجاجية في روسيا وأوروبا.

* الشراكسة من سكان جمهورية الأديغة والذين يشكلون ٢٦% من سكان الجمهورية ويشغلون في المصانع الروسية التي تنتج المواد التالية:

- (١) الأحجار الكريمة.
 - (٢) المواد الغذائية المعلبة مثل اللحوم والفواكه والساكر.
 - (٣) العسل والاجبان.
 - (٤) الاخشاب خاصة خشب (الباركيه) والاثاث والمكاتب.
 - (٥) الآلات الصناعية الثقيلة.
 - (٦) الغاز والبتترول والالمنيوم والتتجيتون والكولين والسيلكا.
- * الشراكسة من سكان (جمهورية أبخازيا): والذين يشكلون ٩٠% من سكان الجمهورية من أصل (٢٥٠.٠٠٠) نسمة ويشغلون في المصانع والحقول التي تنتج:

- (١) الشاي والتبغ والفواكه المعلبة.
- (٢) السياحة العلاجية والمنتجات السياحية التي يبلغ عددها (٥) منتجات عالمية.^(٩)

مراجع ومصادر البعد الثاني في الفصل الأول

- (١) شانيز، أوفست، مباحث سرية في القفقاس والمكتشفات الاثرية، أوردتها المؤرخ الفرنسي (مورجان).
- (٢) ابيه زاو، محمد جمال، مصدر سابق، ص: ٨٢-٨٣.
- (٣) دومونتورن، دوبريز، المكتشفات الاثرية في القفقاس ١٨٣٤، ص: ١٧-١٨.
- (٤) المرتوقي، نوح الشركسي، نور المقابس في تاريخ الجراكسة، قازان ١٩١٢.
- (٥) المحمد، محمد أحمد، مصدر سابق، ص: ٥٩.
- (٦) المصدر نفسه، ص: ٥٩-٦٠.
- (٧) لويسهفورد، اسطورة الالهة، الجزء الاول، منشورات وزارة الثقافة السورية - دمشق ١٩٨١، ص: ١٦١.
- (٨) ابيه زاو، محمد جمال، موسوعة تاريخ الجراكسة، مصدر سابق، ص: ٢٧٤-٢٧٥.
- (٩) دليل اهلنا، الجمعية الخيرية الشركسية، فرع صويلح، مصدر سابق، ص: ٣١.
- (١٠) الحمد، محمد احمد، مصدر سابق.
- (١١) المرتوقي، نوح الجركسي، مصدر سابق، ص: ٥٧.

ثالثاً: البعد التجاري في حضارة الأمة الشركسية منذ فجر التاريخ التراكمية

بالاطلاع على ما كتب عن ازدهار التجارة لدى الشراكسة قديماً، ونقلًا عما كتبه المؤرخون اليونانيون القدماء أمثال:

- هيرودوت المؤرخ اليوناني الذي زار القفقاس في القرن الخامس قبل الميلاد.
- سترابون الجغرافي اليوناني الذي زار القفقاس في القرن الأول قبل الميلاد.

وكذلك بالاطلاع على ما كتبه مؤرخو الدولة البسفورية التي انشأت المستعمرات اليونانية على سواحل البحر الأسود منهم المؤرخون. سيكمونس وهيبوقراشن وايفورس، وسيلاكس، حول ازدهار التجارة مع الشعوب القفقاسية عامة والشعوب الشركسية خاصة منذ القرن الثامن قبل الميلاد.

هذا بالإضافة للاطلاع على ما كتبه (جورج انتريانو) وعلى ما ورد في (التوراة) حول تجارة (اليوان) أي (اليونان) توصلنا إلى أن:

الحفريات الاثرية في مناطق مختلفة في القفقاس تدل بأن المصنوعات المعدنية القفقاسية كانت تصدر إلى أحواض نهري الفولغا والدون في الشمال وإلى بلاد العجم (الفرس) والعراق، وآسيا الصغرى، وما جاورها في الجنوب، من خلال موانئ البحر الاسود التي كانت تشكل مراكز تجارية هامة تتعامل مع القوميات القفقاسية الأخرى في الداخل ومع الأمم المختلفة في الخارج.

وفيما يلي أهم الدول التي كان لأجداد الشراكسة علاقات تجارية خارجية معها وهي:

(١) المستعمرات اليونانية

لا شك بأن الشعوب الشركسية من أوائل الشعوب القديمة التي كان لها علاقات تجارية منذ الالفية الثانية قبل الميلاد مع دول وشعوب اجنبية، وأن هذه العلاقات تطورت وازدهرت في الألفية الاولى ما قبل الميلاد بشكل كبير خاصة بعد إنشاء المستعمرات التجارية اليونانية في مواقع مختلفة على ساحل البحر الأسود، وأن أكثر أنواع التجارة التي كانت رائجة حسب رأي (سترابون) كانت تجارة:

* الحبوب حيث أشار (سترابون) بأن حجم تجارة الحبوب مع القفقاسيين وصل إلى (٢١٠٠٠٠٠) مديم (وهي وحدة كيل قديمة).

* الاسماك المملحة. * المصنوعات المعدنية عامة والبرونزية خاصة.

* جلود الحيوانات. * النحاس والقصدير.

* الفراء.

ولم تقتصر العلاقات التجارية القفقاسية عامة والشركسية منها خاصة مع اليونانيين، وإنما قامت الشعوب القفقاسية بتطوير علاقات تجارية جديدة مع دول أخرى عديدة وفي مقدمتها:

• الإمبراطورية الايرانية، حيث ذكر المؤرخ اليوناني (سترابون) بأن كل من أرمينيا وشعوب قفقاسيا الشمالية كانت تصدر عشرين ألف رأس (جواد) إلى شاه إيران سنوياً.

• الإمبراطورية الرومانية: حيث ذكر المؤرخ الروماني (بليتوس) أن الرومانيين كانوا يربحون بتجارته مع الشعوب القفقاسية (مائة بالمائة) وأن المعاملات التجارية بلغت أكثر من (١٠٠) مليون قطعة ذهبية سنوياً لصالح القوقازيين وكان من أهم المستوردات هي الأقمشة الحريرية الجركسية.

وفي الفترات التي تعرضت فيها الأمة الجركسية إلى حروب دامية وغزوات همجية من قبل قبائل (الهنون) المتوحشة وجيوش (الاورار) المتعطشة للدماء تأثرت الأنشطة والمعاملات التجارية مع الخارج وتوقفت لأكثر من قرن.

إلا أن امتداد نفوذ الخلافة العباسية وتوسعها في بلاد القفقاس أعاد الهدوء والاستقرار إليها وعادت معها النهضة الاقتصادية والتجارية من جديد في بلاد القفقاس عامة وبلاد الشراكسة خاصة، حيث توطدت العلاقات التجارية خلال القرون من (العاشر وحتى التاسع عشر الميلادي) مع العديد من الدول وأهمها:

البيزنطيون: ذكر المؤرخ العربي (الاصطخري) بأن تجار البيزنطيين وتجار آسيا الصغرى كانوا يجتمعون في ميناء طرابزون على البحر الأسود، ومنها ينقلون بضائعهم إلى بلاد القفقاس، وأنهم كانوا يستوردون المواد الأولية لنسج الأقمشة من الشعوب القفقاسية.

كما ذكر السائحون العرب في بلاد الشراكسة في القرنين التاسع والعاشر ميلادية، بأن تجارة الحبوب والحيوانات بأنواعها، والأقمشة الحريرية التي تخصصت فيها (نساء الشراكسة) كانت مزدهرة، بالإضافة إلى ازدهار تجارة المصنوعات المعدنية عامة والنحاسية والفضية والذهبية خاصة.

وتطورت الأعمال التجارية تطورا كبيرا مع العديد من الدول الأوروبية في هذه الفترات مظاهر هذا التطور تتضح من خلال الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: أكد السفير الفرنسي مسيو (بيسونيل) لدى دولة القرم في تقرير له حول كبر حجم التبادل التجاري مع شعوب غرب قفقاسيا وهي (بلاد بعض القبائل الشركسية) خلال الفترة من (١٧٥٠-١٧٦٢) حيث بلغت قيمة البضائع التي كانت تصدر إلى أوروبا من (جركستان) حتى القرن الثامن عشر حوالي مليون روبل سنويا وان (ميناء أنابا) كان يحتوي في القرن السابع عشر على (٤٠٠) مخزن للبضائع وعشرين مخزناً للأخشاب و (١٦) مخزناً للحبوب و (٧) مخازن للمجوهرات ومحلات كثيرة للصرافة وأن أكثر التجار الذين كانوا يتوافدون على بلاد القفقاس هم من جنوة و انكلترا وهولندا واسبانيا وتركيا والقرم، وكانت ترسو في الموانئ القفقاسية كل عام حوالي (٩٠٠) سفينة، عدا عن السفن الصغيرة التي كانت تحمل البضائع وتقوم بالتجارة بين موانئ البحر الأسود، وحدد مسيو (بيسونيل) في تقريره حجم الصادرات من الموانئ القفقاسية إلى مختلف الدول الأوروبية في تلك الفترة على النحو التالي:

جلود ثعالب	١٠٠٠٠٠	سنتيمتر من الصوف	٨٠٠٠٠-١٠٠٠٠٠
جلود دببة	٣٠٠٠	قطعة من القماش	١٠٠٠٠٠
زوج من أنياب الخنازير البرية	٢٠٠٠٠٠	سرwal جاهز	٦٠٠٠٠-٥٠٠٠٠
فراء حيوانات متنوعة	٥٠٠٠٠	ملابس جركسية جاهزة	٦٠٠٠-٥٠٠٠
برميل عسل ممتاز	٥٠٠٠٠	رأس غنم	٥٠٠٠٠٠
برميل عسل رخيص	٥٠٠٠	قطعة من جلود متنوعة	٦٠٠٠-٥٠٠٠
أوقية من شمع العسل	-٥٠٠٠٠	قرون بقر	٢٠٠٠٠٠
	٦٠٠٠٠		
		جلود ذئاب	١٠٠٠٠٠

هذا بالإضافة إلى تجارة الخيول والأسماك وزيت السمك والمواد الأخرى المستخلصة من الأسماك.

كما أكد أن التعامل التجاري بين (القفقاسيين الغربيين) كان يجري في جو من الحرية والأمان كأحسن ما يكون يدل على سمو الروح الاخلاقية عندهم.

كما قال: "نظرا لعدم توفر الدراهم المسكوكة في (بلاد الجركس الغربيين) كانوا يتخذون (البوكاس) كوحدة قياس للبيع والشراء، وهو (ذراع من القماش) ويقدر بـ ١٠ أثمان البضائع الأخرى^(١).

الحقيقة الثانية: كانت تستورد كل من دولة القرم وبعض دول اوروبية في القرن الثامن عشر الميلادي (حسب ما ذكر السفير الفرنسي) من جركستان (ويقصد به بلاد الشراكسة) سنويا الكميات التالية من المنسوجات:

سننيميتز من الصوف	٨٠٠٠٠-١٠٠٠٠٠
قطعة قماش	١٠٠٠٠
سروال جاهز	٦٠٠٠٠-٥٠٠٠٠
ملابس شركسية جاهزة ^(١)	٦٠٠٠-٥٠٠٠

الحقيقة الثالثة: يؤكد المؤرخون لحياة الشعوب القفقاسية، بأن العلاقات التجارية بين انجلترا والشعوب القفقاسية بدأت منذ تأسيس "الشركة الإنجليزية المتحدة للتجارة مع القفقاس" عام (١٥٤٨) وأن هذه العلاقات تطورت بشكل كبير وأن الإنجليز استطاعوا خلال عشر سنوات من القيام بنشاط تجاري واسع في سائر بلاد القفقاس، وكتب (جون كيسون) إلى إدارة شركته في لندن تقريراً عن الإمكانيات التجارية مع القفقاس يقول فيه: "يوجد في هذه البلاد بصورة مجزية الجوز، والبندق، والقطن، والصوف وأنواع من الجذور النباتية، والصباغات، والبضائع الهندية، والمصنوعات المحلية من أصناف ممتازة ومتنوعة".

كما جاء في تقريره بأن البلدة تعج بالتجار القادمين من سوريا وتركيا والبلاد العربية، وأن الحرير الخام يشكل الصنف المهم في البضائع لملك شيروان في كرجستان والداغستان وشمال قفقاسيا الشركسية.

وتمنى (آرثر ادوارد) في تقريره "أن تصل شركتهم من الثراء ما يمكنها من شراء نصف ما يستحصل في هذه البلاد من الحرير الخام".

وحسب تقرير الشركة المذكورة كانت تستورد كل عام من الاقمشة الحريرية ما قيمته (٤٠٠٠٠) ليرة انجليزية ذهبية.

وأن أكثر المواد استيرادا كانت:

* الفليفلة الحمراء. * الجوز الهندي صغير الحجم.

* الجوز الهندي الكبير الحجم. * القرنفل والقرفة.^(١)

وكذلك فقد ذكر التاجر الانجليزي (آرثر ادوارد) في تقرير أرسله إلى شركته ضرورة "انتقاء المرشدين من الوطنيين، لأن الروس يعيثون بمصالحنا" كما قال: "إن تعاملنا التجاري مع أهالي البلاد واستقبالهم الحسن لنا يثير الروس كثيرا، ذلك لأن الأهالي الوطنيين لا يحبون الروس بسبب سوء أخلاقهم، وأوصى "إرسال أشخاص ذوي أخلاق نبيلة للتعامل مع هذا الشعب النبيل"، وكذلك فإن الصادرات القفقاسية من المنسوجات القماشية إلى الدول الأوروبية بلغت قيمتها سنويا حوالي (بليون) روبل في القرن الثامن عشر وأن ميناء (أنابا) على ساحل البحر الأسود، كانت تحتوي في القرن التاسع عشر على (٤٠٠) مخزن لحفظ بضائع المنسوجات القفقاسية.^(٢)

الحقيقة الرابعة: عند الكشف عن المقابر التي عثر عليها في مايكوب، وجدت معدات وأواني خزفية مزخرفة ومرصعة مصنوعة إما في إيران أو بيزنطة أو جورجيا، وأرمينيا أو حتى في بلاد العرب. من هنا يتضح أن كثيرا من المواد المصنعة في بلاد الهند والصين أو بلاد العرب أو بيزنطة كانت تباع في الاسواق القفقاسية وبالمقابل نجد أن القفقاس، كان يصدر الاقمشة المطرزة بالذهب، والاسلحة بمختلف أنواعها، والمواشي وكذلك الاسماك التي كانت تصطاد من بحري الخزر والأسود، ولقد كان للتجارة القفقاسية أهمية خاصة لدى العرب، والبلاد التي كانوا قد احتلوا مثل جورجيا واذربيجان حتى عام (١٢٠٠) م وكانت أهم طرق القوافل التجارية تمر إما عن طريق (دربند) إلى الداغستان أو عن طريق (تفليس) في جورجيا إلى غرب القفقاس.

ولقد تحدث المؤرخ العربي (الاصطخري) في إحدى جولاته في قفقاسيا عن ثراء المدن القفقاسية وعن كثرة الاشياء الموجودة في أسواقها وعن رخص الأسعار فيها، حيث عبر عن هذا الثراء بقوله: ((ان من لم ير ذلك بأم عينه لا يمكنه تصديق ما ذكرت)). كما ذكر في كتابه تفصيلا كاملا لطرق القوافل وعدد هذه القوافل التي كانت تنقل البضائع التجارية من بغداد إلى قفقاسيا وبالعكس.^(٣)

الحقيقة الخامسة: توقفت الأنشطة التجارية للشعوب القفقاسية عامة وللشعب الشركسي بشكل خاص وفي القرن التاسع عشر، وأدت حرب الإبادة التي شنتها جيوش روسيا القيصرية خلال فترات متقطعة ابتداء من منتصف القرن السادس عشر وبشكل مستمر في القرن السابع عشر وحتى يوم ١٨٦٤/٥/٢١ وهو اليوم الذي اعلن فيه قيصر روسيا احتلاله لبلاد الشراكسة كاملة وتهجير أكثر من مليون ونصف مليون شركسي إلى بلاد البلقان والدول العثمانية.

الحقيقة السادسة: في مطلع القرن التاسع عشر وبالتحديد منذ عام ١٨٣٠ عاد اهتمام الاتراك والانجليز والفرنسيين للتعاملات التجارية مع (شركسيا) وتحددت نقاط تجارية على طول الساحل البحر الاسود تدخل إليها السفن الاجنبية دون عائق، وكانت هناك اتصالات تجارية بين موانئ الاناضول التركية من (باطوم) حتى (سينوب) مع سكان شواطئ البحر الاسود، وكانوا يجلبون السلع إلى (أنابة) و (سونجوق قلعه) و (غلينجيك)، وقام التجار الاتراك بمعونة حكومتهم بتنظيم التهريب إلى شواطئ شركسيا، ووجدوا دعما من الشركات التجارية الانجليزية الموجودة في (طرايزون) التي كان لها علاقات ومتاجرة مع شركسيا حيث درس "بيل" الذي عمل مع هذه الشركة أثناء وجوده في شركسيا مسائل التجارة، وذكر في رسائله عن اسهل النقاط لإدخال البضائع الانجليزية^(٤).

ويؤكد المؤرخون بأن من الأسباب الرئيسية لقيام حرب (القرم) بين تحالف قوات انجلترا وفرنسا والاتراك ضد القوات الروسية، هي نتيجة العراقيل التي كانت تضعها السلطات الروسية القيصيرية، حيث أصبحت التجارة مع الشراكسة أكثر شرعية بعد انتهاء حرب القرم، وابرام معاهدة باريس في عام (١٨٥٦) التي كان من بنودها اعطاء الحق للانجليز والفرنسيين للاتجار مع الشعوب الشركسية حرة أكثر، ويتضح ذلك من قول رئيس الوفد الانكليزي اللورد "كلاريندون" في ١٨/٢/١٨٥٦ بأن "انكلترا ترغب في تسهيل تجارتها مع القفقاس وبالذات مع شركسيا" أما النوايا الحقيقية للانكلترا تجاه المسألة الشركسية فقد ظهرت مباشرة قبل بدء الاجتماعات الرسمية للمؤتمر، وقد وصف الامير "فاليفسكي" بأن انكلترا تشكك في حقوق روسيا على المناطق الواقعة وراء الكوبان وعلى روسيا الاعتراف باستقلال وحياد المناطق الواقعة جنوب نهر (الكوبان) أو وضع هذه المناطق تحت السيادة الاسمية للباب العالي.

وقد اتضح أن الحلفاء لم يكن لديهم رأي واحد في عدد من المسائل، ومن بينها المسألة الشركسية التي تدعم فرنسا فيها انكلترا فقط بالكلام وهذا التعارض بين مصالح الحلفاء استخدمته الدبلوماسية الروسية بنجاح، وكان "بالمرستون" يعرف أن اللعبة غير سهلة، وأن "نابليون الثالث" سيظهر نفسه في المؤتمر بأراء غير واضحة تجاه حليفته انكلترا، لذلك قرر بالمرستون "عدم المغالاة في مطالبه، وكان على "كلاريندون" السعي للحصول على استقلال المنطقة الواقعة بين البحر الاسود ونهر (الكوبان) وأرمينيا من (أنابة) وحتى (تشوروك سو)، وكان "بالمرستون" يرى صعوبة تحقيق هذا المطمح، لذلك طلب من "كلاريندون" "أن يصر فقط على استقلال شركسيا، بالإضافة لذلك

اعتبرت الدبلوماسية الانكليزية ان قرارات المؤتمر المتعلقة بغرب القفقاس، يمكن ان تدخل في القرارات الخاصة بحياذ البحر الأسود، مما لا يسمح لروسيا بحصار الساحل الشركسي، وكما ان حرية الملاحة والتجارة كانتا ضمانا لحرية التجارة في البحر الاسود^(٥).

وفي عام ١٨٥٨ أعلم التاجر الانكليزي (هنري اوبراين) وزارة خارجيته أن الموانئ الشركسية التي يمكن منها الاتجار مع (شركسيا) هي بأيدي الشراكسة المستقلين، وبسبب ذلك فإن أية تجارة يريد ان يقيمها بريطاني مع الشراكسة يمكن منعها بواسطة السفن الروسية، وعندما سأل وزير الخارجية الانكليزي السفير الروسي، أعلمه الأخير أنه حسب مواد اتفاقية باريس والمادة الرابعة من معاهدة (ادريانوبولس) لروسيا كامل الحقوق في شركسيا، وحدد خمسة مرافئ على الساحل القفقاسي يمكن ان تدخل إليها السفن الاجنبية.

ويقول أيضا: خف التوتر في العلاقات الروسية الانكليزية الفرنسية إلى حد ما حول التجارة مع الشراكسة بعد توقيع اتفاقية التجارة والملاحة البحرية بين البلدين في ١٨٥٨/١٢/٣١، وحسب المادة (١٤) من هذه الاتفاقية كان من المسموح به اقامة قنصليات لكل دولة في البلد الآخر حسب الحاجة، وبذلك أقامت انكلترا قنصليات في (صوخوم) و (بوتي) و (ريدوت قلعة)^(٦).

الحقيقة السابعة: ظلت الاعمال التجارية معطلة في ظل حكم الاستعمار الروسي القيصري في المناطق التي سكنتها القلة القليلة من الشراكسة الذين لم تتمكن السلطات القيصرية من تهجيرهم، ولم يكن لهم نشاطات تجارية حتى انتهاء حكم القيصرية على يد البلاشفة في ثورتهم عام ١٩١٧.

الحقيقة الثامنة: وفي ظل الحكم الشيوعي لم يتمكن الشراكسة من الحصول على استقلالهم رغم ضمهم نهائيا للاتحاد السوفيتي، وتم تحديد سكنهم في أربعة مناطق رئيسية سميت بالمقاطعات أو الجمهوريات ذات الحكم الذاتي (كما سبق ذكرها) وبالتالي لم يعد للشراكسة أي نوع من العلاقات المستقلة مع العالم الخارجي.

وكذلك لم يكن لهم أي نوع من الانشطة التجارية لأن انتاجهم الصناعي أو الزراعي أو الحيواني كان تستولي عليه الحكومة الشيوعية بعد تخصيص نسبة ضئيلة من إنتاجهم للسكان الشراكسة وغيرهم من القوميات القوقازية الاخرى.

الحقيقة التاسعة: وفي عهد روسيا الاتحادية ابتداء من العقد التاسع من القرن الماضي سمحت السلطات الفيدرالية الروسية بأنشطة تجارية محدودة يمكن تلخيصها على النحو التالي:

في جمهورية كبادينا - بلقاريا: نشطت الحركة التجارية والاقتصادية مع باقي الجمهوريات في روسيا الاتحادية، كما أصبح لها علاقات تجارية خارجية، وانفتحت على العالم الخارجي، وأصبحت لها علاقات تجارية مع بعض الدول الأوروبية والعربية بعد تأسيس شركات قطاع خاص.

وأما الأنشطة التجارية الخارجية لجمهورية (الأديغة): فتعتبر أكثر تطورا من أنشطة جمهورية (كبادينا) حيث توطدت العلاقات الصناعية والتجارية مع القطاع الخاص في كل من فرنسا، وإيطاليا، وتركيا، والتشيك، وسوريا، والأردن، كما توسعت مجالات الاستثمار في الصناعة والتجارة مع النمو المتزايد في عمليات الخصخصة حتى أصبحت تشكل ٦١% من ناتج الاقتصاد القومي فيها وأن نسبة شركات القطاع الخاص بلغت ٥١% و ٤٩% لشركات القطاع العام.

وأما بالنسبة لجمهورية تشركيس - قراشاي وجمهورية الابخاز، كانت التجارة في هاتين الجمهوريتين مقصورة على التبادل التجاري مع جمهوريات روسيا الاتحادية المجاورة لهما^(٧).

يتساءل بعض الكتاب باستغراب "لم لا يوجد بين الشراكسة تجار بأعداد كبيرة، وان هذا التساؤل يطرح بشكل دائم في بلاد المهجر، حيث قدم لنا "أبو درويش" مجموعة من الاسباب التي تمنع من الشركسي أن يكون تاجرا ومنها:

• التقاليد المتعلقة بعلاقة الأكبر سنا مع الأصغر سنا وهي العلاقة التي تؤثر سلبا على نفسية الأجيال الجديدة في التعامل مع طبقات الشعب... بينما التجارة قائمة أصلا على التعامل مع الجميع كبارا وصغارا، وهذا ما لا تتقنه الأجيال الجديدة.

• طبيعة التربية الشركسية التي تفرض الطاعة للآخرين وتفرض جيلا نشأ على الخجل وان الرجل الخجول لا يستطيع اقناع (الزبون) الذي يحتاج إلى مسيطرة (ولف ودوران) واقناع كل حسب عقليته حيث أكد (أبو درويش) كلامه بقوله: "إذا فتخلفهم في الميدان التجاري هو شيء طبيعي فرضته عليهم طبيعة المكان والتربية واسلوب الحياة" مؤكدا بأن الشركسي يبرز في الأعمال التي تنسجم مع شخصيته فهو قدير في الأعمال اليدوية، وماهر فيها، ويتقنها ويجيدها، إذ هي أكثر ما تحتاج إلى الذكاء الذي لا ينقص الجركسي، وإلى التقيد بتعليمات الخبير. وهو أيضا أكثر بروزا في الأعمال الإدارية والعسكرية، وأي عمل يتطلب الطاعة والتضحية^(٨).

نستنتج من تحليلنا للبعد التجاري لحضارة الأمة الشركسية بأنهم منذ عصر الأجداد في فجر التاريخ مارسوا التجارة واتقنوها، وتفوقوا فيها لآلاف السنين، وان علاقاتهم التجارية امتدت إلى أوروبا وآسيا وأن حجم تجارتهم وصلت إلى ملايين الروبلات وأن عدد السفن التجارية التي كانت ترسو في موانئ البحر الأسود زادت على (٩٠٠) باخرة في السنة الواحدة.

أما اليوم فإن شراكسة الوطن الأم عامة وشراكسة الشتات خاصة نجدهم بعيدين كل البعد عن حقل التجارة والأعمال التجارية الحرة.

وأن المجتمعات الشركسية في الدول العربية منها وغير العربية من دول الشتات اليوم يقبلون على مهنة التجارة وأن المقولة الشائعة بين الأجيال الشركسية المعاصرة بأن "الشركسي لا يصلح للتجارة" وأنه لم يخلق لمهنة التجارة حتى أن أحد كتاب المهجر وهو (أبو درويش) أكد هذه المقولة بقوله "الجركسي ليس تاجرا" وان بعض الناس يتندرون عن الجراكسة في ذلك^(٨).

وأما (خورما) وهو من رجال الأعمال والتجارة الشراكسة في الأردن، كتب لنا مقالا في (مجلة نارت) الشركسية الأردنية بعنوان (كلمة بالصوت العالي) الشركسي ليس تاجرا قال فيها:

"إذا حاول أحدنا الحديث عن التجارة أو العمل التجاري مع أبناء هذا المجتمع الطيب، وقبل أن يبدأ الحوار يأتيك الجواب: لا فنحن لسنا تاجرا وليس بيننا تاجر ولا يمكن أن نكون، فالتجارة شطارة ونحن لسنا كذلك".

ويستطرد قائلا: ولا يستغربن أحدكم (قولي لا بالصوت العالي) أيها الاخوة والاخوات كما تعرفون على العكس من ذلك فنحن قادرون ومؤهلون وراغبون للقيام بأي عمل كان، لأننا نتحلى بالجدية، والتفاني، والاخلاص، ونحاشي الكذب والتحايل والاساءة، وهي كلها مع كثير غيرها من صفات يجب ان تتوفر في رجل التجارة، وما ينقصنا هو روح المغامرة التي نخافها، وقد ورتناها عن ابائنا واجدادنا، بعد ان اطاحت بهم مغامرات الاجداد، والقت بهم في جحيم التهجير والابعاد فكان من نتائج ذلك الفقر، والجوع، والمرض الذي قاسى منه الجميع، وأصبح يقينهم يمنعهم من الاقدام على أي عمل ليس فيه ضمان أكيد لحياتهم ومستقبلهم.

ويؤكد بأن ذلك أصبح من الماضي وعلينا ان نقفز فوق هذا الوهم وبخاصة أننا نعيش اليوم عالما تسوده المعرفة، والمعلومة، والمغامرة المحسوبة، التي لا بد منها للعمل والنجاح والابداع والتقدم وبناء مستقبل الأجيال القادمة، وهذا ما ندعو إليه.

وضرب لنا مثلا حول نجاح مجموعة من رجال الأعمال الشراكسة في الشتات تنفيذ مشاريع تجارية واستثمارية في الوطن الأم^(٩).

واعتقد بأن ما ذهب إليه كل من (أبو دريش، وخورما) من اسباب وتبريرات، يمكن أن تنطبق على (البائع) او (تاجر البقالة) لأن هذه المهنة تتطلب شخصيته غير الشخصية الشركسية التي تربي على الاستقامة والصدق والأمانة.

أما مهنة التجارة العامة أو المعاملات التجارية وغيرها من الأعمال الاستثمارية فأعتقد بأن الإنسان الشركسي مهياً لها ويمكن أن ينجح فيها نجاحاً كبيراً إن تهيئت له الفرص مع توفر المال اللازم للقيام بمثل هذه الأعمال التجارية.

مراجع ومصادر البعد ثالثاً في الفصل الأول

- (١) آبة زاو، محمد جمال صادق، موسوعة تاريخ الشراكسة والقفقاس، مصدر سابق، ص: ٢٧٦-٢٧٧.
- (٢) المصدر نفسه، ص: ٢٧٤ - ٢٧٥.
- 3) Ivan Golovin – The Caucasus, London 1854,
- (٤) قاسوم، علي وحسن، إبادة الشراكسة، مصدر سابق، ص: ٥٧.
- (٥) المصدر نفسه، ص: ٨٥.
- (٦) المصدر نفسه، ص: ٩٠.
- (٧) دليل اهلنا ... للتواصل والمحبة، الجمعية الخيرية الشركسية، صويلح - الأردن ٢٠٠٦، ص: ٣٠-٣٥.
- (٨) ابو درويش، مصطفى، التربية الشركسية، مصدر سابق، ص: ٦٩-٧١.
- (٩) خورما، حسن، كلمة بالصوت العالي (الشركسي ليس تاجراً) مجلة نارت، الجمعية الخيرية الشركسية، عمان، العدد (٧٢) تشرين الثاني ١٩٩٩، ص: ٢.

الفصل الثاني

الابعاد السياسية لحضارة الامة الشركسية التراكمية

أولاً: البعد الديمقراطي وحرية التعبير في حضارة الامة الشركسية

يقول ميخائيل لاخنسكي مؤلف الرواية التاريخية "دوي الرعد" فكرت بكل الأمور وتساءلت ألا تبدو الحرية التي يحياها الشركس مغرية جدا وتشكل خطراً على استمرارية الحكم الدكتاتوري للقيصرية الروس، كما أن معظم المؤرخين يؤكدون هذا الفارق الحضاري من حيث تمتع الشركس بالحرية والديمقراطية، وأنها كانت من أهم الأسباب لدى القيصرية لشن حرب الإبادة على شعوب شمال القفقاس.

كما يقول المؤرخ (لوليه) في دراسته عن أنظمة المجتمعات القفقاسية عامة والشراكسة خاصة بأن قيادة المجتمع لا تحتاج إلى رأس وأن السلطة التشريعية والتنفيذية تبدأ من الشعب وأن المسؤولين الذين يتم اختيارهم لحل المسائل الاجتماعية في المجتمع الشركسي لهم حق النصح والتوجيه فقط، ولا يحق لهم فرض القوانين، وإنما يعملون على تنفيذها، ولم يعرفوا الإعدام ولا التعذيب ولم يكن عندهم سجن، ولا سرقة أو نهب بينهم أبداً، والسبب الذي يعيق (الشركس) عن الأخذ بكل قوانين الشريعة الإسلامية هو أن بعضها يتسم بالقسوة تتعارض مع حبهم وتقديسهم للحرية.^(١) وقال أيضاً:

"يجب الاعتراف أيضاً أنهم حريصون كل الحرص على مبادئ العدالة والحرية المطلقة في ظل سيادة القانون، والأمن، والنظام، وصرفت من عمري ثلاثين عاماً وأنا أتجول في هذه البلاد.. ولم يحدث لي أن تشاجرت مع إنسان، ولم يُسلب مالي أو تُنهب بضائعي.

وربما كان كارل ماركس فيلسوف الاشتراكية في العالم، سبق أن كتب في جريدة نيويورك تايمز الأمريكية عباراته الشهيرة ونصها:

"أيها العالم، ايتها الإنسانية تعلموا معنى الحرية من الشراكسة، وانظروا ماذا يستطيع شعب يطلب الحرية أن يعمل، وشاهدوا البطولات التي قدمها هذا الشعب مع قلة قدراته، من أجل الحفاظ على حريته، فعليكم أن تأخذوا العبر منهم".

وكذلك فإن المؤرخ العربي المسعودي يؤكد بأن الخصائص الحضارية التي تتحلى بها الشعوب (الشركسية) وهي حبها العظيم للحرية وإيمانها العميق بالديمقراطية وقد غاب هذا الفهم عن المؤرخين المحدثين ففسروا حبها للحرية وتمسكها بالاستقلالية فوصفوها بكثرة المنازعات على السلطة.

وأما (نغموقة) فيؤكد بأن "حكم الاشراف هو الحكم الذي كان سائداً عندهم، وكان موافقاً لطبائعهم وأخلاقهم خصوصاً، وأن مركز الحكم لم يكن يوماً ما منحصراً في (زيد دون عمرو). وكانوا يتخيرون لهذا المركز من فاق أقرانه من الأشراف بأخلاقه الفاضلة وعلمه الغزير وما إلى ذلك من المؤهلات السامية. وإن رأوا اعوجاجاً أو نقصاً فيه نزعوها منه وولوا عليهم غيره ممن تتوفر فيه الشروط المطلوبة".

وتأكيداً لذلك تقول إحدى الروايات بأن أحد الأمراء في بلاد القبردي جرد من صلاحياته وسلطاته، لتماديه في استغلاله لسلطاته، إذ قام بالاستيلاء على قطعان من الماشية تعود للفلاحين.*

* نغموقة، شورا بكمرة، تاريخ القفقاس، مصدر سابق.

فالمجتمعات (الأديغة) لم تكن مجتمعات (فوضوية) بل كانت محكومة بجملة من القوانين الاخلاقية الصارمة، يعاقب الخارج عليها أشد العقاب. والصغير يحترم الأكبر منه سناً، والكل يحترم الكبير في السن. والشعب كله يحترم الحاكم أو الزعيم ويطيعه في كل ما يفعل أو يأمر، ما دام ملتزماً بالقوانين، ويطبق مبادئ العدل والمساواة بين رعيته، فإذا خرج على القوانين وحابى المتفذين أو الاقوياء. اقلوه وانتخبوا غيره ليتولى الحكم.

فالحكم الدستوري كان معمولاً به عند الجراكسة من قديم الزمان قبل أن تُعرف المجالس النيابية الحالية بآلاف السنين كما كان التشاور قبل اصدار الأحكام من تقاليدهم قبل ظهور الاسلام بزمان بعيد.

نستنتج مما تقدم بأن الأمة الشركسية، أمة تؤمن بالحرية المطلقة، وانها اساس لحياتهم، وان العدالة اسلوبهم في التعامل، والديمقراطية نهجهم في اتخاذ قراراتهم.

وبالبحث عن مفهوم الديمقراطية لدى الشراكسة منذ عهد الاجداد في عصور التاريخ، وجدنا أنها تتكون من اربعة مبادئ ديمقراطية وهي:

المبدأ الاول: الشعب هو مصدر السلطات.

المبدأ الثاني: المجالس الشعبية هي مصدر القوانين والانظمة والعادات والاعراف والتقاليد.

المبدأ الثالث: حرية التعبير والجرأة في القول هو اسلوب حياة عند الشراكسة عامة.

المبدأ الرابع: حرية اختيار أو انتخاب رؤسائهم وزعمائهم أو اقلتهم وتنحيتهم عن الحكم.

المبدأ الخامس: ديمقراطية الامراء (البشى) والرؤساء (التحامدات) في تعاملهم مع مختلف طبقات وفئات الشعب عامة.

وفيما يلي تحليل لمراحل نشأة وتطور الديمقراطية عند اجداد الشراكسة.

المبدأ الديمقراطي الاول عند الشراكسة : الشعب هو مصدر السلطات

بالرجوع إلى المصادر التاريخية التي بحثت في مفهوم السلطة ومصادرها لدى الأمة الشركسية منذ عهد سلطة الام في العصر الحجري الاول توصلنا بأنها مرت بخمس مراحل وهي:

المرحلة الاولى: وهي المرحلة التي بدأ فيها مفهوم السلطة، وانه بدأ في عصر سلطة الام حيث اشارت الدراسة بأن مفهوم السلطة بدأ أول ما بدأ لدى التجمعات البشرية في العصر الحجري الاوسط (ميزوليت) وأن أول سلطة في التاريخ هي سلطة الام وهي التي كانت تصدر الاوامر، وتتخذ القرارات لتنظيم الافراد والاسرة والعشيرة على اعتبار بأن السلطة كانت بين (المرأة عامة والأم خاصة) ثم تطورت إلى ما يعرف (بالنظام الاسري) وتكونت العائلات، واصبح المجتمع القديم يتكون من قبائل وعشائر، ثم تطور مفهوم النظام الاسري، إلى مفهوم (مجلس الامهات) أو (مجلس السيدات القائدات) وهو المجلس الذي كان يتخذ القرارات الهامة والمتعلقة بالعشيرة أو القبيلة، كما كان لهذا المجلس سلطة وضع قواعد (الخايزة) وهي مجموعة العادات والاعراف التي تنظم الحياة الاجتماعية والعلاقات بين افراد القبيلة أو العشيرة الواحدة، كما ظهر ايضا في هذه المرحلة عند قدماء الشراكسة مفهوم (الالهة) واطلقوا عليهم (تواتم) ومفردها (توتم) وهو أول وجود لمفهوم (الالهة) أو (الربائب). كما ظهر معها مفهوم الكهنة والعرافين الذين كانوا يشرفون على تنفيذ مجموعة الانظمة او القرارات او العادات التي يتخذها (مجلس الامهات) كما كان كبار السن من الجنسين يقومون بتنفيذ ما تم اقراره من قبل هذا المجلس.

المرحلة الثانية: وهي المرحلة التي تحولت فيها السلطة إلى (الاب) منذ العصر النحاسي البرونزي وبدايات عصر المعادن، وفيها تحولت السيطرة من (الام) إلى (الاب).

وتولي الرجل زمام الامور، واصبح هو مصدر القرارات في الأسرة كما اصبح شيخ العشيرة، هو مصدر السلطة داخل العشيرة أو القبيلة كما ان مجلس الاباء تولى مهام سن الانظمة

الاجتماعية والادارية التي كانت تنظم العلاقات داخل العشيرة او القبيلة الواحدة، كما ظهر في وقت لاحق (مجلس) يمكن تسميته بمجلس (الشعب) وهو المجلس الذي كان يتشكل من مجموع زعماء القبائل والعشائر ذات القومية الواحدة بالإضافة إلى مشاركة الكنهة وكبار السن من ذوي المكانة الاجتماعية^(٢).

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة نشوء الدولة او الدويلات

ففي هذه المرحلة تشكلت حكومات تضم عدداً من القبائل الشركسية القديمة مثل: قبائل (السند، والزيوخ، والكاسوغ، والكركت)

وتطور مفهوم السلطة وتعددت مصادرها من مجلس الامهات إلى مجلس الآباء ثم إلى (مجلس رؤساء الدويلات) أو الامارات التي كانت تشكل الدولة او الاتحاد، وكان من صلاحيات هذا المجلس الاعداد للحرب واعلانها، كما ظهر في هذه المرحلة نظام (اللقاءات الشعبية) التي كانت تختص بإصدار وسن مختلف التشريعات من قوانين وانظمة وتقاليد اجتماعية .. الخ، وكان مسموحا لكل البالغين والبالغات في القبيلة الواحدة حضور مثل هذه اللقاءات، والمشاركة فيها، وابداء الرأي في كل صغيرة وكبيرة، والتحاور في قضايا الحكم والحرب بأسلوب ديمقراطي يتساوى فيه كل المواطنين، فقيرهم قبل غنيهم وكبيرهم مع صغيرهم.

المرحلة الرابعة: وهي المرحلة التي ظهرت فيها القبائل والتجمعات الشركسية ابتداء من القرن الرابع الميلادي وحتى القرن الثامن عشر الميلادي.

ففي القرن الرابع الميلادي وبعد تفكك الدول، والدويلات، واتحاداتها الشركسية، تكونت قبائل عديدة بلغت أكثر من (١٨) قبيلة وتحول زعماء هذه القبائل ورؤساء التجمعات الشركسية إلى امراء ونبلاء (بشي وتحمادة)، وتعددت الطبقات الشعبية، وتأسست جذور النظام الطبقي بعد ان تعددت الملكية الفردية وظهرت طبقة التابعين للأمير (البشل) إلى جانب ظهور الاحرار والفلاحين والخدم (ونه وت) كما تأصل هذا النظام بتأثير من النظام الاقطاعي الذي نشأ في اوروبا في العصور الوسطى، ونتج عن ذلك ظهور نوعين من نظام الحكم في بلاد الشراكسة الأول: هو نظام الامراء الوراثي والثاني: هو نظام حكم الشعب، وعرف بنظام المساواة أو النظام الفقفاقي في الحكم^(٣)، ومهما اختلف اسلوب النظامين فإن مصادر السلطة كان واحداً تقريبا، وكان الاختلاف الوحيد فيهما هو اختيار الرؤساء (التحمادات) أو الامراء (البشي) ما بين تعيين، وانتخاب، او توريث. وكان من أهم مصادر السلطة في هذه المرحلة هي:

المصدر الاول: هم كبار السن في الاسرة او العشيرة الواحدة، من الأجداد أو الآباء او من أعيان القبيلة وحكمائها. وهي السلطة المعروفة حتى يومنا الحاضر في المجتمعات الشركسية بمعنى (نخج) أو (نخجاجة) أي الرئاسة بحكم السن.

المصدر الثاني: هم النبلاء وشكلوا مصدر قوة مساندة لقوة سلطة الأمراء، وكان لهم أكثر من دور كسلطة مساندة مثل:

- المشاركة مع الحكام من أمراء (بشي) أو رؤساء (تحمادات) في تنفيذ القرارات والأحكام التي كانت تصدرها مجالس الشعب في القبيلة أو مجموع القبائل المتحدة.
- إعداد مشاريع التشريعات أو القرارات التي كانت تعرض على مجالس الشيوخ للبحث فيها قبل عرضها على مجلس الشعب.
- المشاركة في اعمال مجلس النبلاء الذين كان لهم أكثر من مهمة، منها دعم ومساندة الامراء بالقيام في استقطاب واستمالة المشاركين في الاجتماعات، او المؤتمرات، او المجالس، للوقوف إلى جانب الامراء، وتأييد مقترحاتهم في المسائل والقضايا التي يطرحونها على المجالس المختلفة والتصويت إلى جانبها^(٤).

المصدر الثالث: هم الزعماء او الرؤساء (التحمادة) والأمراء (البشي)

وهم أعلى مرتبة في سلم النظام الطبقي في الحكم لدى الشراكسة، وكذلك هم حماة الشعب، وكانت لهم مكانة كبيرة في المجتمعات الشركسية في تلك العصور، كما كان افراد الشعب يفتدونهم بالمال والنفس اذا اقتضى الأمر.

وبالرغم من علو مكانتهم وقديسيتهم بصفقتهم (حماة الشعب) كانوا يعاشرون بقية طبقات الشعب ويعاملونهم على قدم المساواة، ويأخذونهم باللين واللفظ، دون أن يظهر في حديثهم أو معاملتهم كبرياء أو غطرسة.

كما كان الأمير مهما علا شأنه يسكن بيتا لا يختلف كثيرا عن بيوت عامة الشعب والنبلاء، وطعامه لا يختلف عن طعام غيره، وكان للتابعين من (البشل) الحق في الدخول على بيت أو مجلس أميره في أي وقت أراد، ويشاركه في طعامه وشرابه اذا شاء ذلك.

وكذلك وبالرغم من كون الامير الحاكم الأمر والنهي في قبيلته فإنه لم يكن يملك املاكا واموالا كثيرة وبعضهم لم يملك ما يكفي لسد حاجاته الضرورية وفي مثل هذه الحالة كان يحصل على ما يحتاجه من الاموال والحاجيات الضرورية من أتباعه دون مقابل. وفي نفس الوقت لم يكن الامير يبخل على اتباعه بشيء، فإذا رأى التابع مثلا عند (سيده) كسوة أو ملابس جميلة أو سلاحا جديدا فله أن يطلبها لنفسه، وكان الامير لا يرد طلبه أو يبخل عليه بشيء مهما غلا ثمنه، لذلك كان الامراء يرتدون أبسط ما لديهم من الملابس فيضطرون إلى الظهور بملابس وهينة لا تمكن من التمييز بين الأمير والنبيل أو الرجل العبد، وكثيرا ما كان يلتبس على عامة الناس ويظنون النبيل أميرا والامير رجلا عاديا لبساطة ما كانوا يلبسونه.

وبالرغم من محدودية ثروة الامراء وتواضع ممتلكاتهم الشخصية، وبالرغم من عدم تقاضيتهم اية رواتب شهرية من اية جهة، فإن التاريخ الشركسي لم يسجل إن قام أمير من الأمراء، أو زعيم من زعمائهم قديما أو حديثا باستغلال سلطته في الحكم وحصوله على اموال أو املاك أو أية منافع شخصية، غير ما كان يقدم لهم من النبلاء ورجال الورق وغيرهم من أعيان واغنياء القبيلة من اموال او حاجيات ولوازم عينية وبمعرفة الجميع وعن طيب خاطر.

ربما المصدر المالي الرسمي الوحيد الذي كان من حق الامير الحصول منه على بعض الاموال، هو الجزء الذي كان يقطع من الغرامات المالية التي كان يفرضها الامراء على الخارجين عن القوانين أو (الخابزة) وعلى من كان يثبت عليهم الجرم ويدانون رسميا من قبل الامير مباشرة^(٥).

السلطات التي كان يتمتع بها الامراء وهي:

- الاشراف على تنفيذ قرارات واحكام المجالس الشعبية ويتم ذلك من خلال النبلاء واتباعهم.
- القيام بمهام القضاة وممارسة عملهم كقضاة وقيامهم بالفصل في المنازعات ما بين فئات الشعب المختلفة بما فيهم النبلاء انفسهم. ومن عامة الشعب من فلاحين وتابعين او خدم... الخ.
- متابعة تطبيق الانظمة والقوانين والعادات والاعراف وفق (الاديغة خابزة).
- رئاسة المجالس الشعبية وادارة جلساتها وتقديم مشاريع القرارات لها^(٦).

وذكر (دانيليفسكي) عام ١٨٤٧ بأن (الامراء - البشي) في قبائل البجدوغ والقبارطي والكيميرغوي والحاتوقي كانوا ينصبون انفسهم كقضاة للفصل في قضايا شعوبهم، وكان بيدهم حق إعلان الحرب وإقرار السلم واتخاذ القرارات الأخرى الهامة.

كما اكد بأن (البشي) كان أعلى درجة من النبلاء عند الشراكسة، واما عن ادوارهم الحقيقية ووظيفتهم فكانت تختلف من قبيلة إلى أخرى، ليس فقط بين قبائل القبرطاي، بل ايضا بين (ببيليني، والبجادوغ، والابوخ، والابخاز) وكانت هذه الوظائف اقل وضوحا عند (الابزاخ والشابسوغ)^(٧).

المصدر الرابع: وهو مجالس الشيوخ، تتكون من كبار السن من الاعيان والاغنياء والملاكين وتعد مجالس استشارية تقوم بمناقشة اقتراحات الامراء وحكام البلاد فإذا حازت على تأييد غالبية اعضاء مجلس الشيوخ كانت تحال إلى مجلس النبلاء لبحثها في اجتماع مشترك مع اعضاء مجلس الشيوخ، حيث يتم رفع ما يتم الاتفاق عليه إلى (مجلس الشعب) لاتخاذ القرارات التي يوافق عليها.

المصدر الخامس: هو مجلس النبلاء كمصدر مساند للسلطة التنفيذية التشريعية

وهو المجلس الذي كان يتكون من النبلاء التابعين للأمير (البشى) في القبيلة او القبائل المتحدة، وكانوا يستمدون سلطاتهم من سلطات الامراء (كما سبق ذكره) في البند الثاني.

المصدر السادس: وهو مجلس الشعب:

وكان يعتبر اعلى سلطة تشريعية لدى الامة الشركسية في الوطن الام حتى القرن الثامن عشر الميلادي، ويشارك في اجتماعاته ممثلو جميع طبقات، وفئات الشعب في القبيلة التي يعقد فيها جلسات المجلس، جنباً إلى جنب مع الامراء والنبلاء والاعيان، وكان من اهم صلاحيات وسلطات مجالس الشعب هي:

- انتخاب القادة العسكريين وغيرهم من القادة الامنيين.
- انتخاب (البشى) او (التحمادة) في النظام الشركسي الفقهاسي (نظام المساواة) والذي كان معمولاً به لدى القبائل في منطقة الكوبان مثل الشابسوغ والابزاخ.
- سن التشريعات واصدار قوانين وانظمة واعراف من عادات وتقاليد وتعديلها او تغييرها.

كما كان لهذا المجلس حق قبول أو رفض للقرارات التي تصدر عن المجالس الأخرى، وأي قرار يصدر عنه ولو كان قراراً شفوياً تصبح له قوة القانون ويلتزم بتنفيذها الافراد والجماعات والمؤسسات دون اعتراض أو تباطؤ.⁽⁸⁾

المرحلة الخامسة: وهي المرحلة التي تحولت فيها السلطات إلى مجلس الاعيان (أو المجلس القومي العالي).

يلاحظ بأن (مجالس الشعب) التي كانت مصدر السلطات، حتى القرن الثامن عشر تحولت في القرن (التاسع عشر) إلى مجالس للأعيان أو (المجلس القومي الاعلى) بعد أن توحدت القبائل الشركسية ونقلا عن (الجوقة بقوة توفيق) بأن هذا المجلس كان يتكون من ممثلي الدوائر المتألفة منها القبيلة، بمعنى أن كل دائرة ترسل نائبها المنتخب ليمثلها في المجلس، ويشترط فيه أن يكون من (الورق) ومن (طبقة الشيوخ) حتى يعطى له حق المشاركة في مداولات المجلس. وفي أول اجتماع له ينتخب الحاضرون من بينهم رئيساً للمجلس بعد الاستئناس بأراء (العلماء) وأمير القبيلة والامراء الآخرين (القوة لاش) وبعد استيفاء المناقشة يتداولون فيما بينهم ويصدرون قراراتهم الفاصلة بأغلبية الاصوات ويعلنونها على الأهالي بعد التصديق عليها من أمير القبيلة ويبدأون بتنفيذها.

أما قرارات (اعلان الحرب) فكانت تعلن أولاً على (الأهالي) مع بيان الأسباب التي دعت للجوء إليها حتى اذا ما قبلوها تعلن الحرب.⁽⁹⁾

وكانت الاعراف والتقاليد تقضي بانتخاب (بشى جديد) في حال خلوه لأي سبب من الأسباب، ويتم الانتخاب من قبل (المجلس القومي العالي) وكان يشترط فيمن يرشح للرئاسة أو الامارة أن يكون متصفاً بالعقل الراجح، والفكر الثاقب، شجاعاً مقداماً، لا يهاب الكوارث، متمسكاً بالتقاليد القومية، محافظاً عليها، عاملاً على تنفيذها ورعايتها.

فإذا توفرت هذه المزايا في الأمير المرشح فينتخبه المجلس القومي رئيساً وحاكماً على القبيلة مدى الحياة وتُسند إليه القيادة العامة في الحروب.

ومن البرتوكولات المتبعة بعد انتخاب امير جديد هو اتباع الاجراءات والمراسم التالية:

١- يؤدي (البشي الجديد) يمين الإخلاص للقبيلة أمام المجلس العالي ويتعهد بأن يبتعد عن الظلم والاستبداد، ويقيم العدل بالقسط بين الناس، ويواصل العمل لما فيه المنفعة العامة للقبيلة وفائدتها، وأن ينفذ قرارات المجلس الأعلى، كلما اجتمع وصادر قراراً، ويحافظ على التقاليد القومية (أديغة خابزة) ويحترمها وينفذها.

٢- يطلب (رئيس المجلس) من جميع الأمراء الحاضرين (لقوه لش) أن يؤديوا بدورهم يمين الإخلاص والولاء (للبشي الجديد) وأن يعاونوه ويساعدوه في الحروب والملمات، وأن يكونوا أعوانه فيما يعلي شأنه ويعظم قدره، وأن يخلصوا له النصيح والإرشاد، وأن يكونوا جميعاً يداً واحدة فيما يعود عليهم وعلى قبيلتهم وعشيرتهم بالفلاح والنجاح.

٣- يختار الرئيس الجديد ثمانية أو عشرة أمراء ليصبحوا حاشيته ويقسمون اليمين ليكونوا صادقين في قولهم مخلصين في عملهم، وأن يؤديوا ما يعهد إليهم من الأعمال والخدمات بكل إخلاص وجدية.

٤- بعد إتمام المراسم السابقة يعلن رسمياً اسم الرئيس الجديد وأسماء الأمراء الذين أصبحوا ضمن حاشيته، ويبلغ ذلك بصفة رسمية لباقي القبائل المجاورة.

٥- تبدأ مراسم الاحتفالات القومية ويتقبل البشي الكبير الهدايا من الأمراء والأعيان^(١٠).

المرحلة السادسة: وهي المرحلة التي انتقلت فيها السلطات إلى ممثلي الشعب المنتخبين مباشرة من عامة الناس في مختلف القبائل الشركسية

بدأت هذه المرحلة على إثر ظهور حدثين رئيسيين في منتصف القرن الثامن عشر هما:

- **الحدث الأول:** هو قيام انتفاضة وثورة شعبية على الطبقة الاقطاعية في المجتمعات الشركسية.
- **والحدث الثاني:** تطور حرب الاستقلال الوطني ضد روسيا القيصرية والتي بدأت منذ منتصف القرن السادس عشر، حيث تضاعفت الهجمات الوحشية والهمجية التي كانت تشنها القوات الروسية القيصرية، بمعاونة المرتزقة من القوزاق على القرى الشركسية في كل انحاء شمال قفقاسيا في الكوبان. وحوض الترك وفي شرق وغرب البلاد.^(١١)

ولتوضيح مدى تأثير الحادثين السابقين على طبيعة مصادر السلطات لدى الأمة الشركسية كان لا بد من اعطاء فكرة موجزة عن كل منهما

فالحديث الأول بدأ عام ١٧٦٧ عندما قام حوالي عشرة الاف قروي بثورة ضد زعماء وامراء القبرطاي.

وفي الفترة ما بين ١٧٩٠-١٨١٠ قامت ثورات شعبية اخرى ضد جميع الامراء والنبلاء في جميع القبائل الشركسية الاثنتي عشرة^(١٢). وتحولت بعضها إلى حرب اهلية، استمرت حوالي عشرين عاما كما حدث في بعض القبائل مثل قبيلة الابزاخ التي انتهت بطرد الامراء والنبلاء وتجريدهم من سلطاتهم واماراتهم.

وأما شعب الشابسوغ فقام بتجريد امرائه ونبلائه من سلطاتهم بطريقة سلمية وبدون اراقة دماء^(١٣).

تلك هي الأحداث التي كان لها تأثير كبير ومباشر على تغيير مصدر السلطات التشريعية والتنفيذية لدى الأمة الشركسية في الوطن الام في قفقاسيا الشمالية بالإضافة إلى طبيعة الظروف الاجتماعية والاقتصادية الجديدة التي اوجدتها المعارك والحروب التي دمرت القرى، وحرقت المزارع وقضت على الثروة الزراعية والحيوانية، وأتلفت البنية التحتية من طرق وجسور ومصادر مياه وغابات، اضطر معها الشركاسة إلى اللجوء إلى الجبال والعيش داخل الادغال والغابات، ولم يعد لدى الشركاسة مؤسسات مجتمع مدني، ولا حياة اجتماعية منتظمة، حيث أصبح من المستحيل عقد مجالس الشعب أو التجمعات واللقاءات الشعبية بشكل منتظم. واصبح لزاماً على القادة الشعبيين لدى

مختلف القبائل الشركسية في مثل هذه الظروف غير الطبيعية ايجاد مصادر بديلة لممارسة سلطاتهم واتخاذ القرارات المصيرية التي كانت تتخذها المجالس القومية او الوطنية او المجالس الشعبية التي كانت قائمة قبل الانتفاضة الشعبية اولا، وقبل تطور مجريات الحرب مع جيوش الروس القيصرية ثانيا، فأصبح المصدر البديل الوحيد الممكن توفيره هي الاجتماعات الشعبية او المؤتمرات الطارئة التي كان يدعى لحضورها جميع الشركاسة البالغين في كل قبيلة.

المرحلة السادسة: وهي المرحلة التي اصبحت فيها الاجتماعات والمؤتمرات الشعبية بديلة عن المجالس القومية:

عقدت خلال هذه المرحلة التي ابتدأت منذ عام ١٨٢٦ وحتى انتهاء حرب الاستقلال وقيام روسيا القيصرية باحتلال الوطن الام في قفقاسيا الشمالية اعتبارا من ١٨٦٤/٥/٢١ عشرات المؤتمرات والاجتماعات نذكر منها الاجتماعات التالية:

اولا: اجتماعات عقدت في عقدي العشرينات والثلاثينات من القرن التاسع عشر وبالتحديد ما بين الأعوام (١٨٢٦ - ١٨٣٩)

وكان اول اجتماع هو الاجتماع الجماهيري الكبير الذي عقد عام (١٨٢٦) أعلن فيه قادة وزعماء الشركاسة وبتأييد من المحاربين والفلاحين رغبتهم في العيش بسلام مع الروس شريطة التزام الروس بعدم القيام بأية اعمال معادية للشركاسة^(١٤).

والاجتماع التالي عقد عام (١٨٣٠) وهو الاجتماع الجماهيري الكبير الذي دعا إليه زعماء وقادة الشابسوغ والناخوج في تشرين الاول من عام ١٨٣٠ وحصلت فيها مشادات كلامية حادة بين قادة مؤيدي تبعية (تركيا) وأنصار العيش مع (الروس) بسلام، وبالرغم من توجه رأي اغلبية القادة قبول التبعية الروسية، إلا أن ممثلي الفلاحين الحاضرين للاجتماع رفضوا رأي الاغلبية من القادة، ولم يتم اتخاذ قرار نهائي لتحديد التبعية لأي من الدولتين (الروسية منها أم التركية)^(١٥).

اجتماع عام (١٨٣١) وتقرر فيه إرسال وفد برئاسة (صفر بك) لطلب المساعدة من السلطان العثماني.

واجتماع عام ١٨٣٣ وتم فيه اختيار اعضاء الوفد الرسمي المكلف للسفر إلى استانبول لمعرفة الموقف التركي النهائي من الصراع الشركسي الروسي.

وفي حزيران ١٨٣٦ عقد الاجتماع الجماهيري الكبير الذي دعى إليه زعماء الشابسوغ والناخوج لمناقشة اسس وشروط محادثات السلام مع روسيا.. وكذلك الاطلاع على الاعلان المنشور في مجلة Portfolio باسم كل من ملك انجلترا ومحمد علي الكبير وسلطان تركيا، والذي تضمن استقلال شركسيا عن روسيا، كما قاموا بالايحاء بأن نجاة الشركاسة هو في اتحادهم، وإقامة حكومة شركسية مركزية^(١٦).

وفي عام ١٨٣٨ عقد اجتماع شعبي آخر، حضره الازاخ والشابسوغ والناخوج لحل المسألة الرئيسية وهي: السماح بالتعامل مع الروس أم تطبيق القسم والعهد السابقين وبمعاقبة الخارجين عليه، وكان قد بادر الناخوج عقد اجتماع خاص لتسوية الخلافات فيما بينهم، واتفقوا على قبول الخضوع لروسيا بشرط ان تقوم روسيا بإزالة القلاع والتحصينات من أراضيهم، والوعد بعدم إقامة قلاع أخرى في المستقبل، إلا أن رئاسة هذا الاجتماعات قررت عدم تطبيق هذا القرار حتى يتم عقد الاجتماع العام، وقد حاول أحد زعماء الناخوج المدعو "بنزيم سووبوخ" اقناع الناس بعدم امكانية وصول مساعدة خارجية وأنه لا مفر من العيش مع الروس بسلام.

لم تكن شعوب ما وراء الكوبان تعرف حقيقة خفايا الصراع الدبلوماسي بين القوى الأوروبية، ولكن ومع مرور الوقت بدأ الشركاسة يدركون الوعود الكاذبة التي قدمتها كل من انكلترا وتركيا وفرنسا للشركاسة.

واختتم عقد الثلاثينات من القرن التاسع عشر بعقد المؤتمر الشعبي الكبير عام ١٨٣٩ واصدار البيان القومي الشركسي الموجه إلى دول العالم اجمع، تضمن بطلان وعدم قانونية (معاهدة ادرنه) التي تنازلت فيها تركيا عن بلاد الشركس لقيصرية الروس، كما تضمن تفاصيل اعتداءات الجيوش الروسية وسميت بوثيقة (الاستقلال) ووقعها جميع امراء الشراكسة المشاركين في المؤتمر^(١٧).

ثانيا: الاجتماعات الجماهيرية التي عقدته في عقدي الاربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر وبالتحديد خلال الاعوام من ١٨٤١ - وحتى عام ١٨٥٩.

الاجتماع الاول: وعقد عام ١٨٤١ بدعوة من قيادات الالويخ والابزاخ والشابسيغ والناخوج تخللته محادثات جادة حول ضرورة تنظيم هجوم عام جديد على خط التحصينات الساحلي الروسي، وهو الاجتماع الجماهيري الحاشد الذي عقد على ضفة نهر (بشيحة) واتخذ فيه القرار التالي: (لا يجوز لأحد منا أن يذهب إلى الكفار وتكوين علاقات الصداقة معهم، ممنوع منعا باتا، وأن أي سلام أو اقتراحات من قبلهم يجب رفضها باستمرار، وفي حال دخول القوات الروسية إلى البلد فعلى كل واحد منا حمل السلاح والذهاب إلى حيث العدو الروسي (الخطر).^(١٨)

الاجتماع الثاني: وهو الاجتماع الكبير الذي دعى إليه (صفر بك) لقادة الناخوج وعقد في شهر ايار عام ١٨٥٦ على ضفاف نهر (أزييب) وخطب فيه المندوبون العائدون من استانبول، وأوضحوا للمجتمعين بأن السلطان العثماني يرى بأن الشراكسة هم مواطنون تابعون للقيصر وليس للاتراك، ويمكن أن يقدم لهم الدعم إن هم اقساموا يمين الولاء للسلطان^(١٩).

ثالثا: الاجتماعات والمؤتمرات الشعبية التي عقدت خلال منتصف عقد الستينات من القرن التاسع عشر

وعقد خلال هذه الفترة أكثر من (٨) اجتماعات ومؤتمرات وأهمها هي التي عقدت خلال اعوام ١٨٦١ و ١٨٦٢ و ١٨٦٣ و ١٨٦٥ وعلى النحو التالي:

اجتماع عام ١٨٦١ وبدعوة من زعماء وقادة الشعوب الشركسية عامة وهو الاجتماع الكبير الذي عقد بمناسبة زيارة القيصر (الكسندر الثاني) لمنطقة الازاخ، وخيب القيصر في هذا الاجتماع آمال المجتمعين عندما وجه كلامه للمجتمعين بقوله: عليكم الرضوخ لحكمي وإلا سترغمون على ذلك بالقوة، وكان رد المجتمعين وعلى لسان اثنين من الازاخ هما (حاج يقو حازمزة) و (بشه تشي بقوة) فالأول وافق على رأي القيصر، غير ان الناس الحاضرين لم يقبلوا بذلك، أما الثاني فقد قبلوا بكلامه، وبدأ الناس يفرقون لكي يستعدوا للحرب.^(٢٠)

الاجتماع الثاني: هو مؤتمر كبار الشراكسة والالويخ المنتخبين في ١٣/٦/١٨٦١ والذي تقرر فيه اقامة اتحاد شعوب ما وراء الكوبان وتأسيس المجلس الوطني، وانتخاب مجلس يمثل (الحكومة المركزية) من ١٥ شخصية وكان من صلاحية هذه الحكومة الدعوة للتعبئة العامة وإعلان الجهاد المقدس في أي وقت تراه مناسبا.

واعتمد في هذا الاجتماع، العلم الوطني الشركسي رمز وحدة واخوة شعوب ما وراء الكوبان، وهو العلم المصنوع من الحرير الاخضر عليه ثلاثة اسهم متقاطعة ترمز للعائلات (القبائل) الشركسية الاقدم بين الاديغة وهي (زان - اتيك - بولوتوقة) و (١٢) نجمة ترمز إلى عدد قبائل الاديغة المشاركة في الاتحاد^(٢١)

واما الثالث فقد كان آخر اجتماع يعقد قبل الاحتلال الروسي وهو الاجتماع الذي عقد عام ١٨٦٤ بحضور حوالي (٤٠٠٠) شخص من الشراكسة المسلحين تسليحا كاملا وهو الاجتماع الذي وصفه شاهد عيان وهو (فون فيل) مؤلف كتاب السنة الاخيرة لحروب الشركس من اجل الاستقلال بقوله:

"في أحد الصباحات الرائعة احضر خدم (اسماعيل بك) لنا الجياد، وسار بنا للمشاركة في أحد الاجتماعات الشعبية الكبيرة لتدارس أوضاع المنطقة، وبعد ساعة من السير عبر الجبال، وصلنا

إلى هضبة واسعة تجمع عليها (٥٠٠-٦٠٠) شخص. وفي وقت قصير بلغ عدد المجتمعين حوالي (٤٠٠٠) شخص، وكان (الجبليون) مسلحين بالكامل، وبعد أن ترجلوا عن خيولهم وربطوها إلى الأشجار شكلوا دائرة كبيرة، وأخذ القادة أماكنهم في وسطها وعلى وسائل محشوة بالقش، وبعد برهة من الصمت، افتتح الاجتماع وتكلم (اسماعيل بك) وكانت كلمته طويلة وشاملة، وبعدها أجاب عن استفسارات واعتراضات الحاضرين، ثم أعطى الكلام لغيره من المتحدثين. وقد دار في خلدنا أنه لا نهاية لهذه المناقشات، ولكن صمتاً شاملاً حل فجأة، وكأنه تم بفعل ساحر، وتكرر هذا عدة مرات واستمر على مدى ساعتين. لقد كنا شهوداً على عقد مؤتمر وطني. وأخيراً انفصلت حلقة الحاضرين، واعتقدنا أن الاجتماع قد انتهى إلا أننا أخطأنا، إذ التفتت كل العيون إلى جهة واحدة حيث تسلق شخص من المجتمعين بسرعة شجرة عالية، وصل قمته واتخذ مكاناً مريحاً عليها وبدأ بإلقاء كلمة سمعها الجميع بكل سرور.

يعتبر هذا المجلس هو السلطة الوحيدة في البلاد، لأن الأمراء مع تمتعهم بالاحترام الكامل لا يملكون الحق بمخالفة مقرراته. لأنه يمثل كل الشراكسة من أمراء وأغنياء وفقراء، وهم مجبرون على تنفيذها. (٢٢)

يلاحظ مما تقدم بأن المصدر الوحيد للسلطة خلال القرن التاسع عشر كانت الاجتماعات والمؤتمرات الشعبية الطارئة التي كانت تعقد بين فترة وأخرى وحسب مقتضيات ومجريات الحرب أولاً، أو بتحريض من الجواسيس الأجانب عامة وجواسيس الأتراك والانجليز خاصة ثانياً. كما أن مجالس الأمراء والنبلاء والشيوخ والمجالس الشعبية التي كانت مصدر السلطات لدى الأمة الشركسية لم يعد لها وجود بعد الانتفاضات والثورات الشعبية التي قضت على الاقطاعيين وعلى نظام الأمراء والنبلاء ابتداء من عام ١٧٩٠ تقريباً.

المبدأ الديمقراطي الثاني عند الشراكسة هو أن:

"المجالس الشعبية هي مصدر التشريعات القانونية من أنظمة وعادات وتقاليدها وعراف".

ربما كانت الأمة الشركسية من أوائل الأمم والشعوب القديمة التي حرصت على دستورية صدور التشريعات القانونية، وأن هذه الدستورية تمثلت بالمظاهر التالية:

المظهر الأول: لم تصدر التشريعات القانونية على اختلاف مستوياتها، وابتداء من العادات والتقاليد وانتهاء بالأنظمة والقوانين والدساتير.. لم تصدر عن زعماء أو حكام من رؤساء وأمراء ونبلاء وقادة سياسيين أو قادة عسكريين، وإنما كانت تصدر عن ممثلي الشعب المجالس الشعبية ابتداء من عصور سلطة الأم وسلطة الأب وسلطة زعماء القبائل، وحتى ظهور الدويلات، والدول، والحكومات، وانتهاءً إلى تكوين الاتحادات والتجمعات الشركسية.

المظهر الثاني: حافظ الشراكسة منذ عصر الاجداد على تسلسل صدور التشريعات القانونية على اختلاف مستوياتها وعلى النحو التالي:

ففي عصر سلطة الأم كانت التشريعات المتمثلة بالعادات والتقاليد (الخابزة) تقدم من الامهات وتصدر بعد مناقشتها من (مجلس الامهات) والتي كانت تسمى في مراحل لاحقة بمجلس (السيدات النارتيات).

وفي عصر سلطة الاب، كان الأباء يقدمون الأنظمة المتمثلة بالأنظمة الاجتماعية والإدارية التي كانت تحكمها العادات والتقاليد الشركسية منذ عصر قوم (النارتيين) وتصدر عن (مجلس الاباء).

وفي عصر نشوء الدويلات والدول المستقلة، كان زعماء وحكام الدويلات والامارات المشاركة في الدولة أو الاتحاد يقدمون مشاريع التشريعات إلى مجلس رؤساء الدويلات أو الامارات التي تشكل الدولة الاتحادية، وكان من صلاحيات هذا المجلس إصدار كافة القرارات مثل إعلان الحرب ضد الأعداء كما كان له صلاحياته بإصدار التشريعات من أنظمة وعادات وتقاليدها الاجتماعية.

المظهر الثالث: ويتمثل بمستويات صدور التشريعات:

وفي العصور التي ظهرت فيها القبائل وفروعها، ابتداء من القرن الرابع الميلادي وحتى منتصف القرن الثامن عشر أصبحت التشريعات تصدر عن (٦) مستويات من المصادر وهي:

المستوى الأول: كبار السن في الأسرة من اجداد وآباء والأخوة الأكبر سناً.

المستوى الثاني: اعيان القبائل، وكبار السن في العشيرة، تحت مفهوم (تحمادغة) بمعنى الأكبر سناً في العشيرة.

المستوى الثالث: مجالس النبلاء، وكان دورهم يتمثل في اعداد مشاريع التشريعات او القرارات التشريعية ويرفعونها للامراء (بشي) الذين كانوا يمثلون رأس الهرم في النظام الوراثي للحكم، وإلى الرؤساء أو الزعماء (التحمادات) الذين كانوا يمثلون رأس الهرم في النظام الشعبي الديمقراطي للحكم.

المستوى الرابع: الامراء (بشي) والزعماء أو الرؤساء (التحمادات) وكان من سلطاتهم تقديم مشاريع الأنظمة والقوانين المتمثلة بالعادات والتقاليد وغيرها من أنظمة إلى مجلس الشعب، كما كان من مهامهم الإشراف على تنفيذ القرارات ومتابعة تطبيق الأنظمة والقوانين والعادات (الخابزة).

المستوى الخامس: مجلس الشعب المنتخب، وكان أعلى مصدر في المجتمعات الشركسية حتى منتصف القرن الثامن عشر وهو المجلس الذي كان له حق إصدار التشريعات أو الغائها أو تعديلها... الخ.

وأما المستوى السادس والآخر فهو المجلس القومي الأعلى الذي كان مصدر التشريع الأعلى في العصر الذي توحدت فيها القبائل الشركسية منذ منتصف القرن الثامن عشر، حيث أصبح المصدر الرئيسي للتشريعات القانونية هو مجلس الاعيان أو (المجلس القومي الأعلى) وهو المجلس الذي تشكل من الممثلين المنتخبين من الدوائر أو الامارات أو القبائل المشاركة في الاتحاد أو التجمع (كما سبق شرحه عند البحث في (المبدأ الديمقراطي الأول - الشعب مصدر السلطات).

حيث كان هذا المجلس هو السلطة الأعلى التي لها حق اصدار التشريعات او تعديلها او الغائها.

وفي العصر الذي انتفض فيه الفلاحون وعامة الشعب الشركسي، على الامراء والنبلاء أصبحت السلطات بيد عامة الشعب. كما أصبحت المجالس الشعبية المنتخبة مباشرة من الشعب هي مصدر التشريعات القانونية.

واخيراً، ربما كان أكبر دليل على حرص الامة الشركسية على ديمقراطية اتخاذ القرارات ودستورية صدور التشريعات القانونية، هو لجوؤهم إلى الشعب حتى في أقصى ظروفهم المعيشية التي فرضتها حروب الدمار والإبادة المتمثلة في استحالة عقد مجالس الأعيان، او المجالس الشعبية المنتخبة من القواعد الشعبية، حيث لجأ القادة وزعماء الشراكسة الذين كانوا يعيشون في الغابات وعلى سفوح الجبال هرباً من وحشية وبربرية هجمات الجيوش الروسية القيصرية... لجأوا إلى عقد اجتماعات شعبية ومؤتمرات طارئة، بدلاً عن المجالس الشعبية المنتخبة التي كان يستحيل عقد اجتماعاتها الدستورية في ظل استمرار هجمات وجيوش القياصرة وتواصل اعتداءاتها على (الأرض والعرض) حيث عقدوا عشرات الاجتماعات الطارئة خلال الفترة من عام ١٨٢٦ وحتى عام ١٨٦٣ بلغ عددها أكثر من عشرين اجتماعاً او مؤتمراً طارئاً بحثوا فيها مختلف القضايا القومية للأمة الشركسية ومنها التشريعات القانونية.

وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مبدأ دستورية إصدار التشريعات القانونية وعلى حرصهم أن يكون هذا المصدر من ممثلي الشعب وليس من القادة أو الحكام أو الزعماء.

المبدأ الديمقراطي الثالث عند الشراكسة: هو حرية التعبير والجرأة في القول كأسلوب حياة عند الشراكسة

كانت حرية التعبير مبدأ أساسياً من مبادئ الديمقراطية، ومارست الأمة الشركسية هذه الحرية على مستوى المؤسسات أولاً، وعلى مستوى الأفراد ثانياً.

فبالنسبة لحرية تعبير المؤسسات والهيئات فإنها تتمثل في الإجراءات والقواعد التي كانت تتبع في الاجتماعات واللقاءات والتجمعات الشركسية، ابتداء من اجتماعات المجالس التي سبق ذكرها مثل: مجالس الأمهات والأباء، وزعماء القبائل واجتماعاتهم، وكذلك مجالس التحمادات والنبلاء والأعيان وفي المجالس الشعبية المنتخبة ومجالس الأعيان والمجالس القومية العليا نجد بأنها كانت اجتماعات تراعى فيها القواعد الديمقراطية التالية:

١- السماح لكل من كان لهم حق حضور اجتماعات المجالس على اختلاف أنواعهم، كان يعطي لهم حق ابداء الرأي والتحدث بحرية كما كان لهم حق التعبير عن آرائهم بغض النظر عن مراكزهم أو مكانتهم الاجتماعية.

٢- حق اعتراض أي عضو من أعضاء المجالس أو التجمعات الشعبية مهما كان مركزه ومكانته على قرارات الأمراء (البشي) والتحمادات (الزعماء) كما كان لهم حق عدم تنفيذ القرارات أو حتى الانظمة والقوانين بما فيها العادات والتقاليد ما لم تصدر عن المجالس التشريعية المعتمدة.

٣- صدور القرارات بأغلبية الاصوات الحاضرين للاجتماع أو الجلسة.

وفيما يلي امثلة ونماذج من وقائع تاريخية، تؤكد مدى تمسك الشركاسة بمبدأ حرية التعبير، واستقلالية اتخاذ القرارات دون ضغط أو تأثير من الأمراء أو الزعماء أو الحكام نذكر منها الوقائع التاريخية التالية:

الواقعة الاولى:

المشادات الكلامية التي حدثت في الاجتماع الجماهيري الكبير الذي دعا إليه زعماء وقادة قبائل الشابسوغ والناخوج في تشرين الاول من عام ١٨٣٠، وكان طرفا المشادة هما انصار القادة المؤيدين للتبعية التركية، وانصار القادة المؤيدين للتبعية الروسية والذين كانوا ينادون بمبدأ العيش بسلام مع السلطات الروسية.

إلا أن ممثلي الفلاحين الحاضرين للاجتماع رفضوا الرأيين، ولم يتم اتخاذ قرار نهائي لتحديد التبعية لأي من الدولتين^(١٥).

الواقعة الثانية:

حاول بعض زعماء الناخوج، حل مسألة السماح بالتعامل مع الروس بالرغم من صدور قرار شعبي مقرون بالقسم والعهد بين شعوب القبائل الشركسية على معاقبة كل من يخرج عن الاجتماع والتعامل مع الروس دون موافقة الاجماع، حيث كان قد سبق أن أقر الزعماء من قبيلة الناخوج مبدأ قبول الخضوع لروسيا، بشرط ان تقوم روسيا بإزالة القلاع والتحصينات العسكرية عن اراضيها.. إلا ان رئاسة الاجتماع قررت عدم تطبيق هذا القرار حتى يتم عقد اجتماع شعبي للشراكية لبحث هذه المسألة المبدئية.

الواقعة الثالثة:

وهي واقعة تدل على مدى جرأة الشراكية من عامة الشعب في التعبير عن آرائهم في حضور الزعماء والحكام أو حتى القياصرة، وهي واقعة زيارة القيصر (الكسندر الثاني) لمناطق الإيزاخ في الوطن الام والذي وجه فيهم تهديدا باستخدام القوة ان لم ترضخ الشعوب الشركسية لحكم القيصر بقوله:

"عليكم الرضوخ لحكمي والا سترغمون على ذلك بالقوة". (كما سبق الإشارة) إليها

فما كان من احد حاضري الاجتماع وهو المعروف باسم (خاتر بي تسي) واسمه الحقيقي (لشه تسي) ان تقدم للامام عدة خطوات ووجه نظره إلى الحاضرين اولا ثم توجه إلى القيصر قائلاً كلاماً جريئاً وخطيراً تقتطف بعضاً منه:

الفقرة الاولى: إن ما سأقوله لن يتفق مع رغبته (ويقصد القيصر) ولن ينطبق على ما قاله".

الفقرة الثانية: "ان قيصر روسيا معجب بالقفقاس وحاربنا حرباً متصلة منذ اكثر من ستين عاماً لاحتلالها.... لكن نحن أيضاً نحب وطننا مثل حبنا لأمننا ونقدسه.. ومن واجبنا ان نحمي الوطن ارضاء لربنا واجدادنا.

الفقرة الثالثة: "ليست العادة ان تقال الحقيقة للملوك مباشرة، لكنني لا استطيع ان انكر حقيقة ان القيصر ليس صديقاً بل هو عدو لنا ولا يمكن مهادنته ابداً. انه ينادي ان نكون تحت حكمه، وانه ينادي بذلك عبثاً، وسيقاتل الشجعان الشركاسة وسيموتون رافضين العبودية، وإن قال بعض الضعفاء من أمثال (حاج يموقه)* كما يقوله القيصر.

وختم كلامه بقوله: "ايها الشجعان، الموت للمعتدين الغاصبين، والمجد للابطال ولتستمر جذوة الغزوات ضد الروس الاعداء

الواقعة الرابعة: وتتمثل برفض زعيم الابزاخ معاهدة الصلح المنفرد مع السلطات الروسية القصيرية، ورفع الامر إلى مجلس الشعب في منطقة الشابسوغ عام ١٩٣٨ وكذلك مواقف الزعماء الشركاسة المشاركين في مجلس الشعب ورفضهم لمعاهدة (أدرنة) التي وقعت سلطات تركيا مع روسيا، تنازل الاتراك بموجبها عن بلاد الشركس لروسيا القصيرية.. وهو الرفض الذي يعبر عن مدى تمتع الشركاسة عامة وزعمائهم خاصة بالجرأة في التعبير عن آرائهم ومواقفهم دون خوف، والمجاهرة أمام العالم بأرائهم ومواقفهم المبدئية، والتي تمثلت (بالبليان) الذي صدر عن زعماء الشركاسة عام ١٩٣٨، والذي سُمي (بوثيقة الاستقلال) نفتسب منها الفقرات التالية:

الفقرة الاولى: وتتمثل بالمجاهرة بكشف خيانة كل من سلطان تركيا، وملك إيران، وخداعهم للشركاسة بقولهم:

"إن مسلمي قفقاسيا يعتبرون الزعيم الديني و(ال خليفة) لجميع المسلمين وهو السلطان العثماني، وبالرغم من ذلك فقد ترك الشركاسة وحدهم وتمثلت خيانتهم ان احد باشاوات السلطان كان يفتح أبواب (انابا) لموسكو ليضمن صداقة الروس ضد الزعماء الذين هم اعداء السلطان كما أن باشا آخر خدع الشركاسة وهرب من بلادهم في منتصف إحدى الليالي. وحاول الشركاسة تقديم طلبات مساعدة للسلطان ولكنها قوبلت في كل مرة ببرود زائد، وبدون جواب شاف. وب نفس الطريقة طلبت المساعدة من الدولة المسلمة الاخرى (إيران) ولكن لم نحصل على جواب شاف. وأخيراً اضطررنا إلى طلب المساعدة من (محمد علي باشا الكبير) وإلى مصر وفعلاً حصلوا على الجواب الشافي والمقنع إلا ان بعد المسافة كان مانعاً أساسياً في تقديم المساعدة.

الفقرة الثانية: وتتمثل في انتقاد مواقف اكبر دولتين في العالم آنذاك بقولهم: "انجلترا وفرنسا، هما أقوى دولتين في العالم، فعندما كان الروس يأتون بقوارب صغيرة للصيد في بحر آزوف كانوا يطلبون المساعدة والسماح لهم بالصيد معنا، وكانت انجلترا وفرنسا دولتين قويتين في ذلك العهد. اننا لا نأمل من انجلترا وفرنسا ان يهتموا بشعب صغير مثل الشعب الشركسي، ولكن مما لا شك فيه بأن هؤلاء الاصدقاء الانكباء يعرفون أننا لسنا روسيا وعلمنا محدود ومداغنا محدودة وأن جنرالنا لم يتدربوا تدريباً عسكرياً حديثاً، وأن بلادنا لا تملك السفن، ولا يوجد فيها اغنياء كثيرون. فهم يعلمون ذلك ويعلمون اننا شعب مستقيم امين صادق، وإذا لم نحارب او نحاصر فنحن شعب نحب السلام. فهم يعرفون ايضاً اننا محقون في كرهنا للروس، واننا في معاركنا نهزمهم. لكل هذه الاسباب بدت دهشتنا واستغرابنا عندما علمنا ان هناك خرائط للعالم قد طبعت في اوروبا واطهرت ان بلادنا قطعة (جزء) من روسيا وهذا ما لم يخطر على بالنا مطلقاً.

* حاج موقه، كان المتحدث الاول في اللقاء وطلب الرضوخ لحكم القيصر وعدم معارضته.

الفقرة الثالثة: وتتمثل في فضح اهداف وغايات القياصرة الروس واساليبهم البربرية الوحشية في حربهم ضد الشركاسة بقولهم:

"إن تصرفاته الظالمة وعدم الوفاء بالوعود التي كان يقطعها، وكيف كان يحاصر بلدنا وكيف كان يقطع ويمنع عنا ما هو ضروري لحياتنا، ويضع العراقيل امام تجارتنا، وكيف كان يترك زعماءنا الذين يجب إطاعتهم بدون أية، وسيلة وكيف كان يقضي على قرى كاملة وقبائل بأكملها، وكيف كان ينظر إلينا وكأننا متاع خاص به، وكيف استطاع بأكاذيبه وحيله ان يظهرنا شعباً لا يستحق العيش، وأنا عبارة عن برابرة، وكيف اقنع بذلك كل من اوروبا والعالم المسيحي، حتى والعالم بأكمله. كلها حكاية طويلة إذا اردنا الدخول بتفاصيلها لن تكفيها المجلدات.

الفقرة الرابعة: وتتمثل بكشف اكاذيب وادعاءات القياصرة الروس بقولهم:

"ولكن نحن مستقلون وحرار ولا زلنا في حرب مع الروس والنصر لنا وأن ممثل الامبراطور الروسي قام باتصالات معنا لا ليعتذر عن حكومته التي قامت وطبعت خرائط تظهر فيها بأن شمال القفقاس قسم من بلاد القيصر، واننا عبارة عن عبيد في بلادهم، كما كانوا يوهمون اوروبا بأسرها، بل جاء ليتفاوض من اجل تبادل الاسرى واخراج (٢٠٠٠٠) جندي روسي محاصرين من قبل قواتنا.

تلك هي الحرية التي كان تتمتع بها الهيئات والمجالس والتجمعات الشركسية في التعبير عن آرائهم ومواقفهم الجماعية.

وأما بالنسبة لحرية التعبير على مستوى الافراد والاشخاص فإنها تمثلت بالحرية التالية:

* حرية الفتاة في اختيار شريك حياتها حتى وان كانت الاسرة بأكملها او احد افرادها معارضون زواجها من (الخطيب) وهو الذي يسمى باللغة الشركسية (بسه - لوخ) وفي هذه الحالة للفتاة حق تطبيق عادة أو نظام (الكواسه) وحسب هذه العادة تقوم الفتاة باتخاذ قرارها الارتباط مع الخطيب (البسه - لوخ) وفق قواعد وشروط اخلاقية وضوابط دينية وشرعية *

* حرية الشاب في اختيار شريكة حياته وهي نفس حرية الفتاة كما هو مبين اعلاه.

* حرية الفتاة استقبال أي شاب شركسي في بيتها وفق عادة (البسه - لوخ) كما ان لكل شاب حرية زيارة أية فتاة في منزلها في المناسبات الاجتماعية وفي الاعياد وفق ضوابط وقواعد دينية وائتلافية.

* حرية مشاركة كل من الفتاة والشاب الشركسي في أي حفلة (جوك) او غيرها من الحفلات شريطة التزامها بالعادات المرتبطة بمثل هذه الحفلات والنقيد بالاخلاق والسلوك السوي.

المبدأ الديمقراطي الرابع عند الشركاسة: هو "حرية اختيار او انتخاب رؤسائهم وأمرائهم أو إقالتهم وتحتيتهم عن الحكم

الدارس لبعض المراجع التاريخية يجد بعض المدركات الخاطئة والمتمثلة بأن زعماء وحكام الشركاسة كانوا يفرضون بالقوة أو أنهم كانوا يحكمون بالوراثة. إلا أن الحقائق المؤكدة تشير أن زعماء الشركاسة وامراءهم وحكامهم حتى القرون الوسطى كان يتم اختيارهم او انتخابهم من قبل المجالس الشعبية، وكذلك فإن امراءهم وزعماءهم في عهود تفشي الطبقية وظهور الارستقراطيين من الاغنياء فإن غالبية القبائل الشركسية كانت تختار او تنتخب رؤسائهم أو زعمائهم (التحمادات) وهم قبائل القسم الغربي من شمال القفقاس، أما شركاسة شرق شمال القفقاس وهم قبائل القبرطاي والجدوع والايخ كان يجب ان يحصل على موافقة اجماع مجالس الشعب التي كانت تصادق على تعيين أو اختيار الامراء.

* للاطلاع على قواعد وشروط عادة (الكواسه) يمكن الرجوع للمجلد الأول.

وفيما يلي بعض الحقائق حول هذا المبدأ:

الحقيقة الأولى:

يقول (نغموقة): كان يعتبر مجلس الشعب اعلى سلطة تشريعية لدى الأمة الشركسية في الوطن الام في القرن الثامن عشر الميلادي، ويشارك في اجتماعاته جميع طبقات وفئات الشعب جنبا إلى جنب مع الامراء والنبلاء والاعيان، وكانت احدى صلاحياتهم انتخاب (التحمادة) او (البشي) في القبائل التي كانت تطبق نظام المساواة وهو النظام الذي كان يعرف (بالنظام الشركسي الففقاسي) ومن أهم القبائل التي كانت تطبق هذا النظام هم الشابسوغ والابزاخ^(٨)، كما كان له صلاحية عزل ومحكمة الزعماء (التحمادات) إن اخطأوا أو تجاوزا صلاحياتهم.

الحقيقة الثانية:

تؤكد بعض المصادر التاريخية بأن الاعراف والتقاليد كانت تقضي بانتخاب (بشي جديد) في حال خلوه لأي سبب من الاسباب، ويتم الانتخاب من قبل (المجلس القومي العالي) وكان يشترط فيمن يرشح للرئاسة أو الإمارة ان يكون متصفا بالعقل الراجح والفكر الثاقب، شجاعا، مقداما، لا يهاب الكوارث، متمسكا بالتقاليد القومية، محافظا عليها، عاملا على تنفيذها ورعايتها.

فإذا توفرت هذه المزايا في الأمير المرشح فينتخبه المجلس القومي رئيسا وحاكما على القبيلة مدى الحياة وتسد إليه القيادة العامة في الحروب^(٩).

وكان على (البشي الجديد) اداء قسم يمين الاخلاص للقبيلة أمام المجلس العالي ويتعهد بأن: **يبتعد عن الظلم والاستبداد، ويقيم العدل بالقسط بين الناس، ويواصل العمل لما فيه المنفعة العامة للقبيلة وفائدتها، وأن ينفذ قرارات المجلس الاعلى كلما اجتمع واصدر قرارا، ويحافظ على التقاليد القومية (ادبغة خابزة) ويحترمها وينفذها.**^(١٠)

الحقيقة الثالثة:

يؤكد (جوناتوقة) بأن القبائل التي كانت تطبق نظام الوراثة في تولي الإمارة مثل قبائل القبرطاي والبجدوغ والابويخ، فإن انظمتها وعاداتها كانت تقضي أن يتم مصادقة مجلس الشعب على الأمير الذي كان يستحق الإمارة بحكم الوراثة (كالأبناء)، وأن الأمراء في مثل هذه الحالة لم يكن يصبحون أمراء بحكم الوراثة فقط، بل كان للمجالس حق رفض تولي من ليس هو اهل للإمارة، حيث كان يتطلب توفر شروط في شخصية الأمير الوريث مثل (رجاحة العقل، والشجاعة، والجرأة، عارفا للعادات الخابزه) ويتمسك بقوميته الشركسية، متواضع وغير متعجرف)، كما كان يحق لهذه المجالس عزل من لم تثبت جدارته في الحكم من الامراء (البش)^(١١).

نستنتج من كل ما تقدم من حقائق بأن الشراكسة في مختلف العصور ومنذ عصر الاجداد، فإنهم كانوا يختارون زعماءهم وحكامهم ورؤساءهم وحتى في عهد الطبقية، وفي ظل نظم الحكم الوراثة، كان للمجالس حق تعيين ورفض الامراء.

المبدأ الديمقراطي الخامس: ينص هذا المبدأ على شعبية وديمقراطية الامراء (البش) والرؤساء (التحمادات) وديمقراطيتهم في تعاملهم مع مختلف الطبقات والفئات من أمراء، وفلاحين، وتابعين (بشل) وخدم، ونستدل على مدى تطبيق هذا المبدأ الديمقراطي من قول احد المؤرخين: "وبالرغم من علو الامراء وقديسيتهم بصفتهن (حماة الشعب) وما فيها، كانوا يعاشرون بقية طبقات الشعب ويعاملونهم على قدم المساواة ويأخذونهم باللين واللفظ، دون أن يظهروا في حديثهم أو معاملتهم كبرياء أو غطرسة.

كما كان يسكن الامير مهما علا شأنه وعظمته بيتا لا يختلف كثيرا عن بيوت عامة الشعب والنبلاء، وطعامه لا يختلف عن طعام غيره، وكان للتابعين الحق في الدخول على بيت او مجلس اميرهم في أي وقت ومشاركتهم طعامه وشرابه اذا شاءوا ذلك.

وكذلك وبالرغم من كون الأمير الحاكم كان الأمر والناهي في قبيلته، فإنه لم يكن يملك املاكا واموالا كثيرة وبعضهم لم يكن يملك ما يكفيه لمعيشته وفي مثل هذه الحالة كان يحصل على ما يكفيه من الاموال والحاجيات الضرورية، من أتباعه دون مقابل، وفي نفس الوقت لم يكن الامير يبخل على اتباعه بشيء، فإذا رأى التابع مثلا عند (سيده) ملابس جميلة جديدا فله أن يطلبها لنفسه، وكان الامير لا يرد طلبه أو يبخل عليه بشيء مهما غلا ثمنه، لذلك كانوا يرتدون ابسط ما لديهم من الملابس فيضطرون إلى الظهور بملابس وهیئة لا يمكن التمييز بين الامير والنبيل او الرجل العادي، وكثيرا ما كان يلتبس على عامة الناس ويعتقدون النبيل اميرا والامير رجلا عاديا لبساطة ما كانوا يلبسونه. (١٠)

ثانيا: البعد التنظيمي للسياسي والإداري للدولة في حضارة الأمة الشركسية التراكمية

لا شك بأن البعد الاستقلالي الوطني هو من المكونات الأساسية لأية حضارة (قديمة كانت أم حديثة) وأنها مظهر من المظاهر الرئيسية للتقدم الحضاري لأي شعب أو أمة أو قومية من القوميات.

والشراكسة كأمة كانت من أوائل الأمم القديمة التي أولت اهتمامها للقضايا السياسية الداخلية والخارجية، بعكس ما ذهب إليها العديد من المؤرخين والمهتمين بالدراسات القوقازية عامة، والشراكسة خاصة، ويتضح ذلك من شرح الأديب الشركسي (أحمد مدحت) من شراكسة تركيا في كتابه (الكشوكول) المنشور عام ١١٩٥هـ بقوله:

"يجب ان لا تستولي علينا الدهشة حينما نعلم بأن الجراكسة كانوا بعيدين كل البعد في احكامهم وادارتهم عن "المطلقية الاستبدادية"، وبسبب ذلك كان نظام الحكم الاستبدادي او المطلق لا يجد بينهم مرتعا خصيبا ولا جوا ملائما. فلهذا كانت حكومة (الاشراف) شكلا من أشكال الحكومة الدستورية فعلا. والسبب الذي جعلنا لا نعوها دستورية بحتة هو ان التقاليد في الحكومات الدستورية تقضي بأن الملك ينتخب رئيس وزرائه والمسؤولين في الحكم. أما عند الشراكسة فإن الحاكم او الامير الكبير كان ينتخب انتخابا أو تنتقل إليه الرئاسة بالارث".

"وإذا قارنا هذه الطريقة بطريقة الحكم عند القبائل والعشائر التي تعيش على الفطرة والبداءة نجد أن حكام هذه القبائل كانوا يتمتعون بسلطة غير محدودة ويعتبرون مالكين لجميع ثروة القبيلة ولهم حق التصرف فيها من غير معارضة".

"أما عند الشراكسة فإنك تجد أن سلطة الأمير (البش) محدودة لا تتعدى قانون (الأديغة خابزة) وما عدا ذلك فإنه كان يستمد سلطته من مجلس الامراء والاعيان".

"وكذلك ثروته فإنها كانت محدودة لا تتعدى احتياجاته الشخصية".

"ولا يمكننا أن نطلق عليهم نظام الجمهوريات لأن الرؤساء والحكام كانوا ينتخبون ويتقلدون الحكم بالارث، ثم انهم كانوا خاضعين في كل احكامهم للشورى ولا يعزلون مدى الحياة إلا اذا خالفوا التقاليد".

وللتعرف على المكونات السياسية ومظاهرها ومحاورها لدى الأمة الشركسية منذ عصر الاجداد ابتداء من الالفية الثانية ما قبل الميلاد، وحتى الالفية الثالثة ما بعد الميلاد، كان لا بد من الرجوع إلى ما كتب حول هذا الموضوع من قبل مؤرخين وباحثين ورحالة متخصصين، خرجت منها بحقائق مؤكدة تفيد بأن الدولة عند اجداد الشراكسة نشأت منذ الالفية الثانية ما قبل الميلاد وانها تطورت حتى وصلت إلى مفهوم (دول متحدة) لها حكومات، ورئاسات، وانها في تطورها هذا قد مرت بست مراحل زمنية وهي على النحو التالي:

في المرحلة الاولى: نشأة مفهوم الدولة لدى الأمة الشركسية.

وفي المرحلة الثانية: تكون اول دولة مستقلة في تاريخ اجداد الشراكسة.

وفي المرحلة الثالثة: تكون عدد من الحكومات والدول في الفترة ما بين القرن الاول للميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي.

وفي المرحلة الرابعة: تكون عدد آخر من الحكومات والدول في الفترة ما بين القرن الثالث وحتى القرن الثامن الميلادي.

كما تكونت في المرحلة الخامسة: عدد من الحكومات والدول والاتحادات خلال الفترة ما بين القرن التاسع وحتى القرن السابع عشر الميلادي.

وفي المرحلة السادسة والأخيرة: حاول القادة والرؤساء والامراء الشركاسة لتكوين حكومات وتشكيل اتحادات بين القبائل الشركسية في الوطن الام في القرون الثلاثة الاخيرة (الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين)

وفيما يلي دراسة لكل مرحلة من المراحل الست السابقة.

المرحلة الاولى: نشأة مفهوم الدولة لدى الامة الشركسية

بالرغم من محاولة حكومات روسيا القيصرية ومن خلال الكتاب المأجورين او الكتاب المخدوعين في الترويج لفكرة استعمارية حاكمة، وهي ان القفقاسيين كانوا مجرد قبائل وعشائر لا رابط بينها وأنهم من سكان الجبال المتوحشين، والهمجيين وغير المتحضرين، وأنهم حفنة من المشاغبيين (والزعران) يجب تأديبهم^(٤٨).

وبالرغم من كل محاولات التشويه والاساءة للقوقازيين عامة والشركاسة خاصة، فإن بعض الكتاب والمؤرخين الروس امثال (ب. ب. بتروفسكي) الباحث في الدراسات السوفيتية ومؤلف كتاب تاريخ القفقاس الشمالي^(٤٩) وكذلك الكاتب (ف. ف. تورنشيانتيوف) مؤلف كتاب (ذهب الكوبان) وكتاب (اكتشاف وفك رموز الكتابات القديمة)^(٥٠) يؤكدون بأن قفقاسيا الشمالية كانت بلادا متطورة اقتصاديا، وان شعوبها كانت اصحاب حضارة ومدنية متقدمة منذ الالف الثالث قبل الميلاد وأنهم هم بناء حضارات مايكوب والكوبان، وغيرها من الحضارات، وكذلك هم أول من كونوا امبراطورية اتحادية في القفقاس وهو ما عرف (باتحاد الكيمريين) في فترة ما قبل القرن الثامن قبل الميلاد الذي شارك فيه اجداد الشركاسة من شعوب (الميثوت والسند والتوربت والداندار) وغيرهم من سكان ساحل البحر الاسود والجزء الغربي من القفقاس الشمالي.

وظل هذا الاتحاد قائما حتى نهاية القرن الثامن ق. م وإلى حين قدوم قبائل (السكيت) من آسيا عن طريق الساحل الشرقي للبحر الاسود (حيث كان يسكن اجداد الشركاسة) وطردت شعب (الكيمريين) وواصلت زحفها حتى وصلت بلاد القفقاس الشمالية حيث لقوا مقاومة عنيفة، إلا ان قوات (السكيت) المتوحشة حسب قول (بتروفسكي) استطاعت هدم العديد من قرى اجداد الشركاسة وحرق المزروعات ونهب الممتلكات والقضاء على (الاتحاد الكيمري) حتى تناقص عدد السكان الاصليين تناقصا مفعجا وكبيراً، وأن قسما من الشركاسة، اجبروا على الاندماج مع المجتمع (السكيتي) والانخراط بقواتهم خوفا من بطشهم ووحشيتهم^(٥١).

المرحلة الثانية: وفيها تكونت اول دولة مستقلة في تاريخ اجداد الامة الشركسية

حيث تشير بعض الدراسات بأن أول دولة شركسية تشكلت في التاريخ كانت (دولة السند)، وكان ذلك في الالفية الثانية قبل الميلاد، كما تأسست في نفس المرحلة دولتان أخريان بمشاركة شعبي (الكاسوغ والزيك) أو (الزيخ) كما تشكلت دولة متحدة باسم اتحاد شعوب (المه - وت) أو جامعة (المأ وت) وشارك في تكوينها (٢٥) قبيلة من قبائل اجداد الشركاسة^(٥٢).

ومع نهاية القرن الاول ما قبل الميلاد ومع مطلع القرن الاول وبعد الميلاد تشكلت دولة خامسة للأمة الشركسية، حسبما ما اشار إليه الجغرافي اليوناني (سترابون) الذي عاش من عام (٦٢) قبل الميلاد وحتى عام (٢٠) ما بعد الميلاد، حيث أشار بأن شعب (الكركيوتين) شكلوا حكومة قائمة على النظام الطبقي^(٥٣).

نستنتج مما تقدم بأن القفقاسيين عامة و اجداد الشركاسة خاصة كانت لهم دولة بل امبراطورية اتحادية منذ منتصف الالفية الثانية قبل الميلاد أي قبل أكثر من ٢٥٠٠ سنة من تاريخ تأسيس الدولة الروسية.

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة التي تكونت فيها دولة "اللان" بمشاركة معظم قبائل "الاديغة" في الفترة الممتدة من القرن الأول الميلادي إلى القرن الثالث الميلادي. حيث تؤكد الدراسات بأن

شعب (اللان) وهم أجداد الاستين استطاعوا في القرن الأول الميلادي من انشاء دولة لهم شاركت فيها معظم قبائل (الاديغة) في شمال القفقاس، كما أن بعض قبائل (الاديغة) ظلت ضمن اتحاد دولة البسفور اليونانية، بينما قسم ثالث منها رفض المشاركة مع حكومة دولة (اللان) أو البقاء مع اتحاد دولة البسفور، وانشأت لنفسها حكومة شبه فيدرالية، إلا أن قبائل (القوط) التي انحدرت من البلاد الاسكندنافية ونزحت إلى منطقة القفقاس واستوطنت حوض نهري الفولجا والدون وشمال البحر الاسود غزت بلاد (اللان) وقضوا على اغليبيتها في القرن الثالث الميلادي وواصلت زحفها إلى مناطق شمال قفقاسيا، حيث كان يعيش اجداد الشراكسة، وقتلوا العديد منهم ودمروا قراهم وحرقوا مزارعهم، وكان من اكثر المعارك شراسة هي المعركة التي حدثت في عهد ملك الهون (أتيل) وهي المعركة التي عرفت بمعركة (داو) قتل فيها ابناء (داو) الثمانية وقامت اختهم الوحيدة التي ظلت على قيد الحياة بجمع جثث اشقائها الثمانية ودفنتها بالقرب من نهر (ايتوقو) وكلفت (نحاتين) يونانيين لنحت تمثال لهم، ولا زال هذا التمثال قائما حتى وقتنا الحاضر.

والجدير ذكره هو ان ذكرى هذه المعركة وغيرها من الغزوات الهمجية التي قام بها قبائل (القوط والهون) يذكرها الشراكسة في الوطن الام، وفي المهجر، حتى وقتنا الحاضر، ويعبرون عن وحشيتهم بالمثل الذي ما زال متداولاً بين الشراكسة حتى اليوم وخلصته بأن (الأرض التي مر منها جيش الهون لا ينبت فيها زرع لمائة عام) (٥٤).

المرحلة الرابعة: وهي المرحلة التي استعادت فيها الأمة الشركسية حيويتها ونشاطها وبتشكيل دولة زيخيا الفيدرالية، تؤكد الدراسات بأنه

تشكلت مع مطلع القرن السادس الميلادي دولة جديدة سميت بدولة (زيخيا- الفيدرالية) وهم اجداد الاويخ شاركت فيها جميع القبائل في شمال قفقاسيا التي كانت تعيش في المنطقة الممتدة ما بين شبه جزيرة تمان وحتي جنوب مناطق الابخاز، واستمر حكم هذه الدولة قويا ومستقلا حتى نهاية القرن الثامن الميلادي.

انتهى حكم (دولة زيخيا) مع نهاية هذا القرن بسبب الخلافات التي حدثت بين القبائل المشاركة فيها، واندمجت مع الدولتين الحديثتين اللتين ظهرتتا في القرن التاسع الميلادي وهما:

الدولة الأولى وهي دولة (ابشوا) وهم أجداد الابخاز وتشكلت في القسم الجنوبي من شمال غرب القفقاس.

وأما الدولة الثانية فهي دولة (القاسوغ) وهم اجداد (الاديغة) وتشكلت على ضفاف نهر الكوبان في القسم الشمالي من غرب القفقاس (٥٥).

المرحلة الخامسة: وهي المرحلة الممتدة من القرن العاشر وحتى القرن السابع عشر الميلادي:

قام الامير (ينال) الجد الاكبر لأمرء قبائل القبرطاي في القرن العاشر الميلادي بتشكيل حكومة مركزية، وقام بأعمال عظيمة وجريئة تمهيدا لتوحيد شعب القبرطاي والابخاز نذكر منها الاعمال التالية:

١- مطاردة الأشقياء من الامراء الشراكسة الذين عصوا اوامره وخرجوا عن طاعته، ونشروا الفساد في البلاد، وقاموا بإحداث الشغب ونشر الفتن بين عامة الشعب.

٢- صد هجمات الامراء الشراكسة الخارجيين على القانون والهاربين إلى الغابات والمعتصمين بأعالي الجبال الوعرة، حيث قام الامير بمهاجمة معاقلهم وقضى عليهم وعلى اتباعهم، وألقى القبض على ثلاثين من قادتهم وزعمائهم وأعدم عشرة منهم وأجبر الباقيين على أداء يمين الطاعة والولاء.

٣- تأديب السكان الجبليين الجنوبيين الذين أعلنوا العصيان والتمرد على قيادته بزعامة الامير (أوزدنيير) وقتل عدداً من المتمردين العاصين الذين اعتبروا خارجين على القانون.

استطاع الامير (ينال) بعد القضاء على الفساد والمفسدين في البلاد، من توحيد قبائل القبرطاي والابخاز وتأسيس (دولة) شركسية مزدهرة عم فيها الخير والرخاء، وأقام فيها (٤٠) حاكماً من القضاة وكلفهم بإدارة البلاد وتسيير دفة الحكم فيها بعدل واستقامة ونزاهة.

وبعد انجازه هذه الاعمال العظيمة لقب الامير ينال (بالامير العظيم) واطلق عليه بعضهم بالأمير (الحكيم) تقديرًا لأعماله الجليلة وحمايته للنظام، ونشره للأمن والاستقرار في طول البلاد وعرضها، وفي آخر أيام حكمه كافأه شعبه على جمعه شمل البلاد وتوحيد كلمتها وقيامه بالاعمال الصالحة بإطلاق لقب (ينال القديس) عليه. (٥٦)

مات الامير (ينال) في بلاد الابخاز مودة الرجل العظيم، بعد أن وحد البلاد وعقد صلحاً مع الابخاز الذين انضموا لحكمه قبل وفاته بوقت قصير، ودفن فيها، وقبره موجود حتى اليوم هناك ونقشت عليه عبارة (هذا قبر ينال)، وما زال الشعب يحيي ذكره ويترحم على أيامه وعهده، ويقولون "ليت عهد ينال يعود إلينا يوماً" (٥٧). كما يتذكرون قوله المشهور: (لا يمكن لطوابسة وهي المنطقة الممتدة ما بين البحر الاسود وبحر الخزر ان يكون فيها غير ملك قفقاسي واحد).

تزوج الامير ينال في حياته ثلاث نساء، ورزق منهن خمسة من الاولاد وهم (جانخوت Janchot) من امرأته الاولى و (منبولات Minbolat) وبسلان (Besslan) من الثانية، و (أونارمس Unarmess و قرغيش Kirgish) من امرأته الثالثة.

ويقول (نغموقة) بأن "احداً من ابنائه الخمسة لم يتصف بصفات ابيه الذي اشتهر بالحكمة وحب الشعب له، وانهم لم يحرزوا في حياتهم شهرة ما ولم يأتوا بعمل يذكر، بل كانوا عاجزين كل العجز عن تسيير دفة الحكم في البلاد الواسعة التي تولوا ادارتها بحكم الوراثة" كما يقول:

"ان طيشهم وحمافتهم وانصرافهم للتنافس فيما بينهم، واثارة الفتن ونشر الشقاق بين ابناء الشعب الواحد وبين زعمائهم، ادت إلى ضياع جهود والدم العظيم الامير (ينال) فاضطربت الاحوال، وانعدم الاستقرار، وانتشر الفساد، وانقسم الشعب على نفسه وظهرت الفرق والاحزاب، وكانت النتيجة ان انقسم شعب القبرطاي إلى (ثلاثة فرق)، فاستوطن الفريق الاول على الضفة اليسرى من نهر الكوبان، والثاني هاجر واستوطن اقليم (كمركوي) أما الفريق الثالث فوصل إلى بلاد القبرطاي واسسوا ثلاثة اقاليم وهي اقليم قبارطاي و اقليم بسلني و اقليم مزدوك (٥٨).

وفي نهاية القرن العاشر وابتداء من عام ٩٥٧م تشكلت قيادة مشتركة لاتحاد شمال القفقاس لمقاومة محاولات توسع دولة الخزر نحو الجنوب، ومنعهم من بسط نفوذها على بلاد (الشركس) حتى اضطرت لمواجهتهم بجيش شركسي مشترك. تمكنوا احتلال عاصمة دولة الخزر (سرقلة) واطلقوا سراح الامير (الجوقة) أمير القبرطاي الذي سبق أسره في معارك سابقة. واستولت القوات الشركسية بمشاركة (خانات التتر) الذين كونوا حلفاً مع الشركس ضد جيوش (الخزر). وعادوا إلى البلاد بغنائم كثيرة من أموال وممتلكات وقطعان من الماشية.. الخ.. الامر الذي خفف من وطأة المجاعة التي حلت ببلاد الشركاسة بعد الغزوات والحروب الهمجية السابقة مثل هجمات (الهون والوار والقوط).

وكذلك فإن الحروب التي قامت ضد جيوش (جينكيز خان) المغولية التي بدأت في عام ١٢١٤ ثم غزوات (الجيش الذهبي) ومن بعده الهجمات البربرية لجيوش (تيمورلنك وهولاكو) التترية التي وصلت بلاد الشركاسة عام ١٣٩٠ وقامت باحتلال بلادهم، وحرق القرى الشركسية، اضطروا معها إلى الفرار والالتجاء إلى المناطق الجبلية حتى عام ١٤٠٢م. (٥٨)

وكننتيجة مباشرة لاستمرار الغزوات والهجمات والحروب المدمرة فإن الأمة الشركسية لم تتمكن من مواصلة الحياة المدنية الاعتيادية خلال الفترة من القرن الثاني عشر وحتى القرن السابع عشر، وتعتبر هذه الفترة من أكثر الفترات في حياة الأمة الشركسية ضعفا وتفككا وتشتتا لعدة اسباب منها:

اولا: المنازعات والخلافات التي حدثت بين امراء الشراكسة في مختلف المناطق عامة ومختلف قبائل القبرطاي والاديجة والابخاز والابوخ خاصة.

ثانيا: وحشية الحروب والغزوات التي تعرضت لها الأمة الشركسية في هذه الفترة من جيوش المغول والتتار والاور والخزر.

المرحلة السادسة وهي المرحلة الممتدة من منتصف القرن السابع عشر وبالتحديد ابتداء من عام ١٦٤٥.

ساد نوع من الهدوء النسبي على جميع الجبهات الروسية، والتركية، وخانات القرم، أشبه ما تكون بحالة هدنة غير متفق عليها حيث بادر زعمائه الشراكسة إلى عقد سلسلة من الاجتماعات، ضمت الامراء والنبلاء والوجهاء ورؤساء العائلات الكبيرة في الوطن الام، بهدف تقييم الاوضاع العامة في عموم بلاد الشراكسة، واستغرقت المداولات سنين عديدة، نظرا لاتساع رقعة البلاد واختلاف الاجتهادات، حول المسائل المطروحة للبحث. وفي النهاية اتفقوا على ضرورة التوحد، في سبيل الدفاع عن حرية واستقلال البلاد وكان حامل راية الدعوة إلى التوحيد شاب يتصف بالحماسة الشديدة والعقلانية في آن واحد، يدعى "قازان يوقه جباغي" حيث كان قد اختير هذا الشاب ليكون مربيا (أتلق) للأمير الصغير (اسلان قايتوقه) وغرس المربي الحكيم في نفس تلميذه كل المبادئ السامية التي كان يعمل من اجل تحقيقها. وكان لا بد لهذا الغرس المبارك من ان يأتي أكله، حيث تم انتخابه حاكما عاما على منطقة القبرطاي (قباردا) وكرس وقته كله، خلال الفترة الاولى من حكمه - لاصلاحات الداخلية حيث وحد في البداية، كل الامارات والولايات الشركسية وقد بلغ عددها (اثنتي عشرة) امارة، ثم عمل على نشر الأمن والسلام في المناطق المتاخمة لحدود دولته. وفي عهده ازدهرت التجارة والزراعة، وانتعشت الصناعات التقليدية مثل صناعة السجاد والملابس والاسلحة والاثاث وغيرها من الصناعات اليدوية التي كانت تصدر إلى تركيا وبريطانيا وايطاليا بالإضافة إلى تصدير كميات كبيرة من الاخشاب والعسل والخيل إلى تركيا والقرم. واختار (جباغي) ليكون مستشارا له، حيث قام بتحديث (الخابزة) وتحديث القوانين، فحذف منها ما لم يعد صالحا او مواكبا للعصر، و اضاف إليها عادات جديدة تتناسب مع أحكام الدين ومتطلبات عصره.

وانشأ الأمير قايتوقه ثلاثة انواع من المحاكم في بلاد القبرطاي وهي: "١- محكمة البداية ويرأسها قاض مشهود له بالنزاهة والمعرفة بالقوانين والعادات والتقاليد، وعضوية اثنين او ثلاثة اشخاص من الحكماء، يتم انتخابهم من قبل اهالي المنطقة. ٢- المجلس العالي ويرأسه المستشار نفسه. ٣- المجلس القومي الأعلى. ويدعى أيضا مجلس الاعيان ومن اختصاصه النظر في القضايا القومية القضائية الكبرى، مثل محاكمة الأمراء والامير الحاكم نفسه.

كما تم تنظيم الإدارة المحلية بتقسيم البلاد إلى مقاطعات وبلديات (أول) ويدير كل مقاطعة أمير من طبقة (لي قوه لي أش) (الامير النبيل المحارب) وكما كان يدير البلديات وزراء تنفيذيون من طبقة ورق.

واعتبر المؤرخون بأن فترة حكم الامير (اسلان قايتوقه) ومستشاره (جباغي) من أزهى الفترات التي مرت في القفقاس الغربي منذ قرون عديدة. ولا زالت التماثيل الحجرية التي اقيمت تخليدا لاسم هذا المصلح الشركسي العظيم (قازان يوقه جباغي) قائمة حتى الآن في ساحات مدن جمهورية كبادينا بلقاريا وجمهورية الاديجة.

المرحلة السابعة: وهي المرحلة التي حاول فيها القادة والرؤساء والامراء تكوين اتحادات في الوطن الأم ابتداء مع نهاية القرن الثامن عشر حيث حاول زعماء وأمراء الشراكسة أكثر من (١٢) محاولة تشكيل اتحادات شركسية بين الشعوب القفقاسية عامة والشركسية منها خاصة في القرون

الثلاثة الاخيرة (الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين) وبالتحديد في الفترة ما بين ١٧٩٠ وحتى عام ١٩٨٩ وهو العام الذي انهار فيه الاتحاد السوفيتي وقيام دولة شمال قفقاسيا الاتحادية.. وفيما يلي أهم المحاولات التي حدثت في هذه الفترة:

المحاولة الاولى: في عام ١٧٩٠.	المحاولة السادسة: في شهر حزيران من عام ١٨٦١.
المحاولة الثانية: في عام ١٨٠٣.	المحاولة السابعة: في شهر تشرين ثاني عام ١٨٦١.
المحاولة الثالثة: في عام ١٨٣٩.	المحاولة الثامنة: في عام ١٨٦٢.
المحاولة الرابعة: في عام ١٨٤١.	المحاولة التاسعة: في عام ١٨٦٣.
المحاولة الخامسة: في عام ١٨٤٨.	

المحاولة العاشرة: وتمت خلال الاعوام ١٨٧٢، ١٨٧٣، ١٨٧٤ في عهد الاستعمار الروسي القيصري.

المحاولة الحادية عشرة: وبدأت في يوم ١٥/٣/١٩١٧ وفي اعقاب اعلان تنازل القيصر عن سلطاته الدستورية وقيام الثورة البلشفية وقضى عليها الجيش الاخر عام ١٩٢٥.

المحاولة الثانية عشرة: وبدأت يوم ٢٥/٨/١٩٨٩ على إثر انهيار الاتحاد السوفيتي وانتهت في عام ١٩٩٤.

وفيما يلي تحليل موجز لكل محاولة من المحاولات الاحدى عشرة التي حاول فيها قادة وزعماء شراكسة الامة الشركسية وشعوبها لتشكيل حكومات واتحادات تضم شعوب الامة الشركسية في الوطن الام خلال القرون الثلاثة الاخيرة وعلى النحو التالي:

المحاولة الاولى: بدأت في عام ١٧٩٠ اولى المحاولات لتشكيل اتحاد بين شعوب القفقاس عامة حيث كانت خطة زعماء وقادة الشراكسة هو الاتحاد مع الشعوب القفقاسية الموجودة في الداغستان بقيادة الشيخ (منصور) ولتنفيذ هذه الخطة كان لا بد من مهاجمة القوات الروسية المراقبة على الضفة الشمالية من نهر الكوبان، وفعلًا قامت القوات الشركسية المشتركة مع القوات التركية من السيطرة على ارض المعركة، وتراجعت القوات الروسية إلى ما وراء الكوبان، ولكن وفي الوقت الذي كانت فيه القوات الشركسية على وشك انزال الضربة النهائية للقوات الروسية المنهزمة، أمر الوالي التركي (بطل باشا) ايقاف المعركة فوراً لكن قادة الشراكسة رفضوا ذلك.. إلا أن الخائن التركي (بطل) أصر على ايقافها في اكتوبر عام ١٧٩٠.. وتقول الوثائق التركية بأن هذا الوالي التركي الخائن سرق (٨٠٠) كيس من الذهب في ذلك الوقت ولجأ إلى روسيا، كما تقول تلك الوثائق أيضاً لو سمح للقوات الشركسية متابعة فلول الجيش الروسي على الضفة الشمالية لنهر الكوبان لخرجت جميع القوات الروسية من شمال القفقاس، ولاستطاعت تحقيق وحدة شعوب شمال القفقاس التي بدأت بزعامه (الامام منصور) في كل من القبرطاي والداغستان والشيشان وكان من نتائج هذه الخيانة وقوع الامام منصور في الأسر عام ١٧٩١ والقضاء على فكرة وحدة شعوب القفقاس. (٦٢)

المحاولة الثانية: اتحدت في عامي (١٨٠٣-١٨٠٤) القوات القفقاسية الشمالية في المنطقة الساحلية، حيث كان قادة الاوبيخ يصدون هجوما روسيا.. وفي الجنوب كانت قوات الاستين والابخاز جاهزة لصد أي عدوان يمكن ان يأتي من جورجيا التي كانت في حلف مع روسيا.. أما القوات الداغستانية والشيشانية والاديغة فكانت تواصل الحرب في الشمال وتدمر القوات الروسية. إلا أن الوباء الخطير الذي ظهر في بلاد الاديغة اولا وانتشاره في جميع مناطق شمال القفقاس عام

(١٨٠٤) ثانياً، أدى إلى توقف هذه القوات وتوقف اتحادها بعد أن قضى على معظم سكانها وأصبحت قرى بأكملها بدون سكان.*

المحاولة الثالثة: عقد في عام ١٨٣٩ مؤتمر شعبي كبير في منطقة الشابسوغ حضره معظم زعماء وامراء القبائل الشركسية الأخرى، وأصدروا بياناً رداً على معاهدة (أدرنة) التي وقعت بين تركيا وروسيا، تنازلت تركيا بموجبها عن بلاد الشراكسة إلى روسيا القيصرية وهو البيان الذي سُمي (بوثيقة الاستقلال) الموقعة من قبل امراء الشراكسة الاتحاديين.

وتكونت الوثيقة من خمس صفحات من الحجم الكبير، وارسلت إلى رؤساء وملوك وحكومات الدول الأوروبية الغربية وبعض الدول الآسيوية، وكان الهدف الأول من اصدار (البيان) هو الاعتراض على معاهدة (أدرنة) الموقعة عام ١٨٣٨ بين الاتراك وروسيا أولاً، وفضح الأساليب الوحشية التي تستخدمها الجيوش القيصرية في حربها ضد شراكسة الوطن الأم للعالم أجمع ثانياً^(٦٤).

المحاولة الرابعة: قامت في عام ١٨٤١ شعوب (الأوبيخ والشابسوغ والحاتقوي) بتشكيل اتحاد فيما بينهم، وعلنوا الجهاد المقدس ضد الروس وخاضوا (٨٨) معركة ضد القوات الروسية القيصرية الغازية في الفترة ما بين ١٨٤١ و ١٨٤٦، بالرغم من تحالف بعض الامراء الابخاز (الخونة) من امثال الاميرين (احمد اوبلا وقاش زورا) مع روسيا بعد ان أديا قسم الولاء والطاعة والصدقة لها.

المحاولة الخامسة: عين في عام ١٨٤٨ الشيخ شامل (محمد أمين) نائباً (ممثلاً) له لدى الابزاخ والناخواي ليثبت للعالم حقيقة بأن جميع القوميات في شمال القفقاس عبارة عن وحدة سياسية متكاملة فعلاً، بالرغم من فشل (شامل) في ضم شراكسة غرب القفقاس إلى الاتحاد الذي شكله منذ عام ١٨٤٦. واحتل الروس شمال شرقي القفقاس يوم ١٤ ايار عام ١٨٥٩^(٦٤).

وبقيت مناطق الابزاخ والشابسوغ والحاكوج والأوبيخ وقسم من البزادوغ خارج سيطرة الروس حتى عام ١٨٥٩. كما أن أعداداً كبيرة من المناطق الشركسية التي وقعت تحت الاحتلال الروسي هاجرت إلى هذه المناطق، فزاد عدد سكانها وأصبحت معيشتهم صعبة للغاية، بعد أن دمر الروس قراهم وحرقوا مزارعهم وأتلفوا المواد التموينية لديهم، فظهرت المجاعة في بعض المناطق، وانتشرت الأمراض المعدية في مناطق أخرى واتبع (محمد أمين) نفس خطى سيده (شامل) واستسلم للروس عام ١٨٥٩ بالرغم من معارضة مجلس الشعب الشركسي فكرة الاستسلام باعتبارها نوعاً من (الانهزامية).

المحاولة السادسة: عقد في اليوم الثامن عشر من الشهر السادس من عام ١٨٦١ زعماء الأوبيخ والابزاخ والشابسوغ مؤتمراً كبيراً في وادي نهر (سوتشي) وقرروا تأسيس (اتحاد شعوب ما وراء الكوبان) وشكلوا مجلساً وطنياً، واتخذوا القرارات التالية:

١- ارسال بيانات إلى جميع الدول الأوروبية لاطلاعهم على آخر الأوضاع في القفقاس، واحتوى البيان على القرارات التالية:

- إعلان يوم ١٣ حزيران ١٨٦١ يوم الاستقلال لدى الشراكسة.
- انتخاب مجلس لعموم الشراكسة في الوطن الأم باسم **المجلس الوطني الشركسي**.
- تشكيل وحدة في جميع مناطق شمال القفقاس، وكل من يحاول الانفصال عن هذه الوحدة سيعاقب أشد العقاب.
- انتخاب مجلس وطني بطريقة الاقتراع السري مؤلف من (١٥) شخصاً سمي المجلس المستقل لبلاد الشراكسة.

* وهو الوباء الذي اطلق عليهم الشراكسة (بمنه وز) حيث أدى هذا الوباء إلى هجرة اعداد كبيرة من الادبغة إلى المناطق القفقاسية الأخرى، كما أدى إلى موت مئات الألوف وان عددهم انخفض بعد (٨٠) عاماً من انتشار هذا الوباء إلى اقل من نصف عددهم في عام ١٧٤٠ وان انخفاض عدد سكان الشراكسة في تلك الفترة تعود إلى ثلاثة عوامل أولها الوباء وثانيها الهجرة وثالثها الحروب المدمرة^(٦٥).

٢- تقسيم البلاد إلى (١٢) منطقة وتعيين قاضٍ ومفتٍ ومختار وضابط أمن في كل منطقة وتكليفهم بتطبيق قرارات المجلس والقيام بجباية الضرائب من خلال توظيف (خمسة خيالة) لكل مئة منزل، وتخصيص هذه الضرائب لصرفها بعدالة وبمعرفة أعضاء المجلس الذي يعتبر ممثل قفقاسيا الحرة في إدارة شؤون البلاد على أحسن وأكمل وجه.

٣- الطلب من انجلترا المساعدة في حربهم ضد روسيا القيصرية، لعلمهم أنها الدولة الوحيدة التي كان يمكن أن تؤثر على السلطان العثماني والقيصر الروسي.

لم تصل أية مساعدة من أية دولة وربما المساعدة الوحيدة التي وصلت كانت من (الشعب البولوني) الذي كان يرى في استمرار الحرب القفقاسية وانتصار القفقاسيين دعماً لحركتهم في سبيل الخلاص من الاستعمار الروسي. حيث شكلوا لجائناً بهدف تقديم المساعدة للشعب الشركسي، كما قام الجنود والضباط البولونيون بالهروب من الجيش الروسي والانضمام إلى القوات القفقاسية، وقد تمكنوا من تهريب الأسرى الشراكسة الموجودين لدى الجيش الروسي حسبما ذكرت المراثي الشركسية. (٧١)

٤- اعتماد العلم الوطني الذي يرمز لوحدة شعوب ما وراء الكوبان، المصنوع من الحرير الأخضر ومرسوم عليه ثلاثة أسهم متقاطعة وحولها (١٢) نجمة، بالأسهم الثلاثة ترمز للعائلات الأقدم بين الأديغة وهي (زان-آيتيك-بولوتوق)، كما ترمز النجوم الأثنتي عشرة للقبائل الأثنتي عشرة الشركسية التي انضمت للاتحاد (٧٢)

٥- الطلب من الجنرال الروسي قائد القوات توقف قواته الروسية عند نهر (فارس) وكان جواب (الجنرال) المتعجرف "أنني لا أطلب من الأبراخ الجيرة الحسنة والمسالمة بل أطلب منكم الاستسلام دون قيد أو شرط".

واستطرد قائلاً: "لن أوقف الهجوم حتى يرحل آخر شركسي إلى الأمكنة التي أحدها أنا" فأدرك زعماء شراكسة ما وراء الكوبان عامة وزعماء الأبراخ خاصة مدى خطورة الموقف، فأرسلوا وفداً (للقيصير اسكندر الثاني) وأعلموه بأن الأبراخ جميعهم من الكبار والنساء والأطفال والشباب يقبلون التبعية الروسية ويطلبون منه البقاء في أراضيهم... إلا أن جواب القيصير كان أكثر حدة وتشدداً من الجنرال حيث قال: "اعطيكم مهلة شهر للتفكير.. وبعد الشهر يجب أن تعطوا للأمير "بفيديكوف" جواباً بأنكم ترغبون في الرحيل إلى الأماكن المحددة لكم على نهر الكوبان أو الرحيل إلى تركيا". (٧٢)

المحاولة السابعة: عقد في نفس العام وبتاريخ ١٨/١١/١٨٦١ اجتماع لممثلي اتحاد شعوب ما وراء الكوبان الذي تأسس يوم ١٣/٦/١٨٦١ في مكان اسمه (حم جة تي) قرب (مامروقة جي) على مسافة ٣٥ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من مايكوب (وتوجد فيه اليوم قرية روسية) حيث كان هذا الموقع مخصصاً لعقد اجتماعات الأبراخ. (٧٩) حضره ممثلو المجلس الذي شكل في "سوتشي" في شهر حزيران من سنة ١٨٦١، وكان يضم ممثلي جميع شراكسة غرب "القفقاس"، وكان هذا المجلس عبارة عن برلمان (حسب مفاهيم اليوم) أطلقوا عليه اسم (الاجتماع الكبير من أجل الحرية).

وعقد الاجتماع برئاسة السيد "حاج برزج" رئيس المجلس، تم في نهايته إرسال مطالب المجلس إلى القيصير والتي تضمنت (١) وقف الحرب، (٢) عدم احتلال أراضي الشراكسة، (٣) الكف عن اسكان الروس فيها. (٤) عدم محاولة فتح الطرق داخل الأراضي الشركسية، (٥) التوقف عن انشاء الحصون العسكرية. (٧١) إلا أن السلطات الروسية لم تستجب لهذه المطالب.

المحاولة الثامنة: عقد في عام ١٨٦٢ عقد اجتماع شعبي كبير، وكان من اكبر الاجتماعات الشعبية التي عقدت حتى تاريخه، وتم فيه تأسيس (المجلس الشركسي الحر الأعلى) حضره ممثلو القبائل الشركسية جميعها، وكان من اهدافه حشد قوى الشراكسة في شمال القفقاس ضد قوات روسيا القيصرية الغازية، وأرسل وفد إلى استانبول للمطالبة بالحماية والمساعدة الحربية كما أرسلوا وفوداً أخرى إلى كل من لندن وباريس (٧٢) لنفس الهدف.

المحاولة التاسعة: عقد في عام ١٨٦٣ في استانبول اجتماعا تقرر فيه تأسيس (المجلس الوطني الاعلى) لقيادة الصراع الشركسي مع الروس، وكان هذا المجلس بمثابة حكومة في (المنفى) شارك فيه ممثلون عن اللاجئين والمهاجرين الشركاسة في تركيا، كما شارك فيه كمستمعين ممثلين عن المهاجرين البولونيين الذين كانوا من اكثر الاجانب الداعمين للشركاسة في حريهم ضد الروس، كما تشكل في لندن في نفس الفترة لجنة (شركسية انجليزية مشتركة) ^(٧٣). واصبحت هذه اللجنة مع اللجنة المشكلة في استانبول وثيقة الاتصال مع مركز المهاجرين البولونيين في باريس وهي اللجنة التي كانت تهتم بالمسألة الشركسية وقامت بتزويد الشركاسة بالسلح والذخائر ونظمت الاعمال السياسية المناوئة للروس بالتنسيق مع اللجنة الشركسية في كل من لندن وباريس.

ثالثاً: البعد القانوني في حضارة الأمة الشركسية التراكمية

ربما كانت الأمة الشركسية من أوائل الشعوب والأمم القديمة التي تكوّن لديها نظام قضائي متكامل في أبعاده الثلاثة المتمثلة بـ:

• **البعد القانوني للقضاء:** ويتمثل بوجود قوانين وأنظمة وقواعد تنظيمية للعلاقات في المجتمعات الشركسية.

• **البعد المهني للقضاء:** ويتمثل بوجود هيئة أو مجلس مختص بالقضاء في المجتمعات الشركسية.

• **البعد التخصصي للقضاء:** ويتمثل في وجود قضاة مختصين في إصدار الأحكام وفق التشريعات القانونية الموضوعية والمتفق عليها (شفاهة أو كتابة).

وفيما يلي تحليل لكل بعد من الأبعاد الثلاثة لنظام القضاء عند الشركاسة منذ عصور ما قبل فجر التاريخ وحتى العصور الحديثة:

البعد الأول: للنظام القضائي الشركسي وهو: البعد القانوني:

لا شك بأن وجود قوانين وأنظمة ولوائح للفصل بين المتخاصمين أو المتنازعين هو البعد الأول والاساسي لأي نظام قضائي قديماً وحديثاً.

والشركاسة منذ عصر الاجداد من قوم (النارتيين) وضعوا لأنفسهم أحكاماً ضابطة لسلوك الإنسان الشركسي ضمن مفهوم ما يعرف حتى اليوم (بالخابزة)، وهي مجموعة من القواعد السلوكية التي تنظم العلاقات بين الافراد بعضهم مع بعض من جهة، وبين الجماعات مع بعضها البعض من جهة أخرى، وهي ايضا تنظم الشؤون المتعلقة بالمجتمع الشركسي ومؤسساته الاجتماعية منها والسياسية والاقتصادية وغيرها من قضايا المجتمع ومؤسساته، وهي ما تعرف بالعادات والتقاليد والأعراف الشركسية (الخابزة) وكانت (ولا زالت) لها قوة القوانين والأنظمة الحديثة.

كما كان لها قوة أكثر من قوة الأحكام الدينية في عهد الديانة المسيحية، كما كان بعض هذه العادات استمر تطبيقها حتى في الفترات التي اعتنق فيها اجداد الشركاسة الدين الاسلامي الحنيف وخاصة عند القبائل الشركسية التي كانت تطبق النظام الوراثي في إدارة الحكم وهو ما يعرف بنظام (البش) والذي يتمثل بنظام حكم الامراء واما في النظام الديمقراطي والذي كان يتمثل في حكم (التحمادة) فكان للعادات والتقاليد قوة التشريعات الدينية ايضا. حيث كان الامراء يفضلون تطبيق احكام (الخابزة) في كثير من الحالات لأنها كانت تحقق مصالحهم الشخصية.

وفيما يلي نماذج من الانظمة والقوانين التي كانت تتمثل بالعادات الشركسية التي كان يترتب على مخالفتها احكام تصل إلى حد (الموت).

(١) عادات قديمة يعود تاريخها إلى الالف الاول ما قبل الميلاد وأهمها:

عادة الحكم على المسنين بالموت، حيث ورد في الروايات القديمة التي كان يتناقلها الاجداد حتى في بلاد المهجر تغيير تطبيق مثل هذه العادة لديهم نقتبس منها:

"يولد الانسان طفلاً صغيراً، ويربى في المهد، ويهدد حتى يكبر، فإذا أصبح مسناً، أعادوه إلى المهد، وكالطفل هدهده واعتنوا به، فإن لم يموت، اخذوه إلى جبل عالٍ وتركوه وحده هناك"* وتعود عادة (قتل المسنين) (رجالاً ونساءً) إلى عهد قوم (النارتيين) وورد ذكرها في الأساطير والملاحم التراثية وخلصتها:

* هذه الرواية ذكرها باتري أوزيك، في كتابه أساطير النارتيين نقلاً عن عجوز من شركاسة تركيا واسمه (غواشخوراي) وعمره تسعين سنة ص: ٥٧.

"كان يتم قتل المسنين الذين ما زالوا على قيد الحياة من قبل قبائلهم بعد أن يصدر حكم عليهم من قبل ما كان يسمى بمحكمة المسنين أو (مجلس الموت) ويترك للمحكوم اختيار وسيلة من الوسائل التالية لطريقة (موته) وهي:

- الموت بالسّم أو:
 - الإلقاء من جرف صخري، أو:
 - وضع المسن في قفص معلق على جدار الجبل حتى الموت، أو إلقاء القفص في شق في الأرض أو رمي القفص في نهر أو في البحر.
- ويذكر (موللر) أن الاغريق كانوا يستخدمون نفس الأساليب حيث "كان المسنون في جزيرة (هيدرا) يوضعون في قفص ويرمون في البحر. أما النارتيون فكانوا يلقيون مسنينهم من الجرف الصخري.

وحاول (ليني شتراوس) تفسير دوافع ظاهرة قتل المسنين قديما في العالم، بأنها دوافع اقتصادية، وهو تفسير يعتبر معقولا، حيث إن المجموعات البشرية ذات الموارد غير المستقرة (الصيادين، جامعي الغذاء، البدو الرحل) كانت تبرز لديهم مشكلة إطعام ونقل المسنين الذين صاروا ضعيفي الحركة، وبالفعل فإننا نجد في بعض نصوص الروايات والأساطير عن حدوث كوارث غير متوقعة مثل حدوث (قحط، وانتشار أوبئة) تهدد وجود النارتيين.

كما تؤكد الروايات والأساطير بأن حكم الموت كان يصدر على المسنين الذين لم يعودوا قادرين على امتطاء الخيل أو غير القادرين على حمل السيف وشد القوس وحزم القش.

ويقول (حاداغالة) بأن: "إلغاء نظام قتل المسنين حدث بعد أن طرح أحد الملوك مرة على شعبه ثلاثة أسئلة، ووعده بأن يزوجه ابنته لمن يجد الإجابات الصحيحة عنها. وقد استطاع بطل القصة بمساعدة والده (وكان البطل قد انقذه من القتل بسبب الشيخوخة) أن يجد الإجابات الصحيحة، وتزوج ابنة الملك، وعندما سأله الملك كيف عرف الإجابات اعترف الشاب بأنها من كانت بفضل ما عده أبوه الذي لم يطبق عليه حكم الموت. ومنذ ذلك الحين ألغيت عادة قتل المسنين.

وفي رواية أخرى تحمل نفس المعنى مع اختلاف الأسباب، وخلصتها بأن أحد النارتيين واسمه (بادنيقوا) قام بحمل والده على ظهره وذهب به إلى الجبل ليقتله حسب العادة، وزلت قدمه أثناء الصعود فوق، فضحك والده، ولم يفهم الابن كيف يضحك أبوه بدلا من أن يحزن، وسأله ما الذي يبعث على الضحك يا أبتني؟ فأجاب الوالد: يا بني منذ سنوات طوال، وبينما كنت احمل والدي في نفس هذا الطريق زلت قدمي في نفس هذا الموقع فضحك والدي، ولم افهم سبب ضحكه في حينه، والآن فهمت لماذا ضحكك، لأن ابنك انت ايضا سيمحملك إلى هنا مثلما حملتني انت ولذلك اضحك (لأن التاريخ يعيد نفسه). عند ذلك عرف بأن أباه محق في قوله، وعدل عن قتل أبيه، واعداه إلى البيت سرا، خوفا من النارتيين إذا علموا بذلك، ووضع أباه في غرفة ليس لها إلا نافذة صغيرة.

وبعد سنوات أصاب بلاد (النارتيين) قحط وجفاف تسبب بتلف ثمار التفاح، وقدم (بادنيقوا) لأهله حلا للمشكلة، وفي مرة ثانية مرضت الاغنام وماتت الاكباش، فكان الحل ايضا باقتراح منه، وفي المرة الثالثة أصيبت حقول الحبوب بالتلف نتيجة قحط، فكان ايضا الحل عند (بادنيقوا).

فتعجب قوم (نارت) وازداد فضولهم تجاه نصائح (بادنيقوا) الذكية، فسألوه من أين تعلمت كل ذلك، فصارحهم بالحقيقة قائلا: "إنني لم أقتل والدي" وتابع كلامه: "انه هو منقذنا، فهو الذي قدم لي النصائح التي انقذتكم"، وعندها قرر مجلس النارتيين التوقف عن قتل المسنين.

* عادة قتل الخونة أو الذين يقومون بأعمال تلحق ضررا كبيرا بالأمة الشركسية

ربما كانت (الخيانة) في جميع أشكالها وأنواعها من الكبائر عند الشركاسة منذ عصر الاجداد، وهي تشبه بما يسمى في عصرنا الحاضر (بالخيانة العظمى للوطن) التي تلحق ضررا كبيرا

بالأمن القومي، يترتب عليها (الحكم بالموت) خاصة إن كانت الخيانة لمصلحة الاعداء، وهذا ما حدث فعلا إبان حرب الإبادة والدمار التي نفذتها القوات الروسية القيصيرية، حيث أصدر القادة الشراكسة من القبرطاي والأديغية حكما بالموت على أكثر من جاسوس وهم الجواسيس الذين كانوا يتعاونون سرا مع السلطات الروسية الاعداء للأمة الشركسية.

* عادة تحريم قتل (المرأة)

وهي من العادات التي كان الشراكسة منذ القدم حريصين على تطبيقها حيث كان من أهم العادات المرتبطة بذلك هي:

- تحريم قتل المرأة أو أخذ الثأر منها.
 - عادة تحريم القتل تحت سقف بيت المرأة أو بحضورها وإذا حدث ذلك كان يحاكم فاعلها وتوقع عليه اشد العقوبات.
 - عادة تحريم ضرب المرأة أو اهانتها أو التحدث معها بألفاظ نابية، وكل من يفعل ذلك كان يحاكم ويحاسب أمام مجلس كبار السن (التحامدات)، كما كان يعزل عن المجتمع.
- (٢) العادات الاجتماعية الشركسية التي تعتبر مخالفتها أو تجاهلها أو عدم تطبيقها من الأفعال التي يتوجب فيها محاكمة مرتكبيها وهي:

- (١) عدم توفير الحماية اللازمة للضيف الذي نزل ضيفا على مضافة من المضافات الشركسية، حيث كان من أكبر الكبائر هو عدم قدرة المضيف على حماية الضيف من أي أذى قد يلحق به.
 - (٢) عدم حماية الشخص المستجير أو طالب الحماية بعد (دخوله) إلى البيت وحتى ولو كان قاتل أبيه أو أحد أفراد عائلته. وخير دليل على ذلك ما أورده (رايا مامكيغ) في كتابها (لمحات عن العادات الشركسية) رواية تؤكد مدى التزام الشراكسة بأداب وقواعد حماية المستجير، وملخصها:
- "بينما كان رب عائلة في احد الايام يمارس بعض الاعمال في ساحة داره، دخل شاب غريب هارب يبحث عن ملجأ، فأخفاه رب الدار في بيته، وبعد قليل وصل بعض شبان القرية ممتطين خيولهم وسألوا الرجل: هل رأيت شابا هاربا؟ إننا نبحث عنه لنقتله فقد (اغتال ابنك) فأجابهم الرجل بأنه لم ير أحدا، وهكذا ذهبوا لمواصلة البحث عنه، أما صاحب الدار فقد أكرم الشاب دون أن يبدو عليه أنه يعرف ما فعله بابنه، ودون أن يلحظ الشاب منه أي شيء. وبعد أن هدأت ثورة وغضب فرسان القرية جهز الرجل لضيفه الشاب جوادا وزادا وقاده ليلا إلى موقع آمن خارج القرية وتركه ينصرف، وهكذا فقد حمى قاتل ابنه التزاما منه بتقاليد (حماية المستجير)، ولو كان فعل عكس ذلك فإنه كان قد تعرض لمحاكمة صارمة من قبل مجلس التحامدات (الرؤساء).

(٣) محاكمة من كان يهرب من ساحة المعركة خوفا من الموت بإيقاع أحد الاحكام التالية بحقه:

- الاحتقار والازدراء من قبل المجتمع عامة والنساء خاصة وعدم قبول الفتيات الزواج منه.
- تلبيسه قبة قدرته وتجليسه على ظهر حصان أجرب، ثم عرضه أمام الجماهير للتشهير به وتعريف عامة الناس بأنه جبان.
- الحكم عليه بدفع غرامة بقيمة (ثورين) على الأقل.

(٤) عادة محاكمة كل من تهاون بالمحافظة على كرامته وشرفه.

جرت العادة أن يطرد من القبيلة كل من تهاون بكرامته أو أخل بالشرف، بالإضافة إلى نزع كل الألقاب التي يحملها (إن كان من حملة الألقاب)، كما كان الشعراء ينظمون أشعارا للتشهير به بين القبائل الأخرى.

٥) معاقبة الزانية والزاني :

يقول (ابن فضلان)* بأن الشراكسة قديماً قليلاً ما كانوا يزنون، حتى في أيام الوثنية، ومن زنا منهم كائناً من كان ضربوا له أربع سكك وشدوا يديه ورجليه إليها وقطعوه من رقبته إلى فخذه، وكذلك يفعلون بالمرأة أيضاً ثم يعلق كل قطعة منه أو منها على شجرة".

(٣) مجموعة الأعمال والأفعال التي كان يعاقب عليها فاعلها من الشراكسة من قبل المجالس المختصة ومن هذه الأعمال:

* الكسب عن طريق النهب أو السرقة، خاصة بعد أن اعتنق الشراكسة الإسلام.

* خرق حرمة الجيرة أو الصداقة.

* العيش عالة على الآخرين، وكذلك الذين لم يكن لهم عمل ما وهم من نوع (الكسالى).

* إهمال الوالدين وعدم رعايتهما الرعاية اللازمة عند الكبر.

* خطف الفتاة بالقوة وبدون موافقتها.

* مخالفة شروط الزواج عن طريق (الكواسة).

* إهانة الكبار وعدم احترامهم وتقديم يد المساعدة لهم.

البعد الثاني للنظام القضائي الشركسي وهو: البعد المهني: ويتمثل هذا البعد بالهيئات والمجالس التي أنشأها الشراكسة منذ عهد الأجداد للتقاضي أمامها حتى تفصل بين الناس في منازعاتهم وقضاياهم، وهي التي كانت تقوم مقام المحاكم النظامية منها والشرعية الموروثة حالياً.

وبالرجوع إلى ما كتب حول نظام القضاء لدى الأمة الشركسية، تبين بأن أهم الهيئات والمجالس التي كانت تقوم بمهام المحاكم هي:

- **مجالس الأمهات،** في عهد سلطة الأم، ومن ثم مجالس الآباء، عندما انتقلت السلطة للأب.
- **مجالس النارتيين** منها (مجالس الموت).
- **مجالس رؤساء الدويلات** عندما نشأت، الدول منذ فجر التاريخ.
- **المجالس الشعبية** المكونة من الامراء أو الرؤساء والنبلاء والأعيان، بالإضافة إلى ممثلي الاحرار والفلاحين عندما تكونت القبائل وأصبحت بعض قبائل الشراكسة تتبع نظام حكم (الامراء) الوراثي والبعض الآخر نظام حكم الرؤساء (التحامدات).
- **المحاكم المتخصصة بالقضاء** وهي التي ظهرت أول ما ظهرت في القرن العاشر الميلادي في زمن حكم الامير ينال الكبير، حيث أقام في الدولة الشركسية التي أنشأها في بلاد الشركس والأبخاز بعد ان قضى على الفساد والمفسدين، وبعد أن قضى على العصيان والتمرد الذي قام به بعض الأمراء الخارجين على القانون بزعامة الأمير (اوزوفير)، حيث أنشأ (٤٠) منطقة وعين لكل منها حاكماً من القضاة لتسيير دفة الحكم فيها، وكان من مهامهم الأساسية القيام بالفصل في المنازعات بين الأفراد التابعين لكل منطقة إدارية.
- **محاكم الصلح،** وتأسست في عهد الأمير (قايتوق برسلان) وهو أول من أسس هذا النوع من المحاكم المنظمة المسماة (خه - ساه) وعين في كل بلدة (أول - Aoul) وهو بمثابة محكمة صلحية للسهر على مصالح العامة، ونشر الأمن والاستقرار في البلاد، وكان من صلاحيات هذه المحاكم الفصل في كل القضايا ما عدا القضايا الجنائية، كما كانت تنظر في قضايا المزارعين

* ابن فضلان: مؤرخ عربي زار بلاد الشراكسة في القرون الوسطى وكتب عن بعض عاداتهم وتقاليدهم وحياتهم الاجتماعية ص: ١٦٢.

والفلاحين من سكان القرى، وسميت بالمحاكم الابتدائية التي كان يرأسها أحد النبلاء وعضوية اثنين أو ثلاثة منتخبين من عامة الناس المشهود لهم بعلمهم وبالسمة الطيبة. كما تألفت كل محكمة من هذه المحاكم الصلحية من اعضاء مختصين وقسم منهم كان يعين من جانب حاكم البلاد وهم في الغالب من طبقة (الاوزدن) والقسم الثالث كان ينتخب في كل سنة من بين افراد الشعب الاكفاء، ويصادق على عضويتهم امير البلاد نفسه.

وكانت الأحكام تصدر عن هذه المحاكم طبقا للاصول القضائية المرعية ووفقا للقوانين والانظمة التي كان يصدرها امير البلاد حسب مقتضيات الظروف والاحوال السائدة في البلاد.

* **المحكمة العليا:** وهي التي تأسست ايضا في عهد الامير (برسلان) وكانت تختص بالفصل في الشكاوى الموجهة ضد القضاة انفسهم، والقضايا الجنائية، والمسائل العامة التي تتناول مصلحة الشعب بأسره، فكان ينظر ويفصل فيها مجلس برئاسة الامير نفسه في المحكمة العليا أو الرئيسية التي كانت تسمى (خاصة) والتي كانت تعقد بصورة دائمة في مكان اقامة الامير الدائمة.

وفضلا عن ذلك فقد سن الامير برسلان عدة أحكام ووضع مواد قانونية لمعاقبة المخالفين للقوانين التي وضعها هو والقوانين المرعية الاخرى من قديم الازمان. وكان حريصا كل الحرص على تنفيذ القوانين والاحكام الصادرة من المحاكم العامة، وما كان ليرتد في معاقبة المخالفين والمجرمين والخارجين على القانون واعداء النظام، وحتى الامراء والنبلاء انفسهم لم يسلموا من عقابه، وكان يطبق عليهم اشد انواع العقوبات طبقا لما يقترفونه من الجرائم مهما كان نوعها، كما كان في كثير من الاحيان ينتزع منهم ألقابهم ويجردهم من مناصبهم ومراتبهم ويخرجهم من البلاد اذا ثبت عليهم أنهم أساؤوا إلى سمعتهم أو شرفهم.

* **المحاكم الشرعية:** وهي المحاكم التي تأسست في أوائل القرن التاسع عشر في عهد الأمير (عادل كيراي) امير القبردي، وبإشراف العالم وقاضي زمانه صاحب الفضيلة (أبوق حاجي اسحاق افندي) وبفضل هذا العالم الفاضل انتشرت المحاكم لدى قبائل القبردي، ونفذت أحكامها بدقة وعناية حسب نصوص الشريعة الغراء

* **المحاكم التي انشأها محمد امين نائب الامام شامل**

انشأ (محمد امين) في عامي ١٨٤٩ - ١٨٥٠ وبعد توليه الحكم (باسم الشيخ شامل) في بلاد الاديغة في منطقة الكوبان التي تضم قبائل الشابسوغ والابوخ، والابزاخ والبجادوغ والناخواج عددا من المحاكم الشرعية منها:

- محكمة اقليم الناختواج.
- ثلاث محاكم على ضفاف الانهار وفي سهول الشابسوغ.
- خمس محاكم في بلاد الابزاخ.
- وتشكل كل محكمة منها على النحو التالي:
- رئيس محكمة ويتم تعيينه من قبل النائب محمد امين شخصيا.
- عضوان ينتخبان من قبل الزعماء (التحامدات) او الشيوخ وكانت القوة التنفيذية للاحكام من صلاحية رئيس المحكمة.

كما كان من صلاحيات هذه المحاكم اضافة إلى الفصل في المنازعات ومحاكمة الخارجين على القانون الاشراف على فرقة (الدرك) المكلفة بحفظ الامن وحراسة الموقوفين، والمحكومين، وتنفيذ قرارات المحكمة... الخ.

وتوقف العمل بهذه المحاكم في بلاد الشراكسة في عهد الاستعمار الروسي القيصري بعد عام ١٨٦٤م، وكذلك في ظل الحكم الشيوعي ابتداء من عام ١٩٢١ حين أصبح الشراكسة في الوطن الام موزعين على مقاطعات وجمهوريات ذات حكم ذاتي تابعة لحكومة الاتحاد السوفيتي في الكرملين في موسكو.

٧) تطبيق قواعد الشريعة الإسلامية

يقول (نغموقة) بأن الامير عادل كري ابن حاتوظوقه ادخل عدداً كبيراً من أفراد قبيلة القبارطاي للدين الاسلامي بمساعدة الملا (اسحق أبوقو) وأخذ يطبق احكامها بحذافيرها على المذنبين والمجرمين دون استثناء احد مهما كان مركزه الاجتماعي، وبموجبها كان كل شخص يقترب ذنباً، يعاقب بنوع من أنواع العقاب الجسماني بما فيه عقاب الموت، وكذلك تطبيق مبدأ "الحد" على السارق ولو كانت (سرقة) شيء لا تتجاوز قيمته "روبل فضيا" بقطع اليد اليسرى، والسرقات التي تتجاوز قيمتها الروبل حتى المئة روبل كان عقابها قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، وأما الفاحشة فكان عقابها الموت، وكذلك كان القاتل يقتل، كما كان القضاة الشرعيون يطبقون احكام الشريعة على الزواج وعلى الطلاق، وكان الأثر اكثر القضايا التي حازت على اهتمام القضاة الشرعيين، حيث تشير الوقائع التاريخية بأن الدعاوى كانت تسمع فيها لمدة اربعين عاماً، حفاظاً على الحقوق الشرعية من الضياع، وان حكام الشراكسة وزعماءهم لم يمسوا مسائل الأثر عند تعديل بعض العادات القومية عند القبرطاي في عهد الفيلسوف (جباغي) عام ١٨٠٧ واجازوا المبدأ القانوني القائل بجواز النظر فيه خلال اربعين سنة. وكذلك بالنسبة للقضايا الحقوقية المتعلقة بالممتلكات الشخصية، فكانت تحل وفقاً للأحكام الشرعية الإسلامية، وأما المسائل التي تتناول العلاقات بين الأمراء والاوزدون، أو الاوزدون وأفراد الشعب، فكانت تحل وفق العادات القديمة والأصول المرعية.

لا شك ان تطبيق الأحكام الشرعية المذكورة جاء بفوائد جمة، وساعد على انتظام الاحوال المدنية والاجتماعية في المجتمعات الشركسية، إذ كان كل فرد يخشى ان يقترب ذنباً أو يأتي بعمل مخالف لأحكام الشريعة والقانون.^(٨١)

البعد الثالث للنظام القضائي الشركسي وهو: البعد التخصصي للقضاة: ويتمثل في العادات والتقاليد والاعراف التي كانت سائدة في العصور التي كان اجداد الشراكسة يدينون فيها بالديانة المجوسية او الوثنية، ثم بدأ تطبيق بعض مبادئ الدين المسيحي جنباً إلى جنب مع العادات والتقاليد الشركسية، وعندما اعتنق الشراكسة الدين الاسلامي بدأ تطبيق احكام الشريعة الاسلامية إلا أن تطبيق العادات والتقاليد ظلت سارية المفعول في حل بعض القضايا الاجتماعية خاصة لدى القبائل التي كانت تطبق نظام حكم الامراء (بشي).

وفي البعد الثاني، ناقشنا الهيئات والمجالس التي كانت تشرف على تنفيذ العادات والانظمة والقوانين ابتداء من مجلس الموت في عهد قوم النارتيين وانتهاء بالمحاكم الشرعية في عهد الاسلام.

وسنناقش في هذا البعد الاشخاص الذين كانوا يقومون مقام القضاة منذ عصر الاجداد وإلى حين بدأ تشكيل المحاكم الصلحية والاستئنافية والشرعية الاسلامية منذ القرن الثامن عشر تقريباً.

وفيما يلي موجز ملخص لنشأة وتطور اعمال القضاة لدى الامة الشركسية وهي على النحو التالي:

وفي عصر حكم الامهات: كانت الامهات او النارتيات يقمن بدور القضاة في مجالسهن.

وفي عصر حكم سيطرة الاباء على السلطة، أصبحت مجالس الاباء تقوم بهذه المهمة.

وفي عصر قوم النارتيين الذين هم اجداد الشراكسة، كان القاضي (البدج) هو اول رئيس محكمة لدى هذا القوم، كما هو وارد في اساطيرهم، وكان رئيساً لمجلس (موت النارتي) وهو المجلس

الذي كان يصدر احكام قتل المسنين من قوم النارتيين، ويتضح ذلك من الحوار الذي دار بين (الاميرة الكبيرة والكثة) في احدى اساطير النارتيين ونصه:

- "الاميرة كبيرة السن: "لا تدعيهم يأخذوني إلى (اليدج) يا اميرتي العزيزة، فهناك يقتل المسنون يا اميرتي.. وعندما كنت انا كنة يا أميرتي، اعتيتت بأميرتي الام دائما وبشكل جيد، ورعيتها وأطعمتها ولم ادعهم يأخذونها (لمجلس الموت).

- ورواية أخرى تؤكد بأن (اليدج) كان رئيس مجلس الموت عند النارتيين من الحوار الذي دار بين الجدة والكثة وزوجها (تسيرخوج) ونصه:

- "ان الكنة السيئة عديمة الرحمة".

- "او يا عزيزتي "خوج".

- "لا تدعهم يأخذوني" إلى (اليدج).

- "ان من يؤخذ إلى (اليدج) سوف يؤخذ إلى تلال او جبل وسوف يقتل".

وفي العصر الذي بدأ فيه تشكيل الدويلات والدول منذ الالفية الثانية ما قبل الميلاد اصبح رؤساء هذه الدول يقومون بمهام الفصل في القضايا والمنازعات بين الافراد، كما ان مجالس الرؤساء كانت تقوم في الفصل في القضايا الكبرى بالدولة.

وفي العصر الذي اعتنق فيه اجداد الشركاسة الديانة المسيحية كان الكهنة والخوارنة الذين كان يسمون (شوجن) يقومون بالفصل في بعض القضايا التي لها علاقة بتعاليم الدين المسيحي، إلا أن رؤساء مجالس الشعب (التحمادات) هم الذين كانوا يقومون بمهام القضاة في حل النزاعات عامة والمتعلقة منها بالنبلأ وأعيان الشركاسة والامراء خاصة.

وفي العصر الذي تشكلت فيه القبائل الشركسية ابتداء من القرن الرابع الميلادي: أصبح زعماء القبائل ورؤساؤها مخولين بالفصل في القضايا والمنازعات المتعلقة بعامية الشعب من التابعين لهم والفلاحين والخدم. كما ان المجالس الشعبية التي كانت تشكل لدى كل قبيلة هي التي كانت تقوم بالفصل في القضايا الكبرى وفي المنازعات والقضايا المتعلقة بالنبلأ والامراء او الزعماء انفسهم.

وابتداء من القرن التاسع الميلادي وفي عهد الامير (البش) ينال الكبير امير أمراء القبرطاي، ظهر مفهوم التخصص في اعمال القضاء عندما عين (٤٠) قاضيا بمعدل قاض لكل مقاطعة أو إمارة، بالإضافة إلى انتخاب شخصين أو ثلاثة من ذوي السمعة والكفاءة والعدالة اعضاء في كل محكمة.

وفي عهد الامير (رسلان) او (برسلان) تم اختيار القضاة من الاشخاص المؤهلين تأهيلا متخصصا في تطبيق الانظمة والقوانين عامة والعادات والتقاليد الشركسية خاصة.

وفي العصر الذي اعتنق فيه الشركاسة الدين الاسلامي اصبح (الشيوخ) والذين كانوا يسمون (المولات) هم القائمون بأعمال القضاة جنبا إلى جنب مع القضاة المختصين بتطبيق الانظمة والقوانين المتمثلة بالعادات والتقاليد التي لا تتعارض مع احكام الدين الاسلامي.

(٢) قضاة وعلماء شركاسة اجلاء كان لهم دور فاعل في القضاء الشركسي

يجد الباحث في تاريخ القضاء الشركسي بأن اشخاصاً وعلماء أجلاء كان لهم شهرة في العدل والاستقامة حكموا بين الناس بنزاهة واقتدار.. نذكر منهم القضاة الشركاسة التالية:

• القاضي (ورى) وهو من القضاة المشهورين بالعدل والنزاهة في حكمهم، وعاش في فترة ظهور القاضي والفيلسوف (قازنوقة جباغي).

• القاضي والفيلسوف جباغي، بدأ نبوغ (قازنوقة جباغي) منذ ان كان صبيا. ومن الروايات التاريخية الموثوقة حول نبوغه المبكر الرواية التاريخية التالية:

في فصل الربيع وعلى هضاب القفقاس صادف أن كان أربعة رعاة يرعون معا قطعانا من الماعز. وكان الرعاة يملكون من جملة ما يملكون (جديا) أو معزة اهداها لهم احد اصحاب القطعان، وتوزعوا ملكية هذا الجدي فيما بينهم بأن اصبح يملك كل منهم طرفا من اطراف الجدي. وحدث ان انكسرت يد هذا الجدي العائد ملكيتها لأحدهم فجبروا الكسر، وعجز الجدي عن الخروج مع القطيع فكان يبقى في مركز (مأوى) الرعاة، وفي إحدى الليالي وبينما كانوا يتسامرون والجدي جالس معهم حول النار التي أوقدوها، ويبدو أن الجدي اقترب من النار كثيرا طلبا للدفع، فاشتعلت النار في رباط الكسر. فهرب الجدي فلحقوا به ليمسكوه، ولكن يبدو ان الجدي كان اكثر سرعة من الآخرين فلم يفلحوا بالامساك به الا بعد ان مر بأكوام المحاصيل وخلايا النحل القريبة من المكان، فاشتعلت النار وانت عليها ونتيجة للأضرار التي لحقت بأصحاب الاملاك التي احترقت محاصيلهم، رفعوا قضية أمام القاضي (وري) الذي كان قاضيا عشائريا مشهورا في المنطقة. وبعد أن استمع (وري) إلى أقوال أطراف الدعوى والشهود.. أصدر حكمه المتضمن تحميل مسؤولية ما حصل لواحد من الرعاة الأربعة وهو صاحب اليد المكسورة، وتبرئة الآخرين. وذات يوم تشاجر بعض الصبية فتدخل (جباغي وكان صغير السن) بينهم لحل النزاع ولما عرفوا نتيجة الحكم، دهش الصبية من هذا الحكم وبدأوا بالضحك والاستهزاء ولكن دهشتهم انقلبت إلى حيرة حينما قال لهم (جباغي) ان حكمه يشبه حكم القاضي (وري).

سمع (وري) بتعليق جباغي فاستدعاه وسأله عن سبب تعليقه، وقد دهش القاضي (وري) حينما رفض جباغي ابداء رأيه في موضوع حكمه إلا بحضور اعضاء المحكمة وعلية القوم. نزل (وري) عند رغبة (جباغي) وجاء القضاة وعلية القوم فقال (جباغي): سادتي القضاة، هل يمكن أن ينسب إلى شيء (ميت) فعل؟ وهل من الممكن أن يرتكب الميت جريمة؟ صحيح ان يد الجدي المشتعلة هي التي سببت الحريق ولكن اليد كانت ميتة وملفوفة بالكفن، ان السبب الاصيلي للحريق، هو اطراف الجدي الثلاثة الاخرى التي حملت المكسورة المشتعلة لمكان الحريق ولو لم تفعل ذلك لما تحركت اليد المحروقة من مكانها ولما حدث الحريق، وعليه فإن مسؤولية ما حدث يتحمله اصحاب الاطراف الاخرى للجدي وليس صاحب اليد المكسورة، وساد الحضور صمت ودهشة، ثم قطع الصمت بأصوات الإعجاب والدهشة التي انطلقت من افواه الحاضرين مبدئين إعجابهم بذكاء الشاب (جباغي).

طلب (وري) من جباغي أن يلازمه دائما لكي يستفيد من ذكائه أولاً، ويستفيد (جباغي) الشاب من خبرة يوري الطويلة، وطلب من الحضور أن يقروه على الرأي، فكان ما أراد. وهكذا اصبح (جباغي) ملازما للقاضي ووري، ومرت السنون إلى أن توفي القاضي العجوز (وري). وفي حفلة تأيينه انتخب (جباغي) خلفا له، وتوالت الاقتراحات من المتكلمين لتكريم شيخهم الراحل وتخليد ذكره. وكان من بين المتكلمين (جباغي) الذي تخللت كلمته بعض ابيات الشعر، فأعجب الحاضرون بها وحفظوها سريعا وعزفت لحنا يعزف في يوم زفاف العروس إلى يومنا هذا.

- القاضي أبوق حاجي اسحاق، وهو القاضي العالم من اصل طبقة (الورق) يعود إليه الفضل في انتشار المحاكم لدى قبائل القبرطاي في عهد الامير (عادل كراي) ويعتبر مؤسس المحاكم الشرعية التي انتشرت بين الجراكسة القبرطاي بعد ان اعتنقوا الدين الاسلامي.

- الامير عادل كراي، ويعتبر من اكثر الامراء والحكام الشراكسة في زمانه حرصا على تطبيق القوانين والمحافظة على حقوق العامة، حيث دخل يوما إلى جلسة المحكمة المنعقدة برئاسة القاضي الجريء (أبوق حاجي اسحاق) المشهور بأنه لا يخشى في الحق لومة لائم، واستمع للمناقشات والمرافعات، وعندما هم بالانصراف التفت الأمير إلى القاضي قائلا:

"إذا لم تحافظ على الحقوق العامة في دائرة العدالة التامة فلاقيمن العدل بهذا" وأشار إلى سيفه.

فالتفت إليه القاضي مجيبا:

"وإذا رأيت فيك إهمالا أو تقصيرا في تنفيذ أحكامي التي استمدها من الشريعة الغراء فأني أنفذ فيك أمر ربي" وأخرج من تحت الوسادة الجالس عليها مسدساً (طبنجة) وصوبها نحوه. وهكذا كان شأن الامراء العظام في اعلاء كلمة الله واحكامه، وهكذا كان جرأة القضاة العادليين الذين يتوعدون الامراء (بالقتل) ان لم ينفذوا قراراتهم واحكامهم .

مصادر ومراجع الفصل الثاني

- (١) دوغوظ، فؤاد، الاديغة خابزة ((العادات والتقاليد والقوانين الشركسية وتاريخها))، الجمعية الخيرية الشركسية، عمان ١٩٨٩، ص: ١-٥.
- (٢) المصدر نفسه، ص: ٦-٨.
- (٣) المصدر نفسه، ص: ٩.
- (٤) نغموقة، بكمزرا شورا - مصدر سابق، ص: ٣٥-٣٦.
- (٥) المصدر نفسه ص: ٣٦-٣٧.
- (٦) جوناتوقه، مصدر سابق، ص: ١٩٠-١٩٢.
- (٧) دانيليفسلي، اقسام شعب القبرداي، عام ١٨٦٣، ص: ١٣٨٠.
- (٨) نغموقة، مصدر سابق، ص: ٣٦.
- (٩) المصدر نفسه، ص: ١٨٨.
- (١٠) مصدر سابق، ص: ١٨٩-١٩٠.
- (١١) البروفسور، عزيز مكارا "Le Caucase entre" (١٧٦٠-١٨٦٤) باريس، ص: ٦٦.
- (١٢) ساركسيان Sarkisyan ارمي الجنسية في كتابه: الانتفاضة الشعبية في شمال غرب قفقاسيا وسقوط نظام الاقطاع الشركسي (١٩٦١).
- (١٣) يزبك، باتريك- مصدر سابق، ص: ٧٠-٧١.
- (١٤) قاسوم، علي حسن ، حسن علي قاسوم، اباداة الشراكسة، ترجمة: عمر شابيسوغ، دمشق، ١٩٩٥/١/١٠. ص: ٤٠.
- (١٥) المصدر نفسه، ص: ٥٩-٦٠.
- (١٦) المصدر نفسه، ص: ٦٠-٦١.
- (١٧) سبينسر، ادموند - رحلة إلى القفقاس، لندن عام ١٨٣٨، ص: ٦٨.
- (١٨) قاسوم، علي حسن قاسوم، مصدر سابق، ص: ٦٠.
- (١٩) المصدر نفسه، ص: ٩٢.
- (٢٠) ارسلان، مخلص، تاريخ حرب القفقاس ونتائجها من احداث، ترجمة واعداد احمد اسماعيل - دمشق عام ١٩٩٥، ص: ٤٠-٤٢.
- (٢١) قاسوم، علي وحسن قاسوم، مصدر سابق، ص: ١٠٧.
- (٢٢) نول فيل، السنة الاخيرة لحروب الشركس من اجل الاستقلال، ١٩٢٧- دمشق عام

- (٢٣) برزج، نهاد، مصدر سابق، ص: ٢٦.
- (٢٤) دوغوظ، فؤاد، مصدر سابق، ص: ١٢.
- (٢٥) دولبيز مونتيارو - رحالة زار بلاد الشركس عام ١٨٣٩ ونشر تقريراً عن النظام الطبقي الذي كان سائداً على أجزاء (الجزء الأول ص: ١٠٩).
- (٢٦) ن. ج. دانييلنس - رحالة زار منطقة القبرطاي عام ١٨٤٧ ونشر مؤلفاً حول أحوالهم المعيشية ونظامه الطبقي عام ١٨٤٧، ص: ١٣٨-١٣٩.
- (٢٧) ث لابينسكي، الخبير بتاريخ حياة الشركاسة نشر عدة مؤلفات - الجزء الأول ١٨٦٣، ص: ١٠٧.
- (٢٨) خانكري، مشاهير الجراكسة، عام ١٨٣٥ ونقل عنه نغموقة ص: ٤.
- (٢٩) الباحثة ساندراس، نشرت مؤلف حول النظام الطبقي لدى الشركاسة، عام ١٩٤٤، ص: ١٥٣.
- (٣٠) جباجي، باحث تركي من أصل شركسي كتب عن المجتمع الشركسي في الوطن الأم عام ١٩٦٩ ص: ١٠٥-١٠٦.
- (٣١) دانييليفسكي، مصدر سابق ص ١٣٨.
- (٣٢) لابينسكي، رحالة زار بلاد القبرطاي عام ١٩٣٠ وكتب عن النظام الطبقي لديهم ص: ٤٢٩.
- (٣٣) لابينسكي، مؤرخ روسي، كتب عن الشركاسة ونشر أجزاء منه عام ١٨٨٣، الجزء الأول ص ٦١-٦٥.
- (٣٤) المصدر نفسه، جزء ثاني ١٨٦٣ ص: ١١٠-١١١.
- (٣٥) جباجي، مصدر سابق، ص: ١٠٩.
- (٣٦) دانييليفسكي - مصدر سابق، ص: ١٣٩.
- (٣٧) لابينسكي، الجزء الثاني - مصدر سابق، ص: ١١٠.
- (٣٨) باتري، أيزبك، مصدر سابق، ص: ٦٥.
- (٣٩) المصدر نفسه، ص: ٦٦.
- (٤٠) م. سبل، باحث كتب عن المجتمع الطبقي وعن التعامل مع أسرى الحرب عند الشركاسة ١٨٤٤ - ص: ٢٨.
- (٤١) لابينسكي - جزء أول، مصدر سابق، ١٨٦٣ ص: ١١٣.
- (٤٢) نغموقة، مصدر سابق، ص: ٩٤.
- (٤٣) قاسوم، حسن علي، إبادة الشركاسة، مصدر سابق، ص: ٧١.
- (٤٤) مكارا، عزيز، مصدر سابق، ص: ٦٦.
- (٤٥) ساركسيان - مصدر سابق، ص: ١٢٠.
- (٤٦) يزيك، باتريك، مصدر سابق، ص: ٧٠.
- (٤٧) قاسوم، علي وحسن علي قاسم، مصدر سابق، ص: ٧٢.

٤٨) يا. أبراموف، في كتابه القوقازيون - الشركاسة والمنشور لأول مرة في مجلة العمل رقم ١٨٨٤، وأعادته نشرها (إدارة مجمع دراسة منطقة اديغي وترجمته إلى اللغة العربية زهدي سطاس وراتب سطاس)، ونشر في اللجنة الثقافية لجمعية المقاصد الخيرية الشركسية بدمشق عام ١٩٩٨/٤/١٧.

٤٩) ب.ب. بتروفسكي، الباحث في دراسات القفقاس الشمالي، ومؤلف كتاب تاريخ القفقاس الشمالي (فصل ظهور الدول في القفقاس الشمالي) نقلا عن ترجمة المؤرخ برزج سمكوغ المنشور في كتاب: الشركس في فجر التاريخ عام ١٩٩٥، ص: ٢٣٦٠ - ٢٤٠٠.

٥٠) ف.ف. تورنتشيا نيتوف، في كتابه ذهب الكوبان، وكتابه اكتشاف وفك رموز الكتابات القديمة في القفقاس ونقلها إلى العربية برزج سمكوغ ونشرها في كتابه فجر التاريخ ص ٢٣٦٠/٢٤٠٠.

٥١) سمكوغ، برزج، مصدر سابق، ص: ٢٤١.

٥٢) دوغوظ، فؤاد، مصدر سابق، ص: ١٠.

٥٣) ستاربو، عاش في الفترة ما بين ٦٢ قبل الميلاد وحتى عام (٢٠) ما بعد الميلاد وهو من أشهر الجغرافيين اليونانيين الذين كتبوا عن (الكركتيين) اجداد الشركاسة وعن الدولة التي تشكلت في عهده.

٥٤) نغموقة، مصدر سابق، ص: ٤٩ - ٥٠.

٥٥) مجلة الثقافة القفقاسية - عدد خاص عام ١٩٧٢ - ص: ٣٨ - ٤٣.

٥٦) نغموقة، مصدر سابق، ص: ٦٦ - ٦٩.

٥٧) المصدر نفسه، ص: ٦٩ - ٧٠.

٥٨) آبه زاو، مصدر سابق، ص: ٢٥٠ - ٢٥٩.

٥٩) المصدر نفسه، ص: ٦٢.

٦٠) النسور، مصدر سابق، ص: ٣٤ - ٣٥.

٦١) الوثيقة رقم ٤٦٨١، ص: (٣٠) وهي من ارشيف رئاسة الوزراء التركية كما اوردها نهاد برزج في كتابه تهجير الشركاسة ص: ٦٠ - ٦٢.

٦٢) برزج، نهاد، مصدر سابق، ص: ٦٠ - ٦٤.

٦٣) كتاب تاريخ جمهورية قبردينو - بلقاريا

64) Edmund Spencer Travels in the Circassia. London 1838 p. 68.

٦٥) الجنرال (دفيسكي) المجلد الاول، ص ٢١٣ - ٢١٥.

٦٦) وثائق لجنة الدراسات (الاثار) القفقاسية، المجلد (١٢) ص: ٦١٨.

٦٧) قاسوم، علي حسن، وحسن علي قاسوم - مصدر سابق، ص: ٦٤.

٦٨) المصدر نفسه، ص: ١٠٧ - ١٠٨.

٦٩) شمسو، غازي، حنين التراب ص: ١٩.

٧٠) المصدر نفسه، ص: ٢٠.

٧١) قاسوم، علي حسن، مصدر سابق، ص: ٩٨.

- ٧٢) المصدر نفسه، ص: ٩٩.
- ٧٣) المصدر نفسه، ص: ١٢٦.
- ٧٤) بينو، سعيد، مصدر سابق.
- ٧٥) المفتي، شوكت ، مصدر سابق، ص ٢٨٦.
- ٧٦) تشنبه، يوري موسى، رئيس اتحاد شعوب شمال القفقاس نالتشك عام ١٩٩٤، ترجمة اميرة قبرطاي، دمشق، عام ١٩٩٧، ص: ٣٩.
- ٧٧) المصدر نفسه، ص: ٤٦.
- ٧٨) المصدر نفسه، ص: ٤٨-٥٨.
- ٧٩) المصدر نفسه ص: ١٠٧.
- ٨٠) دوغوظ، فؤاد، مصدر سابق، ص(١٠).
- ٨١) نغموكة، مصدر سابق، ص: ٣٦.
- ٨٢) آبه زاو، مصدر سابق، ص: ٢٥٠-٢٥٩.
- ٨٣) نغموكة، شورا، مصدر سابق، ص: ١١٦+١٢٣.

الفصل الثالث

الابعاد التربوية والمعرفية والعلمية لحضارة الامة الشركسية التراكمية

أولاً: البعد التربوي والتنشئة الاجتماعية في حضارة الامة الشركسية التراكمية

أولت الامة الشركسية اهتماما كبيرا بتربية الطفل منذ اليوم الاول من ولادته، واحسنوا تربيته وتنشئته التنشئة السليمة التي تتوافق مع طبيعة البلاد القاسية اولا، ومع الظروف المعيشية الصعبة التي نتجت عن التعرض الدائم للحروب والغزوات ثانيا.

ويقول حول هذه الاهمية الباحث الشركسي "عز الدين سطاس" من شراكسة سوريا بأن الشركسي منذ القدم أدرك ما للطفل الشركسي من أهمية وما له من دور في الحياة منذ أن أحس بضعفه وعجزه عن مواجهة التحديات، التي هددت وجوده، وبدأ يركز على مسألة التكاثُر، ويهتم بتربية الأطفال في إطار الخبرات والمفاهيم، التي تراكمت لديه، والطموحات التي تطلع إليها، وحاول أن يغرس في الطفل قيمه وتصوراته، عبر مختلف طرق التعبير والممارسة، واستغل المناسبات التي كان يحببها، ليوظفها في مسائل التنشئة والتربية. كما ادركوا ما في المراحل الاولى من الطفولة من اهمية واعتبروا هذه المرحلة من أهم مراحل حياة الانسان، في تحديد شخصيته وتنمية صفاتها وغرس المفاهيم السائدة في المجتمع، وقد عبروا عن هذه النظرة بالمثل القائل:

"يثنى العود وهو طري، ويربي الطفل وهو غض".

ويستطرد قائلا: "وجعلوا من الطفل محور اهتمام الاسرة في هذه المرحلة، وغمروه بالعطف والحنان، إلى درجة المبالغة إن جاز لنا التعبير، فقد اعطوا للطفل مكانة متميزة، واعتبروه بمثابة الجد الكبير للأسرة، الذي يحتاج إلى رعاية خاصة، والذي يأمر، فيطاع دون أي تردد، ولعل أكثر الاقوال في اللغة الشركسية تعبيراً عن هذه النظرة، هو المثل الذي يقول:

"الطفل هو اكبر افراد الاسرة عمرا".

وقد شكلت مسألة النجاح والفشل في تربية الطفل هاجسا كبيرا لديهم، وحرصوا على نجاح تربيته، ولجأوا لضمان هذا النجاح إلى الجيران، والاقارب، وحتى أبناء الحي والقرية، ليساهموا في تربية الطفل، بعد أن رأوا في فشله كارثة، وقد جسّدوا هذا الهاجس في أمثالهم وحكمهم الشعبية، فقالوا:

"من يفشل في تربية أطفاله، يدفع دموعه ثمن هذا الفشل".

(١) دوافع وعوامل اهتمام الشراكسة منذ عصر الأجداد بتربية الطفل:-

يؤكد (سطاس) بأن دوافع الاهتمام بالطفل تعود إلى عدة عوامل، ويختلف ترتيب هذه العوامل في سلم الاولويات من شعب لآخر، بسبب اختلاف البيئة، وتباين درجات التطور والمفاهيم، والوضع الأمني، كما يختلف هذا الترتيب لدى الشعب الواحد، من مرحلة لأخرى من مراحل تاريخه.

وتعتبر الحكم والأمثال الشعبية الشركسية أحد المصادر الأساسية، التي تعبر عن الدوافع الكامنة وراء اهتمام المجتمع بالطفل، وقد جسّد الشركس هذه الدوافع في حكمهم وأمثالهم الشعبية، تأكيدا على أهمية الطفل ودوره في الحياة.

وأوجز (سطاس) دوافع الاهتمام الشركسي بالطفل وعواملها على النحو الآتي:

العامل الاول: فهو العامل الاقتصادي

اكتشف الإنسان القديم بأن الطفل يد عاملة واعدة، ترفد الأسرة بطاقة جديدة، وازداد دور الطفل واهميته مع انتقال الانسان من مرحلة (الصيد) إلى مرحلة الزراعة والرعي وقد عبر

الشراكسة عن أهمية هذا العامل بالمثل القائل "كثرة الاولاد بمثابة غلة وفيرة" في إشارة واضحة إلى العلاقة الطردية، القائمة في مسألة الكم، بين اليد العاملة والمحصول.

العامل الثاني: فهو العامل الامني

احتل الطفل مكانة هامة في المسألة الامنية لدى مختلف الشعوب القديمة، بسبب التحديات التي كانت هذه الشعوب تتعرض لها، على صعيدي الفرد والجماعة على حد سواء، فهو عنصر واعد من عناصر القوة، في الاسرة والمجتمع في آن واحد. وتوضح الحكم والامثال الشركسية مدى اهتمام الشركس بهذا العامل، فالولد في هذه الحكم والامثال "عماد البيت"، "والرجل بلا ابناء كعظمة بلا لحم"، و"الشجرة الوحيدة تهاب الريح".

العامل الثالث: فهو عامل التكاثر والبناء

اهتم الشركس كثيرا بهذا العامل ولا سيما بعد أن تعرضوا لتحديات هددت وجودهم منذ بدايات تكوين هويتهم القومية، وأدركوا العلاقة القائمة بين البقاء والتناسل فالبقاء رهن نسبة التكاثر، ولا سيما في المجتمعات التي تعاني من نسبة وفيات اعلى من نسبة مواليدها، نتيجة الحروب الدامية شبه المتواصلة، والكوارث الطبيعية، وقد عبروا بوضوح عن هذه المسألة في حكمهم وأمثالهم، منها على سبيل المثال:

"لا تتشكل القرية دون اسرة"

"مجتمع بلا نسل، مجتمع كروي أي دائري" أي لا يزداد ولا ينمو.

"حجر واحد لا يبني دارا".

"شجرة واحدة لا تشكل غابة".

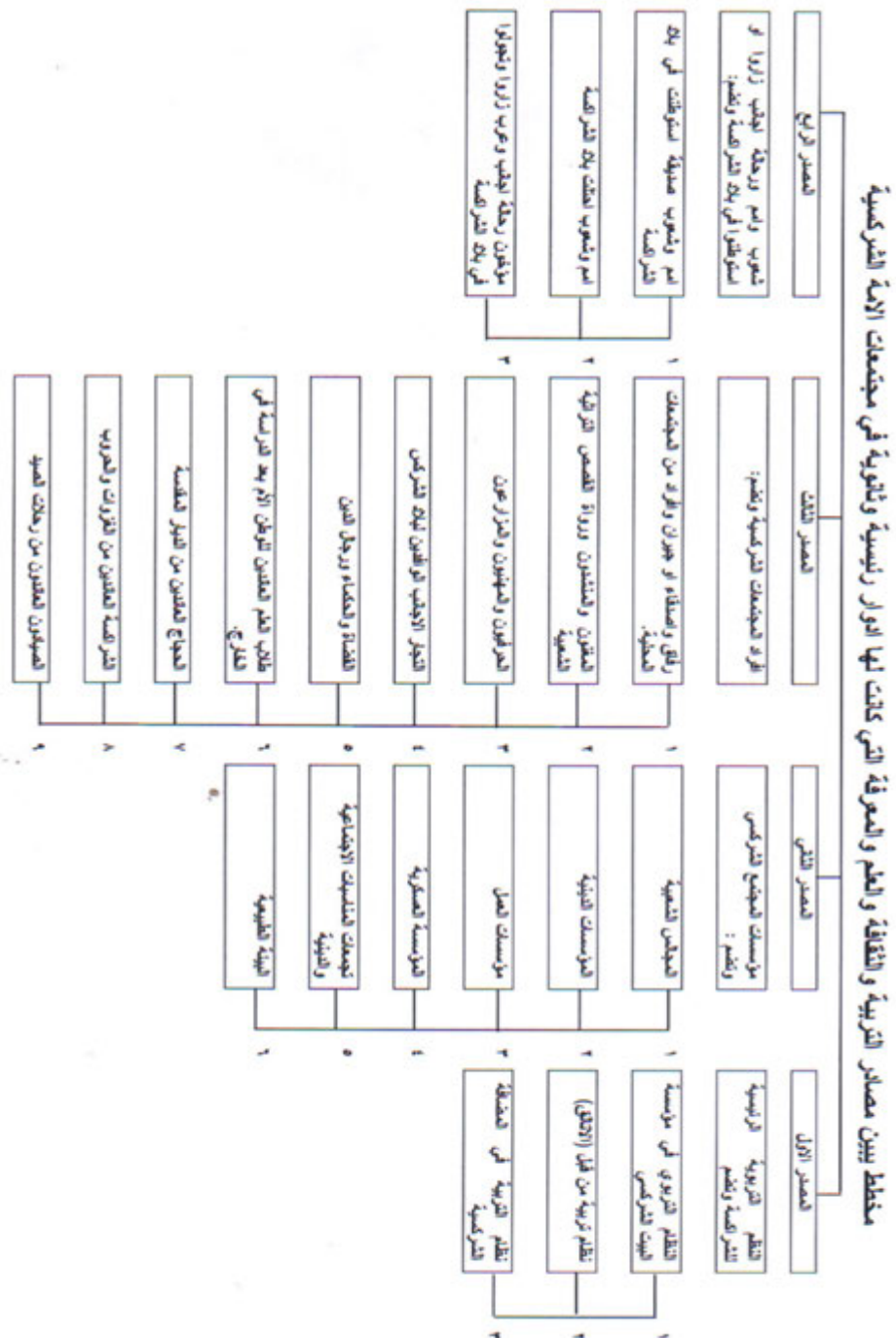
العامل الرابع فهو عامل نفسي:

أكد الشركس على عبء تربية الاطفال، وجسامة مسؤولياتهم، حتى انهم قالوا: "الابناء نار"، وأكدوا في الوقت نفسه بأن الابناء مصدر من مصادر سعادة الإنسان، حتى انهم قالوا: "من لم يرزق بطفل، يعتقد أنه لا يملك شيئا".

لقد ربط الشراكسة بين عبء المسؤولية والسعادة تأكيدا على محوري الحياة، فالسعادة عموما هي الإحساس بالمسؤولية، والالتزام بما يمكن أن يقدمه المرء من عطاءات مادية وروحية للإنسان عامة وللأطفال خاصة، واهتم الانسان الشركسي القديم بتحقيق "الأنا" رغم صعوبة الوصول إليها، فسعى إلى الخلود من خلال التناسل، ولعل المثل العربي القائل "من خلف ما مات" أكبر دليل على وجود هذا المفهوم لدى الشراكسة (٢٠).

* مصادر التربية والتنشئة الاجتماعية في المجتمعات الشركسية:

يشير المؤرخون للأمة الشركسية بأنه لم يكن يوجد وحتى عصر النهضة مدارس نظامية ومعاهد علمية عند الشراكسة، كما أن المجتمعات الشركسية لم تعرف مثل هذه المدارس حتى أواسط القرن التاسع عشر بعد الميلاد، لذلك فإنها كانت تعتمد على أربعة مصادر في تعليم وتربية وتنشئة أبنائها، وفي تزويدهم بمختلف المعارف العلمية والثقافية كما هو مبين في المخطط المرفق.



وبتحليل ادوار كل مصدر من هذه المصادر الاربعة في تعليم وتربية وتنشئة الاطفال وفي تزويد الكبار والصغار بالعلوم والمعرفة والفكر والثقافة توصلنا إلى قيام كل مصدر بالأدوار التالية:

* المصدر الأول: مؤسسة البيت الشركسي في تربية الاطفال وتنشئتهم في المجتمعات الشركسية منذ عصر الأجداد:

للقوف على الاساليب المرتبطة بالنظام التربوي في الاسرة الشركسية، قمنا بمراجعة بعض الدراسات التي قام بها بعض المهتمين من الباحثين الشراكسة منها دراسة "يخول" والذي لخص لنا المراسم المرتبطة بتربية الطفل منذ الولادة وحتى نهاية السنة الاولى من عمره^(١).

وبتحليل هذه الدراسة توصلنا بأن الشراكسة كانوا يولون المراسم المرتبطة بكل مرحلة من المراحل العمرية في السنة الاولى من ولادة الطفل اهمية خاصة، وانها تمر بأربعة انواع من المراسم:

١- مراسم مرحلة الولادة وتقام خلال الشهور الستة الاولى من ولادة الطفل:

ففي اليوم الأول وبعد الولادة مباشرة كان يتم تعريض الطفل للتبريد المفاجئ بغسله بماء بارد جداً، وهذا ما عبر عنه نويمان بقوله: (نسائهن يستلقين على القش - التبن - حيث يستلقي المخلوق الجديد ايضا عند ولادته بجوارها ثم يؤخذ إلى النهر ويغسل بمائه مهما كان الجو بارداً او صقيعاً).^(٢)

وفي اليوم الثالث من ولادته يتم وضع الطفل في (الكوشة) وهو عبارة عن (سرير خشبي هزاز خاص بالطفل) كما هو مبين في الشكل المرفق ويسمى ذلك اليوم (كوشة كايخ) وكانت اول عملية تتم هي احضار (قطة) لتنام فيها، وبعد ذلك توضع فيها (بيضة) حيث كان الاعتقاد بأن القطة ستترك نومها الجميل في "الكوشة" حتى يصبح نوم الطفل هنيئاً كنوم القطة واما (البيضة) فكانت توضع على امل ان يمتد عمر الطفل حتى يصبح لون شعر رأسه وحاجبيه مثل بياض البيضة!

بعد ذلك يُلبسون الطفل ثوبا يسمونه (تسيغوه جانه) أي ثوب (الفأر) وكان بدون فتحات أمامية، ودون ثني في نهاية الثوب من الاسفل اعتقاداً منهم أن يصبح عمره طويلاً بطول الفستان.

وجرت العادة ان يقدم للمدعوين في هذا اليوم، الطعام (كل عائلة حسب إمكانياتها) فمنهم من يذبح الدجاج ومنهم من يذبح الإوز، ومنهم من يذبح الخراف، والذبح يتم عادة على يد أكبر المعمرين في القرية، كما جرت العادة ان تحضر واحدة من المعمرات في الحي قطعة قماش بيضاء، وتعرضها على الحضور مع الدعوات للطفل بطول العمر وحتى يصبح شعر رأسه مثل بياض قطعة القماش، كما كانت العادة ان يقدم المدعوون الهدايا للطفل، ويتم اختيار اسم للطفل في هذا اليوم، والشخص الذي يسمى الاسم كان عليه ان يشتري قميصاً لأحد الاطفال المجاورين للطفل المحتفى به، كما كان يحصل على هدية قد تكون بقرة أو حصاناً.

٢- مراسم مرحلة تربيط الطفل في السرير:

جرت العادة أن يتم تربيط الطفل على يد احدى المعمرات في الحي، كما كان يشترط ان تكون ممن قمن بتربية عدد كبير من الاطفال وأحسنن تربيتهم، وكانت تضع بيضة في اناء مملوء بماء يتلى عليه دعاء معين!! ويوضع بجانب السرير، وتعلق على ثوب الطفل أشرطة (حمرء) بهدف حماية الطفل من العين، ولنفس السبب كانوا يعلقون جمجمة (افعى) على "الكوشة" أو تربط على طوق يوضع حول عنق الطفل، كما كانوا يعلقون قطعة من المعدن على "الكوشة" تيمناً لأن يصبح الطفل صحيح الجسم قوياً كالمعدن، كما كانوا يضعون على جبينه (شحبار) كي لا يصاب بالعين!!

وللمحافظة على صحة الطفل ومظهره العام كانوا يهتمون بوضعية رأسه عند النوم، بحيث لا يكون مائلاً إلى الامام أو إلى الخلف، وكذلك الاعتناء بحاجبيه وتعويد أذنيه على الالتصاق برأسه بشكل مباشر، وتسريح شعره، وعدم ابقائه نائماً على جنب واحد لفترة طويلة، كي لا يؤثر ذلك على نمو عظام رأسه.

٣- مراسم مرحلة اطعام الطفل:

عندما يصبح عمر الطفل ستة أو سبعة اشهر، يبدأون بتقديم طعام اضافي للطفل مع حليب الرضاعة، وعندما يصبح عمره سنة، كان يأكل من الأكل المخصص للكبار، ويعلمونه مسك بعض الاشياء مثل الملعقة والكأس وغيرها، ولكي يكتسب صحة اكثر متانة كانوا يخرجون به إلى الهواء

الطلق، ويعودنه على البرد بالتدريج، ويتم عمل حمام له مرة أو مرتين يوميا، وكانوا يطوفون به في أرجاء "الحوش" ليتعرف على جميع الموجودات فيه، من دواجن وحيوانات وغيرها، ويسمحون له بالمشح عليها بيديه، كي يحصل التقارب بينه وبينها لإبعاد خوفه منها.

كما كانت تقدم الهدايا للطفل من قبل افراد البيوت التي كان يدخلها الطفل للمرة الاولى *، وبعكس ذلك فإن نمو الشعر سيتأثر (حسب اعتقادهم). كما كان يقدم للطفل "مشاية" في هذا العمر تسير على عجلات يمسك بها ويسير خلفها، فتساعده على تعلم المشي.

٤- مراسم مرحلة مشي الطفل:

يصبح الطفل جاهزا للمشي في هذه المرحلة وتسمى (لا قوه تيوفه) أي الوقوف على رجليه أو على أطرافها، حيث كان يفصل له ثوب احمر جميل، يزينونه بألوان مختلفة مزركشة، كي يلتقي الناظرون من الحضور بها، ويبعد عنه عين الحسد، وكانوا يقضون ذلك اليوم بالغناء والرقص وتكرار المحاولات ليتعلم الطفل على البدء بالمشي، ويكون الطفل محور كل النشاطات والبرامج التي تتم في ذلك اليوم، ومن طقوس هذا اليوم ايضا ان يوقفوا الطفل فوق شيء صلب كحجر كبير أو خشبة يابسة، وقصدهم من ذلك ان تصبح ساقا الطفل بصلابة الحجر. كما كانوا يحملون مقصا ويتظاهرون بقص الحبال الوهمية (غير الموجودة) والتي تعيق مشي الطفل!! وكانوا يعتقدون بأن مستقبل الطفل المهني يتحدد في هذا اليوم لذلك كانوا يعرضون عليه اشياء ويتركونه يختار ما يرغب منها، (شاكوش، قامة، منجل، صورة فرس...) الخ هذا بالنسبة للذكور، أما الاناث فكان يعرض عليهن ادوات مثل: (الابرة، الخيط، المقص، طنجرة) وغيرها، فالاداة أو الغرض الذي كان يلتقطه الطفل أو الطفلة، يكون دلالة على المهنة التي سيتقنها عندما يكبر.

٥- مراسم مرحلة قص شعر الطفل:

عند بلوغ الطفل السنة من عمره كانوا يحلقون شعره "على الصفر" وكان الذي يقوم بذلك احد الاشخاص المشهود له بالصلاح، ويشترط فيه ان يكون أبواه على قيد الحياة. وكان يقدم في هذا اليوم الطعام للحضور، كما كان يتم وضع رغيف طابون على طاولة الطعام الدائرية المعروفة باسم (الانة) ويحملون الطفل للوقوف على الرغيف!! ومن ثم يتم اقتطاع جزء مساو لمساحة قدمه من الرغيف، وتقطيعه قطعاً صغيرة وتقديمها للأشخاص الذين قاموا بالتجهيز لذلك اليوم ولوالدة الطفل!!^(١).

(٢) العادات والنظم المرتبطة بتربية الاطفال من الذكور الشراكسة

توصل "برزج" بأن أهم ما كان يميز حياة الشراكسة منذ فجر التاريخ، كثرة الحروب والغزوات، فكان تاريخهم حافلا بالحروب الطاحنة لسنوات مستمرة، مع ما تخلفه من مأس وويلات، فلم يعيشوا حياة هادئة ولم يشعروا بنعمة الأمن والسلام قط. وقد انعكست كل هذه الأمور على نظام التربية في الأسرة الشركسية وهي التربية التي وصفها (برزج) على النحو التالي:^(٣)

- التربية القاسية للطفل بعيدا عن عاطفة الأبوة:

كان أهم ما يميز نظام التربية الشركسية هو قسوتها، فعندما يولد الطفل يبقى في حجر والدته بعيدا عن والده التي تقتضي واجبات رجولته ان لا يداعب ولده ولا يحمله ولا يأكل معه، لاعتقاد قدامى الشراكسة أن العاطفة والرجولة لا تجتمعان، وتعتبر هذه السمة في التربية اعتيادية غير مستهجنة في تلك الظروف القاسية التي سادت بلاد القفقاس، إضافة إلى ذلك فقد كان المولود الذكر يرسل إلى قبائل أخرى بعيدا عن أهل، ويقوم "الاتالق" بتربيته تربية خشنة في إطار الفروسية لينشأ فارسا قويا يتصف بصفات الشجاعة والمروءة.

* لا زال شراكسة المهجر عامة، وفي الأردن خاصة يمارسون هذه العادة من قبل الجمعية تقريبا.

- التربية من خلال اللعب:

يتعلم الطفل الشركسي كيف يصبح رجلاً من خلال اللعب، والألعاب لم تكن مجرد تسلية، وإنما كانت ألعاباً هادفة، ومن الألعاب التي كان يمارسها الطفل الشركسي، (ألعاب القوى) التي يتنافس بها مع أقرانه في (رمي الحجارة) إلى مسافات معينة، (والقفز) عن الحواجز، وصناعة الألعاب من الخشب مثل (السيوف) الخشبية الصغيرة و(القمامات) وغيرها، إضافة إلى تربيته وتعليمه كيف يصنع مجسمات صغيرة لأشياء كبيرة يراها دائماً، كصناعة السلال من القش والكراسي والطاولات الخشبية، وكيف يصنع من الخشب نموذجاً للعربة التي يراها دائماً أمام منزله لنقل القش والمتاع، وهكذا، كما كانوا يدرّبونهم عندما يصبحون فتياناً وشباناً على الجري والرمية والقفز وغيرها من التدريبات والتمارين التي تنمي القوة العضلية والتحمل، وحسن التصرف والبداهة والتصميم وغير ذلك من متطلبات بناء شخصية الرجل الشركسي.

(٣) العادات المرتبطة بتربية الأطفال من الإناث وتتم من خلال:

الأسلوب الأول: خلال اللعب بألعاب خاصة بالإناث:

جرت العادة أن تُلَازِم البنات امهاتهن، يمارسن العبا خاصة بهن كصنع العرائس الصغيرة، وصنع ملابس لتلك العرائس، وتتعلم كيف تعتني بمنزلها من خلال اللعب أيضاً، وبذلك تربّى عند الطفلة الشركسية ملكة حب العمل وحياكة الملابس والتطريز وصناعة المنتجات الحيوانية وغيرها من خلال ما تراه من والدتها. وكانت العادة أن لا تكلف البنت بأية أعمال شاقة، فتربيتها تختلف كل الاختلاف عن تربية الولد لدى الأسرة الشركسية^(٣).

الأسلوب الثاني من خلال التدريب على حركات الرشاقة

أكدت (مامخيغ) بأن الأسرة الشركسية كانت تولي اهتماماً كبيراً للمظهر الخارجي للفتيات الصغيرات وللشابات ولموضوع الرشاقة والجمال، وقد درّبوهن على تعلم الحركات الرشيقية في المشي، وعلى الوقار والاتزان في حركاتها، إضافة إلى تعليمهن الرقص بكل نواحيه الجمالية من تناسق في حركات الأقدام واليدين، وشد الظهر ورفع الرأس وكيفية الجلوس والنهوض بكل خفة على أطراف الأصابع برشاقة، إضافة إلى جمال المشي وإيقاع حركاتها.

الأسلوب الثالث من خلال التدريب على الحياة الزوجية:

يمكن أن نستدل على مدى اهتمام الأسرة الشركسية بتربية (البنت) من قول (مامخيغ) بأن "الأسرة الشركسية كانت تركز اهتماماً خاصاً بسلوك الفتاة الشابة المغادرة ((للحياة الزوجية)) للعيش في كنف أسرة أخرى بصفتها كنتهم، حيث كان يتم تعليمها أي مستوى من الاحترام عليها أن تبديه للكبار (والذي الزوج) وكذلك تعليمها أسلوب التخاطب معهم، والاهتمام الذي عليها أن توليه لوضعها الصحي ومظهرهما العام (الخارجي)، وابداء المشاعر الصادقة في التعامل معهم، وبكلمة موجزة فإن الاهتمام الأول لدى (الكنة) يكون موجهاً لوالدي (الزوج) والأهم بينهما هو والد الزوج، (البشة) لدى القبرداي والتحمادة لدى الأديغة، حيث تعتبر أهميتهم من أهمية الأب، وبموجب الأدب الشركسي فإنه يتوجب على (الكنة) أو (النسة) أن تتعامل معهم بكل لباقة واحترام، كما كان عليها أن تفكر بإطلاق اسم محبب تنادي به كل فرد من أفراد أسرة الزوج، حيث لم يكن من اللباقة مناداتهم بأسمائهم الأصلية، لذلك كان أهل الفتاة وقبل وقت طويل من بلوغها سن الرشد والزواج، يقومون بتربيتها وفق هذه العادات بحيث تتقنها تماماً قبل الزواج، لأن لفظ اسم أي من: (الحمو والسلف وبنت الحمي أو الزوج) يعتبر دليلاً على نقص في التربية، وكان يتم تأنيبها بكلمات: (لم تستطع أن تتدرك عدم لفظ اسم سلفها) وإن نادت حماها باسمه ينفقونها بقولهم (وكأنها هي من أطلقت عليه هذا الاسم).

وفي الحالات الضرورية، وبدلاً من استعمال الاسم الأصلي أو الكنية، كن يستعملن القبا وصيغاً محبة، إن لم يكن للتدليل لللباقة^(٤).

وذكرت (مامخيغ) قصة نقلا عن الكاتب الشركسي (كيشيف) حول هذه العادة تضمنت الخلاصة التالية: "عاش في قرية من قرى القبرطي شاب بالغ وفتاة في الخامسة عشرة من عمرها،

وأرسل أهل الشاب (خطاباً) إلى أهل الفتاة، ولم يكن في المنزل سوى الفتاة وجدتها، وقد أجابت الجدة، بعدم الموافقة على الزواج لأن الفتاة لا تستطيع بعد التكتم على اسم (سلفها) ثم عاد أهل الشاب وأرسلوا (الخطاب) مرة ثانية، وأيضاً أجابت الجدة إن الفتاة التي تتحدثون عنها لا تستطيع ان تكتم اسم (سلفها).

ولما كانت الفتاة معجبة بالشاب وترغب الزواج منه، ولكنها لا تستطيع مجاهرة جدتها بذلك، فقد انتظرت مغادرة (الخطاب) ثم توجهت إلى جدتها وتحدثت إليها قائلة: جدي جدي: حدث شيء طريف وتساءلت الجدة: ما الذي حدث يا روي؟ فتروي الفتاة قائلة:

((لقد أتى (كواكوا) راكضاً وسرق (جاجا) ومع انهم رموه بكسرة الحطب، فقد تسلل عبر شبك القصبان الخشبية، وفر عبر الدهليز الضيق إلى حيث لا يمكن مسكه)).

وهكذا استعرضت الفتاة أمام جدتها إمكانياتها بالتعبير وسرد الحكاية دون استعمال الاسماء الاصلية حيث استخدمت بدلاً من كلمة (ذئب) قالت (كواكوا) وبدلاً من (معزة) استخدمت كلمة (جاجا)، وبدلاً من (بلطة) قالت كسرة الحطب، وبدلاً من (السور) قالت شبك القصبان، وبدلاً من الطريق - (الدهليز) وبدلاً من الغابة قالت إلى حيث لا يمكن مسكه.

فهمت الجدة القصد من قصة الفتاة، وأرسلت إلى (الخطاب) من خلال جيرانها للحضور مجدداً حيث وافق أهل على زواجها^(٥).

(٤) النظم التربوية في الأسرة الشركسية:

نستنتج مما تقدم بأن النظام التربوي الاسري الشركسي كان ينقسم إلى ثلاثة انظمة تربوية فرعية وهي:

النظام الفرعي الاول: نظام الرضاعة:

وهي المرحلة التي يتم فيها رضاعة الطفل من الأم ومن نساء شركسيات مجاورات للأمة، وهي عادة قديمة جداً مارسها الشركاسة حتى قبل الإسلام في بلاد القفقاس، والهدف منها هو توثيق صلة القربى بالرضاعة الذي يجعل سكان القرية الواحدة عائلة واحدة، فيضطرون لذلك ان يصاهروا ويناسبوا من القرى المجاورة لهم. فيوجد هذا التوسع اسباباً لتزاور أهل القرى بعضهم لبعض اثناء السلم، وشد أزr بعضهم البعض وقت الحرب، ومن الرضاعة والمصاهرة والنسب، شكلوا مجموعات قومية متكافلة^(١٦).

النظام الفرعي الثاني: نظام تربية الام:

الاطفال عندما يولدون يبقون في حِجور امهاتهم، بعيدين عن الوالد التي تقضي واجبات رجولته ان لا يداعبهم ولا يحملهم ولا يكلمهم حتى ولا يأكل معهم، وذلك حتى لا تؤثر العاطفة عليهم، على اعتبار العاطفة والرجولة في نظر الشركاسة لا تجتمعان كما سبق ذكره، فقتلوا لذة العطف والحنان، وخلقوا لذة الرجولة والهيبة والاحترام، وهم لذلك تركوا تربية اطفالهم من مرحلة الجنين وحتى سن السادسة للأمهات، حيث كان يتم تربية الاولاد الذكور بعد ذلك وفق نظام (الاتالق) أما تربية الفتيات فتختص بها النسوة وحدهن، وكان اهم ما يشغل بال النسوة هو كمال الانوثة والتواضع وسلامة الطبع والتماسك في اظهار المشاعر، وكن يتعلمن التماسك مع الاعتداد بالنفس حتى يصبحن اكبر من الاحداث.

النظام الفرعي الثالث هو نظام (الاتالق)* في تربية الاطفال وتنشئتهم في المجتمعات الشركسية:

بالرجوع إلى تاريخ الأمة الشركسية منذ عصر قوم (النارتين) تبين بأن الانظمة التربوية التي كانت سائدة في المجتمعات الشركسية منذ ذلك العصر وحتى العصر الحديث هي انظمة انفردت بها الأمة الشركسية، وأن احداً من المؤرخين لم يذكر بأن شعباً او قوماً من الاقوام القديمة كانت لديه

* يطلق على "الاتالق" عند قبائل الشابسوغ مصطلح "حاتو".

أنظمة تربوية مشابهة للأنظمة التي كانت سائدة لدى الأمة الشركسية، وإن كان اليونانيون في عهد (اسبارطة) سبق أن اتبعوا نظاماً تربوياً مشابهاً للنظام التربوي الشركسي المسمى بنظام (الاتالق) إلا أن الدولة عندهم هي التي كانت تقوم بتربية أطفال اسبارطة وليس الأشخاص أو العائلات كما هو الحال في النظام التربوي الشركسي.

وبالبحث عن طبيعة هذا النظام التربوي وعن وظائفه وأساليبه توصلنا إلى الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: ربما كان الجنرال الروسي (بيرغ) أفضل من وصف نظام (الاتالق) بقوله:

"... وبحسب العادات المتداولة منذ قديم الزمن ليس للأمرء أن يقوموا بتربية ابنائهم في منازلهم أو بإشرافهم، وعليهم ما أمكن باكراً (ليس بعيداً عن زمن الولادة) إرسالهم ليتربوا في بيت آخر، ويبدل أي من النبلاء (الأزمن) قصارى جهدهم من أجل الحصول على هذا الشرف، والمنزل الذي يقع عليه اختيار تربية الأمير الصغير يعتبر ذلك شرفاً كبيراً وميزة.

ويدعى المربي المختار في تلك الحالة (اتالق)، وعليه "أن يعلم ويكسي ويطعم المربي لديه حتى يحين موعد إعادته إلى أهله، وهو غالباً ما يتم عند بلوغه سن الرجولة واعتبار أن تربيته قد تمت" كما قال "إن التربية المذكورة عبارة عن التدريب على مختلف الرياضات العضلية المجهدة، والتي تؤدي إلى تنمية القوة الجسدية والمهارة في ركوب الخيل، وأساليب الإغارة والقتال والرمي بالقوس والبنادق والمسدس وغيرها، كما أن التربية تشمل أسلوب: الحديث والمناقشة والمعالجة الفكرية مما يساعده على التفوق في الاجتماعات واللقاءات والمواقف الصعبة^(٥).

صورة تمثل الاتالق

(المربي) والقان

(المربي) الشركسي

الذي كان سائداً في

القرن الثامن عشر

الميلادي



صورة للاتالق (المربي)

والقان (الطفل المربي)

الذي انفرد في نظامها

التربوي الشراكسة منذ

عصر الاجداد.

الحقيقة الثانية: يتربى اطفال العائلات الشركسية من عامة الشعب في كنف اسرهم او اسر مشابهة لهم اجتماعيا، ويتدربون على الحرف والمهن عادة وليس على فنون القتال بهدف تنشئة جيل من الفلاحين والحرفيين والمهنيين الذين كانوا يشكلون طبقة العمال والفلاحين واتباع الامراء والنبلاء.

الحقيقة الثالثة: كانت المرأة تقوم بتربية الاولاد من عامة الشعب حتى يبلغوا السادسة من العمر ثم ينتقلون إلى أيدي الرجال الذين يدربونهم ويعلمونهم الرماية والفروسية، واستعمال بقية الاسلحة بالتدريج. فمثلا كان الطفل يعطى في أول الأمر سكيناً ليتعلم بها اصابة الهدف، ثم يعطى خنجراً، ثم قوساً وسهماً، وهكذا كان الكل يتدرب حسب استعداده على كيفية استعمال الاسلحة وركوب الخيل.

الحقيقة الرابعة: إن بنات الامراء ممثلات الجنس اللطيف تتم تربيتهم ايضا في بيوت أخرى، وتتولى بذلك نساء الـ (أوزدن) من النبلاء، حيث يخضعونهن إلى طاعة عمياء، ويعلمونهن الخياطة والتوشيح بالذهب والفضة وغيرها من الاعمال اليدوية، ولا يسمح لهن بالتحدث إلى الغرباء، ولا يعني ذلك انهن كن يعشن حياة الرهينة، وإذا ما اضطررن للرد عن سؤال احد الغرباء فانهن تأدبا يقمن بذلك وقد استدرن بنصف دورة تقريبا وعيونهن مسبلة. وإذا تزوجن كان مهرها يقدم للنساء اللواتي قمن بتربيتهن^(٥).

الحقيقة الخامسة: لم يكن عمل (الأتالق) عملا وظيفيا بل هو عمل شرفي يقوم به ذوي خبرة ودراية في الحياة من طبقة (الأزذن) وانه عمل معنوي اكثر من وظيفة مأجورة.

ومن المزايا التي كان يوفرها نظام (الاتالق) هو نفس المستوى من التعليم والتدريب الذي تتلقاه شرائح مجتمع الاحرار، وكل حسب المكانة الاجتماعية او الحالة المادية حيث كان يلقي جميع الأطفال العادات والمبادئ الاخلاقية ذاتها، والانسجام بين المجتمعات الاديغية كافة. مع الاختلاف في الدور الذي سيقوم به كل واحد منهم وبحسب طبقته الاجتماعية.

الحقيقة السادسة: يرافق الاب ابنه إلى القرية، حيث يوجد بيت المربي (الاتالق) محاطين بحاشية كبيرة، وبعد إجراء مراسيم التسليم والتسليم. يغادر الاب ولا يعود لزيارة ولده اثناء فترة (التعلم والتدريب) في بيت الاتالق لكي تنغرس فكرة "أحادية المرجعية" لدى الطفل (القان). وإلى ان يبلغ سنه ثماني سنوات، يُترك التلميذ حرا طليقا، يتحرك كيفما شاء ويذهب إلى حيثما شاء، ويستقبله سكان القرية في بيوتهم بكل ترحاب ويطلقون عليه اسماء جديدة للتدليل لكي يعوضوه عن حنان أبويه وأسرته. ولا يخضع في هذه المرحلة لأي قانون ولا يعاقب اذا ارتكب عملا خاطئا، بل يوجه، بحلم وأناة، إلى الطريق الصحيح. وفي سن الثامنة، يبدأ بالخضوع إلى القوانين العامة التي يخضع لها الكبار. وهو يرى أن الكبار هم المثل في التزامهم بالقوانين، فلا يعود يشعر بالغبن من خضوعه للقوانين نفسها التي تحكم عمل الكبار، ويكون القصاص عادلا، يطاله كما يطال كبير القوم، وبنفس وبمقدار الجزاء نفسه، قام بخرق القانون نفسه، وتتواصل التدريبات على ركوب الخيل واستعمال الاسلحة المختلفة خلال ذلك. كما يجري اصطحابه إلى رحلات الصيد والمناسبات العامة والمآتم والافراح والحفلات الراقصة ليتعلم كل شيء عنها.

الحقيقة السابعة: سن البلوغ عند الشراكسة في القفقاس هو (السادسة عشرة)، وفي هذه السن، يكون الشاب قد بدأ يعتمد على نفسه اعتمادا كاملا في تدبير أموره الحياتية، وبإمكانه ان يذهب إلى الحرب لو شاء. وعند هذه المرحلة تنتهي مهام المربي (الاتالق) ويغادر الشاب بمعية حاشية كبيرة يرأسها المربي (الاتالق)، عائدا إلى منزل الاسرة. وتجري مراسيم التسليم في احتفال كبير. ويتلقى (الاتالق) الهدايا من والد الامير (القان) المتخرج ومن اسرته. وقد يمنح لقب (نبيل)، من الدرجة الثالثة - إن كان من اسرة الاحرار (ورق). اما إن كان والده رجلا من عامة الشعب فيكتفى بإقامة الاحتفالات والحفلات الراقصة له.

وجرت العادة في زمن الحروب أن لا يخرج (القان) إلا بعد أن يقوم بمفرده، بمهاجمة مركز حراسة روسي، فيقتل أو يجرح أو يأسر واحداً أو اكثر من أفراد المركز، وإذا قُتل وجب على أحد (القانات) الآخرين استعادة جثته.^(٦)

الحقيقة الثامنة: جرت العادة عند الشركاسة منذ القدم ان يتم تعيين مربيات ووصيفات للفتيات، يقمن على تربيتهن وخدمتهن. وإن كانت الاسرة معسورة الحال، تتولى الخالة او الجدة (من طرف الام) هذه المهمة، وقديما كانت الفتيات يتعلمن فنون الحرب ويخرجن إلى الحرب، مثلن مثل بقية الشباب، إذ لا قيود على حركة وحرية الفتيات اثناء فترة عزوبتهن*.

ثالثا: دور (مؤسسات) المضافة الشركسية (الحاشيش) في تربية وتنشئة الاطفال والشباب والكبار في المجتمعات الشركسية.

يؤكد المؤرخون لتاريخ الامة الشركسية بأن نظام المضافة في المجتمعات الشركسية حتى اواسط القرن العشرين كانت تقوم بأدوار رئيسية في التربية والتنشئة ونقل التراث القومي الشركسي، كما ان هذه المضافات دفعت بعجلة التطور قدما للأمام، وسهلت إغناء الثقافة ونقلها من جيل إلى جيل، كما قامت بدور التنشئة القومية.

اصبحت هذه المؤسسات ومنذ العصور الوسطى، مؤسسات مميزة ونوعا من المؤسسات الاجتماعية التي لعبت دورا اساسيا في تكوين العلاقات الاجتماعية المنظمة بين الشعوب القوقازية عامة وبين الشعوب الشركسية خاصة، ويقول (مايكوميدوف) حول دور هذه المضافات "ولأول مرة سمعت الاغاني البطولية الجديدة وتبادل الاخبار وتعلم الشباب الاغاني والموسيقى والرقص والسياسة والحكمة والتاريخ، واتيكت الفرسان في المضافات الشركسية^(٨).

وحول ما يحتاج إليه الشاب من الاخلاق والطباع الارستقراطية يقول "نغموقة" كانت المضافة عبارة عن دار ندوة ومسرحا وقاعة رقص وقاعة مؤتمرات لحل المشاكل السياسية والاجتماعية وجامعة للجيل الصاعد^(٩).

كما لعبت المضافة في تاريخ الامة الشركسية دورا هاما في نشر الثقافة والادب والتقاليد الاجتماعية عند الامة الشركسية. كما كانت المضافة وسيلة للمحافظة على العادات والتقاليد والاعراف ونقلها للأجيال الجديدة واطلاعهم عليها، حيث كان الحديث والحوار في المضافة يجري عن كل شيء، من المعتقدات الدينية والاساطير، والحكايات، والاشعار الشعبية، والتاريخ، والبطولات والجبن، والنصر، والهزيمة، وغير ذلك. لقد كانت هذه الامور تحكي وتسمع في المضافة وحيانا يجري نظمها شعرا، كما كان يتم نقل هذا التراث من الموجودين في مضافة ما إلى مضافات اخرى وقبائل شركسية شركسية.

ويقول (برزج) حول دور المضافة الشركسية في سرد القصص والحكايات القديمة المعروفة في المضافة، كما يعيد المغنون سرد اعمالهم، وإن كان الضيف نفسه مغنيا متجولا فإنه يتحرف السامعين بما عنده من أغاني، فتحفظ القصائد مباشرة عن ناظمها، ويتكرر تداولها، وتصبح من الأدب الشعبي فيما بعد. لقد كانت هذه المجالس أمكنة لتعلم التاريخ والآداب والعادات الاجتماعية. وعلى هذا فليس من العجب ان تعيش تواريخ وتفاصيل احداث جرت في القرون الماضية حتى اليوم في أذهان الناس بسبب تناقلها في مثل هذه المجالس^(١٠).

وللتعريف بأهمية ودور مؤسسات المضافة في تاريخ الامة الشركسية يمكن الرجوع إلى ما قاله (باتريك) في كتابه اساطير النارتين وملخصها: "تعود أهمية المضافات (المجالس) لكونها تلعب دورا في المجالات الثقافية والاجتماعية والسياسية، كما وانها كانت تستخدم كملتقى لمختلف شرائح وطبقات مجتمع القرية او المدينة، كما كان لها دور تربوي بارز تحل محل المدرسة في تثقيف وتربية جيل الشباب من الابناء والاحفاد". وفيما يلي أهم الأدوار الرئيسية التي كانت المجالس (المضافات) الشركسية تقوم بها في الوطن الأم وفي بلاد المهجر.

* لم تعد عادة تدريب الفتيات على فنون القتال بهدف الخروج للقتال مع الرجال تمارس منذ العصور الوسطى، واصبح هدفهن من تأهيلهن للقتال للدفاع عن أنفسهن.

- ١- **المحافظة على التراث الشركسي وديمومته، واستمراريته ونقله من جيل إلى جيل، من خلال سرد القصص والاساطير عامة، واساطير النارتين خاصة، وكذلك من خلال إلقاء الأشعار القومية والشعبية وأشعار الرثاء والحزن (الغيزة).**
 - ٢- **نقل الأحداث والوقائع التاريخ، وكذلك نقل القصص والأشعار من جيل إلى جيل حيث كان يتم في جلسات المضافة (هاتشيش) سرد القصص والحكايات القديمة المعروفة، كما كان المغنون يعرضون اعمالهم، وإن كان الضيف نفسه مغنيا متجولا فإنه يتحف الحضور بما عنده، فتحفظ القصائد مباشرة عن ناظمها، ويتم تداولها وتصبح من الأدب الشعبي، وبالتالي فإن هذه المجالس كانت بمثابة معاهد لتعلم التاريخ والآداب والفنون فليس من العجب ان تبقى تواريخ وتفاصيل احداث جرت قديما حية على مر الزمان في أذهان الشراكسة بسبب تناقلها في مثل هذه المجالس.**
 - ٣- **المحافظة على التقاليد ونقلها من جيل إلى جيل مع الإضافة أو الحذف حسب متطلبات كل عصر أو زمان.**
 - ٤- **قيام المضافات عبر العصور مقام المدرسة النظامية من حيث نقل المعارف وتربية الاجيال من خلال الانشطة الثقافية التي كانت تمارس في المضافات.**
 - ٥- **قيام المضافات (المجالس) بوظيفة المنتدى الثقافي، حيث كان يتم فيها مناقشة الاحداث اليومية، وكذلك متابعة الاحداث الجارية في المناطق الاخرى، كما كان يتم فيها معالجة المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، بالإضافة الى تبادل المعلومات والخبرات خاصة مع الضيوف الزائرين للقربة.^(١١)**
- رابعا: دور مؤسسات المجتمع الشركسي في تربية وتنشئة الاطفال في المجتمعات الشركسية:**
- ان الدارس لطبيعة تكوين المجتمعات الشركسية يجد بأن المؤسسات المدنية العامة كانت تؤدي أدوارا هامة في التربية والتنقيف والتنشئة الاجتماعية.
- والتي يمكن تلخيصها في الادوار التالية:
- * دور المؤسسة الدينية:** يقصد بالمؤسسة الدينية تلك المؤسسات التي كان يتم فيها اداء الشعائر الدينية الطقوس والعبادات في مختلف مراحل تطور المعتقدات الدينية لدى الشراكسة.
- ويكون في العصور التي كان فيها اجداد الشراكسة وثنيين مثلا، فإن معابد الكهنة قد لعبت أدوارا في تنقيف وتعليم ابناء الشراكسة بأهمية الآلهة ودورها في حياة الشعوب الشركسية، كما كانوا يلقنهم الطقوس الدينية التي تتطلبها المناسبات الاجتماعية، ففي الافراح مثلا كانت تقام طقوس الغناء والرقص، وفي الماتم كان يتم تقديم الأدعية وأنشيد الرثاء وأغاني الحزن، وفي نهاية مواسم الحصاد كانت تقام الولائم ومن ثم حفلات الرقص.. وهكذا.**
- وفي العصر الذي اعتنق فيه الشراكسة الديانة المسيحية** فإن الكنائس كانت تقوم بدور التنوير والتوعية وتعليم الابناء تعاليم الديانة المسيحية.
- وفي العصر الذي اعتنق فيه الشراكسة الدين الاسلامي الحنيف،** فإن المساجد كانت تقوم بدور تربوي اجتماعي ديني من تعليم الشراكسة كبارا وصغارا مبادئ الدين الحنيف من عبادات ومعاملات وكذلك تحفيظهم القرآن الكريم وتعليمهم الاحاديث النبوية الشريفة.. الخ.
- دور المجالس الشعبية:** لعبت المجالس الشعبية التي دأبت الامة الشركسية في تشكيلها منذ عصر مجالس الامهات ومجالس الاباء، وفي مراحل لاحقة فإن مجالس الحكام والرؤساء والمجالس القومية والوطنية كان لها اكثر من دور في توجيه وتنقيف وتوعية مختلف طبقات الشعب في كثير من القضايا السياسية والاجتماعية والعسكرية.. الخ وبالتالي، فإن مثل هذه المجالس كانت مصدرا رئيسيا من مصادر نقل المعارف على اختلاف انواعها ومستوياتها إلى مختلف طبقات مجتمعات الأمة الشركسية.

دور مؤسسات العمل: ويقصد بمؤسسات العمل تجمعات الحرفيين والمهنيين والزراعيين المختصين الذين كانوا يقومون بدور نقل معارفهم ومهاراتهم الحرفية والمهنية إلى الأبناء والأحفاد، وبذلك تمكن أجداد الشراكسة من الحفاظ على الخصائص الصناعية والحرفية والمهنية التي اشتهروا بها منذ القدم مثل: الصناعات المتعلقة بالحدادة والنجارة وأعمال الصياغة، وأعمال الزخرفة، والأعمال الجلدية، والحياسة والتطريز... الخ.

دور المؤسسة العسكرية: لم يكن لدى الشراكسة منذ عصر الأجداد مؤسسات عسكرية نظامية وجنود محترفين، وإنما كانوا يشكلون فرقاً للمقاتلين عند الحاجة، على اعتبار أن كل شركسي هو فارس مقاتل منذ الفتوة، وأنه قادر على القتال في أي وقت. والنظام العسكري الذي كان متبعاً عند الشراكسة هو نظام التشكيلات العسكرية الصغيرة، وكانت الوحدة الواحدة تتشكل من (١٠٠) مقاتل من ذوي الخبرة، وكانت كل وحدة تعيش معاً أسابيع وأحياناً أشهراً، وبالتالي فإن الشباب المقاتلين كانوا يتعلمون ويكتسبون خبرات كثيرة من بعضهم البعض، حيث كانوا يمثلون مجتمعاً مصغراً يقوم فيه أفرادهم بجميع الأدوار التي يمكن أن يقوم بها أفراد أي مجتمع كبير من أعمال إدارية، وفنية، وصحية، وتموينية وغذائية، بالإضافة إلى معالجة المشاكل النفسية التي تنجم من استمرار تعرض المقاتلين لغزوات وهجمات بربرية ووحشية. وبالتالي فإن ساحات المعارك كانت أكبر مدرسة لتعليم وتدريب المقاتلين الشراكسة على مختلف مجالات الحياة في ظروف نفسية وصحية ومعيشية صعبة للغاية.

دور المناسبات الاجتماعية والاقتصادية والأعياد الدينية:

شعوب الشراكسة ربما كانت أكثر الشعوب القديمة اهتماماً بإحياء المناسبات الاجتماعية والاقتصادية والدينية مثل: الحفلات التي تقام بمناسبة الأعراس وحفلات الرقص (الجكو) في المناسبات الاجتماعية مثل الولادة، والظهور، وعودة الغائب، واستقبال ضيوف أقرباء أو أغراب، بالإضافة إلى حفلات (الشابشة) التي كانت تقام لتسليّة المصابين بجروح أو كسور. والحفلات التي كانت تقام بعد جني الثمار والحصاد، وحفلات الأعياد والمناسبات الدينية.

وأجداد الشراكسة الذين انشأوا مثل هذه المناسبات، لم ينشئوها عبثاً ومن أجل التسليّة والترفيه وممارسة الرقص والغناء فقط، وإنما كان الهدف من إقامة مثل هذه المناسبة هو خلق فرص لتثقيف وتربية وتوجيه الأطفال والشباب من الجنسين عن طريق الممارسة، وإعطاء أمثلة ونماذج من السلوك والتصرفات السليمة، وبالتالي كانت هذه المناسبة بمثابة مواقف تربوية يتعلم فيها الصغار العادات الشركسية التي تعبر عن الصدق والأخلاص والتضحية، كما تعبر عن مبادئ وقواعد التعامل مع الكبار في السن ومع المرأة، بالإضافة إلى تعريفهم بأداب المحادثة والمخاطبة والقاء التحية.. هذا بالإضافة إلى تعلمهم آداب المائدة وآداب تناول الطعام.. الخ.

دور البيئة الطبيعية المحيطة بالتجمعات الشركسية:

ربما كانت البيئة الطبيعية المتمثلة بالغابات والأنهار والبحار والجبال وغيرها من مظاهر الطبيعة المحيطة بالتجمعات الشركسية تشكل (مدرسة طبيعية متكاملة) فمنها كان يتعلم الشباب والفتيان الشراكسة أسرار الطبيعة، كما أنها كانت تشكل مصدر معارف عن أسرار الطبيعة، كما أن الثروة الحيوانية كانت تشكل أيضاً مصدر معرفة لكثير من أسرار الحياة البرية، وأما الطبيعة المناخية لبلاد الشراكسة فكانت مصدر تحدٍ للشباب والفتية والكبار، وقسوة الطبيعة علمتهم الكثير عن كيفية تفادي أضرارها والتمتع بفوائدها.

خامساً: دور البالغين في المجتمع الشركسي في تربية وتنشئة الأطفال وفي توعية وتوجيه الشباب.

يؤكد الدارس لحياة المجتمعات الشركسية قديماً وحديثاً بأن الأفراد البالغين كانوا يشكلون مصدراً من المصادر للتربية والتثقيف ولعبوا أدواراً في تنشئة الصغار والشباب نذكر منها الأدوار التالية:

١- دور الرفاق والاصدقاء والجيران وافراد المجتمعات المحلية في القرية الشركسية

الدارس لأسلوب حياة الشراكسة منذ عصر الاجداد، يجد بأنهم يتميزون عن غيرهم من الشعوب بعاداتهم الاجتماعية عامة والعادات المتعلقة بحق أي شركسي من البالغين سواء كان صديقاً او جاراً او احد سكان القرية من توجيه الاطفال والشباب وارشادهم للسلوك الصحيح، كما يحق له محاسبة ومساءلة أي شركسي يخرج عن (الخايزة) العادات المرعية دون ان يكون للاباء حق الدفاع عن ابنائهم المخطئين او المتجاوزين للعادات المرعية، وبالتالي فإن هذه الفئة كانت تعدّ مصدراً هاماً للتربية والتنشئة، وأن دورها يكمل دور المؤسسات التربوية سابقة الذكر.

٢- دور الفنانين والمنشدين والشعراء في التربية والتثقيف.

يقول (أزبك)^(١٢) بأنه توصل من روايات المعمرين الشراكسة في تركيا إلى حقيقة مفادها أن الشعراء (وساكؤ) كانوا في العادة يمارسون نشاطاتهم في أماكن إقامتهم، ويلقون القصائد (رجالا ونساء) في المضافات التابعة لقريتهم أو في ساحات القرية، ونادراً ما كانوا ينتقلون إلى القرى المجاورة، أما المغنون الشراكسة (وردؤه) فكانوا يتجولون بين القرى خارج منطقتهم كما كانوا يغنون في الافراح والاعياد.

ويقول عنهم (لابينسكي) الذي زار بلاد الشركس عام (١٨٤٠)، بأنهم كانوا موهبين وكانوا يتناولون في اغانيهم كل فعل جيد أو سيئ وكل بطولة أو جبن.. وكل تضحية أو انانية.. وكل بخل أو كرم.. وكل جمال أو حب.. وكانوا بمثابة القضاة الذين يحكمون على الناس.. وكانت احكامهم على المخطئين او المسيئين احكاماً من (عامة الناس) حيث كانوا يخشونهم ويحسبون لهم الف حساب.^(١٣)

واما (نويمان) فإنه يؤكد بأن المغنين المتجولين كانوا يشاركون في المعارك؛ لبث روح الشجاعة والحماس في نفوس المقاتلين الشراكسة من خلال إنشادهم قصائد البطولة والتمجيد.^(١٤)

وكذلك فإن (الرواة) للقصص والاساطير عامة واساطير النارتيين خاصة كان لهم دور فاعل في توعية وتثقيف الشراكسة كباراً وصغاراً من خلال سردهم للقصص ذات المغزى والمعنى التربوي والثقافي أو العسكري... وهناك الالاف من هذه القصص التي انتقلت من جيل إلى جيل وهي قصص تراثية تعبر عن حياة الاجداد والآباء منذ عصر النارتيين.

نستنتج مما تقدم بأن هذه الفئة من الشراكسة كان لها دور بارز في نقل المعارف التراثية، وفي توعية وتثقيف افراد المجتمع الشركسي صغاراً وكباراً، نساء ورجالا، حتى اعتبرت هذه الفئة هم المعلمون الاوائل في المجتمعات الشركسية منذ القدم وحتى أواسط القرن العشرين.

٣- دور الحرفيين والمهنيين والمزارعين

لما كانت المجتمعات الشركسية منذ عصور ما قبل التاريخ هي مجتمعات رعوية وزراعية ثم تحولت تدريجياً إلى مجتمعات صناعات (يدوية) وحرف مهنية، فإن دور هذه الفئة في نقل معارفهم ومهاراتهم في الصناعات اليدوية وفنون الزخرفة أصبح دوراً ريادياً، وانهم كانوا بمثابة مدربين ومعلمين في (التربية المهنية) واستطاعوا المحافظة على هذه المهنة على مر الزمان حتى أصبحت بلاد الشراكسة منذ عصور ما بعد الوسطى بلاد (الصناعات اليدوية) وصدّروا للمنطقة القفقاسية عامة وللعديد من البلاد الأوروبية خاصة منتوجاتهم الصناعية، وخاصة ما يتعلق بالمعدنية عامة، والبرونزية والنحاسية والصياغة والغزل والنسيج والزخرفة والحياكة والتطريز والصناعات الغذائية الخفيفة، وخاصة ما يتعلق منها بالعسل ومشتقات الالبان وغيرها.

٤- دور التجار الاجانب الوافدين لبلاد الشراكسة من اوروبا وآسيا وكذلك دور التجار الشراكسة العائدين من الخارج.

أكد السفير الفرنسي (مسيو بيوتيل) لدى دولة القرم على كبر حجم التبادل التجاري مع شعوب غرب القفقاس عامة وبلاد الشراكسة خاصة خلال الفترة (١٧٥٠-١٧٦٢)، وقال: "ان أكثر

التجار الذين كانوا يتوافدون على بلاد القرم هم من جنوة، وانجلترا واسبانيا، وتركيا، وبلاد القرم، وكان يرسوا في الموانئ القفقاسية على البحر الاسود وبحر قزوين حوالي (٩٠٠) سفينة سنويا عدا عن السفن الصغيرة التي كانت ترسو على موانئ أخرى، وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على أن أعدادا كبيرة من التجار الاوروبيين والآسيويين كانوا يتوافدون إلى بلاد الشركاسة بقصد التجارة، وان تعاملهم التجاري مع القفقاسيين الغربيين في مناطق الكوبان كان يجرى في جو من الحرية والامان وعلى درجة عالية من الصدق والخلق، كما يؤكد بعض المؤرخين العرب وغيرهم من المؤرخين الاجانب خاصة الفرنسيين، بأن التعامل بين الشركاسة والتجار الاجانب كان يتم من خلال مترجمين، وان البازارات وامكن التبادل التجاري كانت تتحول إلى منتديات حضارية وأن مئات من التجار الذين يمثلون ثقافات وحضارات مختلفة كانوا ينقلون معارفهم وثقافتهم وعلومهم بطرق مباشرة وغير مباشرة للمتعاملين معهم من الشركاسة، وانهم (أي الشركاسة) استفادوا وافادوا كثيرا من تعاملهم مع التجار الاجانب ونقلوا عنهم بعض عاداتهم، وأساليب حياتهم، وطرق معيشتهم لأنهم كانوا يقضون فيهم فترات طويلة.

واما بالنسبة للتجار الشركاسة العائدين من رحلاتهم التجارية إلى مناطق قوقازية مختلفة. وإلى البلاد الاوروبية والآسيوية المجاورة لهم، فكان لهم دور كبير في نقل معارف جديدة اكتسبوها من تواجدهم في تلك البلاد، كما كانوا يتحدثون عن مشاهداتهم وعن تجاربهم وعن المعارف والعلوم التي اطلعوا عليها خلال رحلاتهم التجارية.

٥- دور القضاة والحكام ورجال الدين:

توصلنا في دراستنا لمفهوم القضاة عند الشركاسة بأنه مفهوم قديم، ويعود تاريخه إلى (مجالس النارتيين) في عصور ما قبل الميلاد، كما كان لديهم أشخاص مختصون في الفصل في المنازعات بين الافراد او المجاعات، وان الشخص الذي يقوم بهذه المهمة كان يشترط أن تتوفر فيه صفات النزاهة والاستقامة والعدل، وأن تكون لديه معرفة خاصة بالعادات والاحكام التي تتعلق بمهنة القضاء، وكان القاضي (اليدج) هو أول رئيس محكمة في عهد قوم نارت، وعندما اعتنق الشركاسة الدين الاسلامي اصبح لديهم قضاة مؤهلون في علوم الدين والدنيا، يتمتعون بالنزاهة في حكمهم، ومن اشهر القضاة الشركاسة كان القاضي (ورى) وعاش في نفس الفترة التي عاش فيها الحكيم الشركسي (قازنوقة جباغي) وكذلك القاضي (ابوق حاجي اسحاق) من طبقة (الورق) الشركاسة والذي يعود له الفضل في انشاء المحاكم في عهد الامير (عادل كراي).

ويؤكد الباحثون في نظام القضاء الشركسي بأن القضاة لم يكن دورهم الفصل بين المتخاصمين او المتنازعين واصدار الاحكام بحق المذنبين فقط، وانما كان لهم دور إصلاحي وإرشادي، فضلاً عن توعية وتنقيف للناس بأحكام الشريعة الاسلامية مثلهم مثل رجال الدين اولاً، كما كان لهم دور في تنوير عامة الناس بالعادات والقيم الاخلاقية، وتعريفهم بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، وبالتالي فإن القضاة كان لهم دور ريادي في المجتمعات الشركسية، كما كانوا القدوة والمثل والانموذج للرجل الشركسي (أديغة - له) الذي يتحلى بالصفات والسمات المميزة للانسان الشركسي.

وكذلك فإن القاضي (قازنوقة جباغي) الذي اصبح حكيماً وفيلسوفاً له نظريات فلسفية وقوانين في تفسير الظواهر الاجتماعية مثل قانون (الاضداد) كما يعتبر صاحب مدرسة حديثة في العادات الشركسية، حيث قام بإحداث تغييرات جوهرية على العادات الشركسية، بإلغاء العادات التي لم تعد تتناسب مع مبادئ الدين الاسلامي الحنيف، وكذلك العادات التي لم تعد تتناسب مع طبيعة التغيرات التي حدثت في المجتمعات الشركسية في عصره، كما اضاف عادات جديدة كثيرة وهذب عادات أخرى.

وبدراسة حياة (جباغي) وسيرته وجدنا بأنه كان اكثر رجال الشركاسة قاطبة ممن لهم دور في توعية وتنقيف وتوجيه وتعليم الزعماء والامراء وغيرهم من القادة السياسيين وقادة المجتمعات الشركسية في عصره، فكان هو العالم والفيلسوف والحكيم والقاضي، الذي تكن له جميع الشعوب

الشركسية التقدير والاحترام، حتى يومنا الحاضر، والزائر للوطن الأم يجد له أكثر من تمثال في أكثر من موقع.

٦- دور طلاب العلم العائدين من الدراسة من داخل وخارج القفقاس:

لعب الشراكسة الذين عادوا من دراستهم في المعاهد العلمية عامة والدينية خاصة من بلاد الداغستان، والقرم، وتركيا وروسيا، ومصر دوراً في مرحلة لاحقة، فهؤلاء الطلبة كانوا يشكلون الطبقة المتعلمة تعليماً نظامياً في المجتمعات الشركسية، وإن لم يكونوا بأعداد كبيرة، إلا أنهم كانوا فاعلين في نقل المعارف والعلوم عامة والعلوم الدينية خاصة، وهم الذين تولوا مراكز قيادية في المجتمعات الشركسية من قيادات سياسية ودينية وقضائية واجتماعية وتربوية، وجميعهم كانوا من رواد مجالس المضافات حيث كانوا يقومون بالتحدث عن علومهم ومعارفهم وعن خبراتهم التي اكتسبوها من احتكاكهم بثقافات أجنبية تختلف عن ثقافة الشعوب الشركسية والقفقاسية خاصة.

٧- دور الحجاج العائدين من الديار الإسلامية المقدسة في كل من مكة والمدينة والقدس:

بدأ هذا الدور بعد اعتناق الشراكسة الدين الإسلامي، حيث توافد أعداد من كبار السن لأداء فريضة الحج، وكانت مرحلة الحج تستغرق أحياناً سنة فأكثر، وجرت العادة أن يقوم أهل قريته والقرى المجاورة له بزيارته للسلام أولاً، وللتبريك ثانياً، وللإستماع إلى كل المعارف والخبرات المكتسبة، ثالثاً، وبالتالي فإن الحجاج كانوا مصدراً من مصادر المعرفة في المجتمعات الشركسية.

٨- دور العائدين من الغزوات والحروب:

اشتهر الشراكسة في العصور القديمة منها وعصور ما بعد الميلاد بشن بعض الغزوات والحملات العسكرية على الشعوب المجاورة لهم أو البعيدة عنهم، دفاعاً عن الأرض والعرض، وإن غزواتهم كانت تستغرق أشهراً طويلة، يعودون بعدها لبلادهم محملين بالغانم أولاً، وبقصص الصعوبات والمشاكل التي واجهتهم ثانياً، وبتجارب كثيرة اكتسبوها من غزواتهم وحملاتهم العسكرية ثالثاً، تلك التجارب والخبرات التي كانت مادة غنية للشعراء والمغنين، ومع مرور الزمن كانت تصبح من التراث القومي الشركسي الشفوي.

٩- دور الصيادين العائدين من رحلات الصيد:

كان الصيد الشغل الشاغل للشراكسة منذ العصور الحجرية، حيث يؤكد المؤرخون لحياة الشعوب القفقاسية القديمة بأنهم بدأوا حياتهم بعد خروجهم من الكهوف بحياة الصيد، واستمرت معهم هذه المهنة حتى العصر الحديث، وكانوا ينظمون رحلات الصيد إلى مناطق بعيدة عن مناطق مسكنهم، كما وأنهم كانوا يقضون أياماً واسابيع في رحلات الصيد، ولم تكن مهمتهم الصيد فقط، وإنما كانوا يتعرفون على كل ما هو موجود في البيئة المحيطة بمواقع الصيد من حيوانات وطيور، ونباتات، وتضاريس طبيعية، وغيرها، واستخدم الشراكسة الصيد وسيلة لتدريب الشباب الشركسي على حياة المخاطرة والمجازفة وعلى اكسابهم الشجاعة والجرأة والقدرة على تحمل الصعاب، وبالتالي فإن مهنة الصيد كانت بمثابة مدرسة لتنشئة الشباب والفتيان، كما كانت مصدراً هاماً لإكساب الكبار والبالغين معارف حول النباتات الطبيعية وهي المعارف التي كانوا ينقلونها إلى رواد المجالس والمضافات من جيل الأبناء والأحفاد.

(١٠) أدوار الشعوب والأمم التي استوطنت بلاد الشراكسة وكذلك ادوار الرحالة الذين زاروا وتجولوا في بلادهم.

ربما كانت بلاد القفقاس عامة، وبلاد الشراكسة خاصة، من أكثر البلاد جذباً للأغراب الزائرين عامة والرحالة الباحثين خاصة، وإن المئات منهم كانوا يتوافدون على بلاد الشراكسة، ويقضون في مضافاتها، ويقضون فيها فترات طويلة لأكثر من هدف أو غاية، فبعضهم كانوا يزورون البلاد لأهداف تجسسية، وبعضهم الآخر لأهداف علمية وبحثية، وكانت جنسيات أكثر الرحالة أو الزوار الأغراب في العصور القديمة من اليونانيين والبيزنطيين والايطاليين، وفي الفترات ما بعد العصور الوسطى فإن أكثرهم كانوا من الفرنسيين، والألمان، والإنجليز، والأترک، والروس.

ولعبت هذه الفئة من الأجانب أدوارا بارزة في نقل ثقافتهم، ومعارفهم وعلومهم إلى الشراكسة بالتحدث عنها في المضافات الشركسية وهي المضافات التي كانت تفتح أبوابها للغريب قبل القريب، كما أن هذه الفئة تمكنت من دراسة حياة الشعوب القفقاسية، ووثقوا عاداتهم واساليب معيشتهم، كما درسوا جغرافية القفقاس، وربما كانت افضل المراجع العلمية عن حياة القوقازيين هي المراجع التي كتبها أولئك الرحالة منذ عهد هيردوت، ابو التاريخ اليوناني الذي تجول في بلاد الشركس في القرن الخامس قبل الميلاد ومن بعده (سترابون) (ومورجان) وغيرهم من المؤرخين القدامى.

كما ان الرحالة الذين زاروا بلاد الشراكسة في القرون الثلاثة الاخيرة كان لهم تأثير على اسلوب حياة الشراكسة، ويعتبرون المراجع الاساسية لمن يرغب في دراسة الحياة الاجتماعية لدى الشعوب الشركسية ونظم الحكم فيها.

واما بالنسبة لدور الامم والدول والشعوب والقوميات القوقازية منها وغير القوقازية التي اختلط بها الشراكسة منذ القدم بحكم الاستيطان في بلادهم أولا، وبحكم احتلالها لبلادهم ثانيا.

ربما كانت البلاد القوقازية عامة وبلاد الشراكسة خاصة اكثر البلاد التي كانت تطمع بها الأمم والشعوب والقوميات القديمة وان بعض هذه الامم والشعوب قد استوطنت بلاد الشراكسة لفترات طويلة، مثل: (قدماء اليونان والرومان والحثيين، والبيزنطيين والكميريين والساسانيين)، بالإضافة لشعوب احتلت بلاد الشراكسة لفترات قصيرة، إلا انها كانت مسالمة مثل قدماء المصريين في عهد رمسيس الثاني، و قدماء الصين وقدماء الهند... الخ. فقد أثرت حضارة هذه الشعوب العريقة على حضارة الأمة الشركسية واغنت ثقافتها، كما استفادوا وافادوا من بعضهما البعض وجرى تبادل ثقافي بينهم وبين هذه الشعوب كما يتضح من ذلك قول (سمكوغ):

"جرى تبادل ثقافي واسع النطاق، وقد اقتبس اليونانيون كثيرا من اجمل اساطيرهم من اساطير نارت الشركسية، وجرت حوادث تلك الاساطير في القفقاس مثل صلب (بروميتية) على قمة البروز متأخرا اكثر من الف عام عن (نصرن جاكه) مما يدل بدون شك على اسبقية الادب (الروحي) والثقافي القفقاسي الذي نهلت منه الحضارة اليونانية بدون حسيب ولا رقيب (١٥).

ومن اهم مظاهر التبادل الثقافي بين قدماء الشراكسة ايضا، و قدماء اليونان، هو التشابه الموجود في اساطير كل منهما مثل: اسطورة (الصوف الذهبي) واسطورة (اوديسا) و(بروموتيه) واسطورة (البطل آخين) التي تشبه اسطورة الناريتين حول (سوسروقة) وقصة العملاق الاعور (Yhij - العملاق) ذو العين الواحدة، وكذلك قصة (ايرسكيل) سجين المغارة عند الابخاز.

كما نستدل على هذا التبادل الثقافي مع قدماء اليونانيين وجود تشابه في بعض العادات وفي بعض الفنون والزخرفة (١٦).

كما أكد (جوناتوقه) بأن اليونانيين تركوا في قفقاسيا آثارا مدنية، وأن الشراكسة استفادوا من هذه المدنية كثيرا، كما كان للبيزنطيين دور كبير في انتشار الدين المسيحي في بلاد الشراكسة، وبأن الشراكسة استفادوا ايضا من ثقافة وحضارة الحثيين وقدماء المصريين (١٧).

هذا بالإضافة للاستفادة من الثقافات والمعارف والعلوم التي كانت تتمتع بها الشعوب والامم الاخرى التي احتلت او استوطنت بلاد القفقاس بشكل عام، ومنها الثقافة الاسلامية العربية بشكل خاص بعد اعتناقهم للدين الاسلامي الحنيف.

واما روسيا القيصرية فقد كان لها دور في تعليم بعض أبناء الأمراء الشراكسة حيث كانت تفرض السلطات الروسية على بعض زعماء الشراكسة وخاصة في مناطق القبرطاي والبذادوغ ارسال أبنائهم رهينة لديهم، على أن يعلموهم القراءة والكتابة بالروسية ويدرسوهم في المدارس العسكرية ويتخرجوا منها ضباطاً في جيش القيصر، وان العديد من هؤلاء الضباط الذين هم من الشراكسة اصلا وصلوا إلى رتبة لواء في جيوش القيصرية. وبعضهم نسي اصله ووطنه، وقام بأعمال وحشية ضد بني قومهم الشراكسة اكثر بكثير مما قام بها ضباط روس منهم: الجنرال

الشركسي كروخ قوة، والجنرال شبش، كما كان الجنرال تشيركاسكي بيكوفيتش والجنرال بايقوه او (بيقوه) الذي أصبح مساعداً لأمر القوات الروسية في القفقاس، والجنرال الشيشاني كوندوقوف أمر الجيش الروسي في منطقة شيشان.*

طرق وأساليب التربية والتنشئة الاجتماعية لدى الأمة الشركسية

استخدم الشركاسة منذ عصر الاجداد في فجر التاريخ وحتى العصر الحديث عشرات من الأساليب والطرق المباشرة منها وغير المباشرة في تربية الأجيال من الأبناء والأحفاد وفي تنشئتهم تنشئة اجتماعية سليمة، تتفق مع قواعد ومبادئ (العادات) التي تعتبر بمثابة (دستور) ملزم لجميع أفراد المجتمعات الشركسية من رؤساء وأمرأ ونبلاء وأحرار قبل ان تكون ملزمة لعامة الناس من فلاحين واتباع وخدم.. الخ، وربما كان الباحث الشركسي (يخول) المختص في التراث الشركسي الشفوي من شركاسة الاردن اكثر من كتب في نماذج واساليب التربية الواردة في التراث الشركسي الشفوي^(١٨) وهي على النحو التالي:

الاسلوب الاول: هو اسلوب التقليد أو المثل والنموذج:

يقول (يخول) يولد الطفل بدون أية معارف، إذ يحصل عليها من المحيط العائلي، فيتخذ المحيطين به نماذج يقلدهم في كل تصرفاته، سواء كانت صالحة أم طالحة، لذا يجب على الوالدين والأشقاء والشقيقات وكل المحيطين بالطفل، التركيز على مرحلة الطفولة وتقديم النماذج الجيدة التي تساعد الاطفال على التنشئة الصحيحة في تربيتهم.

وفيما يلي تحليل لدور الكبار بوصفهم نماذج وقوة:

١- الام نموذجاً: يقول المثل الشركسي (قبل الزواج من الفتاة تحرّ عن أمها).

فالأم هي أهم شخص يتخذه الطفل نموذجاً يقلدها، وبالتالي فإن صفاتها تنتقل إلى اولادها بخيرها وشرها.

والمثل السابق لا يعني فقط ان تكون الفتاة مطابقة لأمها بجمالها وقوامها بل ايضاً بأدبها وتربيتها، فالأم مرآة ابنتها.

ومثال آخر "يمشي الطفل على الطريق الذي تحدده الأم".

٢- دور كبار السن بوصفهم نماذج وقوة:

فإذا لم يقيم الكبار بتحصين أنفسهم ضد كل السلوكيات والتصرفات التي تؤثر سلباً على اولادهم، وإن لم يكونوا نماذج جيدة يقلدها الصغار، فأين يجد الصغار نماذج يحتذون بها؟

ويقول المثل الشركسي بهذا الخصوص:

"إذا تعاملت مع والديك بشكل صحيح امام ناظري أولادك، فستجد نفس المعاملة من اولادك، فكما انت نموذج لابنك فوالدك نموذج لك".

وهذا ما يعنيه المثل القائل:

"من لا يحسن تربية أولاده، فسيدفع ثمن تقصيره" فالأطفال يطلعون على كل صغيرة وكبيرة من تصرفات الاكبر سناً، ويأخذون منهم النماذج التي يقلدونها في ملبسهم ومأكلهم ومشربهم وكيفية مخاطبتهم مع الآخرين، وكيف يفرحون وكيف يتألمون وكيف يحبون وكيف يكرهون، فكل هذه الأمور وغيرها نماذج يقلدها الصغار.

٣- دور الاصدقاء بوصفهم نماذج وقوة:

* مجلة قفقاسيا الثقافية، العدد ٢٩ إلى ٤٢، صفحة ٥٦ انقرة ١٩٧٠.

للمصديق دور كبير في تقديم النماذج التربوية، فنرى امثالا (مجازية تعبيرية) حول هذا الموضوع مثل "إذا رافق الكلب كلبا جيدا يصبح مثله، وكذلك الحصان إذا عايش حصانا جيدا".

"إذا ركبت الحصان فلا بد ان يعلق بك بعض من شعره".

فالآباء والامهات يجب ان يحرصوا كل الحرص على اختيار الاصدقاء لأبنائهم، حيث انهم سيتأثرون بالنماذج التي يصاحبونها، وهذه النماذج تكون منها السيئة ومنها الحسنة، وليس بالضرورة أن يقلد الابناء النماذج الحسنة، ويرجع ذلك إلى محدودية تفكيرهم إذ لا يميزون بها الخبيث من الطيب.

الاسلوب التربوي الثاني: فهو اسلوب النصح والارشاد والامثال لأوامر الكبار:

استخدم الشركاسة منذ القدم هذا الاسلوب في تربية الاطفال على الاخلاق الحميدة والتحلي بالإنسانية وحب الوطن والابتعاد عن الشر ومخالطة الناس الاخيار وتكوين علاقات حسنة معهم، كل هذه الامور وغيرها كانت تتم عن طريق (النصح والارشاد) وكانت الوسائل التي تستعمل في تحقيق ذلك كثيرة نذكر منها:

أسلوب سرد الحكايات والقصص التراثية الهادفة.

وفيما يلي نماذج من هذا النوع من الاسلوب:

الأسلوب الأول سرد القصص التراثية:

لتوضيح هذا الاسلوب نقدم قصتين وبعض الاغاني الوطنية والمرثي الحزينة كنماذج لهذا الأسلوب وعلى النحو التالي:

القصة التراثية الاولى: وهي قصة الام التي اخطأت في تعليم ابنائها طريقة إلقاء السلام (التحية) على الناس وملخصها:

"قامت أم بتعليم ابنتها كيفية إلقاء السلام على مجموعة من الناس بأن تقول لهم: "بارك الله في رزقكم"، فمر الابن ذات مرة على مجموعة من الناس يحملون (تابوتا) (نعش)، فألقى التحية عليهم قائلا: "بارك الله لكم في رزقكم"، ولكنهم لم يردوا التحية عليه بل وبخوه، فرجع إلى أمه وشرح لها ما حصل معه، فقالت: الذنب ذنبي يا بني، وقامت بشرح طرق التحية المختلفة والمستعملة في كل موقف، ومنها إلقاء التحية على من يحملون النعش والتي يجب أن يقال: "رحم الله ميتكم".

فإذا كان هناك أمر لا يعلمه الابناء قمنا بتعليمه لهم، وإن أخطأوا قمنا بإفهامهم موقع الخطأ، مع إرشادهم ونصحهم لتصحيح الخطأ، فهذا ما يعنيه الأسلوب التربوي الذي نتحدث عنه.

والقصة التراثية الثانية: هي قصة (الارنب والذئب) وملخصها: ان الارنب الام حذرت صغارها قبل خروجها لترعى من أول الليل وحتى الصباح حتى تتغذى فتدّر حليباً كافياً لصغارها، وحذرتهم بعدم فتح الباب لأحد، الا ان ذئبا اهتدى إلى مكان الصغار فخدعهم ففتحوا له الباب، فدخل على الصغار وأكلهم دون ان يبقى غير الاصابع والمخالب متناثرة في ارجاء المكان. ولما عادت الارنب الام ووجدت مصير صغارها على هذه الحال، وبدأت تصرخ، فتجمعت حولها حيوانات الغابة، وخرجوا معا خلف الذئب الخداع إلى ان وجدوه وقضوا عليه.

هذه القصة تبين كيف يجب على الصغار إطاعة أوامر أمهم، وكذلك تعليمهم وجوب الحذر وخير مثال على ذلك: "لا تتأمل خيرا وانت تمارس الشر".

واما الاغاني والمرثي فإن افضل نماذج لها هي:

الاغاني التي كانت تنطرق للبطولات، وحب الوطن والشجاعة وغيرها من الصفات التي يجب ان تغرس في الاطفال وكانت تلقى على مسامع الاطفال كوسيلة للتنقيف والتوعية.

الاسلوب الثاني: وهو أسلوب سرد الامثال الشركسية على مسامع الاطفال

كان الشركاسة يستخدمون الامثال كأسلوب في التوجيه والارشاد وتقديم النصيح، وكانوا لا يتوقفون عن سرد الامثال والحكم على مسامع الاطفال ومن هذه الامثال: امثال تعلم الشجاعة والتضحية واحترام كبار السن منها:

"اذا مس الوطن شر، ضح بنفسك فداه".

"الشجاع لا يخلف وعده".

كما ان هناك امثالا تهكمية تتناول الذين يقومون بتصرفات خاطئة وضعت كوسائل لتعريف النشء بمساوئها، مثل:

"قليل الحياء يجلس في غير مجلسه".

"حتى الثور يقوم احتراماً عند دخول البقرة عليه والعكس يحدث ايضاً".

هكذا فإن اجداد الشركاسة وآباءهم استخدموا هذه الامثال لثني الصغار عن العادات السيئة.

وهناك المئات من الامثال التي تتحدث عن مختلف مناحي الحياة يكون فيها العبر والقذوة الحسنة للأطفال والشباب على الجنسين من الشركاسة.

الاسلوب الثالث: وهو اسلوب التدريب العملي:

لا شك ان مجرد معرفة الامثال او سماع القصة قد لا يؤدي الغرض المطلوب، بل لا بد من تدريب الاطفال على ممارستها في حياتهم العملية طوال مراحل اعمارهم، وهذا هو الاسلوب الرابع الذي يعتمد التدريب العملي كأسلوب في تربية وتنشئة الاطفال والشباب، ومن الامثال التي تعبر عن التوجيه والنصح والارشاد هي الامثال التالية:

• لا تكن مثل الذي يكون: "كلامه مكتوب على الرمال". أو

"كلامه مكتوب على صفحة الماء". أو

• "لسانه حلو، لكن قلبه حاقد".

• العبرة في العمل وليس في الكلام.

• المثابر ينال مناه.

هذه الامثال الشعبية وغيرها، تحض على ممارسة الاخلاق الحسنة فعلاً لا قولاً، كما تحث الابناء على التدريب عليها.

ويقول (بخول) نقلاً عن عالم الاجتماع (كومنسكا) بأن الشخص يتعود على الركض من كثرة الممارسة، فكذلك يصبح الصادق صادقاً بممارسة الصدق في تصرفاته، والشجاع يصبح شجاعاً وهو يعبر عن مواقف الشجاعة باستمرار، وهكذا. وحتى الكذب اذا تعود عليه الاطفال سيظل ملازماً لهم في حياتهم، وهذا ما يعنيه المثل الشركسي:

"من يتعود على الكذب، لا يعود يستحي من ممارسته".

وأورد (بخول) القصة التالية، والتي تبين أن العبرة بالفعل لا بالقول (نقلاً عن القصة التراثية في كتاب محك الرجال للكاتب الكبير كئراشنة تيمبوت) يقول فيها: شاب مر على شاب آخر يقوم بإعادة رفع عربته التي (تدهورت) ولم يساعده في رفعها، وعندما وصل إليه سأل عن اسمه فقال: "ميزرقان" فسأله لماذا لم تساعد الشاب في إعادة رفع عربته فأجاب: لقد عرضت عليه المساعدة، فقال بأنه لا يحتاجها، استغرب من رده، وتركه ووصل إلى العربة فشمّر عن ساعديه وبدأ بمساعدة الشاب حتى فرغاً من رفعها وابقاها على عجلتيها وصدف ان عاد "ميزرقان" فسأل الشاب: هل قلت له بأنك لا تحتاج المساعدة كما قلت لي؟ قال، نعم ولكنه لم يقبل واجابني قائلاً: أنا سأساعدك، لأن ذلك احترام لشخصي، فما فائدة الرجل اذا لم يقيم بمساعدة المحتاج.

لا شك بأن مثل هذه القصة تغرس حب مساعدة الآخرين بالفعل لا بالقول.

الأسلوب الخامس: أسلوب التعلم بالممارسة والتجربة وتعريض الاطفال لمواقف صعبة حقيقية:

وهو أسلوب استخدمه الاجداد لتعليم الابناء كيف يواجهون مصاعب الحياة، وخير الامثلة التي تدل على استخدام الشركاسة هذا الأسلوب في تعليم الابناء هي النماذج المستقاة من الامثال الشركسية التالية:

• من لم يصادف الشر، لا يعرف الخير.

• من لم يذوق طعم المر لا يعرف طعم الحلو.

• من لم يمتحن في مواقف الرجولة لا يعد رجلا.

وكذلك فإن اساليب التعلم بالممارسة هو: حفظ الاسرار، حيث كان الشركاسة يعلمون أبناءهم ضرورة حفظ الاسرار كأسلوب لتربيتهم على عدم إفشائهم الاسرار عامة، والاسرار العائلية خاصة، وربما كانت الامثال التالية تعطينا فكرة واضحة عن أهمية حفظ السر والتكتم عليه:

• "لا تتداول كل ما تسمعه".

ويعني ان السر اذا أفشي فإنه يمسي في افواه كثيرة، وكلما كثر تداوله، أصبح فحوى السر عرضة للتغيير.

ومثال آخر حول أهمية حفظ السر هو:

"قد يتسبب اللسان بإشعال نار الفتنة الكبيرة".

وكذلك المثل القائل:

"إن لم تحرص من لسانك فربما اهلكك".

وأما أكثر اساليب التعلم بالتجربة والممارسة كان أسلوب ارسال الشركاسة لأبنائهم مع الفرسان الابطال المشهورين في غزواتهم، فكان يوكل اليهم رعاية الخيول ليلا وتحضير الاكل والحراسة، لتعويدهم إلى الاعتماد على انفسهم في المستقبل ومواجهة الصعوبات التي تعترضهم في حياتهم عندما يصبحون كبارا مستقبلا وبالغين.

الاسلوب السادس: أسلوب اقتداء المشاهير من الابطال الشركاسة:

استخدم قدماء الشركاسة ومنذ عصر "النارتيين" أسلوب القصص التي تحكي دور وأهمية المشاهير من الابطال، وان سرد مثل هذه القصص كانت تؤدي بالابناء للاقتداء بالمشاهير او من غيرهم من الابطال، وخير دليل على استخدام هذه الأسلوب منذ عصر النارتيين هو الحوار الذي جرى بين:

النارتي (نسر) عندما التقى مع البطل النارتي (أشة) وكان خلاصة الحوار على النحو

التالي:

• سأل (النارت نسر) من انت يا ولد؟

• أجابه الولد واسمه (أشة) ماذا تريد مني، إن كنت بحاجة إلى مضيف فأنا جاهز.

• رد عليه (النارت نسر): لا اطال الله عمرك (وحاول الابتعاد).

• اجابه (أشة): ايها الزعيم (تحماده) لا تغضب سأخبرك من أنا، أنا (أشة) وابي (أشة مز).

وفور سماع اسم (أشة مز) عاد النارتي (نسر) احتراماً لشهرة والد (أشة) ونزل ضيفا على ابنه، وحدثه عن بطولات والده الذي صاحبه في أكثر من غزوة، وحث الابن على السير على نهج والده في حب الوطن والرجولة، واصطحبه معه فيما بعد في غزواته.

وكذلك فإن في قصة النارث (به ترز) نرى ان اولاد الحارة كانوا يعيرونه لأنه لم يأخذ بثأر والده، فعاد إلى أمه ليسألها كيف قتل والده، فأخبرته كيف قتله (البشة مارقوه) غدرا. فبدأ الابن بتعلم فنون القتال إلى أن أصبح في وضع يمكنه من الخروج للأخذ بثأر أبيه، وتحكي القصة انه أخذ بثأر والده، وأصبح بعد ذلك فارسا مشهورا، ويقال بأنه هو الذي خلص النارث (نسرث حاجئة) الذي كان مقيدا على قمة جبل البروز (أوشة مافه) كما يقال بأنه خلصه من التتين وغير ذلك.

ويتضح من هاتين القصتين كيف تكون الشهرة قدوة، وكيف يمكن استغلال هذه الشهرة في دفع الأبناء أو الأحفاد، وحتى عامة الأطفال للاقتداء بالمشاهير من الأبطال.

الاسلوب السابع: اسلوب الثواب والعقاب:

لقد كانت العادات والتقاليد المرعية هي المعيار الذي كان يحدد الثواب والعقاب عند الشراكسة، وقد تم توزيعهما لكي يصبح الابناء أكثر عطاء، كما كان يستعمل الثواب لإغراء الآخرين وللسير بنفس النهج الذي يوصل للهدف، والابتعاد عن التصرفات التي ينجم عنها العقاب.

ويقول المثل الشركسي:

"امتدحه قليلا، يلب طلبك سريعا".

ويبين هذا المثل، بأن المديح هو نوع من أنواع الثواب، وكان يتم المدح في اغلب الاحيان * بحضور الممدوحين وعلى مسمع من الحضور، كي يأخذوا العبرة منه، ومن صيغ المدح في التراث الشركسي الامثال التالية:

- "لقد ولدت رجلا"

ومثلما كان المدح يتم بالكلام، كان أيضا يتم بالفعل.

وأما بالنسبة للعقاب، فقد كان الشراكسة يستعملونه مع من لا ينفع معه النصح أو المدح، كما كان يستعمل كعنصر ردع، كما نرى في الامثال الشركسية التالية:

- "رفسة البقرة لا يمكن أن تقتل وليدها (عجلها)"

- "دعوة الأم على أولادها غير مستجابة"

- "مهما رفعت الأم يدها للأعلى تنزل ضربتها طفيفة على ابنها".

ولقد كان الشراكسة يستغلون العقاب لتعليم الابناء وحملهم للندم على اعمالهم السلبية، كما كان يتخذ اشكالا عديدة؛ منها المعاتبة، وتقبيد بعض الحرية، والحرمان، والضرب اخيرا.

ونورد فيما يلي بعض الامثال في مجال العقاب:

- "الفرس تتعلم مع الضرب، اما الثور فيزعجه الضرب".

- "حذار من ضرب الحصان اذا توقف".

ولكن، إذا كانت هذه الوسائل مستخلصة من قصص تراثية وأمثال شركسية وضعت قبل مئات السنين، فإننا ندرك مدى عمق النظرة التي كان يتمتع بها الشراكسة في مجال التربية، قبل ظهور وسائل التربية الحديثة بعدة قرون. (١٩).

* يجب الأخذ في الاعتبار بأن الاباء لا يجوز لهم حسب العادات الشركسية ان يمدح ابنه أو ابنته أو زوجته امام الآخرين وفي حضورهم او في غيابهم.

مراجع ومصادر الفصل الثالث / أولا

- ١- يخول، عاطف سعيد طاس، دراسة بعنوان سنة حلوة... يا جميلة ((من التراث الشركسي)) منشورة في مجلة الاخاء الصادرة عن الجمعية الخيرية الشركسية في وادي السير، ص: ١٢-١٤.
- ٢- برزج، نهاد، تهجير الشركاسة، ترجمة عصام الحسن، حنق، عمان ١٩٨٧.
- ٣- المصدر نفسه: ص ٨٧-٨٨.
- ٤- مامخيغ، رايا عادل، مصدر سابق، ص: ٨٩.
- ٥- المصدر نفسه. ص: ٢٩-٩٠.
- ٦- حراتوقة، سمير، النسور، حب، وحرب، في القفقاس، عمان، ١٩٩٩، ص: ١٢٣.
- ٧- المصدر نفسه. ص: ١٢٤.
- ٨- ماكوميدوف، وكتب حول: العادات الشركسية ونشرها عام ١٩٧٤، ص: ٢٩٥.
- ٩- الياس، هاني مولود، الاتيكيت الشركسي، وترجمها عن كتاب الكاتب الشركسي نغمتوقة. ب. خ، ونشرت في مجلة نارت، الصادرة عن الجمعية الخيرية الشركسية/ عمان.
- ١٠- اوزبك، باتريك، اساطير الناريتين والتاريخ الحديث للشركاسة، ترجمة احمد راتب زنداقي، عمان ١٩٨٨، ص: ٧٢.
- ١١- المصدر نفسه، ص: ٧٢.
- ١٢- ازبك، باتريك، مصدر سابق، ص ٨١-٨٢.
- ١٣- لابينسكي، حياة الشعوب القفقاسية، الجزء الاول عام ١٨٤٠، ص: ١٠.
- ١٤- نوبمان، رحالة انجليزي، تجول في بلاد الشركاسة عام ١٨٦٣ وكتب كتابا حول حياتهم. ص: ١٠.
- ١٥- سمكوغ، برزج امين، الشركس في فجر التاريخ، دمشق ١٩٩٥/٧/٣١، ص: ٢٤٢.
- ١٦- آبه زاو، محمد جمال صادق، موسوعة تاريخ القفقاس والجركس، مصدر سابق، ص: ١٥٠-١٥٥.
- ١٧- جوناتوقة، تاريخ القوقاز، مصدر سابق، ص: ١٤٨-١٤٩.
- ١٨- يخول، عاطف طاس، نماذج من اساليب التربية الشركسية في التراث الشركسي، مجلة الاخاء، العدد (١٥)، ايلول عام ٢٠٠٠، ص: ٢-٥.
- ١٩- يخول، عاطف طاس، مكانة العقل عند الشركاسة، مجلة نارت السنة (١٧) العدد (٤٦) شهر آب ١٩٨٩. ص: ١١-١٣.
- ٢٠- سطاس، عز الدين، دور وأهمية الطفل الشركسي في المجتمعات الشركسية، مجلة الاخاء، العدد (١٢٣) ايلول ٢٠٠٢، ص: ١٠-١٢.

ثانيا: بعد المعارف العلمية العامة في حضارة الأمة الشركسية التراكمية

من المعلوم بأن لكل شعب أو أمة من الأمم القديمة، معارف علمية خاصة بها اكتسبتها نتيجة الخبرات التراكمية على مر الاجيال وعبر العصور، والشراكسة أمة عريقة في القدم، تعود جذورها إلى آلاف السنين في اعماق فجر التاريخ كان لديهم ثقافة معرفية علمية، وان لم تكن علوما بالمفهوم الحديث، إلا انه كان لديهم بعض المعارف والثقافات العلمية في أكثر من مجال، وفي أكثر من موضوع.

وكذلك فإنها من أوائل الامم القديمة التي ادركت أهمية (العقل) واولتها عناية كبيرة ووضعت في المرتبة الاولى في العملية التربوية والتعليمية، واستخدم قدماء الشراكسة أكثر من طريقة وأكثر من وسيلة لتنمية العقل اولا، ولتدريب النشء على حسن استخدامه في حياتهم اليومية عامة في المواقف الصعبة ثانيا.

* اهتمام الشراكسة منذ عصر الاجداد بعقل الانسان الشركسي

وبالبحث في ثقافة الأمة الشركسية منذ عصر الاجداد يجد فيها أكثر من أدلة على مدى اهتمامهم (بالعقل) ومن هذه الأدلة هي:
الدليل الاول، على أهمية العقل لدى الشراكسة:

القصص والاساطير التي تبرز أهمية استخدام العقل في المواقف الصعبة والخطرة والحرية، مثل بعض القصص الشركسية الواردة في الاساطير النارتيين منها قصة (سوسروقة) حول قيامه باستخدام واستعمال عقله وذكائه في التغلب على العملاق، حارس (النار) في أكثر من موقف حتى تمكن من الحصول على (جذوة نار) بذكائه بالرغم من قوة العملاق وجبروته.

وكذلك قصة (ستاني) أم النارتيين التي تؤكد على راحة عقلها واختيارها كمستشارة لقوم (نارت) والرجوع إليها في كثير من المواقف الصعبة والخطرة، كونها ذات ذكاء خارق وقادرة على تقديم الحلول المناسبة في مثل هذه المواقف الحرجة وقصة ثالثة من قصص الاساطير الشركسية وتدور حول امرأة شركسية تدعى (مالياخو) ذات شهرة كبيرة في قدراتها التي وصلت إلى درجة قدرتها لاستشفاف الامور المستقبلية بذكائها الخارق.

واما القصة الرابعة فهي قصة أولاد العجوز الثلاثة وخلصتها:

"كان يوجد عجوز له ثلاثة أبناء فلما مرض، استدعى أبناءه منفردين، وقال لكل منهم، أن لديه ذهباً مخبأ، وأبلغه عن مكانه، وبعد موته أسرع كل منهم إلى المكان المحدد، ولكنهم لم يجدوا شيئاً فذهبوا إلى حكيم القرية لتفسير هذه الوصية، ففكر قليلاً، ثم وضع أمامهم مسألة يحتاج حلها إلى ذكاء، فعجز الاخ الأكبر، وكذلك الاوسط عن حلها، في حين ان الاخ الاصغر توصل إلى الحل، فقال الحكيم: يبدو ان أصغركم سنا قد حصل على الذهب (أي انه أورثه عقلاً يساوي الذهب)!!

وهذه الحكم تتماشى مع المثل الشركسي الذي يقول:

"أن اولادكم اذا كانوا صالحين يستطيعون تدبير أمورهم حتى ولو لم تورثهم مالا"

وهناك كثير من الأمثال الشركسية، والقصص التراثية التي تحت الوالدين للاهتمام بتنمية عقول اولادهم، وتربيتهم تربية صحيحة، باعتباره أفضل ميراث من المال.

والقصة الخامسة هي: قصة (حاغور) التراثية الذي وجد نفسه محبوساً مع قطيع من (الخراف) في كهف العملاق (الأعور) الذي سد عليه مدخل الكهف، فأخذ يفكر بطريقة يتمكن معها من التغلب على العملاق القوي، فأدرك بذكائه أن أفضل وسيلة للتغلب على العملاق هي تعطيل العين الوحيدة للعملاق، وهكذا فعل، فثار العملاق وحاول الامساك به، ولكنه لم يفلح، فبدأ العملاق بإخراج الخراف من الكهف واحدا تلو الآخر، وهو يتحسس ظهورها، خوفاً من أن يخرج (حاغور) معها، مما اضطر حاغور إلى استخدام عقله ثانية، فأمسك بأكبر كبش من الخراف، وتعلق تحت (بطنه) ومر عن العملاق دون ان يشعر به!!!

وقصة تراثية سادسة تبين خطورة عدم استعمال العقل وهي القصة الأبازية (كاباتوش الأحق)، فقد علمته والدته سابقا طريقة السلام في حال مروره على مجموعة من الناس يقومون بعمل ما، بقوله لهم (مبروك عليكم).

فصدف ان مر على (جنازة) فبادرهم بتحية السلام قائلا: (مبروك عليكم)، فما كان منهم إلا ان أوسعوه ضربا، وأفهموه بأن عليه ان يقول: (جعل الله مثواها الجنة).

بعد ذلك صادف (موكب عرس) فسلم عليهم قائلا: (جعل الله مثواها الجنة) فقالوا له، كيف تدعو على العروس بالموت في يوم زفافها. وهنا ايضا نال جزاء غبائه وعدم استخدامه لعقله.

وكذلك فإن التراث الشركسي غني بأمثال شركسية تؤكد على أهمية العقل في الحياة منها:

"ان يكون عبدا للعاقل، خير من ان تكون سيدا للجاهل".

كما انها غنية بالقصص التي تبين كيف ان العقل يتغلب على القوة البدنية، وأن الشراكسة كانوا يعطون العقل أهمية قصوى بقولهم:

"من ملك العقل، ملك كل شيء".

وكذلك عندما قال: "خير الانسان بين العقل والمال، قال: اعطني العقل، أحصل على المال".

الدليل الثاني على أهمية العقل لدى الشراكسة:

من عادات الشراكسة في مجالس (البسلوخ) وهي المجالس التي تضم الشباب من الجنسين لجوء الفتيات الشركسيات لأسلوب اختبار ذكاء من يأتي من الشباب لخطبتها بطرح مجموعة من الأسئلة الدقيقة التي تحتاج الإجابة عنها ذكاء، ومن يتمكن من الإجابة عنها توافق الزواج منه، وإلا رفضته لعدم تمتعه بالعقل الراجح.

اما الدليل الثالث على مكانة العقل عند الشراكسة فنستدل عليها من الأمثلة والحكم الشركسية التالية:

"العقل اصل كل عمل" بمعنى أن القوة المميزة في الانسان هو العقل.

كما كان الشراكسة يحترمون اصحاب العقول الكبيرة، وقيمون الانسان بمدى راحة عقلهم بقولهم:

- "صاحب العقل الراجح، احترامه واجب".
- "العبرة بالعقل، وليس بالمال".
- "لا تشعر بثقل العاقل، حتى لو حملته على ظهرك".
- "قدر الكلام، وليس المتكلم".
- "عقلك في محيطك، وهندامك بين الغرباء".
- "أعدو عاقل خير من شريك جاهل".
- "أم العقل، التفكير".
- "انسان بدون عقل، كموقد بلا نار".
- "لا تتخرج من السؤال عما تجهل".

هذا بالنسبة لمكانة العقل وأهميته لدى الشراكسة منذ عصر الاجداد، وأما بالنسبة لأهمية التعليم فإنهم كانوا يولونه أهمية كبيرة، ونستدل عليها من الامثلة الشركسية الكثيرة التي تحض على التعلم منها:

"طريق المعرفة، هو العقل"

كما ان التراث الشركسي يبين ان العمر ينتهي، وتحصيل العلم لا ينتهي بمعنى (اطلب العلم من المهد إلى اللحد).

كما أنهم عرفوا معنى الذكاء وأهمية المعرفة وقالوا: (الذكاء والمعرفة لا يقدران بثمن، أما التعليم والتطوير فإنهما بلا حدود).

الدليل الرابع:

أدرك الشركاسة منذ القدم بأن استخدام العقل ضرورة من ضرورات التوصل إلى حلول المشاكل وإلى التغلب على المواقف الصعبة، كما أدركوا بأن العقل هو المفتاح الأساسي للوصول إلى المعارف العلمية، وأنه الوسيلة الأساسية في حل مشاكل الحياة التي كانت تواجه اجداد الشركاسة ومن هذه المشاكل هي:

- المشاكل الصحية الناجمة عن أمراض واوبئة.
- مشاكل التنقل والترحال عامة وفي الليالي خاصة، نظرا لصعوبة التضاريس الطبيعية.
- المشاكل البيئية والمناخية بحكم قسوة الاحوال الجوية وسوءها في معظم مناطق الشركاسة.
- مشاكل القياس والأوزان.

(٢) المعارف العلمية:

وتوصل الشركاسة إلى حل المشاكل سابقة الذكر بأكثر من وسيلة، إلا أن أهمها كان اهتمامهم الكبير بتنمية العقل وتدريبه على التفكير والتحليل والاستقراء أولا، والاستفادة من الخبرات التراكمية لأجداد الشركاسة المكتسبة من خبرات الاقوام الأخرى ثانيا.

(٢) أنواع المعارف العلمية لدى الأمة الشركسية منذ عصر الاجداد:

وفيما يلي نماذج من انواع المعارف العلمية التي توصل إليها الشركاسة منذ عصر الاجداد وحتى العصر الحديث.

أولا: المعارف الطبية

يقول العالم الدبلوماسي الفرنسي (آبري دي لاموتر) بأن (الراعي) في فجر الحضارة الانسانية كان هو عالم النبات الاول وهو الطبيب الذي يحسن ولادة حيواناته، وهو الطبيب العظمي في القبيلة، فهو مجبر الكسور، وهو عالم التعدين الذي يتعرف على أنواع الاحجار والمعادن، وهذا ما جعل قدماء الشركاسة يعبدون إله الحديد (لبش) كما يؤكد: بأنه تعلم من الشركاسة طريقة التطعيم ضد مرض الجدري" بقوله: "لقد لاحظت ان جميع الشركاسة جميلو الوجوه ولا يحمل أي منهم بقايا مرض الجدري، وقررت ان اوجه لهم سؤالا: "الا يوجد سر ما في حماية أنفسهم من البشاعة التي يخلفها هذا المرض عدو الجمال لدى غيرهم من الشعوب؟ وقد أجابوني بثقة: إن التطعيم يعطى لمن يحتاج إليه، وعندها قررت ان أشاهد هذه العملية بنفسي إن امكن، وسألت في كل القرى التي زرتها عن الحالات التي عولجت بهذه الطريقة حتى وجدت حالة لطفلة في الرابعة من عمرها أجريت لها هذه العملية، وبعدها طلبت منهم تعليمي سر ذلك المطعوم".^(١)

كما يقول (مصطفى جركس) في كتابه (التربية الشركسية) حول الطب والجراحة عند الشركاسة منذ القدم:

"إن سكان القفقاس قوم محاربون، يتعشقون الرياضة، وأعمال الفروسية، وهذه الاعمال بطبيعتها تعرض الانسان لمخاطر جسدية من جروح وكسور عظام وما إلى ذلك. فافتضت الضرورة أن يوجد في المجتمع الشركسي من يفهم بشؤون الطب، وأعمال الجراحة. ومنهم الذين يزاولون هذه الأعمال، ويتدربون عليها، ويتوارثون خبرتهم عن آبائهم وأجدادهم، ويأخذونها عن الاشخاص الذين برعوا بها".^(٢)

كما يقول بأن التقاليد الشركسية تقضي: "أن يتعاون الكل في هذا المضمار، فهم يتعلمون من بعضهم، ويعلمون بعضهم، حتى أن من له خبرة مشهود بها، ينتقل من بلد إلى بلد ليساعد زملاءه وليطلعهم على ما عنده من معارف طبية جديدة.

ولقد قدر المجتمع الشركسي لأولئك الرجال الذين يقومون على شؤون التطبيب وتعاونهم واخلاصهم حق تقدير فأولاهم احتراماً وأحلتهم منزلة رفيعة بينهم".

كما يقول: "ولقد كانت لهم عادات يستعملونها مع الجرحى والمرضى قبل اختراع "البنج" تستحق الذكر، منها مثلاً: ان يُدعى أصدقاء المريض أو بعض السيدات والصبايا حسبما يقتضي الحال، لحضور اجراء عملية جراحية للمريض، حيث كانوا يقفون أو يقفن إلى جانبه يشجعنه نفسياً فيتحمل الآلام والأوجاع بشكل يدعو إلى الدهشة والاستغراب، وإذا لزم الأمر كانوا يغنون له على انغام الموسيقى أثناء العملية، كل ذلك لإلهائه من ناحية، ومن ناحية أخرى كتمه للآلام خوفاً من اتهامه بالجبن، لأن العادات الشركسية، لا تسمح بالبكاء وحتى اظهار مشاعر الألم حتى في أصعب واحرج الظروف، وفي بعض الحالات كان المعالج يلجأ إلى تخدير مكان العملية، بوضع (الثلج) عليه، إلا أن هذه الطريقة كان يرفضها الاغلبية من الشراكسة المصابين لأنها دليل (جبن) وعدم قدرة على الاحتمال، وأن تشجيع رفاقه له أو وقوف السيدات حوله وقت العملية كان يؤثر فيه أكثر من الثلج، ومن أية مادة مخدرة (٢).

والمؤرخ الشركسي (آبه - زاو) يصف لنا كيف كان قدماء الشراكسة منذ عصور ما قبل التاريخ يعالجون جرحى الحروب بمرجحته أو بالانشاد له اغاني خاصة بطرد الارواح الشريرة التي انت بهذا المرض، اعتقاداً منهم بأن هذه الارواح هي التي تسبب مثل هذه الجروح (٣).

وبالرجوع إلى التراث الشركسي الشفوي، وبعد الاطلاع على ما كتبه بعض المهتمين بالطب الشعبي الشركسي، وجدنا بأن الشراكسة كانوا يعالجون حالات مرضية كثيرة جداً نذكر منها الحالات التالية:

- وجع الرأس، ويتم ذلك من خلال عصب (ربط) الرأس بقطعة من الشاش أو بمنديل ما، وشد العصابة على محيط الرأس ثم ارخاؤها عدة مرات، وكذلك باستعمال مرق العجين الشركسي لمعالجة وجع الرأس العارض.
- لسعة الدبور أو النحلة: ويتم ذلك بمسح مكانها بخاتم أو قطعة فضية أو حبة (سن) ثوم لتخفيف ألم اللسع ومنع حدوث التورم المصاحب للسعة.
- التهاب العين: ويتم ذلك بمسح العين الملتهبة والملتصقة الجفنين صباحاً، بقطعة قماش مغموسة بماء الشاي الفاتر المر (دون سكر) حتى يزول القذى ويزول، وتفتح العين المنغلقة، ومع تكرار العملية بضعة ايام يزول الالتهاب كلياً. كما ان بعض الروايات الشركسية تقول بأن مسح العين بجلد الحية المنسلخ عنها طبيعياً يقوي النظر ويحمي العين من المرض.
- التهاب الحلق واللوزتين: ويتم ذلك بشرب دبس الرمان الحامض المركز، بعد تخفيفه بالماء وتحليلته بالسكر أو تناول ملعقة صغيرة من دبس المركز ببطء. كما كان من اهم الوسائل الشعبية الشركسية في علاج التهاب اللوزتين والتي كانت تعرف بمرض (نزول اللوزتين) هو البحث عن سيدة سبق لها أن انجبت توأماً من المواليد، لتجري للمريض (وهو غالباً من الاطفال) عملية مساج لمنطقة اللوزتين من الخارج ومن اسفل الفك بمادة زيت الزيتون، ثم استعمال طرف ثوبها الامامي لرفع الحنك ومنطقة اللوزتين للأعلى عدة مرات ولمدة ثلاثة ايام تقريباً، او حتى يشفى المريض، وكانت هذه العملية تجري صباحاً (على الريق) قبل تناول الافطار. هذا بالإضافة إلى استخدام (الغرغرة) بماء الملح عدة مرات، وهي من احدى الوصفات الشعبية التي كانت تعالج التهابات اللثة واللوزتين عند الشراكسة حتى العصر الحديث.
- علاج اوجاع المفاصل: ويتم ذلك بدهن الثوم المدقوق والمخلوط باللبن مكان الوجع كما كان يعالج (الانفلونزا والاسهال) بنفس الطريقة.

- **معالجة القروح (السريرية) الناتجة من طول الرقاد (النوم):** التي يؤدي لتآكل الجلد (الملامس) لسطح الفراش باستخدام مرهم يتم صنعه من أوراق عشبة تنمو في المناطق الرطبة قرب الينابيع ومجاري المياه، وتشبه أوراقها أوراق الخبيزة ومخططة بخطوط فضية خفيفة، وهي ناقصة الاستدارة، حيث كان يتم تحضيرها بتجفيف هذه الأوراق، ثم طحنها وخلطها مع كميات مساوية لها من السمن البلدي وصفار البيض الطازج والعسل البلدي. حيث كان يتم تغطية القروح بهذا المرهم، ومن نتائج هذه المعالجة وفعاليتها إيقاف الالتهاب وإعادة نمو النسيج اللحمي للمنطقة المصابة، كما كانت توصف هذه الوصفة في علاج الجروح الأخرى، وخاصة الجروح الكبيرة والملتهبة.
- **معالجة حالات الدوزنطاريا:** وذلك بتناول السماق المطحون وحده أو مع البيض المقلي.
- **إيقاف نزيف الدم وجروح الرأس:** ويتم ذلك باستعمال مسحوق القهوة أو الرماد (السكن). الذي كان يؤخذ من داخل المدخنة (الوجاق الشركسي) أو من الطابون، بوضعه على مكان الجرح بعد تبريده لإيقاف نزيف الدم.
- **علاج الإصابة بالدودة الشريطية أو دودة الأسكارس:** ويتم ذلك بتناول بذور القرع النيء (غير المحمص) للقضاء على ديدان البطن كالأسكارس والدودة الوحيدة^(٤).
- **معالجة الإصابة بالبرد:** وكان يتم ذلك من خلال عمل كاسات هواء على الظهر أو مكان الأم.
- **المعالجة بالحجامة:** وذلك من خلال وضع (دودة مائية) أو (جهاز خاص) على مكان الاوجاع عامة وعلى الجبين خاصة، وتركها تمتص الدم (الفاقد) حسب الاعتقاد الديني.



جهاز خاص بعلاج (الحجامة) اخترعه اجداد الشراكسة في الوطن الأم منذ القدم

تلك هي الحالات المرضية التي كان الشراكسة منذ القدم يعالجونها. أما أكثر الحالات المرضية التي كان يتعامل معها الشراكسة منذ العصور الوسطى فهو مرض الجذري، حيث توصلوا لاختراع أدوية خاصة له مصنوعة من الأعشاب الطبيعية لعلاج آثار (النذب) التي يتركها هذا المرض الوبائي حسب قول العالم الدبلوماسي الفرنسي (لاموتر)^(١).

وكذلك فإن علاج الكسور كان أكثر أنواع العلاج لدى الشراكسة تطوراً وتقدماً، وذلك باستخدام خلطة بياض البيض والصابون لعمل (الجبرية)، حيث يتم وضع قطع خشبية حول مكان الكسر، ثم يتم لف عليها بالقماش المشبع بخلطة (الجبرية) وهذا النوع من العلاج تفوق فيه بعض الأجداد والأباء الشراكسة في بلاد المهجر في الأردن مثل (الجوقة عمر) وفي سوريا مثل (محي الدين جيتكر)*.

ثانياً: معارف حول التنجيم والفلك لدى اجداد الشراكسة منذ القدم:

يقول: (بلاتش فاخرتيف) في رواية له حول الأديغة والتنجيم:

"إن علاقة الأديغة مع عالم النجوم هي علاقة قديمة جداً، والدليل على ذلك هو قيامهم بالتنجيم بواسطة النجوم، وكلمة (فاغوة) أي نجم و(مازة) أي قمر موجودة في قاموس جميع اللهجات الشركسية (الأديغة والقبرطاي و تشركيسيا) وهناك تشابه بينهما في التركيب اللغوي وفي المعنى أيضاً.

* تعالج (الكاتب) شخصياً بهذه الطريقة على يد كل من (عمر وجيتكر) في عقدي الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي عندما أصيب في طفولته بكسور أكثر من مرة.

كما يقول (تيف) بأن اسلاف الشركاسة أطلقوا أسماء مجازية على النجوم تبعا لترابطها مع افكارهم، وكذلك لظهورها في وقت متطابق مع حدوث الظواهر الطبيعية المتزامنة مع فصول السنة، ولقد كان (الشركاسة) كغيرهم من الشعوب القديمة الاخرى تؤثر عليهم المعتقدات الخرافية، ومن هذه المعتقدات التي كان لها علاقة بالنجوم بأن لكل شخص (نجمة) وهي تتصل معه روحيا. كما انهم لم يكن يسمحون بعد النجوم لاعتقادهم بأنه ذلك يؤدي إلى الاصابة بالعمى أو ظهور بثور على الجسم بعدد النجوم التي قام بعدها. وقد اعتقدوا ايضا بأنه إذا فرك المريض عينيه بيده ورأى نجوماً بعد ذلك، فمعنى ذلك سيعيش، إما إذا لم يشاهدها فإنه سيموت بعد اربعين يوما. إلا أن هذه الخرافات اختفت في مراحل لاحقة.*

ولخص (فاخرتيف) بعضا من الاسماء التي اطلقها (الأديغة) على النجوم منها:

- نجمة المساء (وهي من مجموعة المريخ).
- نجمة الدب الصغير، وتطلق على مجموعة من النجوم ممتدة على شكل عصا.
- نجوم على شكل (اللاقوم).
- النجمة ذات الذيل الابيض (وظهورها كان يعني بداية الدمار والخراب).
- مجموعة المريخ، المشتري، وزحل، وظهورها يعني السعادة لمن رآها.
- نجمة فينوس المسائية وهي الابنة التي بادلت اباهها بمعطف من ذهب.
- القيثارة وهي: نجمة على شكل سجادة الصلاة المصنوعة من جلد الخاروف^(٥).

كما أكد (تيف) بتأكيد به أن:

"الانسان الشركسي عبد مظاهر الطبيعة في مرحلة متقدمة من تاريخه الحضاري، وكانت قبائل (الأديغي) تعبد الكواكب والنجوم وابراج السماء في طقوس تعبدية وحركات بدنية من اجل السيطرة على الطبيعة، وامتلاك خيراتها، وقد انعكس ذلك في أساطيرهم وحكاياتهم كأساطير (قوم الناريتين) التي تأثرت بدورها بأساطير الشعوب المجاورة، وبما ان قبائل (الأديغي) عامة لم تكن تحسن القراءة والكتابة في العصور الوسطى إلا أنها حفظت هذه القصص في موروثةا الشفوي.

كما قال (رشدي): "بأن قدماء القفقاس كانوا عبدة للشمس والقمر و"ظواهر الطبيعة الاخرى، ونتيجة لخبرتهم الطويلة في مراقبة السماء وما فيها من كواكب ونجوم، قسموا السنة إلى اثني عشر شهرا والشهر إلى أربعة أسابيع والأسبوع إلى سبعة أيام، وسموا كل شهر باسم خاص به يدل على حالة الجو في ذلك الشهر^(٦).

وأما الباحث الشركسي (منذر بج) فيقول: "بأن الدراسة المقارنة تظهر بوضوح وحدة أصول اللغتين السومرية والشركسية، وأن اللغة السومرية إنما هي لغة حية مستمرة الوجود من خلال اللغة الشركسية المحكية عند شعوب القفقاس على البحر الاسود في الأديغي، وفي حوض الكوبان في تشركيسيا وفي (بلاد القبردي) القريبة من الجبل العالي الشهير (البروز) ويستطرد (بج) قائلا:

"فإذا كانت شعوب الشركس سومرية الأصل فالسومريون كانوا على معرفة ودراية بنجوم السماء وابراجها فهم الذين قسموا السماء إلى ثلاثة اقسام.

- قسم (انليل) وفيه آلهة السماء الكبرى، ويحتوي هذا القسم على (٣٣) نجما وبرجا، منها بروج السرطان والاسد والدب الاكبر.

* ظلت هذه المعتقدات سائدة في المجتمعات الشركسية في بلاد المهجر عامة وفي الأردن وسوريا خاصة، والكاتب نفسه مارس مثل هذه العادات في طفولته في عقد الثلاثينات من القرن الماضي.

- قسم (أنو) وفيه إله الهواء. ويحتوي على (٣٣) نجما وبرجا، منها بروج الحمل والحوث والميزان والعذراء.
- قسم (آيا) وفيه آلهة المياه، ويحتوي على (١٥) نجما وبرجا، منها بروج الدلو والعقرب وقنطورس والذئب والراعي. كما ميزوا بين الكواكب السيارة التي أطلقوا عليها اسم (المعزة الصالة) وبين النجوم الثابتة التي أطلقوا عليها اسم (المعزة الاليفة) ^(٧).
- وكذلك فإن (نغموقة) يقول بأن الجراكسة اقتبسوا أسماء السنين والشهور والأيام من اليونانيين، وسموها بأسماء بلغتهم الشركسية حسب ما أوحته لهم طبيعتهم وطبيعة بلادهم:

فالسنة	يله "يلاس"
والشهر	مازه
والاسبوع	تحاماف او تحاماخوه
والقرن	(لئه نبيج) بمعنى حياة رجل.

وفي الحقيقة فإن الجراكسة من الشعوب الذين كانوا يعمررون كثيرا، ومتوسط العمر عندهم كان يصل إلى مئة سنة تقريبا، ومنهم من فاق المئة ووصل إلى العشرين بعدها، (نساء ورجالا).

كما يقول نغموقة بأنهم قسموا السنة إلى اثني عشر شهرا والشهر إلى أربعة أسابيع والأسبوع إلى سبعة أيام وأعطوا لكل شهر اسماً خاصاً به وله معنى يتناسب معه:

وفيما يلي تصنيف (نغموقة) لأسماء أشهر السنة باللغة الشركسية ^(٨).

فإن الشراكسة كانوا يسمون الشهر باسم مازه Maza وجعلوا من اسمه دليل عمل لهم في فهم أمور رعيهم وحصادهم وهذه الشهور هي:

 - كانون ثاني (جيمافه كومازه) ومعناه شهر البرد الشديد او شهر منتصف الشتاء.
 - شباط (جيمافه كه مازه) ومعناه الشهر الاخير من البرد لفصل الشتاء او شهر اللعنة.
 - آذار (غاتخه مازه) ومعناه شهر أول الربيع.
 - نيسان (ملاخو مازه) ومعناه شهر راعي الغنم.
 - آيار (فاغة مازه) ومعناه شهر بداية الحرث.
 - حزيران (غه مافه مازه) معناه أول الصيف.
 - تموز (غه مافه كوابه) ومعناه شهر الحر الشديد .
 - آب (مقويوه مازه) ومعناه شهر نضوج الحبوب وقطع الحشائش.
 - ايلول (جاغوة مازه) معناه شهر الحصاد ووقت صياح الحيوانات البرية.
 - تشرين أول (ثواغوه مازه) ومعناه شهر جلب الهشيم (الحشيش) والدراسة على البيادر.
 - تشرين ثاني (مغوشه مازه) معناه شهر تخزين المواد التموينية.
 - كانون أول (شماف مازه) معناه شهر أول الشتاء.

وأما أسماء أيام الأسبوع فلها معان خاصة عند الشراكسة وهي على النحو التالي:

الاسم بالعربية	الاسم بالشركسية	المعنى بالشركسية
الاثنين	بلشحه	رأس السبعة الأيام
الثلاثاء	غوبجه	
الأربعاء	به ره جه ي	يوم الوقاية وهو يوم مشؤوم
الخميس	مه خوك	اليوم الوسط
الجمعة	مريم	يوم السيدة مريم عليها السلام
السبت	شبت	مأخوذ من اليهود أو (مه فه زاق) اي اليوم (المفرد)
الأحد	تحامافه أو تحاماخوه	يوم الله وهو يوم مقدس عند الشركاسة منذ القدم.

كما يقول (نغموقة) بأن للأجرام السماوية الرئيسية، أسماء عند الجراكسة مستعملة حتى يومنا الحاضر، منها النجمة القطبية (غوازه) ويعني الدليل، ويهتدون بها في سيرهم ليلاً. وفيهم من يعرف سير النجوم واتجاهاتها ويعرفون باسم (غوازه) أي الأدلاء وكان القوم يستخدمونها في سيرهم وهجومهم ليلاً. ^(٨)

وأما بالنسبة لأسماء النجوم والكواكب ربما كانت الدراسة التي أوردتها (أنسوقة) في مجلة نارت في عام ١٩٩٣ بعنوان "علم الفلك عند الشركاسة" من أفضل ما نشر باللغة العربية حول أسماء النجوم لدى الشركاسة حيث أورد ^(٢١) اسما وهي على النحو الآتي:

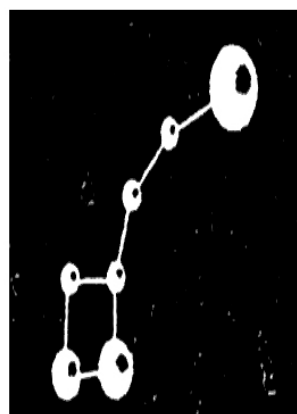
- (فاغوا) * والمراد بها نجمة الجوزاء أو برج الجوزاء.
- (أخشام فاغوا) وتعني نجمة الغروب، وهو كوكب المريخ "مارس".
- (فاغوا) الذئب أي نجمة أبرادج، (وأبرادج) تعني هنا الضال أو المشرّد وهو الذئب.
- (فاغوا باش) وتعني نجمة العصا، وهي تسمية لنجوم تقع على خط مستقيم واحد، وظهورها كان يعني بداية موسم الرعي.
- (فاغوا با) وتعني نجوم كثيرة، والمقصود بها نجمة الدلفين.
- (فاغوا دامافوا) وتعني نجمة شوكة النير (وهي نجمة الكلب الصغير).
- (فاغوا زشيبيل) وتعني النجوم القابضة على سبعة، وهي مجموعة الدب الكبير، وكان (الأديغي) يرون أنه إذا استدارت مجموعة الدب الكبير فإنها علامة على بزوغ الفجر.
- (فاغوا كابسا) وتعني نجمة الحبل، وهي النجوم الثلاثة الأكثر لمعانا في السماء باتجاه الشمال.
- (فاغوا غوبلا شحابسا) وتعني النجوم المثلثية الشكل، وسميت هكذا لأنها تشبه مقدمة العربة الشركسية التي هي على شكل مثلث، وظهور هذه المجموعة من النجوم في السماء كان يدل على أن الوقت قد حان لنقل المحاصيل من المروج والسهول وتخزينها، ويمكن رصدها بوضوح في شهر أيلول.
- (فاغوه لاقوم) * وهي مجموعة من النجوم على شكل مستطيل.

* كلمة (فاغوا) باللغة الشركسية معناها (نجم).

- (فاغوه تسي شاقوه) وتعني برج آلة النسيج.
 - (فاغوا شي لاخا) وعند رؤية هذا النجم كانت الاعمال في الحقول الربيعية تتوقف، والخيل والمواشي المستعملة في هذه الاعمال تأخذ قسطها من الراحة.
 - (فاغوا تشاخو) وتعني النجم ذا الذئب الابيض وهو المذنب، واعتبر رؤية المذنب نذير وباء ومصاعب جمة، وظهوره يلقي الرعب في قلوب الناس.
 - (فاغوا فان) وهي كواكب (المريخ، والمشتري وزحل)، ويمكن مراقبتها بالعين المجردة.
 - (حاليفا فاغوا) وهي نجمة تظهر في الشمال تشبه الحلقة عند الشراكسة**.
 - (فاغوا الفنيرا) المسائية وأطلق عليها (الفتاة التي باعت اباهها مقابل معطف ذهبي).
 - (كابساش فاغوا) نجم الحبل القصير، وهو حزام الجوزاء، وظهوره كان يدل على موعد توقف اعمال الفلاحة وبداية جمع وتخزين الحطب لفصل الشتاء البارد.
- ويلاحظ بأن إحدى الاساطير الشركسية القديمة تقول بأنه يطلق عليه اسم "النجم الذي باع أمه مقابل بيضة ذهبية"، وهو النجم الاول الذي يظهر بوضوح في الأفق عند غروب الشمس في نهاية فصل الربيع وبداية فصل الصيف، ومع ظهور هذا النجم تكون بداية اخراج المواشي إلى المراعي في الهضاب المرتفعة.
- (ميشا فاغوا) ومعناها نجمة الدب.
 - (نامازليق فاغوا) وتعني النجمة التي تشبه سجادة الصلاة.
 - (نافيش فاغوا) وتعني نجمة الصباح وهو كوكب الزهرة.
 - (بشاشحه فاغوا) وتعني (نجمة المساء) أو (نجمة الغروب) وهي النجمة التي تحدد غروب الشمس في شهر الصيام^(٩).

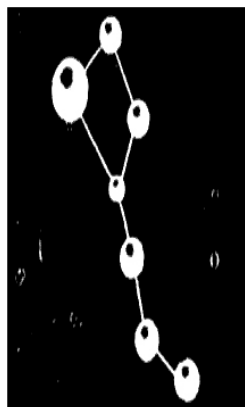
* (لقوم) هي فطير شركسي مستطيل الشكل ومصنوع من عجينة الدقيق.

** (حلفة) هي فطير شركسي مثلث الشكل - ويصنع من عجينة الدقيق.

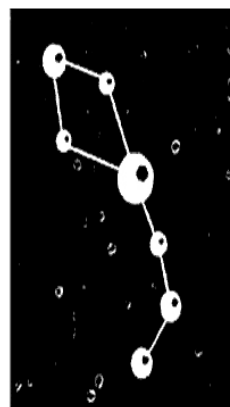


(٣)

بعض أنواع النجوم التي
عرفها الشركاسة منذ
عصر الاجداد



(٢)

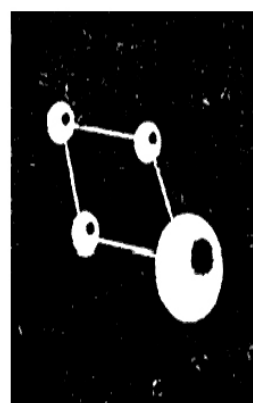
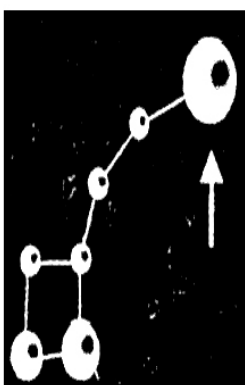


(١)



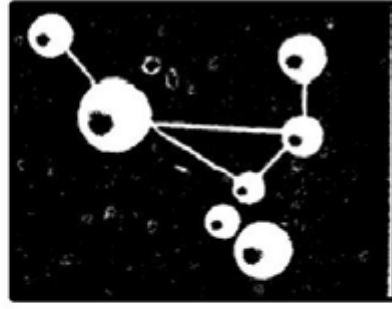
(٦)

(٥)

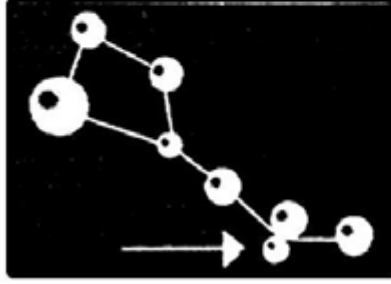


(٤)

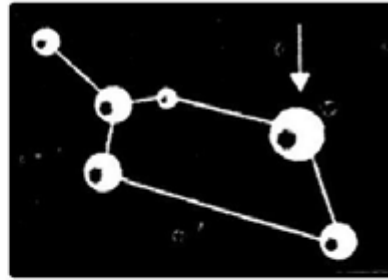
تابع أنواع النجوم



(٧)

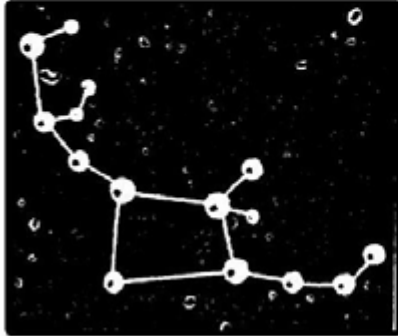


(٨)



(٩)

(١٠)



ثالثاً: معارف حول البيئة والتقلبات الجوية والطقس والتقويم السنوي: (١١)

إن المعرفة التطبيقية للشراكسة فيما يتعلق بالبيئة، ونظرتهم الكونية، وملاحظاتهم للطقس والفصول وتقويمهم الزمني، كانت معرفة متقدمة قياساً مع الشعوب القديمة الأخرى، فقد قسم الشراكسة السنة إلى فصلين هما: الفصل الحار والفصل البارد، وكل من هذين الفصلين يتضمن فترتين هما: الفترة الحارة فصلي الربيع والصيف، والفترة الباردة في فصلي الخريف والشتاء. كما قسموا السنة زمنياً لاثني عشر شهراً. وكل شهر يتكون من ثلاثين يوماً. كما قسموا السنة إلى أربع دورات وكل دورة منها تسعين يوماً ومجموع أيام السنة ثلاثمائة وستين يوماً. أما الأيام الناقصة التي تتكون منها السنة الحديثة فقد كانت من خمسة إلى ستة أيام وهذه الأيام لم يحسبها الشراكسة، واعتبروها أياماً للعبادة والصلاة وممارسة الطقوس الدينية، وهي الأيام الأولى من كل

عام جديد تبدأ مع بدء الحصاد، ويوم عودة الحصادين من الحقول للامتثال (بالهتهم) (سوزاريش وكوردم وتشاشخوغافاز) وغيرهم كما كانوا يحددون الفترات الزمنية للفصول بواسطة (فاجوبا) وهي إحدى مجموعات النجوم الثابتة أو الأبراج "وهو برج الثور".

ولا تزال هنالك دلائل تعبيرية لغوية تظهر في اللغة الشركسية المعاصرة مثل قولهم "لقد خرج فاجوبا من الأرض" ويعنون بذلك وقت الاعتدال الربيعي، "لقد عاد فاجوبا إلى الأرض" ويعنون بذلك وقت الانقلاب الشتوي. حيث كان يحدد التغيير من فصل إلى فصل بهذه الطريقة.

فالسنة الشركسية كانت تبدأ في وقت الاعتدال الربيعي ويصادف (٢١-٢٢ آذار حسب التقويم الحديث). كما كان يتم تعداد الأشهر بدل تسميتها حيث كانوا يقولون: الشهر الأول للربيع، الشهر الثاني للربيع وهكذا. مع ذلك كان هناك أسماء شركسية لأشهر السنة. فعلى سبيل المثال كانت تطلق الصفات التالية على شهر تشرين الثاني (نوفمبر): الشهر الثالث للخريف، الشهر الأخير من الخريف، وشهر إحضار التبغ وشهر إلحاق الخراف بالقطيع وشهر الصيد الخ.

ومن المميزات الدقيقة لمعارف الشراكسة عن احوال الطقس هو تمييزهم (الأربعين يوما) الأشد حرارة) في السنة في الفترة الحارة من السنة، والأربعين يوما (الأشد برودة) في السنة في الفترة الباردة من السنة، حيث كان الشراكسة يستخدمون كلمة (شلة) للتعبير عن هذه الفترات الأشد حرارة والأشد برودة في السنة، والتي يتكون كل منها من أربعين يوما. ففترة (الشلة) الحارة كانت تبدأ بعد خمسة وعشرين يوما من الانقلاب الصيفي يصادف يومي (٢١-٢٢ حزيران حسب التقويم الحديث). أما (الشلة الباردة) فقد كانت تبدأ بعد خمسة وعشرين يوما من الانقلاب الشتوي يومي (٢١-٢٢ كانون الأول حسب التقويم الحديث).

وفيما يلي تحليل للاحوال الجوية والتغيرات المناخية وعلاقتها بأشهر السنة اولا وبتأثيرها على الزراعة والفلاحة والرعي ثانيا:

شهر آذار ويسمى غاتخة مازه وفيه يبدأ التحول من الفترة الزمنية الباردة إلى الفترة الزمنية الحارة بقدم الاعتدال الربيعي. وشهر (آذار) هو بدء العام الجديد بالنسبة للأديغة، حيث كانت تقوم كل أسرة شركسية بتقديم اضحية من المواشي، وهي في العادة تكون من الخراف أو الماعز. هذا في العصور الوثنية، أما فيما بعد ذلك فقد أصبحت الاضحية عبارة عن (دجاجة سوداء) فقط. وكان من العادة أن يسهر الشراكسة للاحتفال بليلة السنة الجديدة. ويمنع الاطفال من النوم عن طريق تسليتهم بالألعاب المختلفة. وفي الشهر الأول من الربيع (آذار) اعتاد الشباب على تقديم المسرحيات وتمثيلها وكان من اشهر المسرحيات التي تقدم في هذا الشهر مسرحيتا (خوروما) و (دجور جاجو).

شهر نيسان ويسمى (ملاخوة مازة)

بمعنى شهر الرعي (الضأن أو الخراف) وكان يعرف أيضا بأنه (الشهر الذي يأخذ معه الخراف الهرمة) كما انه الشهر الذي تبدأ فيه الأعشاب بالنماء. وعندما كانت تهب ريح الربيع (زي غو)، كانت العائلات الشركسية القديمة تضرب أشجار الفاكهة بالعصي وهي تنشد (أدخل.. تقضل يا إلهي وسيدي) حيث كان من المعتقد بأن الضرب سيؤدي إلى حمل الأشجار للفاكهة كما كان يقوم فيه حفل ديني يسمى (اودزيسيج) حيث كان الناس يترشقون بالأعشاب المبللة كما كان أصحاب الاملاك يضرّبون مخازن الحبوب واسطبلات الخيول وغيرها بالعصي اثناء العواصف الربيعية وهم ينشدون: (الرعد يزأر) ثم يقومون بضرب المخازن والاسطبلات حيث كان من معتقداتهم في زمن الوثنية بأن ممارسة مثل هذه الطقوس تؤدي إلى سنة خير فيها غلال وحصاد جيد.

*** شهر آيار ويسمى (فاغة مازة)**

ومعناها خروج الغنم للرعي، كما كان يتم فيه الطقوس الدينية وهو شهر الصلاة، أما فترة الشروع في الحصاد فقد كانت تعتمد على قدوم الربيع باكرا او متأخرا. وكان يقام احتفال ديني كبير بمناسبة بدء الحصاد، حيث تقدم الاضاحي، وتقام الصلاة الكونية والعروض المختلفة.

ومن أكثر الاحتفالات اثارة ما كان يسمى باحتفال (عودة الحصادين من الحقول) حيث كان الممثل الرئيسي في الاحتفال هو (الجدي الراقص) (اجيغافه) كما كان الاحتفال يستمر لمدة أسبوع أو أكثر، يقوم الشراكسة القدماء فيه بإقامة سباقات الخيل، وألعاب الفروسية، وسباقات رمي الأهداف، والغناء ومباريات الرقص.

وجرت العادة أن يعود جميع الحصادين من الحقول جماعة واحدة، فأى حصاد لم يمه حصاده لأي سبب كان، كان يجد المساعدة من زملائه لإنهاء ما بدأ به.

* شهر حزيران ويسمى شهر (غة مافه مازة)

وهو بداية الصيف الذي كان يعتقد الشراكسة فيه بأن (فاجوبا - برج الثور - ينظر فيه إلى الحصاد). ولم يكن هذا الشهر شهر طقوس واحتفالات كثيرة كباقي الشهور. ولكن إذا حدث ان مر وقت طويل دون هطول امطار وحدوث جفاف ومحل، كان الناس وخصوصا النساء والاطفال يحملون الدمية المسماة (حانسي جواسا) إلى الأميرة ويصبون مياه فوقها. وكانوا يقدمون أضحية للآلهة ثم يجرون جلد الأضحية حول القرية وهم ينشدون الأديغة للآلهة لكي تبعث لهم الامطار، أما البالغين فكانوا يذكرون أدعية كثيرة ويسرعون إلى الغطس في المياه للاستحمام فيها وهم بثيابهم كاملة.

كما كان الاهتمام بالمزروعات هو الشغل الشاغل في هذا الشهر بالنسبة للشراكسة. وأطول أيام السنة كان يأتي خلال هذا الشهر ايضا. وكان الشراكسة يستخدمون العبارة التالية لوصف هذه الايام حيث كانوا يقولون: (في فترة الظهر في هذه الايام لا يوجد هناك ظل يستظل به كلب خلف العربة) وبمعنى آخر (الشمس كانت تحدث الظل الأقصر في هذه الايام).

* شهر تموز ويسمى ايضا (غاتخه مافه مازة)

وفيه تبدأ (الشله) الصيفية، أي الاربعين يوما الأشد حرارة في السنة وتأتي عادة في منتصف هذا الشهر، حيث كانت الحبوب تمتلئ بسوائها الغذائية والمائية وتصل إلى أعلى وزن لها في هذا الشهر. وكان أصحاب الأراضي والفلاحون يراقبون بانتباه شديد النباتات لكي يتأكدوا من ان الشعير والشوفان والقمح لن تصاب بالمرض الذي يسمى (السخام) وإذا حدث وان وجدوا هذا المرض كانوا يعالجونها بسائل مكون من الرماد.

* شهر آب ويسمى (مقوبوه مازة)

وكان الشراكسة يسمون هذا الشهر ايضا (شيشحة). وتعني رأس الحصان. ويعتقد كبار السن من الشراكسة بأن اسم هذا الشهر قد اخذ عن حقيقة أن الخيل في هذا الشهر كانت تقوم بدفع وابعاد الذباب عن أجسادها لحماية نفسها من الحرارة بواسطة تحريك رؤوسها إلى الأعلى وإلى الأسفل. وكانت الخيول تحفظ داخل اسطبلات مظلمة خلال هذا الشهر استعدادا لرحلاتها في الخريف. حيث كان يستغرق إعداد الخيول لرحلات الخريف أكثر من شهر. حيث كانت تغذى وتروى ويتم إخراجها إلى الهواء الطلق كل صباح ومساء ويتم تنظيفها باستمرار. وبعد مرور الوقت كانت الخيول المغذاة جيدا تدرب على القفزات القصيرة، وتقاد إلى جداول المياه سريعة الجريان ويتم تدريبها على الأراضي الصلبة وصعبة التضاريس ويعدون خيولهم ويؤهلونها لتصبح قادرة على تحمل رحلاتها الخريفية الطويلة الشاقة.

* شهر أيلول ويسمى (جاغوه مازة):

يقول قدماء الشراكسة عن هذا الشهر "حتى كلابنا تتحول إلى أشخاص آدمية في هذا الوقت" بمعنى انه لم تكن هناك قوى عاملة بشرية كافية لجميع المهمات التي يجب إنجازها، حيث كانت مساهمة كل عامل ذي أهمية كبرى. فإذا كان الحصاد جيدا ووفيرا كان الشراكسة يدرسون الكمية الكافية من الحبوب لكل اسرة لمدة سنة كاملة فقط، أما بقية الحصاد فقد كانوا يحولونه إلى اكوام بحيث يجعلون السنابل في داخل هذه الأكوام. وكان الشراكسة يقدمون عشر الحصاد إلى الفقراء والضعفاء كصدقة أو هدية، ولكن قبل ان يتم توزيع العشر كان يقام احتفال كبير خاص لها، حيث

كان يتم اعداد الطعام من الحصاد الجديد ويقوم كل فرد في الأسر والعائلات بتذوقه، وبعد ذلك كان يتم تقديم الصدقة كعمل خير، وجرت العادة ان يضع الشراكسة عشر الحصاد جانباً، وبالإضافة لتقديم رأس واحد من كل اربعين من الماشية بجميع أنواعها والتي تولد كل عام كهدايا وصدقات للفقراء والضعفاء. كما كانوا يقومون خلال شهر أيلول باحتفال ديني آخر وهو احتفال (إنزال المنجل).

* شهر تشرين الاول (ويسمى شواغوا مازا)

كان العمل في الحقول ينتهي في هذا الشهر، وكان سكان جميع القرى الشركسية تشارك في الاحتفالات والصلوات التي تقام لتمجيد الإله (سوزاريش) وكان يستخدم ساق شجرة الزعرور البري التي يبقى عليها سبع فروع لإقامة الاحتفال بالإله (سوزاريش) تحتها، حيث كان يحفظ الساق في الاسطبلات حتى يحين موعد الاحتفالات. فإذا ما أتى ذلك الوقت كان الساق ينظف، ويغسل بالحليب، ويؤخذ في موكب احتفالي إلى منزل الاسرة ويوضع في منتصف الغرفة. وكانت تعلق على اغصانه قطع الاجبان الطازجة، وعدد من الشموع التي كانت تشعل، وكان جميع افراد الاسرة ومن يزورهم من الضيوف الذين أتوا لتقديم التهاني بالعيد يرقصون حول جذع الشجرة هذه. وكانت تقدم الاضاحي في شهر تشرين الأول. كما كان الشراكسة يحتفلون بعيد آخر وهو (تحاشوا جواماج) والتي تعني (الاتحاد بالإله الاعظم) حيث كان كل فرد منهم يقوم بالصلاة المرافقة بالرقص والحركات المختلفة، كما كانت تقام مسابقات في الغناء والرقص بين الكبار والصغار بهذه المناسبة.

* شهر تشرين الثاني (مقوشه مازا)

كما كان يطلق على شهر تشرين الثاني عدة أسماء اخرى منها (آخر شهر في الخريف) أو (الشهر الذي يتم احضار القش فيه) أو (الشهر الذي تلحق به الخراف إلى القطيع) أو (شهر العيد). واهم ما يميز هذا الشهر هو رفع الحظر عن الصيد حيث أن الاجيال الجديدة من الحيوانات البرية والطيور قد وصلت سن النضوج في هذا الشهر ويمكن السماح باصطيادها. كما كان يتم فيه الاستعداد لقدم الشتاء. بإحضار القش من الحقول، واعداد الاخشاب اللازمة للبناء والوقود، وأما اصحاب خلايا النحل فقد كانوا يضعون خلاياهم في اماكن خاصة تسمى (نيشيش). لحمايتها من برد الشتاء.

وفي هذا الشهر كانت تذبح الخرفان والماعز وتؤخذ لحومها وتخزن للشتاء. فبعض اللحم كان يتم تجفيفه وأما البعض الآخر فقد كان يتم تخليله بماء شديد الملوحة. وحتى رؤوس الماشية المذبوحة كان يتم تخليلها للاستعمال في الشتاء. كما كان شهر تشرين الثاني هو شهر عقد احتفالات الزفاف وتبدأ فيه أسر جديدة بالتكون.

* شهر كانون الاول (شمافه مازا)

كما يسمى هذا الشهر (ديغاغا) فكلمة (ديغا) معناها شمس، و (غازا) معناها يتغير أو يلف، وتتميز أيام شهر كانون الاول بأنها الأقصر في أيام السنة، وفيها تعود (فاجوبا) إلى باطن الأرض. ويصبح الجليد أكثر قساوة، ويقول الشراكسة بأن (الشمس قد ذهبت إلى منزلها الشتوي) ويقضي الشراكسة الامسيات الطويلة لأيام كانون الاول بالاجتماع في مجالس الضيافة في منازلهم حيث يتسلون بعضهم البعض بسرود الأقاصيص، وانشاد الاغنيات البطولية، وباللعب والترفيه عن أنفسهم بشكل عام. كما كانوا يبنون قلاعاً ثلجية ويجرون (معارك ثلجية) بين الشباب والفتيات حيث كانت تشارك في هذه الاحتفالات جميع المستويات الاجتماعية من الشعوب الشركسية – الامراء، والفلاحين الاحرار، الرجال والنساء والاطفال. كما كان يتم فيه تبادل الأسرى أو يتم اعتقالهم. وقد وصف الكاتب (خان غيري) مثل تلك المعارك الثلجية الصورية في المنتصف الأول من القرن التاسع عشر.

* شهر كانون الثاني (شيمافه - كو/ ماذا)

كان الشراكسة يقضون أوقاتهم في شهر كانون الثاني بنفس الطريقة التي كانوا يقضون فيه الشهر السابق له، فإذا كان استعدادهم لفصل الشتاء كافياً ووفيراً، كانوا يقضون شتاء مريحاً خالياً من الهموم، ولكن اذا كان هناك جفاف ومحل فقد كانوا يعانون من شتاء قاس شديد، وبعد أن يستقر الجو الجليدي البارد بشكل تام وكامل، كان الشراكسة يحضرون الأخشاب من الغابات لغايات البناء، كما

كان الشهر شهرا للصيد وللعاب الأطفال في الهواء الطلق. فقد كان الاطفال يضعون الطواقي فوق رؤوسهم ويلعبون على الجليد، ويتزحلجون باستخدام ما يسمى (الاشين). وهو نوع من الزلاجات. وفي الشتاء كانت الفتيات والنساء يشغلن انفسهن بالاعمال اليدوية الفنية وبالتطريز بالخياط المصنوعة من الذهب.

شهر شباط ويسمى (شيمافه / كنه شاة) مازا)

وهو اشهر الاشهر في السنة وكان الشراكسة من المناطق الغربية يسمون شهر شباط (الشهر الذي يغيب) وكثير منهم يسمونه (الشهر ذا اللغة البدئية). حيث تنتهي فترة (الشله) اي الأشد برودة في السنة ما بين (٢٥-٢٦ شباط)، ويتبعها مباشرة ما يسمى (باطراجوز). حيث يقول الشراكسة بأن (باطراجوز) حالما يشاهد (الشله) الشتوية فإنه يحز في نفسه بأن اصبعه الصغير لا يصل إلى حد إبهام (الشله). وعندما يحين هذا الوقت في شهر شباط فإن صوت خطوات الكلاب تبدو وكأنها اصوات حوافر الخيول من ضخامة قرعتها، أما أصوات حوافر الخيول فإنها تتضخم مئات المرات. ومع ذلك فإن البرد يكون على وشك الانتهاء بالرغم من انه لا تزال هناك موجات من الانجماد الشديد، وبالرغم من تساقط الثلوج والبرد خاصة ثلوج من النوع الخفيف الناعم جدا. وهذه دلائل على قديم الربيع. وخروج (فاكوبا) من باطن الأرض وقد انفصل البرد عن الدفء. وقرب موعد السنة الجديدة حيث اعتاد الشراكسة قولهم لبعضهم السنة جديدة وسعيدة (٣١).

رابعا: معارف دقيقة حول الاوزان والقياس والمكيال (١٠)

عرف الشراكسة منذ القدم وحدات مختلفة من (المكاييل والأوزان)، كما عرفوا وحدات القياس قبل استخدام النظام المتري عالميا. وأصبحت المكاييل وموادها من المواعين والعصي والاشربة مادة تراثية تشاهدها على رفوف العرض في المتاحف الشركسية، وتردان بها بعض أركان البيوت او المنازل أو في محلات العرض التي تباع الادوات القديمة (الانتيكه).

وكان من اكثر وحدات القياس استخداما منذ عصر الاجداد هي:

* **قب:** وهي وحدة كيل للمواد الجافة، وهذه الوحدة تقابلها عند العامة الكيس أو الخريطة وكثيراً ما كنا نسمع عبارة (فوشوغ قب) أي كيس سكر، ومن المفيد أن نذكر أن اليونانيين استخدموا الوحدة نفسها، وتسمى عندهم (قب) أيضا وتعادل هذه الوحدة عندهم ٢٠ كغم تقريبا.

* **Saghe** ساغ وهي وحدة كيل للمواد الجافة أيضا وهذه الوحدة من اكثر الوحدات شيوعا في العالم الإسلامي، تقابل وحدة (الصاع) وهي وحدة قياس عربية (مكية المنشأ).

* **Arshen** أرشن وهي وحدة قياس للطول، وتعني الذراع و(الارشن) تعني باللغة الفارسية الذراع، والشراكسة يسمون كل مائة أرشن بـ (ساجنا) والمعروف أن هذه الوحدة فارسية الاصل.

* **Joron** جرون وهي وحدة كيل للوزن، وهي معروفة عند الشراكسة منذ القدم، ومن المفيد ان نذكر ان تجار البندقية كانوا يستخدمون الوحدة نفسها ويسمون بها بـ (الجرون) وهي تعادل ما زنته (١٦٢ كغم) عند أهل البندقية اما عند الشراكسة فتعادل (١٥٢ كغم).

* **Zaleh** زالة ، وهي وحدة قياس للطول عند الشراكسة، وتفيد بعض المصادر أن الخليفة العباسي المأمون كان قد استحدث وحدة قياس للطول أسماها (ازالة).

* **Bezmen** بزمن ، وهي وحدة كيل للوزن وتلفظ ايضا "بتمن" وشاع استخدامها في مدينة قازان ويقال أن السيد (حسن اوزدن) من سادة التركمان استحدث وحدة آل (بتمن) ويمثل آل (نوغى) أو آل (نوق) جزءا منه وكل ١٢ (نوق) يساوي واحد (بتمن) إلا اننا لا نعرف مدى العلاقة بين (البزمن، والبتمن) أو هل (البزمن) نتيجة لتحريف لفظ (البتمن) أم العكس.

* **Shtefer** شتفر ، وهي وحدة قياس اصغر من (الارشن) وكل أربعة (شتفر) تساوي (أرشن) واحد ومن الجدير بالذكر ان (الشتفر) يترجم إلى (الفتر) ولكن الفتر في اللغة الفارسية وحدة وزن ليس وحدة طول.

* **أفراكه Afrakeh** ، وهي وحدة قياس للطول وتقابلها وحدة الذراع المقصورة عند الشعوب الإسلامية بشمال الاناضول وعند الشركاسة كل (١٢ افراكه) يسمى قوراغ Koragh .

* **بجه يز Bejeh yez** وأدافه **بجه Adaqha Bejeh** هما وحدة كيل للسوائل، فالأولى أكبر من الثانية ويستدل أن الأولى تماثل وحدة الكيل المعروفة (بالقدحة) التي تعادل لتراً واحداً تقريباً، أما الوحدة الثانية فتقابلها وحدة الكيل المعروفة في العالم الإسلامي (بالكيله).

* **كيه Kaih** وحدة قياس للسوائل وهذه الوحدة تعادل (البرميل) ومن المفيد أن نذكر أن البرميل الذي سعته (٤٥) لتراً يسميه الانجليز بـ (كيج).

نستنتج مما تقدم بأن الشركاسة كانوا منفتحين على العالم كما كانوا على اتصال بالمدنيات والحضارات التي كانت تجاورهم في شمال القفقاس^(١٠).

خامساً: الثقافة المعرفية العلمية المتقدمة حول التصنيع لدى الأمة الشركسية

عرف اجداد الشركاسة العديد من الصناعات وتفوقوا فيها منذ الألف الثالثة قبل الميلاد حسب رأي العالم الروسي الاثري (فارماكوفسكي) الذي وجد في عام ١٨٩٧ مقبرة في (مايكوب) تدل موجوداتها على المستوى الرفيع الذي كان قد وصلت إليه الحضارة الشركسية في التصنيع المبكر في التعدين عامة والحديد خاصة والأواني التي وجدت في هذه المقبرة تدل على الفن المتميز للشركاسة وهي الأواني الفضية المنقوش عليها رسومات والتي تدل على المستوى المتقدم للأمة الشركسية في ذلك العصر^(١٢).

ولإلقاء الضوء على مدى تقدم المعارف العلمية في مجال (التصنيع) عند اجداد الشركاسة، كان لا بد من الرجوع إلى بعض المصادر والمراجع الأثرية للتعرف على مستوى هذا التقدم وهو المستوى الذي تدل عليه الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: عثر ضمن (لقيات) وحفريات (مايكوب) على بقايا (مشغل لصب المعادن) كما عثر على انتاج هذا المشغل من: الفؤوس والخناجر والحلي والازرار ذات الاشكال الدائرية والاطوال.

الحقيقة الثانية: وصل التقدم الصناعي عند اجداد الشركاسة إلى قدرتهم على طلاء سطح الاواني بسائل، مكنهم من عمل زخارف ونقوش جميلة عليها مثل (الكشاكش والاكاليل مثلثة الشكل). الخ.

الحقيقة الثالثة: تفوق اجداد الشركاسة بالصناعات المتعلقة بالذهب، واصبحت لديهم مهنة (الصياغة) من المهن المشهورة في القفقاس عامة وعند الشركاسة خاصة، حيث يقول حول ذلك العالم الروسي (أ. أ. ايسين) ان المواد الاثرية التي وجدت في مقابر (مايكوب) تسمح لنا بالقول بأن انتاج اجداد الشركاسة من الخلاخل، وحلق الاذن، والاسوار، والخواتم من الذهب تدل على انهم كانوا (صائغين) مهرة منذ منتصف الألف الثالث ما قبل الميلاد^(١٣).

الحقيقة الرابعة: يقول العالم الاثري (شانتر) في كتابه (مباحث سرية في القوقاز) بأن ادوات الزينة التي وجدت في حوض نهر كوبان ونهر ترك تثبت بأن المناطق القوقازية عامة، والمناطق التي كان استوطنها اجداد الشركاسة خاصة، كانت السياقة في استعمال المعادن في الصناعات اليدوية منذ الألف الرابعة والثالثة قبل الميلاد^(١٤).

الحقيقة الخامسة: يؤكد علماء الآثار الروس منهم عامة والاوروبيين خاصة وعلى رأسهم العالم الفرنسي (مورجان) بأن صناعة الاسلحة كانت منتشرة في المجتمعات الشركسية منذ القدم، وان منطقة (الأديغة) كانت مركزاً لمحترفي صناعة الاسلحة على اختلاف انواعها، وان هذه الصناعة كانت صناعة يدوية، وان أكثر الاسلحة تصنيها كانت الاسلحة الدفاعية مثل: الخوذة والدرع والقميص المعدني (المدرع) والققاز المعدني لحماية الذراع والكوع و(الطنجة) (المسدس) والسيف الشركسي، كما انهم توصلوا إلى اسرار صنع (ملح البارود)^(١٥).

الحقيقة السادسة: يؤكد علماء الآثار الروس منهم والشركاسة، بأن الحفريات العديدة التي أجريت في مناطق مختلفة في بلاد القفقاس الشمالية، في الاعوام ما بين (١٨٩٨ و١٩٠٩) بأن اجداد

الشراكسة عرفوا اسرار الصناعات اليدوية التي كانت سائدة في كل عصر من العصور الحجرية منها والمعدنية، وانهم استخدموا المواد الطبيعية التي كانت موجودة في كل عصر، ففي العصور الحجرية استخدموا الحجارة على اختلاف انواعها في صناعة الفؤوس، والقامات، والمناجل، والسهام، والمحاريث والاسوار، كما استخدموا في هذه العصور الطين والفخار في صناعة الاواني والادوات المنزلية.. الخ.

وفي العصور المعدنية استخدموا النحاس والفضة والذهب والحديد والقصدير والبرونز في صناعة ما يحتاجونها من ادوات والآت واجهزة مثل: العربات ذات العجلات تجرها ستة ازواج من الجياد، بالإضافة لصناعة أنواع مختلفة من المعدات الحربية من سيوف وقامات، ودروع.. الخ. وكذلك صناعة جميع الادوات المنزلية، ومن حلي الزينة والتماثيل، وانهم اخترعوا في فترة مبكرة من الألفية الثالثة ما قبل الميلاد (الابرة) العاجية اولاً، ثم (الابرة) المعدنية، والامشاط وغيرها من الادوات في وقت لم يكن أي شعب من شعوب الارض يعرف مثل هذه الصناعات البسيطة.

الحقيقة السابعة: عرف اجداد الشراكسة اسرار صناعة الغزل والنسيج، وان هذه الصناعة بدأت في الألفية الثالثة ما قبل الميلاد وخاصة الصناعات المتعلقة بالانسجة الصوفية واستخدموها في صناعة السجاد، وفي صناعة حياكة الملابس باستخدام خيوط الحرير، ويقول حول ذلك المؤرخ العربي الكبير (المسعودي) بأن أمة (الكشك) ويقصد بها (الأمة الشركسية) كانوا يصنعون أنواعاً من الثياب من نبات (القنب) كما اشتهرت نساؤهم في مراحل لاحقة في نسج الاقمشة بأنواعها، وابدعوا في نسج اقمشة العباءات من خيوط اللباد، كما اشتهروا في اشغال المخرز ونسج الاقمشة من القطن والكتان والحرير، وان انتاجهم من صناعات النسيج وصلت من الاتقان حتى اصبحت تصدر إلى بلاد القرم، وروسيا وإلى بعض الدول الأوروبية منها ايطاليا^(١٦).

بالإضافة إلى ما تقدم من حقائق حول معرفة اجداد الشراكسة للاسرار العلمية والصناعية فإن اساطير الشركسية تدلنا ايضا على مدى معرفة هذا القوم للمعادن عامة وللحديد خاصة وأن من اشهر الآلهة لديهم في زمن الوثنية كان إله (الحدادة) ويسمى باللغة الشركسية (لبش). وهو إله الحديد الشركسي، وإذا حللنا اسمه فنجد بأن (اللام) مقربة للتاء وتعني (رجل) وكلمة (بش) تعني (النفخ) والحداد هو رجل ينفخ النار دائماً حتى يرفع حرارتها. وبذلك تعني هذه الكلمة (الرجل الذي ينفخ النار) وهي الصفة الأكثر شيوعاً والأهم في عمل الحداد، وهي رفع درجة الحرارة عن طريق النفخ، أما كلمة (حداد) فتأتي بمعنى (عُجل) أي (الرجل الحداد)، وهكذا فمن خلال تحليل رموز الميثولوجيا فإننا نستطيع التأكيد على ما سبق ان تحدثنا عنه من ميزات هذه الحضارة في عصر البرونز المبكر.

الحقيقة الثامنة: توجد اسماء المعادن في اللغة الشركسية كأسماء أصيلة فيها وغير دخيلة عليها، حيث تدلنا على أسبقية الحضارة الشركسية بالصناعات المعدنية وأن أسماء المعادن مثل (غوبل) وهو النحاس و(غواف) وهو القصدير (عُج) وهو الحديد وكذلك (تجن) أو (دجن) وهو الفضة واخيراً (دشه) وهو الذهب.

كما نستنتج من التحليل اللغوي لهذه الاسماء بأن اجداد الشراكسة عرفوا اسرار صهر هذه المعادن حيث نجد في اسماء المعادن العادية (الحديد والقصدير والنحاس) بتكرار الحرف المشترك الذي اصبح جذراً في مجموعة الاسماء هذه وهو حرف (عُ) ويعني باللغة الشركسية الشيء (اليابس الجاف) وربما كان يعني (فلز المعدن). أما بقية المقاطع فهي على النحو التالي (بل) تعني الساخن - و(واف) تعني السماء و(ج) تعني الأرض، وهكذا تصبح معاني هذه المعارف على النحو التالي:

- النحاس (غوبل) وهو المعدن الساخن من منطلق عمليات صهره وصبه في قالب.
- القصدير (غواف) وهو معدن السماء وهو نفس المعنى الذي اطلقه السومريون على هذا المعدن.
- الحديد (عُج) وهو معدن الأرض.

أما المعادن الثمينة ففيها الجذر (د) أو (ت) فالحرف الاول بمعنى (الأب) والثاني بمعنى (العطاء) بمعنى (ت + ج + ن) أي بمعنى (العطاء + القديم + حرف مصدري) وهي بمعنى العطاء

القديم أو وفاء الدين، ولا شك أنه استخدم كعمله لتقدير القيمة ووفاء الديون حسب ما تعنيه الكلمة، إذ نلاحظ مدى اصالة وقدم هذه التسميات في اللغة الشركسية وهذا يتوافق مع ما اكده المؤرخون من اسبقيات هذه الشعوب في حضارة الانبوليت والبرونز واكتشاف معدن الحديد. (١٧)

الحقيقة التاسعة: توصل بعض القبائل من اجداد الشركاسة إلى أسرار صناعة القوارب والمراكب الشراعية التي تتسع إلى (٣٠٠) راكب من قبيلة "حانوخ" وكانوا يتجولون فيها في البحر الأسود كما كانوا يصلون إلى شواطئه الغربية.

مصادر ومراجع الفصل الثالث / ثانياً

- ١- أبري دي لاموتر، رحالة فرنسي، تجول في بلاد الشركاسة في القرن الثامن عشر وكتب عن عاداتهم ومعارفهم وثقافتهم.
- ٢- جركس، مصطفى حسن، التربية الشركسية، عمان عام ٧٢-٧٤.ص
- ٣- أبه زاو، محمد جمال صادق - مصدر سابق، ص: ١٥٥.
- ٤- فياض، جوهرة يحيى، لمحات من الطب الشعبي الشركسي في الأردن، مجلة نارت، الجمعية الخيرية الشركسية، عمان.
- ٥- فاخرتيف، بلانش، "التنجيم"، مجلة الواحة، الجمعية الخيرية الشركسية، عمان ١٩٩٠، العدد (٤٧)، ص: ٩.
- ٦- رشدي، راسم، الشركاسة صفحات من تاريخ مصر الحديث، القاهرة، ١٩٤٨، ص: ١٧.
- ٧- بج، منذر، الأصول الشركسية في اللغة السومرية، حلب - سوريا عام ١٩٩٥.
- ٨- نغموقة، مصدر سابق، موجز تاريخ الشركسي، ص: ٣٤.
- ٩- انسوقة، نزار، علم الفلك عند الشركاسة، مجلة نارت، الجمعية الخيرية الشركسية/ عمان العدد (٥٢) السنة (٢١) تموز ١٩٩٣، ص: ٢٤.
- ١٠- شقمان، هادي، المكايل ووحدات القياس عند الشركاسة، مجلة نارت، الجمعية الخيرية الشركسية، عمان، ص: ٢٥.
- ١١- قردن، لينا، التقويم الشركسي التاريخي، مجلة نارت، مصدر سابق، العدد (٥٢) سنة (٢١) اصدار شهر تموز عام ١٩٩٣، ص: ١٩-٢٢.
- ١٢- فارماكوفسكي، آثار مايكوب، ١٨٩٧.
- ١٣- أ. أ. ابسين، عالم أثري روسي، مكتشفات مقابر مايكوب.
- ١٤- سانتير، كتاب مباحث سرية في القوقاز ١٨٩٠.
- ١٥- مورجان، المجلد الاول، ص: ٢٠٨.
- ١٦- المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ص: ٢١٠.
- ١٧- سمكوغ، برزج، الشركس في فجر التاريخ، مصدر سابق، ص: ٢٢٢.

ثالثاً: البعد المعماري وفن الزخرفة في حضارة الامة الشركسية

يؤكد علماء الانثروبولوجي بأن الانسان (الاشولي) ظهر في القفقاس في العصر الحجري القديم الأدنى منذ ٨٠ ألف سنة قبل الميلاد، حيث دلت الآثار في مدرجات الأنهار في شمال القفقاس، بأن أول استيطان بشري بشكل مكثف كان في الفترة الاشولية، وأن مجموعة الصيادين وقاطفي الثمار (الاشوليين) أجداد (الأبخاز والأستين والأديغة في الكوبان) سكنوا على مساحات مختلفة من القفقاس الشمالي وعلى ارتفاعات متعددة وتأقلموا في المواقع الجبلية المكسوة بالغابات.

كما يؤكدون بأن (الاشوليين) كانوا مستقرين نسبياً في مساكنهم، حيث استوطنوا (المغاور والكهوف) واضطروا أثناء ذوبان الجليد للهجرة من الأماكن المرتفعة والنزوح للأماكن أكثر انخفاضاً والتي بدت أكثر كثافة في السكان.

يقول المؤرخ (جيمس بل) بأن شعوب شمال القفقاس قد شاركت في بناء أول الحضارات البشرية بعد خروجها من العصور الحجرية القديمة، حيث بدأ بيني المدن وبشكل دويلات ويكون الحضارة التي سميت بالحضارة (المدنية) نسبة إلى المدن الأولى التي تشكلت في ذلك العصر^(١).

وفي الفترة ما بين (٨) آلاف سنة وحتى (٦) آلاف سنة ق. م. بدأ الانسان القفقاسي في التعامل مع الحجر باستخدام (الحلج والتقبب والتنعيم)، واستطاع في هذا العصر استخدام الطين (نصف المشوي) في بناء جدران المنازل والمواقف داخل البيوت.

كما يشير علماء الانثروبولوجي والآثار بأن انسان عصر الحجري الحديث تميز بعدة مزايا تدل على بدايات نشأة الحضارات، وأن أهم ما تميز به هذا العصر هو:

(تطور فن العمارة والدخول في عصر البناء الحجري).^(١)

ونستدل على هذا التطور في فن العمارة من الحقائق التالية:

(١) تم اكتشاف هضاب (قازيك) وهو بناء كبير ينسبه بعض المنقبين إلى شعب (مه وت) كما وجدوا بناء آخر وراء نهر الكوبان يسمى (سينتا). كما تذكر بعض الروايات الشركسية القديمة بأنه كان يوجد على ضفاف نهر (ملقا) مدينة قديمة تدعى (مالقاه)، كما كان يوجد بين نهري (شكم وباقسان) بقايا قلاع وحصون ما زالت خنادقها وأسوارها ظاهرة للعيان، ولم يتمكن المؤرخون من تحديد زمن إنشائها أو القوم الذين أنشأوها لتقديم تاريخ أنشائها.

كما وجد في الجهة المطلّة على الجبل المرتفع القائم على الضفة اليمنى من نهر (باقسان) ست درجات عظيمة منحوتة في الصخر تؤدي إلى فتحه في الجبل، حيث يوجد سلم صخري منحوت من الجبل يقود إلى اعلاه، كما وجدت هناك بعض الآثار القديمة التي تدل على ان اجداد الشراكسة هم الذين قاموا بنحت تلك الدرجات الصخرية.

كما تؤكد المكتشفات الاثرية، بأن اهتمام اجداد الشراكسة لم يقتصر على بناء البيوت السكنية وغيرها من المباني والمنشآت التي كانوا يستخدمونها منذ فجر التاريخ بل انهم وجهوا اهتمامهم لبناء القلاع والاقبية والسدود مثل (سد القفقاس العظيم) كما ابدعوا في تشييد المقابر الفردية والجماعية.

(٢) تطور فن العمارة وبناء المساكن في مرحلة حضارة (كوراراكس) حيث تم بناء البيوت بشكل صفوف فوق بعضها على المنحدرات الجبلية، وكان البيت الواحد مجزئاً إلى قسمين ودائري الشكل بقطر (٥-٦م)، وفيه (جرار) فخارية، وحفر مطمورة في الأرض للتخزين، كما استخدمت في هذه الفترة قوالب الأجر في البناء وطلبت بالطين من الجهتين.^(٢)

(٣) وفي الالف الثانية قبل ق. م وكننتيجة طبيعية للزيادة في انتاج المحاصيل الزراعية عامة ومحصول القمح خاصة، قام اجداد الشراكسة ببناء مستودعات لحفظ الحبوب وهي التي كانت تقام على شكل حفر عميقة في باطن الأرض، كما ظهرت في هذه الفترة (المساكن الصيفية) لاضطرارهم الانتقال بالحيوانات صيفا إلى المراعي الجبلية النائية بعيداً عن المساكن الدائمة في السهول.

(٤) ومن بين المكتشفات الأثرية التي ذكرها (أنفيموف) تلك التي وجدت في المناطق التي كان يسكنها (السنديون) وقبائل (المثيوت) من اجداد الشركاسة في المناطق المنخفضة من حوض نهر (الكوبان) وشبه جزيرة (تامان) بمحاذاة شواطئ البحر الأسود وحتى موقع مدينة (انابا) موقع لمدينة قديمة، عرفت باسم مدينة (الآخوة السبعة Seven Brothers) وتقع على سبعة تلال من الضفة اليسرى لنهر الكوبان، ويوجد على هذه التلة (حتى اليوم) مقابر نبلاء السنديين الذين عاشوا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. وسبق أن ازدهرت هذه المدينة واصبحت مركزا اقتصاديا وسياسيا هاما في القرن الخامس قبل الميلاد، كما كانت محاطة ومحمية بجدران عملاقة وإبراج عالية، أطلق عليها بعض المؤرخين (الكواكب السبعة) للدلالة على مدى ازدهارها وتألقها مثل الكواكب السماوية^(٣).

(٢) العوامل التي أثرت على فن تصميم بناء المساكن الشركسية:

إن الباحث في فن العمارة الشركسية يجد بأن أكثر من عامل كان له تأثير على تحديد شكل بناء البيوت لقدماء الشركاسة، وعلى المواد المستخدمة في هذا البناء... ومن هذه العوامل هي:

الأول: العامل الاجتماعي:

يؤكد علماء الاجتماع بأن شكل البيت وتصميمه تأثر كثيرا بالنظام الاجتماعي واسلوب حياة الشركاسة، حيث يقول احد الباحثين الاجتماعيين بأن البيوت القفقاسية كانت تعكس طبيعة الحياة الاجتماعية لديهم من عادات وتقاليد واعراف وانها كانت تلعب دوراً رئيسياً في تحديد مواقع الجدران، والأبواب، والنوافذ، وعدد الغرف وعلاقتها مع بعضها البعض.

وباحث آخر يؤكد بأن البيت الشركسي يعكس الوضع الاجتماعي للشركاسة فالبيت الرئيسي مكون من ثلاث أو اربع غرف، تمتد بشكل طولي، وأمامها مظلة مرفوعة على اعمدة خشبية، والمطبخ الواسع هو المكان الرئيسي لمعيشة الأسرة، حيث يلحق به قسم للنوم يستعمله الخدم او صغار السن، وهناك غرفة خاصة لرب العائلة او كبيرها، وغرفة أخرى مخصصة للضيوف، وثالثة خاصة بالوالدين أو الاولاد المتزوجين، اما الابنية الفرعية فكانت تشمل زرائب (الحلال) ومشغل لتلبية احتياجات المنزل ومستودعات للحبوب، واما المرحاض فكان موقعه بعيداً نسبياً خارج البيت الرئيسي، وغالبا ما كان يوجد مرحاض مخصص لاستعمال الضيوف^(٤).

وباحث ثالث يؤكد بأن تصميم البيوت الشركسية كان انعكاسا وتجسيدا لنمط الحياة المميزة عند شعب "الأديغة" فتصميم الغرف، وإقامة الجدران، وتحديد مواقع الأبواب والشبابيك، وكذلك المواقع الخاصة بالموقد، تلقي ضوءا جديدا على العادات والتقاليد التي كانت سائدة^(٥).

وفي كل الاحوال، فإن معظم الباحثين في فن العمارة لدى الامة الشركسية وهو الفن الذي بدأ منذ عهد اجداد الشركاسة في مراحل ما قبل فجر التاريخ... أقول بأن معظمهم يؤكدون بأن العوامل الاجتماعية من عادات وتقاليد واعراف كانت تحدد اسلوب التصميم العام للبيوت السكنية للعائلات الشركسية عامة وفي بلاد المهجر.

عوامل مناخية:

لما كانت بلاد الشركاسة في الوطن الام بلاداً باردة جداً شتاء، وحارة في الصيف في السهول وعلى سواحل البحر، فإن تصميم البيت الشركسي كان متأثراً بالعوامل الجوية، من حيث مراعاة شدة البرودة في الشتاء والحرارة في الصيف، لذلك نجد البيوت الشركسية القديمة مصممة من جدران سمكية وشبابيك صغيرة قليلة العدد وغرفها تتصل ببعضها من خلال ابواب داخلية.

عوامل امنية:

عاش اجداد الشركاسة واسلافهم في حروب دائمة مع الاعداء من داخل القفقاس وخارجه، ولا شك بأن هذه الحقيقة كان له دور واضح في اسلوب وطريقة تصميم البيوت الشركسية من حيث مواقع انشائها واسلوب التصميم الذي يضمن سهولة التحرك، من وإلى البيوت، في حال حدوث غزو

أو هجوم حيث كان تصميم بناء البيوت في مثل الاحوال على شكل (كتل) متراسة مكونة من (٤٠-٦٠) بناء مرتبطة ببعضها بممرات مشتركة على شكل مربع أو دائرة ذات بوابة واحدة فقط للدخول والخروج. (١٠)

العوامل الطبيعية:

وتتمثل بطبيعة المواد المتوفرة في البيئة المحيطة لمناطق سكن الشراكسة في القفقاس وخارجة. كما كان تصميم المنزل يتأثر ببعض القيود الفنية والبيئية. فالطول المحدود للخشب المعالج يحذب الشكل المستطيل، مستغنيين في ذلك عن الحاجة إلى الوصلات الخشبية كما تأثرت بمواد البناء المتوفرة في البيئة المحيطة من حيث توافر الحجارة أو عدمها أو توافر انواع معينة من (الطين).

(٣) معالم فن هندسة العمارة لدى الشراكسة:

ربما كان للتطور السريع للصناعات الحديدية والمعادن الملونة الأخرى اثر مباشر على رفع مستوى البناء، حيث ساعد على تغلغل وانتشار المهن والتخصص في انواع البناء.

كما يقول (جلوقة) حول المواد المستخدمة في البناء بأن بيوت الشراكسة في القفقاس كانت تبنى بشكل رئيسي من هيكل خشبي متين، جدرانه من أغصان الاشجار الطرية المشغولة بشكل متداخل، كما هو الحال في صناعة السلال من القصب، وتتطلى الاغصان بطبقات من الطين الصلصالي، ويغطي السقف بالاعشاب التي ثرتب فوق بعضها البعض بحيث تمنع تسرب مياه الامطار، وكان هذا النموذج من البناء سائدا في المناطق السهلية، اما في المناطق الجبلية والمرتفعات فكان البناء يتم باستعمال الحجارة والطين مع الابقاء على الخشب كمادة حاملة للسقوف وفتحات الابواب والشبابيك. (١٦)

ويعود سبب هذا الاختلاف في بناء بيوت الشراكسة، كون الجبال كانت اكثر امنا من المناطق السهلية المعرضة للغزوات والحروب، التي كثيرا ما ادت إلى انتقال قرى بأكملها إلى مواقع جديدة، كما كان البناء باستخدام الجذوع والاعصان اكثر سرعة، اضافة إلى ما تؤمنه من حماية ضد عوامل الطبيعة كما اصبحت لدى الشراكسة خبرة في تصنيع الاسيجة والجدران من الاغصان الطرية، بالإضافة إلى استخدامها في صناعة مخازن الغلال والعربات التي تجرها الثيران، كما كانت بعض البيوت تصنع من جذوع الاشجار بالكامل، وتغطي بسقف من القش الجاف أو قطع الخشب الرقيقة.

استمر البناء بهذه الطريقة خارج القفقاس أيضا كلما توفرت المواد وسمحت ظروف البيئة بذلك، وهناك نماذج من هذه البيوت نجدها في قرى بجنوب الاناضول في تركيا.

كما أقام الشراكسة في الأردن بيوتهم حسب النظام المعماري الذي كان سائدا في بلادهم الاصلية والذي كان يلائم أسلوب معيشتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، غير انهم غيروا في اساليب البناء بشكل تدريجي وبما يتلاءم مع البيئة المحلية وتوفر مواد البناء. وفي عمان مثلا استعملوا الحجر في البناء بشكل رئيسي، حيث كان متوفرا بكميات كبيرة لوجود الاثار الرومانية كما استغلت بعض حجارته بشكل جزئي في البدايات الاولى بعد اضافة اجزاء تكميلية كالسقوف الطينية المحملة على جذوع اشجار السنديان. (١٦)

نستنتج من نشأة وتطور فن العمارة لدى الأمة الشركسية منذ عصر الاجداد وحتى العصر الحديث، بأن فنهم المعماري كان مميزا في اكثر من معلم أو مجال، وان هذا الفن تمثل في تصميم المباني والمنشآت الشركسية التالية:

- بيوت السكن الشركسية والمرافق الملحقة بها: مثل الحظائر ومستودعات التخزين، مداخل التدفئة (الونجاق).
 - المضافات المعروفة باسم (حاشش) .
 - السدود والقلاع والابنية.
 - اماكن العبادة من كنائس واديرة ومساجد.
 - المقابر والأضرحة لدى قدماء الشركاسة.
- وفيما يلي وصف للفن المعماري المستخدم في كل منشأة من تلك المنشآت.

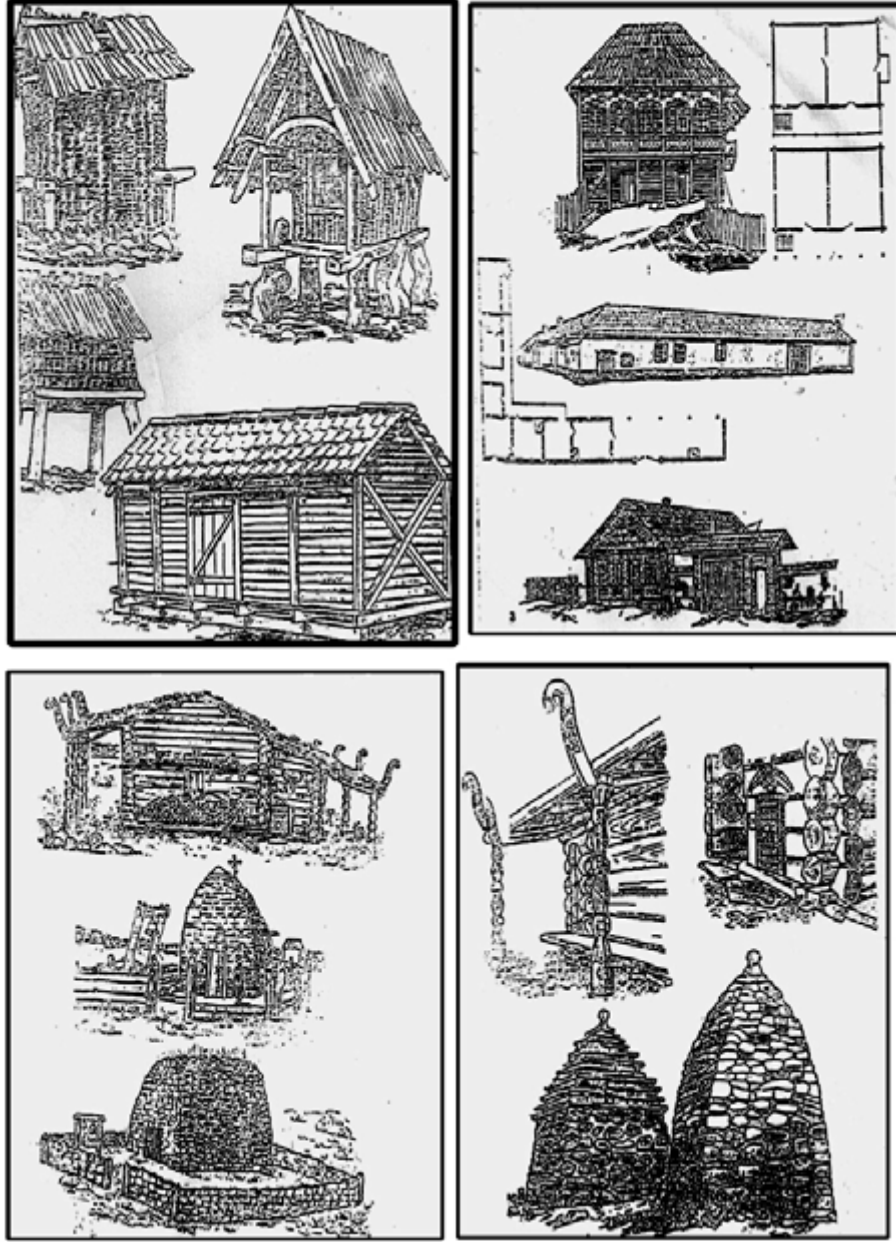
أولاً: تصميم بيوت السكن والمرافق الخدماتية:

تنوعت تصاميم البيوت؛ ففي المناطق السهلية، كانت المباني الخشبية هي الانموذج السائد، ونظراً لصعوبة حماية القرى في بلاد منبسطة، جرى تصميم المباني على نحو يسهل فيه هدمها عند استشعار خطر ما، ثم نقل الخشب إلى مكان آمن وإعادة البناء. وفي المناطق الجبلية الآمنة نسبياً، استعمل الحجر في بناء الجدران، أما السقوف فكانت من الأخشاب، في المناطق المعرضة للهزات الأرضية، استعمل الخشب لتدعيم الجدران ضد الهزات.

وفي القرن الثامن عشر ظهر احد أنماط البناء الجديد، وعلى شكل مستطيل، وبطول يتراوح ما بين (٨-١٠) أمتار، وبعرض (٣) أمتار. وقد شيدت الجدران من الاغصان المجذولة السميكة، وكسيت بالطين على الجانبين، واقيم سقف من العوارض الخشبية الخفيفة، وغطي بعشب طويل، او بسيقان نباتات جرى شدها وضغطها بشكل محكم للحيلولة دون تسرب المياه. وقسم البيت إلى عدة غرف، منها غرفة صغيرة للنبات وأخرى للولاد. وكان رب البيت يعيش عادة في غرفة مستقلة، ذات جدران مزينة بمجموعة من الأسلحة، والسيوف، والخناجر، وسترات الدروع، والقوس والنشاب.

وفي بعض أجزاء بلاد الشركس، استعمل اللين (الطوب) المخلوط بالقش الناشف لبناء الجدران كتصميم مختلف. وباستعمال اللبنة المتماثلة ثم ضمان التساوي في سماكة الجدران، والشكل المنتظم للأبواب والنوافذ. وكانت عملية بناء الجدران سهلة بعض الشيء، واستغرقت وقتاً قصيراً في إتمامها. وطلبت الجدران بطلاء ابيض من الداخل والخارج، ليس فقط لأسباب جمالية، بل لمقاومة الرطوبة والمياه أيضاً. وكان طلاء الجدران يُعاد بين الحين والآخر لغاية المحافظة على منظرها نظيفاً. وكان السقف مصنوعاً من عوارض خشبية ملفوفة بشكل جيد، مأخوذة من جذوع الأشجار الضخمة، ومغطاة على نحو منسق تماماً بسيقان القصب. وكانت الجسور الأفقية مدعومة بأعمدة خشبية مربعة ذات رابط خشبي في الأعلى، بهدف ربط العوارض فيها، ولأغراض تدعيم الجوانب أيضاً، وصممت الرافعات الخشبية بشكل يمنع انزلاق الدعامات. وكانت الشرفة الممتدة على طول البيت، مدعمة بأعمدة خشبية من جذوع الأشجار^(٤).

اللوحة رقم (1) تمثل تصاميم معمارية مختلفة، استخدمها أجداد الشركاسة في بناء البيوت السكنية منذ عصر ما قبل التاريخ



تطور تصميم البيوت الشركسية:

تطور بناء البيوت السكنية الدائمة حيث أصبح البيت مقسماً إلى غرف خاصة مفصولة عن بعضها بجدران، ومتصلة مع بعضها بأبواب وكاريدورات. وكانت تصمم بشكل يحافظ على دفء البيوت في الشتاء وطراوتها في الصيف كما كانت جميع غرف البيت مرتبطة مع بعضها بأبواب داخلية إلا غرفة واحدة تتصل بالرواق (الكردور) وكانت هذه الغرفة هي غرفة الضيوف، وتحاذي هذه الغرفة غرفة المعيشة، مع نافذة صغيرة بينهما لتمرير الطعام منها أما المدخنة المقامة قرب الحائط المشترك، فتدفيئ الغرفتين، ويُبقى الطعام ساخناً. وأما المطبخ فكان واسعاً ويحتوي على الفرن الخاص بالخبز، كما كان يستخدم كغرفة معيشة للعائلة. وحُفرت ثقوب فيها لتدفيئة الغرفة المجاورة

لها، كما ألحق بالمطبخ غرف للخدم ولنوم الاطفال^(٤). وفي مراحل لاحقة استخدم النبلاء والأشراف والأغنياء من طبقة الاحرار بعض الزخارف المعمارية في تجميل واجهات مساكنهم الخاصة.

انواع البيوت الشركسية:

ابتكر الشركاسة اكثر من نوع من البيوت وذلك حسب المواسم وطبيعة اعمالهم في الحقول والمراعي. ومن اهم انواع هذه المنازل (البيوت) هي:

المنازل الشتوية:

بنى قدماء الاديغة ابراجا حجرية للسكن ذات قاعدة رباعية (٨×١٠م) أما الارتفاع فقد يصل إلى (١٢) م من الحجر الرملي او الحجر الكلسي مما هو متوفر في البيئة، وهي منحوتة، وعرضها من الاسفل حوالي متر واحد. وفي وسط البناء يوجد عمود تقارب مساحة مقطعه في الأسفل ٢٣/٤ م ثم يصغر المقطع بالتدريج مع زيادة في الارتفاع لتخفيف الحمولة، وهذه الاعمدة هي الدعائم الحاملة لأرضية كل طبقة من البناء، والدرج الذي يقود إلى الطبقة الاولى من البناء يبتدئ من الخارج، اما الوصول إلى الطوابق العلوية فيتم بواسطة سلم خشبي عريض.

سطح البناء: كان سطح البرج مكونا من طين مسطح مائل بعض الشيء لجريان ماء المطر أو انه مقبب.

■ وهناك أبراج حجرية تلاصق الأبراج السكنية ولها نوافذ صغيرة لإطلاق السهام أو لإطلاق العيارات النارية منها، وأحيانا يوجد برج دفاعي مقابل كل أربعة أو خمسة أبراج سكنية. وهذه الابراج كانت منتشرة في وسط القوقاز وخصوصا منطقة البروز. ولا نصادف مثل هذه الأبنية البرجية في أي مكان آخر في القوقاز.

المنازل الصيفية:

وكانت تبنى على جبال يتراوح ارتفاعها (١٢٠٠-١٦٠٠م)، وتحيط بها بعض الحقول يبدونها في فصل الربيع، ثم يصعدون إلى الجبل حيث يقضون فصل الصيف، ثم يهبطون إلى الوادي بعد فصل الحصاد. وكانت هذه البيوت مستخدمة كمنازل مؤقتة (موسمية) وهي مبنية من الحجر والخشب^(٥).

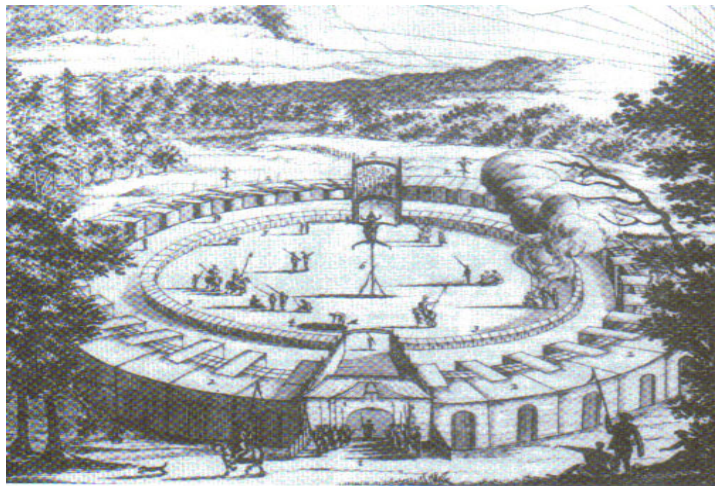
تصميم مساكن الفلاحين الشركاسة:

كان يتم تصميم سقوف من الألواح مغطاة بالقضبان الملفوفة بالقش، ومخروطية الشكل، وكانت جميعها تستخدم كمساكن لفقراء الفلاحين في غابر الأزمان.^(٤)

نموذج من بيوت الفلاحين الشركاسة منذ القرن السابع عشر الميلادي



نموذج لتصميم قرية شركسية صغيرة منذ القرن السابع عشر الميلادي



Ж. Тавернье. Черкесское селение круговой формы.
1679 г.

نماذج من تصاميم المنازل الشركسية في الوطن الأم في العصر الحديث



Бывшее здание аптеки Альтшулера
(ул. Первомайская, 197)



Бывшее здание жандармского управления
(ул. Пионерская, 328)



Здание первой
городской
почты
(ул. Первомай-
ская, 250)



تصميم المداخل (الونجاق) الشركسية:

تعتبر المدخنة (الونجاق أو الوجل) من المتطلبات الأساسية لكل بيت شركسي منذ عهد الاجداد في عصور ما قبل فجر التاريخ وحتى العصر الحديث، كما تعتبر من المتطلبات الأساسية للبيت الشركسي النموذجي منذ عصر الاجداد في الوطن الأم.

والمدخنة أو المدفئة اليوم يطلق عليها الشراكسة أكثر من اسم، وربما كان ذلك الاختلاف في الاسماء يعود لاختلاف اللهجات بين القبائل الشركسية ومن أكثر الاسماء المستخدمة في اللغة الشركسية هي (الونجاق أو الوجل أو الجنيوقة) ومهما اختلفت الاسماء، فإن شكلها وتصميمها كان متشابها ولا يوجد بينها اختلافات رئيسية.

وقدما كان يوجد (ونجاق) واحد رئيسي في كل بيت شركسي، ومع مرور الزمن أصبح يقام في كل غرفة واحدة منها، وكانت تصنع من الاغصان المتشابكة ومغطى بالطين من الداخل والخارج وبها قطعة خشبية على ارتفاع متر وربع المتر عن موقع النار، وتعلق بها حلقة حديدية تحمل أنية الطبخ، وفي المطبخ كان يوجد فرن خاص لعمل الخبز به فتحات خاصة لإيصال حرارة الفرن إلى إحدى الغرف المجاورة حسب الحاجة، والمدفأة كانت تستعمل لغايات التدفئة أو الطبخ وبها أماكن خاصة من الداخل لتجفيف الجبن الشركسي واللحم المقدد. ومن الخارج لها نتوءات من الطين توضع لغايات تجميلية أو لوضع بعض الأدوات مثل مصباح الزيت الذي كان يستعمل للأنارة. وكانت سماكة الجدران مع قلة الفتحات فيها عاملا مهما في الحفاظ على الحرارة داخل البيت دافئا شتاء وباردا صيفا، واستعمل الخشب في تقوية الجدران ضد أية حركات جانبية إذ كان لدى الشراكسة خبرة في التعامل مع الزلازل وخاصة في بلاد المهجر.

ويقول بعض الدارسين لتطور تصاميم (الونجاق) بأن النموذج الاصلي قد تغير مكان وجوده في البيت، ومكان إقامته حيث أصبح يثبت في وسط الجدار الداخلي أو الخارجي أو في الزاوية وعلى شكل مثلث. كما وجد نوع آخر من المواقد في البيوت القفقاسية كان يستخدم للطبخ وللتدفئة في آن واحد.

ودارس آخر للونجاق الشركسية يؤكد بأنها تختلف في تصاميمها وأماكن إقامتها من بيت لآخر ومن بيئة لأخرى. وهي ربما تتواجد في غرفة واحدة من غرف المنزل أو في أكثر من ذلك، أما الغرفة التي يجب ان تبنى فيها فهي غرفة المطبخ الشركسي المعروفة باسم (بيزيتش Pizich) وتبنى الونجاق عادة على صدر إحدى حوائط البيت الأربعة أو على حائطين أو في إحدى زواياه. وربما كانت (الجنقوات الشركسية) القديمة كما تظهرها الرسومات التراثية كانت دائرية الشكل تتوسط الغرفة أو تكون قريبة من أحد الجدران مع بناء صغير فوق أرض الغرفة بضعة سنتيمترات بشكل حافة دائرية لمنع تناثر الرماد والاحطاب في الغرفة، ويغلق فوقها بناء من جسم (قمعي) الشكل دائري الفتحة، واسع من الأسفل ويضيق كلما ارتفع إلى الأعلى، ومادة البناء كانت عبارة عن اغصان متشابكة اشجار معينة تتحمل اللي والتشكيل، وهي نفس الاغصان المستعملة في بناء صندوق العربة الشركسية المعتادة، ويتم اخراج نهايتها الضيقة من فتحة مناسبة فوق سطح الغرفة، وهو ما يعرف باسم (الوجل) في اللغة الشركسية أي المدخنة.

اما طريقة بنائها في بلاد المهجر عامة وفي الأردن خاصة فكانت تأخذ شكلاً مستندة بظهرها إلى جدار واحد أو جدارين معا بهيكل من قصبات نبات القصب الجاف والمجدولة معا بخيوط المصيص القوية، بطريقة مماثلة لتشكيل الهياكل الحاملة للأسقف والسطوح. وكان البعض يقوون هذا الهيكل بتدعيمه ببعض العوارض الخشبية. وبعد ذلك تجري عملية تغطية لهذا الهيكل من الخارج والداخل بمزيج من الطين والتبن، ويتم اخراج طرف بناء الوجل (المدخنة) وفوهته من خلال السقف إلى ارتفاع مناسب بحوالي ٧٠سم. وكان البعض يلجأون لتلبس الطرف الخارجي من (الوجل) فوق السطح بوعاء معدني من (التنك) لغرض حمايته من عاملي الريح والامطار.

وجرت العادة ان يثبت (الوجل) وجسمه على ارتفاع مناسب يتراوح بين ٥٠-٨٠سم من سطح ارض الغرفة. وربما تم وصله بأجنحة جانبية من طرفيه بأرضية الغرفة، كما يتم غالبا بناء رف او اكثر في واجهته الامامية، وتدفق المسامير المعدنية أو الخشبية على مقدمته وواجهته من الداخل والخارج لتعليق مختلف الادوات المنزلية عليها. وربما تمت عوارض معدنية او خشبية من جهة إلى أخرى لتستطيع تحمل الادوات ذات الاوزان الثقيلة^(١٧).

مكان (الونجاك) و قدسية النار لدى قدماء الشركاسة



نموذج الونجاك أو الجنقوة عند الشركاسة
منذ القدم من النوع المعلق وسط الغرفة

تشير الدراسات، بأن النار كان لها اهمية غير عادية في معتقدات الشركاسة القديمة، حيث تشير بعض الاساطير بأن اثنين من ابطال هذه الاساطير عوقبوا اشد العقاب بسبب محاولاتهم إحضار (النار) إلى الناريتين او استعادتها لهم. والبطل النارتي الاول هو (حُمربي) الذي تجرأ على سرقة (غصن مشتل من نار الإله) شبت عندما ضربت صاعقة جذع شجرة، فغضب عليها الإله. وعاقبه بتقييده إلى قمة صخرية على جبال القفقاس. والبطل الثاني وهو الاحدث في الروايات الاسطورية الشركسية وهو زعيم الناريتين المنتخب البطل الحكيم المسمى (نسر ن جاكاة) والذي حاول استعادة شعلة النار المقدسة من أحد الآلهة الاشرار المسمى (بقوة) أي البليد او الغبي والذي كان قد اغتصبها وصادرها من الناريتين إثر إحدى فورات غضبه عليهم دون وجه حق. فزاد غضب ذلك البليد الغبي (بقوة) على الزعيم (نسر ن جاكاة) فأمسكه وقيده

وثبته على صخرة في قمة جبل (البروز) وأطلق عليه نسرا لتعذيبه، وقد حاول بعض الناريتين فك أسر زعيمهم، ولكنهم فشلوا في ذلك، فاجتمع مجلس الناريتين وكلفوا البطل الاسطوري النارتي (بادينوقا) بهذه المهمة، فقام بمهمته خير قيام وبكل سهولة بعد ان قتل (نسر) (بقوة) الضخم الذي كان يحجب الشمس وينشر الليل عند فرده لجناحيه، وبعد ان قتل (تتينه) الضخم ايضا. فملأ الخوف قلب (بقوة) وولى هارباً، وهكذا انقذ البطل (بادينوقا) الزعيم (نسر ن جاكاة) واستعاد النار ثانية للناريتين، وتذكر رواية اسطورية شركسية ثالثة نفس القصة ولكنها تقول ان اسم البطل المخلص للزعيم (نسر ن جاكاة) هو (خيميشيقو باترز) وليس (بادينوقا) وتشابهة هذه الاسطورة الاغريقية التي تحكى قصة سرق النار من آلهة الاغريق ليهديها للبشر مما تسبب في فرض عقوبة عليه مماثلة للعقوبة التي تعرض لها الزعيمين البطلين الاسطوريين الشركسيين (نسر ن جاكاة) و (حُمربي). ولكن اسطورة (بروميثيوس) الاغريقية تبدو اكثر حداثة منهما.

ومن العادات الاسطورية القديمة لدى الشركاسة قبل دخولهم الاسلام بزمان طويل، أن العائلة الشركسية التي تستطيع المحافظة على تصاعد دخان (الجنقوة) عبر وجاقها طوال العام دون ان تنطفئ جذوة نارها او يبرد، تقوم بتقديم قربان من ذبائح البقر أو الغنم تسمى (قربان جذوة النار)، وإذا كان القربان المقدم دجاجة اسموها (دجاجة جذوة النار)، وذلك تعبيراً عن شكرهم لله وحمدهم له

على نعمة دوام اشتعال النار في (جنيقوات) بيوتهم. ومن الغريب انهم اسماوا موعد تقديم القرابين (بيوم عودة الروح إلى الارض)، واختاروا لذلك تاريخا محددا وهو يوم ٢٢ آذار (مارس) من كل عام، وهو يوم الانقلاب الربيعي السنوي وهو رأس السنة الجديدة لدى اجداد الشركاسة.^(١٧)

نستدل على المكانة التي تحتلها (الونجاق) من العادة التي كانت متبعة لدى الشركاسة منذ القدم، وهي عادة تكريم الضيوف بدعوتهم للجلوس امامها والتمتع بدفئها، وهي العادة المتبعة في تكريم رؤساء الدول وملوكها في البيت الأبيض الأمريكي أو في ١٠ داوننج ستريت في لندن أو في قصر الاليزية في باريس وغيرها من قصور الضيافة المشهورة في العالم حاليا، بدعوتهم للجلوس مع رؤساء دولهم أمام المدفئة Fire Place كدليل على دفء العلاقات وهي نفس عادة التكريم الشركسية لضيوفهم الاعزاء منذ القدم.

أهمية (الونجاق أو الجنيقوة) والنار في التراث الشركسي

تشير بعض الاساطير الشركسية القديمة، إلى أنّ الشركاسة يدعون لبعضهم البعض بأن لا تنطفئ النيران أو تخبو الجمرات في (جنيقوات) بيوتهم، ولما كان للنار أهمية قصوى وفوائد جمة في حياتهم، كما كان الشركاسة يحيون بعضهم بقولهم عبارة: (فلتلح في نارك البركة) وهي تحية كانت شائعة عند قدماء الشركاسة، بينما كانت عبارات (يا من نرجو ان يبرد موقده) أو (يا من نرجو ان تخذ نار جذوته) أو (يا من يوشكون أن يغسلوا موقدهم) هي لعنات كانت توجه إلى من يسيء إليهم كما كانوا يقسمون بالله الذي وهبهم النار بقولهم (أقسم بالإله صاحب ضياء هذا الموقد).

كما كان للجلوس امام (الونجاق) طقوس وعادات، منها عدم السماح بالتفوه بأية كلمات نابية أو مسيئة.. أو ان القيام بأي فعل مشين ينافي الآداب أو مخالفة العادات المرعية خلال جلوسه امام (الونجاق)، حيث لم يكن يغفر لمن يخالف مثل هذه العادات ويحاسبونه حسابا عسيرا من قبل التحمادات من كبار السن.

ثانيا: تصميم المضافات الشركسية:

يقول المؤرخ الشركسي (نغموقة) بأن المضافات الشركسية كانت تصمم وفق المعايير الهندسية التالية:

١- تشييد مجالس المضافات في مواقع بعيدة عن المساكن وعلى أطراف المدينة أو القرية خاصة عند شعب القبرطاي، لأسباب منها الرغبة في عدم تقييد حرية تحرك النساء في حياتهم اليومية بالقرية^(١٨).

بينما كانت قبائل شركسية أخرى يسكنون القسم الغربي من شمال قفقاسيا تقيم المضافات في وسط مجموعة أكواخ (بيوت) في القرى أو المدينة لضمان حماية الضيف، وهي الحماية التي كان يجب توفيرها من قبل الشخص المضيف حسب العادات المتعلقة بالضيافة الشركسية.

٢- يتكون بناء المضافات على قاعة كبيرة تتسع لعدد كبير من رواد المضافة، وعلى غرف نوم كافية ومرافق صحية (وتكون عادة خارج المضافة) بالإضافة إلى تخصيص أماكن لتحضير الطعام، كما كان يلحق بالمضافة (حظيرة) خارجية لايواء خيول الضيوف.

٣- في مراحل لاحقة من حياة الشركاسة في الوطن الأم ظهرت مضافات عائلية خاصة. ملحقة ببيوت النبلاء والاحرار (الورق) يكون موقعها في الركن الابعد في حوش مسكن العائلة، ومجهزة بكل متطلبات الضيافة، من مكان للخدم، ومرافق خاصة للخدمات الضرورية، وأن هذا النوع من المضافات كانت منتشرة في المجتمعات الشركسية في بلاد المهجر عامة، وفي كل من تركيا وسوريا والأردن خاصة حتى منتصف القرن العشرين.^(١٩)

ثالثا: تصميم البيوت المتحركة:

لجأ الشركاسة في بعض مراحل حياتهم، وخلال تعرضهم للهجمات الهمجية والغزوات البربرية من الأعداء، إلى ابتكار بيوت (أكواخ) متحركة يسهل جرها بالثيران بعيدا عن ساحات الحرب.

ويقول بعض المؤرخين نقلا عن (هيردوت) بأن الشركاسة تعلموا بناء البيوت المتنقلة من (الحثيين) الذين كانوا يستعملون بيوتا متنقلة على عجلات تجرها الخيول أو الثيران^(٧).

رابعا: تصاميم السدود والقلاع والنصب التذكارية:

١- **بناء السدود:** ربما كان السد القفقاسي الكبير أو (سور الكوبان) كما كان يطلق عليه بعض المؤرخين، وهو أكبر واعظم بناء تم تشييده في بلاد القفقاس منذ عصر الاجداد، واستخدم فيه فن معماري يشابه ما هو مستخدم في بناء الاهرامات الفرعونية في مصر... وتحدث عنه المؤلف الروائي الشهير (الكساندر دوماس) في المجلد الثالث الذي كتبه عن القفقاس، واورد نص رسالة ارسلت إليه عام (١٨٣٣) ميلادية من قبل شخص يدعى (ديستوشف مارلينسكي) يقول فيها:

"ان ما يدعو إلى الاستغراب الشديد أن هذا السد يحوي صفات مما ذكرها المؤرخ (دنون) عن اهرامات مصر، وهو عدم وجود أي قوس فيه، ومع اني تعقبت جميع السرايب، حتى التي تصل إلى مراكز الجند وإلى منابع المياه، أو التي تشكل مجاري المياه إلى قلاع السد، فإنني لم اصادف فيها على أي اثر لاتحناء كأقواس الأقبية. واستطرد قائلا:

"ومع أن ابواب بلدة (دربند) هي جزء متمم لهذا السور ذات أقواس، حيث انها جددت ورممت في زمن (كيسروا) ملك ايران، وسميت (باب الابواب).

ولا شك بأن هذا السد القفقاسي قديم في بنائه كالأهرامات الفرعونية، لأنه انشئ في وقت لم يكن يصل فيه الفن المعماري بعد لبناء الأقواس والأقبية.

وذكر (دوماس) في مذكراته عن سياحته في بلاد القفقاس، بأن عرض السد كان باتساع يسمح بمرور العربات فوقه، وأن طوله كان يمتد من بحر الخزر إلى البحر الاسود ولمسافة تزيد عن ستمائة كيلومتر، وان قدم هذا السد العظيم، الذي قد يكون سابقا لبناء سد الصين العظيم، ومعاصرا لأهرامات مصر، تم بنائه على يد أجداد الشعوب القوقازية عامة والشركسية خاصة، وهو السر الذي كان يعزل شمال القفقاس عن جنوبه، والغالب انه بني في الفترة (٤٥٠-٤٥٤) قبل الميلاد وفي عهد امبراطور روما (مارتيان) حسبما يذكر (بارتولد)^(١٠).

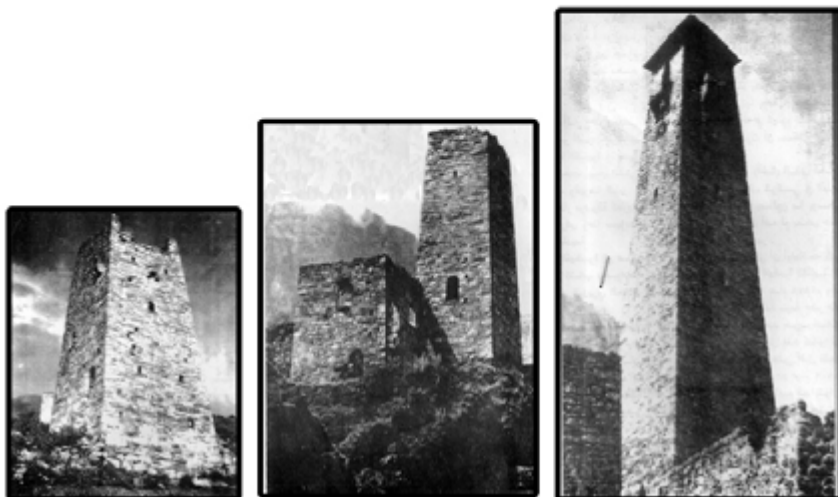
وكان الهدف من انشاء هذا السد أو السور هو إيقاف أو الحد من زحف امواج الهجرات الوافدة إلى القفقاس في العصور القديمة..

(٢) **القلاع:** لم يكن الشركاسة من المهتمين كثيرا ببناء القلاع، وانهم لم يكونوا يهتمون في حروبهم بالقلاع، حيث كانوا يعتبرون الاختباء داخل القلاع جبنا.

إلا ان بلاد الشركس لم تخل من القلاع وان كان عددها قليل نسبيا، ومن أهمها تلك التي وجدت في بلاد الشركاسة وبالقرب من المجرى العلوي من نهر (شرك Shereg) حيث يلتقي به نهر المالقا، وهي المباني (القلاع) التي كان يسميها القبرطاي (جولات Djula)، وهذه الكلمة ناتجة كما يظهر عن اختصار (جورتيلا أنت - Joritla Ant) أي معبد الاخلاص والتعبد لشعب الأنت.

وجاء في الروايات القديمة انها بنيت من قبل الاجداد الاولين للشركاسة، وكانوا يتردون إليها بغية التعبد، والتوبة، والاستغفار، ولتقديم الضحايا، وتجديد الصداقة بين أخوين أو صديقين سبق أن وقع بينهما خصام أو شجار أو نزاع على ملك أو نقض عهد، وغير ذلك من امور الدين والدنيا. حيث جرت العادة أن يذهب كل منهما إلى (جولات) حاملا معه قوسا وسهما، فمتى وصل إلى ذلك المكان المقدس، قبض كل منهما على أحد طرفي السهم، وعاهد الآخر على ان لا يخونه أو يؤذيه مستقبلا^(١١).

مواقع أثرية تمثل الفن المعماري الذي استخدمه اجداد الشراكسة في بناء القلاع
العسكرية في الوطن الأم في شمال القفقاس



(٣) **النصب التذكارية:** عثر على عدد من النصب الحجرية العامودية في أقصى الشرق حتى مناطق القبرطاي (كاباردا). ويزيد ارتفاعها على خمسة أمتار، وفي الجنوب الشرقي من قرية تشيغين التحتا، عثر على وجه (صنم) قديم على شكل حيوان داخل غابة عام ١٩٥٩، منحوت من كتلة كاملة من حجر (الباسالت) وبارتفاع أربعة أمتار تقريبا، فمن المحتمل ان يكون تمثالا لأحد المعبودات المقدسة عند أسلاف أهل شمال غرب بلاد الشركس. (١٢).

خامسا: تصاميم اماكن العبادة من كنائس ومساجد:

من الملاحظ لدى المشتغلين بالآثار القفقاسية بأن بلاد الشركاسة تكاد تخلو من المساجد الكبيرة، وأن المساجد التي كانت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإما جرى تدميرها في العهد السوفياتي، وإما لم تحظ بالعناية الملائمة للحفاظ عليها في مراحل لاحقة.

وبالنسبة للكنائس فهناك الكثير من بقايا الكنائس القديمة المبنية على الطراز اليوناني، يعود تاريخها إلى الحقبة المسيحية للأمة الشركسية. حيث عثر على صلبان برونزية قديمة في مواقع الحفر والتقيب في أعالي نهر كوبان، وفي المناطق الواقعة بين هذا النهر ونهر تيبيردا. كما ان التراث الشفوي عند الشركاسة يذكر أول نصب مسيحي أقيم في (كاباردا)، والذي جرى بناؤه قبل ١٤٠٠ سنة تقريبا. كما ان (ميزكور غان) وهي تلة عالية محاطة بالأشجار هو المكان الذي سكن فيه أول إسقف في بلاد القبرطاي، وهي تلة لا تبعد كثيرا عن مدينة نالنشيك عاصمة جمهورية كبردينا بلقاريا الاتحادية الحالية.

هذا بالإضافة لبقايا مساكن الرهبان والقسيسين والتي بنيت فوق تلال تسمى (اديوخ) في مناطق القبرطاي. كما أن بقايا مساكن (الخوارنة) الاغريق توجد في اكثر من مكان في بلاد القبرطاي (١٤).

وفي العصر الحديث، فإن شركاسة الوطن الام أولوا اهتماما كبيرا في بناء المساجد، خاصة بعد ان منحت سلطات روسيا الاتحادية حرية ممارسة العبادات، كل حسب ديانته، حيث تم تشييد اكثر من عشرة مساجد في الجمهوريات الثلاثة (كباردينا - بلقاريا، تشركيسيا - قراشي، اديغي). وربما كان اكبر هذه المساجد، واكثرها فنا وزخرفة معمارية هو المسجد الذي تم افتتاحه في يوم الجمعة ٢٤/١١/٢٠٠٠ الموافق ٢٨/شعبان/ ١٤٢١ هجرية في مدينة مايكوب، عاصمة جمهورية الاديجي في قفقاسيا، واطلق عليه اسم مسجد (مايكوب) الكبير برعاية رئيس جمهورية الاديجي (اصلان جارييموف) وحضور ولي عهد دولة الامارات العربية المتحدة، وحاكم اماره رأس الخيمة سمو الشيخ خالد بن صقر القاسمي حيث تم بناؤه بدعم من حاكم هذه الإمارة. وقد حضر الحفل جمع غفير من المدعوين في منطقة الاديجي ومن الخارج ومنهم مندوب الجمعية الخيرية الشركسية في الأردن.

تبلغ مساحة الجامع (٩٠٠) متر مربع، وهو مربع الشكل، وقام بتصميمه المهندس المعماري (الشركسي) عبدالله برسه (برسيقوة) وهو اول تصميم له في هذا المجال. ويتكون الجامع من طابقين، إضافة للطابق الأرضي.

يتكون الطابق الأرضي من صالة كبيرة تتسع لحوالي (١٠٠) شخص، وهي مزودة بكراسي متحركة (غير ثابتة)، اما أوجه استخدامات هذه الصالة فهي كثيرة، منها:

- عقد الاجتماعات الدورية للإدارة الدينية والمؤلفة من المسؤولين في المحافظات من أئمة وخطباء ورجال دين.
- إقامة المحاضرات وعقد الندوات المتعلقة بأمور الدين.
- إقامة حفلات الاعراس، حيث يتم على هامش الحفل توعية الحاضرين بأمور الدين، وخاصة ما تعلق منها بأمر عقد النكاح الشرعي والحكمة من ورائه ومسؤولية الأسرة تجاه المجتمع، وكذلك مسؤولية العروسين تجاه بعضهما البعض، وهذه الاخيرة تتم في مكتب ملحق بالصالة.

- إقامة دورات توعية لرفع كفاءة أئمة المساجد المنتشرة في قرى الجمهورية.
 - عرض أفلام وبرامج دينية سينمائية أو عن طريق الفيديو.
- وتوجد على جانبي الطابق الأرضي الحمامات والمتوضآت، الغربي منها للرجال والشرقي منها للنساء ولكل منها مدخلها الخاص.
- وأما الطابق الأول، فيضم قاعة المسجد وغرفتين إضافيتين، تستعمل الأولى مكتبة والأخرى قاعة للتدريس.

وبالنسبة للطابق الثاني، والذي هو على شكل دائري، فهو مخصص للنساء، ويحتوي أيضا على غرفتين المرجح لاستخدامهما كمركز للإدارة الدينية كما يضم الطابق أيضا صالنتين يمكن تخصيصهما كغرف تدريس للنساء.

وللجامع أربع مآذن مرتفعة، اثنتان منهما من جهة الشرق واثنتان أخريتان من جهة الغرب، تتوسطها خمس قبب، واحدة منها رئيسية وكبيرة والأربعة الأخرى صغيرة. ^(١٥)

سادسا: تصاميم الاضرحة والمقابر لدى الشركسة:

تميز اجداد الشركسة بالفن المعماري المتعلق ببناء الاضرحة والقبور، حيث وجد في الوطن الام، اكثر من اربعة تصاميم مختلفة وعلى النحو التالي:

التصميم الاول: وهو التصميم الذي استخدم في بناء وتشيد المقابر الجماعية والفردية وهي عبارة عن تلال ترابية تسمى (بالكورغانات)، حيث عثر العلماء والباحثون من جمهورية "أديغي" على لقيات أثرية، في غاية الاهمية، وهي مقبرة أرضية كبيرة يعود تاريخ بنائها إلى ثلاثة الاف سنة قبل الميلاد، وقدر العلماء ان خمسة عشر الف عامل، عملوا على مدار عدة سنوات لإتمام بناء هذا القبر، ووصف عالم الآثار الروسي (فارماكويسكي) هذا (الكورغان) بأن ارتفاع التل الترابي فوق حجرة الدفن قد بلغ (١١) مترا وتحت سور حجري، وفي منتصفه (حفرة المقبرة) متجهة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، بعمق لا يتجاوز ١,٤٢م تحت التراب، والقبر مستطيل الشكل بزوايا مستديرة وجدران مقعرة مكسوة بالخشب، وتغطي القبر طبقتان من الأخشاب المتعاكسة بينهما تراب بسمكة (١٠سم)، والقبر مقسم من الداخل إلى قسمين متساويين (جنوبي وشمال) والشمال منه مقسوم بدوره إلى قسمين أيضا، وسمي هذا القبر (بكورغان مايكوب).

أكد علماء الآثار بأن هذا القبر لا يمثل حضارة مايكوب فقط، وإنما يمثل حضارة شملت الجزء الشمالي الغربي والوسط من القفقاس الشمالي والتي تعتبر موطناً لكل من القبائل الشركسية الثلاثة (الأديغة والابوخ والابخاز) ويعود تاريخ بناء هذه (الكورغانات) إلى الألف الثالث قبل الميلاد ^(١٤).

التصميم الثاني: وهو التصميم الذي استخدمت فيها الصناديق الحجرية كمقابر فردية أو زوجية، وهي الصناديق الحجرية التي تمثل حضارة (الكابكانيتة).

التصميم الثالث: وهو التصميم الذي استخدمت فيها القطعة الحجرية الضخمة المحفورة من الصخر كمقابر، وكان هذا النوع أكثر أنواع المقابر استخداماً من قبل اجداد الشركسة، حيث اكتشف منها أكثر من (٢٢٠٠) قبراً.. وهي المقابر التي كانت منتشرة على جزء من ساحل البحر الأسود الذي كان يعيش فيه الأديغة والابخاز.

نماذج من المقابر
القديمة التي اكتشفت
في الوطن الأم في
شمال القفقاس



(١)



(٢)



(٣)

التصميم الرابع: وهو التصميم الذي استخدمت فيها الغرف الحجرية كمقابر فردية وجماعية، حيث تم في عامي ١٨٧٥-١٨٧٦ الكشف عن (سبع مقابر كبيرة) من هذا النوع، يعود تاريخها إلى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد وتضم مقابر نبلاء قبائل السنديين من اجداد الشراكسة وجد فيها مجسمات: لخيول وسروج وأسلحة وحلي مصنوعة من الذهب وقرون تستعمل كأواني للشرب بالإضافة إلى أواني فضية وبرونزية وأوعية خشبية مرصعة بالذهب. ^(١٤)

رابعاً: بُعد فن الزخرفة والنقش والنحت والحفر والتطريز لدى أجداد الشراكسة

من الفنون التي أصبحت تراثاً لدى الشراكسة في الوطن الأم، وفي بلاد المهجر، هو فن الزخرفة والتطريز.. ذلك الفن الذي بدأ منذ عصر الأجداد قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة وهي من الفنون التي وجدت آثارها في حفريات في أكثر من موقع في الوطن الأم عامة، وفي مناطق (مايكوب ونالتشك، وضفاف نهر كوبان وفي مناطق بيتغورسك) خاصة. حيث دلت الآثار التي يعود تاريخها للألفية الثالثة قبل الميلاد، بأن أجداد الشراكسة كانوا مهرة في فنون النحت، والرسم، والحفر، والتي نستدل عليها من تماثيل للمعبودة (عشترة) و (الزهرة) وغيرهما من النقوش والكتابات التي تدل على ما كان لأجداد الشراكسة عليها من مكانة في فنون النقش والزخرفة والنحت.. الخ.

وفيما يلي أهم فروع الفنون التي تخصص بها أجداد الشراكسة منذ القدم.

- الزخرفة على القامات (السيوف) الشركسية والطبنجة (المسدس).. الخ.
- الزخرفة والتزيين على السيراميك والقماش والفخار.
- النقش على الأسلحة واشغال الصياغة.
- النحت بالحجر والجرانيت.
- الحفر على المعادن والجلود.
- التطريز على القماش.

وفيما يلي نماذج من فنون الزخرفة والنقش والنحت والرسم عند الشراكسة.

- نماذج من فنون الزخرفة:

الزخرفة والنقش على الادوات المنزلية وأهمها:

* زخرفة (جرن) الطعام الخشبي الكبير (وقطره ٥٠سم) حيث كان يتم نقش اطراف هذا الصحن بالرموز الخاصة بالعائلة والتي تسمى (دامغة).

* زخرفة الاسرة المنزلية والكراسي والطاولات، حيث كانت تحفر عليها نقوش مختلفة أو تلصق عليها زخارف خشبية.

* الزخرفة باستخدام قصاص الورق:

كان الشراكسة مختصين بقص الزخارف من الورق، ويسمونهم (تغياش)، وهذا يعني قصاص الزخارف. والمهرة في هذه الصناعة غالباً من النساء، حيث كن يتعلمن على ايدي الفنانات منذ الطفولة، وكان من بين الفنانين في هذه الصناعة ايضاً بعض الرجال يذكر منهم (تقروقة) و (تولوقة) و (نتراش)، وغيرهم من الذين تذكر اعمالهم الفنية العظيمة لهذا اليوم. ومع ان فناني تطريز خيوط الذهب والفضة، وفناني حفر الخشب والزخرفة على الأشياء الصلبة كانوا يتمتعون بمهارات فائقة، إلا أنهم لم يستطيعوا العمل في فن قص الورق، ومن هنا اعتبر فنانون (التغياش) فنانياً للزخرفة الحقيقية، يعمل بالمقص ما يريد من اشكال الزخارف، واشتهر أجداد الشراكسة في فن الزخرفة قبل اختراع الورق وكانت المادة المستعملة في حينها هي امعاء الحيوانات حيث كان يتم تجفيفها وقصها لترسم على صفائح فخارية ثم يتم حرقها وتجهيزها لزخرفة ما يشاءون على الجدران، كما كان فنانون التطريز يأخذون هذه الزخارف المقصوصة ويثبتونها على قطع القماش المشدود على براويز خاصة، مصنوعة من الخشب، ثم يقومون بتعبئتها بخيوط من الذهب والفضة. كما هو مبين في الأشكال المرفقة.

وعادة ما كان فنانون (التغياش) يضعون زخارفهم على عدة أشكال، منها أشكال بعض النباتات، والأشجار، والقرون، كما كانوا يرسمون منها اشكالاً هندسية مثل المثلث والمعين.

يمثل من الزخرفة عصري البرونزي والنحاسي وعثر عليها في حفريات أثرية في قرية (تختم قواي) وفي لواء (تيوشاش) في جمهورية الأديغة أيضاً، ويعود تاريخها إلى القرن الثالث الميلادي^(١٨).

* الزخرفة والنقش على الأدوات والمعدات الحربية وأهمها زخرفة

- الخوذة الفولاذية: وكانت تزين بنقوش فضية وزخارف محفورة بأشكال متشابكة.
- مقابض سيوف الأديغة: وكانت تزخرف بالحفر عليها أشكال مختلفة تجعلها مميزة عن غيرها من السيوف التي كانت مستخدمة في العصر نفسه.
- القوس المصنوعة من الخشب: حيث كان يتم تغطيتها بطبقة من الجلد الأسود وتطرز عليها نجوم ذهبية صغيرة.
- كنانات الأقواس (الحافظات) وأغلفة الأقواس مصنوعة من الجلد الأحمر، وكانت تزين بشرائط من الحرير المذهب.
- الدروع الواقية (للصدر والاذرع) وكان يكتب عليها آيات قرآنية بأحرف من الذهب.

* فن الزركشة والتطريز:

كان أكثر أعمال فن الزركشة والتطريز هي التي تقوم بها النساء الشركسيات مثل: زركشة وزخرفة لوازم الحصان، من سرج، ومقبض اللجام، والسوط، حيث كان يتم زركشتها بخيوط حريرية وفضية، كما كان يتم تزيين (حافظات) الأقواس بشرائط من الحرير المذهب.

* زخرفة اشغال الصياغة:

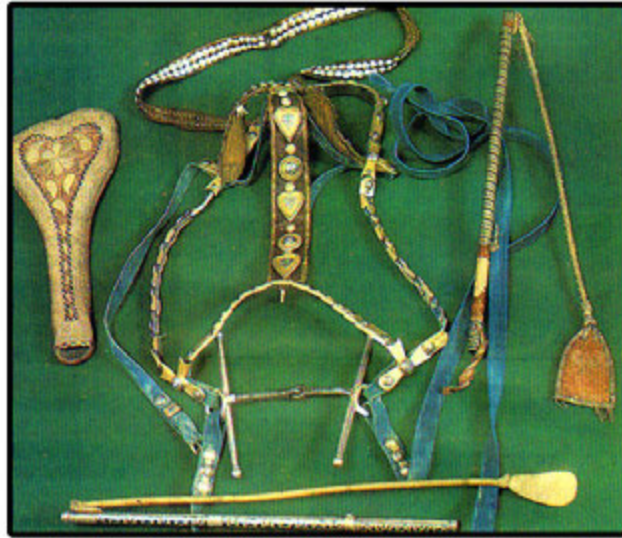
اشتهر الشركاسة منذ العصور القديمة بأشغال الصياغة وكانت من أكثر فنون الزخرفة والنقش والتزيين شهرة عند الشركاسة من عصر الاجداد هي فن الزخرفة بالفضة والذهب في صناعة كل من:

- الخواتم والاساور والاطواق والحلق باستخدام مادتي الذهب والفضة.
- السيوف والاتراس والخوذ الحربية باستخدام الرقائق والخيوط الذهبية والفضية.

وفيما يلي نماذج لكل نوع من أنواع فن الزخرفة والنقش والنحت والتطريز والحفر.

نماذج

لفن زخرفة السرج ولوازم الخيل عند الشركاسة



نماذج

من فن الزخرفة والنقش والنحت والحفر والتطريز لدى أجداد الشركاسة منذ العصور القديمة وحتى العصر الحديث

صورة تمثل الزخرفة على (غمد) القامات الشركسية

والمسدس
(الجواخدة)
الشركسيةنماذج
من فن الزخرفة
على ايدي القامات
الشركسيةنماذج
تمثل فن
الزخرفة على
البندقية
الشركسية

نماذج

من فن الزخرفة على الصدرية النسائية عند الشركاسة



نماذج
من التطريز على
أكياس حفظ
(الدخان) توباكو
وحافظة الساعة



41. Кисет. 1994г.
A tobacco pouch. 1994.



27. Подчасник. XIX в.
A watch case. XIX century.



16. Кисет. Конец XIX — начало XX вв.
A tobacco pouch. Late XIX — early XX century.

نموذجان لفن النقش على الطوق
الذهبي وطوق الفيروز



نماذج
من فن النقش على الحزام الفضي (النسائي) والخواتم



مراجع ومصادر الفصل الثالث/ ثالثا ورابعا

- (١) غ. ف تورتسيانيوف، المكتشفات الاثرية في منطقة مايكوب، عام ١٨٩٨.
- (٢) سميكوغ، برزج، الشركس في فجر التاريخ، مصدر سابق، ص: ٢٣٠.
- (٣) حراتوقة، سمير شمس الدين، مصدر سابق، ص: ١٦.
- (٤) حبقوقة، أمجد، الشركاسة The Circassians ص: ٢١٩-٢٢١-٢٢٢.
- (٥) الحمد، محمد عبد الحميد، تاريخ الشركس وآل انزور، مصدر سابق، ص: ٥٧.
- (٦) اوزيك، باتري، اساطير النارتيين، مصدر سابق، ص: ٧٤-٧٥.
- (٧) هيردوت، مؤرخ يوناني قديم، مصدر سابق، ص: ١٢٠.
- (٨) الشركاسة والشيشان، مجلة نارت، الجمعية الخيرية الشركسية، عمان، السنة الخامسة والعشرين، العدد (٥٨) لعام ١٩٩٦ ص: ٦-٨.
- (٩) حبقوقة، امجد، مصدر سابق، ص: ٢١٨.
- (١٠) دوماس، الكسندر، المجلد الثالث من كتاب القفقاس، ١٨٣٣، ص: ١١٤.
- (١١) نغموقة، شورا بكمزرا، تاريخ الاديكه (الجركس القديم، ص: ٢٦).
- (١٢) حبقوقة، أمجد، مصدر سابق، ص: ٢١٩.
- (١٣) نغموقة، بكمزرا، مصدر سابق، ص: ٣٠.
- (١٤) تورتسيانيوف، مصدر سابق، ص: ٢١٠.
- (١٥) لبزو، داوود احمد، جامع مايكوب الكبير، لقاء مع الامام نهاد طاش، مجلة الاخاء، العدد (١٦) كانون الاول عام ٢٠٠٠، ص: ٣-٤.
- (١٦) جلوقة، كمال، البيت الشركسي، مجلة نارت، الجمعية الخيرية الشركسية، العدد (٨٦).
- (١٧) ابزاخ، فيصل حبطوش خوت، الجنيوقة الشركسية، مجلة نارت، الجمعية الخيرية الشركسية، عمان، العدد (٨٦) كانون الاول عام ٢٠٠٥. ص: ٢٢-٢٦.
- (١٨) من التراث الشركسي، طريقة قص الزخارف، مجلة الواحة، الجمعية الخيرية الشركسية العدد الاول، الشهر الاول، كانون الثاني عام ١٩٨٠.

الفصل الرابع

أبعاد التراث الثقافي والأدبي والفلكلور القومي في حضارة الأمة الشركسية

أولاً: بعد التراث الثقافي والأدبي في حضارة الأمة الشركسية التراكمية

الدارس لتاريخ التراث الثقافي الشعبي للأمة الشركسية، يجد بأنه حافل وغني جداً، تعود أصوله إلى عصر أجداد الشراكسة في فجر التاريخ، وأن أول ذكر لأساطير النارتيين كان في الألف الأول قبل الميلاد.

وقسم (بالاس) التراث الثقافي للشراكسة إلى ستة أنواع أو فروع ثقافية وهي:

- الأناشيد.
- الحكايات والقصص.
- الألغاز والمجازات.
- القصائد الشعبية.
- الامثال.
- اللغة الدارجة (للعوام) ^(١)

وقسم الأديب (ر. أدیغه R. Adighe) الأدب الشركسي القديم إلى خمسة فروع وهي:

- ١- الأساطير وملاحم النارتيين.
- ٢- الشعر والغناء والأناشيد.
- ٣- المسرح والتمثيل.
- ٤- الحكايات والقصص.
- ٥- الامثال والحكم. ^(٢)

ويؤكد الباحثون في الأدب الشركسي بأنه ظل تراثاً (شفوياً-Oral) حتى أواسط القرن التاسع عشر، وبالتحديد حتى الأربعينيات من ذلك القرن حيث بدأ أحياء الكتابة باللغة الشركسية بعد توقف دام أكثر من ١٥٠٠ سنة.

وفيما يلي دراسة تحليلية لكل فرع من فروع التراث والأدب الشركسي حسب تقسيم الأديب (أديغة) وعلى النحو التالي:

الفرع الأول للأدب الشركسي هي ملاحم واساطير النارتيين في الأدب الشركسي.

يقول الدكتور (شروخ) ^(٣) في مقال له حول "الشراكس وإبناء القوقاز وملاحمهم الأسطورية" بأن الملحمة فن أدبي يتجسد في سرد قصص، أو قصائد خيالية غير مألوفة لحكايات وأحداث، تتضمن الأوصاف والشخصيات والحوارات والخطب والنصائح، وتتميز بقوة إيحائية كبيرة، يخرج سامعها أو قارئها من عالمه إلى عالم خيالي، وأما شخصياتها فتكون من أبطال تُضخم مآثرهم وتحولهم إلى رموز ممثلة لفكرة أو مواقف قومية، وهم قدماء ساذجون مخلصون لجنسهم وحضارتهم، متفوقون على أعدائهم. ومن أكثر القصص الأسطورية والملاحم القديمة في العالم تمثلت بالأساطير التالية: الألباظة، والأوديسة الإغريقية، والألياذة اللاتينية، وأنشودة رولان الفرنسية، وأنشودة النيبلجن الألمانية، والمهزلة الإلهية الإيطالية، والرامايانا والمهاباراتا الهنديتان، والشاهنامة الفارسية، وملاحم النارتيين الشركسية الأسطورية. وقد عُني بالأسطورية لكونها تتحدث عن قصص أسطورية خرافية صاغها الإنسان الأول حسبما أوحى له خياله الضعيف. ويلاحظ في ملاحم (النارت) ما يفسر علاقة الإنسان بالكائنات، فهي مصدر أفكار الأولين، ومشقة من تقاليدهم وأحاديثهم وحكاياتهم القديمة التي تشكل بعض الفولكلور الوطني وكان أول توثيق لأساطير النارتيين في عام ١٨٤٦ من قبل (خان جري) بعنوان: (أساطير الشركس) نشرها في مجلة الفقاس عام ١٨٦٤ واستفاد المؤرخ (نوغموشورا) من بعض نصوصها وأعاد نشرها في كتابه (تاريخ الشركس)

وكان قد صدر في تفليس كتاب، عام ١٨٦١، يحوي مقطعين من أناشيد سوسروقة النارتية، وبعد ذلك وبفضل جهود الدكتور (أوسلار) الخبير في الشؤون القوقازية، تسارعت الدراسات في ملاحم (النارتيين) التي رعتها مجلة (غوازة) (واديغة ماق)، وكلتاها شركسيتان صدرتا في تركيا (مارج) الشركسية التي كانت تصدر بالقنيطرة السورية خلال الفترة (١٩٢٧-١٩٣١).

كما قام العالم الفرنسي (جورج دوميزيل) بدعم الاعمال التي اهتمت بأساطير النارتيين والملاحم الشركسية عام ١٩٤٠ وصدر أول كتاب للأساطير في (مايكوب) بإشراف (كراشه تيمبوت) بعنوان: (الآغاني الشركسية القديمة)، كما صدر كتاب: (الموروث والآغاني الشركسية)، وفي عام ١٩٤٥ صدر في (نالتشيك) كتاب أساطير النارتيين، وتلاها صدور الكتاب الثاني بنفس العنوان ثم صدر في عام ١٩٤٨ الكتاب الثالث بعنوان: (أسطورة سوسروقة النارتية)، للشاعر (شوجن تسوك آدم) ثم صدر كتاب رابع بعنوان (النارتيون) عام ١٩٥١ والكتاب الخامس (أديغة أورا أوتا) في جزأين خلال الأعوام (١٩٦٣، ١٩٧٠) ثم قام الأكاديمي (حادة غالة اسكر) بعد عمل أكاديمي استمر عشرين سنة بإصدار: (موسوعة النارتيين) في سبعة أجزاء ونشرت في (مايكوب) عاصمة جمهورية الأديغة في الفترة من (١٩٦٨ إلى ١٩٧١)، وكان سبق له أن أشرف على إصدار كتاب (نارت ملحمة البطولة والجنود) في كراسنودار عام ١٩٦٧ باللغة الروسية كما قام (حميد قارموقة) عام ١٩٧٤ بنشر دراسة قيمة حول ملاحم النارتيين ضمنها كتابه بعنوان (الكاتب والعصر) وفي نفس العام صدر في موسكو بإشراف كل من أكاديمية العلوم السوفيتية غوركي للآداب، ومعهد أبحاث العلوم الاقتصادية والتاريخ الشركسي في كل من نالتشك ومايكوب كتاب (نارت) موثقاً باللغتين الشركسية والروسية.. كما صدر أيضاً في نالتشك عام ١٩٧٩ كتاب الفلكلور الشركسي باللغتين الشركسية والروسية بإشراف (آدم غوت) وآخرين كما صدر عامي ١٩٨٠-١٩٨١ على التوالي الجزأين الأول والثاني من كتاب (الآغاني واللازمات الشركسية القديمة) التي كانت تتردد نصوصها في ملاحم النارتيين منذ القدم^(٤).

ومن الذين اشتغلوا في العصور السوفياتية بجمع وتصنيف قصص (النارت) كل من: كوبا شعبان وإبراهيم تسي، ود. أ. اشخامات، وتمبوت قراشيف، وبكميرزا نغموقة، ور. ميركيكي، وبشيتوكو^(٥).

هذا ما تم نشره عن الملاحم والأساطير النارتيين في الوطن الأم، أما أدباء شراكسة المهجر فكانت لهم أيضاً مساهمات جادة ومنهم: شراكسة سورية والمملكة الأردنية الهاشمية، وفي عمان أصدر الأديب الشركسي كوبا شعبان* عام (١٩٥٤) كتابه: الآغاني الشركسية القديمة، ونقل الدكتور زهدي سطاس بعض هذه الملاحم إلى العربية في دمشق، وتمت إذاعتها من الإذاعة الأردنية في عمان في برنامج اسمه (من الفن الشركسي) بإشراف سامي السعيد كما قدم (ناظم قردن) نصوصاً أخرى ضمها كتابه (نارت سوسروقة) نشرته الجمعية الخيرية الشركسية في عمان ١٩٨٠. وكان قد سبق أن قام (ممدوح قوموق) بنشر عدد من أساطير النارت، قبل إصداره كتاب (ملاحم نارت الشركسية) بدمشق عام ١٩٨٤. كما كان للدكتور صلاح الدين شروخ دور في التعريف بهذه الملاحم وغيرها من عناصر الثقافة الشركسية في أطروحته للدكتوراه التي قدمها لجامعة القديس يوسف في بيروت، عام ١٩٨٢ ونشرتها مجلة الجيل الفرنسية في عقد الثمانينيات من القرن الماضي وهي مجلة شهرية تصدر في فرنسا عن مؤسسة الجيل والصحافة^(٣).

نستنتج مما سبق بأن ملاحم النارت الشركسية الأسطورية تعتبر المحددات الأساسية للسلوك الشركسي عموماً.

وفيما يلي تحليل لبعض المواضيع التي تناولتها القصص والحكايات والآغاني الواردة في أساطير وملاحم النارتيين:-

* كوبا شعبان، من أدباء شراكسة الوطن الأم الذين استطاعوا الهروب من الاتحاد السوفيتي، خلال الحرب العالمية الثانية، واستقر في الأردن حتى عام ١٩٥٧ ثم هاجر إلى فرنسا أولاً، ومنها إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتوفي هناك عام ١٩٧٤.

- قصص وأغاني تمجد الشجاعة والبطولة والمقاومة والأعمال النبيلة والتحفيز على التمسك بالأرض والوطن وأن (النارتين) هم حماة الشجعان لأرض الوطن.
 - قصص وحكايات حول الفضيلة وعمل الخير وازدراء الأعمال الدنيئة أو غير الاخلاقية، وكذلك قصص حول مساعدة الضعفاء والدفاع عن المظلومين.
 - قصص وأغاني تمجد بطولة سوسروقة Sorquwe في محاولته استخراج الحديد وتصنيعه، وكذلك قصة اله حرفة الحدادة الشراكسة واسمه (تلبش) Tlepsh وهي قصة من اشهر قصص اساطير قوم (نارت).
 - قصص الراقصين والمغنين والموسيقيين، المحترفين، وهي من القصص التي عالجتها الاساطير والتي تدل بأن قصص (نارت) لم تهتم فقط بالأعمال البطولية وبالشجاعة وبالفضائل.. الخ، وإنما كانت تهتم بكل مقومات الحياة للإنسان الشركسي في تلك العصور، وهي قصص كانت تعكس حقيقة حياة الشراكسة قديما.
 - مكانة المرأة في قصص (النارتين) فهي الأم الشفوقة المحبة، ومعلمة الأبطال المستعدين للقيام بالأعمال المجيدة من اجل بلدهم، وهي الصديقة الحكيمة المخلصة لزوجها، والتي كثيرا ما تساعد في معرفة أسرار الطبيعة، وحيل الأعداء الماكرة وكيفية التغلب عليها، حيث ان (النارتين) كانوا يلتمسون النصيحة من امهم (ستاني Stanei) التي كانت دائما تساعد على الخروج من أعقد المأزق.
- ومن القصص المشهورة هي أسطورة مليشيبخ Meleshipkh الحكيمة الواسعة الحيلة والذكية، وتتضمن أنشودة تتغنى بحكمة ووفاء امرأة وقورة تصمد بحبها العظيم أمام كل الصعاب.
- كما تحتل (دخاناغوا) مكانة خاصة بين نساء قوم (نارت). تسكن على المرتفعات الثلجية العسيرة المنال. وحاول (تسعة وتسعون) فارسا ان يمتلكوها لكنهم هلكوا جميعا دون ذلك، لأن كل واحد منهم كان يسعى للحصول عليها باستخدام القوة.
- وقصص قوم (نارت) لم تخلُ من حكايات الفلاحة والزراعة وجني الثمار، كما انها تحدثت عن أهمية فلاحة الأرض والتمسك بها.
- والنارتيون لم يكونوا محاربين شجعان ومزارعين مهرة فقط، بل انهم كانوا راقصين ومغنين وموسيقيين حاذقين. وفي اجتماعات النارتين كانت تنظم دائما مسابقات في الجري ورمي الحجارة والسهم والمصارعة، كما كانوا يكافئون امهر المغنين والموسيقيين بكأس ذهبي.^(١)
- الفرع الثاني للأدب الشركسي هو: الشعر والغناء والانشيد**
- ربما كان افضل من كتب حول الأغنية الشركسية هو (كوبا شعبان) وكذلك (ر . ادبغة) كما قسم (بالاس) نقلا عن (ادبغة) "الاغاني الشركسية إلى: اغاني بطولية وتاريخية، وطقوسية وغرامية وجنائزية، وكذلك أغاني للحرثة والحصاد، والزواج، والرقص، وكانت تلقى في الاحتفالات العائلية والعامة بمرافقة الاوركسترات الوترية واللاوكورديون والآلات الموسيقية الشركسية الاخرى.
- كما قال "كوبا" بأن النارتين هم الابطال الخرافيون للقصيدة الوطنية القديمة المشتركة بين جميع شعوب منطقة شمال القفقاس. وظهرت اساطير النار أول ما ظهرت مكتوبة باللغة (القبردينية والادبغة) في الاربعينيات من القرن التاسع عشر. وكان المؤلف شورانوغموقة، وفي نفس الوقت تقريبا نشر عالم الاجناس البشرية (سلطان خان جري) اساطير شركسية وخرافات من اغاني النار.
- كما تحوي اغاني "النارتين" على قصص حول سوسروقة وبادي نوكو، واشاميزا تاريز، تلبس واوزروس، وعذراء او فتاة ميليشيبخ Melechpikh، وفتاة داغانافو.^(٢) ولا شك بأن اغاني النارتين هي انعكاس للطابع القومي ليس للشركس فقط، بل لجميع سكان شمال القفقاس.

وقد كتب بالاس نقلاً العالم الألماني ف. بوندشتدت F.Bodenstedt عن الشعر الشركسي قائلاً:

"بالنسبة للشركس، فإن الشعر يعتبر في الوقت نفسه مستودع كل الحكمة الشعبية، وحافزاً للأعمال النبيلة والفيصل أو الحكم الأعظم على الأرض، ويجسد الشعر الشركسي الرغبة لعمل الخير ويمنعهم من اقتراف الأعمال الدنيئة، وبالتالي فإنه يلعب نفس الدور الذي كان يلعبه الشعر في حياة اليونان القدماء والعرب^(٦).

وتدور (اغاني النار) حول مواضيع وصراعات ملموسة وهامة وحيوية مثل الحب العميق الذي يكتبه الشركسي لأرض وطنه، وتضحية أبطال الاغنية وشجاعتهم في حرب الاشرار، ومساعدتهم للضعفاء ودفاعهم عن المظلومين، وقوة احتمالهم اثناء الحروب، وسرعة بديهتهم في الازمات، وحزمهم، وشجاعتهم في المعركة. فالنارت Nart هم الحماة الشجعان لأرض الوطن. وما على العدو الا ان يقترب من بلاد النار ليراهم جميعا يسرعون في ميدان القتال شيبا وشبابا.

وتنبؤاً قصة (تلبش) Tlepsh مكانا عظيما في اغاني النار. وتلبش هو راعي صناعته او حرفة الحدادة، وصانع اولى ادوات الحدادين وهي المطرقة والملقط والسندان والمنجل.

ومن القصص الممتعة في اغاني الناريتين اسطورة ميليشيخ Meleshipkh الحكيمة الواسعة الحيلة والذكىة، وقصة ميليشيخ انشودة تتغنى بحكمة ووفاء امرأة وقوة حبها العظيم المخلص الذي يصمد امام كل التجارب.

ونستطيع ان نتتبع قصصا فردية في الاناشيد التاريخية حول كفاح الشراكسة خلال حروب الابداء والدمار. وتشمل الاغاني التاريخية (كوخفاس وعيد اميرقان) حيث تتشد الاشعار لمدائح البطولة التي يظهرها هذان المحاربان في سبيل حرية الوطن واستقلاله وقصة (محمد بن حاتقو) وهو احد ابطال الشابسوغ الذي حرر شعبه من اعداء وطنهم. وقصيدة عن ابن (فيقوتيف Fegotiv)، ومدائح الحروب الاهلية بين امراء الشركس والفلاحين، وقصيدة عن (حنيفة) البطلة الشهيرة التي شاركت في الحرب ضد غزاة شركاسيا، وانشودة عن هجوم معاد مفاجئ على القبردانيين في القرن التاسع عشر.

كما تعكس الاغاني او الاناشيد الطقوسية ايضا العقائد الشركسية التي وجدت قبل المسيحية والاسلام ومن الامثلة التي يمكن ايرادها الانشودتان المشهورتان عن (الرعد Shybleored) وسعادتك او يا صاحب السعادة (سيوزجين Ziushan). وتذكرنا القصيدة الاولى طقوس عبادة الاله (شبله) عند قدماء الشراكسة والتي كانت تؤدي خلال رقصة مستديرة تدعى Wdj وكانت تحتوي الكثير من المراسم التي كان يقوم بها الراقصون حول المكان الذي ضربته الصاعقة. أما القصيدة الثانية فترتبط بمرض الجدري والطقوس الاسترضائية التي كان الشعب يمارسها لوقاية نفسه من مرض الجدري^(٧).

نماذج من الاشعار والقصائد والأغاني الشركسية

- قصيدة تصف بطولة أمراء الشراكسة في المعركة التي جرت بين الشراكسة (الأديغة) وقبائل (التوغورت) الهمجية اجداد (شعب القالموق) التي سميت (بملحمة التوغورت) حيث جرت المعارك في موقع اسمه باللغة التترية اليوم (قاج طاو) ومعناه (الفرار إلى الجبال). ومنذ ذلك العهد اعتاد الناس ان يذكر بعضهم لبعض اثناء الخصام (ليتك تذهب إلى ذلك المكان الذي نبحونا فيه)^(٨).

وربما كان من أكثر الاشعار والقصائد التراثية التي قيلت في الادب الشركسي القديم هي القصيدة التي تصف المعارك التي دارت في موقع (قاج طاو) مع قبائل التوغورت وتضمنت الابيات التالية:

- إن الدماء تجري كالسيول في (قاج طاو) وأبطالنا.
- الذين لا يعرفون الخوف قد ضاق بهم المكان ومنعهم من الانتشار.

- وأما فرساننا البواسل فقد ضاقوا ذرعا بالوادي الضيق.
- وصفوف أمرائنا قد خلت من البطل الهمام (قدير شوقه)
- الذي كان أشجع الأبطال، وقد قضى نحبه في قاج طاو.
- وكذلك (تابسورقه) الشاب عندما دمر الجسر.
- هوى في الهوة السحيقة حيث لاقى حتفه.
- لقد كان (الشامخال) نفسه يشتهي المساعدات القيمة.
- التي كانت أشهى غنيمة عنده وهي مبعثرة على الأرض.
- وأما محاربونا الذين نجوا من الهلاك فقد جاؤوا.
- إلى الامير (قازي) ابن (بشي يابشوقة) بالخبر الحزين.
- وحينئذ اسرع هذا على جواده للحاق بإخوانه كالبرق.
- وكادت سيور السرج تنقطع من سرعة الجري.
- وهذا الحصان الذي لا مثيل له يرعى في الجبال مع الذئاب والأسود.
- وهذا الأمير القوي، بالنسبة إليه ليس إلا لهوا ولعبا.
- ان يفصل الرؤوس عن أكتاف الاعداء العريضة.
- وأن ضربته هي سواء كانت من يده اليمنى أو اليسرى.
- ورماحه لا محالة قاتلة، إذا لم تنكسر عيدانها من شدة الطحن.
- ولكنه لم يرجع من ساحة الوغى وعود رمحہ سالم.
- وحصان (قدير ميرزو) يكافح السيول الجارفة.
- وراكبه (بوغديدار قوغوتليقو) قد تحطم في يده الكثير من الرماح
- وولدا (أيدارو) يقاتلان كالأبطال على ظهر جواديهما الأحمرين
- وكل منهما يحمي أخاه، ولكنهما قضيا نحبهما في (قاج طاو)
- و(أشه ابن تختابي) قد أطلق وهو يستدير إلى الخلف.
- سهما من قوسه أردى به اثنين من حاملي الرايات.
- وبقيت دروعهما الذهبية مبعثرة بين الاجام والأدغال.
- إن قوس (مارشان قول ابن شوكنوقه) ليعجز عن شد وتره
- اثنان من الرجال، ولكنه يردي بسهم يطلقه منه ثلاثة رجال.
- وأما (برد بن خانزو) فقد حاز شهرة واسعة بأنه
- اذا طارد الاعداء على جواده الاشهب ألقى الرعب في قلوبهم.
- وأنه يمد إخوانه في ساحة الوغى بالعزم والإقدام.
- وليس (آرده شاوه ابن شيشرو) من الذين

يبالون بالراحة والرقاد، بل هو الذي يحرس الجيوش في الليالي ساهرا وسهمه إذا انطلق يفتك بالعدو داويا كمطرقة من حديد.^(٨)

واما القصيدة الثانية فإنها تكشف صراع (المُلا) الدائمة ومواعظهم الخاطئة وتخويف الشراكسة ودفعهم إلى هجرة بلادهم ونصها:

- لقد قاتل القياصرة الروس ضدنا لأخذ القفقاس.
- وكان زمن الهجرة مأساويا.
- فقد نهش عميقا في قلوبنا.
- اكثر من مائة مليون كان الروس.
- وكنا لا نزيد عن حفنة اليد.
- وكان بيننا خونة.
- بسبب جشعهم إلى الذهب. باعونا للعدو.
- وإلى ذلك فإن المولا (الأئمة) غير المتعلمين تصرفوا وكأنهم مسلمون أتقياء فعلوا وكأنهم انبياء.
- بل وعظوا بشكل خاطئ.
- وعندما نصحوا بالهجرة.
- أسأوا...

لقد قالوا: عندما يأتي الروس سوف تحملون توابيتكم بأنفسكم.

وهكذا زرع المولا في انفسنا الخوف والفرع.

- أمواج البحر الاسود ضربت جوانب السفينة

الاسماك أحاطت بأمواتنا.

والأسلحة الروسية هددتنا

واستقبلتنا البلاد الاسلامية^(٩).

والقصيدة الثالثة تصف بطولة امرأة اسمها (لاشينقاي) التي رشحت لمصارعة قوي مشهور من شعب (خان كيتاي) اسمه (قيسين) وخلاصة قصة هذه الواقعة تتضمن ما يلي:

"قدم الخان (كيتاي خان) الذي نهب كثيرا من البلاد الأخرى إلى القفقاس الشمالي بجيش كبير، فأسرع (الأديغة) للتنادي وجمع الجيوش من جميع القبائل، ولما التقى الجمعان ارسل قادة (كيتاي خان) رُسلا إلى (الجراسكة) يبلغهم فيها انه لم يأت للحرب والغزو بل جاء مسالما للتعارف والصدقة لما سمعه عن بسالة وفضائل الجركس، وجرت اتصالات ودية، وعرض (الخان) ان يبارز احد الابطال الشراكسة مصارعه المشهور (قيسين) للتسلية والترفيه.

واختار الجراسكة للمبارزة امرأة اسمها (لاشينقاي)، قيل ان حموها رشحها لهذا الصراع لأنه رآها يوما تلقي بعجل عمره سنة من فوق جدار حائط الحظيرة حينما ضايقها.

وألبسوا (لاشينقاي) ملابس الرجال، وتصارع الخصمان ساعة وتغلبت (لاشينقاي) على (قيسين) فصرعته. وتبين لهذا المصارع بأن الذي صرعه هي (امرأة) فشاهدها بعد الصراع في ملابس النساء، وعرضوا عليه مصارعة رجل جركسي آخر، ولكن (الخان) أجاب وبروح رياضية سمحه: إذا كانت امرأة من عامة شعبكم قد تغلبت على أقوى أبطالنا، فليس هناك من حاجة لتجربة أخرى مع رجالكم. وانسحب جيش (الخان) بدون حرب، ونظم احد الشعراء بهذه المناسبة قصيدة غنائية جاء فيها:

كان قيسين فارسا مغوارا ومحاربا رابط الجأش.
تخشاه الجموع، ولكن ساعد المرأة (لاشينقاي) كسر عزمه وأضاع شهرته.
لقد أطعمت وسقيت جوادك سدى يا قيسين.
وقد جهزت عدتك واصلحت قوسك وصقلته حتى بدا لامعا.
وملأت كنانتك بالسهم اللامعة وجعلت درعك براقا.
يبهر ضياؤه الأبصار، ولكن خاب أملك ومناك.
فإن المرأة (لاشينقاي) ألقت ارضا مبارز الخان المغرور.
نعم لقد خر صريعا بضربة من يد امرأة عادية.
انظروا اليوم فخارنا، اما كفانا رجوع (الأديكة)
مثقلين بالهدايا.. كأنها أرباح تاجر؟؟
ويقال ان مسرح هذه المباراة كان بالقرب من نهر (شكم) احد روافد نهر (باقسان) فوق
حصن (شكم) الحالي ويسمى هذا الموقع اليوم (لاشنسكيا).^(١٠)
وأما القصيدة الرابعة فإنها قصيدة غنائية حزينة تكشف دور الخونة من بعض الشراكسة في
معاركهم ضد الروس كما تصف مواقف الغالبية من الشراكسة الذين رفضوا الهجرة، وفضلوا
الموت على الهجرة ويتضح ذلك من قصيدة "مبكاة" وجاء فيها:
عندما تسمع هذه المبكاة
فلتتوقف جميع الأحاديث.
ولنصغ جميعا إلى مبكاة تشردنا.
ولنحفظ معانيه العميقة في قلوبنا.
مع اننا خسرنا المعركة.
فنحن لن نحاول ابدا ان نخسر إنسانيتنا.
فمن ساعد الأعداء على الانتصار علينا.
هم منا، ممن يعيشون بين ظهرانينا.
فمن أمثالنا (جذع الشجرة القوية لا يفلقها إلا خشبة مثلها)
فالذين ضيعونا، هم إخوتنا.
فلو هجرنا وطننا، فلن نستطيع نسيانه أبدا
ولو بقينا فيه...
فلن نستطيع تحمل ما يفعله جيش الاعداء بنا امام اعيننا.
فمن الآن نهجر الوطن دون ان تفارقنا أحلامنا بالعودة.
نهجر الوطن مرغمين، متلفتين إليه.
عسانا يوما نعود إليه.
أما شبابنا الذين ابحروا مهاجرين.
فدموعهم تتساقط على فراق الوطن بكثافة مياه المحيط.

وكثير منهم قذفوا بأنفسهم في مياه البحر الاسود.

معرضين حياتهم لخطر الامواج والاعاصير.

بعد ان عدلوا عن فكرة هجرة الوطن.

وقد تسابقوا في الدخول إلى غابة "تحجاج"

وعادوا إلى القوقاز معلنين حرب الهجرة هناك.

والقصيدة الخامسة فإنها قصيدة هجائية لموقف نبيلين اثنين من نبلاء الشركس حلاً ضيفين على مضافة فتاة اسمها (حنيفة) في زمن كانت المعارك تدور في نفس المدينة التي توجد فيها المضافة، وحاولت الفتاة لفت نظر ضيفيها إلى ذلك، فصارت تخرج من الغرفة وتدخل إليها وهي تردد (إن صوت المدافع مسموع) ولكن بدون فائدة. فقد تصرف النبيلان وكأنهما لم يسمعا صوت القصف ولم يفهما كلام الفتاة. عندها أنشدت "حنيفة" القصيدة التالية:

- إن صوت المدافع هو اليوم أعلى منه بالأمس.
- ويخرج الضيفان كل مرة للتعصت على الصوت.
- ثم يعودان قائلين: إننا لا نسمع شيئاً.
- آه - فلتأخذني أُمي على الفور بعيداً.
- فأنتما (كالثيران) التي لا تريد ان تتحرك من مكانها.
- كالجثتين انتما في (المضافة)
- إن دفن جثة ليس عملاً قليلاً.
- وأنا لدي جثتين لنبيلين في وقت واحد.
- أحدهما هو (ديديخو) الذي لوحته الشمس.
- والآخر هو ذو الشعر الاحمر (كوازي ميرتري).
- لو وضعت أمامهما مائدة طعام لأكلا كل شيء.
- حتى قطعة الذيل الشحمية يلتهمانها^(١١).

الفرع الثالث من الادب الشركسي ويبحث في القصص والحكايات الخرافية^(١٢)

يقسم الباحثون في الادب الشركسي القصص والحكايات الشركسية إلى المجموعات التالية:

- حكايات عن الحيوانات.
- حكايات خرافية.
- حكايات هادفة ذات مغزى

ولا تزال الحكايات عن الحيوانات تحمل آثار العصر البدائي عندما كان الانسان يعتقد ان الحيوانات مثلها مثل الانسان تفكر، وتناقش، وتتكلم وتحيا نفس الحياة كالانسان.

ولعل (قصة الارنب والثعلب والذئب) امثلة مناسبة عن حكايات الشركس عن الحيوانات وقد كتب عنها مكسيم جوركي ما يلي:

من القصص الممتعة جدا عند الشركاسة حكايات عن "الارنب والثعلب والذئب".

وتدور القصص باللهجة (الأديغية) حول الصراع بين الخير والشر وغيرها من الموضوعات ذات المغزى، وأهمها "تاريخ قانون وشيوجن" و "حاتقوا وابنه جانفليس" و "ترام الصغير" و "ابن الخان العجوز والتسنين" و "الكلمات الثلاث" و "قصة عن عقيش" و "اولاد الاغنياء" و "تلكسفوشيف" و "المرأة الشريرة او السيئة" و "حماقة الفارس" وكذلك "الصيد وعفريت الغابة" و "المارد والحداد" و "القفز والدب".

ومن قصص الاطفال يمكن ان نورد قصة Tivyzhry Kvumre وقصة Nyoevy Kvumre رواهما الاديب امير كيكي.

ومن الحكايات التي تتضمن الغازا واجوبة يمكن ان نذكر (ترام الصغير) ويشيشيفكو Little Tran & Pscescescu و (خطبة الفتاة) و (الفتاة والعريس) و (راشميزا وأمه).

الفرع الرابع: الادب الشركسي الذي يدور حول الاحاجي والالغاز الشركسية

تعبّر الامثال الشركسية عن مواقف الناس و اخلاقهم وعاداتهم وشخصياتهم. وتتميز الامثال بطابعها الشعري وفي معظم الحالات تكون مقفاة وتكون الفكرة في الامثال واضحة ويعبر عنها بأسلوب مباشر دون تورية او رموز (وسيتم دراستها بالتفصيل في الفصل القادم).

وأما الاحاجي او الالغاز هي الاكثر جاذبية والاغنى من ناحية اللغة ولا تزال تحمل آثار العصر الاسطوري. وفي بعضها تقارن قوى الطبيعة وخواطرها بكائنات غير حية، وفي البعض الآخر بالحيوانات، وفي نوع ثالث تعطى النجوم والظواهر الطبيعية الاخرى شخصية البشر وصورتهم مثلا: في السموات توجد نماذج ذهبية "نجوم" البحر مغطى بسجادة "الجليد" تترقد عصى ذهبية فوق سقفتنا "اشعة الشمس".

مصادر ومراجع الفصل الرابع - أولا

- ١- بالاس. ب. س: (مستشار الدولة في الامبراطورية الروسية القيصيرية، مؤلف كتاب رحلات إلى الاقاليم الجنوبية الشركسية من الامبراطورية الروسية عامي ١٧٩٣-١٧٩٤، تجميع واعداد وصفي ميرزا باشا، ترجمة واخراج فهمي شماس: ١٠٣-١٠٥.
- ٢- اديغة، R. Adighe - الادب الشركسي القديم ص: ١٠٥.
- ٣- شروخ، صلاح الدين، الشركسي وابناء القوقاز، وملاحمهم الاسطورية، مجلة الاخاء، اصدار الجمعية الخيرية الشركسية في وادي السير - الاردن العدد (٩٧) ص: ٢٢-٢٥ (والمقالة نقلا عن مجلة (الجيل) الشهرية التي تصدر في فرنسا عن مؤسسة الجيل والصحافة).
- ٤- قموق، ممدوح، مختارات من ملاحم نارت الشركسية - ستناي وسوسورقة، دمشق ١٩٨٤/٨/١١ ص: ٥-٧.
- ٥- بالاس، نقلا عن (د. أديغة - R. Adighe) مصدر سابق، ص: ١٠٣-١٠٤.
- ٦- بالاس. المصدر نفسه، ص: ١٠٤.
- ٧- بالاس. المصدر نفسه، ص: ١٠٦.
- ٨- نغموقة، شورا بكمركة، مصدر سابق، ص: ٩١-٩٢.
- ٩- برزج، نهاد، تهجير الشراكسة ١٩٦٨، مصدر سابق، ص: ٢٧.
- ١٠- أبه زاو، مصدر سابق، ص:
- ١١- ازوبك، باتريك، مصدر سابق، ص: ٦٣.
- ١٢- بالاس، مصدر سابق، ص: ١٠٧-١٠٨.
- ١٣- ازوبك، باتريك، مصدر سابق، ص: ٦٣.
- ١٤- بالاس، مصدر سابق، ص: ١١١-١١٧.
- ١٥- باكير، عصام، من نجوم الادب الشركسي، نجوما شورا، مجلة نارت، الجمعية الخيرية الشركسية، عمان، العدد (٥٤) لعام ١٩٩٤، ص: ٢-٣.
- ١٦- وردم محمد علي، أثر الاديب الكبير المرحوم شعبان كوبه في الحفاظ على التراث الشركسي في الأردن، الاسبوع الثقافي الشركسي في المملكة الأردنية الهاشمية في الفترة ١-٧ تموز ١٩٩١.
- ١٧- لستان، شحلاخوة، الادب الشركسي السوفيتي، نشر باللغة الشركسية في كراستودار عام ١٩٦٦، ترجمة رزوي بولاد، مجلة الاخاء الشركسية.
- ١٨- مجلة الواحة الشركسية، عمان العدد (٢) السنة الاولى لعام ١٩٧٤ ص: ١٧.
- ١٩- لستان شحلاخوة، مصدر سابق، ترجمة روزي بولاد، مجلة الاخاء العدد (٣١) السنة السادسة عام ١٩٧٤، ص: ١٠-١١.
- ٢٠- مجلة نارت، الجمعية الخيرية الشركسية، عمان، العدد (٥٢) للسنة (٢٨) اصدار عام ١٩٩٣، ص:
- ٢١- مجلة البروز، مصدر سابق العدد (١٤)، ص: ١٩.
- ٢٢- مجلة الواحة الشركسية، عمان، العدد (١٥) لعام ١٩٧٦، ص: ١٢.
- ٢٣- خفاجي، محمد عبد المنعم، مواكب الحرية في مصر الاسلامية، ص: ٣١٩.
- ٢٤- موسى، عمر باشا، تاريخ الادب في العصر المملوكي، ص: ١٧.

ثانيا: بعد الفلكلور القومي في حضارة الأمة الشركسية

يؤكد علماء الاجتماع بأن الفلكلور القومي هو مرآة الأمم الراقية والمتحضرة، وأن الحكم على مدى تقدم الشعوب يعتمد على مدى تقدمها في الموسيقى، والغناء، والرقص الشعبي، بالإضافة إلى تقدمها في الثقافة والتراث الشعبي المتوارث جيلا بعد جيل.

كما أكد علماء اجتماع آخرين، أن الحكم على أخلاق أية أمة وشخصيتها ومدى تمتعها بالحياة، يكون من خلال أمور كثيرة، من أهمها: أغانيها وموسيقاها القومية وما إلى ذلك من النواحي الفلكلورية الأخرى، فموسيقاها وأغانيها هي مرآتها نرى فيها حقيقة القوم مجسمة بما هم عليه من أخلاق وفن وذوق عالية.

والأمة الشركسية، ربما كانت من أقدم الأمم التي أولت اهتمامها لمختلف الفنون الفلكلورية والتراث الشعبي. والرحالة الذين تجولوا في بلاد الشراكسة (الأديغة) في القرون الثلاثة الأخيرة، أكدوا بأن الشراكسة بمجموعهم شعب شاعري، واسع الخيال، ذو روح متوقدة ويتقنون الغناء والقاء القصائد القومية أثناء الرقص وفي الاحتفالات العامة، تعبر عن الشجاعة والأفعال السامية، وتندم الجبن والاخلق السيئة.^(١) كما أكدوا على تميز الشعوب (الشركسية) عامة في موسيقاهم ورقصاتهم حيث أصبحت فرق الفلكلور الشركسي في عهد الاتحاد السوفياتي (سابقا) وروسيا الاتحادية حاليا، من أكثر الفرق الفلكلورية شهرة في العالم،^(٢) كما أصبح هذا الفلكلور من أكثر أنواع الفلكلور الشعبي تقدما في الوطن الأم، وفي بلاد المهجر عامة، وفي المجتمعات الشركسية في البلاد العربية خاصة.

وبالبحث في الفنون والفلكلور القومي الشركسي يجد بأنها قديمة قدم الشعوب الشركسية، وأنها تطورت عبر العصور مع المحافظة على أصالتها وطابعها القوقازي الشركسي، ونالت شهرة كبيرة في العديد من دول المهجر بشكل عام وفي كل من الأردن وسوريا وتركيا بشكل خاص.

كما نجد بأن العناصر الرئيسية للفلكلور الشركسي على أربعة أنواع وهي:

* الموسيقى * الغناء

* الرقص * اللباس القومي

وفيما يلي دراسة لكل نوع من أنواع الفلكلور القومي الشركسي:

النوع الاول: الموسيقى وما يرافقها من عزف وتأليف وتلحين:

*** نشأة الموسيقى الشركسية:**

تعتبر الموسيقى المكون الاساسي للفلكلور القومي لدى الأمة الشركسية، ويؤكد (شعبان كوبه) * بأن الموسيقى الشركسية قديمة جدا، وانها ظهرت منذ ايام الاجداد في عصور ما قبل الميلاد، وكانت تعزف في المناسبات الدينية وتقربا للالهة، كما كانت تعزف مصاحبة للأغاني التاريخية والاجتماعية والعاطفية مثلما كانت تعزف مع اناشيد الحرب تمجيدا للابطال.

وتطورت الموسيقى الشركسية على مر الزمان، واصبحت حسب قول (كوبه) "لو صادف ان مررت بإحدى القرى الشركسية في يوم من ايام الشتاء، أو لو دعيت إلى حفلة عرس راقصة، أو صدف ان جالست شيوخ قرية في المضافة، أو استضافتك فتاة شركسية في منزلها (حسب العادات والتقاليد الشركسية) فإنه لا بد ان تتطرق إلى مسامعك، بشكل أو بآخر، أنغام موسيقية شجية آتية من

* شعبان كوبه، مؤسس المعهد الفلكلوري الوطني في مدينة مايكوب في جمهورية الأديغي، وهو أول مدير له ويعود له الفضل في احياء الفلكلور الشركسي في الوطن الام بجمع الاغاني والموسيقى الشركسية القديمة وإعادة تلحينها، وإخراجها إخراجا حديثا.

هنا وهناك، فبعض هذه الانغام يبيتها في الفضاء (مزمار) عاشق، وبعضها الآخر يصدر عن (ربابة) ذات انغام ناعمة، وثالثة ما يصدر عن (الأكورديون) الشجي الذي يرافق آلة الإيقاع الخشبية^(١).

تميزت الموسيقى الشركسية دائما بغنى نغماتها، وجمال الحانها الراقصة، التي تعزفها فرقة جماعية عادة، وأما عزف الأكورديون المنفرد فهو استحداث جديد نسبيا في المجتمعات الشركسية المعاصرة. فالإيقاع الموسيقى يتمشى مع الكلمات المغناة، وبصورة عامة، كانت الموسيقى الراقصة تعزف بوتيرة ٢/٢ أو ٨/٦ درجات.

* تطور الموسيقى الشركسية:

بدأ جمع الموسيقى والأغاني الشركسية القديمة في القرن التاسع عشر. غير ان العمل المنظم في هذا الخصوص، بدأ فقط في عهد الحكم الشيوعي، عندما تم نشر العديد من المجموعات الغنائية. كما صدرت كتب عديدة عن تاريخ الموسيقى الشركسية والتي حافظ عليها مجموعة من المطربين والشعراء ومؤلفي الأغاني في الثلاثينات من القرن العشرين، وهي الفترة الزمنية التي جُمع وحُفظ فيها كثيرٌ من الأنغام الموسيقية والأغاني التي كانت تغنى في ذكرى أحداث ومناسبات يعود تاريخها إلى القرن الرابع الميلادي.

كما ظلت الآلات الموسيقية الشركسية التقليدية شائعة الاستخدام حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم بدأت تحل محلها آلات أخرى، كانت تستخدم من قبل شعوب أخرى، مثل الأكورديون والبالايكة الروسية (Balalika) والغيتار ذي الاوتار السبعة والماندولين، واختفت العديد من الألحان المقترنة بالآلات القديمة. وتأسست مدارس للموسيقى الشعبية والآلات التقليدية الشركسية باستخدام الآلات التقليدية القديمة منذ نهاية الثمانينات من القرن العشرين.

نماذج وأنواع من الآلات الموسيقية التي كانت شائعة الاستخدام لدى الأمة الشركسية منذ القدم:

القيتار الشركسي (Violin) واسمة بالشركسية (Pshine):^(٣)

وكانت الآلة الموسيقية الرئيسة للمطربين حتى أواسط القرن التاسع عشر. كما استخدمت في المضافات الخاصة بالأمراء وطبقة النبلاء، وكان عازفو الغيتار من أبناء العامة والطبقات الاجتماعية الدنيا، وكانت القيثارة تصنع من الخشب بشكل مستطيل مع تثبيت وترين اثنين مصنوعين من شعر الحصان. كما كان يحفر بعض الثقوب في الجزء الأعلى من اللوح لتخرج أصواتا مميزة، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، استخدم الغيتار مع الأكورديون الذي أصبح منذ ذلك الوقت الآلة الموسيقية الرئيسة في الوطن الأم، ومن العادات التي اقترنت بالأكورديون، أنه إذا انتقلت فتاة ما العزف عليه، اقيم على شرفها حفلة مسائية تسمى (Pshineyefe) ويقدم لها أصدقائها آلة (أكورديون) هدية تقديرا واعجابا بفنها.

* القيتار المصنوع من وتر ذنب الحصان:

واسمه بالشركسية (Shiche-p shine) شيكا بشنا) وكانت تمسك عاموديا مع سند مؤخرته على ركبة العازف وهو في وضع الانحناء لأسفل.

• Ah-peshine ومعناه القيتار اليدوي او اصبع القيتار (آه - بشينا)

وهي آلة مكونة من لوح خشبي مشدود عليه وترين اثنين، وهي الآلة الموسيقية التي كانت تعزف عليها الطبقات الارستقراطية العليا.

• Pshine diqwaqua (بشينا - ديقواقة)

وهي آلة شبيهة بالقيثارة، وذات أربعة وعشرين وترا مصنوعة من شعر الحصان المجذول، وكانت تستعمل من قبل أبناء الطبقات العليا.

• Qamil – القاميل:

وهي آلة شبيهة بالفلوت (الناي) فيها ثلاثة أو أربعة ثقوب، وعادة ما كانت تزين بالفضة، والطلاء المذهب، وكان الموسيقيون يعزفون عليه في بيوت المضافة الخاصة بالأمراء والنبلاء، وفي المهرجانات وحفلات الرقص.

• Bezchamiy Naqire

أي (الناقيرة و البرشامي) وهما من أنواع الآلات الشعبية، والأخير كان استعماله محصورا بالرعاة.

• Siriye السيرين أو (السيرنا) (Sirne)

وهي آلة نفخ موسيقية تسمى (السيريناشنا) وكانت تستخدم من قبل المغنين والموسيقيين الذين يشاركون في الحفلات الجماعية.

• Berebana البيربانا أو الطبل / الدف.

وهو عبارة عن طبل كان يستخدم للايقاع واثارة حماس الراقصين.

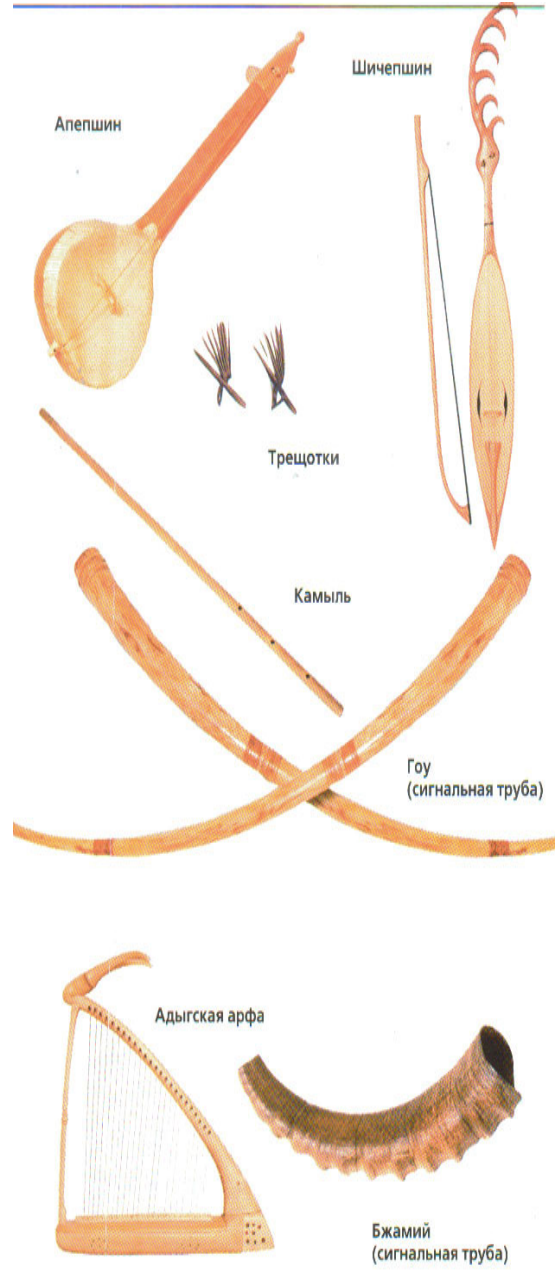
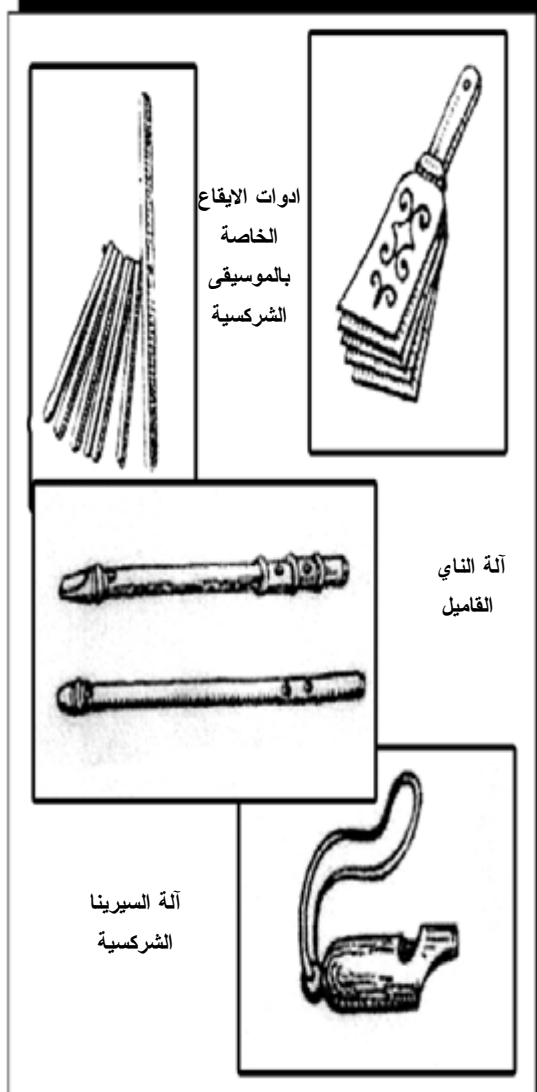
• Pxetsich البخيتسيح:

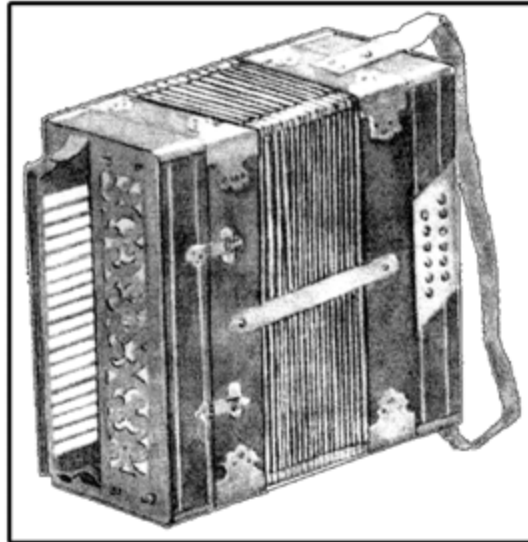
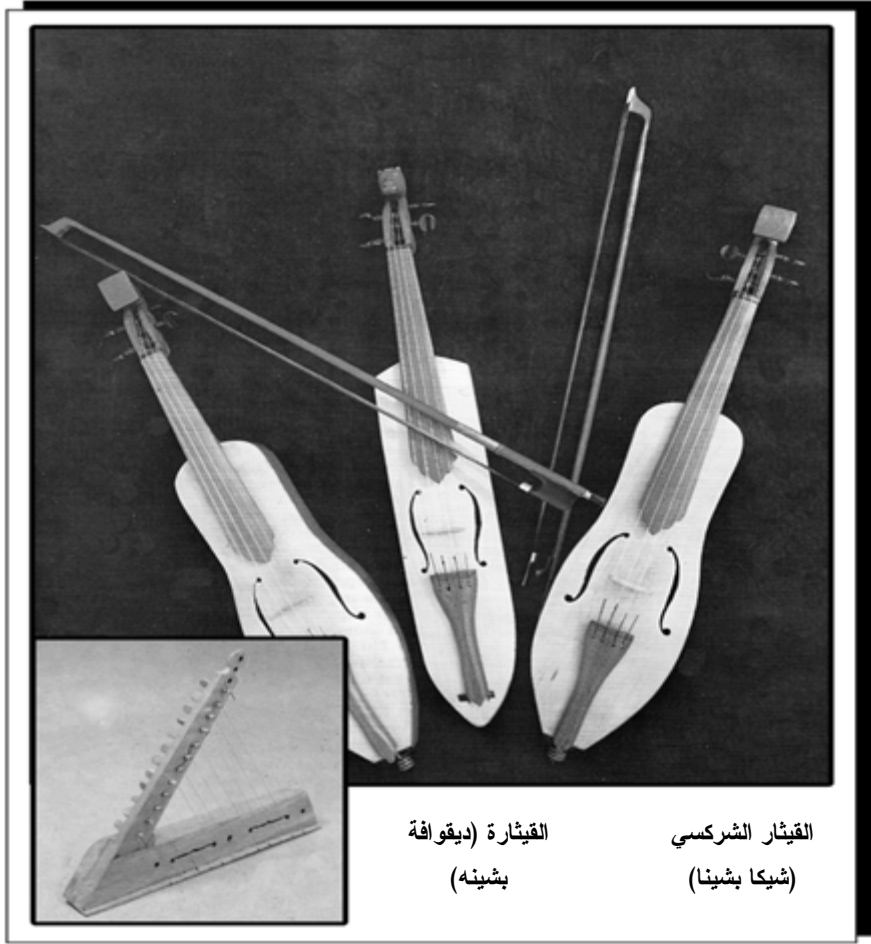
وهي آلة نقر موسيقية، وكانت تستعمل مصاحبة للعزف الموسيقي والرقص، وتتكون من أربعة أو ستة ألواح خشبية صغيرة مربوطة ببعضها في أحد الطرفين بخيط. وعرض هذه الألواح يساوي مرة ونصف تقريبا لطوله البالغ (١٨) سنتيمترا. وتزين هذه الآلة بالفضة والنكل والطلاء المذهب. وكانت تستعمل من قبل المغني نفسه، أو أحد المغنين كآلة نقر.

• Tambourine (تامبورينا)

وهي آلة نقر كانت تستخدم أيضا من قبل المغنين والموسيقيين (٣).

مجموعة من الآلات الموسيقية الشركسية القديمة منها والحديثة





آلة الاكورديون

النوع الثاني من الفلكلور الشراكسي هو الرقص القومي الشراكسي

كانت بداية الرقص عند الشراكسة عبارة عن نوع من الحركات التي كانت تمارس كجزء من الطقوس الدينية، كما كانت جزءاً من الحركات التي كان يؤديها المصلون تقرباً من الآلهة منذ عهد قوم النارتيين في الألفية الثالثة ما قبل الميلاد، كما كانت حلقات الرقص جزءاً لا يتجزأ من برامج المهرجانات والمسابقات السنوية التي كان يقيمها اجداد الشراكسة، احتفالاً بانتهاء موسم الحصاد وجني المزروعات وغيرها من الاحتفالات الاجتماعية التي كانت تقام على مدار السنة.

وعلى مر الزمان وبحكم التطورات التي حدثت في حياة الشعوب القديمة، وفي معتقداتهم الدينية وأحوالهم المعيشية، تغيرت طبيعة الرقص وأنواعها، كما تغيرت المناسبات التي تقام فيها حلقات الرقص حتى أصبح الرقص الشراكسي جزءاً من الفلكلور القومي وفناً من فنون التراث الشعبي الشراكسي.

أنواع الرقص القديم في الوطن الأم:

اشتهرت الأمة الشراكسية بخمسة أنواع رئيسية من الرقص الفلكلوري وهي:

"الويج" وهي رقصة قديمة مرت في تحولات بارزة ولها كثير من الحركات والاشكال ومن ضمنها "ويج - خيسب (Wij Xesb) ويغ - بيخو (pixw-Wij) ويغ - خواواو (x'uew-Wij) ويؤديها اليوم أزواج من الراقصين (مجموعات من اثنين) وفيها يتقدم كل شاب إلى فتاة محددة للاستئذان منها مشاركته في الرقص وهي رقصة ثنائية إلا أن الحلبة يمكن أن يتواجد فيها عشرات (الثنائيات) من الشباب والشابات، وتكون حركات هذه الرقصة حركات توافقية وهادئة، ويقوم كل من الشاب والشابة بنفس الحركات التوافقية (بالقدمين) واليدين كما انها تتضمن تشكيلات مختلفة من الحركات، منها حركات للأمام وأخرى للخلف وثالثة للجانبين، وتقدم هذه الرقصة في ختام حفلات الرقص عامة وفي حفلات الاعراس خاصة. وهذه الرقصة هي الرقصة الوحيدة التي يقوم فيها الشاب بمسك يد الفتاة طول فترة الرقص، بينما في الرقصات الأخرى تكون كل من الفتاة والشاب بعيدين عن بعضهما طوال فترة الرقص.

* رقصة زافاكو Zefakwe وزيفتلات Aiahtlat

وهي رقصة قديمة جداً، وكانت تمارس في المناسبات الدينية، أما اليوم فإن (الزافاكو) هي الرقصة التي تبدأ فيها حفلات الاعراس وغيرها من الحفلات الاجتماعية التي يتخللها الرقص الشراكسي، ويمكن وصف هذه الرقصة على النحو التالي:

* **عدد المشاركين في الرقص:** يشارك راقصين اثنين (شاب وشابة) فقط وفي الحفلات الاستعراضية يشارك فيها اعداد كبيرة من الشباب والشابات قد يصل عددهم إلى (عشرة أزواج) أو أكثر.

* **بداية الرقصة:** يتقدم الشاب الذي عليه الدور في الرقص إلى حلبة الرقص، ثم تخرج الفتاة التي لها الدور في الرقص، وتقف مقابل الشاب على مسافة (3-4) أمتار.

* **حركات الرقص:** يبدأ كل من الشاب والشابة في تقديم القدم اليمنى إلى الأمام في توقيت واحد، ثم يستمر تحريك القدمين بالتتابع (للأمام وللخلف) بخمس مرات أو حركات، ويشترط أن يكون تحريك القدمين لكل من الشاب والفتاة في توقيت واحد، اما بالنسبة لحركة اليدين فإن حركاتهما تختلف لكل من الشاب والشابة، حيث تكون حركات يدي الشاب (تبادلية) مع ثني احداها امام الصدر والاخرى توضع خلف الظهر، ثم يتم تبادل وضعهما..وهكذا الى ان تنتهي الرقصة.

واما بالنسبة لحركة يدي الفتاة فإنها تكون حركات خفيفة للجانب وأعلى قليلاً في حركات متوازنة ورشيقة.

* **القافا Qafe** وهي رقصة بطيئة، فيها نوع من الوقار في حركاتها وبدرجة كبيرة من ضبط النفس، وتعتبر رقصة خاصة بالأمراء وكبار السن، وتبنت شعوب قوقازية عديدة هذه الرقصة ومارسها في حفلاتهم مثل شعب البلقار والاستين.

* **رقصة "إسلامي (Islamey) أو بسلني (Bisleney)** وهي رقصة حيوية نشيطة، ويعتقد بأنها حديثة أو جرى اقتباسها من شكل من أشكال الرقص القديم. ويمكن أدائها بانفراد، أو في مجموعات من الراقصين، أو كأزواج، ووزن لحنها شبيه بوزن لحن "قافا" ٨/٦ بالنسبة للرقصة القديمة و ٤/٢ بالنسبة للجديدة. وباقتباس لحنها القديم، وضع الموسيقار الروسي ميلي اليكسييفتش بالاكيريف (١٨٣٧-١٩١٠) مقطوعته المسمى (إسلامي أورينتال فانتازيا) للعزف على البيانو، والتي أتمها خلال خمسة أسابيع وعرضها بتاريخ ١٣ أيلول ١٨٦٩. ويعود اعجاب (بالاكيريف) بموسيقا شمال القفقاس إلى عام ١٨٦٣ عندما زار القفقاس لأول مرة. فأحب الموسيقى الشركسية، وألف عددا من المقطوعات الموسيقية عن الأغاني القباردينية الشركسية.

وضع (بالاكيريف) مقطوعته (إسلامي)، التي ما تزال تعرض حتى اليوم، على ثلاث سرعات. الأولى، فيها (الإثارة والسرعة)، حيث استعمل الإيقاع المتكرر في الرقص على الطريقة الشركسية. والقسم الأوسط فيه (التعبير المعتدل) أما القسم الأخير وفيه (التعبير البطيء).

* الحشت Hashet

هي رقصة هادئة في حركاتها ويواجه فيها كل من الشاب والشابة مع الاختلاف في طبيعة حركات القدمين. كما أنها رقصة يمارسها كبار السن أكثر من ممارستها من قبل الشباب من الجنسين.

* رقصة شيشن Sheshen

وتسمى في بلاد المهجر في الدول العربية برقصة "الفرسان" وهي رقصة عنيفة جدا ويؤديها الرجال (فقط). أما الفتيات فتكون حركاتهن سريعة جدا مع حركات توافقية بين حركات القدمين واليدين ويمكن وصف حركات الشباب على النحو التالي:

حركات القدمين

تكون حركات سريعة جدا بخطوات متتابعة للامام أو للخلف، مع القيام بحركات قدمين سريعة وتبادلية مع وضع اليدين في الوسط، ثم يقوم الراقص بحركات على رؤوس أصابع القدمين، كما يقوم بعض الراقصين البارعين بالرقص على الركبتين مع عمل حركات أمامية وخلفية ودائرية، ثم يقوم بالقفز في الهواء بحركات أشبه إلى حركات لاعبي الحركات الأرضية في الجمباز.

حركات اليدين: لا توجد قاعدة محددة لحركات اليدين إلا أن الراقص يقوم بتحريك اليدين (جانبا) أو (اماما وخلفا) أو يضعهما في (الوسط) أو تشبيكهما خلف الظهر وغيرها من الحركات التوافقية التي تتناسب مع حركات القدمين والرجلين^(١٤).

آداب الرقص الشركسي وقواعدها في الحفلات والمناسبات الاجتماعية:

يمارس الشراكسة الرقص وفق تقاليد وقواعد دقيقة وصارمة في كل من الوطن الأم وفي بلاد المهجر، نذكر منها القواعد التالية:

١- يسمح لجميع أبناء الشراكسة من نفس القرية أو من أية قرية أخرى حضور حفلات الرقص ولا يجوز الاعتراض على حضورهم.

٢- لا يسمح بحضور حفلات الرقص الشباب من (الاعراق) غير الشركسية، باستثناء من كان (مخولا) أي أن والدته شركسية الأصل فيسمح له الحضور (أحيانا).

٣- يشارك في حفلات الرقص كل من الفتيات والشباب أو كبار السن من الرجال، ولا يسمح للمرأة الشركسية المتزوجة المشاركة بالرقص في الحفلات العامة وإن كان يسمح لها

الحضور ومشاهدة الرقص من موقع خارج الحلبة ومن خلف صفوف الفتيات المشاركات بالحفلة.

٤- في حال حضور كبار السن من الآباء أو الأجداد فيكون لهم أولوية (الرقص) كما أن أبناء الحاضرين ينسحبون من حلبة الرقص احتراماً لأبائهم أو أجدادهم وحتى لإخوانهم الأكبر سناً.

٥- تبدأ وتنتهي حفلات الرقص من قبل أحد أكبر الحاضرين سناً أو من قبل عريف الحفلة ويسمى (حاتياقوة).

٦- يدخل الشاب إلى حلبة الرقص أولاً، ثم تتبعه الفتاة التي عليها الدور في الرقص، وجرت العادة ألا ترفض أية فتاة الرقص مع أي شاب، إلا أنه يحدث أحياناً أن تعطي الفتاة صاحبة الدور، دورها لفتاة أخرى، إن لم ترغب في الرقص مع الشاب المتواجد على الحلبة.

٧- من آداب الرقص، أن لا يترك الشاب الحلبة أو التوقف عن الرقص ما دامت الفتاة في حلبة الرقص، وإن حصل ذلك يحق للفتاة مقاضاته أمام (مجلس التحمادات) أي مجلس الحكماء، والحكم عليه بإقامة حفلة ترضية لها ولصديقاتها أو إهدائها هدية ثمينة.

٨- الأصل في الرقص أن تكون (مواجهة) ولا يجوز أن يعطي (الشاب أو الشابة) ظهره للآخر عند الرقص في الحلبة، إلا إذا كانت الرقصة تتطلب ذلك (مثل رقصة الفرسان).

٩- يعتبر من الكبائر عند الشركاسة (لمس) الفتاة بأي جزء من جسم الشاب (بالكتف باليد أو الجسم أو الرجل) وإن حدث ذلك بدون (قصد) يحق للفتاة مقاضاة الشاب لعدم قدرته السيطرة على حركاته خلال الرقص، أما إذا شعرت بأنه يقصد ذلك فيحق لها التوقف عن الرقص فوراً ومغادرة الحلبة، كما يحق لها مقاضاته أمام (مجلس التحمادات) أي مجلس الحكماء من كبار السن من الشركاسة.

١٠- تحدد مواقع لوقوف كل من الشباب والفتيات حول حلبة الرقص ولا يسمح للشباب بالوقوف مع الفتيات أو العكس، وعادة تقف الفتيات على يمين حلبة الرقص.

١١- من واجب كل شاب يقف في الصف الأمامي في حلبة الرقص، القيام (بالتصفيق) المرافق للموسيقى، وأما الفتيات فإنه غير مطلوب منهن القيام بذلك إلا في حالة مشاركة أحد كبار السن أو أحد الوجهاء في الرقص.

* نشأة الاغاني الشركسية:

يقول خان كري - Khan-Girey بأن ملحمة نارت (Nart Epos) التي ضمت أقدم الأغاني لقوم (نارت) أجداد الشركاسة، وهي الاغاني التي تتحدث عن حكايات فيها عبر للقيم والرجولة مثل: الحقيقة والصدق والأمانة والوطنية والشجاعة والكفاح ضد القمع والاضطهاد الذي تعرض له أجداد الشركاسة، واتخذت الاغاني شكل الأغنيات القصصية والأشعار والقصائد الغنائية وقد صاغ الشعراء والمطربون القدماء حكايات قوم (نارت) وأساطيرهم في صيغ تشبه الاغاني، ولكي يحببوا المستمعين بها كانت الاغاني قصيرة وتؤدي بالصوت، أو بالكمان الشركسي، وأما الإيقاع، فكان سريعاً وأشبه بالموسيقى الراقصة، وظل على حاله دون تغيير في الوقت الذي تطورت فيه الموسيقى الشركسية. هذا بالإضافة إلى تنوع الوتيرة في (درجة السرعة) حسب التنوع في الموضوع الرئيس للأغنية، وأشبه ما يكون بالموسيقى الراقصة الخفيفة المرححة والمفعمة بالحياة، ولم تكن الأنغام الحزينة كثيرة العرض في البداية^(١٧).

نستنتج من دراسة اساطير (قوم نارت) وحكاياتهم الشعبية وكذلك الأغاني الشعبية القديمة بأنها تضمنت اغاني قصصية وأشعاراً وقصائد غنائية وأن أهم موضوعاتها كانت على النحو التالي:

١- اغاني النارتيين: وهم الأبطال الخرافيون للقصيدة الوطنية القديمة، وتدور موضوعات هذه الأغاني حول الوطن والبطولة والصراع من أجل البقاء ونشر الخير.

٢- الاغاني التاريخية: ونستطيع ان نتتبع قصصا فردية في الاناشيد التاريخية من تاريخ بلاد الشركاسة وكفاحها اثناء عصور حرب القفقاس. وتشمل الاغاني التاريخية "كوفخاس و اميرقان" واغنية "محمد بن حاتقو" و"ابن فيغوتيف" واغنية "حنيفة" التي تمجد البطلة الشهيدة، وانشودة عن هجوم معاد مفاجئ على شعب القبردي في القرن التاسع عشر واغنية "الامير محمد آش اتاظيقو" الفارس الحقيقي والشاعر في الوقت ذاته، ومعبود قومته الذي يعتبره مثالا للبطولة الشركسية، والذي ألهم موته المهيب أغنية يغنيها الشعب بعشق وحماس، وقد ذكر "شورا بكميرزا نوغمو" في كتابه "موجز عن تاريخ الاديغة" العديد من الاغاني التي تمجد ابطالا شاركوا في الحروب وهناك اغنية تمجد "اسماعيل بك حاتوخشوقة" الامير الشركسي الذي قتل فتألم الشعب لمقتله.

٣- الاغاني والانشيد الدينية: وهي الاغاني التي تعكس بقايا العقائد الوثنية الشركسية التي وجدت قبل المسيحية والاسلام. ومن الامثلة التي يمكن ذكرها هنا الانشودتان المشهورتان عن (الرد، وسعادتك او يا صاحب السعادة). نذكرنا القصيدة الاولى بالصواعق وعبادتها في الماضي البعيد، وكانت تؤدي خلال رقصة مستديرة تدعى (ووج) تحتوي الكثير من الحركات التي كان الراقصون يؤدونها خلالها حول المكان الذي ضربته الصاعقة.

٤- اغاني الابتهاال والاسترضاء: فهي اغاني ترتبط بمرض الجدري والطقوس الاسترضائية التي كان الشاب من هذا المرض يمارسها شعرا ملحميا إن لم تكن تملك شكلا فنيا محددا. ولكنها كانت تكتسب معنى دينيا كبيرا، ورغم الضعف الفني فيها إلا أنها كانت تمتاز بقوة دينية بالغة.

٥- الاغاني البطولية والشجاعة: كان الدارس لتاريخ الاغنية الشركسية في العصور الوسطى، وفي المراحل التي تعرضت فيها أجداد الشركاسة لغزوات وحروب واعتداءات من قبل جيوش مختلف الأمم والشعوب وعلى مدار اكثر من عشرين قرنا، يجد بأن الكتاب الذي وضعه س. ن. رياوزوف (S. N. Ryawozov) حول الاغاني القباردينية الشركسية^(١٨) من اكثر الموضوعات التي تضمنتها تلك الاغاني في العصور التي كان اجداد الشركاسة فيها وثنيين.

حيث يقول (رياوزوف) بأن: الشعراء والمغنين الشركاسة كتبوا أنواعا عديدة من الأغاني، وكانت الأغاني البطولية والملحمية تغنى على شرف تكريم الأبطال الذين سجلوا مآثر عظيمة، وقد توجه هذا النوع من الاغاني لتمجيد المحاربين الابطال من الشباب، كما كان الشعراء يكتبون بعد كل معركة كبيرة قصيدة او اغنية. وتعتبر أغنية "انديميرتان" البطل المدافع عن الفقراء، أغنية كلاسيكية. وهي الاغنية التي ألهمت (شايبير) لأن يؤلف ملحمة "انديميرمان" في تكريمه عام ١٩٣٩ وقد استندت الأغاني البطولية إلى شعر وأنغام جميلة، كما كان بناؤها قريبا جدا من (الاغنية الشعرية) والحكايات القصصية الشعرية الغنائية.^(١٨)

٦- أغاني المدح والثناء: كما اقترنت الأغاني البطولية تماما بأغاني المدح، التي كانت تنظم لتخليد مآثر الحرب كما كان اولاد وأقارب المحاربين الكبار، أو اصدقاءهم، يكلفون الشعراء المغنين بنظم قصائد لتمجيد بطولة المحاربين الذين قضوا في ساحات القتال.

*** أنواع الاغاني والانشيد الشركسية:****النوع الاول: اناشيد واغاني الطقوس الدينية وكانت تضم:**

التراتيل والترانيم المقدسة التي كانت تقام في فترة ما قبل المرحلة المسيحية، وخلال الاحتفالات في عصر الوثنية، وكانت التراتيل الدينية تؤدي عند الصلاة بصوت واحد مع الكوراس. (وفي العهدين المسيحي والإسلامي، ابقت التراتيل القديمة على حالها)، لكن مواضيعها تغيرت لتتناسب للمعتقدين الجديدين.

ومن امثلة الاناشيد والاغاني التي كانت تعكس الطقوس الدينية الوثنية انشودتان هما:

الانشودة الاولى فكانت عن (الرع... والصواعق) وكيف ان الشراكسة كانوا يعبدون (اله البرق) (شله - و ه) حيث تصف القصيدة كيف يؤدي الشباب رقصة (الوج. Wdj) حول المكان الذي ضربته الصاعقة.

أما القصيدة الثانية واسمها (Ziushan) ومعناها (من يأخذ مرضي) حيث تصف هذه القصيدة الطقوس التي كان يمارسها الشراكسة استرضاء للآلهة وطلب الوقاية من مرض (الجدي).

النوع الثاني: اناشيد واغاني الحروب:

وهي الاناشيد والاغاني التي كانت تعبر عن بطولة المحاربين من أمراء ونبلاء، منها اغاني البطولة التي قام بها محاربون مثل (كوخفاس) و (انديمرقان) حيث نظمت اشعار المديح للبطولة التي أظهرها هذين المحاربين في سبيل حرية الوطن واستقلاله وكذلك قصة (محمد بن حاتقوه) وهو احد ابطال الشابسوغ الذي حرر شعبه من اعداء الوطن.

هذا بالإضافة إلى الاغاني التاريخية ذات الاهتمام الخاص بالحروب الطبقة مثل: حرب الامراء والنبلاء التي تروي قصصا عن الحروب التي دارت بين الامراء والتابعين تروي أغنية "ليلة غزو كاباردانية" قصة من تاريخ كابارديا تعود إلى القرن السابع عشر الميلادي. كما ويلاحظ بأن الاغاني الشركسية تضاءلت عند الشراكسة (الأديغة) بعد اعتناقهم الدين الاسلامي لتعارضها مع تعاليم الدين الاسلامي^(٢٢).

النوع الثالث: اناشيد واغاني الرثاء (غزة - Ghaebza)

وكانت تضم اغاني المراثي الحزينة التي كانت تغنى في ذكرى القتلى الذين قضوا دفاعا عن الوطن، ومن اشهر المراثي الغنائية تلك التي تم تأليفها إبان الحروب التي دارت ضد الغزاة، من الغوط، والهنون، والقالموق والتتار... الخ.

النوع الرابع: اناشيد واغاني مواسم الحصاد:

وكانت تضم اغاني وانشيد تقال في موسم الحصاد وبعد جمع المحاصيل الزراعية في الصيف.

النوع الخامس: اغاني جرحى الحرب والمصابين بجروح او كسور.

من العادات التي كانت متبعة عند الشراكسة منذ القدم (وحتى يومنا الحاضر) هو زيارة الجرحى او المصابين بكسور في بيوتهم والسهر عندهم حتى ساعات متأخرة من الليل بهدف تسليتهم والتخفيف عن الامهم وتسمى هذه العادة "شابشة".

وتنوعت الأغاني التي كانت تنظم عن الجرحى عن غيرها من الاغاني ومن أشكال هذا التنوع، ضرورة وجود قائد للكوراس، وهو أمر لم يكن موجودا كما كانت تقدم هذه الأغنيات بصورة عامة، بصوت عال وبطريقة متصلة ونغمات مميزة، علاوة على هدف امتناع المرضى فإنها كانت تهدف لابقائهم يقظين طوال الوقت. اعتقادا منهم (قديما) بأن الأرواح الشريرة مختبئة في الجوار، وجاهزة للسيطرة على روح المريض عندما ينام.

النوع السادس: الأغاني العاطفية، وكانت تضم:

أغاني الحب التي كان تؤديها وتتشددها النساء عادة، وكان إنشادها محصورا داخل العائلة. أما الرؤية الرومانسية لعاشق محروم يقف تحت نافذة فتاة (قشن)، فلم يكن لها وجود في الأوضاع القفقاسية الصارمة في الماضي ويشتمل بعض هذه الأغاني الشاعرية على: الأغنية التي أبكت الأمير (أديغو) وأغنية "سيراس" (Cirace) بمعنى (أنا) (٢٢).

النوع السابع: أغاني مراسم الزواج والولادة والمناسبات الأخرى:

انقسمت أغاني حفلات الزواج إلى اغاني احتفالية، مثل (وريدادا)، التي كانت تغنى لدى عودة العروس إلى بيتها، وأغاني خفيفة تغنى في المهرجانات الراقصة.

واغنية (وريدادا) هي أغنية عامة كانت تؤدى في العديد من المناسبات، بما فيها مواسم الحصاد ولعله آخر استخدام (قديم) لشخصيته. دادا كان للتعبير عن زعيم العشيرة، ورب الأسرة الذي رحلت روحه إلى (حدرخة) أي يوم الأخرة، ولا شك أن هذه الشخصية قد ظهر استخدامها في الاغاني منذ عصر النظام الأبوي. وأصبح استعمال "دادا" فيما بعد ليقوم مقام الجد، وهي مفاهيم حصرية ضاعت في متاهات التاريخ، ولكنه مصطلح ما زال يستخدم للتعبير عن كبير العائلة، كما تضمنت أغاني الزواج الأخرى: أغنية عودة العريس إلى بيته، واغنية عودة المرأة إلى ديارها.

واما تروبينسكوي (Troubetzkoy) فيقول بأن: الشراكسة بمجموعهم شعب شاعري واسع الخيال ذو روح متوقدة وحس عميق لمحاسن الطبيعة والقصائد المغناة اثناء الرقص وفي الاحتفالات تتغنى بروعة الشجاعة، والافعال السامية، وتذم الجبن والاخلاق السيئة، والشعر ايضا يعني لهم "مستودع كل الحكمة الشعبية"، وها هو ذا المغني العجوز في رواية دوي الرعد يعطي ابنه خليفته سر المهنة قائلا له: إن كنت ترغب ألا يتحول صوتك إلى عواء ذئب لا تغن أبدا للسفاحين وللثأر وارقة الدماء.

كما يفرق بين القصائد القديمة التي يكون محتواها غالبا الأمور السياسية والمثل العليا، واغاني الأفراد وقصائد الهجاء واغاني جماعية ذات محتوى لماح ساخر كما يشير إلى نوعية المواد المتضمنة في الشعر بقوله:

"إن الأغاني الشعبية الشركسية ذات محتوى غنيّ متعدد الجوانب فهي بطولية وتاريخية وطقوسية وغرامية وغنائية وجنازية. كما توجد اغان للحراثة والحصاد والزواج والرقص وغير ذلك. وتؤدى كلها في الاحتفالات العائلية والعامة بمرافقة الاوركسترات الوترية والاكورديون والالات الموسيقية الأخرى.

كما يقول: ولا ننسى اغاني العمل فهناك اغان الحصادين واغان للرعاة والدارسين والبيادر والصيادين واغان لليلة وأغان للمرض؛ اذ من عادة الشراكسة ان يساعدوا المريض على إبعاد الالم والموت بأن يجتمع في بيته الشبان والفتيات ليغنوا ويرقصوا او يحكوا النوادر، اما الجرحى فلا يدعونهم ينامون اول ليلة من اصابتهم ويقفون حولهم طوال الليل. وهناك اغاني الجرح يغنيها الرجل حين يصاب بجرح مميت. وهناك الاغاني التي تغنى بالوطن وعزته وعنفوانه وللمائدة ايضا اغانيها (٢٥).

الأغاني والاناشيد القومية الشركسية في عهد استعمار الامبراطورية القيصيرية الروسية:

تم جمع العديد من الأغنيات القديمة على أيدي الباحثين والعلماء الجراكسة. وصدرت كتب الموسيقى والأغاني الشعبية أول ما صدرت في عام ١٨٨٧ على يد الملحن الروسي (Sergei Tanev سيرجي تانييف) الذي نشر أول كتاب عن الاغاني الشركسية ضمنه عشرين مجموعة من الاغاني القبردينية الشركسية القديمة (٢٦).

وفي عام ١٩١٣ قام (بيشميرزا باشا) مؤسس الشعر (الكابارديني) الحديث وهو كاتب أغنية موهوب وبارع بتأليف اغنية وطنية تمجد الانتفاضة القابردينية، التي قامت عام ١٩١٣ ضد الحكم

القيصري، واسمها (Dzeliqwe) واستعمل فيها أسلوب الأغاني البطولية التقليدية، لتوصيل أفكاره للجماهير مثل أغنية (غازي مراد) ^(٢٨).

أقسام الأغنية الشركسية

إن الدارس لأقسام الاغنية الشركسية يجد بأنها كانت تنقسم منذ عصر الاجداد إلى اربعة اقسام رئيسية وهي:

- (١) (ورد) أي الغناء على اختلاف انواعه والمغنين هم (وردؤه) رجالا ونساء
 - (٢) (وساكئوه) أي الشعر المتضمن المدح والهجاء، والمنشدين هم (وساكئوه جئة).
 - (٣) (غبيزة) أي الغناء الرثائي والمغنين هم من الجنسين.
 - (٤) (جه كواكؤه) Jegwakwe وبالانجليزية (Ashogs) وبالعربية الفرق الغنائية الجواله، وهم مغنون محترفون صنعتهم امتاع الجماهير بأغانيهم المرحه والشعبية.
- وفيما يلي دراسة لكل قسم من اقسام الاغاني الشركسية منذ القدم:
- قسم المؤرخ الشركسي (جونا توة) الاغنية الشركسية إلى قسمين رئيسين هما:

(١) (ورد) وهي الأغاني التي توصف فيها الحياة القومية والوقائع الحربية والحب والخيال والنكات وبعض النواذر المسلية المضحكة وتحتوي ايضا على تفاصيل الوقائع الحربية القديمة التي يعود تاريخها إلى زمن الحِيثِين كواقعة (نارينا) التي تعيد الذكريات المحزنة المؤلمة.

وتعتبر هذه الأغاني من الوثائق التاريخية التي يحفظها الشيوخ عن ظهر قلب لما فيها من التفاصيل عن أعمال أجدادهم وهي في الحقيقة توثيق للتاريخ القديم للحروب ومواقعها وسجل الذين جبنوا وأظهروا عجزا وتقصيرا كما أنها توثيق للأعمال البطولية للمقاتلين البواسل الذين انضموا دفاعا عن الوطن الأم.

(٢) (غبيزة) وهي عبارة عن مراثيات لشهداء الحروب أو الذين قضوا نحبهم في سبيل الأوطان ولا يسع سامعيها إلا التأثير العميق بها للأخذ بالتأثر.

كما تبحث ايضا في نتائج هذه الوقائع وما وصلت إليه في النهاية وقد استفاد من هذه الاغاني المؤرخ (نوغموقة) وترجم بعضها إلى الروسية وأدرجها في مؤلفه، الأمر الذي جعل لكتابه قيمة خاصة.

وتؤلف هذه الأغاني من قبل اختصاصيين يدعون (جه - كواكؤه) أي الشعراء. وهذه الأغاني تقال إما نثرا أو نظما وتعتبر من الادبيات التي تحتل موقعا هاما، إذ تحوي تاريخا مجيدا وبطولات خارقة لأجداد الشركاسة.

ويقول (نوغموقة) أن الاغاني تضاعلت عند الشركاسة بعد الإسلام اتباعا لما فيه من النهي عنها. ^(٢٠)

والأديب الروسي (تروبتسكوي) يقول في دراسة له صدرت عام ١٩٢٥ بأن القصائد الشعرية والأغاني الشركسية تنقسم إلى أربعة أنواع:

الاول: القصائد القديمة (محتواها غالبا في الأمور السامية والمثل العليا).

الثاني: أغاني الأفراد.

الثالث: قصائد الهجاء.

الرابع: أغاني جماعية (كورال)

كما يشير إلى الموضوعات التي يتناولها الشعراء من وصف بطولات أو رثاء أو هجاء أو... (٢٥).

(٣) المغنون المتجولون "وردؤه"

يقول (لابينسكي - ١٨٦٢): بأن المغنين الشراكسة كانوا موهوبين ولهم احترام كبير عند الشعب، وكانوا يظهرون كل فعل جيد أو سيئ أو جبان، وكل تضحية أو انانية وكل كرم أو بخل، وكل جمال أو حب، كما كانوا يتغنون بحكمة القدماء وبطولاتهم وقصصهم البطولية، إضافة إلى مشاركتهم في المعارك، لبث روح الحماس والشجاعة في نفوس الجنود، كما ان وجودهم في ساحات المعارك كان يساهم مساهمة كبيرة في رفع معنويات المحاربين، ووجودهم بين الجنود كان يشكل عامل ردع وقمع لكل من كان يفكر بالهروب من ساحة المعركة خوفا من هجائهم بعد الانتهاء من المعارك والعودة لقراهم. (٢٦)

(٤) وساكنو وهم المغنون المتجولون:

يتميز (غواشخوراي) من قرية (يلمي) التركية الشركسية يميز بين الشعراء الذين يطلق عليهم باللغة الشركسية (وساكئوه) وبين المغنيين المتجولين (وردؤه). فالشعراء (وساكئوه) في العادة هم (رجال أم نساء) كانوا يمارسون نشاطهم الغنائي في مكان إقامتهم فقط، ويلقون قصائدهم في المضافة ال (هانتشيش) أو ساحة القرية، وأحيانا كانوا ينتقلون إلى القرى المجاورة لإنشاد أشعارهم. أما المغنون المتجولون (وردؤه) فقد كانوا يتمتعون بشهرة داخل وخارج مناطقهم وكانوا ينتقلون من مضافة إلى أخرى ويغنون في الأفراح والأعياد. وكانوا يمثلون ضمير مجتمعهم، مما جعل الآخرين يخشونهم ويحسبون لهم ألف حساب. (٣٠)

وأما (جموخة) فقدم لنا دراسة متكاملة حول القسم الرابع من أقسام الأغنية الشركسية وهي الأغاني التي يؤلفها وينشدها المغنون المتجولون المحترفون الذين يسمون باللغة الشركسية (جه-كواكؤه) (Jegwakwe) بقوله:

"عند الكلام عن الاغنية والشعر الشركسي، من المستحيل عدم التطرق إلى مؤلفيها ومنشديها. ففي الأيام الغابرة، ظهرت فئة محترفة من المطربين والمغنين (فرادى ومجتمعين) ولم يتلقوا أي تعليم أو تدريب من نوع خاص، بل اعتمدوا على مواهبهم الموروثة، وأبدعوا في فن الشعر والأغنية، وتجولوا أفرادا وجماعات في جميع أنحاء البلاد الشركسية، فأنشدوا الأغاني، وألقوا الأشعار البطولية في المهرجانات، وفي حضور الطبقات العليا، وعلى مسامع مجالسها التي استقبلتهم مضافاتها الخاصة جدا. (الهانتشيش).

وتخصص أعضاء هذه الفئة من الفنانين بأغاني تمجد ذكرى أحداث الحروب الدموية وأعمال ومآثر وطنية عظيمة حدثت في القتال. وكتبوا سيرا ذاتية لرجال مشهورين، وأنشدوا أغنيات قديمة. كما شاركوا في حملات عسكرية، وأطلقوا صيحات الحرب التي كانت تثير من العزائم، وتحث على الشجاعة والثبات في ساحة المعركة.

وكان الأسلوب المتبع في نشر الأغاني الشعبية، هو الطلب من شاعر شعبي تأليف اغنية، ثم يدعى المغنون من المناطق المجاورة للاستماع إليها مرات عديدة إلى ان يحفظها المغنون عن ظهر قلب، ثم يعودون إلى قراهم، ويعرضونها على لجنة تحكيم من المختصين في الاغاني الشعبية الشركسية لإقرارها أو عدم إقرارها كأغنية شعبية.

ويؤكد (جموخة) ظهور مغنين محترفين ومبدعين في عهود مختلفة، فيتبناهم عدد من الامراء الشراكسة ويصبحون تابعين لهم، يغنون في مجالس الضيافة الخاصة بهم، ويغدق الامراء عليهم المال والهدايا ويتبوأون مكانة اجتماعية مرموقة في إمارة الأمراء، إذ أصبحوا تابعين لهم.

النوع الرابع من الفلكلور الشركسي- اديغة فاشة Adiga Fascha أو اديغة شيغيين Adiga Shegin أي اللباس القومي الشركسي.

يقول احد الرحالة الذين زاروا بلاد الشراكسة في القرن التاسع عشر "تأملوا إلى الزي الادبي المسمى "أديغة شيغيين" Adiga Shegin، فهو وحده، يساوي ثروة كبيرة، إضافة إلى جمال منظره ودقة صنعه، وصلاحيته للاستعمال في شتى الظروف والأحوال والمناسبات الحربية منها أو الاجتماعية، كما انه يناسب العمل في الحقل أو البيت ويتكون من لباس الرأس المكون من (القلبك) الاسطواني الشكل المصنوع من جلد الماشية، والغطاء الثاني (باشلق) المصنوع من القماش الاملس أو الخشن، والقميص ذو القبة الدائرية المحكمة الإغلاق - دون طيات - ويصنع إما من القماش الخشن للباس في الشتاء، أو من الحرير للباس في الصيف. والازرار التي تصنع من قطع صغيرة من الخشب أو المعدن الذي يغطي بجلد الحمل .

أما السترة المخصرة (جانة) التي طورها (الاديغة) قبل الامم الاخرى ذات الاكمام الطويلة بغرض استعمالها كقفازات في الايام الباردة، وذلك قبل انتشار القفازات المعروفة حديثا، وكذلك ابتكار مخازن (الخراتيش) المخاطة على شكل جيوب اسطوانية الشكل على جانبي الصدر، وقبل اختراع (الخراتيش) والاسلحة النارية كان الشراكسة يستخدمون هذه الفتحات لتخزين (اعشاب طبية) متنوعة لمداداة جروح المحاربين في المعارك.

وأما (البنطال، والحذاء عالي الساق) فيشبهان ما كان مستخدما في اوروبا، وقبل التوصل لصناعة الجوارب اعتاد (الاديغة) على لبس حذاء أو خف خفيف مصنوع من الصوف المغزول أو القماش، وعندما يعود الرجل، أو المحارب إلى بيته، يخلع الحذاء الخاص بركوب الخيل حتى لا تنتقل الاوساخ العالقة به إلى داخل البيت، ويتنقل داخل منزله منتعلا الخف الخفيف المسماه (فاقه).

وتابع وصفه للباس النساء بقوله:

"وملابس النساء جميلة جدا، مطرزة بخيوط من الفضة والذهب، ومكونة من القلنسوة (البأة) كلباس للرأس، والصدريّة التي تشبه (الدرع) في شكلها ومصنوعة من القماش الاسود في العادة، وتلبس فوقها فستان طويل مفتوح من الأمام (ويقصد به الكاب) يغطي القدمين، مع اكمام عريضة وطويلة جدا فيلامس الأرض تقريبا.^(٣٢)

اما الرحالة المجري (جان شارل) الذي زار بلاد الشركس عام ١٨٢٩، ربما كان افضل من وصف اللباس القومي الشركسي للرجال بقوله: "إن ملابس الشراكسة الحالية والتي سادت على لباس شعوب القفقاس، خفيفة وانيقة وتتناسب جدا مع امتطاء الخيول وخوض المعارك، فهم يرتدون قمصانا من الكتان أو التافتا البيضاء أو الصفراء أو الحمراء، وترزر هذه القمصان من الامام، وتدعى لديهم (يانا أو جانا) ويرتدون فوق القمصان سترة من الحرير من أولوان مختلفة وتدعى (كابتال) ومن ثم معاطف (سيروتوك) طويلة تصل إلى أعلى الركبة تسمى (تسية) وتثبت عند الخصر بأحزمة ومثبتات من المعادن الثمينة، وعلى صدر المعطف ومن كلا الجانبين توجد ثمانية اماكن لوضع الطلقات.." ثم يتابع وصفه المفصل لكل من البناتيل والاحذية والقبعات ثم يضيف قائلا:

"... والآن ومنذ سنوات عدة يقف على حراسة أبواب القيصر (نيقولاي) اللواء الشركسي الذي يصل تعداداه إلى خمس مائة محارب، يقومون بدور الحرس الامبراطوري، وكل من شاهدهم يقول بأن زيهم العسكري رائع للغاية ويجلب انتباه الكل في العاصمة، وبالفعل فإن للشراكسة شكلهم العسكري المميز وخاصة وهم معتلون صهوات جيادهم، فهم يمتطون ظهور الجياد منذ الطفولة حاملين اسلحتهم، وقد يمضون احيانا يوما كاملا على ظهور الخيل، واسلحتهم من النوع الممتاز وغالية الثمن جدا ويحتفظون بها دائما نظيفة براقّة، كما يعتنون بخيولهم طوال الوقت ويضعون عليها سروجاً انيقة جدا شبيهة بالسروج المجرية".^(٣٣)

أما (جوناتوقه) المؤرخ الشركسي فقد قال عام ١٨٤٤ بأن: "اللباس الجركسي في مجموعه يصلح لأن يكون لباس الرجل بكل معاني الكلمة، وأن أنسب الأزياء للرجل الكامل في الحياة العامة

وفي الوقت نفسه هو الزي الجميل المناسب للفارس الخيال، وهو الآن الزي القومي لعموم سكان القوقاز، واتخذته السلطات الروسية القيصرية زياً رسمياً لجميع فيالق (القوزاق) بعد ادخال تعديلات طفيفة عليه. كما يلبسه كثيرون من امراء الامبراطورية الروسية القيصرية.

وأما الفيلسوف الالماني (يوغان غوتنيلد غيرور) فقد وصف ملابس الفتاه الشركسية بقوله:

"أما ملابسهن فكانت تزيد من جمالهن. حيث كن يلبسن اثوابا زرقاء سماوية، تغلق عند الصدر بأزرار فضية، وفوقها تنورة عريضة مفتوحة من الأمام، وسراويل ملونة واسعة، وايديهن مغطاة بأكمام قمصانهن الطويلة المصنوعة من الحرير الأحمر أو الاصفر والمفتوحة حتى المرفق.

الاثواب والسراويل والقمصان كلها مطرزة بخيوط الفضة. وعلى رؤوسهن قبعات صغيرة".^(٣٢)

وفي دراسة للعلامة (مورجان) حول العلاقة بين قدماء الشراكسة والحثيين التي نشرها في القرن الاول للميلاد، يؤكد فيها على وجود تشابه كبير بين ازياء وملابس قدماء الشراكسة من الرجال وأزياء الحثيين الذين حكموا شعوب القفقاس في عصور ما قبل التاريخ، وان التشابه كبير في كل من (القلب) وهو لباس الرأس للرجال وكذلك (التسيه Tsieh) وهو المصنوع من اللباد، واما (القاما) وهو السلاح الشخصي الذي لا يفارق الرجل الشركسي يشبه ايضا (القامه) الحثية^(٣٣) ونستنتج مما تقدم بأن الحثيين اخذوا عن الشراكسة الاجزاء الرئيسية المكونة لزيهم الخاص. ودليلنا على ذلك هو ان ظهور الملابس القومية لدى شعوب الامة الشركسية اقدم بكثير من زمن قدوم الحثيين إلى بلاد القفقاس والاستيطان فيها وحكم شعوبها.

* مكونات الزي القومي الشركسي:

بالبحث عن تفاصيل الزي القومي الشركسي (قديمًا وحديثًا) وجدنا بأنه يتكون من نوعين من الزي فالأول منه هو: الزي القومي الخاص بالذكور (اطفالا وشبابا ورجالا)، والثاني هو الزي الخاص بالنساء (اطفالا وفتيات ونساء).

أولاً: مكونات اللباس القومي الشركسي الرسمي الخاص بالرجال

يتكون الزي القومي الخاص بالرجال من ثمانية قطع من اللباس بالإضافة إلى أربعة قطع من توابع ومستلزمات تكمل الزي القومي، وهي على النحو التالي:

(١) (البأة) (Pa'a) وهو اللباس الخاص بالرأس عند الشراكسة ويسمى بالعربية (القلب) أو (القلنسوة) مصنوع من جاعد (فرو) الخرفان ويكون على عدة أحجام وأشكال.

(٢) (الباشلق - Bashliq) وهو عبارة عن وشاح مصنوع من الصوف الابيض ويوضع فوق (القلب).

(٣) (قبتال qapeta) وهو رداء يشبه المعطف الخفيف، مفتوح من الأمام متوسط الطول، يلامس الركبتين، ويوجد على الصدر من كل جهة سبعة جيوب اسطوانية الشكل لها (فتحات) يسمى (حزر Hazer) في كل منها (انبوب) مغطى من أعلاه بقطعة فضية، وكانت مخصصة لخن (ملح البارود) خلال الحروب والادوية قبل مرحلة اختراع البارود، و(القبتال) يكون اسود اللون أو ابيض، واحيانا أحمر اللون أو أزرقه.

(٤) (شاكوا. Shakwa) تشبه العباءة الطويلة مصنوع من الصوف، بدون أكمام، ويغطي الفارس من عنقه ويتدلى على ظهر الحصان من الخلف لوقاية كل من الفارس والحصان من البرد أو المطر.

٥) قميص (جانا - Gana) ذات رقبة عالية يغلق بأزرار من الامام
بـ (عرواة) قماشية، أبيض اللون أو أحمر ومصنوع من الكتان أو أي نوع قماش مناسب.

٦) (بربخ) (Bereb'x) وهو الحزام الجلدي، رفيع وذو شرائيب جلدية مُزخرفة بصفائح من
الفضة.

٧) (غون - جك) (ghwen - cheg) وهو عبارة عن (سروال طويل) مصنوع من القماش
الأسود ذا أرجل ضيقة من الأسفل، وسراويل الخيالة تكون منتفخة للخارج من مستوى
الركبتين، ومخاط عليها من الداخل قطعة جلدية لحماية البنطلون من أثر الاحتكاك بجسم
الحصان أو بالسرج.

٨) (فاقة - Vaqeh) الحذاء الطويل (الجزمة) وهو يصنع من الجلد ويكون أحيانا قابلاً للفتح من
الجانب لسهولة اللبس، ويغلق برباط جلدي، ويمكن ان يكون (الساقان) منفصلين عن الحذاء
نفسه، وفي هذه الحالة يرتدي الرجل الحذاء العادي ذا الرقبة المرتفعة.

لوازم وتوابع الزي القومي الشركسي للرجال من أدوات وأسلحة شخصية وتتكون من الأدوات
والمستلزمات التالية:

١) (القامة) (أو الخنجر الشركسي) فهو أكبر من الخنجر وأصغر من السيف العربي، وله مقبض
مصنوع من المعدن المطعم بصفائح فضية. أما النسل فهو مصنوع من المعدن حاد من
الجانبين وذو رأس مدبب.

٢) (قامشة quasheh) وهو من مستلزمات الفارس الشركسي ومعناه (الكراباج أو السوط)
ويتكون من قطعتين متصلتين ببعضهما برباط جلدي من الوسط، فالقسم العلوي مصنوع من
مادة صلبة (خيزران مثلاً) مغطى بطبقة جلدية وله مقبض. أما القسم السفلي فهو أقل سماكة
من القسم العلوي مصنوع من مادة مرنة مثل الجلد، وثبت في نهايته قطعة جلد رقيقة
منبسطة حتى لا يؤذي جلد الحصان عند ضربه من قبل الفارس.

٣) (الكراخوة Carakhwa) وهو سلاح شخصي كان يحمله قدماء الشراكسة بشكل دائم، ويعتبر
حملة من مقومات الرجولة ومن مستلزمات الدفاع عن النفس، يشبه الطبنجة أو (البندقية
القصيرة) فهي أكبر من المسدس وأصغر من البندقية العادية، مقبضها مغطى برقائق من
الفضة كما ان فوهتها تكون مزخرفة بالفضة ايضاً.

٤) (سَخْخْوَة schxwe) وهو السيف الشركسي ويشبه السيوف المعروفة حالياً مع الاختلاف في
الطول، فهو متوسط الطول كما ان غلافه الخارجي (البيت) مغطى برقائق من الفضة،
ونصله مقوس قليلاً ومدبب الرأس وحاد جداً من طرف واحد وليس من طرفين.

٥) (وانه - Waneh) وهو سرج الحصان ويصنع من الجلد، يثبت عليها مخدات قطنية على
شكل نصف دائرة عددها (٤) مخدات بحيث يساعد ركوب الفارس مدة طويلة دون ان
يتعب، كما كان طول (الركاب) يسمح بالوقوف عليه مما يسمح للفارس حرية الحركة لجميع
الاتجاهات بدون اعاقه.

٦) (وبا - Wepa) ويتكون من الرسن واللجام، واللجام يصنع بأسلوب يسمح بحركتين او شدتين
(تشبه فرامل السيارة المكون من حركتين) فالاولى خفيفة والثانية قوية يوقف الحصان فوراً.

ثانيا: الزي اليومي العادي للرجل الشركسي او الفتى او الشاب ويتكون من القطع التالية:

(البآة) أي القلبيق، (والجانا) أي القميص (والقبتال) أي المعطف الخفيف (والبريخ) أي الحزام والبنطلون أي (غون - جك) و(الفافة) أي الجزمة (طويل الساق) وقصيرها (والقاما) أي الخنجر، و(الكراوخة) أي المسدس، أما (الباشليق والشاكوه) فكان يلبسهما عند السفر على الخيل وخاصة أيام فصل الشتاء.

ثالثا: مكونات الملابس الشركسية الخاصة بالقتال وتتكون من القطع التالية:

(١) الدرع الواقي المصنوع من زردات معدنية على شكل (شبكة) يلبسه المقاتل الشركسي لوقاية صدره خلال المعارك.

(٢) الخوذة المعدنية، وتصنع من زردات معدنية أو على شكل خوذة معدنية (صلب).

رابعا: اللباس القومي الخاص بالمرأة الشركسية وتوابعه

إن الدارس للآزياء القومية للمرأة لدى الشعوب والقوميات القديمة في العالم عامة وفي مناطق القفقاس خاصة، يجد أن الزي القومي للمرأة الشركسية من أجمل الآزياء لدى الشعوب والقوميات الأخرى، وأن هذا الزي ما زال من أجمل الآزياء القومية المعاصرة بالرغم من مرور الآف السنين على ابتكارها من قبل شعوب الأمة الشركسية.

وقدم لنا أحد المختصين من القبرطاي في جمهورية كبادينا - بلقاريا وصف الزي الخاص بالمرأة الشركسية قائلا:

"كان زي الفتاة الشركسية الرسمي غنيا بالزركشات الموشاة بخيوط مستمدة من الذهب والفضة تعطي الزي الرونق والبهاء" ويصف زي المرأة الشركسية قائلا بأنه الرداء الخارجي، يتشكل من قطعتين، تمتد حتى خصر الفتاة، ويكون ملاصقا لجسم الفتاة تماما، أما الاكمام فكانت ضيقة ومستقيمة وطويلة حتى الرسغ.

واما القطعة السفلية، فكانت بثنيات او بدون ثنيات وفقا لطبيعة القماش. وكانت الاطراف موشاة بخيوط ذهبية وفضية بينما كان رداء المتزوجات خاليا من الخيوط الذهبية واقتصرت على الأزرار والأحزمة الفضية.

وبالنسبة للصدريّة الظاهرة تحت الثوب الخارجي، فقد كانت تشتمل على اربعة عشر زوجا من المرباط او الازرار (تشوء) وتلبس بشكل يتناسب مع الخيوط والزركشات ذهبية كانت ام فضية.

واما اللباس الذي كان يستعمل في المناسبات والاعياد، لا سيما في حفلات الزواج من قبل الفتيات والسيدات الشابات، فقد كان يطلق عليه اسم (تساي Tesei) ويخاط بحيث تكون الاطراف متباعدة تدريجيا من الاعلى إلى الاسفل وعكس ذلك عند الصدر وعند النقاء طرفي الرداء في منطقة الحزام تخاط الازرار التي لا يزيد عددها عن ثلاثة.

(والتساي) يصنع من الحرير او المخمل. كما أن الجزء السفلي يتكون من سبع قطع حيث تشكل كل واحدة منها شكل اسفين، وكانت الاجزاء الامامية والخلفية تتكون من قطع مخاطة ببعضها البعض، وأما الجانبان فيتكونان من اجزاء مفتوحة من كل جانب، واما الاكمام فكانت رقيقة من اعلى الكوع، عليها قطع من القماش المزركشة بالمطرزات الذهبية. وكان (التساي) يزين (مقطع) ذهبية وفضية كبيرة الحجم.

وأما الاطراف، فكانت تزين بالاشرطة المقصبة، بالخيوط الذهبية أو الفضية. وكان (التساي) في بعض الاحيان يزين بالاشرطة المقصبة بالخيوط المذهبة فقط، وكانت الفتاة ترتدي تحت التساي، قميصا حريريا ملونا محاكا على طريقة التساي، ويمتد القميص الى ٣٠ سم تحت الحزام. وكان يشد بأزرار او مرباط ذهبية او فضية عند الصدر، وتظهر من تحت التساي، وكان القميص يحاك من الحرير او المخمل بزخارف بديعة والوان زاهية مع بطانة رقيقة. والحزام الفضي او الذهبي الذي

كان يستعمل فوق التساي اختلاف شكله عند النساء عنه عند الفتيات بعرض مربوطه، فكان عند النساء اعرض.

كما كانت الاحزمة اكثر اناقة ولها خشاخش صغيرة على مربوط الاحزمة وقد زين بالاحجار الكريمة وبالمذهبات.

اما "الانشوغ" فكان يحاك بخيوط من الذهب، ويزخرف بأشرطة مذهبة وقطع من القماش المزركش^(٣٢). كما هو مبين في الصورة المرفقة.

واما الكاتب (جموخة) فكان اكثر تفصيلا في وصفه للزي النسائي الشركسي بقوله: "كانت ملابس النساء أكثر زخرفة من ملابس الرجال. فالمعطف الخارجي، سواء أكان طويلا أم قصيرا كان مصنوعاً من مختلف أنواع الأقمشة، والصدر مزور باتشي عشر زوجا من (الابزيمات) المزينة بالفضة والطلاء الذهبي، وكان الجزء العلوي من الثوب دون بطانة من الداخل، ويسمى "تساي" (Tesev) وكان لهذا الثوب كمين مخمليين متدليين، مطرزين بخيوط مذهبة وفضية.

والقميص (الصدرية) الحريري أو القطني الخفيف، يكون بكمين طويلين وعريضين، يطولان حتى يصلا الأرض تقريبا، ويغطيان القدمين أيضا، وما يعطي الانطباع بأن النساء الشركسيات ينزلن على الأرض عندما يرقصن. وكانت النساء والفتيات يرتدين بناطيل عريضة مصنوعة من أقمشة مقلمة، وكانت بنات الطبقات الراقية يرتدين معاطف من مختلف أنواع الفراء، مغطاة بأنسجة مقصبة أو مطرزة، أو أنسجة قطنية أو فضية، وموشحة بخطوط فرائية بعرض تسعة سنتيمترات تقريبا. أما عامة الشركسيات والفقيرات من النساء، فكن يرتدين معاطف مصنوعة من جلود الأغنام.

وكانت تلبس الحزام الشركسي (الجلدي) الأحمر، أو بأي حزام من الجلد، مزين بدبابيس ذهبية أو فضية، وبخيوط وشراريب من فضة.

وكان المشبك (الابزيم) مصنوعا من ذهب أو فضة أو نحاس، حسب المرتبة الاجتماعية. ففساء الطبقات العليا ميسورات الحال، كن يرتدين (حلية) فنية كبيرة متدلّية مصنوعة من الذهب أو الحجر الكريم.

وأما القلنسوات النسائية فكانت مصنوعة من القماش العريض، ونادرا ما كانت من المخمل، لكنها لم تكن أبدا من الفراء، وكانت تزين بزركشة رفيعة من الفضة أو الذهب في أعلاها، وبآخر عريضة في الأسفل، ومطرزة بدرزات من الساتان. ويغطي القلنسوة خمار أبيض شفاف. وفي غالب الأحيان، كانت تزخرف بأزرار من الفضة الخالصة، وذات بريق ولمعان في طرفها، وكان لبعض القلنسوات شراشيب صغيرة تتدلى من الطرف العلوي. تسمى "شهينشوق"، وهي مختلفة عن قلنسوة الفتيات اللواتي كن يضعن غطاء على الرأس، ويكون في العادة وشاحا من الحرير، مع بقاء الوجه سافرا. أما النساء الأكبر سنا، فكن يغطين شعورهن بشالات بيضاء مصنوعة من القطن.

وكانت النساء يلبسن أحذية ذات أكعاب عالية، ونعل سميك، وجلد ناعم، وكانت أحذية بنات الاثرياء مزينة بشكل بارز بالذهب والفضة، كما ان الصبايا والفتيات من بنات النبلاء والاسر الغنية يرتدين أحذية خشبية (بحة فاقه - Pxevaq) بمختلف اشكال الزركشة ويصل ارتفاع الكعب إلى حوالي سبعة سنتيمترات، كما كن يلبسن في مراحل لاحقة (قفازات طويلة مصنوعة من القماش أو الصوف).

وجرت العادة عند سن البلوغ، مطالبة الفتيات بارتداء صداريات قصيرة ضيقة دون أكمام، مصنوعة من الجلد (الأحمر) أو الجلد الاعتيادي، أو من القماش، ترتدينها تحت القميص الفضفاض. (وهذا ما يذكرنا بالمشدات والصداريات الأوروبية) وكانت هذه الصدارية تشد بإحكام بشريط حريري، وتغطي الصدر حتى حزام الخصر. وإضافة إلى تدعيم الجسم، فإن الصدارية تعمل على الحد من نمو الثديين، وتظل الفتاة محتفظة بهذه المشدات حتى ليلة عرسها، حيث يقوم العريس بنزعها

(بالقاما). ولم تترد الشابات الملابس الأكثر تواضعا إلا بعد الزواج، عندما يبدأن تغطية الرأس بقماش من الكتان الأبيض، الذي يزم تحت الذقن. (٣٣)

نستنتج مما تقدم من اوصاف للزي القومي للمرأة الشركسية بأنه يتكون من (تسعة) قطع، وهي على النحو التالي:

١- (البأة) وهو لباس الرأس الخاص بزي المرأة الشركسية مصنوعة من القماش المخمل المطرز بخيوط فضية أو ذهبية ولها عدة احجام وأشكال فمنها المرتفع قليلا ومنها المنخفض. واما العرائس والفتيات فكن يلبس على رؤوسهن قبعات وعلى حافتها شرشوبة من الفراء الثمين، والعروس كانت تحتفظ بالقبعة حتى الولادة الاولى وعمرها (والد زوجها) هو الشخص الذي كان يحق له ان يرفعها عن رأسها وعليه ان يجزل العطاء لوليدها ويقدم إليه خير ما عنده من الماشية والخيل وغيرها حسب العادات والاعراف الشركسية.

وتستعيز العرائس عن القبعة بمنديل من الحرير، والنساء المتقدمات في السن كن يغطين رؤوسهن بمنديل ابيض مصنوع من القطن أو الحرير.

٢- (آلا - ش - Ala - sha) يشبه الاشارب او المنديل الذي ترتديه النساء المسلمات ومصنوع من أي نوع من القماش الشفاف الخفيف أو من الحرير ذي اللون الأبيض ويوضع فوق (البأة) او غطاء الرأس ويتدلى إلى الخلف وإلى مستوى اسفل الركبتين كما يغطي الكتفين.

٣- (جانا) وهي الصدرية القصيرة وتصل إلى مستوى خصر المرأة ومصنوعة من القماش الاسود السميك نسبيا وتغلق من الامام بقطع قماشية عرضية مطرزة بالذهب أو الفضة، ولها رقبة عالية مغلقة بالكامل وليس لها أكمام (وتشبه شكلا درع المحاربين القدامى) ويمكن ان يكون لونها غير الاسود، وإن كان الاسود هو اللون الرسمي لزي المرأة الشركسية.

٤- (بيربخ) (Berebx) وهو عبارة عن (زنار) حزام ذا تصميم خاص مصنوع من رقائق المعدن المرصع بالفضة أو الذهب عريض الشكل عند التشبيك من الامام وأكثر عرضا في الاجزاء الاخرى من الزنار.

٥- (تساي اوتسي Tesev) ويشبه (الكاب) او الجلابية النسائية الطويلة (التي تغطي الكعبين، اسود اللون، مصنوع من القماش المخمل أو القماش القطني السميك مطرز طوليا بخيوط فضية ابتداء من مستوى (الخصر) وحتى اسفل (الكاب) وبمعدل من (٣-٤) خيوط طولية من الامام. مغلقة من مستوى (الزنار) وحتى نهايتها بمشابك نحاسية (ازرار) أو (Zeb) سحاب، وأما الجزء العلوي الامامي فوق الحزام فيكون مفتوحا، لإبراز جمال الصدرية المطرزة بخيوط الذهب أو الفضة.

٦- الصدرية، وهي عبارة عن مشد مصنوع من الجلد أو القماش ويغطي منطقة صدر الفتاة غير المتزوجة وكانت الصدرية تشد بأحكام بشريط من الحرير، والهدف من لبسها هو ايقاف نمو الثديين على اعتبار ان جمال الفتاة بتناسق جسدها وعدم بروز الثديين وتستخدمها حتى ليلة الزفاف وعلى العريس نزاعها برأس (القاما) دون خدش صدرها.

٧- (غون - جك) وهو السروال (البناطيل) المصنوعة من القماش المخططة (مقلمة) في العادة تكون لها ثنية من أسفل عند مستوى (الكاحل).

٨- (الفاهه - Vaqa) وهو الحذاء النسائي ويصنع على عدة أشكال وأنواع وألوان يكون نعله من الاسفل جلدًا ومن القماش المطرز أو المخمل، كما ان الحذاء يختلف ما بين حذاء برقبة او بدونها، وفي عهد الاقطاعيين بدأت الفتيات الارستقراطيات لبس احذية مصنوعة من الخشب المزركش ذات كعب عالٍ يصل إلى (٧ سم).

٩- الحقيبة اليدوية النسائية، وتصنع من القماش المخمل مطرز عليها خيط من الذهب أو الفضة ذات زخرفة جميلة، وهي مخروطية الشكل، ضيقة من الاعلى وعريضة في القاعدة. قابلة للانطواء طوليا، ولها مقبض قماشي من أعلى.

نماذج من صور المغنيين الشراكسة في الوطن الأم القدامى (فردى وجماعى)



نموذج للغناء الفردى والجماعى الشركسى مع الموسيقى



نموذج من الغناء الجماعى الشركسى بدون مرافقة الموسيقى

نماذج من الصور تمثل فرق الموسيقى الشركسية في الوطن الأم



فرقة موسيقية شركسية من الوطن الأم باستخدام جميع الآلات الموسيقية الشركسية القديمة والحديثة



فرقة غنائية / موسيقية للأطفال الشركسية



فرقة موسيقية شركسية باستخدام أكثر من (طبل)



عازف وعازفة شركسية على آلة القيثار - شكابشينه



عازف على الناي، وآلة القيثار الشركسي

نماذج من الرقص الشركسي القديم والمعاصر في الوطن الأم



رقصة أخرى



رقصة السيوف

АДЫГИ И НАРОДЫ СЕВЕРНОГО КАВКАЗА



Танец «лезгинка»

الرقص "ليزغينكا" وهي رقصة قوقازية / شركسية قديمة



حركة القفز في الهواء نوع من أنواع الحركات المطلوبة للرقص الشركسي السريع



رقصة جماعية من الشباب والشابات مع حمل احد الراقصين عاليا على الاكتاف

نماذج من الملابس الشركسية القديمة للرجال والنساء



نموذج آخر من لباس المرأة الشركسية



نموذج لحياكة (تفصيل) اللباس (القومي) للمرأة الشركسية منذ القدم

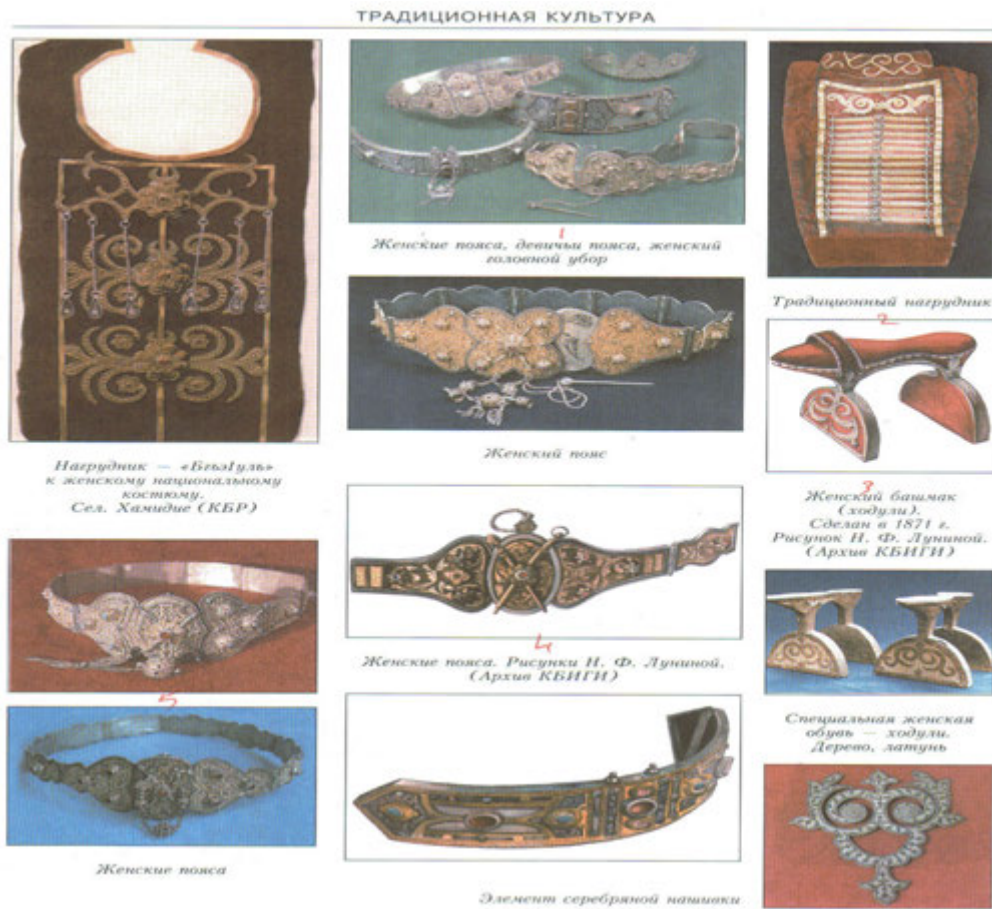


نموذج آخر للباس القومي للرجال مع (الشاكو)



نموذج لحياكة لباس القومي للرجل الشركسي منذ القدم

نماذج من ملحقات اللباس القومي الشركسي للنساء



صورتان تمثلان لباس القومي الشركسي مع (الشاكو)



زيد وحمزة نارت مامسر (باتسج) من الجيل الرابع لشراكسة الأردن في اللباس القومي الشركسي

مراجع ومصادر

- (١) كوبه، شعبان، الفلكلور الشركسي في الأديغة، مجلة الاخاء، الجمعية الخيرية الشركسية/ وادي السير الاردن، العدد (١٢) السنة (٢) حزيران ١٩٧١، ص: ٢.
- 2) Adighe. R, Cherkess cultural life, in Caucasian Review, Munchich, No. 2, 1456. pp. 85-104.
- 3) Jaimoukha, Amjad. The Circassians (a hand book), Cunzon press, England. 2001, pp. 238-239.
- 4) Abrahmou. M. Arseni, Three Songs: song of the staknanovites, 2. Hamid, 3 Cradle Song 1936-1939.
- 5) Keshokov., Alim, Songs of. Thekolkho2, Horse herd, the mother. Street Star. 1955.
- (٦) جموخة، أمجد، مصدر سابق، ص: ٢٣٤-٢٣٥.
- (٧) مجلة الواحة، الجمعية الخيرية الشركسية / عمان العدد (٢٩) شهر ايار ١٩٧٧، ص: ١٥.
- (٨) مجلة البروز، الجمعية الخيرية الشركسية - دمشق العدد (١١) ص ٣١.
- (٩) جموخة، أمجد، مصدر سابق ص: ٢٣٣ - ٢٣٤.
- (١٠) يزيك، باتريك، مصدر سابق ص: ٤٧-٤٨.
- (١١) مامسر، محمد خير، نقلا عن معمر شركسي من شراكسة الاردن - عام ١٩٥٢.
- (١٢) جموخة، أمجد، مصدر سابق، ص: ٢٣٩ - ٢٤٠.
- (١٣) شامي، جانسييت برقوق، الرقص الشركسي، مجلة الواحة، الجمعية الخيرية الشركسية، عمان، ترجمة محمد خير قبرطاي العدد (٤) عام ١٩٨٤، ص ٢٨-٣٠.
- (١٤) جموخة، أمجد، مصدر سابق، ص: ٢٤١-٢٤٢.
- (١٥) حفترزة، محمد، مونيك شامرزا راقصة البالية العالمية، ترجمة محمد خير خواج، مجلة الواحة، الجمعية الخيرية الشركسية - عمان، العدد (٢٧) شهر اذار ١٩٧٧، ص: ١٤-١٦.
- (١٦) مجلة الواحة، الشركسي الذي يزين سيرك باريس، الجمعية الخيرية الشركسية، عمان العدد ٢١ شهر نيسان ١٩٧٧، ص: ١٨.
- (١٧) جموخة، أمجد، مصدر سابق، ص: ٢٣٧.
- 18) Raywozov, S. N, Kabrdinian Songe.
- 19) Giny, Khan, Circassian Musican Song in Carly part of the 19th Century, 1987, pp. 110.
- (٢٠) نغموقة، شورا، مصدر سابق، ص: ٢٣٠.
- 21) Taneyev, Sergei. Musicbook of kubadian and Balkar Songs. 1987.
- (٢٢) جموخة، أمجد، مصدر سابق، ص: ٢٢٤-٢٢٨.
- 23) Kandanov. H, Songs, Nalchik. Elbrus press - 1987.
- (٢٤) جونا توقة، عزت، مصدر سابق، ص ٢٢٩-٢٣٠.

- ٢٥) تراوبنسكوي، - Trabontzkoy - مصدر سابق ١٩٢٥.
- ٢٦) لابينسكي . ت. Lapinski, T. - مكانة المغنين المتجوليين (وردوة) في المجتمعات الشركسية عام ١٨٦٢.
- ٢٧) أوزيك، باتريك، أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة، مصدر سابق، ص: ٨١.
- ٢٨) جموخة، مصدر سابق، ص: ٢٢٦ - ٢٢٩ - ٢٣٠.
- ٢٩) شارل، جان، العالم المجري المختص بدراسة ثقافة الشعوب الذي تجول في بلاد الشراكسة وعاش معهم فترة من الزمن ابتداء من عام ١٨٢٩.
- ٣٠) جوناتوقه مت عزت، تاريخ القوقاز، ص: ٩٧-٩٨.
- ٣١) شارل، جان، ونقل عنه (جوناتوقه) في كتابه تاريخ القوقاز ص: ٦٢-٦٦.
- ٣٢) مجلة الواحة، الجمعية الخيرية الشركسية، عمان، من التراث الشعبي الشركسي، زي المرأة الشركسية، العدد (٢٦) شباط عام ١٩٧٧ ص: ١٢-١٣.
- ٣٣) جموخة، أمجد، مصدر سابق، ص: ١٩٥-١٩٦.
- ٣٤) سميخوغ، برزج، الشركس في فجر التاريخ - مصدر سابق، ص: ١٩٥.
- ٣٥) تسوخونه، حسن، إيرينا حسن تسوخونه، القاموس الشركسي الروسي، الانجليزي، التركي نالتشك عام ١٩٩٨، ص ١٨٨ - ١٨٩.

الفصل الخامس

ابعد الثقافة القومية الشركسية للفروسية والرياضة في حضارة الامة الشركسية

أولاً: بعد الثقافة القومية للفروسية في حضارة الامة الشركسية التراكمية

ان الدارس لتاريخ اجداد الشراكسة يجد بأن اهتمامهم بتربية الخيول، يعود إلى عصور فجر التاريخ، وأن الأساطير الشركسية تتحدث عن الخيل بشكل دائم، ولعل أشهر تلك الخيول هي (حصان نارت سوسرقة) التي تقول الأسطورة بأنه من سلالة (الخيول المجنحة) والتي رافقته عندما سرق النار من الآلهة.

لم يتجرأ أحد أن يهمل دور الخيل والفروسية عند الشراكسة في أدبهم، فجميع الروايات والكتب التاريخية التي كتبت عن الشركس أشادت بالفروسية عندهم، وتعلقهم بالخيول.

وتقول إحدى الروايات القديمة بأن الجد قال لحفيده وهو يعلمه ركوب الخيل:-

"لا تخف يا بني أوقف رجفة قدميك، إذا فهم الجواد أنك خائف لن يقيقك فوقه وابن (القبرداي) الذي لا يستطيع ان يبقى فوق الجواد لا ينفع لشيء، شد على قدميك، التصق برقبة صاحبك، قل كلاماً لطيفاً، لا تظن انها لا تفهم، الجياد تفهم كل ما تقوله بلغتنا، لأن الخيل تتحدث بالشركسية هيا.. هيا.. أحسنت.. أولادنا يتعلمون ركوب الخيل قبل تعلم المشي، شعبنا أت من نسل الخيل".^(١)

كما تؤكد الدراسات بأن الخيل بالنسبة للشركس لم تكن مجرد وسيلة تسلية ورياضة ولا الرفيق المخلص عبر التاريخ فقط، وحسب ولا هي مجرد مصدر فخر واعتزاز لهم وحسب، بل إنها جزء من روح الامة الشركسية^(٢).

ويقول ر. ف. ايركيرت (١٨٨٧) يرجع اهتمام الشراكسة بالخيول إلى عصور قديمة جداً، حيث كان الحصان الرفيق الصبور والوفي والأمين والحامي بالنسبة للفارس الشركسي، وهو فخره الأكبر، وصديقه الأفضل، ويقدم له كل شيء حتى آخر أنفاسه، ويهرب به ساعة الخطر فيمنحه الفارس الحب والعناية اللذين يستشعرهما الحصان مما يجعله يقدم كل منفعة يطلبها منه فارسه^(٣).

ومن اساطير النارتيين بأنهم كانوا (يحملون) بامتلاك خيل (عجيب) يتصف بقدرات عقلية وجسدية خرافية كالقدرة على الطيران والكلام، واختلقوا خيولاً مثل (تخوجية) وهو الحصان والصديق المخلص، والمستشار للنارت (سوسروقة) وحصان (دلدل) لـ (بتراز) و (بسيغوالا) لـ (أشاماز) و (جميدة) لـ (شاويه) وغيرهم. أما (جامانشريك) لـ (أندمركان) فقد يكون حيث كان حصاناً حقيقياً، ونلاحظ أنه كان يتميز بصفات الحصان القتالي الرائع، ويقال أنه كان من الجيل الأول لفصيلة حصان (شولوخ) المشهورة. وكان الكثيرون من الأبطال الشراكسة يمتلكون خيلاً من فصيلة (شولوخ) غير ان (جامانشريك) ذاع صيته أكثر من غيره، وتقول الاسطورة أيضاً إن (أندمركان) ربما ما كان قد مات (عند وقوعه في فخ العدو) لو كان راكباً حصانه (جاما نشريك) المخلص جداً له.^(١)

كما تشير الروايات الشركسية القديمة بأن الاحتفالات الشركسية تضمنت ألعاباً ومسابقات (سانه خوافا، تحشخوه غوحيج، فاكوه يحيج، غوليجو، جكواكو خاسا وغيرها) إلى جانب العديد من الألعاب والمسابقات الرياضية التقليدية أشهرها شورا بسرة أي (الفارس والراجل) وشيغاجه أي (سباق الخيل) وشيغاجيغو أي (العاب الفروسية) وشيغافا أي (رقص الخيل) ونيشان أي (إصابة الهدف) وقوبيلج تشاريشا أي (ربط الجنب المدخن بالعارضة) وزبان أي (مصارعة) الخ. أما جوائز الفرسان التي كان يتنافس عليها فهي المشغولات اليدوية من صنع أمهر الفتيان (كحبال حريرية مجدولة، وقرابات المسدسات) مصنوعة من (السختيان) واكياس تبغ مطرزة بخيوط ذهبية والقلانيس والمناديل وغيرها من الجوائز الرمزية.

وما زال الشراكسة يحبون الخيل، وهم يفرقون بين نوعين: فرس الركوب (خاقوا)، والخيول العادية أي خيول الجر والحمل (شي). وهناك تقليد قديم معروف بين الشركس يقضي بتربية حصان الركوب في قبو تحت الأرض لا تتفد إليه أشعة الشمس ولا الضوء، وحسب ذلك التقليد فإن مثل هذا الحصان لن يصبح حصان ركوب فقط بل أفضل حصان يمكن التفكير فيه على الإطلاق. إن التفريق بين حصان الركوب و خيل الجر والحمل ليس تفريقاً نظرياً فقط، بل يتعدى ذلك إلى الجانب العملي، فمن المعروف مثلاً حتى بين الشراكسة في العالم حتى اليوم بأن ال (خاقوا) (حصان الركوب) يجب عدم امتطائه في الفترة ما بين الربيع وآخر الصيف، ويقولون أيضاً بأن امتطاء تلك الخيول مقصور على فترة الشتاء حيث أنها تتغذى في الشتاء على العلف الجاف. وعندما يبدأ ال (خاقوا) يرعى العشب الأخضر يتوقفون عن ركوبه لأن من معتقداتهم بأن ركوب الخيل (الخاقوا) خلال فصل الربيع يؤثر على قدرتها وتميزها في المستقبل^(٤).

وربما كان (بخول) من الباحثين المختصين في التراث الشركسي من شراكسة الأردن أكثر الباحثين دقة في وصفه للتراث المتراكم عند الشراكسة عن الخيل بقوله: "كانوا يحبون الخيل ويحسبون أنها من مكمالات حياتهم" كما هو مبين في الصورة المرفقة.

كما عدد لنا المظاهر التي تدل على مدى اهتمام الشراكسة بالخيول أهمها:

- النظر للحصان الجيد كاللباس الجيد، والصديق المخلص والحصان الجيد قرة عين الفارس التي تعكس شخصيته.
- اهتم معظم الشراكسة بالخيول وعايروا كل من لا يستطيع تربية وتدريب حصانه.
- حرص الشراكسة منذ عصر الاجداد على تربية الحصان الجيد والعمل على الاكثار منه للحفاظ على نسله.

اهتم الشراكسة منذ القدم مثلهم الشعوب الأخرى التي تهتم بتربية الخيول بكل ما يتعلق بنسل الخيول ودورة حياتها، والتكوين التشريحي للحصان القوي والحصان الضعيف وغيرها من القضايا العلمية الأساسية التي تتعلق بتربية الخيول.

ومن الجدير ذكره بأن الباحث العالمي المشهور (أيلوني هارتي ادوراس) بحث في مثل القضايا التي كان الشراكسة من عصر الاجداد يهتمون بها ويحاولون وضع الحلول لانتاج نسل قوي للخيول الأصلية، ووضع العالم (ادوراس) نتائج أبحاثه في كتابه "الاحصنة" وترجمة ساوزتيون، ونشرته مكتبة مدبولي في القاهرة عام ٢٠٠٦.

* أهم طرق تربية وترويض الخيول:

كان للشراكسة طريقتهم الخاصة في تربية وترويض الخيول وكان أهم هذه الطرق تتمثل في الاعتبار التالية:

- السماح للمهر بالرضاعة لمدة حول كامل، وفي عمر السنتين يتم فصل الذكور عن الاناث.
- في عمر اربع سنوات يتم اختيار الخيول الذكور التي سيتم اعدادها (كفحول) وفصلها عن باقي الخيول، واستخدامها للاكثار وتحسين نسل الخيل.
- اعداد خيول الركوب بعد (خصيها) والبدا بترويضها على التحمل والركض لمسافات طويلة، وقطع الانهار والمياه العميقة، والركض في الأراضي الوعرة والغابات والأراضي المحروثة. وكانوا لا يركبون الخيول حتى يصبح عمرها سبع سنوات. كما كانوا لا يحبذون ركوب الاناث من الخيل^(٥).

منشأ الخيول وأنواعها عند الشركاسة:

بالنسبة لمنشأ الخيول وأنواعها، يؤكد البرفسور (فرانز هانز) بأن منشأ الخيل في البداية لم يكن في وسط آسيا كما كان يُعتقد، وإنما كان منشأها في المنطقة التي تضم حضارات شمال القفقاس، وحضارة ما بين النهرين.

كما اكتشف (هانز) ما يقرب (٢٨) نوعاً (فصيلة) للخيول، يعود تاريخها للفترة ما بين (٢٠٠٠-٣٠٠٠) ق.م. وشُبهت هذه الخيول بأنها تنتمي إلى نوع (بريفالسكي) وعلى الأرجح أنها كانت في ذلك الوقت حيوانات صيد يؤكل لحمها، وفي العصر البرونزي ما بين (٦٠٠-١٠٠٠ ق.م) بدأ امتطاء الخيل واستعماله كوسيلة للتنقل في قفقاسيا.

وأكد (هانز) بأن عربات الخيل الحربية ظهرت قبل الميلاد بألفي سنة وانتقلت بعدها بأربع مئة سنة إلى مصر وبابل.^(٦)

وأما حول أسماء الخيول الشركسية (القوقازية) واسمائها فإن (يخول) يذكر لنا اثنين وعشرين نوعاً من الخيول الشركسية، كما يجدد لنا عشرة أسماء لخيول شركسية قوقازية اكتسبت شهرة عالمية:

وفيما يلي أهم أنواع الخيول واسمائها كما وردت في التراث الشركسي:

النوع الأول: أبقو:

وهو قوي، كثير التحمل، سريع، وكان يستعمل للركوب للمسافات البعيدة، وقد ورد ذكره في قصيدة الشاعر الشركسي الشهير (توتج تسه كؤ) الذي يصف فيها طبقة (البشه) وعساكرهم من (الورق) بالقول: (لا عمل لهم سوى قطع الطرق) وكذلك: (لست بحاجة إلا إلى أبقو).

النوع الثاني: ألاشا:

وهو حصان قوي، كان يستعمل للجر والركوب أيضاً. ومن الامثال الشركسية التي ورد فيها: (الا أشا يسرع اذا ضربته بعكس الحمار).

النوع الثالث: ألب:

وهو نوع من الخيول ورد ذكره كثيراً في الاساطير والحكايات التراثية الشركسية، ويوصف بالقوة والتحمل، وتحكي الاساطير أنه كان يقفز عن الانهار، والجبال وفي بعض الاساطير يذكر أنه كان حصاناً مجنحاً (مجنح)؟؟

النوع الرابع: برول:

وهو قصير الرقبة، قوي جداً، ورد ذكره في كثير من الأساطير والحكايات ويقال في الامثال الشركسية: (قوة البرول تعادل قوة سبعة جيا).

النوع الخامس: دول - دول:

وقد ورد ذكره في كثير من الاساطير، ويمتاز بالقوة والذكاء والسرعة، وجاء في قصيدة النار (بترز) بيت يقول: (ما إن هم بمناولة سيفه، حتى اقترب "الدول دول" الذكي من الفارس).

النوع السادس: يملتش:

وهو غير أليف لم يستعمل قط للركوب أو الجر، ولم يروض وجاء في قصيدة الأديب الشركسي (مشباش اسحق) بقوله: انتصب ال (يملتش) على رجليه الخفيتين وسقط الرجل مثل كيس محشو.

النوع السابع: ييسانى:

وهو عال، ذو قوائم طويلة، جميل المظهر، يمشي على أطراف حوافره، وكان يستعمل للركوب في الحروب، وجاء اسمه في الأشعار الفلوكورية: منها (أخرجت اليسانى الذي لم تقلم حوافره بعد، من الحظيرة).

النوع الثامن: بشه غوالا:

أبيض اللون، ضارب إلى الصفرة قليلا، وكان الشراكسة يتطيرون من امتطائه وجاء ذكره في الاغانى الفلوكورية مثل: "وصل ممتطيا ال (بكته - بشه غوالا).

النوع التاسع: فارا:

هو من أكثر الخيول الشركسية شهرة في التراث الشركسي، ورد ذكره في كثير من الاساطير والحكايات، وكان يستعمل للركوب وجاء ذكره في الامثال الشركسية: بقولهم "حتى من لم تلدها (الفارا)، ليست سوى فرس هزيلة".

النوع العاشر: تشه مد:

من الخيول التي ورد ذكرها كثيرا في الاساطير النارتية الشركسية، وهي من الخيول التي تتحمل كثيرا، وإن كان مظهرها لا يوحي بفعاليتها.

النوع الحادي عشر: كاكئوه أو وخاكؤه:

وهو حصان، ضخمة، جميل المظهر، من سلالة معروفة، يستعمل للاكثار وتحسين النسل، وجاء في الامثال الشركسية: "الخيول الجيدة هي التي من نسل ال (كاكئوه) الجيدة.

النوع الثاني عشر: شه قاره:

وهو مائل للسواد، وكان الشراكسة يحبذون استعماله للركوب، وورد ذكره في قصيدة للشاعر (برنقوه مراد) "جوادان من نوع (شه قاره) يعرض الواحد منهما الآخر، ويقضمان اللجام".

النوع الثالث عشر: شه تخوه:

وهو حصان ابيض، مائل للصفرة، ولم يكن الشراكسة يحبذون ركوبه، وذكر في التراث في معرض وصف جيش من جيوش القوزاق. "كانت معظم خيول الجيش من ال (شه تخوه) المقصودة أعرافها وأذيالها".

النوع الرابع عشر: شوشه:

كان يستعمل في الحروب، وفي الأسفار الطويلة، فهو كثير التحمل، ولم يكن يستعمل لجر العربات مطلقا. ويرد اسمه في معظم القصص والاساطير الشركسية، وهو لا ينفرد بلون محدد او نوع محدد من الخيول، ويدل اسمه عليه، فهو مكون من مقطعين (شو) اي فارس، (شه) اي جواد، ويعني الجواد الذي له منزلة مميزة عند الفارس، وما يبين انه مميز، اقترانه بالفارس والفقرة التراثية التالية تبين اهمية مثل هذا النوع من الجياد عند الشراكسة:

"لقد قتلت ابني الوحيد الذي كنت اعتبره بمثابة (شوشه) فعليك ان تفتديه بـ (شوشه) (أي انه يساويه بابنه)!!

النوع الخامس عشر: شه عدي:

هذا النوع لا يصلح للمسافات الطويلة فهو نحيل الجسم، ومنظره جميل، ويتميز بقوته في المسافات القصيرة، ولكنه يتعب بسرعة.

وجاء في قصيدة للشاعر والكاتب (مشباش اسحق) بقوله: "فقدوا السيطرة على خيولهم (الشه غدي) فأخذت تتدافع بصدورها".

النوع السادس عشر: شجي:

لونه احمر مائل إلى الصفرة، وذنبه وعرفه اسودان، وقد ورد ذكره في الأساطير النارتية والحكايات التراثية مثل: "تكون اول من يصل ال (شجي) الجميل يا نارت (أبشاس)".

النوع السابع عشر: مزش: ومعناه خيول الغابة:

يطلق على الخيول البرية غير الاليفة، ويكون عادة أصغر حجما من الخيول الاليفة.

النوع الثامن عشر: شوح/ شه

وهو يطلق على الخيول المخصصة لجر العربات.

النوع التاسع عشر: قغاتشه شه أو قفاجه - بشه

ويطلق على الحصان او الفرس المعد للسباقات، وجاء ذكره في التراث الشركسي:

"يمتطي الحصان الاسود الطويل، وإذا ارخى له العنان، يبدو وكأنه سيطير في الهواء".

النوع العشرون: شه كئه:

وهو مهر، حديث الولادة، وقد ورد في الامثال الشركسية بمعنى:

"يجهز سرجا للمهر، وهو ما يزال في بطن امه!!"

النوع الحادي والعشرون: قونان شه:

ويطلق على المهر من عمر سنتين إلى ثلاث سنوات، وجاء في الاغاني الفلكلورية: بمعنى "فرسي في المقدمة (وقوناني) في المؤخرة".

النوع الثاني والعشرون: حلة زيشه شه:

حصان قوي جدا وكان يستعمل لجر الاحمال الثقيلة، وباستطاعة الواحد منها، جر (٥٠ بودا)* ، أي انه يجر حوالي ٨٠٠ كغم.

وفيما يلي نماذج من صور لألوان بعض أنواع الخيول الشركسية في القفقاس التي اشتهرت عبر العصور.

الأسماء المشهورة للخيول عند الشركاسة

عرف الشركاسة بالإضافة إلى الأنواع سابقة الذكر خيولاً بأسماء عديدة، وان أكثر الخيول شهرة كانت تسمى أحد الاسماء التالية: أثشت، بتش قان، جن جف، يغن، قونديت، ترام، ونش، جمان شارق، شاوه تلخو، شجرقو، شيراشت، بتسه غوبل، شيبكو، تخوبل، قب فه. (٧)

تقسيم الخيول الشركسية بحسب ألوانها:

قسم الشركاسة الخيول إلى ثمانية أنواع بحسب الألوان المبينة في الصور المرفقة.

* البودا وحدة كيل قديمة تعادل (١٦) كغم (٥٠ بودا × ١٦ كغم) = ٨٠٠ كغم.



نموذج للحصان السكني اللون



نموذج للحصان ذي اللون الكستنائي الغامق



نموذج للحصان ذي اللون الرماد



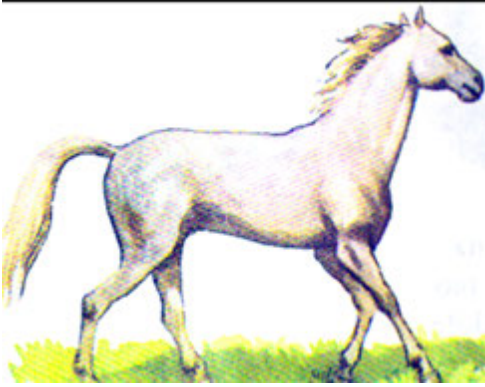
نموذج للحصان ذي اللون الأبيض في رأسه



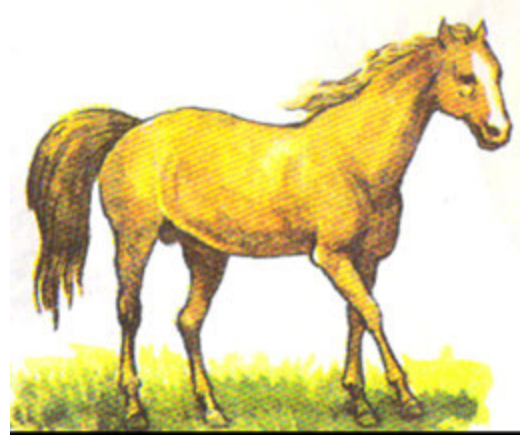
نموذج للحصان ذي اللون الكستنائي الخفيف



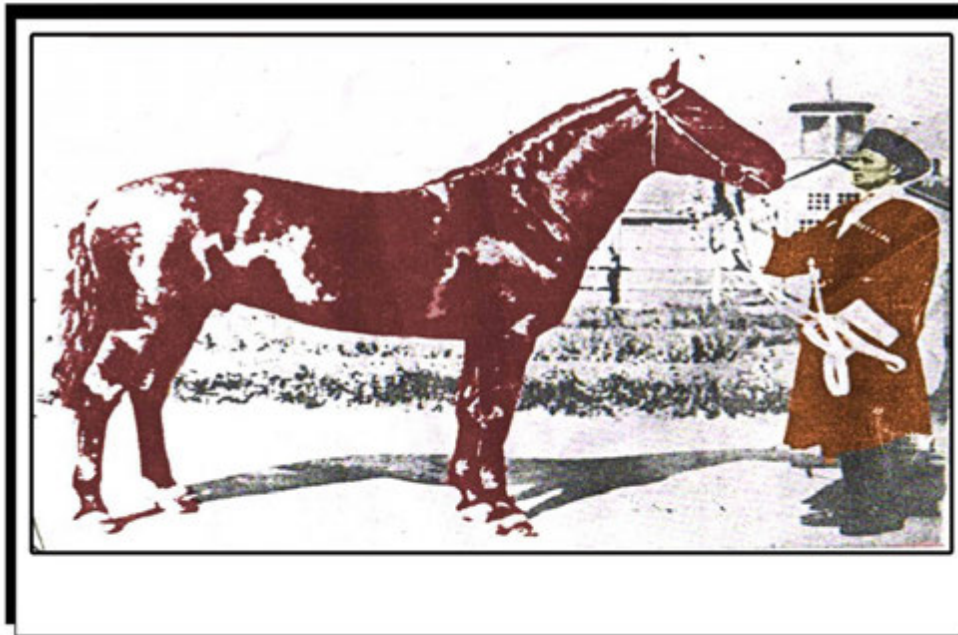
نموذج للحصان ذي اللون الأحمر



نموذج للحصان ذي اللون السكني الفاتح



نموذج للحصان ذي اللون الأحمر الخفيف



حصان كباردا ذو الشهرة العالمية

مجالات استخدام الخيل منذ عصر الاجداد

الفروسية عند الشركاسة قديمة قدم قوم (النارتيين) الذين عاشوا في عصور ما قبل فجر التاريخ وفي الازمنة ما قبل الميلاد.

واهتم الشركاسة منذ عهد الاجداد بتربية الخيول لاستخدامها في اكثر من مجال ولأكثر من غاية، ومن أهم مجالات استخدام الخيل لدى الشركاسة كان على النحو التالي:

- * التنقل والترحال والسفر.
- * الجر والتحميل والنقل.
- * الصيد ومطاردة الفرائس والرعي.
- * القتال والاعمال الحربية.
- * ألعاب الفروسية ومسابقاتها.
- * المناسبات الاجتماعية.
- * السباق والمنافسات.
- * العروض بعد تدريبها وترويضها.
- * التجارة والاستثمار.

وفيما يلي تحليل مجالات كل استخدام من الاستخدامات الثمانية سابقة الذكر وهي:

* استخدام الخيول للركوب في التنقل والترحال والسفر

يقول (هانز) بدأ امتطاء الخيل في قفقاسيا منذ العصر البرونزي وفي الفترة ما بين ٦٠٠-١٠٠٠ ق.م حيث استخدم الخيل في الانتقال من القرى إلى المراعي وإلى أماكن الزراعة، كما استخدم في تنقلاته من قرية لأخرى وفي ترحاله وأسفاره البعيدة حيث كانت الخيول هي الوسيلة الرئيسية في التنقلات منذ عصر الاجداد^(٩).

وكان أثر الخيول التي استخدمها الشركاسة للركوب هي:

- حصان الفاراء، وهو من الخيول المشهورة في التراث الشركسي.
- حصان القاره، ورد ذكره في قصائد شعرية مشهورة.
- حصان (الأشا) ورد ذكره في الامثال الشركسية بمعنى "الأشا، يسرع اذا ضربته، بعكس الحمار".

* استخدام الخيول للجر والنقل والتحميل:

كان اول استخدام للخيول في جر العربات الحربية من قبل (الحثيين) في الالفية الثانية قبل الميلاد، والشركاسة اخذوا عنهم هذا النوع من الاستخدام.

ومن الخيول التي استخدمت للجر والنقل كانت من نوع:

- (شوج - شه) أو شكوشه وهو مخصص لجر العربات.
- حله - زشه - شه وهو مخصص لجر الاشياء الثقيلة تصل إلى ٨٠٠ كغم تقريبا.

* استخدام الخيول في الاعمال الحربية والقتال:

ومن اهم الخيول التي استخدمها الشركاسة للاعمال القتالية هي:

- حصان (بيساني) وهو ذو قوائم عالية، وجاء ذكره في الاشعار الفلكلورية بمعنى "اخرجت البيساني الذي لم تقلم حوافره بعد من الحظيرة".
- حصان (ابقو) الذي كان يستخدمه عساكر الامراء (البشه) من الشركاسة في حروبهم وفي غزواتهم التي تحتاج قطع الطرق لمسافات بعيدة.
- حصان (شه نخوه) وكان يستخدمه القوزاق في معظم جيوشهم بعد قص أعرافه وذيله.

* استخدام الخيول في الصيد والمطاردة والرعي:

لقد كان الشركاسة يدرّبون الخيول لاستخدامها في رحلات الصيد الطويلة عامة، وفي الصيد في السهول أو على المرتفعات الجبلية خاصة، كما استخدموا في مطاردة الحيوانات البرية مثل الغزلان، والأيل، والأرانب، بالإضافة إلى صيد الحيوانات المفترسة ذات الفراء الثمين مثل الدبب والنمور .. الخ، هذا بالإضافة لاستخدامها في رعي قطعان الخيول والبقر والماشية على اختلاف أنواعها.

* استخدام الخيول في ألعاب الفروسية ومسابقاتها:

إن الدارس لتاريخ استخدام أجداد الشركاسة للخيول، يجد بأنه تطور من استخدامها للتنقل والنقل والصيد والاستخدامات العسكرية والقتالية في زمن الحروب، لاستخدامها في زمن السلم في ألعابهم ومسابقاتهم ومنافساتهم، وكذلك فإن الدارس لألعاب الفروسية لدى الشركاسة التي نشأت في عصر الأجداد قبل أكثر من ألفي سنة، يجد بأنها تنوعت وتعددت.

ويقول في ذلك (جموخة): "المنافسات بين الفرسان الشركاسة كانت بين الأبطال، يعرضون فيها مهاراتهم في ركوب الخيل. حيث كانوا يمتطون خيولهم بجميع الأشكال والمواقع، العامودية منها والتعلق بجانب الحصان، كما كانوا يقومون بمناورات وعرض مهارات وحركات خطيرة يلتقطون فيها السياط من على الأرض، ويصيبون البيض الملقى على الأرض والحصان بأقصى سرعة له، وكان هناك نوع خاص من مهارات ركوب الخيل، يسمى "شورا - كسير" (وتعني حرفياً: الامتطاء والترجل)، حيث يقفز فيه الفارس، وهو بأقصى سرعة، عن ظهر حصانه، ويعود إلى وضعه الاعتيادي (١٠).

وأما الرحالة (جيم بل) فيصف لنا مهارة الشركاسة في فنون ألعاب الفروسية بقوله:

"... وفي الطريق خرج لاستقبالنا أحد الزعماء مرتدياً درعاً من الزرد، وكان مظهره عسكرياً تماماً، وسبقه مرافقوه للقائنا والحفاوة بنا، ثم ما لبث أن انضم إلينا شاب كنت قد لاحظته سابقاً، حيث كان مميزاً عن الآخرين ببنيتة القوية وحيويته، فقام هذا الشاب باستعراض مهارته أمامنا من فن قيادة الخيول، وشهر السلاح في كافة حالات الركوب، ورفع (مغلاق) غطاء السلاح وإطلاق النار على قبعة ملقاة على الأرض، والقفز من وإلى ظهر الحصان، وفي نفس الوقت تجهيز السلاح والتصويب على هدف في الأمام أو خطف السيف من غمده والحصان في أقصى سرعة له.. الخ (١١).

وفيما يلي أهم ألعاب الفروسية عند الشركاسة

يقول (جوناتوقة): "كانوا مولعين بركوب الخيل وتربيتها، ولم يكن أحد منهم يعجز عن الركوب والقفز عن ظهر حصانه أو اختطاف خاتم أو قطع النقود عن الأرض في حالة الجري السريع، كما أنهم كانوا يظهرون مهارة فائقة في تسديد المرمى وإصابة الأهداف بالاقواس ورمي الرماح الطويلة من على ظهر الخيول.

وفي الأعياد القومية كان الشبان يقيمون حفلات سباق الخيل كما كانوا مولعين بألعاب والفروسية وهم على ظهور الخيل.

وكان من أكثر أحب الألعاب إليهم:

اللعبة التي يشترك فيها الخيالة والمشاة وهي لعبة يصطفون فيها ويشكلون دائرة وهم مسلحون بالعصي الطويلة والسياط، ويحاول الخيالة المهاجمة لاختراق حلقتهم والوصول داخل دائرتها.

كما يصف لنا (فيل) لعبة من ألعاب الفروسية الجماعية كان يمارسها الشركاسة في وقت السلم بقوله: "بعد الطعام بدأ الرقص من جديد، وكان الطعام قد جدد قوى الموجودين على ما يبدو، وأخذ الرقص طابعاً أكثر مهارة وحماسة مما كان عليه قبل الغداء، واندمجت الفتيات بالرجال،

وشارك الجميع بالرقص، مشكلين صفا طويلا، ممسكين بأيدي بعضهم البعض، وهم يقومون بالحركات الراقصة، ويغنون بانسجام مع الموسيقى. وقاموا بحركات معقدة بالغة الصعوبة، وبدأت لعبة جديدة. فقد قام بعض الرجال بامتطاء الخيول، غير بعيدين عنا وركضوا بخيولهم باتجاه صف الراقصين، يريدون اختراقه ولكن الراقصين دافعوا عن صفهم، وكان الأكثرية مسلحين بهروات واجهوا بها الفرسان المهاجمين بضربات على رؤوس الخيل. وهكذا أعاقوا اختراق الصف، وترافق هذا مع ضجة تفوق الوصف، وازدادت الضجة أكثر مع انطلاق النار الكثيف الذي كان متوقفا في فترة الغداء، فقفزت الخيول على قوائمها الخلفية، ثم عاود الفرسان هجومهم بغضب غير عادي، وفي النهاية اختلعت ضجتهم بالصياح والاضطراب العام^(١٢).

وبالبحث عن أهم ألعاب الفروسية التي مارسها الشركاسة منذ عصر الاجداد حتى القرن العشرين نجد بأنها تتلخص في الألعاب التالية:

* لعبة صراع الخيول:

وكانت مباريات صراع الخيول تقام لإظهار القوة الكامنة لدى الفرسان أولا ولقوة الجياد المطهمة ثانيا. فقد التقى متنافسان وجها لوجه، وحاول كل منهما إزاحة الآخر عن مكانه عن طريق الدفع بصدر حصانه.

* لعبة الرجوع للأصل:

وفيها يقوم فارس وشخص آخر مترجل محاولة طرح الواحد منهما للآخر على الأرض. ومن الخيول التي كانت تستخدم في مثل هذه الرياضة هو نوع اسمه (شه غدي) ورد في قصيدة للشاعر (مشباش) بقوله: "فقدوا السيطرة على خيولهم (الشه غدي) فأخذت تتدافع بصدورها".

* مسابقة قطع الأنهار العميقة من على ظهر الحصان:

ظلت هذه المسابقات تمارس حتى أواسط القرن التاسع عشر، وتسمى مسابقة قطع الأنهار، وهي من رياضات الفروسية الصيفية، وكان من قواعد هذه المسابقة حفظ الملابس والخنجر والمسدس في كيس من الجلد محكم الإغلاق، ويثبت على ظهر المتنافس. وتبدأ المسابقة بقفز المتسابقين إلى النهر العميق وهم على ظهر الحصان، ويكون الفائز من يصل للضفة الأخرى من النهر أولا.

وفي عام ١٨٣٨، جرت مسابقة كبيرة في "قلعة باخسان"، شارك فيها مائة وستة وأربعون متسابقا، من ضمنهم سبعة من القوزاق، وفاز في ذلك السباق للبالغين (نورس قانقويش) ابن الأربعين سنة^(١٣).

* لعبة الجنود المشاة والفرسان.



Т. Горшеть. Джигиты
Иллюстрация из кн. «Жизнь в России. Т. 9. Кавказ».
(СПб. — М., 1883)

كانت هذه اللعبة الحربية شائعة جدا عند الشركاسة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وفيها تقف مجموعة من جنود المشاة، يحملون هراوات وسيطا طويلة في دائرة، بينما تقوم مجموعة الفرسان بمحاولة اختراق هذه الدائرة، وفتح ثغرة فيها، وهي لعبة تتطلب الشجاعة والتكنيك الفني. وعلى الرغم من اندفاع الخيول بقوة فلم تقع إصابات خطيرة. وعادة ما كانت ترافق هذه اللعبة شعائر احتفالية أخرى مثل الغناء والانشيد الحماسية، كما تبدأ بعد انتهاء مجموعة من رقصات الجماعية مثل (الويج)^(١٤).

لعبة من ألعاب الفروسية الجماعية القديمة

* الألعاب الاستعراضية:

اشتهر الشركاسة منذ عصر الاجداد وحتى عصرنا الحاضر بألعاب الفروسية (البهلوانية) الاستعراضية ومن هذه الألعاب:

* تشكيل اهرامات فوق ظهور الخيول:

وفيها يسير من (٥-٦) فرسان ممتطين الخيل بجوار بعضهم البعض. ثم يقوم (٥-٦) فرسان آخرين مترجلين بالقفز على ظهر الخيل والصعود إلى أكتاف الخيالة، ثم يقوم ثلاثة فرسان آخرين بالقفز إلى إكتاف المجموعة الاولى من الفرسان، ومن ثم يتبعهم فرسان بالقفز والتسلق للوصول إلى أكتاف الخيالة الثلاثة السابقين لهما، وأخيرا يقفز الفارس الأخير ويتسلق المجموعات السابقة حتى يصل إلى أكتاف آخر فارسين، ويقف فوقهما، ويرفع العلم الشركسي. وكان يتم تنفيذ وتتم مثل هذه الحركات، والخيول تجري في سرعة متوسطة.

* لعبة إصابة الهدف من أوضاع مختلفة :

في هذه اللعبة، يبدأ الفارس بالجري على قدميه والقفز إلى ظهر الحصان وهو في حالة جري القصوى، وفي نفس الوقت يقوم بتعمير سلاحه والتسديد نحو (بيضة) موضوعة على الأرض، وفي الحركة الثانية يقوم بالهبوط إلى الأرض والحصان في أقصى سرعة له، ثم القفز ثانية إلى السرج والتسديد على هدف ثان أمامه.

وفي الحركة الأخيرة يقوم بالانزلاق من أسفل الحصان (دون أن يلامس أرجل الحصان) والعودة لظهر الحصان من الجهة الأخرى، والتسديد على هدف ثالث، وهكذا، تتم كل هذه الحركات والحصان في أقصى سرعته.

* ألعاب المناسبات الاجتماعية:

استخدمت الخيول في المناسبات الاجتماعية عامة وفي الأعراس خاصة، حيث كان يتجمع العشرات من الفرسان أمام منزل العروس في يوم (الونيشة) وهو اليوم الأخير لاحتفالات الزواج والتنافس في خطف (الدبابة) من إحدى الفتيات والانطلاق بها خارج المنزل بأقصى سرعة، بينما على الفرسان الآخرين للحاق به ومحاولة اختطاف (الدبابة) والفارس الذي يفوز (بالدبابة) يعود إلى مكان العرس ويهديها (للقتن) أي الخطيبة، اثباتا لبطولته وتقوّه على إقرانه وما زالت هذه العادة مطبقة في القرى في الوطن الأم كما أنها كانت مطبقة في بلاد المهجر حتى السنوات الأخيرة، خاصة في مجتمع التجمعات القروية الشركسية في كل من تركيا والأردن وسوريا.

* مسابقات الخيول:

كان استخدام الخيول الشركسية في مسابقات الخيول هو من أشيع الاستخدامات، حيث إن الخيول الشركسية عامة والقبردينية خاصة مشهورة في مقدرتها على تحمل الجري لمسافات الطويلة، كما انها متميزة في سباقات التحمل.

والزائر لنادي الفروسية في جمهورية كبادردنيا - بلقاريا - يشاهد عشرات بل مئات الكؤوس والميداليات التي فازت بها الخيول الشركسية (القبردينية) في مسابقات روسية وأوروبية وأولمبية، وهناك قول شركسي مشهور خلاصته بأن كل زائر لجمهورية (كابردينا بلقاريا) يعتبر وكأنه لم يزرها إذا لم يمر (بمالقا) ليلقي نظرة على جياها والميداليات والكؤوس التي حصلت عليها، وهي معلقة في نادي الفروسية هناك.

وكذلك فإن أغنية شركسية قديمة تقول:

"بالذهب يمكن ان يتزوج المرء اربع نساء.

لكن (الحصان) الجواد لا ثمن له.

فهو يسابق الريح في السهوب."

ومن أشهر أنواع الخيول المخصصة بالسباقات القصيرة لدى الشراكسة في الوطن الأم هو حصان (شاغوي) لسباقات المسافات المتوسطة وحصان من نوع (قغاشة شة) لمسافات طويلة وحصان آخر نوع (شه مد)، وكذلك حصان (الألب) الذي ورد ذكره في أساطير النارتيين حيث كان يقفز عن الأنهار والجبال.

* الاستخدام الأخير للخيول هي ألعاب التدريب والترويض للخيول:

جرت العادة أن لا يعتبر الفارس الشركسي فارساً ما لم يتعلم جواده بعض الاصطلاحات التي بها ينأى أو يستيقظ أو يسير بخفة وحذر، وكذلك كان الفرسان يعلمون الجواد أن لا يجفل من صوت إطلاق النار، وأن يحرس صاحبه إذا نام وأن يوقظه إذا أحس بحركة، وأن ينقض على أي إنسان أو حيوان يهاجم صاحبه، وأن يحمل صاحبه إلى مسافات بعيدة إذا جرح، كما أن بعض الخيول تقوم بنقل صاحبه المصاب أو المجروح إلى مكان أمين، ويدل أهله عليه، كما كانوا يعلمون الحصان الرقص على أنغام الموسيقى والوقوف على الأرجل الخلفية^(١٥).

ومن الخيول التي كانت تستخدم في التدريب والترويض نوع اسمه (دول - دول) وهو حصان ذكي جداً ويمتاز بالقوة والسرعة، وورد اسمه في قصيدة من قصائد (النارتيين) ومطلعها: "ما إن قام الفارس من تناول سيفه حتى اقترب منه حصانه (الدول) الذكي".

وفي العصر الحديث، فإن الفارس الشركسي المشهور جامبوت بشوكوف الذي حصل على أعظم لقب دولي في الفروسية وهو في عمر (٥٣) سنة بفضل حصانه (كباردا) ذي الشهرة العالمية. كما فازت الخيول الشركسية في الأولمبياد الثاني والعشرين بالميدالية الذهبية^(١٦).

والاستخدام الأخير للخيول الشركسية هو استخدام استثماري تجاري:

يقول المؤرخ اليوناني (سترابون) بأن أرمينيا عامة وشعوب قفقاسيا الشمالية خاصة، كانت تصدر أكثر من عشرين ألف رأس جواد إلى شاه إيران سنوياً^(١٧).

نستنتج من قول سترابون بأن الشعوب القفقاسية عامة والشعب الشركسي خاصة مارست تجارة الخيول منذ القرن الأول ما قبل الميلاد، وأن الخيول الشركسية عامة كانت تجد سوقاً رائجة وإقبالاً شديداً على شرائها.

وفي العصر الحديث وصلت شهرة الحصان الشركسي إلى مختلف أنحاء العالم، حيث قامت مجموعة من رجال الأعمال سويديين وهولنديين وإيطاليين وفرنسيين وأمريكان ويابانيين، بشراء مجموعة من الخيول الشركسية عن طريق مزاد علني أقيم في قرية (مالقا) من قرى جمهورية كبادينيا - (بلقاريا) ((الشركسية)) وصلت قيمتها إلى ثلاثة ملايين دولار، وكان نصف مليون منها ثمناً للجواد المسمى (إيزكوك) والذي أطلق عليه بعد الشراء اسم (قيردينا) لما لهذا الاسم من شهرة في عالم الخيول^(١٨).

مراجع ومصادر الفصل الخامس/ أولا

- ١- سكوغ، برزج، مصدر سابق، ص: ١٨٩.
- ٢- مجلة الواحة، الجمعية الخيرية الشركسية، عمان، العدد (٤٦) السنة (١٧) شهر آب/ ١٩٨٩، ص. ٣٣-٣٤.
- ٣- إيركيرت، ف، الخيول عند الشركاسة، عام ١٨٨٧، ص: ١٠٨.
- ٤- اوزبك، باتريك، اساطير النارتيين، مصدر سابق، ص: ١٠٠.
- ٥- يخول، عاطف حاج طاس، من التراث الشركسي - الخيول عند الشركاسة، مجلة الاخاء، اصدار فرع الجمعية الخيرية الشركسية في وادي السير، الاردن. العدد (١١٧) اصدار شهر اذار ٢٠٠١، ص: ٣-٥.
- ٦- هانز، فرانز، منشأ الخيول، مترجم إلى اللغة العربية، مجلة الواحة، مصدر سابق، ص: ١٨.
- ٧- يخول، عاطف، مصدر سابق، ص: ٥.
- ٨- مجلة الواحة، مصدر سابق، العدد (٤٦) إصدار شهر آذار عام ١٩٨٩، ص ٣٤.
- ٩- هانز، فرانز، مصدر سابق، ص: ١٨.
- ١٠- جموخة، أمجد، مصدر سابق، ص: ٢٠٠.
- ١١- جيم، بل، رحالة انجليزي زار بلاد الشركاسة عام ١٨٣٩، وكتب عن عاداتهم وتقاليدهم.
- ١٢- فيل، فون، السنة الاخيرة لحروب الشركاسة من اجل الاستقلال، جريدة المعالم الروس عام ١٨٦٥، ترجمة فاخر ديمف، نشر جمعية الدراسات في مقاطعة الاداغية عام ١٩٢٧، ص: ٣٣.
- ١٣- جموخة، أمجد، مصدر سابق، ص: ٢٠٠-٢٠١.
- ١٤- الحمد، محمد عبد الحميد، تاريخ الشركاس وآل انزور، دمشق، عام ٢٠٠٥، ص: ٧٧.
- ١٥- مجلة الاخاء، فرع الجمعية الخيرية الشركسية، وادي السير، الاردن، العدد (١) لسنة ١٩٦٩، ص: ١٠.
- ١٦- غيرغوف، حسن، الشركاسة ابطال اوروبا والعالم والالعاب الاولمبية، اصدار الاكاديمية الشركسية الدولية للعلوم، نالتشيك، ١٩٩٨. ص: ٧.
- ١٧- سترابون، مؤرخ يوناني قديم، مصدر سابق.

ثانيا: بُعد الثقافة الرياضية في حضارة الأمة الشركسية التراكمية

يقول (حسن غيرغوف) مؤلف كتاب "الشراكسة أبطال أوروبا والعالم والالعاب الاولمبية الدولية" ^(١).



صورة تمثل رقص اثنين من الشراكسة فوق لوحة خشبية محمولة على اكتاف عدد من الخيالة

"كان الاهتمام بالرياضة يشكل أحد جوانب الحياة في المجتمع الشركسي على مر العصور، وإن لم توجد مثل هذه الكلمة في اللغة الشركسية، وتجسد حب الشراكسة للرياضة في قصص النارتيين بصورة خيالية، حيث كان النارتيون يجتمعون كل عام في (خاسا) أي المجلس، ويقيمون ألعابا عنيفة باستخدام العجلة الفولاذية (جانشارخ) حيث كانوا يطلقونها من أعلى قمة جبل (حرماغورا) وكان احد العمالقة يتلقاها في اسفل القمة ليعيدها إلى الأعلى بضربة رجل أو كف أو جببين. كما أحب النارتيون السباقات لمسافات طويلة والالعاب المنازلة، والقتال الذي كان الهدف منه (غرز الخصم في الأرض) حتى عنقه، كما بلغت مهارتهم في الرقص درجة مذهلة، حتى استطاع البعض منهم الرقص على لوح خشبي محمول على أيدي فرسان يركبون خيولا متحركة بسرعة، كما هو

مبين في الصورة المرفقة أو (الرقص على حافة الطاولة القوقازية المستديرة) دون أن يهزها أو يقلب الصحن من فوقها. كما كان نارت بادينوقا حسب ما جاء في الأساطير يغرز سيفه في الأرض وطره الحاد إلى الأعلى ويرقص على هذا الطرف الحاد وسجلت الحكايات الشعبية التي أصبحت الآن تراثية نماذج ملموسة للثقافة الرياضية التي كانت لدى أجداد الشراكسة منذ فجر التاريخ.

وفي عصور ما بعد عصر النارتيين وبعد ظهور نظام الامارة التي كان يحكمها (بشي) تقول بعض الروايات الأسطورية مثل اسطورة "كوالا سوزريخا" وملخصها أن: "الأمراء الشراكسة كانوا يمتلكون أبطالاً لهم قوة خارقة منهم (شوجي شوغينوقا) والذي كان يملك بطلين هما (حسين ذو القدم العريضة) (وشوغين الطويل). أما الامير (خاتوكشوقا خاتوكشوكوف) فلم يكن لديه مثلهما، فبحث طويلاً ولم يجد أحداً، وحزن كثيراً لذلك، لكن الحظ قد حالفه فوجد شخصاً خارق القوة واسمه (كالي ابن سوزريخا) الذي أظهر قوته الخارقة عندما وجد بالقرب من جبل (فيسحافيتش) عربية محملة بالحبوب، ولم تستطع الثيران جرّها إلى الأعلى، فجاء (سوزريخا) وفك الثيران وسحب العربة بنفسه إلى أعلى الجبل. كما تُروى قصة أخرى مسجلة في المدونات التاريخية الروسية لأحد المؤرخين الروس المشهورين بعنوان: "رواية جيش إيغور"، وملخصها أن: "مباراة في المصارعة جرت بين البطل" الكسوسوغي ردادا من (الاديغة) مع امير بلاد تموتاراكان واسمه (مستيسلاف) في عام ١٢٠٢ وعندما اوشك (ردادا) العملاق التغلب على الامير الروسي قام الأخير بطعن العملاق النبل بالسكين خلافا للقوانين والتقاليد المتبعة في لعبة المصارعة في ذلك الوقت ^(٢).

وكذلك فإن من الروايات التاريخية القديمة التي ذكرت في أكثر من مدونة تاريخية شركسية بأن مباراة في المصارعة جرت بين البطلة الشركسية (لاشنيقا) والبطل التتري الذي لا يقهر.. وخلاصة الروايات هو:

"عندما اقترب خان التتر - كيتان خان - من بلاد (الاديغة) وانتشر خبر انتصاراته تتادى السكان إلى حمل السلاح والاستعداد للقتال لصد المغيرين من جيوش (خان التتر) إلا ان قائد التتار غير رأيه وأرسل رسلاً إلى الاديغة يخبرهم بأن ليس الغرض من قدومي إلى بلادكم محاربتكم والاستيلاء على بلادكم بل الشوق إلى معرفتكم عن قرب رؤيتكم وجها لوجه وإني لا أريد أن أكون

عدوكم بل صديقكم لما سمعته عن شجاعتكم الفائقة وقوة جيشكم العظيم وفروسيتم المنقطعة النظير وما تستحقون عليه من المديح والثناء.

ولكي أجرب قوتكم انتخب بطلا من عندي وهو أحسن مصارع في الجيش وأشدّهم قوة فإذا أردتم أن تنتخبوا من بين صفوفكم من ترون فيه الكفاءة والمقدرة لمنازلة بطلنا فسوف تبدأ المبارزة على الشرط الآتي:

إذا تغلب بطلنا على بطلكم وجب عليكم أن تعتبروا انفسكم مغلوبين ولا يحق لكم الامتناع عن دفع الجزية، وإذا كان النصر حليف بطلكم فسنكون نحن المغلوبين، فندفع كل ما يجب علينا دفعه، وسوف نقبل بكل خدمة تلزموننا بها ونخدمكم كسادة لنا.

وقبل الأديغة بهذه الشروط واختاروا بطلة اسمها "لاشناقاي" لمنازلة بطل التتر. فلما اجتمعت الجموع وازدحمت جماهير النظارة من الفريقين بدأت المصارعة ودامت أكثر من ساعة، ولكن الدائرة دارت على بطل الخان "واسمه (قيسين) وكان الفوز للبطلة "لاشناقاي"، وحينئذ اكفهر وجه "الخان" وتغيرت ملامحه إلا أنه كظم غيظه، واعترف بأنه غلب على أمره وهنا الأديغة بفوز بطلهم. وعندها فتح (الأديغة) باب المزاح وكشفوا سر بطلهم وأنه لم يكن سوى (امرأة) تلبس ملابس الرجال.

طلب الأديغة من الخان أن ينتخب من جيشه الذي يعتز به بطلا آخر إذا أراد أن يختبر قوة رجال الأديغة. فرفض (الخان) واكتفى بما حدث، وقال: إن امرأة عادية تغلبت على أقوى أبطالنا الذين كنا نعتمد عليهم، سأوفي بوعدتي وأنفذ الشروط التي وضعتها بنفسها قبل البدء بالمصارعة، ثم انصرف الخان مع جيشه ورجع إلى بلاده فوراً.

وتشير الرواية إلى أن هذه المنازلة جرت في القرن الثالث عشر الميلادي بالقرب من نهر "شك" والموقع معروف حتى الآن باسم "لاشنسكايا" (١٧).

* أنواع الرياضات القومية الشركسية:

يقول (غيرغوف) بأن الشراكسة لا يملكون (مع الأسف) أية معلومات حول إنجازات الشراكسة الرياضية في الماضي، إذ إن غياب الكتابة حال دون توثيقها وتسجيلها في التاريخ منذ القدم، بالإضافة إلى غياب تنظيم بطولات ودورات في الرياضات الشركسية القديمة على المستوى القومي، فبقيت شأنا محليا خاصا، ويبدو أن الاحتفالات الشعبية فقط هي التي كان لها بعض من التنظيم.

لذا، ولإعطاء القارئ فكرة ما عن هذا الموضوع علينا أن نذكر بعض أنواع الرياضات القومية الشركسية وإن كنا لن نستطيع شمل كل جوانبها وخصائصها الإقليمية، فالرياضة الشركسية لا تزال غير مدروسة إلى الآن حتى في الإطار الأنتوغرافي. (حسب قول غيرغوف). (١٨)

إلا أننا وبالبحث في المراجع والمصادر التاريخية المختلفة وجدنا بعض المعلومات عن العديد من الرياضات والألعاب التي كان يمارسها الشراكسة منذ عصر الاجداد وحتى تاريخ احتلال روسيا القيصيرية لبلاد الشراكسة في شمال القفقاس، ومن هذه الرياضات والألعاب ما يلي: (١٩)

النوع الاول: الرياضات والالعاب الشعبية التقليدية القديمة لدى شراكسة الوطن الام:

مارس الشراكسة اطفالاً وشباباً وكباراً منذ عصر الاجداد، العديد من الالعاب الشعبية خلال اوقات فراغهم وفي المناسبات الاجتماعية لتحقيق اكثر من هدف منها: تنمية اللياقة البدنية واكتساب المهارات البدنية، وكذلك تنمية القدرة على التحمل والقوة الجسمية، بالإضافة إلى توفير فرص للترفيه الهادف وقضاء اوقات الفراغ في جو من المرح والسرور.

وفيما يلي أهم تلك الرياضات التقليدية عند الشراكسة:

١) ألعاب الفروسية

عرفت المجتمعات الشركسية منذ القدم بأنها مجتمعات (الفروسية)، وأن الفروسية أصبحت رمزا من رموز التراث القومي الشركسي (كما سبقت الإشارة إليها في الفصل السابق)، بلغت الفروسية لدى الشراكسة مستوىً عالياً حتى أصبح فناً مستقلاً له طقوسه وقواعده وتقاليده، وكان الفتيان من الطبقة النبيلة يتعلمونه منذ نعومة أظفارهم على أيدي مربيههم (أتاليق)، وللحصول على لقب الفارس، كما كان الفتى يخضع لامتحان عملي قاس، إذ كان يرسل في رحلة طويلة تسمى (زيكوا)، ومن ينجح في هذا الاختبار الصارم يتمتع برعاية (زيكوتحا) أي إله الخيل.

وفيما يلي أهم رياضات وألعاب الفروسية التقليدية لدى الشراكسة:



اصابة هدف أرضي والحصان في أقصى

سرعة له

- لعبة إيقاف الفرس من حالة الجري فجأة وعمل حفرة في الأرض بطول وعمق محددين، وإن نجح، رحب به المتفرجون بصيحة فرح وإن فشل ضحكوا منه.

- رياضة القفز العالي بالحصان من فوق سور، والقفز الطويل من فوق الوادي، وكذلك القفز من الجرف الساقط إلى الأسفل.

- رياضة القتال بين الفارسين، حيث كان على أحدهما أن يسقط الآخر من ظهر الحصان أو يسحبه من فوق السرج.

- رياضة اصابة هدف على الأرض والحصان في أقصى سرعة له.

- رياضات استعراضية، وفيها يقوم الفارس من وضع الجري بالقفز من على جانبي الحصان يمينا، وشمالا ممسكا بالسرج ويصعد إليه مجددا.

- رياضة التقاط الأشياء المعلقة عاليا على عامود، كخاتم أو كيس تبغ، الخ، أثناء جري الحصان بسرعة معتدلة.

- رياضة الرماية من فوق ظهر الحصان أثناء الجري، لإصابة (البيض) أو أي هدف على الأرض وكانت من أكثر الألعاب منتشرة بين شراكسة الوطن الأم وفي بلاد المهجر حتى أواسط القرن العشرين.



رياضة الرماية على لوح دائري

- رياضة الرمي اطلاق السهم او البندقية على وهي الرياضة التي يصفها (خان جيرى) بقوله: "في مكان آخر يُكشف لنا مشهد عجيب، حيث تُصب عامود طويل معلق في اعلاه لوح دائري صغير، والفارس الماهر والمسلحون بالأقواس يجرون واحداً بعد الآخر والفرس الذي في الخلف تتبّع التي أمامها على خط مستقيم، لأن الفارس الخلفي لم يعد يتحكم

باللجام لأن رجله اليسرى بقيت في السرج، وجذعه يقع أسفل عرف الفرس، ومن هذا الوضع (الصعب) يجري الفارس بجانب العامود بسرعة فائقة، ويطلق السهم في اللوح الدائري الذي يقع أرضاً بشكل مثير الدهشة لدى المتفرجين...". وهي رياضة كانت تمارس في حفلات تأبين الموتى والشهداء لدى الشراكسة.

- رياضة (شه قاوج) أي رياضة (ترقيص) الحصان، وهي التي تشهد بوجود ثقافة فروسية رفيعة المستوى لدى (الشراكسة)، حيث كان يجلس عازف آلة الاكورديون (بشينه) على طرف ساحة أرض مستوية واسعة يحيطها الجمهور، ويبدأ بعزف لحن "شيغاوج"، ومن يرغب من الفرسان بالتنافس يخرج على ظهر حصانه إلى وسط الدائرة، ويعرض مهاراته بترقيص الحصان الرقصة التقليدية المعروفة باسم رقصة (و ج).

٢) رياضات عسكرية:

كان الهدف من ممارسة الرياضات العسكرية منذ عهد الأجداد للأمة الشركسية هي تربية جيل قوي من المقاتلين قادرين على حماية أراضيهم، وتأمين العيش لعائلتهم وإعداد الفارس (شو حزير) ومعناه الفارس الجاهز أو الكامل. كما يؤكد (خان جيرى) بأن الهدف والأهم من التدريبات الرياضية العسكرية، هي تنمية مهارات خاصة في استعمال السلاح، وقيادة الفرس حتى يصبح الفارس قادراً على تعبئة البارودة، وإطلاق النار من على ظهر الفرس التي تجري بأقصى سرعة، والفارس الجيد هو الذي كان يستطيع ان يخرج البندقية (الطنجة) من (غلافها) ويطلق النار في غمضة عين.

كما يقول (غيرغوف) بأن الشباب من الشراكسة من كافة الطبقات الاجتماعية مارسوا نشاطات جسدية، ليس فقط بحثاً عن التميز والتفوق على الآخرين، بل لأن الخطر العسكري والحروب الظالمة اجبرت النبلاء والفلاحين على حد سواء اللجوء لاستخدام مختلف انواع السلاح من الرمح أو السيف أو القوس أو حتى البندقية مما خلق لديهم قوة جسدية ومهارة بدنية افادتهم حتى في العمل والحياة اليومية.

كما يقول (غيرغوف) بأن الخيالة الشراكسة ربما كانوا هم الافضل في العالم، وجاءت هذه السمعة العالمية نتيجة للتدريب الشاق للفارس والخيول حتى اصبحا مثل (جسد واحد)، وهكذا تم تكوين الرجل الشركسي (المثالي) الذي له "عنق ضخم كعنق الثور، وعيون حادة كعيون الصقر، ويدان قويتان كأسنان الذئب، وكثفان عريضان وخصر نحيف" كما قال ايضاً: (خان جيرى): "يعتاد الشراكسة على تحمل صعاب لا تصدق فلا يهتمهم الجوع أو البرد أو الحر أو التعب أو العطش".

في عام ١٧٢١ كتب (والي آستراخان) في رسالته إلى القيصر بطرس الاول عن شجاعة الشراكسة بقوله: "ما يرضيني هو شيء واحد، أنهم مقاتلون لم تشهد هذه المناطق أمثالهم حيث إن (مائتي) شركسي يساؤون (ألفاً) من التتار أو القالموق، ولا أحد يستطيع ان يقاومهم بل الجميع يفرون من أمامهم..". كما قال: إن هذه القوة الهائلة لم تعتمد على الرجولة وحدها فقط، إنما يتمتع هؤلاء المقاتلون بلياقة بدنية عالية".

كما أكد (غيرغوف) بأن أهداف الرياضات العسكرية القديمة تضمنت وبالإضافة إلى الاهداف العسكرية والعملية اهدافاً اخلاقية ايضاً إذ منحت الشباب فرصة للتعرف بينهم وتكوين صداقات والتسلية بأنشطة إيجابية لا سلبية، فكانت العادة أن شعر أحدهم بالملل أو أصبح لديه فراغ ان يبادر إلى ممارسة الالعاب والتمارين الرياضية وليس إلى تناول الكحول أو ممارسات اجتماعية خاطئة أخرى.^(٤)

ومن أهم الرياضات العسكرية التي مارسها اجداد الشراكسة:

رياضة (شوربليس) وهي لعبة عسكرية، حيث تبدأ مجموعة من الشباب بتقديم رقص شعبي داخل دائرة بمنع الفارس الذي يحاول اختراق المجموعة كي يدخل بينها لخطف فتاة، وحملها إلى خارج الدائرة، ويحاول الحضور منع الفارس من دخول الدائرة بضربه بالعصا ومحاولة إسقاطه من على ظهر الحصان، بينما يبذل الفارس جهده لتفريق الحضور والوصول إلى حلبة الرقص. وفي حال فوز الفارس يقوم (تحمادة) أي كبير الحاضرين بتسليمه جائزة وهي عبارة عن (قرن مملوء بنبیذ أبيض في عهد ما قبل الاسلام) أو مملوء "باخسمة" وهو (مشروب شركسي الصنع مصنوع من الحبوب والعسل). فقد جاء ذكر هذه اللعبة حتى في اساطير النارتيين.

٣- رياضة المصارعة



نستنتج من الروايات الشركسية القديمة بأن (المصارعة) كانت الرياضة القومية الثانية بعد رياضات الفروسية، وأنها كانت الرياضة الشعبية الأولى، حيث كانت تمارسها جميع طبقات الشعب، ابتداء من الأمراء وانتهاء بالفلاحين وعامة الناس من مختلف الأعمار، كما ان الفتاة الشركسية مارست هذه الرياضة وفي مقدمتهن المصارعة الشركسية (لأشينقاي) التي هزمت بطل أبطال خانات القرم قيسين (كما سبق ذكره).

واشتهر الشراكسة بنوعين من المصارعة هما: بغيريبانه أي (صراع الصدر) وأبشريبانه (صراع المعصم).

لوحة فنية تبين لعبة تراثية في المصارعة عند أجداد الشراكسة

ففي مصارعة (بغيريبانه) كان الخصمان يقفان وجها لوجه ثم يتشابكان بالذراعين حيث تقع الذراع اليمنى فوق الذراع اليسرى واليد اليسرى تقع تحت اليد اليمنى للخصم، وسيتم تشبيكهما خلف ظهر الخصم. وكان ممنوعاً أن يمسك أحد جذع الآخر بيديه الأيمنين. وللمتصارعين حق في أن يتفقا على استخدام الأساليب التالية: لكامبشاوا، وبقوداندز، ولاقوزشاك، وزفاغاشه، وحاطخاسا، ودزين، وفي بعض الأحيان بغشاغوالحا.

كان للمصارع الحق ان يرمي خصمه على ظهره ارضا بالقوة أو بواسطة الحركات المذكورة، وإذا وقع المصارعان أرضاً على الجوانب أو وجهيهما إلى الأسفل اعتبرت النتيجة متساوية، وكان القتال ينتهي بفوز احدهما أو تعادلها.

كما كان لهذه الرياضة طريقتان الأولى: (بغيريختشا زبانيين) وفيها (يمسك الخصمان بحزام بعضهما البعض ويحاول كل منهما إسقاط الآخر بالقوة أو باستخدام الحركات السابقة الذكر) والطريقة الثانية هي (تشتاشا زبانيين) وفيها يمسك الخصمان بأطراف قميصي بعضهما البعض ويحاول كل منهما إسقاط الآخر.

النوع الثاني هو (أبشريبانه) وفيها يتم تماسك الخصمين باليدين، ويحاول كل منهما إسقاط الآخر بقوة اليدين أو بواسطة الحركات الرياضية المقررة في هذا النوع من المصارعة.

ويصف (غيرغوف) شعبية المصارعة بقوله: "على عكس الفروسية كانت المصارعة في متناول الجميع بغض النظر عن العمر والوضع الاجتماعي، وكان الفتیان يزاولونها بشكل دائم ويتجمع حولهم أبائهم وكبار السن" (٥).

وكان من المنافسات الشعبية الشائعة في مصارعة الفتیان والاحداث الصغار كما جاء تفصيلها في الروايات الشركسية القديمة هي الرواية التالية والتي ذكرها (غيرغوف) في كتابه "الشراكسة الابطال".

"كان كبير شلة (الاحداث) يعلنان نفسيهما (كتحماده)، وتنقسم الشلة إلى فريقين بواسطة القرعة، حيث يقوم كل فريق باختيار اسماء سرية لهما، فمثلاً يأخذ أحدهما اسم (آفه) ومعناها (زرد) والآخر فوتش (بارودة) فإذا اختار أحدهما (آفه) ذهب (فوتش) إلى الفريق (الأخر). وكان الفريق الأصغر سناً يبدأ اللعبة. والفائز بالمبارزة الأولى عليه أن يواجه اللاعب التالي من الفريق المنافس، وهكذا كان على جميع أعضاء الفريقين منزلة بعضهم البعض. وفي النهاية كان يقوم رئيس كل مجموعة بمنزلة الرئيس الآخر، فإن خسر اعتبر فريقه خاسراً، وتنتهي المنافسات بركوب الفائز على ظهر خصومهم الخاسرين ليوصلوهم إلى مكان محدد مسبقاً (٥).

٤- رياضة تسلق الجبال:

لم تكن رياضة تسلق الجبال من الرياضات القديمة التي مارسها النارتيون أو قدماء الشراكسة في العصور القديمة، وإنما ظهرت هذه الرياضة بعد أن قام مواطن شركسي اسمه (كيلار خاشيروف) من أصل (قبردي) من سكان قرية (كوتشمازوكينا) (مدينة باخسان حالياً) الذي تمكن من تسلق قمة (البروز) دون تدريب مسبق ومن المحاولة الأولى، وكان أول من تسلق إلى هذه القمة، وحدث ذلك في ١٠ تموز من عام ١٩٢٩ (الساعة الحادية عشرة صباحاً)، وتم ذلك عندما قام قائد الجبهة القوقازية الجنرال (غ.أ. إمانويل) بتنظيم رحلة التسلق بمشاركة علماء بينهم جيوفيزيائي، وجيولوجي وفيزيائي، وعالما للحيوانات والنباتات، ورسام، بالإضافة إلى عدد من سكان القبردي والبلقار والقوزاق وتوقف غالبية المتسلقين عند ارتفاع ٤٢٧٠ متراً فعدوا خطاهم بعد أن شعروا بتعب شديد، بينما استمر كل من: الفيزيائي أ. لينتس والقبردي كيلار خاشيروف والقوزاق ليسينكوف في التسلق قدماً، لكن رفيقي (خاشيروف) عاداً من على ارتفاع ٥٣٥٠ متراً واكمل (هو تسلقه) وحده، وشاهد الجنرال (إمانويل) الذي كان يراقب العملية بالمنظار وصول "خاشيروف" قمة الجبل الشرقية لجبل (البروز).

وتقديراً لهذا الانجاز البشري العظيم وبتوصية من أكاديمية العلوم الروسية تم وضع نصب تذكاري تخليداً لإنجاز (كيلار خاشيروف) الشركسي. وبعدها أصبحت رياضة التسلق رياضة شائعة عامة، وتسلق جبل (البروز) خاصة، كما أصبحت من الرياضات الجماعية، غير أن اسم (كيلار) سيبقى مكتوباً بأحرف ذهبية كونه الأول، ولم يكن التسلق إلى قمة (البروز) بالنسبة لـ "خاشيروف" انتصاراً لقدراته الجسدية فحسب بل وتذليلاً للخوف من (الآلهة) إذ كان يعتبر (أوشحامافا) من قبل مواطني للآلهة حسب المعتقدات الدينية الشركسية القديمة.

٥- رياضة رفع الاثقال والرمي:

كانت رياضة رفع (الاثقال) من الرياضات المنتشرة في السابق واسمها بالشركسية (حلة آت) وهي الرياضة التي تمثلت برفع شخص، أو حجر أو أشياء ثقيلة أخرى. كما كانت رياضة (رمي الحجارة) من الألعاب المفضلة لدى الفتيان والصبيان الشراكسة، حيث كان المشاركون فيها يرفع حجراً ثقيلًا على كفه الأيمن ويضعه على كتفه ويميه بكامل قوته إلى الوراء. كذلك كانوا يتنافسون على رمي الأحجار المتوسطة للامام باليد اليمنى. أما الأحجار الصغيرة فكانوا يستخدمونها في لعبة إصابة الهدف وكذلك رياضة رفع الحجارة الكبيرة كما هو مبين في الصورة.

٦- رياضة الوثب العالي:

من الرياضات التي كان يمارسها فتيان وشباب قدماء الشراكسة هي رياضة الوثب العالي أو القفز العالي باستخدام (عصا) وهي رياضة تشبه القفز بالزانة الحديثة.

٧- رياضة دفع الدولاب (العجل) الضخم:

كانت تمارس هذه اللعبة منذ عهد قوم (النارتيين) وهي لعبة كان يستخدم فيها (عجلة) دولاب ضخم عليه (شفرات قاطعة) وحادة.



صورة تمثل رياضة دفع الدولاب (العجل)
الضخم ذي الشفرات الحادة لأعلى الجبل



صورة تمثل حمل الحجر أو الثقل

وتتم اللعبة بمنع دحرجة الدولاب للأسفل من قمة الجبل بالوقوف أمامه ودفعه بيديه المغطيتين بقفاز معدني، لتلافي خطورة الشفرات التي تغطي الدولاب ومحاولة دفعه للوراء واعادته لمكانه في قمة الجبل كما هو مبين في الصورة المرفقة.

٨- لعبة خلع جذوع الأشجار:

وهي لعبة كان يشارك فيها الرجال الذين يتمتعون بقوة كبيرة، وكان من شروط اللعبة الوقوف امام جذع الشجرة ومسكه بيديه الاثنتين ثم يبدأ بشد ورفع الجذع للأعلى (دون محاولة خلخلته او تطويحه للامام او الخلف) ويفوز من يتمكن من خلعه في زمن أقل من الآخرين.

٩- رياضة الصيد:

مارس اجداد الشراكسة الصيد في العصور القديمة بهدف تأمين حاجاتهم الغذائية من لحوم الحيوانات والطيور، وفي المراحل اللاحقة وبعد ان بدأ باستئناس الحيوانات والطيور والقيام بتربيتها استمر احفاد وابناء الشراكسة بالصيد، وتحول من الصيد لتأمين الغذاء إلى الصيد كهواية رياضية اولا وبهدف اقتصادي ثانيا، حيث كان الشراكسة يقومون بصيد انواع مختلفة من الحيوانات خاصة الحيوانات التي يستفاد من جلودها وفرائها وقرونها في تصنيع الالبسة مثل فراء السيدات، وجلودها وفي صناعة الاحذية وشنط السيدات، وقرونها في صناعة الامشاط وبعض انواع الزينة، بالإضافة لاستخدام لحومها للغذاء خاصة لحوم الارانب والغزلان ومختلف انواع الطيور، ومن اكثر انواع الحيوانات التي كان يصطادها الشراكسة في مختلف العصور هي الغزلان والارانب والطيور على اختلاف انواعها، بالإضافة إلى الحيوانات ذات الفراء الثمين مثل الدبب والنمور والذئاب.

وفي مراحل لاحقة استخدم الصيادون الشراكسة (الأقنعة) كوسيلة لتمويه وخداع الحيوانات والطيور حيث كانوا يستخدمون (اقنعة) لتغطية الرأس والوجه بأقنعة تشبه شكلا من اشكال وجوه الحيوانات او الطيور المراد اصيادها، الأمر الذي كان يساعدهم في الاقتراب من (الفريسة) إلى أقرب مسافة ممكنة دون أن تنتبه الحيوانات او الطيور إليه. كما هو مبين في اللوحتين التاليتين:

١٠- ألعاب الثلج والجليد:

لا شك بأن طبيعة البلاد القفقاسية التي تضم جبلاً شاهقة تكسوها الثلوج والجليد على مدار السنة كان لها دور في ظهور ألعاب يمارسها الاطفال والكبار من الجنسين منها:

- ألعاب بناء القلاع بالثلج.
- ألعاب القتال بكرات الثلج ويشارك فيها الكبار والصغار كما تشارك النساء مع الرجال من جميع الطبقات الاجتماعية بما فيهم الامراء والنبلاء.. الخ.
- ألعاب التزلج على الجليد باستخدام نوع من الزلاجات المصنوعة من الخشب والمصفحة من اسفلها بصفيح من (التنك) الرقيق.

ثانيا: ألعاب الاطفال التقليدية لدى قدماء الشراكسة:

بالبحث عن الالعاب التي مارسها ابناء واحفاد الاجداد منذ العصور الغابرة وحتى العصور الحديثة وجدنا بأن اكثر الالعاب ممارسة كانت:

١- لعبة (التشين) او البلبل:

وكان يستخدم في هذه اللعبة البلبل (التشين) المصنوع من عظمة فخذ الخاروف او اية عظمة سميكة، وتملاً بالرصاص ويكون مخروطي الشكل ومدبب من الاسفل، ويتدرج بالاتساع لأعلى حتى يصبح شكله مثل (الانجاصة) ويتم لف الخيط حول (البلبل) ابتداء من الاسفل، وتبدأ اللعبة برمي (البلبل) على الأرض مع سحب الحبل الملفوف بقوة حتى يبدأ (البلبل) بالدوران عند ملامسته للأرض

وفيزر اللالعب الالذي يسللمر بلبله بالالروان لأطول فاللرة، وفل العصور الالاللة اصبلل يصنل اللبلل من الخشب أو يصبل من ماللة الرصاص.

٢- لبلل سللل السارلل أو (العامول) :

وهل من الالالبل اللل كان الاللال يابللها كلالا، وللم فللها اللللل عامول خشبل أو معللل الاللل الشلل بللول من (٣-٤) امالر ماللون بالشلل الاللل، اللل يصبل سللله منللل يصبل الشل علله، واللل اللل سللللل الوصول لألل السارلل يالل على الاللة المللل بأعلاها (وكان بعض الاللال يغللون برش ملل أو رمال على الكفلل اللل سلللللو المسك والشل بلولة على العامول الماللون بالشلل).

٣- لبلل اللوالل والاللة

وهل لبلل اللل لبلل لبلل (البال) الاللة، فللها اللللل اللوالل اللاللة: القاللة الخشبلل، وهل مسلللل الشلل مائلل ومالزلل من لاللها، وقطلة خشبلل بللول (١٠-١٥) سم وبلرل من (٢-٣) سم، وعصا بللول (٨٠-٩٠) سم ولللل للبلل بولل (البال) أو قطلة الخشب على القاللة بشلل مائل، وللوم اللالبل بللرب القطلة على لرفها العلول، وفل لاللة ارلللها فل اللوالل للوم بللربها لاللة بأقلل قولة وهل فل اللوالل لللللل لأبلل مساللة مكللة، ولللل هذه الللرلة (للرلة عصا الللسلول بالكرة) وفلوز اللالبل اللل لرسل (قطلة الخشب) لأبلل مساللة مكللة، وهل لبلل للل للللل إلى لوالل ومهارلة واللة.

٤- الالال الاللل (القللل)

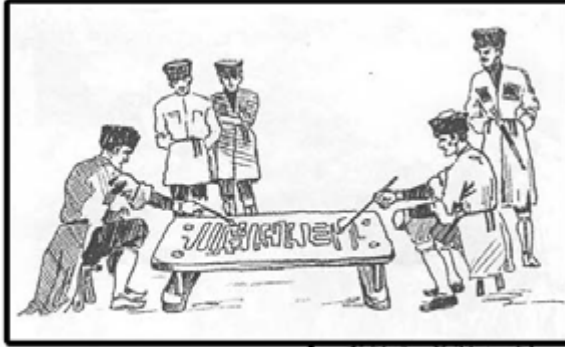
لم للللر اهلللم الالال الشراكسة بممارسة الالال الشلبلل والللللال اللللل، وإنما امالل اهلللمهم إلى ممارسة العالل من الالال اللل للللل إلى للللر، وهل الالال اللل سملل بالالال (الاللل) نلللر منها لبلل اللل الشلرللل وهل لبلل شلبلل للل الشراكسة لمارسللها اللل الاللل الأولى من الللر اللالل عللر.

واللبلل اللاللل، هل لبلل (الالال) وكانل لبلل شلبلل والمعللل بأن الشراكسة اقاللسلوا هذه اللبلل من الالللر العللللللل.

وأما اللبلل الاللل اللاللل فهل لبلل الالللر، وكانل من الالال شاللة فلل المللللال الشلكسلل القالللة، فللها كان للل لللر على شلل أو مملولة من الأشالل، واللل سللللل للل هذا اللللر، اعللر (فاللر)، وإن لم للللل من ذلك اعللر (لأسرا) ولللل علله علوبل لللرلها لالللر اللللر.

واللبلل الاللل الاللل هل لبلل (القالللس) فللها للل (فسلل) عظلة لرقولة الاللل بلل شللللل. بلل أن للل الللل المللللللل على شللر أو لاللة، ولللل اللبلل بأن للل لرقولة الاللل بالأسبلل الصللر من للل المللللللل اللل للللر، والشلل اللل للللل أي لللر للللل الاللل فل أي وللل اللل ولو بلل سنة، علله أن لللل كلمة السر وهل كلمة (للمل) (بمعنى لللر ملسولة) وإنل لا زال للللر اللبلل، وإن لم للل ذلك، لللللل الاللل أن لللل فورال كلمة "قالللس"، وبذلك للل قالل كسلل. وللل للللر لللل للللر، ولللل هذه اللبلل مملللة بلل الشللل والفلللل فلل مملللال الشراكسة فل بلاد المهلر إلى مال للل عللرلل سنة لقلللل.

ثالثًا: ألعاب شعبية تمارس حتى عصرنا الحاضر، كما هو مبين في الاشكال المرفقة:



لعبة تشبه الداما او السيجا



لعبة المصارعة من على
اكتاف زميلين



لعبة تشبه اللعبة الشعبية
(طاق... طاق... طاقية)



لعبة المشاعل النارية

مصادر ومراجع الفصل الخامس/ ثانيا

١. غير غوف، حسن، الشراكسة أبطال أوروبا والعالم والالعاب الاولمبية، نشر باللغة الروسية بإشراف الاكاديمية الشركسية الدولية للعلوم في نالنتشيك عام ١٩٩٨، ص: ٢٤١-٢٥٩.
٢. المصدر نفسه، ص: ٢٤٣.
٣. قاخون، عمران، مجلة الاخاء، وادي السير، العدد (١)، لسنة ١٩٦٩، ص: ١٠.
٤. غير غوف، المصدر نفسه، ص: ٢٤١.
٥. المصدر نفسه، ص: ٢٤٤.
٦. المصدر نفسه، ص: ٢٤٣.
٧. المصدر نفسه، ص: ٢٥٣ - ٢٥٤.
٨. (نغموقة) شورا بكمرزاء، تاريخ الجركس، مصدر سابق.
٩. غير غوف، حسن، مصدر سابق، ص: ٢٢ - ٢٣٠.
١٠. مامسر، محمد خير، الموسوعة التاريخية لتطور الحركات الرياضية في الحضارات القديمة والحديثة، عمان (٢٠٠٠ ص: ١١٣).
١١. غير غوف، حسن، مصدر سابق، ص: ١٠، ١٦، ٢٢، ٦٤، ٧٢، ١٨٢، ٢٠٠.
١٢. المصدر نفسه، ص ٢٣ - ٢٨.

المجلد الأول

الجزء الخامس

وقائع وأحداث حروب الأمة الشر كسية

في الوطن الأم

منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث

فهرس فصول الجزء الخامس

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول: حروب الأمة الشركسية في الفترة ما بين القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن السادس ما بعد الميلاد	434
الفصل الثاني: الشعوب والدول التي اعتدت على الأمة الشركسية في الفترة من القرن السادس وحتى القرن الخامس عشر ميلادي	439
الفصل الثالث: حروب الأمة الشركسية في القرون السادس والسابع والثامن عشر الميلادي	448
الفصل الرابع: حروب الدمار والإبادة التي ارتكبتها سلطات مروسيا القيصرية ضد الأمة الشركسية في القرن التاسع عشر الميلادي	464
الفصل الخامس: الأعمال الوحشية والبربرية التي ارتكبتها السلطات الروسية القيصرية في حربها ضد الأمة الشركسية	487
الفصل السادس: السياسات والإجراءات اللاأخلاقية وغير القانونية التي اتبعتها السلطات القيصرية الروسية في حربها ضد الأمة الشركسية	494
الفصل السابع: التكتيكات العسكرية والأساليب القتالية التي استخدمها المقاتلون الشركسية في دفاعهم عن أرض الوطن منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث	516
الفصل الثامن: الوسائل والأساليب والإجراءات السياسية التي استخدمها قادة الأمة الشركسية السياسيين في التصدي لحروب الإبادة والدمار التي ارتكبتها سلطات مروسيا القيصرية ضد الأمة الشركسية وقادتها	542
الفصل التاسع: حقائق حول بعض الأخطاء والمواقف السلبية التي مرت بها الأمة الشركسية في الوطن الأم منذ عصر ما قبل التاريخ وحتى العصر الحديث	558

الفصل الأول

حروب الأمة الشركسية ما بين القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن السادس بعد الميلاد

تشير الوقائع التاريخية بأن ثلاثة شعوب من الشعوب القديمة اعتدت على الأمة الشركسية في هذه الفترة وهي شعوب: السكيت (السكيف). القوط. الهون.

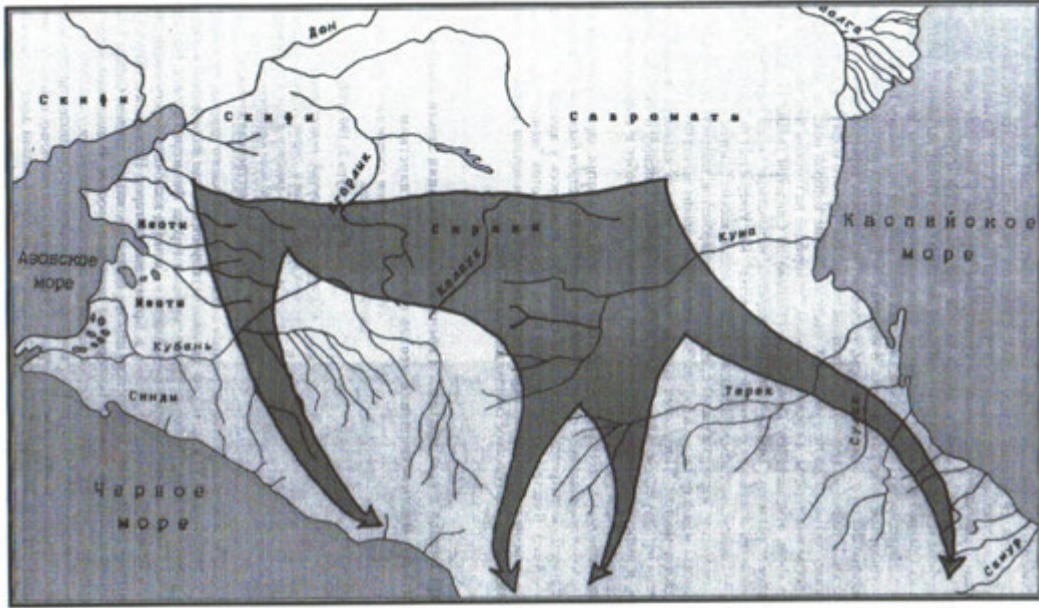
▪ وقائع وأحداث اعتداءات قبائل السكيت (السكيف)

تعرض أجداد الأمة الشركسية لأول اعتداء خارجي من قبل قبائل (السكيت) الذين قدموا من آسيا، واستمرت حروبهم ضد أجداد الشراكسة وشعب الكيميريين وهم من أقدم الشعوب التي استوطنت في بلاد القفقاس منذ الألف الرابع ما قبل الميلاد^(١).

وبالرجوع إلى ما كتبه (هيرودوت) وجدنا بأن قوات (السكيت) المؤلفة من قبائل (همجية) قد اعتدت على شعوب الأمم المستوطنة في جنوب القفقاس، وهي القبائل التي عرفت باسم (الايكوزية) البدوية الذين كانوا يتخذون من العربات بيوتا لهم، ويقضون معظم وقتهم على ظهور الخيل وهم الذين قال عنهم (هيرودوت) "إنهم قوم كانوا يتعشرون في مشيتهم ولا يتقنونها عندما يترجلون عن ظهور خيولهم، كما قال بأنهم قوم يتكونون من قبائل متوحشة عملهم الرئيسي هو القتال وان رجولة الشاب (السكيتي) لا تكتمل إلا بقتل عدو واحد على الأقل ومن عاداتهم الوحشية جمع وحفظ رؤوس الاعداء تذكارا للنصر وسلخ جلود رؤوس الاعداء واستخدامها كلفائف على رؤوس محاربيهم كما كانوا يصنعون من الجلود المنزوعة من أيدي الاعداء الاموات (كنانات) للسهم"^(٢).

وكان من النتائج الوخيمة لاعتداءاتهم الوحشية من قوات السكيتين على أجداد الشراكسة والكيميريين:

- القضاء على الامبراطورية الكمبرية وزوال الاتحاد الذي كان يتكون منهم ومن قبائل (المئوت) وعددها (٢٥) قبيلة حتى اضطر الاحياء من الشراكسة للنزوح عن أماكن سكنهم واللجوء إلى الغابات والجبال العالية هربا من بطش ووحشية المعتدين السكيتين.
- تناقص أعداد اجداد الشراكسة بعد الاعتداءات التي تعرضوا لها من السكيتين المتعطشين لسفك الدماء.
- حرق ونهب مدن شركسية كثيرة واضطرار الشراكسة لاتخاذ الغابات والكهوف في اعالي الجبال سكنا للاحياء منهم.
- اجبار الشبان الشراكسة الذين هم في سن القتال للانضمام إلى صفوف المقاتلين (السكيتين) واشراكهم في غزواتهم وحملاتهم العسكرية الوحشية^(٣).



Раселение племен на Северном Кавказе в VII в. до н.э.
Стрелками указано направление походов скифов (по Е.И. Крупнову).

توزيع القبائل في شمال القفقاس في القرن السابع قبل الميلاد. الأسهم تشير إلى اتجاهات حملات السكيف (حسب ي. إ. كروبنوف)

▪ وقائع وأحداث اعتداءات قبائل (الهون / الهان)

تعرض أجداد الشراكسة عامة وقبائل السبند والزنك والكركييت الشركسية خاصة، إلى اعتداءات وحشية من قبائل (الهون) أو (الهان) وهي القبائل المنحدرة عن كتلة (الهون) الغربيين الذين كان موطنهم الأصلي في (تركستان الغربية الحالية) وهم من اصول مغولية. ويؤكد المؤرخون من القدامى بأن (الهون) عرفوا بأكثر من اسم لدى بعض الشعوب القديمة مثل:

- البيزنطيون واطلقوا عليهم اسم (هفتاليت)
- الايرانيون وسماهم (هلياتليت)
- الصينيون وكانوا ينادونهم باسم (هنتا) أو (باتا)
- الاتراك العثمانيون وسماهم بـ (آق. هون) ومعناه (الهون البيض) كما اطلقوا عليهم ايضا اسم (خون)
- وسماهم الشراكسة بقبائل (كون) أو (الجون).

وفي عام (٢٠٠) قبل الميلاد اجتازت قبائل (الهون) نهر الفولغا إلى شمال القفقاس واصطدموا أولا مع قوم السارماتيين وهم من أجداد الشراكسة، وفي عام (٣٠٠م) هاجموا قبائل (اللان) وهم اجداد (الاستين) وواصلوا زحفهم نحو بلاد (الأديغة) واشتبكوا مع قبائل الامة الشركسية من (الأديغة) في معارك عنيفة عديدة، إلا أن التاريخ المدون لم يذكر لنا تفاصيل هذه المعارك، وإن تحدثت الروايات الشعبية والقصص القومية الشركسية القديمة في شيء من التفصيل عن بعض هذه المعارك، نقتبس منها القصة التالية:

"عندما توجه جيوش (الهون) إلى بلاد الجراكسة أوقعهم في اضطراب، وتداعوا إلى اجتماع عام عقد على (الارجج) في منطقة (مزدوك) واثناء الاجتماع انسل إلى المجلس نسر يحمل (بمنقاره طفلا ملفوفا بالخرق) وحط بالطفل في حضن امرأة مسنة، فتحير الناس من هذا الحادث الغريب، وفسروه بأنه بشارة سعيدة، وأن قدوم هذا الطفل سيكون خيرا لهم وجالبا للحظ السعيد، وراح الطفل ينمو بسرعة غريبة وبعد زمن قليل أصبح لا يسع في سريره، ثم قطع رباط السرير المجدول حوله، ونما الطفل وتكاملت رجولته بسرعة فنصبوه قائدا لهم. وانضوى جميع الشراكسة تحت هذه القيادة الالهية وقرروا محاربة (الهون) ولكن الجراكس هزموا بادئ الامر وانسحبوا حتى موقع (كونيته ي) ثم جمعوا صفوفهم وجددوا المقاومة، والظاهر ان الطرفين ظلا متقابلين في قتال ضار مدة طويلة في ذلك الموقع، وفي هذه الاثناء حدث زلزال كبير، وتشققت الاراضي، فأحدثت فيها شقوقا واسعة تقذف بالنيران واللهب وبروائح كريهة جدا، واعتبر (الهون) هذا نذير شؤم لهم فانسحبوا من البلاد، وبذلك نجت قفقاسيا من مجازرهم وتدميرهم".

وربما كان لهذه الاسطورة شيء من الحقيقة من حيث القتال، إذ يوجد حاليا موقع اسمه ((كونيته)) بجوار مدينة ((بتغورسك)) ويقع على الطريق المؤدي إلى مصايف (هاساووت) في مدخل أحد الوديان، ويفهم من هذا أن الجراكسة استخدموا الجبال في دفاعهم عن بلادهم.

وكلمة (كون) أو (هون) يطلقونه حتى اليوم على (هون القازان) ومنطقة (كونيته. ي) وهو المكان الذي كان ينزل فيه (الهون). كما يطلق الشراكسة على هذا المكان حتى وقتنا الحاضر (خنادق الهون) كما تشاهد في مدخل وادي (كونيته. ي) صخرة عظيمة قد نحتت ونقشت عليها علامات (دامغة) للعديد من الاسر الشركسية، ويقال أنها علامات الاسر التي اشتركت في تلك الحروب، او التي ابدت فيها البطولات والتضحيات، كما ان البعض الآخر يعتقد أن هذه العلامات قد نقشت هناك فيما بعد ولا تزال هذه العلامات موجودة حتى يومنا هذا على صخور (كونيته. ي) (٣).

ولا شك بأن اعتداءات قبائل الهون أحدثت رد فعل عنيف لدى المجتمعات الشركسية القديمة التي تصف وحشية تلك الاعتداءات، رواية شيوخ الشراكسة بقولهم: "ان المكان الذي مروا به (والمقصود هم الهون) لا ينبت فيه شيء لمائة عام" (٤).

كما تشير الروايات الشركسية القديمة أن (أتيل) ملك الهون كان اسمه بلغة ذلك العصر (ايدل) وقد ورد ذكره في إحدى الاغانى القديمة باسم (فلاكة الله) وهو الاسم الذي أعطته (الأتراك) لقبائل الهون وجاء ايضا في إحدى القصائد الشركسية بعض الأبيات حول ذلك منها:

لم ينسنا الله فقد شملنا برحمته واعد إلينا جبالنا وودياننا

بعد ان ابتعد ورحل عنا (فلاكة الله)

ومنذ ذلك الوقت يسمى الجراكسة جبل (شاد) باسم (أواشحة ماف) ومعناه الجبل المبارك.

ومن الواضح بأن أجداد الشراكسة في ذلك العصر كانوا يخشون بطش ملك الهون (أتيل) ويحسبون له ألف حساب، ويتقربون منه لدفع أذاه وبتطشه، ونستدل على ذلك بنصوص بعض القصائد من كلمات المديح والتبجيل، نقتبس منها الأبيات التالية:

• ان نخبة شبابنا وفرساننا تسعى إليك أيها القانص الكبير.

• إن لم تمتلئ عيونك بعددهم، فنحن الباقيين طوع بنانك.

• ومن الأعالي والروابي تنحدر الفرسان كالشهب المتساقطة.

• وتتراحم جموعهم حول (أتيل) الملك العظيم.

• وأما ضرباتهم التي ينزلونها فلها صدى الصواعق.

وبعد موت (اتيلا) ضعف شأن (الهن) وهزموا في غزوتهم لروما الشرقية، وانحلت قواتهم في عام ٤٥٤م فاستوطنت بعض قبائلهم في حوض نهر الدانوب، كما وأن قبيلة أخرى من (الهن) عاشت عند مصب نهو الدون وقبيلة ثالثة واسمها (سابو) تعرضت للغزو والنهب من قبل قبائل الاوار في عام ٥٥٠م فرحلت عن بلاد القفقاس واختفت آثارها^(٥).

▪ وقائع وأحداث حروب قبائل القوط (القوت)

بالرجوع إلى ما كتبه المؤرخ القوطي (جورنا ندس) الذي عاصر حكم القوط في القفقاس، نستنتج بأنهم جاءوا من الشمال، حيث كانوا يقطنون في بلاد اسكندنافيا حتى القرن الرابع الميلادي كما نستنتج بأنهم ينقسمون إلى مجموعتين هما: قبائل مجموعة القسم الشرقي، وقبائل مجموعة القسم الغربي وهي التي استوطنت في حوض (الدون) وساحل بحر (ازوف) في قفقاسيا الشمالية حقبة طويلة من الزمن.

ويشير المؤرخ القوطي (جورناندي) بأن قبائل القوط سبق لها أن غزت بلاد الشراكسة وبالأخص منطقة قبائل (الاديغة) المجاورة لهم في حوض نهر الدون في منتصف القرن الرابع الميلادي، وأن العديد من أجداد الشراكسة (الانتيين) قد انخرطوا في جيش (القوط) والمشاركة معهم في حروبهم اللاحقة وقتل اولاد الامير (داو Dao) الثمانية منهم الاخ الاكبر (باقسان) وعبر المقاتلون الشراكسة عن وحشية هذا القتل الجماعي لاولاد (داو) بضربهم على صدورهم تعبيراً عن حزنهم العميق، كما قامت نساء مجتمع (الاديغة) بنزع شعورهن من رؤوسهن وانشدن قائلات:

* قتل اولاد (داو) الثمانية

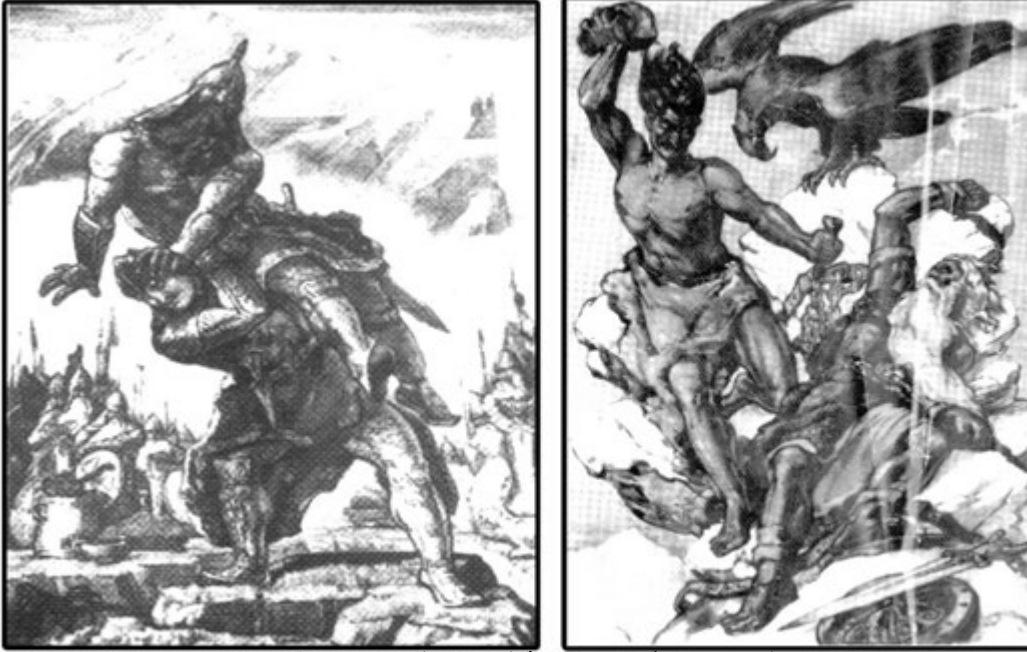
* نعم اولاد (داو) الثمانية.

كما انشدت شقيقتهم الوحيدة حزناً على اشقائها قائلة:

- إن بطولة (باقسان) وهمته اوقدتا نار الحمية في قلوب الانت.
- يا بطل يا (باقسان) ابن (داو) وان كانت الروح قد فارقت لا تدع (القوت) يمسون كرامتك.
- واذا ارادوا اخضاعك، لا ترض بسلطتهم .

واستطردت قائلة:

- كان الشعب كله يدعوك بالمقدس الطاهر.
 - وكان القوم يستمدون منك العزم والاطمئنان.
- وكلفت شقيقتهم النحاتين اليونانيين بعمل نصب تذكاري للأخ الأكبر (باقسان).
- وواصلت قوات القوط زحفها نحو ساحل البحر الأسود حتى وصلت نهر الدانوب وقضت على دولة البسفور (اليونانية) والتي كان يتحد معها بعض قبائل أجداد الشراكسة^(٦).
- وفي منتصف القرن الخامس الميلادي وفي حدود عام (٤٤٦م) واصلت قبائل (القوط) زحفها نحو بلاد الشراكسة ودمروا أعداداً كبيرة من قراهم حتى اضطروا للالتجاء إلى الجبال العالية.



صور ترمز للسلوب الذي استخدمه أجداد الشركاسة في القتال في عصور ما قبل التاريخ عند التحامهم مع الاعداء في ساحة المعركة

وكان من الآثار والنتائج التي أحدثتها اعتداءات قبائل القوط على شعوب القفقاس عامة وشعب الاديغة خاصة الآثار السلبية التالية:

- ١- القضاء على (مملكة) امبراطورية البسفور اليونانية والتي كان يستخدمها العديد من قبائل اجداد الشركاسة، وبالتالي القضاء على الفترة الذهبية للتجارة القفقاسية في ذلك العصر.
- ٢- توقف أعمال الزراعة لعدم تمكن الأهالي من فلاحه أراضيهم في السهول لوجود قبائل (القوط) فيها^(٧).
- ٣- قتل (٨٠) اميرا ونبلا وقائدا من خيرة قادة (الاديغة) الذين كانوا في مقدمة المقاتلين الذين تصدوا لغزوات قبائل (القوط)^(٨).

وأنشئت شقيقتهم بعد إقامة النصب التذكاري لـ (باقسان) قائلة:

- وما الأمل اذا كان الصخر الاصم آخر ما تبقى من سلوانا.
 - ولكونه شبيها بك ويجرح قلبي كل ما وقع نظري عليه.
 - ان شعب (الانت) لن ينساك ولن يخلع ثوب الحداد.
- والتمثال ما زال قائماً حتى اليوم، وكتب عليه الاسم وتاريخ اقامة النصب التذكاري في القرن الرابع الميلادي.
- وأطلق شعب (الاديغة) تقديراً لبطولة (باقسان) وإخوانه السبعة اسم (باقسان) على النهر الذي كان يسمى بنهر (ألتود - Altud)^(٩).

الفصل الثاني

الشعوب والدول التي اعتدت على الأمة الشركسية في الفترة الممتدة ما بين القرن السادس الميلادي وحتى القرن الخامس عشر الميلادي

تشير الوقائع التاريخية بأن خمسة من الشعوب المبينة أدناه اعتدت على الأمة الشركسية خلال هذه الفترة وهي:

- الاوار بقيادة الخان (بايقان).
- دولة الخزر.
- التورغوت أجداد شعوب القالموق.
- المغول، بقيادة جنكيز خان.
- التتار، بقيادة تيمورلنك.

وفيما يلي تحليل لوقائع وأحداث حروب واعتداءات كل دولة من الدول سابقة الذكر.

■ وقائع واحداث حروب ضد الادار

اجتازت جيوش (الأوار) المغولية الأصل نهر الفولغا بقيادة الخان (بايقان) عام (٥٦٥) الميلادي وقضي على بقايا قبائل (الهنون) في بلاد القفقاس وضمهم إلى قبائله، وانخرطوا في قواته وتكونت وحدة (مغولية، تركية) باسم (الاور). وحكموا بلاد الشراكسة مدة (٣٠٣) سنوات وامتدت من عام (٥٦٥م) وحتى عام (٨٠٣م) واستطاع خاناتهم (امراؤهم) خلال هذه الفترة من الاستيلاء على المناطق التي كانت خاضعة للإمبراطورية الاغريقية على ساحل البحر الاسود، ودمروا كثيرا من المدن والقرى القوقازية، وواصلوا زحفهم نحو بلاد (الآنت) الشركسية القاطنين في منطقة قبائل (القبرطاي) وقبل بدء الهجوم أوفدوا إلى زعماء القبرطاي رسلا يطلبون منهم تقديم الطاعة لهم، وكان رد الامير وبتشجيع من بعض زعماء القرم بالرفض التام، بل تعاملوا مع الرسل بعلياء وكبرياء، وردوا طلبهم بجفاء، وأجابوه بكلمات جارحة، فالح رسل (الخان) في طلبهم وهددوهم بقوة سيدهم، حتى احتدم الجدل، وقال لهم الامير "سنحاربكم وسنقاتلكم حتى لا يبقى من (الأديغة) شخص واحد قادر على حمل السيف" وقاموا بقتل رسل الخان الذين دفعوا حياتهم ثمنا لوقاحتهم.



صورة تمثل المواقع الوعرة التي كان يقاتل فيها المقاتلون أجداد الشراكسة في العصور الأولى ما بعد الميلاد

وكان من نتائج هذا الموقف الشجاع من الامير ((لاورستان)) وزعماء ((الأديغة)) ان قام الاوار بقيادة قائدهم (بايقان) بهجوم كبير على مناطق القبرطاي نتج عنه تخریب البلاد وإحراق القرى وإتلاف الزرع والإمعان في تقتيل السكان وتشريدهم واضطروا معها الفرار ((عزلا)) إلى الجبال والكهوف والغابات الكثيفة هربا من وحشيتهم وناقذاً لأنفسهم من الهلاك والفناء.

إن الخوف الذي ادخله ظلم (الاور) وطغيانهم في قلوب الناس كان يفوق حد الوصف حتى انهم اصبحوا لا يجسرون على البقاء في مكان واحد اكثر من يومين متوالين خشية ان يصلهم الاعداء او يباغتهم غفلة^(١٠).

وقتل الامير (لاورستان) في هذه المعركة وتعرضت قواته لخسائر فادحة، وانسحب مع قبيلة (كميركوي) التي كانت تشكل القوة الرئيسية في جيشه إلا أن قوات الاوار الطافرين طاردت فلول جيش (الكميركوي) المنسحبة، وفي مضيق (الحصان الابيض) تلاقوا بقوات (ينالقة) القادمة للنجدة وقابلوا الاوار فانهزم الامير (ينال) إلا أنه اعداد جميع قواته وقوات (الكميركوي) وقام بهجوم معاكس فكان الانتصار على (الأوار) فانسحبوا إلى الشمال وتخلصت بلاد الجراكسة من بلائهم وهمجيتهم إلى الأبد.

ولا تزال ذكريات تلك الفاجعة في ذكريات القفقاسيين تحمل المرارة والأسى حتى يومنا الحاضر، ففي الوادي الذي تغلب فيه (الأوار) بقيادة (بايقان) على قوات (لاورستان) الشركسية طريق يحمل اسم (حدرخه غوك) حتى اليوم ومعناه (طريق الآخرة).

كما ان وحشية جيش (بايقان) وهمجيته تركت أثرا كبيرا في نفوس (الادبغة) استمر حتى اليوم لدى الشراكسة في الوطن الام.. واعتادوا ان يضربوا مثلا كلما رأوا حصانا جميلا ابيض اللون بقولهم (مثل حصان بايقان) وسموا رجماً من الحجارة البيضاء بالقرب من قلاع (انابا) (حصان بايقان ابيض)*.

وتشير بعض الروايات الشركسية إلى أن جيش (لاورستان) فقد ما لا يقل عن ثلثي قواته. اما الثلث الذي عاد سالما، فكان محملاً بالغنائم والأموال والعتاد منها أعداد كبيرة من الخوذ الحديدية للتدليل على عدد قتلى جيش الاوار.

وبعد انتهاء المعركة الأولى التي خسر فيها الامير (لاورستان) ثلثي مقاتليه قال أحد شعرائهم قصيدة الرثاء التالية:

يا معيننا ومنقذنا (الياس)* ذا القوة والكرم.
ارسل البلاء من فوق السحب واقهر جواد (بايقان).
بيدك الطاهرة التي تفوق بياضا ثلوج جبالنا الابدية.
لقد فقدنا كل شيء في هذا اليوم الذي كان شره مستطيرا.
الجزع يعصر القلوب وضوضاء المعارك الدامية تطرد النياما.
ويل للشيوخ والاطفال، فهم حيارى لا مرشد لهم.
تراهم باحثين عن كمين بعيدا عن أوطانهم التي التهمت النيران.
والذي يزيد بؤسهم بؤسا الشك والريبة وخذلان الآمال.
يسعون في ديار الغربة عادمي السكينة والاطمئنان.
ودموعهم تنهمر من مآقيهم سيلان الأنهر من منحدر الجبال. (١١)

كما أنشد شاعر آخر بعد انتصار الجيوش الشركسية المشتركة بقيادة الامير (ينالوفة) أنشد (٣٢) بيتا نقتبس منها الابيات التالية:

* ذكر نغموقة في كتابه تاريخ الادبغة بأن الامير لاورستان استطاع الهروب ولم يقتل ص: ٥٥-٥٦.

* هو النبي الياس حيث كانت قبائل القبرطاي ومعظم قبائل (الادبغة) القاطنين على شواطئ البحر الاسود يعتقدون الديانة المسيحية عند وقوع معارك (الاوار والادبغة).

لقد رأينا حصن (غورتات) المنيع فريسة النيران كأنما نار الصواعق قد طوقته من كل صوب.

وكانت الحجارة المسودة من الدخان تنهال من أعاليه كأنها شهب متساقطة في الليل البهيم.

وبطلنا (الجوقة) الذي لا يعرف الخوف ما كان ليجزع من هول النيران، بل وثب فيها وثبة الأسود فاخترق.

وأما (حاتوظوقه) فلم يسبقه احد في يوم الرهان.

و(شيراتلوقه Sheratluko) القوي هزم الجمع وانتقم لإخوانه شر انتقام وبينما يهاجم الاعداء ببسالة كان يرى روح ابيه محلقا في الفضاء ليرى الصالحات من اعمال ولده الذي كافح الاعداء بلا معين.

واما (حاشو Chashow) الشاب فقد تحفز مرارا ليثب نحوه ويكون معينا له لو لم يمنعه عن ذلك الشيوخ الذي رق قلبهم على والدتهم العجوز الاميرة (شاميخا Shamicha) التي قبعنت في دارها وهي تذرف الدمع من هول الاسى والجزع.

غير انه وثب إلى الميدان رغم الموانع وأذاق الاعداء شر العذاب. أما تراه قد افرغ آخر سهم من كناناته الثلاث؟!

ان فرساننا الذين دمروا حصن (دربند) قد توجت رؤوسهم بالخوذ، إلا ان خوذة (قبش كوكو Kipsh Gugow) فاقتها خفة وجمالا.

و(اسلام Islam) يمطر الاعداء بوابل من السهام من قوس جده الكريم.

والشجاع (موقوج يظنوقو باديو) يتخبط بدمه في ظل راية (الخان) التي كان نجلها.

اذ رماه سيف العدو وخر صريعا.

وبطلنا (جاتم دوكر) الذي رده الاعداء رجع ثانية إلى ساحة الوغى ليخوض المعارك الدامية.

وكان (شاو باكر) العملاق يريق الدماء على جوانبه ويهزم جموع الاعداء شر انهزام^(١١).

تتفق الرواية الشركسية مع ما كتبه المؤرخ الروسي (كرامزين) الذي استقى معلوماته عن حروب (الاور - وشعب الأنت) ومن المؤرخين الاغريق القدماء وان الاختلاف بين الرواية وما كتبه المؤرخون هو في اسم (لاورستان) حيث ورد في (كتاب كرامزين) تحت اسم (لاوريتاس Lauritac). كما ورد اسم بايقان في الرواية الشركسية وعند كرامزين باسم (بايان - Bayan) وكذلك خلط بين شعب الاسلاو الصقيلي وبين شعب (الانت) الذين هم اجداد الشراكسة^(١٢).

▪ وقائع واحداث وحروب القرن العاشر الميلادي:

تمثلت اعتداءات القرن العاشر على شعوب الامة الشركسية بالاعتداءات الهمجية التي قام بها قادة دولة (الخرز).

وقبل البحث في وقائع واحداث تلك الاعتداءات لا بد لنا من اعطاء فكرة موجزة عن دولة الخزر من حيث نشأتها، وتكوينها وأهم مدنها وتحالفاتها.

يقول المؤرخون العرب والفرس عن دولة الخزر بأنها هي الدولة التي تشكلت بين نهري (القولغا والدون) في شمال القفقاس، وأنهم ينتسبون في الأصل إلى عرق شمالي أوروبي وأنهم ينتمون لشعوب (المجر أو الترك) وأنهم عرفوا بأكثر من اسم مثل (قوزار) و (هوزار) و (خزان)، ويقول المؤرخ العربي (ابن فضلان) بأن (الخزر) خليط من أناس بيض البشرة وسودها كما أن (أثير)، و (شمود الدمشقي) يرجعان أصل (الخزر) إلى الكرج والأرمن.

وأما ملك الخزر (ياسف) الذي كان يدين بالديانة اليهودية يقول بأن الخزر من أبناء (يافت) وأنهم من نسل الابن السابع (توغورما) واسمه (كسار) إلا أن الآثار المكتشفة في (كابادو) تدل بأن (الخزر) هم بقايا الحثيين الذين عاشوا في بلاد القفقاس، كما وجدت شواهد أثرية بأنهم انتقلوا في القرن الثالث أو الرابع الميلادي إلى الأقسام الشرقية من بلاد القفقاس، وذلك في فترة قبل بدء غزوات قبائل (الهون) واستيلاء العرب على جنوب القفقاس، ثم انتقلوا إلى شمال القفقاس وأنشأوا فيه أربعة بلدان وهي:

- **بلدة بلاجر** وتقع في جنوب الداغستان.
 - **بلدة سليندر**، ويسمىها العرب (سمندر) بالقرب من بلدة (قيزليار) الحالية عند مصب نهر (الترك) في بحر (الخزر) شمالي الداغستان، وسكانها من المسلمين و (اليهود الموسويين) والطبقة الحاكمة للمملكة هم من الخزر.
 - **بلدة اتيل** وموقعها على الشاطئ الأيسر لمصب نهو القولغا الذي كان يسمى آنذاك نهر (اتيل)،^(١٣) وكانت تشغل مركزا تجاريا هاما في ذلك الوقت.
- وتوسع الخزر غربا وأنشأوا دولتهم في جزيرة القرم على البحر الأسود، كما أنشأوا عاصمة جديدة لهم على بحر الازوف، وسميت ببلدة (سرقالة) واستمر حكم الخزر في بلاد القفقاس حتى عام ٩٨٠م.

▪ وقائع وأحداث وحروب بين دولة الخزر وشعوب قفقاسيا الشمالية:

تمثلت علاقات الخزر مع شعوب القفقاس عامة والشعوب الشركسية خاصة بنوعين من العلاقات هما:

الأولى: علاقات تجارية خاصة وأنهم توسعوا في تجاراتهم وانتشروا داخل القفقاس وخارجه في عهد الملك (بولان) الذي اعتنق الديانة (اليهودية الموسوية).

والثانية: تمثلت بالصدقة التي نشأت بين شعب الخزر والشراكسة، ثم تحولت إلى تحالف في فترة من الفترات التي كان فيها الشراكسة في حالة إعادة تنظيم صفوفهم بعد الدمار الذي خلفته جيوش الأوار.. إلا أن هذا التحالف لم يدم طويلا بعد أن حاول قادة ((الخزر)) بسط نفوذهم على بلاد الشراكسة، وجرت معارك دامية بين ((الأديكة)) الشراكسة وبين الخزر عام (٩٥٧م) في شمال نهر الكوبان^(١٤). وصفها (برقوق) بقوله: بدأت المعركة الأولى عندما خرج الأمير "بشي بزروقة بولاتوقه" مع الأمير "الجوقه قان شاو" لصد غارة الخزر على "تاماتركان" وقد سار الأمير "الجوقه" في الطليعة فاصطدم فجأة بجيش العدو الذي أحاط بقوته القليلة فاشتبك في قتال ضار مع العدو، ووقع أسيرا، وحين أدركت قوة (بزرروقة) المعركة أحاطت (الخزر) وحدثت معركة شديدة وانسحب الخزر مغلوبين إلى عاصمتهم الصيفية (سرقله) ومعهم الأمير (الجوقه) أسيرا، ونظمت أحد شعراء الشراكسة على إثر أسر الأمير (الجوقه) قصيدة نفتبس منها الابيات التالية:

كم من الايام مضت وعين (الجوقة) اليمنى تحرس البحار
لقد توالى الايام وهو في انتظار قدوم السفن الجسيمة.
ومضت السنون وهو ينتظر قطع الفضة لبيّتا حريته ثانيا.
لقد اقساموا له بذلك امام الله، وهذا شيء عظيم.
وهكذا يغضب (الجوقة) الذي آثار الحرب، وهو أسير في (سرقة).
لكن مقتك وغضبك قد ذهباً سدى يا (الجوقة).
إذ المحاربون الذين شتتوا الاعداء، حينما لم يجدوك.
لم يروا بدا من تركك حيث كنت، فارتدوا إلى ديارهم
مقلّنين بالأسلاب والغنائم التي تركها الاعداء الهاربون.
وحلفوا لك الايمان امام الله.. وهذا شيء عظيم.
مالك تغضب يا (الجوقة)؟.. أما أنت الذي جلب إلى نفسه.
الويل والخراب؟! فانتظر الرحمة اذن من بني قومك في (سرقة).
حلفوا لك الايمان مرارا امام الله.. وهذا شيء عظيم.
ولكن الايمان ذهب أدراج الرياح.. و(الجوقة) البطل.
يقضي أيام شبابه في ديار الغربة عبداً أسيراً^(١٥).

المعركة الثانية: وبدأت بعد أن اتفق امراء الشراكسة على غزو عاصمة الخزر (سرقة) أو (ايسكاله Askala)، فاحتلوها بالقوة، واطلقوا سراح (الامير الجوقة) كما استولى (الجيش المشترك) على سواحل بحر (ازوف) وسيطروا على إمارة "تمتارقان - Tamtarkan" وعادوا للبلاد منتصرين، واستقبلهم شعب "الأديغة" استقبال الابطال العظام، وساعدت الاموال والغنائم التي جلبوها معهم من بلاد الخزر على تخفيف وطأة القحط والمجاعة التي حلت ببلاد الشراكسة بعد الغزوات والاعتداءات الهمجية السابقة عامة مثل اعتداءات الهون وخان الاوار وغيرها.

أما المعركة الثالثة، فكانت في عهد الامير "ايدار Idar" حفيد الامير (بنال) الكبير. حيث تشير الوقائع التاريخية إلى أنه عندما بلغ هذا الامير الشاب سن الرجولة، كان أول ما فكر فيه هو غزو البلاد المجاورة واخضاعها، وزحف بجيش مكوّن من جميع قبائل (الأديغة) إلى مملكة الخزر القائمة على سواحل بحر أزوف. فهزموا الخزر، ورجعوا من حملتهم بكثير من الغنائم والاسلاب، وقيل إن جده "يلجروقة Eldjeruko" أمير قبائل "البطة دوغ" والعماق المشهور بقوته البدنية (ردديا Rededia) كانا يرافقانه في أسفاره وغزواته.

وقيل عن (ردديا) بأنه كان عملاقاً وقوياً ولم يتمكن أحد من شعب الأديكة من منازلته، وقد خلد اسمه في الأغنية المعروفة التي مطلعها:

ردديا، ردديا أسعد السعداء!.

وليومنا هذا يذكر اسمه في اغاني الاعراس ومواسم الحصاد وأوقات جمع الغلة وغيرها من المناسبات والحفلات في المجتمعات الشركسية العديدة^(١٦).

▪ وقائع واحداث حروب القرن الثالث عشر الميلادي

بدأت حروب هذا القرن بالاعتداءات التي نفذتها جيوش "التورغوت Turghut" وهم اجداد القالمون الحاليون، حيث فاجأت هذه الجيوش القبائل الشركسية التي كانت بقيادة الامير (بشي والامير قديرشوقة) من القبرطاي، فأعد لهم الامراء من ذوي الخبرة والحنكة الخطط المناسبة لمواجهة العدو مجهول العدد والعدة، حيث تضمنت تلك الخطط الاستراتيجيات التالية:

١- إرسال ألف من نخبة المقاتلين بقيادة ثلاثة من الامراء الشباب لاستكشاف حركات العدو وعدد مقاتليهم وقوتهم وأهدافهم الحقيقية وأدت هذه الفرقة الاستكشافية مهامها على اكمل وجه.

٢- استنادا للمعلومات التي حصلت عليها الفرقة الاستكشافية قام القادة العسكريون من الامراء بجمع قطعان الخيل والبقر وغيرها من الماشية التي كانوا يملكونها، وارسالها إلى مواقع جبلية محصنة بعيدة عن ساحة المعركة.

صور (رمزية) تمثل أميرين
من أمراء أجداد الشراكسة
الذين قادوا المعارك ضد
دولة الخزر



٣- وفي اليوم الثامن من بدء الاستعداد للمعركة تقدم المقاتلون الشراكسة إلى ملتقى نهري "المالقا والترك" وفي اللحظة التي بدأت قوات العدو في اجتياز النهر تصدى لهم بعض قوات القبرطاي التي كانت في الجبهة الامامية.. فاكشف القادة "الامراء" بأن الموقع غير مناسب من الناحية العسكرية وأن العدو مسيطر تماما على الموقع من جميع نواحيه، فأصدروا أوامر للقوات الشركسية بالتراجع واستدراج العدو إلى سفوح الجبال، كما قرروا التحصن على ضفاف نهر (بسي غونامي) ويسمى الآن نهر "لزن". واستكمالا للخطة العسكرية وحتى يتمكنوا من الدفاع عن البلاد قرروا ارسال نصف القوات العسكرية إلى ضفاف نهر ((باقسان)).

٤- تتقهقر القوات الشركسية للخلف أكثر فأكثر بعد ما تأكد لهم بأن عدد قوات العدو أكثر بكثير من القوات الشركسية.. فاجتاز قوات التورغوت ((مالقا)) من عدة مواقع وبدأو بحرق القرى المهجورة ونهب ما تبقى فيها من مخلفات وامتعة وقتل الكلاب والقطط والطيور لأكلها وشرب دمانها بنوع من التلذذ والشرهة^(١٧).

٥- حاولت القوات الشركسية التصدي لهم ومنعهم من التقدم، إلا أنهم خسروا المعركة الأولى أمام العدو كثير العدد والعدة، فانسحبوا والتجأوا إلى المواقع الجبلية فلحق بهم العدو بعد أن تحصن الشراكسة في موقع حصين فاشتبك الفريقان للمرة الثانية في معركة دامية استمرت بضعة أيام دون حسم المعركة لصالح أحد الفريقين، وقتل فيها عدد كبير من امراء القبرطاي منهم الامير (بشي باتوقة وخوتشوقة وبوتت، وكلمات) .

وأنشد الشعراء بعد انتصار قوات القبرطاي المدعومة من القبائل الشركسية الاخرى أبياتاً تصف بطولة الشراكسة في هذه المعركة نقتبس منها الابيات التالية:

إن الدماء تجري كالسيول في "قاج طاو" وابطلنا الذين لا يعرفون الخوف قد ضاق بهم المكان ومنعهم من الانتشار، وأما فرساننا البواسل فقد ضاقوا ذرعاً بالوادي الضيق.

وصفوف أمرائنا قد خلت من البطل الهمام (قدير شوقه) الذي كان أشجع الابطال، وقد قضى نحبه في "قاج طاو".

وكذلك (تابسوروقه) الشاب عندما دمر الجسر هوى في الهوة السحيقة حيث لاقى حتفه.

لقد كان (الشامخال) نفسه يشتهي المساعدات القيمة التي كانت أشهى غنيمة عنده وهي مبعثرة على الأرض، وأما محاربونا الذين نجوا من الهلاك فقد جاءوا إلى الامير ((قازي)) ابن ((بشي يابشوقه)) بالخبر الحزين وحينئذ اسرع هذا على جواده للحاق بأخوانه كالبرق، وكادت حبال السرج تنقطع من سرعة الجري، وهذا الحصان الذي لا مثيل له يرعى في الجبال مع الذئاب والاسود وهذا الامير القوي، بالنسبة إليه ليس إلا لهوا ولعبا ان يفصل الرؤوس عن اكتاف الاعداء العريضة، وان ضربته هي هي سواء كانت من يده اليمنى أو اليسرى ورماحه لا محالة قاتله، إذا لم تنكسر عيدانها من شدة الطحن ولكنه لم يرجع من ساحة الوغى وعود رمحها سالم^(١٨).

▪ أحداث ووقائع واعتداءات المغول الوحشية على بلاد الشراكسة.

تجددت المعارك ضد الشراكسة "الأديغة" عام ١٢٢٢م، حيث ارسل (جنكيز خان) جيشاً مؤلفاً من (٢٠) الفا من خيرة المحاربين بقيادة قائدين مشهورين هما:

(جبه) و (سوبوتاي تورغوت) إلى بلاد الداغستان أولاً واشتبكوا معهم في معركة (دربند) في الداغستان ولاقت القوات المغولية مقاومة عنيفة جداً، إلا أنهم واصلوا طريقهم نحو الشمال حتى وصلوا نهر الترك، واشتبكوا مع القبائل القوقازية المؤلفة من لاق أو (اللزكي) والآلان (أستين) والجاجان ومن التحق بهم من الداغستانيين وكذلك قبيلة القبقاق الكبيرة، ودارت معارك عنيفة بينهم قرب نهر الترك، وبادر امراء القبرطاي من عشائر الشراكسة (الأديغة) الشرقيين بزعامة الامير (ليشي يوقه) (ويشي قادر شاوقه) إلى ارسال مجموعة من الفرسان الشركس بقيادة الامراء ((قدير شوقه وتابسا روقه وجلاخستان)) إلى الخطوط الامامية في منطقة (دربند) الداغستانية لإعاقة تقدم جيش المغول إلى حين وصول المقاتلين من الشراكسة الغربيين من منطقة (الكوبان) والمؤلفة من قبائل الشابسوغ والابزاخ وغيرها. والنقى الجيشان في منطقة ((مزدوك)) وبالتحديد في موقع سمي باللغة التتارية اليوم (قاج طاو) ومعناه (الفرار من الجبال).

ثم عاودوا الهجوم على القوات الشركسية بعد اتفاق قادة المغول (سراً) مع قادة (القبجاق) مستغلين مشاعر (الآخوة التركية المغولية) أولاً مقابل منحهم قسماً كبيراً من غنائم الحرب ومسلوبياتها ثانياً. وكذلك استغلال بوادر الترهل والتراخي اللذين ظهرا بين صفوف الجيوش القوقازية عامة وجيش الاستين خاصة.

وحدثت معارك شرسة بين الجيوش المغولية وقادة القبجاق وبين الجيوش القوقازية وجيش الشراكسة (الأديغة).

ولم يتمكن الشراكسة القبرطاي من الصمود في المعركة فترة طويلة خاصة وان ثلاثة من اكبر قادتهم كانوا قد قتلوا وهم (بشي يوقه، وقادر شوقه، وكلمات) بالإضافة إلى جرح اميرين آخرين، فاضطروا للنهقر، إلى ان وصل الامير (شوة لوخ) من شراكسة الغربيين من قبائل الشابسوغ والابزاخ على رأس جيش كبير وقام بإعادة تنظيم قوات القبرطاي المتقهقرة وبدأ هجوم معاكس في لحظة كان فيها المغول في استرخاء من نشوة الانتظار ظناً من قادتهم بأن الشراكسة لن تقوم لهم قائمة، فهبت القوات الشركسية بهجوم صاعق وعنيف على مواقع المغول، اضطر معه جيش العدو المغول للانسحاب من ساحة المعركة ومغادرة بلاد القفقاس كما تمكنوا من استعادة الغنائم التي سبق ان استولى عليها قادة القبجاق الذين خانوا حلفاءهم الشراكسة بتقديم الدعم لجيش المغول^(١٩).

وفي عام ١٢٢٧ وبعد موت جنكيز خان قام ابنه الذي تولى قيادة المغول واسمه (اوجادي خان) بالتوجه نحو غرب روسيا على رأس جيش كبير واحتل روسيا بعد أن أحرق موسكو والعديد من المدن الروسية وأنشأ عام ١٢٣٨ دولة باسم ((دولة الجيش الذهبي)) وعاصمتها ((سازي)).

وفي عام (١٢٧٧م) عاد المغول بقيادة ((منغوخان)) ومعه بعض امراء الروس لمهاجمة بلاد القبرطاي في القسم الشرقي من القفقاس، وحاول الشراكسة إيقافهم، إلا انهم استطاعوا التقدم واحتلال منطقة حوض نهر الترك وبسط سلطاتهم عليها اضطرت معها عشائر ((الأديغة)) للانسحاب إلى الجبال الغربية، وأنشأ المغول خلال هذه الفترة مستعمرات لهم على سواحل البحر الاسود وحوض نهر الترك واختلطوا بالقبائل القفقاسية الاصلية وتوطدت بينهم العلاقات إلى حد قيام تحالف بينهم ومحاربة (تيمورلنك) التتري وفي عام (١٣٩٦) تعرض فيها الشراكسة إلى خسائر فادحة وانتصر فيه التتار بقيادة (تيمورلنك) كما هزموا جيوش المغول وقضوا على دولة الجيش الذهبي في موقع اسمه (نترتوب).

ونظمت قصائد الرثاء لوصف الخسائر الفادحة التي تعرض لها الشراكسة (الأديغة) من مجازر في هذا الموقع المسمى (نترتوب)، كما ان الشراكسة يقولون حتى يومنا الحاضر ((من غير الممكن أن لا تسيل الدموع عند المرور من توب)).

وفي عام ١٣٩٨م ثارت القبائل الشركسية عامة وشراكسة القبرطاي خاصة وهاجمت قوات (تيمورلنك) التترية ودارت معها معارك دامية انتصر فيها الشراكسة، وأسروا اعداداً كبيرة من قوات (تيمورلنك) الذين بقوا على قيد الحياة والتجأ عدد آخر منهم إلى بلاد القرم.

وبذلك استطاع الجركس وخاصة قبائل القسم الاوسط من العودة إلى السهول الخصبة التي كانوا قد نزحوا عنها إلى الجبال، وزال عنهم الكابوس الرهيب المزدوج هما: كابوس المغول وكابوس التتار، واستردوا وطنهم واعادوا بناءه من جديد.

مراجع ومصادر الفصل الأول والثاني

- (١) سمكوغ، برزج، مصدر سابق، ص ٢٤١.
- (٢) آبه زاو، نقلا عن هيردوت، مصدر سابق، ص: ٢٠٨-٢١٥.
- (٣) آبه زاو، مصدر سابق، ص ٢٣٢-٢٣٣.
- (٤) برزج، نهاد، مصدر سابق، ص: ٣٤.
- (٥) نغموقة، شورا بكمزره، مصدر سابق، ص: ٥٣-٥٤.
- (٦) جورناندس (مؤرخ غوطي) عاش في القرن السادس الميلادي وهو أول من كتب حول تاريخ (الغوط) وحروبهم في القفقاس، وقام المؤرخ الشركسي (نغموقة) بترجمة وقائع واحداث حروب (القوط) في القفقاس الشمالية ص: ١١.
- (٧) برزج، نهاد، تهجير الشراكسة، مصدر سابق، ص: ٢٤.
- (٨) نغموقة، شورا بكمزره: مصدر سابق، ص: ٤٩-٥٢.
- (٩) نغموقة، شورا بكمزره: المصدر نفسه ص: ٥٥-٥٦.
- (١٠) آبه زاو، مصدر سابق ص: ٢٣٥-٢٣٦.
- (١١) المصدر نفسه، ص: ٥٧-٥٩.
- (١٢) كرامزيين، المملكة الروسية، منشورة باللغة الروسية ص: ١٤ - الجزء الاول ونقلها للغة العربية شوكت المفتي عند ترجمته كتاب نغموقة (موجز في تاريخ (الجرکس) عام ١٩٥٣، ص: ٥٩-٦٠.
- (١٣) برقوق، اسماعيل، قفقاسيا في التاريخ المنشور في الاستانة عام ١٩٥٨ ونقل ترجمته محمد جمال آبه زاو في كتابه موسوعة تاريخ القفقاس والشركس ص: ٢٣٩-٢٤٢.
- (١٤) نغموقة، مصدر سابق، ص: ٧٣-٧٤.
- (١٥) المصدر نفسه، ص: ٧٨-٧٩.
- (١٦) المصدر نفسه، ص ٨٨-٩٠.
- (١٧) المصدر نفسه، ص: ٩١-٩٢.
- (١٨) برقوق، مصدر سابق ص: ١٧٠-١٧١.
- (١٩) المصدر نفسه، ص: ١٨٠.

الفصل الثالث

حروب الأمة الشركسية في القرون السادس والسابع والثامن عشر الميلادي

تعود بدايات الاطماع الروسية في الاستيلاء على بلاد القفقاس عامة وبلاد الشركس خاصة إلى عقد العشرينات من القرن الثالث عشر، وبالتحديد منذ ان شارك الروس مع دولة الجيش الذهبي في انشاء مستعمرات لها في سهول (القفقاس) وسواحل بحر الخزر، وحوض نهر الترك ابتداء من عام ١٢٢٧م وهي المستعمرات التي انشأها (منغوخان) وكان لها آثار كبيرة على مستقبل القفقاس ومقدرات الشعوب القفقاسية. حيث ان الروس (السلاف) لم يكونوا قبل هذا التاريخ يعرفون شيئاً عن القفقاس، إلا أنه وبعد الوصول إليها خلال مشاركتهم مع الجيوش المغولية اتحت لهم فرصة التعرف على ثرواتها واهميتها الجغرافية والاقتصادية وأوضاعها الاجتماعية، كما تعرفوا على مواقعها وطرقاتها وفتحت أطماعهم على خيراتها وترسخت في اذهانهم فكرة الاستيلاء عليها^(١)

▪ عقد اتفاقية التعاون بين امراء القبرطاي وقياصرة الروس بحثاً عن حليف لهم

تأخر التنفيذ الفعلي لمخطط الروس للاستيلاء على القفقاس (ارضا بلا شعب) حتى عام ١٥٥٧م وهو العام الذي بدأ فيه القبرطاي في البحث عن حليف لهم ضد (خانات القرم) حيث قرر زعيم منطقة قبرطاي الكبرى (ايدار تيمروقة) تشكيل وفد برئاسة قانوقة يقوه ووجههم إلى موسكو لعرض رغبة الامير تمروقة في عقد اتفاقية تعاون مع الروس وفي نفس العام وافق القيصر ايفان (الرهيب) على عقد اتفاقية تعاون مشترك مع القبرطاي وفق الشروط التالية:

١- تقديم اولاد الامير (تيمروقة ايدار) للقيصر كرهائن لضمان حق تنفيذ الاتفاقية وعدم الغدر به.

٢- تنصير الرهائن من اولاد الامير وتعميدهم تحت اسماء روسية (مسيحية).

٣- تزويج الاميرة (كوشينه) ابنة الامير تيمروقة بعد اعتناقها المسيحية وتعميدها تحت اسم (ماريا) واصبحت الزوجة الثانية للقيصر (ايفان) اعتباراً من تاريخ ١٥٦١/٨/٢١.

٤- دعم الشراكسة من القبرطاي الجيش القيصري اذا دعت الضرورة لذلك.

وبرر الامير تيمروقة عقد هذه الاتفاقية بقوله:

"بلادنا جميلة وأراضينا خصبة وغنية في ظاهرها وباطنها، وجيراننا أكثر منا عدداً وعدة، وكانوا يطمعون بالاستيلاء على أرضنا الحبيبة، مما دفعنا لطلب المعونة من الآخرين، حرصاً منا لحماية القفقاس الغالية، حيث إن الشراكسة قد تعلموا بعد تجارب كثيرة، من علاقاتهم مع الروس، أو مع خان القرم، أو مع الاتراك ووصلوا إلى قناعة تامة بأن لا أمانة لطامع أو مستعمر".

نقض الاتفاقية:

وتضاربت الاراء حول هذه الاتفاقية.. فهل كان الأمير تيمروقة على صواب عندما بادر في طلب عقد هذه الاتفاقية مع الروس؟ وكان من المشككين بالجدوى السياسية لهذه الاتفاقية الاكاديمية (تيخا ميروف)؟ الذي تساءل: "هل هذا الاتفاق هو لصالح امراء الشراكسة وهل عقده كان لضمان وتقوية مكانتهم"، كما كتب العالم (اوله بسخاف) بأن "شراكسة القبرطاي لم يقوموا بدورهم والنقيد بهذه الاتفاقية، وانهم شككوا بجودها، وأن أمانيتهم وأحلامهم كانت العيش أحراراً دون تدخل الآخرين بشؤون حياتهم"^(٢).



واما (ن. ف غرابوفسكي) نشر مقالة حول انضمام امراء (كابارد) القبرطاي إلى روسيا بقوله:

"... يجب الملاحظة أنه في الاوقات الحرجة وعندما لم تكن روسيا تملك القوة الكافية للدفاع عن نفسها، وقف القبرطاي إلى جانبها بمحض ارادتهم، وقدموا المساعدة للروس تحت تأثير مصداقية مشاعرهم دون ان يطلبوا لقاء ذلك أي مكافأة، وحتى انهم لم يستفيدوا في تلك الازمات من المساعدات العسكرية الروسية، وعندما أصبحت الدولة الروسية على أبواب الانهيار حافظ أمراء القبرطاي على اخلاصهم، وارسلوا موفديهم إلى موسكو للقاء القيصر والاعلان عن استعدادهم لدعمه".^(٣)

وبعد فترة وجيزة على عقد الاتفاقية تعاون ١٥٥٧/ أصبح شقيق الاميرة (ماريا) الذي تنصر واصبح اسمه (ميخائل تمروقوف جركسكوي) مستشارا خاصا للقيصر، إلا انه اتهم بقتل زوجة القيصر الاولى واعدمه اتباع القيصر ايفان الرهيب.

■ مأساة الاميرة ماريا (كوشينه)

وجدت الاميرة الشركسية التي نشأت في جبال القفقاس، وتربت وفق العادات والتقاليد الشركسية نفسها في وسط فاسد مليء بالدعارة والسكر والحياة الاباحية التي كانت تقام يوميا، وأصبحت كزهرة قطعت قبل اوانها، ولم يتح لها ان تتفتح، وبدأت بالانكماش والسعال فلم تصمد أمام تلك الحياة الفاسدة اكثر من ثماني سنوات حتى ماتت قهراً في عام ١٥٦٩^(٤).

■ أول تغلغل لجيوش السلطات الروسية القيصرية في بلاد القبرطاي:

في عام ١٥٦٥ ارسل القيصر ايفان الامير ايوان داتشكوف على رأس جيش إلى بلاد القبرطاي لمساعدة اميرها (تمروقة) في حروب ضد تاتار القرم، وبدأ تنفيذ اولى سياسته الاستعمارية بحجة حماية الامير (تمروقة) للتغلغل في بلاد الشراكسة والتي تمثلت بالسياسات التالية:

١- نشر المسيحية بين شراكسة القبرطاي.

٢- انشاء مدينة روسية على ضفاف نهر الترك بالرغم من معارضة الشراكسة (القبرطاي) وعلى إثرها توترت العلاقات بين الطرفين وتحولت لمصادمات مسلحة عنيفة بين الشراكسة وقوات القيصر الروسي.

وفي عام ١٥٧٠ تم اخلاء هذه المدينة، ومن غير المعروف ان تم ذلك بطلب من السلطان التركي أم لأسباب مجهولة أخرى.. وفي عام ١٥٨٨ وخلال عهد القيصر فيدور ايفانوفيتش تم انعاش تلك البلدة من جديد.

وفي عام ١٥٧٨ اقام الروس أول قلعة لهم في القفقاس على ضفاف نهر (سونج) والقلعة الثانية على ضفاف نهر (ترك) عام ١٥٨٨. (٦)

وفي عام ١٥٧٠ هاجم خان القرم (دولت كراي) بلاد الشابسوغ أولا ودمر قراها وسلب ونهب اهلها، ثم هاجم بلاد القبرطاي وانسحب منها بعد معارك عنيفة، وكانت تلك المعارك اول اعتداء يتعرض لها شراكسة القبرطاي بعد توقيع الاتفاقية مع (ايفان الرهيب) إلا ان القوات الروسية لم تتحرك لمساندة قوات القبرطاي تنفيذاً للاتفاقية الموقعة بينهما بحجة ان الروس كانوا مهددين ايضا من هجمات التتار واعتداءاتهم. (٥)

بدء الاعمال العسكرية الروسية في بلاد القفقاس:

بدأ قياصرة الروس في تنفيذ مخططهم للاستيلاء على بلاد القفقاس بالقوة العسكرية بعد ان اصبح لهم موطئ قدم بعد تشييد قلعتين عسكريتين على ضفاف نهري الترك وسونج. حيث امر القيصر الهجوم على بلاد الداغستان عامي ١٦٠٤-١٦٠٥، إلا ان الداغستان والشيشان قاموا بدفاع قوي مشترك أدى إلى ايقاع خسائر في الأرواح لأكثر من (٧٠٠٠) قتيل روسي، وهزموا في هذه المعارك مما اضطرهم إلى الاعتصام داخل القلعة التي بنوها على (نهر ترك) وفي نفس الفترة قام الروس ايضا بمهاجمة شعب الاديغة في (الكوبان) إلا انهم فشلوا في هجومهم واجبروا على التوقف عند موقع شعب مدينة (ستافروبول) حالياً.

وفي عام ١٦١٣ اراد الروس تحصين مواقعهم في بلاد القبرطاي فقاموا بتحصين القلعة التي بنوها على نهر (الترك)، وجعلوها مركزا اداريا وعسكريا لهم، وفي عام ١٦١٥ اعترف بعض شراكسة القبرطاي بزعامه الامير (سنجالي) على منطقة قبرطاي الكبرى (٦).

▪ اعلان امراء القبرطاي الطاعة والولاء للقيصر رومانوف

وفي عام ١٦١٤ وبعد احراز الروس النصر النهائي على البولونيين وطردهم من بلادهم نوذي (بمخائيل فيدوروفيتش رومانوف) قيصرًا على البلاد الروسية وأرسل كل من امراء القبارطاي (شولوخ، قازي شبتوقا، موردار، قودنيت مرزا قاسبولات، نارت شو مرزا بوسولكا، وأولاد آتيك وغيرهم) كتاب تهنئة بمناسبة جلوسه على العرش. واعلنوا طاعتهم مجددا للقيصر (وادوا يمين الولاء) بحضور رسوله (بطرس سماغين)، أحد أكابر (البويار) الذي كان قد اوفد خصيصا إلى بلاد الجركس لينتقل عرض طاعتهم ويمين ولائهم الذي ادوه على (المصحف)، وكان نص يمين الولاء كما يلي:

"أنا الموقع ادناه (اسمه) (احلف يمين الولاء للقيصر العظيم) وأمير الامراء "مخائيل فيدوروفيتش" حاكم البلاد الروسية جميعا وأضمن له السلام بنفسي واتعهد بأن أقوم بكل ما علي من واجب الطاعة والولاء التام، وعلى اخواني وأقاربي وعلى جميع سكان القبارطا من جميع الطبقات، وليس لنا غرض سوى الخدمة والطاعة للحاكم العظيم وأمير الامراء "مخائيل فيودوروفيتش" طول أيامنا وحياتنا بكل صدق وأمانة، ولا هدف لنا إلا عمل ما يأمر به ويشير إليه وسوف نبقي إن شاء الله تحت طاعته.

وإذا أمرنا بمقاتلة الأعداء أو من عصى أمره أكون أنا (الاسم) واخوتي وأولادي وجميع اتباعي رهن اشارته، ولن أتأخر لحظة واحدة عن تنفيذ أوامره، كما نتعهد بأن نقوم بواجبنا بكل دقة وأمانة دون اهمال أو خيانة وعن طيب خاطر وبكل سرعة ممكنة. ونتعهد أيضا بأن لا نعاشر إلا الامراء الذين يخدمون سيدنا القيصر حق الخدمة والذين لا يعصون أمره ولا يسيئون إليه، ولا يتعدون على البلاد الخاضعة له، ولا يشتغلون بأعمال النهب والسلب وسرقة المواشي، ولا يأسرون الحائز لتابعيته. وسوف لا نعترف بالملوك ولا نجالس أهالي (أزوف) ولا الخائن لبلاده، ولا نريد ان نرافق احدا منهم إلى موسكو أو إلى غيرها من المدن الخاضعة للقيصر، ولا إلى المدن الواقعة على ضفاف نهر الدون، ولا إلى بلاد اوكرانيا ولا (موردا)، وسوف لا أصحابهم بأحد يرشدهم إلى تلك البلاد والمدن المذكورة، أو يدلهم على أي تابع من اتباع القيصر العظيم وأمير الامراء "ميخائيل فيودوروفيتش" الذي تخضع له جميع البلاد الروسية.. وها أنا أتعهد بأن لا أرشدهم ولا أدلهم أو أصحابهم بأحد يرشدهم. وأتعهد بأن لا اشترك بأية مؤامرة وأن لا أخونه... وهلم جرا...

وتضمنت وثيقة الولاء في فقرتها الأخيرة النص التالي:

"أقسم اليمين بتحقيق وتنفيذ كل ما جاء في هذه الوثيقة للقيصر العظيم وأمير الامراء "ميخائيل فيودوروفيتش" الحاكم على جميع البلاد الروسية.

ولم يكتفِ الامراء بإرسال وثيقة الولاء للقيصر، بل قاموا بإرسال وفد رسمي ليعبروا عن ولائهم وخالص طاعتهم للقيصر مؤلف من: الامراء (قانبولات سونجا لاي قانفيليش، وشوجنوقة مرزا بوسلوق) كما قدموا رهائن تأكيدا لضمان ولائهم وتضم أفرادا من أسر الامراء التالية: (دنكرنك ألاشوقا، وقازي موساوى، وسلطان علي جانبولات، وشولوخ، واسلام بك موسى).^(٧)

وفي عام ١٦٤٥ وبعد تسلم القيصر الجديد (ميخالوفيتش) سدة حكم روسيا، جدد بعض امراء القبرطاي ولاءهم واعلنوا تأييدهم للقيصر الجديد واقسموا اليمين لأن يكونوا في خدمته كما كانوا في خدمة سلفه القيصر السابق.

وتكرر اداء قسم اليمين لكل قيصر جديد كان يتسلم الحكم في موسكو حرصا على امراء شراكسة القبرطاي تنفيذ شرط من شروط اتفاقية التعاون التي وقعت مع ايفان الرهيب منذ عام ١٥٥٧م.

ثانيا: وقائع وأحداث حروب الأمة الشركسية في القرن الثامن عشر ضد الغزاة خانات القرم

بدأت أحداث هذا القرن بمعارك عنيفة مع جيوش خانات القرم وأهمها:

■ معارك العقد الأول من القرن الثامن عشر

* معارك عام ١٧٠٥ وانتصر فيها شراكسة القبرطاي بدون اية مساندة من السلطات الروسية بالرغم من الاتفاقيات الموقعة بينهما.

* وفي عام ١٧٠٧ هُزم قوزاق التيرك على يد خان القرم وبعد ذلك بخمسة اعوام اقنع القائد البري / البحري الروسي الشهير (أبراكسين) القيصر بطرس على دفع روبل لكل رجل شركسي، وقلد كل مجموعة أو فوج منهم صولجان الشرف، والذي ما زال احفادهم يحتفظون به حتى اليوم مع تذكارات نصر مختلفة، بما في ذلك راية القيصر الكسي ميخالوفيتش (Alexei Mikhailovitch)

* في عام ١٧٠٨ عاود قوات خانات القرم هجومها على بلاد القبرطاي، وردوا على اعقابهم مهزومين .. وبدون أية مساعدة من الروس ايضا.^(٨)

* وفي يوم ٢٦ آب عام ١٧١١، غزا اراكسين، حاكم استراخان، بلاد الشراكسة بجيش روسي قوامه ٣٠,٠٠٠ جندي، فنهب القرى وخرّب الأرض بمحاذاة نهر الكوبان، قتل ٤٣,٢٤٧ شركسيا، ساق أمامه ٣٩,٢٠٠ جواداً، ١٩٠,٠٠٠ رأس ماشية و ٢٢٧,٠٠٠ رأس غنم. لم تكن الغاية من الحملة مجرد الربح المادي، بل كانت مقدمة لحرب الاكساح الرهيبة التي تنوي روسيا الشروع بها.

* وقائع واحداث وحروب العقد الثاني من القرن الثامن عشر:

يعتبر يوم ١٧٢٢/٧/٢٧ هي البداية الفعلية لحرب الابداء والدمار التي شنتها سلطات روسيا القيصرية على شعوب القفقاس عامة والامة الشركسية خاصة، وفي هذا اليوم قام بطرس الاكبر بحملة حربية على القفقاس بعد أن كان قد سبق وأرسل حملتين، أبديتا إبادة تامة، وكان الجيش البري مؤلفا من الجنود الخيالة الذين سبق لهم ان حاربوا في السويد، إضافة إلى دعم القوزاق والنتار والقالموق والاسطول البحري الذي وصل إلى نقطة الانزال يوم ١٧٢٢/٧/٢٧ .

كما وجه القيصر بطرس الاكبر حملة أخرى ضد مدينة (خيوه)، بقيادة الامير (بيقوفتش شيركاسكي) من عائلة بيقوفتش من الاديجية أصلا، الذي سبق أن التحق بالبلاط الروسي إبان حكم القيصر ايفان الرهيب، وقد مُزقت القوة شر تمزيق وقتل جميع افرادها البالغ عددهم سبعة الاف جندي تقريبا بمن فيهم قائدهم الشركسي الأصل، وقام مقاتلو القبرطاي بحشي جثة الامير بيقوفتش بالقش وعلفت على باب المدينة ليكون مصير هذا الامير القفقاسي المرتد عبرة لاولئك الذين يفكرون في خيانة شعوبهم واطنانهم. ويقول المؤرخون لهذه المعركة بأن السلطات الروسية خرجت من وقائعها بحقيقتين:

الاولى: ضرورة اقناع دول اوروبا عامة، لتقديم الدعم للدولة الروسية ومساعدتها في التصدي للقوى الاسلامية المؤلفة من شعوب (القفقاس الشرقي وتركيا العثمانية، وإيران الفارسية والامم المسلمة في شرق بحر قزوين)، وهكذا قامت دول اوروبا اعتبارا من هذا التاريخ، بفتح ابواب مصانعها الحربية أمام البعثات الروسية، لتعرف منها ما تشاء.



صور رمزية تمثل مجموعة من أمراء الشراكسة الذين قاتلوا القوات الروسية القيصرية التي

اعلنت حرب إبادة ودمار الأمة الشركسية في القرن الثامن عشر الميلادي

والثانية: قناعة الروس بأن بلاد القفقاس أكثر منعة من أن يتمكن جيش واحد من احتلال أراضيها مهما بلغت قوة هذا الجيش، وهي القناعة التي تكونت بعد أن هُزمت روسيا القوية شر هزيمة على يد عصابة صغيرة من محاربي القوات القوقازية عامة والشراكسة الشجعان خاصة. وأغرقت اثنتا عشرة سفينة من سفن الاسطول الروسي، كما تعطلت ثلاثون أخرى ولم يتمكن الجيش الروسي الوصول إلى ابعد من (دربند)، مع العلم بأن حاكم هذه المدينة (الضعيف)، قام بفتح ابوابها المنيعة طوعا، ولم يتم احتلالها بالوسائل الحربية^(٩).

وفي عام ١٧٢٩م عادت قوات (خانات القرم) بالهجوم على امارة القبرطاي الشركسية بقوات كبيرة من ثلاث مناطق، إلا أن المقاتلين القبرطاي استطاعوا بحنكتهم الانتصار عليهم وعودتهم لبلادهم بعد أن كبدوا خانات القرم خسائر كبيرة في الارواح والعتاد.

وقائع واحدت وحروب العقد الثالث الميلادي من القرن الثامن عشر

بعد وفاة القيصر بطرس الأكبر، ضعفت سيطرة روسيا على المناطق القفقاسية واضطرت اخيرا للانسحاب واخلائها في عام ١٧٣٥م.

وفي يوم ١-٩-١٧٣٩م اعترف الروس والعثمانيون بموجب (معاهدة بلغراد) باستقلال مناطق قبرطاي الكبرى، وقبرطاي الصغرى، ومنطقة مزدوك، ومع ذلك ظلت المراسلات بين الطرفين (الروسية والعثمانية) تتم تحت اسم الحاكم الوريث لمنطقة بلاد الشركس والقبرطاي.

احداث ووقائع وحروب ووقائع العقد الرابع من القرن الثامن عشر

كانت روسيا تراعي تطبيق (معاهدة بلغراد) لكنها لم تتخل عن أطماعها في بلاد القبرطاي، واستغلت السلطات الروسية تهديدات شاه ايران بغزو بلاد القبرطاي عام ١٧٤٠ في التقرب من امراء القبرطاي من جديد ومحاولة اقناعهم بأن روسيا ستقف إلى جانبهم في حال قيام السلطات الايرانية بغزو بلادهم، ولتحقيق هذا التقارب أوفدت روسيا في عام ١٧٤٢ قيصر جورجيا (باكاز باختاغوفيتش) إلى القبرطاي، حيث كانت له علاقات قربى مع بعض امراء القبرطاي. ونجحت مساعيه حيث ارسل القبرطاي احد كبار شخصياتهم واسمه (محمد صادق يوسف) لحضور احتفالات تنصيب الامبراطورة (اليزابيث بيتروفا) عام ١٧٤٢، كما تم منح الهبة المخصصة سابقا لبلاد القبرطاي بقيمة عشرة الاف روبل بأمر من مجلس الشيوخ الروسي الصادر يوم ٩/ شباط من نفس العام.

احداث العقد الخامس من القرن الثامن عشر الميلادي:

توفي في عام (١٧٥٠) الأمير ينال حاكم القبرطاي الصغرى، تاركا وراءه ثلاثة ابناء ولما كانت العادة في مثل هذه الحالة، أن يكون للابن الاكبر الاولوية في تولي حكم الامارة شرط ان يحصل على غالبية أصوات الاعضاء في "المجلس الشعبي" المكون من الامراء الآخرين في الإمارة ومن النبلاء والقضاة وممثلي العائلات الكبيرة. ولما كان الشعب يكره هذا الابن الأكبر، رفض ممثلوه في المجلس، ترشيحه ليكون خليفة لوالده. وتأزمت الامور وانقسم الشعب إلى ثلاثة أحزاب، كل حزب يناصر اميرا، وفي النهاية، تم الاتفاق على تقسيم الامارة بين الامراء الثلاثة، حيث اعطيت مقاطعة (مزدوك) للابن الاكبر، الامير "كورغوقة، قانجوقين". إلا أن الأمير لم يكن راضيا عما حصل عليه، وذهب إلى التتار يحرضهم على أخويه، ومأمله التتار إلى ان انفق أمواله كلها ثم اخبروه بأن لا قدرة لهم على محاربة أمراء قباردا، وعندها استدار إلى الروس وألقى بنفسه في أحضانهم، وترددوا في قبوله بينهم، إلا أنهم ساعدوه على الانفصال عن قبيلته والاستيطان على ضفاف نهر الترك وفي الموقع الموجود فيه اليوم مدينة (مزدوك) واعتنق الديانة المسيحية، وتبرع بمساحات كبيرة من الاراضي لانشاء حصن (قلعة) عليها.

* وقائع واحداث وحروب العقد السادس من القرن الثامن عشر

وفي عام ١٧٦٣ ذهب الامير (كوغرة) إلى بطرس برغ، وعُمد للمرة الثانية، وفي عام ١٧٦٤ انضم ما يقرب (٢٠٠) شخص إلى قلعة (مزدوك) واعتنقوا الديانة المسيحية واصبحت هذه القلعة مأوى للفارين والمعارضين من بلاد القفقاس عامة وبلاد الشراكسة خاصة، فاحتج أهل القبرطاي لدى الحكومة الروسية وطلبوا ازالة الحصن من جهة، كما طالبوا تعويضا عن أتباعهم الذين هربوا والتجأوا إلى تلك القلعة.

وفي حزيران من عام ١٧٦٥م شن الحزب المعارض للوجود الروسي في مزدوك من بعض أمراء الاقطاع الشراكسة) سلسلة من الهجمات ضد المواقع الروسية في القاطع الشمالي ودارت معارك طاحنة، سميت باليائية، لأنها كانت تستمر حتى الفناء... فناء هذا الطرف أو ذاك. وأبيدت وحدات روسية حتى آخر رجل فيها، ووسع القبرطاي مجال عملياتهم نحو الشرق، وهاجموا موقع (كزليار) عاصمة الروس في الجنوب ومركز قيادة ما يسمى بـ جيش القفقاس. وبعد ان اجتاحوا ودمروا التحصينات والمخافر ونقاط الحراسة الخارجية فيها، لاحقوا الجنود الروس والمليشيات القوزاقية الى داخل المدينة. ودارت معركة طاحنة فر الروس بعدها إلى داخل القلعة، وتحصنوا فيها، وحاصر القبرطاي القلعة، لكنهم لم يتمكنوا من اقتحامها لأنهم كانوا يفتقدون إلى أدوات التدمير، كالمدافع وملح البارود اللازمة لفتح ثغرات في أسوار القلعة محاولة حكومة الباب العالي في استانبول ان تجبر انتصارات القبرطاي لصالحها، فأعلنت الحرب على الروس في الثامن عشر من تشرين الثاني سنة ١٧٦٨م ورد عليهم الروس بفتح جبهة جديدة في المناطق الواقعة على ضفاف نهر الدانوب، لمنع الاتراك من تركيز قواتهم في جبهة القفقاس. كما أرسلوا حملة بقيادة (تود ليبين) وهو مرتزق ألماني، (التحق في خدمة الجيش الروسي وسبق أن أحرز شهرة كبيرة عام ١٧٦٠م باستيلائه على جورجيا وأرمينيا) إلا أن حملته اخفقت إخفاقا تاما. وتراجعت القوات الروسية إلى خط المستعمرات الشمالية.

وكذلك فإن (الجنرال فون ميدم) مرتزق ألماني آخر ومتحد مع قائد تثار القالموق "أوباش" هاجما معا إدارة قباردا الصغرى وإمارات كوبان. وحدثت مجزرة بشرية لم يشهد التاريخ لها مثيلا، قتل فيها الالاف من المدنيين وخصوصا الأطفال، حيث كانت أول حملة تستهدف الاطفال تحديدا، وذكر الكونت "بوتوشي" في كتابه الذي روي فيه عن هذه المجزرة بقوله: "بأن الناس في القفقاس دأبوا منذ ذلك الوقت على تخويف وتهديد أطفالهم لإسكاتهم بقولهم: صه.. الجنرال الاصم آت". (يبدو أن فون ميدم كان أصما في إحدى أذنيه).

وأراد الروس ان يظهروا أمام القفقاسيين عامة وامام العالم خاصة بمظهر الأبرياء، من دم أطفال (الأديغة) المسفوح، فاتهموا حلفاءهم بهذه المجزرة التي لم يشهد التاريخ مثيلا لها، وأعلنوا عن سخطهم على (تثار القالموق)، وأخذوا يسيئون إليهم بشتى الطرق، مما حدا (بالقالموق) إلى طي خيامهم، والعودة في هجرة جماعية، إلى بلادهم الاصلية الواقعة على حدود الصين الشمالية، وقلّة قليلة منهم لم يهاجروا حيث توجهوا إلى بلاد الشراكسة وعبروا نهر ترك، واستوطنوا في السهول الواسعة، الممتدة فيما بين بلاد التشاشان وقباردا الصغرى، وقرروا التحالف "مع الأديغة" وبدأوا يقاتلون الروس، جنبا إلى جنب مع أهل القفقاس.

وفي الفترة ما بين ١٧٦٥-١٧٧٩ وعلى اثر الهدنة التي تلت حرب (مزدوك) التي جرت بين الروس والقبرطاي كون الروس كوكبة الفرسان التابعة لفوج (قباردى) تعدادهما (٦٠٠) فارس من الامراء والنبلاء ومن المحاربين القبرطاي القدامى بينهم (١٢) اميرا ونبلا.

كما ساهمت (قباردا الصغرى) في هذه الكوكبة بضعف هذا العدد، وأنيط بهذا الفوج حسب الأوامر الصادرة إلى المشير الكونت "يوتيو مكين" المهام التالية (١) تأمين خطوط المواصلات (٢) الحفاظ على الأمن (٣) التصدي للنتار القاطنين أو الجوالين في السهوب الشمالية، ومنعهم من ارتكاب أعمال السلب والنهب، وقد نجحت هذه القوات في تنفيذ المهمات الملقاة على عاتقها، بل زادت على ذلك بأن تصدت لهجوم قام به الأتراك، قرب "أنابا" وهزمته.

وعندما طلب من قادة هذه الكوكبة الاشتراك مع القوات الروسية في حرب ضد قومهم الشراكسة رفضوا وتركوا العمل فيها وعادوا إلى بيوتهم في القبرطاي.

وفي عام ١٧٦٧ قامت شعوب الشراكسة في الكوبان بتشكيل اتحاد مع أهل القرم من النوغاي والتتر... ودعوا أهل القرم للهجرة والالتجاء إلى بلاد (الكوبان الشركسية) وتشكيل قوة عسكرية مشتركة للقيام بهجوم على جيوش القيصر الروسي، إلا أن الخطة لم تنجح، واكتشفها القادة الروس وقامت السلطات الروسية بنفي العديد من الزعماء المشتركين بهذا الاتحاد، من التتر وغيرهم إلى (أورنبورغ).

في عام ١٧٦٩ صدر الأمر إلى الجنرال (فون ميدم) بأن يتولى أمور بلاد القبارطي، وأن يعاملهم بالعنف والقوة إذا اقتضى الأمر، حيث أجبروا على الخضوع للروس من جديد، وإعلان ولائهم لهم بصورة رسمية، واستردوا مقابل ذلك حقوقهم وامتيازاتهم التي أعطيت لهم سابقاً، على أن يقوموا بتقديم الرهائن التي يقدمها عادة أهل القبارطي الكبرى للسلطات الروسية ضماناً لتنفيذ تعهدهم بالولاء لها.

أما أهل قباردا الصغرى فقد أعفوا من تقديم الرهائن لأنهم أثبتوا فيما مضى إخلاصهم وولاءهم للروس بسلوكهم الحسن، وعدم قيامهم أو اشتراكهم في الإخلال بالأمن والنظم الروسية.



قائد الحرس الامبراطوري في عهد القيصر نقولا الثاني الجنرال يدج حغندوقة المعروف عند الروس بالجنرال قسطنطين حغندوقف مع بعض رجاله

ومهما يكن الامر فإن الجنرال (فون ميدم)، كان شديداً بحفظ الأمن، وكان يُصدر من حين إلى آخر من الاوامر ما يكفل ذلك، ومنها الأمر الذي يتعلق بالراغبين بالسفر إلى البلاد الروسية، حيث كان يترتب على كل (قوقازي) يرغب الدخول إلى الأراضي الروسية أو المهاجرة إليها بقصد الاستيطان أو حتى بقصد اعتناق الديانة المسيحية، أن يستحصل على شهادة تثبت أنه لم يسبق له ان اقترف جرماً أو خيانة في بلاده.

وفي إبريل من عام ١٧٦٩ قام الجنرال (أوباش) أحد قواد القالموق، بإعداد جيش كبير قوامه (عشرين ألف) مقاتل وهاجم بلاد القبارطاي، وأحرز عليهم انتصارا كبيرا.

واستفاد الجنرال (فون مديم) من هذه الانتصارات التي كانت ذات أهمية بالغة بالنسبة إليه، والتي أدت إلى إضعاف القبارطاي عسكرياً، كما قام بالاشتراك مع (أوباش) المذكور واجتيازه نهر الكوبان وخوضه عدة معارك دامية ضد أهل (الكوبان) من شعوب الأديغة، كما أنه عاقب في طريقه اليهم (التتار) الذين كانوا يقيمون على ضفة (الكوبان) بقيادة (سلطان أول)، لأنهم برغم خضوعهم لسلطان روسيا سنة ١٧٣٦، شقوا عصا الطاعة وفروا سنة ١٧٤٢ إلى ما وراء الكوبان.

ومن جهة أخرى قام المأجور (راتاليف) على رأس جيش لا يستهان به بمهاجمة القبارطاي، والتغلب عليهم، حتى اضطروا إلى الاعتراف بحكم روسيا عليهم، كما حارب جماعة من الأبازا تدعى (آلي كسك) والتغلب عليهم أيضاً، وأجبارهم على الخضوع لحكم الروس أيضاً.

إن الأحوال العامة في هذه الآونة كانت بعيدة كل البعد عن الهدوء والاستقرار لكون بلاد الشراكسة عرضة للمداخلات من الخارج. وكان يراد بهذه التدخلات والتأثيرات الخارجية حمل شعوب الشراكسة سواء أكان في القبارطاي أو الأديغة في الكوبان، للانضمام مع أحد الفريقين المتنافسين، (التركي والروسي)، والقيام بثورة ضد الحكومة الروسية. وقد تمكن المدعو الكابتن (هاكه بوش) بدسائسه ومداخلته من استصدار فرمان من السلطان العثماني يحرض فيه شعب القبارطاي على شق عصا الطاعة والقيام بثورة على الدولة الروسية، وانقسم الشعب الشركسي إلى حزبين، حزب بقي برئاسة الأمير (أتازوقه) وبقي مواليا للروس ومحافظا على تعهده السابغة، وحزب آخر أخذ يناصر شعوب (الكوبان) الجركسية من الأديغة تحت قيادة أربعة من الأمراء. إلا أن هذين الحزبين اضطرا أخيراً إلى الاتحاد وموالاته روسيا.

وبالرغم من ذلك كله، لم يوفق الجنرال "فون مديم" إكمال مهمته والقيام بكل ما كان ينوي إنجازه في البلاد القفقاسية، إذ إنه بعد مدة وجيزة تسلم امراً بلزوم حضوره أمام محكمة عسكرية تشكلت بصورة خاصة لمحاكمته، على أن يسلم زمام الأمور للجنرال (فون ياكوبي) الذي تعين قائداً وحاكماً عاماً في استراخان. (١٢)

■ سياسة إنشاء حصون وقلاع جديدة:

بعد استلام الجنرال (فون ياكوبي) زمام الأمور أخذ على عاتقه إجراء بعض التغييرات والتبديلات العسكرية، واهتم كثيراً في تقوية الحدود الجنوبية، أي الحدود الواقعة بين القوقاز وجنوبي روسيا، فقرر إنشاء (١٢) حصناً جديداً وهي:

١- حصن (يكاترينوغراد) على الضفة اليسرى من نهر المالقا، في موقع يبعد من مصبه اثني عشر ميلاً وعلى بعد خمسة وثلاثين ميلاً من حصن مزدوك.

٢- حصن (باولوفسكايا) على بعد خمسة وأربعين ميلاً عن الحصن المذكور في الجهة الجنوبية من نهر القورا.

٣- (ماريسكايا) على ضفاف نهر زالوكا على بعد اثني عشر ميلاً من حصن باولوفسكايا.

٤- حصن (جيورجيفسكايا) على الضفة اليسرى من نهر البودو كوموق على بعد ١٥ ميلاً من الحصن السابق.

٥- حصن (اندريفسكايا) في الجهة الشمالية من نهر دونغوزلي على بعد ٣٥ ميلاً من حصن جيورجيفسكايا.

٦- حصن (الكساندروف) على الضفة اليسرى من نهر دونغوزلي على بعد خمسة عشر ميلاً عن طريق الحصن الأخير.

- ٧- حصن (ستاوروبول) على الضفة اليسرى من نهر اتشيله على مسافة ٣٥ ميلا من الحصن الأخير.
- ٨- حصن بين الحصنين الأخيرين باسم (سفرنايا) على الضفة اليسرى من نهر كاللوس) على بعد ١٥ ميلا من الكساندروف.
- ٩- حصن (موسكوفسكايا) بعيدا عن (ستاوروبول) بمقدار ثلاثين ميلا لتأمين المواصلات بين منطقة (الدون) والنقاط الهامة من الحدود الجنوبية.
- ١٠- حصن (دونسكايا) على ضفاف نهر (تاشلة) للغاية نفسها. ثم أقام نقطتين مستحكمتين عند نهاية الجبال المكسوة بالأحراج الكثيفة والمسماة (شيكار اغاج)، لربط منطقة الكوبان بمنطقة الترك، وتأمين المواصلات بينهما، ونقطة ثالثة على الضفة اليسرى من نهر الكوبان بمنطقة الترك البعيد عن (ستاوروبول) وعلى بعد تسعين ميلا منه. وعلى بعد ٧٥ ميلا من النقطة الأخيرة أقام مستحكمة باسم (مريا مسكايا) وكذلك أقام على بعد ٧٥ ميلا أيضا من الرافد الشمالي لنهر الكوبان منطقة رابعة باسم (كوبلسكايا)، كما أقام نقطة خامسة على نهر (ايا) على بعد ٨٠ ميلا من بحر آزوف باسم نقطة (ايسكايا).
- ١١- ولتأمين مناطق الكوبان العليا جرى إنشاء حصن (قسطنطينوغورسك) على نهر (بودكومكا) على بعد ٨٠ ميلا من حصن (جيورجيفسك).
- ١٢- وفي الختام كانت هذه السلسلة من الحصون المتوالية تنتهي بحصن (أوست بنسكايا) في موقع عند تلاقي نهر (الابا) بنهر (الكوبان)، وبذلك أصبحت المنطقة كلها محصنة حتى حدود جزيرة طامان^(١٣).

وقائع واحداث وحروب العقد السابع من القرن الثامن الميلادي

طالب شعب القبرطاي من الامبراطورة كاترينا الثانية بهدم (حصن مزدوك) في عام ١٧٧١ واضطر امراء شعب القبرطاي لارسال وفد إلى سان بطرسبرج مكون من اثنين من المسؤولين الشراكسة من القبرطاي وأعربا عن مشاعرهما الخاصة بالطاعة والوفاء التام للامبراطورة (كاترينا الثانية) باسم كافة شعب القبرطاي، وقدموا في ذات الوقت مطالبهما الخاصة حول ضرورة هدم حصن مزدوك وعودة الهاربين إلى بلادهم، كما طالبا بعدم منع أو عرقلة حرية استملاك القبرطاي لأراضيهم.

وبعد أن اطلعت الامبراطورة (كاترينا) على طلب ممثلي القبرطاي (كورغو تاتارخانوف وجان خوت سيداكوف) كان ردها بخصوص هدم حصن مزدوك (بأنها لن توافق أبدا على هدمه) إلا أنها وافقت على إرسال رسالة إلى امراء القبرطاي تتضمن الموافقة على انتهاء مسألة (حصن مزدوك) بإبرام اتفاقية بين الروس وامراء القبرطاي عام ١٧٧١ حيث تضمنت هذه الرسالة الموافقة على:

- ١- رفض قبول أي (ملتجئ) إذا كان من طبقة اجتماعية وضيعة.
- ٢- دفع خمسين روبلا فضايا عن كل ملتجئ مسيحي من القبارطاي.
- ٣- دفع (٢٥) روبلا عن كل شخص ملتجئ من القوموق.
- ٤- ان لا يقبل فارا من القبارطاي اذا كان من طبقة الازدون (النبلاء)، إلا اذا رضي بالتنازل عن أملاكه الخاصة.
- ٥- وقف دخول الازدون من القبرطاي إلى القطاعات الروسية وكل من يخرج منهم يفقد ممتلكاته لصالح شعب القبرطاي.

٦- إعادة كل من يهرب من العبيد إلى مَلاكهم باستثناء من هم من أصل جورجي، حيث تقوم الدولة الروسية بالتعويض عنهم بقيمة (خمسین روبلا) عن كل منهم.

وفي النهاية، تشير الرسالة إلى العطف الخاص الذي أبدته الامبراطورة تجاه شعب القبرطاي، وتعرب عن أملها بأن يقابل القبرطاي هذا بالشكر والامتنان، وأن لا يبدر عن أمرائهم مستقبلاً أي تصرف من شأنه أن يثير سخط الأمبراطورة". وأن كل الكرم الذي وعدت به رسالة الأمبراطورة سيتحقق فقط في حالة استمرار إخلاص القبرطاي للدولة الروسية، وتصرفهم بكل هدوء وتواضع، وإذا ما بدر أي شيء خلاف ذلك، فإن الامبراطورة ستقوم بالمعاقبة القاسية بغض النظر عن الخدمات التاريخية التي قدمها القبرطاي للدولة الروسية.

ويُعهد من كلمات الامبراطورة في رسالتها بأن تعاطفها مع شعب القبرطاي يُعد (بمثابة الدين) لكل أجيال شعب القبرطاي مستقبلاً، كما أعطت اهتماماً خاصاً لموضوع إقامة علاقات سلمية بين روسيا والقبرطاي وعلى مضاعفة إخلاصهم وتدعيم تبعيتهم للدولة الروسية، مع كل ما يترتب على ذلك من واجبات الخضوع والخدمة.

ومن الواضح بأن (نيكيتا إيفانوفيتش بانين) الذي شغل في تلك الأيام مهام إدارة الأمور الخارجية لروسيا هو الذي كتب رسالة الامبراطورة الموجهة للقبرطاي، وهي الرسالة التي أبدت فيها الامبراطورة الكرم و (الرحمة) تجاه شعب القبرطاي. ولفت انتباههم إلى أن كل المطالب الأساسية التي عرضوها قد لببت، ونصح أن يظلوا أوفياء للدولة الروسية.

وفي الوقت نفسه قامت بإرسال تعليمات إلى قائد القوات الروسية المدعو (فون ميديم) وطلب منه التعامل مع القبرطاي (بحذر وحزم) وأن يحاول إبقاء الفرقة بين صفوف القبرطاي، وتقوية المشاعر بوجود فئتين متعاديتين من أمراء الشراكسة.

ويقول كوداشيف حول رد فعل القبرطاي:

((إن رسالة الامبراطورة لعام ١٧٧١ قوبلت بتحفظ من شعب القبرطاي ولم يقتنع بالوعود التي وردت فيها، وكان رد فعل الأمير الشركسي (كاسيا اتاجوكين) بقوله: (سنكون تحت الوصاية الروسية إذن، كما حصل مع القالموق الذين تشرذموا واضطروا إلى العودة إلى بلادهم، وسيلقي القبرطاي المصير نفسه وسنضطر إلى الالتجاء إلى الجبال)).

لقد كان هذا (الأمير) يرى ما يكمن تحت الماء، وكانت بداية النهاية فعلاً وإن (كابارديا) هي التفاحة التي أثارت شهية جيرانها الطامعين الأقوياء.

■ سياسة توطين قبائل النغوي في غرب القفقاس وبناء المستعمرات في بلاد الشراكسة:

وفي العام الذي أرسلت فيه الامبراطورة كاترينا رسالتها سابقة الذكر قامت حكومة القيصر بتوطين حوالي (٤٠٠٠٠) نسمة من قبائل النوغوي، في غرب القفقاس لاستخدامهم في حربهم ضد الشركس، كما قررت الحكومة الروسية إيلاء أهمية خاصة لموضوع تقوية ممتلكاتها الجديدة في القفقاس، وقامت ببناء خط كامل من المستعمرات السكانية الروسية ما بين نهر الدون وحتى مزدوك وعلى امتداد أكثر من خمسمائة فرسخ عرف (بالخط القفقاسي)* وخصصتها لاستيطان بقايا جيش (قوزاق الفولقا) واستقبل شعب القبرطاي هذه الأنباء بابتهاج وظنوا أنهم سيحصلون على الحماية بوصول (القوزاق)، ولكن سريعاً ما تبين العكس، حيث أصبحت هذه المستعمرات بمثابة (الحصون) لم تعمل فقط على إضعاف إمكانية استثمار الشراكسة لأراضيهم، بل حرمتهم أيضاً من التواصل مع الشراكسة في مناطق (كوبان وتيرك) من (الأديغة) وباقي جيرانهم من شعوب القفقاس. وانحصرت بذلك حدود (كابارديا) ما بين نهر (مالقا) في كابارديا الكبرى وحتى نهر (تيرك) في كابارديا

* تشبه هذه المستعمرات والحصون التي أنشأتها السلطات الروسية في بلاد الشراكسة في القفقاس تلك المستعمرات والجدار العازل الذي أنشأته الحكومة الإسرائيلية في فلسطين المحتلة.

الصغرى. اما بالنسبة للضفاف اليسرى لهذه الأنهار، فقد حرم شعب القبرطاي من أراضيهم فيها، ومنعوا من ممارسة الرعي هناك. كما أصبح الدخول إلى الحصون الروسية محظورا على المواطنين القبرطاي.

كما حُظر على سكان (كابارديا) الكبرى الاختلاط بأهالي شراكسة الكوبان، ومنع سكان (كابارديا) الصغرى من التعايش مع (الشاشان) كما حُرّم على سكان (كابارديا الكبرى أو الصغرى) تقديم الحماية والمساعدة من طرف لطرف حتى في حال حصول هجوم معادٍ على أي منهما، وعلى روسيا فقط تقع مسؤولية تقديم الحماية في مثل هذه الحالات وغيرها من الأحوال الطارئة.

▪ معاهدة ادرنة:

وفي عام ١٧٧٢ * انتهت الحرب التي كانت قائمة بين العثمانيين والروس.. بعقد معاهدة (كوجوك قاينارجه) المعروفة باسم معاهدة (أدرنة).

وبموجب هذه المعاهدة تنازلت الدولة العثمانية لروسيا عن بلاد كبادينا الصغرى والكبرى، وعندما تلى نص هذه المعاهدة على مجلس امراء القبارطاي اثناء عقدهم اجتماعا شعبيا عاما لهم عارضها بعض الأمراء منهم الامير (حامرزا اسلانبك) بقوله: "إنه ليس بإمكانه الاعتراف بسلطان روسيا ما لم يصادق خان القرم بصورة رسمية على هذه المعاهدة وبالرغم من أن تنازل الدولة العثمانية عن بلاد القبارطاي لم يكن سوى تنازل اسمي، لأن الدولة العثمانية لم تكن تمتلك هذه البلاد يوما ما بصورة فعلية وحقيقية. كما أن خان القرم (دولت كراي) بذل كل المساعي الجدية (سرا وجهارا) ليحرض القبارطاي على شق عصا الطاعة والانتفاضة على روسيا وانفصالهم عنها. ومن جملة المساعي التي بذلها هو إرساله أمين سره المدعو (قاسبولات) إلى بلاد الشركس ليطمئنهم بأنهم ما زالوا خاضعين لخان القرم.

أما الشراكسة فقد رجحوا أهون الشرين وهو الاعتراف بسلطة (خان القرم) مؤقتا لاعتقادهم أنها ستكون سلطة اسمية واخلف وطأة من النير الروسي الذي سوف يصعب التخلص منه واسترداد حريتهم منه. وفي الوقت نفسه كان الجنرال (فون ميديم) يبدي استياءه وتذمره إلى سلطات الدولة الروسية لعدم وجود جيش كاف تحت إمرته لارغام القبارطاي على الخضوع فعلا لسلطة الدولة الروسية.

وطلب الشراكسة الثائرين بواسطة رسلهم إلى حاكم الكوبان التركي (سر عسكر) إرسال المساعدة إليهم، إلا أن الحاكم المذكور رفض طلبهم، بحجة أن أمراءهم لم يعرضوا طاعتهم وولاءهم له.

وفي هذه الفترة أحكم الروس سيطرتهم على قباردا الصغرى، وأخذوا أطفال الأمراء كرهائن حتى يضمنوا ولاء هؤلاء الامراء للسلطات الروسية. وفي السنة الثالثة من توقيع المعاهدة المذكورة احتل الجنرال الأصم (فون ميديم) مدينة دربند عاصمة الداغستان، واطلق (كلايه المسعورة) لتنهش لحم سكان هذه المدينة، تماما كما فعل من قبل في إمارات قباردا والكوبان. ولما وصلت اخبار المذبحة إلى مسامع القيصرية كاترينا، خشيت من عواقب افعال هذا الجنرال المجرم؛ فاستدعته إلى بطرس بيرغ واعفته من الخدمة، اما الجنرال فون نفسه فقد ادعى أنه ارتكب ما ارتكب من الافعال الشنيعة بناء على اوامر صريحة من القيصرية كاترينا.

فكان رد سكان (دربند) اداء القسم للانتقام من الروس شر انتقام، وبعد مدة قصيرة من الزمن استولى الثوار الشراكسة على سفينة روسية كانت تبحر في بحر قزوين، وقتلوا كل من كان على ظهرها ثم أغرقوها في البحر كما أبيدت قوة روسية في معركة جرت في الجبال المطلّة على مدينة (دربند)، مما اضطر بقية القوات الروسية إلى الفرار من المدينة ^(١٥).

* تشير بعض الوثائق بأن المعاهدة ابرمت عام ١٧٧٤ وليس عام ١٧٧٢.

وفي عام ١٧٧٨ قرر امراء القبرطاي القيام بحملة عسكرية للاستيلاء على حصن (باولوفسكايا) بجيش يبلغ عدده ثلاثة الاف مقاتل، حتى اضطر الروس ارسال الجنرال (ياكوبي) نفسه إلى تلك المنطقة على رأس جيش كبير، ولما رأى القبارطاي قدوم الجيش الروسي الكبير تحت امره الجنرال المذكور، اضطروا إلى تأجيل فكرتهم والعدول عن الاستيلاء على الحصن المذكور، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى قام (السر عسكر) حاكم شعوب الكوبان (قازي كراي سلطان) التركي الأصل بالتودد للروس وطلب رضاهم، حتى انه قدم طلبا في سنة ١٧٧٨م لقيصر الروس يطلب فيه بأن يدخله ضمن رعيته واتباعه، وقدم فعلا للحكومة بعض الخدمات التجسسية، وكان حفيده (منكلي كراي) يخدم في الجيش الروسي برتبة (جنرال) كما قدم أحد أتباعه وهو الملازم (تاغانو) للحكومة الروسية معلومات عن تحركات بعض السفن التركية المعادية للروس التي تحمل الجنود والذخائر، وانها تنوي التوجه بعد مدة إلى القرم لإفراغ حملتها.

وفي عام ١٧٧٩ علم الشركاسة في غرب القفقاس بأن الروس يقومون بالإعداد للقيام بحملة كبيرة ضدهم، ولم يقف الشركاسة مكتوفي الايدي، بل كانوا يراقبون حركات أعدائهم بكل انتباه، ويعدون العدة لمقابلتهم بالمثل، وبدلا من ترك العدو ليقوم بهجومه المتوقع، قرروا استباقهم بالهجوم، حيث وجهوا عام ١٧٧٩ أولى غاراتهم على خط الروس الحربي الواقع على امتداد نهر الكوبان في الغرب، وهو الخط الذي يضم حصون قوية مثل: الكساندروفسكي، ماريفسكي ونوفوتروسك، تحت قيادة الجنرال (سوفاروف)، فهاجموه بقيادة كل من (ميسوستوقه، وقانشا وقوه)، بجيش يقدر تعداده بأربعة عشر الف مقاتل من الفرسان الشركاسة الغربيين.

وأُسفرت هذه الحملة عن احتلال حصني (الكساندروفسكي وماريفسكي) في مدة وجيزة، إلا أن وصول الجنرال (ياكوبي) الذي كان قائدا عاما لجبهة حوض نهر الترك، على رأس جيش روسي كبير في اللحظة الأخيرة أجبر قادة الشركاسة على إخلاء الحصنين المذكورين.

وهذه المعركة، وإن لم تكن قد حققت استرداد الجزء المحتل من القوقاز، إلا أنها اثبتت للروس أن معاهدة (قاينارجه) التي عقدت بين الروس والعثمانيين، والتي بموجبها تخلى العثمانيون عن القوقاز للروس، لم تكن إلا حبرا على ورق، ولم يكن لها اية قيمة عملية، فأثرت نتائج هذه المعركة على المعنوية الروسية تأثيرا سيئا لدرجة أن تحضيرات الروس الحربية واستعداداتهم الهائلة لم تعد فاعلة.^(١٩)

أحداث ووقائع الحروب في العقد الثامن من القرن الثامن عشر الميلادي:

بعد أن فقدت تركيا بلاد خانات القرم، بدأت مضاعفة اهتمامها بشمال غرب القفقاس عام ١٧٨٢، وبدأت الحكومة العثمانية ببناء (قللاع) على ساحل البحر الأسود في القفقاس، وكانت إحدى هذه القلاع هي قلعة (أنابه) التي شيدت في عام ١٧٨١ بمساعدة المهندسين الفرنسيين، وسماها الاتراك (مفتاح الشواطئ الآسيوية للبحر الاسود)، ومنذ ذلك الوقت أصبحت قلعة (أنابه) رمزا للوجود التركي في شمال القفقاس، من هنا قام باشاوات (أنابه) بتحريض القوقازين بالهجوم على المحطات الروسية والخطوط العسكرية للجيش الروسي، وأصبحت (أنابه) مركزا تجاريا كبيرا بين شركاسة الأديغة والتجار الاتراك، ومركزا للدعاية الاسلامية بغية نشر الإسلام بين سكان شمال القفقاس.



صور (رمزية) لمجموعة من قادة الشراكسة العسكريين الذي قاتلوا القوات الروسية في منطقة الكوبان في الأديغي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي.

وبالرغم من أن منطقة الكوبان حسب الاتفاقات الدولية كانت معروفة بأنها تتبع للدولة العثمانية، إلا أن سكان شمال غرب القفقاس كانوا يعدون أنفسهم مستقلين تماما سياسيا، وكانوا يعترفون فقط بأن السلطان هورفر ديني، وقد كتب الامير "حاجيموق" ان دخول الاسلام مع وجود تأثير تركي لم يجعل من بلاد الشركس مقاطعة تركية، فقد اعتبر الشراكسة السلطان رئيسهم الديني ولم يعترفوا بسلطته السياسية ولم يسمحوا له بالتدخل في شؤونهم الداخلية، وكانوا بذلك شعبا حرا مستقلا.

وهكذا فإن اعتماد شراكسة الكوبان على تركيا كان اعتمادا اسميا فقط، وكانت الدوائر الحاكمة في كل من (استانبول) و (بترسبرغ) تفهم هذا الأمر جيدا، ولذلك فإن نجاح زيادة التأثير السياسي من قبل تركيا او روسيا بين الشراكسة كان يعتمد على توجه السياسة الخارجية لشراكسة الكوبان.

وفي عام ١٧٨٢م وبعد أن احتل الروس دولة القرم، وأصبحت القرم منذ ذلك التاريخ جزءا من املاك الامبراطورية الروسية، هرب سكانه إلى تركيا وإلى بلاد القفقاس المجاورة. واستقبلتهم شعوب (الأديغة) في بلادها برحابة صدر، وفي نفس العام كانت القوات الشركسية (الأديغة) قد نجحت في دحر شعب (النوغاي)، وطردتهم بعيدا عن حدودهم الشمالية، وأصبح (النوغاي) وحيدين ومعزولين في السهوب الشمالية الممتدة حتى حوض نهر الدون، وهلك كثير منهم بسبب الحروب والمجاعة والأمراض والابوئة، كما أن من بقي منهم احياء ثاروا ضد أسيادهم الروس، وبعد معارك ضارية، أصبح شعب (النوغاي) في وضع ميؤوس منه تماما. وعندها، ارسلوا رسلهم إلى شراكسة الأديغة أعداء الامس، يطلبون منهم العون والإغاثة، وأرسلوا النجذات العسكرية لهم حيث رحل بقية (النوغاي) إلى بلاد القرم ليمأوا الفراغ الذي حصل بعد رحيل سكان القرم إلى بلدان أخرى.

وتشير الوثائق، بأن الأديغة استقبل انباء سقوط دولة القرم بشيء من الارتياح، وفي الوقت نفسه بشيء من التوجس، وشعروا بالارتياح لأنهم تخلصوا من شر الحملات الشرسة التي كانت تنفذ من قبل جيوشهم^(١٨). كما ارتاحوا إلى ثورة شعب النوغاي على الروس وانتهاء تحالفهم معهم.

وفي عام (١٧٨٧م) ارسل الروس ثلاثة ارتال عسكرية منفصلة عبر نهر الكوبان بقيادة الجنرال المرتزق (تيكلي) واشتبكت بالقوات الشركسية في معارك ضارية استمرت اربعين يوما، دون أن يلوح في الأفق ما يشير إلى إحراز نصر نهائي من قبل طرف على الآخر، وقد تكبد الطرفان المتحاربان خسائر فادحة في الأرواح، حيث خاضت القوات (الأديغة) المعارك في قتال يائس (حتى الفناء)، وبينما كانت القوات (الأديغة) منهمكة في الدفاع عن إمارات الكوبان، اندفع (تيكلي) على رأس جيش ضخم، قوامه (حسب المصادر الروسية) ثمانية آلاف جندي وضابط، مع عدد من بطاريات المدفعية الثقيلة، نحو قلعة (أنابا)، على شاطئ البحر الاسود، وطارده القائد الشيشاني الشيخ منصور (اوشرما) واشتبك معه في سهل "أبين" وخسر الروس في هذه المعركة ثلاثة آلاف جندي وضابط وانسحب (تيكلي) مع بقية جيشه إلى الجبال القريبة من (أنابا)، وفي حركة يائسة عاد وهاجم (أنابا) على أمل احتلالها للتغطية على خسائره في المعركة السابقة، لكن محاولته باءت بالفشل بعد أن خسر المزيد من قواته، وانسحبت القوات الروسية في فوضى عارمة وسقط المزيد من الجنود قتلى أثناء الانسحاب المهين، وتم إقصاء الجنرال المرتزق (تيكلي) من مركزه كعقاب له على فشله وانهزامه.

وفي عام (١٧٨٩م) حاول جنرال روسي آخر هو "بيبيكوف" أن ينجز ما عجز عنه الجنرال المرتزق تيكلي، وهاجمه (الأديغة) في طريق الذهاب والإياب، ومن الثمانية الاف جندي وضابط روسي، عاد ألف وخمسمائة فقط، نصفهم كان مصابا بجروح خطيرة لا أمل في شفائهم منها. ومع أن الروس اخفوا خسائرهم الفادحة (كعادتهم دائما) إلا أن رسالة الامبراطورة (كاترينا) الموجهة إلى القائد العام للقوات الروسية في القفقاس، فضحت أكاذيبهم حيث تضمنت رسالتها الفقرة التالية: "استنتج في تقرير لهم أن قليلين جدا هم الذين عادوا معك.. مما يدل على فداحة خسائر الروس في هذه المعارك.

وقائع وأحداث الحروب في العقد التاسع من القرن الثامن عشر الميلادي

وفي ١٧٩١/٦/٢١م عين الروس الجنرال (كونت غوردوفيتش) قائدا للقوات الروسية في الكوبان، وركز هذا الجنرال على (أنابا) باعتبارها عاصمة المقاومة في شمال القفقاس ضد المحتلين القياصرة، وبدأت المعركة بعد أن أرسلت تعزيزات كثيرة من السلاح والجنود، وتمكنت القوات الروسية من دخولها، واحتلال قطاع منها في ٢٢ حزيران ١٧٩١، وبدأت حرب الشوارع في (أنابا)، وفاوض الأتراك الروس بعد دفاع أسبوعين، وقبلوا الاستسلام إلا أن (الامام منصور) ومنطوعيه من الشركس رفضوا الاستسلام، وقاوموا الروس بعد دخولهم مدينة أنابا، بينما وقفت القوات التركية موقف المتفرج، وخلال هذه المعارك سقط (الامام منصور) جريحا فأُسِر، وأُرسل إلى عاصمة روسيا (آنذاك) بيتربورغ، كأسير حرب، وكان من نتائج احتلال (أنابا)، وتحكم الروس على مضيق (كراج) ومصب نهر (الكوبان) حيث قاموا بإكمال خطهم المحصن على امتداد النهر حتى البحر، كما تم إسكان القوزاق الذين جلبوهم جبّرا، في وادي نهر الكوبان بجوار شراكسة الأديغة.

وفي ١٧٩٢/٦/٣٠ صدر مرسوم من الامبراطورة كاترينا الثانية، أعطت بموجبه مساحات واسعة من الأراضي في شمال غرب الكوبان الشراكسة في شبه جزيرة "تأمان" حتى مصب نهر "لابا" لقوزاق البحر الأسود حتى أصبح عددهم في منطقة البحر الأسود حوالي مائة ألف قوزاق بعد أن كان عددهم لا يتجاوز (٢٥) ألفاً^(١٦).

مراجع ومصادر الفصل الثالث

- (١) برقوق، مصدر سابق، ص: ٢٦٤.
- (٢) تبخاميروف / باحث أكاديمي روسي درس بنود الاتفاقية بين القيصر إيفان والقبرطاي، ونقلها عنه (مخوص ارسلان) في كتابه تاريخ حرب القفقاس ونتائجها ص: ٢٦.
- (٣) ف. ف. غرابوفسكي: انضمام كاباردا (القبرطاي) إلى روسيا ص: ٢٠.
- (٤) اوزبك، باتريك، مصدر سابق، ص: ١٦.
- (٥) المفتي، شوكت، مصدر سابق، ص: ٢٩-٣٠.
- (٦) المصدر نفسه ص: ٣٢.
- (٧) المصدر نفسه ص: ٣٣-٣٤.
- (٨) حراتوقه، سمير، مصدر سابق، ص: ٣٥.
- (٩) المصدر نفسه، ص: ٣٦.
- (١٠) المفتي، شوكت، ص: ٣٩-٤٠.
- (١١) حراتوقه، سمير، مصدر سابق، ص: ٤٠-٤١.
- (١٢) المفتي، شوكت، مصدر سابق، ص: ٤٢-٤٣.
- (١٣) المصدر نفسه، ص: ٤٩-٥٠.
- (١٤) ارسلان، مخوص، مصدر سابق - ص: ٣٧.
- (١٥) حراتوقه، سمير، ص: ٤٢.
- (١٦) المصدر نفسه: ص ٤٣.
- (١٧) المصدر نفسه: ص ٢٥.
- (١٨) المصدر نفسه: ص ٤٣.
- (١٩) مخوص، أرسلان، مصدر سابق ص: ٧.

الفصل الرابع

حروب الدمار والإبادة التي ارتكبتها سلطات الروسية القيصريّة ضد الأمة الشركسية في القرن التاسع عشر الميلادي

في المرحلة الممتدة من ١٨٠٠ إلى ١٨٦٤ ارتكبت خلالها جيوش قياصرة الروس جرائم الحرب والاعمال الوحشية في حق بعض شعوب القفقاس مثل (الشيشان والداغستان والاستين) عامة والشعب الشركسي ممثلاً (بقبائله الثمانية عشرة) خاصة، كما أدرك قادة الامبراطورية الروسية القيصريّة السياسيون منهم والعسكريون في هذه المرحلة بأن روسيا العظمى بجيوشها الجرارة، وحصونها وقلاعها ومستعمراتها المحصنة، ومعسكراتها المزدحمة بمئات الالوف من الجنود والمليشيات، ومستودعاتها المليئة بأشد الأسلحة فتكا وتدميراً، قد عجزت في المعارك الحربية التي دارت في القرن الماضي، في التصدي لمقاتلين لا تتجاوز أعدادهم بضعة آلاف من المسلحين بأسلحة شخصية متواضعة، مثل السيوف والخناجر (القائمة) والبنادق قديمة الصنع.. مقاتلين لا يوجد لديهم قلاع أو حصون تحميهم، ولا مدفعية تمهد لهجوم، ولا آلات ومركبات تنقلهم من وإلى المعارك، وكل ما كان لديهم هو الخيول المدربة، تدريباً جيداً ومقاتلون مؤمنون بعدالة قضيتهم وبحقهم في الدفاع عن وطنهم، وطن الاجداد منذ الالفية الثامنة قبل الميلاد، حيث تنبه القادة الروس إلى حقيقة مؤكدة الا وهي بأن المواجهات العسكرية في ميادين القتال لن تحقق نصراً نهائياً، ولن تمكنهم من الاستيلاء على (الارض بدون سكان) كما سبق ان خططوا لها.

وبدأ القادة السياسيون منهم والعسكريون استكمال السياسات والخطط التي سبق بدء تطبيقها مع نهاية المرحلة السابقة، وهي السياسات التي ركزت على استخدام اساليب الحرق والتدمير والاتلاف والتهجير القسري، والخداع وبث الاكاذيب وخلق الدسائس والفتن، وفرض الضرائب الباهظة، وقلع الاشجار المثمرة، واستغلال الدين واستخدام الاسرى في اعمال السخرة والاتجار بالنساء المخطوفات بعد اغتصابهن، واستقطاب بعض الأمراء واستقوائهم على الفلاحين والفقراء بالإضافة إلى تخريب اقتصاد بلاد الشراكسة وتجارتهم والقضاء على كل مظهر من مظاهر المدنية، وكذلك تجويع عامة الشعب بإتلاف مخازنهم وحرق واتلاف مزرعاتهم، وحصار المدنيين من اطفال وشيوخ ونساء ومنع أبسط وسائل الحياة عنهم وكذلك منع الأدوية الضرورية عنهم، مما أدى لانتشار الأوبئة والأمراض وغيرها من الوسائل والأساليب الهمجية والتدميرية والوحشية التي استخدموها جنباً إلى جنب مع تنفيذ حوالي (١٤١) معركة كبيرة ضد الشراكسة بالإضافة إلى مئات الغارات الليلية والنهارية على الاهالي العزل والمصلين، كما هو مبين في الجدول التالي:

السنوات	عدد المعارك الكبرى	ملاحظات
١٨٠٠-١٨١٠	١٠ معارك	يضاف إلى هذه المعارك مئات الغارات والغزوات
١٨١١-١٨٢٠	٣ معارك	على أهداف مدنية ودينية مثل المساجد وكذلك حرق المزارع والحقول وقطعان المواشي.
١٨٢١-١٨٣٠	٥ معارك	
١٨٣١-١٨٤٠	١٥ معركة	
١٨٤١-١٨٥٠	(١٠٠) معركة منها (٨٨) معركة في الاعوام ما بين ١٨٤١ - ١٨٤٦	
١٨٥٠-١٨٦٠	(١٢) معركة	
١٨٦١-١٨٦٤	(٨) معارك منها (٤) معارك ضمن حرب القرم.	

▪ تفاصيل المعارك العنيفة والمواجهات الدامية التي حدثت بين المقاتلين الشراكسة قليلة العدد والعدة وجيوش القياصرة كثيرة العدد والعتاد

▪ وقائع وأحداث حروب العقد الأول من القرن التاسع عشر الميلادي:

في مطلع عام ١٨٠٠ كثفت القوات الشركسية مقاومتها للهجمات والاعتداءات القوقازية / الروسية إلا أن شدة وقسوة الهجمات الروسية أدت إلى تدمير قرية الامير (بوجوقة) واستشهد (٢٠٠) مقاتل من المقاتلين الشراكسة وجرح حوالي (٣٠٠)، واسر المئات من أهالي هذه القرية الشركسية الآمنة. كالاستيلاء على (١٠٠٠) رأس من مختلف أنواع المواشي والخيول^(١).

وفي عام ١٨٠١ أنشأت القوات القوقازية مدينة (بكاترينودار) كما بنوا حوالي (٤٤٢) قرية أطلق عليها (محطات) وربطت هذه المحطات بعشرات القلاع والحصون التي أنشأتها السلطات الروسية في بلاد الشراكسة في مناطق حوض نهري الترك والكوبان وساحل البحر الأسود والتي أطلق عليها خط القفقاس العظيم وطوله حوالي ١٥٠٠ كم^(٢).

وفي عام ١٨٠٤ بدأ الصراع المسلح الواسع في بلاد القبرطاي بانتفاضة مسلحة واسعة اشترك فيها بجانب القبرطاي شراكسة الكوبان وشعوب القفقاس المجاورة، مثل: الأستين والشيشان والانقوش والبلقار والقرشاي، وطالب الثوار بتدمير القلاع العسكرية المنشأة على أراضي القبرطاي في "كيلافوسك" والتي كانت تمنع اتصال القبرطاي بشراكسة الكوبان.

وفي ٩ ايار منه وقعت عدة معارك على الشاطئ الأيمن لنهر (باقسان)، حيث هاجم (١٥٠٠) فارس من القبرطاي القوات الروسية بشكل مفاجئ، وكانت تتألف من ثماني كتائب من المشاة وأربعة افواج و (٥٤) مدفعا، إلا أن وصول تعزيزات روسية في الوقت المناسب اضطر القبرطاي إلى الانسحاب إلى أعالي نهري (تشيقيم) و (شالوشكا) وحاولوا إيهام القادة الروس بأن الشراكسة يرغبون إبعاد وترحيل عائلاتهم إلى الجبال، وفي نفس الوقت طلبوا المساعدة من القبائل المجاورة مثل البلقار والاوزستين والقرشاي حيث قرروا معاودة الهجوم على الوحدات الروسية المعادية. ووقعت المعركة الحاسمة في يوم ١٤ ايار منه في منطقة نهري (تشيقيم) و (شالوشكا) بين قوات القبرطاي وبدعم من القوقازيين البالغ عددهم (١٣) ألف مقاتل، وبين القوات الروسية بعد أن وضعت (١٢) قرية قبرطائية في وضعيات دفاعية بحفر الخنادق في شوارعها، ووضع العربات المملوءة بالحجارة على الطرق الجبلية وامام البيوت، كما وضعت جذوع الشجر على المنحدرات المجاورة، بينما تمركز الرماة بالبنادق والاقواس على الجبال، وعلى الخط الأمامي وقف الفرسان والمشاة من عامة الناس، واستمرت المعركة طوال النهار ولم يستطع القبرطاي من الصمود أمام المدفعية الروسية، وتكبدت قواتهم خسائر كبيرة في الارواح، وانسحبت إلى أعالي نهري (تشيقيم) و (شالوشكا) وقامت القوات القيصرية بتدمير وإحراق القرى الاثنتي عشرة.

في ١٩ ايار منه قدم إلى معسكر القوات القيصرية في المنطقة بعض أمراء ونبلاء ووجهاء القبرطاي طالبين السلام، فيما واصل الأمير (ورسلام بك) بالإغارة على تحصينات خط القفقاس بعد أن التجأ إلى شراكسة منطقة الكوبان. كما قام الأستين بقطع المواصلات الروسية المؤدية إلى (جورجيا) وإغلاق الطريق العسكري الجورجي، كل ذلك رفع الروح المعنوية والقتالية لدى القبرطاي مما دفعهم للقيام بهجوم مضاد حيث حدثت المعركة الكبيرة الثانية يوم ٢٠ ايلول عام ١٨٠٤ عند نهر (مالكا)، حيث قامت قوات مكوّنة من سبعة آلاف مقاتل قبرطاي بقيادة كل اغنياء القبرطاي وهم "جامبولاط ميسوستة"، و"عادل لفيري"، و"شوماخ كرساي"، و"دوفتوق"، وأتاجوق نافروز"، و"عثمان غيري"، وغيرهم من الأمراء بمقاومة القوات الروسية مقاومة كبيرة، إلا أنهم خسروا المعركة وتركوا على أرضها (٤٠٠) قتيل من المقاتلين الشراكسة و (٤٠) نبيلًا، واثنين من الأمراء بينما كانت خسائر الروس (١٠٠) قتيل فقط^(٣).

واصلت القوات الروسية باحتلال أراضي القبرطاي حتى ربيع عام ١٨٠٥، تم خلالها إحراق وتدمير العديد من القرى، وإحاطة بلاد القبرطاي بحلقة من المخافر ونقاط الحراسة، كما تم

منع القبرطاي من المتجارة والاتصال مع السكان الروس على خط القفقاس، مما أدى إلى موت الكثير منهم لعدم توفر الغذاء عامة والخبز خاصة.

ونتيجة للخسائر الكبيرة التي لحقت بالقبرطاي في الأرواح والممتلكات، أجبرتهم على الاستسلام، كما اضطر قادة القتال وفلاحهم للنزوح إلى مناطق شراكسة ما وراء الكوبان، أما الأمراء والنبلاء الباقون فأقسموا يمين الولاء للقيصر.

وفي الفترة ما بعد عام ١٨٠٦ تدهورت الأوضاع السياسية في منطقة الكوبان بسبب (الحرب الروسية/التركية)، حيث شنت القوات التركية هجوما كبيرا، على أمل أن يلقي دعما من شعوب القفقاس، وطالبتهم السلطات التركية بالقتال إلى جانبهم لسحق الروس الكفار، إلا أن شعب (الأديغة) لم يوافق على المشاركة بالحرب إلى جانب الأتراك.

وقام الروس بإعادة احتلال (أنابة) في عام ١٨٠٧ إلا أنهم اضطروا للانسحاب منها، ثم قاموا ثانية في ١٨٠٩/٦/١٥ بإنزال قوة كبيرة حتى استطاعت (أنابة) مرة ثانية مما سمح للروس ولأول مرة إمكانية الدخول في عمق أراضي (الأديغة) للقيام (حسب قول أحد القادة الروس) بإدخال الموت والخراب إلى مناطق الأديغة، واعتبر قادة الروس أن مثل هذا العقاب درساً (للأديغة)، كما أرسل إليهم رسولا يطلب منهم إيقاف الأعمال القتالية، وإعلان خضوعهم الطوعي للسلطة الروسية، وفي حال رفضهم ذلك، فإن صوت الرعد سيدوي في بلادهم جالبا معه الخراب والدمار.

واصلت القوات الروسية حربها ضد شعب القبرطاي في شهر نيسان عام ١٨١٠ وتم خلالها تدمير (٢٠٠) قرية، واحرق (٩٠٨٥) منزلاً و (١١٠) مسجداً وحرق (١٠٣٠) بقرة، ومصادرة (٥١٥٥٥) بقرة و (٥١٥) حصاناً ونهب ما يقدر بـ (١٠٤) طن من العسل الاحمر و (٩٥) طن من العسل العادي و (١٤٢٠) عربة حنطة و (٢٨٠) بندقية و (٥٣) رمحاً و (١٤٥) سيفاً كما تم سرقة (٢٩٠٠) روبل فضة من بيوت القبرطاي.^(٤)

▪ وقائع واحداث حروب العقد الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي

في عام ١٨١١ ارسل زعماء القبرطاي عريضة إلى الامبراطور اسكندر الاول طالبوا فيها الامبراطور الاصغاء إلى مطالبهم مذكرين بإخلاصهم منذ عهد ايفان الرهيب، مع الثناء الذي حظوا به من قبل الامبراطورة كثرينا الثانية في عام ١٧٧١، كما اعربوا عن قلقهم بخصوص ما يجري في بلادهم في السنوات الاخيرة بقولهم: "... منذ ان جرى فصل مناطقنا عن مركز القيادة وغادرها ممثلو وزارة الخارجية، وضعت هذه المناطق بإمرة الحاكم العسكري المحلي الذي كان يجهل وضعنا والتحولت الطارئة عندنا وحالة شعبنا، ولم يستطع أن يدرك الميزات التي اعطيت لنا من القيصر، كما كان يفسر ما يريد على طريقته الخاصة ويضع تعليمات جديدة، ونظراً لأن شعبنا لم يستوعب ما يحدث، فقد حدثت الكثير من المشاكل والبلبلات والتجاوزات، مما يجري، لهذا نقول: إن القلق الرئيسي في حياة القبرطاي في ظل السلطة الروسية الجديدة ناتج عن تواجد القطعات الروسية التي كانت تجهل دقائق حياة المجتمع الشركسي وعاداتهم وتقاليدهم".

وأشار حكام القبرطاي إلى الحاكم الرئيسي (ماكاروف) بأن من دواعي عدم رضاهم عن السلطة الروسية في المنطقة، هو تغاضي حكامهم عمداً عن العادات التاريخية للشعب باصدارهم تعليمات تعارض غالباً تقاليد القبرطاي، كما تحدثوا عن القلاع الروسية... وعن الأراضي...".

جاء الرد إلى حكام القبرطاي في رسالة رفيعة المستوى، وموقعة من قبل الامبراطور الكسندر الاول شخصياً في ٢٠ يناير (ك٢) ١٨١٢، نصت على ما يلي: "ومن قبيل اهتمامنا الخاص بالقبرطاي وبتوجيه منا، وتحت قيادتنا مباشرة "وحدة حرس خيالة خاصة" من أبناء عائلات الأمراء والملوك والأحرار الشراكسة من القبرطاي من حوالي مائة فارس يتم تسليحها وفق عادات القبرطاي ويجري كل (٣-٥) سنوات تبديل أفرادها بأخرين من شباب القبرطاي وبحسب اختيارهم...".



"أن يكون المقاتلون الشراكسة في الوحدة العسكرية مستقبلاً، أسوة بأسلافهم وجدودهم، وقوة لمن سيلبهم، وأن يكونوا حريصين على تزكية أنفسهم أمام حضرتنا بأفضل صورة، برجولتهم وإخلاصهم ووفائهم لعظمتنا، وجديرين بما وهبته جلالتنا من الاهتمام والعناية بهم..."^(٥).

انتهت الحرب الروسية التركية في عام ١٨١٢ بتوقيع معاهدة (بوخارست) واعادت روسيا بموجبها (أنابه) و (سوجوق قلعة) إلى تركيا كما عادت مناطق الأديغة في ما وراء الكوبان إلى الفلك السياسي التركي، وعادت الحدود الفاصلة بين تركيا وروسيا إلى مجرى نهر الكوبان.

وبالرغم من توقيع هذه المعاهدة فإن القوات الروسية لم توقف هجماتها المدمرة على بلاد الشراكسة، تحت ذريعة قيام بعض الهجمات (الفردية والشخصية) على القوات الروسية المربطة في أراضيهم، حيث قامت القوات الروسية بهجمات دموية على فلاحي (الأديغة) مما دفع هؤلاء إلى حمل السلاح والمقاومة بشراسة ضد القوات الروسية.

وفي الفترة ما بين ١٨١٢-١٨١٦ قام قائد القوات الروسية في البحر الاسود الجنرال "فلاسوف" باجتياح الكثير من القرى الشركسية في الكوبان سواء ما كانت تسمى منها بالقرى المسالمة أو غير المسالمة.^(٦)

وفي ١٨١٨/١/٢٠ أرسل حكام القبرطاي وفداً إلى البلاط القيصري الروسي مؤلف من الامير (الحاج بزروقوه والسيد حامرزا زاكوشوك بيك والسيد شولوخ آخلوا والاوزدن تيمروقة قازانشف والسيد كتاغ قوده نيتو والسيد ميسوست آنزور)، للتأكيد على تنفيذ المطالب السابقة، والتصديق على الامتيازات التي منحتها إياهم الامبراطورة (كاترينا الثانية) أبان عهدها. فأكرم القيصر (اسكندر) وفادة الوفد ودعا أعضاؤه إلى عدة ولائم حضرها بنفسه لاقتناعه بصدقتهم، ووافق على إرجاع بلادهم الواقعة في مناطق ما وراء نهر المالقا. وأمر بزيادة الاهتمام بكتيبة الفرسان التي تشكلت كحرس خاص للامبراطور، وخصص لنفقاتها مقدار كافٍ من المال، وأعطى شعب القبرطاي

الكثير من الامتيازات بموجب مرسوم قيصري وقعه بنفسه، وسلمه إلى الامراء والاوزدن اعضاء الوفد.

وفي عام ١٨١٩ أرسل الأتراك إلى مناطق (أديغة) الكوبان عملاءهم لإثارة الشراكسة وإقناعهم بالهجوم على القوات الروسية مما أدى إلى نشوب معارك وصدامات جديدة عديدة أدت إلى استشهد أعداد كبيرة منهم^(٧).

▪ وقائع وأحداث حروب العقد الثالث من القرن التاسع عشر

في عام ١٨٢١ حاولت القوات الروسية المؤلفة من كتيبة مشاة قوامها ألف مقاتل بحماية خمسة مدافع للاستيلاء على ما عند القبرطاي من ثروة حيوانية من أبقار وأنعام وخيول التي لم يتمكن الشراكسة من إخفائها بسبب شدة برودة فصل الشتاء؛ كما قامت هذه القوات بإغلاق كل مخرج الجبال ومداخلها لمحاصرة القبرطاي ومنعهم من الاتصال بالقبائل الشركسية الأخرى.

في عام ١٨٢٢ أباد الجنرال (فلاسوف) سكان (١٧) قرية شركسية كبيرة و (١١٩) قرية صغيرة أخرى، واستولى على ما تحتويها من مؤن، ومصادرة ما يزيد عن (١٠٠٠) رأس من الماشية، كما قتل المئات وأسر عدداً كبيراً من المواطنين الشراكسة من غير المقاتلين، وفي ١٨٢٤/٥/٣ قام بهجوم مفاجئ على إحدى قرى (الأديغة) واهلها نائمون بأمان، ولم يتركوا فيها حجراً على حجر، كما لحق بقريتين مجاورتين نفس المصير في تلك الليلة، ولا يعرف أحد كم مات من السكان في هذه الغارة إلا أن الوثائق تشير بأن شوارع القرى كانت مليئة بالجثث، وأخذ القوزاق معهم (٢٥٠) أسيراً وأكثر من ألف رأس من الماشية.

وفي عام ١٨٢٥ قامت القوات الروسية في مناطق الأديغة بالكوبان بتدمير عدد كبير من قراهم، وقتل سكانها بالمئات، إما بالنيران أو بحراب القوزاق المتوحشين، وكثيراً ما وقعت النساء والأطفال الهاربين من الموت بالنار في الأسر، وفي كثير من الحالات كانت النساء يفضلن الموت على الأسر فيلقين بأنفسهن في الوديان السحيقة أو في تيارات الانهار الهائجة، بالإضافة إلى ذلك قامت تلك القوات في منطقتي الازاخ والبجدوغ بنهب الممتلكات الثمينة للسكان، وسرقة آلاف رؤوس الماشية، كما تشير الوثائق بأن اعتداءات الجنرال "فلاسوف" عبر الكوبان بموافقة (القائد العام لجيش القفقاس الجنرال يرمولوف) الذي كان يقول وهو يصف غارة قامت بها قوة من الشابسوغ والازاخ على مستوطنة روسية أن (قوة السلاح هي الوسيلة الوحيدة لإخضاع الجبليين).

في ربيع عام ١٨٢٢ قام "يرمولوف" بهجوم واسع بجبهات عريضة على شعب القبرطاي، واستمر الهجوم حتى عام ١٨٢٥، وتشير الوثائق بأنه قام بتدمير وتشيت كامل قرى القبرطاي تقريباً، واضطر العديد من شعب القبرطاي إلى الهرب إلى مناطق أديغة في الكوبان لمتابعة القتال ضد جيوش القباصرة من أجل الحرية والاستقلال.

في عام ١٨٢٦ أعلن عدد كبير من الشراكسة أنهم يرغبون بالعيش بسلام مع الروس، شريطة أن لا يقوم الروس بأية اعمال معادية ضدهم.

وفي المقابل فإن السلطات التركية بدأت باتخاذ اجراءات عملية لزيادة نفوذها في بلاد (شركسيا)* محاولة جعلها حصنها الوحيد والأخير في قفقاسيا، وكانت أول خطوة لتحقيق ذلك، هي تعيين (والي) جديد في (أنابة) اسمه "حسن باشا" ويحمل رتبة (سر عسكر)، ووصل الوالي الجديد من (طرابزون) إلى (أنابة) وأعطى صلاحيات واسعة كما بدأ الوالي الجديد اعماله بالتقرب من زعماء الشراكسة، وخلال مدة قصيرة تم استقطاب كل القبائل الشركسية، ووافقوا على التقيد بالقوانين التركية وتحكيم المحاكم الشرعية، وأرسل رجال الدين الأتراك إلى القرى الشركسية لنشر الدين الاسلامي،

* كان يطلق على جميع المناطق التي يقطنها الشراكسة من القبرطاي، والبلسيني، وشراكسة قبائل الأديغية في ما وراء الكوبان وغيرها حوالي (١٢) قبيلة اسم (بلاد تشركسيا).

كما فرض ضريبة مقدارها (عشر) المحاصيل الزراعية لصالح بيت المال التركي في أنابا وأصبحوا يتبعون له مباشرة وحرص "حسن باشا" على توطيد علاقاته بالشراكسة بشكل شخصي بزواجه من فتاة شركسية بعد وقت قليل من وصوله إلى (أنابا) وهي ابنة أحد أكبر أغنياء وزعماء الشراكسة واسمه "دولت مورزي نوغاي" الذي كان يعيش على بعد (٤٠) فرسخا من القلعة.

إن سبب النجاح الكبير "لحسن باشا" في استمالة زعماء الشراكسة إلى صف تركيا العثمانية مع عدم نجاح سابقه، يعود إلى معاملته لهم بود وصداقة كبيرين، وعدم قيامه بأية أعمال ظلم أو تعسف ضدهم.

إلا أن بعض الشراكسة عارضوا السياسة التركية الجديدة، ففي شهر آب من عام ١٨٢٦ وفي الاجتماع العام الذي عقده الشابسغ والناخواج رفضوا البيعة للسلطان التركي، ودفع الضرائب لدعم حامية (أنابا) وردوا على الوالي قائلين انهم (دخلوا الاسلام راغبين ولا يريدون الخضوع لأي اجنبي ولا يقبلون أن يقال إنهم وافقوا على احتلال اراضيهم من قبل الأتراك).

وفي شهر ايار من عام ١٨٢٧ قامت هذه المجموعة بقطع الطرق البرية الموصلة إلى قلعة (أنابا) ومنعوا إخوانهم الشراكسة من دفع العشر إلى والي (أنابا).

وفي تشرين الاول من عام ١٨٢٧ دعا قادة الابخاخ إلى اجتماع كبير آخر حيث اعلن المجتمعون رفضهم للتبعية التركية ودفع الضرائب لهم.

وفي عام ١٨٢٨ أخذت حكومة "نيقولا الاول" بعين الاعتبار الاوضاع العسكرية والسياسية في القفقاس على ضوء الحرب مع ايران، ولم تكن ترغب في هذا الوقت تعقيد علاقاتها مع تركيا، وتعمدت القيادة القفقاسية بالامتناع عن أي عمل يعارض الاتفاقات والمعاهدات بين تركيا وروسيا، وأصدر تعليماته للقادة العسكريين الروس قائلاً: طالما أن شعب ما وراء الكوبان يخضع للسلطة السياسية التركية، وطالما أن نهر الكوبان هو الحد بين بلاد الامبراطوريتين فليس لروسيا حق في التدخل في شؤون الباب العالي.

وفي محاولة لاستمالة فلاحي الأديغة من شراكسة ما وراء الكوبان وعدهم "حسن باشا" بتحريرهم من تبعيتهم للأمراء والنبلاء، فأقسم هؤلاء الفلاحون قسمًا بالولاء للسلطان التركي إلا أن هذا الاجراء من قبل سلطات (أنابا) أثار أمراء ونبلاء الأديغة الموالين لتركيا، وبدأوا يعدون العدة لتحسين علاقاتهم مع روسيا، وحاولت روسيا خداع الأمراء الشراكسة بإعطائهم وعداً لوضع قوات تحت تصرفهم لإخضاع الفلاحين الموالين للسلطات التركية.

وفي العام نفسه حاول إقطاعيو (الأديغة) الذين كانوا يتذبذبون في علاقاتهم بين تركيا وروسيا، استيضاح موقف الحكومة الروسية تجاههم كمحايدين، وباعتبارهم فئة لم يشاركوا في الحروب ضدهم، وأرسل بعض الأمراء والنبلاء إلى القائد الروسي "ايمانويل" رسلاً لمعرفة ما سيتم من إجراءات ضدهم باعتبارهم لم يرضخوا للسلطة الروسية، إلا أنهم لم يرفعوا السلاح ضدها، وكان الجواب على طلبهم أن أرسل تعليمات سرية إلى "ايمانويل" زعيم القوزاق "بيسكروفي" الاعتراف بشعب (الأديغة) ما وراء الكوبان أن لا يخافوا من الروس، اذا لم يقاتلوا مع الاتراك، لأن الحرب (بين الروس والاتراك) لا تخص (الأديغة)، وأما الشراكسة الذين حاربوا مع الاتراك فسيعتبرون أعداء لروسيا.

وخلال الحرب الروسية التركية في عامي ١٨٢٨-١٨٢٩ عادت منطقة الكوبان لتصبح مسرحاً للأعمال القتالية، حيث حصلت معارك في منطقة (أنابا)، وقاتلت وحدات من الأديغة إلى جانب الأتراك بقيادة الأمراء "بشيقوي، سايتوغ، نودوق، تيمريوق"، وكان امير الناخواج "صفر بك" الذي كان مستشاراً لباشا (أنابا)، وبعد سقوط (أنابا) في أيدي الروس في ١٨٢٨/٦/٢٣ تراجعت وحدات الشركس إلى مواقعها في منطقة الكوبان استعداداً للمعارك القادمة.

وخلال الحرب الروسية التركية حاول الجانبان بكل الامكانات، كسب ولاء فلاحي (الأديغة) إلى جانبه، وفي بداية الحرب خاطب قائد قوات خط الكوبان والبحر الأسود الجنرال (ايمانويل)

"الأديغة قائلا: إنني أعلن لكل اتباع الامراء الذين يقاتلون معنا ضد الاتراك، وأنني سأكون حاميا لهم اذا وصلت القوات الروسية إلى خط القفقاس، أما امراؤكم فستتم ملاحقتهم والقضاء عليهم بدون رحمة". بهذه الطريقة دق الروس اسفينا في تفاهم لدى كبار الأديغة الموالين للاتراك، وكان لهذه السياسة أثر كبير أدى إلى إعلان بعض زعماء الشراكسة ولاءهم للروس^(٨).

▪ وقائع واحداث حروب العقد الرابع من القرن التاسع عشر الميلادي:

وفي عام ١٨٣١ استولت الجيوش الروسية على حصن (غلنجيك)، لمنع الاتصال بين النتحواج والشابسوغ، وفي العام نفسه بدأوا بفتح طريق حربي من (غلنجيك) حتى (أوليفسك) بإمرة الجنرال (وليام نوفر) وفي تلك السنة ايضا أنشأوا العديد من القلاع والحصون في بلاد الشركس.

وبتاريخ ١٨٣٣/٥/٢٠ وضع الجنرال (ويليامينوف) خطة جديدة للتعامل مع القوقازيين عامة والشراكسة خاصة من اجل تحقيق الاهداف التالية:

١- إقامة مزيد من التحصينات في أكثر الأماكن أهمية من الناحية الطبوغرافية باعتبارها الوسيلة الأساسية والمضمونة لاحتلال الجبال واخضاع القاطنين فيها.

٢- مصادرة المزيد من الأراضي الشركسية وإسكان القوزاق في محطات تبني على هذه الأراضي كوسيلة إخضاع (للجبلين) بسرعة .

٣- مواصلة تخريب مزارع وحقول الشراكسة لمدة خمس سنوات متتالية مما يجعل نزع سلاحهم اسهل مستقبلا.

٤- البدء باحتلال ومصادرة اراضي جديدة لإقامة محطات للقوزاق عليها، وكذلك إقامة تحصينات جديدة في اماكن مناسبة وهي أكثر الوسائل فائدة لإخضاع الشراكسة بأسرع وقت ممكن.

وفي عام ١٨٣٤ قامت القوات الروسية بالإغارة على مدينتي (بيتسوندا وكاغري) الواقعتين على البحر الاسود واحتلالهما. وفي الشمال هاجموا موقع (أبين) الهام الواقع على نهر الكوبان بقوة تقدر بأربعة عشر الف مقاتل، واحتلوا بعد ذلك موقع (تسه - مز) بالقوات التي جاءت عن طريق البحر. بهدف احتلال سواحل البحر الاسود والسيطرة عليها لقطع المواصلات البحرية. إلا أن قوات الأبخاز بالاشتراك مع القوات التي قدمها زعيم قبيلة الاويبخ (الحاج برزج) قامت بمحاصرة المدينتين اللتين احتلتهما الروس، إلا أن وصول قوات الكُرج والقوزاق لمساعدة الروس المحاصرين فيهما أجبرهم على التخلي عن الحصار.

وفي الجنوب، قام الشراكسة بالهجوم من البر على موقع (تسه مز) لمحاصرة قوات الروس فيها، كما وقفوا في وجه الجيوش القادمة من الشرق نحو موقع (أبين) في الشمال ومنعواهم من احتلاله. وبذلك منعوا اتصال جيوش الروس المتقدمة من الشرق والجنوب وحملوا الجزء الشمالي الغربي من القوقاز من الوقوع في قبضة الروس. ويعود الفضل في قيادة وتنظيم هذه المعارك لزعيم جيوش الشابسوغ (الحاج غوزيك) المشهور الذي أحرز لقب (اسد غربي القفقاس).

وبالرغم من انه لم يكن تحت امرته سوى ١٧٠٠ فارس فقد تمكن بمهارته العسكرية الفائقة من الصمود أمام جيش روسيا البالغ عدده اربعة عشر الف جندي، وقيل أن فرسانه افنوا من الروس ما يقارب (ستة آلاف جندي) ورغم كل هذه التضحية والمقاومة العنيدة، فقد تمكن الروس من احتلال (أبين)، ولكنهم عجزوا عن تنفيذ خططهم الأساسية الرامية للوصل بين منطقتي (أبين وتسّه مز).

وفي سنة ١٨٣٧ قام الروس بجيش قوامه ستة آلاف جندي من جهة الشرق بالوصول إلى (آبين) وقابلهم الحاج (غوزيك) على رأس جيش كبير من الفرسان الشركاسة، وتمكن من إبادة قسم كبير من الجيش الروسي، والقسم المتبقي منه تمكن من الفرار والنجاة، وقد استرد الحاج (غوزيك) في هذه المعركة ممتلكات الشركاسة التي كان الروس قد اغتصبوها سابقاً.

وفي سنة ١٨٣٨ تمكن الروس من احتلال (شابسوقة) الواقع جنوب (طوابسة)، ومقابل ذلك قام الشركاسة في منطقة (أنابا) بتدمير المستعمرة الروسية، وأسر خمسمئة جندي من حاميتها.



бор черкесского войска. Из книги Дж. Белла «Дневник пребывания в Черкесии в течение 1837, 1838, 1839 гг.». Лондон, 1840

صورة تمثل المعارك التي جرت بين الشركاسة وجيوش القياصرة للأعوام ١٩٣٧-١٩٣٩

وفي عام ١٨٣٩ جرت على سواحل البحر الأسود، معارك اتصفت بالشدة والعنف، وكانت تهدف لمنع الروس من إنزال القوات الحربية بحراً، بهجمات عنيفة معاكسة، ولما كانت أسلحة الشركاسة النارية ضعيفة، فقد اعتمدوا على مقدرتهم في استعمال السلاح الأبيض، كما اعتمدوا على سرعة الحركة وتحريك الجيوش بصورة خاطفة ومفاجئة، وكسب الوقت والاستفادة من ظلام الليل، وتغيير أساليب القتال حسب طبيعة المعارك ومحاولة خداع العدو وتضليله. وتشير الوقائع التاريخية إلى حدوث ثلاث معارك رئيسية خلال هذه الفترة، وهي على النحو التالي:

المعركة الأولى: وهي معركة (سوبش) حيث حاولت القوات الروسية حماية موقع (أنابا)، ورغم شدة مدفعية العدو الحربية التي كانت تحمي القوات المدافعة عن الموقع هاجمها المقاتلون الشركاسة واستطاعوا منعهم من التوغل براً.

المعركة الثانية: وعرفت باسم حرب (ساش) حيث حشد الروس حوالي ٤٠ ألف جندي في منطقة (أنابا) لحماية شبه جزيرة (طامان). ولما كان الشركاسة يخشون توغل هذه القوات شرقاً، فقد قرروا احتلال قلعة (ساش) الواقعة بين (تسه مز) و (أنابا) لذلك هاجموا ليلاً واقتحموها بالسلاح الأبيض، ولكنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بها لخطأ عسكري وقع في تنفيذ الخطة فاستردوها ثانية.

المعركة الثالثة وهي المعركة التي دارت حول موقع (جاماتيا) المحصن الذي يشكل رأس جسر عند مصب نهر (الكوبان) ويسهل ارتباط موقعي (أنابا) و (تسه مز) المحتلين من قبل الروس، فقرر

الشراكسة استرداد هذه المواقع الثلاثة. واتخذوا جميع الاحتياطات والتدابير اللازمة، ووجهوا هجومهم إلى موقع (جاماتيا) ولكنهم حينما دخلوا بين موقعي (جاماتيا وانباه)، تعرضوا لنيران المدفعية الشديدة الآتية من هذين الموقعين المتقاربين، فلم يحرزوا أي تقدم يذكر، وكانت خسائرهم كبيرة، إلا أنهم تابعوا هجماتهم ولم يتراجعوا إلا امتثالاً لأوامر رؤسائهم وقادتهم خوفاً على هلاكهم وفنائهم.^(٩)

ووصف الاميرال (ياكوف) هذه المعارك بقوله "تقدمنا تسعة فراسخ ونصف الفرسخ دون معارك كبيرة، كان الكشف يقومون بالاستطلاع امام القوة لكشف واحتلال المواقع التي أقيمت على الطريق، وكان الشراكسة يزحفون كالثعابين ويهجمون على رماطنا بالسيوف، ولكنهم كانوا يهزمون خلال نصف ساعة، ويخرجون من الغابة بالحرب وتطلق عليهم مدفعيتنا طلقاتها، كما كنا نتقدم فوق جثثهم الدامية، وكنا نرى القتلى في كل مكان، وكانت الجبال تُدوي بأصوات إطلاق النار واصوات المعارك، وكانت كل الشعاب مليئة بالدخان وألسنة النيران التي أشعلها المقاتلون الشراكسة في الاعشاب، وكانت جهنم فعلا على الأرض، قضينا الليلة عند نقطة التقاء نهر (ابين) مع نهر (اتاكاف)".

واستطرد قائلاً "كان اليومان الماضيان صعبين إلا أن الفجر كان يقول إن ما مضى كان نزهة بالمقارنة مع ما ينتظرنا، وكانت آثار اقدام (الخيول) التي غالبا ما تقطع مجاري القتال تضيق في الغابة، وكانت الصخور الضخمة التي تنمو عليها الاشواك وتتحدر منها المياه ليست فقط مانعا للحرب بل كانت مصائد لنا كما كان جانب اليمين واليسار مليئة بالرجال الشراكسة الجاهزين للموت لمنع الروس من التقدم، وكنا نتقدم ببطء ونحن نكسب كل خطوة بالقتال وبسلاح متماثل لأن مدفعيتنا لم تكن لتفيد في هذه الاوضاع، وكان دفاع (الاديغة والابويخ) على ساحل البحر الأسود قويا لدرجة أن القيادة الروسية اقتنعت بأن (الشراكسة ينوون الدفاع عن أرضهم بأرواحهم)، وهكذا ففي أثناء انتقال القوة الروسية من (غيلينجيك) إلى (بشاده) لم يتوقف إطلاق النار من قبل الشراكسة الذين كانوا ينصبون الكمائن المسبقة بمجموعات صغيرة وفي يوم ١٨٣٩/٧/٦ كتب الاميرال (ياكوف) إلى الامير (مينشيكو) يقول: "بأن الشراكسة وكما في السابق يظهرون فجأة أمام كل الحصون ولمدة قصيرة ويهاجمون بشراسة، ففي حصن (ميخائيلوفسكي) قتلوا ضابطا بالسيوف وجرحوا اربعة جنود، وفي حصن (تينغينسكي) جرحوا قائدا عسكريا وثلاثة جنود وفي حصن (ويليا مينوفسكي) جرحوا خمسة أشخاص، وكان كل ذلك يتم قرب الحصن، وفي ساعة الصباح وعند موعد تحية العلم، وفي (سوباشي) القريب من إحدى الغابات قتل وجرح حوالي (٥٠) شخصا، وبشكل عام فإن الشراكسة يحاربون هناك بشجاعة فائقة، واعتقد بأن هزيمة الجنرال "سيمبارسكي" في العام الماضي على يد المقاتلين الشراكسة قرب (سوتشي) قد رفع من معنوياتهم وزاد من شجاعتهم".

وفي مكان آخر يقول القائد نفسه: "انه رغم قلة سلاح الشراكسة فإنهم لن يستسلموا بالرغم من أنه ليس لديهم أي أمل"^(١٠)

▪ وقائع واحداث العقد الخامس من القرن التاسع عشر

اتصفت حروب ومعارك هذا العقد بتعددتها وطولها، وشدتها، وتكلفت معظمها بالنجاح والتفوق والانتصار على الاعداء الروس دون أي دعم او مساعدة من الانجليز او الاتراك او الفرنسيين، بل إن الحلفاء حجبوا عن الشراكسة كل المساعدات التي كان من المقرر تقديمها لهم.

وتشير الوثائق إلى وقوع (٨٨) معركة شرسة بين القوات روسية والمدعويين من القوزاق وبين اتحاد قبائل الاديغة من شراكسة ما وراء الكوبان خلال الفترة ما بين ١٨٤٠-١٨٤٦.

وفيما يلي أهم الحروب والمعارك التي وقعت خلال هذا العقد:

* معارك شهري شباط واذار عام ١٨٤٠

مع نهاية عقد الثلاثينات وبانتهاء اقامة خط التحصينات الساحلي كانت شعوب الاديغة وغيرها من القوقازيين قد أصبحوا عمليا مقطوعين عن العالم الخارجي، مما أثر كثيرا على أوضاع

الناس البسطاء، هذا بالإضافة إلى حدوث الجفاف وقدم الشتاء القاسي لعام ١٨٤٠ فانتشرت المجاعة بشكل مرعب بين سكان مناطق ما وراء الكوبان، الأمر الذي أدى إلى التمرد ظهور حركة تحرر جماعي، أشعلت شاطئ البحر الأسود بنيران انتفاضة عارمة شاملة، خلال شهري شباط وآذار حيث قام المقاتلون الشراكسة باقتحام القلاع والحصون التالية:

"لازيروفسكويه - غولوفينسكويه - ويليامينسكويه - ميخائيلوفسكويه" الواقعة على ساحل البحر الاسود، وحارب مع الاديغة شعب الاوبيخ بقيادة "جان برزج" ذي السلطة الكبيرة، ليس فقط بين الاوبيخ ولكن في كل غربي القفقاس، وكان على رأس (١٥٠٠٠) مقاتل شركسي وتكللت هجماتهم بالنجاح وبأقل الخسائر البشرية.

* معارك شهر نيسان / ١٨٤٠م

في يوم ١٢/٤/١٨٤٠م وعندما استلم وزير الحرب الروسي القيصري الامير "تشيرنيشف" أخبار سقوط خط القلاع الساحلي، وبخ قائد الخط الجنرال "رايفسكي". كما امر قائد فيلق القفقاس بالتوجه بسرعة لمناطق (الاديغة والايخ) وإحراق مراعيهم ومزارعهم ومستودعاتهم، وقد تم إحراق قرية شابسينغ مع تدمير كل الكروم والبساتين في وادي نهر (بسه فابة).

* معارك صيف عام (١٨٤٠) م

قامت القوات الروسية بعمليات انزال بحري بمعاونة اسطول البحر الاسود، وأعيد احتلال كافة القلاع الساحلية التي كانت قد سقطت بأيدي المقاتلين الشراكسة، إلا أن الروس لم يتمكنوا من القضاء على مقاومة شراكسة ساحل البحر الاسود، حيث بدأ الاوبيخ والابزاخ والشابسينغ والناخوج محادثات جادة، بغرض تنظيم هجوم مضاد جديد على خط التحصينات الساحلي الروسي التي اعيد احتلالها، وفي الاجتماع الجماهيري الحاشد الذي عقد على ضفة نهر (بشيحة) تم اتخاذ القرار التالي: "لا يجوز لأحد منا ان يذهب إلى الكفار وكذلك ممنوعة منعاً باتاً بناء علاقات الصداقة مع الكفار وكذلك فإن أي طلبات او اقتراحات من قبلهم يجب رفضها باستمرار، وعند محاولة القوات الروسية الدخول إلى المنطقة، فعلى كل واحد منا حمل السلاح والذهاب إلى حيث الخطر لمواجهة الاعداء ومنعهم من الدخول".

كما وقعت في صيف عام ١٨٤١ أربع معارك عنيفة ضد القوات الروسية القيصرية تحت شعار (الحرية او الموت) وفيما يلي وصف ملخص لكل معركة من هذه المعارك الأربعة:

* معركة يكاترينودار/ قالشخوه:

حشد الروس في هذه المعركة ما لا يقل عن عشرة آلاف جندي واستعملوا لأول مرة سلاحاً جديداً، وكان هذا السلاح ذا تأثير شديد على محاربي الشراكسة، لأنه لم يسبق أن رأوا مثله من قبل، ولكن سرعان ما اعتادوا عليه وعملوا على تجنب أضراره بتبديل خططهم الحربية تبعاً للظروف التي تفرضها طبيعة استخدام هذا السلاح الجديد.

* معركة شابسين:

حاول قادة الروس إخراج قواتهم من هذه القاعدة الحصينة، إلا أنهم فوجئوا بمقاومة شديدة من القوات الشركسية التي انقضت عليهم من الخلف ومن الجانبين، وكبدتهم خسائر جسيمة، حيث خسر فيها الروس ما لا يقل عن ألف قتيل واضطروا إلى التراجع والاحتماء بالقلاع.

* معركة حافطسي كنجك:

وفيها حاول قادة الروس أيضاً الخروج من هذه القاعدة الساحلية والتقدم براً، ولكنهم اصطدموا بخط دفاع الشراكسة، ولم يتمكنوا من إحراز أي تقدم فانسحبوا خائبين.

* معركة بشات:

دفع قادة الروس من هذه القاعدة الحربية ما لا يقل عن ١٨,٠٠٠ جندي، وحاولوا التقدم في وادي (بشات) واخترقوا خط الدفاع الشركسي، ورغم ذلك لم يبلغوا هدفهم الحقيقي وهو التوغل برا في الأراضي الشركسية فارتدوا خائبين، بفضل القيادة الحكيمة التي مكنت المقاتلين الشركس، بقيادة (شروخ يقوه وجانبولات، حاوqe منصور) وغيرهما من الزعماء، والصمود امام قوات الروس الكبيرة، واشترك في هذه المعارك الاحداث والفتيان الشراكسة الذين لم يبلغوا السادسة عشرة من اعمارهم واستشهد البعض منهم. وأشارت بعض الوثائق بأن أحد قادة هذه المعارك وهو الزعيم الكبير (حاوqe منصور) الذي كان يتقدم المقاتلين، قال لهم: "طالما سيوفنا بأيدينا، لن نفكر في الاستسلام أبدا..".^(١٢)

وكتب العقيد "يوريف" في تشرين الثاني ١٨٤١ قائلا: "ومع ان القبرطاي الحاليون ليس أقوىاء كثيرا، لم يعودوا خطرين علينا بقواهم الذاتية، إلا ان اقرباءهم من امراء ونبلاء القبائل الاخرى القفقاسية، واحتراما لمنبتهم وأصلهم، فإن لهم تأثيرا كبيرا على باقي شعوب القوقازيين، ولذلك فإن المحافظة على الهدوء في بلاد القبرطاي هام جدا في المرحلة الحالية، بحيث ان اقل خطأ من القيادة الروسية في مناطق القبرطاي يمكن أن يؤدي إلى انتفاضة هذا الشعب ضدنا مما سيشكلون خطورة على الطريق الحربي الجورجي العسكري".^(١٣)

وفي شهر نيسان من عام ١٨٤١ قامت قوة مؤلفة من (١٥٠٠٠) مقاتل شركسي ومعهم سبعة مدافع من العيار الثقيل بمحاصرة قلعة (تينغينسكي) لمدة ستة ايام، ولم يتراجعوا إلا عندما وصلت تعزيزات روسية بعد أن تلقت القوات الروسية ضربة كبيرة وخسائر فادحة بين صفوفها.

وفي شهر تشرين الثاني عام ١٨٤١ تجدد القتال، وخسر الروس حوالي (٦٠٠) مقاتل و (٣٠٠٠) جريح، وكتب الجنرال "ياكوف" قائلا: إن الشراكسة أيضا وقعت بينهم إصابات ولكن ليس بحجم إصاباتنا".

وقاتل الشراكسة بضراوة شديدة أيضا على الشاطيء الايسر لنهر الكوبان خاصة في المناطق الجبلية، شارك فيها قوات الشراكسة الجنود الروس الذين فروا من قسوة معاملة القادة الروس، كما شارك فيها قوات عدد غير قليل من الجنود البولونيين الذين جندهم الروس في فيلق القفقاس المستقل لمحاربة الشراكسة فهربوا منه، ومن الجدير بالذكر بأن الجنود الروس والبولونيين الذين انضموا إلى الشراكسة لم يقوموا فقط بالقتال إلى جانبهم، بل نقلوا إلى الشراكسة علومهم العسكرية وخطط وتكتيك المعارك، وحسب شهادة عدد من الشهود فإنهم علموا الشراكسة أيضا أسرار صناعة البارود وأساليب اطلاق المدافع، مما ساعدهم على الصمود امام التفوق الروسي في العدد والعتاد.

■ احداث عام ١٨٤٣

بعث الامير القبرطاي (محمد ميرزا انزور) برسالة إلى نائب الامام شامل في بلاد الشيشان الشيخ (شعيب) يعلموه فيها بأن القبرطاي حكاما وشعبا جاهزين للقتال ضد القوات الروسية، وذهب بنفسه إلى النائب (شعيب) وطلب منه ارسال وحدة صغيرة إلى بلاد القبرطاي للمساعدة في قتل (١٦) عميلا شركسيا متعاوناً مع سلطات الروس القياصرة.

■ احداث عام ١٨٤٤

اتاحت الفرصة للقبرطاي للثورة على الروس مرة أخرى، عندما قدم (الامام شامل) على رأس جيش كبير قوامه اثنا عشر الف مقاتل إلى اراضي القبرطاي وتمكنوا من اجتياح بعض المخافر والمستحكات القوزاقية المسماة (ستانيتسا)، وساروا نحو الغرب ووجهتهم حوض نهر الكوبان. وفي نفس الوقت خرج عدد كبير من القبارطاي عن طاعة الحكومة الروسية، وانضموا لقوات الامام (شامل) بأمل الخلاص من حكم الروس، ولكنهم لم يستمروا في القتال معهم لعدم توفر التحصينات الطبيعية، ومن جهة اخرى فإن العدد الاكبر من القبرطاي لم يكونوا ميالين إلى جعل بلادهم عرضة لاستيلاء جيوش (الشيشان المتعصبة) على بلادهم وحافظوا على هدوئهم حتى اضطر الامام إلى

الانسحاب والالتجاء إلى بلاد الداغستان مع بعض الشراكسة من القبارطاي خوفا من تعرضهم للانتقام الروس لانضمامهم إلى الامام شامل.

وأما القبائل الجركسية الصغيرة، التي كانت تقطن ضفاف نهر الكوبان واللابا وأوروب قاوموا الروس، وتمكنوا من الصمود أمامهم، إلا أنهم اضطروا للتوقف عن الحرب لضعف حالهم وقلة عددهم، فمنهم من خضع للروس، ومنهم من أثر الهجرة إلى الضفة اليسرى من نهر اللابا، وجاوروا قبيلة (الابزاخ) واندمجوا معهم^(١٤).

▪ وفي حزيران عام ١٨٤٤:

بدأت معركة كبيرة حيث قام (٦٠٠٠) مقاتل من الاوبيخ والشابسوغ احتلال حصنين كبيرين وطرد القوات الروسية منهما.

▪ وفي عام ١٨٤٦:

وقعت عدة معارك حربية على خط التحصينات الساحلية^(١٦). وفي نفس العام أي عام (١٨٤٦) قام نائب الامام (شامل) واسمه (سليمان التتري) ببيع نفسه للروس وأعلن رفضه القتال ضدهم.

▪ وفي عام ١٨٤٨ :

وصل (محمد أمين) نائب الشيخ (شامل) وهو النائب الثالث الموفد إلى شراكسة ما وراء الكوبان بهدف نشر المذهب (المريدي) ومكث بينهم أكثر من عشر سنوات، وقام بتقسيم اراضيهم إلى قطاعات، يتألف كل قطاع منها من (١٠٠) بيت أو عزية، وأسس في كل قطاع (محكمة) وهي عبارة عن (حصن) او قرية جبلية محاطة بالخدانق والسياح، كما انشأ في كل محكمة مساكن للقضاة وللقيادة بالإضافة إلى بناء مسجد ومدرسة حربية وسجن ومخزن تجاري واسطبل كما عين لكل مقاطعة إدارة مكونة من ثلاثة قضاة للقيام بمهام إدارية وقضائية.

كما وضع تحت تصرف كل (إدارة) وحدات مسلحة من الخيالة، وجيش مكون من مجموع الوحدات الخيالة، بالإضافة إلى الوحدات الامنية التي كانت تتكون من الفرسان والمحاربين المتطوعين، بمعدل (فارس واحد من كل بيت على الأقل) وكانت هذه الوحدات المقاتلة جاهزة للقتال عند صدور نداء من نائب الشيخ شامل إلى بلاد شراكسة ما وراء الكوبان.

كما شكل النائب في المرحلة الأولى من وصوله إلى بلاد شراكسة ما وراء الكوبان أربعة مناطق في الابزاخ الذين كانوا أوائل من اعترفوا بسلطته، ثم شكل ثلاث مناطق أخرى لدى الشابسوغ واثنين لدى الناتخواج.. ولم ينجح نائب الإمام محمد أمين من توحيد شعوب شراكسة (الأديغة) في مناطق ما وراء الكوبان لأسباب وتأثيرات داخلية وخارجية^(١٧).

▪ أحداث عام ١٨٤٦

أرسل الإمام شامل عام ١٨٤٦م رسالة إلى القبارطاي تحمل التهديد والوعيد وتطالبهم بآخر مرة للانضمام إلى جيشه لمحاربة الروس، والقيام بثورة عامة لتحرير بلادهم من حكم الروس. وجاء في المقطع الأخير من تلك الرسالة التهديد التالي:

((واذا تماديتم في غيكم وأعرتم آذاناً صاغية لوعود أولئك الروس الكفار ذوي الشعر الاحمر، ولم تدعونا لطلبنا هذا، ولم تصدقوا تهديداتي فإني سوف أحقق ما كان ينوي تحقيقه الإمام غازي مولا، وأن جيوشي الجرارة سوف تنقض على بلدانكم الآمنة كالغيوم السوداء التي تقدح شررا وصواعق فتاكة، وسوف ننتزع منكم غصبا ما رفضتم إعطاءه لنا بالحسنى. وان الدم سيسيل

على جوانب طريقي اليكم، وسوف يتبعني في طريقي إليكم الخوف والهلاك، وحيثما يعجز الكلام تبدأ القوة)).

ونفذ الامام تهديده في نفس العام، وهاجم بلاد القبارطاي من حدود بلاد الشيشان، إلا أن الجنرال الروسي (فرتياغ) كان يعلم سلفاً ما كان ينويه الامام، فسارع في تعقب تحركاته في بلاد القبارطاي، وحاول قطع طريق الرجعة عليه، وأما الامام فلم يتجاسر على مقابلة جيش الجنرال المذكور، في بلاد سهلة لا جبال فيها ولا أحراج، وأثر الرجوع إلى الجبال خوفاً من وقوعه في الأسر.

ورغم فشله في محاولة اجتياح بلاد القبارطاي فقد أحرز الإمام شامل بعمله هذا بعض المكاسب المعنوية ولاقى الاستحسان لدى القوقازيين، كما أن الجنرال (فرتياغ) نجح في تخلص الدولة الروسية من خطر عظيم كان يتهدها من قوات الشيخ شامل واتباعه المريدين.

▪ أحداث عام ١٨٤٧ :

حاول الجنرال (فوردنتسوف) الاستيلاء على موقع (غرغيبيل) الذي حصنه الامام شامل بعد هجوم شديد. ولكنه فشل في محاولته هذه كل الفشل، واضطر إلى الانسحاب بعد أن تكبد خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، وبعد مدة تمكن من احتلال الموقع الحصين (سالتلي)، إلا أن ذلك كلفه خسائر جسيمة، وما لا يقل عن ألفي شخص بين قتيل وجريح. ومع ذلك فقد كانت هذه الموقعة مدار فخر وزهو الجنرال (فوردنتسوف).

▪ أحداث عام ١٨٤٨ :

سقطت (غرغيبيل) أيضاً، بعد حصار دام اثنين وعشرين يوماً، حيث تعرضت لهجوم جيش روسي كبير عدده لا يقل عن عشرة آلاف مقاتل، ولكن الروس لم يتمكنوا من إيقائها في أيديهم، واضطروا إلى اخلائها والانسحاب منها، والفرار والتقهقر بأسرع ما يمكن، بسبب الهجمات الشديدة التي قامت بها جيوش شامل والاحطار التي كانت تهددهم من جميع الجهات.

وفي خريف تلك السنة هاجم (شامل) على رأس جيش كبير جداً موقعاً محصناً يقع على نهر (سامور)، في الجهة الجنوبية من بلاد الداغستان وكانت حاميتها البالغ عددها (٥٠٠) محارب، تدافع تحت إمرة قائدها الكولونيل (روث) بكل بسالة، وقد خسرت الحامية نصف رجالها الأشداء، وحينما استبد بهم اليأس نسفوا مخزن البارود الموجود لديهم وقرروا الدفاع حتى الرمح الأخير. كما أن النساء الروسيات الموجودات في الحصن قررن الانتحار قبل وقوعهن أسيرات بأيدي جيوش الموريديّة بقيادة الشيخ شامل.

كان كل شيء يسير لصالح الإمام الذي وعد (نوابه) بأنه أول من يتمكن من احتلال الحصن ويرفع رايته على برجه سيعطيه ابنة القائد (روث) الجميلة، إلا أن نجدة كبيرة من القوات الروسية وصلت في آخر لحظة، وتمكنت من فك الحصار وإنقاذ المحاصرين في داخل هذا الحصن^(١٥).

* أحداث ووقائع المعارك العنيفة في العقد السادس من القرن التاسع عشر

لم يقيم الروس منذ عام (١٨٥٠) بأعمال حربية وعدائية ضد الشركاسة بل اكتفوا بإشغال حصونهم وقلاعهم التي انسحبوا إليها، وهذا لم يمنعهم من السعي لعزل بلاد الشركس عن الأتراك وقطع كل صلة بينهما. وكان الروس يتظاهرون في كثير من الأحيان بمظهر المسالمين، وكان بينهم وبين أعدائهم هدنة غير معلنة، حيث كان أشد قادة الروس تحمسا لهذه الفكرة هو الجنرال (ياكوف)، وهو قوقازي المولد وأرمني الجنس، وكان يعمل مع الأتراك في (أنابا) كمترجم، ولما رحل العثمانيون عن هذه البلدة، وحل محلهم الروس، وتحول لخدمتهم ولمع نجمه لمعرفته بأمر القوقاز

وأحوال القبائل الشركسية ولعلاقته الجيدة مع بعض الاسر المنتفذة في قبائل ناتخواج، واثقانه اللغة الشركسية. إلا أنه كان يجهل طبائع الشركس والمتمثلة في كرههم لعامة الروس.

وفي عام ١٨٥١ تم تشكيل وحدة قومية بين القبائل الشركسية الاثنتي عشرة لم يحدث مثلها من قبل، وأدى هذا التضامن لانتشار الدين الاسلامي بسرعة كبيرة وإن لم يرافق هذا الانتشار تنقيف وتوعية دينية، لعدم وجود متسع من الوقت لانشغالهم بالحروب المستمرة ضد القوات الروسية الغازية.

والذي يهمننا في بحثنا عن الوقائع والأحداث التي وقعت خلال سنوات هذا العقد هو الكشف عن بعض الحقائق حول (حرب القرم) (١٨٥٣-١٨٥٦) من حيث أسبابها وأهدافها، ومجرياتها وهي على النحو التالي:

١- كانت أهداف كل دولة من دول التحالف الثلاثي من إعلان الحرب على روسيا في حربها المسمى (بحرب القرم) تختلف باختلاف سياسة كل دولة فيها. وتؤكد الوثائق التركية بأن أسباب حرب القرم لم تكن للأهمية الاستراتيجية لمنطقة القفقاس عامة والمناطق الشركسية خاصة، وإنما كان السبب الرئيسي هو: صمود الشراكسة وقدرتهم على المقاومة للعدو الروسي أكثر من ثلاثمائة عام، وكذلك لاقتناع قادة الحلفاء بأنهم يستطيعون بمعونة المقاتلين الشراكسة تحطيم القوات الروسية من أول ضربة.

٢- كانت رغبة الإنجليز والأتراك في دعم الشراكسة ليس حبا في منحهم الاستقلال الوطني الذي تنتشه الأمة الشركسية، وإنما لضمان حرية التجارة معهم والحصول على طرق تجارية آمنة للوصول إلى الشرق الأدنى عامة وبلاد الهند خاصة.

٣- ضمان حرية الملاحة في البحر الأسود وإبعاد الأسطول البحري الروسي عن شواطئه لضمان حرية حركة بواخر قوات التحالف.

تلك هي الأهداف الحقيقية لقوات التحالف من إعلان حرب القرم ضد روسيا القيصرية وتحققت هذه الأهداف جميعها باستثناء الهدف المتعلق باستقلال الشراكسة وتكوين دولتهم المستقلة المنشودة وتشير الوثائق التاريخية إلى أن هذا الهدف لم يتحقق لسببين رئيسيين هما:

السبب الأول: لم يتفق الحلفاء على رأي واحد، حول هذا الهدف ففرنسا لم يكن لها اهتمام في بلاد ما وراء القفقاس، بينما إنكلترا وتركيا كانتا مهتمتين بمسألة القفقاس وباستقلالها لضمان الاتجار معهما، خاصة وأن الانكليز وخلال حرب القرم وفي ذهنهم إقامة دولة في شمال القفقاس تحت اسم (شركسيا) ووضعها تحت حماية تركيا أو إنكلترا، وكان قد تم التفكير في سلخ بلاد ما وراء القفقاس عن روسيا، وتقسيم جورجيا إلى إمارات تحت حماية إنكلترا، ويتضح ذلك من المقالة التي نشرت في جريدة (التايمز) البريطانية قبل بدء حرب القرم بوقت قصير حول ضرورة انسحاب القوات الروسية عن مناطق ما بين نهري الكوبان وتيرك.

أما السبب الثاني، فيتعلق بفشل الحلفاء في استخدام سكان القفقاس عامة والشراكسة خاصة ضد روسيا، وجعلهم حلفاء نشيطين، كما حاولت القيادة التركية/الفرنسية الانكليزية المشتركة إقامة علاقات مع قادة حركة التحرر الشركسية أولا، ومع "شامل" ونائبه "محمد أمين" و "صقر بيك" ثانيا. إلا أن هذه المحاولات فشلت جميعها أيضا. ولم تنجح لسببين رئيسيين هما: الأول، قناعة الشراكسة بعدم جدية الحلفاء في حرب القرم، والثاني، عدم ثقتهم بسياسة الحلفاء في ضوء التجارب السابقة والتي تمثلت بالعود المتكررة بتقديم الدعم العسكري والمالي والبشري للشراكسة في حربهم ضد روسيا القيصرية، ولم يتحقق منها أي وعد.

وفي نهاية عام ١٨٥٣ انتهت الحملة الحربية في منطقة ما وراء القفقاس بكارثة حلت بالخطط الاستراتيجية للقيادة التركية، إذ إن النصرين الباهرين اللذين أحرزهما للروس، - الأول في (أخالتيخوم) في ١٨٥٣/١١/٢٦ والثاني عند بلدة (باش كاديكلار) في ١٨٥٣/١٢/١ - حطما نهائيا الخطط التركية باحتلال القفقاس بضربة واحدة.

كما تلاشى خطر إنزال قوة تركية على شاطئ ساحل القفقاس، إذ قامت قوة بحرية روسية في ١٨٥٣/١١/٣٠ بقيادة "ناخيموف" بتدمير قوة الإنزال التركية في مرفئها في خليج (سينوب) وهي القوة التركية التي كانت مؤلفة من (١٤) سفينة، وكان من المخطط لها التوجه لاحتلال مدينة (صوخوم) والاتصال مع المقاتلين الشركاسة في الداخل. وهكذا تعقد الوضع الدولي بعد معركة (سينوب)، وهزيمة الجيش التركي في مناطق ما وراء القفقاس، وأصبح خطر نشوب الحرب مع انكلترا وفرنسا ودخول أساطيل الحلفاء إلى البحر الأسود أكثر مع إمكانية دخول إيران الحرب إلى جانب الحلفاء الأمر الذي أدى لاهتمام القيادة الروسية على إبقاء خطوط المواصلات مفتوحة بين روسيا وما وراء القفقاس، وحراسة شاطئ بحر قزوين، والطريق الحربي الجورجي، وشاطئ البحر الأسود، وتعقد الموقف بشكل خاص على شاطئ القفقاس بعد دخول أسطول الحلفاء إلى البحر الأسود، حيث اختبأت السفن الحربية الروسية في عمق خليج (سيباسترل) لتخلف تسليحها أولاً، ولقلة عددها مقارنة مع عدد سفن الحلفاء.

وفي شباط عام ١٨٥٤ أمر القيصر انقولا الاول بإخلاء وتدمير قلاع وتحصينات خط الدفاع الساحلي على البحر الأسود والتحصن في قلاع (انابة ونوفورسيك وغيلنجيك وصخوم) وفي العام نفسه (١٨٥٤) تلقت الحكومة الانجليزية موافقة نابليون الثالث للقيام بالهجوم على القوات الروسية في القرم، وفي تموز عام ١٨٥٤ ترأس النائب (محمد امين) وفدا شركسيا مكون من (٧٠) اميرا لزيارة قيادة الحلفاء في (فارنا) للتباحث معهم حول تنظيم الاعمال العسكرية المشتركة ضد روسيا، واستقبل الوفد باحتفال رسمي وأطلقت المدافع عند وصولهم (٢١) طلقة تحية لقدومهم.

وفي ١٨٥٤/٦/٢٧ وبعد يومين من وصول الوفد الشركسي برئاسة النائب، كتب المارشال (سانت أرنو) الانجليزي إلى مدير الحرب الانجليزي، مشككا في امكانية استتفار كافة القبائل الشركسية وإعداد جيش قوامه (٤٠٠٠٠) مقاتل مسلح للمشاركة في القتال في حال إنزال الحلفاء قواتها على شاطئ القفقاس.

إلا أن هذا الاقتراح لم يلقَ قبولا في كل من باريس ولندن.. وفضلوا إرسال القوات للقرم بدلا من إرسالها إلى القفقاس^(١٨).

ومع نهاية عام ١٨٥٤ كانت كل من تركيا والشيخ (شامل) قد فشلا في توحيد قبائل الشركاسة واستتفارهم للحرب ضد روسيا، حيث كان القبرطاي وغيرهم من شركاسة القفقاس ينظرون بشك كبير حول جدية حملة الحلفاء ضد روسيا.



صورة القائد الشركسي صفر بك

وذكرت عدة وثائق بأن قادة الشركاسة كانوا مترددين في تقديم المعونة لتركيا لقناعتهم بعدم وجود قوات كافية لديهم لمواجهة القوات الروسية، وبالتالي فإن كل محاولات القائد الشركسي (صفر بك) لإقناع زعماء الشركاسة فشلت تماما.

وفي عام ١٨٥٥ حاول الحلفاء إقناع (الشيخ شامل) تقديم المساعدة العسكرية في حملتهم ضد الروس، إلا أنه رفض ذلك، لأنه لا يريد أن يصبح لعبة في أيدي الحلفاء، وأدار لهم ظهره ولم يشارك في أية أعمال حربية مع الحلفاء.

وفي آذار ١٨٥٥ نزلت قوة تركية بقيادة (مصطفى باشا) إلى منطقة القفقاس الشمالي الغربي، وطلب هذا القائد من (صفر بك) تنفيذ هجوم من المناطق الشركسية في ما وراء الكوبان، كما أرسل العميل التركي (حاج إسماعيل) إلى القرى الشركسية لإقناعهم بالمشاركة مع القوات التركية في هجومها على الروس، إلا أن زعماء (الأديغة) عامة قابلوا طلب هذا العميل بشيء من السلبية ورفضوا تلبية طلبه.

ونفذت قوات روسيا هجمات متتالية بمشاركة أكثر من (٤٠٠٠٠) مقاتل روسي شهر تشرين من عام ١٨٥٥ على قلعة (قارص) واحتلوها بعد قتال كبير.. ولم تلق القوات التركية أية مساعدة عسكرية من حلفائه لاستنزاف قوتهم في الدفاع عن (سيبسانوبول)، وبذلك خسرت القوات التركية هذه المعركة وانسحبت من القلعة.

وفي ١٨٥٥/٥/١٢ قام أسطول الحلفاء المؤلف من (٥٠) بارجة و (٢٥) سفينة باحتلال مضيق (كيرتش).

وفي صيف عام ١٨٥٥ حاول (مصطفى باشا) و (صفر بك) تحريض شعب وزعماء شراكسة (الأديغة) من جديد للانضمام إليهم، لشن هجوم معاكس على القوات الروسية، إلا أن جواب زعمائهم كان بأنهم "لا يرغبون سماع اسم الانجليز والفرنسيين.. وأنهم ينظرون إليهم كأعداء لهم وليس كأصدقاء".

وكان وجهة نظر الشراكسة ممن رفضوا الانضمام إلى معسكر الحلفاء هو قناعتهم بعدم وجود مبرر لمهاجمة الروس، لأن الروس لم يبادروا بشن أي هجوم على الشراكسة منذ بدء حرب القرم.

ولا شك بأن وقوف الشراكسة على اختلاف قبائلهم على الحياد، وعدم تقديم أية مساعدات عسكرية للحلفاء، ربما كان السبب الرئيسي في تغيير موقف الحلفاء عامة والفرنسيين والأتراك خاصة من صراع الشراكسة مع الروس للحصول على الاستقلال الكامل.

وفي أيلول من عام ١٨٥٥ قام القائد التركي (عمر باشا) بتكوين علاقات وثيقة مع (محمد أمين) وعينه قائدا لكل القوات الشركسية في غرب القفقاس ومنحه لقب (الباشوية) ورفاه إلى رتبة (فريق). كما منح الشيخ (شامل) رتبة مارشال (مشير) في الجيش التركي.. إلا أن (محمد أمين) فشل الوفاء بوعده (لعمر باشا) لحشد (٤٠,٠٠٠) من المقاتلين القوقازيين، نصفهم على الأقل من الفرسان الشراكسة، بل إن قادة الأديغة قاوموا محاولات (محمد أمين) مقاومة شديدة، وطلبوا منه ترك الشراكسة لحالهم^(١٩).

وفي ١٨٥٥/١١/١٦ استسلمت حامية (قارص) للقوات الروسية، الأمر الذي دفع قادة الحلفاء لوضع خطة جديدة لشن هجوم في عمق القفقاس بهدف استعادة حامية (قارص) أولا، والوصول إلى عمق القفقاس ثانيا، وحسب هذه الخطة الجديدة كان يفترض الانتهاء من احتلال كامل القفقاس في عام ١٨٥٧. كما افترض الإنجليز والأتراك قيام كل الشعوب القفقاسية بانتفاضة ضد الوجود الروسي في بلادهم.

في عام ١٨٥٦ قامت انتفاضة فلاحي (البزدوغ) والتي سميت (بحرب الأمراء والنبلاء الارستقراطيين) وقضي على هذه الانتفاضة بعد أن استجدوا بالقوات الروسية التي قامت بتدمير قرى الفلاحين بأكملها، إلا أنهم لم يتمكنوا من إخماد الانتفاضة، حيث قام الفلاحون بالاستيلاء على أراضي الأمراء والنبلاء الذين التجأوا للمناطق الروسية.

وفي العام نفسه حاول (محمد أمين) نائب الشيخ (شامل) استغلال الانتفاضة الشعبية في مناطق قبائل البزدوغ وعمل على توحيد شراكسة ما وراء الكوبان (بدعم من الفلاحين) وإعلان الحرب المقدسة ضد روسيا، إلا أن الفلاحين الشراكسة أدركوا مدى صعوبة تطبيق الأنظمة الشرعية وشعروا بنقل النظام الإسلامي الصارم، الذي كان قد وضعه (محمد أمين) وتحولوا عن فكرة التوحيد حول لوائه.

وفي خريف عام ١٨٥٦ سقط (سيبسانوبول) بيد الإنجليز والفرنسيين، وفجأة وبالرغم من انتصارهم الجزئي قرر الحلفاء إيقاف الحرب والدخول في محادثات سلام مع الروس، واستكمال أعمال المؤتمر التحضيرى الذي كان قد بدأ في (اثينا) قبل سقوط (سيبسانوبول) واختاروا (باريس) مكانا لعقد هذا المؤتمر. وهو المؤتمر الذي وافق على انعقاده الحلفاء بعد أن تأكدوا من الموافقة

المسبقة للسلطات الروسية على مطالب الحلفاء عامة ومطالب كل من إنجلترا وفرنسا خاصة باستثناء شرط منح تشركسيا استقلالها.

وتوصلنا إلى هذه الحقيقة من دراسة وتحليل وقائع مؤتمر باريس كما جاءت في الوثائق الانجليزية أو الروسية، وهي على النحو التالي:

١- طالب المفوض الانكليزي اللورد "راسل" بمناقشة المسألة الشركسية، كما طالب منع إقامة تحصينات روسية في شركسيا؛ وأعلن ممثل تركيا "علي باشا" رغبته في استقلال داغستان وشركسيا.

٢- لعبت المسألة الشركسية دورا هاما في المحادثات النهائية حول السلام التي بدأت في الخريف بعد سقوط (سيباستوبول) كما تكلم المفاوضون الإنكليز عن موضوع فصل مناطق القفقاس الشمالي وما وراء القفقاس نهائيا عن روسيا.

٣- حاولت انكلترا إعاقة محادثات السلام وحث فرنسا بدعم خططها العسكرية تجاه القفقاس والمستعمرات الروسية الأخرى.

٤- كان البند الخامس على جدول أعمال المؤتمر، والمتعلق باستقلال تشركسيا وهو أهم وأصعب البنود بالنسبة لروسيا، لذلك وقبل افتتاح جلسات المؤتمر الرسمية حاولت الدبلوماسية الروسية معرفة ما تريده انكلترا من (النقطة الخامسة) وقال المندوب الروسي المفوض "برونوف" أن: "الحكومة البريطانية تسعى لتقديم دعمها المعنوي إلى القبائل التي حاولت أثناء الحرب جرّها إلى الانتفاضة ولا تريد انكلترا أن تظهر بأنها فور حصول السلام تركت الشراكسة وخانتهم، إلا أن الانطباع لدي هؤلاء أن النقاش حول هذه النقطة سيتقيد بالمحاولات الدبلوماسية التي يحبها ويبرع فيها اللورد "بالمرستون" وهي نقطة سيثيرها فقط لإظهار تصلب الموقف الحكومي الانكليزي في المفاوضات لإقناع البرلمان الانكليزي مستقبلا بأنهم حاولوا جهدهم".

٥- تأكد افتراض "برونوف" حول القلاع الروسية على ساحل القفقاس بعد لقائه مع رئيس الوفد الانكليزي اللورد "كلاريندون" في ١٨/١٢/١٨٥٦ والذي أعلن فيه أن "انكلترا ترغب في تسهيل تجارتها مع القفقاس، وبالذات مع شركسيا، وكذلك بتدمير - أو بمعنى آخر - عدم إعادة بناء القلاع الروسية على ساحل البحر الأسود، وبذلك يتم تأمين حدود الإمبراطورية العثمانية، أما النوايا الحقيقية للانكليز تجاه المسألة الشركسية، فقد ظهرت مباشرة قبل بدء الاجتماعات الرسمية للمؤتمر، وقد وصف الامير "قاليفسكي" ذلك بقوله إن "انكلترا تشكك في حقوق روسيا على المناطق الواقعة فيما وراء الكوبان، وحسب رأي انكلترا فإنه على روسيا الاعتراف باستقلال وحياد المناطق الواقعة جنوب نهر (الكوبان) أو وضع هذه المناطق تحت السيادة الأسمية للبواب العالي التركي.

٦- اتضح أن الحلفاء لم يكن لديهم رأي واحد في عدد من المسائل، ومن بينها (المسألة الشركسية) التي تدعم فرنسا فيها انكلترا فقط بالكلام، وهذا التعارض بين مصالح الحلفاء، استخدمته الدبلوماسية الروسية بنجاح، وكان "بالمرستون" وزير خارجية إنجلترا يعرف أن اللعبة غير سهلة، وأن "تابليون الثالث" سيظهر نفسه في المؤتمر بأراء غير واضحة تجاه حليفته انكلترا، لذلك قرر (بالمرستون) عدم المغالاة في مطالبه، وكان على المندوب الانكليزي (كلاريندون) السعي للحصول على استقلال المنطقة الواقعة بين البحر الأسود ونهر (الكوبان) وأرمينيا ومن (أنابه) حتى (تشوروك سو) إلا أن "بالمرستون" رأى صعوبة تحقيق هذا المطلب، لذلك طلب من "كلاريندون" أن يصبر فقط على (استقلال شركسيا)، بالإضافة لذلك اعتبرت الدبلوماسية الانكليزية، أن قرارات المؤتمر بما يخص غرب القفقاس يمكن أن تدخل في القرارات الخاصة بحياد البحر الأسود، مما لا يسمح لروسيا بحصار الساحل الشركسي، كما أن إدخال حرية الملاحة والتجارة كانتا ضمانا لحرية التجارة في

شركسيا، كما حاولت الحكومة الانكليزية توضيح أن حياد البحر الأسود، وبالتالي منع تواجد الأساطيل الحربية الروسية منها، سيقود إلى منع إقامة القلاع في شركسيا.

٧- قبل بدء أعمال مؤتمر باريس وبتعليمات من الانكليز ارسل "صفر بيك" وهو احد القادة الشراكسة البارزين لحركة التحرر في الكوبان على رأس وفد من شركسيا لاستانبول لطلب قبول (اتحاد شركسيا) مع الامبراطورية العثمانية، ووعد السلطان اتحادهم مع تركيا إذا ادوا القسم بالخضوع له، وقبول من يعينه السلطان رئيسا عليهم، وبأن السفن الانكليزية والفرنسية والتركية ستراقب البحر الأسود، ولن تسمح بأية اعتداءات على الشراكسة.

٨- قامت الحكومة التركية بالتعاون مع السفير الانكليزي في استانبول برفع مذكرة إلى مؤتمر باريس من خلال مندوب تركيا "علي باشا" تنص على (إعلان استقلال شركسيا وداغستان).

٩- قبل بدء الاجتماعات الرسمية عقد لقاء بين المندوبين الروسي والانكليزي، تكلم فيها "كلاريندون" حول حل مسائل (ايميريتيا) و (غوريا) و (أبخازيا) و (شركسيا)، وكان المندوبون الروس يعرفون مسبقا موقف فرنسا من هذه المسائل، فرفضوا مناقشة مثل هذه المسائل، وتشير الوثائق بأن محضر هذه الاجتماعات قد حذف منه طلبات المندوب الانكليزي (كلاريندون) حول المسائل المتعلقة باستقلال شعوب قفقاسية عامة وشركسيا خاصة وأن الحذف تم من قبل المندوب الفرنسي وبتعليمات مباشرة من (نابليون الثالث).

١٠- اثار (كلاريندون) في جلسات المؤتمر مسألة الممتلكات الروسية في القفقاس ومصير القلاع على ساحل البحر الأسود القفقاسي، وتصدى له المندوب الروسي ورفض مناقشة هذه المسائل معتمدا على نصوص معاهدة (انديريانوبولوس) ومؤتمر (سانت بطرسبورغ) لعام ١٨٣٤، كما أن فرنسا لم تدعم انكلترا في طلباتها.

١١- لم يكن باستطاعة "المرستون" الابتعاد عن حلمه في استقلال قفقاسيا وحسب تعليماته بذل المندوبان الانكليزي والتركي كل قواهما عند كتابة بنود الاتفاق، بأن لا يتم تثبيت طموحات روسيا في شركسيا في الاتفاقية، وذلك بقيام المندوب الانكليزي بمحاولة تغيير نص (المادة الرابعة) من مشروع الاتفاق والخاص بالحدود الجديدة بين روسيا وتركيا.

وهكذا لم تستطع انكلترا بالطرق الدبلوماسية جعل روسيا تعترف باستقلال شركسيا، وقد وُلد هذا الامر رد فعل عنيف في الأوساط الحاكمة في انكلترا، وكان ذلك واضحا جدا عند مناقشة إقرار اتفاق باريس في مجلس اللوردات في ١٨٥٦/٥/٥ حيث قام الاعضاء بمهاجمة وزارة الخارجية البريطانية لعدم قدرتها على إقرار مبدأ استقلال شركسيا في مؤتمر باريس، باعتبار أن شركسيا هي المحور الرئيسي الوحيد باتجاه الهند وإيران وتركيا، وأعلن اللورد "مانيرز" أن انكلترا وأوروبا لم تعترفا ابدأ بحقوق روسيا في شركسيا في أي وقت وأن التنازلات التي قدمها الوفد الانكليزي في محادثات باريس أعطت لروسيا تغطية أوروبية شرعية لاحتلال كل هذه المناطق الهامة.

وطالب بعض المتحدثين في مجلس اللوردات الانكليزي بعدم تصديق (اتفاق باريس) بل إنهم طالبوا بالاستمرار في الحرب حتى تحقيق استقلال شركسيا ووجه اللورد سؤالا إلى "غرينفيل" وزير الخارجية قائلا: "ألا تعتقد أن الحرب يمكن أن تطول وتستمر لأنه لم تتم صياغة قرار للشراكسة حول إقامة شركسيا مستقلة؟"

وعلل وزير الخارجية عدم نجاح الدبلوماسية الانكليزية حول المسألة الشركسية في مؤتمر باريس أمام مجلس اللوردات لأن الانكليز لا يستطيعون الطلب من روسيا التراجع عن معاهدة (إنديريانوبولوس) والتي نصت على تنازل تركيا عن شركسيا للروس أولا، ولأن "شامل" لم يظهر في حربه ضد روسيا الارادة في التعامل مع الحلفاء ثانيا، وأنه رفض تقديم المساعدات العسكرية للحلفاء لأنه لا يريد أن يصبح لعبة في أيديهم.

▪ وقائع وأحداث حروب السنوات الأخيرة من حرب الإبادة والدمار الروسية للأمة الشركسية في الوطن الأم.

ابتداء من عام ١٨٦٠ ركزت القوات الروسية القيصريّة هجماتها على شراكسة الغرب في منطقة الكوبان ومناطق ما وراء القفقاس، ومن أهم هذه المعارك تلك التي شنتها ثلاثة جيوش روسية بلغ عدد مقاتلي كل جيش منها حوالي (١٥) ألف مقاتل، وتوغّلوا في سهول الشابسوغ، وتوجه الأول من هذه الجيوش الثلاثة من قاعدة (أتاكوما) وسار متوجّها إلى ضفاف نهر (أبين)، والثاني اجتاز نهر الكوبان عند مصب نهر (إيل)، والثالث تخطى نهر الكوبان فوق نهر (شيش)، وزحف متوغلاً في الأراضي والبلاد المجاورة، وبدأت هذه الجيوش بإنشاء الحصون والمستحكات في الأراضي التي احتلوها كما انشغلوا في تأمين خطوط الاتصالات بين المواقع المحتلة والحصون التي أقيمت عليها.

وفي نفس الوقت امتدت الحرب إلى بلاد الشابسوغ، وأحدثت رد فعل شديد لديهم، فهبوا جميعاً للدفاع عن بلادهم وصدوا تقدم العدو بقيادة الزعيم الكبير (علي بي حانتوخو) الذي كانت تساعد نخبته من زعماء وفرسان شعب الشابسوغ، مثل (حاكتوص) و(حاج برام) و(إبراهيم ناتخو) و(أرسلان بي) و(حاكو) و(شرتلي) وغيرهم.

وتمكن هذا الزعيم من إحباط تقدم العدو ومنعه من اكمال بناء الحصون، كما تمكن من قطع المواصلات بين المعسكرات الثلاثة.

وكذلك فإن (الحاج إسماعيل باشا) لم يتوان عن العمل في سبيل مضايقة العدو وعرقلة مساعيه وتحريض الشعب على الكفاح، واستنهاض همته لمواصلة الحرب. وكان يساعده في أعماله (قره باتير ابن صفر باشا) وقد أراد بعد موت أبيه أن يقوم مقامه ويخدم أمته، ولأنه كان قد اعتدى على الروس مراراً فيما سبق، لم يجسر على الظهور أمامهم أو اللجوء إليهم وتسليم نفسه، لذلك سلك مسلكاً معادياً لهم.

وكذلك الزعيم (تو) أفندي، أحد زعماء الشابسوغ والذي كان من ذوي المكانة والنفوذ الواسع في البلاد الواقعة على البحر الأسود، قام بالمساهمة بألفي محارب، لمساعدة المحاربين المدافعين عن السهول الأمامية المهددة بالاجتياح. وكان هذا الزعيم من ألد أعداء الروس، حيث سبق له أن وقع في أسرهم وهو عائد من استانبول على ظهر سفينة تركية، فأساءوا معاملته حتى تمكن من النجاة بعد أن افتدى نفسه بالمال.

كما ساهمت قبائل الأوبيخ في حرب الشابسوغ ضد الروس وأرسلوا لهم النجدة بين الحين والآخر.

وفي نهاية شهر أكتوبر من عام ١٨٦٠ ترك الروس مواقعهم الحربية وانسحبوا إلى ما وراء الكوبان دون أن يكملوا إنشاء حصونهم أو إشغالها وتجهيزها بالمعدات الحربية اللازمة، وكل ما قاموا به من أعمال هو تجديد بناء الحصن الواقع عند نهر (أبين)، وفي سبيل ذلك اضطروا إلى التوغّل في السهول المجاورة حتى نهر (أبين) المذكور، الأمر الذي أدى إلى ازدياد دفاع السكان الشراكسة واستبسالهم في الذود عن أراضيهم رغم ما كان يكلفهم ذلك من ضحايا بالرجال والأموال، إذ فقدوا أثناء هذه العملية أكثر من (٣٠٠) عزبة) التهمت نيران الروس، وحُرموا من غلتها السنوية.

وفي شتاء عامي ١٨٦٠ - ١٨٦١ قام الروس بهجمات متعددة من قواعدهم العسكرية في (أتاكوما وأبين)، وتوغّلوا في جهات شيس (وشيبسوغور) و(بوغوندور)، ولكنهم هُزموا أمام المدافعين من الشابسوغ واضطروا إلى التراجع بعد أن تكبدوا خسائر فادحة جداً، حيث وجدوا أمامهم بلاداً أكثرها جبلية ومكسوة بالغابات الكثيفة مما جعل عملياتهم الحربية أصعب بكثير من التي قاموا بها في السهول.

وأما العمليات الحربية في المناطق الساحلية، فقد كانت من أشد العمليات قسوة على سكانها بسبب الحصار البحري الشديد الذي ضربه الاسطول الروسي المؤلف من عشر سفن حربية (وهو

العدد الذي كان مسموحا به للروس بإبقائه في البحر الأسود بموجب معاهدة باريس) هذا بالإضافة إلى عدة سفن شراعية أخرى مسلحة كان يمتلكها الاسطول الروسي في هذا الموقع.

وفي عام ١٨٦١ استعاد جيشان روسيان يبلغ تعداد كل منهما اثني عشر ألف جندي، مواقعهما السابقة عند نهري (ايل) و (شيس)، ثم تقدم جيش آخر قوامه ثلاثين ألف جندي مقاتل ما بين (أتاكوما) و(آبين) مؤقتا.

وتقدم بعد ذلك أحد فروع هذا الجيش إلى (دوبا) وتوجه فرع آخر منه إلى (أدربه) بين الغابات الكثيفة مستهدفا في سيره (كلنجك) ووفق هذا الفرع في شق طريقه بين الغابات والوصول إلى (كلنجك)، إلا أن الخسائر التي لحقت من جراء ذلك كانت عظيمة لدرجة أنه عدل عن سلوك الطريق نفسه عند انسحابه إلى قواعده، فسلك طريقا آخر يؤدي من (صوجاق) إلى ناتخاج إلى أن بلغ معسكره الأساسي الذي قام منه في بداية الحملة العسكرية.

وفي صيف عام ١٨٦١ حاول تأمين خطوط مواصلاته بين معسكراته في بلاد الشابسوغ وربط بعضها ببعض بطرق سالكة، إلا أنه أخفق كل الإخفاق وحبطت أعماله لما أبداه الشابسوغ من شجاعة في الدفاع عن وطنهم مما اضطر العدو آخر الأمر إلى التحول عن هدفه والعدول عن تنفيذ خطته في بلاد الشابسوغ^(٢١).

وفي خريف العام نفسه حدث بين الروس والأبزاخ مناوشات كانت هي مقدمة لمعارك أكبر، وأكثر شدة، وهذا ما حدث فعلا في (نفس العام) حيث اندلعت المعارك في جميع أنحاء بلاد الشراكسة وأسفرت عن تدمير قرى وقتل مئات من المقاتلين الشراكسة.

وفي عام ١٨٦٢ قام القادة العسكريون بأمر من القادة السياسيين الروس عرض خيارين اثنين على قادة وزعماء الشراكسة لاختيار احدهما:

الاستسلام وترك البلاد والهجرة إلى تركيا أو الهلاك والإبادة الجماعية إن أرادوا مواصلة القتال.

ولما كان الاستسلام للروس معناه العبودية الابدية، فضلوا الموت على العيش بلا شرف، وأخذوا يعملون على تنفيذ بقيادة رئيسهم الأعلى (قازانوقه اسماعيل بك) الذي كان قد أسس حكومة شعبية، وأخذ يجمع الجيوش حول (طوابسه) حيث التحق بهم بعض الضباط البولونيين وآخرون من الفرنسيين، وبعض الجنود الأتراك الذين أرادوا مناصرة الشراكسة في قتالهم ضد (الكفار) المتوحشين.

■ أحداث ووقائع العام الأخير من حروب الإبادة والدمار التي فرضتها سلطات الامبراطورية الروسية على شعوب القفقاس عامة والشعوب الشركسية في الوطن الام خاصة.

جاء في الأرشيف الحربي الروسي ما ذكره الجنرال داخوفسكي بأنه في يوم ١٨٦٤/٤/١٩ دخلت القوات الروسية إلى أراضي أوبيخ والأراضي الشركسية وكذلك إلى منطقة فاردانا، وهي أكثر المناطق ازدحاما بالسكان، وقام بإحراق قراها^(٢٢).

وفي يوم ١٨٦٤/٥/١١ منيت المقاومة الوطنية الشركسية بهزيمة قاسية في آخر معركة لها، في إقليم (الأديغي)، وتحديدًا في وادي (فنز) في موقع (اخجب)، أعلن القيصر الروسي في حفل مهيب في موقع (كراسني بوليانا) بالقرب من آدار على الساحل القفقاسي عن انتهاء الحرب الروسية القفقاسية.^(٢٣)

وفي يوم ١٨٦٤/٥/٢١، قامت قوات الجنرال (يافدا كيموف) بتمشيط الجبال من ناحيتي الغرب والجنوب، بمحاذاة شواطئ البحر الأسود، ابتداء من (ناخاراسيك) حتى (طوابسه)، واحتلت القوات الروسية ناحية (أخشيبسكي) وأعلى نهر (فريمتا) ليتأكدوا من أنه لم يبق أحد من المقاتلين الشراكسة من الذين كانوا يعيشون في تلك المناطق كما أجبرت مقاتلي (الابويخ) على إلقاء السلاح وهم آخر قبيلة شركسية في القفقاس الغربي كانت لا تزال تواصل المقاومة، وهكذا انتهت الحرب القفقاسية عسكريا^(٢٤).

وفي يوم ١٨٦٤/٦/٢ أرسل شقيق القيصر ونائبه في القفقاس (لغراندوق ميشال) إلى القيصر برقية جاء فيها: "مولاي، يسعدني أن أتقدم من جلالكم بتهاني الحارة لما آلت إليه نهائيا مجريات الحرب المظفرة في القفقاس، إذ لم تبق عشيرة واحدة إلا وأخضعت اليوم، وفي حضور القوات الروسية مجتمعة، أقيم قدّاس شكر مهيب للمناسبة" (٢٥).

وفي يوم ١٨٦٥/١/٩ أرسل الجنرال اولشيفسكي تقريراً للقيصر ذكر فيه بأنه لم يجد على الجانب الشمالي الشرقي للخليج سوى معسكرات للمهجرين، ومقبرة على امتداد (خمس فراسخ) أي خمسة كيلومترات، وبضع عشرات من الأحياء من الشركاسة الذي كانوا يحاولون الهرب إلى الجبال، ودورياتنا تحاول منعهم من ذلك. (٢٦)

وبذلك، أسدل الستار على حروب الإبادة والدمار التي نفذتها سلطات روسيا القيصرية على مدى ثلاثمائة عام تقريبا ضد الشعوب القوقازية عامة والأمة الشركسية خاصة.

والسؤال الذي يطرحه المؤرخون والقادة السياسيون والمفكرون (المستقلون) من الروس والاوروبيين والشركاسة هو: هل كان يمكن للسلطات الروسية القيصرية تحقيق النصر على القوقازيين عامة والشركاسة خاصة لو لم تستخدم أساليب وحشية في حروبهم ووسائل غير انسانية محرم استخدامها دوليا، وكذلك لو لم تلجأ إلى تكتيك سياسي واقتصادي وديني جنباً إلى جنب مع التكتيك العسكري الهمجى.

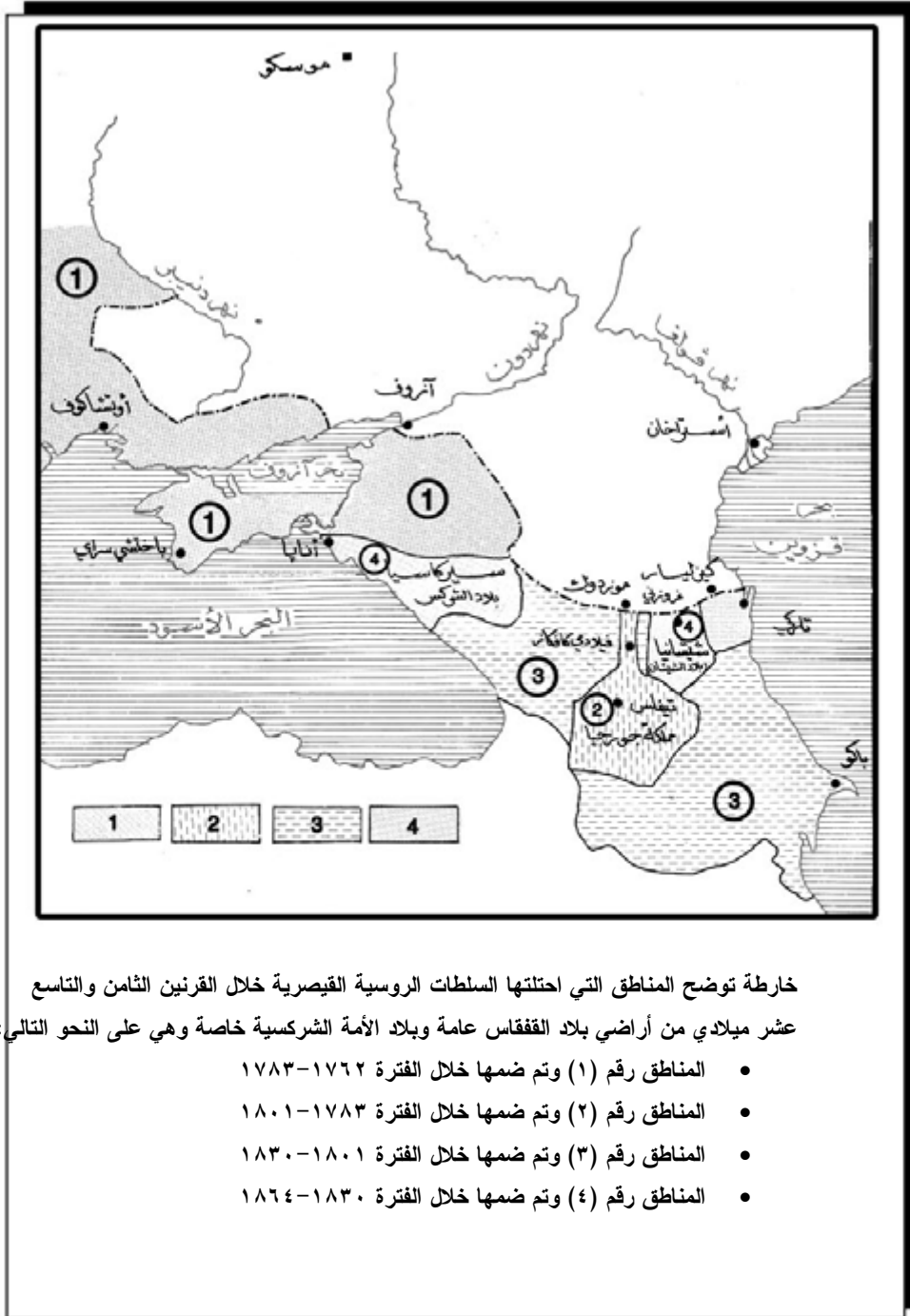
كما يتساءلون عن الأدوار التي لعبتها دول التحالف الثلاثي (تركيا وانجلترا وفرنسا) وغيرها من الدول التي كان لها مواقف تأمرية إبان حرب الإبادة والدمار الروسية كما تساءل بعض الشركاسة المعاصرين في الوطن الأم وفي بلاد الشتات هل اتخذ أمراء وزعماء وقادة وشعوب الأمة الشركسية الذين واجهوا حروب الإبادة على مدار ثلاثمائة عام القرارات الصائبة، وهل كان بإمكانهم اللجوء إلى أساليب وطرق غير التي قاوموا فيها العدو الروسي.

وللإجابة عن هذه التساؤلات كان لا بد لنا من تخصيص الفصول من الخامسة وحتى الثامنة من هذا المجلد لعرض نتائج الدراسات التي قمنا بها للإجابة عن التساؤلات الثلاثة سابقة الذكر.

خارطة تشركسيا في شمال القوقاز في عام ١٨٤٠



خارطة تبين المناطق التي احتلتها جيوش روسيا القيصرية في الاعوام ما بين ١٨٦٠-١٨٦٤



مصادر ومراجع الفصل الرابع

- (١) المجموعة الأولى من مراجع إبادة الشركاسة ص: ٣٣.
- (٢) المجموعة الخامسة من المراجع - تاريخ حرب القفقاس ونتائجها من أحداث، ص: ٢٧.
- (٣) المجموعة الأولى - إبادة الشركاسة ص ٢١-٢٢.
- (٤) المجموعة نفسها، ص: ٢٣-٢٤.
- (٥) مامخيغ، رايا عادل بي، لمحات عن العادات الشركسية (الأديغا خابزة) ترجمة نزيه جلاجج دمشق ٢٠٠٦، ص: ٤٣.
- (٦) المجموعة الأولى، إبادة الشركاسة ص: ٣٧.
- (٧) المجموعة الرابعة، أباطرة وأبطال ص: ٩٤ - ١٠١.
- (٨) المجموعة الأولى، إبادة الشركاسة ص: ٣٦-٤٦.
- (٩) المجموعة الرابعة، أباطرة وأبطال ص ١٤٧-١٤٨.
- (١٠) المجموعة الأولى، المصدر نفسه ص: ٦٧-٦٨.
- (١١) المجموعة الأولى، المصدر نفسه ص: ٦٧-٦٩.
- (١٢) المجموعة الرابعة، أباطرة وأبطال ص: ١٥١ - ١٥٢.
- (١٣) المجموعة الأولى، إبادة الشركاسة ص: ٢٧.
- (١٤) المجموعة الرابعة، أباطرة وأبطال ص: ١٥٠.
- (١٥) المجموعة نفسها، ص: ١٢٧-١٢٨.
- (١٦) المجموعة الأولى ص: (٧٠).
- (١٧) المصدر نفسه ص: ٧١.
- (١٨) المصدر نفسه ص: ٧٨-٧٩.
- (١٩) المصدر نفسه ص: ٨٠-٨٢.
- (٢٠) المصدر نفسه / وثائق مؤتمر باريس لعام ١٨٥٦ التي استند عليها كل من حسن قاسوم ومحمد علي قاسوم في كتابهما (إبادة الشركاسة).
- (٢١) المجموعة الرابعة، أباطرة وأبطال ص: ١٩٩-٢٠١.
- (٢٢) مجلة الاخاء الاردنية (الشركسية) العدد ١١٨ ص: ١٠٢.
- (٢٣) شفيق اسماعيل .. تواريخ واحداث وشخصيات، الجزء الثاني - المنشور في شباط عام ٢٠٠٣ ص: ٤٥.
- (٢٤) المصدر نفسه، ص: ٤٨.
- (٢٥) دروب الهجرة، مصدر سابق.
- (٢٦) شفيق اسماعيل، مصدر سابق، ص: ٥٠.

الفصل الخامس

الاعمال الوحشية والافعال البربرية التي مارستها السلطات الروسية القيصريّة في حروبها ضد الأمة الشركسية

يؤكد المؤرخون العسكريون والقادة العسكريين والكتاب بأن روسيا القيصريّة قد استخدمت في حربها ضد الأمة الشركسية أكثر من خمسة عشر نوع من انواع الافعال والاعمال الوحشية اللانسانية، جنباً إلى جنب مع الاعمال العسكرية البربرية، ويتضح ذلك من الأساليب المباشرة وغير المباشرة التي ساعدت سلطات روسيا القيصريّة للاستيلاء على الوطن الام للأمة الشركسية في قفقاسيا الشمالية، حيث توصلنا إلى أنهم استخدموا الوسائل والأساليب والممارسات والأعمال والأفعال المبيّنة أدناه جنباً إلى جنب مع الأعمال العسكرية البربرية وهي:

- * اتباع سياسة الاستيلاء على الأراضي لاستخدامها في بناء القلاع العسكرية وإنشاء الحصون والمحطات والقرى الاستيطانية القوقازية.
- * اتباع سياسة قتل الاسرى وكبار السن والأطفال والنساء، واللجوء إلى سياسة (الارض المحروقة) من تدمير للقرى الآمنة وإحراق للمنازل بمن فيها من سكان، وإتلاف الممتلكات وهدم المساجد على المصلين العزل.
- * اتباع سياسة الاستيلاء على الأراضي الزراعية والمراعي والغابات بهدف القضاء على الثروتين الزراعية والحيوانية.
- * اتباع سياسة تجويع السكان وترويع الأطفال والنساء وكبار السن العزل.
- * اللجوء لسياسة الدس والايقاع بين الشعوب الشركسية وقوميات قوقازية أخرى تجاوزهم بهدف الانتقام من بعضهم البعض.
- * استغلال حاجة الشراكسة لتسويق محاصيلهم الزراعية وثرواتهم الحيوانية وصناعاتهم اليدوية.
- * اللجوء لسياسة تحريض الفلاحين وعامة الشعب للانتفاضة ضد الأمراء والنبلاء وخلق صراع طبقي داخل مجتمعات القبائل الشركسية المختلفة.
- * إغراء واجتذاب عناصر من شباب الأمة الشركسية للخدمة في جيش سلطات روسيا القيصريّة.
- * محاربة انتشار الدين الاسلامي واللجوء لسياسة التبشير للديانة المسيحية داخل المجتمعات الشركسية.
- * نشر الأوبئة والأمراض بين السكان والحيوانات والطيور باللجوء للحصار الطويل للقرى، وعدم السماح بحرق الجثث والحيوانات النافقة، مما أدى إلى تلوث بيئي وانتشار الأوبئة الخطيرة.
- * استغلال كبار الكتاب والشعراء الروس وغيرهم من الكتاب المرتزقة في تزييف الحقائق والوقائع عن حياة القوقازيين عامة والشراكسة خاصة.
- * استخدام أساليب الخداع وإغراء الامراء والحكام والشعوب القوقازية بالوعد الكاذبة.
- * استغلال قسوة الطبيعة وسوء الأحوال الجوية في بلاد القفقاس عامة، وقيامهم بشن هجمات مركزة خلال أشهر الشتاء القارس جداً.

وفيما يلي نماذج من الأعمال الوحشية والهجمات العسكرية والبربرية والأفعال الهمجية والإنسانية التي ارتكبتها القوات العسكرية بدعم مباشر من سلطات روسيا القيصرية.

ربما كان أفضل وصف لمثل هذه الأعمال البربرية هو العودة إلى شهادات وأقوال الجنرالات الروس عامة، والاطلاع على ما كتبه المؤرخون والرحالة الروس وغير الروس من الأجانب الذين زاروا بلاد القفقاس خلال سنوات حروب الدمار والإبادة التي ارتكبتها روسيا القيصرية ضد الشعوب القفقاسية عامة والأمة الشركسية خاصة.

وفيما يلي أهم الاقتباسات من شهادات وكتابات الكتاب من مختلف الجنسيات:

▪ كتبت المورخة الفرنسية كارول جين عام ١٨٩٩ قائلة:

"إن ما جرى في قفقاسيا من أساليب الإبادة والقتل العام، يجعل القلم يتوقف ألماً عن الكتابة، ويجعل صفحات التاريخ تحمر خجلاً وحياء عن الوحشية والبربرية واللاإنسانية والهمجية التي اتبعتها جيش قيصر روسيا في قفقاسيا، وأن احتلال روسيا لقفقاسيا لهو أبشع لوحة تمثل الوحشية والبربرية في عصرنا الحاضر، إن روسيا احتاجت إلى (ستين) عاما عسكريا متمثلة بالرعب والوحشية حتى تمكنت من كسر مقاومة القفقاسيين واستطاعت إخضاعهم. (١)

▪ وقال أستاذ الحقوق في دائرة القفقاس في الأعوام ١٨٩٦-١٩٢٨ ك. أ بورود:

"باعتقادي أن الجبليين الذين يسترخسون أرواحهم، معروفون لدى الجميع بأنهم ذوو عزيمة صادقة، ومدافعون حقيقيون، لقد عجزنا عن تطويعهم خلال نصف قرن من الزمان!"

واستطرد قائلاً: في نهاية حرب ١٨٦٤ أمر الجنرال (يغديكيموف) بتجميع الشراكسة في شاطئ البحر الأسود. ثم أشار عليهم قائلاً، من يرغب في العيش وراء الكوبان فليذهب هناك. قال ذلك وهو يعلم بأنه لن يقدر أحد على اجتياز البحر، وأما الذي لا يرغب فعلية أن يركب إحدى السفن إلى استانبول.

كما أكد (بورود) ولو لم يتم توزيع القوزاق، على الأراضي التي كنا نستولي عليها لما انتهت الحرب ابداً.

كما قال السيد (قوازه روسلان) أيضاً من المستبعد جداً أن شعباً آخر غير الشراكسة يمكن أن يتحمل من الصعاب والمشقات والمظالم أكثر مما تحمل هذا الشعب، وبعدئذ هجمت الدولة الاستعمارية القيصرية على مواقع الشراكسة في الطرف الأيسر من نهر كوبان من عام ١٧٦٣ حتى عام ١٨٦٤ واستمر هذا الهجوم أكثر من مئة عام بقصد الإبادة الجماعية!!!

▪ وأما الشاعر الروسي الكبير ليرمنتوف فقد عبر عن وحشية الجيوش الروسية بقوله:

تحترق القرى فليست لديها حماية ومثل الحيوان المتوحش يغرز

المنتصر حربته في البيت المتواضع ويقتل الشيوخ والأطفال

والفتيات والأمهات البرينات ويلقى يده الملوثة بالدم

▪ شهادة اللفتنانت جنرال ن. رايفسكي: وهي الشهادة التي تفضح الأعمال الوحشية للجيوش الروسية التي جاءت في تقريره الذي رفعه إلى الكونت (تشير نيشيف) وزير الحربية الروسية في ١٨٤١/٢/٢٨ وقد استقالته احتجاجاً على تلك الأعمال حيث جاء فيه: "إنني بمفردي، أترفع حتى الآن عن الأعمال الهمجية والوحشية والقسوة التي تمارس في القفقاس، ولذلك أصبح من واجبي أن أغادر هذا المكان، وإن لم نفعله في القفقاس الآن، يعيد إلى الذاكرة ما فعله الأسباب حين استولوا على أمريكا من الجرائم، وأعمال القسوة والإبادة، وإنني لا أرى فيما نفعله شيئا من الشجاعة أو البطولة، وابتهل إلى الله، أن لا يرسم استيلاؤنا على القفقاس، خطاً دمويًا في تاريخ روسيا، مثل الذي تركه الأسبان بأفعالهم من آثار بشعة في تاريخهم" (٢).

■ وأما (فون فيل) مؤلف كتاب السنة الأخيرة لحروب الشراكسة من أجل الاستقلال الذي قال فيه: إن احتلال الروس للقفقاس والذي استمرت من عام ١٧٢٢ وحتى عام ١٨٦٤ كان على جثث مئات الآف، وأن هذه الحروب تشكل جرائم قتل جماعية قامت بها جيوش مدربة على القتال في الساحة الأوروبية مثل (حروب نابليون وحروب بولندا وحروب القرم..). كما أنها مجهزة بأحدث أسلحة ذلك العصر واستهدفت، إبادة هذه الشعوب كسياسة رسمية، وذلك بإبادة كل أثر حي من (الزرع والضرع) كما وألبسوها في كثير من المراحل رداء الحروب الصليبية بإطلاق الشعارات الدينية، ثم جرت مؤامرات الطرد والتهجير القسري لشعوب بكاملها من أوطانها، وقد كان الشرط الأول الدائم للروس على الأتراك في كل مفاوضاتهم (إبعاد الشركس إلى أبعد مسافة ممكنة عن أوطانهم) ^(٣).

■ وصف الشاعر الروسي المعروف (بوشكين) الصديق الحميم للجنرال يرمولوف الذي أطلق عليه القوقازيون (الشيطان المسكوبي) للأعمال الوحشية والبربرية التي أمر بارتكابها في حق القوقازيين عامة والشراكسة خاصة، وهو الذي قال متفاخرا:

"إن صدى اسمي الرهيب يجب أن يكون كفيلا بحفظ حدود بلادنا الشاسعة، ويجب أن تغنينا القوة والمنعة بحيث يغنينا عن الحصون والقلاع المحيطة بها". وقال أيضا: "إن سيفي هو القانون الذي يؤمن به القوقازيون ! وأن الحلم واللين في نظر الآسيويين هما الضعف، وأنا خال من كل ضعف إنساني وقاس ولا أعرف الرحمة!.."

وكان من عادته أن يمارس تلك العملية المعروفة في تجربة السيوف الجديدة بضرب رقاب الثيران وقطعها بضربة واحدة، وبالرغم من أن (بوشكين) سبق أن تغنى بأعمال (يرمولوف) لإنجازاته العسكرية واعتبره بطلا من أبطال التاريخ بقوله:

إحن رأسك المثقل بالثلوج الابدية يا قوقاز خضوعا!.. لقد انتهى كل شيء، لقد جاء "يرمولوف"!

كما قال عنه الشاعر (بوشكين) الذي قدر له أن يكتب تاريخ حياته: لقد كان مكتوبا في لوح القدر أن يدخل اسمه بلاد القوقاز على أسنة الحراب، وينقش في صخور الجبال الشاهقة!...

وكان (يرمولوف) يعرف واجبه تمام المعرفة، ومحيطا بالأعمال المطلوبة منه، وقد عمل كل شيء ولم يتورع عن أية وسيلة إتمام عمله، وكان يعتبر بلاد القفقاس وكأنها إقليما روسيا، ولم تكن جميع الأمم والأقوام القاطنة فيها منذ آلاف السنين في نظره (سوى اتباع ورعايا وعبيد للقيصر). وما كان عليه إلا أن يطلب منهم الطاعة العمياء فبطيعوه ويخضعون له، ولتنفيذ خطته لم يتورع عن استعمال جميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وجميع الوسائل كانت لديه مشروعة طالما تخدم أغراضه وتحقق أهدافه. ^(٤)

إلا أن الشاعر (بوشكين) تراجع عن مديحه للجنرال (يرمولوف) نتيجة تماديه في اعماله البربرية والوحشية ووصفه بقوله:

"كان (يرمولوف) مثالا للقسوة والغلظة، ولا يعرف للطمع حدا وللطموح حدودا وللرحمة معنى، وارتكب أعمالا وحشية حتى حدود الهمجية والبربرية، ومن أعماله الوحشية هو ما أشارت إليها إحدى الوثائق الروسية والتي تؤكد بأن الجنرال (يرمولوف) كان يحرق المزارع ويقطع الأشجار ويقتل النساء ويجمع الأطفال في حفر ويشعل بهم النار في وسط وشرق القوقاز".

وربما كان (بوشكين) أكثر من عبر عن وحشية القوات الروسية بقوله: (إن أبناء القفقاس الاشواوس قد كافحوا ولكنهم أبيدوا بشكل فظيع) ^(٥) كما وصفهم (الجنرال كراندوك) وهو من أصل شيشاني بقوله: "انقلب الروس وحوشا في جلود إنسانية ولم تكن عملياتهم إخماد ثورة، ولكن كانت عمليات إبادة منظمة، حيث أمن القادة الروس سحقه وأن يموت بدون قبر، وإما ان يهاجر، كان هذا المبدأ الذي يؤمن به الحاكم الروسي العسكري العام للمنطقة".

كما قال: "الحقول المحروقة ودبيب المشردين على الثلوج، تسلل الهاربين إلى الغابات، أقبية التعذيب البربري، التمثيل حتى بالجثث، هدم المساجد، سحل الشيوخ قصف الاكواخ كالهياكل العظيمة الباقية.. كل ذلك كان بعض العمل اليومي للجندي القيصري خلال آخر سبع سنوات ونصف، حتى أعلن قادة الروس نهاية حرب القفقاس عام ١٨٦٤ وصارت منطقة القفقاس في مفهومهم منطقة (روسية) وساد فيها السلم، سلم القبور!!^{*}

▪ وفي عام ١٩٠٤ كتب الصحفي الروسي (أ. س ليجكوس) (وهو من الصحفيين المعروف عنه بأنه كان صريحا وواضحا في كتاباته وذا مروءة نادرة، كتب واصفا وحشية الجيوش الروسية في حربهم مع القوقازيين عامة والشراكسة خاصة بقوله:

"إن الحروب الدموية التي اقتلعت سكان الجبال من أراضيهم وشرذمتهم وشتتهم في كافة اصقاع العالم، وكادت ان تبيدهم عن بكرة ابيهم بسبب تعنت القياصرة، واستبدادهم واتباع سياسة النهب والسلب للأراضي والاملاك التي استولوا عليها^(٦).

كما قال احد المؤرخين لحروب الابادة والدمار الروسية بأن المسؤولين "من ذوي المكانة الذين كانوا يتقلدون المناصب الرفيعة، كقادة الجيش وموظفي الادارة العليا، هم وحدهم المسؤولون امام التاريخ عن أعمالهم، والفظائع التي ارتكبوها في حربهم ضد الشراكسة بمحض ارادتهم، او تشفيا بأعدائهم أو لنزوات شخصية.

وكان على رأسهم الجنرال (زاش) أو زاس الذي كان يلقبونه "اشحاغوانه" أي ذو الرأس المنقوب الذي أمر بإخراج جثة الزعيم الشركسي (بسلاتوقه) من القبر والتمثيل بها، انتقاما من هذا الزعيم الشركسي الذي هزمه مرارا في المعارك التي تقابلا فيها خلال حروب الابادة.

وكذلك فهو القائد الروسي الذي ارتكب أعمالاً وحشية في هذه الحرب حين أمر (القوزاق) بقطع رأس كل قتيل من الشراكسة، وإرسال هذه الرؤوس إلى أكاديمية العلوم في برلين لدراستها^(٦).

وكذلك المظالم التي وقعت في قرية (بابوكوف) على جماعة من (الابازا) في سنة ١٨٥٨، وخلصتها ان هذه الجماعة أوت حسب تقاليد الضيافة الشركسية، بعض الضيوف الشراكسة الذين قدموا من مناطق ما وراء الكوبان هربا من بطش الروس فقامت السلطات الروسية بمعاقبة الذين استضافتهم من عائلات الأبازا بالنفي والابعاد إلى مجاهل سيبيريا ظلما وعدوانا. ولما لم يمتثلوا لأمر الضابط الروسي الذي أخذ على عاتقه تنفيذ الحكم العسكري الصادر بحقهم فورا، أمر المفوضة التي كانت تحت إمرته بالهجوم عليهم وقتلهم رجالا ونساء مع أطفالهم.^(٧)

▪ وكتبت جريدة القفقاس عام ١٨٣٤ مقالا ونصه:

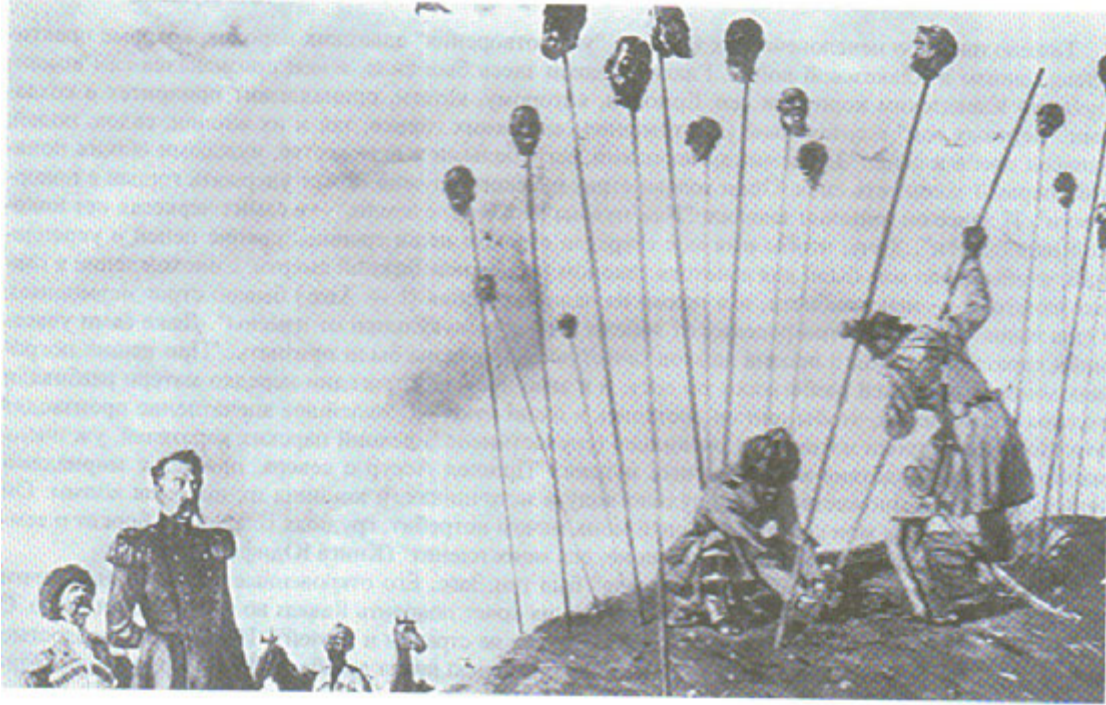
"كان جنرالات الروس يقومون بحملات في الجبال ويطلقون النار على كل شيء ويقتلون السكان بالنار وبالحراب ويأخذون آخرين أسرى ويسرقون الماشية، كما كانوا يعاقبون الناس بتدمير قراهم بأكملها".

▪ أوردت الكاتبة الشركسية "مامخيغ" أسماء الجنرالات الذين تميزوا بالقسوة ضد الشراكسة وهم "تسييتسيانوف، بولغاكوف، يرمولوف، كوتساريف، وليامينوف، فلاسوف، زاس" وغيرهم،

وكان الجنرال "زاس" معروفا لدى الاديغة باسم (الشیطان) وكتب أحد المعارضين الروس عن هذا الجنرال قائلاً: "في كلامي مع (زاس) قلت له إنه لا تعجبني مزاجيتك في الحرب، فأجابني بأن روسيا تريد إخضاع القفقاس مهما كان الأمر، وكيف يمكن إخضاع هؤلاء الناس إلا بالرعب والنار، فهنا لا تفيد الأعمال

* وردت هذه الاقوال في مذكرة الجنرال موس كراندوك الذي خدم في بلاد القفقاس مع الجيش الروسي في المراحل الأخيرة من حربهم ضد شراكسة الاديغة في منطقة الكوبان.

الخيرية والجنرال "يرمولوف" نجح بشنق الناس بقسوة وباحتلال وإحراق القرى أكثر من نجاحنا، ولا يزال يذكر اسمه في القرى بهلع ويخوف به الأطفال، ولدعم آراء "زاس" الخاصة بالإرهاب كانت تعلق على قمم التلال رؤوس الشراكسة التي كانت تهتز مع الرياح وكم كان مؤلماً مشاهدة هذه المناظر المقززة".^(٨)



Курган генерала Засса. На копьях головы черкесов.

صورة تعبر عن مدى وحشية الجنرال (زاس) الذي قام برفع رؤوس الشراكسة الابطال على رؤوس الرياح وغرسها فوق القبر الجماعي للشراكسة الذين استشهدوا في المعارك

- قارن احد المؤرخين المعاصرين للاحداث الوحشية في البوسنة والهرسك في يوغسلافيا بوحشية الجيوش الروسية في حرب القفقاس، بقوله: "الصرب سلاف الجنوب (يوغسلاف) ليسوا أقل وحشية من أقربائهم الروس سلاف الشمال الشرقي، وإنهم أرومة واحدة، وعرفت مناطق الشركس ويلات الحروب كافة، من إحراق القرى بمن فيها، إلى اكتساح الناس بالسيف والرصاص وهم خروج من الصلاة، إلى الأمعاء تلتصق بالجدران والأغصان، إلى الجماجم تتدحرج على السفوح والصخور، إلى بطون تبقر عن الأجنة، إلى الاعراض المباحة وعمليات سحق لإنسانية الانسان والإذلال حتى ليخجل الذل نفسه!!!"^(٩).
- وربما ما كتبه احد المؤرخين الروس أكثر تعبيراً لسياسة الوحشية المتمثلة بسياسة (الأرض المحروقة) حين قال "إن الفؤوس والبلطات، جلبت انتصارات لروسيا أكثر بكثير، مما جلبت المدافع والحرب" وإنه لقول حق. وليت الأمر توقف عند هذا الحد، فقد اتبعت روسيا، سياسة "الأرض المحروقة" فأهلك جيوشها الزرع والضرع، ودمرت وأحرقت البيوت والبساتين والجنان، ناشرة الجوع والأمراض والأوبئة بين الناس، ولكن إلى أين سيبلغون؟ هل سيكون بمقدورهم إيقاف مد الحياة؟ أبداً، فالخير في النهاية سوف ينتصر على الشر تلك سنة الله في خلقه، ولا مجال لتغيير سنة الله، مهما تجبر المخلوق وظلم."^(١٠).

كان هناك بين الجنرلات الروس من كان يعارض طرق الاحتلال الروسية القاسية كان احد هؤلاء الجنرال "رايفسكي" الذي كان يشغل منصب قائد خط ساحل البحر الاسود، وكان يدعو إلى التعاون السلمي مع الأديغة بواسطة زيادة التجارة وتحسين الأحوال المعيشية لهم. وفي تقريره حول الأوضاع السياسية للساحل الشرقي الذي قدمه في عام ١٨٤٠ إلى وزير الحربية، أوضح "رايفسكي" بعضاً من أفكاره التي كانت تتعارض تماماً مع الخط السياسي الحكومي في مسألة القفقاس، وعند محاولته توضيح أعماله الموجهة للتقارب مع الأديغة كتب "رايفسكي" بأن منع التجارة مع الأديغة يعيق السلام معهم، ويشجع أعمال العصابات ويقوي من تأثير تركيا عليهم، وهذا يجعل الجبليين يبحثون عن وسائل للاستقلال عن روسيا. وبشكل عام فإن الشراكسة يحاربون هناك بشجاعة فائقة في هذا العام واعتقد ان هزيمة الجنرال "سيمبارسكي" في العام الماضي قرب (سوتشي) زاد في شجاعة الشراكسة".

■ وكان السيد آ. م بيكمان يكتب في مقالاته مستغرباً بقوله:

"كيف حارب القفقاسيون الجبليون طوابير واستعماريي القيصرية الذين كانوا يرتكبون أبشع الجرائم لانتفه الأسباب، وكيف انهم أزالوا من خريطة التاريخ شعوبا كثيرة بالحروب التي جرت في غرب القفقاس".

كان السيد (بيكمان) يتكلم عن كل ذلك، وكان صريحا وصادقا وواضحا وكان معروفا لدى كل الناس، غير أن تلك الاوقات، كانت لا تسمح بالوقوف إلى جانب الحق والعدل فخلال الثورة، ربطوا اسمه مع رجالات الثورة، لكونه فتح أعينهم، وأبان لهم الطريق السوي، ورغبتهم في التغيير الذي حصل آنذاك، ثم ظهرت بعد ذلك ومضات من الأمل والدفع.^(٤٨)

■ وتقول (مامخيغ) نقلا عن الوثائق الروسية بأن:

"الدولة القيصرية اتخذت منذ بدء احتلال القفقاس كل الإجراءات الموجهة لخلق العدوات وتطويع القبائل وتم نتيجة لهذه الممارسات هدم القرى وتدمير الأملاك وسرقتها، وظل الباقون من الشراكسة مطرودين من جبالهم إلى مستنقعات كوبان والهضاب التي حولها، حيث لم يكن لديهم أي مناخ صحي ولا يوجد مردود اقتصادي للأرض".

كما أن أفضل ما في هذه الأراضي قد أعطي للضباط الروس لقاء خدماتهم في حرب القفقاس. (إضافة إلى انعدام المدارس والمستشفيات، وكانت كل محاولة من قبل الأهالي الشراكسة لبناء مؤسساتهم التعليمية الخاصة بهم تحارب بكل قسوة من قبل الدولة الروسية، إضافة إلى إغلاق المدارس المحلية فوراً وطرد المدرسين منها)^(٤٩).

■ كتب مؤلف كتاب (لمحات عن تاريخ القفقاس) مبرراً تصرفات الحكومة الروسية ومتحدثاً عن توضحيات الشراكسة قائلاً:

"... لم يكن بالإمكان التراجع عما بدأناه والتوقف عن احتلال القفقاس بمجرد أن الشراكسة لم يرغبوا بحمايتنا لهم، وكان علينا أن نشطر الشراكسة إلى قسمين لكي نجبر أحدهما على رمي السلاح، ولكن النتيجة أن العشرات من القتلى كانوا ضحية الحرمان وبرد الشتاء القاسي والعواصف، حيث كان الناس يبيتون في الغابات وسفوح الجبال العارية، وكان أكثر السكان معاناة وهلاكاً هم الضعفاء من النساء والأطفال، وكنت تلاحظ عندما تم حشد الباقين من الشراكسة على الشواطئ من أجل ترحيلهم، قلة أعداد النساء والأطفال بينهم قياساً لإعداد الرجال، مما يدل بأن هذه الفئة من الشراكسة هم الذين ماتوا من جراء الحروب الروسية البربرية.

واستطرد قائلاً: "لقد فر العديد إلى الغابات في اثناء هجمائنا، وفي هذه المأساة الدموية أقدمت العديد من الأمهات على قتل أطفالهن لكي لا يقعوا اسرى في أيدينا".

كما قال: "والآن وبعد أن هدأت الضجة والانفعالات الناتجة عن تلك الحرب اللاهية، وبعد أن توطدت سلطتنا في القفقاس، نستطيع أن نعترف بهدوء بالبطولة المدهشة والتضحية وإنكار الذات التي تمتع بها عدونا المغلوب الذي دافع بشرف عن وطنه وحرية إلى أن انهارت قواه".

لقد انهكت قوى الشراكسة فعلا، وكان عليهم الاختيار بين الترحيل إلى تركيا، أو الموت مستقلين في أراضيهم، وقد كتب العديد من المؤرخين عن كلتا الحالتين في مؤلفاتهم.

■ كما قال (الجنرال يرمولوف) "بأن الجنرال (فلاسوف) أمر جنوده بالإغارة على الأراضي الشركسية عام ١٨٢٢ فدمروا وأحرقوا ١٧ قرية شركسية، وفي الأعوام التالية كانوا يتبعون الأسلوب نفسه، وقد أيد صحة ذلك (المؤرخ القوزاقي ب. ب. كورولينكه) كما قال العالم (جزغ أسعد) عن هذا الموضوع، إنه في عام ١٨٢٥ قام بجولة في حدود ما وراء الكوبان، حيث شاهد القرى المحروقة بأمر عينيه، وقدر عدد الناس المحروقين بالآلاف، هذا ما عدا المقتولين بحراب جند القوزاق. كما قال: "وكان كثير من النساء والأطفال الجياع يلجأون إلينا، وهم في حالة يرثى لها متمنين الموت" كما كانوا يرمون أنفسهم في النهر ليتخلصوا من الحياة!!"

يمكن القول إن التاريخ لم يذكر حتى الآن أبشع من جرائم القياصرة، حيث جعلوا من حياة الملايين ظلما أبديا، وطردوهم من أراضيهم، وشتتوهم في كافة أصقاع الدنيا، لكي لا تقوم لهم قائمة!!!^(٥١)

■ وربما كانت شهادة "الكونت بوتشي" في كتابه حول مجزرة الأطفال التي ارتكبها كل من (الجنرال فون ميديم) الألماني الاصل والقائد (أوباش) من تثار القالمون أصدق تعبير عن وحشية الروس جاء فيها:

"إن المجزرة التي ارتكبت في حق اطفال كباردو الصغرى وإمارات الكوبان الشركسية لم يشهد لها مثيل في التاريخ، وكذلك ولأول مرة في التاريخ تقرأ عن حملة عسكرية تستهدف الأطفال بالذات، حتى أصبح اسم الجنرال "ميديم" مصدر تهديد للأطفال الشراكسة وإسكاتهم عندما يكون أو عندما يقومون بعمل شقاوة بقول الام لهم "اسكت الجنرال (الاصم ميديم أت)^(٥٢).

تلك هي الطرق والوسائل والأساليب الوحشية البربرية التي استخدمها القياصرة منذ نهاية المرحلة الأولى منذ بدأ (حروب الإبادة والدمار) وحتى نهايتها يوم ١٨٦٤/٥/٢١.

ويؤكد المؤرخون بأن الروس بالرغم من شن أكثر من (١٤٣) معركة على القبائل الشركسية البالغ عددها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (١٨) قبيلة منها (٨٨) معركة خلال الفترة من (١٨٤١ - ١٨٤٦) وحدها، وبالرغم من مشاركة مقاتلين من أفراد وضباط من أكثر من (٥) قوميات على رأسهم الألمان والقالموق، والأرمن مثل الجنرال (فون كلوجناو) و (فرايتاغ) و (فردر) و (شولمان) و (جرسدوف) و (جرترينجن) وغيرهم.

بالإضافة إلى التثار والقالموق والنغوي والقوزاق والشراكسة (الذين سبق أخذهم رهائن لضمان حسن تنفيذ الاتفاقيات مع الشراكسة) والذين تم تنصيرهم وتعميدهم، ومنحهم أسماء روسية وعلى رأسهم الأمير الشركسي (يكوفيتش جركاستيكي) - صديق القائد الروسي (يرمولوف) ورئيس دائرته السياسية، نستنتج بأن الشراكسة من سكان القبرطاي في مناطق الترك بالشرق، والأديغة المكونة من (١٢) قبيلة تقريبا بالغرب بالإضافة لشراكسة البسلني والمخوش وغيرهم من سكان منطقة الكوبان والأبخاز فيما وراء الكوبان على الساحل البحر الأسود، فهؤلاء الشراكسة الأبطال وبدعم من بعض الشعوب القوقازية الأخرى كان يمكن أن يمنعوا القوات الروسية من احتلال بلادهم لولا لم يستخدموا تلك الاساليب الوحشية والأعمال البربرية والأفعال اللاإنسانية التي جاءت في الأقوال والشهادات والاعترافات التي استمعنا إليها في هذا الفصل.

الفصل السادس

السياسات والاعمال الاخلاقية وغير القانونية التي استخدمتها سلطات روسيا القيصريّة في حروبها ضد الامّة الشركسية

لجأت سلطات روسيا القيصريّة في حروبها ضد الامّة الشركسية إلى سياسات وإجراءات وأعمال غير اخلاقية وغير قانونية يمكن إيجازها على النحو التالي:

أولاً: سياسة بناء القلاع العسكرية وإنشاء الحصون وإقامة المحطات والقرى الاستيطانية القوزاقية والروسية.

بدأت فكرة إنشاء القلاع منذ أن قرر (سرا) القيصر (أيفان) الرهيب الاستيلاء على القفقاس (أرضاً بلا شعب) وكانت النتائج العسكرية هو إنشاء (مدينة تيرك) على ضفاف نهر (تيرك) في عام (١٥٦٠) كما تقرر إنشاء أول قلعة في القفقاس على ضفاف نهر (سونج) عام ١٥٧٨ والقلعة الثانية على ضفاف نهر ترك في نفس العام (١٦).

وفي عام ١٧٢٢ وبعد فشل حملتين متتاليتين روسيتين أمر بتنفيذهما بطرس الأكبر، غادر القفقاس في عجل بصورة سرية بعد أن رأى الهزيمة قادمة لا محالة لها، ولم تلبث الجيوش الروسية أن لحقت بسيدها، عائدة إلى مراكز انطلاقها، وتطورت فكرة إنشاء وتعزيز ما سمي لاحقاً بـ "خط المستعمرات العظيم" الذي امتد بعد نحو قرن من الزمان، إلى مسافة تزيد على ألف وخمسمائة كيلومتر. ويمكن مقارنة الجهود المبذولة في بناء هذا الخط، بالجهود التي بذلت في سبيل إقامة (سور الصين العظيم) والفرق بينهما: هو أن السور بنى لحماية سكان الصين من الاعتداءات والغارات بينما بني خط المستعمرات الروسية ليكون قاعدة لحملات إبادة ضد السكان المدنيين العزل من السلاح في القفقاس (١٧).

وفي عام (١٧٦٠) وبعد أن أصبحت مقاطعة (مزدوك) ومعناه (الغابة الاصم) كما يلفظ أيضاً بـ (مزدوغ) بمعنى الغابة (الجيدة) ملكاً للامير الشركسي (كورغوق كوغولجين) حاكم قباردا الصغرى الأبن الأكبر للأمير اينال الكبير الذي قام بالتبرع بمساحة أرض واسعة لإنشاء (حصن مزدوغ) عليها بعد أن اعتنق الديانة المسيحية، وهو الحصن الذي اعترض على انشائه شعب القبرطاي عامة، كما تسبب بناؤها بحرب استمرت مدة (١٥) سنة وفي الفترة ما بين (١٧٦٥ - ١٧٧٩).

وفي مطلع عقد السابع من القرن الثامن عشر قرر الجنرال (فون كوبي) قائد وحاكم الاستراخان بإنشاء (١٢) حصناً في المنطقة الواقعة بين القوزاق وجنوبي روسيا .

والوحدات العسكرية التي كانت تملأ كل هذه الحصون، والتي كانت تعمل على امتداد هذا الخط الحصين، كانت تتألف من فرقة من المشاة وبعض الطوابير العسكرية من الكرج، وبعض كتائب القوزاق من (الدون) مع ما يتبعها من مدفعية الميدان والحصون، وكان قوام حاميات هذه الحصون المجتمعة لا يقل (عن عشرين ألف جندي) يضاف إليهم عند الضرورة بعض الجيوش النظامية والميليشيات من الكرج.

وبالرغم من أن الأجزاء المنخفضة من بلاد (الابزاخ) وسهولها المنبسطة، كانت عرضة لهجمات الروس وحملاتهم المنظمة، فقد تمكنت هذه القبيلة القوية من الاحتفاظ بحريتها لأكثر من ثلاثين سنة كاملة ومن وضع حد لتقدم الروس وتجاوزهم حدودهم.

أما منطقة العمليات العسكرية الروسية في الشمال والشرق فكانت تمتد من (أويست لابنسك) على امتداد نهر الكوبان حتى مصبه في البحر الأسود، وقاعدة أعمالهم الحربية الرئيسية في مدينة (يكاترينوغراد)، وفي الوقت نفسه كانت هذه المدينة مركز القيادة العامة لجيوش القوزاق المسماة (قوزاق جرنومورا).

وأنشأ الروس أيضا على الضفة اليمنى لنهر الكوبان عدة حصون لرد هجمات قبيلة الشابسوغ، ولم ينشئوا في سهول الشابسوغ سوى حصنين كبيرين على ضفاف نهر (أبين)، وهاجمه الجركس في مطلع عام ١٨٤٢ واجتاحوه بعد معركة شديدة، وقتلوا جميع من كان فيه وحاميته عن بكرة أبيهم ولم يبق منهم أحد على قيد الحياة.

وأما الخط الحربي الثالث للروس، فكان يمتد على الساحل الشرقي للبحر الأسود من مصب نهر (بسيب) حتى مصب نهر الكوبان. وبلغ عدد الحصون الكبيرة والصغيرة التي أنشأت على هذه الجبهة ما يزيد عن الخمسة عشر حصنا.

وقد جعلوا مقر القيادة العامة لهذه الجبهة في (صوجاق)، ثم شقوا طريقا بين هذه المدينة ومدينة (أنابا)، وأنشأوا على جانبي هذا الطريق حصنين لحماية وتأمين المواصلات، وهما حصنا (رايفسك ونيوقلايفسك)، وكذلك شقوا طريقا آخر بين موقعي أبين ودوبا.

وأما أهم الحصون التي أنشئت على الخط الحربي الثالث هي:

حصن بيتسوندا، و(كاكرا) و (آدلر)، و (ماماي) و (غولوفينسك) و (لازارف) و (طوابسه)، و (وتو)، و (شه بسوخا)، و (شه بسين) و (بشات)، و (أنابا).

ان الروس لم يكتفوا بإنشاء هذه الحصون فقط، بل عمدوا إلى شق الطرق الواسعة، لربط الحصون المتفرقة في أرجاء البلاد مع بعضها البعض لتأمين حرية الاتصال بينها بأمان.

وأما الجيش العامل في هذه (الحصون السبعة عشرة الساحلية)، فكان يتألف من فرقة المشاة المسماة (فرقة البحر الأسود)، وعدد كبير من قوزاق الدون مع ما يلزمهم من المدافع، التي لا يقل عددها عن الأربعمئة مدفع من أحجام مختلفة، مع جيش قوامه عشرين ألف مقاتل، عدا جنود وبحارة اسطول البحر الأسود^(١٣).

وفي عام (١٨٠١) أنشأت القوات القوزاقية محطة كبيرة في (تامان) كما بنت حوالي (٤٤٢) قرية وأطلق عليها محطات القوزاق.

وفي عام (١٨٠٥) أنشأ الروس عددا كبيرا من المخافر ونقاط الحراسة حول بلاد القبرطاي.

في عام (١٨٣٠) أضاف الروس قلعا صغيرا في (غيلنجيك وغازا).

وفي عام (١٨٣١)، أقام الجيش الروسي (وبالقرب من قرى الأديغة) (١١) حصنا جديدا.

وفي عام (١٨٣٣) وضع الجنرال ويليامينوش خطة لإنشاء تحصينات جديدة في أكثر الأماكن أهمية في بلاد الشركس، وقال إن الوسيلة الأساسية والمضمونة لاحتلال الجبال وإخضاع القاطنين فيها هي إقامة تحصينات في أكثر الأماكن أهمية من الناحية الطبوغرافية.

وفي عام ١٨٣٣/٥/٢٠ أرسل تعليمات لتنفيذ خطة جديدة لقائد الفيلق القفقاس البارون "روزين" تضمنت اتباع السياسات والوسائل التالية:

١- الوسيلة الأساسية والمضمونة لاحتلال الجبال وإخضاع القاطنين فيها هي إقامة تحصينات في أكثر الأماكن أهمية من الناحية الطبوغرافية.

٢- وسيلة إخضاع (الجبلين) بسرعة هي في أخذ الأراضي منهم وإسكان القوزاق في محطات على هذه الأراضي.

٣- تخريب حقول السكان لمدة خمس سنوات متتالية يجعل نزع سلاحهم أسهل كما يسهل أيضا الاعمال العسكرية اللاحقة.

٤- البدء بتخريب الحقول واحتلال ومصادرة أراضي لإقامة محطات للقوزاق عليها، وكذلك إقامة تحصينات في أماكن مناسبة".

وتطبيقا لهذه الخطة قامت القيادة القيصريّة في القفقاس ومنذ بداية الثلاثينات من القرن التاسع عشر بإرسال حملات إلى ما وراء الكوبان بهدف تخريب وهدم قرى الأديغة، وكذلك من أجل بناء سلسلة من التحصينات، وقد تم التركيز على بناء تحصينات ساحلية لتأمين حرية تنظيم حركة السفن الحربية الروسية على طول ساحل شركسيا، وهي أمور كانت السلطات القيصريّة تعتبرها أساسية لتطويق القوقازيين.

وفي العام نفسه الذي صدرت فيها التعليمات حسب الخطة المذكورة قامت القوات الروسية بإنشاء حصون (دوفر، أدلر، نافاترويتسك، نهاريشارا، ميخايلوفسك، غالافينسك، نهر طوابسة، تنفينسك، نافانيسك، نهر شافه، فورتولازريف). كما سبق أن قام الجيش الروسي بتدمير مساكن (الأديغة) الشراكسة قبل البدء بإنشاء هذه الحصون، وفي العام نفسه بدأوا بفتح طريق حربية من غلنجيك حتى أوليفيسك.

وفي عام ١٨٣٤ ولتأمين سلامة الاتصال بين الخط الساحلي ومنطقة الكوبان أقيم على أراضي الناتخواج حصن (ابينسكوي) وحصن (نيكولايفسكوي) وقلعة (رايفسكي). في نفس الوقت أقيمت حصون كثيرة أخرى، وتم ترحيل الشراكسة من حوض نهر (اوروب) إلى وديان نهر (زيليفتشوك الكبير والصغير) حيث انشأوا فيها (١١) قرية جديدة.

وفي عام (١٨٣٧) وبعد زيارة الامبراطور "نيكولاي الأول" للقفقاس بدأت إقامة الخط المحصن لساحل البحر الأسود، ومع أن إقامة خط (غيلنجيك) المحصن (من حصن أولغيسكي على نهر الكوبان حتى بلدة غيلنجيك) والتي كانت قد بدأت منذ عام ١٨٣٤ إلا أنه تم إيقافه، وأصبح الهم الرئيسي لفيلق القفقاس موجهها "لبناء خط الساحل" وتم ذلك بمعرفة الجنرال "ويليامينوف" والجنرال "رايفسكي" والاميرال "لازاريف".

في عام ١٨٤٠ تمت إقامة خط تحصينات ساحل البحر الأسود، وكان يتألف من (١٧) حصنا وقلعة مقامة في المنطقة الشركسية على أراضي الناتخواي والشابسغ والابويخ في مصبات الأنهار الصغيرة التي تصب في البحر الاسود، وبالإضافة لذلك أقيمت (خمس تحصينات) أخرى على ساحل الأبخاز وجرى دعم وتقوية قلعة (انابه). كما تم تقسيم خط تحصينات الساحل إلى ثلاثة أقسام: الأول من الشمال من مصب نهر (الكوبان) حتى حصن (كاباردنسكي) على مصب نهر (دابيه)، القسم الثاني: من حصن (غيلنجيك) حتى قلعة (غولفينكو) على مصب نهر (شاخة)، والقسم الثالث: من حصن (نافاغينسكي) على مصب نهر (سوتشي) حتى نقطة (نيكولاي) على الحدود التركية، وكانت حاميات الحصون مؤلفة من عدة كتائب مستقلة، وذلك قبل أن يتم تشكيل أفواج جمعت في عشرين فرقة مشاة، وكان احتياط المشاة يتألف من فرق مشاة في (نوفوراسيسك) وفوج مشاة في (انايغ) وفي الفترة ما بين أعوام ١٨٦١ و ١٨٦٥ أقيمت في منطقة وراء الكوبان (٧٣) محطة قوزاق جديدة وثمانى قرى تم اسكان (١٦) ألف عائلة منها، وحتى نهاية الثمانينات من القرن التاسع عشر كان عدد محطات القوزاق أصبح (١٧٦) محطة.

الأهداف الرئيسية من إنشاء الحصون أو القلاع أو المحطات والمستعمرات الروسية:

الأول: هو بناء قلاع وحصون بهدف استخدامها كمراكز ومحطات لحماية الجنود الروس من هجمات المقاتلين الشراكسة، وكذلك استخدامها كمواقع للهروب إلى داخلها عند الانسحاب أو الانهزام.

الثاني: بناء الحصون والقلاع بهدف استخدامها كمعسكرات ثابتة، ومراكز أعمال وقواعد حربية ينطلق منها الروس بحملاتهم وهجماتهم على الشراكسة.

بناء بعض الحصون والمحطات والمستعمرات لتحقيق هدف أو أكثر من الأهداف الفرعية التالية:

(١) دعم الأسطول البحري لتأمين سلامة الاتصال بين الخط الساحلي ومنطقة الكوبان وأقيم على أراضي النانتخاج مثل حصن (ابينسكويه) وحصن (نيكولايفسكويه) في عام ١٨٣٤، وقلعة (راييفسكي) في عام ١٨٣٩ وحصن (غوستاغيفسكي) في عام ١٨٤٢، وحصن (فارينيكوفسكي) على نهر الكوبان.

(٢) تقسيم وتشتيت شعب الأديغة وعزلهم عن بعضهم البعض وذلك بناء (١١) محطة/ قرية جديدة في حوض نهر (أوروب).

وأصبح بذلك قبائل شراكسة المنطقة الغربية معزولين عن بعضهم البعض ويصعب الاتصال مع بعضهم دون المرور من هذه المحطات.

(٣) خلق بؤر استعمارية بين القرى والمدن في مناطق الأديغة الغربيين بهدف إسكان القوزاقين فيها، وهذا ما حدث مثلاً حيث تم إسكان أكثر من (٧٥) ألف قوزاق في هذه المحطات والبؤر الاستعمارية.

(٤) إيجاد نقاط ومواقع محصنة آمنة في الطرق المؤدية إلى القفقاس لاستخدامها كمواقع محايدة عند التقدم إلى عمق القفقاس^(١١).

ثانياً: سياسة نزع ملكية الأراضي الزراعية والمراعي والغابات والقضاء على الثروتين الزراعية والحيوانية

يقدر الباحثون في تاريخ حروب الإبادة والدمار الروسية بأن المساحات التي استولى عليها الروس من أراضي الشراكسة القبرطاي والأديغة فيما وراء الكوبان تقدر بما لا يقل عن ٩٠% من كامل المساحة والبالغة مساحتها (٢٥٠٠) كم^٢.

حيث اتبعت السلطات الروسية الإجراءات التالية بهدف تحقيق سياستها في هذا المجال، وعلى النحو التالي:

انتزاع ملكية الأراضي الزراعية والرعية حتى لا يتمكن الشراكسة من الحصول على ما يلزم حياتهم ومعيشتهم من المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية، وهذا ما حدث فعلاً، حيث لم يبق في السنوات الأخيرة أكثر من ١٠% من الأراضي الصالحة للزراعة أو الرعي في ملكية الشراكسة الفلاحين وغير الفلاحين.

توزيع أحسن وأجود الأراضي الزراعية على كبار المسؤولين الروس من سياسيين وعسكريين.

وفيما يلي نماذج من الوقائع التي تؤكد سياسة الاستيلاء على كل ما يتعلق بالملكية والثروة الزراعية والحيوانية.

(١) نماذج من سياسة إتلاف المحاصيل الزراعية والرعية

- أمر الجنرال (ويليامينوف) عام ١٨٣٣ قائد الفيلق القفقاسي (البارون رذرين) باتباع سياسة اخذ الأراضي من الشراكسة واسكان القوزاق فيها، كما أمر بتخريب الحقول الزراعية لمدة خمس سنوات متتالية حتى يجعل نزع سلاح الشراكسة أسهل. وهكذا فإن سياسة القادة العسكريين والسياسيين الروس اتجهت نحو تخريب الحقول والاستيلاء ومصادرة الأراضي الزراعية وغير الزراعية^(٢٢).

- قال أحد القادة الروس العسكريين بأن (الفؤوس والبلطات حققت إنتصارات لروسيا أكثر بكثير مما جلبت المدافع والحراب وأن سياسة الأرض المحروقة أهلكت (الزرع والضرع)

بإحراق البساتين والجنائن (الحدائق) وهي السياسة التي انتهجتها القوات الروسية بعد أن وجدت نفسها غير قادرة على تحقيق النصر في ميادين القتال وجها لوجه.

(٢) نماذج من سياسة القضاء على الثروة الحيوانية والمخزون الغذائي لدى الشركاسة.

- في عام ١٨٠٢ شنت القوات الروسية هجوما كبيرا على قرية (بوجدوقة) "وقتلوا مئتي شخص وجرحوا ثلاثمائة وأسروا خمسمائة واستولوا على عدد كبير من المواشي منها (١١٥٨) من الخراف و (٢٤٣٢) من الماعز، وقامت قوة قوزاقية ثانية بالهجوم على قرى أخرى، واستولت على (٨٠٠) من الخراف. (٣٤)
- وفي عامي ١٨٠٧ - ١٨٠٨ قامت القوات الروسية بشن هجوم على قبائل الناتخواج والشابسوغ وعندما رفضوا إعلان ولائهم للروس، قاموا بالاستيلاء على مستودعات احتياطي الحنطة (القمح) ونهب أعداد كبيرة من المواشي.
- وفي عام ١٨١٠ تم إحراق (١٠٣٠) بقرة ومصادرة (٥١٥٥) بقرة أخرى و (٥١٥) حصانا، والاستيلاء على (١٠٤) طن من العسل الأحمر و (٩٥) طن من العسل العادي و (١٤٢) عربة حنطة. (٣٤)
- وفي عام ١٨٢٥ قامت القوات الروسية المدعومة من القوزاق بشن هجمات متتالية على قرى الازاخ والبجدوغ وقامت بنهب الممتلكات الثمينة وسرقة آلاف رؤوس المواشي (٣٤).
- وفي ١٢/٤/١٨٤٠ وعندما استلم وزير الحرب الامير "تشيرنيشف" أخبار تحطم خط القلاع الساحلي على يد المقاتلين الشركاسة وبخ قائد الخط الجنرال رايفسكي وأمر قائد فيلق القفقاس بالتوجه بسرعة بحملة تأديبية لأراضي الاديغة والاباخ، حيث تم إحراق مراعيهم ومحاصيلهم ومستودعاتهم وإحراق (١٣) قرية شابسيغ مع تدمير كل الكروم والبساتين في منطقة وادي (بسه فابة).

(٣) نماذج من سياسة قلع الأشجار المثمرة وغير المثمرة:

لجأت السلطات الروسية في كثير من الأوقات إلى سياسة حرق الأشجار المثمرة وقطع أشجار الغابات، وكانت حجنتهم في ذلك هو أن الغابات هي بمثابة حصون حماية للشركاسة، وأن الأحراج بديل للاستحكامات وأنهم لا يستطيعون الصمود أمام مدافع الروس لو خرجوا إلى السهول، لذلك فإن القادة العسكريين لجأوا إلى حرق أو قطع أو إتلاف غابات كثيرة وأن أصدق وصف لهذه السياسة هو ما قاله أحد أمراء القبرطاي حول قطع أشجار (مزدوغ) حيث قال:

"امتطى الامير جواده وقاده بهدوء على الطريق الممهدة التي تشق الغابة. ولاحظ فوراً، أن الطريق قد توسعت عما كانت عليه في المرة السابقة، وعلم بأن الروس قاموا بإزالة الأشجار، وهكذا وخلال بضع سنوات اختفت الغابة كلها، حيث كانت غابة (مزدوغ) مسرحاً لمعارك ضارية بين أمراء قباردا وجيوش الامبراطورية الروسية، وقد هلك في هذه المعارك جيوش روسية بأكملها وعبر (الاديغة) ساخرين عن ذلك بقولهم: "لجأ الروس إلى الانتقام من أشجارنا ويريدوننا أن نكون في العراء، كقطيع من الاغنام، لكي يحصدوا أرواحنا بقذائفهم، ألا تبا لهم من أغبياء". (٣٠)

وفي السنوات الاخيرة من (حرب الابداء والدمار) لجأت قبيلة (جان) او (زان) إلى غابة قريبة من موطنهم.. فما كان من القوات الروسية إلا أن أحرقت الغابات بمن التجأ إليها من قبيلة (جان) الشركسية، وأن واحداً منهم لم ينج من هذه المحرقة البشعة، فقصوا على الغابة كما قصوا على نسل قبيلة (جان) في تلك المنطقة.

ثالثا : سياسة قتل الأسرى وكبار السن والأطفال والنساء

اتبعت السلطات الروسية سياسة قتل المقاتلين الشراكسة قدر الإمكان، وعدم اللجوء لأسرهم، إلا في الفترات التي كان الروس ينشئون فيها الطرق والقلاع والحصون حيث كان من سياسة القياصرة التعمد في أسر المقاتلين الشراكسة واستخدام الرجال منهم في أعمال السخرة وتشغيلهم في شق الطرق، وفي إنشاء القلاع والحصون وحفر الخنادق وبناء المستعمرات.

وأما الفتيان والأطفال الأسرى فكانوا يرسلونهم للدراسة في المدارس العسكرية بعد (تعميدهم) وتنصيرهم وإعطائهم أسماء روسية مسيحية، كما كان من سياستهم أخذ النساء أسيرات، بالرغم من عدم مشاركتهن في القتال خلافا للقوانين والأعراف والتقاليد العسكرية التي تمنع ذلك، ولم يتوقفوا عن أسر النساء وبيعهن في الأسواق المخصصة لبيع العبيد (بعد اغتصابهن في كثير من الأحيان).

ويتضح ذلك من قول الجنرال (فلاسوف)

"كثيرا ما وقعت النساء والأطفال الهاربين من الموت بالنار في الأسر، وفي كثير من الحالات كانت النساء تفضلن الموت على الأسر فيلقين بأنفسهن في الوديان السحيقة أو في تيارات الأنهار الجبلية الهائجة (خوفا من الاغتصاب والبيع) خصوصا في منطقتي الأبراخ والبجدوغ، ويمكن ذكر الكثير من هذه الحوادث التي قام بها الجنرالات الروس (١٥).

ولنقرأ معا كيف يبرر أحد الجنرالات الروس أعمالهم الوحشية ضد شعوب القفقاس بقوله: "إن القبائل القفقاسية كانت ستفهم اللطف والعطف على أنه ضعف، بينما الحملات التي كانت تدار حسب الخطة القديمة والقائمة على الدمار والابادة مثل (تدمير المحاصيل ونهب القرى، وذبح الرجال، واغتصاب النساء الأسرى حتى يتعلم الناس دروسا يفهمونها جيدا ويعطونها حق قدرها)؟! وإن رؤية الأطفال القفقاسيين الجنود المتوحشين وهم يحرقون بيوتهم ويذبحون جدودهم وإخوته وتعاقب ثلاثين أو أربعين وربما أكثر على اغتصاب أمهاتهم هو درس وعبرة لهم عندما يكبرون مستقبلا. وهل يتصور إنسان دركا أخط من هذا الدرك؟؟ (٢٠)

بدأت سياسة إبادة أطفال الشراكسة في عام ١٧٦٠ على يد (الجنرال فون ميديم) وهو مرتزق ألماني اتحد مع قائد تثار القالموق "أوباش" وهاجما معا إمارة قباردا الصغرى وإمارات الكوبان، وارتكبا فيهما مجزرة لم يشهد التاريخ لها مثيلا تم خلالها قتل الآلاف من المدنيين خصوصا الأطفال ولأول مرة في التاريخ نقرأ عن حملة عسكرية تستهدف الأطفال بالذات، ويذكر الكونت "بوتوشي" في كتابه الذي يروي عن هذه الحقبة، بأن الناس في القفقاس دأبوا منذ ذلك الوقت على تهديد أطفالهم لإسكاتهم بالقول: (صه).. الجنرال الاصم آت! كون ان "فون ميديم" أصم في إحدى أذنيه وارادت السلطات الروسية ان تظهر امام القفقاسيين وامام العالم بمظهر الابرياء، من دم أطفال الأديغة المسفوح، وأعلنوا عن سخطهم على حلفائهم تثار القالموق، واخذوا يسيئون إليهم بشتى الطرق، مما حدا (بالقالموق) إلى طي خيامهم، والرحيل في هجرة جماعية، إلى بلادهم الأصلية، على حدود الصين الشمالية وقلعة قليلة منهم، أولئك الذين كانوا يقيمون علاقات طيبة مع القفقاسيين - عبروا نهر الترك، واستوطنوا في السهول الواسعة الممتدة فيما بين بلاد التشاشان وقباردا الصغرى، ومنذ ذلك الحين بدأوا يقاتلون الروس جنبا إلى جنب مع أهل القفقاس.

رابعا: سياسة تدمير القرى وحرقتها:

كانت سياسة تدمير القرى وحرقتها من أولويات السلطات الروسية القيصرية المتعاقبة. ونستدل على هذه السياسة التدميرية من الوقائع والأحداث التالية:

في عام (١٨٠٨) قام الجنرال "ايمانويل" بتدمير ست قرى كما تعرضت قرى الشابسيف لنفس التدمير، وقد كانت أعمال الجنرال "ايمانويل" نفسه أكثر تخريبا وتدميرا فقد عبر نهر الكوبان، وقام بتخريب كل الشاطئ الأيسر له تخريبا كاملا، ودمر (٢١٠) قرية ومستودعات كبيرة جدا من

احتياطي الحنطة ونهب أعدادا هائلة من المواشي، وكتب الجنرال "ايمانويل" إلى "باسكيفيتش" أن حاجة الشركاسة إلى المواشي ستستمر لسنوات طويلة.

وفي معركة ثانية في نفس العام وفي (١٩) أيار منه قامت القوات القيصريّة بتدمير وإحراق اثنتي عشرة قرية شركسية، وفي نيسان ١٨١٠ تم تدمير (٢٠٠) قرية، وإحراق (٩٠٨٥) منزلاً و (١١٠) مساجد والاستيلاء على (٢٨٠) بندقية و (٥٣) رمحاً و (١٤٥) سيفاً وسرقة (٢٩٠٠) روبل فضة.

في عام ١٨٢٢ وحده أباد الجنرال (فلاسوف) (١٧) قرية كبيرة و (١١٩) قرية صغيرة شركسية بكل ما تحتويها من مؤن، وتمت مصادرة ما يزيد عن (١٠٠٠) رأس من الماشية، وحسب أقوال معاصريه كان "فلاسوف" يعبر نهر الكوبان ويهجم على القرى ويصادر الماشية ويأخذ الأسرى ويحرق كل بيوتها، فمثلاً في ١٨٢٤/٥/٣ قام بهجوم مفاجئ على إحدى قرى الأديغة، كانت القرية لا تزال نائمة عندما هاجمها القوزاق من كافة الجهات ولم يتركوا فيها (حجراً على حجر) وقد لحق قريبتين مجاورتين لها نفس المصير في تلك الليلة، ولا يعرف أحد كم مات من السكان في هذه الغارة إلا أن شوارع القرى كانت مليئة بالجثث. كما أسر (٢٥٠) أسيراً واستولى على أكثر من ألف رأس من الماشية، كما كتب (كورولينكو) عام ١٨٢٥ قائلاً: قواتنا قامت بترك منطقة ما وراء الكوبان مدمرة القرى، وفي هذه القرى الملتهبة قتل الشركاسة بالمئات إما بالنيران أو بحراب القوزاق المتوحشين.^(١٥) كما قال إن حملات الجنرال "فلاسوف" عبر الكوبان تمت بموافقة القائد العام لجيش القفقاس الجنرال "يرمولوف".

في ربيع عام ١٨٢٢ وبقيادة مباشرة من "يرمولوف" أيضاً قامت القوات الروسية بالهجوم وبجبهة عريضة على القبرطاي واستمر الهجوم حتى عام ١٨٢٥ وكما تقول المصادر قام "يرمولوف" بتدمير وتشتيت كامل سكان القبرطاي تقريباً، واضطر كثير منهم للهرب إلى مناطق الكوبان ليقوموا بالقتال معاً من أجل نيل الحرية والاستقلال.^(١٦)

كما ورد من الأرشيف الحربي الروسي بأن الجنرال (داخوفسكي) قام بإحراق كل شيء بين التلال الساحلية من بلاد الشابسوغ والشاطئ بحيث لم يبق شيء واقفاً.^(١٧)

خامساً : سياسة تجويع سكان القرى الشركسية وترويع الأطفال والنساء وكبار السن.

اتبعت القيادة العسكرية الروسية سياسة "الأرض المحروقة" في حربهم فكانت القوات لا تتقدم إلا بعد قصف مدفعي عنيف، يطال كل شيء... الأشجار والحقول والمنازل، وحتى قطعان الماشية. فضلاً عن سياسة "التجويع" التي انتهجتها القيادات الروسية، في مراحل لاحقة، إذ تبين للقيادة الروس بعد أن تعرفوا على الأوضاع الداخلية للشركاسة، بأن السكان يعانون من قلة الأراضي المتوفرة للزراعة، خصوصاً زراعة الحبوب، وأن المخزون الغذائي (الاستراتيجي) لا يكفي السكان لأكثر من بضعة أشهر. وخلصت القيادة الروسية إلى النتيجة التالية: إذا وجهت الحرب نحو الحقول والمزارع والبساتين، فسيهلك القفقاسيون من الجوع، وستعم الأوبئة والأمراض... وسيموت الناس في النهاية، وتؤول البلاد القفقاسية لنا خالية من سكانها".

وبدأ تنفيذ هذه السياسة ابتداء من عام ١٨٠٥ حيث تمت محاصرة بلاد القبرطاي، كما تم منعهم من الاتصال مع القوميات الأخرى عامة والروس خاصة. كما قاموا بإتلاف مستودعات التموين وإتلاف المزارع والقضاء على الثروة الحيوانية بإحراق المواشي والطيور وكل شيء حي يمكن أن يكون مفيداً للسكان؛ مما أدى إلى موت الكثير من الشركاسة جوعاً، إذ لم يكونوا يجدون قطعة من الخبز، لقد لحقت بالقبرطاي خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات أجبرتهم على الاستسلام.^(١٨)

وفي عام ١٨٤٠ وبعد الانتهاء من إقامة خط التحصينات الساحلي أصبح (الأديغة) وغيرهم من القوقازيين عملياً مقطوعين عن العالم الخارجي، مما جعل أوضاع الناس سيئة جداً، هذا بالإضافة

إلى الجفاف والشتاء القاسي ذلك العام الذي أدى لانتشار المجاعة بشكل مرعب بين سكان فيما وراء الكوبان^(١٨).

وفي السنة الأخيرة من حرب الإبادة والدمار وصف (فون فيل) الوضع الذي كان يعيش فيه الشعب الشركسي بقوله:

"وكل يوم كنا نلتقي بمجموعات الناس التي تنزح إلى الأراضي التي لم يحتلها الروس، والأمطار والسيول الأخيرة قضت على عدد كبير منهم. وكنا نجد باستمرار في طريقنا جثث هؤلاء. وكان الجوع منتشرًا بشكل كبير، حيث مات الكثيرون دون أن نستطيع مساعدتهم بشيء، إذ كنا شبه جائعين أيضًا وزادنا بالكاد بكفينا، وكنا غالبًا ما ننام في الغابات والكهوف الصخرية معرضين أنفسنا للخطر بسبب المصاعب الطبيعية، وفي أحيان أخرى كنا ننزل ضيوفاً على القرى، ولكننا كنا نهرب من هناك مخافة العدوى التي كانت تقضي على سكان هذه القرى".

واستطرد قائلاً: "كان الشركاسة الذين انتهت مؤنهم يذهبون إلى القرى المجاورة بحثاً عن طعام دون أن يعلمونا، ولهذا لم نستطيع أن ندرّبهم على استعمال المدافع"^(١٩).

وكذلك فإن القحط الذي حل ببلاد الأوبيخ وبعض القبائل المجاورة أدى إلى تدني إنتاج المحاصيل الزراعية، كما أن حصارهم من قبل القوات القوزاقية المدعومة من القوات الروسية ومنعهم من الحصول من القبائل الشركسية المجاورة بالمؤن الضرورية لحياة الإنسان.. الأمر الذي أدى إلى ظهور مجاعة حقيقية تسببت في موت أعداد كبيرة منهم^(٢٠).

وربما كان من شهود العيان الذين عاشوا الأجواء التي رافقت سياسة الروس تجويع الشعب الشركسي الجنرال البولندي الذي قاد مجموعة من المتطوعين الانجليز والبولنديين والأتراك الذين قدموا إلى بلاد الشركاسة عامي ١٨٦٣-١٨٦٤ حيث قال:

بذلنا طوال ثلاثة أشهر جهدنا للدفاع عن البلاد، وكنا ننقل بدون توقف من منطقة إلى أخرى لجعل الشركاسة يستعيدون قواهم، نجحنا في بعض المناطق وفشلنا في أخرى، وكان السكان المساكين في معظم المناطق يموتون من الجوع والبرد، ويهجرون قراهم تاركين فيها عدداً قليلاً من المحاربين^(٢١).

سابعاً: سياسة نشر الأوبئة والأمراض بين السكان والحيوانات في بلاد الشركاسة

وربما كان قدر الشركاسة إبان (حرب الإبادة والدمار) الابتلاء بالأوبئة والأمراض وغيرها من الآفات الطبيعية، وكان الأعمال العسكرية وغير العسكرية الهمجية التي ارتكبتها الجيوش المدججة بالأسلحة الثقيلة لم تكن لإبادة الشركاسة كافية، حتى ابتليت المجتمعات الشركسية بالأوبئة والأمراض التي فتكت وقتلت من الشركاسة أكثر من الذين قتلوا على أيدي الجيوش الروسية البربرية. ويتضح ذلك مما جاء في الوثيقة الروسية التي نصت على أن: "الفؤوس، جلبت لروسيا من الانتصارات أكثر مما جلبت الحراب والسيوف" ونقرأ في المدونات التاريخية أيضاً أن سلسلة من الأوبئة بدأت تجتاح القفقاس الغربي، اعتباراً من بداية القرن التاسع عشر، أدت إلى فناء ثلثي عدد الشعوب القاطنة في تلك المناطق، وفي "قباردا" مثلاً أكبر الإمارات وأكثرها سكاناً، لم يتبق منهم سوى اثني عشر ألف (عائلة) فقط..

* أنواع الأوبئة والأمراض

كما تشير الوثائق إلى أن أكثر الأمراض والأوبئة كانت انتشاراً بين الشركاسة في فترات حروب الإبادة هي:

الطاعون. الجدري. الحمى التيفودية بالإضافة إلى (بمنة وزا) وهو مرض (مجهول) ويشبه مرض الكوليرا وأطلق عليه الشركاسة اسم (بمنة وز) وكان مرضاً فتاكاً وخطيراً جداً، وقد قضى على سكان العديد من القرى الشركسية بأكملها.

أما الأوبئة والأمراض الحيوانية وهي تلك الأوبئة التي تفشت بين المواشي والخيول والطيور وأدت إلى نفوق عشرات آلاف منها والقضاء على الثروة الحيوانية للشراكسة إبان حرب الإبادة.

كما ظهر (الجراد) بأعداد كبيرة جدا في عام ١٨٠٨ قضت على المحاصيل الزراعية والمراعي لأكثر من سنة.

* مراحل انتشار الأوبئة والأمراض بين صفوف الشراكسة وبين حيواناتهم من مواشي وخيول وطيور:

- في مطلع القرن التاسع عشر ظهر وباء خطير جدا في مناطق شمال القفقاس واستمر حتى عام ١٨٠٨، قضى على معظم سكان المنطقة حتى أن قرى عديدة أصبحت بلا سكان واطلق عليها الأديغة فيما بعد اسم (يمنة وز)، كما أن هذا الوباء أدى إلى هجرة الكثير من الأديغة الذين بقوا على قيد الحياة، وأكبر دليل على ذلك هو أن عدد سكان القبرطاي عام ١٨٢٠ كان أقل من نصف سكانها عام ١٧٤٠ نتيجة الوباء والهجرة والحرب أيضا^(٣٤).

- وفي عام ١٨١٠ لم يتمكن الشراكسة القبرطاي من مقاومة هجمات القوات الروسية المتلاحقة بسبب انتشار وباء (الطاعون) بينهم، حيث قضى هذا المرض على الآلاف من الشراكسة من مختلف الأعمار.

- وفي الأعوام من ١٨٢٢ - ١٨٢٥ انتقم الجنرالات الروس من الشراكسة الذين قاوموهم سابقا وقمعوا بالسيف والنار كل حركات المقاومة وحرموهم من المأوى ومن المأكل فانتشر بينهم مرض (الطاعون) وغيره من الأمراض، وكتب "يرمولوف" يقول: "كان الطاعون حليفا لنا ضد القبرطاي بحيث قضى على كل سكان قبرطاي الصغرى وساهم في إفراغ قبرطاي الكبرى، وأضعفهم إلى حد أنهم لم يعودوا يستطيعون التجمع في مجموعات كبيرة"، و"لم يبق من القبرطاي إلا خمسهم".^(٣٥)

- وفي عام ١٨٦٣ أي قبيل انتهاء حرب الإبادة والدمار بسنة واحدة انتشر وباء (الجذري) بين السكان النازحين المطرودين من قراهم ومساكنهم، فحصد الوباء ضحاياه على امتداد البلاد الساحلية القريبة من البحر الأسود.

وفي السنة الأخيرة من (حرب الإبادة والدمار) وبالتحديد في عام (١٨٦٤) ذكر (فون فيل) الرواية التالية في مذكراته التي نشرها في (كتابه السنة الأخيرة لحروب الشراكسة) وقال: كنا في أحد الأيام في ضيافة إحدى القرى (الأديغة) وعلمنا بأنه مات ثمانية من سكانها بتأثير "الحمى التيفودية" فغادرناها مفضلين تحمل البرد والجوع على البقاء فيها".

ويقول (ادموند سبنسر) وهو أحد الرحالة الانجليز الذين زاروا القفقاس عام ١٨٣٨ "بأن جحافل الروس غير كافية لفتك بهذه الأمة، حيث أخذت الآفات الطبيعية تتوافد على البلاد المنكوبة، فظهر (الجراد) بكثرة في هذه السنة وأتلف المزروعات، وكان في أكثر الأيام يغطي السماء ويحجب نور الشمس. ثم تفشى نوع من الوباء بين الحيوانات وأخذ يفتك بها فتكا لا مثيل له، حتى لم يبق سوى القليل من الماشية والخيول، ثم انتشر مرض يشبه (الكوليرا) مدة طويلة فأفنى منها كثيرا^(٣٥).

نستنتج مما تقدم بأن الأوبئة والأمراض والآفات البشرية منها والزراعية والحيوانية قد فتكت بالإنسان الشركسي وبثروته الحيوانية والزراعية غير مرة وفي أكثر من منطقة في الوطن الأم للأمة الشركسية. والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه هو؛ هل هذه الأوبئة وتلك الأمراض والآفات جاءت بسبب إهمال الشراكسة، وعدم مراعاتهم لشروط النظافة* والحياة الصحية والغذائية.

* عرفت الأمة الشركسية منذ فجر التاريخ بحبهم للنظافة الشخصية والبيئية، وأنهم يتمتعون بصحة جسمية متميزة ويعيشون حياة صحية متكاملة، وإن جميع الرحالة الذين زاروا القفقاس في عصور ما قبل الميلاد وفي العصر الحديث

الجواب قطعاً (لا) فإن انتشار هذه الأوبئة وتلك الأمراض كان وراءها الروس، وأن مسؤوليتها المباشرة وغير المباشرة تقع على عاتق السلطات الروسية السياسية منها والعسكرية، لقيامها بأعمال وحشية وبربرية ومنافية للاعراف والتقاليد العسكرية والسياسية أولاً، ولتنفيذهم أعمالاً محرمة وفق القوانين الدولية ثانياً.

وبالبحث عن الأسباب المباشرة وغير المباشرة لانتشار الأوبئة والأمراض تبين لنا وجود أربعة أسباب رئيسية وهي:

السبب الأول: هو الحصار المستمر للقرى الشركسية من قبل القوات الروسية واعوانهم ومنع وصول الامدادات الغذائية والصحية عنهم، مما دأى إلى تدهور الصحة العامة في المجتمعات الشركسية.

السبب الثاني: ويتعلق بإحراق المحاصيل الزراعية والقضاء على الثروة الحيوانية بقتل عشرات الالوف من رؤوس المواشي وسرقة الالاف المؤلفة من الاغنام والابقار، بالإضافة إلى حرق أو إتلاف المخزون الغذائي بعد كل معركة أو هجوم أو غزو للمناطق الشركسية، مما أدى إلى حدوث نقص في المواد الغذائية وتدهور الصحة العامة للأفراد والجماعات، وكذلك حدوث نقص في مناعة الأجسام وضعف مقاومتها للأمراض.

السبب الثالث: ويتمثل في تلوث البيئة في مناطق القتال نتيجة استخدام (ملح البارود) بكثافة وكذلك انتشار الأوبئة نتيجة منع الشراكسة من دفن قتلاهم لأيام وليالي عديدة، وكذلك نتيجة قتل وإتلاف الاف من المواشي وترك النافق منها في الزوارب والحقول لفترة طويلة لعدم تمكن الشراكسة من حرقها أو دفنها لانشغالهم في الدفاع عن انفسهم ومقاومة الغزوات الروسية القوقازية المتواصلة.

السبب الرابع: قدوم مئات الالاف من القوات الروسية والمرتزقة من مختلف الشعوب والامم والقوميات إلى بلاد الأمة الشركسية أدت إلى انتشار بعض الأوبئة حسبما أكده بعض الدارسين بقوله: "مع قدوم الوافدين الجدد، ازدهرت الأمراض والأوبئة التي لم يألفها القفقاس من قبل. ويموت الناس من الأمراض والأوبئة بأعداد تفوق أعداد الهالكين في المعارك والحروب".

ثامناً: سياسة استغلال قسوة الطبيعة وسوء الأحوال الجوية في بلاد القفقاس إبان الحروب.

لم ينس المخططون الروس للاستيلاء على بلاد القفقاس (ارضا بلا سكان) اللجوء لاستغلال قسوة الطبيعة في بلاد القفقاس أولاً، وظروفها الجوية والمناخية الشديدة ثانياً، حيث كانوا يشنون هجماتهم ومعاركهم في فصول الشتاء أكثر منها في الفصول الأخرى، كما كانوا ينفذون غاراتهم على القرى الشركسية الآمنة في ليالي الشتاء الباردة، حيث كانت درجة الحرارة تنخفض إلى (١٥) درجة تحت الصفر في بعض المناطق، كما كان من أهداف تدمير القرى أو إحراقها وهدم البيوت أو إتلاف محتوياتها هو ترك الشراكسة كباراً وصغاراً، أطفالاً وشيوخاً، رجالاً ونساءً، في العراء بدون أمتعة وملابس شتوية مناسبة، وكذلك إجبارهم على الهرب إلى الجبال العالية والاختباء في الغابات الكثيفة، وقضاء أيام بل أشهر في (الكهوف) و (المغر) الباردة جداً، كما كان يقضي المقاتلون المكلفون بالاستكشاف الليالي شديدة البرودة على رؤوس الأشجار لمراقبة تحركات الأعداء.

وربما كان أصدق وصف لقسوة الطبيعة وشدة الأحوال الجوية في القفقاس هو الوصف الذي ذكره (فون فيل) في كتابه (السنة الأخيرة لحرب الشراكس) قائلاً: "بعد انتهاء مهمتنا بدأ هطول المطر، ولم يعد ممكناً اجتياز الأنهار والأودية. أما الطرق الجبلية الزلقة في الأصل قبل هطول المطر فقد أصبح من المستحيل السير عليها بعد هطولها والحقيقة أن الأمطار التي هطلت بغزارة غير معقولة، والسيول الذي انحدر في عتمة الليل سحب معه الناس والخيول والخيام، حتى وصلت إلى أسماعنا من التل المرتفع الذي نحن عليه أصوات عويل وصراخ وضجة هائلة، كان واضحاً منها حدوث حالة من الذهول تسيطر على الذين كانوا في أسفل الجبل الذين داهمهم السيول.

تغنوا بنظافة المجتمعات الشركسية وبجمال القوام وسلامة الأبدان.. وبالتالي فإن الجواب هو (قطعاً) بأن الأمراض والأوبئة لم تظهر بسبب إهمال الأمة الشركسية وعدم مراعاتهم للمستوى الصحي والبيئي في حياتهم العامة.

واستطرد قائلاً: "طلع الفجر، ولكن الجو كان سيئاً جداً، والطرق مقطوعة، والمطر ما زال يهطل بغزارة. ففي النهار فقط استطعنا ان نرى الصورة المرعبة التي حدثت في الليل بسبب قسوة الطبيعة".

وأضاف قائلاً: وكذلك فإن العواصف الثلجية كانت تكتسح المقاتلين الشركاسة المرابطين على الجبال وداخل الغابات. وعلى رؤوس الأشجار بدون ملابس مناسبة وبلا مأوى مناسب، حيث كان يتجمد كل شيء في الإنسان ... وكمن مرة وجدنا من المقاتلين المرابطين في الخطوط الأمامية متجمدين من انخفاض درجات الحرارة لأكثر من (١٥) درجة تحت الصفر".

وتابع وصفه لقسوة الاحوال الجوية بقوله: كان الوضع متوتراً حتى أننا لم نستطع عمل شيء، فالبرد قد أصبح شديد الوطأة، وحراسنا يموتون باستمرار من شدة البرد، وحدث مرة أن وجدنا كل الحراس في فترة المناوبة قد ماتوا متجمدين^(٤٥).

(٣) سياسة محاربة تسويق المنتجات الزراعية والحيوانية والصناعية.

استغل الروس حاجة الشركاسة لتسويق محاصيلهم الزراعية وثرواتهم الحيوانية ونتاجهم الصناعي اليدوي استغلالاً بشعاً حيث كان أول من تنبه إلى ضرورة استغلال حاجة الشركاسة إلى مبادلات تجارية، وتسويق منتجاتهم الزراعية والحيوانية والصناعية هو الامبراطور (الاسكندر الأول) الذي صادق في تشرين الأول من عام ١٨١٢ على (قواعد التجارة مع الشركاسة والاباطة) وكانت هذه القواعد تؤكد رغبة الحكومة الروسية تقرب الشركاسة إلى الروس سلمياً عن طريق التجارة، وذكرت هذه القواعد أنه (بتأسيس هذه التجارة يمكن تدريب الشعوب الجبلية على منافع الحياة الاجتماعية والتعليم، وبالتالي التغلب على وحشيتهم) وقد حددت الأنظمة الجديدة نقاط التجارة في (كيرتش)، حيث تم إلغاء الحجر الصحي والجمارك، وكذلك نقطة تجارة أخرى في منطقة (بوغاز)، وتم التأكيد على منافع إنشاء العلاقات التجارية مع شعوب ما وراء الكوبان، مثل الشركاسة والاباطة الساكنين على ساحل البحر الأسود^(٢٢).

(٤) تشير الوثائق المتعلقة بالعلاقات التجارية بين الشركاسة والروس بأن المسؤولين الروس كانوا يهدفون من تقوية العلاقات التجارية مع الشركاسة عامة ومع القبرطاي خاصة أكثر من هدف وغاية يمكن إيجازها على النحو التالي:

الهدف الأول هو: تحقيق التعاون السلمي مع الشركاسة:

تشير بعض وثائق حرب القفقاس بأنه ظهر بين الجنرالات الروس من كان يعارض طرق الاحتلال الروسية القاسية وأحد هؤلاء هو الجنرال "رايفسكي" الذي كان يشغل منصب قائد خط ساحل البحر الأسود، وكان يدعو إلى التعاون السلمي مع الأديغة بواسطة زيادة التجارة وتحسين الأحوال المعيشية لهم. وفي تقريره حول الأوضاع السياسية للساحل الشرقي الذي قدمه في عام ١٨٤٠ إلى وزير الحربية، أوضح "رايفسكي" بعضاً من أفكاره التي كانت تتعارض تماماً مع الخط السياسي الحكومي في مسألة القفقاس، وعند محاولته توضيح أعماله الموجهة للتقارب مع الأديغة كتب "رايفسكي" بأن منع التجارة مع الأديغة يعيق السلام معهم، ويشجع أعمال العصابات ويقوي من تأثير تركيا عليهم، وهذا يجعلهم يبحثون عن وسائل للاستقلال عن روسيا^(٢٣).

الهدف الثاني هو: استمالة الشركاسة من خلال تنفيذ أعمال تجارية معهم

بالرغم من أن التجارة الروسية الشركسية في الكوبان وعلى ساحل البحر الأسود لم تكن ذات حجم كبير لأسباب داخلية وخارجية، إلا أنه كانت لها نتائج سياسية هامة، حيث إن بعض التجار الشركاسة أصبحوا وبسبب مصالحهم التجارية من ذوي الميول الروسية وكان الممثل التجاري الروسي هو "دوسكاسي" وكانت محطته التجارية الرئيسية عند مصب نهر (بشاد) في املاك الامير الشابسيف "محمد اندار" وكان السكان المحليون يقابلون السفن التجارية الروسية القادمة إلى (بشاد) بكل ترحاب^(٢٤).

الهدف الثالث هو: تحسين مستوى معيشة شعوب وقبائل الشركاسة:

كان من الأهداف المباشرة في مرحلة زمنية محددة، وخاصة عندما شعر القادة العسكريون الروس استحالة القضاء على الشركاسة عسكريا هو اللجوء إلى أكثر من طريقة أو سياسة لاستمالة وكسب ود الشركاسة حتى لا تتاح لهم فرصة الانتفاضة عليهم. إلا أن المسؤولين والتجار الروس استغلوا الشركاسة تجارياً وتلاعبوا في علاقاتهم مع الشركاسة، ويتضح ذلك مما كتبه الجنرال (نقولاوي) عام ١٨٣٨ قائلا: "وهذا ما حدث فعلا عندما حولت السلطات المدنية والعسكرية الروسية المحلية، التجارة مع الشركاسة إلى صفة (استعمارية استيطانية) إذ كان الموظفون والتجار الروس في الأسواق ونقاط الحدود التجارية يغشون دائما الشركاسة، بسبب المهارات التجارية التي يملكها الروس، ولا توجد لدى الشركس مثل هذه المهارات، وكان الروس يبيعون للشركاسة بضائع ذات جودة رديئة وبأسعار خيالية ويأخذون من الشركاسة بضائع جيدة وبأسعار رخيصة (٢٥).

الهدف الرابع هو: وقف الإتجار مع دول الحلفاء (تركيا وانجلترا وفرنسا)

شعرت السلطات الروسية القيصرية بأن دول التحالف تحاول التغلغل بين سكان القفقاس عامة والشركاسة خاصة تحت مظلة التعاون التجاري، وإن أعمال الجاسوسية لهذه الدول تستغل الأعمال التجارية لستار شرعي لأعمالهم التجسسية، بدأت السلطات الروسية تشعر بأهمية تقوية العلاقات التجارية معهم، وأهمية إيجاد أسواق في روسيا القيصرية حتى لا تقتصر للتجار مع دول الحلفاء.

وقبل مرور وقت طويل اكتشف الأمراء الشركاسة والتجار والإقطاعيون بأن السياسة الروسية المتضمنة الانفتاح التجاري ما هي إلا سياسة مؤقتة وأنها تهدف فيما تهدف إلى استغلال الشركاسة تجاريا أولا، وأنها جزء من سياستهم العامة التي تهدف إلى استغلال كل وسيلة أو طريقة من شأنها التأثير على حياة القفقاسيين سلبا.

تاسعا: سياسة تحريض الفلاحين وعامة الشعب للقيام بالثورة على أمرائهم ونبلائهم وكذلك اللجوء إلى سياسة خلق صراع طبقي داخل مجتمعات القبائل الشركسية ذات النظام الطبقي.

استغلت الحكومات الروسية المتعاقبة الصراع الطبقي داخل المجتمعات الشركسية عامة ولدى القبائل التي كانت تتبع النظام الطبقي الإقطاعي خاصة وحاولت استقطاب الأمراء والنبلاء والإقطاعيين باستخدام الوسائل التالية:

* عدم المساس بممتلكات وحقوق الإقطاعيين الموالين للنظام القيصري في شمال القفقاس ومساعدتهم على مصادرة أراضي الأحرار والفلاحين المعادين للروس والسماح بضمها إلى ممتلكات الإقطاعيين.

* تكريم الطبقات الاجتماعية العليا من أمراء ونبلاء وأعيان الشركاسة لمنحهم الأوسمة وتقديم الهدايا لهم بهدف استمالتهم وتحويلهم إلى فئات مسالمة غير معادية للروس.

* معاقبة الإقطاعيين والأمراء والنبلاء المعادين لسياسة الروس بتحريض الفلاحين والعبيد للتحرك من تبعية الإقطاعيين عامة، والأمراء والنبلاء المناوئين للسياسة الروسية خاصة.

* كما كانوا يلجأون إلى الإيقاع بين إقطاعيي مجموعة القبائل الموالية للروس مع إقطاعيي مجموعة أخرى معادية لروس (٢٦).

عاشرا: سياسة اغراء واجتذاب عناصر من شباب الأمة الشركسية للخدمة في جيش سلطات روسيا القيصرية:

تشير الوثائق الروسية بأن الحكومات الروسية منذ القرن السادس عشر الميلادي تبنت سياسة استقطاب عناصر من الشركاسة للانخراط في الجيش الروسي وفق الاتفاقيات التي كانت تعقد بين

الشراكسة عامة والقبرطاي خاصة، وبين الحكومات الروسية القيصرية المتعاقبة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر عامة، وبالبحث حول أهم تلك الوسائل التي استخدمها الروس لاستقطاب واغراء مقاتلين من الشراكسة للانخراط في الجيش الروسي توصلنا إلى الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: تشكلت أول قوة عسكرية من الفرسان والمقاتلين الشراكسة في عهد (إيفان الرهيب) من الأمراء والنبلاء الذين أخذهم كرهائن لضمان حسن تنفيذ الاتفاقيات مع الشراكسة من القبرطاي وتعمدوا (تنصروا) تحت أسماء روسية.. بالإضافة إلى الأفراد من الشراكسة الذين كانوا يدينون بالديانة المسيحية أو الذين ارتدوا عن الإسلام واعتنقوا الدين المسيحي خاصة بعد انشاء مقاطعة (مزدوج).

الحقيقة الثانية: استطاع الروس الاحتفاظ بالآلاف من الضباط الشراكسة للعمل والخدمة في الجيش الروسي من خلال دفع رواتب مجزية لهم وصلت إلى ألف روبل لحملة رتبة لواء *.

الحقيقة الثالثة: ابتداء من عام ١٨٣٦ اتبعت القوات الروسية سياسة أخذ الأطفال الشراكسة كرهائن أو كأسرى وإرسالهم إلى المدارس الروسية العسكرية واعدادهم عسكرياً للعمل كضباط في الجيش الروسي.

الحقيقة الرابعة: منح الضباط من أصول شركسية رتباً عالية، وكذلك تعيينهم في مراكز قيادية عليا مثل الجنرال الشركسي الذي اعتنق المسيحية الأمير (يكوفيتش جركاسكي) من عائلة (بايقوة أو بيقوة) وكان (صديقاً) ومساعداً للجنرال (يرمولوف) وكافأه على إخلاصه بمنحه منطقة قبردي الصغرى التي كانت تتألف من ثلاث إمارات وحرّم بذلك الأمراء الثلاثة الذين كانوا يملكون هذه الإمارات من ممتلكاتهم كاملة. (٢٦)

الحقيقة الخامسة: تكريم المقاتلين الشراكسة الذين انضموا للجيش الروسي بضمهم إلى الحرس القيصري الخاص والمكون من الفرسان الشراكسة خاصة في عهد القيصر إسكندر الثاني. كما تم تكريم الجنرال تشيركاسكي بيكوفيتش (الشركسي بايقوه) قبرطاي الأصل، بتعيينه مساعداً لأمر القوات الروسية في القفقاس. كما كان الجنرال كوندوقوف أمر الجيش في منطقة شيشان. (٢٧)

حادي عشر: سياسة الدس والإيقاع بين الشعب الشركسي وشعوب وقوميات قوقازية مجاورة لهم بهدف الاقتتال فيما بينهم:

استخدمت السلطات القيصرية منذ عهد (كاترينا الثانية) سياسة الدس والإيقاع بين قبائل الشركسية وبين قوميات قوقازية أخرى، وكذلك الإيقاع بين زعماء واتباع قبائل شركسية، مع زعماء واتباع قبائل شركسية أخرى، حيث كانت السلطات الروسية تحقق من خلال استخدام مثل هذه السياسات أكثر من هدف؛ منها:

(١) منع حدوث تقارب أو اتحاد بين القبائل الشركسية المختلفة من جهة وخلق كراهية وبغض بين بعضهم البعض.

(٢) خلق عداوات مع قوميات وشعوب قوقازية أخرى من خلال الإيهام بأن من قام بغارة أو هجوم أو اعتداء هم من شعب أو قومية أخرى فيما الحقيقة أن القوات الروسية أو القوقازية هي التي كانت تقوم بمثل هذه الغارات وتتهم بها قوميات قوقازية أخرى.

وفيما يلي نماذج من سياسة التفرقة والإيقاع التي استخدمتها السلطات الروسية خلال حربها ضد القوقازيين عامة والشراكسة خاصة، وربما كان أفضل وصف لهذه السياسة ما قاله أحد كتاب الشراكسة:

* وردت هذه المعلومات في مذكرات الجنرال موس كوندوقوف الذي خدم في القفقاس مع الجيوش الروسية وهو من أصل شيشاني أو استيني.

"في صيف عام ١٧٧٧م. وصلت إلى اسماع السلطات الروسية العليا، في موسكو وسانت بطرسبرغ، أنباء مقلقة جدا مفادها: أن أمراء كبادرا جادون في سعيهم لتوحيد الأمم والشعوب القفقاسية، في جبهة واحدة للوقوف ضد روسيا".

وبدأت السلطات الروسية بجهد محموم لإبطال هذه المساعي، وانتشر الاعوان والعيون، في كل الانحاء وبدأوا يطلقون الإشاعات والأقوال المغرضة ضد أمراء كبادرا وصرفت الأموال لفك ارتباط الشعوب والجماعات الصغيرة بإمارة كبادرا، وأمرت الإمبراطورة "كاترين" بتنفيذ سياسة "فرق تسد" إلى أبعد مدى ممكن، وتم تشكيل وحدات ميدانية من الروس ومن المرتزقة، اخذت تشن الغارات المفاجئة تحت جنح الظلام ضد البلدات والقرى الشركسية الآمنة، تذبح وتقتل السكان المدنيين دون رحمة أو شفقة، وعند الانتهاء من جرائمها كانت تتعمد ترك آثار مخلفات مادية توهم بأن الفاعلين هم (النوغاي) مثلاً وكأنهم المنفذون لهذه الغارات. ويرد القبرطاي بقسوة، ويهاجمون تجمعات (نتار النوغاي) وغيرهم القاطنين في السهوب الشمالية، وتدور بينهم معارك طاحنة ظنا منهم بأنهم هم المعتدين وليس الروس أو القوزاق.^(٢١)

ثاني عشر: سياسة الخداع وتقديم الوعود الكاذبة للأمراء والنبلاء الشركاسة:

نستنتج من وقائع واحداث تاريخية عن خداع الروس ومحاولتهم التخلص من الشركاسة الموالين وغير الموالين للروس باختلاق الاكاذيب ومن أمثلة ذلك الوقائع التالية:

حاول بعض الامراء والنبلاء الاستيضاح من الحاكم الروسي "ايمانويل" حول ما سيتم من إجراءات ضد أولئك الذين لم يرضخوا للسلطة الروسية، ولكنهم لم يرفعوا السلاح ضدها. وكان الجواب على ذلك في الكتاب الذي أرسله إلى زعيم القوزاق "بيسكروفي" يخبره فيها بأن يوعز بشكل سري إلى (أديغة ما وراء الكوبان) ان لا يخافوا من الروس إذا لم يقاتلوا مع الاتراك لأن هذه الحروب هي بين الروس والاتراك ولا تخص الأديغة الشركاسة.

وبعد انتهاء الحرب الروسية / التركية قام "ايمانويل" نفسه بهجوم مركز على الشركاسة عامة دون تمييز بين المحايدين وغير محايدين، نتج عنها قتل العديد من الشركاسة وتدمير قرى شركسية عديدة.

وكذلك خاطب قائد القوات خط الكوبان والبحر الاسود الجنرال "ايمانويل" نفسه "الأديغة" بقوله: "إنني أعلن لكل أتباع الامراء الذين يقاتلون ضد الاتراك معنا أو لا يقومون بأعمال سطو في منطقة القفقاس والبحر الاسود بأنني سأكون حاميا لهم اذا وصلت القوات الروسية إلى خط القفقاس"، وعلى اثره قام بعض زعماء الأديغة بإعلان ولائهم للروس. وبعد سقوط (أنابه) كانت القيادة الروسية مقتنعة أن شعوب ما وراء الكوبان ستكون مضطرة للاعتراف بالولاء لروسيا وفي اعلان ثان من قبل الجنرال "ايمانويل" طلب من كل (الأديغة) إعلان الولاء دون قيد أو شرط لروسيا، وإذا رفضوا ذلك فإنه سيتخذ ضدهم اجراءات قاسية، وعندما رفض بعض نبلاء الناتخواج إعلان ولائهم أرسل قوات كبيرة إلى قرى النبلاء الرافضين، وقامت بتدمير ست قرى منها، كما تعرض عدد كبير من قرى الشابسغ لنفس المصير.^(٢٢)

في ٢ آذار من عام ١٨٤٤ أرسل الامبراطور نيقولاوي الاول إلى القبرطاي رسالة اشار فيها إلى الحماس الدائم وإخلاص القبرطاي للعرش وخاطبهم قائلاً باسم الرب الرحيم:

"نحن نيقولاوي الاول إمبراطور وحاكم عموم روسيا وغيرها.. إلى رعايانا المخلصين من السكان القبرطاي، إن الحماس الدائم والاندفاع، والإخلاص الذي اظهرتموه باستمرار، والاستعداد لحمل السلاح ضد اعدائنا في الجبال لفت نظرننا واهتمامنا الخاص".

"وتقديرًا لذلك وبركنتنا الكلية نمنح السكان القبرطاي علماً فخرياً كمؤشر على الرعاية الملكية الخاصة، وعليهم عندما تقتضي الحاجة ان يقدموا المتطوعين لمحاربة الشعوب التي لا تخضع لنا. مع مزيد من مباركتنا لشعب القبرطاي".

إلا أنه كان أول من هاجم منطقة القبرطاي ودمّر قراهم وقتل أطفالهم ونساءهم وكبار السن منهم هي قوات نيقولاى الأول نفسه.

في عام ١٨٤٥ ولي على القفقاس الأمير ميخائيل سيميونوفيش فورنتسوف الذي وعدهم قائلاً:

"... إن دينكم وعاداتكم وشريعتكم وأراضيكم وكل أملاككم التي حصلتكم عليها بجهدكم، لن يمس بها أحداً وستكون لكم وحدكم ملكاً خالصاً، وستبقى الأمور بلا أي تبديل".^(٤٤)

وبالرغم من هذه الرسائل الرقيقة في الظاهر، وتلك الوعود الموثقة رسمياً، نتبخر قبل مرور سنة على تقديمها بتوقيع الامبراطور شخصياً، حيث شنت القوات الروسية عشرات الهجمات على شعب القبرطاي في الاعوام ١٨٤٦ و ١٨٤٧ نتج عنها تدمير كامل للعديد من القرى وقتل المئات من المقاتلين الشراكسة والسيطرة على مقاطعة القبرطاي بأكملها.

ثالث عشر: سياسة محاربة انتشار الدين الاسلامي واللجوء لسياسة التبشير للديانة المسيحية داخل المجتمعات الشركسية المسلمة في الوطن الام:

استخدم الروس شتى الوسائل للضغط على الشراكسة المسلمين عامة، وشيوخهم من رجال الدين خاصة، بقصد التقليل من تأثيرهم على عامة الشعب أو بهدف تقييد حرية ممارسة الشعائر الدينية والضغط عليهم للهجرة أو إعادة تنصيرهم وكانت اكثر الوسائل استخداماً لها هي:

١- سحب الصلاحيات القضائية والادارية من رجال الدين المسلمين

في المناطق التي احتلتها روسيا، وبعد تطبيق القوانين والانظمة الروسية، وجد رجال الدين انفسهم بعيدين تماماً عن الشؤون المدنية، واصبحت جميع الصلاحيات القضائية والادارية تحت سيطرة السلطات القيصرية، وقد أنقص نظام الحكم الجديد كثيراً من صلاحيات رجال الدين المسلمين، وانخفض دخلهم المادي كثيراً، وضافت دائرة تأثيرهم على الأمور المدنية، وأدرك رجال الدين أن السلطات القيصرية تحاول عزلهم عن السكان، فخافوا على مصيرهم ومصير الدين الإسلامي، فانقلب القسم الأكبر منهم ضد سلطات القيصرية، وبدأوا بأعمال نشطة ضد النظام القيصري الاستعماري وبدعم من الأمراء والنبلاء المعادين للروس.

٢- وضع قيود على الشراكسة الراغبين في اداء فريضة الحج والعمره:

وضعت السلطات القيصرية على الحجاج القفقاسيين المتوجهين إلى (مكة المكرمة) و (المدينة المنورة) قيوداً فاشترطت عليهم حمل جوازات سفر روسية، ووضع هذا القيد كان لأكثر من سبب (وحجة).

الاولى منها هو منع الذهاب إلى الأماكن الإسلامية المقدسة لأن الحجاج يصبحون أكثر تعصباً ضد المسيحية وضد روسيا عند عودتهم إلى بلادهم.

والثانية: هو الخوف من نقل الحجاج الامراض والابوة إلى القفقاس.

وأما الثالثة: هو الخوف من تزايد اعداد الشراكسة المتعاونين مع الاتراك.

وفي مراحل لاحقة، وبعد ان شعرت السلطات الروسية بخطأ اساليب التعامل مع رجال الدين بادرت إلى تعيين العميد "ديلبوتسو" مديراً لمنطقتي (قبرطاي الكبرى) و (قبرطاي الصغرى) وتمت إقامة محكمة دينية روحية في عام ١٨٠٧ وأدى إنشاء المحكمة الروحية إلى زيادة السيطرة السياسية للإقطاعيين ورجال الدين بشكل خاص، كما زاد تأثير رجال الدين المسلمين على الحياة الاجتماعية والسياسية لمجتمع القبرطاي الاقطاعي، وقد استعمل رجال الدين لدى القبرطاي شعار (مساواة كافة المسلمين) فزادت سلطتهم وتأثيرهم بين جماهير الفلاحين والذين كانوا يأملون تطبيق الشريعة ليتحرروا من سيطرة الاقطاع الشركسي والاستعمار الروسي معاً.

رابع عشر: سياسة التهديد بإعادة تنصير الشركاسة وتعميدهم

وفي السنوات الخمس الأخيرة من (حرب الإبادة والدمار) كشفت السلطات الروسية عن نواياها الحقيقية باستغلال (العقيدة الدينية) في الضغط على الشركاسة لإلقاء السلاح والاستسلام، ويتضح ذلك من تهديد القيصر (نقولا الأول) للشركاسة بقوله: امامكم خيار واحد من ثلاثة:

- الهجرة إلى الدولة العثمانية أو التنصّر واعتناق المسيحية أو الموت والهلاك (٢٧).

خامس عشر: سياسة التبشير للديانة المسيحية:

تبنت السلطات الروسية أكثر من سياسة وأسلوب لإعادة تنصير الشركاسة نذكر منها:

١- سياسة اخذ رهائن من أبناء الأمراء ومن أبناء الارستقراطيين والاقطاعيين الشركاسة القبرطاي عند توقيع كل اتفاقية تعاون بين الروس والشركاسة عامة والقبرطاي خاصة، بحجة ضمان حسن تنفيذ تلك الاتفاقيات، وكانت السياسة المتبعة في مثل هذه الحالات هو (تعميد) الرهائن واعطاؤهم أسماء مسيحية بمجرد وصولهم إلى موسكو.

٢- منح امتيازات معنوية ومادية للشركاسة الذين يهربون إلى المناطق الروسية بقصد (التنصير) مثل اعطائهم رتباً والقباً مدنية وسياسية وتعيينهم في مراكز ذات مدخول مادي كبير، وكذلك إلحاقهم بالجيش، ومنحهم رتباً عسكرية عالية، حيث إن العديد منهم وصلوا إلى رتبة لواء.

٣- سياسة ادخال أطفال الشركاسة الاسرى بالمدارس العسكرية بعد (تعميدهم) ليتخرجوا منها ضباطاً (٢٩).

كما شجعت الحكومة القيصرية بعض الامراء المعارضين والتابعين لهم للهروب إلى القلاع التي انشأت على نهر (الترك) و (نهر) وفي منطقة بزدوك واعتناق المسيحية وكان اولهم احد امراء القبرطاي الصغرى واسمها (كورغوقة كوغولجين) الذي هرب إلى مزدوك واعلن اعتناقه للمسيحية مع جميع من هم تحت سيطرته، وانتقلوا إلى الطرف الآخر من نهر (تيرك)، وانتبه امراء القبرطاي إلى خطورة وجود هذه القلاع، وطالبوا بهدمه، حتى انهم ارسلوا لهذا الغرض وفداً خاصاً إلى سان بيتربورغ في عام ١٧٦٤ لهدم هذه الحصون.

واستغل كل من الاتراك وخانات القرم قلق شعب القبرطاي من خطورة وجود حصن (مزدوك) وحاولوا تأجيج روح العداوة ضد روسيا، بينما كانت روسيا تضاعف من قواتها هناك.

وفي عام ١٧٦٤ تأسست في مزدوك مدرسة تبشيرية لتدريس أطفال القوقازيين تعاليم المسيحية، إلا ان القائمين عليها لم يهتموا بإدارتها كما يجب، وكان ذلك سبباً رئيسياً في تأخر انتشار الديانة المسيحية في تلك المناطق وكان من أسباب فشل هذه المدرسة هو عدم اتفاق الرهبان، إذ كانوا يتنافسون فيما بينهم، وبذلك يعرقلون تقدم المدرسة ونجاحها حتى بلغ القيصر ما كان من امرهم، فاستاء واصر ارادته بلزوم الاهتمام بالامر واعادة تنظيم هذه المدرسة.

إلا أن السياسة التبشيرية لم تتقدم كثيراً في بلاد القبرطاي، ومنعت المبشرين الروس من البقاء والاقامة في البلاد القوقازية لمتابعة اعمالهم، حتى اضطروا إلى العدول عن فكرتهم كلياً، وبحلول عام ١٧٦٩ أصبحت حالة المبشرين على أسوأ ما يكون، بفضل التدابير المتخذة ضدهم من قبل القوقازيين عامة والشركاسة خاصة. (٢٨)

السادس عشر: سياسة استخدام كبار الكتاب لنشر الأكاذيب:

لم تترك السلطات الروسية (شاردة ولا واردة) يمكن أن يكون في استخدامها اساءة للشراكسة أو التأثير على معنوياتهم ونفسياتهم، حيث لجأوا في نشر قصص وبيانات ومعلومات غير صحيحة عن الشراكسة ووصفتهم بالوحشية والبربرية وانهم غير حضاريين .

ومن الوسائل التي استخدمتها السلطات الروسية ضمن سياستها الرامية إلى الضغط على الشراكسة، والتشكيك بقيادتهم وزعمائهم، أو التأثير على نفسياتهم ومعنوياتهم من خلال استقطاب كبار الكتاب والشعراء والمؤرخين من روس وأجانب في نشر قصص تسيء للأمة الشركسية وتضلل الرأي العام العالمي نذكر منهم:

(بيرجيه) المؤرخ الرسمي للهجرات الشركسية (وتولستوي) و (بوشكين)، بالإضافة إلى الكتاب الذين كان يعج بهم البلاط الروسي من الكتاب والمرترقة والمستشارين، الذين كانوا يعدون بالعشرات من الكتاب الأجانب المرتزقة.

وكان من الأهداف المباشرة وغير المباشرة من استخدام هؤلاء الكتاب هو إظهار القوقازيين (الجليلين) عامة والشراكسة منهم خاصة، بأنهم: متوحشين وفقراء وكسولين وليس لهم اقتصاد متطور أو حضارة متطورة، وانهم يعيشون على السلب والنهب. وكانت هذه الادعاءات تُصدّر للعالم لتمجيد الدور الروسي المزعوم في جلب الحضارة للقوقازيين عامة والشراكسة خاصة ولتبرير إبادة الاستعمار الروسي للشعوب القوقازية عامة والشراكسة خاصة.

وربما كان خير من عبر عن الدور الخطير الذي قام به هؤلاء الكتاب هو (لنين) بعد قيام الثورة البلشفية في قوله: "اراد الشركس ان يبرموا صلحا مع القيصرية في أوقات كثيرة، ولكن تغنهم وجبروتهم فوّت الكثير من الفرص".

وفيما يلي نماذج مما كتبه بعض الكتاب (المأجورين) وبعض كبار الكتاب (المخدوعين) وعلى رأسهم (تولستوي) الذي كتب في بداية حياته قصة عنوانها (اسير القفقاس) وهي قصة تدور أحداثها في القفقاس، وقد أطلق عليها الكاتب اسما سياسيا (اسير القفقاس) وتدور أحداثها حول ضابط روسي اسمه (جيلين) كان له ام عجوز، تتمنى ان تزوجه قبل ان تموت وترسل الأم العجوز رسالة لابنها تقول فيها "وجدت لك عروسا عاقلة، حلوة، ولها ضيعة ايضا، وقد تعجبك، وتزوجها لتبقى عندنا نهائيا، ويقرر "جيلين" بعد هذه الرسالة ان يطلب اجازة ليذهب لأمه إلا أن جيلين يقع في كمين بعد ان يتعد عن وحدته (ويحدث جيلين نفسه) قائلا: أنا اعرفكم ايها الشياطين اذا امسكتكم احدا حيا، حبستموه في حفرة، وهرأتم جلده بالسوط، فلن استسلم حيا.

ومن هذا المقطع يبدأ اللاوعي الباطن المشتق من ايديولوجيا الروس الابادي، يبدأ هذا (اللاوعي) برسم صورة للعدو (الجليلي) ويقصد به (القوقازيون عامة والشراكسة خاصة).

"وفي الأسر يتعرف جيلين على الفتاة (دينا) ذات الثانية عشر ربيعا وهنا نرى النظرة للأخير الذي لا تنظر إليهم كبشر وانما كشيء خارج حدود الحياة البشرية وهذا أمر ضروري من أجل قتله أو طرده وتصفيته.

يطلب (الجليلي) منه ان يرسل لأهله ليدفعوا ثلاثة الاف روبل كفدية له، لكنه يرفض ويقرر ان يهاجمهم وهنا يصور الكاتب (تولستوي) الضابط الروسي شجاعا حتى وهو في الاسر، فيقول (جيلين):

"قل لهذا الكلب، لن أدفع روبلا واحدا ولن أكتب لأهلي، أنا لم أخف، ولن أخاف منكم يا كلاب".

هنا يتراجع الجبلي ويقبل بألف روبل فدية، إلا أن جيلين يرفض، ويلاحظ من هذا الرفض بأن الكاتب "تولستوي" حاول أن يرسم صورة للضابط الروسي وهو واثق فقد رأينا كيف شتمهم وهو على بينة من أنه سيهرب، ويبدأ بتمضية وقته بصنع أشياء تبهرهم، فيصنع (دمية) فتركض ابنة (دينا) وتحطفها وتهرب بها (ودينا) هي الطفلة التي لم تشوه بعد بثقافة أهلها المتوحشين فقط لأنها طفلة.

ويتطلع في اليوم التالي، يرى (دينا) تخرج على عتبة بيتها عند الفجر تحمل (الدمية)، وقد زينتها بالخرق الحمراء، وتهدهدها كالطفلة، وترغم لها بلغتهم الشركسية، خرجت أمها العجوز، وشرعت تقرأها واختطفت الدمية منها وحطمتها وارسلت (دينا) لا شغالها عن الدمية.

لكن الضابط الروسي المتحضر لا يئأس فيحاول مرة أخرى نشر الحضارة بين هؤلاء المتوحشين، لذلك يصنع (دمية) أخرى ويعطيها (لدينا) فتبدأ الصغيرة بالتعاطف معه، فتحضر له الحليب مرة بعد مرة وتكتشف أنه لطيف ثم جلبت له لحماً، ويبدأ الروسي بإظهار مهاراته الحضارية، ويصبح محور حياة القرية والجوار، وعندما مرض أحد الجبلين الشراكسة استدعوه ليشفيه، فجاء بالماء والرمل وخلطهما وقرأ بعض الكلمات على الماء واعطاه ليشربه المريض، وشفى المريض لحسن حظه، حاول الهرب إلا أنه ألقى القبض عليه ووضعوه في حفرة وحضرت (دينا) بعد حين لتخبره أن أهلها سيقتلونه لأنه روسي وتساعد على الخروج من الحفرة باعطائه عصاً طويلاً ليستعملها في الخروج. وبعد ذلك يطلب من (دينا) أن تعيدها إلى مكانها كي لا يضربوها، فحتى في أصعب الظروف لا ينسى إنسانيته وتساعد (دينا) بفك القيد، وقبل أن يغادرها لا ينسى أن يذكرها بفضله عليها بقوله "من يصنع لك الدمى بعدي، ومسح على رأسها وهرب" (٣٧).

ودارت الأيام ووقع فعلاً (تولستوي) نفسه أسيراً في قبضة حفيد (الشيخ منصور) بعد أن ابتعد (تولستوي) عن أسوار الحصن الذي كان يحتمي به مع الجيش الروسي، حتى أحس بأن حبلاً يطوق رقبته، واقتيد أسيراً وطلب المقاتل الذي أسره منه عشرين قطعة ذهبية مكافأة له لكون أسيره من رتبة ضابط، ولأنه أتى بأسيره سالماً حياً دون أن يصبه بجراح، ثم طلب قطع يد الأسير اليمنى حسب مذهب (المريدية) وكان على الزعيم (سعدو) أن لا يرد طلب (الأسر) وهو حفيد الشيخ منصور قائد القوات اتحاد القوقازيين آنذاك، ولكن الزعيم (سعدو) في هذه المرة لم يطاوعه قلبه في تطبيق العقوبة المتبعة على الضابط المذكور، فأمر بإخلاء سبيله سالماً فنجا (تولستوي) من العقاب لأنه في مقتبل العمر أولاً، ولأنه كاتب وليس مقاتلاً ثانياً، دون أن يعرف (حفيد الشيخ منصور) بأنه الكاتب تولستوي لأنه لم يكن بعد أصبح كاتباً مشهوراً.

فهذا التصرف الإنساني الموضوعي من (حفيد) الشيخ منصور هو أكبر جواب على ما جاء في قصة تولستوي (أسير القفقاس) بأن القوقازيين (الجبلين) متوحشون وأنهم غير متحضرين، وأنهم لا يستحقون العيش في مناطق جميلة مثل منطقة القفقاس.

أما النموذج الثاني من نماذج استغلال الكتاب والشعراء العظام هو ما قاله الشاعر (بوشكين) الذي تغنى بأعمال وأفعال الجنرال (يرمولوف) الذي كان يلقيه القوقازيون بالشيطان (المسكوبي) والقاتل: "إن صدق اسمي الرهيب يجب أن يكون كفيلاً بحفظ حدود بلادنا الشاسعة وهو الذي اعتبر سيفه هو القانون الذي يجب أن يؤمن به القوقازيون، وأن الحلم واللين في نظر الآسيويين / القوقازيين معناه الضعف واعتبر نفسه إنساناً خالياً من كل ضعف إنساني وأنه قاس لا يعرف الرحمة).

كما قال الشاعر (بوشكين) الصديق الحميم للجنرال (يرمولوف) في إحدى قصائده:

"أحن رأسك المثلج بالثلج يا قوقاز خضوعاً.. لقد انتهى كل شيء... لقد جاء يرمولوف" (٣٨).

إلا أن بوشكين في مرحلة لاحقة تراجع عن موقفه المؤيد للحرب القوقازية نتيجة تمادي السلطات الروسية وارتكابها الأعمال البربرية والوحشية، ووصفه بأنها كانت مثالا للقوة والغلبة وارتكاب الأعمال الوحشية.

إن الباحث في مواقف كبار الكتاب والشعراء من حروب الإبادة والدمار التي شنها القيصرية الروس على مدى أكثر من (ثلاثمائة عام، منها مائة وخمسون عاما كانت حروباً متصلة) .. يجد بأن السلطات الروسية استطاعت تضليلهم وخداعهم، إلا أن معظمهم تنبهوا لهذا الخداع، وقاموا بفضح وحشيتهم وبربريتهم.

وأما النموذج الثالث في سياق توظيف كتابات كبار المؤرخين، هو ما كتبه (بيرجيه) المؤرخ الروسي الرسمي لتاريخ هجرات (طرد) القوقازيين.. قاتلاً بأن طرد (الجبليين) كان ناتجاً عن (الزعزعة) الدائمة، وأنه لم يكن بالإمكان تهدئتهم، فما كان أمام السلطات الروسية أي خيار واحد من ثلاث خيارات؛ إما قتلهم عن آخرهم، أو تهجيرهم من الجبال إلى الأماكن المنبسطة، أو تهجيرهم إلى تركيا، لأنهم لا يستحقون العيش في مناطق القفقاس الجميلة، الحصينة، الغنية بمصادرها (٣٩).

نستنتج مما تقدم مدى استغلال السلطات الروسية لكل ما يمكن أن يسيء للشراكسة ومدى التأثير على كبار الكتاب والشعراء، والمؤرخين وحملهم على تزييف الحقائق باتهام القوقازيين عامة والشراكسة خاصة بأنهم شعب لا يعرفون القانون والنظام، وأنهم بدائيون ومتوحشون وغير متحضرين، وأنهم شعوب كسالى لا يحبون العمل.. وأن لا عمل لهم إلا السلب والنهب والقتل.. الخ وأن كتابا عديدين وعلى رأسهم (تولستوي وبوشكين) تراجعوا وقالوا الحقائق ونقضوا كل ما كتبوا سابقا عن القوقازيين عامة والشراكسة خاصة.

فتولستوي مثلاً نجده في العديد من مؤلفاته اللاحقة ينتقد وحشية الروس في حربهم ضد الشعوب القفقاسية الروسية ويصفها بأنها (جرائم ضد الإنسانية) (٤٠).

وكذلك فإن كتابا معاصرين عارضوا ما كتبه كتاب وشعراء روسيا القيصرية في كتاباتهم حول الشعوب القفقاسية وفي وصفهم بأنهم جبليون. ومتوحشون.. وبدائيون.. وغير حضاريين.. الخ وعلى رأس هؤلاء الكاتب (يا. أبراموف) والكتاب (د. م. محمودوف) و (ح. م. حاشايف) و (ت. ح. قوميتوف) وغيرهم حيث أكدوا بأن شعوب جبال شمال القفقاس كانوا يتميزون بحبهم للعمل، وكان اهتمامهم الرئيسي ينصب على الزراعة وتربية الحيوانات والصناعات اليدوية (٤١).

وربما كان خير من كتب عن ذلك هو (أبراموف) في كتابه (القوقازيون الشراكسة) نقتبس منه الفقرة التالية: "فإننا يجب أن نعترف بأن الأمة الأقل حضارة، والأقل حبا للعمل هي الأمة الروسية بالذات، لقد تحدثت عن تملك أملاك شاسعة في القفقاس الغربية للروس، تلك الأملاك التي كانت مغطاة ببساتين وكروم ومراع وحقول أنشأها السكان الجبليون، مثل هذه الظاهرة لاحظتها أيضا في منطقة (التيرك) ومن هذه السنوات الثلاث التي قضيتها في هذه المنطقة، وقسما منها في مدينة نالتشيك، وفي مركز سكن روسي آخر أيضا، وكما قضيت بعض الوقت في قرية شركسية في وسط قبرطاي الكبرى، وحدث أن رأيت بنفسي كيف ان الروس ودون أي خجل كانوا يتلفون غلال المزروعات للقبرطاي التي بذلوا من أجلها جهد عدة سنوات. وبالقرب من نالتشيك ذاتها يوجد ما يسمى ببستان (أتاجوق) حيث بقيت منه أشلاء بائسة، ولقد كان هذا البستان من تلك البساتين الكبيرة التي لا يمكن أن نجد لها مثيلا، إلا في القفقاس. لقد كان هذا البستان عبارة عن غابة وكان يتألف من جزأين. وكان الجزء الأول يتألف من مسطبة نصف دائرية وتنحدر انحدارا شديدا نحو الوادي والجزء الثاني هو الوادي ذاته الذي يجري فيه نهر نالتشك. وكانت المسطبة مقسومة بشكل فني إلى عدة مساطب صغيرة وكل واحدة منها بدت على شكل نصف دائرة، وارتفعت فوق الأخرى على شكل مساطب أيضا.

وبعد ان استولت عليها السلطات الروسية حل بالبستان منظر مختلف تماما، فالقناة مهمة والكروم لا تخدم، وأغصان كروم العنب التي اصبحت برية لعدم رعايتها تقطع لإطعام القطعان مثله مثل العشب الذي نمت في المساطب، والأشجار المثمرة الأكبر عمرا، قُطعت للوقود، وأما ممرات البساتين المغطاة من جانبيها بالزيزفون والاكاسيا فهي مضروبة دون رحمة، وأنا شخصا كنت شاهد عيان على اتلاف بقايا هذه الممرات المغطاة من جانبيها، وحين سألت احد هؤلاء الروس الذين يُدعون بالمتقنين، الذي قطع كثيرا من اشجار الزيزفون والاكاسيا كيلا يشتري حطباً قائلاً له: ألا تشعر بالسوء من هذا العمل الذي تقوم به؟ أجاب: (يجب على هذه الاشجار ألا تنمو هنا).

وقد قطعت اكثر الاشجار الكبيرة التي كانت تدخل في تركيبة الدائرة العجيبة في البستان والبقية فقدت اغصانها واصبحت نصف ذابلة، وفي الوقت الحالي فإن "بستان اتاجوق" أصبح عبارة عن اراضي واسعة مهمة، حيث نمت فيها شجيرات الكرز والاشجار الشائكة والاعشاب الضارة، وبقي في بعض الاماكن اشجار كبيرة، تذكر بالحضارة الشركسية التي كانت سائدة هنا.. ولا شك ان مستقبل آثار هذه الحضارة القديمة بات مزعزعا.

واستطرد أبراموف قائلاً: "وعلى مسافة سبعة او ثمانية فراسخ من بلدة (نالتشيك) إلى اعالي النهر المسمى بالاسم نفسه كانت توجد قرية شركسية، وكان لها بستان رائع. وكانت مساحته تفوق مساحة "بستان اتاجوق" بعدة اضعاف، وهذا البستان قد تعرض للسرقه من قبل الروس بالطريقة نفسها. وهو الآن في حالة أفطع من حالة "بستان اتاجوق".

كما يستطرد (ابراموف) قائلاً:

"وهكذا هي الحضارة الروسية، ويمكن رؤية نماذج هذه الحضارة في منطقة (التيرك) ويجب على الاشخاص الذين يتكلمون عن عدم وجود حضارة (للجبلين) وعدم كفاية حب العمل لديهم أن يركزوا انتباههم على هذه الحقائق، وعلى حقائق أخرى غيرها، تبين مستوى الحضارة (لدى) القفقاسيين الذين وصفوهم بالمتوحشين، ومن هذه الحقائق هي:

تربية الماشية عند (الجبلين) بشكل عام، وعند (القره شاي) بشكل خاص، والذين تمكنوا من تربية قطعان كبيرة من الابقار في المرتفعات التي لا يمكن الوصول إليها في سفوح جبل البروز، وفي ري أراضي القوموق وعند الشيشان جزئياً، وخاصة فيما وراء القوقاز، هذا الري الذي لا يمكن للروس ان ينفذوه بالرغم من استعمالهم التكنولوجيا العلمي ورأس المال (الكبير)، ثم الانتشار الواسع للصناعات الحرفية بين الجبلين، ومنتجات الصناعات الحرفية المحلية البديعة من الصوف والحريز والمعادن.

وفي نهاية حديثه اكد (ابراموف) على حقيقة يصر على ذكرها إحقاقاً للحق، وهي أن القفقاسي/ الشركسي، يصنع لنفسه أرضاً على الصخور العارية بجهد وبالدم... ويرتبط بأرضه بلهفة وشوق.. وعندما يضطر لترك أرضه ويرحل إلى (تركيا) حيث الالام والعذاب، فإن رحيله لا يكون بسبب كسله كما كان يدعي الكتاب السابقون وعلى رأسهم المؤرخ (بيرجيه) الروسي^(٤٢).

سابع عشر: سياسة استخدام الجواسيس في تحقيق انتصارات عسكرية وسياسية:

كان الروس قد أرسلوا احد (التراجمة) إلى بلاد الكرج سنة ١٥٨٧ بغية التجسس واستكشاف أحوال تلك البلاد، وبعد ان مكث هذا الجاسوس عدة سنين في تلك البلاد، رجع إلى روسيا سنة ١٥٩٤ ومعه سفير ملك الكرج اسكندر، وسفير آخر لأحد أمراء الجركس، فطلب هذان السفيران فور وصولهما أن يقبلهما القيصر كأتباع له.

وفي عام ١٧٧٦ بدأت الاعمال التجسسية العسكرية، حيث قام الجاسوس الروسي جولدن شتادت Could Stadt اثناء سياحته في ولايات ساحل البحر الاسود برسم خارطة سميت باسمه.. وكانت هذه الخارطة هي المرشدة لرسم خطط السلطات الروسية في قتالها مع الشركاسة، حيث رسم

في هذه الخارطة معالم الطريق الجنوبي بين (انايا وتسمز)، وهي الطريق المعروفة باسم "الطريق الجنوبي" - نسبة إلى تجار جنوا، فقد سلكت الجيوش الروسية هذا الطريق التي لا بد للمرتحل عليها، من أن يمر عبر الممر المعروف باسم "ممر الموت" - وهو ممر صخري ضيق، يشرف على هاوية سحيقة.

هذا بالإضافة إلى استخدام العشرات بل المئات من الجواسيس من مختلف القوميات الروسية منها والقوقازية ومنهم قلة قليلة من الخونة من أصل شركسي، وهم الذين طلب الأمير (محمد ميرزا انزور) بقتل (١٦) عميلاً متعاوناً مع السلطات الروسية عام ١٨٤٣.

مراجع ومصادر الفصل السادس

1- Gean Carol – Les Deux Roules du Caucase, Paris, 1899 .

- ٢- قاسوم ، علي حسن، وحسن علي، مصدر سابق، ص: ٣.
- ٣- مجلة الاخاء الأردنية الشركسية، مصدر سابق، العددان ٨٩ - ٩٠ ص: ٤٢.
- ٤- المفتي، شوكت، مصدر سابق، ص: ٦٩-٧٠.
- ٥- مامخيغ، رايا ، مصدر سابق، ص٥٩-٦٠.
- ٦- ارسلان، مخلص، مصدر سابق، ص: ٣٢-٣٣.
- ٧- المفتي، شوكت، مصدر سابق، ص٢٠٥.
- ٨- قاسوم، علي حسن، مصدر سابق، ص: ١٥-١٦.
- ٩- مخلص، ارسلان، مصدر سابق، ص: ٦٩.
- ١٠- حراتوقة، سمير شمس الدين - النسور، حب وحرب في القفقاس، نشر في عمان عام ٢٠٠٠م ص: ٢٤.
- ١١- المفتي، شوكت، مصدر سابق، ص٣٢-٣٣.
- ١٢- حراتوقة، سمير، مصدر سابق، ص٣٦.
- ١٣- المفتي، شوكت، مصدر سابق، ص: ٩٢-٩٣.
- ١٤- قاسوم، علي حسن، مصدر سابق، ص: ١٥.
- ١٥- المصدر نفسه، ص: ٣٩.
- ١٦- المصدر نفسه، ص(٢٤-٤٠).
- ١٧- شفيق، اسماعيل، مصدر سابق، ص: ٤٥.
- ١٨- قاسوم، علي حسن، مصدر سابق، ص: ٤٤.
- ١٩- فون، فيل، مصدر سابق.
- ٢٠- الوثائق الروسية - اباداة الشراكسة ص(٤٠).
- ٢١- حراتوقة، سمير - مصدر سابق، ص: ٩.
- ٢٢- الوثائق الروسية، اباداة الشراكسة، ص: ٣٧.
- ٢٣- المصدر نفسه، ص: ١٦.

- ٢٤- المصدر نفسه ، ص: ٣٦.
- ٢٥- المصدر نفسه ، ص ٣٨.
- ٢٦- المصدر نفسه ، ص١٧.
- ٢٧- برزج، نهاد، تهجير الشركاسة، ص: ٦٧ و ص ١٠٣.
- ٢٨- المفتي، شوكت، مصدر سابق، ص: ٥٠-٥١.
- ٢٩- الوثائق الروسية، اباداة الشركاسة ص: ١٨-١٩.
- ٣٠- حراتوقة، سمير، مصدر سابق، ص: ٣٧.
- ٣١- فون، فيل، مصدر سابق، ص: ٧١-٧٦.
- ٣٢- نقله نهاد برزج عن كتاب جمهورية قبردينو بلقاريا - ونشره باللغة التركية في كتابه (تهجير الشركاسة) وترجمه عصام حنك المنشور في عمان عام ١٩٨٧.
- ٣٣- الوثائق الروسية، اباداة الشركاسة ص: ٢٥.
- ٣٤- فون، فيل، مصدر سابق، ص: ٥٦ + ٦٦.
- ٣٥- ادمون سبنسر Edomound Spencer ، رحلات إلى بلاد شركسيا 1838 - Londo.
- ٣٦- بادلي، جون. ف.، احتلال الروس للقفقاس، تعريب صادق عودة، ص: ١٢٩-١٣١.
- ٣٧- مكارثي، جستن، الحروب الابدائية، وتحليل قصة اسير القفقاس للكاتب الروسي (تولستوي) تعريب فريد العربي، وعرضه د. ثائر دورب وهو كاتب وباحث عراقي ونشر عام ٢٠٠٦.
- ٣٨- المفتي، شوكت، مصدر سابق، ص: ٦٨.
- ٣٩- المصدر نفسه ص: ٦٩-٧٠.
- ٤٠- ابراموف، يا ، القوقازيون الشركاسة، ترجمة الدكتور راتب سطاتس والدكتور زهدي سطاتس، من منشورات اللجنة الثقافية لجمعية المقاصد الخيرية الشركسية في دمشق عام ١٩٨٩.
- ٤١- الوثائق الروسية، اباداة الشركاسة ص: ٨.
- ٤٢- ابراموف، يا، مصدر سابق، ص: ٣١-٣٥.
- ٤٣- الوثائق الروسية، اباداة الشركاسة، ص: ٤٤.
- ٤٤- مامخيغ، رايا، مصدر سابق، ص: ٤٤.
- ٤٥- فون، فيل، مصدر سابق، ص٥٥-٥٦.
- ٤٦- مامخيغ، رايا، مصدر سابق، ص٤٨.
- ٤٧- الوثائق الروسية، اباداة الشركاسة، ص: ١٦.
- ٤٨- مخصص، ارسلان، تاريخ حرب القفقاس - مصدر سابق، ص: ٣٠.
- ٤٩- مامخيغ، رايا، مصدر سابق، ص: ٥٢.
- ٥٠- يرمولوف. م، لمحات عن تاريخ القفقاس - ١٨٨٠، ص: ٥٢.
- ٥١- مخصص، ارسلان، مصدر سابق، ص: ٣٧.
- ٥٢- نغموقة، شورا، تاريخ القوقاز، مصدر سابق، ص: ٩٤.

الفصل السابع

التكتيكات العسكرية والأساليب القتالية التي استخدمها المقاتلون الشركاسة في دفاعهم عن أراضي الوطن منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحديث

يقول (جو ناتوق) في كتابه تاريخ القوقاز بأن: "تاريخ (الاديغة) حافل بماضيهم المجيد، من مدنية وحضارة واستعدادهم العظيم لكل ما هو عصري وحديث، ولا يخلو كذلك من مآثرهم (الحربية) وصفاتهم العسكرية) التي تجعلنا نقرر هنا ان هذا الشعب لم يخلق إلا ليكون (أمة حربية) (١).

وظهرت هذه الميزة العسكرية في مجتمعات اجداد (الاديغة) منذ الأدوار الاولى من تاريخهم القديم، ويلاحظ ان حروبهم بققاسيا منذ القرن السابع قبل الميلاد ضد قبائل السكيت وبعد استيلاء (الهون) و (القوط) في القرون الأولى بعد الميلاد على بلاد اجداد الشركاسة أكسبت الأمة الشركسية خبرات عسكرية (دفاعية)، وكذلك فإن الحروب من القرن السادس الميلادي وحتى القرن الرابع عشر الميلادي أكسبت مقاتلي الأمة الشركسية خبرات متميزة في فنون القتال الدفاعية منها والهجومية من خلال حروبهم التي فرضت عليهم من قبل شعوب (الاور) منذ القرن السادس الميلادي، ومن (جيوش دولة الخزر) في القرن العاشر الميلادي، اما الخبرات القتالية التي اكتسبها القادة العسكريون الشركاسة من الحروب الدامية والاعتداءات الهمجية والبربرية التي تعرضت لها الأمة الشركسية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر من جحافل الجيوش المغولية بقيادة (جنكيز خان) وغيره من قادة المغول ودولة الجيش الذهبي بالإضافة للخبرات الهجومية التي اكتسبها القادة العسكريون الشركاسة من الحروب التي شنتها جيوش (التتار) التي سبق أن أحرقت الزرع والضرع في بلاد الشركس فكان لهم فيها النصر وطردتهم من بلاد (الاديغة) نهائياً.

يلاحظ مما تقدم بأن الأمة الشركسية دخلت القرن الرابع عشر الميلادي وهي تتمتع بخبرات قتالية متميزة (الدفاعية منها والهجومية) وتتقن فنون تعبئة الجيوش، وتعرف أساليب إعداد القادة العسكريين والمقاتلين المحترفين، وتجيد وضع مختلف أنواع التكتيك العسكري وفنون القتال المباشر وغير المباشر، وبالتالي فإن الأمة الشركسية على اختلاف قبائلها من (القبرطاي) والبسلني التي تسكن منطقة الترك بالشرق، وقبائل (الاديغة) المؤلفة من (١٢-١٥) قبيلة وتسكن في منطقة ما وراء الكوبان في غرب شمال القفقاس. كانت تتمتع بخبرات قتالية مميزة، بالأخص تفوقها في القتال في الأماكن الوعرة والمناطق الصعبة وفي الممرات الضيقة وفوق سفوح الجبال العالية وبين الغابات والادغال، لذلك فإن جيوش خانات القرم المدعومة (سرا) من الدولة العثمانية لم تتمكن من تحقيق أي نصر يذكر على الشركاسة خلال أكثر من (٦) حروب كبيرة تضمنت عشرات المعارك التي خاضها المقاتلون الشركاسة ضد جيوش دولة القرم خلال القرنين السادس عشر والثامن عشر، وبالتحديد منذ عام ١٥٧٠ من القرن السادس عشر وحتى عام ١٧٢٩ من القرن الثامن عشر الميلادي.

وكذلك فإن المقاتلين الشركاسة استطاعوا مواجهة الجيوش القيصرية في حملتها الأولى التي بدأت بشكل مباشر في عام ١٧٢٢ وهو التاريخ الفعلي لبدء حروب الإبادة الروسية، حيث أمر القيصر إسكندر الأكبر إرسال أول حملة حربية على القفقاس وهي الحملة التي تكونت من جيوش برية تضم جنودا سبق لهم أن حاربوا في السويد، وخيالة من الروس، وأعداداً كبيرة من المقاتلين المرتزقة من القوزاق والتتار والقالموق وبمساعدة الاسطول البحري الذي وصل إلى نقطة الانزال يوم ١٧٢٢/٧/٢٧.

اما الحملة الثانية التي أمر القيصر بشنها على بلاد الشركاسة، وبالتحديد على مدينة (خيو) فكانت بقيادة الامير الشركسي المرتد عن دينه (بيقوفتش شيركاسكي) وهو احد أفراد عائلة (بيقوفتش) التي التحقت بالبلات القيصري في عهد القيصر (ايفان الرهيب) بعد أن تزوج الاميرة الشركسية (ماريا) وأصبحت امباطورة باسم (ماريا أن). وفي هذه المعركة الشرسة، استطاعت القوات المقاتلة الشركسية القضاء على جميع أفراد هذه الحملة وعددهم (٧٠٠٠) جندي روسي ومرتزق بمن فيهم

الامير الشركسي الأصل ولم ينجُ منهم سوى (جنديين اثنين) واعتبر الامير الشركسي الأصل خائناً (لملته) وقوميته، فكان جزاؤه هو (حشو جثته بالقش) وتعليقها على باب المدينة لمدة اسبوع ليكون عبرة لكل من يخون قومه^(٢).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو كيف استطاعت أمة صغيرة العدد مثل الأمة الشركسية لم يكن يتجاوز عددهم أربعة ملايين، الصمود امام امة كبيرة عدد سكانها اكثر من (٥٠) مليوناً لأكثر من (١٥٠) عاماً (وهي الحروب التي بدأت فعلاً عام ١٧٢٢ وانتهت عام ١٨٦٤) تم خلالها تشتيت القوات الروسية القيصريّة المدعومة بقوات مرتزقة من القوزاق والتتار والقالموق وبعض القادة الألمان والأرمن والبولنديين وقلة من الشراكسة الذين (ترووسوا) أي أصبحوا مسيحيين يحملون أسماء روسية.

وكذلك كيف استطاعت هذه الأمة صغيرة العدد وقليلة الامكانات من تحمل الاساليب الوحشية والوسائل غير الانسانية والافعال المحرم استخدامها دولياً، بالإضافة إلى الدسائس والمؤامرات السياسية والتخريب الاقتصادي والفتن الدينية التي استخدمتها سلطات روسيا القيصريّة.

ثم كيف عجزت قواتها وجيوشها التي تناوب على خدمتها خلال سنوات حرب الابداء والدمار اكثر من مليونين اثنين من الجنود النظاميين، بالإضافة إلى مئات الالاف من جنود المرتزقة من القوميات التي كانت مستوطنة في بلاد القفقاس من تحقيق النصر العسكري في قتالهم المباشر وغير المباشر مع المقاتلين الشراكسة، حيث تشير الوثائق الروسية منها والانجليزية والتركية العثمانية بأن سلطات روسيا العسكرية لم تتمكن من تحقيق النصر العسكري إلا بعد أن استخدمت أكثر الأساليب الوحشية والوسائل غير الانسانية، والافعال المحرم استخدامها دولياً إضافة إلى لجوئها للمؤامرات السياسية والتخريب الاقتصادي والدسائس الدينية التي اشرنا إليها في الفصل السابق.

وللإجابة عن مثل هذه التساؤلات كان لا بد من التعرف على بعض الحقائق المتعلقة بصفات القادة العسكريين والمقاتلين الشراكسة نذكر منها الحقائق التالية:

الحقيقة الاولى: التعاون العسكري التام بين قادة وشعوب الأمة الشركسية:

كان من عادة الشعوب الجركسية الثلاثة * انه اذا أراد أحدهم معونة عسكرية، أرسل مجلسه الحربي وفداً عسكرياً إلى زعماء (تحامدات) ذلك الشعب.

والشعب الذي يطلب منه المعونة كان يعقد فور وصول الوفد إليه، اجتماعاً شعبياً عاماً ليقرر ضرورة إرسال المعونة او عدمها، ومقدار ما يمكن إرساله منها، وإذا قرر الشعب إرسال المعونة، هياً جيشاً وارسله تحت قيادة قائد مشهود له، ويسير هذا الجيش حتى يصل إلى موقع معين تجتمع فيه الجيوش التي أرسلتها الشعوب الأخرى. وعند ذلك يعقد قواد الجيوش المتعاونة مع زعمائهم مجلساً حربياً، يتشاورون فيه، ويقررون ما يجب عمله، وأحياناً كانت تعقد اجتماعات عامة، يشترك فيها ممثلو جميع الشعوب الشركسية المشاركة في مجلس الحرب اجتماعاً فوق العادة، بهدف التفاهم على مسألة مهمة تخص جميع بلادهم، وتتناول مصالحها الحيوية مثل ازالة خلاف أو شجار وقع بين شعبين منهم ولا سيما الشجار من النوع الذي يستفحل أمره ويهدد بحدوث حرب اهلية.

وكانت اجتماعات كهذه نادرة، وكل قرار يتخذ فيها كان يعد بمثابة قانون، وعلى جميع الجركس ان يعملوا بموجبه ويراعوه حق المراعاة، سواء كانوا من الشراكسة المشتبكين في الحرب مع الروس مباشرة او غير المشتبكين معهم.

* يقصد بالشعوب الشركسية الثلاثة هي شعوب الأديغة والابخز والابازة (الابازة).

الحقيقة الثانية: انتخاب القيادات العسكرية الميدانية انتخاباً مباشراً من قبل ممثلي الشعوب الشركسية



تشاور قادة المجلس الحربي الشركسي
بعد انتخابهم من قبل المجلس الشعبي القومي

تشير بعض الوثائق بأن الشراكسة كانوا ينتخبون القادة العسكريين من الأشخاص الذين يتميزون بصفات القيادة الميدانية والقدرة على سرعة خطة معينة أو مرسومة يتبعونها، كما أنهم ما كانوا يتقيدون بقواعد خاصة معينة، بل كانوا يقتدون بقائدهم الذي كان يعتمد على خبرته وسرعة خاطره ويتمشى حسب مقتضيات الحالة والظروف المحيطة به. وكان هؤلاء القواد على جانب عظيم من المقدرة والشجاعة دون أن يعرفوا للحيلة أو الحذر والاحتراس معنى (٣).

كما تشير الوثائق الروسية بأن كل مقاطعة شركسية كانت تنتخب نوابا عنها لتمثيلهم في الاجتماعات العامة، وكان يتم اختيار القادة العسكريين من هؤلاء النواب للقيام بأعمال حربية، وفي الأحوال الطارئة كان

النواب ينتخبون قائدا عاما تعطي له صلاحيات واسعة ضمن منطقته القتالية. كما كان يتم فيها اختيار قائد عسكري لكل منطقة، ويلحق مع كل قائد عسكري منهم وحدة عسكرية ثابتة تتكون من حوالي (١٠٠) فارس، كما كان يتم تقديم أعداد أخرى من القوات لدعم هؤلاء القادة حسب قرار القائد العام، كما كان يوجد لدى بعض القادة الشراكسة قوة دائمة تصل أحيانا إلى عدة آلاف، فمثلا كان لدى الأمير الشركسي (أشاغواغوه بشيقوي) والمعروف بانتصاراته على القوات الروسية في شركسيا، قوة ثابتة مؤلفة من (٦٠٠٠) فارس وفي أوقات القتال الفعلي كانت هذه القوى تصل إلى (١٢٠٠٠) مقاتل شركسي.

الحقيقة الثالثة: ظهر من بين شراكسة الوطن الأم قادة عسكريون عظام، قادوا معارك عديدة وعلى مدى سنين حرب الإبادة والدمار الروسية.



جلسة تشاور بين ثلاثة من قادة الشراكسة
قبل تنفيذ إحدى الهجمات على الجيش الروسي الغزاة

ومن أبرز القادة العسكريين الذي اشتهروا بحنكتهم وبطولاتهم خلال حروب الإبادة والدمار هم:

"أشاغواغوه بشيقوي، الحاج حوزبيك، سلطان كورغوم، غيري، حاج محمد، حاود منصور، غيري شاميز، شيروخ دوغوظ، دزادزو محمد، دزادزو علي، دزادزو ناوروز، بشه ماف، حاتوقوه سيلمان، حاتوقوه كالابات، شارات حاميز، غيرا ندوقه حاج برزج، حاج دوقوم برزج، ينال أصلان غيري، إيدار نوغاي، أرداز زيبش.

وكان من أكثرهم شهرة "أشاغواغوه بشيقوي"، حيث كان من أعظم القادة العسكريين في بلاد (الأديغة) وهزم قوات الجنرال "ويليا مينوف" عدة مرات، وكان دائما محط أنظار الشراكسة في الاجتماعات والمؤتمرات الشعبية، لأنه بجانب مهارته الحربية كان متحدثا كما كانوا يعتبرونه انه ولد ليقود الشعب، وفي منتصف شهر أيار من عام ١٨٣٨ سقط (أشاغواغوه بشيقوي) شهيدا في ساحة الشرف ونظم الشعب أغاني رثاء كثيرة لإحياء لذكراه.

ومن الشخصيات القيادية الكبيرة الشركسية أيضا "حاج حوزبيك" والذي كان يلقب (بأسد شركسيا)، وكان قائدا بارعا وكانت هجمات فرسانه في أعماق مؤخرة العدو لا يقل عن مهارة وبراعة وشجاعة من هجمات "حاج مراد" على جبهة الداغستان والشيشان، إلا أن المجد أحاط به بشكل خاص بعد معركة عنيفة جرت في عام ١٨٣٤ استطاع فيها أن يهزم بقوة صغيرة لم يتجاوز عددها عن (٧٠٠) فارس شركسي قوة روسية مؤلفة من (١٢٠٠) جندي، وكان عمره عندئذ (٦٠) عاما. (٤).

وكذلك فإن الزعيم (ارسلان يوقه) كان من أبرز قادة الأبراخ الذين أوقعوا خسائر فادحة في صفوف قوات روسيا القيصرية وهو الذي بعد استشهاده في إحدى المعارك أخرج الجنرال الروسي (زاس) جثته من القبر وشوها وقطعها إربا انتقاما منه.

وكان أصغر قائد لمع اسمه وأصبح يشار إليه بالبنان وهو أمير (البطة - دوغ) الفتى (بشي قوي) الذي لم يبلغ الخامسة عشر من عمره، وقد توغل هذا الفتى بين صفوف الاعداء وأسقط قائدهم الجنرال (زاس) عن ظهر حصانه الذي أخذه غنيمة لنفسه. علما بأن هذا القائد (كما سبق ذكره) كان من أكثر قادة الروس العسكريين وحشية وهو الذي كان يلقب بالجنرال (شحه غوانة) ومعناه (ذو الرأس المنقوب) (٥).

الحقيقة الرابعة: تفوق المقاتل الشركسي وتميزه بالشجاعة والرجولة:

يؤكد المؤرخون والقادة العسكريون الروس منهم والأجانب بأن الصفات الشخصية مثل (الشجاعة) التي تميز بها القادة والمقاتلون وعامة الشعب في مجتمعات الأمة الشركسية عامة، وخلال فترة حرب الإبادة خاصة، كانت من الأسباب المباشرة لقدرتهم للصمود امام وحشية قوات روسيا القيصرية ومواجهة المؤامرات السياسية والتخريب الاقتصادي والدسائس الدنيئة التي استخدمتها سلطات روسيا القيصرية لإبادة الأمة الشركسية وتحقيق النصر عليها.

يقول أحد المؤرخين بأن (الأديغة) "لم يكن يمتازون بمقدرتهم الحربية فحسب، بل كانوا أيضا يفاخرون دوما ويتباهون بشجاعتهم ويزهون بأسلحتهم ورجولتهم إلى درجة لا حد لها، وكان كل من أظهر في الحرب جبنا أو خوفا أو فر من ساحة المعركة خشية الموت، نصيبه الاحتقار والازدراء، فكانوا يلبسونه قبة قدرة ويركبونه جوادا أجربا ويعرضونه أمام الجماهير وهم يلاحقونه بالتصفيق استهزاء والتشهير به، ثم تفرض عليه غرامة بقيمة ثورين على الأقل".

واما الشجعان منهم فكانوا يحتلون الصفوف الامامية للجيش وهم الذين كانوا يهاجمون الاعداء بصورة مفاجئة ويشنتون صفوفهم في اول التحام وبأسرع ما يمكن.

وهكذا كانت الشجاعة تولد فيهم الطموح والاقدام والمغامرة، والاعتماد على النفس. وكانوا مع ذلك ذوي صدور رحبة وقلوب واسعة بعيدين عن الاهواء الشخصية غير مباهين إلا بشجاعتهم وانتصاراتهم في الحروب.

وكتب العالم المجري المختص بدراسة ثقافة الشعوب (جان شارل دي بس) في عام ١٨٢٩ بعد جولاته في بلاد الشراكسة قائلا:

"على الرغم من أن الشراكسة شعب شجاع ومقدام وصامد، إلا أن الاوروبيين يعرفون القليل عنهم، لذلك لن يكون من قبيل الإطالة إضافة بعض الملاحظات عن صفات هذا الشعب وهذا ما سأفعله... واستطرد قائلا:

"... لقد ذكر (السلافي) من الكتاب والرحالة ان كلمة (شركسي) مأخوذة من مقطعين من اللغة التترية.. فالمقطع الاول يعني (طريقا) والمقطع الثاني قاطعا.. ولكنهم لم يفكروا أن يأخذوا معنى الكلمة من الصفات الحقيقية للشخصية الشركسية.

وأردف قائلا:

"يجب الانتباه إلى معنى مقطعي الكلمة باللغة الفارسية هو: (ذات شخصية ورجولة فائقة او محارب شرس) ومن هنا نستنتج أن الفرس هم من أعطوا التسمية الصحيحة للشراكسة^(٨).

ويقول المستر (بل) عن احد القادة الشراكسة الأبطال في معركة من المعارك غير المتكافئة عددا وعدة وهو النبيل (أسلان بك) بعد أن تعطل بندقيته صاح صاحبا سيفه: يا الهي أعرف بأنني عاجلا أم آجلا سوف أموت، فهبني الآن هذا الموت، وهجم على العدو يتبعه أخوه فاستشهدا دفاعا عن الوطن والشرف^(٩).

وعندما طلب رسل (الاور) خضوع الشراكسة لسلطته ودفع الجزية لهم، كان جواب الامير (لادوستان) ذلك الفارس الأنتي الشهير: "سوف لا نخضع لأحد ولا ندفع أية جزية ما دامت سيوفنا بأيدينا وأبطالنا الشجعان على قيد الحياة"^(٩).

وأما القس الايطالي الدومينيكي (جوفاني لوكا) الذي قام بمهمة تبشيرية في بلاد القرم في القرن الثامن عشر وكتب كتاباً عن حياة الشراكسة قال فيه:

"... وفي تلك الغابات كان واحد من (الاديجا) يجبر عشرين تتريا على الفرار من أمامه".

كما قال (انثريانو) الرحالة الجغرافي الإيطالي والمختص في دراسة تاريخ الشعوب بأن "حفنة من (الاديجا) تجبر حشدا كاملا من الغجر/ القوزاق على الفرار .. فهم أكثر براعة وأجود تسليحا، وأن خيولهم أكثر جودة... ويمتازون بشجاعة كبيرة"^(١٠).

وكتب (كارل ماركس) مقالة له نشرت في جريدة نيويورك تايمز الامريكية آنذاك إذ قال: أيها العالم، ايتها الإنسانية تعلموا معنى الحرية من الشراكسة، وانظروا ماذا يستطيع شعب يطلب الحرية ان يعمل، وشاهدوا البطولات التي قدمها هذا الشعب مع قلة قدراته، من أجل الحفاظ على حريته، فعليكم أن تأخذوا العبر منهم^(١٣).

كما كتب (كارل ماركس) مقالته الصادرة في ايلول عام ١٨٤٧ والموجهة إلى قراء جريدة (المجلة الشيوعية) الناطقة باسم اتحاد الشيوعيين:

"خذوا العبر من بطولات وتضحيات الشراكسة في حربهم ضد قوات القياصرة. إنها بطولات خارقة"^(١٣).

والكاتب الجركسي (يحيى حالوق بك) في الجريدة الجركسية (غوازه) التي كانت تصدر باللغة الشركسية وصف الحياة الشركسية الحربية وصفا دقيقا، وأسهب في وصفه شجاعة الشراكسة واقدامهم وعن تربيتهم القومية المؤسسة على تلك الصفات العسكرية، وشبههم من تلك الناحية لشعب (أثينة واسبارطة) من شعوب (اليونان القديمة) قائلا: إذا جلسنا إلى شيوخ الشراكسة المسنين وسمعنا حكايات وتفاصيل الحروب والوقائع التي حضروها وخاضوا غمارها، نسمع منهم ما هو مدون عن أسبارطة اليونانية وحروبها تماما، مع أنهم قوم لا يعرفون أسبارطة ولم يسمعوا عنها شيئا، فمن هنا نستنتج بأن التقاليد والصفات الحربية عند الأمتين الشركسية واليونانية القديمة كانت واحدة ومتفقة تمام الاتفاق حتى في التفاصيل الدقيقة.

كما ذكر أحد مؤلفي (نبذة عن أخلاق القفقاس) قال: الآن وبعد أن هدأت وطأة الحرب، وأصبحت سلطتنا في القفقاس كاملة وقوية، نستطيع أن نبر عن دهشتنا لبطولة وشجاعة (العدو المهزوم) (ويقصد بهم الشراكسة)، حيث دافعوا بشرف عن وطنهم وحريتهم حتى استنفدوا كل قواهم.

كما وصف مؤرخ آخر وهو (جون بادلي) في كتابه المعروف (احتلال القوقاس) حروب الشراكسة قائلا:

إن هذه الحروب، التي هي حروب البطولة، لها كل الحق في أن تسترعي انتباه الدولة البريطانية، ولا شك أن تلك الأمم القوقازية الذين دافعوا عن حريتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم، والذين دافعوا في الوقت نفسه، عن سلامة البريطانيين في الهند، دون أن يعرفوا ذلك هم أنفسهم^(٤٦).

لقد علمت حرب القوقاس الروس معنى البطولة والشجاعة، وصار الكثير منهم يهجر بلاده ويأتي إلى البلاد القوقازية بغية احراز الشهرة عن طريق المغامرة، والقيام بأعمال البطولة، ومنهم الشاعر المعروف (بستوشف) الذي فر من (منفاه) في سيبيريا وأتى ليحارب في بلاد القوقاز وبحرز الشهرة، ثم يموت في القوقاز، وكذلك الشاعر (لرمونتوف)، فقد خبر القوقاز وتعرف على أهلها وأعجب بها، وكتب عنها الكثير، منها كتاب (بطل الزمان) وغيره^(٤٧).

وأما تولستوي، الذي قال بأنه أنتقل من حياة السأمة والضجر والترف التي كانت تحيط به في روسيا... وقرر مجيئه إلى القوقاز ليري ضروبا من أعمال البطولة الخالدة والشهامة التي قام بها القوقازيون عامة والشراكسة خاصة^(٤٨).

وكان من أكبر الكبائر عند الشراكسة هو أن يوصف رجلٌ شركسي (بالجنين) في أي موقف من مواقف الحياة عامة، وفي الحروب خاصة، وإذا ما زاره بعض الأقرباء تمنوا له زوال هذا العار بقولهم له: (بيض الله وجه زوجتك) وكانت الوسيلة الوحيدة لمحو هذا العار هو الخروج للحرب والجهاد ومقاتلة الأعداء والاستبسال أو الموت في الحرب، وأما المقاتلون والمجاهدون الشجعان الذين كانوا يبذلون بلاءً حسناً في قتالهم للأعداء، أو قيامهم بعمل خارق، أو يظهرون شجاعة نادرة في سبيل قومهم ووطنهم على مر الأيام والسنين، فكان الشعراء ينظمون في حقهم الأشعار، ويتغنون بشجاعتهم وتذكرهم النساء والفنانيات في أغانيهن، وترفع من مرتبة عائلاتهن وتكون زوجاتهم موضع احترام الجميع في المجتمعات الشركسية عامة^(٤٩).

وربما كان خير من عبر عن شجاعة واستعداد الشركسي للتضحية بنفسه دفاعاً عن (الأرض والعرض) وحتى آخر نقطة دم يجري في عروقه هو الروائي ميخائيل لاختنتسكي في روايته (دوي الرعد) - حيث جاء على لسان (أجوق) عندما قرر اهالي قرية من قرى الشابسغ، وربما كانت آخر قرية لديهم للدفاع عنها حتى آخر قطرة من دمائهم، وهم يعلمون أن لا قبل لهم بالجيش الروسي الذي يهتئ لاقتحام القرية وقال: إذا ركع الانسان مرة واحدة فمن السهل ان يتعود على الزحف أنا لا اعرف إلا حقيقة واحدة وهي "على الانسان ان يدافع عن بيته، والشعب عن ارضه وهكذا الأمر سيكون إلى الأبد".

وخير ما يمكن أن نختم به وصفنا للمواقف الشجاعة او المواقف الجريئة للمقاتلين الشراكسة التي شهد لها الأعداء قبل الأصدقاء هو ذكر المواقف التالية:

الموقف الاول:

كتب "ميليوتين" يقول: في السنوات الأخيرة من الحرب في القفقاس كان علينا حشد قوات كبيرة جدا وصلت إلى (١٧٢) كتيبة مشاة نظامية و (١٣) كتيبة مشاة غير نظامية و (٢٠) كتيبة خيالة و (٥٢) فوجاً وخمسة كتائب خيالة غير نظامية و (٢٤٢) مدفع ميدان، بلغت تكاليفها السنوية حوالي (٣٠) مليون روبل من أجل أن نتمكن من تحقيق النصر على المقاتلين الشراكسة قليلي العدد والعناد الذين كانوا يقاتلون بشراسة وشجاعة*

الموقف الثاني:

كتب "تشيرونشيفسكي" عندما علم بتوقف الحرب في بعض مناطق القفقاس قائلاً: "لن تبتلع القفقاس بعد الآن (٢٥٠٠٠) جندي روسي كل سنة".*

الموقف الثالث:

* الوثائق الروسية حول إبادة الشراكسة كما هو وارد في كتاب علي حسن قاسوم (إبادة الشراكسة ص: ١٠٢).
* المصدر نفسه.

كتب احد جنرالات الروس وهو (يرملوف) من ابيات شعر يصف فيها شجاعة المقاتلين الشراكسة بقوله:

"ستمضي السنون، وتتغير الاعمال والأفعال رويدا رويدا، سيهدأ القفقاس بلد الشركس إذا جاز لنا قول الحق، فليس هناك مكان خلي من الرجولة الحقّة، ولا سيل من الدماء الغزيرة وسيأتي يوم تظهر فيه الحقيقة على يدي كاتب ليكتب عن هذه الحرب وعن دفاع الشركس عن أرضه ووطنه بكل شجاعة وإخلاص.

وعبر عن رأيه هذا بالأبيات التالية:

ستمضي السنون وتتغير الأعمال والأفعال
رويدا رويدا سيهدأ القفقاس بلد الشركس
إذا جاز لنا قول الحق فليس هناك مكان خلي
من الرجولة الحقّة ولا سيل من الدماء الغزيرة
سيأتي يوما ما (كاتب) الذي تظهر الحقيقة على يديه
وسيكتب عن هذه الحرب كيف دافع الشركس عن أرضه
وطنه بكل شجاعة وإخلاص

الحقيقة الخامسة:

تشير الوثائق الروسية منها والانجليزية بأن الأمراء والنبلاء وأعيان وأحرار الشراكسة كانوا دوما في طليعة المقاتلين وأن الفلاحين والتابعين (بشل) والخدم (ونه أوت) كانوا يقومون بتقديم الخدمات للمقاتلين ولا يشاركون في القتال.

بالرجوع إلى وقائع وأحداث حروب أجداد الشراكسة في حربهم ضد (القوط)، توصلنا بأن (٨٠) اميرا ونبلا وقائدا منهم الأبناء الثمانية للأمير (داو) قتلوا في إحدى معاركهم مع الجيش القوطي^(١١).

ويقول (مستر بل) بأن أكثر المقاتلين الشراكسة الذين شاركوا في معركة ضد قوة عسكرية روسية قيصيرية مؤلفة من (١٢) ألف مقاتل مجهزين بالآلات الحديثة والمدافع، استشهد منهم (٥٠) شخصا من الشخصيات الشركسية البارزة من أمراء ونبلاء وقادة^(١٢).

الحقيقة السادسة:

إن فنون القتال، والأساليب العسكرية والتكتيكات الحربية التي استخدمها المقاتلون الشراكسة في دفاعهم عن الوطن الأم خلال حروب الإبادة عامة وحروب الدمار الروسية الخاصة، هي فنون وأساليب قتالية لم يكن يعرفها غير القوقازيين عامة والشراكسة خاصة، ونستدل على ذلك مما جاء في وثائق الارشيف الروسي ومن أقوال المؤرخين والجنرالات الروسية نقبس منها أقوال كل من:

* اقوال الجنرال (ف. ب. فيليبياخوف) الذي خص قسما من كتابه للتحدث عن الأساليب القتالية للقبرطاي بقوله: "لم يبق بعيدا عن هذا التأثير حتى السكان الروس من القفقاس، وكان أول من تأثر بالقبرطاي قوزاق نهر تيرك الذين عاشوا بجوارهم، كما عاش بينهم العديد من مهاجري القبرطاي، وكان أول مظاهر التأثير هو تقليدهم لملابسهم والزى التقليدي الذي استعاره القوزاق عفويا من القبرطاي وأصبح فيما بعد زيا رسميا وتقليديا بالنسبة لقوات منطقتي (تيرك وكوبان)، وذلك لمناسبته للقتال هناك"^(١٤).

وكتب م. ارنولدي:

".. إن قوزاقنا في القفقاس الذين اعتمدوا أساليب (الجبليين) في القتال لوجودهم في الظروف القتالية نفسها مع جيرانهم الشركاسة، لم يتخلفوا عنهم في الاستعداد القتالي أو العتاد العسكري، وقد وصل التباهي بالجياد والملابس والأسلحة عند القوزاق حدا فاقوا به الشركاسة أنفسهم".

"إضافة إلى الزي أخذ القوزاق عن الجبليين تسليحهم، وتخلوا عن الرماح الطويلة المجردة جانباً، وأصبحت القامات والخناجر المدسوسة في أعمادها الناعمة، والتي لا تصدر صوتاً عند استغلالها، هي السلاح المفضل لديهم".^(١٦)

وكتب آ. ن بيلياف في كتابه (عن الآلام والأحاسيس):

"لقد استعمل قوزاق القفقاس خيول (كبارديا) بالدرجة الأولى، حيث كانت تعتبر من أجود خيول القفقاس، وأصبحوا يمتطون الخيول على طريقة الجبليين تماماً حتى كان يصعب تمييز فرسان (قوزاق) منطقتي (التيرك كوبان) عن فرسان القبرطاي"^(١٦).

وتابع الجنرلات الروس اعترافهم وإقرارهم بعدم صلاحية العديد من الأساليب القتالية المعتمدة لديهم نتيجة خبرتهم في حروبهم الأوروبية، وخاصة مبادئ قيادة المعركة القتالية، وتطلب الأمر وضع تكتيك جديد كلياً لا يمت بصلة إلى التكتيكات الروسية المعقدة للغاية، وبشكل تلقائي نسي الجندي الروسي في القفقاس نظامه الرسمي الأساسي، وأخذ يتعلم أساليب ودقة وفن قتال (الجبليين) الشركاسة.

ويمكن ذكر العديد من الأمثلة حول هذا الموضوع، وكيف أن الجيش الروسي الذي كان واحداً من أقوى جيوش العالم آنذاك اضطر لأخذ بعض خبراته القتالية من الخبرات التي كان يتمتع بها المقاتلون الشركاسة^(١٧).

وفيما يلي نماذج من الفنون القتالية والأساليب العسكرية، والتكتيكات الحربية التي استخدمها المقاتلون الشركاسة في حروب الإبادة والدمار التي شنتها سلطات روسيا القيصرية على الشعوب القوقازية عامة والأمة الشركسية خاصة.

النموذج الأول: سرعة التعبئة العسكرية لدى الأمة الشركسية.

عند حصول القادة والزعماء على معلومات حول احتمال حدوث معركة أو شن هجوم كبير كان الأسلوب المتبع في تعبئة السكان وحشد المقاتلين من داخل القبيلة ومن القبائل الأخرى هو على النحو التالي:

انتخاب عدد من الزعماء (تحمادات) ويشكلون المجلس الحربي لتلك المنطقة، وإذا اشتركت مناطق أخرى مجاورة في الحرب ينتخب قائد عام عن كل مئة (عزبة)، ويوضع تحت إمرته قائدين مساعدين، الأول للفرسان والثاني للمشاة، ويصدر هذا القائد العام الأوامر التي يراها ضرورية، وعلى المحاربين تنفيذ ما يصدر إليهم من الأوامر، فإذا رفض أحدهم الامتثال لأوامره أو تأخر عن أداء واجبه، كان جزاؤه تجريدته من السلاح بصورة دائمة وعزله.

وما إن تصل الوفود إلى المناطق المجاورة لطالب النجدة، حتى يجتمع زعماء القبائل ليقرروا ما إذا كان من المناسب أو الضروري إرسال النجدة أم لا؟ وإذا قرروا إنجاز أخوانهم المهددين، كانوا يفرضون على كل عزبة أو قرية تهيئة عدد من المقاتلين تتراوح بين العشرة والخمسين مقاتلاً، وكان على الأغنياء منهم أن يساعدوا الفقراء في شراء الأسلحة والمؤن اللازمة، وكان يترتب على كل محارب أن يصطحب معه الذخيرة والقوت الكافي لمدة (عشرين يوماً) على الأقل.

فإذا اجتمع المحاربون على هذه الصورة واكتمل عددهم، احتشدوا في موقع معين، ويعقد زعماء القبائل والعشائر المشاركة اجتماعاً عاماً، باتخاذ مقاعدهم ومجالسهم مع من معهم من القضاة والأئمة في منتصف الدائرة التي يضربها المحاربون حولهم. والصفوف الامامية منها كان يؤلفها المشاة، ومن ورائهم الفرسان، ثم ينتخب من بين الزعماء القائد الأعلى للجيش المحاربة من الذين

يتصفون بصفات القيادة الفذة، كالشجاعة، والفتنة، والحذر، وما إلى ذلك من المزايا العالية، ولا يشترط أن يكون مسناً، ولكن كان من الضروري أن يكون ذا خبرة ومهارة وإطلاع واسع على الأمور الحربية، وحائزاً على ثقة الشعب من حيث التمتع بالصدق والامانة والنزاهة التامة^(٥).

التكتيكات التي كان يستخدمها الشراكسة في احتلال القلاع العسكرية:

استخدم الشراكسة في هجومهم على الحصن (شه بسون) الواقع على ساحل البحر الاسود بقيادة الاخوين (علي زازي) و (محمد زازي)، وبمشاركة ما لا يقل عن عشرة آلاف مقاتل، أكثرهم من قبيلة (الشابسوغ) استخدموا تكتيكات حربية ناجحة، مكنتهم من الاستيلاء على الحصن المذكور وتدميره نهائياً، وملخصها حسب ما رواها احد شهود العيان الذين اشتركوا بالحملة ورجع منها سالماً، واسمه (يوسف توزى اوق) من اهل (نجه بسوخ) بقوله:

"تحرك الركب من القاعدة الحربية في (قوبات) القريبة من (شه بسون) بعد الغروب بقيادة الاخوين المذكورين اللذين انتخبهما المجلس الحربي قائدين للحملة، والطليلة كان يؤلفها أشجع الشبان تحت رئاسة (زاقو) من اسرة (شابته). ثم قسما المشاركين بالحملة إلى ثماني فرق، ولكل منها قائدها، وسرنا حتى اقتربنا من الحصن، وتهيأنا للهجوم بعد أن أقسم كل منا ذلك القسم الشركسي الرهيب الذي ينص على (إما أن يموت أو يرجع منتصراً)^(٥).



أنواع الهجوم وأساليبه عند المقاتلين الشراكسة

تتكون خطة الهجوم عند الشراكسة من نوعين: النوع الأول: وهو الهجوم الذي يستهدف عرقلة قوات العدو المهاجمة أو المتمركزة في احد المواقع الحصينة، واجباره على الانسحاب، أو العدول عن غايته وهدفه، بمهاجمة مؤخرته أو جوانبه وتخريب طرق مواصلاته، أو قطع خط رجعته، وإرهاقه قدر المستطاع بكل الوسائل الممكنة.

وفي هذه الحالة كانت تعطى للمحاربين الحرية التامة في أن يختاروا الطريقة التي يستحسنونها والتي تمكنهم من إلحاق أكبر خسارة ممكنة بالعدو، وكان لهم الخيار بين أن يهاجموه بقوات صغيرة ومتفرقة، أو يستدرجوا العدو ويمنعونهم من التقدم.

والنوع الثاني، وكان يتمثل بالهجوم الذي يستهدف مواجهة العدو مباشرة مهما كان عدده وقوته، سواء أكان ذلك في الحصون أو القلاع أو في ميادين المعارك المكشوفة.

وهذا النوع من الهجوم كان لا يقرر القيام به إلا في أحوال نادرة وظروف فوق العادة لشدته وخطورته وما يتطلبه من تضحيات بالرجال والاموال والعتاد.

كما كان من أساليب الهجوم عند الشراكسة، هو بدأ الهجوم في منتصف الليل حيث كان يتحرك جزء صغير من المشاة المؤلف من الخبراء في الطرق وبطبيعة الأرض إلى الامام. وكان يؤمن الاتصال بين كتلة المشاة الكبيرة وهذه الطليعة كان ترافقه بعض وحدات صغيرة من الحرس. وأما الجوانب فكانت تحميها الدوريات المختلفة، ثم يتبعهم جيش كبير يعد بالآلاف أحيانا، بكل خفة وسرعة دون إحداث ضجيج أو قرقة تحت جناح الظلام، ومما كان يساعد على ذلك، لبسهم القاتم، وخفة أحذيتهم، ورشاقة حركاتهم، وكون أسلحتهم في محافظها الجلدية.

نظام الحراسة والدوريات والكشافة ومهامها عند المقاتلين الشراكسة

كان يتمثل نظام الحراسة بقيام كل فئة أو جماعة انتخاب عشرة من الرجال ليبقوا دوما بحراسة حدودهم، وإذا باغتهم العدو نبه هؤلاء الحراس الأهليين بصيحة شديدة*، وأطلقوا النار من بنادقهم مرارا إشارة لقدم الأعداء.

وكان من النادر جدا أن يتمكن العدو من تضليل الحراس ومباغنة الأهليين في البلدان والقرى المجاورة لحدودهم، وإذا حصل شيء من ذلك، فكان ذلك (بمساعدة الجواسيس والخونة).

يقول أحد المؤرخين الشراكسة: إن الشراكسة الذين كانوا قد تعودوا الحروب الدائمة، أصبح نومهم خفيفا كنوم الأرانب، فلا تكاد صيحة الحراس تدوي في بلدة أو قرية حتى ترى جميع سكانها متأهبين ومستعدين للحرب بأسرع من لمح البصر".

ولا نكون من المغالين إذا قلنا أنه لا يستطيع الجنود المدربون في أية كتلة عسكرية أن ينهضوا أو يستعدوا بالسرعة التي كان ينهض فيها سكان أي بلدة أو قرية شركسية. وفي أحوال كهذه كان ينطلق الفرسان منهم والمشاة انطلاقا رجل واحد، ويندفعون نحو الطريق الذي يمكن أن يسلكه العدو في هجومه ليبدأوا معه معركة الموت أو الحياة، دفاعا عن أوطانهم وأولادهم، غير مباليين بكثرة الأعداء وقوتهم.

كما كانت الدوريات المؤلفة من الفرسان تحوم حول جيش المشاة أثناء سيره، وتتبعه في المعارك، وتقوم بمهمة حفظ مؤخرة الجيش وحمايته في حالة الانسحاب ونقل القتلى والجرحى من ميادين القتال إلى ذويهم.

وأما في السهول فكان نقل الجرحى والقتلى يتم على المركبات والعربات التي تجرها الثيران^(٥).

وأما الكشافة المكلفين بمهام استكشافية فكانوا ينفصلون عند اقتراب الجيش من العدو، عن بعض أجزاء الطليعة ثم يزحف بعض أفرادها بكل حذر، ويفتربون من الأهداف المراد مهاجمتها، ويستكشفون المناطق المحيطة بها، ويراقبون حركات حرس العدو ليعرفوا فيما إذا كان معسكر العدو هادئا أم فيه حركات غير اعتيادية.

وجرت العادة أن يستخدم المقاتلون من (الكشافين) والقادة الشراكسة بعض الاصطلاحات السرية للتفاهم فيما بينهم، منها تقليد أصوات بعض الحيوانات البرية مثل: البوم أو البط البري أو الذئب.

كما أتقن المقاتلون الشراكسة أساليب (تتبع الأثر)، والتحرك بمجموعات صغيرة، وتنفيذ الاستكشاف بخفة، بحيث لم يكن بإمكان أي من الجيوش النظامية القيام به، ونقل القوزاق والجيش الروسي هذه المهارات واستخدمها القادة الروس في مختلف معاركهم، وتدرجيا وبشكل أو بآخر بدأ الجيش النظامي الروسي يقلد المقاتلين الشراكسة فيها.

* ذكر شوكت المفتي نقلا عن وثائق ألمانية بأن كثيرا من الجنود الروس الذين قضوا شظرا من حياتهم في القوقاز وشبوا على الحرب مع الشركس، أفادوا أن تلك الصيحة الداوية التي كان يردد صداها كل واد وكل جبل، ويسمع في الاحراج والغابات كانت أشد تأثيرا عليهم من ازيز الرصاص والقنابل، إذ كانت تبعث في قلوبهم الرعب.

وكذلك فإن المقاتلين الشراكسة كانوا يمتازون على غيرهم بمواهب شتى، منها القدرة على الحرب في الجبال العالية والمضائق، ومنها أيضا سرعة السير والحركة في المواقع التي يصعب المرور فيها، والمرابطة في الأحراج والأدغال الكثيفة وغيرها.

كما تميزوا بطريقة بدء هجومهم بمداهمة أعدائهم ومفاجأتهم فلهذا كانوا يسبغون ليلا ويهجمون فجرا ويأخذون العدو على غرة، ويشترك المشاة مع الخيالة في مثل هذا الهجوم^(١٩).

وتشير الوثائق الروسية بأن قوة مقاومة الشراكسة كانت تكمن في قدرتهم على مهاجمتهم بشكل مفاجئ على الحاميات الروسية، وفي التغلغل السريع في مؤخرة الخطوط الأمامية الروسية، وفي مباغتتهم للطوابير الروسية على الطرق، وبعبارة أخرى، كان الشراكسة أخف وأكثر قدرة على الحركة من الروس وهي ميزات قتالية ميّزت الشراكسة المقاتلين عن جنود الروس الذين كانوا يتحركون ببطء.

كما تشير اعترافات الجنرالات الروس إلى قدرة وتمكن (القفقاسيين) من الحرب الجبلية، ومنهم الجنرال "يرمولوف" الذي يقول: "القفقاس هي قلعة يحرسها نصف مليون حامية"، كما كتب المؤرخ الروسي "بوتو": "كان الخيالة الشراكسة يحبون العمل في السهول المفتوحة والهجوم بال سلاح الأبيض، وعندما كانوا يرون أن فيهم ضعفا كانوا يتراجعون إلى المخابئ ويقابلوننا فقط من الجوانب أو من المؤخرة، وكان الشراكسة يتقنون استخدام التضاريس بشكل جيد، بحيث كانوا يقابلون القوات الروسية المهاجمة بالنار من فوق الأشجار والصخور".

كما تؤكد الوثائق الروسية بأن (الأديغة) استخدموا في صراعهم مع القوات الروسية تكتيك حرب العصابات الجبلية (المعركة الموزعة، المفاجأة، الغزوات.. الخ)، بالإضافة لذلك قام (الأديغة) بأعمال هجومية واسعة بالهجوم المباشر على التحصينات والقلاع الروسية مع استخدام المدفعية التي بدأوا استخدامها مؤخرا في معاركهم^(٢١).

وفي تاريخ ١٨٣٩/٧/٦ كتب الأمير (ياكوف) إلى الأمير (يشينكو) قائلاً:

"ان القيادة الروسية اقتنعت بأن الشراكسة ينوون الدفاع عن أرضهم بأرواحهم وهكذا ففي أثناء انتقال القوة الروسية من (غيلينجيك) إلى (بشادة) لم يتوقف إطلاق النار من قبل الشراكسة الذين كانوا يعملون الكمائن المسبقة بمجموعات صغيرة ويظهرون فجأة أمام كل الحصون ولمدة قصيرة ويهاجمون، ففي حصن (ميخايلوفسكي) قتلوا ضابطا بالسيف وجرحوا أربعة جنود، وفي حصن (تينغيسكي) جرحوا قائدا عسكريا وثلاثة جنود وفي حصن (مينوفسكي) جرحوا خمسة اشخاص وكان كل ذلك يتم قرب الحصن وفي ساعة الصباح عند فترة تحية العلم، وفي (سوباشي) قرب إحدى الغابات قتل وجرح حوالي (٥٠) شخصا، وبشكل عام فإن الشراكسة يحاربون هناك بشجاعة فائقة، وأعتقد ان هزيمة الجنرال "سيمبارسكي" في العام الماضي قرب (سوتشي) زاد في شجاعة الشراكسة"^(٢٢).

ويعترف الجنرال (ويليا مينوف) الذي قاد معركة على رأس (٦٠٠٠) جندي وبمساعدة (٢٨) مدفعا و (٢٠٠٠) من المشاة القوزاق و (٦٠٠) رجل مدفعية في ربيع عام ١٨٣٩ قائلاً: "ان المقاتلين الشراكسة كانوا يزحفون كالثعابين، ويهجمون على رماتنا بالسيوف، ويخرجون من الغابة بالحرا، وتطلق عليهم مدفيعتنا طلقاتها، وكنا نتقدم على طرقهم فوق جثثهم الدامية، وكنا نرى القتلى في كل مكان، وكانت الجبال تدوي بأصوات إطلاق النار وأصوات المعارك، وكانت كل الشعاب مليئة بالدخان والسنة النيران التي أشعلها العدو في الأعشاب، وكانت جهنم فعلا على الأرض، قضينا الليلة عند نقطة التقاء نهر (أبين) مع نهر (اتاكاف)".

ويستطرد قائلاً: "كان اليومان الماضيان صعبين إلا أن الفجر كان يقول إن ما مضى كان نزهة بالمقارنة مع ما ينتظرنا، كانت ممرات الخيل التي غالبا ما تقطع مجاري القتال تضع في الغابة، كانت الصخور الضخمة التي تنمو عليها الاشواك والتي تتحدر منها المياه ليست فقط مانعا للحرب بل كانت مصائد من اليمين واليسار مليئة بالرجال الشراكسة الجاهزين للموت لمنع الروس من التقدم، كان صوت الرصاص يدوي وكنا نتقدم ببطء ونحن نكسب كل خطوة بالقتال وبسلاح

متمثل؛ لأن مدفعيتنا لم تكن لتفيد في هذه الأوضاع، سالت الدماء من الطرفين وزاد عنف الشراكسة وشجاعة الروس، جرح كثيرين من الجنود بالحجارة والسهام، كان هذا اليوم صعباً على الجبلين ولم يكن انتصارنا سهلاً، بعد يومين دخلنا الجبال ثانية وتحت وابل من الرصاص" (٢٣).

الحقيقة السابعة:

استطاع المقاتلون الشراكسة وبأسلحة شخصية متواضعة في بداية حرب الإبادة والدمار الروسية، مقاومة جيوش روسيا القيصرية المسلحة بأسلحة ثقيلة أكثر من ١٥٠ عاماً.

وأكدت الوثائق الروسية هذه الحقيقة، كما أكدها جنرالات روسيا الذين حاربوا الشراكسة، كما ذكرها بعض المؤرخين والباحثين الأجانب بأن أهم الأسلحة التي استخدمها المقاتلون الشراكسة في حروبهم قديماً وحديثاً كانت تتمثل بالأسلحة التالية:

* استخدم الشراكسة في حروبهم قديماً السيوف والرماح والاقواس والهراوات والدروع والاتراس الثقيلة والفؤوس، كما استعملوا أنواع الاقواس والنبال التي تحدث اصواتاً هائلة يربعون بها الاعداء وتجد تفاصيل كل ذلك في أغانيهم القومية.

* وفي عصور لاحقة وعندما ظهرت الأسلحة النارية برع فيها الشراكسة براعة فائقة وعرف عنهم أنهم يصيبون المرمى بالبندقية والمسدس وهم على متون جيادهم ويلاحظ بأن الجيوب الاسطوانية الصغيرة التي تراها على صدور ملابسهم الوطنية كانت مخصصة في الماضي لوضع الطلقات في كل منها تسهيلاً لاستعمالها وقت اللزوم (فشيك) وهي تسعة جيوب من كل ناحية من الصدر.

* كان الشراكسة يصنعون اسلحتهم الهجومية بأنفسهم في إتقان ودقة متناهية وهم مشهورون جداً بعمل السيوف الحادة والقامات المصقولة والمنقوش عليها بالذهب والفضة.

* الأسلحة النارية: فكانوا يحصلون على أنواعها الجيدة من روسيا نفسها ومن البلاد العثمانية، وكانت تصلهم أيضاً من انكلترا عن طريق البحر. وأما أكثر الأسلحة استخداماً هي التي كان يحصل عليها المقاتلون الشراكسة كغنائم من الجيش الروسي.

* البارود: فكانوا يصنعون نوعاً منه في بلادهم ويستوردون أنواعاً أخرى من الخارج، وكذلك الرصاص الذي كان يحصلون عليها من انكلترا وغيرها من البلاد الأوروبية بصعوبة.

* المدافع، حصلوا عليها بمساعدة بعض تجار الانكليز، ولكنهم لم يوفقوا للانتفاع بها إلا في المراحل الأخيرة من الحروب. وتذكر الوثائق بأن الثري الانكليزي (لونج وورت) قدم مساعدة عظيمة للشراكسة مجاناً في عام ١٨٣٦ تضمنت مدافع وذخائر حربية كثيرة (٢٤).

وأشار (قاسوم) بأن "كل شركسي كان مسلحاً ببندقية وسيف كبير معلق على خاصرته، وفوق ذلك خنجر عريض (قامة) ومسدس، وكل هذه الأسلحة كانت مطعمة بالفضة، والشركسي لا يخطو خطوة واحدة بدون سلاحه، فهو يأكل وينام ويعمل في كل مكان وهو مسلح، ولهذا فقد تعودوا على حمل الأسلحة معهم دائماً، ولا يزعجهم كثرة ثقل الأسلحة التي يحملونها بشكل دائم" (٢٥).



الأسلحة الشخصية التي استخدمها الشراكسة في حربهم ضد قوات روسيا القيصرية كما استخدموا المدافع في السنوات الأخيرة من حربهم ضد الغزاة الروس

وذكر أحد الجنود وحدة روسية عاملة في مناطق ما وراء (الكوبان) قائلاً (... يا للفرحة لقد وصلنا إلى (غلينجيك) على البحر الأسود وبعد أن شققنا طريقنا بالحرايب من نهر الكوبان إلى ساحل البحر الأسود عبر شعاب غير قابلة للاحتراق. وسلاسل جبال عالية تحت سيل من الرصاص والسهم والحجارة... وجرح كثير من الجنود بالحجارة والسهم.. لأن مدفعيتنا لم تكن لتفيد في مثل هذه المواقع^(٢٧).

وأما بالنسبة للآليات والنقل العسكرية فإن الوثائق تشير بأن المقاتلين الشراكسة لم يكن يملكون عربة مدرعة أو مصفحة واحدة وانهم لم يستخدموا عربات النقل (السيارات) ولم يستخدموا سوى الخيل والعربات التي تجرها الثيران في بعض الأحيان، وأن تشكيلات قواتهم الحربية كانت تتكون من الخيالة والمشاة فقط.

كما تشير بأن قوى الجراكسة الحربية كانت تتألف من الخيالة والمشاة فقط، ووظيفة الخيالة التعرض والهجوم، أما المشاة فكانوا مكلفين بالاستيلاء على الاستحكامات وسوق الأسرى والغنائم.

كما أشار أحد الجنرالات الروس بأن (الأديغة) لم يكن لديهم جيش واحد بقيادة واحدة، بل كان على شكل فصائل متفرقة بعدد من (٥٠٠) إلى (٦٠٠) مقاتل بقيادة أمير أو نبيل أو كبير في السن، وفي حالات الخطر العام التي كان يتعرض لها (الأديغة) كانوا يستطيعون جمع جيش بقوام (٢٥٠٠٠) نصفهم خيالة^(٢٨).

أما التشكيلات والوحدات الشركسية المقاتلة التي كان يقودها (محمد أمين) نائب الشيخ (شامل) في مناطق ما وراء الكوبان فكانت تتكون من وحدات مسلحة من الخيالة، ومجموع الوحدات كانت تشكل نواة الجيش الثابت المعد للتصدي للقوات الروسية الغازية... وكان على كل بيت من بيوت (الأديغة) تقديم فارس محارب واحد على الأقل عند صدور النداء من النائب (محمد أمين) (٢٩).

نسنتج من هذه الحقيقة بأن المقاتلين الشراكسة صمدوا في حربهم المستمر ضد جيوش روسيا القيصرية على مدى ١٥٠ عاما تقريبا وانهم كبدوا هذه الجيوش من القتلى والجرحى ما وصل عددهم حسب بعض الوثائق لأكثر من مليون روسي بفضل السلاح الأبيض الشخصي وبعض الأسلحة النارية المكونة من المسدسات والبنادق المصنوعة بأيديهم وأن عدد تشكيلاتهم ووحداتهم القتالية في المعركة الواحدة لم تكن تتجاوز عدد مقاتلين فيها على بضعة الاف، فهذه هي الحقيقة كما اكدتها جميع الوثائق الروسية منها والانجليزية والتركية والشركسية.

الحقيقة الثامنة:

قيام النساء الشركسيات وكبار السن في تقديم الدعم والمساندة لمقاتلي الامة الشركسية خلال حروب الابداء والدمار الروسية:



لوحة تمثل دور المرأة الشركسية في القتال مع المقاتلين الشراكسة جنبا إلى جنب

يقول أحد المؤرخين اليونانيين القدامى بأن الشراكسة كان يُعرفون بعزمهم وقوتهم ومهارتهم وفي فن الفروسية، وخاصة "الامازا ونات" عرفن بذلك حتى يقال: إنهن كن في عصور ما قبل التاريخ يستأصلن الثدي الايمن من صدور بناتهن الصغيرات ليسهل عليهن استعمال السلاح وأدوات الحرب يوم يكبرن، كما كانت الفتيات يركبن الخيل ويحملن القسي، ويشتركن في الحرب مع الرجال ما دمن عذارى، ويذكر أن الأنثى لم يكن ليسمح لها بالزواج ما لم تقتل ثلاثة من الاعداء، اما بعد الزواج فلا يطلب منها ان تحارب إلا عند الضرورة القصوى.

كما يؤكد بعض المؤرخين الروس منهم عامة والشراكسة خاصة، بأن المرأة الشركسية كان لها دور فعال في مساندة ومساعدة المقاتلين

الشراكسة في دفاعهم عن (الأرض والعرض) وفي صد اعتداءات جيوش الاعداء وقواتها المسلحة على المدن والقرى الشركسية على مدار (١٥٠) عاما تقريبا.

وخير دليل على ذلك هي قصة امرأة من عائلة (لاشين) التي كانت تشارك مع المقاتلين الرجال في حروبهم ضد (دولة التتار) في القرم وهي القصة التي تشير بأن قائد (التتار) طلب في احدى المواجهات العسكرية من قائد الشراكسة ان يتصارع خصمان واحد من التتار والآخر من الشراكسة.. فاختار القائد الشركسي (امرأة) لمنازلة البطل التتاري فصارعت المرأة الشركسية وهي بلباس الرجال.. فصرعته بعد جهد كبير.. فاعترف قائد التتار بالهزيمة.. وقرر الانسحاب من المعركة دون قتال.. خاصة بعد ان عرف البطل الذي صرع اقوى رجال التتار هي امرأة شركسية.

كما كان للنساء اكثر من دور في المعارك حيث كانت تقوم عند حدوث معركة او غزوة بجمع الامتعة والاغذية وحملها على الخيل والمركبات وتقود الاولاد والماشية إلى الوديان والغابات، وكان يجري ذلك كله بسرعة فائقة وقبل وصول الاعداء.

أما كبار السن فكان دورهم يتمثل في ابقاء النار في بيته مشتعلة بعد خروج المقاتلين والنساء والاطفال فيتصاعد لهيبها إلى عنان السماء ويصغي إلى اصوات الحراس بدقة وانتباه عظيمين، ويراقب ما يجري حوله بحذر شديد، وإذا احس بقرب وصول العدو أشعل النار في مخازن الحبوب والتبن والهشيم وفر إلى اقرب غابة بعد ان يجعل كل شيء فريسة للنيران لكي لا يستفيد منه العدو المهاجم.

كما تؤكد الوثائق الروسية بأن المعارك التي جرت في منطقة البحر الاسود، وبالقرب من (مايكوب)، في وادي (خودز)، وفي بلدة (آخجب) وهي منطقة جبلية وعرة التجأت إليها النساء والاولاد هرباً من القوات الروسية الغازية حيث ألقت بزيتهن في النهر وأخذن السلاح، والتحقن بالرجال، لخوض معركة الموت من اجل الوطن والشرف، وحتى لا يقعن اسرى وسبايا بأيدي الروس. والتحم الفريقان في معركة كبيرة فكانت مجزرة بشرية لا مثيل لها في التاريخ المعاصر.

ولم يكن هدف الشراكسة من هذه المعركة احراز نصر، بل الموت بشرف، والخلاص من الحياة التي لم يبق منها أي امل. وقاتل في هذه المعركة الرهيبة النساء بجانب الرجال، وكانت الدماء تسيل كالأنهار، حتى قيل إن جثث القتلى كانت تسبح في بحر من الدماء (٣٠).

وكذلك فإننا نستنتج من تقرير الجنرال الروسي "كورولينكو" عام ١٨٢٥ الذي قال فيه "قامت قواتنا بترك منطقة ما وراء الكوبان مدمرة القرى، وفي هذه القرى الملتهية قتل الشراكسة بالمئات، إما بالنيران أو بحراب القوزاق المتوحشين وكثيرا ما وقعت (النساء والاطفال الهاربين من الموت في الاسر) وفي كثير من الحالات كانت (النساء) يفضلن الموت على الأسر فيلقين بأنفسهن في الوديان السحيقة أو في تيارات الانهار الجبلية الهائجة".

نستنتج من هذا التقرير بأن المرأة الشركسية كانت تشارك المقاتلين الرجال في ساحات القتال كلما اشتد القتال وكلما كان الرجال المقاتلون في ضيق او حصار (٣١).

وكذلك فإن النساء الشركسيات كن مسلحات، كما كن يستخدمن هذا السلاح دفاعا عن شرفهن وهي حقيقة نستدل عليها من الواقعة التي أشارت إليها احدى الوثائق الالمانية ونصها:

"إن العمل الذي قام به "الكولونيل (دوغموتسوف) بحق جماعة من المهاجرين الشراكسة الذين كانوا في طريقهم إلى "كرج" في بلاد القرم، بعد أن حصلوا على إذن بالخروج بصورة رسمية من السلطات الروسية، إلا ان الكولونيل المذكور وقف في طريقهم ومنعهم من الخروج ظلما وعدوانا. ولكن قافلة المهاجرين لم تعبأ بأوامره، وعلى ذلك أمر الكولونيل المذكور قتلهم جميعا بنيران مدافعه، وفي أثناء ذلك عصا أحد الضباط الروس أوامره، وحاول الاقتراب من قافلة المهاجرين لإنقاذ فتاة كانت واقفة فوق كومة من جثث القتلى، إلا ان هذه الفتاة ما كان منها إلا أن أخرجت من طيات ثيابها مسدسا فأردت الضابط قتيلا (ظنا منها بأنه جاء للاعتداء عليها) (٣٢).

وكذلك فالمرأة الشركسية كانت هي المدرسة التي تعد المقاتلين الشراكسة، نفسيا ومعنويا، وتدفع ابنائها للالتحاق بالمقاتلين، وكانت تعتبر مشاركتهم في القتال فخرا لها وواجبا وطنيا، حرصت عليها كل أم شركسية على قيام ابنائها بهذا الواجب، كما كانت تدفعهم دوما للاستشهاد في سبيل الله والوطن.

ونستدل على هذا الدور الجليل الذي كانت الامهات الشركسيات يقمن به من القصة التي اوردها (جوناتوق) في كتابه "تاريخ الاديغة" ونصها:

عند عودة أحد الشبان من ساحة الحرب ووصوله لبلده ورؤيته والدته على سطح داره فإنه يناديها قائلاً:

"يا أماه ذهبتي إلى الحرب، وها أناذا عائد منها"

فتصيح الأم في وجهه وتلقى عليه حجرا قائلة:

"إذا كنت ذهبت إلى الحرب حقا وشاركت اخوانك صدقا لكنت في عداد الموتى الآن، اغرب عن وجهي يا جبان" (٧).

كما ان المرأة الشركسية من امهات وشقيقات كن يفاخرن بالابناء أو الاشقاء الذين كانوا يبطلون بلاء حسنا في القتال.

كما ان الفتيات أو الخطيبات (القشن) كن يرفضن الاقتران بأي شاب شركسي لم يشارك في الحرب، ولم يظهر شجاعة فائقة... وان قتل أو استشهد كن يفاخرن به، وينظمن فيه قصائد الرثاء (غبزة) كما كانت التقاليد تحرم على النساء من زوجات أو امهات أو شقيقات أو خطيبات لبس السواد واطهار مظاهر الحزن، أو حتى ذرف الدموع على شهداء الحرب.. كما كن يحضرن تشييع الجنائز بالملابس البيضاء دون بكاء أو حتى كلام (٣٤).

ومن الحقائق اللافتة للانتباه، هي الحقيقة التي نقلها احد المؤرخين الروس لأحداث (طرد الشراكسة) إلى تركيا بقوله: كنا نلاحظ عند تجميع الشراكسة على الشاطئ لترحيلهم إلى تركيا، قلة عدد الاطفال والنساء قياسا بعدد الرجال (٣٥). وهذا يعني بأن النساء والاطفال كانوا هم الجزء الاضعف من السكان، وبالتالي كانوا هم اكثر ضحايا وحشية وبربرية قوات سلطات روسيا القيصرية التي كانت تستهدف النساء والاطفال العزل والابرياء وغير المشاركين في القتال، وهي الاعمال التي تعتبر من جرائم الحرب التي ارتكبتها القادة العسكريون الروس المتوحشون ضد الأطفال والنساء العزل مثلما اعترف بعض جنرالات الروس وقادتهم السياسيين.

الحقيقة التاسعة

تؤكد الوثائق بأن الفتيان والشباب غير البالغين كان لهم دور في دفاع الشراكسة عن (الارض والعرض) وفي مقاومة جيوش السلطات القيصرية، وفي صد اعتداءاتهم بشكل عام، وفي الظروف الصعبة والحرارة خاصة... وهذا ما توصلنا إليه من دراسة بعض الوثائق واقوال بعض جنرالات الروس ومن كتابات بعض المؤرخين، حيث يؤكد المؤرخون بأن أسلوب تربية وتنشئة الاطفال الشراكسة واعدادهم الاعداد الاخلاقي والاجتماعي والعسكري الذي يتناسب مع طبيعة الحروب التي كانت تفرض على الشعوب الشركسية منذ عصر الاجداد في عصور ما قبل التاريخ، وحتى العصر الحديث هو اسلوب ربما يندر ان يوجد مثله في أي مجتمع أو امة قديمة كانت ام حديثة..

ولتفسير ما تقدم كان لا بد لنا من القاء الضوء على الاسلوب التربوي الذي يبدأ منذ لحظة ولادة الطفل وحتى يبلغ سن الرشد والذي كان يتمثل في الطقوس التربوية التالية:

(١) عندما يولد الطفل الشركسي كان يُغطس في الماء البارد، أو يفرك جسده بالتلج، ليتقوى جلده، ثم يجتمع كبار العائلة، في جو احتفالي لاختيار اسم للمولود.

(٢) تُشرب الانخاب خلال الاحتفال وتتلّى الادعية التي تدعو إلى تنشئة الطفل ليصبح شجاعا، قويا، كريما، وأن يرفع اسم العائلة، وغير ذلك من الأدعية الملائمة في مثل هذه المناسبة.

(٣) يتلقى الطفل ثقافته الاولى وهو في المهد الهزاز "كوشه" من خلال "اغاني المهد" التي تغنيها الأم لوليدها، وإلى ان يبلغ السابعة من العمر.

(٤) يُترك الطفل حرا، يتنقل من بيت لبيت، ويقابل بالترحاب، وتقدم له الحلوى والعصائر، وبعض الاطفال يذهب إلى بيت المربي "أتالق" في سن مبكرة، والبعض الآخر يبقى في كنف العائلة، حيث يشرف الجميع على تنشئته النشأة الشركسية التي تتمثل بالرجولة، والشجاعة والخشونة.

(٥) لا يتلقى الاطفال الشراكسة حتى سن السابعة أي عقاب مهما ارتكبوا من أخطاء، لذلك كما تقول الباحثة الاميركية "سولا بينيت" يخلو المجتمع الاديجي من أي نوع من أنواع السادية. ولا توجد منعطفات حادة، كسن البلوغ والمراهقة، في حياة الطفل (الأديغة)، إذ يصبح بعد سن السابعة

مؤهلاً للدخول في سن النضج، ويبدأ بتلقي التعاليم ذاتها، التي يسير عليها ويتبعها من هم أكبر منه سناً، كوالده وجدده، والاتاق.

(٦) يبدأ الطفل بعد سن السابعة يتلقى إحترام كل الاطفال الذين يصغرونه في العمر كما انه يمنح احترامه لمن هم اكبر منه سناً، وبذلك تجنب شعب (الأديغة) مشكلة ما أطلق عليها في العصور الحديثة "صراع الاجيال".

(٧) بعد سن السابعة يتم الفصل بين الجنسين. وتبقى الفتاة تتمتع بالحرية الكاملة في بيتها ما زالت عزباء.^(٣٦)

وربما كان الجنرال الروسي (ايفان فيدوفيتش بيرغ) خير من كتب عن نظام (الاتاق) الذي تعرف عليه عن قرب ومن خلال السنوات العشرة التي قضاها من حياته متجولاً بين المناطق الشركسية وفي الفترة من (١٨٣٠-١٨٤٠) حيث قال:

"... وبحسب العادات المتداولة منذ قديم الزمن ليس للامراء ان يقوموا بتربية ابنائهم في منازلهم أو بإشرافهم، وعليهم ما أمكن باكراً (ليس بعيداً عن زمن الولادة) إرسالهم ليتربوا في بيت آخر، ويبدل أي من النبلاء (الأوزدن) قصارى جهده من أجل الحصول على هذا الشرف، والمنزل الذي يقع عليه اختيار الامير يعتبر ذلك ثقة كبيرة وشرفاً.

ويدعى المربي المختار في تلك الحالة (اتاق)، وعليه أن يعلم ويكسي ويطعم الطفل الذي عهد إليه بتربيته حتى يحين موعد اعادته إلى اهله، وهو غالباً ما يكون عند بلوغه سن الرجولة وان تكون تربيته قد تمت على أفضل ما يمكن وهو سن السادسة عشرة.

وقال ايضاً ان التربية المذكورة عبارة عن التدريب على مختلف الرياضات العضلية المجهد، والتي تؤدي إلى القوة الجسدية والمهارة في ركوب الخيل واساليب الإغارة والقتال العسكري والرمي بالقوس والبنديقية والمسدس وغيرها، كما ان التربية تشمل اسلوب الحديث والمناقشة والمعالجة الفكرية مما يساعده على التفوق في الاجتماعات واللقاءات.

ولتحقيق هذا الغرض يقوم المربي (الاتاق) بتدريب المربيّ لديه الذي يسمى (قان) على كل ما يقوي لديه البنية أو الذكاء مستعملاً أحياناً بعض الحيل للتوصل إلى ذلك.

وعندما يبلغ القان (المربيّ) سن الشباب، أو كما يقول الشراكسة أصبح مستوعباً لفنون القتال، يعيده مربوه إلى اهله وذويه بوجود والده وجميع اقاربه، حيث تقام وليمة فاخرة، (يؤكل فيها نوع من الحبوب) وتهدى إلى (المربيّ) هدايا قيمة من الاسلحة والمواشي والحياد.^(٣٧)

ومؤرخ آخر يصف نظام (الاتاق) مؤكداً على المزايا النفسية والتربوية التي يكسبها هذا النظام للأطفال الشراكسة بقوله:

"لقد كان النبلاء مثل الامراء والاحرار يحرسون على تنشئة ابنائهم عند عائلات اخرى، حيث يتعلم الاولاد ركوب الخيل واستعمال السلاح ويكتسبون صفات الشجاعة والثبات والمحافظة على التقاليد ثم في عمر السادسة عشرة أو السابعة عشرة يعاد الابن إلى ابويه الحقيقيين ضمن احتفال وموكب شعبي، ويتلقى الابوان اللذان ربياه الهدايا من والديه، ويصبح من واجب الابن رعاية وحماية الابوين اللذين تلقى عندهما تربيته (الاتاق).

كما يؤكد بأن نظام التربية هذا كان له ميزات نفسية منها:

١- يقل تعلق الطفل بأبويه واتكاله عليهما، ويتدرب الاعتماد على نفسه بشكل مبكر، كما يقل بذلك ايضاً تعلق الابوين بأبنائهم.

٢- يتلقى الطفل تربية قاسية عند ابوين غربيين عنه بدلاً من ان يفسده دلال ابويه.

٣- لهذا النظام ايضاً مزاياه السياسية التي تتجلى في توثيق العلاقات مع العائلات والقبائل الاخرى، حتى ان خانات القرم كانوا يرسلون ابناءهم لتربيته عند اصدقائهم الشركس.

ويقول ايضا: وحتى بعد زوال هذا النظام في العصر الحالي، فإن بعض العادات المرتبطة به ما زالت سارية حتى إيماننا في بعض المجتمعات الشركسية في المهجر حيث يسخرون من الاولاد الذين لا ينامون خارج بيوتهم في العراء في فصل الدفء على الأقل وهي معتقدات ناشئة عن نظام التربية الشركسية التي تؤكد على تعويد الاطفال على الحياة الصعبة ^(٣٨).

وكان يتم تدريب الاطفال بعد سن السابعة على الرماية والفروسية، وعلى استخدام كافة انواع الاسلحة بالتدريب، فمثلا كان الطفل يُدرب على استخدام السكين في اصابة هدف امامه أولا ثم خنجرًا ثم قوسًا وسهما، وبعد اتقان هذه المهارات كان يسمح له بالرمي على المسدس وأخيرا بالبندقية، وبعد اتقان مهارات استخدام هذه الاسلحة من الوقوف كان يبدأ تدريبه على استخدامها من على ظهر الحصان ماشيا أولا، ثم من الجري البطيء فالجري السريع ^(٣٩).

لا شك بأن التربية القومية الشركسية تهذب نفوس الشباب وتصلقهم وتقويهم من الناحية الخلقية، وتعدهم لتحمل المشاق والمتاعب في الحروب والاسفار، كما يتم تدريبهم على تحمل البرد القارس في الجبال الشاهقة والسهول الفسيحة دون شكوى أو تذمر.

إن حياة النقشف التي كانوا يعيشونها بحرمان النفس من الملذات كانت تكسبهم مناعة نفسية، ومثانة خلقية كما ساعدت هذه التربية على جعلهم يتحلون بأفضل الصفات وبأحسن المزايا، وجعلت منهم أمة أصبح لها شأن عظيم منذ أقدم العصور وأصبحوا مضرباً للأمثال بقولهم:

(الأنث الذي لا يعرف الكلل ولا الملل) * ^(٣٩)

وكان من نتائج الاساليب التي كان يتبعها الشراكسة في تربية وإعداد أبنائهم منذ الصغر، اكتسابهم كثيرا من الصفات والمزايا الشخصية التي جعلت منهم مقاتلين اشداء منذ سن الفتوة والشباب المبكر.. اعترف ببطولاتهم وشجاعتهم الاعداء قبل الاصدقاء.

* دور الاطفال والنساء في حال تعرضهم لغارة مفاجئة:

قال أحد الجنرلات الروس "عندما كنا نشن غارة مفاجئة على قرية ما بحيث يتعذر عليهم الفرار، فكانت القرية تتحول إلى ساحة حرب، وينطلق الرجال والنساء والاولاد من بيوتهم وهم يصيحون صيحات مفزعة، ويحاولون منع الجنود الروس من الدخول إلى بيوتهم ويدافعون عنها دفاع المستميت، ولا يفكرون في الاستسلام، لأن ذلك ليس له معنى عند الجركس".

ثم تبدأ الحرب داخل البيوت والغرف، وصاحب الدار يدافع عن بيته وذويه إلى آخر رمق من حياته، واما الاعداء فيطلقون بنادقهم على الرجال والنساء والاولاد دون تمييز وبلا استثناء، ويحاولون حرق المساكن وتحطيم الابواب والنوافذ. ورغم ذلك كان الروس لا يتمكنون من احتلال بيت او اجتياح مسكن إلا بعد ان يتحول إلى انقاض وخرائب يتصاعد منها النار والدخان.

كما كان للاولاد دور مساند في المعركة حيث كان الفرسان يصطحبون الاولاد للمعركة لكي يتركوا إليهم امر الاعتناء بخيلهم، وهؤلاء كانوا أحيانا يشتركون في المعارك ويتدربون على الامور الحربية على حداثة سنهم.

وكذلك فإن أسلوب تربية الاطفال والفتيان عامة واولاد الامراء خاصة خلقت من العديد منهم ابطالا وهم في سن الفتوة.. وخير مثال على ذلك بطولة الامير الفتى (بش قوي) من قبيلة البجدوغ الذي استطاع اسقاط الجنرال الروسي (زاس) من على ظهر حصانه وأخذه غنيمة له وهو في سن دون الخامسة عشرة وكذلك حرص الشراكسة على الاعداد المبكر للفتيان، فإن الاطفال الشراكسة عامة واطفال الابزاخ خاصة اقساموا على افتداء الوطن والدفاع عن بلادهم خاصة في المراحل الاخيرة من حرب الابداء والدمار.

* الانث هو الاسم الذي كانت تعرف به بعض القبائل الشركسية في مراحل ما قبل العصور الوسطى.

وأدرك القادة الروس هذه الحقيقة، وأصبح الشراكس الأطفال هدفا رئيسيا لحملاتهم وغزواتهم وارتكبوا في حقهم أبشع الجرائم.

وهذا ما نستدل عليه مما جاء في إحدى الوثائق الألمانية التي تقول: "لم يكتف الروس بما جنت أيديهم من ارتكاب المذابح الوحشية في حق المقاتلين الشراكسة من قتل والتمثيل بجثثهم حتى جعلوا الأطفال (الذين بقوا أحياء بعد إحدى المعارك التي وقعت في السنة الأخيرة من الحرب) هدفا لوحشيتهم وقتلهم جميعا بعد ربطهم ببعضهم البعض وإطلاق نار المدفعية عليهم بالجملة، وكذلك فإن أحد الجنرلات الروس يعترف في مذكراته بقوله:

" أثناء هجمائنا هرب الكثير إلى الغابات، وفي تلك المأساة الدموية غالبا ما كانت الأمهات يكسرن رؤوس أطفالهن لكي لا يقعوا في أيدينا أسرى" (٤٠).

الحقيقة العاشرة:

حرص القادة الشراكسة العسكريون منهم والسياسيون، كل الحرص على تقديم كل الخدمات، وتوفير جميع الاجواء التي من شأنها إتاحة الفرصة للمقاتلين الشراكسة من القتال بروح معنوية عالية وتقديم التضحيات حتى الشهادة والاستشهاد في سبيل الدفاع عن (الأرض والعرض) أولا وفي سبيل تحقيق حريتهم واستقلالهم ثانيا. ومن هذه الخدمات الرئيسية التي ساهمت في رفع معنويات المقاتل الشركسي وتهيئته نفسيا للتضحية بكل غال ونفيس هي توفير الخدمات والاجواء الاجتماعية النفسية التالية:

١ - الحرص على مراعاة المسائل الاخلاقية:

حرص القادة العسكريون الشراكسة ومن خلفهم المقاتلون كل الحرص أن لا يتخلوا عن قيمهم وأخلاقياتهم عامة والمتعلقة باحترام المرأة خاصة في ساحات المعركة، وخير دليل على ذلك هو ما ذكره أحد الكتاب القاصين على لسان بطلة قصته التاريخية الشركسية في حوارها مع البطل وملخصها:

"ولكن الروس يدعون ان الاديغة، او الشراكسة كما تسميهم انت، يقضون اوقاتهم في التحارب فيما بينهم، وفي سلب ونهب بعضهم البعض؟ فكان جواب بطل القصة: سأروي لك حادثا جرى بين الشراكسة والتتار.. حدث أن هاجم جيش تتري إحدى المقاطعات في بلاد القبرطاي حيث تصدى فرسان القبرطاي لهذا الجيش وكانوا على وشك ان يبيدوه، عندما استدار التتار معطين ظهورهم للفرسان للتسحاب، والشراكسة لا يقتلون عدوا أو خصما، يدير لهم ظهره، والتتار كانوا يعلمون "قانون الفرسان الشراكسة" هذا، وهكذا وصلوا انسحابهم إلى أن عبروا نهر (مالقا) وانطلقوا إلى السهوب الشمالية. وحدث أن كانت قوة قوزاقية تجوب تلك الانحاء في بحث عن غنيمة سهلة، ووجدوا ضالّتهم في التتار المنهزمين. وكان فرسان القبرطاي قد واكبوا التتار المهزومين إلى خارج حدود المقاطعة ليتأكدوا من عدم عودتهم مرة أخرى. لكنهم لما رأوا القوي يستقوي على الضعيف المنهزم.. عبروا النهر وهاجموا ودمروا القوات القوزاقية المعتدية، وأعادوا للتتار ما كان سلبهم إياه القوزاق.. فإذا كانت هذه حال الشراكسة مع اعدائهم، فهل يمكن للعاقل ان يصدق ما يشاع حولهم من أباطيل ما انزل الله بها من سلطان؟ (٤٢).

كما ذكر مؤرخ آخر حادثة تدل على مدى تمسك المقاتلين بأخلاقياتهم المتعلقة باحترام المرأة، وملخصها "أن المقاتلين كانوا يحاصرون (حصنا) ويطلقون النار عليه بكثافة.. وظهرت فجأة (امراة) وهي زوجة قائد (الحصن) الروسي وما كان من القائد الشركسي إلا ان أمر بايقاف إطلاق النار حتى تمر زوجة عدوهم القائد الروسي، لأن من العار على الشركسي حسب عاداتهم قتل امرأة وحتى لو كانت من الاعداء.

والزعيم الشركسي الكبير (جرى قوة شانيزة).. قال حول هذا الموضوع:

بالرغم عن كل وحشية والاعمال البربرية التي كان يرتكبها الروس التزمنا في حروبنا عامة ومع الروس خاصة، بأخلاقنا الشركسية لمدة طويلة، إلا أن مظالم الروس وعدم تقيدهم بمبادئ الرحمة والانسانية أخرجنا عن طورنا واضطرونا لارتكاب القسوة واستعمال الشدة، فلا لوم علينا.

٢- حرص القادة العسكريون الشركاسة على أداء الشعائر الدينية عامة والصلاة خاصة حتى في ساحات القتال:

يقول (فون فيل): عندما حانت ساعة الصلاة، توضع الشركاسة، ثم مدوا برانسهم واصطفوا في صفوف مستوية، ثم قرأ أحدهم عدة آيات من القرآن، وردد الآخرون خلفه بصوت مسموع. وبعد ذلك سجد الجميع وكرروا هذه الشعائر عدة مرات في اليوم ولم ينسوا قط واجباتهم الدينية في أي وقت، وفي أي موقف كان. فكانوا يؤدون صلواتهم في أوقاتها المحددة (٤٣).

٣- أداء القسم الحربي المقدس قبل بدء المعركة

من المراسم التي كانت متبعة في ساحات القتال هي أن يركب أحد الزعماء أو الرؤساء الدينيين حصانا ويقف في وسط الجموع ويتلو دعاء يبتهل فيه إلى الله أن يباركهم وينصرهم على أعدائهم ثم يختم الدعاء بقوله (أمين) وبعدها كان يتم أداء قسم الحرب ونصه "النصر على الأعداء أو الشهادة".

٤- عدم ترك شهدائهم وقتلاهم وجرحاهم في ساحات المعركة:

كان من العار على قائد أي مجموعة قتالية ترك أي قتيل أو جريح شركسي خلفه.. لذلك كانوا حريصين كل الحرص حتى ولو أدى ذلك إلى مخاطرة أو مجازفة بحياتهم.

وخير دليل على احترام المقاتلين الشركاسة لقتلاهم الشهداء أو جرحاهم هو ما ذكره "فون فيل" في كتابه (السنة الأخيرة) بقوله: بأن الشركاسة كانوا يجمعون قتلاهم وشهداءهم ويلفون جثثهم بالمعاطف، ويربطونها بالأربطة (كالمومياءات)، ويضعون القلب على عيونها، ويصفونها بجانب بعضها على ألواح من (الخشب) في وسط معسكرنا، أما الجرحى فيضعونهم حول النار ونساعدهم بإعطائهم القمصان لكي يمزقوها إلى قطع ويستعملونها لربط أطرافهم بدلا من الشاش الأبيض الذي لم يكن متوفرا لديهم".

ويضيف قائلاً "تم تجميع جثث القتلى والجرحى بجراحهم المدماة حول المواقع عند منتصف الليل وبدأ الجميع الغناء بصوت خافت أغنية حزينة، ثم ارتفع صوت أحدهم بكلمات واضحة جداً، ورافقته صرخات البقية متذكّرين قتلاهم، ومتحدثين عن قصص حياتهم. كان عدد حلقات الغناء ما بين (١٥-٢٠) حلقة منفصلة عن بعضها، وكل هذا كان في فترة النوم فلم نستطع إغلاق جفوننا لأننا كنا ننتظر هجوم الروس في كل لحظة.

واستطرد قائلاً: "كما ذكرنا فإن كثيراً من الجرحى لم يعيشوا حتى الصباح، وآخرون ماتوا خلال الأيام القليلة التالية وبعد شهر مات الباقون باستثناء من كانت جروحهم بسيطة جداً.

وأكد فون أن المقاتلين الشركاسة كانوا يتحملون آلام جراحهم بصلافة غير معقولة، حتى ذوق الجروح العميقة لم يعبروا عن آلامهم بصوت عال. وتابعوا أعمالهم لعدم لفت الانتظار إليهم، وردوا علينا عندما نصحبهم (بالراحة) قائلين: "إن الراحة لا تنفع بشيء، وسنقوم بالأعمال النافعة أكثر من قبل، كما قالوا لنا بأنهم سيموتون إذا لم يظهروا مقاومة للموت".

واستدرك "فون" قائلاً:

"لم نستطع أن نساعدهم أكثر لأننا (كفار) في نظرهم، وأنا نكون قد جلبنا لهم الشؤم لو صادف أن مات أحد الجرحى الذين ساعدناهم، إلا أن (الحاج) العجوز الذي كان معنا أيضاً قام بإسعافات أولية بإعطاء كل جريح قليلاً من مائه الطبي، وكنا نرى الجرحى المساكين دائماً مقطوعي الأعضاء، أو أن أجسادهم مثقوبة بالرصاص، ينزفون الدم كثيراً ولا يوجد من يستطيع أن يضمّد جرحاهم كما يجب، وكانت مجموعات من الشركاسة تجتمع حول الذين كانت جروحهم خطيرة

لمواساتهم ومشاركتهم الأهم ورغبة منهم في تخفيف آلامهم، أما المصابون بجروح طفيفة فلم يحظوا بأي اهتمام رغم أنه يمكن معالجتهم بأبسط السبل. وأما الجرحى الذين لا يستطيعون المشي وكذلك القتلى فقد تم نقلهم واعادتهم إلى قراهم على نقالات تم صنعها من أغصان الشجر حيث كان يحمل كل اثنين من المقاتلين قتيلا أو جريحا واحدا^(٤٥).

وفي رواية أخرى يصف (فون فيل) كيف كان يتم علاج الجرحى بقوله:

"جرح خلال إحدى المعارك عدد من المقاتلين الشراكسة وعثرنا عليهم في بيت صغير متداع يهتم بهم شيخ هرم كانت علومه الطبية لا تتعدى وسيلة واحدة يداوى بها جميع الأمراض. فقد أحضر معه خلال عودته من الحج (ختما) كتب عليه بعض الآيات القرآنية، وعندما يبدأ العلاج كان يضع حبرا على الختم ثم يطبعه على الورق في صحن مقعر مليء بالماء، وعلى المريض أن يشرب عدة جرعات من هذا الصحن، وبعدها يمكن للمريض الاطمئنان إلى شفائه السريع. وكان الشراكسة على اقتناع بهذا الطبيب الشعبي وهذا الدواء، ولذلك كانوا يقصدونه من أماكن بعيدة وبأعداد كبيرة فهو الطبيب الوحيد في المنطقة.

واستطرد قائلا:

تركنا الشيخ يعالج مرضاه وتوجهنا إلى الشاطئ حيث وجدنا مجموعة من المقاتلين يكمنون خلف تلة صغيرة. وقرب الشاطئ وضعنا زورقنا الذي أخرجناه من الماء، وتنبه الروس لوجودهم، وقصفوهم بالمدافع بشكل مركز، حتى أن الموجود فيه تسرب إلى رمال الشاطئ، وكان من الممكن أن ينزل الروس إلى البر لتدمير هذا الزورق المشؤوم فقررنا الاقتراب وعدم تركه تحت رحمة العدو. ولتغيير مكان كميننا كان يجب علينا المرور من ساحة مكشوفة تماما، وحتى هذا الوقت كان أربعة من رجالنا قد جرحوا بسبب القنابل التي أطلقها الروس، وتم نقلهم إلى كوخ الشيخ، وبقينا نحن وراء التل وبقربنا (إبراهيم). وكان طاقم الزورق في حالة من الانزعاج الشديد، فالبحارة الأتراك رأوا زورقهم محطما. و(إبراهيم) أضاع كميات من ملح البارود^(٤٥).

٤- من المسائل النفسية والروحية التي كان القادة العسكريون الشراكسة يحرصون التقيد على تنفيذ وصايا الأبطال المقاتلين من أمراء وغيرهم من المقاتلين حيث أكد المؤرخ الشركسي (نغموقة) على هذه المسألة بقوله:

إن الأمير (جمير غوقة) من القبرطاي وهو من الأبطال المقاتلين أوصى أن يدفن ممطيا صهوة جواده، متقلدا كامل ملابسه وعدته الحربية، وفعلا نفذت وصيته ودفن كما أراد.

وهذه الحقيقة تثبت مدى مراعاة القادة العسكريين والسياسيين تنفيذ رغبات الشهداء وغيرهم من الشهداء مهما كانت تلك الرغبات صعبة، احتراماً لمشاعر المقاتلين الشهداء ونزولا عند تحقيق رغباتهم التي كانت تأتي كوصايا.

٦- من القضايا الهامة والرئيسية التي كان القادة العسكريون في المجتمعات الشركسية يحرصون على إعطائها أهمية خاصة هو توفير الغذاء المناسب لكل مقاتل

توصلت (المرأة) الشركسية من صناعة انواع من الطعام لا تفسد بمرور الايام وهو الطعام الذي عرف باسم (غوملة) ويعد الغذاء الرئيسي للمقاتلين الشراكسة خلال الحروب او السفر الطويل، وهو يشبه العصيدة المصنوع من دقيق مضاف إليه العسل وبعض النباتات، وهو طعام فضلا عن قوتها الغذائية العظيمة فإنها كانت تبقى مدة طويلة دون أن تفسد، وهي تشبه الحلاوة الشركسية المعروفة حتى يومنا الحاضر.

كما كان شرابهم هو المشروب المغلي مع العسل والمضاف إليه دقيق (البروسا) حيث يترك لفترة عشرة ايام ليتخمر وهو شراب يشبه مشروب (البوزا) لدى المصريين.

كما كان القادة العسكريون يكلفون بعض المقاتلين لاصطياد الحيوانات من غزلان أو أرانب وكذلك اصطياد الطيور على اختلاف أنواعها وطهيها أولاً بأول للمقاتلين. وهذا هو سر من أسرار تمكن المقاتلين الشراكسة من الصمود أياماً واسابيع أمام هجمات القوات الروسية القيصرية.

٧- من القضايا الاجتماعية التي حرص القادة السياسيون والعسكريون الشراكسة إيلاءها أهمية قصوى هي:

رعاية الاطفال وكبار السن وكذلك زوجات وامهات المقاتلين خلال الحروب، فهذه المسألة كانت منظمة جدا في مجتمعات الأمة الشركسية في الأحوال الطبيعية عامة وفي حال تيتيم الأطفال وترمل النساء خاصة حيث كان يتم رعاية أسر الشهداء والقنلى من قبل مجالس الشعب عامة ومن الاقرباء والجيران خاصة، وان فكرة التكافل والتضامن الاجتماعي هي فكرة قديمة قدم المجتمعات الشركسية، ويعود إليها الفضل في عدم وجود فقراء (متسولين) او محتاجين أو مشكلة الاطفال المشردين او مشكلة رعاية كبار السن في المجتمعات الشركسية المعاصرة داخل الوطن او في بلاد المهجر في دول الشتات.. فالطفل والارملة تلقى كل رعاية من الاقرباء اولاً.. ومن اصدقاء العائلة ثانياً، ومن المجتمعات المحلية ثالثاً، وكذلك الأمر بالنسبة لكبار السن الذين قتل أو استشهد أبناءهم المعيلون لهم.

الحقيقة الحادية عشرة:

كانت الامة الشركسية حريصة على تخليد وتمجيد وتقدير أبطالهم الاحياء منهم والاموات، وأن هذه الحقيقة التي كانت وراء تنافس المقاتلين الشراكسة وقادتهم على تسجيل البطولات والأعمال الخارقة حبا في دخولهم سجل تاريخ الأمة الشركسية وحفر اسمائهم في سجل الشرف للابطال والعظماء لديها. وكانت من الوسائل التي استخدمتها الامة الشركسية منذ القدم لتخليد وتمجيد انجازات ابطالهم وعظمائهم من القادة وعامة الشعب ما يلي:

الوسيلة الاولى: عمل تماثيل للابطال والقادة العظماء

إن تاريخ الامة الشركسية عامة والقبرطاي منهم خاصة حافل بالابطال المقاتلين القوميين وقادة الفكر العظام الذين تم تخليد ذكراهم بعمل تماثيل لهم ومنهم:

* البطل (باقسان) ابن الامير (داو) الذي قتل هو وسبعة من اشقائه مع (٨٠) من الامراء والنبلاء وعلية القوم من القبرطاي على يد ملك (القوط Gaths) فقررت شقيقتهم الوحيدة عمل نصب تذكاري لهم من تمثال حجري منحوت من قطعة صخرية كبيرة نحتته فنان اغريقي، ويعرف حتى الآن بتمثال (باقسان).

والمثال الآخر على عمل تماثيل للابطال والقادة العظام هو تمثال (قازنوقة جباغي) المصلح الاجتماعي الشركسي العظيم الذي اشتهر بحكمته وقام بتجديد وتثبيت الانظمة الاجتماعية والمحافظة على التقاليد والعادات الشركسية (أديغة خابزة) وتنظيم الامور الداخلية لحياة الشعوب الشركسية وفي عهده بلغ شعب القبرطاي أوج مجدهم واستردوا هيبته ومكانتهم واكتسبوا احترام الكثير من الاقوام والامم^(٤٧).

الوسيلة الثانية: حرصت المجتمعات الشركسية منذ أقوام (النارتيين) في عصور ما قبل التاريخ وحتى العصر الحديث على تخليد وتمجيد ابطال الحروب والفرسان المقاتلين الشجعان حيث كان ينظم فيهم قصائد شعرية تتكلم عن بطولاتهم وشجاعتهم وبسالتههم.. والامثلة كثيرة جداً، حيث يوجد في التراث الثقافي الشركسي (المحكي) مئات القصائد التي تمجد الابطال والعظماء من المقاتلين والمفكرين والمصلحين السياسيين والاجتماعيين منها القصائد التي نظمت تمجيداً للأعمال البطولية التي قام بها المقاتلون الشراكسة في مدينتي (دربند وغولانات) من اكبر مدن دولة الخزر.

وكذلك تخليد بطولة المصارعة الشركسية (لاشين قوي) (Lashin-Koi) التي صرعت (قيسين) بطل الأبطال التتري في دولة خان القرم في عهد أميرها (كيناى خان) وهي المنازل التي سبق ذكرها .

أما النموذج الثالث من القصائد التي تمجد أعمال الأبطال والعظام، فهي القصيدة التي نظمت لتخليد ذكرى وقوع الأمير الجوقة في يد الأعداء من قوات دولة الخزر، وقضى في الأسر ثلاث سنوات، وأطلق سراحه بعد أن انتصرت جيوش الشراكسة واحتلوا مدينة (أزقلا Askala) عاصمة دولة الخزر بقيادة الأمير الشركسي (يزروقوة) من آل (يولاقوته).

الحقيقة الثانية عشرة

تنبه القادة السياسيين للشراكسة بأن قوات روسيا القيصرية تخطط للقضاء على الاقتصاد الشركسي والتمثل بالثروتين الزراعية والحيوانية من خلال قيامها بعمليات اتلاف المزروعات وحرقتها، وكذلك من خلال الاستيلاء على الثروات الحيوانية أو قتلها أو حرقها وإبادتها، هذا بالإضافة إلى قيامها بتدمير أو حرق مستودعات التموين التي تحتوي على الأغذية المحفوظة المكونة من أنواع من الجبن الشركسي المدخن واللحم المجفف والزيتون والعسل الأحمر والعسل العادي القابلة للحفظ بالإضافة إلى المخزون الاستراتيجي من القمح والذرة والدخن والبقول... الخ.

في ضوء تكرار استهداف الثروتين الزراعية والحيوانية وضع القادة الشراكسة خطة لحماية هاتين الثروتين وقرروا العمل على اتباع السياسات والأساليب التالية:

سياسة إخفاء المواشي: يقول أحد المؤرخين بأن ماشية الجركس وخيلهم وسائر حيواناتهم، كانت لا تحتاج إلى من يسوقها إلى الغابات بل كانت تتجه إليها من تلقاء نفسها بالغريزة حالما تبدأ تدوي أولى الطلقات النارية وسماع صيحة الحراس.

وفي الأحوال التي كان يهاجم فيها العدو بقوات كبيرة كانوا يجمعون المواشي والخيل وحتى الطيور في مخابئ داخل الغابات الكثيفة، بعيدا عن أعين الأعداء، إلا أن المشكلة ظلت قائمة في فصل الشتاء، وعندما يكون الطقس بارداً جداً، حيث كان يتعذر إخفاءها داخل الغابات خوفاً من مشكلة تعرضها للتجمد.

حفظ المواد التموينية و(الغذائية) داخل اقبية او داخل إبار او في المغر والكهوف الموجودة في الجبال العالية.

الحقيقة الثالثة عشرة:

من أكبر المشاكل التي واجهت قادة الشراكسة من أمراء (بشى) ورؤساء (تحمادة) وقادة عسكريين هي حماية الأطفال والنساء والشيوخ من كبار السن غير القادرين على حمل السلاح، وهي الفئة التي استهدفتها الاعتداءات الوحشية للقوات الروسية القيصرية في غزواتهم وهجماتهم، لعلمهم بأن الرجال الشراكسة البالغين يقاتلون في مواقع بعيدة عن قراهم، وأن هذه الفئة من الشعب الشركسي هم عزل وغير قادرين على الدفاع عن أنفسهم، وكذلك لعلمهم بمدى التأثير على نفسية ومعنويات المقاتلين الشراكسة المرابطين على جبهات القتال، عندما يسمعون بالمجازر الوحشية واللاإنسانية التي يرتكبها الأعداء الروس في حق أطفالهم ونسائهم وأبائهم أو أجدادهم.

ويؤكد المؤرخون بأنهم حاولوا معالجة هذه المشكلة بإرسال جميع الأولاد والشيوخ غير القادرين إلى داخل البلاد، ولا يبقى في المناطق المهددة سوى الرجال القادرين على القتال، ويُعينون لهم حراسا وخفراء من المشاة والفرسان ثم يهدمون بعد ذلك بيوتهم وجسورهم وطرقاتهم بأيديهم ويسدون المداخل والمسالك بالأعمدة والمتاريس وجذوع الأشجار، ويستجدون بالبلدان المجاورة، ويظلون حتى تصلهم النجدات وهم على استعداد واقفين بالمرصاد للعدو المتوقع قدومه في كل لحظة.

إلا أن المشكلة ظلت قائمة في فصول الشتاء وأمام البرد القارس، حيث كان يتعذر نقلهم إلى مثل تلك المخابي، وبالتالي ظلوا هدفا سهلا للقوات الروسية والقوقازية التي لجأت لكل الوسائل والسبل التي من شأنها تحقيق الإبادة البشرية بعد أن قاموا بتدمير البنية التحتية من بيوت وممتلكات وطرق ومصادر مياه، بالإضافة إلى تدمير الثروتين الزراعية والحيوانية.

الحقيقة الرابعة عشرة والأخيرة:

يقول العالم المجري المختص بدراسة الشعوب (جان شارل دي يس) في عام ١٨٢٩ بأن: "ملابس الشراكسة العسكرية كانت خفيفة وأنيقة وتتناسب جدا مع امتطاء الخيول وخوض المعارك، فهم يرتدون قمصانا من الكتان أو التافتا البيضاء أو الصفراء أو الحمراء، وتزرر هذه القمصان من الأمام ويرتدون فوق القمصان سترا من الحرير من ألوان مختلفة وتدعى "كابتال"، ومن ثم معاطف طويلة تصل إلى أعلى الركبة تسمى (تسيه)، وتثبت عند الخصر بأحزمة ومثبتات من المعادن الثمينة. وعلى صدر المعطف ومن كلا الجانبين توجد ثمانية أماكن لوضع الطلقات" ثم يتابع بالتفصيل وصف البناتيل والاحذية والقبعات، ولكنه يضيف لاحقا قائلا: "بأن زيهم العسكري رائع للغاية ويجلب انتباه كل من يراه. وبالفعل فإن للشراكسة شكلهم العسكري المميز عن غيرهم خاصة وهم يمتطون ظهور الجياد منذ الطفولة حاملين أسلحتهم، وقد يمضون أحيانا يوما كاملا على ظهور الخيل، وأسلحتهم من النوع الممتاز، وغالية الثمن جدا، ويحتفظون بها دائما نظيفة براقية، كما يعتنون بخيولهم طوال الوقت ويضعون عليها سروجاً خشبية أنيقة جدا شبيهة بالسروج المجرية" (١٠).

مراجع ومصادر الفصل السابع

- ١) جوناتوقة، مصدر سابق، ص: ٢٣.
- ٢) حراتوقة، مصدر سابق، ص: ٣٦.
- ٣) جونا توقة، ص: ٢٢٢.
- ٤) الوثائق الروسية، إبادة الشراكسة ص: ٦٥-٦٦.
- ٥) المفتي، شوكت، ص: ٨٢، مصدر سابق، ص: ٧٩، ٨٢، ٨٣.
- ٦) نغموقة، مصدر سابق، ص: ٢٣-٢٤.
- ٧) جونا توقة: مصدر سابق، ص: ٢٢٣.
- ٨) مامخيغ، رايا - مصدر سابق، ص: ٢٧-٢٨.
- ٩) مدخل إلى تاريخ الشراكسة، مصدر سابق، ص: ٧١.
- ١٠) مامخيغ، رايا، مصدر سابق، ص: ٢٤ - ٢٨.
- ١١) نغموقة، مصدر سابق، ص: ٤٩-٥٠.
- ١٢) مدخل إلى تاريخ الشراكسة، مصدر سابق، ص ٧١-٧٢.
- ١٣) ماركس، كارل، المجلد / ٩، ص: ٢٠٠.
- ١٤) بلياخوف، مؤرخ روسي عسكري - مؤلف كتاب الأساليب القتالية للقبرطاي، نشر باللغة الروسية ونقلت عن (رايا مامخيغ) في كتابها لمحات عن العادات الشركسية (الأديغا خابزة) ترجمة نزيه جلاحج، دمشق عام ٢٠٠٦، ص: ٤٧.

- ١٥) م. ارفولدي، اساليب الجبلين في القتال - منشور باللغة الروسية ونقلت عند (رايا مامخيغ) - مصدر سابق، ص: ٤٧.
- ١٦) أدت، بيليايف - الآلام والاحاسيس - منشور باللغة الروسية ونقلت عن - رايا، مامخيغ - مصدر سابق، ص: ٤٧.
- ١٧) مامخيغ، رايا - مصدر سابق، ص: ٤٨.
- ١٨) نغموقة، مصدر سابق، ص: ٢٣-٢٤.
- ١٩) جوناتوقة، مصدر سابق، ص: ٢٢٣.
- ٢٠) الوثائق الروسية، إبادة الشراكسة - مصدر سابق، ص: ٦٤.
- ٢١) الوثائق الروسية، المصدر نفسه، ص: ٦٤.
- ٢٢) الوثائق الروسية، المصدر نفسه، ص: ٦٧.
- ٢٣) جونا توقة، مصدر سابق، ص: ٢٢٣.
- ٢٤) مصدر سابق، ص: ١٥٠.
- ٢٥) جوناتوقة، مصدر سابق، ص: ٢٢٤.
- ٢٦) الوثائق الروسية، إبادة الشراكسة، ص: ٦٨-٦٧.
- ٢٧) مصدر سابق، ص: ١٥.
- ٢٨) المصدر نفسه، ص: ٦٣.
- ٢٩) المصدر نفسه، ص: ٧٠-٧١.
- ٣٠) المفتي، شوكت، وثيقة المائنة، مصدر سابق، ص: ٢٠٣.
- ٣١) الوثائق الروسية - إبادة الشراكسة، ص: ٣٩.
- ٣٢) المفتي، شوكت، وثيقة المائنة - مصدر سابق، ص: ٢٠٥.
- ٣٣) جوناتوقة - مصدر سابق، ص: ٢٢٢.
- ٣٤) المصدر نفسه، ص: ٢٢٣.
- ٣٥) الوثائق الالمانية، شوكت المفتي - مصدر سابق، ص: ٢٤٠.
- ٣٦) حراتوقة، مصدر سابق، ص: ٥٤.
- ٣٧) فيدوفيتش بيرغ، ذكريات عشر سنوات في بلاد الاديغة (١٨٣٠-١٨٤٠) ونقلت عن (رايا مامخيغ) مصدر سابق، ص: ٢٩.
- ٣٨) سمكوغ، برزج، مصدر سابق، ص: ٦١.
- ٣٩) نغموقة، مصدر سابق، ص: ٢٧-٢٨.
- ٤٠) المفتي، شوكت، مصدر سابق، ص: ١٤٧-١٤٨.
- ٤١) المصدر نفسه ص: ٣٠٣.
- ٤٢) حاراتوقة، مصدر سابق، ص: ٩٦.

- ٤٣) فون، فيل، مصدر سابق، السنة الأخيرة ص: ٤٣.
- ٤٤) المصدر نفسه ص: ٥١-٥٢.
- ٤٥) المصدر نفسه ص: ٣٤.
- ٤٦) جون، بادلي، احتلال القوقاز ونقله عن شوكت المفتي في كتابه أباطرة وأبطال، ص: ٦٧.
- ٤٧) الشاعر الروسي كومونتوف، كتابه بطل الزمان، نقل عنه شوكت المفتي في كتابه أباطرة وأبطال ص: ٦٧.
- ٤٨) المفتي، شوكت ، المصدر نفسه ص: ٦٦.

الفصل الثامن

الوسائل والإجراءات السياسية التي استخدمها قادة الأمة الشركسية في زمن الحروب عامة وحروب روسيا القيصريّة خاصة

توصلنا من تحليل الوسائل والأساليب والممارسات والأعمال والأفعال التي ارتكبتها سلطات روسيا القيصريّة وجيوشها المدججة بأحدث الأسلحة في حربيها مع الشعوب القوقازية عامة، وضد الأمة الشركسية خاصة إلى حقيقة مفادها أنّ السلطات الروسية استخدمت العديد من الأفعال والأعمال التي وصلت في بعضها لمستوى جرائم حرب وأن أكثر الأعمال والسياسات التي لجأت إليها تمثلت في ارتكاب:

أعمال وحشية وأفعال بربرية لا أخلاقية ولا إنسانية ضد السكان العزل، والاستيلاء على الأراضي لغايات بناء القلاع والحصون، وقتل الأسرى وكبار السن والأطفال والنساء العزل، وتجويع السكان بعد محاصرتهم لفترات طويلة، واستخدام أساليب الدس والإيقاع بين الشركاسة وبين شعوب قوقازية أخرى، وتحريض الفلاحين وعامة الشعب الشركسي ضد امرائهم ونبلائهم، ومحاربة انتشار الاسلام، والعمل على نشر الامراض المعدية بين السكان وكذلك بين الحيوانات والطيور، بالإضافة لاستغلال قسوة الطبيعة وسوء الاحوال الجوية في المناطق الجبلية في القفاس وشن هجمات خلال الظروف الجوية القاسية... الخ.

وبالمقابل فإن الدارس لوقائع واحداث الحروب الدامية بين الجيوش الروسية والمقاتلين الشركاسة، يجد بأن قادة الأمة الشركسية لم يبقوا مكتوفي الايدي امام وحشية وبربرية القوات الروسية بل تعاملوا معها بطرق وأساليب أكثر حضارية من الاساليب التي استخدمتها السلطات الروسية.

ومن هذه الاساليب هي:

حاول قادة وزعماء وامراء الشركاسة عامة وشركاسة القبرطاي خاصة التقرب من السلطات الروسية القيصريّة، وعدم إظهار أية عداوة لهم وقيامهم بمبادرات عديدة لعقد اتفاقيات صداقة ومعاهدات سلام ابتداء من منتصف القرن السادس عشر الميلادي.

وعندما نكث بعض قياصرة الروس الاتفاقيات والعهود الموقعة مع امراء شركاسة القبرطاي وشنهم للهجمات تلو الأخرى على بلاد الشركاسة، تصدّي الشركاسة لهم بكل قوة ودافعوا عن (الأرض والعرض) بشجاعة ورجولة مستخدمين في ذلك خبراتهم القتالية المميزة والتي اكتسبوها من خلال مئات الحروب التي خاضوها ضد الشعوب والأمم والقبائل التي غزت بلاد الشركاسة ابتداء من القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن السابع عشر الميلادي.

وعندما تطورت الحروب الروسية / الشركسية قام قادة وزعماء الشركاسة باستخدام أكثر من أسلوب لتعبئة الأمة الشركسية وحشد إمكاناتها البشرية والاقتصادية.

وفيما يلي حقائق حول الوسائل والأساليب والسياسات والأعمال التي استخدمتها الأمة الشركسية في التصدي لحروب الإبادة والدمار التي نفذتها جيوش السلطات الروسية القيصريّة ضد الأمة الشركسية.

أولاً: سياسة التقارب مع سلطات وقيصرة روسيا:

من السياسات التي اتخذها أمراء الشراكسة للحفاظ على وطنهم الام، وفي دفاعهم عن استقلالهم، وفي تمسكهم بأرض الأجداد هو أسلوب التقارب مع السلطات الروسية أولاً، وفي إعلان الولاء والطاعة للقيصرة، وعدم إظهار أية عداوة لهم ثانياً، وهي السياسة التي اتبعها امراء (القبرطاي) الذي يمكن تسميتهم بأمراء السلام منذ منتصف القرن السادس عشر ميلادي، والدارس للعلاقات الشركسية / الروسية عامة وعلاقتهم (بشراكسة القبرطاي) خاصة يجد بأن هؤلاء الامراء لم يتركوا مناسبة واحدة في حينها، دون إظهار حسن النية، وإعلان رغبتهم في العيش بسلام وأمان مع الروس، بل إنهم أعلنوا أكثر من مرة بأنهم أي (القبرطاي)، يرغبون في عقد اتفاقيات تعاون، ومعاهدات سلام مع القياصرة الروس.

وفي بحثنا حول تاريخ العلاقات بين الأمة الشركسية وسلطات روسيا القيصرية وجدنا بأن الشراكسة "القبرطاي" اتخذوا السياسات التالية:

(١) توقيع أول معاهدة تعاون بين القيصر ايفان الرهيب والامير تيمروقة عام ١٥٥٧م

في منتصف القرن السادس عشر، وعندما قررت قيادات شراكسة القبرطاي البحث عن حليف لهم لحمايتهم من أخطار واعتداءات (خانات القرم التتار) لم يترددوا في التوجه إلى القيصر الروسي (ايفان) الملقب بايفان الرهيب عارضين عليه رغبتهم في عقد اتفاقية تعاون معه، وبالرغم من تشدد القيصر في شروطه وافق الأمير (تيمروقة ايدار) امير القبرطاي آن ذاك، على شروطه ووقع مع القيصر ايفان اتفاقية تعاون في عام (١٥٥٧) بعد ان قدم عدداً من أولاده ومن أولاد العديد من النبلاء كرهائن، حيث قام القيصر بتعميدهم وتنصيرهم، كما وافق الامير على تزويج ابنته الاميرة (مارينا) للقيصر (ايفان) يوم ١٥٦١/٨/٢١ والتي عمدت تحت اسم الاميرة (ماريا).

(٢) اداء قسم يمين الولاء والطاعة للقيصر ميخائيل رومانوف.

وفي عام ١٦١٤ وبمناسبة تنصيب (ميخائيل رومانوف) قيصرًا جديدًا على روسيا، أرسل أكثر من عشرة من امراء القبرطاي كتاب تهنئة للقيصر الجديد وأدوا له يمين الولاء بحضور (ممثّل) القيصر شخصياً ونصت (وثيقة الولاء) على ما يلي:

ضمان السلام للقيصر ولبلاده، والقيام بكل واجبات الطاعة والولاء التام من قبل الامراء انفسهم ومن قبل اخوتهم واقاربهم ومن جميع سكان القبرطاي من جميع الطبقات، وأن لا غرض لهم سوى الخدمة والطاعة للحاكم العظيم وامير الامراء القيصر، طوال حياتهم بكل صدق وامانة وأن لا هدف لهم في الحياة سوى البقاء تحت طاعته.

وفي فقرة أخرى، تعهد الامراء الموقعين على هذه الوثيقة بما يلي:

مقاتلة اعداء روسيا او من عصى امره بمجرد اشارة إليهم من القيصر والتعهد بمعاقبة كل من يتأخر عن تنفيذ او امره لحظة واحدة.

وفي الفقرة الثالثة، من الوثيقة تعهد الامراء الشراكسة الموقعين على الوثيقة ان لا يعاشروا الامراء الذين لا يخدمون (القيصر) حق خدمته وأن لا يعصوا أمراً للقيصر ولا يسيئون إليه، ولا إلى الذين لا يعتدون على البلاد الخاصة به، والذين لا يشتغلون بأعمال النهب والسلب وسرقة المواشي، ولا يأسرون أيًا من أتباعه.

وفي فقرة رابعة، من الوثيقة نجدهم يؤكدون للقيصر بعدم الاعتراف أو مجالسة أي خائن لبلاد القيصر، كما تعهدوا للقيصر بعدم مرافقة أي قادم إلى موسكو أو أية مدينة من المدن الروسية الكبرى بهدف (التجسس) أو القيام بإرشادهم إلى تلك المدن أو يدلهم على أي تابع من اتباع القيصر العظيم.

وفي الفقرة قبل الاخيرة، من وثيقة الولاء، تعهد الامراء الموقعين بعدم المشاركة بأيّة مؤامرة أو بأي عمل فيه خيانة للقيصر العظيم واما الفقرة الاخيرة من الوثيقة فكان نصها كما يلي:

"اقسم (اليمين) بتحقيق وتنفيذ كل ما جاء في هذا الكتاب للقيصر العظيم وامير الامراء (ميخائيل فيردورفيتش رومانوف) الحاكم على جميع البلاد الروسية".

(٣) اداء قسم يمين الولاء للقيصر ميخالوفيتش

وفي عام ١٦٤٥ ارسل بعض امراء الشراكسة ونبلاؤهم للقيصر الجديد ميخالوفيتش بمناسبة توليه حكم روسيا واقسموا له اليمين ليكونوا في خدمته كما كانوا في خدمة سلطة القيصر (ميخائيل رومانوف).

(٤) حافظ بعض امراء القبرطاي على اداء يمين الولاء لكل قيصر جديد يتسلم سدة الحكم في العاصمة الروسية حتى عام ١٧٢٢م

حيث تكشف نوايا وأهداف السلطات الروسية القيصرية العدائية بعد حادثتين حدثتا خلال القرن الثامن عشر هما:

الحادثة الأولى: قيام القيصر بطرس الكبير بحملة عسكرية ضد الشعوب القفقاسية، حيث بدأ حملته الأولى ضد الشيشان والداغستان واتبعتها بحملة ثانية ضد بلاد القبرطاي عام (١٧٢٢) ميلادية.

الحادثة الثانية: الكشف عن نص التقرير السري الذي سبق أن رفعه (بوتومين) إلى القيصر الكسندر الثاني والمتضمن خطة السلطات الروسية القيصرية للاستيلاء على القفقاس (أرضا بلا سكان)، وتضمن التقرير السعي لتحقيق أربعة أهداف رئيسية كما تضمن تفاصيل السياسة المستقبلية للسلطات الروسية القيصرية في حربهم ضد الشعوب القفقاسية عامة والشركسية منهم خاصة .

أدرك امراء الشراكسة عامة وأمراء القبرطاي خاصة بعد هذين الحادثين بأن قياصرة الروس يخططون لإبادة الشراكسة، وتدمير بلادهم، وبالتالي غير غالبية امراء الشراكسة من سياسة المهادنة والتقرب من القياصرة الروس بل إنهم حاربوا الروس بعدها خمس عشرة سنة.

(٥) قيام بعض امراء القبرطاي استرضاء الامبراطورة كاترينا الثانية:

إلا ان عددا من امراء القبرطاي وبعد انتهاء المعارك ضد الروس على خلفية الخلاف على (حصن مزدوك) والتي دامت حوالي (١٥) سنة بشكل منقطع حاولوا استرضاء الامبراطورة (كاترينا الثانية) بإرسال اثنين من أمراء الشراكسة في عام (١٧٧١) إلى مدينة سان بطرسبرج، حيث قدما للامبراطورة الولاء والطاعة التامة باسم شعب القبرطاي في حال تنفيذها مطالبهم المتعلقة بالأمور التالية:

- هدم حصن (مزدوك).
- عودة الشراكسة الهاربين إلى حصن (مزدوك) إلى موطنهم الاصلي.
- عدم عرقلة السلطات الروسية لامتلاك الأراضي.
- وقد وافقت الامبراطورة على مطالبهم باستثناء هدم حصن (مزدوك).

إلا أن رسالة الأميرة إلى أمراء القبرطاي بعد توقيع اتفاقية الهاربين إلى (مزدوك) تضمنت بأن تنفيذ مطالب امراء القبرطاي سيتم فقط في حالة استمرار إخلاصهم للدولة الروسية، وإذا حدث أي شيء خلاف ذلك فإن الامبراطورة ستقوم بمعاينة شعب القبرطاي بغض النظر عن الخدمات التاريخية التي قدمها للدولة الروسية. ويؤكد المؤرخون بأن شعب القبرطاي تلقى رسالة الامبراطورة وتهديداتها بتحفظ شديد وقال الأمير (كاسيا اتاجوكين) "سنكون اذن تحت الوصاية الروسية كما حصل مع شعب (القالموق) الذين تشرذموا واضطروا إلى مغادرة بلادهم، وأخشى أن يلقي القبرطاي نفس المصير واضطروا إلى المغادرة إلى الجبال".

(٦) محاولة امراء الشراكسة تذكير الامبراطور الاسكندر الأول بالاتفاقيات والمعاهدات الموقعة منذ عهد ايفان الرهيب وكاترينا الثانية.

أرسل زعماء القبرطاي في عام ١٨١١ بعريضة إلى الامبراطور اسكندر الاول، تضمنت إخلاصهم للقيصرية الروس ابتداء من عهد (إيفان الرهيب) عام ١٥٥٧ وحتى عهد الامبراطورة (كاترينا الثانية) في عام ١٧٧١ .. كما أعربوا فيها عن قلق شعب القبرطاي بأحداث السنوات الأخيرة من قتل وتدمير وإبادة .. كما تحدثوا عن القلاع والحصون الروسية التي زرعت في بلاد الشركاسة، وعن الأراضي التي استولت عليها السلطات الروسية بدون وجه حق .. الخ.

وتظاهر القيصر بأنه يقدر أسباب قلق شعب القبرطاي .. وأنه أمر بتشكيل وحدة حرس خيالة خاصة من أبناء عائلات الأمراء والملوك والاحرار الشركاسة ووضعها تحت قيادته شخصيا .. وألغيت هذه الوحدة بعد خمس سنوات بطلب من القائد الروسي الجنرال (يرمالوف).

وفي عام ١٨١٨ شكل شعب القبرطاي وفدا مكوناً من أكبر الأمراء سنا ومقاما بلغ عددهم (٧) أمراء وتوجهوا إلى القيصر أسكندر الأول مطالبين التصديق على الامتيازات التي منحتها إياهم الامبراطورة كاترينا الثانية سابقا، كما قدموا مطالب أخرى منها إعادة بلادهم الواقعة ما وراء (المالقا).

(٧) المحاولات الأخيرة لقادة وشعوب الأمة الشركاسة الأخيرة في العيش بسلام مع سلطات روسيا القيصرية

بالرغم من الاعمال الوحشية التي كانت ترتكبها الجيوش الروسية .. وبالرغم من سياسة الإبادة والتدمير التي اتبعتها القادة السياسيون والعسكريون ضد الأمة الشركسية، فإن القادة العسكريين والسياسيين القبرطاي وبتأييد من الشعوب عامة والنبلاء الشركاسة خاصة لم يتخلوا عن اتباع سياسة العيش بسلام مع السلطات الروسية القيصرية حتى السنة الأخيرة من هذه الحروب.

وخير دليل على هذه السياسة السلمية تلك الأحداث والوقائع السلمية التي حدثت خلال الفترة ما بين (١٨٢٨-١٨٦٣) وأهمها:

- أعلن عدد كبير من الشركاسة في عام ١٨٢٦ الرغبة للعيش بسلام مع الروس شريطة أن لا يقوم الروس بأية اعمال عدائية ضدهم .. إلا أن السلطات الروسية لم تتجاوب مع هذه الرغبة وواصلوا حربهم بكل شراسة ووحشية ضد الشركاسة في كل مكان في شمال القفقاس.
- وفي الحرب الروسية / التركية عامي ١٨٢٨-١٨٢٩ وقف شعوب الأديغة على الحياد ولم يقاتلوا مع الاتراك، ولم يرفعوا السلاح ضد القوات الروسية ايضا كما ان الفلاحين لم يشاركوا في الحرب مع احد الطرفين، وبعد انتهاء الحرب لم تسلم هذه الفئة وغيرهم من الشركاسة من شر القوات الروسية، وطلب الجنرال الروسي (إيمانويل) من جميع الشركاسة إعلان الولاء للسلطات الروسية القيصرية دون قيد أو شرط وتوعدهم باتخاذ اجراءات قاسية ضدهم. وعندما رفض نبلاء الناتخواج اعلان الولاء لروسيا قام بمهاجمتهم وتدمير حوالي ٢٧ قرية بالإضافة إلى تدمير مستودعات احتياطي القمح وغيرها من مستودعات المواد الغذائية.
- دعا الشابسوغ والناتخوج إلى اجتماع شعبي عام ١٨٣٩ لمناقشة إجراء محادثات سلام مع السلطات الروسية القيصرية إلا أن عميلين اثنين من عملاء الانجليز قاما بتقديم وعود كاذبة تضمنت خطة كل من ملك انجلترا ومحمد علي الكبير حاكم مصر والسلطان التركي (الاعلان عن استقلال تشركسيا) .. وبرزوا صورة عن الاعلان المنشور في مجلة انجليزية التي كان يصدرها العميل الانجليزي (اوركارت) فصدق الشركاسة الوعد وغضوا النظر عن عقد اتفاقية سلام مع السلطات الروسية القيصرية.
- في صيف عام ١٨٣٨ قامت مجموعة من الزعماء الموالين للروس بالدعوة لاجتماع شعبي لمناقشة المسألة الرئيسية، وهي كيفية التعامل مع السلطات الروسية القيصرية، واتفق زعماء الناتخواج على مبدأ الخضوع لروسيا بشرط إزالة القلاع والتحصينات الروسية الموجودة في أراضيهم، والوعد بعدم بناء قلاع جديدة مستقبلا.

- اعترف الازاخ والشابسوغ في عام ١٨٦٣ بالسلطة الروسية القيصرية دون قيد أو شرط، مع طلب وحيد وهو السماح لهم بالبقاء في اماكنهم للسنة القادمة، بعدها سيقومون بالهجرة.. إلا ان السلطات رفضت طلبهم واقتادوهم بالقوة إلى شواطئ البحر الاسود ولم يعطوا الوقت الكافي لجمع أمتعتهم^(٧).

ثانيا: سياسة الانفتاح على العالم الخارجي بحثاً عن دعم عسكري وسياسي واقتصادي:

بعد ان تأكد قادة وزعماء الشراكسة استحالة التفاهم مع سلطات روسيا القيصرية، وبعد أن انكشف لهم بأن قياصرة روسيا وقادتها السياسيين والعسكريين يخططون للاستيلاء على (الأرض بلا سكان) قرر زعماء الشراكسة الانفتاح على العالم الخارجي عامة، وعلى بعض الدول الأوروبية العظمى خاصة، وبدأ هذا الانفتاح في مطلع القرن التاسع عشر، بعد أن كان الانفتاح في القرنين الماضيين (السابع عشر والثامن عشر) مقصوراً على الدولة العثمانية وخانات القرم من التتار والنجوي والمتمثل بعقد أول اتفاقية اتحاد مع أهل القرم وتشكيل قوة عسكرية مشتركة في عام ١٧٦٧ لطرد القوات الروسية من الأراضي التي احتلتها في تلك الفترة، كذلك توقيع معاهدة التعاون بين الباب العالي التركي وامراء وزعماء القبرطاي في عام ١٧٧٩.

وتشير الوثائق بأن أول انفتاح واتصال سياسي حقيقي مع دول أوروبية بدأ بعد اجتماع المجلس القومي الشركسي، الذي عقد في مطلع القرن التاسع عشر الذي تقرر فيه القيام بمساعي كبيرة للاتصال مع بعض زعماء الدول الأوروبية، حيث تم إرسال الوفود إلى عواصم الغرب مثل لندن وباريس واستانبول، وفي العاصمة العثمانية اجتمعت هذه الوفود، بوفود أخرى قدمت من الداغستان، وتمكنت هذه الوفود من لفت أنظار العالم إلى الحرب القوقازية والاحداث الدموية الجارية فيها.

وبعد عودة هذه الوفود، عُقد اجتماع سياسي كبير حضره جميع الامراء والرؤساء والقادة العسكريون لتدارس النتائج، حيث تقرر في هذا الاجتماع تحديد السياسة الخارجية للشراكسة .. كما تم وضع الأهداف المطلوب تحقيقها من الاتصالات الخارجية التي تتم بطريقة مباشرة من خلال سفر الوفود أو استقبال وفود أو بطريقة غير مباشرة من خلال إرسال البيانات والنداءات والرسائل لرؤساء وملوك وقادة مختلف الدول الأوروبية والاسيوية والافريقية، ومن الاهداف التي كان يسعى الشراكسة لتحقيقها من مثل هذه الاتصالات هي:

أهداف سياسية وإعلامية مثل:

- ١- الحصول على تأييد سياسي دولي للأمة الشركسية في دفاعها عن (الأرض والعرض) وفي حقها الحصول على استقلالهم، والعيش بسلام على أرض الاجداد في الوطن الأم.
- ٢- كشف الاعمال الوحشية والافعال البربرية، والاجراءات غير الاخلاقية والممارسات غير القانونية التي ترتكبها قوات روسيا القيصرية بدعم وتأييد من السلطات الرسمية ضد الشعوب القفقاسية عامة والأمة الشركسية خاصة.
- ٣- الكشف عن جرائم الإبادة والدمار التي وصلت إلى مستوى جرائم الحرب تلك التي نفذتها القوات الروسية ضد الأطفال والنساء وكبار السن والسكان العزل الشراكسة.
- ٤- تشكيل لجان اعلامية وصحفية من المختصين في الدول الصديقة بالتعاون مع لجان وجمعيات الصداقة الشركسية التي شُكلت في كل من لندن وباريس واستانبول، للقيام بتجنيد كتاب وصحافيين لنشر مقالات عن وحشية وبربرية أعمال الروس، وعن عدالة القضية الشركسية وحقهم في الدفاع عن انفسهم للحفاظ على استقلالهم، وكذلك نشر حقائق الدمار الذي لحق بالقرى الشركسية والإبادة الجماعية التي كان يتعرض لها السكان الآمنون.

أهداف عسكرية:

- كان من أهداف الشراكسة في اتصالاتهم الخارجية هو الحصول على:
 - ١- تسليح المقاتلين الشراكسة بالأسلحة المناسبة للدفاع عن وطنهم بشكل عام، وملح البارود والتسليح المدفعي بشكل خاص، حيث كان المقاتلون الشراكسة ينقصهم هذين النوعين من الأسلحة والعتاد.
 - ٢- ايفاد خبراء عسكريين لتدريب المقاتلين الشراكسة على استخدام سلاح المدفعية وصناعة البارود.
 - ٣- استقبال متطوعين للقتال مع الشراكسة بالأخص المتطوعين ذوي الخبرة في حرب العصابات.
 - ٤- الحصول على دعم مادي من المتبرعين المؤمنين بعدالة قضية الشراكسة.

أهداف تجارية اقتصادية:

من الاهداف غير المباشرة من الاتصالات الخارجية كانت اهداف تجارية اقتصادية نذكر منها:

- ١- زيادة المعاملات التجارية مع كل من الاتراك والانجليز وبعض الدول الاوروبية بهدف تسويق المنتجات الزراعية والصناعات الخفيفة التي كان يشتهر بها الشراكسة، والحصول على البضائع والمواد الاكثر حاجة للشراكسة خاصة ما يتعلق منها بالاقمشة، والمواد التموينية مثل السكر.
 - ٢- استخدام عمليات التجارة كوسيلة لتهديب الأسلحة والمعدات العسكرية للمقاتلين الشراكسة. تلك هي الاهداف المباشرة وغير المباشرة التي كان قادة وزعماء الشراكسة يسعون لتحقيقها في سياستهم للانفتاح والاتصال على العالم الخارجي عامة والدول الاوروبية خاصة.
- واما الدول التي استجابت لاتصالات الشراكسة فهي:

انجلترا، فرنسا، تركيا، البولنديون، الشراكسة المهاجرون سابقا لتركيا، وبعض الدول الاوروبية

وبالرغم من عمق العلاقات الثنائية بين الشراكسة وبين هذه الدول فإن الدعم الذي تلقته الامة الشركسية خلال الخمسين سنة الأخيرة من حربهم ضد جيوش روسيا القيصرية، كان دعما متواضعا، بل بالعكس فإن هذه العلاقات كانت ضارة للقضية الشركسية أكثر مما كانت نافعة ومفيدة، وان بعض الاسباب التي ادت لانتصار روسيا القيصرية عسكريا وسياسيا هي خيانة كل من دول الحلفاء الثلاثة (تركيا وانجلترا وفرنسا) لقضية استغلال الشراكسة وعدم استمرار ضغطهم عسكريا على روسيا في حربهم المعروفة باسم حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦). علما بأن قوات التحالف الثلاثي كانت منتصرة على القوات الروسية عندما قرروا إيقاف الحرب والذهاب إلى (مؤتمر باريس) وتوقيعهم اتفاقية مع روسيا في عام ١٨٥٦، تنازل فيها الحلفاء عن بلاد (تشركيسيا) لقياصرة الروس، بعد ان كان مقررا منح الشراكسة استقلالها وتكوين دولتهم المستقلة عن روسيا القيصرية (كما سبق التحدث عنها).

وللأمانة العلمية يجب الإشارة بأن الشعب الوحيد الذ وقف بصدق مع الشراكسة في حربهم ضد جيوش قياصرة روسيا هو الشعب البولندي الذي قدم دعما عسكريا وسياسيا واعلاميا حقيقيا وصادقا.

ثالثا: سياسة التوحيد والوحدة والاتحاد ورفع شعار (في الوحدة قوة).

عندما شعر قادة وزعماء الشركاسة بفشل السياسة السلمية في التعامل مع قياصرة الروس وانهايار سياسة التقارب مع سلطات روسيا القيصرية، وبعد ان تأكد لهم بأن الروس يخططون للاستيلاء على بلاد القفقاس عامة وبلاد الشركاسة خاصة (ارضا بلا سكان) خططت القيادات الشركسية لاتباع سياسة التعبئة الشعبية والعمل على توحيد القبائل الشركسية المنتشرة في مناطق حوض نهر (الترك) وهم القبرطاي، وكذلك القاطنين منهم في مناطق ما وراء الكوبان من قبائل البسلني والأديغة وعددها (١٢) قبيلة. علما بأن مسألة توحيد او اتحاد القبائل الشركسية كانت من المسائل الخلافية بين المؤرخين المهتمين بدراسة تاريخ الشعوب القفقاسية عامة وتاريخ الامة الشركسية خاصة، حيث إن الغالبية العظمى منهم يؤكدون بأن أهم أسباب ضياع الوطن الأم، وتشتت الشركاسة، هو عدم وجود وحدة سياسية لشمال القفقاس في تلك الفترة.

وأن العديد من شركاسة المهجر يتهمون الأجداد (بأن كل شركسي كان يعتبر نفسه (تحمادة)) وان هذه العقلية كانت وراء عدم توحيد او اتحاد الشركاسة قبل اندلاع (حرب الابادة والدمار الروسية / القفقاسية) وخلال اندلاعها ... وبعدها.

وأنا شخصيا وقبل البدء بدراسة تاريخ الامة الشركسية دراسة تحليلية متعمقة كنت ايضا من الفئة التي تتفق مع القائلين بأن الامة الشركسية لم تشكل يوما ما دولة او اتحاداً او حكومة وأنه لم يكن لديها تفاهات سياسية قبل وبعد الحروب الروسية/القفقاسية الاخيرة.

إلا أنني وبعد ان عرفت ما عرفته عن حقيقة تاريخ الامة الشركسية (قديما وحديثا) أقول بأنني كنت أول المخطئين.. وأن العديد من الكتاب والمؤرخين الشركاسة مارسوا سياسة جلد الذات باتهامهم للأجداد والاباء الابطال والحكماء الذين لم يتركوا كل صغيرة وكبيرة من اجل انقاذ (الارض والعرض) وانهم لجأوا لكل وسيلة ممكنة وغير ممكنة من اجل الحفاظ على وطنهم حراً مستقلاً منذ فجر التاريخ، وحتى انهيار المقاومة الشركسية يوم ١٨٦٤/٥/٢١ .

وللتأكيد على هذه الحقيقة التي توصلت إليها حول موضوع وجود (وحدة سياسية) للأمة الشركسية او عدم وجودها، قمت بدراسة نشأة وتطور مفهوم الدولة لدى الامة الشركسية منذ الالفية الثانية قبل الميلاد وحتى يومنا الحاضر كما هو مبين في (المجلد الثاني) لهذه الموسوعة.

وبتحليل نتائج تلك الدراسة توصلنا إلى الحقائق التالية:

إن الامة الشركسية منذ عهد الأجداد في عصور ما قبل الميلاد وحتى يومنا الحاضر دأبت على تشكيل امارات وحكومات ودول واتحادات وتجمعات تجمع مختلف القبائل الشركسية، بلغ مجموعها (٢١) امارة او اتحادا او دولة او حكومة او قيادة مشتركة توزعت على النحو التالي:

(١) تكوين أكثر من (٨) دول واتحادات ذات حضارات عريقة في العصور ما قبل الميلاد وهي:

- تكوين حضارتي مايكوب والكوبان.. والمشاركة في بناء اربع حضارات قوقازية أخرى منذ الالفية الثالثة قبل الميلاد.
- المشاركة في تأسيس امبراطورية الكيمبيرون في الفترة ما بين (٢٠٠٠-١٠٠٠) قبل الميلاد.
- تكوين اول دولة مستقلة في تاريخ الامة الشركسية هي (دولة السيند) وفي نفس الوقت تكونت دولتي (الكاسوغ والزيك) كما شكلت قبائل (المه - وٓت) المؤلفة من (٢٥) قبيلة اتحادا كبيرا سمي بجماعة (المأوت) وقبل نهاية القرن الاول قبل الميلاد تكونت حكومة لدولة (الكيركيت) وكانت قائمة على النظام الطبقي^(١).

(٢) تشكلت خلال القرون الاولى ما بعد الميلاد (٥) دول او حكومات او اتحادات وهي على النحو التالي:

- في القرن الاول الميلادي اتحدت معظم القبائل الشركسية مع دولة البسفور اليونانية وقضى عليها قبائل الهون التي اكتسحت بلاد القفقاس من جنوبها إلى شمالها في القرن الثاني الميلادي.
- استعادت الامة الشركسية حيويتها ونشاطها مع حلول القرن السادس الميلادي وشكل في مطلع دولة جديدة سميت بدولة (زيخيا - الفيدرالية)، وهم اجداد الاويخ، شاركت فيها جميع القبائل الشركسية في شمال القفقاس.. واستمرت هذه الدولة حتى القرن الثامن الميلادي.. وانقرض عقد هذا الاتحاد بسبب خلافات داخلية بين القبائل المشاركة فيه، وتشكلت على أنقاضها دولتين جدينتين هما: دولة أشوا، وهم اجداد الأبخاز ودولة القاسوخ وهم اجداد الشراكسة على ضفاف نهر الكوبان (٢).
- اسس الأمير ينال (الجد) الأكبر لأمرآء القبرطاي دولة اتحادية بعد أن وحد القبائل الشركسية عامة وضم إليها الابخاز في مرحلة لاحقة، وسمي بالأمير العظيم، كما اطلق عليه لقب الامير (الحكيم) وتفكك هذا الاتحاد بعد موته لاختلاف أبنائه الخمسة على الحكم. (٣).

(٣) تشكيل اتحادين في الفترة ما بين القرن العاشر بعد الميلاد وحتى منتصف القرن السابع عشر الميلادي، حيث تشير الوقائع التاريخية إلى أن الأمة الشركسية شكلت فيما بينها قيادات مشتركة ودول واتحادات شارك فيها تجمع أكثر من قبيلة من القبائل الشركسية خلال هذه الفترة، ومن أهمها هي:

- في عام ٩٥٧م تشكلت قيادة مشتركة لاتحاد شعوب شمال القفقاس لمقاومة توسع دولة الخزر نحو الجنوب ومنع بسط نفوذها على بلاد الشركس.. واستطاعت قيادة هذا الاتحاد من احتلال عاصمة الخزر.
- وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين اكتسحت الجيوش التتارية بقيادة جينكيز خان، جيوش المغول بقيادة تيمورلنك بلاد الشركس، وقضت على اتحادهم وتشنت القبائل الشركسية والتجأت إلى الجبال خوفا من بطشهم ووحشيتهم. (٤)
- ظلت الشعوب الشركسية مفككة ومشتتة، منذ أن قضى التتار والمغول على قيادة اتحاد شعوب القفقاس الشمالي التي سبق أن تشكلت في القرن العاشر الميلادي. دون قيادة موحدة، وبدون اتحاد أو حكومة موحدة، حتى منتصف القرن السابع عشر الميلادي وبالتحديد حتى عام (١٦٤٥) حيث عقد زعماء وامراء الشراكسة سلسلة من اجتماعات، شارك فيها وجهاء ونبلاء ورؤساء العائلات الكبيرة بهدف تقييم الأوضاع العامة في عموم بلاد (الاديغة) واستمرت المداورات والمشاورات سنين عديدة نظرا لاختلاف وجهات النظر والاجتهادات حول المسائل المطروحة على طاولة الاجتماعات.. وفي النهاية اتفقوا على ضرورة التوحد ليتمكنوا من الدفاع عن حرية واستقلال الوطن الام.
- وكان من بين الذين حملوا راية الدعوة إلى توحيد قبائل القبرطاي من النبلاء الذين اتصفوا بالعقلانية والحكمة هو (قازان يوقه جباغي) الذي كان مربيا (أتالق) للأمير الشركسي الصغير (قابتوقه) الذي انتخب حاكما عاما على قبائل القبرطاي في تلك الفترة. كما انضم إلى حكمه قبائل شراكسة ما وراء الكوبان من (الاديغة) وعددها (١٢) قبيلة، واعتبر هذا الاتحاد أقوى اتحاد تشكل في تاريخ الأمة الشركسية في عصر ما بعد الميلاد، وفي عهده ازدهرت التجارة والزراعة والصناعة، وكون علاقات تجارية مع انجلترا وايطاليا وتركيا والقرم، وفي عهده ايضا قام مستشاره الشخصي (جباغي) بمراجعة مبادئ وقواعد العادات الشركسية (الخابزة) فأكد على بعضها وعُدل غير المناسبة لعصره، وازاد عادات وتقاليد كان يحتاج إليها المجتمع الشركسي في ذلك الوقت.

(٤) تشير الوثائق بأن الشراكسة في الوطن الام قد أسسوا أكثر من (٦) اتحادات في الفترة ما بين (١٧٨٣) وحتى عام (١٨٦٣م) بالإضافة إلى عقد عشرات الاجتماعات الشعبية ولقاء بين الزعماء والأمراء، للتباحث في إيجاد أفضل السبل والوسائل لمقاومة الروس الإعداء، ومنعهم من تحقيق الاستيلاء على الوطن الام في قفقاسيا الشمالية ومن هذه الاتحادات:

- اتحاد شعوب شمال القفقاس الذي تشكل تحت قيادة الامام منصور او شورما في عام (١٧٨٣م) ورفعوا راية (المقاومة حتى الاستقلال) وظل الاتحاد قائما حتى عام ١٧٩٠م^(٥).
- وفي عامي ١٨٠٣-١٨٠٤ اتحدت القوات القفقاسية الشمالية بمشاركة قادة من الاوبخ والاستين والابخاز والداغستان والشيشان والاديجة لمقاومة الاعتداءات الروسية.^(٦)
- وفي عام ١٨٣٩ عقد مؤتمر شعبي كبير في منطقة الشابسوغ حضره معظم زعماء وامراء القبائل القبرطاي والاديجة، واصدروا بيانا وطنيا ردا على تنازل الاتراك عن بلاد الشركس للروس في معاهدة ادرنة.. سمي البيان (بوثيقة الاستقلال) وقع عليها جميع امراء الشراكسة الاتحاديين.. وارسل البيان إلى رؤساء حكومات الدول الاوروبية الغربية ورؤساء بعض الدول الاسيوية.^(٧)
- وفي عام ١٨٤١م اتحدت قبائل الشابسوغ والابويخ والحاتقوي واصلوا الجهاد المقدس على الاعداء الروس وخاضوا (٨٨) معركة وغارة ضد القوات الروسية.
- وفي يوم ١٣ / حزيران عام ١٨٦١م تقرر تأسيس اتحاد شعوب ما وراء الكوبان.. وتشكيل مجلس وطني.. واتخاذ القرارات التالية:
- ارسال بيان إلى جميع الدول الاوروبية لاطلاعهم على آخر أوضاع شعوب القفقاس.
- اعتبار يوم ١٣ / حزيران يوم الاستقلال لدى الأمة الشركسية.
- انتخاب مجلس عموم الشراكسة من (١٥) شخصا سمي (مجلس الاستقلال).
- الطلب من انجلترا تقديم المساعدة.
- اعتماد علم للاتحاد.
- الطلب من قائد القوات الروسية ايقاف تقدم قواته نحو بلادهم^(٨).
- وفي عام ١٨٦٣ تأسس في استانبول (المجلس الوطني الاعلى الشركسي في الخارج) لقيادة حربهم على الروس.. وكان بمثابة (حكومة في المنفى)، شارك فيها ممثلون عن اللاجئين والمهاجرين الشراكسة إلى تركيا كما شارك فيه قادة بولونيون^(٩).

رابعاً: سياسة التشاور والتنسيق وتوحيد مواقف الشعوب والقبائل الشركسية

توصلنا في بحثنا حول مصدر السلطات لدى الأمة الشركسية، بأن الأمة الشركسية ربما كانت أكثر أمة وشعباً من الشعوب القوقازية استخداماً لأسلوب التشاور والتنسيق، وكذلك أسلوب اشراك عامة الناس جنباً إلى جنب مع زعماء وقادة وحكام، في اتخاذ القرارات المصيرية، كما توصلنا بأن أجداد الشراكسة منذ عصور (سلطة الأم) و (سلطة الأب) وكذلك في العصور التي تشكلت فيها الدول والولايات والامارات، وتطور مفهوم المجالس كمصدر للسلطات لدى الأمة الشركسية وتعددت مهامها بعد العصور الوسطى وأصبح التشاور يبدأ في مجلس (الشيوخ وكبار السن) ثم ينتقل إلى (مجلس النبلاء) الذي كان يعرض مقترحاته على (مجلس الشعب) المنتخب من الشعب مباشرة لاتخاذ القرارات بمشاركة ممثلي عامة الشعب جنباً إلى جنب مع القادة والزعماء والأمراء والنبلاء.

وتطورت (المجالس الشعبية) إلى (مجالس الاعيان) التي كانت بمثابة مجالس قومية سميت (بالمجالس القومية العليا) ويتم تشكيلها بالانتخاب، كما كان يتم انتخاب رؤسائها بالإقتراع العلني المباشر ابتداء من القرن الثامن عشر الميلادي وبالتحديد ابتداء من عام ١٧٩٠ وبعد حدوث انتفاضة وثورة شعبية على الاقطاعية والطبقية في بلاد الشراكسة منذ مطلع القرن التاسع عشر، وبعد ان تطورت مجريات واحداث حرب الدمار والابادة الروسية القيصريّة الهمجية الوحشية، وتزايد أعداد الهجمات والمعارك والغارات والغزوات حتى وصل عددها (١٤٣) معركة. بالإضافة إلى مئات حملات التأديب العسكري استحالّت معها عقد اجتماعات (للمجالس الشعبية) التي كانت تعقد بشكل دوري ومستمر في أيام السلم، وأصبح الأسلوب الوحيد المتاح للتشاور وتنسيق جهود مختلف القبائل الشركسية في غرب وشرق شمال القفقاس هو أسلوب (اللقاءات والاجتماعات الطارئة) وحسب ما تسمح بها مجريات المعارك أولا، وحسب المتطلبات السياسية الظرفية ثانيا. كما أصبحت مهمة التنسيق والتشاور بين قادة وممثلي القبائل الشركسية المختلفة هي المحور الأساسي لمثل هذه الاجتماعات بعد ان كانت مهمتها ايام السلم وفي الظروف الطبيعية التخطيط والتنظيم وإدارة الحياة في القبيلة الواحدة او القبائل المتحدة معا.

وبدراسة عدد (الاجتماعات الطارئة) التي سبق أن دعا إليها القادة والزعماء والامراء في النصف الاول من القرن التاسع عشر وفي السنوات الخمس الاخيرة من (حرب الابادة والدمار) وجدنا بأن عددها قد تجاوز (٢٠) اجتماعا ولقاء شعبيا، حضرها معظم زعماء وأمراء وقادة القبائل الشركسية جنبا إلى جنب مع ممثلي المقاتلين وعامة الشعب.

وفيما يلي أهم تلك الاجتماعات على سبيل المثال وليس الحصر:

* **الاجتماع الذي عقد عام ١٨٢٦م** وأعلن فيه القادة وزعماء الشراكسة وبتأييد من المحاربين والفلاحين رغبتهم في العيش بسلام مع الروس شريطة عدم قيامهم بأية اعمال عدائية.

* **الاجتماع الذي عقد عام ١٨٢٨م** على إثر تنازل تركيا عن بلاد تشركسيا إلى روسيا بموجب معاهدة (انديانو بولوس) المعروفة باسم معاهدة (ادرنة) حيث عقد اجتماع شعبي كبير حضره ممثلو جميع القبائل الشركسية وقرروا فيه:

رفض الاتفاقية بقولهم إن الشعب الذي قاوم على مدى مئات السنين للحفاظ على حريته واستقلاله ضد خانات القرم واغراءات الاتراك لا يرغبون في الوقوع تحت سطوة الاستعمار الروسي **وجاء الرفض للاتفاقية**، على اعتبار ان السلطان العثماني لم يكن يملك بلاد (الأديغة) في يوم من الايام حتى يقوم بالتنازل عن بلاد لا يملكها اصلا، وعندما حاول احد الضباط الروس اقتناع شعب (الأديغة) بأن السلطان العثماني (اهدهم للروس) اجابه احد الشيوخ الحاضرين مشيرا إلى طائر يطير في السماء.. **قاتلا له "وانا أهديك هذا الطائر فخذ له".**

* **الاجتماع الذي عقد في تشرين الاول من عام ١٨٣٠م** وحدث فيه خلاف كبير بين مؤيدي تبعية روسيا ومؤيدي تبعية تركيا، وهو الاجتماع الذي رفض فيه ممثلو الفلاحين رأي أغلبية الزعماء والامراء والقادة المؤيدين للتبعية الروسية. وبالتالي لم يصدر قرار التبعية لأي من الطرفين.

* **الاجتماع الذي عقد في عام ١٨٣٣م**، لاختيار اعضاء الوفد المقرر سفرهم لاستانبول لمعرفة الموقف التركي النهائي في حربهم مع العدو الروسي.

* **الاجتماع الذي عقد في شباط من عام ١٨٣٥م** بدعوة من زعماء الشابسوغ والناخوج لوضع تكتيك وسياسة محددة للتعامل مع روسيا. وقام اثناء الاجتماع النقيب "لايونس" الانكليزي الاصل بتسليم المجتمعين رسالة من (صفر بك) يدعوهم فيه إلى الانتفاض وعدم الرضوخ للروس، ووعدهم بمساعدة سريعة من قبل تركيا وانكلترا، وقد أكد ذلك أحد أعضاء الوفد العائد من (استانبول) وصنّف المجتمعون هذه الوعود، وقرروا فيه عدم مسالمة الروس واقسم رؤساء وزعماء (تحمدات) كل من الشابسوغ والناخوج اليمين معاقبة كل من يخرق هذا القسم وبفرض غرامات مالية وعقوبات اجتماعية وسياسية عليه.

الاجتماع الذي عقد في شهر حزيران عام ١٨٣٦م وهو من أكبر الاجتماعات التي عقدت في منطقة الشابسوغ والناخوج، حيث تم فيه مناقشة مبادئ السلام مع روسيا القيصرية.. والاطلاع على الاعلان المنشور في مجلة (Pontfolio) باسم كل من "ملك انجلترا ومحمد علي باشا حاكم مصر، والسultan العثماني التركي" وهو الاعلان الذي تضمن قرار استقلال شركيسيا عن روسيا.

* **في صيف عام ١٨٣٨م عقد اجتماع كبير على نهر (أداغوم) للشابسوغ والناخوج** ايضا حاول فيه العملاء الانكليز إقناع المجتمعين بضرورة توحيد كل الأديغة، ونجح العملاء في إقناع المجتمعين بأداء القسم على خوض الحرب ضد روسيا، وعلى رأسهم العميل "اوركات" الذي كان يحاول ومنذ عام ١٨٣٤ إقناع الأديغة بالوحدة تحت سلطة واحدة وعلم واحد.

الاجتماع الشعبي الكبير الذي عقد خريف عام ١٨٣٨م ايضا في بلاد الشابسوغ بحضور جميع زعماء ورؤساء وقادة الأمة الشركسية في الوطن الام، وكذلك حضور ممثلي الشعوب الشركسية، ووقع في الاجتماع على وثيقة الاستقلال، كما اصدر المجتمعون نداء موجهاً إلى الدول الأوروبية وتركيا وبعض الدول الإسلامية.

الاجتماع التي عقد عام ١٨٤١م بدعوة من زعماء الشابسوغ والابزاخ والابويخ والناخوج وتم فيه اتخاذ قرارات هامة؛ منها تنظيم هجوم عام على خط التحصينات على ساحل البحر الأسود، وهو الاجتماع عقد على ضفاف نهر (بشيحة) كما تقرر فيه عدم جواز انشاء علاقات صداقة مع (الكفار الروس) ورفض اية اقتراحات بعقد سلام مع الاعداء الروس وتكليف كل قادر على حمل السلاح الاستعداد تمهيدا لشن الهجوم العسكري المقرر من قبل المجتمعين.

* **في عام ١٨٤٦م** وعلى اثر لجوء امراء ونبلاء واقطاعيين شراكسة للسلطات الروسية لحمايتهم من الانتفاضة الشعبية الشركسية التي قام بها عامة الناس وفلاحي قبائل الشابسوغ والناخوج، دعي الزعماء الشعبيون لعقد اجتماع عام، تقرر فيه مصادرة ممتلكات كل الامراء والنبلاء الذين لجأوا للروس لحمايتهم، وأما بالنسبة للنبلاء الذين لم يلجأوا إلى السلطات الروسية فقد وافق زعماء الشعب على بقائهم بينهم شريطة ان يكونوا متساوين في الحقوق المدنية مع عامة الشعب.

* **في عام ١٨٥٦م تأسست في (شركيسيا) جمعية سرية سميت بجمعية (المدافعين عن استقلال شركيسيا)**، وتقرر إشهار الجمعية بعد مناشدة من "صفر بيك" إلى الأصدقاء والمساندين في انكلترا وفرنسا، وكان منظم وقائد الجمعية الجاسوسين الانجليزيين "اوركات" و "بيل"، وفيما بعد سميت الجمعية (بلجنة الشركس) وقامت بمناقشة خطة عمل بغية تنظيم نقاط تخزين على الجزر (الايونية) أسلحة وذخائر، ليتم نقلها في قوارب صغيرة إلى شركيسيا، وكانت هذه الجمعية مرتبطة بشكل قوي بالحكومة الانكليزية والصناعيين والتجار الانجليز الكبار، ووضعت نصب اعينها هدف تحقيق (استقلال شركيسيا) بالقيام بدعاية واسعة من قبل عملاء الانكليز واقناع الدوائر الانكليزية الحاكمة، بأن مفتاح القوة التجارية والحربية الانكليزية في آسيا يتوفر في (شركيسيا).

الاجتماع الذي عقد في أيار ١٨٥٦م دعا "صفر بيك" إلى اجتماع كبير للناخوج على ضفاف نهر (أزبيس)، وخطب في الاجتماع مندوبون شراكسة عائدون من (استانبول) وطلب المجتمعون حماية السلطان والتبعية له، وأعلن المندوبون، أنهم قابلوا السلطان مرتين، وقال لهم في المرة الأولى بأن لا أحد يستطيع مساعدتهم، وأنه حسب معاهدة باريس فإن الشراكسة هم مواطنون تابعون للقيصر، إلا أنه في اللقاء الثاني وعد السلطان بحماية الشراكسة إذا اقسموا يمين الولاء له، وأن السفن الحربية التركية والانكليزية والفرنسية ستحميهم ولن تسمح لأحد بالاعتداء عليهم.

الاجتماع الجماهيري الكبير الذي عقد في عام ١٨٦١م بمناسبة زيارة القيصر الاسكندر الثاني لمنطقة الابزاخ.. وهو الاجتماع الذي طلب فيه القيصر من الشراكسة (الرضوخ لحكمه وإلا سيرغمون على ذلك بالقوة) وجاء رد الشراكسة المجتمعين وعلى لسان أحد القادة الحاضرين الذي قال كلاما فيه وضوح وصراحة بعدم قبول الشراكسة بالرضوخ لحكم القيصر حتى ولو كلفهم ذلك حياتهم وأن أي شركسي يجري في عروقه الدم الشركسي لن يقبل الاستسلام .

المؤتمر الذي عقد يوم ١٣/٦/١٨٦١ بحضور زعماء (١٢) قبيلة شركسية بمن فيهم قبيلة (الابوخ) وتقرر فيه تشكيل (اتحاد شعوب ما وراء الكوبان) وتأسيس مجلس وطني، وانتخاب ممثلي الحكومة المركزية من (١٥) ممثلاً سمي (بالمجلس الشركسي الأعلى الحر)، كما تقرر في هذا الاجتماع اعتماد مواصفات وشكل العلم الوطني الشركسي كرمز لوحدة الشعوب الشركسية، وهو العلم الذي يتكون من قماش الحرير اخضر اللون وعليه ثلاثة اسهم متقاطعة و (١٢) نجمة وكل نجمة ترمز لقبيلة من القبائل المشاركة بالاتحاد كما هو مبين في الشكل المرفق.

الاجتماع الذي عقد صيف عام ١٨٦٢ عقد مؤتمر شعبي كبير بحضور جميع قادة القبائل الشركسية في وادي نهر (سوتشي) تقرر فيه ارسال وفد إلى (استانبول) برئاسة "اسماعيل باراكيا" وقام الوفد بتسليم الصدر الاعظم (رئيس الوزراء) التركي عريضة طالبوا فيها الحماية والمساعدة الحربية في حربهم ضد الروس، ثم قامت لجنة الشراكسة في (استانبول) بإرسال ثلاثة من اعضاء الوفد إلى (باريس) و (لندن) لاستكشاف نوايا كل من فرنسا وانكلترا، وعند عودتهم إلى شركسيا أعلنوا أن أوروبا مستعدة لمساعدتهم (إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث).

*** في عام ١٨٦٣ تشكلت اللجنة الشركسية في (استانبول) من رؤساء القبائل الشركسية ومن الشراكسة المهاجرين المرتبطين بشكل وثيق بالدوائر الحكومية التركية الحاكمة، ومن ممثلي المهاجرين البولونيين الذين كانوا خير داعمين للشراكسة في حربهم ضد الروس.**

*** وفي عام ١٨٦٤ ايضاً عقد مؤتمر وطني كبير لقبائل الأديغة حضره أكثر من ٤٠٠٠ الاف شخص يمثلون مختلف طبقات المجتمع الشركسي في منطقة ما وراء الكوبان، وكان ذلك آخر اجتماع شعبي يعقد قبل انتهاء حرب الإبادة والدمار الروسية واستيلاء سلطات روسيا القيصرية على كامل أراضي القوقازية عامة والأمة الشركسية خاصة ابتداء من يوم ٢١/٥/١٨٦٤ م .**

خامساً: سياسة رفض المعاهدات التي وقعتها السلطات التركية مع سلطات روسيا القيصرية نذكر منها:

رفضهم معاهدة أدرنة والمعروفة باسم معاهدة (اندريا بولوس) التي وقعها الأتراك مع الروس في عام ١٨٢٨ والتي كان من أهم بنودها:

"تنازل تركيا رسمياً لروسيا عن بلاد الشراكسة في شمال القفقاس، علماً أنها لم تكن منطقة تابعة لأي كان، وعلى الرغم من استقلالها الفعلي إلا أن العثمانيين قاموا بإهدائها لروسيا القيصرية، وكأنهم أصحابها، الأمر الذي أضعف الرأي العام العالمي وأفقد الاهتمام بقضية قفقاسيا وكأنها مسألة داخلية سويت بين الدولتين (الروسية والتركية).

وعندما تحركت روسيا للسيطرة على القفقاس بعد هذه المعاهدة هب الشراكسة في كل مكان لمقاومتهم والدفاع عن (الأرض والعرض) ففي القسم الغربي من شمال القفقاس تحرك مجلس الشعب الذي يضم الأبخاخ والشابسوغ والوبيخ والقبائل الأديغية الأخرى. وحاولت روسيا شراءهم بإرسال الهدايا إلى زعماء هذه القبائل، ومحاولة عقد الصلح معهم بشكل منفرد، وفي عام ١٨٣٨ عرض على زعيم (الأبخاخ) معاهدة صلح منفردة ولم يجب عليها بل رفعها إلى مجلس الشعب الشركسي ليعطي رأيه فيها.

وفي عام ١٨٣٩ اجتمع مجلس الشعب في منطقة الشابسوغ وبعد مداولات عديدة ونقاشات موسعة استقر الرأي على إصدار بيان إلى العالم أجمع يتضمن شرحاً كاملاً للأعمال الوحشية واللاإنسانية للقوات الروسية وبطلان معاهدة أدرنة وهذا نصه:*

* النص مترجم عن:

Edmund Spencer – "Travels in the Circassia", London, 1838.

كيف يمكن أن سكان قفقاسيا المحليين سيوضعون تحت التبعية الروسية وهم حتى ليسوا في حالة صلح معهم، فهم ما زالوا في حرب منذ مدة طويلة، حرب استطاعوا أن يستمروا فيها وحدهم طوال هذه المدة بدون أي مساعدة أو تأييد من أية قوة أو طرف خارجي.

إن مسلمي قفقاسيا يعتبرون الزعيم الديني (الخليفة) لجميع المسلمين والذي يتمثل بالسلطان وهو زعيمهم الديني وبالرغم من ذلك، فقد ترك الشراكسة وحدهم، مع أن أحد باشوات السلطان كان يفتح أبواب (أنابا) لموسكو ليضمن صداقة الروس ضد زعماء الأرمن الذين هم أعداء السلطان. وباشا آخر خدع الشراكسة وهرب من بلادهم في منتصف إحدى الليالي. بعد ذلك لقد حاول الشراكسة تقديم طلبات مساعدة للسلطان، ولكن قوبلت في كل مرة ببرود زائد وبدون جواب شاف. وبنفس الطريقة طلبت المساعدة من الدولة المسلمة الأخرى (إيران) ولكن لم نحصل على جواب شاف. وأخيرا اضطروا إلى طلب المساعدة من محمد علي باشا الكبير والي مصر وفعلا حصلوا على الجواب الشافي والمقنع إلا أن بعد المسافة كان مانعا أساسيا في تقديم المساعدة.

في كل هذه الطلبات كانت الهيئة الشركسية تحاول أن تشرح أن الهجوم الروسي لن يقف عند حد، وأنهم حسب التقاليد والعادات الروسية هم أعداء لسعادة الإنسان، ويشرحون كذلك مقدار غدر الجنرالات الروس، وأن جنودهم يقتلون بلا رحمة وأن القضاء على الشراكسة ليس لمنفعة أحد، بل إن في مساعدة الشراكسة فائدة لبقية الأمم.

إن الجيش الروسي الذي يحاصرنا الآن والبالغ مائة ألف جندي سوف يحاربكم أنتم غدا. إنهم الآن يحاربون رجال الشراكسة في جبال القفقاس الوعرة، ولكن غدا سوف يدوسون بنعالهم سهولكم الخضراء وسيتمكنون من أسرهم. إن جبالنا الشاخنة ورجالنا الأشاوس هم السد الواقي لتركيا وإيران. فإذا لم تقدم المساعدة ستسقط أبواب هاتين الدولتين. فهذه الجبال الآن هي حامي هاتين الدولتين.

أضف إلى ذلك أن دمننا، الدم الشركسي، يملأ أوردة وشرابين السلطان، فأمه وزوجته شركسيان وكذلك جميع حاشيته ووزرائه وجنرالاته شراكسة، فهو قائدنا الديني والروحي وهو صاحب قلوبنا ونحن نقدم له صداقتنا ومن أجل كل هذه العلاقات فإننا نريد مساعدته لنا.

فإذا كان السلطان لن يدافع عن أولاده أو لا يستطيع فعليه أن يفكر بأحفاد خانات القرم الذين ينحدرون من نفس سلالة السلطان، والذين يعيشون بين ظهرانينا. هذا ما ستتكلم به وفودنا. فإذا كان السلطان بموافقة هذه يعلم كم من الرجال تؤيده وتقف إلى جانبه لما وافق على صداقة الروس.

إننا نعلم أن روسيا ليست القوة الوحيدة في العالم وأن هناك قوى أكبر منها في العالم. وبالرغم من قوتهم فهم يقفون بجانب الضعيف، فهم ليسوا أصدقاء لروسيا بل أعداء لها وبنفس الوقت ليسوا ضد الصلح بل مع الصلح مع روسيا. إنجلترا وفرنسا، هما أقوى دولتين في العالم. فعندما كان الروس يأتون بقوارب صغيرة للصيد في بحر آزوف كانوا يطلبون المساعدة والسماح لهم بالصيد معنا وكانت إنجلترا وفرنسا دولتان قويتان في ذلك العهد. إننا لا نأمل من إنجلترا وفرنسا أن يهتموا بشعب صغير مثل الشعب الشركسي، ولكن مما لا شك فيه بأن هؤلاء الأصدقاء الأذكاء يعرفون أننا لسنا روسا وعلمنا محدود ومدافعنا محدودة وأن جنرالنا لم يتدربوا تدريبا عسكريا حديثا وأن بلادنا لا تملك السفن ولا يوجد فيها

أغنياء كثيرون. فهم يعلمون ذلك ويعلمون أننا شعب مستقيم أمين صادق، وإذا لم نحارب أو نحاصر فنحن شعب نحب السلام، وهم يعرفون أيضا أننا محقون في كرهنا للروس وأنا في معاركنا نهزمهم.

لكل هذه الأسباب بدت دهشتنا واستغرابنا عندما علمنا أن هناك خرائط للعالم قد طبعت في أوروبا وأظهرت أن بلادنا قطعة من روسيا، وهذا لم يخطر على بالنا مطلقا. لقد وقعت اتفاقية بين الروس والعثمانيين تنازل بموجبها العثمانيون بأن أعطوا جبال القفقاس بدون علمنا وبدون الاتفاق معنا إلى روسيا التي لم تستطع أن تجد موطئ قدم لها هناك وتناست أن سكان هذه الجبال هم محاربون هزموا روسيا مرارا، بينما كانت تدعي روسيا أن غرب "جركاسيا" وقبائلها لا يوجد فيها قانون أو طريقة جيدة لإخضاعها.

إننا نعلن اليوم بأننا نعارض بشدة أمام العالم أجمع مثل هذه الأخطاء والأساليب الخداعة المستعملة ضد شعبنا.

إننا نؤكد بأننا اليوم نستعمل الكلمة مقابل الكلمة ولكن نعطي الصحيح مقابل الخطأ في استعمالنا الكلمة.

لقد عارضنا بشدة وقاومنا بطاقتنا العسكرية أربعين عاما متواصلة. إن هذه الدماء التي أهدرت كانت من أجل إعلان استقلالنا، إن هذا الكلام لا يعترف بما هو أعلى منه ولا يقبل المواربة ولا يوجد مطلب لنا سوى حماية وطننا والدفاع عنه. وأن هذه الكلمات تعود للأشخاص الذين يعرفون كيف يستعملون سلاحهم على أكمل وجه عند اقتراب موعد هجوم الروس علينا فأني قوة ممكن أن تقهرنا.

إن قدمنا صداقتنا للسلطان فكيف سيقبل ذلك في حين كان يتفاوض مع الروس من أجل الصلح بينما نحن الشراكسة كنا في حالة حرب مع روسيا. إن صداقتنا بدون مقابل أو بفداء، فلا يستطيع بيعها أو تحويلها لأنها لم تكن مشروطة. فإن أراد أن يكون عادلا فنحن بكل حب وتقدير نتوقع المساعدة من إنجلترا، تلك الدولة الكبيرة. وإن أراد يستطيع أن لا يفكر بالشراكسة ولكنه يستطيع أن يصمم آذانه عن أكاذيب الروس كما صم آذانه عن استغاثة الشراكسة. وليرى الفرق بين شعبنا الذي يلقبونه بالعبيد والبربرية وبين هؤلاء الذين يريدون سحقنا.

نحن أكثر من أربعة ملايين ولكن مع الأسف منقسمين إلى شعوب وقبائل، لنا عاداتنا وتقاليدينا المختلفة ولكن لم يكن لنا هدف واحد مستمر لغاية الآن ولكن لدينا تنظيم كدولة عادية ألا وهي التقاليد التي تحكمنا. نطيع قوادنا المنتخبين في حالة الحرب طاعة عمياء. إن كبارنا وأمرأنا يديرون مناطقهم ويحكمونها حسب عاداتنا وتقاليدينا بشكل أفضل بكثير من إدارة الدول المحيطة بنا، وبالرغم من احتياجنا الشديد إلى قائد أو قيادة دائمة من بيننا، إلا أن ذلك القائد لم يظهر، ولهذا ما يطمع بنا الأجانب، ولذا أيضا كنا تابعين للسلطان كرجل ديني عن طيب خاطر، وكذلك كنا تابعين لخان القرم أيضا. أما روسيا فكانت تعمل في كل وقت لحكم بلادنا وتحويلنا إلى عبيد لها. فكانت تريد استغلالنا في جيوشها، وذلك لاحتلال مناطق أخرى حتى ولو كانت بلاد سكانها من الروس البيض أو يدينون بنفس ديانة روسيا فيحولونهم إلى عبيد لهم لكي يزداد ثراء القياصرة الروس؛ لذا فإن الحق والكرامية بيننا تزداد صلابة وقوة كل يوم ولو كان العكس لتمكن أحد قادة الروس من احتلالنا وربطنا بدولتهم.

إن تصرفاته الظالمة وعدم الوفاء بالوعود التي كان يقطعها، وكيف كان يحاصر بلدنا وكيف كان يقطع عنا ويمنع ما هو ضروري لحياتنا ويضع العراقيل أمام تجارتنا، وكيف كان يترك زعماءنا الذين يجب

إطاعتهم بدون أية وسيلة وكيف كان يقضي على قرى كاملة وقبائل بأكملها، كيف كان ينظر إلينا وكأننا متاع خاص به، وكيف استطاع بأكاذيبه وحيله أن يظهرنا بأننا شعب لا يستحق العيش وأننا عبارة عن برابرة ويقنع كل أوروبا والعالم المسيحي حتى والعالم بأكمله. كلها حكاية طويلة إذا أردنا الدخول بتفاصيلها لن تكفيها المجلدات.

لقد فقدنا مخزوناتنا التي كانت تكفي مئات الآلاف من البشر. ولكن مع إصرار روسيا على احتلال بلادنا وقفنا كجسد واحد نحاربها بشراسة وضراوة وروسيا استطاعت أن تسيطر على مائتي ألف منا، ولكن لم يكن واحد من هؤلاء راضيا عن هذا الوضع.

الروس أخذوا أبناء أبطالنا كرهائن، وهناك بعض الأشخاص من شعبنا قد حظوا بالعمل تحت راية إمبراطور روسيا، ومقابل ذلك فقد فضلوا العمل مع الأمبراطور وتخلوا عن وطنهم والخطر المحيط به. ولكن بالمقابل أيضا هناك العديد من الروس يعيشون في وطننا ويفضلون البربرية التي أطلقت علينا عن المدنية والحضارة التي يدعي حكام روسيا بأنهم أصحابها. أقامت روسيا القلاع والحصون على طول الحدود، وبالرغم من ذلك استطعنا استدراج (٥٠٠٠٠) جندي روسي إلى الداخل والقضاء عليهم. إن احتلال أي بلد لا يتم بالكلام بل بالقوة، لذا فإن روسيا لن تقدر علينا ولكنها إن تمكنت من الأمور التالية: قطع طرق المواصلات البرية عنا وأن تستغل تركيا وإيران وكأنها بلاد تابعة لها ومحاصرتنا عن طريق البحر وإغلاق جميع الطرق البحرية وبذلك تمنع عنا البارود والملح والعتاد الحربي اللازم للحرب. وعندها تتركنا وحدنا مع آمالنا وتتمكن من السيطرة علينا واحتلال بلادنا.

ولكن نحن مستقلون وأحرار ولا زلنا في حرب مع الروس والنصر لنا. إن مثل الإمبراطور الروسي قام باتصالات معنا لا ليعتذر عن حكومته التي قامت وطبعت خرائط تظهر فيها بأن شمال القفقاس قسم من بلاد القيصر، وأننا عبارة عن عبيد في بلادهم كما كانوا يوهمون أوروبا بأسرها، بل جاء ليتفاوض من أجل تبادل الأسرى وإخراج (٢٠٠٠٠) جندي روسي محاصرين من قبل قواتنا. (انتهى نص الوثيقة).

وانتهى اجتماع مجلس الشعب الشركسي بالتوقيع على الوثيقة أولا، وبرفض الصلح الذي عرضته السلطات الروسية القيصرية ثانيا، وواصلوا القتال على الجبهتين الشرقية والغربية وكانت أشد المعارك عنفا وأكثرها عددا تلك المعارك التي جرت ما بين ١٨٤٠ - ١٨٤٦ حيث بلغ عددها (٨٨) معركة.*

كما صدر في عام ١٨٦١ الوثيقة الثانية وهي وثيقة إعلان استقلال الأمة الشركسية وقع عليها زعماء الأوبيخ، والأبزاخ، والشابسوغ في اجتماعهم العام الذي عقد في يوم ١٣/٦/١٨٦١ في وادي سوتشي على أثر ازدياد هجمات قوات سلطات روسيا القيصرية على مقاطعة (الأديغة) واستشهاد العديد من الزعماء والقادة العسكريين، بيانا تضمن أهم قرارات مجلس الشعب في الأديغة وهي:

- ١- تشكيل اتحاد (وحدة) شعوب شمال القفقاس.
- ٢- كل من ينفصل عن هذا الاتحاد يعاقب أشد العقوبات.
- ٣- إعلان يوم ١٣ حزيران ١٨٦١ بيوم الاستقلال لدى الشراكسة.
- ٤- انتخاب مجلس لعموم الشراكسة سمي بالمجلس الوطني.

* الوثائق الروسية (إيادة الشراكسة)، مصدر سابق، ص: ٧٠.

- ٥- انتخاب حكومة مركزية بطريقة الاقتراع السري مؤلف من (١٥) شخصا سمي المجلس الحر الأعلى لبلاد الشراكسة.
 - ٦- تقسيم البلاد إلى (١٢) منطقة وعين في كل منطقة قاضياً ومفتياً ومختاراً وضابطاً أمن.
 - ٧- تطبيق قرارات المجلس على جميع القبائل والشعوب الشركسية.
 - ٨- جباية الضرائب وصرفها بحق الله وبواسطة أعضاء المجلس الحر الذي يعتبر ممثل قفقاسيا الحرة، في إدارة شؤون البلاد.
 - ٩- الطلب من إنجلترا المساعدة في حربهم ضد قيصر روسيا لعلمهم أنها الدولة الوحيدة التي يمكن ان تؤثر على السلطان العثماني.
 - ١٠- إرسال البيان إلى جميع الدول الأوروبية لاطلاعهم على آخر الأوضاع في القفقاس.
- إلا أن هذا الاتحاد لم يدم طويلاً لتسارع المعارك وازدياد شدتها حيث أشارت الوثائق الروسية بأنه لم يكن يمر يوماً واحداً دون حدوث قتال أو اعتداء من قبل القوات العسكرية للسلطات القيصيرية الروسية وكذلك فإن هذه الوحدة لم تنجح لانشغال القادة السياسيين والعسكريين الشراكسة في صد الاعتداءات الوحشية.

مراجع ومصادر الفصل الثامن

- ١- الجغرافي (سترابو) وهو يوناني الجنسية، وعاش في الفترة ما بين (٦٢) قبل الميلاد وحتى (٢٠) ما بعد الميلاد، كتب عن تاريخ شعب الكيركتين (اجداد الشراكسة) وعن الدولة التي تشكلت في عهدها.
- ٢- مجلة الثقافة القفقاسية عدد خاص عام ١٩٧٢، ص ٣٨-٣٤.
- ٣- نغموقة، مصدر سابق ص: ٦٩-٧٠.
- ٤- أبه زاو، موسوعة تاريخ الجركس والقفقاس، مصدر سابق ص: ٢٥٩-٢٥٠.
- ٥- برزج، نهاد، مصدر سابق، ص: ٦٠-٦٤.
- ٦- كتاب تاريخ جمهورية كباددينو - بلقاريا.
- ٧- ادموند سبنسر، رحالة زار تشركيسيا عام ١٨٣٨ ص: ٦٨.
- ٨- قاسوم، علي حسن، مصدر سابق، ص: ١٠٧-١٠٨.
- ٩- المصدر نفسه ص: ٩٩.

الفصل التاسع

حقائق حول بعض الاخطاء والمواقف السلبية التي مرت بها الامة الشركسية في الوطن الأم منذ عصر ما قبل التاريخ وحتى العصر الحديث

ان الدارس لتاريخ الامم والشعوب القديمة منها والحديثة، يجد بأنها ارتكبت في مسيراتها التاريخية، اخطاء سياسية او اقتصادية او اجتماعية، كما يجد بأن مجتمعاتها مرت في مواقف ضعف وانتشرت فيها امراض وعلل اجتماعية.

والأمة الشركسية منذ عصر الاجداد والاباء، مثلها مثل الامم الاخرى، ارتكبت اخطاء، ومرت بمواقف ضعف وتفكك، وانتشرت فيها بعض العلل والامراض الاجتماعية، كان لها بعض الآثار السلبية على مسيرتها التاريخية الطويلة والحافلة بالصعوبات والتحديات، أثرت سلباً "بطريقة غير مباشرة" على تقدمها الحضاري في الماضي البعيد، كما ساهمت بطريقة مباشرة، على مستوى واسلوب التعبئة القومية لمواجهة حروب الابداء والدمار التي فرضتها سلطات روسيا القيصرية والمرترقة من مختلف الشعوب والقوميات القوقازية المتعاونة مع القيصرية الروس.

وبالبحث والدراسة والتحليل لأهم الاخطاء السياسية والاقتصادية أولاً، وعلى المواقف السلبية التي مرت فيها الامة الشركسية ثانياً، ولأهم العلل والامراض الاجتماعية التي انتشرت في المجتمعات الشركسية ثالثاً، وجدنا بأن الأمة الشركسية لم تكن أمة مثالية في بعض مراحل مسيرتها التاريخية وأنها لم تكن امة منزهة عن الاخطاء، وفي نفس الوقت فإنني لست من المؤرخين والكتاب الشراكسة وغيرهم الذين يجلدون الذات ويذهبون للقول بأن الشراكسة لم يهتموا بمعالجة أمراضهم الاجتماعية، وانهم لم ينتبهوا لاطوائهم الاقتصادية والسياسية، فتركوها حتى استعصى علاجها.. ونقشت سمومها فكانت القاضية عليهم وعلى مدنييتهم^(١).

وكذلك فإنني لا اتفق اطلاقاً مع المؤرخين والكتاب الذين قالوا بأن الأسباب التي ساهمت في ضياع الامة الشركسية هو تنافسهم، وتطاحنهم، واتهامهم بالخصومات العائلية والاختلافات القبلية مثل الكاتبة (خيرية ملك خونج) التي قالت: "إن من أهم الأسباب (لا تقع تحت حصر) التي عجلت باضمحلال الجراكسة وكثير من الامم الاخرى الشقاق وعدم الاتحاد. وأن الشراكسة ظلوا في منازعات، ولم يفيقوا (يصحو) يوماً من هذه المنازعات، وأنهم لم يتفقوا على الاتحاد والتآلف، ويكونوا كتلة واحدة قوية أمام أعدائهم ومنافسيهم، بل الأدهى والأمر أنهم لم يفهموا يوماً ما أن حياة الأمة وبقاؤها خير من حياة الفرد والقبيلة وبقائهما^(٢)."

وكذلك فإننا لسنا من المتشائمين الذين ذهبوا للقول بأن الامة الشركسية كانت من الأمم التي كانت سبباً في القضاء على نفسها بنفسها.. وانها سعت لحرقها بنفسها.. وانها جلبت على نفسها التعاسة والشقاء.

وكذلك إنني لست مع كل الذين حملوا الاجداد والاباء وزر نتائج حروب الابداء والدمار الروسية التي ادت إلى الابداء والتهجير القسري لـ (٩٠%) من الأمة الشركسية التي كانت تعيش في الوطن الام في شمال قفقاسيا خلال القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادي.

وموقفي هذا ليس هو موقف قومي عاطفي، وكذلك فإن دفاعي لم يكن تعصباً لقومي ووطني، لأن الجميع مثلي يحبون قومهم وأمتهم ووطنهم، وإنما اتخذ هذا الموقف الرافض لكل الاسباب التي اشار إليها المؤرخون والكتاب (السابق ذكرهم) استناداً للحقائق التي توصلت إليها بعد بحث ودراسة وتحليل للوقائع والاحداث التاريخية.

فالاططاء السياسية التي ارتكبتها الأمة الشركسية قليلة العدد والحجم، والعلل الاجتماعية التي ابتليت فيها محدودة، ومواقف الضعف التي مرت بها في تاريخها الموثق لأكثر من ألفي سنة

هي مواقف فرضتها عليها قسوة ووحشية الاعتداءات التي تعرضت لها، ويتضح ذلك كله من الحقائق التي توصلت إليها في بحثي وهي على النحو التالي:

الحقيقة الأولى: تؤكد الوثائق التاريخية والروايات المنقولة حدوث نزاعات وخلافات وانشقاقات بين الأمراء الأشقاء وغير الأشقاء في بعض القبائل والعائلات الشركسية الكبرى.. إلا أنه غير صحيح بأن مثل هذه النزاعات وتلك الخلافات أو الانشقاقات كانت تحدث بشكل مستمر في كل العهود والعصور، حيث وجدنا في بحثنا بأن عدد حالات النزاع والشقاق التي حدثت لم تتجاوز (٨) حوادث أو خلافات أو شقاقات خلال مسيرة للأمة الشركسية في تاريخها الطويل.

وفيما يلي تسجيل لأهم وابرز حالات الخلاف والنزاع بين الأمراء الشركاسة التي ورد ذكرها في الروايات القديمة.

الحادثة الأولى:

يعود تاريخ أولى الخلافات والنزاعات بين بعض (أمراء الشركاسة) إلى القرن الثامن الميلادي وبالتحديد في عهد دولة (زيخيا الفيدرالية)، حيث يؤكد المؤرخون بأن هذه الفيدرالية التي شاركت في تأسيسها جميع القبائل الشركسية في شمال قفقاسيا التي كانت تستوطن المنطقة الممتدة ما بين شبه جزيرة (تامان) وحتى جنوب مناطق (الابخاز)، وامتد حكمها من القرن السادس الميلادي وحتى نهاية القرن الثامن الميلادي وانتهى حكمها بسبب الخلافات التي حدثت بين أمراء القبائل المتحدة والمشاركة في هذه الدولة الفيدرالية، وانقسمت إلى دولتين هما (الابشوا) و (القاسوغ)... وكان هذا أول خلاف حقيقي سجل تاريخيا بين أمراء أجداد الشركاسة من دولة (زيخيا).

الحادثة الثانية

تشير الوقائع التاريخية بأن الأمير (ينال) تزوج في حياته ثلاث مرات، ورزق من نسائه الثلاث خمسة من الأبناء وهم (جانخوت Janchot) من امرأته الأولى و (منبولات Minbolat) و (بسلان Besslan) من الثانية، و (اونارمس Unormess) و (قرغيش Kirgish) من امرأته الثالثة.

قام الأمير (ينال) بتربيتهم حسب العادة القديمة المتبعة عند عائلات (الاتالق) من (الازدون) النبلاء، وبالرغم من ذلك لم يكن لديهم من الكفاءة والقوة ما يمكنهم من إدارة البلاد وضمان السلام والاستقرار فيها، وكذلك لم يكن أحد منهم متصفا بصفات أبيهم الأمير (ينال) المشهور بالحكمة واللين، وباحتفاظه بمحبة الشعب له، كما انهم لم يحرزوا في حياتهم شهرة ما، ولم يقوموا بعمل بطولي يذكر، بل كانوا عاجزين كل العجز عن تسيير دفة الحكم في البلاد الواسعة التي تولوا إدارتها بحكم الوراثة، بعد وفاة أبيهم الأمير (ينال).

ووصفهم المؤرخ الشركسي "نغموقة" بقوله: لم يتصرفوا مع الشعب بالحكمة واللين وانما تعاملوا معهم بقسوة، كما كانت حدة طباعهم سببا في إثارة المواطنين عليهم، وتدميرهم ونفورهم منهم، كما ان طيشهم أدى إلى تزايد كراهيتهم، وأعمالهم كانت منحصرة في إثارة الفتن، وبذر الشقاق والنفور بين أبناء الشعب الواحد، وحتى بين الزعماء أنفسهم، واكد "نغموقة" بأن بعض هؤلاء الزعماء استفاد من ضعف حكاهم، وجهل ولالة امورهم، فراحوا يعيشون في الأرض فسادا، مما أدى ذلك إلى اضطراب الأحوال وانعدام السكينة وانتشار الفوضى وانقسام الشعب على نفسه وظهور الفرق والحزاب فيها وساعت الاحوال بعد ذلك إلى درجة أنهم تناسوا فضائل تربيتهم وعاداتهم وتقاليدهم الشركسية، وصار الأخ الأصغر يتجاسر على معارضة أخيه الأكبر، والخروج عن طاعته واحترامه، متناسين واجب الاخوة وكان يحدث كل ذلك بتحريض من الامهات الثلاث.

وتطورت الخلافات بينهم إلى الحد الذي أدى إلى تفرقهم، وسار كل على طريقه، وبعد انقسامهم إلى ثلاث فرق بقي الفريق الأول منهم في (خه كاك Chagak)، والفريق الثاني هاجر واستوطن اقليم (كمركوي Kemirgoi)، والفريق الثالث رحل إلى بلاد القبارطا (Kabarda).^(٤)

وهكذا انتهت الدولة الاتحادية الكبرى التي سبق أن انشأها والدهم الأمير ينال العظيم.

الحادثة الثالثة

الخلافت التي أدت إلى انقسام إمارة قباردا (القبرطاي) إلى ثلاث إمارات بعد انتصارهم على جيش (التورغوت - Tungnt) اجداد القالموق بمشاركة قوات من (التتار) في مناطق (طارقي) في القرن الثالث عشر الميلادي^(٤).

وكان كل أمير من أمراء القبرطاي يدير دفة الحكم في مقاطعته مستقلاً عن غيره رغم ما في ذلك من الأضرار بالشعب، وكان الأمير (شولوخ Sholoch) من آل (تاوسلطان) هو أول من فكر في تجزئة الإمارة وأراد أن يفتسمها مع أبناء عمه، إلا أنهم لم يقبلوا بشروطه ومطالبه. وأدى ذلك إلى استيائه الشديد وغضبه، فهجّر البلاد وبقي مدة من الزمن يتجول بين الأقوام المجاورة لبني قومه، وأراد أن ينتقم لنفسه فأخذ يصب غضبه على الذين لم يمدوا له يد المساعدة على نيل حقه المزعوم، فأخذ يهاجمهم بجماعات من الخارجين على الطاعة والقانون، وينهب تارة قطعان خيلهم، وتارة يسلب أموالهم ومواشيهم وأحياناً يخطف بعض المواطنين ويأخذهم رهائن.

واستمر (شولوخ) في تمرده ونشر بذور الشقاق والفساد، ويدير المؤامرات والفتن.. إلى أن تمكن بعض النبلاء من اتباعه، اقناع شيوخ (القبرطاي) ضرورة تقسيم البلاد، وقبلوا بالفكرة لأنهم كانوا يميلون إلى حكم آل (تاو سلطان) ونفذوا فكرة التقسيم بدون سابق إنذار، أو إجراء أية مفاوضات أو مداولات بينهم وبين بقية الشيوخ والمواطنين، فوجدوا أنفسهم أمام الأمر الواقع فقبلوه ورضوا به بلا معارضة أو مشاحنة. فأخذ الأمير (شولوخ) من (آل تاو سلطان) حصته وهاجر من إمارة (القبارطا) مع اتباعه الذين أرادوا اللحاق به، فأجتازوا نهر الترك واتجهوا شرقاً واستوطنوا في الأرض الواقعة في الجانب الأيمن الشرقي منه. وسميت فيما بعد (قبارطا الصغرى) أو بلاد (تاوسلطان).

وأما الأمير (قايتوقوة Kaituko) من آل (جانخوتو Jonchotow) الأمير (توختامش) وأحفاد الأمير (إيدار) فقد بقوا في (قبارطا الكبرى)

الحادثة الرابعة: الخلافت التي أدت إلى تقسيم قباردا الصغرى في عام ١٧٦٠ ميلادي^(٤)

توفي الأمير الحاكم على قباردا الصغرى عام ١٧٦٠ تاركا وراءه ثلاثة أبناء. وفي العادة يكون للابن الأكبر الأولوية في حكم الإمارة، شريطة أن يحصل على غالبية أصوات الأعضاء في "المجلس الشعبي العام" المكون من الأمراء الآخرين في الإمارة، والنبلاء والقضاة وممثلي العائلات الكبيرة. لكن الشعب كان يكره الابن الأكبر ورفض ممثلوه في المجلس ترشيحه ليكون خليفة لوالده. وتآزمت الأمور وتحزب الناس في ثلاثة أحزاب وكل حزب يناصر أميراً. وفي النهاية، تم الاتفاق على تقسيم الإمارة بين الأمراء الثلاثة وأعطيت مقاطعة (مزدوخ) للابن الأكبر الأمير "كورغوقو، قانجوقين" إلا أنه لم يكن راضياً عما حصل عليه، وذهب إلى (التتار) يحرضهم على أخويه، ومأمله التتار إلى أن انفق أمواله كلها، ثم أخبروه بأن لا قدرة لهم على محاربة أمراء (قباردا) وعندها استدار إلى الروس وألقى بنفسه في أحضانهم وترددوا في قبوله في البداية لأنهم كانوا مرتبطين مع قباردا (القبرطاي) منذ عهد القيصر أيفان باتفاقيات تعاون.

أما الأخ الأصغر فانتقل إلى مقاطعة (الأجلاخستين) شرق نهر الترك واستقر مع رعيته في هذه المقاطعة التي سميت بامارة (جلاخستني).

الحادثة الخامسة: الخلافت التي أدت إلى انقسام قبيلة كميركوي^(١)

يقول (نغموقة) في دور من الأدوار التاريخية، وفي زمن لا يمكن تعيينه بالضبط كان يحكم قبيلة (كميركوي) ثلاثة أخوة من أمراء (الأديكة) وهم: (بولاتوكو Bolatoko) و (زان Zann) و (حاتوقاي Chatokoi).

حيث عاش الاخوة معا مدة من الزمن في سلام، إلا أن الاخوين الاصغرين أرادا فيما بعد الافتراق عن أخيهما الأكبر، فظلا يحاولان اقتاعه كي يوافق على الانفصال واقتسام البلاد وتجزئتها بينهم.

ولما لم يتمكنوا من ذلك التجأ الاخ الثاني وهو (زان) إلى الحيلة والخديعة فتمكن خفية من استمالة فريق من قبائل الشعب وزين لهم الانفصال وأقنعهم بضرورة الهجرة إلى بلاد أخرى أوسع مجالا وأحسن تربة من التي يسكنونها، وظل يداور أخاه الأكبر حتى سئم هذا من كثرة محاولاته والحاحه، واذن له أخيرا بالرحيل دون ان يعلم بحقيقة نواياه من الهجرة. فرحل فعلا من البلاد مع رعيته التي قبلت مرافقته، وتآلفت منهم بعد ذلك قبيلة مستقلة تدعى حتى اليوم قبيلة (زان Zann).

وبعد فوات الفرصة ادرك الامير (بولاتوكة Bolatoko) الغرض الحقيقي من هجرتهم فعاقبهم على فعلتهم هذه بحرمانه اياهم من جميع اموالهم واملاكهم التي تركوها في الموطن القديم ولم يتنازل لهم عن شيء مما كان لهم.

وفي السنة التي تلت هجرة الامير (زان) مع أهله وعشيرته، حذا حذوه أخوه الامير (حاتوقاي) وانفصل عن أخيه الأكبر مع طائفة أخرى من الذين ارتضاها، وسمي احفادهم بقبيلة (حاتوقاي) واما الأخ الأكبر (بولاتوكة) .. فظل ثابتا في موطنه في إمارة الكميركوي مع القسم الأكبر من الرعية من القبرطاي.

الحادثة السادسة: الخلافات التي تطورت إلى حرب بين الاميرين من قبيلة زان واتباعهما في الفترة ما بين (١٦٤٠-١٦٤٨).

حدث خلاف بين اميري قبيلة (زان Jann) الشقيقان وهما: الامير (آنتونوقوه Antinoko) والامير (قانبولات Kanbulat) بسبب فتاة ذات جمال باهر تسمى (سوتناي Sotenai) كانت في خدمة الاخ (آنتونوقوه) على اثر الاشاعات والقصص حول وجود امور غامضة وعلاقات سرية بين الامير (قانبولات) وبين الفتاة (سوتناي).

بدأ (آنتونوقوه) يشك في سلوك أخيه الاصغر وطرده من بيته ليضع حدا للاشاعات والاقاويل فالتجأ لبيت مربيه (الاتالق)، إلا أن الامر لم ينته عند هذا الحد، بل قيل ان العلاقات بينهما ظلت قائمة، وانها كانت تواصله وترسل إليه الهدايا من حين لآخر. وعلى اثره قرر (آنتونوقوه) قتل شقيقه (قانبولات) للخلاص من سمعته السيئة، إلا أنه هرب إلى تركيا، والتجأ إلى (السلطان ابراهيم) وطلب منه جيشا يستعين به على أخيه او ان يتوسط بالصلح معه، ولم يتجاوب معه السلطان بل رده على اعقاب، حيث اضطر إلى العودة إلى بلاده، وتمكن بعد عودته بمدة وجيزة من استمالة قسم كبير من الشعب إليه، حتى انه تمكن بمعونتهم من السيطرة على إمارة (زان) وخرج الشقيق الأكبر إلى بلاد القرم ولجأ إلى (الخان) طالبا إليه مده بجيش ليتمكن من استرداد بلاده التي اغتصبها منه أخوه بغير حق.

وافق (الخان) على طلبه وجهز جيشا كبيرا من أهل القرم وسار نحو إمارة (زان) وعندما أصبح هذا الجيش قريبا من حدودها، جمع الأخ الأصغر جيشا كبيرا من أهل الإمارة وقرر مقابلة أخيه القادم من القرم، فحدث اصطدام بين جيشه والجيش القادم من القرم بتحريض من الاخ الأكبر، وقتل الأخ الأكبر وهلك عدد كبير في هذا الصدام الدموي وتمكن (قانبولات) من الفرار لخارج الإمارة فاستعاد امارته. وأقسم الشعب يمين الولاء للامير (آنتونوقوه) واعطيت اموال أخيه (قانبولات) واعوانه الاشرار لجيش القرم الذي ساعد في استعادة الإمارة وقيل ان بعضا من أهل القرم العائدين إلى بلادهم وجدوا (قانبولات) عند خليج البحر فقتلوه، وبذلك انتهت هذه الحادثة المؤلمة.

وأما الفتاة (سوتناي Sotenai) التي كانت السبب المباشر في كل هذه الاحداث فقيـل بأنها طردت من البلاد، وقيل ايضا انها اعطيت لخان القرم^(٧) هدية.

إن هذه الحروب والمنازعات التي وقعت بين الامير (آنتونوقوه) وأخيه (قانبولات) اللذين عاصرا السلطان ابراهيم العثماني، حدثت بين اعوام ١٦٤٠ و ١٦٤٨ وذكرها البارون (هامر Baron

(hamer) في كتابه المسمى (تاريخ المملكة العثمانية) المطبوع سنة ١٨٤٠، ويسمى هذا المؤلف هذين الاميرين (انتوناق بك (Antonak Beg) و (هاكشماق بك (Hakashmak Beg).

الحادثة السابعة: حادثة غزو الأمير (الجوقة شوكونوقة) لقباردا الصغرى بدعم من التتار المرتزقة بسبب اصراره على تملك (درع أثري) بالقوة: (٨)

وخلاصة الحادثة أن احد "سواس" مدرب الخيل المدعو (اداشم Addasem) كان جالسا فوق رابية (كورغان)، رأى شعبانا، فطارده ليقنتله فأقلت منه الشعبان ودخل جحرا كبيرا، فأخذ يحفر حوله حفرة واسعة ليتمكن من الوصول إليه وقبل أن يصل إلى مكان الشعبان وجد في الحفرة (درعا ذات مسامير ذهبية) وفي غاية من الاتقان والاناقة، فلبسها وسار قاصدا بيت ولي امره (توزارو Tusarow) ليهديها إليه، وفي الطريق إليه دخل بيت الاوزدن (قوغوتليكو Kogotlukow) الذي كان يقيم وليمة. ولما رأى صاحب الوليمة والدرع التي يرتديها السائس (اداشم) اعجب بها كل الاعجاب حيث قدم للسائس الخمر حتى سكر، ونزع عنه الدرع وهو ثمل وألبسه درعا آخر اقل جودة منها. ولما افاق (اداشم) وعاد لوعيه تبين ان الدرع الذي يلبسه غير الدرع الذي وجده في الحفرة، فأخبر ولي امره بذلك، فصمم هذا على ان يسترد الدرع مهما كلفه الأمر.

ولما ايقن الاوزدن (قوغوتليكو) بأن لا فائدة ترجى من الاحتفاظ به فسلمه إلى ولي امر (السائس) (توزارو). إلا ان الامير (الجوقة) المذكور ظل مصمما على اخذ الدرع بأي ثمن كان، فطلب من (توزارو) ان يعطيه اياه او يبيعه له. رفض (توزارو) بيعه الدرع فأغار الامير (الجوقة شوكونوقة) ليلا على منزله مرارا عديدة وارهق ذويه بطلباته الملحة وبحته الملح عنه، ولكنه رغم ذلك لم يتمكن من الحصول عليه، إذ لبسته احدى النساء من عائلة (توزارو) المدعوة (ماناته Manata) ورحلت به إلى اقاربها في قبارطا الكبرى.

ولما علم (الجوقة) بذلك سافر إلى القرم والتجأ إلى الخان وطلب منه أن يمدّه بجيش ليتمكن به من غزو قبارطا الكبرى، فلم يجبه الخان إلى طلبه بل اهداه درعا ثمينة بدلا من الدرع المنشودة. إلا أنه لم يهدأ بل قام في طريق عودته للبلاد بجمع عدد كبير من (التتر) وسار بهم للاغارة على قبارطا الصغرى وتمكن من تخريب جزء منها. فلم يكن بوسع القبارطاي إلا مقابلته بالمثل وعلان الحرب عليه، وفي المعركة التي دارت بين (القبارطاي وجموع التتر) اصيب (الجوقة) مرتين بجراح بليغة، ثم صالحوه وارجعوه إلى وطنه ومات بعد ذلك بمدة يسيرة.

وفي ذلك أنشد احد الشعراء قصيدة مطلعها:

لقد اشتد النزاع واستحكم الخلاف بين اخوين من امراء القبارطا ولكن الويل للاوزدن الذين عليهم ان يتحملوا المشاق بسبب خصامهم.

وتشير سجل حادثة الامير (الجوقة) بأن أبناءه الاربعة وهم (كنكو Genko) و (تامبوت Tambot) و (تملستان Temstlostan) و (قره قان Kare kan)، اصبحوا بعد بلوغهم سن الرشيد على شاكلة ابيهم وبنفس عقليته الشاذة وكانوا في نزاع وخصام دائمين مع بقية الأمراء في إمارة القبرطاي.

ولإنفاذ البلاد من شرهم، وإنهاء القلاقل والاضطرابات التي احدثوها في طول البلاد وعرضها، تأمر عليهم اخيرا الامير (مودارفا) مع امراء قبارطا الكبرى الذين اقتنعوا بضرورة التخلص من هؤلاء الأشرار نهائيا، وصمموا على اباده ابناء الجوقة من آل (شوكونوقة) جميعا.

ونجحت المؤامرة ونفذت فعلا، وقتل بعض أبناء الجوقة علنا بينما قتل الآخرون سرا حتى لم يبق منهم احد على قيد الحياة، ومنذ ذلك الحين لم تقم لال (شوكونوقة) قائمة ولم يبق لهم أثر.

الحادثة الثامنة: وتتمثل في حادثة القتال بين اتباع امراء (قبارطا) في عهد أحفاد الامير (قازي) وهم (حاتوظوقة وجانبوت، وميسوست) والذي ادى إلى قتل ٥٠٠ شخص

يقول (نغموقة) بأن رجلا استعار من جاره (غربالا) منخل لاستخدامها لفترة قصيرة، إلا أن المستعير نسي إرجاعه لصاحبه في وقته. فغضب صاحب المنخل واعتبره اهمالا من جاره الذي استعاره. فتشاجر الجاران وتحزب اصحاب واقارب كل منهما، وتطورت المشاجرة إلى حرب دامية اسفرت عن مقتل (٥٠٠) شخص من الطرفين.. وتم تخليد القتلى بدفنهم بمدافن جماعية في موقع سمي بـ (قوزانه - قه) أي (مقبرة المنخل) وهو الموقع الكائن بين نهري (باقسان) و (غوندالن) في (قباردا) ^(٩).

الحقيقة الثانية:

خروج بعض الامراء على القانون واحداث شغب وبث الفتن في المجتمعات الشركسية المحلية.

يشير بعض الدارسين لتاريخ المجتمعات الشركسية في الوطن الام بأن اكثر المشاكل الداخلية التي واجهت الامة الشركسية في بعض العصور القديمة منها والحديثة هي مشكلة الامراء الخارجين على القانون ومثيري الفتن والفوضى والشغب في عدد من الامارات الشركسية.

وفيما يلي نماذج من هذه الظاهرة الاجتماعية المرضية التي حدثت في فترات متباعدة من تاريخ الأمة الشركسية.

النموذج الاول: مطاردة الاشقياء والامراء الخارجين على القانون الذين عصوا اوامر الامير (ينال العظيم) في القرن العاشر الميلادي ^(١١).

واجه الامير ينال في بداية حكمه الامراء المنشقين الذين عاثوا في البلاد فسادا، واحداث فتن وشغب بين الاهالي.. وواجههم بقوة وقسوة والقي القبض على ثلاثين اميرا سبق ان لجأوا إلى الجبال العالية والغابات الكثيفة حيث تم قتل عشرة منهم، وأجبر الآخرين على اداء يمين الولاء والاخلاص وتقديم الطاعة.

كما قام الامير (ينال) القضاء على الثورة التي قام بها سكان الجبال الجنوبية من امارته بقيادة زعيمهم الامير (اوزدمير) الذي هرب إلى بلاد الابخاز عندما علم بقدم جيش (ينال) لمعاقبته على تمرده.

النموذج الثاني: الفتن وأعمال الفساد والفوضى التي حدثت في عهد الامير (حاتوظوقة) الابن الاكبر للامير (قازي)

قام الامير (حاتوظوقة) بتطهير البلاد من المعتدين ومثيري الشغب والفوضى في بلاد القبرطاي.. وبالأخص بين الامير (شوزي) كبير السن، وبالرغم من كبر سنه لم يتوان عن بث بذور الفساد وتوسيع شقة الخلافات بين امراء (القبرطاي) الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم، وتسبب هذا الأمير (الهرم) في خلق المشاكل والفتن ونصب الشرك لأتمته باجمعها، إذ إنه كان يثير الأمير على أخيه الأمير، والنبيل على اتباعه وافراد عامة الشعب، حتى صار كل واحد من الامراء والنبلاء وبعض عامة الشعب يسعون لإيقاع بعضهم ببعض.

وقام الامير (حاتوظوقة) بعد مناصرة الشعب له بتسلم زعامة الإمارة لقناعة الشعب بأن الامير الوحيد بين الامراء المتنازعين الذي تهمه مصلحة البلاد وامنها ورفاهيتها، وكان اول عمل قام به بعد تسلمه الإمارة هو استخدام الشدة والقسوة في القضاء على الفتن، ومعاقبة الفاسدين، ومحاكمة الخارجين على القانون والعادات والتقاليد، فاستطاع قتل الاخوان (بانتريش وباتربي) اولا، ثم قام بقتل اخويهما (جانبور باز وجان تورزخان) اللذين ظلا مختبئين في الكهوف الجبلية مدة طويلة من الزمن، وجميعهم هم من احفاد الامير (شوزي) الذي عفا عنه الامير (حاتوظوقة) ولم يقتله لكبر سنه. إلا أنه ظل يحاول ايجاد الفرصة المناسبة للتأثر منه لقتله احفاده الاربعة وفي وقت لاحق استغل سفر الامير (حاتوظوقة) مع اخوته إلى بلاد الاستين واقدم على قتل المصارع المشهور (سوسيراخو) وهو من اتباع الامير (حاتوظوقة) غدرا بطعنه من الخلف وهو على حلبة المصارعة. ولما عاد (حاتوظوقة) وعلم بما حدث لمصارعه من غدر.. قام بالانتقام له بقتل (شوزي) بطعنه بسيفه وهو نائم ^(١٢).

الحقيقة الثالثة:

تشير الوثائق وبعض الروايات المتناقلة منذ عهد أجداد الأمة الشركسية وأبائهم بأن أكثر الأمراض الاجتماعية التي كانت منتشرة في بعض العصور هي (الصراعات الطبقيّة) التي نتجت عن تعدد الطبقات وظهور نظام الحياة الأرستقراطية في بلاد الشراكسة، حيث انتقلت الصراعات والخلافات ما بين الأمراء والنبلاء بعضهم مع بعض إلى صراعات وانتفاضات ما بين الفلاحين وعامة الشعب من (بشل) والخدم (ونه أوت) وبين امرائهم ونبلائهم.

وإن هذه الصراعات حدثت في وقت كان يفترض فيه أن تكون الأمة الشركسية متماسكة ومتمحدة، حتى تتمكن من توحيد كل إمكاناتها وقواتها المقاتلة لصد الاعتداءات التي كانت تتعرض لها الأمة من قبل السلطات الروسية والجيش الروسي.

وللوصول إلى لب هذه الصراعات كان لا بد من إعطاء فكرة حول النظام الطبقي في المجتمعات الشركسية على اختلاف قبائلها وشعوبها حيث كانت تتبع النظام الطبقي في مجتمعاتهم، وأن هذا النظام كان يقسم السكان إلى أمراء ونبلاء وأحرار وفلاحين واتباع (بشل) وخدم (ونه أوت) وأن هذا النظام بدأ تطبيقه منذ القرون الوسطى.

وتشير الوثائق والوقائع التاريخية بأن أول صراع طبقي ظهر في المجتمع الشركسي كان في عام ١٧٦٧، عندما قام حوالي عشرة آلاف قروي بقيادة (مامسروقة) بثورة ضد أمراء القبرطاي وتم إخمادها بعد أن تحالف الأمراء والنبلاء مع رجال الدين كما قامت انتفاضة مماثلة في مناطق البزدوغ وقضى عليها بتعاون الأمراء والنبلاء مع السلطات الروسية المعسكرة بالقرب من منطقة إمارة (بزدوغ).

كما نشط الشراكسة في سهول الكوبان واستطاعت أن تجمع قواتها ضد امرائهم ونبلائهم (بشه وورق) وفي الأعوام ما بين ١٧٩٠ ولغاية ١٨١٠ استطاعوا القضاء على نظام الاقطاع مما اضطر الكثير من الأمراء والنبلاء للالتجاء إما إلى روسيا أو إلى القرم.

وفي عام ١٨٤٦ حدثت أكثر الصراعات الطبقيّة حدة لدى قبائل الشابسوغ والناخوج والابزاخ حيث جرد عامة الشعب وأمرأؤهم ونبلاؤهم من حقوقهم القديمة بالسيطرة على (٨٥٠٠) بيت للفلاحين (العبيد) وتحرير حوالي (٥٠٠٠٠) شخص من الجنسين، ما بين عامي ١٨٤٦-١٨٤٧ اضطر معها الأمراء إرسال نبلاء الشابسوغ والناخوج مرتين بممثلين عنهم إلى قائد خط البحر الأسود الجنرال "راشيبليو" طالبين منه قبول خضوعهم للروس على أمل مساعدتهم لاستعادة حقوقهم لاحقاً، وكتبوا يقولون بأن الشعب أخذ منهم أملاكهم التي ورثوها عن آبائهم بحجة تطبيق الشريعة الإسلامية.

وفي شباط من عام ١٨٥٦، حدثت أكبر هذه الانتفاضات والتي قام بها فلاحو البجدوغ والتي عرفت باسم (حرب الأمراء والنبلاء)، حيث لم يستطع النبلاء والأمراء في إمارة (البجدوغ) إخماد الانتفاضة إلا بعد الاستعانة بالقوات الروسية التي قامت بتدمير قرى الفلاحين، إذ حاصرت هذه القوات قرى الفلاحين وتدميرها^(١٠) إلا أن الانتفاضة نجحت في السنة التالية وتم القضاء على النبلاء والأمراء المتعاونين مع الروس بدعم من النائب (محمد أمين) الذي أرسله الشيخ شامل لبلاد الأديغة سابقاً.

وكان من النتائج السلبية لتعدد الصراعات الطبقيّة بين عامة الشعب الشركسي من فلاحين، واتباع، وخدم، هو إضعاف وحدة الشعوب والقبائل الشركسية في وقت كان هذا الشعب بأمس الحاجة لمثل هذه الوحدة، إلا أن ظهور قيادات شعبية وزعامات جديدة ملأت الفراغ الذي كان يحدث نتيجة هروب أو اختباء الأمراء والنبلاء المتعاونين مع السلطات الروسية الذين كان عددهم حسب الروايات الشركسية قليلاً.

الحقيقة الرابعة: هي حدوث بعض اعمال الخيانة وقيام بعض الافراد بالتجسس لصالح الأعداء، وفيما يلي امثلة لهذه الظاهرة.

المثال الاول: ويتمثل في خيانة الامير (بيتوفتش شيركاسكي) وهو احد احفاد عائلة (بيتوفتش) التي التحقت ببلاط ايفان الرهيب بعد توقيع اتفاقية تعاون مع الامير تيمروقه في عام ١٥٥٧، حيث كلف بقيادة الحملة العسكرية التي وجهها القيصر بطرس الكبير في عام ١٧٢٢، إلى بلاد (الادبغة) تلك الحملة التي فشلت فشلا كبيرا، وقتل فيها جميع افراد الحملة تقريبا البالغ عددهم سبعة الاف جندي بما فيهم قائد الحملة الشركسي الاصل حيث قام الشراكسة المنتصرون (بحشو جثة) الامير بيتوفتش (بالقش) وعلقت على باب مدينة (خيوه) التي كانت هدفا للحملة.. ليكون عبرة لأولئك الذين قاموا بخيانة قومهم واطنانهم.

مثال ثاني: هي تلك الخيانة التي قام بها أمراء واغنياء الابخاز الذين كانوا يخافون على من يحاربون مع الجنرالات الروس المقيمين في جورجيا ومثال على ذلك أن كلا من الاميرين احمد اوبلاوقامش وزورا كانا قد حلفا يمين الصداقة والطاعة لروسيا.^(١٣)

مثال ثالث: وتتمثل بالموافق السلبية التي اشار إليها لابينسكي عام (١٨٦٣) حيث قال "إنهم ليسوا متفانين من اجل وطنهم (المقصود هم النبلاء) والكثير منهم خدم الروس. فقد كانوا يحبون ان يسود النظام الروسي في بلادهم". لأنهم كانوا يتلقون معاملة حسنة لاستمالتهم ولم ييخلوا عليهم بالأوسمة والالقاب.^(١٤)

ومثال رابع: تلك الحقيقة التي أشارت إليها بعض الوثائق الروسية والتي تضمنت بأن قسما من اقطاعي القبرطاي ساندوا الروس في صراعهم ضد حركة التحرير لدى الجبليين، حيث قامت الحكومة القيصرية بتخصيص مخصصات سنوية كبيرة ورواتب تقاعدية كبيرة لبعض أمراء ونبلاء القبرطاي كما تم إعطاؤهم رتبا عسكرية في الجيش، وأنعموا عليهم بالأوسمة وقدموا لهم الهدايا الثمينة ووعدوهم بدعم سلطتهم على الفلاحين.^(١٥)

إلا ان ما كتبه (حاجيموق) عن الأمراء الذين كانوا يقسمون الولاء للقيصرية يؤكد بأن الأمراء لم يكونوا موالين فعلا للسلطات الروسية، بقوله:

"... فعندما كان أمير من الأمراء يقسم الولاء باسم التابعين لروسيا.. كان يتوقف عن أعمال الغزو ضد القوات الروسية .. وحتى أنهم كانوا يحرسون الحدود الروسية.. وبعد فترة من الزمن كنت ترى الامير نفسه الذي ادى القسم يحارب الروس وسلاحه في يده وكانت الادارة الروسية تدرك ذلك وتعرفه جيدا.. ولذلك فإنهم كانوا يعتبرون يمين الولاء لهم امرا شكليا.. ويعتبرونهم مسالمين وليسوا تابعين للروس.^(١٦)

مثال خامس: ويتمثل بالطلب الذي تقدم به إقطاعيو (الادبغة) الذين أصبحوا تابعين للإدارة الروسية بعد احتلال بلادهم في عام ١٨٢٧ وكان نص الطلب:

"نحن أمراء ونبلاء الشراكسة نطالب القيادة القيصرية في القفقاس إعطاءنا شهادات بدرجاتنا من الإمارات" إلا أن الحكومة الروسية لم تجرؤ على إجابة طلبهم خوفا من الثورة العلنية لفلاحى القفقاس.

مثال سادس: ويتمثل في بعض اعمال التجسس والتعاون مع الاعداء وهم الذين كشف عنهم أمير القبرطاي "أنزور" الذي طلب في عام ١٨٤٣ من نائب الامام شامل في بلاد الشيشان الشيخ (شعيب) إرسال وحدة صغيرة إلى بلاده للمساعدة في قتل (١٦) شخصا متعاونوا مع السلطات الروسية.^(١٨)

الحقيقة الخامسة:

استغلال الفلاحين من قبل الامراء (البشة) والنبلاء (الأوزدن)

كتب احد الكتاب في بداية القرن التاسع عشر قائلا إن "الأرض لدى القبرطاي مثلها مثل الأرض لدى القوموق، هي مملوكة كاملة للأمراء ومستثمري الأرض من نبلاء وفلاحين يعتبرون

تابعين للأمراء والناس العاديين يدفعون للأمراء والنبلاء (العشر) من إنتاج القمح السنوي، وتدفع كل قرية حسب حجمها عددا من الماشية أيضا، وهذا هو دخل الأمراء والنبلاء إضافة إلى بعض الغرامات والجزاءات التي يتقاضونها مقابل الأحكام التي يصدرونها على مرتكبي الجرائم.

وهذا ما كان يحدث قبل حدوث ثورة الفلاحين وانتفاضتهم على الأمراء والنبلاء والاغنياء الذين كانوا يستغلون الفلاحين استغلالا بشعا في هذه المرحلة من تاريخ الشراكسة عامة والقبرطاي خاصة.

مراجع ومصادر الفصل التاسع

- ١- نغموقة، مصدر سابق، ص: ١٩٧.
- ٢- جريدة غوازة الجركسية، رقم (٣١)
- ٣- نغموقة، مصدر سابق، ص: ٦٦-٧٠.
- ٤- المصدر نفسه، ص: ٩٣-٩٤.
- ٥- حراتوقة، مصدر سابق، ص: ٢٧٠.
- ٦- نغموقة ص: ٧١-٧٢.
- ٧- المصدر نفسه، ص: ١٢١-١٢٣.
- ٨- المصدر نفسه، ص: ١٥٩-١٦٤.
- ٩- المصدر نفسه، ص: ١٣٤.
- ١٠- قاسوم، علي حسن، اباداة الشراكسة، مصدر سابق، ص: ٧١-٧٢.
- ١١- نغموقة، مصدر سابق، ص: ٦٦-٦٧.
- ١٢- المصدر نفسه، ص: ١٣٥-١٣٦.
- ١٣- المصدر نفسه، ص: ٤٠.
- ١٤- رايفسكي، في وصفه للمجتمعات الشركسية (الأديغة) الجزء الاول عام ١٨٦٣ ص: ١٠٨-١٠٩.
- ١٥- قاسوم، علي حسن، الوثائق الروسية - اباداة الشراكسة، ص: ٣٠.
- ١٦- المصدر نفسه. ص: ٣٢.
- ١٧- المصدر نفسه، ص: ٤٤.
- ١٨- المصدر نفسه، ص: ٢٦.
- ١٩- المصدر نفسه، ص ٩٠-١٠٠.
- ٢٠- فون، فيل، السنة الاخيرة، مصدر سابق، ص: ٢٠-٢١.

المجلد الأول

الجزء السادس

الشراكسة في الوطن الأم في ظل

الحكم الروسي خلال الفترة

(١٨٦٤-٢٠٠٩)

فهرس فصول الجزء السادس

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول: الشراكسة في الوطن الأم في ظل حكم الاستعمار الروسي القيصري	
..... خلال الفترة ١٨٦٤-١٩١٧	569
الفصل الثاني: شراكسة الوطن الأم في ظل حكم دولة شمال القفقاس (الجمهورية الجبلية)	
..... خلال الفترة ١٩١٧-١٩٢٠	582
الفصل الثالث: الشراكسة في الوطن الأم في ظل الحكم الشيوعي في عهد الاتحاد	
..... السوفيتي (١٩٢١/١٩٩٢)	585
الفصل الرابع: المواقف الداعمة والأدوار الإيجابية للسلطات الشيوعية المحلية والاتحادية	
لشراكسة الوطن الأم في ظل حكم الشيوعي في الاتحاد السوفيتي	
..... (١٩٢٠-١٩٩٢)	609
الفصل الخامس: المواقف العدائية والتأثيرات السلبية للأيدولوجية الماركسية الشيوعية على	
حياة شراكسة الوطن الأم في ظل حكم الاتحاد السوفيتي	
..... (١٩٢٠/١٩٩٢)	631
الفصل السادس: شراكسة الوطن الأم في ظل جمهورية اتحاد الشعوب الجبلية القفقاسية	
..... (١٩٨٩-١٩٩٤)	636
الفصل السابع: شراكسة الوطن الأم في ظل حكم مروسيا الاتحادية (١٩٩٢-٢٠٠٩) ..	639
الفصل الثامن: الصراعات العرقية والتحديات الاقتصادية والسياسية التي	
تواجه شراكسة الوطن الأم في عهد مروسيا الاتحادية ...	648

الفصل الأول

الشراكسة في الوطن الأم في ظل حكم الاستعمار الروسي

القيصري خلال الفترة ١٨٦٤ - ١٩١٧

بدأت حياة جديدة لشراكسة الوطن الأم الذين ظلوا على قيد الحياة مع انتهاء حرب الإبادة والدمار الروسية عام ١٨٦٤ وعددهم لم يتجاوز ٣٠٠,٠٠٠ ألف شخص من أصل عددهم عند بدء الحرب والبالغ أربعة ملايين حيث استشهد أو فقد نصفهم تقريباً وهُجر النصف الآخر قسراً لبلاد الاتراك وبعض الدول العربية.

وربما كان افضل وصف للاوضاع الاجتماعية للشراكسة الذين بقوا ملتصقين بأرض الآباء والأجداد هو ما كتبه الكاتب الروسي (يا. أبراموف) في كتابه (القوقازيين الشراكسة) عام ١٩٢٧ قائلاً: *

(رغم عمليات الإبادة التي مارستها الجحافل القيصرية، ورغم سياسة الأرض المحروقة والمذابح الجماعية بعد زج الضحايا في الحفر المشتركة في القفقاس، وفناء قبائل كاملة مثل محاصرة قبيلة جان الملتجئة إلى الاحراش وإحراقها بمن فيها).

وبالرغم من عمليات التهجير القسري إلى مناطق مستنقعات الكوبان أو التهجير إلى البلاد العثمانية، والانتظار في المحطات والموانئ بدون غذاء أو كساء أو مأوى، هذا عدا عن هلاك الاطفال والشيوخ على طرق التهجير براً، وإغراق البواخر التي اقلتهم على طرق التهجير البحرية، وفنك الامراض السارية بهم في المناطق الموبوءة التي خصصت لهم، أو الموت في ساحات القتال في البلقان، رغم كل هذا بقي قسم من الشعب الشركسي ملتصقا بأرض الآباء والاجداد يتحمل الظلم والذل والاهانة والقتل العلني، وكان مسموحاً به للمستوطن الروسي والقوزاقي، يومياً بدون حساب.

كما قال "والشراكسة الذين بقوا على أرض الوطن لم يتخلوا عن الدفاع عن وجودهم ابداء، وأنهم ظلوا يقاومون المحتلين الروس والمستوطنين القوزاق والنغوي الذين أقطعت لهم أخصب الأراضي وأنشئت لهم المستعمرات، وسنت من أجلهم القوانين، وأوكلت إليهم مهمة قتل أو تهجير من بقي حياً من الشراكسة".

وفي رد (أبراموف) على بعض الكتاب الروس الذين اتهموا الشراكسة بالهمجية والبربرية وانهم شعب كسول لا يحب العمل، رد عليهم قائلاً "فإننا يجب ان نعترف بأن الأمة الأقل حضارة، والأقل حبا للعمل هي الأمة الروسية بالذات لقد تحدثت عن تملك املاك شاسعة في القفقاس الغربية للروس، تلك الاملاك التي كانت مغطاة ببساتين وكروم ومراع وحقول أنشأها السكان الجبليون (ويقصد بهم الشراكسة). مثل هذه الظاهرة لاحظتها ايضا في منطقة (التيرك) من خلال السنوات الثلاث التي قضيتها في هذه المنطقة وعشت قسماً منها في (نالتشيك) كما عشت في مناطق سكن الروس ايضا، وفي قرية في وسط قبرطاي الكبرى، حدث أن رأيت بنفسي - كيف ان الروس ودون أي خجل كانوا يتلفون غلال المزروعات للقبرطاي التي بذلوا من أجلها جهداً كبيراً عدة سنوات.^(٤٨)

والدارس للأوضاع الاجتماعية الشراكسة الذين تمسكوا بالأرض ونجوا من التهجير القسري يجد أنهم عاشوا في ظروف صعبة جداً خلال فترة وقوعهم تحت حكم الاستعمار الروسي في عهد القياصرة في الفترة من (١٨٦٤-١٩١٧) ويمكن تلخيصها على النحو التالي:

* يا. أبراموف، القوقازيون الشراكسة، مصدر سابق، ص: ٥٢.

١. تعامل القوزاق المحتلين مع السكان الاصليين من الشراكسة وكأنهم (ليسوا بشرا) وإنما هم مخلوقات نكرة لا ضرورة لإيلائهم أي أهمية.
 ٢. إعطاء القوزاق المحتلين حقوق خاصة والحصول على دعم السلطات الروسية الرسمية في كل المواقف.
 ٣. تعيين رؤساء من القوزاق في مناطق السكان الاصليين من الشراكسة، مما سبب حدوث اصطدامات دموية بين (القوزاق والشراكسة)، منها ما حدث صيف ١٨٨٣ من مذابح ونقتيل للشراكسة من قبل القوزاقيين المحتلين وبدعم لا محدود من السلطات القيصرية.
 ٤. إعطاء الروس الذين يعيشون في القرى والمناطق الشركسية حق انتخاب (المختار) أما (مختار) القرى الشركسية فيتم تعيينه من قبل رؤساء اقسام السلطات الروسية.
- ويتابع (ابرامانوف) قائلا: (٤٨)

"إن نتائج مثل هذه السياسة محزنة للغاية، فإن استياء مجتمعات القرى الشركسية من مخاتيرهم (المعنيين) هو استياء منطقي لأن هؤلاء المخاتير هم أشخاص محتقرون ويكرههم المجتمع الشركسي كله، أشخاص عندهم اسباقيات (جرائم)، أو خبرة عملية في اللصوصية. وكان (رؤساء القرى) والمخاتير دائما وأبدا ينفذون رغبات السلطات الروسية غير المبررة يشجعون الآخر بالتأثر من الشراكسة، أو يتسترزون على الجرائم، وقد يكونون هم أنفسهم أعضاء في المجموعات اللصوصية التي تنتقد أكثر السرقات وحشية دون أي عقاب. ولما كان هؤلاء (المخاتير) تعينهم السلطة الروسية فإنهم كانوا يلقون التأييد منها، فليس من العجب أن تتحول كراهية السكان الاصليين من الشراكسة نحو (المخاتير) موجهة للنظام الروسي الذي يظهر للشراكسة تجسيدا للقمع والطغيان. ولذلك فإن الألم والحقد كله الذي يتراكم في مثل هذا المجتمع يقع على الروس انفسهم، ومن جهة أخرى فإن الشراكسة حيناً يرون سكانا من الروس لهم استقلالهم بشكل واسع في شؤونهم الداخلية فإنهم يبدؤون لا إراديا بالاحساس بأنهم في وضع غير عادل ويبدؤون بحسد جيرانهم. كما كان مثل هذا التمايز الذي يشعر به السكان الأصليون كان شديد الوطأة". (٤٨)

هذا بالإضافة لغياب العدالة في التعامل مع الشراكسة، وخير مثال على ذلك ما يحدث عند وقوع جرائم ضد (شخص شركسي) فإنها في غالبية الحوادث تبقى دون عقاب، وبالعكس تماما تكون القضية فيما يتعلق بالجرائم التي ينفذها او يظن أن الشراكسة نفذوها. فإنها تتابع وتوقع فيها أكثر العقوبات شدة وإن مسؤولية (الجبليين) في منطقة (التيرك) عن الجرائم محاطة بشروط لا شبيه لها في طول أراضي الامبراطورية الروسية. فالنظام الموضوع بالقانون للكشف عن المجرمين وسوقهم وتثبيت المسؤولية عليهم نادرا ما يطبق على السكان المحتلين من الروس و"القوزاق" بينما مسؤولية الشراكسة تحدد بأفكار مسبقة ويمكن ردها إلى النقطتين الأساسيتين التاليتين:

النقطة الاولى: في كل مرة تحدث جريمة ما في منطقة او في أي مكان يفترض أن يكون الفاعل هو من (الشراكسة) وحتمًا ليس من الروس بأي شكل كان.

النقطة الثانية: يعتبر كل شركسي يعيش قرب مكان حدوث الحادث مسؤولاً عن هذه الحادثة حكماً، في حين يكون لا يزال الفاعل غير معروف، وحتى في الحالة التي يكون فيها الفاعل معروفاً، ولا تملك السلطة الادلة الكافية للإثبات، فإنه كان يتم تطبيق نظام (الاحكام) الادارية الخاصة بدلاً من تطبيق (الاجراءات القضائية) تجاه الشراكسة وهو نظام غير عادل تطبق فيه الإجراءات التي يرغب قائد الشرطة الروس أو القوزاقي بتطبيقها.

٥. إن الغرامات التي يدفعها السكان الشراكسة بسبب (المسؤولية الجماعية) تفوق مرات عديدة جميع الضرائب والرسوم التي يدفعها الروس، وقد أحرق أحد الروس منزله بنفسه ولما لم يُعرف الفاعل فقد حصل على اربعة اضعاف قيمة منزله المحروق من السكان الاصليين المجاورين من الشراكسة.

٦. عاش الشركاسة (الأديغة) في قرى متباعدة ولم يكن لهم الحق في حكم أنفسهم بأنفسهم، كما أنه لم يكن لهم أي شكل من أشكال الحكم الذاتي بل أنهم كانوا محكومين من قبل الإدارة المحلية الروسية، ومن خلال (المخاتير) المفروضة عليهم من قبل السلطات الروسية.

بالإضافة إلى الوقائع المؤلمة المشار إليها سابقا فإن الباحث في اوضاع الحياة الاجتماعية للقبائل الشركسية التي نجت من التهجير (الروسي/ العثماني) القسري، وتمسكت بأرض الوطن الام يكتشف الحقائق المؤلمة التالية:

الحقيقة الاولى: تناقص اعداد القبائل الشركسية التي عاشت في الوطن الام بعد الاحتلال الروسي الذي بدأ في عام ١٨٦٤.. وان عددها انخفض إلى (٧) قبائل من أصل (١٨) قبيلة كانت تعيش في القفقاس قبل حرب الإبادة. وأن بعض القبائل اندثرت نهائيا ولم يعد لها وجود بسبب القضاء عليها خلال حرب الإبادة الروسية، وأن بعضها الآخر اندمجت مع قبائل شركسية أخرى ولم يعد لها وجود كقبيلة مستقلة. وأن اكثر القبائل الشركسية التي عاشت في الوطن الام في ظل حكم روسيا القيصرية هي:

شعوب القبرطاي والبسليني، والابزاخ، والبجدوغ، والشابسوغ، والابوخ، والإباضة، بالإضافة لعدد قليل من عائلات حاتقوي ومامكيغ وكم جوي.

الحقيقة الثانية: تناقص اعداد الشركاسة الباقين في الوطن الأم تناقصا كبير جدا. حيث يشير أكثر من مصدر بأن عدد الشركاسة في مطلع القرن السادس عشر في الوطن الام القفقاس كان ما بين (٤-٥) مليون تقريبا، وأن عدد الذين نجوا من التهجير القسري وبقوا في موطنهم لم يتعد ٨% منهم حيث أن ٥٠% قتلوا أو فقدوا و ٤٢% منهم طردوا وهُجروا قسرا خارج أرض الوطن الأم.

الحقيقة الثالثة: استولى الروس بعد حرب الإبادة على ٩٠% من مساحة الأراضي التي كانت تسكنها القبائل الشركسية قبل بدء حرب الإبادة.

الحقيقة الرابعة: توطين اكثر من مليون من القوزاق والنغوي والروس وغيرهم من القوميات الوافدة في المناطق والأراضي التي كان يملكها القوقازيين عامة والشركاسة خاصة الذين طردوا أو هجروا قسراً إلى خارج الوطن الأم حتى أصبح نسبة الشركاسة في المناطق التي يقطنون فيها أقل من ٣٠% بينما نسبة القوميات الأخرى حوالي ٧٠%.

الحقيقة الخامسة: بالرغم من قيام السلطات القيصرية المستعمرة للأمة الشركسية في الوطن الام محاولة القضاء على النظام الاجتماعي الشركسي، وكذلك بالرغم من محاولة (ترويسهم) بتحويلهم إلى روس في ثقافتهم وقيمهم وعاداتهم، فإنها لم تتمكن من ذلك وظلت المجتمعات الشركسية في اماكن تواجدهم في الوطن الام متمسكة بتراثهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم الشركسية ومعتقداتهم الدينية، كما انها لم تتمكن من القضاء على مؤسساتهم الاجتماعية والتربوية والسياسية المتمثلة بمؤسسة: البيت، والمسجد، ومجالس المضافات العائلية، وربما المؤسسة الاجتماعية الوحيدة التي قضى عليها في عهد القياصرة هي المجالس الشعبية التي ألغيت وحل مكانها (المخاتير). كما ان الفئات المكونة للمجتمعات الشركسية ظلت مع اختفاء طبقة الامراء والنبلاء والقضاة وظهور فئات جديدة مثل فئة الموظفين والعسكريين والعمال المهنيين والصناعيين.... الخ.

وفيما يلي تحليل موجز لعشرة أبعاد (مجال) من مجالات حياة الشركاسة الذين ظلوا احياء في الوطن الأم في ظل حكم الاستعمار القيصري الروسي في الفترة ١٨٦٤-١٩١٧ وهي:

البعد الجغرافي والسكاني للشراكسة في الوطن الأم في ظل حكم الاستعمار الروسي القيصري

توصلنا من دراسة الوضع الجغرافي والسكاني للشراكسة في الوطن الأم الذين نجوا من القتل خلال الحروب الأخيرة التي امتدت لثلاثة قرون (١٥٦٠ - ١٨٦٤) الذين نجوا من الطرد والتهجير القسري الجماعي والذي يقدر عددهم (٢) مليون أيضا بأنهم عاشوا خلال حكم الاستعمار الروسي القيصري في ثلاثة مواقع (مناطق) رئيسية في شمال وشمال غرب القوقاز لا تتجاوز مساحاتها عن ٥% من مساحة أراضي الوطن الأم التي كان تملكها الأمة الشركسية منذ آلاف السنين عامة وقبل بدء حروب الإبادة والدمار الروسية خاصة.

والمناطق هي:

- **المنطقة الأولى:** هي حوض نهر الترك الواقع شمال جبال القفقاس وخصصت لسكن شراكسة القبردي وشراكسة بزروج وهم شراكسة القبردي المسيحيين واسكنوا معهم عشرات الآلاف من القوزاق والروس كما اسكنوا بالقرب منهم البلقار وهم من العرق التركي، وشكل شراكسة القبردي حوالي ما بين (٥٠% - ٥٥%) من سكان هذه المنطقة.
 - **المنطقة الثانية** هي منطقة نهر الكوبان وخصصت لسكن قبائل البزادوغ والابزاخ وكميركوي، ويحيط بها مقاطعة كراسندار الروسية، واسكنوا معهم عشرات الآلاف من الروس وقوميات قوقازية أخرى ويشكلون أكثر من ٧٠% من سكان هذه المنطقة والشراكسة اتو من ٣٠%.
 - **المنطقة الثالثة:** وهي منطقة شمال غرب القوقاز الجبلية وأكبر مدنها هي تشركيسيا وخصصت لإسكان شراكسة (البسلني) وبعض القبائل الشركسية والابازية، كما تم إسكان عشرات الآلاف من الروس والقوزاق وقوميات قوقازية أخرى ويشكلون أكثر من ٩٠% من سكان هذه المنطقة.
- هذا بالإضافة إلى تشتيت أكثر من عشرة آلاف شركسي باسكانهم في مناطق مختلفة في إقليم كرسندار ومنطقة مزدوج.
- وتشير بعض الوثائق الروسية والتركية بأن عدد الشراكسة الذين نجوا من القتل أو التهجير ويسكنون في المناطق سابقة الذكر من الوطن الأم كان حوالي ٢٠٠,٠٠٠ ألف في بداية حكم الاستعمار الروسي القيصري في عام ١٨٦٤ وأصبح عددهم مع نهاية حكمهم عام ١٩١٧ حوالي (٣٥٠) نسمة موزعين على النحو التالي:
- منطقة التيرك حوالي (١٩٧) ألف من قبائل القبردي.
 - منطقة الكوبان حوالي (١٨٠) ألف من قبائل الأديغي.
 - منطقة تشركيسيا حوالي (٦٣) ألف من قبائل البسلني وبعض قبائل الأديغي.
 - المناطق الأخرى حوالي (١٠) ألف من الشابسوغ وبعض قبائل القبردي والأديغي.

■ بعد المهن والحرف القومية لشراكسة الوطن الأم في ظل حكم الاستعمار الروسي القيصري

يؤكد الرحالة الفرنسيون والإنجليز والألمان الذين زاروا بلاد القفقاس منذ العصور القديمة بأن الشراكسة قوم اشتهروا بالصناعات اليدوية الصغيرة منها والمتوسطة منذ اكتشاف الحديد في بلادهم في شمال القفقاس، وأنهم يصنعون (رجالاً ونساءً) جميع ما يحتاجون إليه من الأدوات التي تستخدم في الزراعة، المصنوعة من الحديد أو الخشب، كما يصنعون الأدوات المنزلية مثل الأباريق والأكواب والقذرة والبراميل المصنوعة من الحديد والنحاس والخشب أيضاً. ونستدل عليها من النقوش المحفورة على القبور القديمة التي وجدت في بلاد (الأديغة) كما أنهم كانوا يصنعون الأسلحة (الشخصية) المستخدمة في الحروب القديمة، مثل السيوف (سشوه) والخناجر (قاما) والتروس الحديدية. وفي مرحلة لاحقة بدأوا يصنعون (البنادق) كما أنهم اشتهروا في فنون النحت والنقش والزخرفة، والصناعات النفيسة باستخدام الفضة والذهب والبلاتين، كما أبدعوا في صناعة لوازم ركوب الخيل المصنوعة من الجلد والخشب مثل (سرج الحصان) واللجام والسياط، والركاب وغطاء رأس الحصان وحول العينين وغيرها من اللوازم.

ويؤكد المؤرخون القدامى مثل (هيردوت) بأن الصناعات اليدوية الخفيفة في بلاد الشراكسة وصلت إلى مستوى متقدم بعد اختلاطهم بالإغريق والحثيين والبيزنطيين في العصور ما قبل الميلاد وحتى القرن الرابع الميلادي، وأنشأوا مصانع صغيرة ملحقة بآماكن سكنهم يدعى (جش). إلا أن هذه الصناعات تراجعت في العهود المظلمة وفي الفترات التي تعرض لها الشراكسة للغزوات والهجمات الهمجية والحروب غير العادلة التي شنت على شعوب القفقاس عامة والشراكسة خاصة، لقرون طويلة، وأن انشغالهم في صدّ خانات الفرم أولاً وحروب الإبادة والدمار التي شنتها جيوش سلطات روسيا القيصرية لثلاثة قرون متلاحقة والتي انتهت عام ١٨٦٤ كانت سبباً في تراجع مستوى الصناعات والحرف اليدوية خاصة وإن أعداد كبيرة من الحرفيين والصناع المهرة قد قتلوا في الحروب، وهجر من بقي أحياء منهم، ولم يبق على أرض الوطن الأم إلا أعداد قليلة منهم... إلا أن القيادات الحرفية وبدعم من القيادات الاجتماعية الشركسية استطاعوا خلال فترة وجيزة من وقوعهم تحت حكم الاستعمار الروسي القيصري من النهوض مرة ثانية في مجال الصناعات والحرف اليدوية، فاعادوا إنشاء الورش (جش) المتخصصة، وبدأ يصنعون كل ما يحتاجونه من لوازم وأدوات ومعدات تتطلبها طبيعة حياتهم بعد الاحتلال الروسي القيصري نذكر منها:

- أدوات الحراثة المصنوعة من الخشب والحجر - أدوات ولوازم الدراسة والمزروعات. والعظم والحديد
- أدوات ولوازم الحفر والنكش... الخ - أدوات ولوازم الحصاد... الخ.
- أدوات ولوازم جمع وحفظ وتنظيف الحبوب - عربات نقل المحاصيل الزراعية. والبقوليات
- الأدوات المستخدمة في صناعة الاغذية والالبان عامة والزبدة خاصة - الادوات الخاصة بتربية النحل.
- أثاث البيوت ولوازمها الخشبية - أدوات ولوازم المطبخ والطعام والشراب.
- صناعة تجهيزات الخيول. - الأدوات واللوازم بمهنة الحدادة.
- الادوات واللوازم الخاصة بمهنة النجارة - صناعة الحياكة والتطريز
- مهنة بناء البيوت والحظائر والاسوار الخشبية - مهنة الصياغة
- صناعة الحياكة.

والمهن أو الصناعات اليدوية القديمة التي كانت متوفرة في هذه المرحلة هي صناعة الغزل والنسيج وصناعة القوارب وصناعة البارود بالإضافة إلى صناعة الأسلحة الحقيقية لأنها كانت محظورة رسمياً.

وفي المراحل الأخيرة من حياة الشراكسة تحت حكم الاستعمار الروسي القيصري توجه الجيل الجديد منهم للعمل في بعض المصانع والمخازن والمتاجر التي انشأت في المدن الرئيسية في منطقة القوقاز كما أن بعضهم انخرطوا في الجيش في زمن الحروب عامة وفي زمن الحرب العالمية الأولى خاصة.

■ البُعد السياسي والعسكري لشراكسة الوطن الأم في عهد حكم الاستعمار الروسي القيصري

بعد احتلال روسيا القيصرية للوطن الأم للشعوب القوقازية عامة والأمة الشركسية خاصة اعتبر كل من نجى منهم من القتل أو الموت أو من نجى منهم من الطرد أو التهجير القسري إلى خارج الوطن الأم من رعايا الامبراطورية القيصرية الروسية كما تم اخضاعهم للقوانين والأنظمة الروسية ولم يعد لهم أي كيان أو تنظيم سياسي أو حتى تنظيم إداري.

ولم يسمح لهم بتكوين أي شكل من أشكال الحكم الذاتي بل أنهم كانوا محكومين من الإدارة المحلية الروسية ومن خلال المخاتير الذين تم تعيينهم السلطات الروسية كما أعطيت حقوق وامتيازات لعشرات الآلاف الروس والقوزاق وغيرهم من القوميات التي تم اسكانهم في الأراضي التي استولت عليها السلطات القيصرية خلال وبعد انتهاء الحروب كما اسكنوا اعداد كبيرة من العائلات الروسية والقوزاقية داخل القرى والبلدان والمدن الشركسية بهدف القضاء على خصائصهم القومية وطمس ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

وكذلك لم يكن يسمح أن يكون للشراكسة على اختلاف مواقعهم ومناطقهم (علم) أو رمز يرمز للشراكسة، كما لم يكن يسمح لهم حمل العلم القومي الشركسي الذي اقر الوانه وشكله قبل انتهاء الحرب.

وكذلك لم يكون يسمح لهم استخدام النشيد القومي أو الوطني الشركسي طوال فترة حكم القياصرة الروس.

فكان رد الفعل الطبيعي لكل اشكال وسياسة تنويب الشخصية الشركسية والقضاء على أي مظهر من مظاهر القومية الشركسية بأن أصبحوا أكثر تمسكا بقوميتهم ووطنهم، ورفضوا كل أشكال الاضطهاد، وازدادت حركات التمرد التي تحولت إلى انتفاضات شعبية أعوام ١٨٨١-١٨٨٣ لمقاومة الاستعمار القيصري في أكثر من منطقة قوقازية منها منطقة (الكوبان)، وتمثلت هذه الانتفاضات باعلان شراكسة (الكوبان) الانفصال عن روسيا ورفضهم الخضوع للحكم الروس القيصري، وان لا سلطة للحكومة القيصرية الروسية عليهم. إلا أن السلطات الروسية استطاعت قمع هذه الانتفاضات قبل تحقيق أهدافها المتمثلة بالاستقلال عن روسيا وتشكيل حكومة قوقازية وطنية والقوا القبض على زعماء الانتفاضات كما تم تشتيت القبائل التي شاركت فيها ونقلهم إلى مناطق نائية.

وأما بالنسبة للبعد العسكري لشراكسة الوطن الأم في ظل الاستعمار الروسي القيصري يتمثل بالحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: نزع سلاح الشراكسة الذين نجوا من القتل والتهجير القسري للمخارج في المراحل الأولى من تطبيق الانظمة وقوانين روسيا القيصرية عليهم... كما وضعوا قيود على حمل الأسلحة الشخصية مثل (القاما) في الأماكن العامة كما وضعوا قيود اكبر على اقتناء أي نوع من الأسلحة في البيت أو المزرعة.

الحقيقة الثانية: ابعاد عامة الشراكسة من الخدمة العسكرية في منطقة القوقاز إلا من اعداد قليلة من المتعاونين مع السلطات الروسية المسلحة.

الحقيقة الثالثة: وضع قيود كبيرة على الورش وأماكن التصنيع اليدوي لأي نوع من أنواع الأسلحة (القاما، والسيوف والمسدسات (جراخوة) والبنادق وغيرها من الأسلحة الشخصية).

وبالرغم من كل هذه القيود على تسليح الشركاسة بأي نوع من أنواع الأسلحة الشخصية، فإنهم وخلال أقل من عشرين سنة من حكم قياصرة روسيا لبلاد الشركاسة فإنهم تمكنوا من تصنيع الأسلحة الخفية، ومن اقتناء الأسلحة للدفاع عن أنفسهم ضد العصابات واللصوص الروسية والقوقازية التي كانت تحاول الاعتداء على القرى والمدن الشركسية.. بل ان اعداد كبيرة من الشركاسة عامة وشراكسة الكوبان خاصة نظموا انتفاضة مسلحة لمدة ثلاث سنوات كما سبق الإشارة إليها أعلاه.

■ البُعد الاقتصادي والزراعي والتجاري لشراكسة الوطن الأم في ظل حكم الاستعمار الروسي القيصري

لم تسلم الثروتين الزراعية والحيوانية للشراكسة في عهد قياصرة الروس من سياسة التخريب المتعمد ويتضح ذلك من السياسات التي مارستها سلطات روسيا القيصرية في الفترة التي حكموا فيها الشراكسة من عام ١٨٦٤ إلى عام ١٩١٧ وهي السياسات الهمجية التي عبر عنها أكثر من مؤرخ وباحث روسي منهم الباحث والكاتب الروسي (يا. ابراموف) الذي اعترف في كتابه (القوقازيون الشراكسة) المنشور باللغة الروسية عام ١٩٢٧ قائلاً:

"ولما كنت قد أقمت الثلاث سنوات الأخيرة في منطقة التيرك، فقد وجهت عدة مرات سؤالاً على ممثلي السلطة الحالية (للجبلين) الشراكسة، وإلى العلماء المحليين وإلى الناس العاديين، عن أسباب ما حدث من إبادة للشعب الشركسي، وقد أجاب أكثرهم بأن السبب (هو توحش الجبلين). وتحدثوا عن كسل (السكان المحليين) في منطقة التيرك وعدم اهتمامهم (وغبايتهم). وفي الواقع فإن مثل هذه الفكرة الشائعة منتشرة بين الروس عن أسباب هجرة الجبلين، ولكن بعد دراسة الموضوع عن كثب اقتنعت: بأنه لا يوجد في الواقع أساس متين لكل الأدلة المقدمة ضد الجبلين أبداً، وإذا قارنا بين ما قام به السكان الأصليون في القوقاز (الشراكسة) والذي نفذناه نحن الروس، فإننا يجب أن نعترف بأن الأمة الأقل حضارة، والأقل حبا للعمل هي الأمة الروسية بالذات، لقد تحدثت عن تملك أملاك شاسعة في القفقاس الغربية للروس، تلك الأملاك التي كانت مغطاة ببساتين وكروم ومراع وحقول أنشأها السكان الجبليون (الشراكسة). مثل هذه الظاهرة لاحظتها أيضاً في منطقة (التيرك) خلال هذه السنوات الثلاث التي قضيتها في هذه المنطقة، وعشت قسماً منها في (نالتشيك)، وفي مركز سكن روسي أيضاً، وفي قرية في وسط كبادي الكبرى، وحدث أن رأيت (برغبة مني) - كيف أن الروس ودون أي خجل كانوا يتلفون غلال المزروعات لشعب القبرطاي الذين بذلوا في زراعتها جهد عدة سنوات. وبالقرب من (نالتشيك) ذاتها يوجد ما يسمى ببستان "أتاجوق"، حيث بقيت منه أشلاء بئسة فقط، ولقد كان هذا البستان من تلك البساتين الكبيرة التي لا يمكن أن نجد لها مثيلاً، إلا في القفقاس. لقد كان هذا البستان عبارة عن غابة وكان يتألف من جزأين، وكان الجزء الأول يتألف من مسطبة نصف دائرية وتنحدر انحداراً شديداً نحو الوادي، والجزء الثاني هو الوادي ذاته الذي يجري في نهر (نالتشيك). وكانت المسطبة مقسومة بشكل فني إلى عدة مساطب صغيرة وكل واحدة منها بدت على شكل نصف دائرة، وارتفعت فوق الأخرى على شكل مساطب أيضاً. وكانت هذه المساطب تحتوي على كروم بديعة، وكان الجزء الأسفل من البستان مزروعاً بأشجار مثمرة مختلفة الأنواع منها الأجاص، والتفاح، والصنوبر، والكرز، والكرز الأسود، والخوخ، والتوت.. الخ. وكانت هناك أشجار مدهشة على الجانبين... من الزيزفون، والأكاسيا، بالإضافة إلى روضة مخررة دائرية ساحرة مغروسة بأشجار: المشمش، والتوت الضخمة.. الخ ومن أجل سقاية كروم العنب وبعض أجزاء البستان السفلي، كانت قد مدت قناة على مسافة عدة فراسخ. وبمثل هذا الشكل كان البستان في أيدي القبرطاي، وقد حل بالبستان الآن منظر مختلف تماماً منذ ذلك الحين الذي أصبح للروس إمكانية استغلاله، فالقناة مهمة، والكروم لا تخدم، وأغصان كروم العنب التي أصبحت برية لعدم رعايتها، وتقطع لإطعام القطعان مثله مثل العشب الذي نما في المساطب، والأشجار المثمرة الأكبر عمراً، قطعت للوقود. وأما ممرات البساتين المغطاة من جانبيها بالزيزفون، والأكاسيا فهي

مضروبة دون رحمة، وأنا شخصيا كنت شاهد عيان على اتلاف بقايا هذه الممرات المغطاة من جانبيها. وحين سألت أحد هؤلاء "المتقنين" الرؤوس الذي قطع كثيرا من أشجار الزيزفون والأكاسيا، وأجاب: "كي لا يقوم بشرء حطب"، وقلت له ألا تشعر بالسوء من هذا العمل الذي تقوم به؟ أجاب ايضا: يجب على هذه الاشجار ألا تنمو هنا.

وقد قطعت أكثر الأشجار الكبيرة التي كانت تدخل في تركيبة الدائرة (العجيبة في البستان) والباقية فقدت أغصانها، واصبحت نصف ذابلة. وفي الوقت الحالي فإن "بستان أتاجوق" عبارة عن أراضي واسعة مهملة، حيث نمت فيها شجيرات الكرز والأشجار الشائكة، والأعشاب الضارة، وبقيت في بعض الأماكن منها أشجار كبيرة، تذكرنا بالحضارة الشركسية التي كانت سائدة هنا، ولا شك أن مستقبل آثار هذه الحضارة القديمة بات مزعزعا. وعلى مسافة سبعة أو ثمانية فراسخ من بلدة (نالتشيك) إلى أعالي النهر المسمى بالاسم نفسه كانت توجد قرية شركسية، وكان لها بستان رائع، وكانت مساحته تفوق مساحة "بستان أتاجوق" بعدة أضعاف، وهذا البستان قد تعرض للسرقة من قبل الروس بالطريقة نفسها. وهو الآن في حالة أفطع من حالة "بستان أتاجوق".

وهكذا هي الحضارة الروسية ويمكن رؤية نماذج من هذه الحضارة في منطقة التيرك ويجب على الروس الذين يتكلمون عن عدم وجود حضارة للشراكسة (للجبلين) وعدم كفاية حب العمل لديهم أن يركزوا انتباههم على هذه الحقائق، وعلى حقائق أخرى غيرها، والتي تبين مستوى حضارة المتهمين (بالمتموحشين) القفقاسيين كما هم يحبون العمل عندهم^(٩).

واستطرد الكاتب إيراموف قائلا:

"من هذا الوصف السريع لحالة الزراعة في الجبال يستطيع القارئ أن يرى كم كان من الخطأ الكبير اتهام (الجبلين) بالكسل. ومع هذا فإنني أعتقد أنه سيتضح للقارئ أن (الجبلين) يصنع لنفسه أرضا على الصخور العارية بجهد فقط وبالعرق والدم. ويجب عليه أن يرتبط بلهفة بأرضه، ومع هذا فعندما يترك أرضه ويرحل إلى تركيا حيث الآلام والعذاب فإن الرحيل لا يكون بسبب كسله".

نستنتج مما تقدم بأن السلطات الروسية واتباعهم من القوزاق عملوا ما باستطاعتهم للقضاء على الاقتصاد الزراعي للشراكسة في هذه المرحلة من حكم القياصرة الروس من خلال الاستيلاء على الأراضي الزراعية والمناطق الرعوية لمنعهم من تربية المواشي من أبقاء وغانم والخيول وكذلك اتباع سياسة قلع أشجار الاحراش وبساتين الأشجار المثمرة بحجة بناء طرق أو مستوطنات للروس والقوزاق وبالرغم من كل ما تقدم فإن الدارس للاوضاع الزراعية للشراكسة في هذه المرحلة من تاريخهم المؤلف فقد استطاعوا التغلب على تلك المصاعب والبدء باعادة بناء المزارع والحقول التي اتلفها المستعمرون الروس والقوقازيين، كما قاموا باصتلاح أراضي جديدة تصديقا لما قاله (إيراموف) بأن "الشراكسة يصنعون لأنفسهم مزارع على الصخور العارية بالجهد والعرق والدم".

وأما بالنسبة للأعمال التجارية، فإن السلطات الروسية عطلتها تعطيلا كاملا، ولم يتمكن الشراكسة في هذه المرحلة من حياتهم المعاصرة من ممارسة أي نوع من أنواع التجارة الداخلية أو الخارجية لأن الانظمة والقوانين الروسية لم تكن تسمح لهم أن ينشئوا مؤسسات أو مصالح تجارية مستقلة طوال فترة حكمهم التي امتدت لأكثر من خمسين عاما.

■ البُعد الديني لشراكسة الوطن الأم في عهد حكم الاستعمار الروسي القيصري

واصلت سلطات روسيا القيصرية في محاربة الدين الإسلامي خلال سنوات حروبها ضد الشعوب القوقازية الإسلامية عامة والشعوب الشركسية خاصة باتباعها سياسة محاربة انتشار الدين الإسلامي واللجوء لسياسة التبشير للديانة المسيحية داخل المجتمعات الشركسية المسلمة في الوطن الأم حيث واصلت باستخدام شتى الوسائل للضغط على الشراكسة المسلمين عامة، وشيوخهم من رجال الدين خاصة، بقصد التقليل من تأثيرهم على عامة الشعب أو بهدف تقييد حرية ممارسة

الشعائر الدينية والضغط عليهم للهجرة أو إعادة تنصيرهم وكانت أكثر الوسائل استخداما لها خلال حكم قياصرة الروس هي الوسائل التالية:

الوسيلة الأولى: سحب الصلاحيات القضائية والإدارية من رجال الدين المسلمين عامة والشراكسة خاصة في مناطق سكنهم.

بدأ الروس تطبيق القوانين والانظمة الروسية حيث وجد رجال الدين انفسهم بعيدين تماما عن الشؤون المدنية، وأصبحت جميع الصلاحيات القضائية والإدارية تحت سيطرة السلطات القيصريّة، وقد أضعف نظام الحكم الجديد كثيرا من صلاحيات رجال الدين المسلمين، وانخفض دخلهم المادي كثيرا، وضاعت دائرة تأثيرهم على الأمور المدنية، وأدرك رجال الدين أن السلطات القيصريّة تحاول عزلهم عن السكان، فخافوا على مصيرهم ومصير الدين الإسلامي، فانقلب القسم الأكبر منهم ضد سلطات القيصريّة، وبدأوا بأعمال نشطة ضد النظام القيصري الاستعماري وبدعم من الأمراء والنبلاء المعادين للروس.

الوسيلة الثانية: السماح لعلماء وجواسب السلطات التركية العثمانية بث الدعايات الدينية التي تعتبر أراضي الخلافة الإسلامية في تركيا بأنها (الجنة المنتظرة في الدنيا)، وسمحت للشيوخ ورجال الدين الأتراك بث الدعايات المحرّضة للهجرة، حيث أكد "م. ج. جارول" بأن رجال الدين الأتراك كانوا يبنون بعض الأفكار الدينية التي تحرض الشراكسة المسلمين على الهجرة نذكر منها الأفكار التالية:

١- لا يمكن العيش والبقاء في بلد (كافر) وتحت إدارة (الكفرة) لذا وجبت الهجرة إلى البلاد الإسلامية.

٢- الهجرة قدرنا ومكتوبة لنا فلا مناص إلا إطاعة أمر الخالق.

٣- الهجرة موجودة في الإسلام، فلقد هاجر أتباع محمد صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة كما هاجر محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

٤- سنذهب إلى البلاد الإسلامية مؤقتة، ومن ثم نستعد ونعود لتحرير الوطن.

٥- من يموت في غير الديار الإسلامية يذهب إلى (جهنم) ومن يريد (الجنة) يجب أن يموت في ديار الخلافة الإسلامية.

٦- الإدعاء بأن أوله بلاد المسلمين وآخره بلاد المسلمين. ولكن الهجرة من الآن.

الوسيلة الثالثة: تكثيف سياسة التبشير للديانة المسيحية من خلال نشر أعداد كبيرة من القساوسة وتكثيف بناء كنائس في المناطق التي يعيش فيها الشراكسة وتقديم امتيازات وحوافز لمن يقبل إعادة تنصيرهم مثل اعفائهم من الضرائب والرسوم ومنحهم أراضي زراعية وغيرها من الامتيازات.

■ بُعد اوضاع التربية والتعليم للشراكسة في الوطن الأم خلال حكم الاستعمار الروسي القيصري

توجهه المثقفين والمفكرين الشراكسة إلى إنشاء مدارس لتعليم اللغة الشركسية في منطقة نالتشك منذ منتصف القرن السادس عشر أي قبل حوالي خمسة عشرة سنة من احتلال قياصرة الروس للقفقاس عامة وبلاد الشراكسة خاصة ويتمثل هذا التوجه بالحقائق التالية:

١- قيام العالم الشركسي شورا بكمركة نغمو (نغوموكة) ابتداء من عام ١٨٤٣ بإحياء اللغة الشركسية كتابة ووضع قاموس الألفاظ الشركسية باللغة العربية عام ١٨٤٦.

٢- وضع العالم (لوليه) كتابا للصرف وقاموسا للألفاظ الجركسية وطبعه عام ١٨٤٦ في اوديسا.

٣- وضع العالم البولوني (ل. أوباتيسكي) كتابا حول مبادئ اللغة الجركسية وقاموسا للكلمات بلهجة قبيلة القبردي مع اللغة الروسية (طبع بتفليس عاصمة جورجيا) عام ١٨٥٠ وانتشر هذا الكتاب انتشارا واسعا في بلاد الشراكسة في حينه.

٤- كانت أول محاولة لتدريس اللغة الشركسية في نالتشك عام ١٨٥١ وبعدها في مدرسة (فربول).

٥- كان (اوسلان aslan) أول من قام بدراسة أدب اللغة الشركسية بلهجة قبائل القبردي عام (١٨٥٤).

٦- وضع العالم الشركسي (حاتوقشوقة) وهو أحد المختصين بلغة القبردي كتابا عام ١٨٦٠ في الهجاء الجركسي بحروف روسية... إلا أن الفكرة لم تتجح.

وبالرغم من تلك البدايات الناجحة لنشر التربية والتعليم فإن السلطات روسيا القيصريّة قامت بسياسة تجهيل الشركاسة، حيث أغلقت تلك المدارس التي تم افتتاحها في أكثر من منطقة في مرحلة ما قبل احتلالهم لبلاد الشركاسة ونستنتج من ذلك قول (ابراموف) بأن السلطات الروسية لم تكن تسمح بفتح المدارس في المدن والقرى التي يعيش فيها الشركاسة إلا ما ندر. كما أن هذه المدارس بالرغم من قلة عددها فإنها كانت مدارس (صورية) وبدائية وليس لها أية علاقة بنظام التعليم العام.

كما أضاف قائلا: "وان خمس إلى ست سنوات التي كان يقضيها التلميذ من الشركاسة في المدرسة (الجبليّة) يعتبر وقتا ضائعا وبلا فائدة ولا يكتسب من المدرسة أي معرفة تفيده في حياته العامة، وأن الشيء الوحيد الذي كان يتعلمه في هذه المدارس هو التكلم باللغة الروسية، وهذا التعلم ليس مهما جدا إلى هذه الدرجة التي من أجلها يقضي التلاميذ ست سنوات من حياتهم وهي سياسة اتبعها الروس من أجل بقاء أبناء الشركاسة جهلة وغير متعلمين إلا أن المثقفين والمفكرين الشركاسة الذين بقيوا في الوطن الأم، وبالرغم من قتلهم فإنهم قاوموا السياسة التعليمية الروسية والجائرة وبادروا لإنشاء مدارس خاصة بهم للتعليم عامة وتعليمهم اللغة الشركسية خاصة.. وتمثلت هذه المبادرات من قبل كل من:

١- شروان (Atazhukin & Scherdan) و (أتاز هوكين) و أصدرنا عام ١٨٦٥ دراسة حول اللغة الشركسية بلهجة (كيمركواي).

٢- ويماربرسي (Wimarbersey) ونشر أول كتاب حول اللغة والأدب الشركسي باستخدام الأحرف العربية عام ١٨٨٥.

٣- كما قام ل. لوباتنسكي (Lopatinsky) بنشر كتاب آخر عام ١٨٨٥ كما نشر كتابا ثالثا في مختصر قواعد اللغة القبردينية عام ١٨٩١. كما كان هناك عدة مدن أخرى تدرس فيها اللغة الشركسية بما في مدينتا اكرينودار وبتالباشنسك. كما وجدت مخطوطات عديدة عن القصص الشعبية الشركسية يعود تاريخ تأليفها إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر على يد القاضي (اتانشوخين) وآخرين.

وتطور تعليم اللغة الشركسية في مختلف المناطق التي كان يسكنها الشركاسة في ظل حكم الاستعمار الروسي القيصري في مطلع القرن العشرين وخاصة بعد ----- جمعية الأخاء الشركسية في تركيا عددا من المعلمين الشركاسة المختصين باللغة والأدب الشركسي بقيادة المعلم والمربي الشركسي الكبير: أحمد نوري تساغوة الذي ولد في القنيطرة في منطقة الجولان السورية عام ١٨٨٨، حيث عاد للوطن الأم في عام ١٩١٣ برفقة كل من المتعلمين المتطوعين هاتسال، محمود قوبار، هارون بسروقة، عاكف تيغون، محمد حبيب، زكريا بستي، سعاد نجوج، وتخرج على يديه عدد من أدياء شركاسة الوطن الأم تبناهم (تساغو) واهتم بتعليمهم وتوجيهاتهم القومية الإصلاحية وبث فيهم الروح الوطنية النضالية.

بعد الحياة الأدبية والثقافية القومية للشراكسة في الوطن الأم خلال حكم الاستعمار الروسي القيصري

ربما كانت الحركة الأدبية والثقافية القومية الشركسية أكثر خصائص الشراكسة في الوطن الأم استهدافاً من قبل سلطات روسية القيصرية، ويتضح ذلك بوضوح من السياسات التي استخدمتها في إضعاف المسألة القومية للشعوب القفقاسية عامة والشعوب الشركسية خاصة نذكر منها:

أولاً: تنفيذ الدراسة التي قدمها نائب القيصر المدعو (بوتكيفيتش) وملخصها هو ضرورة عدم ترك الشراكسة يعيشون معاً في منطقة واحدة وأنه يجب إسكان قوميات أخرى معهم، وهذا ما تم فعلاً، حيث تم إسكان البلقار والروس مع القبردي، والقراشي والروس وقوميات أخرى مع شراكسة البسلني في منطقة تشركسيا، كما تم إسكان روس وقوميات أخرى عديدة في منطقة (الأديغة)، وتركوا قبائل الشابسوغ أقلية في منطقة فيها أكثر من ٩٩% من الروس والقوميات الأخرى وهي السياسة التي نفذها الشيوعيون فيما بعد.

ثانياً: تنفيذ سياسة (ترويس) أي تحويل الشراكسة إلى (روس) بالقضاء على تراثهم وقوميتهم ولغتهم، ويتضح ذلك من إيعاز الحكومة الروسية إلى نائبها في القفقاس بتوجيه خطي "أن يجعل من شمال القفقاس "منطقة روسية بحتة"، واستناداً إلى هذا الأمر قامت السلطات الروسية المحلية بكل المحاولات لترويس السكان المحليين الناجين من الموت أو التهجير، ومن الأمثلة على ذلك ما قام به رئيس قوزاق منطقة (لابينسكي) العقيد "سافيتسكي" عام ١٨٨٩ حيث بدأ فعلاً بتنفيذ سياسة ترويس الجبلين عامة والشراكسة بالدرجة الأولى.

ثالثاً: منع الشراكسة في المراحل الأولى من حكم القيصرية من تدريس اللغة الشركسية في المدارس (الصورية) القليلة التي أنشأتها السلطات الروسية المحلية واجبارهم على تعلم اللغة الروسية بدلاً من اللغة الشركسية.

بالرغم من كل ما تقدم فإن المفكرين والمتقنين الشراكسة ومن ورائهم عامة الشعوب الشركسية قاموا في التصدي لتلك السياسات العنصرية، وكانت النتيجة العكسية ان تمسك الشراكسة بجميع فناتهم وقبائلهم بالهوية القومية الشركسية وقيامهم بالمحافظة على هويتهم وثقافتهم الأدبية، والعمل على تحويلها إلى أدب مكتوب، وظهر عدد من الأدباء والشعراء والمفكرين الشراكسة في هذه المرحلة من تاريخ الشراكسة في ظل حكم القيصرية ونشروا أعمال أدبية وشعرية، واعدوا الدراسات والابحاث لتطوير الحركة الادبية والفكرية، وثقافة القومية الشركسية نذكر منهم الادباء والشعراء والمؤرخين التالية اسماؤهم:

- ادباء وشعراء ومؤرخين نشروا مؤلفاتهم واصداراتهم الأدبية والتاريخية إبان حروب الإبادة والدمار الروسية ابتداء من العقد الرابع من القرن التاسع عشر واستمر واشتمل انتاجهم الفكري والأدبي خلال فترة حكم القيصرية للشراكسة ابتداء من عام ١٨٦٤.. على الفروع الأدبية التالية:

- الأساطير وملاحم النارتيين.
- المسرح والتمثيل.
- الشعر والغناء والانايد.
- الحكايات والقصص.
- اللغة الشركسية وآدابها.

وفيما يلي أبرز الأدباء والشعراء والمؤرخين الذين أثروا الحركة الأدبية، والثقافية في المجتمعات الشركسية في مرحلتين زمنيتين هما:

- المرحلة الأولى: وفيها برز ادباء وشعراء ومؤرخين شراكسة إبان حروب الدمار والإبادة الروسية واستمر تأثير ادبهم وفكرهم إلى مرحلة ما بعد حكم قيصرية الروس للشراكسة في الفترة من ١٨٦٤ إلى ١٩١٧ نذكر منهم:

١- شورا بكمززا نوغموقة: (١٨٠١-١٨٤٤) لغوي ومؤرخ، كتب بالروسية تاريخ الشركسية عام ١٩٤٣. ونشر في ١٨٦١ من قبل ابنه كتابه "تاريخ الأديغة" وذلك بعد وفاته عام ١٨٤٤.

- ٢- خان جري: وهو من الكتاب القدماء، ويعتبر أول من بدأ في نشر ملاحم نارت الشركسية، وكان ينشرها في مجلة (قفقاس) عام ١٨٤٦.
- ٣- ل. ليول (L.Lyule) وهو مؤلف أول قاموس شركسي بلهجة اديغة وبالأحرف العربية عام ١٨٤٦.
- ٤- اوسلار (Uslar) وهو أول من قام بدراسة اللغة الشركسية وإبدائه بعض الملاحظات اللغوية الهامة عن اللغة الشركسية بلهجة قبائل القبردي عام (١٨٥٤).
- ٥- حاتوقشوقة وهو واضع أول ابدئية شركسية باللغة الروسية في عام ١٨٦٠.

وفي المرحلة الزمنية الثانية وهي المرحلة التي حكم فيها قياصرة الروس للشراكسة في الفترة الممتدة من عام ١٨٦٤ إلى عام ١٩١٧ برز ادباء وشعراء ومؤرخين استمر تأثير انتاجهم الأدبي والفكري إلى المراحل الأولى للحكم الشيوعي في زمن الاتحاد السوفيتي وهم:

- ١) شروان (Atazhukin & Scherdan) و (أتاز هوكين) و أصدر عام ١٨٦٥ دراسة حول اللغة الشركسية بلهجة (كيمركواي).
- ٢) تامبي (١٨٢٥-١٨٩١) وكان من أوائل المهتمين بجمع ودراسة الأساطير النارتية ونشرها.
- ٣) بكميرزا باشا: (١٨٥٤-١٩٣٦) وهو ثائر قاوم بشدة هجرة الشراكسة شاعر واديب شركسي.
- تميزت أشعار (بكميرزا) بالنبرة الوطنية العاطفية تحمل طابعا فلسفيا، وصدر ديوان تضمن عددا كبيرا من أشعاره باللغة الشركسية، وفي المراحل الأخيرة من حياته اتجه لنظم أشعار لاذعة تحمل طابع السخرية، ونشرت جميعها بعد وفاته عام ١٩٣٦م في مسقط رأسه في شمال القفقاس.
- ٤) قاضي أتوزخين: نشر مقتطفات من قصيدة سوسروقة، وعدة قصص وغيرها من قصص النارتيين، كما ترجم إلى اللغة القبردينية قصة (أشيك كيراب) للكاتب الروسي (يرمونتوف).
- ٥) أميرهان خافياشي: (ولد سنة ١٨٨٢) وهو شاعر معروف بقصائده الهزلية المنشورة باللغة الشركسية.

٦) إبراهيم تسي: (١٨٩٥-١٩٣٦) شاعر وكاتب أساطير ومؤلف روايات تمثيلية. كتب روايتي (كوفاس) عن بطل مات أثناء الغزو الروسي لشركاسيا. و (السوط العظيم) التي تصور حياة الفلاحين الشراكسة مع عدد من القصائد والأشعار والحكايات عن الحياة الشركسية اليومية، وكان (إبراهيم شركسيا) وطنيا عظيما وكرس كل حياته لنشر الثقافة الشركسية في منطقة (الاديغة)، وهو أول من أنشأ المعهد المسرحي في الأديغة، والمسرح الدرامي سنة ١٩٢٩ وكان يتمتع بشعبية كبيرة في الأوساط الشركسية.

٧) الاديب والمعلم الكبير احمد نوري تساغو (١٨٨٨-١٩٣٥): ولد في مدينة القنيطرة في الجولان السورية عام ١٨٨٨م، وعاش فيها حتى تخرج من المدرسة الثانوية في دمشق عام ١٩٠٨، وفي عام ١٩٠٩ التحق بكلية الحقوق في اسطنبول في تركيا وتخرج منها عام ١٩١٢م.

وانضم بعد تخرجه إلى جمعية الإخاء والتعاون الشركسية في اسطنبول، وأصبح سكرتيرا لها عام ١٩١١م كما ساهم في إصدار صحيفة (غوازة) التركية الشركسية وعمل مدير تحرير لها مع زميله الأديب (يوسف سعاد نغوج) الذي رأس تحرير الصحيفة وكان (تساغو) يكتب مقالا يوميا يحارب به الهجرة الشركسية للخارج بعنوان "كيف نضيع نحن الشراكسة".

واوفدته جمعية الاخاء الشركسية عام ١٩١٣م إلى موطنه في شمال القفقاس لنشر الثقافة والأدب واللغة الشركسية من خلال المدارس المتعددة التي افتتحتها في بلاد القبرطي والاديغي مع آخرين من شراكسة تركيا المختصين بتدريس اللغة الشركسية وتخرج على ايديهم أدباء من امثال ابراهيم نسي.

٨) ويماربيرسي (Wimarbersey) ونشر أول كتاب حول اللغة والأدب الشركسي باستخدام الأحرف العربية عام ١٨٨٥.

٩) لوباتنسكي (Lopatinsky) ونشر كتابا مختصرا لقواعد اللغة الشركسية بلهجة القبردي في نالتشيك عام ١٨٩١.

نستنتج مما تقدم بأن الأدباء والمفكرين الشراكسة في عهد حكم قياصرة الروس استطاعوا التصدي لسياسة الترويس اولا ولمحاولات القضاء على الثقافة القومية الشركسية ثانيا من خلال نشرهم المؤلفات والكتب والدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية... وكذلك من خلال فتح مدارس لتدريس اللغة الشركسية في كل من القرى والبلدات الشركسية النائية وفي المدن الكبيرة.

بُعد التراث الثقافي والفلكلور القومي لشراكسة الوطن الأم في ظل حكم الاستعمار الروسي القيصري

ربما كان الهدف الأول للسلطات الروسية القيصرية بعد احتلال شمال القفقاس عامة وبلاد الشركسية خاصة (كما سبق ذكره) هو القضاء على الهوية الشخصية الشركسية تلك الهوية التي تتمثل بتراتها الثقافية وفلكلورها القومي الذي يتكون من:

- الملابس القومية الشركسية.
- الرقص القومي الشركسي.
- الموسيقى القومية الشركسية.
- الغناء الشركسي.
- اللوازم والادوات الشركسية التراثية القديمة.

والشراكسة في هذه المرحلة الصعبة والقاسية في تاريخهم المعاصر وان لم يتمكنوا من ادخال أية تطور على تراثهم الثقافي والفلكلوري فإنهم استطاعوا الحفاظ عليها ومارسوها في حياتهم اليومية بكل فخر واعتزاز بل أنهم أصبحوا أكثر تمسكا بها بالرغم من كل اشكال وأنواع الضغوط التي مارسها الروس المستعمرين للقضاء على كل ما يتعلق بمفومات الهوية القومية الشركسية.

▪ بُعد العادات والتقاليد والاعراف لشراكسة الوطن الأم في ظل حكم الاستعمار الروسي القيصري

حاولت السلطات القيصرية الروسية من ترويبس الشراكسة والقضاء على القيم الإسلامية وعلى العادات والتقاليد الشركسية باستخدام أكثر من أسلوب منها:

- ١- تطبيق الانظمة والقوانين الروسية بدلا من اتباع العادات والتقاليد في حل النزاعات الشخصية او القبلية.
- ٢- اسكان اعداد كبيرة من القوزاق والروس مع الشراكسة في المدن والبلدان والقرى الشركسية للقضاء على التجمعات السكنية المغلقة لهم.
- ٣- محاولة بث القيم والعادات الروسية بين صفوف الشباب الشركسي عامة وطلاب المدارس خاصة.

٤- التضييق على مجالس المضافات الشركسية ومحاولة منع أي تجمع ذات طابع قومي.

بالرغم من كل ما تقدم فإن الشراكسة أصبحوا أكثر تمسكا بعاداتهم وتقاليدهم التي توارثوها عن الاجداد منذ فجر التاريخ فاستمروا في تطبيق العادات والتقاليد في جميع مجالات الحياة.

الفصل الثاني

شراكسة الوطن الأم في ظل حكم دولة شمال القفقاس (الجمهورية الجبلية)

خلال الفترة ١٩١٧ - ١٩٢٠

اجتمع في يوم ١٥/٣/١٩١٧ وبعد تنازل القيصر عن سلطاته الدستورية ممثلو شعوب شمال القوقاز لبحث امكانية تأسيس دولة لهم وفي يوم ١١ من شهر أيار/ مايو ١٩١٧ نظموا (مؤتمر شمال القوقاز الاول) واعتبروا الذين حضروا هذا المؤتمر الهيئة التشريعية العليا التي تنظم مستقبل تلك الشعوب، لتعمل كحكومة انتقالية لدولة شمال القوقاز المستقلة. وفي ايلول / سبتمبر من نفس العام وخلال المؤتمر الثاني لنفس الهيئة تم التصديق على مشروع دستور الدولة القوقازية الجديدة، وفي يوم ١١ أيار/ مايو ١٩١٨ اعلنت الحكومة المؤقتة لدولة شمال القوقاز استقلالها، وانتخب (عبد المجيد جرويوييف) والمعروف باسم (اوتشيرموي)، أبرز رجالات الهيئة التشريعية العليا كأول رئيس للدولة الجديدة وهو شيشاني الاصل، والسيد كوتسك، وهو من القبردي نائباً له، كما تم انتخاب برلمان لها برئاسة (سنغيري جباغي) وهو شركسي الاصل أيضاً.

كما أعلن في المؤتمر عن تأسيس دولة شمال القوقاز المستقلة وسميت (جمهورية الجبل).. واعترفت بها كل من: المانيا والنمسا والمجر وتركيا والبالشفة الروس ظاهرياً. إلا انها تعرضت لغزو من الجيش القيصري الذي كان يقاوم الثورة البلشفية، وحرقت العديد من القرى القوقازية، خاصة قرى الشيشان، وصمد المجاهدون القوقازيون أمام جيش القيصر حتى ان (تشيتسيرين) وزير خارجية الحكومة السوفيتية قدم اعترافاً باتحاد شمال القوقاز وباستقلال الدولة الجديدة قائلاً:

"إننا نعلم أمام العالم كله بأن الجمهورية السوفيتية الاشتراكية لم تنو مطلقاً احتلال أراضي أجنبية وإقامة حكم سوفيتي عليها، وأن روسيا تعترف بحق الشعوب في تقرير مصيرها. فإذا كنتم أيها المسلمون القوقازيون راضين عن شكل ووضع جمهوريتكم فعيشوا بسلام وعمرؤا ببلدكم".

وفي يوم ١٥/١٢/١٩١٨ استقال الرئيس عبد الحميد (تشيرموي) وكلف نائبه بشماف كوتشوك رئيساً للدولة الجديدة وشكل حكومته برئاسته وعضوية عشرة وزراء وهم: (نوح تاركو للدفاع، رشيد خان للداخلية، حيدر بامات للخارجية، أصلان كرى جباغي للمالية، المهندس ملكخان للصناعة والتجارة، المهندس إبراهيم حيدر للمواصلات، والمفكر الأديب شاخصويار للتعليم، أز بوتات للزراعة وأملأك شؤون الدولة). كما عين القائد العسكري (سلطان قلج) قائداً عاماً لجيش الدولة الجديدة، كما انضم للدولة الجديدة ست قوميات قوقازية وهي: الشيشان والانجوش والاستين والاديغة في منطقتين (القباردي وتشركسيا) والبلقار والقراشي وكان عددهم آنذاك حوالي مليون ونصف مليون نسمة كما هو مبين في الخارطة المرفقة.

واعتمدت اللغة العربية واللغة التركية كلغتين رسميتين في الجمهورية الجديدة، بالإضافة للغات القومية للشعوب الاعضاء في الجمهورية.

واعترض الشيوعيون على تسميتها بجمهورية شمال القفقاس، واطلقوا عليها اسم (الجمهورية الجبلية الاشتراكية السوفيتية) وعاصمتها (فلادي - كفقاس).

كما غزا الجنرال القيصري (دينكين) عام ١٩١٩ جمهورية شمال القفقاس ورفض الاعتراف بها لقناعته بأن روسيا وحدة واحدة ولا يمكن تجزئتها. وعندما رفض القوقازيون الانضمام لقواته، قام (دينكين) بحرق عشرات القرى والمدن الشيشانية من بينها قرى (شيشان أول - Chechen Aul) وألخان يورت وغودرميس وستاري يورت وغيرها، كما أن القوقازيين لم يكونوا على وفاق مع الشيوعيين وكانوا يجهلونهم في بداية عهدهم، فصدقوا الشعارات التي رفعوها معلنين عن اعترافهم

بحقوق القوميات في الاستقلال والانفصال. أما بالنسبة لجنرالات القيصر الروسي المخلوع فقد كان التفاهم معهم معدوما لما لاقتته الشعوب القوقازية (سابقا) من قهر على أيديهم.

وبالرغم من تأسيس جيش الاتحاد من قدامى المقاتلين (المريدين) الذين أعيد تنظيم صفوفهم، حيث بلغ عددهم ما ينوف على عشرة آلاف مقاتل بقيادة مرشدان هما: الشيخ نجم الدين الذي اعترف به كإمام للداغستان والشيخ أوزون حاجي الشيشاني الذي سبق أن قضى خمسة عشر عاما (١٩٠٢-١٩١٧) منفيا في سيبيريا في العهد القيصري وبالرغم من كل ذلك استطاع هذا الجيش الصغير تحرير الداغستان وشيشانيا وإنغوشيتيا وأوسيتيا وكاباردا (بلاد القبرطاي) وقيام (جمهورية شمال القوقاز).^(٥٧)

وفي شهر آذار/ ١٩٢٠ قامت وحدات الجيش الأحمر (الشيوعي) باحتلال الجمهورية الجبلية الاشتراكية بعد أن استنفدت قوتها في حربها ضد القوات القيصرية بقيادة (دينكن) تم القضاء على هذه الجمهورية القوقازية الاتحادية وأعيد تقسيمها إلى ثلاث جمهوريات صغيرة وهي: جمهورية القبارطاي والبلقار، وجمهورية الشيشان والأنجوش، وجمهورية أوستيا الشمالية.



رئيس حكومة القفقاس عام ١٩١٨م مع الوفد الذي رافقه إلى استنبول لاقناع تركيا بالاعتراف باستقلال القفقاس



الرئيس بيشماف كوتسوك،
الرئيس الثاني لحكومة
جمهورية شمال القفقاس

وفي نفس العام أي في عام ١٩٢٠ تشكلت الجمعية الدينية الإسلامية من (٢٥٠) من رجال العلم والدين والأئمة وهم يمثلون من جميع القبائل الشركسية في (الجمهورية) وعقدت هذه الجمعية خلال الأعوام من ١٩٢٠-١٩٢٥ خمس مؤتمرات بهدف الدعوة إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم الخالص من البدع، ومن أجل أن يتفق العلماء القوقازيين وأن يوحدوا العبادات الدينية من غير اختلاف، وفي المؤتمر الخامس والأخير ظهر للمسلمين الذين حضروا المؤتمر تعصبات المشايخ الادعاء القدامى وأكاديبهم الملققة وأدرك العوام بأنفسهم أنهم ليسوا على شيء من الدين. وفي ختام المؤتمر أجابوا على خمسة عشر تساؤلا بالاستناد إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة: ^(٤٩)

ووقع على هذه الفتاوى العلماء القوقازيين عامة والشراكسة خاصة وهم:

١- القاضي زابت أفندي الإدريس	٢- القاضي إبراهيم أفندي البرنوقي
٢- من الأفندية جانخوت الحاتقوي	٤- القاضي حاجبكر الوطي
٥- القاضي إدريس الدولي	٦- القاضي محمد الصومني
٧- القاضي مصوست النابوقي	٨- القاضي نوح المرتقوي
٩- من الكتاب يعقوب الخوادي	١٠- من الكتاب أحمد النابوقي
١١- القاضي إسميل القود إينيت	١٢- من المندوبين مجيد الحاتغوي
١٣- القاضي غورظ الحاج الشمغوي	١٤- القاضي شق غبلظقو
١٥- القاضي حاتغوظقو ادمي	١٦- القاضي كاتب الجوبطي
١٧- القاضي يدج النقي.	



خارطة تبين القوميات القوقازية التي تشكل منها دولة شمال القفقاس (الجمهورية الجبلية) في الفترة ١٩١٧-١٩٢٠

الفصل الثالث

الشراكسة في الوطن الأم في ظل الحكم الشيوعي في عهد الاتحاد السوفيتي

(١٩٢١-١٩٩٢)

تقديم

عاشت الأمة الشركسية تحت الحكم الشيوعي في عهد الاتحاد السوفيتي ابتداء من عام ١٩٢١ وحتى انهياره في عام ١٩٩٢*. حيث كانت ثورة ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٧ بداية النهاية بالنسبة لروسيا القيصرية، وبدأ عهد جديد وزالت سلطة القيصرية بعد حكم دام أجيالا وقرونا عديدة، ولم يتردد البلاشفة الروس في استخدام جميع الامكانيات والوسائل، وتسخير الشعوب والقوميات المختلفة لخدمة المبادئ الشيوعية وتأمين مصالحهم منذ اندلاع ثورتهم. حيث نادى المنظرون الشيوعيون عند بناء دولتهم بالمساواة بين القوميات ووضعوا مبادئ تلك المساواة في كل تشريعاتهم نظرياً، وبقي العنصر الروسي متفوقاً عملياً، ووجدت بقية الاعراق نفسها امام نظرية تدعو للمساواة، وتسخر تلك النظرية لخدمة الايديولوجيا السياسية التي نادى بها، وقصرت تطبيقاتها على فئة صغيرة من أبناء الشعوب التي قهرها القيصرية سابقاً، وجعل الشيوعيون منها شعوباً سوفيتية. ووجدت تلك الفئة انه من اجل المحافظة على مصالحها، ضرورة إقناع شعوبها بجدوى الشعارات التي ادعت المساواة بين القوميات، بحجة ان التشريعات السوفيتية قد ضمنت تحقيقها ومراعاتها فأصدروا "إعلان حقوق شعوب روسيا" الذي صدر بعد اسبوع واحد من تسلم الشيوعيين للسلطة ونصه:

"إذا جرى الاحتفاظ بأي أمة بالقوة كجزء من دولة ما، وإذا حرمت قسراً وضد رغبتها المعلنة سواء في الصحف أو المجالس الشعبية أو قرارات الاحزاب السياسية أو عن طريق الثورات والانتفاضات ضد الظلم، وإذا حرمت من الاختيار الحر للشكل الدستوري لوجودها القومي، فإن دمجها في تلك الدولة يعتبر نوعاً من الضم القسري وقهراً واغتصاباً".

وفي كانون الاول عام (١٩١٧) وجه كل من (لينين وستالين) نداء مشتركاً إلى الشعوب المسلمة في روسيا جاء فيه:

"ايها المسلمون في روسيا، يا تثار الفولغا والقرم، والقرغيز، وسيبيريا وتركستان، ويا اترك وتار ما وراء القوقاز، ايها الشيشان وجبلي القوقاز (الشراكسة)، ويا جميع من دمرت مساجدهم ومزاراتهم، ويا من انتهكت عقائدهم وتقاليدهم على يد قيصرية روسيا وظالميهها، من الآن فصاعداً نعلن بأن عقائدكم وعاداتكم ومؤسساتكم القومية والثقافية حرة ومصانة من الانتهاك. ابناو حياتكم القومية بحرية وبدون عائق. ان ذلك من حقكم، اعلموا ان حقوقكم كحقوق جميع شعوب روسيا ستحميها قوة الثورة ومجالس نواب العمال والجنود والفلاحين".

وانطلاقاً من مبادئ الضرورات التكتيكية في مرحلة انتقالية، سعت السلطات الشيوعية لاستغلال الإسلام والقوميات المسلمة في الاتحاد السوفيتي بهدف ان تكون جسراً للتغلغل ومد النفوذ إلى بلدان الشرقين الأدنى والأوسط الإسلامية. فعملت على استمالة مسلمي الشرق لمساندة ثورتهم وقبول مبادئهم وعقيدتهم الجديدة.

كما وجه لينين بياناً آخر إلى مسلمي العالم في العام نفسه جاء فيه: (١٠٠)

"يا مسلمي العالم اذاهبين ضحايا الاستعمار استيقظوا... استيقظوا ان روسيا قد أفلتت عن سياسة الحكومة القيصرية، تلك السياسة الضارة الخبيثة التي كانت تتبعها حكومتنا السابقة. إن روسيا اليوم تمد يدها إليكم لتعينكم وتنصركم على تحطيم أغلال استعباد واستبداد روسيا القيصرية".

* وضع شراكسة الوطن الأم تحت الحكم الشيوعي بعد قضاء الجيش الاحمر على جمهورية شمال القفقاس مع نهاية عام ١٩٢٠.

"إن روسيا تطلق لكم الحرية الدينية وتعترف بحدود بلادكم المعروفة ولن توافق على اعطاء رقعة من البلاد التركية إلى الأرمن، وستبقى مضائق البسفور والدرنديل في أيديكم، والقسطنطينية عاصمة العالم الاسلامي، وسيمنح المسلمون في روسيا الاستقلال التام".

"ان ما نطلبه منكم لقاء هذا هو قيامكم لمقاتلة المستعمرين الغاشمين، الذين دأبهم ومبتغاهم هو استنزاف بلادكم واستلاب ثرواتكم واستعباد أوطانكم".

وقام لينين بتسليم (مصحف عثمان) رضي الله عنه الذي كان في حوزة القياصرة إلى ممثلي المسلمين في مؤتمر بتروغراد (وهو موجود الان في متحف تاريخ شعوب اوزبكستان في مدينة طشقند) كما قام بإعادة تسليم عدد كبير من الوثائق والآثار الإسلامية الهامة التي كان القياصرة قد استولوا عليها إلى مسلمي القرم والقوقاز وتركستان، كما اعاد للمسلمين مسجد "كازافان ساريا" في اونبرغ وبرج سوميكي في قازان بعد ان كان القياصرة قد صادروهما في السابق.

وبعد أن تمكن الشيوعيون القضاء على الجيش الأبيض القيصري بمساعدة من المسلمين عامة ومسلمي شمال القوقاز خاصة نكث الشيوعيين وعلى رأسهم كل من (لينين وستالين) وعدهم للاعتراف بجمهوريتهم الإسلامية في شمال القفقاس متناسين إعلانهم حقوق شعوب روسيا عامة والاعتراف بالقوميات العرقية الإسلامية وغير الإسلامية في روسيا عامة وفي القفقاس خاصة والحفاظ على العقائد وعلى العادات وعلى المؤسسات القومية والثقافية وقرروا خلافا لوعودهم السابقة تقسيم منطقة القفقاس إلى (١٤) جمهورية ومقاطعة وهي:

- جمهورية الشيشان - انجوش ذات الحكم الذاتي.
- جمهورية الداغستان ذات الحكم الذاتي.
- جمهورية القبرطاي - بلقر ذات الحكم الذاتي.
- جمهورية أوسيتيا الشمالية ذات الحكم الذاتي.
- جمهورية الكالموك ذات الحكم الذاتي.
- مقاطعة قراشاي - شركس ذات الحكم الذاتي ضمن اقليم ستافروبول.
- مقاطعة أديغي ذات الحكم الذاتي ضمن اقليم كراسنودار.

* جمهورية جورجيا السوفيتية الاتحادية وتضم:

- * جمهورية الابخاز ذات الحكم الذاتي.
- * جمهورية الادجار ذات الحكم الذاتي.
- * مقاطعة أوسيتيا الجنوبية ذات الحكم الذاتي.
- * جمهورية اذربيجان السوفيتية الاتحادية وتضم:
- * جمهورية ناختشيفان ذات الحكم الذاتي.
- * مقاطعة ناغورنو كاراباغ ذات الحكم الذاتي.

* جمهورية ارمنيا السوفيتية الاتحادية

ولما كانت الجمهوريات والمقاطعات التي يهمنها امرها في هذه الدراسة هي الجمهوريات التي يسكنها الشركاسة الذين نجوا من التهجير القسري وبقوا أحياء في الوطن الام، حيث كان الشيوعيون حريصين على عدم تخصيص الجمهوريات والمقاطعات للشركاسة وحدهم وانما تعمدوا توطين قوميات أخرى معهم، ففي جمهورية القبرطاي مثلا تم اسكان البلقر وهم من الأتراك وبعض القوزاق

والروس معهم، فأصبح اسمها جمهورية (كباردينا - بلقاريا) وفي مقاطعة الأديغي اسكنوا اعداد كبيرة من الروس والقوزاق وقوميات أخرى حتى أصبح عدد الشركاسة فيها أقل من ٣٠%.

وكذلك فإن حوالي ١٢% من سكان منطقة قراتشي - تشركسيا كانوا من شركاسة البسلتية والابازة الذين تعايشوا مع الغالبية من الروس والقوزاق والنغوي.

أما المنطقة الرابعة التي سكنها شركاسة هم من أصل (الابخاز) الذين شكلوا ٢٥% من سكانها و ٧٥% من القوميات الروسية والجورجية والأرمن والكرانيين، والاثنيين.

هذا بالإضافة إلى بعض القرى الشركسية التي أتبعوها للأقليمين (لازريفسكي واوسبينسكي) في مقاطعة كراسنودار وكذلك (طوابسة) وبيلوريتشنسك (شيتحالة) وأوست لابينسك (لاباب) وكراسنودار (قاله) ولابينسك (تشاتيون) وأرمافير (يرملحابل) وترناوز ومزدوك حيث يعيش فيها عائلات شركسية مسيحية وكذلك قرى شركسية مسلمين ومسيحيين في أوسيتيا الشمالية ومقاطعة ستافروبول.

وفيما يلي دراسة تحليلية لكل جمهورية ومقاطعة يقطنها شركاسة الوطن الأم في ظل حكم الشيوعي في الاتحاد السوفيتي خلال الفترة (١٩٢٧-١٩٩٢)

* جمهورية (قبردينو - بلقاريا) في شمال القفقاس

في المرحلة الأولى من حكم الاتحاد السوفيتي كانت هذه الجمهورية عبارة عن مقاطعة إدارية ثم تطورت في عام ١٩٥٧ إلى مقاطعة ذاتية الحكم ثم تحولت إلى جمهورية ذاتية الحكم وهي الآن جمهورية اتحادية من جمهوريات روسيا الاتحادية.

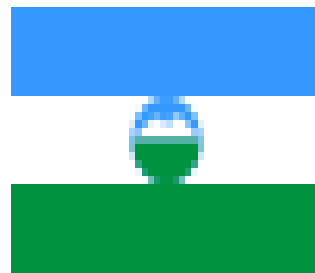
وتولى رئاستها بعد تحويلها إلى جمهورية اتحادية كل من:

فاليري كوكوف: شغل منصب السكرتير الأول للحزب الشيوعي في جمهورية كبادردينا بالكاريا السوفيتية الاشتراكية في الفترة السوفيتية، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي انتخب لثلاث دورات انتخابية كرئيس للجمهورية وقبل أن ينهي الفترة الأخيرة توفي، فعين بدلا منه في ٢٠٠٦ أرسين كانوكوف: رجل أعمال شركسي كبير وله اسهامات في المجالات الشركسية ويعتبر من المحاربين للفساد الإداري ويمتلك سلسلة من المحلات التجارية في موسكو وغيرها، في العام ٢٠٠٨ دعم الحجاج الشركاسة من كافة الجمهوريات لاداء مناسك الحج على نفقته الخاصة. واعيد انتخابه للمرة الثانية في عام ٢٠١١.

• علم الجمهورية وشعاره وحدوده الجغرافية



شعار قبردينو - بلقاريا



علم قبردينو - بلقاريا

تقع جمهورية قبردينو - بلقاريا في شمال القفقاس في حوض نهر التيرك الواقع على الأطراف الشمالية لجبال القفقاس، يحدها شمالا روسيا وشرقا أوسيتيا الشمالية وجنوبا جورجيا وغربا جمهورية القراشاي - تشركسيا.

* المساحة ١٢,٥٠٠ كم^٢.

عدد السكان: حوالي ٩٠١٤٩٤ نسمة. علما بأن عددهم في بداية تأسيس الاتحاد السوفيتي ٣٥٩٢٠٠ تقريبا منهم ١٩٧ ألف فقط شركاسة.

العاصمة: نالتشك وعدد سكانها حاليا ٢٤٠ ألف نسمة حاليا.

• مجموعات الاثنية (القومية) في الجمهورية:

مزيج من قوميات رئيسية ثلاثة وهم الشركس من القبردي وهم الغالبية العظمى ويمثلون ما نسبته ٥٥% من السكان وهم السكان الأصليون. والبلقر ما نسبته ١٢% وهم من بلقار الفولغا والروس ما نسبته ٣١% وهم المستوطنون الجدد بالإضافة إلى قوميات أخرى مثل الأوكران والاستين والأتراك والأرمن

* الديانات في الجمهورية : ٧٠% مسلمون والباقي من المسيحيين.

• المناخ في الجمهورية:

المناخ في الجمهورية معتدل الحرارة ففي السهول المرتفعة حوالي +٢٣ مئوية صيفاً في حين متوسط الحرارة في الجبال العالية (-١٤ مئوية -٤ مئوية) شتاء ومعدل سقوط الأمطار عادة يتراوح من ٢٠٠-٥٠٠ ملم.

• طبيعة أراضي الجمهورية:

تمتاز بالطبيعة الخلابة حيث الجبال التي تكثر فيها الجموديات والقمم الثلجية العالية مثل قمة اوشة مافة (الجبل المبارك عند الشركس) والمعروفة بجبال البروز وارتفاعها ٥٦٤٢م وهي أعلى قمة في قارة أوروبا ثم جبال أوشخارا ٥٠٦٨م ودوختاي ٥٤٠٢م وقمة بوشكين ٥٠٣٣م. كما تغطي ما نسبته ١٨% من مساحتها غابات من أشجار البلوط والبندق... والأشجار ذات الأخشاب العطرية و٤٣% من مساحتها أراضي زراعية خصبة والباقي سهول خضراء وهي مراعي غنية بالأعشاب الخضراء على مدار العام وتجري في أراضيها تسعة أنهر رئيسية وهي باخسان، تيرك، ملقا، ارغودان، شجم، كوركوزين، اوروخ، وليسكن، بالإضافة إلى عشرات الروافد وهناك الاودية العميقة ومجري مياه الأمطار.

بالإضافة للأنهار هناك البحيرات العديدة الجميلة والذي يبلغ تعدادها ١٩٩ بحيرة وأهمها "تسيركل" "جلوبيا السفلى"، "جلوبيا العليا"، "كيلنشين" وتتراوح أعماق البحيرات من ١,٥ - ٣٨٦ مترا ومساحتها من ٠,٠١ - ١,٧٧ كلم مربع و ٥٥% من عدد البحيرات تقع ما بين نهري باخسان وملقا.

• الثروات الزراعية والحيوانية في الجمهورية

بالرغم من تلك الحياة المؤلمة التي عاشها شركاسة الوطن الأم، في عهد الاستعمار الروسي القيصري استطاعوا التغلب على الأعمال الهمجية للمستعمرين القيصارة الروس، التي أدت إلى حرق وتدمير وإتلاف أراضيهم ومزارعهم، وتمكنوا من إعادة بناء المزارع والحقول التي (أُتلفت عمدا) وباستصلاح أراضي جديدة ثانية. ونهضوا من جديد، واستمروا في مزاوله مهنة فلاحه الأراضي وزراعة الحقول والبساتين وتربية الحيوانات والطيور وهي حقيقة (إيجابية) توصلنا إليها عند دراسة الثروة الزراعية والحيوانية في كل من (الجمهوريات الأربعة) التي يسكنها (شركاسة الوطن الأم) في ظل الحكم الشيوعي في عهد الاتحاد السوفيتي والتي يمكن تلخيصها على النحو التالي:

- ١- الأبقار، والماعز، والخراف البيضاء، والجواميس والخيول.
 - ٢- الطيور عامة والدجاج، والإوز، والبط، والديك الرومي، والحمام خاصة.
 - ٣- النحل، وإنتاج أجود الأنواع من العسل.
 - ٤- الخيول الأصيلة بهدف تهجينها.
 - ٥- صيد الحيوانات البرية مثل: الأيائل، والغزلان، والأرانب، والثعالب... الخ^(١١).
- كما اشارت آخر التقارير الرسمية حول الزراعة لدى شعب القبرطاي في هذه الجمهورية بأن مساحة الأراضي الحرجية والمزروعة بأشجار الزينة في نالتشك عاصمة القباردينيا - بلقاريا تبلغ حوالي ٩٩١ هكتارا، حيث يوجد في المدينة (١٥) حديقة عامة إضافة إلى متنزهين كبيرين. وفي متنزه نالتشك نجد ما يقارب من (١١٦) نوعا من الاشجار، منها (٥٥) نوعا نجدها تنمو على ارض الجمهورية فقط، و (٢٩) نوعا منها لا تنمو إلا في امريكا الشمالية، بالإضافة إلى ١٧ نوعا تنمو في اوروبا و(١٥) نوعا آخر في آسيا الوسطى. وتصدر الجمهورية في كل عام إلى ثلاثمائة مدينة رئيسية داخل الاتحاد السوفيتي ما يقرب من مئة وخمسين ألف نبتة زينة، ومليون ونصف وردة على اختلاف الأنواع وكذلك اربعمائة الف شتلة أشجار مثمرة. كما أن أكثر من ستة آلاف صنف من الورود ونباتات الزينة التي تنمو في القفقاس، تنمو على أرض جمهورية القبردي.
- ولو نظرنا إلى الورود التي تزرع في القسم الغربي من روسيا، والتي تبلغ حوالي (٣٥٠٠) صنفا، نجد أن ما يقارب الثلاثة آلاف صنف منها تنمو في هذه الجمهورية^(١٢).
- وكانت تربية الخيول تحظى باهتمام كبير لدى الشركس في هذه الجمهورية وتصدر مزرعة خيول (الجرشنية) إلى مناطق القفقاس الأخرى وإلى جورجيا وروسيا والقرم وبولونيا الالاف من الخيول الاصيلة وكان ثمن الجواد الأصيل من هذه الجمهورية يعادل ثمن (٢٥) جوادا من السلالات المحلية في القرم^(١٣).

الصناعات في الجمهورية:

تحتل الصناعات الثقيلة وتوليد الطاقة الكهربائية كما يوجد في الجمهورية منذ عهد الاتحاد السوفيتي الصناعات التالية:

- الفحم، والرخام، والماس، والتنجسن، والالمنيوم.
 - تصنيع الآلات والمعدات والآليات ذات العلاقة بالفلاحة والزراعة.
 - الالكترونيات الدقيقة، والكريستال.
 - صناعة المنسوجات عامة السجاد خاصة.
 - صناعة المنتجات الغذائية من معلبات وسكاكر وزيت..الخ.
- بالإضافة إلى اشتغالهم في الصناعات المتعلقة بالسياحة عامة والسياحة العلاجية خاصة، وهي من الصناعات التي تطورت كثيرا في هذه الجمهورية لتوفر البنية التحتية الطبيعية من مياه معدنية وكبريتية، حيث يوجد فيها أكثر من (١٧) نوعا من هذه المياه بالإضافة لتوفر البنية التحتية للرياضات الشتوية مثل التزلج ورياضات المغامرات كتسلق الجبال.

• النظام السياسي في الجمهورية

يوجد في قبردينو - بلقاريا رئاسة إدارية ومجلس تشريعي (بيكاميرال). يتشكل المجلس التشريعي من منظمة عليا تعرف باسم سوفيت الجمهورية، ومنظمة دنيا يطلق عليها اسم سوفيت الممثلين. توزع الصلاحيات بين كل من الحكومة الفدرالية والحزب الشيوعي والحكومة رئيس جمهورية ورئيس وزراء ودوائر ويكون الرئيس شركسي الأصل وتوزع رئاسة الحكومة ورئاسة المجلس التشريعي بين البلقار والروس كما ويشكل الوزارات بين القوميات الرئيسية الثلاثة (الشراكسة والبلقار والروس).

• التعليم والثقافة والرياضة في الجمهورية

توفر الحكومة المحلية التعليم العام (الابتدائي والثانوي) مجانا كما توجد في الجمهورية مئات المدارس المتوسطة تبلغ مدة الدراسة فيها عشر سنوات وتستوعب أكثر من ١٥٠ ألف طالبا وعشرات المدارس الفنية تستوعب ٨٨ ألف طالبا وجامعتين تستوعبان ٢٠,٠٠٠ طالبا. هذا ويوجد في الجمهورية ٢٥٠ مكتبة وثلاثة متاحف و ٢٣١ مركزا ثقافيا إلى جانب العديد من المسارح ودور السينما. كما يصدر بلغة الأديغة مجلتيين توزع - ٤٠ ألف نسخة - وجريدتين ١,٨٢٥,٠٠٠ نسخة سنويا.

هذا بالإضافة لعديد من المراكز الشبابية والعمالية والمراكز الرياضية تضم ملاعب وصالات وميادين للفروسية، والاندية الرياضية وأشهرها نادي (سبارتاك نالتشك). النادي الذي يطلق عليه (الحصان الأسود) في الدوري الروسي ويمثل إقليم القوقاز الروسي وبالتحديد جمهورية قبردينو بلقاريا الشركسية وانتقلت للدرجة الممتازة في موسم ٢٠٠٦ وحصل على المركز الـ (٨) في موسم ٢٠٠٧ والمركز (١٢) موسم ٢٠٠٨ وحصل على المركز الـ (١١) في موسم ٢٠٠٩ .

هذا بالإضافة لاهتمام المسؤولين بالفلكلور القومي الشركسي ودعم فرقها القومية خاصة فرقة كباردينا للرقص الشركسي الذي يعتبر من الفرق الفلكلورية العالمية.

• الطرق وشبكة المواصلات في الجمهورية

تصل الجمهورية مع جيرانها في القفقاس بالطرق البرية والسكك الحديدية وللجمهورية مطار دولي في نالتشك بالإضافة إلى خدمات توفر الاتصالات من الهواتف النقالة والانترنت والبرق والبريد.

• التجارة والاقتصاد في الجمهورية

نشطت الحركة التجارية والاقتصادية بعد إنهاء الاتحاد السوفيتي وأصبح لها علاقات تجارية واقتصادية مع بقية الجمهوريات والدول الصديقة وزادت من عملية الانفتاح على العالم وتأسست شركات القطاع الخاص والبنوك التجارية كما أن عملية الخصخصة في تزايد واصبحت التجارة تشكل أكثر من ٦٠% من ناتج الاقتصاد القومي للجمهورية كما بلغت نسبة الشركات الخاصة أكثر من ٥٠%.

• مدن وقرى الجمهورية:

جمهورية كباردينا أكبر الجمهوريات والمقاطعات الشركسية في الوطن الأم ويوجد فيها حتى نهاية حكم الاتحاد السوفيتي أكثر من مائة مدينة وقرية، أكبرها هي مدينة نالتشك العاصمة وفيها أيضا مدن كبيرة تمثل مدن نارت قالة وباخسان. وفيما يلي أسماء المدن والقرى الشركسية في هذه الجمهورية.

جدول يبين

الاسماء الشركسية الأصلية للقرى مقارنة مع الاسماء الروسية في ظل
حكم روسيا القيصيرية بالاسماء المستخدمة في وقتنا الحاضر

الرقم	الاسم الشركسي الأصلي	الاسم الروسي في عهد القيصرية حتى أواخر القرن ١٩	الاسم المستخدم حاليا
١.	اباتحابل	ارساكونسكي	ارساكون
٢.	ابيحابله	ابافو	اوروجاينويا
٣.	ابزيوانحابله	كونوفو	كوركوجين
٤.	ابيقوحابله	ابوكوفو	زالوكوكواجه
٥.	اغوبكي	اتاجوكينو ٣	كوبا
٦.	ازبشي	خميدا	خاميدا
٧.	التيقويحابله	كودينيتوفو ٢	تشيجيم ٢
٨.	اسلميرزي	انزورفو	فتوروي لسكين
٩.	بوريقوي	بروكوفسكوي	اريك
١٠.	انزوري	انزورفو	ستاري لسكين
١١.	قوان الي يقواجه	اليكونفا	اليكونفا
١٢.	استميري	فيرخني	فيرخني اكباش
١٣.	حطيوخوشيقوي	زيوكو	زيوكو
١٤.	حطيوخوشيقوي بيشا	زايوكفا	زايوكفا
١٥.	حطيوخوشيقوي يشحاره	باكسانن غاس	اتاجوكينا
١٦.	حسنبي قواجه	كوبا	كوبا
١٧.	السكري	ناوروزفا	اسلامي
١٨.	الخوقواجه/الخوي	اخلوف	نيجني كورب
١٩.	اشابي	اشابوفا	مالكا
٢٠.	ببيجوي	بابوكفا	سارماكوف
٢١.	ببيقوي	نيزلوبنايا	نيزلوبنايا
٢٢.	شوقوانة حابله	مرتازوفا	ديسكوي
٢٣.	بسلنيقوا قواجه		إنجيتشيشخوا
٢٤.	بنوقا حابل	بنوكوفسكي	بنوكوفا
٢٥.	برماميت حابله		كاراغاتش
٢٦.	ببيرد قواجه		البورغان
٢٧.	بوتاشي	بوتاشيفا	بلاتوفسكوي

الرقم	الاسم الشركسي الأصلي	الاسم الروسي في عهد القيصرية حتى أواخر القرن ١٩	الاسم المستخدم حالياً
٢٨.	بولتي	بولاتوفا	تيريكسكوي
٢٩.	قوم قاله	غيور غيفسك	مدينة غيور غيفسك
٣٠.	جاتج حابله	كسايفا	بكسانيونك
٣١.	غونشج حابله	نالشكسكا كلسييفسكوي	نارتان
٣٢.	داوتيقوا حابله	شالوشنسكوي	شالوشكا
٣٣.	در حابله	كسايفا	بكسانيونك
٣٤.	جامبوتيش يقواجه		
٣٥.	جانخوت حابله	جانخوتوفا	بسيغانسو
٣٦.	قرية جديدة	دو غجوكوفا*	اوشغير
٣٧.	دخوشقوي	دوكشوكينا	كاخون
٣٨.	دودار قوي		بسيج
٣٩.	دومن حابله	كامنوموستسكوي	كامنوموستسكوي
٤٠.	يشروفاي		نيجني كورب
٤١.	جمبكخا يواتجر	ناوروزوفا	كيزبورون ٢
٤٢.	زخزخوا حابله	دو غجوكوفا	اوشغير
٤٣.	إنال حابله	إنالوفا	كاراغاتش
٤٤.	إنديري	أخلوفا	نيجني كورب
٤٥.	اسلامي	إسلاموفا	فيرخني كورب
٤٦.	بيكميزي		كانوكوفسكي
٤٧.	قارمه حابله		كامينوموستسكوي
٤٨.	قسي حابله	كاسايفسكي	خابيز
٤٩.	نارتسانه		مدينة كيسلوفودسك
٥٠.	قلشبي حابله	نالشكسكا كليشبيفسكوي	
٥١.	قوغولقوي	كوغولكينا	أروخ
٥٢.	قويجيقوي ييشا	فيرخنيا كوجوكوفسكوي	جمتالا
٥٣.	قويحيقوي يشحارا	نيجينا كوجوكوفا	نيجني تشيرك
٥٤.	قوان حابله	كونوفا	كوركوجن
٥٥.	قونوقوي		كونوكوفسكي
٥٦.	قوش حابله	إنالوفا	كاراغاتش

* لا يوجد لهذه القرية اسم شركسي لأنها قرية جديدة انشأت في عهد القيصرية بعد الاحتلال.

الرقم	الاسم الشركسي الأصلي	الاسم الروسي في عهد القيصرية حتى أواخر القرن ١٩	الاسم المستخدم حالياً
٥٧.	قوشراقوي	كوشروكوكفا	كينجيه
٥٨.	قوبات حابله	إنالوفا	كاراغاتش
٥٩.	قوندتي يزانه	كودنيتوفا ١	مدينة تشيغيم ١
٦٠.	قوندتي يطوانا	كودنيتوفا ٢	تشيغيم ٢
٦١.	قوناش حابله	كاسايفا	بكسانيونك
٦٢.	قونيج حابله	مرتازوفا	ديسكوي
٦٣.	قوغورقوي		كورغوكوفسكي
٦٤.	كوشمزيقوي	كوشمازوكينا	
٦٥.	لافيش حابله	لافيشفا	بسيخوري
٦٦.	غوملو قواجه تسيكو		إنجيتش تشيكون
٦٧.	غوملو قواجشخوا		كراسني فستوك
٦٨.	ماخرا حابله		
٦٩.	ماخوقوا حابله		أوشيغير
٧٠.	ميصوستي	ميسوستوفا	أورفان
٧١.	مرتزي	مرتازوفا	ديسكوي
٧٢.	برخيش حابله		تيركسكوي/اورجاينوفا
٧٣.	بونج حابله		كاخون
٧٤.	قاله تشيخ	بروخلادنيا	مدينة بروخلادني
٧٥.	بسيخوايه	مدينة بيتيغورسك	مدينة بيتيغورسك
٧٦.	سيدافي	إنالوفا	كاراغاتش
٧٧.	سيدافي	كاسايفا	بكسانيونك
٧٨.	ماته قاله	سلداتسكايا	سلداتسكايا
٧٩.	تامبي حابله	تامبييفا ٢	ألتود
٨٠.	تامبي حابله	تامبييفا ١	مدينة باخسان
٨١.	تيقلاتي	ميسوستوفا	أورفان
٨٢.	تراما حابله	أشابوفا	
٨٣.	تيجي	تيجقا	كيشيك
٨٤.	حغونديقوي	خاغوندوكفسكي	اليبيردوكفسكي
٨٥.	حغونديقوي	كارموفا	كامنوموستكوي
٨٦.	حغونديقوي	اشابوفا	مالكا

الرقم	الاسم الشركسي الأصلي	الاسم الروسي في عهد القيصرية حتى أواخر القرن ١٩	الاسم المستخدم حالياً
٨٧.	حاود حابله	نارتان	
٨٨.	حبتي	خابتسيغا	خاميديا
٨٩.	شردن حابله	شالوشنسكوي	شالوشكا
٩٠.	يلخوي	بوتاشفا	بلاتوفسكوي

نستنتج من المقارنات السابقة بأن أكثر من ٨٥% من أسماء المدن والقرى والبلدات الشركسية في مناطق القبرطاي قد تم تغييرها أو تحريفها أو تبديلها عن الاسم الشركسي الأصلي لها. وهي حقيقة تؤكد إلى أي مدى عمل الروس في عهد القيصرية ومن بعدهم في عهد الاتحاد السوفيتي على طمس المعالم القومية الشركسية عامة والمعالم الجغرافية خاصة حتى يقضوا على كل أثر يدل بأن بلاد القفقاس عامة ومناطق حوض الترك في الشرق، وحوض الكوبان في شمال الغرب، وساحل البحر الأسود في الغرب وهي مناطق كان يملكها أجداد الشركاسة منذ فجر التاريخ وقبل آلاف السنين حتى قبل الميلاد.



* جمهورية الأديغي في شمال القفقاس

وهي ثاني (جمهورية) من حيث عدد سكانها الشراكسة في الوطن الأم في شمال القفقاس... وتشكلت في المراحل الأولى من تأسيس الاتحاد السوفيتي بعد القضاء قياصرة روسيا على الجمهورية الجبلية عام ١٩٢٠ وفيما يلي معلومات وبيانات عامة عن جمهورية الأديغي.

تأسست يوم ٢٧ يوليو ١٩٢٢ كمنطقة أديغية الذاتية الحكم وظلت ذاتية الحكم حتى ١٣ أغسطس ١٩٢٨م. ومن هذا تاريخ إلى ٣ يوليو ١٩٩١م تحولت إلى منطقة أديغي الذاتية الحكم داخل أقليم كراسنودار، وفي يوم ٣ يوليو لعام ١٩٩١م أصبحت جمهورية (أديغي) في الاتحاد الروسي.

وتناوب على رئاستها منذ تحولت إلى جمهورية كل من

- أصلان جارين وهو الرئيس الأول للأديغي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي مع أنه كان يشغل منصب السكرتير الأول للحزب الشيوعي لمقاطعة الأديغي ذات الحكم الذاتي في الفترة السوفيتية في أواخر الثمانينات، وله الفضل بتشكيل جمهورية الأديغي عام ١٩٩١ وله الفضل أيضا في عودة شراكسة كوسوفو إلى الوطن عام ١٩٩٨ واستمر حكمه خلال الفترة من ١٩٩١-٢٠٠٢.
- حزرت شومن: وهو اقتصادي كبير ورجل اعمال انتخب في العام ٢٠٠٢ كرئيس لجمهورية الأديغي واتسمت فترته انها شهدت تطور في الأديغي وقلة الفساد الإداري، يمتلك شركة كبيرة لاستخراج المعادن وأهمها الذهب ويمتلك مستشفى متطور يسمى مستشفى القرن الحادي والعشرون في قريته افابسيب واستمر حكمه من ٢٠٠٢ إلى ٢٠٠٦.
- أصلان غاكوشنة، وانتخب لرئاسة الجمهورية عام ٢٠٠٦، ولا زال رئيساً لها.
- المساحة: ٧,٦ كم^٢ طول الحدود - ٩٠٠ كيلومترا، وطول الأرض من الشمال إلى الجنوب - ٢٠٨ كيلومترا، من الغرب إلى الشرق - ١٦٥ كيلومترا.
- السكان: سكان جمهورية أديغي، اعتبارا من ١ يناير ٢٠٠٧ هو ٤٤١٢٠٠ شخصا، بينهم ٦٩٦٠٠ من الاطفال دون سن ١٤ سنة.
- متوسط الكثافة السكانية - ٥٦٦٠٠ شخصا لكل كيلومتر مربع، وهو ما يقرب من ثلاثة أضعاف الرقم المقابل بالنسبة لروسيا.
- شكل سكان المناطق الحضرية ٥٣% من اجمالي عدد السكان وهو ٢٣١٨٠٠ شخصا وتتركز في المدينتين - مايكوب وأديغيسك وخمس مدن من النمط المدني.
- المجموعات الاثنية في الجمهورية: الأديغي جمهورية المتعددة القوميات، ويشكل الروس (٥٢%)، الأديغة (٢٤,٢%)، و٢٣% من الشعوب الأخرى في الجمهورية مثل الأرمن، والبيلاروسيين، والأوكرانيين والالمان واليونانيين وغيرهم.
- علم الأديغي وشعاره: اختار حكومة الأديغي في عام ١٩٩٤ العلم الشركسي الذي سبق أن أقرته الشعوب الشركسية كعلم (قومي شركسي) خلال حروب الإبادة والدمار الروسية وبالتحديد في عام ١٨٣٠ ويتكون من قماش اخضر عليه اثنتي عشر نجمة وثلاثة رماح متقاطعة كما هو مبين في الشكل التالي:



شعار الأديغي



علم الأديغي

• جغرافية الأديغي ومناطقه

تقع جمهورية الأديغي في الجنوب الغربي من الاتحاد الروسي، على جانب الضفة اليسرى لنهر كوبان.

تحتل الجزء الأوسط منه السهول المنحدرة ونهر كوبان في المنحدرات الشمالية من شمال غرب القوقاز.

موقع جغرافي الأديغي مريحة للغاية، وهو يوفر بيئة مواتية لتنميتها الاقتصادية.

مناخها معتدل (دافئ ورطب). متوسط الحرارة في يناير في مايكوب - ١، ٦ درجة مئوية وفي يوليو + ٢٢، ٢ درجة مئوية، ونسبة هطول الأمطار ٧٠٠ ملم في السنة (وأكبر نسبة منها بين شهري أيلول و نوفمبر). وتكون الفترة الخالية من الصقيع (١٨٠) يوما. ومعظم أراضيها من النوع السوداء. وتغطي الغابات ٤٠% تقريبا من الأراضي (ومعظمها في منطقة الجبل)، المكسوة بالبلوط، والزان، والقيقب، وغيرها. وهناك الغابات التي تنبت فيها التنوب والصنوبر، وكثير من اشجار الفاكهة البرية.

• التقسيم الإداري للأديغي

• عاصمة الجمهورية هي مدينة مايكوب.

• المناطق الإدارية في الجمهورية:

- غياغين
- مايكوب
- كوشخابل
- تاختاموكاي
- كراسنوغفارديسك
- تيويتشيج
- شوفغينوف

كما يوجد في الجمهورية (٤٦) إدارة (قرى) بالإضافة لإدارة كل من (مايكوب وأديغيسك) وكذلك يوجد خمس إدارات وهي تجمعات سكنية عدد سكانها أكثر من القرية وأقل من المدينة.

• **النقل والمواصلات في الجمهورية:** ينظم نظام النقل الأديغيا شبكة واسعة من الطرق البرية والسكك الحديدية والاتصالات الجوية التي تربط مايكوب مع موسكو والمدن الروسية الأخرى. كما يوجد في مايكوب المطار الدولي ومحطة السكك الحديدية.

• السياحة في الأديغي:

الجنوب الروسي تعتبر من أكثر مناطق شمال القوقاز مقصدا للسياح، حيث يجمعها الهدوء وتقوح من شوارعها رائحة الاصالاة الشركسية، ولطالما كانت العاصمة مايكوب درة القوقاز الشمالي، ولا تخرج معالمها عن المألوف لكنها تشد الزائر للتمعن أكثر فأكثر بألوانها المتناسقة وتاريخها العميق، فالحفريات الاثرية تشير إلى ان هذه المنطقة كانت مأهولة بالسكان في الالفية الثالثة قبل الميلاد لكن (مايكوب) الحديثة اسست اواسط القرن التاسع عشر.

وفي أعالي الجبال الاديغية وتحديدًا في قمم (لاغاناكي) التي تشد عشاق السياحة الطبيعية وعشاق التزلج، لا تفارق النظر اللوحات الطبيعية الرائعة من جبال ووديان وغابات لا بل تتعداه إلى المشاعر التي تبدو مذهولة أمام هذا المشهد أو ذاك، ينتشر ما بين الحين والآخر على جانبي الطريق باعة الهدايا التراثية وغيرها من المصنوعات اليدوية التي تروي حكايات وأساطير هذه المنطقة.

• الثقافة في الاديغي :

يوجد في الجمهورية العديد من المعالم التاريخية والثقافية من مختلف العصور التاريخية كما يوجد فيها (٤) مسارح و (٣) قاعات للاحتفالات و (١٠) متاحف.

• الاديان في الاديغي:

يشكل المسيحيين الأرثوذكس ٥٧% ، والمسلمين - ٤٠%، وكل من اليهودية والكاثوليكية حوالي ٣%.

• الاقتصاد في الاديغي:

تشتهر الجمهورية بالصناعات التالية:

التوابل، والهندسة الميكانيكية وصناعة اللب والورق والادوات المعدنية، وتجهيز الاغذية و انتاج الغاز وغيرها من الصناعات التمويلية كما تمتلك الجمهورية احتياطات كبيرة من النفط والغاز والذهب والفضة.

• الزراعة والثروة الحيوانية في الاديغي:

تعتبر الزراعية هي واحدة من اولويات التنمية الاقتصادية في الجمهورية واحتلت المركز الريادي زراعة وتصنيع الحبوب وبنجر السكر وزراعة الخضر والفواكه والتبغ، وعباد الشمس والعنب .

كما تشتهر بتربية الماشية والخنازير والاغنام والدواجن والخيول الاصيلية. ويبلغ ناتج الصناعات الزراعية ٣٢% من مجموع الناتج الصناعي للجمهورية.

• التعليم في الاديغي:

هناك أكثر من مرحلة دراسية في الجمهورية وهي:

- **التعليم ما قبل المدرسة:** يوجد في الجمهورية أكثر من (٢٥٠) مؤسسة تعليمية ما قبل المدرسة بالإضافة إلى وجود بعض المدارس الخاصة لاطفال ما قبل المدرسة.
- **التعليم العام:** وهي المرحلة الدراسية التي تمتد لمدة (١٢) سنة
- وأشارت احصائيات السنة الدراسية ٢٠٠٩-٢٠١٠ إلى وجود (١٦٤) مدرسة حكومية وبلدية (بما في ذلك (٩) مدارس تعليمية ليلية.
- **التعليم المهني:** يوجد في الجمهورية نوعان من التعليم المهني هما:

- ١) التعليم المهني الأولي ويوجد فيه (٩) مؤسسات.
- ٢) التعليم الثانوي المهني ويوجد فيه (٦) مؤسسات .
- التعليم العالي (الجامعي) والدراسات العليا ويتكون من :
 - المعهد الأديغي الجمهوري لتنمية القدرات
 - جامعة أديغي الحكومية وتدرس (١٧) تخصص إضافة إلى (٤) تخصصات على مستوى في الدكتوراه
 - جامعة مايكوب للتقنية وفيها (٢١) تخصص للدراسات العليا إضافة إلى (٥) تخصصات على مستوى الدكتوراه.
- المدن والقرى والبلدات الشركسية في الأديغي.

تتكون الأديغي من أكثر من مائة مدينة وقرية وبلدة أكبرها هي (مايكوب) العاصمة.

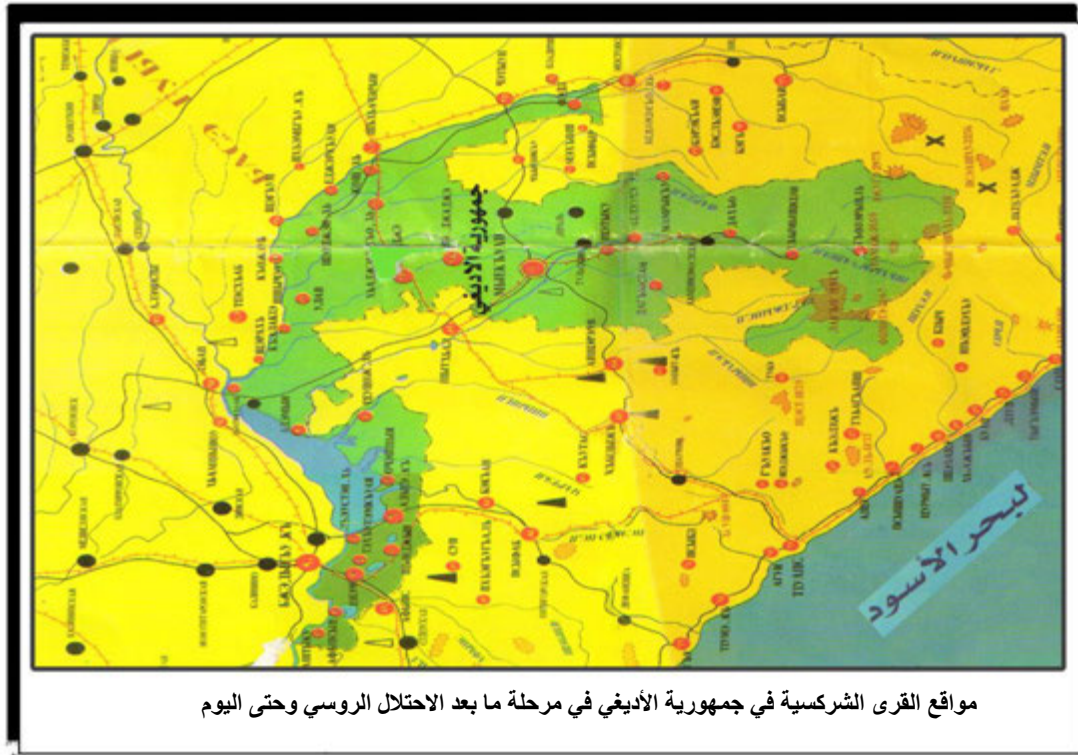
وفيما يلي أسماء مائة منها بحسب اسمائها الشركسية الأصلية ومقارنتها باسمائها في عهد الحكم الشيوعي السوفيتي.

الرقم	الاسم الشركسي	ما يقابله بالروسية	الرقم	الاسم الشركسي	ما يقابله بالروسية
١	ميه قواب	مايكوب	٢٤	مامر قوة	نوفو سفوبودنايا
٢	اف بسب	افي بسيب	٢٣	داخوة	داخو فسكايا
٣	يه نه م	انيم	٢٤	خمش كه ي	خامشكي
٤	تخوتم قواي	تيختيمو كاي	٢٥	غوزة رييل	جوزيرييل
٥	لوستن حابل	تليوستن خابل	٢٦	بس باي	بسي باي
٦	ادغة قال	اديغي كال	٢٧	باغ	باجو فسكايا
٧	وتشة بشي	خوتشي بشي	٢٨	بسلني	بسلينفسكايا
٨	توتشوج حابل	توشيج خابل	٢٩	برقاي	باراكايفسكايا
٩	ادمي	ادامي	٣٠	بس فر	كوسترومسكايا
١٠	حاتي قواي	خاتو كاي	٣١	تص غه ياقو	ياروسلافسكايا
١١	ولاب	ولياب	٣٢	وارب	وروب
١٢	صودجن حابل	شوف جينوفسكي	٣٣	تش تسي قود	اوبورنايا
١٣	يدجر قواي	يجيرو خاي	٣٤	صحة تشه فج	وروبسكي
١٤	كوش حابل	كوشي خابل	٣٥	تشه تون	لابينسك
١٥	حادجة مقو حابل	دون دوكوفسكي	٣٦	قانه قوة	كانوكوف
١٦	فدز	خودز	٣٧	بخة مبغو قال	بتروباقلوفسكايا

١٧	دجاجة	جيا جينا سكاي	٣٨	شه غوم	تيمر جوفسكاي
١٨	بيصره دجاجة	كيلير مسكاي	٣٩	قوجه وب	خوزد فيجينسكاي
١٩	صه تكو	شونتوك	٤٠	قه لاء	نوفو لابينسكاي
٢٠	ابزaxe حابل	ابادزيخسكاي	٤١	شه راخ	نيكرا سوفسكاي
٢١	داغستان	داغستانسكاي	٤٢	اييغة	اييغا
٢٢	ات قوادج	كراسنو بوليانا	٦٥	طومه قال	جولوفنيك
٢٣	ادلر	ادلير	٦٦	ج وبغو	دجو بغا
٢٤	خوبس	خوستا	٦٧	تشوه بس	ارخيبي اوسيوفكا
٢٥	مه صوست	ماتيستا	٦٨	بصاده	بشادا
٢٦	سوتش	سوتشي	٦٩	دجان خوت	دجان خوت
٢٧	ت غه مبس	داجومس	٧٠	خول جي	جيلينجيك
٢٨	له وب	لوو	٧١	قبرتاي	كاباردينكا
٢٩	صه وه لخو	سولوخ أول	٧٢	مست خاقوه	مس خاكو
٣٠	بزتش	بويتش	٧٣	تسنه مز	نوفو روسيك
٣١	بواب	فردان	٧٤	ابراغو	ابراو ديورسو
٣٢	حاجي	ياكورنايا شيل	٧٥	نت خوي	ناتوخايفسكاي
٣٣	صه خاب	جولوفنيك	٧٦	انابه	انابا
٣٤	توبه	توبي	٧٧	وست غاي	جوستا جايفسكاي
٣٥	تخا غا بص	كيوف	٧٨	كور كوي قال	فارينكو فسكاي
٣٦	قه له ج	كراسنو الكسنروفسك ي	٧٩	ابن	ابينسك
٣٧	ندجقو	نادجيغو	٨٠	يل	يلسكي
٣٨	غواقوة	جيور جيفسكوي	٨١	اف بس	افي بسكي
٣٩	بس صؤا به	لازار يغسكوي	٨٢	سوب	كالوجسكاي
٤٠	اشه	اشي	٨٣	بخه غو غال	ستافروبولسكاي
٤١	طوابس	طوابسي	٨٤	بس فاب	جوريانشي كليوتش
٤٢	اجوي	اجوي	٨٥	به قان	سارا توفسكاي
٤٣	بس به	بسي بي	٨٦	قوتاس	كوتاس
٤٤	خ د ج	خادجنسك	١٠١	وبن	وينسكاي
٤٥	ابصه ره ون	ابشيرونسك	١٠٢	شابسيغ	شابسوجسكاي
٤٦	ص تحال	بيلاريتشنسك	١٠٣	باته قال	نيجني باكان

٤٧	بجدغوقال	كراسنودار	١٠٤	به قان العليا	فيرخني باكان
٤٨	حاشتوك	يليز ابيتسكايا	١٠٥	اطه قوم	اداجوم
٤٩	حه مز	ماريا نسكايا	١٠٦	ن به دجاي	ينبردجايفسكايا
٥٠	جرونه حابل	جريفنسكايا	١٠٧	طس خاب	تينغينسكايا
٥١	حام تسي وو	فورونيجيسكايا	١٠٨	صحا تشه ري	كورغانينسكي
٥٢	له باب	اوست لابينسك	١٠٩	بيدا نقوه حابل	بيربير افنايا
٥٣	ال مه ل	لادوجسكوي	١١٠	تشورمت قوادج	شيميتوكفادج
٥٤	تمرقوه	تيمريوك	١١١	نه فت قال	نفتي جورسك
٥٥	مخوص	ماخوشفسكايا	١١٢	جانتيادي	جانتيادي
٥٦	بش تشو	بشي تشو	١١٣	يرمل قال	أرمافير
٥٧	شند جي	شيند جي			

نستنتج من مقارنة الاسماء الشركسية الاصلية للمدن والقرى والبلدات بالاسماء التي كانت السلطات الروسية تغيرها او تحرف لفظها بأن أكثر من ٩٢% منها قد حرفت او انها اخذت اسم روسي جديد وأن أكثر من ٦٠% منها تحمل اسماء روسية مغايرة كلياً للاسماء الشركسية الاصلية.



مواقع القرى الشركسية في جمهورية الأديغة في مرحلة ما بعد الاحتلال الروسي وحتى اليوم

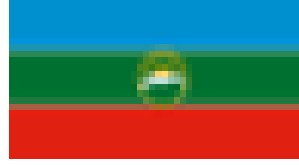
* جمهورية قراتشي - تشيركيسيا في شمال القفقاس

وهي ثالث (جمهورية) من حيث عدد سكانها من شراكسة الوطن الأم في شمال القفقاس وتشكلت في السنوات الأولى من تشكل الاتحاد السوفيتي وبعد القضاء على جيش القيصرية. وتحولت إلى جمهورية فيدرالية (اتحادية) في عهد روسيا الاتحادية

وفيما يلي بيان ومعلومات عامة عن جمهورية قراتشي تشيركيسيا



شعار قراتشاي - تشيركيسيا



علم قراتشاي - تشيركيسيا

* الموقع الجغرافي:

تقع في الجزء الأوسط الشمالي من القفقاس تحده من الشمال مقاطعة ستافروبول ومن الجنوب جمهورية ابخازية المستقلة وبالعرب مقاطعة كراسنودار وشرقا جمهورية كبادرينا بلقارية وتبلغ مساحتها ١٤,١٠٠ كم^٢.

• المناخ:

مناخها معتدل، بارد جدا في الشتاء ومتوسط البرودة في الهضاب ومتوسط الحرارة صيفا تتنوع طبيعة أراضيها فهناك المرتفعات الجبلية بقممها الثلجية من الجزء الاوسط لسلسلة جبال القفقاس. كما ان امطارها وفيرة وتسقط في الصيف.

• عدد السكان:

يبلغ عدد سكان قراتشاي تشيركيسيا ٣٧٠,٠٠٠ ، ١٢% منهم شراكسة وكان عددهم عند تأسيس الاتحاد السوفيتي حوالي ٢٤٢,٤٠٠ وعاصمتها (تشيركيسك).

• المجموعات الاثنية العرقية:

يتكون سكان المقاطعة من القوميات التالية: الشركس من البسلني والابازة والقراتشي والروس والنغوي.

• التضاريس الطبيعية:

غالبية أراضيها جبلية وتشكل الجزء الاوسط من سلسلة جبال القفقاس وتشكل الغابات ٣١% ، و ١١% من اراضيها زراعية، ٢١% مراعي خضراء والباقي مناطق جبلية.

أما عن الثروة المائية، فالجمهورية غنية بمصادرها بسبب تعدد الانهار مثل الكوبان، ينجج (الكبير)، ينجج الصغير اللابا ونهر تباردا، هناك العديد من الجمديات والبحريات وجدول المياه التي تشكل روافد للأنهر الرئيسة هذا بالإضافة إلى ينابيع المياه المعدنية والغازية والعلاجية الدافئة مثل مارا، كراسنوجوركا، باشازيان، كراستوفوستك ومياه نرزان الغازية الغنية بمكوناتها الصحية. هذا بالإضافة إلى خزانات طبيعية للمياه مثل: تشيريكيس وغيجوت الشرقية، ويبلغ مجموع مساحة مسطحاتها المائية ١٠٠,٠٠٠ متر مربع، كما يتصل وادي نهر تباردا بقناة ري ستافروبول والمنشأ عليها محطة كرومائية كبيرة لتوليد الطاقة.

• الثروات الزراعية والحيوانية:

يهتم سكان هذه الجمهورية بالثروة الحيوانية وتربية الطيور والدواجن والاعنام والابقار والخراف والغزلان والخيول ويمتلكون اكبر مساحات للبيوت الزجاجية على مستوى كل من روسيا

وأوروبا، وهي البيوت التي تنتج جميع أنواع الخضراوات، كما تنتج القمح والبطاطا وأنواع مختلفة من الفواكه والشمندر وعباد الشمس. وتتميز الثروة الحيوانية في هذه الجمهورية باتساع مراعيها ووفرة نباتاتها الرعوية، ويربون أنواعاً من الحيوانات مماثلة لتلك التي يربّيها سكان (جمهورية كبادردينا - بلقاريا) وبأعداد كبيرة جداً، كما أنهم يزرعون النباتات العطرية والزهور التي تستخدم في صناعة الأدوية والأعشاب الطبية التي تبلغ عددها ستة آلاف نبتة ولكل منها اسم خاص بها باللغة الشركسية، كما أنها مشهورة بتربية الخيول، حيث تشير الإحصاءات بأن سكانها يربون (٥٥) نوعاً من الخيول.

• المصادر الطبيعية والصناعات:

يستخرج من هذه المقاطعة الفحم الحجري والرصاص والزنك والنحاس، كما يوجد فيها مصانع للمكانات ومعالجة المعادن وأجهزة التبريد ويعتبر الرخام والجرانيت في هذه المنطقة من أجود الأنواع في روسيا.

هذا بالإضافة إلى مصنوعات السجاد والاثاث المنزلي وإنتاج كميات كبيرة من العسل والنباتات العطرية وأزهار الزينة والأعشاب الطبيعية.

• التربية والتعليم والثقافة والرياضة:

توفر المقاطعة خدمات التعليم العالي والتعليم العام والتعليم المهني والتقني مجاناً، وتقدم الخدمات المكتبية من خلال مراكزها الثقافية المتعددة كما يوجد المئات من الأندية الرياضية والثقافية والمسارح ومراكز الشباب والمعسكرات.

• الخدمات الطبية والعلاجية:

يوفر المسؤولون في المقاطعة جميع أنواع الخدمات الطبية والعلاجية مجاناً، ويوجد فيها أكثر من ٥٠ مستشفى وعيادة مزودة بالتجهيزات الطبية الحديثة ويقوم بخدمتهم آلاف الأطباء والممرضين والمرضات كما يوجد فيها مصحات ومنتجعات مثل مصح (تيبيردا) على أطراف المقاطعة يؤمها عشرات الآلاف للاستراحة والاستجمام.

* الجمهوريات والمقاطعات السوفيتية الأخرى التي عاش/ يعيش فيها شركاسة الوطن الأم في عهد حكم الاتحاد السوفيتي

لم يقتصر أماكن سكن شركاسة الوطن الأم على الجمهوريات والمقاطعات الثلاثة سابقة الذكر وإنما كان لهم انتشار في مختلف الجمهوريات السوفيتية عامة وفي الجمهوريات القوقازية خاصة.

وأشارت أكثر من دراسة بأن (٢٠-٢٥) ألف شركسي من شركاسة الوطن الأم عاشوا / يعيشون في أكثر من (١٥) جمهورية ومقاطعة وإقليم داخل الاتحاد السوفيتي نذكر منها:

(١) الجمهوريات والمقاطعات القوقازية: مثل أرمينيا، جورجيا، الداغستان، القالموق، أنجوش، أبخازيا، مزدوك، كراسنودار، وإقليم لازريفسكي، وأوسبينسكي.

(٢) الجمهوريات والمقاطعات السوفيتية الأخرى مثل موسكو، وأذربيجان وطاجكستان وكازخستان، وأكرانيا وأستونيا وأكومي، وبكونيا

يتمتع الشركاسة في مثل هذه المواقع السكنية بكامل حقوق المواطنة السوفيتية مثلهم مثل إخوانهم الذين يعيشون في الجمهوريات والمقاطعات الشركسية سابقة الذكر إلا أنهم لا يشعرون بأنهم يعيشون في مجتمع شركسي ولا يمارسون عاداتهم وثقافتهم ولغتهم القومية إلا داخل الأسرة أو العائلة الواحدة. وبالتالي فإن الغالبية العظمى منهم قد انصهروا في المجتمع الروسي الكبير أي أنهم (تروسوا) ما عدا الذين يعيشون في قرى متجاورة مثل الشابسوغ الذين يعيشون في إقليم كراسنودار.

• جمهورية أبخازيا المستقلة

الأبخاز شعب من الشعوب القوقازية القديمة وكان أحد فروع الأمة الشركسية في عصور ما قبل التاريخ وكان يطلق عليهم أشووين كما سبق الإشارة إليها في هذه الموسوعة، وتشعب (الأشوووين) في القرون الأولى ما بعد البلاد إلى: الأبخاز والأبازة (الابازين).

فالأبخاز هم الشعب الذي سكن حالياً في جمهورية أبخازيا ويتكون هذا الشعب من حوالي سبعة قبائل رئيسية وهي:

- البزيبية (Bzibe) وهم جيران الأوبيخ من الجنوب.
- الأخيبس (Akhips): ويمتد سكنهم من سوخوم (Soukhoum) حتى كاييتي (Kabeti).
- الأيبغا (Aibga) وهم القاطنون على ضفاف نهر كودور (Kodor).
- الزامبال (Zambal) وهم الذين يدعواهم الروس باسم تزيبيلدينتزي (Tzeblidintzi) ويقيمون في وديان كودور (Kodor)، ودال (Dal).
- الخربيس (Khripis) وهم يجاورون السوان (Svanes) من الشرق.
- التشاجي (Tchaji) ويقطنون ضفاف آغر (Aghir) ومارمار (Marmar).
- السادرة (Sadze) (أو الزادس Zads حسب قول كلايرون) ويسكنون على ضفاف نهر اوخوم . Okhum

أما الأبازة (ابازين) الذين يسميهم الأبخاز عموماً باسم أشو (Acho) أو آيسغاتس (Apsgatch) فإن المؤرخين يتحدثون عن نظريتين عن أصلهم وانتمائهم الإثني.

فالنظرية الأولى: تشير إلى أن الأبازة من فروع الأبخاز الذين سكنوا في الأصل جنوب القفقاس بين طوابسه ونهر بزيب Bzyb ، أما النظرية الثانية فتقول أنهم كانوا يشكلون مع الأوبيخ مجموعة إثنية فرعية ثالثة انبثقت عن شعوب (الأديغة - أبازة) قبل القرن الثامن عشر ومهما كان الواقع فإن بعض المصادر تشير إلى وجود أرض كانت تعرف باسم أبازة Abasa في شمال غرب القفقاس في أواخر القرن الرابع عشر. وإن قبيلة واحدة على الأقل كانت موجودة في شمال غرب القفقاس سنة ١٧٥٠م.

وفي نهاية القرن الثامن عشر تشكل شعب الأبازة من مجموعتين كبيرتين هما: شمالية وجنوبية.

فالمجموعة الشمالية، كانت مقسومة إلى مجموعتي التابانتا Tapanta والشخارواوا Shakharaawa وكان الشخارواوا يعيشون على طول نهر مالي زيلينشوك وفي المنطقة الواقعة غرب أنهار اللابا وأوروب وفارس ويبدو أن أولئك الذين سكنوا على نهر فارس انصهروا في القبائل الشركسية المجاورة لهم.

وأما مجموعة التابانتا، فتكونت من ستة قبائل منها ال Lowow التي عرفت فيما بعد بـ ال Loov وكانت الأكثر عدداً وكان يحكمها خمسة عائلات أرستقراطية وعاشوا في القرن الثامن عشر على طول أنهار الكوبان والمالكا والكوما إلا أنهم هربوا سنة ١٧٨٦م إلى المنايع العليا للكوبان والكوما، وانقسموا بعد زمن إلى مجموعات اختارت كل منها مساراً خاصاً بها، فقد هاجر البعض إلى الضفة اليمنى من الكوبان وارتضوا التبعية لروسيا، وهرب بعضهم إلى الجبال، وفي سنة ١٧٩٤م وصل عدد قبائل اللوو حسب بعض التقديرات إلى ٥,٢٨٨ شخصاً.

وأما قبيلة البيبردو Biberdo التي تعيش الآن في جمهورية القرشاي - شركسي يعرفون باسم Elburgans التي كان أفرادها يعيشون حول نهر أوروب سنة ١٧٢٥م وظلوا ينتقلون طوال

القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر وحتى عام ١٨٣٤م عندما استقروا في موطنهم الأصلي من جديد حول مدينة Psyzh .

وكذلك فإن قبيلة جانتيمير Jantmir التي وصل تعدادها عام ١٧٩٤ م إلى (٤,٢٦٤) كانت في أعالي نهر كوما ولكنها هربت إلى المنطقة الجبلية عام ١٨٠٤، ثم عادت إلى موطنها الأصلي حيث ذابوا تدريجياً مع شعب القبردي، وأما قبيلة الميسيلباي (Mysylbai) وأكبر قبائلها التي كان الروس يسمونها Bashilbai عاشت في حوض نهر أوروب وكان بإمكانهم تجهيز جيش من (٧,٥٠٠) رجل في عام ١٧٣٠م، ومن قبائل الأباطة أيضاً قبائل التام Tam وكيزيلبيك التام Tam وكيزيلبيك Kyzylbek والتشيرجي Cherge التي عرفها الروس باسم Shakhgire عاشت على طول نهر بولشايا لبا حتى عام ١٨٣٤م عندما قبلوا التبعية الروسية وهاجروا إلى الأراضي المنخفضة، ثم هربوا عام ١٨٥٨م إلى الجبال وظلوا هناك حتى نهاية الحرب الروسية - الشركسية، وقبيلة البراكاى Barakai وغيرها من القبائل.

وأما المجموعة الثانية لشعب الأباطة: فهي المجموعة التي تكونت من عدد من القبائل، وهي المجموعة التي تعيش على سواحل البحر الأسود قرب نهري بسوا Psou و Bzyb قرب مدينة أدلر وكانوا على اتصال مباشر مع الأبخاز والأويخ ومع قبيلة الشابسوغ، وعددهم سنة ١٨٣٠ كان سبعين ألفاً.

المعلومات المتوفرة عن أباطة الجنوب والأويخ بأن الحروب أهلكتهم واضطروا للهجرة إلى الخارج عامة وإلى مصر خاصة حيث يعيش منهم اليوم في مصر حوالي (٤٠) ألف كما يقيم الآلاف منهم في بلاد المهجر في كل من تركيا وسوريا والأردن.

وبالرغم من تعرض شعبي الأبخاز والأباطة إلى الهلاك والتشتت داخل وخارج الوطن الأم فإن القسم الذي يعيش منهم على أرض الوطن يشكلون جمهورية أبخازيا المستقلة.

• موقع الجمهورية وحدودها:

تقع على القسم الأوسط من القفقاس الشمالي وعلى الساحل الشرقي للبحر الأسود جنوباً وتحدها القمم الثلجية من سلسلة جبال القفقاس وجمهورية تشيركيس قراشاي في الشمال وجورجيا شرقاً.



شعار أبخازيا



علم أبخازيا

• مساحة الجمهورية وطبيعة أراضيها ومناخها

مساحتها ٨٦٠٠ كلم ٧٦% منها ذات طبيعة جبلية وكلما اتجهنا جنوباً نحو شاطئ البحر الأسود تنخفض أراضيها وتكثر بها الودية العميقة والتي جري بها المياه شتاءً وفي الهضاب العالية طقس معتدل في حين على الشريط الساحلي يكون حاراً ورطباً صيفاً ومتوسط الحرارة حيث تمتاز طبيعتها الجغرافية بتنوع كبير. ويوجد فيها عدد من المنتجعات للراحة والاستجمام والعلاج على مدى العام وأشهرها هي جاجرا، جوديت، اوشامشيرا، بتسوندا، نوي أفون.

• عدد سكان الجمهورية:

كان عددهم قبل استقلالها عن جمهورية جورجيا في عام ١٩٩٩ ٥٤٠,٠٠٠ نسمة وهرب خلال حرب أبخازيا مع الجورجيين حوالي ٢٠٠,٠٠٠ نسمة حيث أصبح عددهم حالياً حوالي ربع مليون

نسمة يمثل الابخاز (الشركس) حوالي ٩٠% ابخاز مسلمون والباقي هم من قوميات أخرى تمثل الروس، والاوكرانيين والأتستين والأرمن:

• مدن وقرى الجمهورية:

تتكون الجمهورية من العاصمة سخومي، ومدينة تكاورش وهي ثاني اكبر مدينة وتعد مركزاً صناعياً كما يوجد في الجمهورية حوالي (٥٨٥) بلدة وقرية نذكر منها البلدان التالية: إيشيرا وأزيوبشا وتاميش، واتاوا، وأبخازكايا، ولابرا، وكوتول، وكيندك وكوتشارا، وشلو وأراسيا دزيخ، وميروكول.

• الاقتصاد والثروة الزراعية في الجمهورية

تعاني الجمهورية من الدمار الذي أصاب اقتصادهم والسياحة بعد حرب الاستقلال عن جورجيا والتي استمرت سنوات طويلة وانتهت باستقلالهم في يوم ١٢ أكتوبر من عام ١٩٩٩.

وتشتهر الجمهورية بإنتاج الشاي والليمون والبرتقال والتبغ والفواكه والحمضيات خاصة المندرين بالإضافة لبساتين الكروم، كما تشتهر بنباتات الزينة وبالنباتات شبه الاستوائية.

وأما بالنسبة للثروة الحيوانية فإن الجمهورية تشتهر بتربية الابقار والاعنام والدواجن، كما تشتهر بتربية النحل ونتاج العسل من اجود الانواع.

• المحميات الطبيعية في الجمهورية

تشتهر الجمهورية بتعدد محمياتها الطبيعية وجمالها حيث يوجد فيها أربع محميات رئيسية وعدد آخر من المحميات الصغيرة حيث تعرضت هذه المحميات إلى أضرار كبيرة نتيجة تعرضها للدمار خلال الحرب الابخازية الجورجية... ومن أهم تلك المجموعات هي:

* محمية بسخو - غوميستا * محمية موكفا * محمية تسيليدا * محمية أنا كوب .

• التعليم والتعليم العالي في الجمهورية:

يوجد في الجمهورية مئات من المدارس للاطفال ما قبل المدرسة (الحضانة) كما يوجد فيها مدارس بالمئات للتعليم العام والدراسة فيها مجانية.

وأما بالنسبة للتعليم العالي والبحث العلمي فيوجد في الجمهورية جامعة وهي جامعة ابخازيا الحكومية، كما يوجد فيها معاهد لتدريب وتأهيل المعلمين.

وفي مجال البحث العلمي فيوجد في الجمهورية معاهد تحظى بسمعة عالية منها المعهد الفيزيائي التكتيكي ومقره العاصمة سخومي، كما يوجد فيها معهد الأمراض السارية والباطنية التابع لأكاديمية العلوم الطبية في موسكو.

• الثقافة والفنون في الجمهورية:

تعتبر جمهورية ابخازيا من أكثر جمهوريات شمال القفقاس اهتماماً بالثقافة والفنون والتراث والآثار فيوجد فيها العشرات من المراكز الثقافية كما يوجد فيها:

• المركز الوحيد والمكتبة المختصة بأبخاز والذي يحمل اسم (د. ي غوليا) وهو المركز المختص باللغة والادب والثقافة والتاريخ الابخازي ويضم المركز وثائق تاريخية وأرشيف صور ومخطوطات وتسجيلات ثقافية وفلكلورية نادرة.

• متحف ابخازيا الحكومي: وتضم المتحف أكثر من (١٠) الاف قطعة اثرية استخرجت من اكثر من ٥٠٠ قبر لاجداد الابخازيين و(٣٠) قطعة نقود رومانية /بيزنطية فضية ونحاسية هذا

بالإضافة إلى (١٠) الاف قطعة متنوعة من العقيق والكهرمان والزجاج والكريستال وغيرها من الانواع العديدة من الخرز المصنوع من الذهب والفضة والبرونز كما يوجد منها الاف القطع الاثرية التي تم العثور عليها في ابخازيا عامة وفي منطقة سوتشي خاصة خلال السنوات ١٩٧٦-١٩٩١.

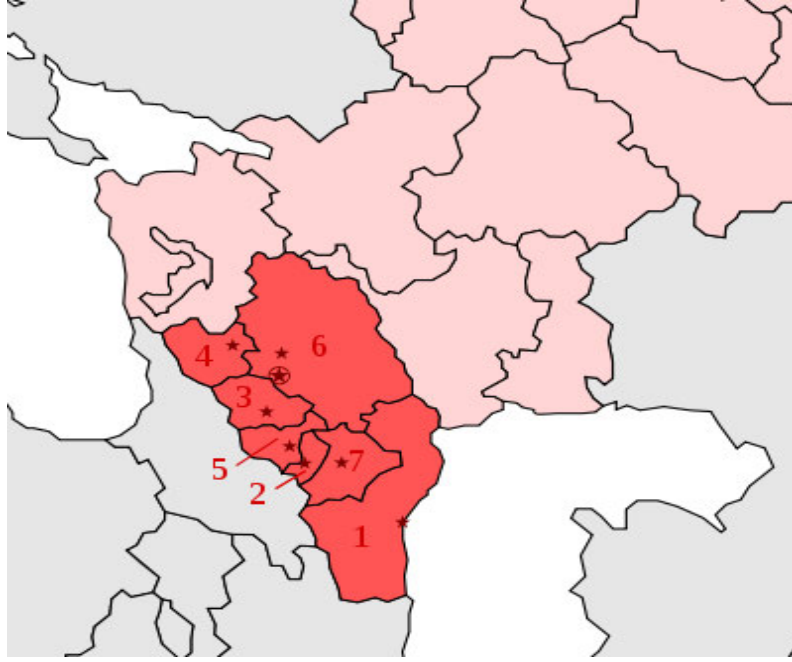
- وفي مجال المسرح والفنون يوجد في الجمهورية عدداً من المسارح ومعاهد الفلكلور عامة والموسيقى خاصة.

اقلیم (دائرة) شمال القوقاز الفيدرالية

اضافة إلى الجمهوريات الاربعة سابقة الذكر قرر الرئيس الروسي وبشكل مفاجئ يوم ١٩ يناير من عام ٢٠١٠ انشأ إقليم اداري/ اقتصادي جديد تحت مسمى (دائرة) شمال القوقاز الفيدرالية وتضم الجمهوريات السبعة التالية:

الرقم	نوع الكيان الاداري	الاسم	العلم	الشعار	المركز الاداري	الدائرة الفيدرالية	المنطقة الاقتصادية
١	جمهورية	داغستان			ماخاتشكالا	شمال القوقاز	شمال القوقاز
٢	جمهورية	انغوشيا			ماغاس	شمال القوقاز	شمال القوقاز
٣	جمهورية	كاباردينو - بالكاريا			نالتشيك	شمال القوقاز	شمال القوقاز
٤	جمهورية	قراتشاي - تشيركيسيا			تشيركيسك	شمال القوقاز	شمال القوقاز
٥	جمهورية	أوسيتيا الشمالية - ألانيا			فلاديكافكاز	شمال القوقاز	شمال القوقاز
٦	كراي	ستافروبول			ستافروبول	شمال القوقاز	شمال القوقاز
٧	جمهورية	الشيشان			غروزني	شمال القوقاز	شمال القوقاز

والخارطة التالية تبين المواقع الجغرافية لتلك الجمهوريات التي تضم اعداد كبيرة من الشعوب الاسلامية القوقازية وهي: القبرطاي والاديغي من الشراكسة والدغستان متعددة القوميات والشيشان والانجوش والقراتشي والبلقار والمسلمين من الاستين:



خارطة تبين مواقع الجمهوريات السبعة الحكومية لأقليم شمال القوقاز الفيدرالية مرتبة حسب التسلسل في الجدول السابق

مبررات انشاء الاقليم: كانت شمال القوقاز من اكثر مناطق روسيا اشكالا، وبما ان معظم مشاكل هذه المنطقة تكمن جذورها في ضعف الاقتصاد وعدم ثقة المواطنين فيها في مستقبلهم.. فإن السياسيين والاقتصاديين الروس المختصين توصلوا إلى قناعة بأن حل مشاكلهم الاقتصادية والإدارية والاجتماعية هو بانشاء اقليم خاص بهم في محاولة منهم جذب مشاريع استثمارية خارجية من اجل حل مشاكلهم الاقتصادية وتحسين مستوى المعيشة لمواطنيها.

إلا ان بعض المقربين من السياسيين في الكرملين يعتقدون بأن سبباً آخر وراء انشاء هذا الاقليم وهو تنامي الشعور القومي لسكان تلك الجمهوريات والرغبة في التحرر والاستقلال وهي مشاعر لا يمكن مواجهتها بالقضية الامنية وانما بالتنمية الاقتصادية والرقابة الادارية المتعمقة ويتضح هذا التوجه من اختبار السلطات الروسية لشخصية اقتصادية / ادارية، كبيرة وهو:

(الكسندر خلوبونين) المحافظ السابق لأقليم (كراسنويارسك) وهو من اغنى وانجح الأقاليم الروسية من الناحية الاقتصادية وتولى خلوبونيين في الوقت ذاته منصب نائب رئيس الوزراء في الحكومة الروسية ويعتبر (الكسندر) رجل إداري (محنك) ومن الطراز الأول كما يعتبر رجل اعمال محنك حيث استطاع ان يكون ثروة كبيرة عندما كان يمارس الاعمال الحرة والتجارة، وكانت خطوة ذكية من القيادة الروسية بتعيين رجل إداري / اقتصادي بدلا من تعيين رجل عسكري يفرض سلطته باستخدام القوة وسياسة البطش وهناك رأي ثالث حول الاسباب التي أدت بحكومة روسيا الفيدرالية لانشاء اقليم شمال القوقاز ويتلخص هذا الرأي بالمقال الذي نشره موقع مؤسسة جيمس تاون الالكتروني على موقعه بتاريخ ٢٦ يناير/ كانون الثاني ٢٠١١ للكاتب والمحلل السياسي المعروف (بول غوبل) بعنوان "أهم تطور في شمال القوقاز في عام ٢٠١٠ قال فيه: بدء الروس في الحديث عن مغادرته" أي مغادرة شمال القوقاز.

ونستنتج من هذا المقال بأن عددا متزايدا من الروس الذين خلصوا إلى ان التكاليف - الاقتصادية والسياسية والإنسانية للإبقاء على شمال القوقاز داخل حدود الفيدرالية الروسية مرتفعة جدا وأنه نتيجة لذلك، يتعين على روسيا ان "تفصل" المنطقة عنها. وان الرأي العام الروسي توصل

إلى قناعة بأن شمال القفقاس لا تستحق كل هذه التضحيات، وإن الوقت قد حان لايقاف ضخ الاموال داخل (الثقب الاسود) ويقصدون به منطقة القفقاس الشمالي.

كما يعتقد (الروس) بأنهم ينفقون الكثير من ثرواتهم على تطوير الشعوب غير المتعاطفة معهم ابدأً ويقصدون بذلك الشعوب من القومية غير الروسية عامة والقوميات القوقازية الإسلامية خاصة.

ولاقى تشكيل هذا الاقليم استحساناً من زعماء الجمهوريات التي تكونت منها هذا الاقليم باستثناء زعماء شراكسة الوطن الأم من القبرطاي والبسلني والشابسوغ والاديغي الذين اعترضوا على عدم ضم جمهورية الاديغي لهذا الاقليم وفسروا هذا القرار بأنه موجه ضد فكرة احباء جمهورية شركسية مشتركة في شمال القوقاز.

الفصل الرابع

المواقف الداعمة والادوار الايجابية للسلطات الشيوعية المحلية والاتحادية في حياة شركاسة الوطن الأم في ظل حكم الاتحاد السوفيتي (١٩٢٠-١٩٩٢)

لعبت القيادات السياسية والفكرية والثقافية والادبية من شركاسة الوطن الأم وبدعم مباشر او غير مباشر من السلطات الشيوعية في الاتحاد السوفيتي ادوار ايجابية في تطوير وتحسين الاوضاع المعيشية لشركاسة الوطن الأم في مختلف مجالات الحياة العامة كما كان لهم الفضل في الحفاظ على التراث الثقافي والادبي والفلكلوري القومي الشركسي وتطويرها والوصول بها إلى المستويات الاقليمية والعالمية.

وفيما يلي نماذج من الادوار الايجابية واشكال من المواقف الداعمة لمختلف مجالات وابعاد حياة العامة شركاسة الوطن الأم في الجمهوريات الشركسية الثلاثة:

أصبحت الاوضاع المعيشية لشركاسة عامة وأوضاعهم الاجتماعية والثقافية والادبية خاصة في عهد الحكم السوفيتي الشيوعي أفضل بكثير عما كان عليها اوضاعهم في العهد الروسي القيصري في أكثر من مجال وبعد من أبعاد الحياة نذكر منها:

(١) **بُعد الثقافة والفكر والادب:** تطورت الثقافة القومية في العهد الشيوعي وإن كانت ثقافة موجهة لخدمة النظام الشيوعي، وكذلك بالنسبة للاداب، حيث اهتم الشيوعيون بالادب القومي والأدباء عامة، وأنشأوا لهم اتحادات ونقابات أدبية وخصصوا جوائز قيمة للمبدعين من الأدباء والكتاب في مختلف المجالات الادبية والثقافية الفكرية الشركسية وغير الشركسية.

(٢) **بُعد الفلكلور القومي الشركسي:** تطور الفلكلور الشركسي المتمثل بالرقص والموسيقى والفنون عامة بشكل ملحوظ حتى أصبحت فرق الرقص الشركسي من أشهر الفرق الفلكلورية في العالم مثل فرقة البروز وفرقة كبادينا بلقاريا.. الخ. كما تطورت الموسيقى الشركسية بشكل كبير واستخدمت فيها الات موسيقية عديدة كما اصبحت تدرس في المعاهد الفنية المتخصصة.

(٣) **بُعد العادات والتقاليد والاعراف:** حافظ شركاسة الوطن الأم على عاداتهم وتقاليدهم (الادبغة خابزة) التي تتفق مع تطور المدنية والحضارة وإن كانت هذه المحافظة كان اضعف عند الشركاسة الذين يعيشون خارج التجمعات السكنية في المدن والقرى والبلدات الشركسية.

(٤) **بُعد اللغة القومية:** استطاع شركاسة الوطن الأم المحافظة على استخدام اللغة الشركسية بلهجاتها المتعددة كما تمكنوا من تطويرها لتصبح لغة علم وأدب تدرس في المدارس العامة وفي الجامعات والمعاهد العلمية.

(٥) **بُعد الشباب والرياضة:** اهتم الشيوعيين برعاية الشباب في جميع انحاء الاتحاد السوفيتي عامة وفي الجمهوريات القفقاسية خاصة، فأنشأوا المراكز الرياضية والمنشآت الاولمبية حتى أصبح الاتحاد السوفيتي المنافس الرئيسي للولايات المتحدة الامريكية في البطولات الدولية والاولمبية. وكان للابطال من اصول شركسية نصيب وافر في الفوز بالميداليات الذهبية في الدورات الاولمبية، خاصة في رياضة المصارعة ورياضات الدفاع عن النفس والفروسية وغيرها.

(٦) **بُعد الصناعة والزراعة:** اثار (كارل ماركس) في أحد مؤلفاته تحت عنوان الأهمية الاقتصادية والعسكرية والسياسية للقفقاس قائلاً: من الصعب تقدير أهمية القفقاس في حياة الدولة السوفيتية، فقد أدى وجود الاحتياطات في باطن الأرض وظاهرها إلى جعل القفقاس مصدراً هائلاً للمواد الخام الصناعية، كما كان (لينين) يعتبر بلاد القفقاس من أغنى المناطق السوفيتية في انتاج القمح والذرة والتبغ والعنب والحمضيات والزيتون والشاي^(١٠٨).

٧) **بُعد التعليم العام والتعليم العالي:** تطور التعليم عامة واصبح الزاميا بالإضافة لإنشاء الجامعات والمعاهد العلمية في التخصصات المختلفة، وان كان التدريس فيها باللغة الروسية، بالإضافة إلى تدريس اللغة والأدب الشركسي، مع منح الدرجات العلمية العليا فيها، كما كان التعليم مجانياً لكل الدارسين في المدارس والجامعات والمعاهد العلمية. ولعب عدد من العلماء الشركاسة ادواراً بارزة في أكثر من مجال من مجالات العلوم التطبيقية مثل الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء.

٨) **بُعد الحرف المهنية والاشغال اليدوية:** استمر الشركاسة في مزاولة الحرف المهنية والاشتغال بالصناعات الخفيفة اليدوية والشبه (آلية) التي سبق مزاولتها حتى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وبعد ذلك بدأ الشركاسة يتحولون تدريجياً عن مزاولة المهن القديمة والاشتغال بالصناعات اليدوية التقليدية سنة بعد سنة، كنتيجة حتمية لتطور الصناعات في روسيا، وظهرت صناعات كبرى، ومهن تخصصية في المناطق التي يسكنها الشركاسة، وتحول قسم منهم لمزاولة مهن جديدة تتطلبها طبيعة المصانع الكبرى التي انتشرت في القفقاس، مع بقاء الغالبية من شركاسة الوطن الأم تعمل في المهنة الرئيسية للشركاسة في (أوقات السلم) وهي الزراعة والرعي فأصبحت المهن القديمة والصناعات اليدوية جزءاً من التراث الفلكلوري المهني الشركسي، كما أصبحت تسوق كهدايا تذكارية للسياح والزوار الأجانب.

٩) **بُعد الزخرفة والنقش والنحت والتطريز:** حافظ شركاسة الوطن في الجمهوريات الشركسية الثلاثة على فنون الزخرفة والنقش عامة مثل الزخرفة على القامات (السيوف) الشركسية والطبنجة (المسدس) ... الخ. والزخرفة على السيراميك والقماش والفخار. والنقش على الأسلحة واشغال الصياغة.

١٠) **البُعد الصحي:** اهتم السوفيت بصحة المواطنين عامة وأصبح جميع المواطنين مؤمنين صحياً ولجميع الفئات من الطفولة وحتى الشيخوخة.

١١) **مجال الامومة والطفولة،** ربما كان الاتحاد السوفيتي من أكثر الدول اهتماماً بالطفولة والامومة منذ النصف الثاني من القرن العشرين، فأنشوا مراكز الطفولة والامومة واهتموا بصحة الام والطفل، وكانت من اولويات البرامج الصحية والثقافية في الاتحاد السوفيتي عامة وفي القفقاس خاصة هي رعاية الامومة والطفولة.

وفيما يلي دراسة لواقع كل مجال وبعُد من الابعاد سابقة الذكر التي كان للسلطات المحلية والاقليمية والفيدرالية الروسية أكثر من دور إيجابي في المحافظة على اصالتها اولاً ودعم تطويرها ثانياً.

أولاً: البُعد الثقافي والادبي والفكري الشركسي والتحولت التي طرأت عليها في عهد حكم الاتحاد السوفيتي في المجتمعات الشركسية في الوطن الأم ١٩٢١-١٩٩٠.

الدارس لتاريخ البعد الثقافي والادبي والفكرية في حضارة الأمة الشركسية منذ عصر ما قبل التاريخ وحتى العصر الحديث يجد بأن هذا البعد قد تطور تطوراً كبيراً في مجتمعات شراسة الوطن الأم في عهد حكم الاتحاد السوفيتي الممتد من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٩٢.

ويتمثل هذا التطور من تعدد المنشورات والمؤلفات التي صدرت في هذه المرحلة في كل فرع من فروع التراث الادبي الشركسي وهي:

- * الاساطير وملاحم النارتيين
- * الدراسات التاريخية.
- * الشعر والغناء والانشيد
- * الدراسات الأدبية.
- * المسرح والتمثيل
- * ادب اللغة.
- * الحكايات والقصص.
- * الامثال والحكم.

توصلنا في دراستنا لبعد التراث الثقافي والادبي في حضارة الأمة الشركسية التراكمية بأن هذا التراث ظل تراثاً (شفويًا Oral) حتى أواسط القرن التاسع عشر، وبدأ يتحول إلى أدب مكتوب بعد إحياء الكتابة باللغة الشركسية في الأربعينيات من القرن التاسع عشر.

وفي عهد الاستعمار الروسي القيصري الذي امتد من عام ١٨٦٤ وحتى عام ١٩١٧ لم يتطور أي فرع من الفروع الأدبية وإن ظهرت بعض المحاولات في كتابة تاريخ الشراكسة وكذلك محاولات أخرى في تدوين قصص النارتيين (لخان البري) في عام ١٨٤٤ بعنوان أساطير الشركس وكذلك صدور أول كتاب عام ١٨٦١ يحوي عدد من أناشيد سوسروقة النارتيين.

وفي عهد حكم الاتحاد السوفيتي شهدت المجتمعات الشركسية في الوطن الأم طفرة كبيرة في جميع فروع الأدب الشركسي وإن هذه الطفرة تمثلت بصدور أعداد كبيرة من المجلدات والمؤلفات والدراسات في كل فرع من فروع الأدب الشركسي والتي يمكن تلخيصها على النحو التالي:

الفرع الأول وهو: ادب اساطير النارتيين والملاحم الشركسية في عهد الحكم الشيوعي والتحولت التي طرأت عليها

صدر أكثر من عشرة أعمال أدبية حول القصص والأغاني والملاحم وأساطير النارتيين في الجمهوريات الشركسية الثلاثة في عهد الاتحاد السوفيتي نذكر منها الاعمال التالية:

- عام ١٩٤٠ صدر أول كتاب للأساطير في (مايكوب) بإشراف (كراشه تيمبوت) بعنوان: (الأغاني الشركسية القديمة)، كما صدر كتاب: (الموروث والأغاني الشركسية).
 - وفي عام ١٩٤٥ صدر في (نالتشيك) كتاب أساطير النارتيين، وتلاها صدور الكتاب الثاني بنفس العنوان .
 - في عام ١٩٤٨ صدر الكتاب الثالث بعنوان: (أسطورة سوسروقة النارتية)، للشاعر (شوجن تسوك آدم) ثم صدر كتاب رابع بعنوان (النارتيون) عام ١٩٥١ والكتاب الخامس (أديغة أورا أوتا) في جزأين خلال الأعوام (١٩٦٣، ١٩٧٠)
 - قام الأكاديمي (حاددة غالة اسكر) بعد عمل أكاديمي استمر عشرين سنة بإصدار: (موسوعة النارتيين) في سبعة أجزاء ونشرت في (مايكوب) عاصمة جمهورية الأديغة في الفترة من (١٩٦٨ إلى ١٩٧١). وكان سبق له أن أشرف على إصدار كتاب (نارت ملحمة البطولة والجذور) في كراسنودار عام ١٩٦٧ باللغة الروسية .
 - قام (حميد قارموقة) عام ١٩٧٤ بنشر دراسة قيمة حول ملاحم النارتيين ضمنها كتابه بعنوان (الكاتب والعصر) وفي نفس العام صدر في موسكو بإشراف كل من أكاديمية العلوم السوفيتية غوركي للآداب، ومعهد أبحاث العلوم الاقتصادية والتاريخ الشركسي في كل من نالتشك ومايكوب كتاب (نارت) مؤثقا باللغتين الشركسية والروسية..
 - عام ١٩٧٩ صدر كتاب الفلكلور الشركسي باللغتين الشركسية والروسية بإشراف (آدم غوت) وآخرين.
 - عامي ١٩٨٠ - ١٩٨١ على التوالي صدر الجزأين الأول والثاني من كتاب (الأغاني والالزامات الشركسية القديمة) التي كانت تتردد نصوصها في ملاحم النارتيين منذ القدم^(٤).
- كما قام كل من كوبا شعبان وإبراهيم تسي، ود. ا. اشخامات، وتمبوت قراشيف، وبكميرزا نغموقة، ور. ميركيكي، وبشيتوكو والماس أولادين بجمع وتصنيف قصص (النارت) في هذه المرحلة من تاريخ شراكسة الوطن الأم.

الفرع الثاني وهي: الاغنية، والانشيد والشعر الشركسي في ظل الحكم الشيوعي

ربما كان الشراكسة أكثر الشعوب في العالم اهتماماً بأدب الاغاني والانشيد الوطنية منذ القدم تدور حول مواضيع وصراعات ملموسة وهامة وحيوية مثل: الحب العميق الذي يكتبه الشركسي لأرض وطنه، وتضحية ابطال وشجاعتهم في الحروب ومساعدتهم للضعفاء ودفاعهم عن المظلومين، وقوة احتمالهم أثناء الحروب، وسرعة بديتهم في الازمات، وحزمهم وشجاعتهم في المعركة. وما أن يقترب العدو من البلاد يسرع الجميع لميادين القتال شبيبا وشبابا.

ربما كان افضل من كتب الاغنية الشركسية وانشيدها هو (كوبا شعبان) وكذلك الباحث الشركسي (اديغة) الذي قسم الأغاني إلى: اغاني بطولية وتاريخية، وطقوسية وغرامية وجنازنية، وكذلك اغاني للحرارة والحصاد، والزواج والرقص، وكانت تلقى في الاحتفالات العامة والعائلية بمرافقة الاوركسترات الوترية واللاكورديون والالات الموسيقية الشركسية الاخرى.

هكذا فإن ادب الاغاني والانشيد الشركسية تطورت تطوراً كبيراً ابان حكم الاتحاد السوفيتي وبرز عدد كبير من كتاب الاغاني كما اشتهر العشرات من المنشدين والمغنين والمغنيات والملحنين وبدأ تقديم الاغاني والانشيد في العهد السوفياتي بما يتناسب مع الايديولوجية الشيوعية السائدة. والانتقال من ألحان الحزينة والجنازنية، التي عبرت عن غضب الجماهير في ظل الحكم الاستبدادي للأمراء الاقطاعيين الذين اغتصبوا واضطهدوا تلك الجماهير، وأهمها الأغنيات الشعبية التالية:

سرماخوه Sermazwe ، جواسغاغة Gwascheghahga ، أدیغو Adiyxaw

واضطر المؤرخون الجدد إلى الاعتراف بأن الأغنية الشركسية لم تكن جميعها من النوع الكئيب. حيث وصلتنا الألحان الموسيقية الكلاسيكية منها: أغنية انديميرقان، مارتينا، داملي عريض المنكبين، أبناء "Bezeth" من بين ألحان كثيرة أخرى. كما توافرت ايضا مجموعة كبيرة من الأغاني والحكايات الهزلية الغنائية، والأغاني المسرحية ذات الرمز الأخلاقي، وجميعها كانت ساخرة وذات روح مرحة، وتعكس الروح المرحة الجديدة للشعب، ومن بين أغاني المزاح الشعبية أغنية: "كوبس، ذات الكلمات الخفيفة والموسيقى المرحة، وأغنية سيي باق Siy Paq بمعنى أنفي الاطفس"، الكلاسيكيتان. كما استمر عمل المغنين المتجولين (جه-كواكة -Jegwakwe) حتى الثلاثينات من القرن العشرين وكان من أشهر المغنين المتجولين هم: لاشي اغنوقة Lasheaghonqwe- ، وأسعد شوجن As-hed schojen ، وموسى مَرَحِي Muse Mizhey ، وأسعد حاكوباشا Ashed Haxwpasch'e (٢٨).

والباحث في تاريخ الاغنية والانشيد الشركسية في عهد الاتحاد السوفيتي يجد بأنه مرت في خمس مراحل وهي: (١) مرحلة الحرب العالمية الاولى (٢) مرحلة التعاونيات الزراعية (كولخوزات) (٣) مرحلة الحرب العالمية الثانية (٤) مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية (٥) المرحلة الحديثة التي بدأت منذ النصف الثاني في الخمسينات من القرن العشرين.

ففي المرحلة الاولى الممتدة من ١٩١٧-١٩١٩ جرى تأليف الأغاني على أساس: إما الحان الملاحم البطولية القديمة، وإما ألحان مماثلة لجعلها أكثر استقطابا. ومهما يكن من أمر، فقد ألّفت بعض الأغاني باستعمال ألحان جديدة. ومن بين أغاني هذه المرحلة: أغنية الخبز غير المخمر (دون خميرة)، سيرغو اورجونيكيزة، جيس هماشى Ches Hemashe.

وفي المرحلة الثانية وهي مرحلة "البناء الاجتماعي"، كُتبت كلمات الأغاني لتعكس فرح الناس، وكانت هذه الأغاني شبيهة بأغنيات الرقص، لكنها بإيقاع ودرجات سريعة جديدة. وفي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، تأثرت الأغاني الشركسية بالأغاني الروسية التقليدية، وبالمؤلفين من السوفييات الروس، وبالشعوب المجاورة، في الوقت الذي بدأت الوحدة الثقافية تأخذ مجراها، وساعد في ذلك انتشار الراديو. فتم التكيف مع أشكال جديدة، ليس في اللحن فقط، بل في كلمات الأغاني الشعبية ايضا. ووجدت هذه التغيرات تعبيراً عنها في الأغاني الوطنية والقصص

والأشعار الغنائية. وفي السابق استخدمت في معظم الأغاني ثلاثة مقاطع، وفي الأغاني الجديدة في هذه المرحلة استخدمت أغاني من أربعة مقاطع.

وكان من أشهر المغنين في هذه المرحلة (Amirxan Hexwpsach'e اميرخان هيخوباشا) الذي لحن أغنية (لينين) في مناسبة وفاته عام ١٩٢٤.

وفي الثلاثينات، وفي ذروة مرحلة التعاونيات الزراعية، نظم (اميرخان) قصيدتين غنائيتين قصيرتين، يشيد فيهما هذه المرحلة بالعنوانين التاليين: "كن صادقاً مثل كلمتك"، و "أغنية الكولخوز" وفي عام ١٩٥٧، ومنح أميرخان أعلى وسام سوفياتي وهو وسام لينين.

وفي نفس المرحلة، ألف يندريس (Yndris Qezher) أغنيته الشهيرة بعنوان "مارجى، مارجى" يدعو فيها الجماهير للسير قدماً للأمام بتطبيق العقيدة الشيوعية، وصور نضال الجماهير لإقامة النظام الجديد، واعتبر (بيطال قالمق) بطلاً وطنياً كما غنى (زاليمخان ديشيچ) أغنية (طريق المجد)، احتفالاً بمرور أربعين عاماً على الانضمام "الطوعي" لشراكسة القبرطاي (قباردا) إلى روسيا في عام ١٩٥٧. وقد منح وسام العمل البطولي من رئيس مجلس السوفيات الأعلى. كما احتفظت أغنيته "لا ترم الشباب الآخرين بنظراتك"، بشعبيته حتى اليوم.

وفي المرحلة الثالثة وخلال الحرب العالمية الثانية، ظهر على الساحة الشركسية في الوطن الأم نوعان من الأغاني هما الأغاني الوطنية - البطولية، والأغاني الحزينة. فالنوع الأول تمثلته أغنية (ديمازترقان - Demaza Tergan) والنوع الثاني تمثلته أغنية "أسود" وبعد الحرب، تراكمت الأعمال الفنية حول مواضيع السلام والإبداع، فكتبت كلمات العديد من الأغاني الشعرية (٢٨).

وأصبحت المواضيع الرئيسة للأغاني الشركسية موجهة لتمجيد الأممية والصداقة بين الشعوب في العالم واتسمت الأغاني عموماً بكونها مثل شخص يسير في طابور أو عضو في فرقة رقص الفالس.

وفي المرحلة الرابعة: ساهم تطور الموسيقى الشركسية والمتمثل بظهور فرق الاوبرا والاوركسترا، والدراما الموسيقية كما ساعد ظهور ملحنين ومنتجين موسيقيين على تطور الأغنية الشركسية وساهم في تطويرها الكبير انشاء (مؤسسة كاباردينو - بلقريا) الحكومية للموسيقى والغناء عام ١٩٤٣، وكذلك بعد تخرج الدفقات الأولى من المغنين والمغنيات من مدرسة الاوبرا القباردينية والتي كانت جزءاً من معهد ليننغراد للموسيقى.

في عام ١٩٤٦ ظهرت فرق غنائية مسرحية وفرق كورال في عام ١٩٤٦ وكانت أول قصة تتشدها مجموعة موسيقى الفرع (أنتاتا - Antata) و (شيبلز اندميرقان Sheibles Andemirqan) كما كتب (رياوزف - Ryawzov) (كانتاتا الفرع).

وفي عام ١٩٤٧ نشر الملحن الروسي (سيرغي ريفازنف) كتاباً موسيقياً للأغاني القباردينية في نالتشك.

وفي المرحلة الخامسة أصبح للنساء دور بارز في الترويج للأغاني التقليدية وتطويرها. ومن أبرزهن (كوراتس قاشيرغا) (Kwratze Qashiraqhe) المولودة عام ١٩٠١ وكانت موسيقية مشهورة، وألفت كلمات العديد من الأغاني، مثل "رقصة الحب"، و "رقصة البارتران". وفي عام ١٩٥٠، لحن أغنية على شرف الكاتب الكبير (علي شوجينيتسيكوف) المعروف شعبياً باسم "علي" وكان معاصراً تقريباً للموسيقى (كوراتس).

كما قدم تروفور ك. شيلير (Thuvor. Sheibler) في هذه المرحلة ببعض الأعمال ضمنها مقدمة سيمفونية قصيرة عنوانها "النارتيون"، وباليه أوبرا بالعنوان ذاته، عامي ١٩٥٦/١٩٥٧. وكتب (اليكسندر موسولوف) لحناً سيمفونياً أوركسترياً من ثلاثة أجزاء بعنوان "أغنية النارتيين" عام ١٩٥٥. أما (قاردن) فكتب أفضل الأعمال الصوتية الغنائية "نور الصداقة"، للعزف المنفرد والكوراس والأوركسترا، وعرضت أول ما عرضت في موسكو بتاريخ ٢٠ حزيران ١٩٥٧، بمناسبة مرور (٤٠٠ عام) على انضمام (كاباردا) إلى روسيا. وفي عام ١٩٦١، ألف مقطوعة أخرى بعنوان

"بلادي" وأوائل السبعينيات، كتب موشح بعنوان "خالدة" ونشرها في ذكرى لينين، وقصيدة سيمفونية بعنوان "جمهورية" وفي تلك الفترة تقريبا، وضع فلاديمير مولا (مقطوعة) "جبابرة الناريتين"، كما كتب (بالا Bale) قصيدة سيمفونية بعنوان "الفارس الباسل".

وكان من أبرز الملامح الفنية في هذه المرحلة (الخامسة) هي:

(١) اصدار الملحن والموسيقي الشركسي قاردن عام ١٩٦٠، "مجموعة أغاني" شركسية كما نشر كتابه عام ١٩٨٧ (أغاني شركسية)، وهي مجموعة كبيرة من الألحان الموسيقية الغنائية، عام ١٩٨٧. (٢٨)

(٢) اصدار (قابلنا توفة Qablhen Toqe) كتابه "الأغاني والرقصات الشعبية الشركسية والقرشينية"، الذي نشر في تشيركيسك، والذي اعتبر مرجعا للأغلبية الشعبية الحديثة للشراكسة في جمهورية قراشاي - تشركس. والقطع الموسيقية فيها تتكون من أوركسترا آلات النفخ، كما يضم قطعا كلاسيكية، مثل: أديغي، زيفاكوه، قيسي، قافي، كابردينكا، ميزكوش، ويعتبر (توفة) ملحنًا ومؤلفًا موسيقيًا شركسيًا بارعًا ومتعدد المواهب. وكتب حوالي (٣٠٠) من الأعمال الفولكلورية والكلاسيكية، بما فيها بضع قطع موسيقية للآلات الموسيقية التقليدية. وهو من مناصري ومؤيدي العودة إلى الجذور والعمل على إحياء الموسيقى الشركسية القديمة، وتقديمها في شكلها القومي الأصلي (٢٥).

(٣) ظهور أول اوبرا شركسية (تأليفًا وتلحينًا وإداءً) في أوائل العقد السابع من القرن العشرين، حيث قدم كل من (قاردن، وبالا) اوبرا اسمها (مدينا - Mediyne) (٢٥).

وفي ربع السنة الأخيرة من حكم الاتحاد السوفيتي ظهر عدد كبير من المغنين والمنشدين الجدد الشراكسة من الجنسين وتحولت أغانيهم إلى أغاني شبيهة بالحنان السريعة التي سادت العالم عامة والاتحاد السوفيتي خاصة.

* الرواد الأوائل من كتاب الاغنية والشعر، والمؤلفين والملحنين والمغنين الشراكسة في الوطن الأم في ظل حكم الاتحاد السوفيتي.

- بيشميرزا باشا - Bechmirze pasche - مؤسس الشعر في بلاد القبرطاي.
- اميرخان حي وباشا Amirxan Hex'wpasche.
- يندريس قزحر Yhdhis Qezher اعتبر بيطال قالمق بطلا وطنيا.
- حسن قاردن Hasen Qarden.
- زالمخان ديشك Zalimxa'an Dischek
- عمر تحبسيم Umar Tahpsemove
- فلاديمير برغون Vladimir Bercghwn
- حسين ميراميقو Husien Miramiqua
- فالنتينا سوسماق Valentina Sosmaq.
- كوراتس قانشيرغا K'wartze Qashirghe.
- الفنانة تمارا نفي.
- مغنية الاوبرا المشهورة ناتشا غيتاشا Natasha, Ghestashe

النوع الثالث وهو: الادب والمسرح والتمثيل لشراكسة الوطن الأم في عهد الحكم الشيوعي

لم يكن الأدب المسرحي الشركسي متطوراً في العصور القديمة، وإن هذا الأدب لم يظهر بشكل فعلي إلا بعد إحياء الكتابة باللغة الشركسية في القرن التاسع عشر الميلادي باستخدام الأحرف العربية. والدارس للأدب المسرحي الشركسي يجد بأن أكثر من أديب برز منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، حيث قام عدد من كتاب المسرح بتأليف مجموعات من المسرحيات في الوطن الأم في (قفقاسيا الشمالية) في عهد الشيوعية خاصة، ويمكن تلخيص الأعمال المسرحية الشركسية التي قدمت خلال فترة حكم الشيوعيين في الاتحاد السوفيتي على النحو التالي:

* أدب المسرح والتمثيل:

ظهر العمل المسرحي الشركسي في الوطن الأم في ظل الاحتلال الروسي القيصري، وتطور خلال الحكم الشيوعي، وكان من أبرز كتاب المسرح الشركسي باستخدام الأحرف العربية هو الأديب الشركسي الكبير (كوبا - شعبان) الذي درس اللغة العربية والدين الإسلامي في مدينة (نالتشيك) كما درس اللغة والدين في معهد نالتشيك للمعلمين حتى قيام الثورة الشيوعية عام ١٩١٧. ومنع من تدريس الدين في العهد الشيوعي، وتفرغ لتدريس اللغة الشركسية بالأحرف العربية حتى عام ١٩٢٥، وفي عام ١٩٢٦ بدأ الكتابة باستخدام الأحرف اللاتينية، وفي هذه الفترة بدأ كتابة المسرحيات والأشعار وتدوين الأمثال الشركسية، واستمر في الكتابة باستخدام الأحرف اللاتينية حتى عام ١٩٣٨، وهي السنة التي تقرر فيها تغيير (الف باء) اللغة الشركسية إلى الأحرف الروسية السلافية، وفي نفس العام اتهم (كوبه شعبان) بالقومية البرجوازية واعتبر عدواً للشيوعية، واضطر للهروب والتخفي في الغابات لمدة ثلاث سنوات، كما عاش متخفياً في بعض القرى الشركسية النائية في بلاد (الاديغي) واستغل (شعبان) سنوات التخفي في متابعة ما بدأه من قبل في كتابة المسرحيات، وتدوين الأشعار القديمة التي لم يسبق تسجيلها من قبل، وكذلك جمع الأمثال الشركسية الشائعة بين عامة الناس.

يعتبر (شعبان) من أبرز كتاب المسرح الشركسي الذين استخدموا الأحرف العربية واللاتينية والروسية (السلافية) وكان من أبرز أعضاء (اتحاد أدباء وشعراء السوفيت) في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين، كما كان من أكثر الكتاب الشراكسة في عهده غزارة في الانتاج الأدبي والمسرحي حيث ألف حتى عام ١٩٤٣ (١٢) كتاباً ومسرحية.

وكذلك فإن إبراهيم تسيه نشر عام (١٨٩٥) عدة روايات وتمثيلات وكتب كان أهمها:

رواية (كوفاس)، (والسور العظيم) وهو أول من نظم المعهد المسرحي في (الاديغي) والمسرح الدرامي في عام ١٩٢٩، ويعتبر من رواد الفن المسرحي الشركسي في مطلع القرن العشرين.

كما يعتبر كل من شيكي خاشيف ونالوبيف من كبار كتاب المسرح الشركسي وألفا رواية مأساة (كوريجات) والتي مثلت على مسرح نالتشيك عام ١٩٣٤.

كما كتب (شيكي خاشيف) بعض القصائد الموجهة بصورة رئيسية ضد رجال الدين مثل (العنكبوت والذباب) (والمأعجوز) وغيرهما.

وكذلك فإن (قاردن غوشاة زراموك) يعتبر من كتاب المسرح الشركسي القدماء حيث عرضت له في ١٩٤٠/١٠/٢٧ أول مسرحية شركسية في مسرح الدراما في مدينة نالتشك من إخراج (مودحاج موسى) ومثل فيه خمسة من فناني قرية جانخوت حابله، كما اثبت الكاتب المسرحي المعروف "زلمخان" جدارته في مسرحية "داخه ناغو". (١٣).

الفرع الرابع وهو: الادب والشعر والقصة الشركسية في عهد الحكم الشيوعي:

تطور الادب الشركسي من قصة وشعر ورواية في عهد الحكم الشيوعي في زمن الاتحاد السوفيتي، وظهر عشرات الادباء في كل من جمهوريات كبادينيا بلقاريا والاديغة، وقرانتشاي شيركيسيا باللغتين الروسية والشركسية، اثروا فيها الادب الشركسي عامة وفروعه من الشعر والقصة والرواية خاصة.

وفيما يلي أهم وأبرز الادباء الشركاسة في هذه المرحلة من تاريخ شركاسة الوطن الأم.

- **بكميرزا باشا:** (١٨٥٤-١٩٣٦) عاصر حكم القياصرة وحكم الشيوعيين وهو شاعر واديب كتب اكثر من قصيدة وقصة شركسية.
- **ابراهيم تسي:** (١٨٩٥-١٩٣٦) شاعر وكاتب أساطير ومؤلف روايات تمثيلية. كتب روايتي (كوفاس) عن بطل مات أثناء الغزو الروسي لشركاسيا. و(السوط العظيم) التي تصور حياة الفلاحين الشركاس مع عدد من القصائد والأشعار والحكايات عن الحياة الشركسية اليومية، وكان (ابراهيم) وطنيا عظيما وكرس كل حياته لنشر الثقافة الشركسية في منطقة (الاديغة)، وهو أول من انشأ المعهد المسرحي في الأديغة، والمسرح الدرامي سنة ١٩٢٩ وكان يتمتع بشعبية كبيرة في الأوساط الشركسية.
- **شعبان كوبه** عالم اللغة والأدب الشركسي ولد عام ١٨٩٠ في قرية (حه كورنه حابله) في الكوبان ودرس في الكليات التربوية والزراعية (١٩١٩-١٩٢٦) ودرس في المعهد المسرحي المسمى باسم لوناخارسكي في موسكو عام ١٩٣٦، كما عمل في معهد الابحاث الاديغة في (مايكوب) وترأس فريقاً من العلماء الذي تولى جمع ودراسة الفلكلور الشركسي.
- **أحمد حاتقو** (ولد سنة ١٩٠٢) مؤلف أناشيد وقصص تاريخية وحاز على جائزة الاولمبياد "للقفاس الشمالي" للفن الوطني عام ١٩٣٥.
- **شيكى خاشيف ونالوييف** شاعران وروائيان كتباً مأساة (كوريجات) التي مثلت على مسرح نالشيك عام ١٩٤٣ كما كتب (خاشيف) بعض القصائد الموجهة بصورة رئيسية ضد رجال الدين مثل (العنكبوت والذباب، والملا العجوز) وغيرها.
- **ب. كوبل (B. Koble)** ولد سنة (١٩٠٢) وهو مؤلف القصيدة التاريخية (خيسماد) التي تعود إلى عهد الهجوم الروسي على القفقاس.
- **علي شغنسستوك** (١٩٠٠-١٩٤٢) شاعر وكاتب، كتب كثيراً من القصص مثل (البطل الشاب الصغير) وغيرها ونشر مجموعة من الاشعار والقصائد في الاعوام (١٩٣٢-١٩٣٦).
- **عليم كيشكوف** ولد سنة (١٩١٤) شاعر ألف مجموعة قصائد (عند أسفل الجبل) عام ١٩٤١.
- **اسحق مشباش،** ولد في قرية (شحة شفج) عام ١٩٣٠ فهو شاعر واديب له اكثر من (٧٠) كتاباً ومجلداً.
- **يوسف لوستن،** من مواليد ١٩١٣ في قرية شمنكري جبلية فهو قصصي واعلامي وله عشرات القصص.
- **الشاعر مرات برتقوة -** ولد عام ١٩١٢ في قرية بجحلقواي الشركسية فهو اديب ولغوي وشاعر.
- **البروفيسور حسن سخنة،** من مواليد نالتشك عام ١٩٢٨ وهو أديب مختص باللغة الشركسية
- **اندرخوي حسين،** شاعر واديب ولد عام ١٩٢١ في شوجن / حابله. (حاكورنه خابله).

- آدم غوت: مرشح في العلم وباحث في معهد أبحاث اللغة والتاريخ والاقتصاد والفولكلور الشركسي بمدينة نالتشيك. وفي عام ١٩٧٩ وتحت إشرافه مع آخرين صدر باللغتين الروسية والشركسية كتاب "الفولكلور الشركسي".
- آدم شوغنوك: شاعر وقاص صدرت له عام ١٩٤٨ دراسة في نالتشيك بعنوان "أسطورة سوسروقة النارتي".
- اسلام بارون: شاعر وقاص من الجيل الأصغر.
- آبتة خازر: أديب شركسي، يطلب البحث عن سر الخلاص القومي في كتاباته.
- اشخامان: من الذين قاموا بجمع وتصنيف قصص النارتيين.
- اشن مزرت: من الكتاب والأدباء الشركس.
- إلماس أولادين: كاتب معاصر كتب حول الأساطير الشركسية القديمة.
- اتسقان روسلان: شاعر شاب له عدة قصائد شعرية، وله قصيدة بعنوان (البحر الميت).
- أمرخان صومان: شاعر معاصر له قصيدة عنوانها "قتلة الأطفال" ألفها بعد مشاهدته لقتلى غارة إسرائيلية على قرية (بحر البقر) في مصر عام ١٩٧٠.
- أميرهان خافباشي: شاعر هزلي شاعر معروف بقصائده الهزلية.
- بانشو سفر: من كتاب المقالات عن السلاطين الذين حكموا في مصر.
- بشينوكو: كتب عن الأساطير النارتيية.
- ت. شاكوه: شاعر يعتبر من الجيل الأصغر من الكتاب الشراكسة.
- ت. كاجيجيف: من كتاب القفقاس والمهتمين بالأساطير الشركسية وله أبحاث في ذلك.
- جان قرميز: أديبة شركسية لها قصص عن الأجداد الشراكسة.
- حكيم تيونوف: من الذين كتبوا حول التقارب الشركسي الروسي، له كتاب مترجم إلى العربية واسمه "الأم الثانية" والقصة تدور حول ابن قتل أبوه في الحرب الألمانية تبناه صديق والده الروسي ورباه في موسكو.
- خوزايف، من الكتاب الروائيين المعاصرين.
- حميد قرموقة: كاتب شركسي، قام بدراسة قيمة عام ١٩٧٤ حول الأساطير الشركسية في كتابه "الكاتب والعصر".
- خ- تيموت: من الشعراء والقصاصين الشركس.
- خوست بلقر: ولدت عام ١٩٣٢، وبدأت أعمالها بالظهور عام ١٩٤٦، ولها أكثر من ديوان شعري منها "أطراز السماء" وصدر عام ١٩٩٧ و "أشعة الشمس أصبحت آلتى الموسيقية" وصدر عام ١٩٧٠.
- دوود أخياما: من الشعراء وكتاب القصة وينتمي إلى الجيل الأصغر من الكتاب في الوطن الأم.
- داور جعفر: وهو كتاب اللغة الداعين إلى إعادة توحيد لهجات الشركس في لغة واحدة.
- داوود نسي: من الشعراء وكتاب القصة الشراكسة.
- ر. ميركيكي: من الأدباء الذين اهتموا بكتابة قصص أساطير النارتيين.

- **سلطان خان غويري:** عالم أجناس بشرية وكاتب، نشر أساطير شركسية وخرافات من أغاني النار.
- **سليمان سنالسكي:** من الأدباء العظام الذين تم تخليدهم في صنع تمثال له.
- **شكا ماشه:** أديب شركسي زار سوريا وكتب مجموعة قصصية فكاوية، نقلا عن شراكسة حمص ولاقت رواجاً كثيراً.
- **سوخى اسكربي:** من كتاب الشراكسة الكبار ليس له آثار مترجمة للعربية حالياً.
- **فيزيغ أنانيتكو:** كاتب ومؤرخ من الداعين إلى مساندة الشابسوغ في نضالهم من أجل استعادة منطقتهم ذات الحكم الذاتي.
- **غورتوف:** شاعر وقاص من الجيل الأصغر من الكتاب الشراكسة.
- **تال بيف:** شاعر وروائي، كتب بالمشاركة مع شيكي خاشيف مأساة كوريجات التي مثلت على مسرح نالتشيك عام ١٩٣٤.

ثانياً: بعد تطور اللغة الشركسية وآدابها والتحويلات التي طرأت عليها في عهد حكم الاتحاد السوفيتي في المجتمعات الشركسية في الوطن الأم (١٩٢١ - ١٩٩٠).

اعيد احياء الكتابة في اللغة الشركسية بعد انقطاع دام اكثر من ١٥٠٠ عاما (كما سبق الإشارة إليه) في اواسط عقد الاربعينيات من القرن التاسع عشر، وكانت البدايات في وضع ابجدية شركسية باللغة العربية في عهد حكم القياصرة. ومرت تطور اللغة الشركسية في عهد الحكم الشيوعي في الاتحاد السوفيتي على ثلاث فترات وهي:

الفترة الاولى: وهي الفترة التي استخدمت فيها الاحرف اللاتينية في كتابة اللغة الشركسية وامتدت هذه الفترة من عام (١٩٢٣ وحتى عام ١٩٣٦) حيث قام العالم اللغوي الشركسي (ماميتوكف) في هذه الفترة بوضع احرف لاتينية للغة الشركسية بدلا من الاحرف العربية واصدر اول كتاب باستخدام هذه الأحرف في عام ١٩٢٣ حيث استمر استخدام الاحرف اللاتينية حتى عام ١٩٣٦.

وكان من ابرز الانشطة العلمية حول اللغة الشركسية في هذه الفترة هو عقد مؤتمر (تتوير القفقاسيين) في كيزلوفودسك أوائل العشرينات من القرن العشرين، وكان من نتائجه أن افتتحت مدارس للتعليم باللغة الوطنية المحلية في شمال القفقاس وما إن حل عام ١٩٢٥ حتى تبني ابجديات منفصلة للكباخ واللهجات القبردينية وقواعد نحوية منفصلة للهجات اللغة الواحدة رغم المطالبة المتكررة على ضرورة توحيد جميع الابجديات في شمال القفقاس، وخلق لغة ادبية واحدة لجميع اللهجات إلا أنها لم تلق أذانا صاغية في المؤتمرات الذي عقد عام ١٩٣٠ لبحث هذه المسألة بحضور ممثلين عن: الأديغي Adyge وشيركاسيا، وشيشان وانجوشيا، وقراشي وبلكاريان والدغستان إلا أن هذه المؤتمرات لم تحقق أية نتائج عملية لمحاربة الروس لفكرة توحيد لغات شعوب القفقاس الشمالي وفرضهم استخدام الاحرف السلافية Cyrillie. وابتداء من العام الدراسي ١٩٣١-١٩٣٢ اصبح لدى معظم مدارس جمهورية كبادينو بلقاريا كتب دراسية باللغة الشركسية باستخدام الاحرف اللاتينية وفي عام ١٩٣٢ تأسس معهد التربية والعلوم وبدأت تدرس اللغة الشركسية^(١٣). وفي نفس الفترة قام العديد من شراكسة المهجر بإحياء الكتابة باللغة الشركسية باستخدام الاحرف اللاتينية ومن أهم الذين كانت لهم مساهمات لغوية فاعلة هم:

(١) عالم اللغة السيد (بيجيوا عمر)، وهو من ابخاز /تركيا، حيث عمل أكثر من عشرين عاما وبإمكانياته الذاتية على اجراء الدراسات والابحاث على اللغة الابخازية وقام بنشر أربعة كتب بهذا الخصوص^(١٤).

(٢) الدكتور نياز باتوقوه، من شراكسة سوريا ودرس في السوربون، وقام بإعداد رسالة دكتوراه في علم اللغات، حيث كان موضوع بحثه: "اللغة الشركسية" (الابزاخ) ^(١٥).

(٣) أمين سمكوغ، من شراكسة سوريا الذي قام بافتتاح مدرسة لتدريس اللغة الشركسية في القنيطرة عام ١٩٣٢ ^(١٦).

(٤) بله ناوقوه تابوق هارون، وأصدر كتابه باسم مذكرات اللجنة اللغوية في جمعية التعليم والتعاون الجركسية في دمشق، ونشرت الدراسة التي وضعتها اللجنة حول اللغة الشركسية عام ١٩٢٨ في (٣٥) صفحة.

كما كان للعلماء والباحثين الاجانب اسهامات كبيرة في تطور اللغة الشركسية في أواخر هذه الفترة يذكر منهم كل من:

(ريكس سميث) من جامعة (لايدن في هولندا) بالإضافة إلى اساتذة من جامعات اوسلو وكندا وهامبرغ وكولومبيا الاميركية وكامبردج الانجليزية الذين كتبوا مئات المقالات وعشرات الكتب، بالإضافة إلى العديد من الابحاث العلمية على شكل رسائل الدكتوراه والماجستير حول اللغة الشركسية وأدائها ^(١٧).

والفترة الثانية: وهي الفترة التي تحولت فيها الكتابة باللغة الشركسية من الاحرف اللاتينية إلى الاحرف السلافية (Cirillic) ابتداء من عام ١٩٣٨ وحتى عقد الخمسينات من القرن العشرين.

تطورت كتابة اللغة الشركسية في هذه الفترة تطورا ملحوظا إلا انها لم تتحول إلى لغة علم وأدب وبقيت لغة تدرس في المدارس الابتدائية والثانوية فقط وكان من رواد وخبراء اللغة في هذه الفترة داخل الوطن الام كل من:

* أوكتوف Okhtov ونشر قاموسا باللغة الشركسية والروسية.

* لولي (L.Lyule) ونشر قاموسا شركسيا بلهجة القبردينية.

وقد بلغ عدد المدارس في جمهورية كبادينا بلقاريا حوالي ٢٤٩ مدرسة تدرس اللغة الشركسية في هذه الفترة، وكانت نسبة الطلبة الذين كانوا يدرسون اللغة الشركسية في القبردي ٢٤% من مجموع طلبة المدارس وفي الأديغة كانت نسبتهم ١١% وفي تشركيسيا ٩%.

وكان أكثر العلماء المختصين في تأليف طرق تعليم اللغة الشركسية في المرحلة الابتدائية هو نيكولا باغ Nicola Bagh من مدينة نالتشك ^(١٨).

وفي الفترة الثالثة: وهي فترة ما بعد عقد الخمسينات من القرن الماضي تحولت فيها اللغة الشركسية إلى لغة أكاديمية تستخدم في كتابة الأدب وفقه اللغة الشركسية وتدرس على مستوى المراحل الجامعية الثلاث (البكالوريوس والماجستير والدكتوراه). وهي الفترة التي بدأت مع تأسيس الجامعات والمعاهد العلمية، ابتداء من العقد الخامس من القرن العشرين في جمهوريات كبادينا، بلقاريا، وقراشاي تشيركيسيا، والأديغي، وانقسمت اللغة الشركسية في هذه الفترة إلى لغتين أدبيتين مستقلتين عن بعضهما وهما: الأديغة Adyge والقبردينية. فاللغة الأولى هي لغة الأديغي في الغرب واللغة القبردينية في الشرق.

وضمت لغة الأديغي الغربية (لغة الأديغة القديمة) اللهجات التالية:

(١) ناتيكواج. (٢) شابسوغ.

(٣) هاكوج. (٤) ابزاخ.

(٥) بزادوغ. (٦) حتوقاي.

(٧) تشمير جواي. (كميرقواي) (٨) مامكيغ.

(٩) يجر كواي. (١٠) مخوص (فحوش).

(١١) جانا.

وأما لغة الأديغة الشرقية وهي (لغة القبرطاي)، فلم تختلف لهجاتها إلا ببعض الفروق الصوتية في أواخر الكلمات وتستخدمها ثلاث قبائل من القبرطاي وهي القبردي والمدختي والبسلتية كما أن اللغة الأدبية الغربية تأسست بأحرف ابجدية معتمدة على لهجة ال "كميرجواي"، واللهجات الشرقية (القبرطاي) تعتمد في أحرفها الابجدية على لهجة ال "جلاخستتي". ولا يوجد في أي من الابجديتين ما يشكل فارقا جوهريا والاختلاف لا يتعدى أكثر من (٣٠-٥٠) كلمة أو كلمات دخلت إلى اللهجة الشرقية من اللغات الأجنبية. والاختلافات في الأصوات هو بسبب اختلاف القبائل الشركسية في الغرب، كما أن هنالك اختلافات في زوائد نهايات الكلمات ^(٢٢)، كما سبق الإشارة إليها.

والفترة الرابعة والاخيرة وتمت فيها عملية مراجعة اللغة الشركسية والبحث عن افضل الوسائل لتبسيط الكتابة وتحويلها إلى لغة عالمية وكذلك التفكير الجاد للعودة لاستخدام الاحرف اللاتينية في كتابة اللغة الشركسية إلا أن المشكلة الرئيسية هو استخدام الاحرف السلافية لأكثر من (٦٠) عاما تم خلالها تأليف عشرات الالوف من الكتب والمراجع بالاحرف السلافية ومن انصارها العالم (كيوبر) A. H. Kuiper الذي وضع طريقة او استراتيجية لتغييرها لأحرف اللاتينية ^(٢٣).

وفي المهجر فإن الباحث الشركسي (سطاس) من سوريا هو من أكثر الداعين لفكرة العودة لاستخدام الأحرف اللاتينية وعن موقفه بقوله "ترى ما الذي دفع (ادباء اللغة في الوطن الام) إلى رفض مشروع يدعو إلى وحدة اللغة الشركسية لفظا وكتابة وتطويرا؟ هل هو الجهل بأهمية وحدة اللغة ودورها في المسألة القومية؟ أم هناك قناعة بعبثية المحاولة، واستحالة تحقيقها؟ أم الخوف من رد فعل روسي، وانعكاساته على مسألة البقاء والوجود؟ لكن أما كان بالإمكان، ولو من قبيل المجاملة الاطلاع على البحث، ومناقشته بهدوء في الساحة الثقافية على الأقل لاستخراج الآراء في مسألة تتميز بأهمية خاصة؟"

واستطرد (سطاس) قائلا: بأن اللغة الشركسية هي جميع اللهجات التي يتحدث بها الشركس، وتلك التي على طريق الانقراض، أو انقرضت بعد أن تعرض ابنائها للابادة، ولعل العلة الأساسية في أزمة هذه اللغة، تكمن في عدم توحيد هذه اللهجات، في لغة واحدة لفظا وكتابة، رغم وحدة اصولها وجذورها، وتوفر مقومات توحيدها.

وتعتبر مسؤولية استمرار هذه الأزمة مسؤولية عامة، وحيثما وجد الشركس، ويتحمل العاملون في مجالات اللغة، والأدب، والثقافة بشكل عام مسؤولية خاصة، سواء كانوا داخل الوطن الام، أم خارجه، كما تتحمل السلطات السياسية في الكيانات الشركسية مسؤولية خاصة، ذلك انه دون دعم هذه السلطات لا يمكن توحيد اللغة وتعميمها رسميا.

كما يقول بأن ظاهرة تعدد اللهجات ظاهرة عامة، لا ظاهرة خاصة تنحصر بشعب دون آخر، فقد شهدت معظم شعوب العالم هذه الظاهرة، وتعود أسبابها إلى عوامل كثيرة، سياسية وبيئية، وتعتبر ظاهرة طبيعية، ما دامت على طريق التوحد، وتصبح ظاهرة مرضية مع استمرارها، قد تدفع هذه اللهجات إلى الاندثار، أو التبعاد، فتتشكل من هذه اللهجة أو تلك لغة جديدة تكون على الاغلب لغة ضعيفة، لا تملك مقومات الصمود في وجه اللغات الأكثر حيوية، وقد تتحول في أحسن الاحوال إلى لغة هجينة، لا حول لها ولا قوة في مواجهة تحديات وجودها. ان استمرار الكيانات السياسية دون لغة واحدة تشكل اطارها الروحي، سيؤدي مع الزمن إلى تحول اللهجات إلى لغات بعيدة عن اصولها وجذورها.

ويؤكد (سطاس) بأن اللغة الشركسية اصبحت بالضعف وبالعجز عن استيعاب الكثير من مستجدات عملية التطور، وأخذت تظهر بمظهر اللغة الجامدة، العاجزة عن المواكبة حتى أن بعضهم بات يتساءل عن جدوى تعلمها، وتطويرها ناسيا أو متناسيا مسؤوليته المباشرة فيما آلت إليه اللغة،

ودون أن يدري بأن قوة اللغة أو ضعفها رهن علاقته بها، ورهن السوية التي ارتقاها ابناؤها في مضمار التطور المادي والروحي. كما يعترف بأن الوضع (الجيوپوليتيكي) على انه يؤثر سلبا، على مسألة توحيد اللهجات في لغة واحدة، لكن هل ترتبط مسألة توحيد اللغة بالوضع (الجيوپوليتيكي) إلى درجة استحالة توحيد اللغة، قبل حل المشكلة (الجيوپوليتيكية)؟ لقد وحد العرب لغتهم لفظا وكتابة، قبل أن يتحدوا سياسيا.

ويحذر من امكانية زوال اللغة الشركسية واندثارها بقوله: (اللغة الشركسية ايضا، لا تعيش حالة السكون المطلق، لكن شأنها في ذلك شأن الناطقين بها، فإن تطورها كان بطيئا وصعبا وتعرضت لظروف قاسية جدا، وكادت ان تندثر، واثبتت حيويتها، بدلالة صمودها وبقائها على السنة ابنائها، ولا سيما في الشتات غير ان هذا لا يعني ان هذه اللغة بخير، وانها تملك مقومات صمود أبدية، فالعوامل التي ساعدت على صمودها حتى الان تتعرض للتآكل وقد تزول نهائيا، وهناك مؤشرات قوية على هذه الامكانية تدق ناقوس الخطر.

واختتم (سطاس) دراسته بقوله: (ويقينا لا نرى في الازمة التي تعاني منها اللغة الشركسية أزمة عصية على الحل، انها ازمة، يكمن مفتاح حلها، في الايمان بوحدة اللغة، ودور اللغة الواحدة في مسألة الهوية، وفي قرار فاعل يجسد رغبة صادقة).^(٣٦)

نستنتج مما تقدم بأن ادب اللغة الشركسية اقتصر في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين على:

- وضع الحروف الهجائية (الفباء) الشركسية باستخدام الاحرف العربية اولا والاحرف اللاتينية ثانيا ثم الأحرف السلافية ثالثا كما تم في هذه المرحلة إعداد قواعد اللغة وقواعد الكتابة. وإعداد وسائل وطرق تعليمها وكذلك إعداد الكتب المدرسية لتعليم الاحفاد اللغة الشركسية. وإعداد القواميس باللغتين الشركسية والروسية ثم اعداد قاموس شركسي عربي إعداد د. كوبه شعبان في الأردن.

نستنتج مما تقدم بأن تطور اللغة الشركسية حتى اصبحت لغة علم وادب يعود الفضل فيه لجهود علماء اللغة الشراكسة الذين برزوا في عهد الحكم الشيوعي نذكر منهم:



وبمار برسي رائد الكتابة الشركسية
بالأحرف العربية

- شروان (Atazhukin & Scherdan) و (أتاز هوكين) وأصدرا عام ١٨٦٥ دراسة حول اللغة الشركسية بلهجة (كيمركواي).
- ويماربيرسي (Wimarbersey) ونشر أول كتاب حول اللغة والأدب الشركسي باستخدام الاحرف العربية عام ١٨٨٥.
- لوباتنسكي (Lopatinsky) ونشر كتابا مختصرا لقواعد اللغة الشركسية بلهجة القبردي في نالتشيك عام ١٨٩١.
- ياكوفليف (Yakovlev) وقام بأول دراسة لغوية للغة الشركسية في عام ١٩٢٣.
- كاتفورد (Catford) وأصدر أول دراسة للغة الشركسية بالانجليزية عام ١٩٢٤.
- أوختوف (Okhtov) ونشر أول قاموس شركسي روسي عام ١٩٤٩.

- **بلقاروف (Balkarov) وابتوف (Abitov)** حيث نشر كتاب قواعد اللغة الشركسية بلهجة القبردي عام ١٩٥٧.
- **أشحا - ماف (Ashkhamaf)** ونشر عامي ١٩٣٤-١٩٣٦ كتاب لقواعد اللغة الشركسية (الأديغة) باللغتين الشركسية والروسية.

رابعاً: بُعد العادات والتقاليد الشركسية (الخابزة) والتحولت التي طرأت عليها في المجتمعات الشركسية في الوطن الأم في ظل حكم الشيوعي في عهد الاتحاد السوفيتي (١٩٢١-١٩٩٠).

يسجل للشراكسة الوطن الأم قدرتهم على المحافظة على (الخابزة) من العادات والتقاليد الشركسية طوال فترة الحكم الشيوعي في عهد الاتحاد السوفيتي، والباحث في شؤون الحياة للشراكسة في تلك الفترة يجد بأنهم كانوا متمسكين أشد التمسك على موروث العادات والتقاليد والأعراف الشركسية التي ورثوها من أجدادهم منذ آلاف السنين وأن الشراكسة في الجمهوريات الشركسية الثلاثة ظلوا يمارسون عاداتهم وتقاليدهم بالرغم من الظروف الصعبة التي عاشوها عامة في المراحل الأولى من الحكم الشيوعي لبلادهم خاصة وعلى مدى ثمانين عاماً وهي الفترة التي عاش فيها شراكسة الوطن الأم تحت الحكم الشيوعي في عهد الاتحاد السوفيتي في الأعوام من (١٩٢١-١٩٩٢).

وفيما يلي وصف موجز لأهم العادات والتقاليد والأعراف والقيم الشركسية التي اعتز بممارستها الشعب الشركسي صغاراً وكباراً ونساء ورجالا من مختلف شرائح المجتمعات الشركسية في الوطن الأم في هذه المرحلة من تاريخهم وهي العادات المرتبطة بمجموعات (الخابزة) التالية:

المجموعة الأولى: وهي المرتبطة باحترام المرأة الشركسية.

المجموعة الثانية: وهي المرتبطة باحترام كبار السن من الجنسين.

المجموعة الثالثة: وهي المرتبطة بالزواج ابتداء من عادة (البسة - لوخ) إلى فترة البحث عن خطيبة ومرورا بعادة (الكواسة) أي عادة الخطف ثم عادة (الفرشة) وفيها يتم احضار العروس لبيت العريس ثم عادة (الونيشة) وفيها يتم تعريف العروس ثم عادة (ساوا - شيج) وفيها يتم إعادة العريس إلى بيته. وأخيراً عادة (لج - غاشخة) وفيها يتم دعوة كبار السن من الرجال من أهل العريس وأقربائه وأصدقائه وكذلك وجهاء قرية العريس لتناول وجبة الغذاء.

المجموعة الرابعة: وهي العادات المرتبطة بحفلات الاعراس (الحوك) وغيرها من حفلات الرقص الشركسي التي تقام بالمناسبات الاجتماعية وهي مجموعة العادات التي تنظم قواعد الرقص ويشارك فيها كل من الشباب والشابات. ويتجاوز عددها أكثر من عشرة قواعد وهي التي تعرف (بآداب الرقص وطقوسها) ويحكم كل من يخرج عن هذه القواعد من قبل (التحامادات) من كبار السن.

المجموعة الخامسة: وهي العادات المتعلقة بآداب الضيافة عند الشراكسة وهي العادات التي تنظم العلاقة بين الضيف (غريباً كان أم قريباً) أم صديقاً وبين المضيف وتضم عادات الضيافة عشرات القواعد التي تتعلق بالضيافة والتزاماتها.

المجموعة السادسة: وهي العادات والماراسم المتعلقة بآداب الموائد والولائم عامة والمرتبطة بالماراسم التالية خاصة

- ١- ماراسم تنظيم وترتيب الجلوس على المائدة.
- ٢- مهام التحامدة على المائدة عامة (والخواخة) أي الدعاء خاصة.
- ٣- ماراسم تقسيم وتوزيع الطعام عامة واجزاء رأس الخاروف خاصة.

المجموعة السابعة: وهي العادات المرتبطة بتقديم التهاني والتبريك للأكبر سنا من الأصغر سنا أو للمرأة أو للغريب... الخ.

المجموعة الثامنة: وهي العادات المرتبطة بالتعازي أو المواساة في حال حدوث وفاة أو مرض... الخ.

المجموعة التاسعة: وهي العادات المرتبطة بنوع اللقاء السلام أو التحية وهي العادات التي تضم العادات التي تمارس بحسب وقت اللقاء السلام (صباحا أو ظهرا أو مساء أو ليلا) كما تتضمن العادات التي تلقى بحسب طبيعة العمل مثل الحراثة أو الحصيد أو البناء.. أو أي عمل آخر.

المجموعة العاشرة: وهي العادات المرتبطة بالتعارف... وبآداب المصافحة لكل من المعارف والأقرباء والغرباء.

المجموعة الحادية عشر: وهي العادات المرتبطة بآداب التخاطب والمحادثة بين الكبار/ الكبار أو بين الكبار والصغار أو بين الرجل والمرأة... الخ.

المجموعة الثانية عشر: وهي العادات المرتبطة بمكانة واحترام الجهة اليمنى عند الشراكسة عامة وما يتعلق منها بجلوس أو سير الكبير على اليمين الأصغر سنا دوما، وكذلك تناول الأشياء واستلامها من الكبار باليد اليمنى وكذلك دخول المنزل بالقدم اليمنى.

المجموعة الثالثة عشر: العادات المرتبطة بالمآتم (الحدادة) وبمراسم دفن الميت... ومراسم تقبل التعازي... وعدد ايام العزاء للرجال والنساء.

المجموعة الرابعة عشر: العادات المرتبطة (بالخواخة) أي عادة رفع (الانخاب) وهي عادة قديمة جدا وحافظ عليها شراكسة الوطن الأم..

والخواخة أنواع تختلف باختلاف المناسبات مثل مناسبات الاعراس حيث كانت هناك "خواخة" تتعلق بالعريس وأخرى تتعلق بالعروس، و"خواخة" خاصة بالطفل في يوم وضعه في (الجوشة) السرير، وأخرى في يوم تعليمه المشي، وخواخة عند تجهيز سكة المحراث، وعند الخروج إلى العمل وعند دخول البيت الجديد، وعلى مآدب الأكل والشراب وعند ولادة قمر جديد.

المجموعة الخامسة عشر: وهي عادات شركسية اجتماعية متفرقة تضم:

- ١- عادات تنظم علاقة الآباء والامهات بالأبناء.
- ٢- عادات تنظم علاقة العروس بالحماة او الحماية.
- ٣- عادات تنظم علاقة (الصهر) زوج البنت بأهلها.
- ٤- العادات المتعلقة بحفلات (الشابشة) وهي الحفلات التي تقام للذين يجرمون في الحروب وللذين يصابون بكسر في قدمه او عضو من أعضاء جسمه.
- ٥- المراسم المرتبطة بعادة ما يسمى (حان - تسه) وهي العادة التي كان يمارسها الفتيان الشراكسة ومن الجنسين قبل دخولهم للدين الإسلامي... وهي عادة كانت تمارس عند انحباس الأمطار... والهدف منه هو الدعاء إلى الله لانزال الامطار وفيها يتم تلبيس (حانتسه) أي الكريك بملايس نسائية لتصبح على شكل (مرأة) أي (جواشة) باللغة الشركسية ومن جاء اسم الدمية (حانتسه - جواشة).. وتبدأ المراسم بحمل الدمية من قبل مجموعة الفتيان من الجنسين والمرور على منازل القرية داعين الله ان ينزل المطر عليهم وعلى (الدمية) وتقوم ربة كل منزل برش الماء على الفتيان والدمية على أمل أن تنزل الامطار.

٦- المراسم المرتبطة بعادة الاحتفال ببيوم (عاشوراء) وهي من العادات القديمة التي لم يعرف تاريخ بدء هذه العادة... ومن المعتقد بأنها من العادات التي مارسوها بعد اعتناق الاسلام... ويتم هذا الاحتفال عند المسلمين عامة وعند اصحاب المذهب الشيعي خاصة لأن مقتل (علي)

بن أبي طالب) جاء في نفس يوم الاحتفال (بالعاشورا) وهو يوم العاشر من شهر محرم بالتاريخ الهجري.. واستمر الشراكسة في الاحتفال به في ظل حكم الشيوعي وخاصة في القرى الشركسية.

٧- العادات المرتبطة بنظام تربية الأبناء عامة أبناء الامراء خاصة في الجمهوريات الثلاثة حيث تغير أسلوب ونظام التربية عند الشراكسة وهو ما عرف بنظام (الاتالق) (والقان) أي المربي والمتربي... وهو نظام كان سائدا في عصر حكم الامراء في ظل النظام الطبقي الشركسي الذي كان سائدا حتى اوائل القرن التاسع عشر.. وحل محله التعليم النظامي في المدارس... ولم يعد للنظام القديم وجود في المجتمعات الشركسية في عهد الحكم الشيوعي.

٨- المراسم المرتبطة بتربية الطفل في سنواته الأولى من حياته وجدنا من دراستنا للعادات والمارسم الشركسية القديمة بأن بعض العادات والمارسم المرتبطة بتربية الاطفال لم تعد تمارس كثيرا في المجتمعات الشركسية في الوطن الأم في عهد الحكم الشيوعي بنفس الأسلوب القديم، خاصة المراسم التالية:

(١) مراسم مرحلة الولادة: وهي المراسم التي كانت تتبع في الشهور الستة الأولى عامة وعند وضع الطفل في (الكوشة) أي سرير الطفل الخشب الهزاز خاصة.

(٢) مراسم اطعام الطفل: وتبدأ بعد ستة أو سبعة أشهر من عمر الطفل حيث يتم فيها تقديم طعام اضافي للطفل مع حليب الرضاعة وعندما يصبح عمره سنة يقدم له طعام الكبار تقريبا.

(٣) مراسم مشي الطفل، وفيها كان يتم تفصيل لباس احمر جميل ويزين بألوان مزركشة بهدف الهاء الناظر للطفل بهذه الزركشة وابعاد عين الحسد عنه.

(٤) مراسم مرحلة قص شعر الطفل: وكانت العادة أن يتم قص شعر الطفل لأول مرة وعلى (الصفير) باحتفال خاص عندما يبلغ عمره سنة... وتقديم الطعام للحاضرين في هذا الاحتفال.

• عادة إرضاع الطفل من نساء شركسيات من جيران الأم أو من اقربائهن بهدف توسيع صلة الاخوة بين ابناء الشراكسة عامة.

٩- العادات المرتبطة بنظام العونة (شاه - حا - خوة) وهو النظام الذي كان سائدا في تقديم المساعدة الجماعية للفقراء أو كبار السن الذين لا معيل لهم أو الارامل... أو المرضى من كبار السن الذين لم يكونوا قادرين على مساعدة انفسهم بأنفسهم حيث كان يقوم أهل القرية من رجال ونساء في التطوع لمساعدة الفئات المذكورة في الحراثة... أو الحصاد... أو بناء منزل... وغيرها من الاعمال والخدمات التي يمكن ان يحتاجها مثل تلك الفئات حيث وجدنا في دراستنا للمجتمعات الشركسية في الوطن الأم في مرحلة الحكم الشيوعي بأن نظام (العونة) (شاه - حا - خوة) لم يعد قائما في المجتمعات الشركسية بالوطن الأم بعد قيام الدولة الشيوعية.

خامساً: بُعد الفلكلور القومي الشركسي في الوطن الأم في ظل حكم الاتحاد السوفيتي والتحولت التي طرأت عليها.

توصلنا عند التحدث عن بعد ثقافة الفلكلور القومي الشركسي في حضارة الأمة الشركسية، بأن الأمة الشركسية، ربما كانت من أقدم الأمم التي أولت اهتمامها لمختلف الفنون الفلكلورية والتراث الشعبي. والرحالة الذين تجولوا في بلاد الشراكسة (الأديغة) في القرون الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، أكدوا بأن الشراكسة بمجموعهم شعب شاعري، واسع الخيال، ذو روح متوقدة ويتقنون الغناء والقاء القصائد القومية أثناء الرقص وفي الاحتفالات العامة التي تعبر عن الشجاعة والأفعال السامية، وتذم الجبن والاخلق السيئة. كما أكدوا على تميز الشعوب (الشركسية) عامة في موسيقاهم ورقصاتهم حيث أصبحت فرق الفلكلور الشركسي في عهد الاتحاد السوفياتي من الفرق الفلكلورية شهرة في العالم، كما أصبح هذا الفلكلور من أكثر أنواع الفلكلور الشعبي تقدماً في الوطن الأم، وفي بلاد المهجر عامة، وفي المجتمعات الشركسية في البلاد العربية خاصة.

وبالبحث في الفنون والفلكلور القومي الشركسي في عهد الاتحاد السوفيتي يجد أنها تتكون من ثلاثة فنون فلكلورية رئيسية وهي: الموسيقى والرقص واللباس القومي.

وفيما يلي دراسة لكل فن من فنون الفلكلور القومي الشركسي في هذه المرحلة التاريخية.

(١) الغناء والموسيقى القومية الشركسية والتحولت التي طرأت عليها في عهد الاتحاد السوفيتي.

تطورت الموسيقى الشركسية، واصبحت في مستوى الموسيقى الكلاسيكية الغربية منذ العقد الثالث من القرن العشرين وعلى النحو التالي:

في عام ١٩٣٦، وضع أرسيني آر. أبراموف لحنين هما: "قافا" و "إسلامي" لأوركسترا سيمفونية و "المسيرة الكباردنية" الشهيرة. وكانت هذه الأعمال ذات طبيعة بدائية؛ إذ لم يكن العمل السيمفوني قد تطور بعد كما يجب.

وفي الأعوام ما بين ١٩٣٦ - ١٩٣٩ لحن أبراموف أيضاً ثلاثة قصائد للكاتب الشركسي العظيم علي شوجن تسوك Ali Schojentsik^(٤). وحدث تطور كبير على مقطوعة (أبراموف) السيمفونية، في مسرحيته (أسكيري شورتن) و(قرية باتير).

وفي عام ١٩٤٦، ألف (بارفوزوف) مقطوعة سيمفونية من ثلاثة أجزاء، مستندة إلى الرقصات الثلاث (قافا، إسلامي، وويج) والتزمت تماماً بالموسيقى الأصلية، وفي الذكرى الثلاثين لتأسيس جمهورية قبارديا بلقاريا، كتب نيقولايا بايكو، مقدمة السعادة حول مواضيع في (القباردي) وقد عرضت أول مرة في نالتشيك بقيادة (إيم، إس، أيكاريان).

وفي صيف عام ١٩٤٢ وخلال الحرب العالمية الثانية قررت الحكومة السوفياتية نقل بعض أفضل موسيقييها وممثلاتها وفنانينها وأساتذتها من موسكو إلى جمهورية (كباردا) وكان من بينهم: بروكوفيف، ومياكوفسكي، ونيتشايف، و إليكسندروف الروس.

وفي جمهورية كباداريا تحديداً، احتك (بروكوفيف) بالموسيقى الشعبية الشركسية وأعجب بها، وقال بأن "الرقصات والأغاني الكباردنية (منجم ذهب للمادة الموسيقية) وقد أثبتت إقامة (بروكوفيف) المؤقتة في كباداردا، أنها منتجة إلى أبعد الحدود، إذ ألف مجموعته الرباعية حول (مواضيع كبادردنية) في نالتشيك عام ١٩٤٢ مستخدماً الأنغام الموسيقية الشعبية الشركسية منذ القدم، ونال إعجاب الجماهير، ولاقى نجاحاً كبيراً عندما عُرض لأول مرة في رباعية بيتهوفن الشهيرة في موسكو، يوم الخامس من أيلول ١٩٤٢.

استغل رئيس مديرية الفنون في كباداردا، (هيتوتايمرقان) المعروف باسم (تيمرقانوف)، استغل فرصة إقامة عظماء الموسيقيين الروس المؤقتة في بلاده، لوضع الموسيقى الشركسية على طريق المجد، وقد كلفه (بروكوفيف) القيام بعمل موسيقي (حيث كان الأخير يشكك في مقدرة الموسيقيين المحليين القيام بمثل هذا العمل). فرد عليه هيتو: "أكتب بما تراه مناسباً. فإن لم نفهم ذلك

الآن، فسنتعلم كيف نبقيه في الذهن مستقبلاً". وقد قابل نجله (بروكوفيف) مناسباً الموسيقار الروس الكبار الذين زاروا بيت والده. وكان لا بد لتلك اللقاءات أن تترك أثراً لا تمحى على الصبي اليافع، الذي أصبح فيما بعد واحداً من أعظم قادة التأليف الموسيقي في الوطن الأم للشراكسة في النصف الثاني من القرن العشرين.

في عام ١٩٤٢ أيضاً، كتب (بروكوفيف) أغنية بعنوان "ابن كاباردا" كما ألف (نيتشايف) لحناً سباعياً قائماً على مواضيع شركسية، وكتب عازف البيانو السوفييتي الشهير (غولدينفايزر) ست أغاني ومقطوعات موسيقية مستندة إلى ألحان كاباردينية وبلقارية.

وفي عام ١٩٤٣ تأسست مدرسة أوبرا في جمهورية (كاباردينو - بلقاريا) وهي مدرسة حكومية ومقرها في نالتشك عاصمة الجمهورية.

وفي عام ١٩٤٦ أصبحت مدرسة الأوبرا الشركسية جزءاً من معهد لينغراد للموسيقى.

وفي عام ١٩٥٠ تخرج الفوج الأول من المغنين والموسيقيين وقادة الأوركسترا والمؤلفين الشراكسة من معهد الأوبرا، وتجولوا في المدن الرئيسية لجمهورية كاباردينا، وقدموا عروضاً لمقطوعات -عالمية لكل من موزارت وكورسكوف وغيرهما.

وفي عام ١٩٥٢ كانت جميع الأعمال السيمفونية الشركسية تكتب وتقاد من قبل موسيقيين روس أو أرمن وفي أوائل الخمسينيات، بدأ جيل جديد من المؤلفين الموسيقيين الشراكسة إثبات وجودهم على المشهد الموسيقي. فآلفوا في عام ١٩٥٢، أول أعمالهم "موطني القومي" وهو مشهد سيمفوني. كما وضع الموسيقار (اسفيرديمنمان Esfir Dimenman) وفي عام ١٩٥٥ الحاناً لأربع أغاني شركسية نظم كلماتها الشاعر الشركسي عليم كيشوكوف^(٥) وفي عام ١٩٥٦، افتتحت كلية للموسيقى في نالتشك ليدرس فيها إدارة كورال، وموسيقى (صوتية) وبيانو، بالإضافة إلى أقسام آلات الموسيقى الشعبية.

وفي عام ١٩٥٩ كتب (محي الدين. ف، بالا) مقطوعة موسيقية من ثلاثة أجزاء بعنوان "قزبرون (Qizbrun) بالاستناد إلى مسرحية تحمل الاسم نفسه، وقام بعرضها على مسرح فرقة كاباردينا المسرحية في نالتشك

وفي عام ١٩٦٠ افتتحت كلية كاباردينو بلقاريا التعليمية الثقافية في نالتشك وضمت أقسام الكورال والآلات الموسيقية التقليدية والفنون المسرحية. ومع مطلع عقد الستينات من القرن العشرين، انتشرت مدارس الموسيقى في العديد من البلدات والقرى الكاباردينية، والتحق فيها الأطفال في سن السادسة للدراسة فيها لمدة سبع سنوات، وعند اتمام هذه المرحلة كان يُخير التلميذ لمتابعة دراسة الموسيقى في المدارس الثانوية للموسيقى. كما يستطيع المبرزون منهم الالتحاق بالمدارس الداخلية في المعهد الموسيقي حيث كانت الدراسة فيها عشر سنوات.

وفي أواخر الستينات، تشكل اتحاد المؤلفين الموسيقيين في كاباردينو - بلقاريا لرعاية مصالح العدد المتزايد من الموسيقيين المختصين.

كما فاز "بالا" في عام ١٩٦٨ بالمرتبة الثانية في المسابقة الوطنية الثانية لقادة الفرق الموسيقية. وبعد سنة من ذلك، عين مديراً موسيقياً لسيمفونية لينغراد، وبفضل إسهامه الجوهري في فن الموسيقى، أنعم عليه مجلس السوفييات الأعلى في جمهورية كاباردينو - بالكاريا عام ١٩٧٣ ذات الحكم الذاتي، لقب فنان الشعب في الجمهورية.

وفي عام ١٩٧٧، أصبح (تيمرقانوف)، المدير الفني، وكبير قادة أوبرا كيروف، وفي عام ١٩٨٠ كان الضيف الرئيس، على الأوركسترا الفيلهارمونية الملكية في لندن، ثم عين عام ١٩٩٢ المدير الرئيسي لأوركسترا سانت بطرسبرغ (لينغراد سابقاً) الموسيقية، خلفاً (لأندية بريفين)، وقد اعتبر العديد من أعماله الموسيقية في مستوى الموسيقى العالمية.

وبالبحث في تاريخ نشأة وتطور الموسيقى عامة والموسيقى الشركسية خاصة وجدنا بأن أبرز الرواد الموسيقيون وقادة الأوركسترا والملحنون الأوائل من شركاسة الوطن الأم في عهد الاتحاد السوفيتي هم:

- (١) أرسيني م. أبراموف (Arseni M. Abraamove) (١٨٨٦-١٩٤٤).
- (٢) تروفور، ك. شايبلر (Truvor K. Shebler) (١٩٠٠-١٩٦٠).
- (٣) محي الدين ف. بالا: (Muhedin F. Bake) ولد عام ١٩٢٣، في قرية (كينجا) في جمهورية كباددينو.
- (٤) عمر تحبسم من مواليد كوش حابلة عام ١٩١٩م.
- (٥) حسن قاردن (١٩٢٣) ولد في بلدة (شيجيم) الأولى في جمهورية كبادردا.
- (٦) يوري تيمرقان - Yori . Temirkanov وهو من عائلة تيمرقان المنتمية إلى قبائل القبرطاي، ولد عام ١٩٣٨ في قرية (زرغش). ويعتبر اعظم موسيقار في الوطن الأم وجاء ترتيبه الثالث في العالم عند السبعينات من القرن الماضي.
- (٧) فلاديمير مولا (Valdimir Mola) وهو من الموسيقيين المعاصرين من شركاسة جمهورية القبردي.
- (٨) جبريل حيوية Jebrail Hewpe وألف أولى سيمفونياته أوائل السبعينيات.
- (٩) أصلان داوروف Aslane Daurov ألف في عام ١٩٤٠ الألحان الشعبية الشركسية.
- (١٠) أصلان على داوروفا Aslan Dawrova ولد يوم ١٩٤٠/٧/٢٤ وتوفي يوم ١٩٩٩/٣/٨ وهو من جمهورية تشركسيا قراشي، ولقب (بالشاعر الموسيقي المعلم العظيم).

(٢) الرقص الشركسي في الوطن الأم والتحولت التي طرأت عليها في ظل حكم الاتحاد السوفيتي

أنشئت أكاديميات الرقص القومي في العهد السوفياتي، وجرت عصرنة وتحديث الرقص الشركسي التقليدي، كما ادخل عليها ألحان رقص الباليه الاحترافي، وفي البداية، كانت كلية (تيليسي الحكومية للرقص في جورجيا) المعهد الرئيس المتخصص في الرقص والباليه القفقاسي. إلى أن قام الخريجون الشركس من هذا المهن بإنشاء فرق قومية شركسية حيث تم تأسيس معاهد رقص في كباددينو - بلقاريا مثل كلية الفنون المهنية في نالتشيك، فانتشرت منها فرق رقص عديدة.

وفي عام ١٩٣٤ تأسست فرقة الرقص القباردينية (القبرطاي) وهي إحدى الفرق الأولى في الوطن الأم. وبدأت عملها كمجموعة من الهواة، واستقطبت أفضل الراقصين والموسيقيين المحليين. وأقيم أول عرض لها في قرية (Zeyqwe) زبيقو في العام نفسه. ثم أعيدت تسمية الفرقة لتصبح "فرقة الغناء والرقص الحكومية في كباددينو - بلقاريا". وقد طوّر (أبراموف) جزءاً من مخزونها الفني. وفي عام ١٩٣٨، أضيفت إلى الفرقة مجموعة كورال، التي اجتمع فيها كبار الموسيقيين والشعراء، أمثال: أبراموف، شايبلر، ريفافروف، كيشوكوف، علي شوجينتسيكوف، ليكتبوا ويلحنوا لها أغنيات جديدة، وأعيدت تسمية الفرقة مرة ثالثة، فأصبحت تسمى: فرقة الرقص الشعبي القومي - كباددينكا، وتعتبر فرقة (كباددينكا) واحدة من أفضل فرق الرقص في القفقاس، وقدمت عروضها في روسيا والخارج. ويتضمن برنامجها العديد من الرقصات التقليدية التي تؤدي بالحن موسيقية متطورة وجميلة وعلى مستوى عالٍ من الذوق الموسيقي الرفيع.

ومن الفرق الشركسية الأخرى (نالتشانكا - Nalchanka) التي أنشئت في مدينة (نالتشيك) في عقد الخمسينات من القرن العشرين، كما انشئ العديد من فرق الهواة، وفرق المحافظات، سميت "بفرق الرقص الشعبي الشركسي".

وفي (الأديغي) قدمت "فرقة الرقص الحكومية أول عروضها في الأول من أيار ١٩٧٢ على مسرح (دراما بوشكين)، وكان (محمود بيشكوك)، الفنان (المكرم) من جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفياتية، أحد أكثر الملحنين الموسيقيين تأثيراً على هذه الفرقة. ووضع ونشر كتاباً عن الرقص الفولكلوري في (الأديغي)، عام ١٩٩٠ وكذلك فإن بعض الفرق الأخرى التي تستحق الذكر هي (مجموعة نالماس - Nalmas) الحكومية للرقص، وهي فرقة غناء ورقص تم إنشاؤها أوائل السبعينات، علماً بأنها أسست أولاً في الثلاثينات من القرن العشرين، لكنها حُلّت فيما بعد من قبل السلطات الشيوعية. وقد تجولت مجموعة (نالماس) و (إسلامي) للغناء والرقص مدن عديدة في روسيا والقوقاز كما زارت كل من تركيا وسوريا والأردن. وقدمت للعالم الرقصات القومية القديمة والحديثة.

وفيما يلي أشهر فرق الرقص القومي الشركسي في عهد الاتحاد السوفيتي في الوطن الأم.

- فرقة الرقص القومي الشركسي في جمهورية كبارينا وبلقاريا وهي:
 - فرقة الغناء والرقص الحكومية، واعدت تسميتها بفرقة الرقص الشعبي القومي الشركسي.
 - فرقة كباردينا في نالتشك. - وفرقة نالتشانكا في نالتشك.
 - فرق الرقص الشعبي الشركسي وهي فرق هواة تابعة للمحافظات في الجمهورية.
- فرق جمهورية الأديغي وهي:
 - فرقة إسلامية. - وفرقة نف (النور). - وفرقة نالماس.
- فرق جمهورية قراتشي - تشيركيسيا وهي: - فرقة ميركوري للرقص القومي الشركسي.

(٣) اللباس القومي الشركسي والتحويلات التي طرأت عليها في عهد الاتحاد السوفيتي:

حافظ شراكسة الوطن الأم على اللباس القومي الشركسي في ظل حكم الاتحاد السوفيتي بل انهم ادخلوا عليها بعض التطورات على تصاميم لباس الرجال عامة وتصاميم لباس النساء خاصة من حيث المظهر العام والألوان، إلا أنه لم يعد لباساً يرتدى من قبل النساء والرجال يومياً كما كانت العادة في عصور ما قبل الاحتلال الروسي لبلادهم ولم تعد ترى شراكسة الوطن الأم يرتدون الملابس الشركسية يومياً. واقتصر ارتداؤها من قبل فرق الرقص الشركسي وفي المناسبات القومية فقط، كما أصبح من التراث القومي الشركسي يباع للزوار والسياح عامة وللشراكسة بالمهجر خاصة.. حيث أن السلطات الشيوعية استخدمت سياسة عدم ظهور القوميات عامة والقوقازية منها خاصة بملابسهم القومية في الأماكن العامة.

سادساً: بُعد الرياضة في الوطن الأم في ظل حكم الاتحاد السوفيتي والتحويلات التي طرأت عليها

مارس الشراكسة في الوطن الأم في هذه المرحلة رياضات وألعاباً جديدة تختلف اختلافاً كلياً عن الرياضات الشركسية القديمة، سواء كان من حيث التنظيم أو التكوين، فإذا كانت الرياضات الشركسية التقليدية جزءاً من الثقافة القومية للشراكسة، جاءت الرياضات الجديدة بدعم من الدولة الروسية رياضات الاحتراف حيث إن الكثير من الرياضيين الشراكسة أصبحوا يتقاضون رواتبهم لتفرغهم للتدريبات والمسابقات فقط. كما حملت الرياضات الجديدة أسماء لم تكن لها علاقة بالثقافة البدنية الشعبية الشركسية القديمة وحلت محلها لتجعلها في زوايا النسيان، ولم يبق من الألعاب التقليدية الشركسية سوى المصارعة والرماية مع ادخال التعديلات والتغييرات الجوهرية عليها، كما ظهرت رياضات وألعاب جديدة مثل: كرة القدم، وكرة الطائرة، والتنس، وسباق الدراجات، ورفع الأثقال،

والملاكمة، والمصارعة الرومانية، والجمباز، وكرة السلة، والسباحة، والتسلق على الجبال، وألعاب القوة.

يقول المؤرخ الرياضي (غيرغوف) بأن الرياضات التقليدية القومية اخذت تفقد أسرارها وأساليبها التدريبية، مما أدى إلى زوالها أيضاً. ومرت سنوات وعقود طويلة قبل أن يتقن الشعب الشركسي قواعد الرياضات العالمية الجديدة التي قامت الحكومة السوفيتية بنشرها في بلادهم، وقد نشأ أبطال جدد ذوو معايير روسية وسوفيتية وأوروبية وحتى أولمبية وعالمية. كما ظهر مدربون عالميون مثل المدرب الشركسي البارز والمؤسس لمدرسة الجودو والسامبو (الدفاع عن النفس) وهو يعقوب كوبايف من مدينة مايكوب، وهي شاهدة لما يمكن ان يثمر عنه الجمع بين الرياضتين الشعبية والعالمية.

ولا شك بأن تقديم الشراكسة في الوطن الأم أبطالاً أوروبيين وعالميين حتى في الرياضات غير التقليدية فيعني ذلك بأن الشعب الشركسي بدأ يستعيد شيئاً فشيئاً ثقته بذاته التي كان قد فقدتها نتيجة للكارثة القومية التي وقعت خلال حروب الإبادة الدمار الروسية في القرن التاسع عشر، وزوال الرياضات الشركسية التقليدية.

بدأت الاحتفالات الرياضية الإقليمية في الاتحاد السوفيتي تقام منذ عام ١٩٢٣ حيث احتل الرياضيون الشراكسة مراتب عالية وحققوا انجازات عالية في بعض مسابقاتها مثل سباقات الخيل، والتسلق إلى قمة البروز في عام ١٩٣٥، والعبور المائي من (فان) إلى (ماختشكالا) في عام ١٩٣٦، ومن نالتشيك إلى موسكو في عام ١٩٣٧ والذي شارك فيه (شيس بليناف و مرجان شيناخوفا)، وسباقات الدراجات الذي قادها (ي. ي. خجاليف) في العام ١٩٦١، وقطع المشاركون الشراكسة في الوطن الام مسافة ٦٠٠٠ كيلومتر على خط (أرمافير - كراسنودار - يالطا - سيفاستوبول - أديسا - كيشينيوف - كييف - مينسك - فيلنيوس - ريغا - تالين - لنينغراد - موسكو - خاركوف - رستوف - نالتشيك) . وفي جمهوريتي (اديغي) و (تشركسيا) حدثت تطورات رياضية كبيرة حيث ظهرت رياضات غير تقليدية وإنشاء قاعات وملاعب رياضية واستقطاب الشباب الشركسي وظهر فيها أبطال لامعون جدد، ويبدو أن الامور سارت على هذا النحو في كافة الجمهوريات والولايات القوقازية على حد سواء.

وبدأت اسماء الرياضيين الشراكسة تظهر في اواخر العشرينيات من القرن الماضي، ومن بينهم القبردي (مصطفى بيتوي ناكوف) الذي بقي في الساحة الرياضية مدة ثلاثين سنة في رياضة المصارعة الحرة والرومانية ووصفه مؤرخ الرياضة في جمهورية (كباردينا بلكاريا) بقوله: "... من العام ١٩٢٧ ولغاية ١٩٥٣ كان بطلاً في المصارعة الحرة والرومانية ورافعا للأنقال هو الاقوى على صعيد جمهورية كباردينا بلكاريا ومنطقة شمال القوقاز والجمهوريات الفدرالية الاشتراكية السوفيتية الروسية، بالإضافة إلى كونه لاعب ألعاب قوة عظيم، شمل ارشيفه الرياضي الخاص (٥٠) شهادة تقديرية ومنحت له على فوزه في المسابقات في المصارعات الحرة والشعبية والرومانية ومسابقات ألعاب القوة لأكثر من ٣٥ عاماً.

وفي الفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ذاع صيت راكب الدراجة الشركسي (يوسف خجاليف) الذي قطع ٤١ ألف كيلومتر في (٢٣) سباقاً للدراجات بصفته متسابقاً أو مدرباً أو مشرفاً، وفي عام ١٩٦٤ منح لقب "خبير الرياضة للاتحاد السوفيتي". كما فاز كل من (ب. شوخوف) و (أ. توكماكوف) ببطولة الاتحاد السوفيتي للدراجات، وشاركا في المنتخب الأولمبي للدراجات، أما (بوريس شوخوف) فحصل على الميدالية الذهبية في أولمبياد ميونخ في العام ١٩٧٢. كما منح (يوسف خجاليف) لقب المدرب الدولي للاتحاد السوفيتي تقديراً لإنجازاته الرياضية الدولية.^(٧)

* وفي رياضة الفروسية : حقق الشراكسة في الوطن الام انجازات كبيرة في هذه الرياضة في العهد السوفيتي لوجود خبرة تاريخية طويلة فيها. بشهادة (شورا نغموقة) الذي سبق ان قال: "كان جيران الشراكسة يغارون منهم على لياقتهم في الفروسية، ولباسهم الجميل، ومهارتهم في رمي الهدف، وقدرتهم على القفز من على ظهر الفرس لالتقاط خاتم او قطعة نقد من الارض"^(٨).

وفي منتصف القرن العشرين ظهر من شراكسة الوطن الأم فرسان موهوبون جدد وفي مقدمتهم الفارس (جامبوت باكو بشوكوف) الذي مارس هذه الرياضة أربعين سنة من عمره ابتداء من عام ١٩٥٤.

كما ظهر فارس آخر مارس هذه الرياضة منذ ان كان عمره ١٥ سنة، وقد حصل على لقب الخبير في الرياضة في عام ١٩٦٢ واسمه (محرابي جانخوت كونيجف)، الذي فاز بلقب بطل الاتحاد السوفيتي في أنواع مختلفة من سباقات الحواجز في السنوات ١٩٦٢ و ١٩٦٧ و ١٩٦٨.

وفي رياضات الجودو وألعاب الدفاع عن النفس (سامبو وكرايه وتايكوندو والكيك والبوكسينج).

تعتبر مدرسة مايكوب لرياضة (الجودو والسامبو) التي أسسها (يعقوب كامبوليت كوبليف) في مايكوب عاصمة الأديغة صفحة لامعة في الرياضة الشركسية في الوطن الأم في العهد السوفييتي. وفي عام ١٩٧١ افتتحت في مايكوب قاعة رياضية حديثة وأقيمت فيها بطولة في رياضة (سامبو) الثالثة للمصارعين القرويين، وكان الخمسة من بين الفائزين العشرة الأوائل من تلاميذ (يعقوب كوبليف) وهم (ف. نيفزوروف) و (أ. سببورووف) و (ي. أشينوف) و (أ. حاباي) و (ع. كوستوكوف).

وفيما يلي أسماء الابطال العالميين والاولمبيين والاوروبيين الشراكسة في رياضة الجودو والسامبو وألعاب الدفاع عن النفس الذين حققوا انجازات رياضية عظيمة في عهد الاتحاد السوفيتي

إسماعيل يكويتيش، أرمبي حاباي، كوستوكوف، أرمبي يميح، حميد حاباي، مورات كيشتوف، مورات سابانشيف، حاضرت تليسير، أيدمير اوتليف، سحاتبي ألكوف، مورات غوكوف، محمد كونيجف، أصلان بيحف، مورات حاسانوف، مورات أغيروف، أدام ديوك، روبرت أغيروف، أدام خوست، مورات ماكوف، أصلان داوروف، مورات جانوف، أصلان غوباشيف، مورات أوزوف، أزمات تترشاو.

• وفي رياضة المصارعة نذكر الابطال التالية اسمائهم:

ليونيد بوغاتيريوف، تيمور حاتسوكوف، أصلان جانيوف، ألبيرت غيرغوف، زاودين باجيف، ألكسي كازيف، مورات قردانوف، رسلان تشرميت، أصلان نارتووف، مايربيك خامبازوف، أصلان حاغوروف، محمد بالاخوف، أصلان بيك هوشتوف.

• وفي رياضة رفع الاثقال نذكر الابطال التالية اسمائهم:

محرابي كيرجينوف، مورات بيبوف، يوري خواجيف.

• وفي رياضة الدراجات: البطل بوريس شخوف.

• وفي رياضة كرة الطائرة: البطلة يلينا اخامينوفا.

• وفي لعبة تنس الطاولة: البطلين فاطمة باتيروفا، ومولود كوشخوف.

• وفي رياضة الجمباز (حركات الايقاع): البطلة سفيتلانا كوشو.

الفصل الخامس

المواقف العدائية والتأثيرات السلبية للايديولوجية الماركسية الشيوعية على حياة شركاسة الوطن الأم في ظل حكم الاتحاد السوفيتي (١٩٢٠-١٩٩٢)

في الوقت الذي نعترف فيه ما كان للايديولوجية الماركسية في عهد الاتحاد السوفيتي من ادوار ايجابية ومساهمات في تطوير وتحسين مختلف مجالات حياة الشعوب القوقازية عامة وحياة شركاسة الوطن الأم خاصة فإن هذه الادوار الايجابية لم تشفع للشيوعيين سياستهم الايديولوجية في صهر القوميات الاثنية المختلفة، وتحويلها إلى شعوب تابعة للروس في معظم مجالات الحياة، والقضاء على أي أمل لأي قومية منها حق تقرير مصيرها والحصول على الاستقلال السياسي والديني والاجتماعي والاقتصادي فهذه الايديولوجية فإن دلت على شيء انما تدل على العدائية ضد القوميات الاثنية والاديان عامة والدين الاسلامي خاصة.

وفيما يلي نماذج من المواقف العدائية للايديولوجية الشيوعية التي كان لها تأثيرات سلبية على القوميات القوقازية عامة والشعوب الشركسية في الوطن الأم خاصة:

- الموقف العدائي الأول، وتمثل بعدم السماح ببقاء مواطني القومية القوقازية الواحدة وحدها في مناطق سكنهم، واتباع سياسة اسكان اكثر من قومية في المنطقة الواحدة حتى يضطر الجميع لاستخدام اللغة الروسية لغة رسمية اولاً، ولغة تخاطب بين سكان المنطقة الواحدة ثانياً، بدلاً من استخدام لغتهم القومية.

- الموقف العدائي الثاني، وتمثل بتعيين رؤساء من الشيوعيين المحليين في كل جمهورية، ففي جمهورية القبارطاي مثلاً تم تعيين (بطل قالموق) في عهد ستالين. وفي مقاطعة (اديغي) عين هامينكري حاكوراتوف كأول رئيس لها وغيرهم من الرؤساء الشركاسة المنتمين للحزب الشيوعي.

وفي مرحلة لاحقة اعتبر (ستالين) هؤلاء الرؤساء الذين دعموا الثورة البلشفية وساعدوها على احتلال جمهورية شمال القفقاس التي تشكلت عام ١٩١٧ اتهمهم بأنهم يشكلون فئة (بورجوازية مناوئة للثورة) وأنهم اعداء للشيوعيين ووضعوا تحت الحراسة وابعدهم وحكم على البعض الآخر بالنفي أو السجن أو الاعدام.

- الموقف العدائي الثالث، ويتمثل في عدم اطمئنان الحكومة السوفياتية المركزية إلى سلوك وتصرفات الزعماء الشيوعيين من قوميات أخرى في القفقاس، وبدأت تشك في اخلاصهم، لذلك فقد اتبعت الحكومة المركزية سياسة تعيين مواطنين (روس) ذوي مهام خاصة لمراقبة اعمال الزعماء الشيوعيين المحليين في الجمهوريات القفقاسية.

وللوقوف على مستوى العداء الذي كان موجهاً للقوميات القوقازية والشركسية منها خاصة كان لا بد لنا من مراجعة البيانات التي اصدرها المسؤولين والسوفيت عامة وكل من (لينين وستالين) خاصة حيث بدأ (لينين) يصدر البيان بعد بيان عن آرائه وسياسته نحو القوميات عامة والاسلامية منها خاصة، حيث قال: وهكذا فإن الشيوعيين يعتبرون القومية ظاهرة تنشأ في فترة معينة من مراحل التطور التاريخي، ورغبة القوميات في أن تكون دولا مستقلة ذات سيادة ظهرت مع ظهور الوعي الطبقي البرجوازي، وعندما يسيطر الشيوعيون على السلطة، يصبح الوعي القومي متخلفاً عن العصر. وقال ايضا:

"لا يقتصر هدف الاشتراكية على الغاء التقسيم الحالي للبشر إلى دول صغيرة والغاء العزلة القومية بل يتعدى ذلك إلى دمج الامم. (١٠٣)

وقال أيضا "لا يوجد أي ماركسي يستطيع ان ينكر بأن مصالح الاشتراكية فوق مصلحة حق الأمم في تقرير مصيرها. وإذا فعل ذلك، فإنه يناقض أسس الماركسية والاشتراكية". واستطرد قائلا:

"إذا تعرض حق تقرير المصير لبعض الأمم لمصلحة أو وجود جمهورية اشتراكية في أي وقت، فإن الأولوية تكون عادة لمصالح الجمهورية الاشتراكية والمحافظة عليها".

من هنا بدأت المقاومة وبدون هوادة ضد أي ميول قومية أو وطنية تظهر بين شعوب الاتحاد السوفيتي خوفا على مستقبل جمهورياتها الاشتراكية السوفيتية، وعمل (ستالين) على ادخال بند في قرارات المؤتمر الثاني عشر للحزب الشيوعي لمقاومة (الوطنية المحلية) في الاتحاد السوفيتي، باعتبارها رمز للقومية البرجوازية واصبحت هذه المهمة سيفا مسلطا ضد أي عضو في الحزب أو الحكومات المحلية يشن به بأنه يسعى إلى توسيع صلاحيات الحكم المحلي، وقام بتصفية واعتقال ونفي مئات الالوف من الذين اتهموا بميول وطنية وقومية.

وكان (ستالين) أكثر تشددا من لينين في مواقفه ضد القوميات، ويتضح ذلك من قوله: "يجب أن نتذكر انه بالإضافة إلى حق الامم في تقرير المصير، ثمة حق أيضا للطبقة العاملة في توطيد مكانتها، وفي حالات تعارض حق تقرير المصير مع مصالح الطبقة العاملة، تكون الأولوية لدعم هذه الطبقة. فحق تقرير المصير يجب أن لا يكون عقبة امام ممارسة الطبقة العاملة لدكتاتورية البروليتاريا".

كما قال: "إن المسائل القومية تخضع لمسألة أهم وأعم، وهي الثورة الاشتراكية ودكتاتورية البروليتاريا".

وقياسا لهذا المفهوم فإن اهتمام أي مواطن غير روسي في الاتحاد السوفيتي والتفكير بحقوق شعبه أو حتى تاريخه وتراثه كان يوصف بأنه (قومي برجوازي). وكلتا التهمتين كانتا سببا كافيا ليكون موضع الشك بعدم الولاء لقضية البروليتاريا العمالية، وعدم الإخلاص للدولة السوفيتية، ويصبح معرضا لعمليات الاعتقال والتطهير، وقد تمت في الثلاثينات من هذا القرن تصفية عشرات الالاف من كوادر الحزب والإدارة في جمهوريات القوقاز ومناطق نفوذ الاتحاد السوفيتي.

وفسر (ستالين) بأن تعيينه (كوميسارا) للقوميات في أول حكومة سوفيتية عام ١٩١٧: "لا يعني بأن على (البروليتاريا) تأييد كل حركة قومية في كل مكان وزمان وفي كل الأحوال، بل يعني بأن التأييد يجب ان يبذل للحركات القومية التي تستهدف إضعاف الامبريالية والإطاحة بها لا تقويتها والمحافظة عليها. وفي الحالات التي تصطدم الحركات القومية والوطنية مع تطور حركة البروليتاريا، فإن التأييد غير وارد مطلقا. كما وأن حقوق الأمم ليست مسألة منعزلة مكتفية بذاتها، بل ينبغي ان ينظر إليها بما يتفق مع مصالح الحركة البروليتارية".^(٧٤)

• **الموقف العدائي الثالث ويتمثل في إقرار مبدأ الإلحاد والمادية،** لما كانت الماركسية في نظرهم ليست مجرد نظام مادي اقتصادي، بل هو اتجاه عقائدي ايضا، وأن من أهدافه ومهامه محاولة اقناع الناس بعدم وجود قوة إلهية تسيطر عليهم وتوجههم. وليس هناك ما يسمى بالبعث والخلود، لذلك عليهم الكفاح لتحسين احوالهم المادية، وتحقيق أهدافهم الدنيوية، فبعد الموت فناء نهائي لا بعث ولا نشور. ويرون ان الديانات ما هي إلا آراء دنيوية (خرافية) تعبر عن أوضاع اقتصادية وبأن "الدين هو مخدر الشعب" حسب قول ماركس أو "أنه مسكر روحي" حسب قول لينين، ومن الضروري محاربة الكنيسة بصفتها حليفة للطبقة المعادية للثورة البروليتارية. ففي ١٩١٨/١/٢٣ صدر عن مفوضي الشعب في الجمهورية الروسية مرسوم، يتضمن النظام الاساسي للمنظمات الدينية بشأن حرية الضمير وحرية المجتمع والدين، وأعلن بموجب هذا المرسوم فصل الدولة عن الكنيسة فصلا تاما، كما أعلن تأميم المنظمات الدينية المسيحية ومصادرة أملكها. كما وجد الشيوعيون بأن الاسلام أخطر وأشد من غيره من الأديان على النظام الشيوعي، لأن عمل المسلمين بأحكام الشريعة واخلاقيات الاسلام تميزهم عن غيرهم،

ويقيم بينهم وبين الشعوب السوفيتية غير المسلمة، وبالأخص الروس، - حواجز نفسية من الصعب التغلب عليها.

- **الموقف العدائي الرابع ويتمثل في اضطهاد أصحاب الديانات السماوية عامة والمسلمين في الاتحاد السوفيتي خاصة حيث بدأ الاضطهاد الديني والهجوم الواسع على الإسلام والمسلمين تحت شعار (الثورة الثقافية) بعد انتصار الجيش الأحمر على جيش جمهورية شمال القفقاس التي تشكلت عام ١٩١٧ ولعبت رابطة الشبيبة الشيوعية دوراً رئيسياً في هذا الهجوم محاولة تفسير الإسلام حسب مفاهيم الشيوعية المادية، وحاولوا تحليل (القرآن الكريم) حسب أهوائهم وأصدروا بياناً تضمن هجوماً على القرآن الكريم خلاصته: "لو تمنع الفرد ودرس القرآن لوجد أنه خلق عربي نصف متمدن واستعمله أسيادهم الاقطاعيون والساطين والأمراء منهم، وأفراد الطبقات الوسطى لخدمة مصالحهم الخاصة. وأنه يكاد يكون من المتعذر أن يبرهن الفرد أن (محمداً صلى الله عليه وسلم) كان المؤلف الوحيد لهذا الكتاب القديم الذي أدى خدمة إلى السلاطين والأمراء والأسياح الاقطاعيين. وادعوا باطلاً بأن (القرآن الكريم) قد طرأ عليه تغيير بعد وفاة (النبي عليه الصلاة والسلام) أكثر من مرة" وقالوا أيضاً: "إن العقائد الواردة فيه إنما تعكس حالة الملك الخاص والرأسمال التجاري وأنه يخلق في الإنسان الطاعة والعبودية ويقتل فيه روح المبادرة وكل ميل لتحسين نفسه... ويشجع على عدم المساواة وخضوع الفقير للغني ويمنع الاحتجاج ضد أعمال الاستغلال".**

كما قالوا أيضاً: "أن (الإله) الذي يقده المسلمون، إنما هو الجبار الرهيب المتكبر الذي يطلب الطاعة العمياء له (والعباد بالله). وهذا ما شب عليه السلاطين والملوك والنبلاء والتجار وعلمنا أن ننشئ جيلاً جديداً يعتمد على القوة وروح المبادرة، ويقدم أرواحه ضحايا في سبيل خلق حياة جديدة.

وأما (ستالين) فقد قال إن النضال ضد الدين في الاتحاد السوفيتي **موجه قبل كل شيء ضد الإسلام**، وأن سكان المقاطعات الشرقية والجنوبية من الإمبراطورية السوفيتية لا تفرق بين الدين والقومية، ومحاربة الدين في كل البلاد هي في الوقت ذاته نضال ضد القومية والتقاليد الدينية والتقاليد المحلية.

وتمثل الاضطهاد الديني في أوائل عهد الشيوعيين بتدمير المساجد وإعدام رجال الدين الإسلامي، وحرق الكتب الدينية، واعتقال كل من كان يضبط وهو يمارس العبادات من صلاة وصيام... كما منع تدريس الشريعة الإسلامية في المدارس والمعاهد العلمية طوال فترة الحكم الشيوعي في الاتحاد السوفيتي بحجة أن الدين هو أفيون الشعوب (٤٨).

وفي الفترة من (١٩٢٩) إلى (١٩٣٤) بدأت حملة منظمة شرسة لمحو الدين الإسلامي في الجمهوريات الإسلامية في القفقاس والقضاء على أئمتهم. ونفذت هذه الحملة من خلال:

(١) إغلاق المطابع التي تطبع المنشورات الدينية أو المعادية للسوفيت واستبدال الأحرف العربية حيثما كانت تستعمل بالأحرف اللاتينية أو الروسية.

(٢) وضع قيود على ممارسة الطقوس الدينية في المساجد وفي الأماكن العامة.

(٣) بدء ممارسة الضغط الإداري على أئمة الدين المحليين في المساجد والمدارس.

تجددت حملات الاضطهاد الديني بعد أن توقفها خلال فترة حرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٦ حيث شنت السلطات الشيوعية حملة واسعة على الدين الإسلامي بعد انتهاء الحرب حيث تضمنت هذه الحملات الادعاءات والأكاذيب التالية:

- **الادعاء، بأن الأديان أفيون الشعوب، تلهي الجماهير الكادحة عن الكفاح الثوري وتدخل في روحها الخضوع العبودي، وهي أيولوجية رجعية ضد العلم، وعائقة أمام التقدم، وأداة بيد الطبقات المستغلة وعقائد خيالية فهي إذن ضد الماركسية وتعيق مجيء الاشتراكية.**

- **الإدعاء،** بأن الاسلام دين فرضه بالقوة الغزاة العرب على أجداد المسلمين السوفيت في آسيا الوسطى، والسلاطين العثمانيين في القوقاز الغربي، وشاهات إيران فيما وراء القوقاز.
- **الادعاء،** بأن الاسلام أشد دين رجعي ومحافظ في العالم. وأنه دين يذل المرأة ويخضع الشباب لسلطة أصحاب اللحي البيضاء التعسفية والطغيانية. وأن شعائر الإسلام وبخاصة الختان وصيام رمضان إنما هي تصرفات بربرية ومضرة بالصحة، كما ان الصلوات الخمس تصرفات ضد المجتمع تجلب الضرر لمردود عمل الجماهير الكادحة.. الخ.
- **الادعاء،** بأن الاسلام يمحى روح المبادرة وأنه دين يحشو في ذهن البشر روح الخنوع والتعصب، وان اخلاق الاسلام تتعارض مع الأخلاق الاشتراكية والسوفيتية الجديدة.
- **الادعاء،** بأن الفن الاسلامي جامد متحجر في أشكاله العتيقة البالية وأن أدبه التقليدي يخلد التقليد البالي في العصور الاقطاعية، وأن التقاليد الثقافية الاسلامية تشكل عوائق امام تطوير ثقافة سوفيتية.

وبعد سقوط (خروشيف) دخلت العلاقات بين الحكومة السوفيتية والأديان وبشكل خاص المسلمين بمرحلة جديدة؛ إذ خف الهجوم العنيف على الدين الاسلامي. وابتداء من عام ١٩٨٨ بوشر بفتح بعض المساجد، وقد تسارع ذلك بعد ان اعتمد (غورباتشوف) سياسة البروستريكا والغلاسنوست فباشر المسلمون بناء وفتح المساجد في مختلف المدن والقرى، كما فتحت مدارس لتعليم اللغة العربية، ونشأت حركات سياسية واجتماعية اسلامية العقيدة. وبات حتى أعضاء الحزب المخضرمين يعلنون ايمانهم بالعقيدة الاسلامية ويستكثرون الممارسات الشيوعية السابقة في اضطهاد الدين التي أدت إلى نفور واستنكار الجماهير لها.

- **الموقف العدائي الرابع، ويتمثل بإصرار السلطات السوفيتية على استخدام الأحرف السلافية (Cynillic)** بدلا من الاحرف اللاتينية في كتابه اللغة الشركسية، كما وقفت ضد توحيد ابجديات اللغات القومية لشعوب شمال القفقاس، ويتضح ذلك من إفشال المؤتمر الذي عقد من اجل بحث خلق لغة ادبية واحدة لجميع اللغات واللهجات في كل من الأديغي وشيركاسيا، وشيشان وانجوشيا، وقراشي وبلكاريان وجمهورية داغستان إلا أن هذه المؤتمرات لم تحقق أية نتائج عملية لمحاربة الروس لفكرة توحيد لغات شعوب القفقاس الشمالي.

وفي عام ١٩٣٠ دعت لجنة الابجدية الجديدة التابعة لمجلس القوميات في موسكو برئاسة (جلال كوركاسوف) إلى مؤتمر جديد حول ضرورة توحيد اللغة، وقرر توحيد الابجدية القبردينية والشركسية، والشيشانية الانجوشية والقراشية والبلقار، والداغستانية والابجديات الاخرى. ولم ينجح بسبب اصرار المسؤولين الروس لإصلاح الابجديات باستخدام الاحرف السلافية Cyrillie وليس الاحرف اللاتينية. وابتداء من العام الدراسي ١٩٣٠-١٩٣٢ أصبح لدى معظم مدارس جمهورية كبادرينو بلقاريا كتب دراسة باللغة الشركسية باستخدام الاحرف اللاتينية وفي عام ١٩٣٢ تأسس معهد التربية والعلوم وبدأت تدرس اللغة الشركسية (١٣).

وظل المسؤولين الروس يضغطون على رجالات التربية والتعليم القوقازيين لاستخدام الاحرف السيرلكية (Cyrillic)، وتحقق ذلك لهم ابتداء من عام ١٩٣٨. وظل الروس يصرون على عدم تلبية رغبة الشعوب القوقاز عامة والشراكسة المتتورين خاصة في اعادة استخدام الاحرف اللاتينية في كتابة اللغة الشركسية ويؤيدهم في هذا الرفض عدد من المفكرين والمثقفين والمسؤولين في الجمهوريات القوقازية التي يتواجد فيها اكبر تجمعات من شركاسة الوطن بحجة ان لديهم ارث علمي وأدبي وفكري وتربوي بعشرات الالاف مكتوبة بالاحرف (السيرلكية) وعليه فإنه يتعذر التحول لللاتينية، إلا أن المؤيدين للتحول إلى الأحرف اللاتينية يردون على الراضين بقولهم: هل ما لدينا من ارث علمي وأدبي اكثر مما كان عند الاتراك الذين تحولوا من استخدام الأحرف العربية إلى الأحرف اللاتينية؟؟ بعد استخدام دام لاكثر من ثمانمائة سنة، فاللغة التركية أصبحت الان لغة علمية وادبية

عالمية وأكثر من عالم فيها حاز على جائزة (نوبل)، وأنا شخصياً اضم صوتي إلى اصوات المطالبة بضرورة العودة لاستخدام الأحرف اللاتينية وهي الأحرف التي يسهل على ٩٠% من الشركاسة في الشتات وعددهم حوالي (٦) مليون نسمة على استخدامها بسهولة ويسر... لأن ١٠٠% من شركاسة المهجر يتقنون القراءة والكتب بالأحرف اللاتينية.

بالإضافة للمواقف العدائية التي اتخذتها سلطات الشيوعية في عهد الاتحاد السوفيتي ضد المسلمين عامة والمسلمين الشركاسة خاصة فإن عدداً من الإجراءات والسياسات المباشرة وغير المباشرة للايدولوجيا الماركسية الاشتراكية كان لها تأثيرات سلبية على ممارسة بعض العادات الشركسية، كما كان لها سلبيات على قدرة الشركاسة المحافظة على بعض من أنواع الفلكلور الشركسي نذكر منها:

(١) القضاء على العادات المرتبطة (بالحشش) أي المضافة حيث طبيعة الحياة الجديدة في ظل الحكم الشيوعي لم تعد تسمح بفتح مضافات كما كانت العادات في زمن استقلال الشركاسة والعيش في بلادهم قبل الاحتلال الروسي.

(٢) اختفاء عادة ارتداء الملابس القومية الشركسية حيث لم تعد تمارس في مجتمعات الشركسية وفي الحياة اليومية وإنما أصبح الزي القومي الشركسي لباساً خاصاً بالفرق الفلكلورية كما سبق الإشارة إليها في الفصل السابق.

(٣) القضاء على عادة حمل السلاح الشخصي عامة والقامة الشركسية (الخنجر) والسيف الشركسي خاصة، وهي عادة دأب الشركاسة على ممارستها حتى احتلال قياصرة الروس على بلاد الشركاسة. حيث منع استخدامها في زمن القياصرة والشيوعيين في عهد الحكم السوفيتي.

(٤) اختفاء العادات المرتبطة بمواسم الحراثة والحصاد والبيدر، وهي عادات كانت تمارس في المجتمعات الشركسية حتى عصر احتلال الروس لبلادهم حيث لم يعد للشركاسة الأرض لحراثتها وحصاد منتوجها لتحول مهام الزراعة في الوطن الأم إلى الجمعيات التعاونية (الكولخوزات).

الفصل السادس

شراكسة الوطن الأم في ظل جمهورية اتحاد الشعوب الجبلية القفقاسية (١٩٨٩ و ١٩٩٤)

في اواخر الحكم الشيوعي السوفيتي عامة وخلال فترة البروستوريكا خاصة لم تتوقف محاولات القوقازيين عامة والشراكسة خاصة للاستقلال عن التبعية الشيوعية في عهد الاتحاد السوفيتي، إلا أنهم لم يتمكنوا من تحقيق ذلك إلا في السنوات الاخيرة من الحكم الشيوعي، حيث تمكنوا في يوم ١٩٨٩/٨/٢٥ من عقد المؤتمر الاول لممثلي شعوب القفقاس في مدينة سوخومي عاصمة جمهورية ابخازيا، وشارك فيه ممثلو الابازة من جمهورية قرتشاي شركسيا، والابخاز سكان جمهورية ابخازيا، والادبغة سكان جمهورية الأديغي، والانغوش سكان جمهورية الشيشان أنغوش، والقبرطاي سكان جمهورية قبردينيا بلقاريا، والشركس سكان جمهورية قرتشاي شركسيا، والشيشان سكان جمهورية الشيشان انغوش ولم يحضر المؤتمر ممثلين للداغستان والاستين الشمالية والجنوبية.

أعلن المشاركون في هذا المؤتمر تأسيس (جمعية الشعوب الجبلية في القفقاس)، وانتخب (يوري موسى تشنيه) لرئاسة مجلس التنسيق، (فاخر كوتسوف) لرئاسة مجلس الشيوخ. (٧٦)

وفي يومي ١٣-١٤ / ١٩٩٠ انعقد المؤتمر الثاني في مدينة نالتشك، وأقرت فيه وثائق كثيرة، كما تم وضع الحلول للمشاكل التي تعترض بناء الدولة الجديدة وإصدار بيان رسمي حول الأخذ بمبدأ عدم استخدام القوة في حل المشاكل القومية القوقازية.

وفي تشرين الأول من عام ١٩٩٠ وافقت حكومة الاتحاد السوفيتي على إقامة مؤتمر لممثلي الشعوب الصغيرة حضره (٤٦) شعبا صغيرا من الشعوب التي تعيش في الاتحاد السوفيتي، وتشكلت جمعية وطنية قومية متخصصة في رسم حدود الأراضي التي تعيش عليها هذه الشعوب وانتخب (يوري) رئيسا لهذه الجمعية.

وفي يومي ١-٢ / تشرين الثاني/ ١٩٩١ انعقد المؤتمر الثالث للجمعية حضره ممثلو (١٣) قومية وأقرت فيه عدة اجراءات وقرارات منها:

- اعتماد نص بيان إعلان إنشاء اتحاد الشعوب الجبلية القفقاسية.
- تعيين الهيئات القيادية للاتحاد الجديد.
- انتخاب البرلمان (القفقاسي) للاتحاد والذي تكون من ثلاثة (مندوبين) ممثلين من كل شعب شارك في الاتحاد وانتخب (يوسوب سولانيك) رئيسا للبرلمان.
- انتخاب مجلس رئاسة لبرلمان الاتحاد.
- تعيين المحكمة الثلاثية في الاتحاد.
- اختيار اعضاء مكاتب البرلمان للوفاق الوطني.
- تحديد الحقوق القانونية للشعوب المشاركة في الاتحاد.
- وضع أسس ووسائل الدفاع عن أمن واستقلال شعوب الاتحاد.
- انتخاب رئيس تحرير صحيفة الاتحاد المسماة (القفقاس).
- انتخاب (يوري موسى تشنيه) وهو أحد النواب عن شعب القبرطاي رئيسا للاتحاد.

وفي ٣ تشرين الثاني من عام ١٩٩٠ وقع في قرية (ليخي) وهي قرية أثرية تاريخية للثقافة الأبخازية على عقد تأسيس (اتحاد شعوب القفقاس) من قبل الرئيس ونوابه^(١٧). في شمال القفقاس.

وفي ٤ تشرين الثاني عام ١٩٩١ عقد المؤتمر الأول لشعب الشابسوغ للمطالبة بإعادة إحياء (منطقة الشابسوغ الوطنية) التي ألغيت في عهد ستالين عام ١٩٤٤.

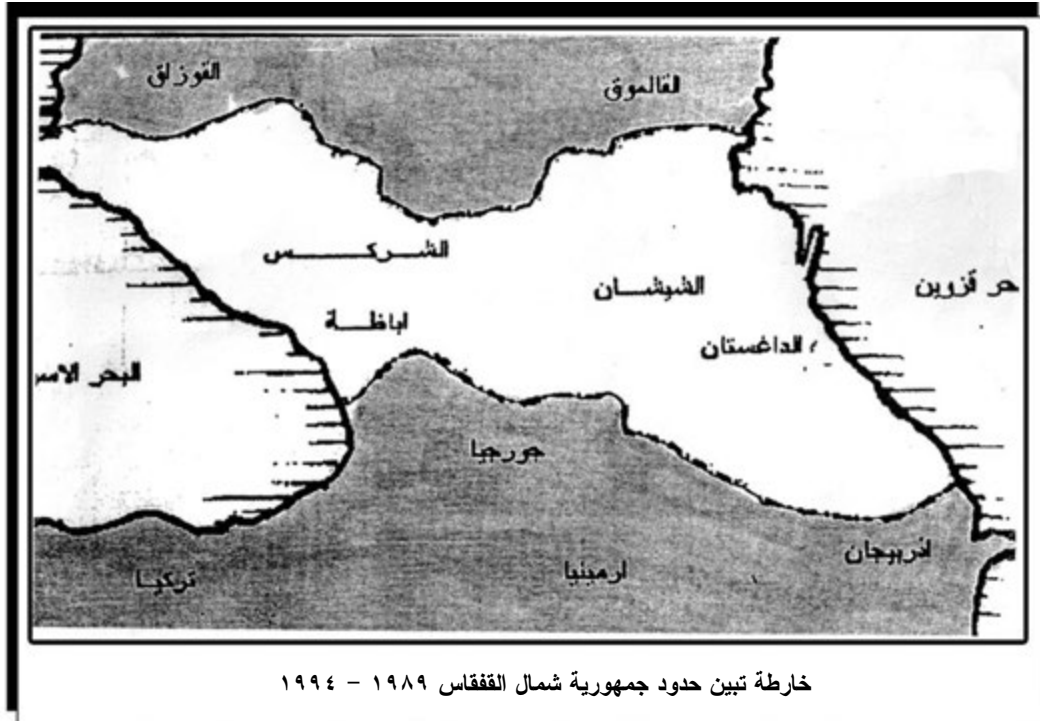
وفي يومي ٤، ٥/ تشرين الأول عام ١٩٩٢ عقد المؤتمر الرابع للاتحاد للنظر في بقاء القفقاس موحدًا مع بقائها ضمن جمهوريات روسيا الاتحادية أو عدم بقائهما معها حيث قرر المجتمعون بقائها ضمن جمهوريات روسيا الاتحادية، كما تقرر إلغاء كلمة (الجبليين) من اسم الاتحاد وأصبح اسمه (جمهورية شعوب القفقاس) كما سمحوا بانضمام شعوب أخرى من غير الأصول القوقازية للاتحاد.

إلا أن السلطات الروسية قاومت قيام هذا الاتحاد وألقي القبض على رئيسه (يوري) ووجهت له اتهامات تقضي بسجنه لمدة (٩٣) سنة، إلا أن ضغط الجماهير الشعبية القوقازية أجبرت السلطات الروسية على الإفراج عن الرئيس (يوري) والكف عن ملاحقته قضائياً.

وفي أواخر شهر أيار عام ١٩٩٢ انعقدت الدورة المشتركة لكل من البرلمان والمجلس الرئاسي للاتحاد لبحث ومناقشة مسألة اعتداء جورجيا على شعب أبيتا الجنوبية واستمعوا إلى النداء الذي وجهه ممثلو هذه الجمهورية ونصّه:

"أصبح الشعب الاستيني يلقه اليأس والقنوط ودول العالم ما زالت صامدة تنفرج على مدى ثلاث سنوات من الإبادة الجماعية للشعب الاستيني دون تدخل منها أو تنديد بما يحدث من مجازر ودمار.

كما أن العالم المسيحي يغض النظر عن جورجيا المسيحية التي تشن حملة إبادة جماعية على استينا المسيحية أيضاً وإذا انقذتمونا من الموت فالاستين الجنوبيين مستعدون لدخول الإسلام".



وتأثر المجتمعون كثيراً من نداء نواب اسيتتيا الجنوبية ومن اليأس الذي وصلوا إليه حيث بادر المجتمعون بالرد عليهم قائلين: "إن شعوب القفقاس ليسوا على استعداد لقبول هذه التوضيحية لتغيير الديانة في سبيل تقديم المساعدة الأخوية لهم كما قالوا بأن توجيه النداءات إلى جورجيا وروسيا

لا يجدي نفعا الآن، وأنه يجب على رئيس اتحاد الشعوب القفقاسية اتخاذ وسائل أكثر راديكالية لمنع الإبادة الجماعية في أوسيتا الجنوبية، وبناء عليه وجه رئيس الاتحاد للمجتمع الدولي لوضع حد لاضطهاد وإبادة الشعب في أوسيتا الجنوبية، نداء قال فيه: إن هذه الأعمال تؤكد أن هناك خططا لبعض القوى من أجل إشعال الفتنة، ومن أجل التدمير الشامل للحضارة القفقاسية، هذه الحضارة التي لعبت دورا كبيرا في تطوير البشرية، التي كان لها كثير من التأثير الفعال، كما أنها ساعدت البشرية، فمثلا استمر حكم المماليك الشراكسة ٣٠٠ سنة تقريبا في العالم العربي، وقامت الفرقة الشركسية بتدمير المغول قرب جدران مدينة دمشق، حيث انقذوا الحضارة العربية من التدمير الشامل. كما كان الشركس من القوى الفعالة التي ساعدت على تشكيل الدولة المركزية الروسية، وعلى إعادة بناء تاريخهم، والمؤرخون الأتراك وصلوا إلى نتيجة، مفادها إنه بدون الشركس وخيالهم لما كانت الجمهورية التركية قائمة الآن".

واستطرد قائلا "١٥٠٠ سنة من الحرب المستمرة لإخضاع القفقاس ولم تستطع تدمير هذه الحضارة القديمة والعريقة، أما الآن فهناك أفق واسع وحقيقي لذلك، فسيناريو الدراما لما وراء القفقاس يتحول إلى شمال القفقاس بهدف إبادة شعوبها مرة أخرى".

"ولكن لن يستطيع العالم أن يغض النظر طويلا، كما حدث في القرن التاسع عشر، أثناء إبادة الشراكسة. إن ما يجري هو إبادة جماعية للشعب الاستيني وأن الكارثة في أوسيتا الجنوبية نذير لشعوب المنطقة والمجتمع الدولي، فالكارثة عبارة عن فاتحة لنقل سيناريو الدراما لما وراء القفقاس بهدف الإبادة الشاملة لشعوب شمال القفقاس.

وفي الختام وجه إنذارا لجورجيا بقوله: " فإن لم يتوقف العنف ضد الشعب في أوسيتا الجنوبية، خلال مهلة قدرها عشرة أيام، فاتحاد الشعوب القفقاسية سيقدم الدعم لها بكل ما لديه من وسائل". (٧٨)

يقول (يوري) وهو أول رئيس للاتحاد: "بأن الاتحاد وبالرغم من الظروف الصعبة التي عمل فيها، وبالرغم من ملاحقتي شخصيا واعتقالي وتقيدي للمحاكم بتهم باطلة فإن الاتحاد وخلال السنوات الخمس من عمله (١٩٨٩-١٩٩٤) استطاع تقديم مساهمات فاعلة وجادة، كما استطاعت حل العديد من الإشكالات القومية ولعب دور بارز في حل الخلافات القوقازية القوقازية.

وبالرغم من كل هذه المساهمات والإنجازات القومية فإن كلاً من السلطات الروسية (المحلية) منها والفدرالية قاومت قيام الاتحاد واعتبرته المنظمة الأكثر خطورة، والمهددة لوحدة روسيا الفيدرالية، وأنها تشكل مركزا من مراكز التطرف القومي، وأنها منظمة التي تهدف إلى فصل شعوب القفقاس الشمالي عن روسيا، وتأجيج الصراعات القومية التي ستؤدي إلى تجدد الحرب الروسية - القفقاسية التي استمرت من القرن السابع عشر وحتى التاسع عشر، وكان من نتائجها التهجير الجماعي للشراكسة ويستطرد قائلا:

"كما اتهموا هذه المنظمة بتشكيل هيئات حكومية غير شرعية (تشريعية-تفوضية- قضائية) وتشكيل مجموعات عسكرية غير قانونية، لتدريبها وتجهيزها لتكون مستعدة لخوض الحرب من أجل الحصول على الاستقلال والانفصال عن روسيا الفيدرالية.

وأعلنت السلطات الروسية بأن اتحاد شعوب القفقاس، هو العدو الثاني لروسيا بعد (جوهر دودايف) رئيس جمهورية الشيشان، كما ألقوا شتى التهم الراديكالية والانفصالية ضد هذا الاتحاد، وتعرض قياداتها إلى الملاحقة والاعتقال، عن طريق توجيه تهم غير مثبتة ومؤيدة بدلائل". (٧٩)

وكان مصير هذا الاتحاد، نفس مصير عشرات الاتحادات والدول والحكومات القومية القوقازية التي تشكلت خلال أكثر من عشرين قرنا بدءاً من اجتياح القفقاس عامة والمناطق الشركسية خاصة من قبل الجيوش الأجنبية الغازية، ابتداء من القرن السابع للميلاد وحتى أواخر القرن العشرين.

الفصل السابع

شراكسة الوطن الأم في ظل حكم روسيا الاتحادية

١٩٩٢ - ٢٠٠٩

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ابتداء من عام ١٩٩٢ تشكلت دولة روسية جديدة باسم (روسيا الفدرالية) في عهد (يلتسن) وكان من أهم مهامها هو التصدي للاتحاد الجديد الذي تشكل في شمال القفقاس باسم (اتحاد شعوب القفقاس الجبلية) في عام ١٩٨٩ الذي ضم (٨) قوميات قوقازية وهي: الأبازة، الأبخاز، الشراكسة (القبردي، الأديغي، وتشركسيا) والبلقر والشيشان والانجوش كما سبق الإشارة إليها في الفصل السابق.

وفي عام ١٩٩٤ أعلنت سلطات روسيا الاتحادية بالغاء هذا الاتحاد وإعادة دمج القوميات الثمانية سابقة الذكر بالجمهوريات التي شكلتها روسيا الفدرالية وهي:

• جمهورية كبادينا بلقاريا الفيدرالية:

تشكلت هذه الجمهورية بعد حل اتحاد شعوب قفقاسيا الجبلية واحتفظت في حدودها الجغرافية وعاصمتها وعلمها وشعارها ونشيدها التي كانت التي تستخدمها الجمهورية في ظل حكم الاتحاد السوفيتي.

• جمهورية الأديغي

تحولت مقاطعة الأديغي إلى جمهورية فيدرالية بعد حل اتحاد شعوب القفقاس الجبلية، واحتفظت بكل مكوناتها السياسية التي كانت قائمة في ظل عهد الاتحاد السوفيتي خاصة حدودها الجغرافية وعاصمتها وعلمها وشعارها ونشيدها الوطني... الخ.

• جمهورية قراتشي تشيركسيا

تحولت مقاطعة قراتشي تشيركسيا إلى جمهورية فيدرالية، بعد حل اتحاد شعوب القفقاس الجبلية واحتفظت بكل مكوناتها السابقة والتي كانت قائمة في ظل حكم الاتحاد السوفيتي.

وأما بالنسبة للشراكسة الذين يقطنون في الأقاليم والجمهوريات والمقاطعات الخمسة عشرة سابقة الذكر لم يطرأ أي تغيير على وضعهم السياسي والإداري وبقوا تابعين للسلطات الروسية الفيدرالية.

وبدراسة اوضاع شراكسة الوطن الأم في الجمهوريات الاتحادية الثلاثة التي يقطنها الشراكسة في ظل حكم سلطات روسيا الفدرالية. توصلنا إلى الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: ارتفاع سقف الحريات العامة لكل من المواطنين الشراكسة وغيرهم وكذلك للهيئات والمؤسسات العامة والخاصة في ظل الجمهوريات الاتحادية عامة وفي الجمهوريات القوقازية خاصة.

الحقيقة الثانية: منح الافراد والهيئات والمؤسسات العامة والخاصة حرية التملك وكذلك حرية التصرف بها بيعاً أو شراء وفي حدود الانظمة والقوانين الفدرالية الجديدة.

الحقيقة الثالثة: رفع سقف حرية العمل وكذلك حرية تحديد مجالاته وطبيعته مع مراعاة نوع التخصص ومدى توفر الشواغر.

الحقيقة الرابعة: حدوث تغيير كبير في المناهج الدراسية وتحديث نظم التربية والتعليم العام عامة والتعليم المهني والتقني والفني خاصة.

الحقيقة الخامسة: حدوث تغير واضح في نظم واساليب التعليم العالي... وكذلك حدوث توسع كبير في الميادين والتخصصات العلمية في الجامعات والمعاهد الأكاديمية العليا.

الحقيقة السادسة: حدوث تغير واضح في سياسة الأجور مع ارتفاع كبير في أجور للعاملين في القطاع الحكومي الرسمي عامة والقطاع الأهلي خاصة.

الحقيقة السابعة: تطور ملحوظ في الخدمات الصحية والعلاجية في المستشفيات والمراكز الصحية الحكومية ودخول القطاع الخاص في تقديم بعض الخدمات الطبية.

الحقيقة الثامنة: تحسن ملحوظ في مستوى الطرق الفرعية وداخل المحافظات والمدن عامة وفي الطرق الخارجية خاصة.

الحقيقة التاسعة: منح حرية كاملة للتنقل والإقامة، وكذلك حرية اختيار مواقع السكن والعمل داخل جمهوريات روسيا الفيدرالية.

الحقيقة العاشرة: حدوث تحسن كبير في حرية السفر والترحال للخارج وكذلك حرية المشاركة في الرحلات السياحية لخارج روسيا الفيدرالية كل حسب إمكانياته المادية.

الحقيقة الحادية عشر: فتح الاستثمار في جميع المجالات داخل الجمهورية الواحدة عامة وفي أية جمهورية داخل روسيا الفيدرالية خاصة وكذلك منح حرية الاستثمار في خارج روسيا الاتحادية.

الحقيقة الثانية عشر: السماح بإنشاء مؤسسات مجتمع مدني وإن كان ذلك في اضيق حدودها ووفق بعض القيود... والدليل على ذلك السماح للشراكسة بتأسيس جمعية شركسية عالمية مقرها في مدينة نالتشك، والسماح لها بممارسة أنشطة وفعاليات قومية بمشاركة ممثلي مؤسسات المجتمعات المدنية لشراكسة الشتات في العالم.

الحقيقة الثالثة عشر: رفع القيود الصارمة التي كانت مفروضة على القوميات الاثنية عامة وفي القفقاس خاصة في استخدام اللغات المحلية وارتداء الملابس القومية في المناسبات العامة والخاصة.

الحقيقة الرابعة عشر: فتح باب التجارة الخارجية مع الجمهوريات الاتحادية عامة ومن الجمهوريات الثلاث التي يقطنها شراكسة الوطن الأم، وأصبح لها علاقات صناعية وتجارية ومصالح متبادلة مع القطاع الخاص في فرنسا وإيطاليا وتركيا والتشيك وبعض الدول العربية مثل سوريا والأردن والامارات العربية المتحدة عامة ومع امارة دبي خاصة.

الحقيقة الخامسة عشر: ترفيع الجمهوريات الثلاثة التي يسكنها شراكسة الوطن الى جمهوريات إتحادية ومنح الشراكسة فيها بعض الامتيازات السياسية وبالأخص في جمهورية الأديغي التي حصلت على السيادة الإدارية والاقتصادية ووقعت على اتفاقية الفدرالية في العام ١٩٩٢ وتحولت إلى جمهورية الأديغي، واعترف بها الدستور الفدرالي كجمهورية ضمن الفدرالية الروسية وفي عام ١٩٩٥ صادقت على دستورها الخاص: دستور جمهورية الأديغي. واستطاع الأديغة رغم ان غالبية السكان من السلاف والقوزاق فرض شرط أنقان اللغة الشركسية كصفة أساسية يجب ان يتمتع بها المترشح لمنصب رئاسة الجمهورية، وجعلوا اللغة الشركسية لغة رسمية للدولة إلى جانب اللغة الروسية، كما تبنا علم الشراكسة الذي خاضوا الحرب الروسية تحت ظلها علما لجمهوريتهم، وسيطروا على معظم الوظائف الحكومية، وضمنوا بذلك أن يكون رئيس الجمهورية من الشراكسة.. وهو امر ما كان ليتحقق لولا دعم الحكومة المركزية .

الحقيقة السادسة عشر: عودة حرية ممارسة الإديان عامة والدين الإسلامي خاصة في ظل حكم روسيا الاتحادية وإن خير من عبر عن هذه العودة هو إمام جامع (مايكوب الكبير) يوم افتتح الجامع في ٢٤/١١/٢٠٠٠ بقوله:

"لقد تعرض الإسلام في منطقة قفقاسيا إلى نكبات خطيرة مع استلام الحكم الشيوعي الإلحادي السلطة أوائل العشرينات من القرن الماضي. ومن ذلك التاريخ ونتيجة الحرب التي شنها الشيوعيون على الأديان وخاصة الدين الإسلامي، وما رافق ذلك من قتل وسجن وتعذيب ونفي إلى أقاصي سيبيريا للسكان، وبالأخص علماء الدين والأئمة منهم، تراجع الحضور الديني في بلاد الشركس بشكل كبير جداً، وانتشر بدل ذلك تيار الجو الإلحادي الذي كانت تبشر به وتعمل من أجله السلطة الرسمية، واستمر الوضع على هذا الحال لحين سقوط الحكم السوفيتي في القرن الماضي.

وفي السنوات القليلة التي أعقبت هذا السقوط، باعتبار أن تأثير التيار الإلحادي الشيوعي لم ينته دفعة واحدة، ولكن وبمشيئة الله وتوفيقه، وبعد أن استقرت الأوضاع لاحقاً، بدأت براعم أغصان الشجرة التي اعتقدوا أنها يبست وماتت تتفتح من جديد، وأخذ العديد من الناس يتوقون ويحنون إلى القصص والحكايا التي كانوا يسمعونها من آبائهم وأجدادهم عن الدين الإسلامي، "يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون". صدق الله العظيم.

وهكذا، فإن التربة عادت صالحة الآن، والأمر لم يعد يحتاج سوى للدعاة الأكفاء، البعيدين عن التطرف والمغالاة في تفسير وتطبيق أمور الشريعة الإسلامية السمحة، والعارفين بنفسية وعادات وتقاليد الشعب الشركسي، وذلك من أجل توعية الجمهور الشركسي وإرشاده إلى تعاليم الدين الإسلامي من جديد.

والدارس للأوضاع الدينية في جمهوريات شراكسة الوطن الأم في ظل حكم روسيا الاتحادية يجد بأن التربة عادت صالحة لممارسة العبادات، والأمر لم يعد يحتاج سوى للأئمة الأكفاء البعيدين عن التطرف والمغالاة في تفسير وتطبيق أمور الشريعة الإسلامية السمحة، والعارفين بنفسية وعادات وتقاليد الشعب الشركسي، وذلك من أجل توعية الجمهور الشركسي وإرشاده إلى تعاليم الدين الإسلامي السامح.

كما نلاحظ بأن الإدارة الدينية الحالية ربما كانت من أحسن الإدارات التي تعاقبت على البلاد في العشر سنوات الأخيرة، كونها نظيفة اليد ومنفتحة العقل. وأن مسؤوليات كبيرة ملقاة على عاتق هذه اللجنة ومن أهم هذه المسؤوليات:

- إعادة ثقة الناس بالإدارة الدينية نفسها، لا سيما وأن الثقة كانت قد تدهورت كثيراً في السنوات السابقة.
- إعادة رسم صورة الدين الإسلامي الحنيف للناس بالشكل الصحيح، وإعادة الثقة بها بعد أن تم تشويهها على مدى السنوات الطويلة الماضية.
- استقطاب جيل الشباب الحائر والتائه معاً والذي اضطرب مؤثر بوصلته الفكرية تحت وطأة المخدرات والانحلال والبطالة.
- توحيد طاقات الشعب الذي تشتت قواه وتبعثرت هنا وهناك، وإيقاظه من رقدته التي طالت.
- تفويت الفرصة على المذاهب الهدامة والعقائد المنحرفة والتي تهدف إلى شرذمة طاقات الشعب وتوسيع شقة الخلاف بين أبنائه، وذلك عن طريق كشفها وتعريضها أمام الجمهور.
- تكثيف الدورات وحلقات الدرس الديني لغاية تثقيف الناس بكافة أطيافهم بأمور الدين، وسيكون الصيف القادم حافلاً بمثل هذه الدورات والنشاطات بإذن الله.

هذا بالإضافة إلى سماح الحكومة الروسية بإنشاء بعض المساجد في المدن الرئيسية وبعض القرى كما سمحوا بممارسة الشعائر الدينية وحرية القيام بالعبادات دون خوف كما أوفدت حكومات الجمهوريات الشركسية الثلاث (كبارينا - بلغاريا وقراشي تشرلبيسيا والأديغي) بعض الشباب الشركسي إلى بعض البلاد العربية والإسلامية لدراسة اللغة العربية والشريعة الإسلامية بهدف تأهيلهم ليصبحوا أئمة مساجد ورجال دين وإن كان عددهم قليلاً.

وربما كان من مظاهر الانفتاح الدين هو حصول سكان الجمهوريات القفقاسية الثلاث التي يقطنها الغالبية الشركسية في الوطن الأم، على حرية كبيرة في ممارسة شعائر الدين الإسلامي وفي بناء المساجد وإنشاء دور إفتاء وتشكيل مجالس لرعاية الشؤون الدينية في كل جمهورية والامثلة على ذلك كثيرة ففي جمهورية (كباردينا بلقاريا) مثلا، كان عدد المساجد فيها في مطلع التسعينات من القرن الماضي مسجدين فقط، فارتفع عددها في عام ٢٠٠٠ إلى تسعة مساجد، كما تم إنشاء دار للإفتاء وأصبح الشيخ (شفيع) أحد خريجي كلية الشريعة من الجامعة الأردنية في منتصف التسعينات مفتي جمهورية (قباردينو) كما تم ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الشركسية بفرعها (القبردينية والأديغي).

والشراكسة اليوم في الوطن الأم هم جميعا (سنيون) ويتبعون المذهب الحنفي ولا وجود للمذاهب الأخرى عامة والمذهب الوهابي خاصة بالرغم من المحاولات العديدة لنشر الوهابية فيها، كما حدث في الشيشان ويشرف على الشؤون الدينية مجلس الأئمة في جمهورية (القبردي)، والمجلس الروحي الإسلامي في (تشركسيا) ولا يوجد مجلس مختص لإدارة الشؤون الدينية في (الأديغة)، وكذلك فإن أكثر من مجلة دينية متخصصة تصدر في كل جمهورية من جمهوريات قفقاسيا الشمالية بالإضافة إلى صدور جريدة دينية واحدة في كل جمهورية^(٥٠).



جامع مايكوب الكبير

ومن ابرز ملامح النهضة الدينية التي حدثت في الجمهوريات الاتحادية الذي يعيش فيه الشراكسة في الوطن الام حتى عام ٢٠٠٦ يمكن تلخيصها في الملامح التالية:

أولا: قيام بعض رجال الدين بالتعاون مع بعض الكتاب بإصدار مجموعة من الكتب الدينية باللغة الشركسية منها:

(١) كتاب الصلاة. (٤) كتاب لرسول الله عليه الصلاة والسلام.

(٢) ترجمة معاني سورة ياسين. (٥) كتاب حول أركان الاسلام.

(٣) خطب الجمعة (٢٠٠) صفحة وكتيب يضم (٦٠) خطبة.

ثانياً: قام (خواج) بانتهاء مشروع ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الشركسية بعد ١٢ سنة من دراسة القرآن الكريم من خلال كتب التفسير وكتب علماء الدين الإسلامي في الزمن المعاصر، أمثال الشيخ القرضاوي والطنطاوي وجودت سعيد تسي، وعلماء الإسلام الأوائل مثل الغزالي بالاستعانة بالشيخ (مصطفى بول) والذي يتقن اللغة الروسية والشركسية وهو من الذين يشهد لهم بحسن الخلق والتدين.

واستغرق هذا العمل ثلاث سنوات، ثم قام بالاستعانة بالاستاذ (نالوا زاور) الاستاذ في دائرة بحث اللغات والفلكلور الشركسي، حيث عمل معه على صياغة ما تم ترجمته من القرآن الكريم، بواسطة استخدام اللغة الادبية الشركسية إلى جانب النص العربي المرفق مع كل آية.

ثالثاً: ظاهرة اقبال الشباب الشركسي على المساجد وعلى الثقافة الإسلامية*، إلا أنه من المؤسف أن هذه الثقافة (أي الإسلامية) متوفرة فقط باللغة الروسية، وهي في معظمها تحمل بين طياتها اغلاطا فاحشة؛ إما بسبب (غرض في نفس يعقوب)، أو بسبب الجهل وغياب الدافع الذاتي للتدقيق في معلومات المؤلفات الإسلامية باللغة الروسية وعلى سبيل المثال ترجمت كلمة (الاشهاد) على أنها تعني رجال الدين المسيحي الذين يتلقون اعترافات المخطئين من وراء ستار ويغفرون لهم، وهذه ترجمة خاطئة، وهناك الكثير من الاخطاء على شاكلة ذلك.

واستطاع (خواج) ان يكسب ثقة الشباب فكثيرا ما يجلس معهم مفسرا لهم البعد المقصود من الآيات القرآنية والتخفيف عليهم من خلال الاستشهاد بأقوال أئمة المذاهب الإسلامية غير المتشددة مثل مذهب الامام أبو حنيفة، كما حاول أن يفسر لهم الكثير من دعوات الدين الإسلامي مثل الدعوة للجهاد وأنها لا تعني فقط قتال الكافر وإنما الجهاد أنواع منه الجهاد بالنفس والدعوة في سبيل الله عز وجل من أجل نشر الدين الإسلامي كما يحاول إبعادهم بقدر المستطاع عن الاتيان بأعمال لا تتناسب والظروف التي تمر بالقفقاس حاليا والدعوة لنشر الإسلام سلميا وبالأقناع ومن خلال الجهد الإعلامي والتنقيفي حتى لا يترك للمتطرفين الروس فرصة لضرب شعوب القفقاس الأخرى من جديد وتدمير مقوماتها متخذين (من الإسلام وانتشاره بواسطة الجهاد) ذريعة لتحقيق مآربهم.

رابعاً: قيام الصحف بنشر المقالات الدينية وكذلك قيام الاذاعات المحلية والتلفزيون المحلي ايضا بنقد وعظ وارشاد وتنقيف بشكل مستمر، ولو أن ساعات البث الاسبوعي لا تفي بالمطلوب بعد.

خامساً: الإقبال على بناء مساجد جديدة بدعم من الأخوة الشراكسة في بلاد المهجر، نذكر منهم: مسجد قرية بنجقواي في جمهورية الأديغي الذي بناه الحاج حسني شومان صوبر من شراكسة الأردن والذي تم افتتاحه يوم ١٩٩٦/٩/٢٩.

كان أول المتحدثين يوم الافتتاح هو السيد "بسونقوه عيسى" رئيس بلدية "بنجقواي" الذي قال في كلمته:

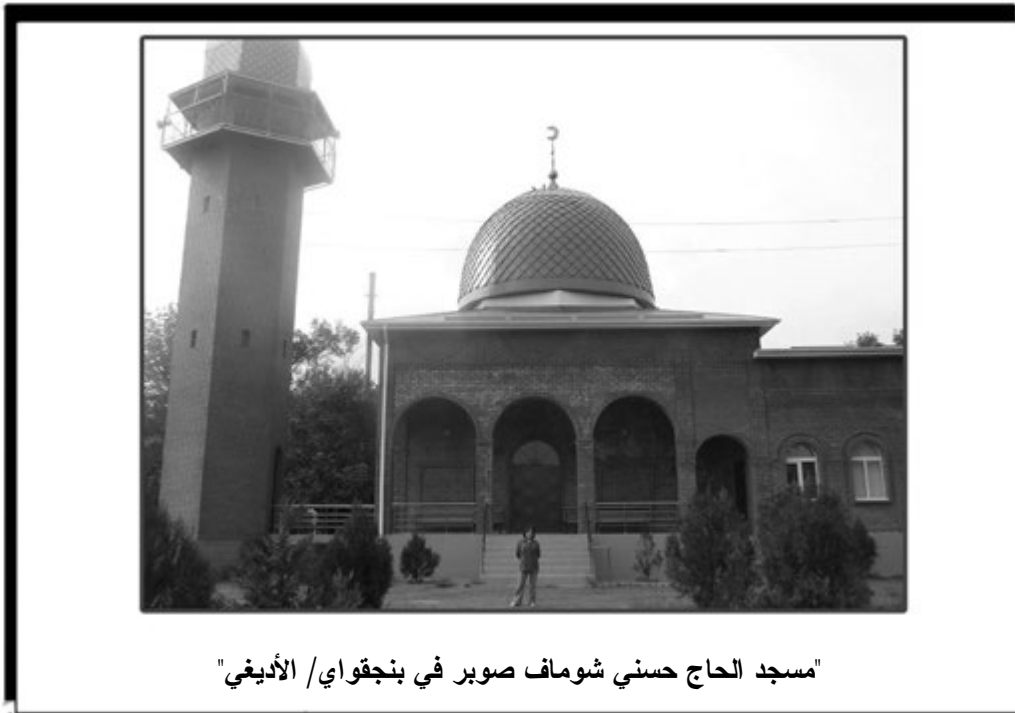
منذ مدة طويلة، وأهالي هذه البلدة، ينتظرون بناء مسجد، وسبق أن فكر أهالي البلدة في بناء مسجد أكثر من مرة، في ظل النظام السابق ولكن كما تعلمون، فإن هذا النظام لم يكن يهتم بالأمور الدينية، حيث سبق أن قاموا بهدم جميع المساجد في مناطق الأديغي، ومن ضمنها هذه البلدة.

* يلاحظ بأن السلطات الروسية المحلية بدأت التضييق على المسلمين عامة والشيشان خاصة من خلال ملاحظة ومتابعة الشباب الذين يترددون على المساجد بعد أن حدث أن هاجم بعض المسلمين من الشباب مبنى المخابرات في مدينة نالتشك وكذلك بعد ان تكررت الاعتداءات على شخصيات وعلى مواقع مختلفة في أكثر من جمهورية من الجمهوريات التي يقطنها الشراكسة في الوطن الأم من قبل مجموعات اسلامية مسلحة.

ولكن مع المتغيرات الأخيرة في الاتحاد السوفيتي، أصبحت الحرية الدينية متاحة، فتداعى شيوخ البلدة، وفكروا في طريقة لبناء المسجد، وجمعوا في سبيل ذلك مبلغ ٩٥ ألف روبل، ولكن هذا المبلغ، أصبح لا يساوي شيئاً يذكر ولا تزيد قيمته عن بضعة دولارات، ولكن الله سبحانه وتعالى، قدر لهذا العمل الكبير أن يتم على يد المحسن الحاج حسني شوماف صوبر، الذي تعهد ببناء المسجد ودفع جميع تكاليفه من جيبه الخاص، ووفى بوعده، وها أنتم ترون أمامكم المسجد الذي قام بإنجازه.

وأضاف السيد عيسى:-

كما تعلمون فإن الوعي الديني في هذه المنطقة أصبح شبه معدوم، مثلها مثل سائر المناطق الأخرى، التي رزحت تحت نير القمع الديني عشرات السنين، وأصبحت الأمور الدينية لا تشغل سوى كبار السن منا، وهذا لا يكفي، فنأمل من المسجد الجديد أن يؤدي دوره على الوجه الأكمل، لنشر الدين الإسلامي الصحيح وغرسه في عقول أبنائنا



"مسجد الحاج حسني شوماف صوبر في بنجقوي/ الأديغي"

وبالرغم من الايجابيات العديدة التي يشعر بها المواطن الروسي عامة والفقاسين عامة ومنهم الشركاسة، فإن الدارس للحياة العامة للشركاسة في الوطن الأم عامة وفي الجمهوريات الاتحادية التي يعيش فيها شركاسة الوطن الأم يجد بروز بعض الأمور التي أثرت تأثيرات سلبية على بعض نواحي حياتهم.. ونذكر منها السلبيات التالية:

السلبية الأولى:

بالرغم من استمرار الانتاج الزراعي والحيواني في الجمهوريات الشركسية الثلاثة في عهد روسيا الاتحادية على مستوى الأفراد والمجموعات الزراعية بعد أن اختفت المزارع التعاونية (الجولخوزات) وظهرت الملكية الفردية من جديد، ومن انطباعاتي الشخصية * بأن مستوى الانتاج الزراعي والحيواني في هذه المرحلة انخفض انخفاضاً ملحوظاً، وظهرت مشاكل التسويق، وضعف

* توصلت لهذه الانطباعات من خلال زيارتي الشخصية لجمهورية قباردينا - بلقاريا عام ٢٠٠٦ وتجولي فيها.

الخبرة في اعداد المنتوجات للتصدير، كما ظهرت مشاكل نقل المنتوجات الزراعية إلى الاسواق الخارجية، واصبحت كثير من المحاصيل الزراعية والحيوانية غير مجدية اقتصاديا، فاتجهت أعداد كبيرة من الفلاحين الشراكسة للبحث عن مهن بديلة لمهنة الفلاحة وهي ظاهرة تشكل خطورة على مستقبل الثروتين الزراعية والحيوانية في الوطن الأم، وهي المشكلة التي تنبعت لها القيادات السياسية والاقتصادية، وبدأوا يضعون الحلول المناسبة لها.

السلبية الثانية:

وهي سلبية نشأت نتيجة تحول سلطات روسيا الاتحادية من النظام الاشتراكي إلى نظام الرأسمالية (تقريبا)، واتباع سياسة السوق المفتوحة والخصخصة.. حيث ساهمت بتطبيق مثل تلك السياسات على هجرة أعداد كبيرة من الشباب من القرية إلى المدينة داخل الجمهورية الواحدة من ناحية، وهجرات مجموعات كبيرة أيضا بهدف العمل أو الدراسة إلى مدارس أخرى داخل روسيا الاتحادية. الأمر الذي قد يؤدي إلى تفريغ القرى إن لم ينتبه لها المسؤولين واصحاب القرار في الجمهوريات الشركسية.

السلبية الثالثة:

وهي سلبية ناتجة عن سياسة الانفتاح الاجتماعي الكبير الذي حدث بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتشكل دولة روسيا الاتحادية حيث اثر هذا الانفتاح على الثقافة القومية الشركسية عامة وعلى القيم الاجتماعية والعادات والتقاليد خاصة.

وربما كان أفضل من عبرت عن مدى تأثير الانفتاح الاجتماعي الذي بدأ في عهد البيروستروبيكا في عام ١٩٨٩ على خصائص الثقافة القومية الشركسية عامة... هي الكاتبة الشركسية: (رايا مامخيغ) في كتابها الصادر في نالتشك عام ١٩٩٣ باللغة الروسية وترجمها إلى العربية الكاتب نزيه جلاجج من شراكسة سوريا في عام ٢٠٠٦.

حيث عبرت في كتابها (لمحات عن العادات والتقاليد الشركسية) عن قلقها على حاضر ومستقبل الهوية القومية الشركسية من تقاليد وعادات وأعراف وقيم اجتماعية واخلاقية ونقتبس من أقوالها الفقرات التالية:

"أما فيما يخصنا نحن (الأديغا) فقد آن الوقت من زمن للتوقف والتمعن: هل نحن اليوم فعلا شراكسة مقارنة (بالأديغاخايزة) والتقاليد الشركسية، نحن الذين انتشر الزي الوطني بنا منطقة شمال القفقاس كلها، بما في ذلك جورجيا ولدى قوزاق نهر تيرك وكوبان؟!

وتقول أيضا: "يجب ان نملك الشجاعة للاعتراف: للأسف بأننا فقدنا الكثير من (الخايزة) ولا زلنا نفقدها مع الزمن، ولهذا أسبابه طبعاً منها ما هو موضوعي ومنها الذاتي، ولكن السبب الأساسي يعود إلينا، وإلى التربية البيئية والأسرة الشركسية".

وتستطرد (مامخيغ) قائلة:

"... الناموس الشركسي هو فخرنا القومي والذي لا يعرفه إلا القليلون في أيامنا هذه: أي مواصفات اخلاقية يفترض وجودها لدى الشباب والفتيات؟ وما حدود السلوك المرسومة لكل نواحي الحياة والنشاط الاجتماعي والإنساني؟"

"إلا أن الصفات القومية والشخصية الوطنية تختفي رويدا رويدا عند افتقاد اللغة القومية، وتختفي معها الثقافة الوطنية والتاريخ أيضا.

فما الذي سيمحو آثامنا؟ (أخطاؤنا)

"بعد ثورة أكتوبر اعجبنا كلنا بـ "الاتحاد الابدی للجمهوريات الحرة" و "الاخ الأكبر العظيم والصدقة الأممية"، ولم يتعمق الكثيرون منا في مغزى الكلمات (قومية في الشكل واشتراكية في المحتوى)".

"وبغرض تربية الأجيال الشابة للحياة المعاصرة وجهناهم للاستماع إلى الراديو والتلفزة الروسية المركزية، واصبحنا نمارس عادة التخاطب باللغة الروسية ونستمع بالأغاني والحكايا والثقافة الروسية، والأدب والتاريخ الروسي، حتى إننا في وقت ما كدنا ننسى اننا شركاسة، ونحجل إن تذكرنا ذلك.

وقالت أيضا: وحين استيقظنا في (البيروسترويكيا) وجدنا انفسنا، اننا لم نصبح روسا بعد ولكننا لم نعد اديغا أيضا، وأي أديغا نحن؟ إذا كان شبابنا وخاصة في المدن لا يكتبون ولا يقرؤون ولا يؤلفون بلغتهم الأم؟ ويمكنهم التعرف على مؤلفات الكتاب الشركاسة والشعراء والنقاد فقط من خلال اللغة الروسية (بعد الترجمة)، حتى تاريخ الشعب الشركسي يصل إليهم باللغة الروسية.

ثم تساءلت قائلة: "من الواضح ضمن هذه الظروف في أي حال هو مستوى معرفتهم بالأديغا خابزة والناموس الشركسي".

ومما يدعو للحزن والشفقة والسخرية ان نرى العديد من الشباب المثقف (إلى حد ما) يتحدثون مفاخرين بالصفات القومية (للأديغا) التي تذكرها مؤلفات الكتب الأوروبية دون أن يخجله انه هو نفسه لا يمتلك هذه الصفات. وللأسف فإن العديد من كبار السن ابتعدوا أيضا عن الاهتمام بتربية الشباب وحتى بالنسبة للمقربين منهم متماشين مع واقع الحال... (إن الزمن الحاضر هكذا ومن غير الواقعي ان تخالف هذا الواقع).

نعم. إن الزمن الحالي صعب، وأصبح الناس أكثر جلافة ومادية وأنانية، أما الرومانسية وحب الجمال فقد اندحرا امام أفضلية المصلحة الشخصية وحب الذات، ويضيع أثر الصداقة الحقيقية والإخلاص للواجب، وما كان شائعا كونه مفخرة سكان القفقاس (احترام كبار السن) مهدد بالانقراض.

من المعروف ان كل أمه لها فكرها القومي الخاص وهو في أساس صفاتها القومية، وهذا ما يجب أخذه بالاعتبار عند تربية الاجيال الناشئة، وإذا لم نغذ في الشباب الناشئ فكره الوطني والقومي الخاص فمن الممكن ان يتربى طبيعيا بأفكار قومية أخرى، وسيعيش غريبا بتفكيره، ومفتقدا لقوميته، وليس علينا أن نذهب بعيدا لنحصل على مثال عما يحدث لشبابنا اليوم فحياتنا اليومية وسلوك شبابنا خير دليل.

فليس من النادر ان نسمع في أيامنا هذه احكاما مثل: "... من له الحق في إيماننا هذه، أيام العهد الديمقراطي ان يلزمننا بتدريس اطفالنا بلغة الأديغا؟! " ليست هذه إشارة الخطر؟ خاصة عندما تصدر من رئيس مجموعة تدريسية تمارس منذ زمن تعليم وتربية الاجيال الناشئة لبلدة كاملة؟! إن منافساتنا بخصوص مواضيع ممارسة العادات قد أماطت اللثام عن الكثير من الضياغ وخير دليل على ذلك هو ما قالته إحدى شابات في القبرطاي قبل إقدامها على الزواج: "سوف أبدأ حياتي الزوجية بأن أوقف زوجي عند حده قبل كل شيء" ويمكن التكهن أيضا انها أخذت بالحسبان اهل زوجها وحددت لهم مكانتهم...

نعم لقد وصلنا إلى هذا الحد من تجاهل العادات الشركسية متجاهلين الأسس الوطنية، وبالنتيجة وعوضا عن تكوين مجموعة متصادقة من مختلف القوميات تكونت أجيال من الناس (مسلوخة) من مميزاتها القومية.

وتختتم (مامخيغ) مخاوفها من اندثار واختفاء العادات والتقاليد الشركسية بقولها:

"واليوم عندما تؤثر المسألة المعاشية على طريقة تفكير الناس بشكل رهيب، وتقضي على تصوراتهم السابقة عن الحدود الاخلاقية، نرى أنه من الضروري العودة بشكل خاص إلى أفضل ما في عاداتنا القومية وتقاليدنا، وأن ندعوها لتساعدنا في تربية أجيالنا القادمة".

كما تقول: طبعا يجب التعامل مع هذا الموضوع بشكل موضوعي، والأخذ بالاعتبار الخصائص الزمنية والمتطلبات المعاشية والاخلاقية لمجتمعنا الحالي.

ونحن ندرك أن ليس كل ما تحويه العادات الشركسية يمكن الأخذ به حاليا ونطبقها في حياتنا الحاضرة، بل نوافق على هذه، وندع ذاك بحسب الواقع، وإنما المهم هو دراسة هذه العادات بعمق وتحليلها بشكل موضوعي ومبدع، وتحديد الغاية الاخلاقية من كل منها، والمتماشية مع التراث الفكري الانساني^(٣٠).

وأنا شخصيا أشاطر الكاتبة (مامخيغ) قلقها وتخوفها... خاصة إنني لمست من زياراتي المتكررة في السنين الخمسة الاخيرة للوطن الأم مدى تراجع تمسك الجيل الجديد بالعادات والتقاليد والاعراف.

وكم حزنت عندما سمعت من أكثر من شابة وشاب يقولون "إن ما تفعله في هذا الزمان هي العادة... وليس بالضرورة ان امارس عادات لا أؤمن بها لمجرد كونها عادات وراثتها" كما لمست تراجع اتقان اللغة الشركسية من قبل الاجيال الجديدة عامة وسكان المدن الكبيرة خاصة... وهي نفس تخوف الشراكسة في الشتات في العالم.

الفصل الثامن

الصراعات العرقية والتحديات الاقتصادية والسياسية التي تواجه شركاسة الوطن الأم في عهد روسيا الاتحادية

يتعرض شركاسة الوطن الأم الذين يستوطنون في الجمهوريات القفقاسية الأربعة وهي (كباردينا، بلقاريا، والاديغي، وقرانتش - تشركسيا، وابخازيا المستقلة) يتعرضون لمؤامرات سياسية واقتصادية واجتماعية تهدف القضاء على وجودهم في وطنهم وعلى أرضهم التاريخية، كما تهدف إلى زعزعة استقرارهم وامنهم في وطنهم الأم.

وفيما يلي تحليل لانواع المؤامرات والصراعات العرقية التي يتعرض لها شركاسة الوطن الأم منذ تشكلت دولة روسيا الفيدرالية في عام ١٩٩٢ نذكر منها الانواع التالية:

النوع الأول: ويتمثل في سعي (منظمتي القوزاق والسلاف) اللتان تشكلتا في جمهورية الأديغي عام ١٩٩٢ لفصل المقاطعات التي تسكنها اكثرية سلافية (روسية) عن جمهورية الاديغي... وكذلك محاولة فصل مقاطعة (منطقة) مايكوب العاصمة عن جمهورية الأديغي.

النوع الثاني: ويتمثل بتأسيس اقليم (دائرة) شمال القوقاز الفيدرالية عام ٢٠١٠ وهو الاقليم الذي يضم سبع جمهوريات قوقازية وهي: الدغستان والانغوش والشيشان وكباردينا وبلقاريا، وقرانتشي تشركسيسا، واوستينا الشمالية، الانيا وستافروبول وبياتيفورس المركز الاداري بهذه الدائرة الفيدرالية الجديدة (كما سبق الإشارة إليها في الفصل الثالث من هذا الجزء).

وبررت السلطات الروسية بأن الهدف من انشاء هذه الدائرة هو حل المشكلات الاقتصادية التي تعاني منها هذه الجمهوريات، بينما الشركاسة يعتقدون بأن الهدف غير معلن لانشائها هو هدف منع القوميات التي تشكل هذه الجمهوريات عامة والجمهوريات الشركسية خاصة من احياء دولة تشركيسيا التاريخية، ويتضح هذا الهدف العرقي / الاتني من عدم ضم جمهورية الاديغي لهذه الدائرة الاقليمية.

النوع الثالث: ويتمثل بالصراعات والقتال التي تشهدها جمهورية كباردينا / وبلقاريا، ومحاولة البلقار من سكان الجمهورية عامي ٢٠٠٩ / ٢٠١٠ الاستيلاء على مساحات شاسعة من الأراضي الرعوية الخاصة بشركاسة الجمهورية من القبرطاي.

النوع الرابع: ويتمثل بنشر أحد مواطني القرشي واسمه (م. ر. بودي) من جمهورية قرانتشي - تشركيسيا مجموعة من الادعاءات الكاذبة، والمغالطات التاريخية حول الحقوق التاريخية لشركاسة البلسني في وطنهم الأم واراضيهم التي عاشوا عليها اجدادهم وأباءهم منذ اكثر من ستة الاف سنة، حيث أثارت نشر مثل هذه الاكاذيب والمحاولة لتسوية الحقائق التاريخية في جريدة واسعة الانتشار مثل جريدة الحوار الروسية في عددها (١٢) لسنة ٢٠٠٠ غضب شركاسة الجمهورية عامة وشعوب الشركاسة في الوطن الأم في شمال القوقاز فخرجت المظاهرات الحاشدة في أكثر من جمهورية.

وفيما يلي موجز للصراعات والمؤامرات التي تضمنتها كل نوع من الانواع الأربعة سابقة الذكر.

أولاً: موجز للاشكال والصراعات والمؤامرات التي تضمنتها النوع الأول... ويتمثل في الوقائع والحقائق التالية:

تأسيس منظمتان عرقيتان في جمهورية الاديغي عام ١٩٩٢ وهما:

* اتحاد قوزاق الاديغي * واتحاد سلاف الاديغي

واتخذت هاتان المنظمتان موقفا سياسيا راديكاليا يتمثل في المطالبة بفصل المقاطعات التي تسكنها اكثرية سلافية عن جمهورية الاديجي والانضمام لاقليم كراسندار الروسية، كما حاولت منظمة اتحاد سلاف في الاديجي جرّ اتحاد القوزاق إلى هذا الصراع السياسي العرقي.

هذا وكان سبق أن قامت (لجنة) مقاطعة (منطقة) مايكوب (العاصمة) في الجمهورية بمحاولة فصل هذه المقاطعة عن الاديجي في عام ١٩٩٠.

وتطور هذا الصراع السياسي /العرقي في الاعوام ما بين ١٩٩٢/١٩٩٤ عندما خططت منظمة اتحاد السلاف لاستقدام اكثر من ١٢,٠٠٠ روسي ليصبحوا مواطنين في جمهورية الاديجي. وكذلك تبني منظمة اتحاد القوزاق سياسة (Primisnye) وهي السياسة التي تسمح لتوطين أشخاص من غير (القوزاق) بتوصية اثنين من المواطنين القوزاق ويصبحون بعدها مواطنين في الجمهورية بهدف زيادة اعدادهم في هذه الجمهورية.

وكان من نتائج هذا القرار العرقي، ان استقدموا مجموعات كبيرة من المهاجرين إلى جمهورية (الاديجي) حيث استقدم أكثر من ٤,٠٠٠ أرمني من كاراباخ بالإضافة لاستقدام أكثر من ١,٠٠٠ لاجئ من أكراد أرمينيا، علماً بأنه يوجد في الأديغي أكثر من ٣,٣٠٠ كردي في الوقت الحاضر وكثير منهم غير مسجلين رسمياً.

كما استغل اتحاد السلاف القوانين الفدرالية الروسية لتمرير اجنداتهم الانفصالية، وخاصة ما يتعلق منها بالشق الاقتصادي والتي تنص على أن أية جمهورية روسية تزيد ديونها عن ٣٠% من إجمالي دخلها تعتبر (جمهورية مفلسة) ويحق للسلطة المركزية في موسكو في مثل هذه الحالة حل السلطة التنفيذية وتعيين حاكم إداري لها، لذا سعى اتحاد السلاف إلى اغراء الرئيس السابق (جاريما) بالاستدانة بالرغم بأن الوضع الاقتصادي للجمهورية كان مطمئناً حيث احتلت المرتبة الاولى لمنطقة الفقفاق في مجال الشروط والاتفاقيات الاستثمارية والنمو الاقتصادي، إلا أن انتشار الفساد الإداري في عهد الرئيس (جريميا) والذي ساهم فيه السلاف بنسبة كبيرة اتاح الفرصة للسلاف لتقديم صورة قاتمة عن الوضع الاقتصادي في الجمهورية إلى السلطة المركزية، إلا أن نجاح السيد (حزرت شومن) في الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠١ أبطل مساعي منظمة اتحاد السلاف الروس حيث حصل (حزرت ميدزيوفيتش شومن) على ٦٨% من الاصوات في انتخابات عام ٢٠٠١ ، وما أن تولى منصبه حتى بدأ العمل وبسرعة على تقليص الفجوة المعيشية بين سكان الأديغي، ولكنه فشل في انقاذ اقتصاد الجمهورية وفي آذار ٢٠٠٥م بدأ اتحاد السلاف بالاحتجاج من جديد على الوضع الاقتصادي للجمهورية مطالبين (حزرت) بالاستقالة وبحل الجمهورية، وفي نيسان شجع مورات أحيذاك حاكم اقليم كراسندار والشابسوغ على حل الجمهورية وتوحيدها مع كراسندار مما اثار ردّة فعل قويّة من شراكسة الجمهوريات الشركسية ومن مجموعة المحامين وهي مجموعة (الأربعين) التي تمثل كل شراكسة الفدرالية الروسية والتي تشكلت في ٢٠ نيسان ٢٠٠٤، وأعاد الكونجرس الشركسي التأكيد على هدفها: اعادة خلق وطن الشراكسة الموحد في شمال غرب الفقفاق حيث تراجع (احيدزاك) عن كلامه وادعى أن كلامه فهم خطأ.

وفي ١٥ نيسان من عام ٢٠٠٥ دعى كل من الأديغة خاسة والكونجرس الشركسي إلى اجتماع عام لكل الشراكسة لتحديد أساليب مواجهة الضغوط المتزايدة على برلمان الاديجي لاجراء استفتاء حول مسألة انضمام الاديجي لكراسندار، وفي ٢٠ نيسان اعلن الأديغة خاسة عن تشكيل لجنة للدفاع عن وضع جمهورية الأديغي، وتكونت اللجنة من أربعين شخصاً، وبعد يومين تجمع أكثر من ١٠,٠٠٠ شركسي في مايكوب للدفاع عن وضع الجمهورية، وفي ٢٣ نيسان أعلن فلاديمير قروموف أتامان (رئيس) قوزاق الكوبان أن اثاره موضوع حل جمهورية الاديجي يمكن أن يثير العواطف القومية الشركسية وتغيب الشعب وستولد موجة جديدة من عدم الرضى، وفي ٢٤ نيسان نظم شراكسة فلسطين والأردن وتركيا تظاهرات لتأييد جمهورية الاديجي، وفي اليوم التالي أعلن حاكم كراسندار (الكسندر كاشاييف) رفضه لمبدأ حل جمهورية الاديجي.

إلا أن محاولات السلاف والقوزاق لم تتوقف الأمر الذي أدى لقيام الرئيس حزرت الأديغي.. إلا أن تدخل ممثل الرئيس الروسي ديمتري كوزاك منع حدوث انفجار الوضع في الأديغي... والغى (حزرت) قرار حل البرلمان وتأزم الوضع من جديد ليصل إلى الذروة عندما أعلن حل برلمان (الأديغة خاسه) والكونجرس الشركسي رفضهما كل الجهود المبذولة لإقامة نصب تذكاري ل St.Nicholas (العامل المعجزة) في ميدان النصر في مايكوب عاصمة الأديغي حيث تجمع عدد حول موقع النصب اضطر معها عمدة المدينة (نيكولاي بيفوفاروف) وقف العمل في الموقع. على اعتبار بأن هذا التمثال يشكل خرقاً للمبادئ الأرثوذكسية والإسلامية على السواء، كما يعتبر رمزا للاستعمار الروسي. وتوقف العمل بالمشروع في ذلك الوقت.

عادت قضية الأديغي إلى واجهة الأحداث أواخر تشرين أول من عام ٢٠٠٥ عندما بدأت تحضيرات البرلمان لتضمين الانتخابات القادمة استفتاء على حل الجمهورية وانضمامها لكراسندار بالإضافة إلى موضوع النصب التذكاري وافتتحت الجلسات في ٢٨ تشرين أول وأرسل المجلس إلى الرئيس بوتين يسأله المساعدة على حل قضية النصب التذكاري، وبعد خمسة أيام أعاد الكونجرس الشركسي رفضه بناء النصب، وأرسل مجلس شراكسة شمال القفقاس كتاباً للرئاسة، أكدوا فيه أنه في حال التوصية ببناء النصب فإن شعوب الأديغي والقبردي والشركسي والشابسوغ سيتحدون في جمهورية شركسية واحدة، وفي ٢٨ كانون ثاني أعلن حزرت وتكاشيف حاكم كراسندار بياناً مشتركاً يدعمون فيه الوضع الحالي للجمهورية وأعددين بتعاون أوثق في المجالات الاقتصادية بين الأديغي وكراسندار.

إلا أن الازمة لم تنتهي حيث بدأت القوى المناهضة للأديغة في الكيد (حزرت) وحاولت التشكيك في ولائه ونواياه، وعادت للعزف على الأوتار القديمة مثل تشجيع التطرف والادعاء بتحول الأديغي إلى مركز للوهابيين والمتطرفين، وبشكل خاص عندما طالب (حزرت) بضم إقليم الشابسوغ للأديغي، وبعد طرحه لمشروع بناء أوتوستراد يربط مايكوب بغودامس على البحر الأسود. وعمل القوزاق وجماعة روس على نشر شائعات مختلفة عن (حزرت) وأنه يقود المنطقة إلى حرب قفقاسية جديدة شبيهة بحرب الشيشان، إلا أنه استطاع أن يقنع الرئيس (بوتين) بمزايا الاتوستراد وأن يكسب دعمه رغم المقاومة العنيفة التي أبداه القوزاق والسلاف وحكام كراسندار الذين لم يتركوا شائعة إلا وتشبثوا بها لأنهم كانوا يعرفون أهمية الطريق لجمهورية الأديغي واقتصادها، وأن الطريق ستشط الحركة التجارية والاقتصادي في الجمهورية الأمر الذي سيعينها على تجاوز مشكلاتها الاقتصادية فسقطت الحجة التي يعتمدون عليها لحل الجمهورية وهي هشاشة الوضع الاقتصادي فيها.

أعيد طرح مسألة وضع الأديغي في البرلمان مرة أخرى في مرحلة لاحقة، حيث تم الاتفاق على وضع مسألة حل الجمهورية على (الرف) ولكن في نهاية الشهر أعاد اتحاد سلاف الأديغي إثارة المسألة، وهكذا استمر الصراع الخفي حتى يومنا الحاضر.

ثانياً: نماذج من الأكاذيب والمغالطات التاريخية حول الحقوق الوطنية للشراكسة في جمهوريات كبادردينا - بلقاريا، عامة وفي الأديغي، وقراشي - تشركيسيا خاصة.

ربما كان المقالة التي نشرها (م. د. بوداي) * في جريدة الحوار الروسية في عددها (١٢) لسنة ٢٠٠٠ خير مثال على هذا النوع حيث تضمنت هذه المقالة افتراءات وادعاءات وأكاذيب كثيرة. كما تضمنت مغالطات وتشويهات تاريخية حول حق الشراكسة في العيش على أراضيهم في الوطن الأم في منطقة القفقاس الشمالي منذ آلاف السنين.

* م. د. بوداي هو من أصل (القراشي) الذين ولدوا وعاشوا في سوريا سنوات طويلة، ثم عاد إلى جمهورية قراشي - تشركيسيا مؤخراً، وليس هو بباحث أو كاتب، وربما أن أحد المسؤولين من القراشي كتب له هذه المقالة ونشرها باسمه.

وفيما يلي نماذج من الأكاذيب والادعاءات التي نشرها هذا الكاتب في مقاله المذكور:

(١) الادعاء بأن الشركاسة في الوطن الأم قد (سرقوا) من جيرانهم القوقازيين لباسهم القومي وفلكلورهم واساطيرهم وادعوا إنها من تراثهم القومي ... علما بأن الفلكلور الشركسي قديم قدم الشركاسة. والأساطير الشركسية أقدم من الأساطير اليونانية واسطورة بروثيموس الذي قيد على إحدى جبال القفقاس يدل على أصل هذه الاسطورة. وهي مأخوذة عن "العلاق الذي قيده النارتيون على قمة الجبل" أما اللباس القومي فيسمى عند الشركاسة (أديغة فاشة) أي زي الأديغة (الشركاسة) ولكن الشعوب الأخرى تسمى هذا الزي (الشركيسكا) مما يدل على اعترافهم بأن أصل هذا اللباس المميز هو من أجداد الشركاسة وأن الجيران هم الذين اقتبسوا زيهم من الشركاسة منذ القدم، وهذا أكبر دليل على مدى محاولة هذا الكاتب المأجور تضليل الرأي العام الروسي عامة.

(٢) الادعاء بأن اللغة الشركسية لا تتضمن كلمة (وطن) وتوصل لهذا الاستنتاج من استخدام كلمة (رودينا) الروسية في جمهورية القبرطاي باسم لجمعية رعاية شركاسة الوطن الأم في الشتات. وتصدى لهذه المغالطة اللغوية الكبيرة أكثر من باحث في الوطن الأم ودول الشتات بقولهم:

إن كلمة (الوطن) موجودة باللغة الشركسية ولهجة جميع العشائر الشركسية وهي كلمة (XKY) خوك وان كلمة (رودينا) الروسية جاءت كون أن الجمعية سجلت في روسيا أبان الحقبة الشيوعية وأن الوطن عند الشركاسة ليس مجرد كلمة في لغتهم ولكنه تعني الأرض التي جبلت بدماء الأجداد وهم يدافعون عنها ضد الغزاة من كل جنس ولون وعلى مدار آلاف السنين. وكما من غاز ولى الأدبار مكللا بالخزي والعار بعد أن توهموا أن قدومهم إلى القوقاز سيكون مجرد نزهة يكسبون من خلالها المزيد من الانتصارات والأسلاب والغنائم.

(٣) الادعاء الثالث: أن الطبقة المثقفة من شركاسة الوطن الأم قد أعلنت إفلاسها من الناحية التاريخية والمنطقية، وتعذر عليها إبراز أية آثار تاريخية أو وثائق ثبوتية أن الأرض التي يقطنونها تعود تاريخيا لهم فلجأوا إلى ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا الخيالية) ونسبوا أرض (البروز) لهم.

وهنا نؤكد لكاتب المقال نفسه والجهة التي تقف وراءه من القرائشي والبلقر أنهم هم الذين افلسوا تاريخيا ومنطقيا وخلقوا أيضا بتجاهل كامل تاريخ القوقاز منذ أكثر من خمسة آلاف عام، وتجاهلهم للمكتشفات الأثرية الهامة في مدينة مايكوب. والتي لا تدع مالا للشك عن وجود حضارة - اشوي الشركسية وحضارة مايكوب - التي اثرت على حضارة البحر المتوسط بكامله وكذلك الكثير من الكتابات على الاواني المعدنية والقطع الفخارية التي اكتشفت في المناطق الشركسية والتي انتقلت إلى بيلبوس واثرت على الكتابة الفينيقية آنذاك.

ان الوطن الأصلي للشركاسة حسب المكتشفات الأثرية يمتد شرقا حتى جبل اشحاماخوا (البروز) والذي يعني بالشركسية جبل (السعادة) وجبل قازيك والذي سمي باسم أمير شركسي مشهور كما سمي باسمه أيضا بحر قزوين (بحر كازيك باللغة الروسية أيضا).

(٤) الادعاء: بأن الشركاسة في مصر لم يكن لهم أي دور في حماية الديار المصرية وبلاد الشام من الصليبيين والمغول، كما يذكر بأنه لم يكن لهم دور في بناء حضارة تلك البلاد متجاهلا في ذلك الحقائق التاريخية التي تؤكد بأن قادة وعظام منهم قادوا جيوش الايوبيين كما قام ملوك وسلاطين الدولة البحرية الشركسية التي حكمت مصر في خلال الفترة ما بين ١٢٥٠م و ١٣٨٢م والدولة البرجية الشركسية التي حكمت مصر خلال الفترة ما بين ١٣٨٢م و ١٥١٧م في معركة عين جالوت وطرد الصليبيين من بلاد الشام عامة ومن فلسطين خاصة، في معركة حطين، وأن آخر جندي صليبي قد هرب من ميناء عكا القديم كان على يد الشركاسة الأبطال في عام ١٢٩١،

* تصدى كل من الأستاذ مدوح كشت، والدكتور محمد شامل من شركاسة الأردن للاكاذيب والادعاءات والافتراءات الواردة في هذه المقالة في مجلة نارت التي تصدر عن الجمعية الخيرية الشركسية في عمان.

وخير دليل على ذلك النصب التذكاري الموجود حتى يومنا الحاضر في ميناء (عكا) القديم في فلسطين كتب عليه العبارة التالية "من هنا خرج آخر جندي صليبي على يد الشركاسة الابطال".

(٥) محاولة الكاتب التملق الواضح للشعب الروسي بإدعائه بأن شعبي القراشي والبلقار حريصون على أمن واستقرار الشعب الروسي والادعاء أيضا بأن الشركاسة في الوطن الأم يخططون لإعادة ثلاثة ملايين من شركاسة الشتات في المهجر إلى جمهورياتهم بهدف انشاء امبراطورية تشيركيسيا العظمى. وهو ادعاء كاذب لا يصدقه عاقل بينما الحقائق التاريخية تؤكد بأن الذين خانوا الروس وطعنوهم من الخلف هم زعماء القراشي والبلقان الذين انضموا للجيش الألماني بعد احتلالها لمنطقة القفقاس الشمالي إبان الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٢ وعمل اعداد كبيرة منهم (كأدلاء) وعند عبورهم المعابر الجبلية في القوقاز بينما الشركاسة عامة وشعب القبرطاي خاصة قاوموا الجيوش النازية التي غزت بلادهم واكبر دليل على الموقف الايجابي للشركاسة ما قامت به فرقة الخيالة الشركسية رقم ١١٥- التي انطلقت من مدينة نالتشك وهي اول فرقة تشكلت في القوقاز للتصدي للقوات الهتلرية الغازية وهي الفرقة القوقازية التي استمرت مقاتلة الهلريين وطردتهم من القوقاز ومتابعتهم مع الفرق الأخرى حتى وصلت إلى برلين وشاركت في الاستيلاء على مبني الرايخستاغ - وقضت على الرايخ الثالث.

وكان من نتائج خيانة شعبي البلقر والقراشي هو قيام (ستالين) بنفيهم عن مناطق سكنهم وابعادهم عن منطقة القفقاس لعشرات السنين.

(٦) محاولة الايقاع بين شركاسة الوطن الأم في الجمهوريات (الشركسية) الثلاثة وبين الشعب الروسي عامة والسلطات الروسية خاصة بادعائه بأنهم يدعمون الاسلاميين المتشرديين عامة والواهبيين منهم خاصة لزعة امن واستقرار البلاد في القوقاز عامة وفي روسيا الاتحادية خاصة.

ثالثا: نماذج من الصراعات بين المواطنين من شعب القبرطاي وشعب البلقار من سكان جمهورية، كباردينا - بلقاريا، في السنتين الاخيرتين وذلك عندما حاول زعماء شعب البلقار في الجمهورية الاستيلاء على أراضي واسعة من الأراضي المخصصة للرعي في مناطق القبرطاي في الجمهورية الأمر الذي أدى لانتفاضة واعتصام اكثر من عشرة الاف مواطن من القبرطاي في ساحات وشوارع العاصمة نالتشك صيف عام ٢٠٠٩.

كما ذهب عدد من البلقار إلى موسكو والاعتصام أمام الكرملين لاكثر من يوم مطالبين بتخصيص أراض زراعية لهم ... إلا ان محاولتهم باءت بالفشل، إلا أن هذه المطالبات لم تتوقف حتى وقتنا الحاضر.

رابعا: نماذج من سياسة سلطات روسيا الاتحادية لإضعاف تنامي الشعور القومي لمسلمي جمهوريات شمال القوقاز والحراك الايدولوجي الذي يهدف لتشكيل جمهورية أو جمهوريات مستقلة سياسياً واقتصادياً عن روسيا الاتحادية حيث كان رد فعل سلطات روسيا الاتحادية للقضاء على افكار التحرر والاستقلال هو قرارها السياسي بتأسيس إقليم (دائرة) شمال القوقاز الفيدرالية التي أشرنا إليها سابقاً وبالرغم من ادعاء السياسيين الروس بأن الاسباب الحقيقية لتأسيس هذا الاقليم هي أسباب اقتصادية إلا أن القيادات الشركسية في منظمات المجتمع المدني يشكلون المبررات التي يقدمها السياسيين الروس من عدم ضم جمهورية الاديجي لهذا الاقليم. علما بأن الشركاسة هم "شعب واحد وعائلة قوقازية واحدة تعيش في بيت واحد"، لكن إدراج كافة الجمهوريات الشركسية في دائرة شمال القوقاز الفيدرالية باستثناء جمهورية الاديجي أحدث "انقساماً عميقاً" والاعتقاد بأن الهدف من هذا القرار هو منع احياء جمهورية شركسية مشتركة، وهو الأمر الذي من شأنه أن يخلق مزيداً من المشاكل للأولمبياد المقررة في سوتشي في عام ٢٠١٤ .

كما يعتقد ناشطون سياسيون من الشراكسة بأن هذا القرار لن يساعد في التغلب على القرارات التي فرضها حكومة روسيا الفيدرالية على الشراكسة في أديغي وقباردي وشركس وشابسوغ وعدد آخر من المجموعات الأصغر، وهي قرارات يصفها نشطاء شركس بأنها يسد الطريق لعبث جمهورية شركسية واحدة وهي جمهورية تشركيسيا التاريخية.

أما القيادة الروسية فإنها تبرر بقاء جمهورية الأديغي في (الدائرة الجنوبية) وعدم إدراجها في دائرة شمال القوقاز الفيدرالية لوجود الاستقرار الاقتصادي في الجمهورية ولا حاجة للتدخل في عملية تطورها ان من مصلحتها أن تبقى في الدائرة الفيدرالية الجنوبية... وهو تبرير غير مقنع حسب رأي الساسة الشراكسة في الوطن الأم. لاعتقادهم بأن الهدف الحقيقي غير المعلن لعدم ضم جمهورية الأديغي للدائرة القوقازية الشمالية، هو سعيهم لتحقيق السياسة العنصرية لمنظمتي (السلاف والقوزاق) في الجمهورية التي تهدف لضم الأديغي لأقليم كراسنودار.

خامساً: بالرغم من اتخاذ الحكومة الروسية خطوات عملية لدعم إقليم شمال القوقاز الفيدرالية باقرارها برامج استثمارية ضخمة، وتصعيد جهودها العسكرية لمحاربة المتشددین المناهضين لروسيا في جمهوريات هذا الأقليم... بالرغم من ذلك فإن الرأي العام الروسي أصبح أكثر قناعة من أي وقت مضى بأن شعوب شمال القوقاز لم تعد تستحق كل هذا الاهتمام وان الوقت قد حان لوقف ضخ الاموال داخل (التقب الاسود) وهو إصطلاح يطلق على منطقة شمال القوقاز.

ويؤكد ناشطون سياسيين روس مناهضين للشعوب القوقازية بأنه لو جرى استفتاءً نزيهاً في الفيدرالية الروسية وهو (افتراض مستحيل في ظل حكم بوتين وميدفيدف). فإن نصف الشعب الروسي على الأقل سيقومون بالتصويت لصالح السماح لجمهوريات شمال القوقاز بأن تذهب في سبيلها... أي السماح لها بالاستقلال والانفصال عن الفيدرالية الروسية.

وربما كان شيوع مثل تلك الاتجاهات السياسية السلبية تجاه الشعوب القوقازية عامة، وشعوب شمال القوقاز خاصة ناجم عن بعض الحقائق السياسية التي يتحدث عنها. **ناشطون سياسيون في المعارضة الروسية تتمثل بالحقائق التالية:**

الحقيقة الأولى: كان من الاسباب الرئيسية لإنحلال الاتحاد السوفيتي وتأسيس الفيدرالية الروسية هو اتخاذ المواطنين من أصول روسية / سلافية قرارها بأنهم غير مستعدين للقتال من أجل إبقاء (جمهوريات غير روسية) شعوبها غير متعاطفة ابداً مع الروس اولاً، وانفاقهم الكثير من ثرواتهم وأموالهم لسداد فوائد العجز في موازنات تلك الجمهوريات غير الروسية ... الامر الذي ادى لانهايار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ وانفصال الجمهوريات غير الروسية مثل جورجيا، وأرمينيا، وأذربيجان والجمهوريات الاسلامية الستة في اواسط اسيا مع احتفاظها بالجمهوريات ذات الحكم الذاتي منها جمهوريات شمال القوقاز.

الحقيقة الثانية: يتساءل اعداد كبيرة من المواطنين الروس من الاقاليم غير القوقازية لماذا يجب أن يحصل الشيشان من موسكو على عشرة أو عشرين ضعفاً من المال أكثر مما يحصل عليه الفرد الروس في (إيفانوفو) مثلاً علماً بأن سكان (إيفانوفو) يدفعون أموال طائلة إلى الخزينة المركزية كضرائب وغيرها من الرسوم.. في الوقت الذي يشن فيه مقاتليهم الشيشان حرباً شرساً علينا ويقتلون ابناءنا ويدمرون مؤسساتنا ... ويعملون بكل الوسائل للانفصال عن روسيا الاتحادية وانشاء دولتهم المستقلة.

الحقيقة الثالثة: لم تعد مشكلة العنف محصوراً في جمهورية الشيشان او الانجوش او الداغستان وإنما تفشى العنف في كل الجمهوريات المسلمة في شمال القوقاز عامة الأمر الذي اضطرت معه السلطات الروسية في موسكو لتخصيص موازنات ضخمة إضافية لمواجهة المتشردين الإسلاميين وغير الاسلاميين في شمال القوقاز... وبالتالي ظهرت معارضة منظمة في موسكو عامة وفي الجمهوريات الفيدرالية الروسية في مختلف أنحاء روسيا خاصة تتادي التوقف عن ضخ الأموال الطائلة من

الخزينة المركزية للجمهوريات التي توي إرهابيين وتخطط للانفصال عن روسيا الفيدرالية وتركها تذهب في سبيلها * .

• مواقف شراكسة الوطن الأم من الاحداث السياسية والعرقية الجارية في روسيا عامة وفي جمهوريات شمال القوقاز خاصة .

لم تقف القيادات السياسية وقيادات مؤسسات المجتمع المدني الشركسي خاصة التي تمثل شعوبها في الجمهوريات الشركسية الثلاثة خاصة وهي (كباردينا / بلقاريا والاديغي، وقراتشي - تشركسيا...) لم تقف مكتوفة الايدي ازاء ما جرى ويجري حولهم من مؤامرات، وصراعات ودسائس وأكاذيب تستهدف أمن واستقرار شعوب جمهوريات شمال القوقاز عامة والشعوب الشركسية فيها خاصة حيث بادرت قيادات شعبية إلى تأسيس منظمات مدنية (خاصة) شركسية في الجمهوريات الشركسية الثلاثة ... وعقدت تلك المنظمات اكثر من مؤتمر شعبي في كل جمهورية وكان آخرها مؤتمر الشعب الشركسي الطارئ الذي عقد عام ٢٠٠٨ في تشركيسيا عاصمة جمهورية قراتشي/ تشركيسيا وحضره ممثلي مؤسسات المجتمع المدني (خاصة) وبعض القيادات الشبابية من الشراكسة... تناولوا فيه المجتمعون مختلف القضايا السياسية والصراعات العرقية التي تحدث في الجمهوريات الثلاثة كما بحث فيه التحولات السياسية لدى جمهور الشعب الروسي ونظرتهم السلبية للعلاقات بين الفيدراليين الروسية والشعوب والجمهوريات في شمال القوقاز عامة وفي الجمهوريات (الشركسية) الثلاثة خاصة.

كما اقترح فيه ممثلو "مؤتمر الشباب الشركسي في شمال القوقاز فكرة التقدم بطلب إلى القيادة المركزية في الفيدرالية الروسية في موسكو لتوحيد شراكسة الوطن الأم في القفقاس في جمهورية واحدة وانضمامها للفيدرالية الروسية كإحدى جمهوريات روسيا الاتحادية.

جاء هذا الطلب في البيان الذي القاه رئيس مؤتمر الشباب (رسلان كاندوخوف) في جلسة الافتتاح قال فيه: نشعر بالقلق من وضع الشراكسة في القرشاي - شركيس ونخشى من مستقبل شعبنا. بسبب النتائج المأساوية للحروب التي شهدتها القفقاس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي فبسبب السياسات الخاطئة للدولة الروسية أصبح الشراكسة شعبا ممزقا في وطنهم وقسمت التشكيلات الإدارية للدولة الروسية في السنوات الأولى من العهد الشيوعي السوفيتي، الشعب القفقاسي الواحد إلى جمهوريات ومقاطعات منفصلة عن بعضها في كل جمهورية او مقاطعة شعب آخر مثل القرشاي في تشركيسيا والبلقار في القبردي والقوزاق والروس في الاديغي بهدف تمزيق الشعب الشركسي إلى أجزاء.

وستكون الجمهورية المقترحة الجديدة في الفدرالية مستقلة اقتصاديا، وستدعم الحدود الجنوبية لروسيا. كما يجب على الحكومة الفدرالية أن تفهم أن الشراكسة لن يتحملوا هذا الوضع أكثر من ذلك، ونحن نعتقد أن الوقت قد حان لحل مسألة (شركسيا) كجمهورية مشتركة في الفدرالية الروسية وبأن المطلب هو مطلب شرعي وأيد هذا المطلب نائب رئيس الاتحاد الشركسي العالمي (نالبي غوتيل) قائلا إنني ممتن أن تطرح على شراكسة القرشاي - شركس فكرة توحيد الشركس في جمهورية فدرالية واعتقد بأنه لا يمكن أن ألخص آلام الشعب في دقائق لكني أريد أن تلحق بوقائع هذا المؤتمر نسخة عن البيان الذي سيصدره الكونغرس العالمي هذا اليوم.

كما أيد هذا المطلب ايضا ممثلي الاديغة خاصة في الاديغي، وممثلوا اديغي خاصة في مدينة (اديغسك) وغيرها من الحضور من مناطق أخرى في شمال القفقاس وروسيا الاتحادية حيث قال ممثل الاديغي خاصة في مايكوب بأنهم يؤيدون بقوة فكرة إقامة جمهورية تشركيسيا المتحدة تضم المناطق التي يسكنها الشراكسة في جمهوريات كباردينا وبلقاريا والاديغي وقراتشي الشركسية.

* حصلنا على هذه المعلومات

كما أكد ممثلي الأديغة خاصة في مدينة (اديغسك) بأن توحيد الجمهوريات الثلاثة التي يقطنها الأديغة ضمن جمهورية واحدة سيصب في مصلحة الأديغة ككل كما أنه يتماشى أيضا من سياسة التي تنتهجها سلطات روسيا الفيدرالية المركزية التي بدأت دعم وتعزيز مبدأ توحيد أو تجميع الجمهوريات والمقاطعات ذات الاهداف السياسية او الاقتصادية المشتركة.

إلا أن ممثل (الخاصة) في كباردينا بلقاريا، ممثلاً برئيسها السيد محمد حفتسه كان له رأي آخر صرح به لوكالة أنباء (ريغنوم) أعرب قبل انعقاد المؤتمر عن عدم ترحيبه بفكرة تأسيس جمهورية جديدة وعن أمله بأن يقوم الرئيس الجديد للجمهورية (بوريس أبزييف) بالعمل على حل المشاكل القومية التي تعاني منها هذه الجمهورية.

واستطرد قائلاً: اعتقد بأن القرشاي - شركس يجب ان تكون كلا لا يتجزأ وبأن (بوريس أبزييف) سوف يفي بالوعد الذي قطعه لزعماء الحركات المدنية الشركسية في الأول من تشرين الثاني / ٢٠٠٨ وسيأخذ بعين الاعتبار اقتراحاتهم البناءة في خلق جو يسوده الامن والاستقرار والتعايش بين القوميتين الشركسية - والقراتشي.

وعن سؤال حول سبب عدم دعم خاسه (القبردي - بلقاريا) للاقتراحات الجذرية التي تطرحها الأديغي خاسه في القرشاي - شركس وخاسه الأديغي. قال حفتسه - إن الخاسه في القبردي - بلقاريا تعتقد بأن علاقات الأخوة بين شعوب القرشاي - شركس والحوار المتوازن أفضل من المعارضة والانتقادات المتبادلة.*

المراجع

١. قردن، ناظم قاسم، سيف من سيوف الله، عمان، ١٩٨٦ ص: ١١٧-١١٩.
٢. المصدر نفسه، ص: ١١٩-١٢١.
٣. المفتي، شوكت، مصدر سابق، ص: ٢٩١-٢٩٢.
٤. المصدر نفسه، ص: ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٦.
٥. الأصني، داوود، كتاب الجمعية الاسلامية في الحكومة الشورية لجمهورية الأديغة عام ١٩٢٥، ص: ٣٤-٣٦.
٦. جموخة، أمجد، مصدر سابق، ص ١٥٠.
٧. لبزو، داود احمد، لقاء مع امام جامعة مايكوب.
٨. طاش، نهاد، مجلة الاخاء الشركسية، مصدر سابق، العدد (١١١)، إصدار شهر كانون اول، ٢٠٠٠، ص: ٣-٥.
٩. نغموقه، قاموس الالفاظ الشركسية عام ١٨٤٠.
١٠. حاتوقشوقه، الهجاء الجركسي بالحروف الروسية عام ١٩٦٠ (لا يوجد منها نسخ حالياً) حسب قول شورا بكرمزة في كتابه تاريخ القوقاز ص: ٢٣٤-٢٣٥.
١١. جموخة أمجد، مصدر سابق، ص ٢٤٨.
١٢. رشدي، راسم (باحث مصري من اصل شركسي)، دائرة المعارف الاسلامية، ص: ٢٣٩.

* جميل إسحاقات (تشكيل شركيسيا الكبرى) مجلة نارت، الجمعية الخيرية الشركسية) عمان العدد: ٩٦ كانون ثاني ٢٠١٠، ص ٤٦-٤٧.

١٣. بالاس. ب س، رحلات إلى الاقاليم الجنوبية الشركسية من الامبراطورية الروسية ١٧٩٣ - ١٧٩٤ (باللغة الروسية) تجميع واعداد وصفي ميرزا، ترجمة واخراج فهمي شما، عمان ١٩٨٢.
١٤. المصدر نفسه ص: ٢٥٢.
١٥. برزج، نهاد، اللغات القفقاسية (باللغة التركية)، ترجمة سمير الدغستاني، عمان ١٩٨٨، ص: ٧.
١٦. المصدر نفسه ص: ٨.
١٧. سمكوغ، امين، مدخل إلى تاريخ الشراكسة دمشق ١٩٨٤، ص: ٥٦.
١٨. برزج، نهاد، مصدر سابق، ص: ٧.
١٩. جموخة، امجد، مصدر سابق، ص: ٢٥٥.
٢٠. المصدر نفسه، ص ٢٥٦-٢٥٧.
٢١. سمكوغ، أمين، مصدر سابق، ص: ٥٦.
٢٢. برزج، نهاد، مصدر سابق، ص: ٧.
٢٣. المصدر نفسه، ص: ١١-١٤.
٢٤. جموخة، امجد، مصدر سابق، ص: ٢٤٠-٢٦٠.
٢٥. ابه زاو، محمد جمال صادق، مصدر سابق، ص ١٢٤-١٢٧.
٢٦. بيج، منذر، العلاقة بين اللغتين السومرية والشركسية، حلب عام ١٩٩٦ ص ٥٧-٦٣.
٢٧. المصدر نفسه ص ١١١-١٤٣.
٢٨. جونانوقه، مصدر سابق، ١٦٣-١٦٨.
٢٩. غ. ف تورنشانيثوف - اكتشافات لفك رموز الكتابات القديمة في القفقاس - مصدر سابق، ص: ١١-٦.
٣٠. أبه زاو، مصدر سابق، ص: ٦٥.
٣١. تورنشانيثوف - مصدر سابق، ص: ٣١.
٣٢. سطاتس، عز الدين، كلام في توحيد اللهجات الشركسية، مجلة الاخاء الشركسية - اصدار الجمعية الخيرية الشركسية في وادي السير الاردن، العدد (١٢١) اذار ٢٠٠٢، ص ١٠-١١.

المجلد الأول

الجزء السابع

أعلام الأمة الشركسية في الوطن الأم من
عظماء ومشاهير سياسيين ومفكرين وادباء
وقادة عسكريين منذ فجر التاريخ وحتى
العصر الحديث

فهرس فصول الجزء السابع

الصفحة	الموضوع
659	تقديم
	الفصل الأول: عظماء ومشاهير وقادة عسكريين للأمة الشركسية في
661	الوطن الأم في عصور ما قبل الميلاد
	الفصل الثاني: عظماء ومشاهير اجداد الأمة الشركسية (قدماء الأديغة)
668	في القرون ما بين الرابع وحتى الخامس عشر الميلادي
	الفصل الثالث: عظماء ومشاهير اجداد الأمة الشركسية (الأديغة) في
674	القرون السادس والسابع والثامن عشر الميلادي
	الفصل الرابع: عظماء ومشاهير وابطال من القيادات السياسية والفكرية
688	ومرجال فكر في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلادي.
	الفصل الخامس: عظماء ومشاهير من الأدباء والمؤرخين ومرجال العلم
	والإدارة من شراكسة الوطن الأم في القرون الثامن عشر
694	والتاسع عشر والعشرين الميلادي
	الفصل السادس: الرواد الأوائل من كتاب الأفرنجة والمغنين والملحنين
	والأبطال الرياضيين في ظل حكم الشيوعي في الاتحاد
717	السوفيتي وروسيا الاتحادية

تقديم

ربما كان من أكثر الموضوعات إهمالاً في تاريخ الأمة الشركسية هو التعتيم (غير المقصود) على إنجازات وأعمال عظماء وقادة الشراكسة من الأجداد في عصور ما قبل التاريخ أولاً، ومسيرتهم في عصور ما بعد الميلاد ثانياً، وفي العصور الوسطى ثالثاً، وفي فترة الحروب ضد خانات القرم وروسيا القيصرية التي امتدت ثلاثة قرون ابتداءً من القرن السابع عشر رابعاً.

وربما كان الجواب على هذه الظاهرة التاريخية من التقييم هو وجود أكثر من سبب، يمكن إيجازها على النحو التالي:-

- **السبب الأول،** ربما كان أكثر من ٩٠% ممن كتبوا عن تاريخ الأمة الشركسية منذ عصر (هيردوت) في القرن الخامس قبل الميلاد، وعصر (سترابون) في مطلع القرن الأول الميلادي، ومروراً بالعصور التي كتب فيها مؤرخون يونانيون ورومان وبيزنطيون، وقوط، ورحالة عرب، وطلينان، وفرنسيون، وإنجليز، وألمان، وأتراك، وانتهاءً بالمؤرخين الروس

حيث وجدنا أكثر من ثلاثة آلاف عنوان كتاب أو دراسة أو بحث أو مقالة، أو وثيقة، أو مخطوطة من التي وضعها أو كتبها كاتب أو باحث أو دارس أو قائد عسكري، أو مسؤول سياسي من غير الشراكسة، وهم يمثلون أكثر من خمس عشرة جنسية، إلا أن أحداً منهم لم يهتم بإبراز أعمال وإنجازات وبطولات الرؤساء أو الأمراء أو القادة السياسيين أو العسكريين من أجداد الشراكسة في أي عصر من العصور، منذ عصر أبو المؤرخين (هيردوت) بالرغم من البطولات العظيمة والتضحيات الكبيرة التي قدمها هؤلاء العظماء، خاصة الرؤساء والأمراء والنبلاء والأحرار من الشراكسة الذين كانوا يحاربون أعداء الأمة الشركسية على مر العصور، وهي صفة يندر أن نجد مثلها في تاريخ الشعوب القديمة عامة والشعوب القوقازية خاصة.

- **السبب الثاني،** إن توقف استخدام الكتابة باللغة الشركسية لأكثر من (١٥) قرناً أدى إلى غياب توثيق تاريخ الأمة الشركسية عامة، وتاريخ عظمائها وأبطالها وقادتها خاصة، وكان البديل أن يتم التوثيق من خلال القصص والأغاني والحكايات والأمثال والحكم وغيرها من أساليب حفظ التراث الشفوي، وهي أساليب لم تكن كافية لتوثيق تاريخ الأمة الشركسية عامة وتوثيق إنجاز عظمائها وقادتها خاصة.

- **السبب الثالث،** بالرغم من محاولة المؤرخين الشراكسة الأوائل الذين تصدوا للكتابة عن أحداث ووقائع تاريخ الأمة الشركسية منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وفي مقدمتهم المؤرخ والأديب الشركسي العظيم (شورا بكمززا نغموفة) الذي ألف كتاب "تاريخ الأديغة القديم" باللغة الروسية ونشره ابنه (لروستان) عام ١٨٦١م وترجمه الدكتور (شوكت المفتي) عام ١٩٥٣م إلا أنه لم يقدم لنا إلا القليل عن السيرة الذاتية للقادة العظام من أمراء وزعماء ونبلاء، وكذلك لم يُبرز أعمال وإنجازات وبطولات القادة العسكريين والسياسيين العظام، وربما كان معذوراً في ذلك لأن الأمة الشركسية بالرغم من تعرض الآلاف من الكتاب (غير الشراكسة) للكتابة في تاريخها الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والديني، والعسكري، فإنها تخلو من أخبار وأعمال وإنجازات وبطولات حكامها، وقادتها، وحكامها، وقضاها.

- **السبب الرابع،** تجاهل الكتاب والمؤرخين الشراكسة في الوطن الأم عامة منذ احتلاله عام ١٨٦٤م من قبل سلطات روسيا القيصرية، وكذلك الكتاب الشراكسة في عهد الحكم الشيوعي، في الفترة (١٩١٧م إلى عام ١٩٩٢م) في الكتابة عن التاريخ البطولي للقادة السياسيين الشراكسة من رؤساء وزعماء، وأمراء، ونبلاء، وقادة وعسكريين عامة، وخلال فترة حروب الإبادة والدمار الروسية التي امتدت من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر الميلادي خاصة، وبالتالي فإن التاريخ السياسي أو العسكري أو الاجتماعي للحكام الشراكسة عبر العصور القديمة والوسطى والحديثة يخلو من ذكر لإنجازات عظمائها، لأن المؤرخين والكتاب الشراكسة

المعاصرين في الوطن الأم توجهوا في كتابتهم لتمجيد أعمال الرؤساء والقادة والسياسيين والعسكريين الذين خدموا الأيدولوجية الشيوعية، والفكر الماركسي، كما توجهوا لإبراز الأعمال الأدبية والثقافية والفنية والرياضية التي كانت في خدمة الحكم الشيوعي أولاً، والقومية الشركسية في الحدود التي لا تتعارض مع الأيدولوجية الشيوعية والفكر الماركسي ثانياً.

لكل ما تقدم، وبعد أن وجدت بأن الأمة الشركسية هي في مقدمة الأمم والشعوب القديمة التي أنجبت عظماء من القادة العسكريين والسياسيين والاجتماعيين والأدباء والحكماء كان لزاماً علي أن أكتف البحث والدراسة عن تاريخ مشاهير وعظماء هذه الأمة العظيمة حيث توصلت إلى الحقائق التالية:-

• الحقيقة الأولى:-

ربما كانت الأمة الشركسية أكثر الأمم والشعوب القديمة توثيقاً لعظماؤها، وأبطالها في أساطير وملاحم النارتيين حيث ورد فيها أسماء العشرات بل المئات من الشخصيات التي كانت لها أدوار بطولية بارزة في حياة قوم (نارت) وهي شخصيات وإن التصقت في أعمالهم وإنجازاتهم القصص الخيالية، إلا أنها من المؤكد بأنها كانت شخصيات حقيقية.

• الحقيقة الثانية:-

انقطعت أخبار إنجازات وأعمال قادة الأمة الشركسية في عصر جماعة (ألمه-ؤت) وشعوب السند، والتوربت، والداندار، والزبخ، من قدماء أجداد الشراكسة الذين عاشوا ما قبل الألف الأول ما قبل الميلاد وحتى القرن الثالث ما بعد الميلاد، حيث أننا لم نجد في تاريخ هذه الشعوب ذكراً لاسم شخصية قيادية واحدة من قادة هذه المرحلة من تاريخ أجداد الشراكسة في عصر ما قبل التاريخ.

• الحقيقة الثالثة:-

قدم لنا المؤرخ الشركسي (نغموقة) أسماء (٢١) شخصية من القادة والعظماء الذي عاشوا في القرون الممتدة من القرن الرابع الميلادي وحتى القرن الخامس عشر الميلادي.

• الحقيقة الرابعة:-

استطعنا التعرف على أعمال وإنجازات العشرات من القادة العظام من شراكسة الأمة الشركسية الذين كان لهم أعمال بطولية في المرحلة الممتدة من القرن العاشر وحتى القرن الرابع عشر الميلادي، وهم القادة الذين تعرفنا على أسمائهم من تحليل أغاني الرثاء الشركسية (غبزة) ومن القصص والحكايات التي كانت تتردد في مجالس المضافات (حاشنش) في هذه المرحلة من تاريخ الأمة الشركسية.

• الحقيقة الخامسة:-

توصلنا من تحليل وقائع وأحداث القرون السادس والسابع والثامن عشر الميلادي، بأن أكثر من أمير، أو نبيل، أو زعيم قد تحدث عن أعمالهم وبطولاتهم المنشدون والمغنون المختصون بالأشعار البطولية من أمثال الأمير (أرسلان قايتوق)، والأمير (تورغوق حاتوظوق)، والأمير (كسيا قاوجوكين) والأمير (عادل كراي) كما اشتهر في هذه المرحلة قضاة عظام، وحكماء ومفكرين من أمثال (قازانوقه جباغى) والقاضي (وري) والقاضي (أبوق).

• الحقيقة السادسة:-

تشير سجلات ووثائق حروب الدمار والإبادة الروسية/ الشركسية في القرن التاسع عشر من هذه الحروب عامة وفي الفين سنة الأولى منها بأن العشرات من الأمراء والقادة العسكريين الأبطال والسياسيين قد قدموا أعمال بطولية خارقة في حربهم ضد قياصرة الروس الذين كان لهم الفضل في إيقاع خسائر كبيرة في صفوف القوات الروسية القيصرية الغازية لبلاد الأمة الشركسية في شرقها وشمالها وغربها.

الفصل الأول

عظماء ومشاهير وقادة عسكريين للأمة الشركسية في الوطن الأم في عصور ما قبل الميلاد

تقديم:

بتحليل ما تم جمعه من أساطير، وقصص وحكايات وأغاني النارتيين، توصلنا إلى بعض الحقائق التي تدل بأنها تتحدث عن وقائع وأحداث حدثت في مجتمع حقيقي، وأنها تصف بطولات شخصية واقعية، وأن امتزج هذا الوصف مع مرور الزمن ببعض الأوصاف الخرافية، التي اقتبست من أساطير الأمم والشعوب التي كان للنارتيين اتصال معهم مثل الأساطير الإغريقية، واللاتينية، والسومرية، والفارسية... إلخ، وبالتالي فإن أساطير النارتيين تتحدث عن وقائع وأحداث حقيقية في قوالب خيالية أو وهمية أو خرافية، ونستدل على ذلك من تأكيدات الباحثين والأدباء الذين بحثوا في أساطير النارتيين نذكر منهم:-

- **هوبشمان**، الذي يقول بأن أساطير النارتيين هي ذات منشأ شركسي، وهناك دلائل تشير بأنها تكتسب بالتدريج مصداقية و يقيناً، كما يؤكد بأن الأساطير الشركسية والأوسيتية قد انتشرت معاً إلى القوميات الأخرى في القفقاس. وهي أساطير تصف حياة قوم كانت تعيش في مجتمع صغير قائم بذاته.

- **العالم تربزكوي**، في دراساته لأساطير النارتيين عام ١٩٣٤م ونقل عنه المؤرخ باتريك أوزبك في كتابه (أساطير النارتيين) يؤكد فيها بأن:- "النارتيين بغض النظر عن صفاتهم فوق الطبيعة من حيث ضخامة الجسم والقوة البدنية وسيطرتهم على الريح والشمس وفي تأثيرهم ومشاعرهم وسلوكهم هم بشر، وأن الصورة المقدمة لنا في تلك الأساطير تمثل نظرة واقعية للعالم، فهم يهتمون فقط بالعالم المادي ولا يشغلون أنفسهم بالعالم الآخر أو بتصورات عنه، فالنارتيون والعمالقة والآلهة والأقزام (الجييسي) الذين يمتطون الأرناب كل أولئك يعيشون نفس العالم، وأغلبهم يرتبطون بعلاقات متغيرة، تارة متفقيين وتارة مختلفين، وتارة يغلب الأبطال العمالقة، وأخرى ينتصر فيها العمالقة... إلخ".

ويستطرد قائلاً:- "أن علاقات وسلوكيات شخصيات أساطير النارتيين ليست متبادلة بين كل منها، وجميع الأطراف تبين بأن العلاقات بين العمالقة والآلهة وبين الأقزام والعمالقة لا يوجد لها تأثير، كما يمكن للمرء أن يتعرف في تلك الأساطير على مقدار معين من عدم كفاية المقدرة عند النارتيين لإجراز المهام التي تصادفهم، ونجد أنهم بحاجة مستمرة إلى مساعدة من أناس أو حيوانات أو أسلحة خارقة للحصول على النجاح، وبناء عليه فهم يحملون قدراً معيناً من الاحترام والتقدير للعمالقة والآلهة وحتى الـ(جييسي) المذكورين سابقاً والذين هم مخلوقات صغيرة جداً كانوا ذوي إمكانيات عقلية عالية".

وكذلك فإن معظم الذين بحثوا في أساطير النارتيين يؤكدون بأنها تتحدث عن أشخاص كانوا موجودين ضمن (قوم نارت) الذين عاشوا في مجتمع متكامل في عصور ما قبل التاريخ، وهو المجتمع الذي نستدل عليه من أساطير النارتيين ومن أشعارهم وقصصهم وحكاياتهم التي تؤكد لنا بأن (قوم نارت) كانوا قوماً مستقرين في مجتمع، ولهم مساكن ثابتة من نمط البيوت المتطاولة حسب وصف النارت (اليدج) الذي وصف بيتهم بأنه عبارة عن بناء طوله ثلاثون خطوة وعاشوا في مناطق (نارت سانا وينجيج، ويسيج) في منطقة نهر الكوبان في شمال غرب القفقاس، كما توصل معظم الباحثين في أساطير النارتيين بأنها أساطير تمجد كافة أنواع الأعمال النبيلة والتحفيز على التمسك بالأرض والوطن وأنهم الحماة الشجعان لأرض الوطن، كما تمجد الفضيلة وعمل الخير وازدراء الأعمال الدنيئة أو غير الأخلاقية، ومساعدة الضعفاء والدفاع عن المظلومين.

وكذلك فإنها تحدثت في شيء من التفصيل عن مكانة المرأة النارتية فهي الأم الشفوقة المحبة، ومعلمة الأبطال المستعدين للقيام بالأعمال المجيدة من أجل بلدهم، وهي الصديقة الحكيمة المخلصة لزوجها والتي كثيراً ما تساعده على معرفة أسرار الطبيعة، وكيفية التغلب عليها، حيث أن (النارتيين) كانوا يلتمسون النصيحة من أمهم (ستاني - Stanei) التي كانت دائماً تساعدهم على الخروج من أعقد المآزق وكذلك فإن قصة (مليشيك - Meleshipkh) الحكيمة الواسعة الحيلة والذكىة تصف لنا حكمة وقدرة هذه المرأة في الصمود أمام النكبات كما تحتل (داخاناغو) مكانة خاصة بين نساء قوم (نارت) حيث كانت تسكن على المرتفعات الثلجية العسيرة المنال، وحاول (تسعة وتسعون) فارساً أن يمتلكوها لكنهم هلكوا جميعاً دون ذلك، لأن كل واحد منهم كان يسعى للحصول عليها باستخدام القوة.

كما تؤكد قصص وأساطير النارتيين بأن النارتيين كانوا يلتقون كل عام وقيمون ألعاباً ومباريات مختلفة، منها لعبة درجة عجلة ذات شفرات حادة من فوق "حرمه أو أشحه" * ويعيدونها بضربها بأيديهم (المغطاة بكمّ الدرع) إلى القمة، كما كانوا يتسابقون بالخيول (جلوساً فوقها ونياماً إلى جوانبها) ويلتقطون من الأرض وهي تركض بأقصى سرعة، أو يضربون البيض الملقاة على الأرض كهدف، كما كانوا يقيمون المباريات في المصارعة والرماية بالنبال وغيرها من الألعاب، بالإضافة إلى قيامهم بالرقص على حافة الموائد الدائرية الضخمة دون أن يحركوا أو يمسوا شيئاً من أواني الطعام التي فوقها.

خلاصة القول، فإن قصص وأساطير، وملاحم وأغانى النارتيين تتحدث عن حياة مجتمع شركسي متكامل يعيش فيه الفلاحون، والمزارعون الذين يحرثون الأرض بمحاريث تجرها سبعة ثيران، والصيادون ورعاة الأبقار ومربو الخيول والمواشي، كما ويعمل فيه صانع الأسلحة، وصانع الأدوات الزراعية، والصايغ، وغيرهم من الحرفيين والمهنيين المهرة، كما يشرف على تنظيم مجتمع النارتيين المجالس، والحكماء، والقضاة، والكهنة ويدافع عنهم الأبطال، والمقاتلون الشجعان من الشخصيات البارزة للنارتيين، وأن هؤلاء الشخصيات لم يكونوا شخصيات خرافية أو من نسج الخيال فقط، وإنما هم مخلوقات حقيقية (وإن التصقت بهم بعض الصفات الخرافية) وأنهم كانوا عظماء ومشاهير وأبطالاً عاشوا في شمال القفقاس في فترة ما قبل الألف الأول من الميلاد، ويشكلون النخبة المميزة من الشخصيات التي بلغ عددها عند كل من الباحث الأكاديمي (حداغالة) والمؤرخ (بازيف) حوالي (٣٠) شخصية وهم:-

١. ستاني	١١. ديكيناغو	٢١. بيشيميقو اشيميز
٢. ورزيميدج	١٢. تيريشاو	٢٢. باتشنيكو تثيرشاو
٣. بيرغون	١٣. قانديقوشواي	٢٣. نيسران جاجنة
٤. تليش	١٤. ديغودج	٢٤. البيتشنيكو توتاريش
٥. فيرزيميد جيقوبيرشنيكو	١٥. اليدج	٢٥. زيغاشت
٦. ستانيقوسا وسريكو	١٦. أديف	٢٦. سينيميقوخر
٧. فيرزيميد جيقو - شبانتنيكو	١٧. قوليجيقوخر	٢٧. بيويديج
٨. خيميشنيكو - تباراز	١٨. ميليدجيبوخ - ازانيديقوا	٢٨. جيماور
٩. تشئيلىشيت	١٩. شيوابتزر	٢٩. لاشين
١٠. تاغيليدج	٢٠. بينيميقو بابوخ	٣٠. بيديف

* ممدوح قوموق، ملاحم نارت الشركسية، ومن ١٩٨٤م (ص:٦٣).

هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الآلهة، وأرباب الحماية، ورد ذكرهم في قصص وأساطير النارتيين نذكر منهم:-

١. آخين	٨. اوشحاباخوا	١٥. (سوسيريش)
٢. أميتش	٩. باكوي	١٦. تحاغيليدج
٣. أوجيدج	١٠. بساتحة	١٧. تلييش
٤. بيمش	١١. بسيتاحاغواش	١٨. تيغوبتلوق
٥. ميريسا	١٢. زيقوتحا	١٩. واشا
٦. أو (ميريم)	١٣. شيبيلة	٢٠. جيتحا
٧. ميزيتحا	١٤. سوسيريز	

ربما كان من المتعذر أن نتحدث عن جميع عظماء وأبطال النارتيين أجداد الشراكسة وإنما سنتحدث عن حياة أهم (خمس) من الشخصيات الأبطال العظام وهم:-

- الشخصية الأولى وهي شخصية (ستناي جواشة)، ويصفها (دوميزيل) بأنها امرأة يجتمع فيها الجمال والموهبة والذكاء، وتعتبر (المثل الأعلى للنارتيات) كما يصفها (باتريك) "بأنها تشكل نموذجاً للمرأة الحاذقة"، وهي بذكائها خير ناصح لزوجها وقومها النارتيين، وخير عون لهم في أوقات الشدة وفي اللحظات الحرجة" ولها علاقات طيبة مع جميع النارتيين، وكل الأبطال يطلبون يدها، كما كانت تمتلك قوى سحرية، بل حتى كانت تتمتع ببعض صفات (الآلهة) ولكن ليس هناك في الأساطير ما يشير إلى أنها كانت تمجد كواحدة منها، وفي كثير من الأساطير تتحدث عن مساهمتها في التقدم الحضاري، فهي تخرع أدوات جديدة مهمة لحداد النارتيين (تلييش) مثل الكماشة والسندان.

إن شخصية (ستناي) معروفة من قبل جميع قبائل (الأديغة) البالغ عددها (١٨) قبيلة بأنها هي أم النارتيين، وإن بعض النصوص في ملاحم نارت تشبه (ستناي) بالشمس وأن قصة "زهور ستناي" تبين بأنها هي الشمس بعينها.

وربما كان النص التالي خير وصف للصفات التي تميز شخصية (ستناي جواشة):-

" هي تلك ستناي، كل أفكار العالم من صنع يديها، وكل الجمال في الكون كان صورتها، كانت شريكة بطولاتنا نحن النارتيين، وفي الدروب الطويلة كانت رفيقة غزواتنا الليلية، وعندما يهاجمنا العدو كانت ضرباتها تصد العدو ومع ضرباتنا، وفي البراري كانت دليلنا الخصب، وعندما تفقدنا إلى الصيد كانت تجعلنا نطهو، هي شمسنا في النهار كانت، وقمرنا في الليل... تلك الأزهار التي ترونها هدية منها، فقد نبتت من أجل ستناي، إنها تزهو مرتين... إلخ".

وفي وصف آخر لشخصية (ستناي) توصل إليه الباحث (أسكري) * في دراسته لملاحم نارت الشركسية بأنها (أم النارتيين) وهي التي ربت أبرز الأبطال أمثال:- (سوسروقة، بدنوقه، أشمز، شاوبي)، وأنها امرأة خارقة الذكاء تكشف للأبطال ما يخفى عليهم، وإذا هاجم الأعداء بلادهم فهي التي تحقق النصر للنارتيين، كذلك فإنها هي التي علمت إله الحداد (تلبش) طريقة صنع الأدوات واللوازم الحديدية.

وفي المراحل الأخيرة من حياة قوم النارتيين وجدنا بأن (تسرن بن صوقال) رفض أن يعتبر (ستناي) أم النارتيين، كما رفض الانصياع لأوامرها قائلاً:- "إذا كنا رجالاً، يجب أن يكون لنا زعيم رجل نطيع أوامره". وهذا أصدق تعبير عن رغبة أجدادنا في التحول من "عصر سلطة الأمومية إلى

* شورتن اسكري، النارتيين ملاحم شركسية، نالتشك ١٩٥١م، (ص:٢١).

عصر سلطة الأبوية"، وعندما سمعت (ستتاي) بذلك تأثرت تأثراً شديداً فجمعت أمتعتها ورحلت إلى أطراف قرية (قنجالشحة) التي يسكنها قومها النارتيون.

- الشخصية الثانية من شخصيات أساطير النارتيين هو (ساوسروقة)، إن أحد أكثر الشخصيات المثيرة للجدل في الأساطير النارتية الشركسية هو (ساوسروقة ابن ستتاي)، كما يطلق عليه في نصوص الأساطير أكثر من لفظ منها (ساوسروقة) و (سوسروكو) و (سورسيريقو) و (سوسيريقو) وهي أسماء كلها لشخصية واحدة.

▪ مولد ساوسروقة:-

جمع الباحث (ممدوح قموق) أكثر من (٣١) رواية عن قصة ولادة (ساوسروقة) ولسنا هنا في صدد بحث القصص العديدة التي تقص علينا روايات في غالبها روايات خرافية أكثر منها حقيقية، وإنما الذي يهمنا هو أن نستخلص بأن ستتاي هي أم (ساوسروقة) سواء ذلك بالتبني أو بالولادة الطبيعية، وأن بعض الروايات تقول بأنه الأبن الشرعي للراعي (وازيرميج أو وزيميدج) وروايات أخرى تقول بأنه ولد بطريقة غير عادية حسب اعتقاد (هويشمان) نتج عن (استمناء) الراعي المبهور بجمال (ستتاي) على صخر وبالتالي بأن (ساوسروقة) خرج من صلب الحجر الذي سقط عليه (منية) الراعي بعد تسعة أشهر، وهي روايات خرافية تدوالها معظم قبائل الشراكسة منذ القدم.

▪ شجاعة ساوسروقة، وأعماله الخارقة:-

كان يتمتع بخصائص إنسانية كبيرة، كما كان بطلاً يمتلك شجاعة فائقة، وقدرات خارقة وصنع له (تلبش) (إله الحدادة) لدى الشراكس سيفاً خاصاً* من منجل، وكان ذلك المنجل يحتوي على خصائص سحرية، فكان يحصد المروج والحقول وحده.

كما كان (ساوسروقة) يقاتل أحياناً من أجل النارتيين وأحياناً ضدهم، ففي إحدى المرات سرق أحد العمالقة حبوب البذار من النارتيين، وكان ذلك العملاق يسكن خلف سبعة جبال، وسبعة أنهر، وسبعة بحور، وبدون تلك البذور كان النارتيون معرضون للضياع، واستطاع (ساوسروقة) بالكثير من الحيل وبعد مغامرات عديدة وبمساعدة حصانه الذكي أن ينتصر على العملاق وأن يعيد حبوب البذار إلى قومه النارتيين.

وفي أحد الأيام تحاور "التحامدات" (أي الزعماء الكبار) من الآلهة حول من سيدعى لحضور احتفالهم الذي كانوا يقيمونه سنوياً على جبل السعادة (حرمة أواشجة) فقال (إله) الحياة (بس - تحه):- "سندعو من هو الأشجع والأقوى من قوم نارت وهو (نيسران) ذو اللحية الطويلة، وتحاماته كل حفلات النارتيين وهو الأشجع والأقوى بين البشر"، وقال (سوسريش) إله السعادة المنزلة:- "أن (شاواجبي) ابن كانش هو صياد نارت جريء وهو أحق من الجميع للدعوة"، وثالث قال:- "بأن (أميش - غورغونيش) راعي خنازير النارتيين الذي لا مثيل له يجب أن يكون ضيفنا"، ورابع قال:- "بأن (حتيميش) الأكثر استحقاقاً لاستضافته لأنه أفضل مزارع بين النارتيين".

وعندها وقف إله الحدادة (تليش) وقال:- "بأنه ولد إنسان على الأرض، لديه من القدرات ما يجعل كل الأبطال الذين ذكروهم يقفون احتراماً عند ذكر اسمه، نعم أيها (الآلهة)، لقد ولد في أرض (قوم نارت) رجل حقيقي، استطاع أن يقتلع سنداني الذي كان منغرساً حتى الأرض السابعة، لقد انتزع من الأرض بكامله ثم عاد فغرسه ثانية حتى وصل إلى الأرض التاسعة، إنه ما زال صغيراً ولكن أرض النارتيين لم تعرف رجلاً بقوته منذ أن وجد البشر".

فتقرر دعوة (ساوسروقة) واحتفلوا به وشربوا نخب شراب (السانو) المصنوع من عناقيد العنب تقديراً لبطولاته ولأعماله الخارقة، وخدماته لقوم نارت (الأديغة).

* حداغالة، أسكر، الجزء ٢ - ١٩٦٩م، (ص: ٥٣).

■ أعمال ساوسروقة البطولية ومهارته وقوته الخارقة وتتمثل بالأعمال الخارقة التالية:-

- قدرته على شق الصخرة الكبيرة بضربة واحدة من سيفه.
- اطلاق سهماً في السماء وأصاب طائر (السند) بسهم واحد.
- أفضل واحد في قوم نارت يرمي السهام إلى أبعد مسافة.
- أقوى رجل من قوم نارت في لعبة مصارعة الغرز في الأرض.*
- أسرع رجل في دفع العجلة الحديدية ذات الشفرات الحادة إلى أعلى الجبل وإعادتها لأعلى.
- تغلب في كل ألعاب الناريتين على أقوى ثلاثة رجال في قوم نارت وهم (بشايا - كوكوج - بنوقة).

زواج ساوسروقة:-

تزوج ابنة جلاخستان ذائعة الصيت والجمال (بدوك) والتي كان يصفها النارتيون بأنها هي الشمس في النهار والقمر في الليل.

ولما سمع (ساوسروقة) بأخبار (بدوك) شدّ السرج على حصانه (تخوجي) وذهب إلى مسقط رأسها لرؤيتها شخصياً، ولما وصل بيتها وجد بصعوبة مربطاً شاغراً لحصانه لكثرة الخيول التي جاءت بفرسانها لخطبة (بدوك الجميلة)، وتوجه (ساوسروقة) نحو المضافة واستقبله (جلاخستان) والد (بدوك) مستهزئاً وقال له:- "إذا كانت نيتك مثل نية الفرسان من شباب الناريتين لخطبة ابنتي، يا ابن راعي البقر، فلنبدأ دون لف أو دوران، قالها وهو ينظر باحتقار إلى (ساوسروقة)"، وقال عليك أن تتفّذ شروطي أولاً قبل طلب يدها، واستطاع (ساوسروقة) تحقيق شروط وطلبات (جلاخستان) والد (بدوك) حيث نفذ الشرط الأول بسهولة ويسر حيث خلع الرمح المغروس في الأرض دون عناء، كما استطاع تنفيذ الشرط الثاني، وهو صيد طير (السنووة) التي تمكن منه في السماء برمية واحدة من سهمه، كما استطاع تحقيق الشرط الثالث وهو الرقص على سبعة تلال من الشوك على رؤوس أصابعه وهو (حافي القدمين)... إلا أن (جلاخستان) تراجع عن وعده بأن يزوجه ابنته (بدوك) بالرغم من تحقيقه شروطه الثلاثة سابقة الذكر... وطلب شرطاً تعجيزياً رابعاً من (ساوسروقة) وهو اللحاق (ببنوقة) أحد الحضور من شباب قوم نارت الأقوياء، الذي خرج من بيت (جلاخستان) غاضباً لعدم تمكنه من الزواج من ابنته (بدوك) حيث استطاع (ساوسروقة) اللحاق به واقناعه للعودة معه إلى بيت الجميلة (بدوك) وهو الأمر الذي أقلق والدها (جلاخستان)، فأغلق في وجههما بوابة القلعة، ومنعهما من الدخول إليها... إلا أن (ساوسروقة) وبذكائه الخارق وبشجاعته الفائقة استطاع أن يفتح القلعة وأن يمد يده إلى يد (بدوك) فأنزلها من الشرفة، وأجلسها على حصانه أمامه، وانطلق بها عائداً إلى قومه... وهكذا تزوج (ساوسروقة) من الجميلة (بدوك بنت جلاخستان).

- الشخصية الثالثة هو (تئيميز)، يقول المؤرخ (أوزبك) في كتابه (أساطير الناريتين)، بأن جميلة من قوم نارت اسمها (ديخناغو) كانت تعيش في الغابات الواقعة خلف الجبال بحيث لا يمكن الوصول إليها أو النيل منها، ولكن أحد الناريتين واسمه (تئيميز) لم يصدق ذلك، وقرر الوصول إليها، وعندما دخل الغابة حاولت وحوشها قطع الطريق عليه ولكنه قتلها جميعها، وعندما وصل إلى أطراف الجبال التي تعيش (ديخناغو) خلفها، انقضض عليه نسر هائل كان يطير فوق تلك الجبال، ولكنه استطاع قتل ذلك النسر أيضاً، وبعد أن عبر (تئيميز) سبع جبال اعترضه (عملاق) ذو عين واحدة، تبرز من صدره سكين من العظم، فقتله (تئيميز) أيضاً وعندما خرج له فارس

* تعتبر من ألعاب المصارعة التي كان يمارسها الشراكسة منذ عهد قوم نارت، وفيها يتم النصر للمصارع الذي يُغرز خصمه في الأرض ولا يستطيع التحرك بعده.

يمتطي حصاناً بدون سرج وبدأت معركة شديدة بينهما عاجل (تتيميز) الفارس بضربة جبارة على رأسه، فانفلقت خوذته إلى شقين، وتدلّى من رأسه شعر طويل، وإذ هي (ديخيناغو) الجميلة، وبعد ذلك تزوجها (تتيميز) وعاد بها إلى بلده في أرض الناريتين.

• **الشخصية الرابعة و هو النارتي (اليدج)،** تذكر الأساطير لنا بأن النارتي (اليدج) كان تحاماته (رئيس) فرقة القتل في (مجلس الموت) النارتية، وكان الأكثر ضخامة وقوة بين الناريتين، وكذلك كان يسكن بيتاً أوسع وأطول من المعتاد، بناه فوق هضبة (كورغو)، وتذكر الأسطورة أن طول بيت (اليدج) كان ثلاثين خطوة، وأن مدخله إلى الجنوب، وأن أعمدة سقفه كانت من الضخامة بحيث تحتاج إلى سبعة ثيران لرفعها، وأن الدخول إلى فناء الدار كان يتم عبر باب مبني من جذوع أفقية فوق بعضها، وكانت من الضخامة تصل إلى ارتفاع رقبة حصان، وأن فتح الباب أو إغلاقه كان يحتاج إلى قوة عشرين رجلاً، وما بين بوابة الدارة وباب البيت كانت توجد بركة من الوحل يصعب على الإنسان اجتيازها راجلاً كان أو ممتطياً جواداً، وقد كان البيت نفسه مرتفعاً لدرجة أن (اكواندة) ابنة (اليدج) كانت تستطيع من فوقه أن ترى إلى مسافة تعادل ما يقطعه الفارس على جواده في سبعة أيام، وعند بلوغه سن (الثلاثمائة) عام، كان يستطيع امتطاء صهوة جواده والمحافظة على كامل قواه الجسمية.

وقد تزوج هذا النارتي مربع القامة من (بيتن) وهي نارتية لم يرض اخوتها عن زواجها منه، لأنها كانت فتاة جميلة، بينما يوصف هو بأنه كان قبيحاً، وبعد أن ولدت (بيتن) أول مولود لها ذهبت محملة بالهدايا حسب العادة النارتية إلى زيارة أهلها وقضاء فترة من الزمن بينهم، ولكن اخوتها أهانوها فعادت إلى زوجها (اليدج) وحدثته عن ذلك وطالبته بأن ينتقم منهم فذهب إلى قريتها وقتل اخوتها جميعاً.

وقد لاقى (اليدج) حتفه على يد النارتي (ساوسروقة) وتحققت أمنية (ساوسروقة) بأن تأكل الديدان رأس (اليدج).

• **الشخصية الخامسة وهو (اشيميز باشيميقو)،** هو أحد سبعة أبناء للنارتي (ياشيم)، وأما أهمهم فهي (نارتية) وكانوا يعيشون معاً على قطعة أرض واسعة يمتلكونها في بلاد الناريتين، وكانت أرض (ياشيم) تجاور أرض العملاق (تليفوج جاجنة) وبسبب شجرة ضخمة في أرض (ياشيم) تستظل بظلها آلاف الخرفان حدث نزاع بين صاحبي الأرضين، وتحول النزاع إلى قتال بين الاثنين حيث قضى العملاق على النارتي، وقد أراد أبناء (ياشيم) السبعة الثأر لوأدهم، وظن العملاق بأنه قد أصبح في مأمن من الانتقام، ولكنه لم يكن يعرف أن زوجة (ياشيم) كانت حاملاً، ولحماية أرملة (ياشيم) من غدر العملاق قام جيرانها بإخفائها في مكان آمن، وأتمت النارتية حملها وولدت طفلاً أسموه (اشيميز باشيميقو) وحماية للطفل وحتى لا يعرف العملاق بأنه ابن (ياشيم) فإن نساء نارتيات مختلفات أرضعن الطفل الصغير (اشيميز)، وكان يمارس مع أترابه في السن لعبة (الكعب) وكان يربح باستمرار، وقد غضب الأطفال النارتيون من ذلك وقالوا له: "إذا كنت حقاً بهذه العظمة والبراعة، أرنا إذن شجاعتك وحاول أن تعرف من الذي قتل أباك؟".

لقد سمع (اشيميز) هذه الكلمات وبدأ يدرك الأمور، فذهب إلى البيت وقال لأمه بأنه جائع، وأحست الأم بأن هناك شيئاً يضايق ابنها، ولم تكن قد حدثته قبل الآن عن موت أبيه على يد العملاق خوفاً عليه، وعندما أعدت الأم الطعام وأرادت تقديمه لابنها الجالس على المائدة، خاطبها ولدها قائلاً: أماه اجلسي إلى المائدة دعينا نأكل معاً، ثم أمسك بيد أمه وسحبها إليه وغمسها في صحن (المرامسة) ساخنة وثبتها بقوة حتى اضطرت أمه بسبب الألم إلى إخباره عن قتل والده، ثم أسرج (اشيميز) جواد أبيه وتمنطق أسلحته وخرج ليأخذ بالثأر، وقد اعترض العملاق وقضى عليه بعد صراع مرير

ولكن غضبه لم ينطفئ بذلك، فقد شعر بالكرهية تجاه كل العمالة وخطط لأن يبيدهم جميعاً، وكما تقول الأسطورة فإنه نفذ ذلك.

ويقول الباحث في أساطير النارتيين (حاداغالة) لم يكن شجاعاً وقاتلاً للعملاق فقط وإنما كان هو مخترع الآلتين الموسيقيتين (الناي والبخجيج)، وخلاصة قصة اختراعه هاتين الآلتين كانت على النحو التالي: - "حدثت مرة أن استلقى (أشيميز) في غابة ليستريح من عناء يوم شاق، وبدأت السماء تمطر وتبرق وترعد، وقد اقتلعت العاصفة شجرة غليظة، وصار احتكاك الريح بالشجرة الواقعة على الأرض يصدر أنغاماً عجيبة، وقد استيقظ (أشيميز) على هذه الأصوات متعجباً وتساءل عن مصدرها وعندما انتبه إلى أنها تأتي من الشجرة أخذ يقترب منها بحذر، ولاحظ أن جذع الشجرة كان أجوفاً بعد أن نخرته الديدان، فقطع جزءاً من الشجرة ونفخ فيه، فصدرت عنها نفس الأنغام التي كان قد سمعها من قبل، وهكذا كان (أشيميز) أول نارتي يتعلم كيف يصنع الناي، وبدأ يعزف على الناي، وفيما بعد جمع بضع صفائح خشبية وربطها إلى بعضها واخترع بذلك البخجيج.

بعد أن اخترع (أشيميز) الناي والبخجيج تخلص عن القتال، وتفرغ منذ ذلك الحين إلى الموسيقى، وصار ينتقل من مجموعة (زخس) إلى مجموعة أخرى ويفرح النارتيين بفنه، إلا أنه مات بعد قتال متكافئ مع البطل النارتي (قونيود)، ولم يتزوج (أشيميز) ولعل السبب المنطقي المحتمل هو ما يتعلق بكونه رضع من كثير من النساء النارتيات مما يحرم عليه بناتهن كزوجات حسب العادات الشركسية.

الفصل الثاني

عظماء ومشاهير أجداد الأمة الشركسية (الأديغة) في القرون ما بين الرابع وحتى الخامس عشر ميلادي

ربما كان أفضل من كتب عن عظماء ومشاهير وأبطال الأمة الشركسية للأجداد من شعوب الأنت/ الأديغة ما بعد الميلاد هو الكاتب الكبير (شورا بكمززا نغموقة) * حيث ذكر لنا أسماء (٢١) بطلاً من الأبطال الذين نالوا شهرة عالمية واسعة وظلت اسماءهم محفوظة في الروايات والأساطير الشركسية القديمة وهم:

١. الجيج Allig	٨. شاوه Shao	١٥. ناسران ظاقه Nassiran Zaka
٢. لابزا Labza	٩. أشه Asha	١٦. ظندو طاقة Zendu Zaka
٣. جوستين Justin أو جوستوك Justuk	١٠. أشه مز Ashamas	١٧. أيمس Imiss
٤. سوسيروق Sosiroki	١١. خيماش Chimash	١٨. أيسم Issim
٥. أسيرمك Osirmeg	١٢. باتيراس Batiras	١٩. مالخ Malch
٦. إيربخا شاو Iricha-shao	١٣. أولبك Olbek وابنه	٢٠. داو Dao
٧. قانجة Kandje	١٤. تاتاراش Tatarash	٢١. باقسن Bakssan ابن داو الأكبر

يقول (نغموقة) بأن أول ثلاثة أسماء من الأبطال يستدل من اسمائهم على أنهم من الإغريق وليسوا من الشراكسة إلا أن الآخرين هم من المشاهير والأبطال الشراكسة من القادة العسكريين العظام ورؤساء وزعماء وأمراء نالوا شهرة عظيمة تستدل عليها من الروايات وأغاني البطولة، وأغاني الرثاء التي كان ينظمها الشعراء بعد كل معركة في تلك المرحلة.

وبالبحث في السجل التاريخي لأحداث ووقائع تاريخ الأمة الشركسية في العصور القديمة، لم نجد من المعلومات والبيانات التي تمكننا من توثيق سيرة حياة معظم الأبطال السابق ذكرهم من حيث العصر الذي ولدوا فيه، وطبيعة البطولات التي أحرزوها، وكذلك المراكز القيادية التي كانوا يشغلونها في عصرهم.

أولاً: عظماء وأبطال الشراكسة من القرن الرابع إلى القرن التاسع الميلادي

توصلنا من تحليل الروايات والأساطير وأناشيد الأبطال وأغاني الرثاء التي كانت تنظم في الأبطال العظماء الذين سجلوا بطولات خارقة، وأظهروا شجاعة منقطعة النظير.. توصلنا إلى بعض

* شورا بكمززا نغموقة، موجز تاريخ الأديغة (الشركسي) القديم، ترجمة الدكتور شوكت المفتي، عمان، ١٩٥٣م، (ص: ٤٦).

المعلومات عن الأعمال البطولية لإثني عشر من القادة العظماء الذين كانوا من الرموز والمشاهير في المرحلة الممتدة من القرن الرابع الميلادي وحتى القرن التاسع منه وهم الأمراء:-

* داو - Dao وابنه الأمير باقسان - Bakssan ، * جاتم دوكر ، * شاوباكر ، * لوريستان أو لوريستان ، * ألجوقة ، * شاميا ، * حاتوظوقة ، * حراتلوقة ، * حاشو ، * اسلام بك ، * قبش كوكو ، * ينال الكبير أمير أمراء القيرطاي ، * موقوج نطنوقو باديو.

وفيما يلي نبذة موجزة عن أعمال وإنجازات بعض عظماء ومشاهير أجداد قدماء الشركاسة (الأديغة) في الفترة من القرن الرابع إلى القرن التاسع ما بعد الميلاد:-

• الأمير داو - Dao، والأمير باقسان ابن الأمير (داو) واشقائه السبعة الذين قتلوا في حربهم ضد قبائل القوت/ القوط حيث أشار المؤرخ القوطي (جورناندي) بأن قبائل القوط سبق لها أن غزت بلاد الشركاسة وبالأخص منطقة قبائل (الأديغة) المجاورة لهم في حوض نهر الدون في منتصف القرن الرابع الميلادي وقتلوا أولاد الأمير (داو - Dao) الثمانية منهم الأخ الأكبر (باقسان) وعبر المقاتلين الشركاسة عن وحشية هذا القتل الجماعي لأولاد (داو) بضربهم على صدورهم حزناً كما قامت نساء مجتمع (الأديغة) بنزع شعورهن من رؤوسهن أسى، كما وأنشدت شقيقاتهم الوحيدة حزناً على أشقائهن قائلة:-

- إن بطولة (باقسان) وهمته أوقدتا نار الحمية في قلوب شعب (الآنت).
- يا بطل يا (باقسان) ابن (داو) وإن كانت الروح قد فارقت جسدك لا تدع (القوت) يمسون كرامتك.

- وإذا أرادوا اخضاعك، لا ترض بسلطتهم.

- واستطردت قائلة:-

- كان الشعب كله يدعوك بالمقدس الطاهر.

- وكان القوم يستمدون منك العزم والاطمئنان.

وكلفت شقيقاتهم النحاتين اليونانيين بعمل نصب تذكاري للأخ الأكبر (باقسان) وما زال قائماً حتى الآن في الوطن الأم في القفقاس.

• الأمير لوريستان، وتتمثل بطولة هذا الأمير الشركسي بمشاركة العشرات من زملائه الأمراء ورفضهم الاستسلام وتقديم الطاعة لقادة الأوار الذين هاجموا بلاد (الآنت) أجداد الشركاسة وتعاملهم مع رُسل قادة (الأوار) بعلياء وكبرياء، وردوا طلبهم بجفاء، وأجابوهم بكلمات جارحة، فألج رسل (الخان) في طلبهم وهددوهم بقوة سيدهم، حتى احتدم الجدل، وقال لهم الأمير: "سنحاربكم وسنقاتلكم حتى لا يبقى من (الأديغة) شخص واحد قادر على حمل السيف" وقاموا بقتل رسل الخان الذين دفعوا حياتهم ثمناً لوقاحتهم.

وكان من نتائج هذا الموقف الشجاع من الأمير (لوريستان) وزعماء (الأديغة) أن قاد الأوار بقيادة قائدهم (بايقان) هجوم كبير على مناطق القيرطاي، نتج عنه تخريب البلاد واحراق القرى، وإتلاف الزرع، والإمعان في تقتيل السكان وتشريدتهم، اضطروا معها الفرار (عزلاً) إلى الجبال والكهوف والغابات الكثيفة هرباً من وحشيتهم وانقاداً لأنفسهم من الهلاك والفناء وقتل الأمير (لوريستان) في تلك المعارك.

• أمراء وقادة أبطال شاركوا في حروب الشركاسة ضد جيوش الأوار في القرنين السادس والسابع الميلادي، نستخلص من قراءة القصائد والأشعار التي نظمها شعراء شركاسة لتمجيد بطولة أمراء وقادة أكثر من عشرة أمراء شركاسة شاركوا في حروبهم ضد جيوش الأوار وهم:-

١. الأمير (أجوقة)، وقال عنه الشعراء بأنه البطل الذي لا يعرف الخوف وما كان ليجزع من هول النيران، بل وثب فيها وثبة الأسود فاختفى.
 ٢. الأمير (حاتوظوقوه)، وقال عنه الشعراء بأنه لم يسبقه أحد في يوم الرهان.
 ٣. الأمير (جراتلوقوة - Sheratluko)، وقالوا عنه أنه القوي الذي هزم الجمع وانتقم لآخوانه شر انتقام، وبينما وهو يهاجم الأعداء ببسالة كان يرى روح أبيه محلقة في الفضاء، ليرى الصالحات من أعمال ولده الذي كافح الأعداء بلا معين.
 ٤. الأمير (حاشو - hashow)، الشاب الذي تحفز مرارا ليثب نحو الأعداء ليقاتلهم لو لم يمنعه عن ذلك الشيوخ الذين رق قلبهم على والدته العجوز الأميرة (شاميخا - Shamicha)، التي قبعث في دارها وهي تذرف الدمع من هول الأسى والجزع.
 ٥. الأمير (قبش كوكو - Kipsh Gugow)، قالوا عنه أنه كان أنيقاً في لباسه وخوذته حتى في الحرب.
 ٦. الأمير (اسلام بك - Islam)، قالوا عنه بأن أمطر على الأعداء بوابل من السهام من قوس جده الكريم.
 ٧. القائد الشجاع (موقوج يظنوقو باديو)، قالوا عنه بأنه كان يتخطب بدمه في ظل راية (الخان) إذ رماه سيف العدو وخر صريعاً.
 ٨. القائد البطل (جاتم دوكر)، الذي رده الأعداء رجع ثانية إلى ساحة الوغى ليخوض المعارك الدامية.
 ٩. وكان آخر الأبطال هو (شاو باك العملاق)، الذي أراق الدماء على جوانبه وهزم جموع الأعداء شر انهزام.
- ثانياً - عظماء ومشاهير أجداد الشراكسة في الفترة الممتدة من القرن العاشر وحتى القرن الثالث عشر الميلادي:-

تشير الوقائع والأحداث التي وردت في بعض الوثائق القديمة وفي الروايات والأغاني من التراث الشركسي (الشفوي) بأن هذه المرحلة كانت مرحلة الحروب ضد دولة الخزر، والتورقوت، والتتار والمغول، وتوصلنا إلى بعض المعلومات والبيانات عن الإنجازات والأعمال البطولية لعدد من الأمراء والنبلاء والقادة العظام الذين اكتسبوا شهرة كبيرة لأعمالهم البطولية وشجاعتهم الباسلة نذكر منهم الأمراء والقادة التالية أسماؤهم:-*

- * قازي ابن بشى باتوقة ، * بش يزروفة بولاتوقة ، * جلاخستان ، * أجوقة قان شاو
- * بشى باتوقة ، * كلمات ، * بش قادر شادية ، * قدير شوقة ، * يش اينال الكبير ،
- * مايسوروقة ، * ايدار حفيد الأمير ينال الكبير .

كما تشير الوقائع التاريخية بأن المعركة الأولى قد بدأت بين الشراكسة وبين جيش دولة الخزر وخرج "بشي بزروقة بولاتوقة" والأمير "أجوقة قان شاو" لصدة غارة الخزر على (تاماتركان) وقد سار الأمير (أجوقة) في الطليعة فاصطدم فجأة بجيش العدو الذي أحاط بقوته القليلة، فاشتبك في قتال ضار مع العدو، ووقع أسيراً، وحين أدركت قوة (بزروقة) المعركة أحاطت به قوات (الخزر) وحدثت معركة شديدة، وانسحب الخزر مغلوبين إلى عاصمتهم الصيفية (سرقلة) ومعهم الأمير (أجوقة) أسيراً، ونظم أحد العشائر الشراكسة على أثر أسر الأمير (أجوقة) قصيدة قصيرة نفتبس منها الأبيات التالية:-

* لم يتمكن المؤلف من توثيق كامل الأعمال وإنجازات ومسيرة المشاهير والابطال في هذه المرحلة من تاريخ الشراكسة.

كما من الأيام مضت وعين (الجوقة) اليمنى تحرس البحار.

لقد توالى الأيام وهو في انتظار قدوم السفن الجسيمة.

ومضت السنون وهو ينتظر قطع الفضة لبيتاع حريته ثانية.

لقد أقسموا له بذلك أمام الله، وهذا شيء عظيم.

الويل والخراب؟! فانتظر الرحمة اذن من بني قومك في (سرقة). *

حلفوا لك الإيمان مرارا أمام الله .. وهذا شيء عظيم.

ولكن الإيمان ذهب أدراج الرياح.. و(الجوقة) البطل.

يقضي أيام شبابه في ديار الغربية عبداً أسيراً.

واستطاع قادة الشراكسة من اطلاق سراح الأمير (الجوقة) في المعركة الثانية لهم ضد دولة الخزر واحتلوا عاصمتها.

كما تشير وقائع وأحداث القرن الثالث والرابع عشر بأن حروباً دامية وقعت في هذين القرنين حيث كانت جيوش التورغوت قد بدأت في الاعتداءات وهم أجداد القالمون الحاليون، حيث فاجأت هذه الجيوش القبائل الشركسية التي كانت بقيادة الأمير (بشي باتوقة) والأمير (قدير شوقة) من القبرطاي، فأعد لهم الأمراء ذوي الخبرة والحكمة الخطط المناسبة لمواجهة العدو مجهول العدد والعدة، وانتصرت فيها قوات القبرطاي المدعومة من مقاتلين من شراكسة ما وراء الكوبان في معركة في موقع اسمها "قاج طاو" ووردت أسماء عشرات من الأمراء والقادة العسكريين الأبطال الذين قاتلوا بشجاعة في هذه المعركة نذكر منهم بالإضافة إلى الأميرين (بشي باتوقة وقدير شوقة) فإن كل من الأمراء: (تابسوروقة، قازي بشي باتوقة، وجلاخستان، وكلمات، وبشي قادر شاقوة) وغيرهم من الأمراء كانوا من الأبطال الذين هزموا جيوش المغول والتتار في أكثر من معركة وموقعة حربية.

ثالثاً: عظماء ومشاهير الشراكسة في القرنين الرابع والخامس عشر.

ظهر في هذين القرنين عظماء ومشاهير من الأمراء وأمراء والقادة العسكريين نذكر منهم:

(١) أمير الامراء اينال نخو (أي النور) أو اينال الكبير



أمير الامراء اينال نخو

الأمير الأسطورة الذي يعد جد أمراء قبائل القبردي والبيسلاني وتمرقواي والحتقواي والجكوي. وهناك أكثر من رواية عن أصله منها أن أصوله تعود إلى عائلة خيتاغور الأوشية، كما أن إحدى الفرضيات تقول بأنه كان سلطاناً من السلاطين الشراكسة في مصر وبلاد الشام وعاد إلى موطنه في شمال القوقاز.

يعتبر أول من أسس دولة شركسية في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر.

كما قام بأعمال عظيمة وجريئة تمهيدا لتوحيد شعبي القبرطاء والأبخاز نذكر منها الأعمال التالية:

* سرقة هي عاصمة دولة الخزر.

١. مطاردة الأشقياء من الأمراء الشراكسة الذين عصوا أوامره وخرجوا عن طاعته، ونشروا الفساد في البلاد، وقاموا بإحداث العديد من أحداث الشغب ونشر الفتن بين عامة الشعب.
٢. صد هجمات الأمراء الشراكسة الخارجيين على القانون والهاربين إلى الغابات والمعتصمين بأعالي الجبال الوعرة، حيث قام الأمير بمهاجمة معاقليهم وقضى عليهم وعلى أتباعهم، وألقى القبض على ثلاثين من قادتهم وزعمائهم وأعدم عشرة منهم وأجبر الباقين على أداء يمين الطاعة والولاء.

٣. تأديب السكان الجبلين الجنوبيين الذين أعلنوا العصيان والتمرد على قيادته بزعامه الأمير (أوزندير) وقتل عدداً من المتمردين العاصين الذين اعتبروا خارجين على القانون.

واستطاع الأمير (ينال)* بعد القضاء على الفساد والمفسدين في البلاد من توحيد قبائل القبرطاي والأبخاز وتأسيس (دولة) شركسية مزدهرة عمَّ فيها الخير والرخاء، وأقام فيها (٤٠) حاكماً من القضاة وكلفهم بإدارة البلاد وتسيير دفة الحكم فيها بعدل واستقامة ونزاهة. وكان عاصمتها (بزيقا) الأبخاز بالقرب من (غاغرا).

واختلف المؤرخون عن مكان وجود قبره كما اختلفت الروايات التي تشير إلى المكان الذي دفن فيه... فبعضها تحدث بآءه مدفون في مكان يحمل اسم (ينال قوبا) بالقرب من قرية بسخو الأبخازية عند منابع نهر برب، ومصادر أخرى تقول أنه مدفون في قرية (ينال) على شواطئ البحر الأسود في منطقة الشابسوغ بالقرب من قرية غيلندجيك الحالية. كما يوجد في القبردي في منطقة (زلوقوة) جبلا يحمل اسم (ينال) كما تقول بعض المراجع التاريخية أن الأمير العظيم ينال مدفون عن سفحة. ويذكر أن بعثة أثرية انتروبولوجية مشتركة من القبردي وأبخازيا بدأت العام الماضي عمليات التنقيب في قرية بسخو الأبخازية بحثاً عن قبر الأمير الموحد للأمة الشركسية.

وأما الأمير إيدار حفيد (ينال) من زوجته الثانية، الذي يعتبره المؤرخون عامة، و(نغموقة) خاصة بأنه (خليفة) جده الأكبر (ينال) في حكمته وقوة شخصيته، واستطاع إصلاح ذات البين بين الأمراء أحفاد ينال الكبير من زوجاته الثلاثة وفرض عقد الصلح بينهم بعد أن قابل الشر بالشر، والقوة بالقوة، حيث قام بجمع جيش كبير من قبائل (الكاخ والكغالك والبطة دوغ والموخوش) وغيرهم من شعوب ما وراء الكوبان، وسار نحو بلاد القبرطاي لتحقيق هدفين: - أولهما تأديب المتخاصمين، وثانيهما أخذ حصته من إرث أبيه ابن ينال الأكبر.

وقبل وصوله إلى بلاد القبرطاي جاء إليه الأمير (قونوقو - Konuko) أحد أحفاد الأمير (ينال) للتشاور معه.

أما القبارطاي فحينما سمع امرؤهم بما نواه (إيدار) أخذوا يستعدون للحرب وأرسلوا يطلبون المعونة من عدة أقوام في الجبال، وكان اعتمادهم على قوم (الأوس) الذين كانوا حلفاءهم منذ القدم وتربطهم بهم أواصر القرابة إذ المعلوم أن زوجة (ينال) الأولى كانت ابنة ذلك الفارس العظيم والأمير الشهير (أشا) أمير الأباطة، فلم يخيب الأباطا أملهم، بل أرسلوا إليهم جيشاً يبلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل، وأكثرهم من المشاة وعندئذ تشاور الأمير (إيدار) وابن عمه (توختامش) وقرروا أن يرسلوا إلى القبارطاي وفداً مؤلفاً من الرجال ذوي المكانة ليبلغ امرأهم مطالب (إيدار) وأن الأمير (إيدار) لا يريد منهم سوى التسامح وإصلاح ذات البين حتى يتمكن الاخوة من العيش معا في هدوء وسلام، ومطلبه الوحيد هو تقسيم بلاد القبارطاي تقسيماً عادلاً، يضمن حق كل منهم على أن يعطي الأمير (إيدار) أيضاً ما يصيبه ويصيب أقاربه من إرث أبيه، ويترك الباقي من تلك البلاد لأحفاد (ينال) الذين هم من أعقاب أولاده من زوجته الأولى إلا أنهم لم يقبلوا اقتراحات الأمير (إيدار) بل ردوا رسله على أعقابهم خائبين بعد أن عاملوهم بقسوة وغلظة، فاغتاز الأمير (إيدار) غيظاً شديداً وقرر أن يحتل شعب القبارطاي وبلادهم بالقوة، واشتبك الفريقان في موقع يسمى (قاز بوت) وهلك في هذه الموقعة عدد كبير من الفريقين وقتل من الأمراء كل من (قالستان - Kalstan) و (أيباك -

* أطلق على الأمير اينال لقب (Naokh) فهو لأنه كان ناصع البياض يشع نوراً.

(Aibak) و(دوداروقة - Dudaruko) و(توختامش) وابنه (قاليش)، ودخل الأمير (ايدار) بلاد القبرطاي منتصراً وتسلم زمام الحكم فيها، وأصبح الحاكم الأعظم وأمير البلاد في طولها وعرضها، ونستدل على عظمة الأمير (ايدار) وشجاعته من أبيات الشعر التي تصف بطولته من قبل بعض الشعراء القبرطاي، حيث تضمنت الفقرات الشعرية التالية:-

* ففي الفقرة الأولى قال الشاعر:-

- بالرغم من أن الدماء كانت تغمرها كان الفارسان الشهيوان
(يلجر) وربيبه (ايدار) أشدهم عنادا،
- وأما (يلجروقة) فتراه تارة يقتحم الصعاب ويتخطى
الأسوار وتارة يرجع خائبا إذا أعاقته الموانع.

* وفي الفقرة الثانية وصف الشاعر شجاعة كل من الأمير (ايدار) وعدد من الأمراء الذين حاربوا معه بقوله:-

- قاتلا قتالاً مرا، ثم مسحاً بلجامها ايديهما الملوثة بالدماء
والأخوان البطلان وكذا (بوغارصوقو) بعد أن قاتلا
- زاعمين أن العدو اللدود قد خضع أبدياً
والشجاع (يلجر) والأمير (ايدار) والأمير الباسل (يلجروقة)
- الذي شكته السهام إلى سرجه، لم يغادروا ساحة الوغى
وظلوا مقاتلين حتى النهاية.

* وجاء في الفقرة الثالثة ما نصه:-

- هنا اندلعت السنة اللبيب في بلدة (بوغارصوقو)
وهناك تعالى عويل الأهليين الذين فروا من قرى (تشاشان - Chashan)
- وترى على رؤوسهم شارة (الفصح) بدلاً من الخوذ اللامعة
وقد كان كل من الشجعان (يلجر) والأمير الباسل
- (ايدار) والأمير المنصور (يلجروقة) عديم الرحمة
لكن الآن أخذت الشفقة تدب في قلوبهم رويداً

هكذا انتصر الأمير (ايدار) واستطاع فرض الصلح على احفاد الأمير (ينال) المتحاربين، وحل الوئام محل الخصام بفضل قوته وحنكته، وشجاعته، وعاش شعب القبرطاي بعد ذلك في سلام وأمان.

وفي مرحلة لاحقة قام الأمير (ايدار) بغزو مملكة الخزر بجيش مكون من جميع قبائل (الأديغة) القائمة على سواحل بحر آزوف (الخزر)، ورجعوا من حملتهم بكثير من الغنائم والأسلاب، وقيل أن جده "يلجروقة - Eldjeruko" أمير قبائل (البطة دوغ) والعملاق المشهور بقوته البدنية (ردديا - Rededia) كانا يرافقانه في أسفاره وغزواته.

الفصل الثالث

عظماء ومشاهير أجداد الأمة الشركسية (الأديغة) في القرون السادس والسابع والثامن عشر الميلادي

تشير الوقائع التاريخية لعظماء ومشاهير أجداد الشراكسة في القرون السادسة والسابعة والثامنة عشر الميلادي بأن هؤلاء العظماء يصنفون إلى ثلاث فئات وعلى النحو التالي:

الفئة الأولى: وتضم أمراء وقادة عظام من الشراكسة عامة وشراكسة القبردي خاصة حاربوا بشراسة القوات المعتدية على بلادهم من خانات القرم وجيوش روسيا القيصرية وغيرهم وكذلك قادة فكر وأدب وفلسفة وقضاء ساهموا في توعية وتنقيف الشعوب الشركسية ضد الاخطار التي تهددهم.

الفئة الثانية: وتضم أمراء وأميرات وقادة عسكريين حاولوا حماية بلادهم من خلال التقرب من القيصرية الروس وعقد اتفاقيات تعاون لحمايتهم من الأعداء عامة ومن خانات القرن المدعومين من الأتراك العثمانيين خاصة وهم الأمراء الذين أطلق عليهم لقب (أمراء السلام).

الفئة الثالثة: وتضم أمراء وقادة عسكريين من أصل شركسي حملوا رتب عسكرية عالية وقادوا جيوش القيصرية في أكثر من حرب وحققوا انتصارات كبيرة على أعداء روسيا في العهد القيصري.

الفئة الرابعة: وتضم قادة عسكريين من أصل شركسي حملوا رتب عسكرية مختلفة وتعاونوا مع أعداء الشراكسة عامة ومع سلطات روسيا القيصرية خاصة. وإن بعضهم تبادوا في تعاونهم إلى حد اعتبارهم (خونة). وإن كان عددهم قليل، إلا أنهم حاربوا بني قومهم الشراكسة.

وفيما يلي نبذة عن إنجازات وأعمال ومساهمات رجالات كل فئة من الفئات الأربعة سابقة الذكر.

■ عظماء من أمراء وقادة شراكسة من الفئة الأولى ومنهم:

١. الأمير أسلان قايتوكة: (١٦٩٠-١٧٥٥)*

• نشأته وتربيته:-

تربى الأمير (أسلان) على يد الأتالق الفيلسوف (قازانوكة جباغي) وغرس هذا المربي الحكيم في نفس تلميذه كل المبادئ السامية التي كان يعمل من أجل تحقيقها.

• حكمه وإنجازاته:-

كان لا بد للغرس الذي غرسه الحكيم (جباغي) أن يأتي أكله، حيث تم انتخاب الأمير (أسلان) حاكماً عاماً لمنطقة القبرطاي (قباردا) وكرس وقته كله خلال الفترة الأولى من حكمه للإصلاحات الداخلية حيث وحد في البداية كل الإمارات والولايات الشركسية والبالغ عددها اثنتي عشرة إمارة، ثم عمل على نشر الأمن والسلام في المناطق المتاخمة لحدود دولته، وفي عهده ازدهرت التجارة والزراعة، وانتعشت الصناعات التقليدية مثل: صناعة السجاد والملابس والأسلحة والأثاث وغيرها من الصناعات اليدوية التي كانت تصدر إلى تركيا وبريطانيا وإيطاليا، بالإضافة إلى تصدير كميات كبيرة من الأخشاب والعسل والخيل إلى تركيا والقرم.

ونظراً لعدم انضمام الداغستان والشيشان إلى تلك الوحدة شجع الروس للقيام بهجوم على تلك المناطق عام ١٧١١م، إلا أن تلك الحملة لم تنجح، ثم أعادت الكرة عام ١٧٢٢م بهجوم بري تسانده القوات البحرية عن طريق بحر الخزر، واستطاعت احتلال تلك المنطقة والاستيلاء على (دربند) مرة أخرى.

* تاريخ الولادة والممات تاريخ استنتاجي من الاحداث والوقائع والحروب التي خاضها... وهو تاريخ تقديري.

وفي عام ١٧٢٢م، حدثت أول مصادمة كبرى بين القيصر بطرس الأكبر وبين أمير الشراكسة (اسلان قابتوق)، حيث شن القياصرة هجوماً بقوات مكونة من (٤٤٢) سفينة تحمل (٢٢) ألف جندي من القوات البرية وخمسة آلاف جندي من القوى البحرية، بالإضافة إلى عشرة آلاف جندي كانوا متمركزين في قلعة كزلار وصمد المقاتلون الشراكسة من القبرطاي بقيادة الأمير (اسلان) ولم يتمكن الروس من احتلال بلادهم بالرغم من الخسائر الكبيرة التي مني بها الشراكسة.

٢. الأمير كورغوقوة حاتوظوقه : (١٦٨٠-١٧٤٠)

كان يدير هذا الأمير بلاد القبرطاي في الفترة التي احتلت فيها خانات القرم بلادهم عام ١٧١٧م وفرض على كل بيت شركسي من بيوت (القبرطاي) تأمين إقامة ومبيت أربعة من رجال خانات القرم مع خيولهم كما أجبروهم على إطعامهم وإيوائهم، كما عينوا في كل بلد إماماً (مُولاً) لكي يعلمهم قواعد الدين الإسلامي، وأخذ معه أعداداً كبيرة من أولاد الأمراء والأشراف وغيرهم من أمراء الشراكسة كرهائن وكان من بين هؤلاء الرهائن شقيقة الثائر (مشوقه) المحرض على عدم دفع الجزية (للخانات) وحكومتهم.

بقي جيش القرم محتلاً (بلاد القبرطاي) عدة سنوات وكانت الأموال تجبى منهم سنوياً، واعتنق بعض الشراكسة الدين الإسلامي، بينما رفض آخرون، (وظلوا يمارسون شعائر دينهم القديم خفية خوفاً من اضطهاد الأتراك والتتر لهم)، فدامت الأحوال على هذه الوتيرة سنين عديدة.

وفي أحد الأيام وبينما كان (نائب خان القرم) حاكم بلاد القبرطاي المحتلة جالساً بين الأعشاب والمروج الخضراء (يدخن غليونيه) ويتحدث إلى من حوله من أكابر القوم وأمرائه، ومن بينهم الأمير (كورغوقوة حاتوظوقه) نفسه وأتى (نائب خان القرم) بأمر منكر، فيه وقاحة ونذالة، حيث أخذ (ينظف غليونيه ويفرغ ما تبقى به من الرماد على رأس الأمير كورغوقوة بطرقه فوق رأسه) فاعتاظ الأمير من هذه الإهانة غيظاً شديداً، لكنه كظم غيظه، واحتفظ بهدوئه التام، ولم يقم بأي رد فعل في حينه، وانصرف بعد أن ودعه، وما أن وصل إلى بيته حتى جمع الأمراء الشراكسة وعليه القوم من القبرطاي وقصّ عليهم تصرف نائب (الحاكم القرمي) وأبلغهم قراره الأخير، وهو ضرورة التخلص منه ومن جيشه في أقرب فرصة ممكنة مهما كلفهم الأمر ذلك، فوافقوه على رأيه واجتمعوا على تنفيذ القرار الذي لا رجعة عنه.

في الليلة نفسها اتفقوا على قيام كل شخص من سكان القبرطاي حين يخيم الظلام أن يقتل كل من يعثر عليه من الأتراك وأهل القرم أينما كان وحيثما وجد، وكل من يتخلف عن أداء واجبه الوطني يعتبر خائناً لقومه وملته الشركسية، ولما خيم الظلام قام أهل القبرطاي قومة رجل واحد، وأعملوا السيوف في رقاب الأتراك والتتار، وأبادوهم عن آخرهم حتى لم يبق منهم أحد على قيد الحياة وهكذا تم الخلاص من استعمار خانات القرم لبلاد القبرطاي.

وفي عام ١٧٢٠م، هاجم خان القرم "سعادة كيري" للانتقام من الأديغة على رأس جيش بلغ عدده أربعين ألف جندي، ومعهم مدافع كثيرة، للانتقام من القبرطاي على قتلهم رجالهم عام ١٧١٧م، إلا أن الأمير "كورغوقوة" بادر بمهاجمة "قوات خانات القرم" بناءً على اقتراح من الفيلسوف (جباغي) حيث قام بجمع ما يقرب من ثلاثمائة (حمار) وحملها (قش) يابس، ولما خيم الظلام سار بجيشه وفي الطليعة قافلة (الحمير)، ولما اقترب من معسكر العدو من خانات القرم اضرموا النيران في ذلك القش واطلقوا عدة طلقات نارية لارهاب (الحمير)، فأخذت تتهق بشدة وهاجت، ودخلت معسكر الأعداء وعلى ظهورها النيران المشتعلة، فكانت مفاجأة كبيرة لقادة جيش خانات القرم، وخرجوا من خيامهم مذعورين فزعين، وأخذوا يترامسون في حلقة الظلام وهم في حالة ذهول وفزع شديدين، مما رأوا وسمعوا، واشتبك بعضهم ببعض في معركة ليلية دون أن يتمكنوا من التقريب بين العدو والصدى استمرت حتى الصباح، حيث فاجأهم قادة القبردي بما لديهم من قوة وأعملوا فيهم السيوف وقتلوا واسروا العديد منهم وغنموا منهم غنائم كثيرة، وأما قائدهم البدين (ألغوت باشا - Alegot) فقد سقط أثناء فراره، وعلق جسمه الكبير بغصن شجرة ضخمة، فاخترق الغصن بطنه، وبقي معلقاً حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

٣. الأمير كاسيا أتاجوكين: (١٧٢٠-١٨٠٠)

هو الأمير الوحيد الذي رفض ما جاء في رسالة الامبراطورة كاترينا الثانية من وعود للشراكسة عامة ولشعب القبرطاي خاصة وهي الرسالة التي وجهها للأمراء القبرطاي عام ١٧٧١م، وقال هذا الأمير في رفضه لرسالة الامبراطورة بقوله: "سنكون تحت الوصاية الروسية إذن، كما حصل مع القالموق الذين تشرذموا واضطروا إلى العودة إلى بلادهم بعد أن غدر بهم أباطرة الروس، وسيلاقى القبرطاي المصير نفسه وسنضطرّ الانتجاع إلى الجبال". لقناعته بأن لا أمان من السلطات الروسية بعد تكرار غدرهم للشراكسة.

لقد كان هذا (الأمير) الحكيم يرى ما يكمن تحت الماء، وكانت بداية النهاية فعلاً للشراكسة وإن (كبارديا) كانت التفاحة التي أثارت شهية جيرانها من الروس الطامعين الأقوياء، وقامت حكومة القيصرية (كاترينا) بتوطين حوالي (٤٠٠٠٠) شخص من قبائل النوغوي، في غرب القفقاس في نفس العام الذي أرسلت فيه الرسالة التي اعترض عليها هذا الأمير كما قررت الحكومة الروسية إيلاء أهمية خاصة لموضوع تقوية ممتلكاتها الجديدة في القفقاس، وقامت ببناء خط كامل من المستعمرات السكانية الروسية ما بين نهر الدون وحتى مزدوك وعلى امتداد أكثر من خمسمائة فرسخ، عُرف (بالخط القفقاسي) وخصصتها لاستيطان بقايا جيش (قوزاق الفولقا) واستقبل شعب القبرطاي هذه الألباء بابتهاج، وظنوا أنهم سيحصلون على الحماية بوصول (القوزاق)، ولكن سرعان ما تبين العكس، حيث تبين بأن هذه المستعمرات ما هي إلا (حصون) لحماية القوات الروسية، وإنها تشكل عوائق لاستثمارهم لأراضيهم، كما أن شعب القبرطاي أصبح معزولاً عن شعوب شراكسة ما وراء الكوبان في شمال الغرب من بلاد القفقاس.

٤. الفيلسوف الشركسي والمفكر والمصلح الاجتماعي الكبير والسياسي قازانوقه جباغي: (١٦٨٥-١٧٥٠)

• مولده ونشأته:-

ولد في قرية "قازانوقى" بالغرب من موقع مدينة نالتشك حالياً، ولم يُعرف تاريخ ميلاده بالتحديد، وإنما عُرف بأنه عاش في الفترة من أواخر القرن السابع عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر وبالتحديد خلال الفترة ما بين (١٦٨٤م - ١٧٥٠م)* وعاصر حكم الأمير (اسلان قايتوقه وحقوقجوقه) وأسند إليه منصب القاضي العام في بلاد القبرطاي.



الفيلسوف الشركسي جباغي

وجباغي هو الحكيم والفيلسوف الشركسي الذي عرف بسعة أفقه، وعمق تفكيره، بحيث تمكن من حل معضلات كثيرة، جابهت الحكام عامة والناس خاصة، وتناول مختلف شؤون الحياة، وأمن الوطن القومي، حيث كان يعالج كل ما يستتار به بتأن وروية، ويعمل دون تحيز أو محاباة، فيخرج بأحكامه العادلة التي أرضت الجميع (الرابع منهم والخاسر) محاولاً في ذلك ترسيخ المبادئ القومية، وتدعيم روح التسامح، وإحلال الوئام محل الحقد والبغضاء، حيث كان قادراً على الاقتناع وعلى نزع فتيل الشر في أحلك الظروف، وإخماد نار الثأر بين العائلات والقبائل، مستثيراً في النفس النزعات القومية، كما كانت نظرته نظرة شمولية للحياة أدت إلى اكتسابه المحبة والتقدير العام، فقربه الأمراء والحكام،

* ذكرت بعض المصادر التاريخية بأن تاريخ ميلاد قازانوقه هو عام (١٦٨٢م) وليس عام (١٦٨٥) حسب ما ذكره الكتاب الآخرون.

وأحبه عامة الشعب، كما نال تقدير كافة شعوب القفقاس من شركاسة وشيشان وانجوش وقراشيه وبلقار.

• أصله وتربيته:-

هو من عائلة من عامة الشعب في بلاد القبرطاي، وأرسله والده إلى بيت أحد قبائل البلقار ليقوم بتربيته وفق نظام "الأتالق" وهو في سن السادسة من عمره، وقام بتربيته على مبادئ الدين الإسلامي، وعلى الأخلاق والآداب، كما تم تدريبه على العادات والتقاليد، وعلى فنون الفروسية، وعاد إلى أهله عند بلوغه سن العاشرة، ووجد والديه متوفيين، وتكفل بتربيته الأمير حامفروقة.

• آراؤه وأفكاره الفلسفية:-*

أصبح (جباغي) حكيم الشركاسة ولقب "بأبي الحكمة الشركسية" وأصبحت له مكانة مثل (بوذا) بالنسبة للبوذيين، ومثل (كونفوشيوس) بالنسبة للصينيين، ولكنه كان يختلف عن (بوذا) في ناحية هامة، ذلك هو أن بوذا لم يؤمن بوجود (إله) أو آلهة، إنما بشر بشيء أسماه القانون الأخلاقي، أما (جباغي) فقد تحدث عن (الإله الواحد) ودعا قومه لعبادته كما وكان يشبه (كونفوشيوس) في دعوة الناس إلى الأخلاق وإلى وضع قوانين ومفاهيم محددة لها أصول في تعامل الناس وفي السلوك العام، وطور العادات والتقاليد ووضعها في قالب تشبه التشريع.

أمعن (جباغي) النظر في هذه الحياة وتكشفت له أسرارها، وكان لا يرى المظهر فقط وإنما كان يكتشف الجوهر في أي أمر من أمور الحياة، حيث عرف فيما عرف أن الكون قائم على قانون الأضداد، حيث قال: فأدم عكسه إبليس، والخير نقيضه الشر، والليل يقابله النهار، والقطب الشمالي وموقعه بعكس القطب الجنوبي، والملاك من نور والشيطان من نار، والإنس ظاهر والجن خفي، وكذا البشر يتكون من رجل وامرأة وأبيض وأسود وأدرك أن (الله) فقط هو فوق قانون الأضداد أو تلقت في الأضداد فتحمي صفاتها لتصبح ذات صفة واحدة ووجه واحد فترقد في سلام وهو تفسير لمقولة "أن الله خير مطلق وإن الله فوق الأضداد لأنه خالقها".

ربما أن كلمة (ضد) هنا، تلفت النظر وتحتاج إلى تفسير، فقد تحمل معنى التقابل، وقد تحمل معنى العداوة، وقد تحمل معنى التكامل، وأحياناً تحمل معنى اللحاق والمطاردة، فإبليس إلى يوم القيامة حسب وعده سيظل يلاحق آدم وذريته بعدائه وحقده وغوايته، والليل يتلو النهار ويكمله، فماذا لو بقي الليل سرمداً فلا نهار هناك، ولماذا جعل الله النهار معاشاً، والليل لباساً؟ والرجل الأسود يشتهي المرأة البيضاء، وكم من امرأة بيضاء وقعت في غرام رجل أسود، أما الخير والشر فشأنهما أعجب وخير وصف قرأته أن للشر جاذبية كجاذبية الأرض، وأن للإنسان الشرير جاذبية كهذه، ولذلك نهوا عن معايشة رفاق السوء والزواج من امرأة سوء، والشر ظلام وانحدار، وهو على درجات، فلذا هو سهل اقترافه، وكذلك فإن طريق الخير صعب ويحتاج إلى جهد وجهاد ومثابرة، كما يحتاج المرء إلى سنوات ليكتسب صداقة إنسان آخر مع الحرص الشديد على صداقته، وقد لا يصل إلى الهدف، بينما يستطيع بكلمة نابية أو عبارة قاسية أو عمل من أعمال اللهو أن يخسر صداقة عمرها سنوات، وقصة الراهب الذي ذهب ليهدي (غانية الاسكندرية) إلى جادة الفضيلة فأغوته وجرته إلى حمأة الرذيلة وهي قصة معروفة في الأدب العالمي تحت عنوان (تاييس) كما أن بناء عمارة كبيرة يحتاج إلى جهد ووقت ومال، أما هدم مثل هذه العمارة فيحتاج إلى أصبع ديناميت وشخص واحد.

انتبه الحكيم الشركسي إلى كل هذا وفوق هذا، فوضع الأقوال وضرب الأمثال وسن أفعال أشياء بقيت على مر الزمن، كما أن أجيال اندرست وعفت وما وضعه (جباغي) من نواميس ظلت خالدة نبراساً وهدى لقومه كما أدرك (جباغي) أن غاية ما يستطيع الإنسان الحكيم أن يفعله على وجه الأرض هو أن يوفق بين الأضداد في نفسه وأن يدل غيره على دربه فيعيش في سلام ويدرك أخطر سر في الوجود، لذلك لقب (جباغي) بالرجل الحكيم، والفيلسوف النبيل.

* مجلة الواحة، عدد (١٥) عام ١٩٧٦م ص: (٢٠-٢٢).

• مكانة جباغي بين الأمة الشركسية في الوطن الأم في بلاد المهجر:-

كان الشراكسة على مر الأجيال والحقب يفتخرون بـ (جباغي)، يحفظون أقواله، ويقلدون أفعاله، ويوصي المرء أخاه وصديقه وولده بذلك، وفي قفقاسيا ما زال القوم يولونه أهمية قصوى وتراثه وأدبه وحكمته وشرائعه كلها مسجلة، كما أقاموا له التماثيل تكريما وتخليدا، وسجلوا أقواله على مسلات في الشوارع الرئيسية، أما أبناء المهاجرين الأوائل وأحفادهم فقد ضاع تراث (جباغي) من بين أيديهم ربما لانقراض الجيل السابق، مثل تدوين ما نقلوه معهم من حكم (جباغي) وربما لعدم معرفتهم بالكتابة الشركسية في ذلك الوقت.

ويعود الفضل إلى جباغي في توحيد الأمة الشركسية في أوائل القرن الثامن عشر وتكوين اتحاد يضم (١٢) إمارة شركسية في عهد الأمير (اسلان قايتوق)، وكذلك يعود إليه الفضل في هزيمة جيش خانات القرم في عهد الأمير حتوقجوقة عندما أشار عليه بخطة إرسال (٣٠٠) حمار محمل بالقش الملتهب إلى معسكر الأعداء، كما يعتبر أبو العادات والتقاليد الشركسية المعاصرة.

• مقتطفات من حكم وأقوال وملاحظات وأفكار (جباغي) الفلسفية:-

كان (جباغي) ينظر إلى الماء فيرى في الماء سرا من أسرار الكون وكان يقول لمن حوله: إن الله جعل الماء بهذه اللبونة؟ لكي يمر من الحلق بسهولة، وليتخير فيصعد إلى السماء ليكون سحابا ينقل من مكان إلى مكان ثم يروي الأرض العطشى فتحيا من بعد موته. وأن الماء هو ألطف ما في الوجود، قادر على تفتيت الصخر بالترار؟ أخوتي امعنوا النظر في الماء ولا تكتفوا بشربه بل كونوا مثله.

أدرك (جباغي) أيضاً سر الشمس والقمر ومن هو السالب منها والموجب، وأنهما ليسا بأنثى ولا ذكر، وقد عرف سرهما، ومن عرف السر فقد عرف دربا قصيراً إلى الله تعالى، وأدرك أن إبراهيم عليه السلام قد تخلى عنهما إلى خالفهما لأنهما من الأفلين ولم يتخلَّ عنهما نهائياً بل كان يرى الله تعالى عبرهما. قال (جباغي) فكروا في الشمس والقمر فستعرفون سرا من أسرار الكون.

اهتم (جباغي) بجوهر الأشياء وباطنها لا بمظهر الأشياء، ويتضح ذلك من الحوار التالي:-
"أمسك جباغي بيد فتى من فتیان القرية وسار به إلى الشاطئ وكانت سفينة ضخمة ترسو فوق ماء البحر وقال للفتى:- ماذا ترى يا بني؟؟ قال الفتى أرى سفينة وكأنها مدينة عائمة، قال جباغي قد رأيت الكل ولم تر الجزء، فمضى الفتى يصف السفينة جزءا جزءا، بدأ بالصارية الرئيسية والصارية الصغيرة الأمامية والخلفية، والحديد والخشب والرجال وهم يعملون إلى أن أتى على وصف السفينة جزءا جزءا وهنا قال جباغي:- أي بني قدر رأيت المظهر ولم تصف لي المخبر والجوهر، وأصيب الفتى بذهول، لم يدر ما يقول، وعندئذ قال جباغي:- هذه السفينة الضخمة بأجزائها العجيبة المتعددة قامت على سطر واحد من قول حكيم يوناني، يقصد بذلك نظرية أرخميدس حول (الثقل النوعي) لأي مادة هو وزن أي حجم منه بالنسبة لحجم مماثل من الماء- فقال جباغي للفتى: يا بني لا تهتم في حياتك بالظاهر فتتسى الباطن، ولا تتعلق بالمظهر وتتسى الجوهر، إذا نظرت في أمر من الأمور ابحث عن العلة والسبب لكي تصل إلى النتيجة فإذا ظلت تسأل عن السبب ستصل حتما إلى سبب الكون، هذا درب من الدروب إلى الله يا بني، فاتعظ.

وربما كان كتاب "قصص جباغي قرانوقة" الذي صدر بإشراف معهد الدراسات الإنسانية التابع لحكومة جمهورية كبادينا - بلقاريا ومركز العلوم الأكاديمية والعلوم الروسية في كبادينا - بلقاريا عام ٢٠٠١م، من تأليف وإعداد (ز.م. نالوف) و (أ.م. غوطوف) وتقديم (ز.م. نالوف) خير شاهد على عبقرية (جباغي) وعلى مدى ما يتمتع به من ذكاء، وحكمة، وبُعد نظر، وهو الكتاب الذي تضمن أكثر من (٨٢) حكمة أو مثلاً أو قصة أو نصيحة أو فتوى .

بالإضافة إلى ما تقدم فإن جباغي قد شارك القيصرية وهو أحد القادة الذين اعدوا اتفاقية سولاكسك عام (١٧٢٢) كما كان أحد البعثة القنصلية القبردينية التي زارت بطرس بورغ وابرمت اتفاق تعاون مشترك لمقاومة خانات القرم عام ١٧٣١.

٥. القاضي (وري)، وهو من القضاة المشهورين بالعدل والنزاهة في حكمهم، وعاش في فترة ظهور القاضي والفيلسوف (قازنوكة جباغي)، وبالرغم من نبوغ القاضي (وري) فإنه أخطأ في أحد أحكامه، وهو الخطأ الذي اكتشفه (جباغي) وهو في السن الخامسة عشرة من عمره، حيث قام بالاستهزاء من حكم (وري) المتعلق بتحميل مسؤولية حرق (الجدي) ذو الرجل المكسورة لبعض المزارع في بلاد القبرطاي إلى صاحب اليد المكسورة (المجبرة) للجدي، وتبرئة الآخرين، ولما سمع (وري) باستهزاء (جباغي) من حكمه فاستدعاه وسأله عن سبب استهزائه من حكمه وقد دهش القاضي (وري) حينما رفض جباغي إبداء رايه في موضوع حكمه إلا بحضور أعضاء المحكمة وعليه القوم، ونزل القاضي (وري) عند رغبة (جباغي) وجاء القضاة وعليه القوم فقال (جباغي) أمامهم: سادتي القضاة، هل يمكن أن ينسب إلى (ميت) فعل شيء ما، وهل من الممكن أن يرتكب الميت جريمة؟ صحيح أن يد الجدي المشتعلة هي التي سببت الحريق ولكن اليد كانت ميتة وملفوفة بالكفن، وأن السبب الأصلي للحريق هو أطراف الجدي الثلاثة الأخرى التي حملت الرجل المكسورة المشتعلة لمكان الحريق، ولو لم تفعل ذلك لما تحركت اليد المحروقة من مكانها ولما حدث الحريق، وعليه فإن مسؤولية ما حدث يتحمله أصحاب الأطراف الأخرى للجدي وليس صاحب اليد المكسورة، وساد الحضور صمت ودهشة، ثم قطع الصمت بأصوات الإعجاب والدهشة التي انطلقت من أفواه الحاضرين مبدين إعجابهم بذكاء الشاب (جباغي). وطلب من الحضور أن يقرروه على الرأي، فكان ما أراد، وهكذا أصبح (جباغي) ملازماً للقاضي (وري)، ومرت السنون إلى أن توفي القاضي العجوز (وري)، وفي حفلة تأبينه انتخب (جباغي) خلفاً له، وتوالى الاقتراحات من المتكلمين لتكريم شيخهم الراحل وتخليد ذكراه، وكان من بين المتكلمين (جباغي) الذي تخللت كلمته بعض أبيات الشعر، فأعجب الحاضرون بها وحفظوها سريعا وعُزفت لحنا يعزف في يوم زفاف العروس إلى يومنا هذا.

٦. القاضي أبوق حاجي اسحاق، وهو القاضي العالم من أصل طبقة (الورق) يعود إليه الفضل في انتشار المحاكم لدى قبائل القبرطاي في عهد الأمير (عادل كراي) ويعتبر مؤسس المحاكم الشرعية التي انتشرت بين شراكسة القبرطاي بعد أن اعتنقوا الدين الإسلامي، وهو القاضي الجريء الذي رد على تهديد الأمير (كراي) له بقوله: "وإذا رايت فيك إهمالاً أو تقصيراً في تنفيذ أحكامي التي أستمدتها من الشريعة الغراء فإني أنفذ فيك أمر ربي"، وأخرج من تحت الوسادة الجالس عليها مسدساً (طبنجة) وصوبها نحوه، وهكذا كانت جرأة هذا القاضي مثله مثل القضاة العادليين الذين كانوا يتوعدون الأمراء (بالقتل) إن لم ينفذوا قراراتهم وأحكامهم.

■ أمراء واميرات وقادة شراكسة من الفئة الثانية الذين اطلق عليهم امراء السلام في القرنين السادس والسابع عشر الميلادي

تشير الوثائق والوقائع التاريخية بأن أكثر قادة الأمة الشركسية عامة والقبرطاي خاصة الذين يعتبرون من عظماء ومشاهير هذه المرحلة هم الأمراء الذين يمكن أن نطلق عليهم (أمراء السلام)

حيث توصلنا بالبحث عن تاريخ ابرز امراء الشراكسة في هذه المرحلة بأن اكثر من (٩) امراء (امير امراء) وقادة سياسيين سعوا على مدى اكثر من مائتي عام تقادي عداوة روسيا القيصرية.

كما توصلنا في بحثنا عن السيرة الذاتية لهؤلاء الأمراء وفي مقدمتهم امير الامراء (ابتال) بأنهم كانوا قادة سلام، وليس قادة حرب، ويسجل لهم التاريخ بأنهم حاولوا كل جهد ممكن لإنقاذ بلاد القبرطاي من أطماع الروس أولاً، ومن اعتداءات خانات القرم المدعومين من سلطات تركيا العثمانية ثانياً، ومن غيرها من أطماع الدول المحيطة ببلاد القبرطاي، وأن ما وجدته من حقائق حول سعي الأمير (ايدار تيمورقة) لعقد اتفاقية تعاون في عام ١٥٥٧م مع القيصر (إيفان الرهيب) كان هدفه الأساسي هو تحييد القياصرة الروس أولاً، والبحث عن حماية بلاد القبرطاي من أطماع خانات القرم الذين كانت عيونهم على بلاد الشراكسة عامة وبلاد القبرطاي خاصة، وكذلك كان الأمراء

الذين جاءوا بعد (إيدار تيمروقة) مثل شلوخ، وقازي، ومدار، وخورست وغيرهم من الأمراء على مدى أكثر من مائتي عام قد حاولوا كل جهد ممكن لتوثيق علاقاتهم مع قياصرة الروس، وتقديم الطاعة والولاء لهم، لا خوفاً منهم بقدر ما كان هدفهم حماية وطنهم وشعبهم من الدمار والهلاك، إلا أن الوقائع والحقائق التاريخية تشير بأن جهود (أمراء السلام) من القبرطاي ذهبت أدراج الرياح بعد أن كان قد قرر قياصرة الروس منذ عهد (إيفان الرهيب) ومن بعده بطرس الأكبر إحتلال القفقاس (أرضاً بلا سكان).

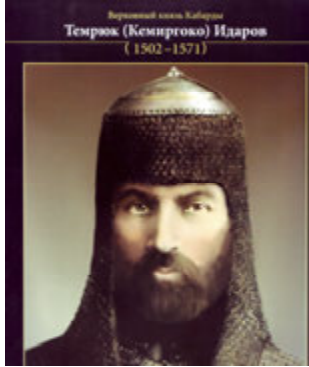
وفي النصف الأول من القرن السادس عشر وبالتحديد في عام ١٥٥٦م تحرك شعب القبرطاي للبحث عن حليف لهم لحمايتهم من اطماع (خانات القرم) حيث قرر زعيم منطقة قبرطاي الكبرى (إيدار تيمروقة) تشكيل وفد برئاسة الأمير (قانوقة يقوه) ووجههم إلى موسكو لعرض رغبة الأمير (إيدار) في عقد اتفاقية تعاون مع الروس، حيث وافق القيصر إيفان (الرهيب) على عقد اتفاقية تعاون مشترك مع القبرطاي وفق شروط عدة، ووافق عليها الأمير (إيدار) وكان تبريره لعقد هذه الاتفاقية تتلخص في قوله: "بلادنا جميلة، وأراضينا خصبة وغنية في ظاهرها وباطنها، وجيراننا أكثر منا عدداً وعدة، ويخططون للاستيلاء على أرضنا الحبيبة، مما دفعنا لطلب المعونة من الآخرين، حرصاً منا لحماية القفقاس الغالية، حيث أن الشراكسة قد تعلموا بعد تجارب كثير من علاقاتهم مع خانات القرم، أو مع الأتراك ووصلوا إلى قناعة تامة بأن لا أمانة لطامع أو مستعمر، وعلمنا طلب حماية الأقوياء وهم الروس حالياً".

وبالرغم من تشكيك بعض القادة والأمراء القبرطاي عبر المعارضين لهذه الاتفاقية، بأن الوقائع والدلائل تشير بأن الأمير (تيمروقة) كان صادقاً في أهدافه من توقيع هذه الاتفاقية، وأنه ضحى باثنين من أولاده عندما قدمهما كرهائن لدى بلاط القيصر (إيفان الرهيب)، كما ضحى بمستقبل ابنته الجميلة (جوشنه) التي وافق على تزويجها (لإيفان الرهيب) وتعميدها تحت اسم الأميرة (ماريا)، ولا شك بأن تقديم مثل هذه التضحيات كانت بهدف إنقاذ شعب القبرطاي بأكمله، إلا أن (إيفان الرهيب) والقيصرة الروس الذين تولوا الحكم في الامبراطورية القيصرية الروسية فيما بعد لم يكونوا صادقين في تعهداتهم، ونقضوا هذه الاتفاقية، ولم يقدموا أي دعم عسكري أو سياسي لشعب القبرطاي، بل أنهم كانوا أول هدف لغزوات جيوش قياصرة الروس في مراحل لاحقة.

وفي عام ١٦١٤م حاول كل من الأمراء القبرطاي (شلوخ، قازي شيتوقا، مدار) التقرب من القيصر الجديد (رومانوف) الذي نودي قيصراً لروسيا، وأدوا يمين الولاء له رغبة منهم في درء بلاد القبرطاي وشعبه من شر أطماع الروس في الاستيلاء على بلاد القفقاس عامة وبلاد الشراكسة خاصة، وحمل وفد رسمي برئاسة الأميرين (قانبولات سونجا و شوجنوقا مرزا) وثيقة الولاء معهم وسلموها للقيصر رومانوف مع تقديم عدد من شراكسة القبرطاي كرهائن.

وفيما يلي نبذة عن أعمال وإنجازات أبرز أمراء السلام من شراكسة القبرطاي الذين كان لهم اسهامات ومحاولات لانقاذ بلاد الشراكسة عامة وبلاد القبرطاي خاصة وهم:

(١) تمرقوة إيدار (١٥٧١-١٥٠٢)



الابن الأكبر لإيدار إينارمس والحفيد الثاني للأمير إينال - أمير أمراء القبرطاي أمر على شعب القبردي أواسط القرن السادس عشر الميلادي إلى ١٥٧١م. هو صاحب فكرة الاتحاد السياسي - العسكري بين القبردي وروسيا القيصرية منذ عام (١٥٥٧م).

فهو القائد الشجاع الذي يتصف بالعدل ويدعو إليه وإلى تطبيق مبادئه مع شعبه القبردي.

تمرقوة إيدار

تقوت علاقته بروسيا واصبحت أوثق بعد زواج إيفان غروزني بابنته الأميرة غوشينييه يوم (٢١ اغسطس عام ١٥٦١).

وفي عام ١٥٦٦م. هزم تمرقوة إيدار بالتعاون مع قبيلة البيسلاني جيش (بوداي - شمخال) وقام بتحسين جيشه عند النقاء نهري (سونجا وتيريك) وأنشأ أول قلعة شركسية / روسية عسكرية في عام ١٥٧٠م. وانتصر الشركاسة الغربيين الذين تعرضوا لغزوة الخان القرمي بقيادة (ألدي-غيري) وفي المعركة المصيرية عند نهر (أفيس) وجرح تمرقوة واسر أبناه مامستروك ودمانقوة. وتوفي بعد شهر من اصابته في هذا الجرح.

(٢) قامبولت إيدار (١٥٠٨-١٥٨٩)



هو الاخ الاصغر لتمرقوة إيدار، أمر على القبردي في فترة ١٥٧٧-١٥٨٩ لمدة ١٢ عاما واستمر على نهج من سبقه من امراء في تحالفهم مع روسيا ورأس البعثة القنصلية القبردينية في موسكو عام ١٥٧٨م. فأعطاه إيفان غروزني الميثاق حدد فيه شروط دخول عائلة إيدار تحت جناح روسيا.

الأمير قامبولت إيدار

(٣) قانونقوة ماشقوة (١٥٦١-١٥١٢)

هو أمير قبيلة البسلاني. رأس البعثة القنصلية للشركاسة الغربيين في موسكو عام ١٥٥٢م. وطلب من إيفان غروزني رعايته. وفي عام ١٥٥٧م. انتقل إلى عاصمة روسيا وتنصّر فأخذ اسم (إيفان) وتولى قيادة الكتيبة الطليعية في الحرب الليفونية في الفترة (١٥٥٩-١٥٥٨) وشارك مع القائد ديميتري فيشنيفيتشكي والامير سيبقوة في الحرب التي دارت ضد الاتراك وتنازل القرم في عامي تشركسيا (١٥٦١-١٥٦٠) وقتل فيها.



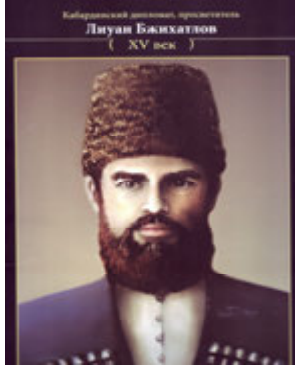
الأمير ماشقوة

(٤) مامستروك تشيركاسكي* (١٦٠١-١٥٢٤)

الابن الاكبر للامير تمرقوة إيدار أمير القبردي وأخ الاميرة ماريا (غوشنيه) تمرقوة كان طويل القامة وصاحب القوة البدنية العظيمة وورد ذكره في الاغانى الشركسية والاساطير الروسية وكان الصهر المحبوب عند إيفان الرهيب (غروزني) في عام ١٥٨٣م. قاد القوات القبردينية القوزاقية المشتركة وهزم القائد العثماني الشجاع عثمان باشا، وكان رجلا دبلوماسيا وتم تعيينه ممثلا عن الحكومة الروسية في المحادثات الرسمية مع الداغستان وجورجيا.

وأعطى الميثاق لاستلام زمام الحكم مع شعب القبردي لكنه لم يحصل له ذلك حيث قتل مع أخيه دومانقوة على يد قازي بشياشوقوة التابع لخانية القرم.

* لقب (تشيركاسكي) يطلق على كل شركسي عمل مع القياصرة الروس بعد تنصيره وتعميده.



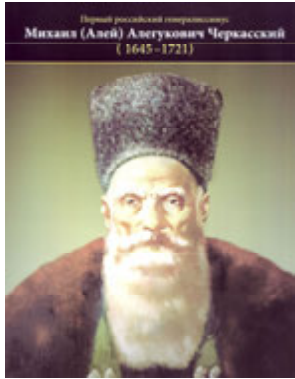
ليونان بجيخاتلوف

(٥) ليوان بجيخاتلوف مجهول تاريخ الولادة والوفاة عاش في (القرن السابع عشر)

ولد في منطقة القبردي، في الروافد العليا لنهر باكسان وهو الديبلوماسي الشركسي البارز وصاحب دور مؤثر في توعية الشعب الشركسي كان المستشار المؤتمن لأمير الأمراء في القبردي، وكان من الداعين إلى تعزيز علاقات الصداقة مع الدولة القيصرية.

(٦) ميخائيل أليغوكوفيتش تشيركاسكي

(١٧٢١م - ١٦٤٥م)



السياسي / العسكري ميخائيل تشيركاسكي

ولد في القبردي وكان أمير واصبح من كبار الخدم (البويار) وحاكم نوفغورود وموسكو. قاد الجيش الروسي في أكثر من معركة فدفع العثمانيين والتاتر القرم ومنعهم من دخول اوكرانيا وألحق بهم خسائر كبيرة بالقرب من كييف واصبح المعاون الأقرب لبطرس الأكبر، كما أصبح القائد العام للقوات البرية للإمبراطورية الروسية حتى ١٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٦٩٥م. كما أصبح أول الجنراليسيموس في روسيا، إلا أن إيفان الرهيب قتله بعد أن اتهمه بقتل زوجته الأولى.

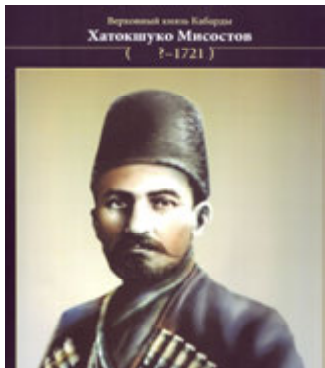
(٧) كورغوكو خاتاجوكين (١٧١٠-١٦٦٣)



كورغوكو خاتاجوكين

وهو الأمير الأكبر للقبردي وخلال حكمه وقعت معركة "قأنجال" المشهورة في عام (١٧٠٨) التي هزم فيها القبرديون الجيش المشترك القرمي العثماني. وكان هذا الحادث ذا أهمية كبيرة في تاريخ تشيركسيا وكامل شمال القوقاز حيث دافع الجنود القبرديون تحت قيادة خاتاجوكين ببسالة عظيمة عن استقلالهم السياسي وخلال إمارته نظمت العديد من القصص الشعبية في هذا القائد الشركسي الشجاع ومجده شعبه وأحيط بالحب والاحترام من قبل الجميع لشجاعته.

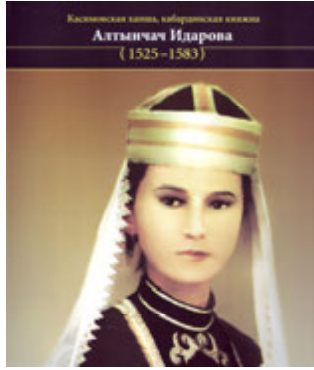
(٨) حتافشوته ميسوست (١٧٢١ - ؟)



الامير حتافشوفة

الابن لكازي ميسوست (الامير الأكبر) في الثمانينات من القرن السابع عشر. بعد وفاة كورغوكو خاتاجوكو انتخب كالامير الكبير للقبردي. وخلال فترة حكمه عقد معاهدة التحالف مع روسيا عام (١٧١١)، وهزم في معركة في الكوبان جيش خان القرم البالغ عددهم (١٥) ألف مقاتل.

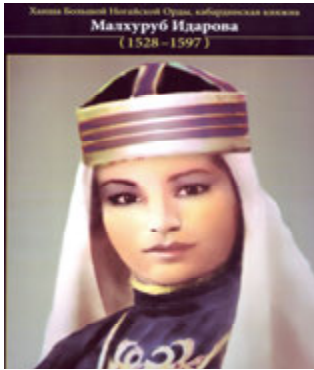
(٩) ألتينتشاتش إيداروف (١٥٨٣-١٥٢٥)



الأميرة ألتينتشاتش إيداروف

هي الابنة الكبرى لتمروك إيداروف وشقيقة الأميرة ماريا (غوشانه) - زوجة إيفان الرهيب. تزوجت (بيكولات) خان أسترخان. بعد ما انضمت خانية أستراخان إلى روسيا في عهد إيفان الرابع (الرهيب) وأجلس بيكولات وألتينتشاتش على عرش خانية كاسميوفسك وأبنتها صائن - بولات (بعد تنصيره تحت اسم سيميون بيكولاتوفيتش) استدعاه إيفان الرهيب إلى موسكو فأجلسه على العرش الروسي خلال المرحلة الثانية أوبريشينا (١٥٧٦-١٥٧٤).

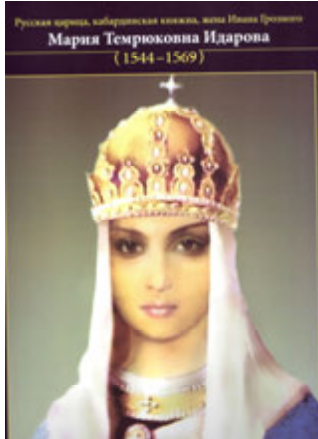
(١٠) مالخروب إيداروف (١٥٩٧-١٥٢٨)



الأميرة مالخروب

هي الابنة الوسطى لتمروك إيداروف كبير امرأ للقبردي، تزوجت من تتخاميت - ابن خان قبيلة النوغاية الكبرى (Nogai Horde) وترأس بعد وفاة والده اسماعيل قبيلة النوغاية الكبرى عام ١٥٦٣ وفي عهده تحالف القبردي وقبيلة النوغاية الكبرى وروسيا وحاربوا خانية القرم و"الباب العالي" العثماني عام ١٥٩٠ وأصبح ابنهما (أشتريك) أميراً لقبيلة نغوي الكبرى وواصل سياسة توطيد العلاقات القبردينية - الروسية - النوغاية.

(١١) ماريا إيداروف (١٥٦٩-١٥٤٤)



ماريا إيداروف

ولدت في القبردي الصغرى وهي الابنة الصغرى لتمروك إيداروف وكان اسمها قبل الزواج (جوشيته) وبعد تنصيرها سميت (بماريا) وفي عام ١٥٦١م. تزوج منها القيصر الروسي إيفان الرهيب زواجا ثانيا، وأصبحت قيصرة وكان الغرض من هذا الزواج تعزيز التحالف العسكري والسياسي بين الدولة الروسية وشعب القبردي. ولد لماريا وإيفان الرهيب ولد إلا أنه توفي في الطفولة. وأشارت أكثر من دراسة عن حياة (ماريا - جوشنه) بأن الأميرة التي نشأت في جبال القفقاس، وتربت وفق العادات والتقاليد الشركسية، وانتزعت من موطنها الأصلي حيث وجدت نفسها في وسط فاسد مليء بالدعارة والسكر والحياة الاباحية التي كانت تقام في القصر يومياً، وأصبحت كزهرة قطفت قبل أناتها، ولم يتح لها أن تتفتح، وبدأت بالانكماش والسعال فلم تصمد أمام تلك الحياة الفاسدة أكثر من ثماني سنوات حتى قضت نحبها في عام ١٥٦٩.

(١٢) رسودان تاتارخانوف (١٧٥٦-١٦٨٨)



الأميرة رسودان تاتار خانوفا

هي الابنة الكبرى لجيلاخستان تاتارخان - أمير القبردي الصغرى. تزوجت الملك الجورجي (فاختانغ السادس) ١٧٣٧-١٦٧٥) واسمها قبل زواجها (دانزات) وبعد تنصرها سميت (رسودان) حكم فاختانغ السادس كارتلي والأميرة القبردينية جورجيا مدة (١٩) سنة. ورزق لها ثلاثة أبناء وابنتان. بعدما هُدمت إمارته من قبل الايرانيين هاجر مع عائلته إلى روسيا وخدم ابنهم الأكبر (بكار) في الجيش الروسي ووصل إلى رتبة فريق والابن الأصغر (غيورغي) وصل إلى رتبة جنرال والابنة تمارا تزوجت من الملك الكاخيتي تايموراز الثاني.

(٣) عظماء وقادة عسكريين ورجال سياسة من شراكسة الفئة الثالثة الذين تولوا مناصب عسكرية وسياسية عليا في الامبراطورية الروسية القيصرية في القرنين السادس والسابع عشر الميلادي نذكر منهم:

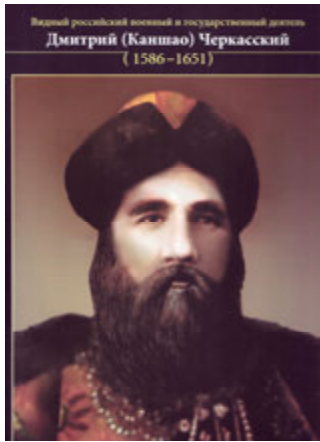
(١) إيفان تشيركاسكي (١٦٤٢-١٥٧٩)



إيفان تشيركاسكي

وهو من أصل شركسي وأصبح من أبرز رجالات السياسة والجيش في روسيا القيصرية وقاد الجيوش القيصرية في أكثر من معركة فدحر على مشارف موسكو ملك بولندا (فلاديسلاف) كما ترأس قيادة القوات المسلحة الروسية عام ١٦٣٨ وأصبح وزيرا للخارجية كما تولى منصب أمين بيت المال القيصري، وأمين بيت مال الدولة الروسية وأنشأ وزارة الصحة، كما تولى رئاسة الوزراء الروسية عام (١٦٣٣) وقيل بأنه كان من أكثر رجالات عصره ثقافة وتعليما.

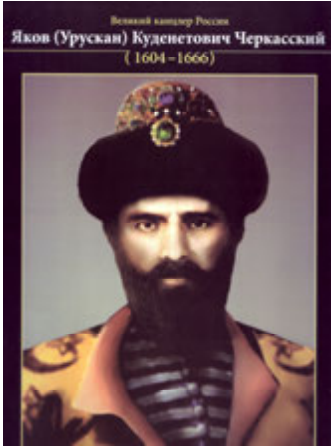
(٢) دميتري (كانشاوا) تشيركاسكي (١٦٥١-١٥٨٦)



دميتري تشيركاسكي

الامير دميتري من كبار البويار منذ عام (١٦١٩) وهو الحفيد لتمروقة إيداروف والابن للأمير مامستروك. في عام ١٦١٣ قاد الجيش الروسي وحرر كل من "قازما"، و "دوروغوبوج" و قلعة "البضاء" من القوات البولندية الليتوانية. وفي عام ١٦١٨م. هزم جحافل جيوش الملك البولندي فلاديسلاف ورأس دائرة "القصر" التي كانت مسؤولة عن جميع الأراضي الشرقية في روسيا. وكان أقرب المقربين لدميتري بوجارسكسي أثناء تحرير موسكو من البولنديين. رشح للعرش القيصري كأحد أقارب إيفان الرهيب ولكن رفض ترشيح نفسه للعرش.

(٣) ياكوف كودينيتوفيتش تشيركاسكي (١٦٠٤-١٦٦٦)



ياكوف كودينيتوفيتش

هو الابن لكودينيت كامبولاتوفيتش - الأمير الأكبر للقبردي، غادر إلى روسيا في عام ١٦٢٤م. كان عرباً له غيفان نيكيتوفيتش رومانوف - عم للقيصر وأصبح القائد الروسي العسكري العبقري، الذي ساهم مساهمة كبيرة في تعزيز وتوسيع أراضي الدولة الروسية سبق أن هزم جيش رادزيفيل - هيثمان دوقية ليتوانيا في عام (١٦٥٤)، وهيثمان الكومنولث البولندي الليتواني غانسيفسكي عام (١٦٥٤) كما هزم ملك بولندا يان كازيمير عام (١٦٦٣) وفي عهد القيصر أليكسي ميخائيلوفيتش رأس الحكومة الروسية والقوات المسلحة والوزارة الخارجية.

(٤) كاسبولات تشيركاسكي



كاسبولات تشيركاسكي

هو الابن الأكبر للأمير لموتسالو سونتشالييفيتش وفي عام ١٦٦١م تولى زمام الحكم على "تيرسكي غورود" وحرر أسترخان من الرازينيين عام (١٦٧٠) واقتحم جيش من القوزاق والقبرديين القلعة العثمانية "أزوف" عام (١٦٧٤) كما شارك في غزوة على القرم بالبحيرة المتعفنة (سيفاش)، ورأس الحملة الروسية على تركيا في الأعوام ١٦٨١-١٦٧٦م. بفضل جهوده الدبلوماسية عقدت معاهدة السلام بين الدولة العثمانية وروسيا (١٦٨١).

(٥) أليكس ميخائيلوفيتش تشيركاسكي (١٧٤٢-١٦٨٠)



اليكس تشيركاسكي

حكم سيبيريا في الفترة (١٧٢٥-١٧١٩) وأصبح عضواً في مجلس الشيوخ، (سناتورا) في روسيا فأهدي له وسام القديس أندراوس، وفي عام ١٧٤٠ عُين مستشاراً كبيراً لروسيا. ووقع على معاهدة التحالف مع بروسيا عام (١٧٤٠) ومع بريطانيا عام (١٧٤١) ووقع الاتفاقية مع الدنمارك عام (١٧٤١) ومن صفاته: الأمانة والنزاهة والمثابرة في حماية مصالح الدولة الروسية حتى أعداؤه قد اعترف له بذلك. كما كان أغنى رجل في روسيا القيصرية في ذلك الزمان.

(٦) فيودور أوشاكوف (١٨١٧-١٧٤٥)



فيودور أوشاكوف

هو من سلالة الامير الكاسوغوي (شركسي) واصبح القائد البحري الروسي البارز حيث تولى عام ١٧٩٠ قيادة الاسطول الروسي في البحر الاسود واستعان بتكتيكة الجديد القائم على المناورة السريعة والمختلف اختلافا جذريا عن التكتيك المستخدم من قبله. الأمر الذي ساعده في الحاق هزائم بالاسطول التركي في معركتي (انابا وسينوب) حيث قام اسطوله بتدمير ٢٦ سفينة تركية. وفي عام ١٧٩١ دحر اوشاكوف الاسطول التركي للمرة الثانية في معركة (كاليكر) وفي حربه ضد الفرنسيين (١٨٠٠-١٧٩٨) قاد الحملة البحرية في البحر المتوسط بنجاح في ٣٧ معركة بحرية من أصل ٣٨ معركة ومنحته الكتيبة الارثوذكسية الروسية وسام (المحارب البار).

(٥) الفئة الرابعة وتضم الشراكسة الذين أعيد تنصيرهم وخانوا بني قومهم في مشاركتهم في حروب ضد الشراكسة عامة وشراكسة القبرطاي خاصة نذكر منهم:

(١) ألكسندر (دولاتجري) بيكوفيتش تشيركاسكي (١٧١٧ - ١٦٧١)



الكسندر تشيركاسكي

هو من عائلة بكمزرا الأميرية غادر إلى روسيا في عام (١٦٩٠)م. والتحق بالخدمة في الجيش الروس وارسله بطرس الأكبر من بين الضباط الشباب للخارج لدراسة العلوم العسكرية البحرية وفي عام ١٧١١م. ذهب إلى القوقاز في مهمة دبلوماسية وقاد أول بعثة استكشاف عسكرية روسية في آسيا الوسطى عام (١٧١٤) ويعتبر مصنف الخريطة التفصيلية الأولى لبحر قزوين وكان صديق الجنرال (يرمولف) ورئيس دائرته السياسية. وقضى مدة طويلة في خدمته، وكان "يرمولوف" يعول عليه ويستشير في كثير من الأمور، ومكافأة لخيائته تم منحه منطقة قبارطا الصغرى التي كانت تتألف من ثلاث امارات صغيرة يحكمها ثلاثة أمراء وهم: "آل مودارق" و "آل اخلوقة" و "تاوسلطانو" وحرّم هؤلاء من املأهم.

وفي عام ١٧١٧م ارسله القيصر بطرس الاكبر في حملة ضد مدينة (خيوه) وقد مُزقت القوات الشركسية جسده شر تمزيق وقتل جميع أفراد جيشه البالغ عددهم سبعة الاف جندي تقريبا بمن فيهم قائدهم الشركسي الأصل، وقام مقاتلو القبرطاي بحشي جثة الامير (بيقوفتش) بالقش وعلفت على باب المدينة ليكون مصير هذا الامير المرتد عبرة لأولئك الذين يفكرون في خيانة شعوبهم واطنانهم.

(٢) تمريقوا برماميت: مولود في ١٧٧٥، شارك في الحملات العسكرية الروسية. ومنح رتبة ملازم ثان على "مساعدة القوات في الدخول إلى بلاد القبرطاي" وعلى تميزه في الخدمة العسكرية مع القوات الروسية.

(٣) محمد دحطوخشيقيوا مولود في ١٧٩٥، ضابط، اشترك في الحملة العسكرية ضد شراكسة ما وراء كوبان بقيادة الجنرال امانويل عام ١٨٣٠.

(٤) **ميصوست اسماعيل حطوخشيقيوا:** مولود في ١٧٩٧. يحمل رتبة عقيد شارك في العمليات "ضد الجبلين المتمردين" منذ عام ١٨٢٨. تميز أثناء مشاركته في حملة جنرال امانويل على شراكسة ما وراء كوبان.

(٥) **محمد حسين جدميشخ** مولود في ١٨٢٣، خدم في الوحدة العسكرية القفقاسية ومنح وساماً فضياً على تميزه في الحملة العسكرية في غرب القفقاس وهو وسام (صليب) "على الخدمة في القفقاس".

(٦) **قريمغيري شاهينغيري غوساره** مولود في ١٨٢٠، عقيد، من شراكسة بسلني، خدم في فوج القزاق تلقى شكر خاص من الامبراطور الروسي على "تميزه وشجاعته في الحملة ضد الجبلين في عام ١٨٤١" ومنح وسام "التميز في الحرب ضد الجبلين" * أثناء عملية شتاء ١٨٦٠-١٨٦١ وقتل أثناء مرافقته قائد المنطقة القفقاسية في "أراضي الابراخ المتمردين".

(٧) **محمد تترخان جمبوت (جمبوتش)** شارك في "الحملة ضد الجبلين المتمردين" من ١٨٤٢/٥/١. منح رتبة ضابط على "تميزه في القضاء على المتمردين في بلاد القبرطاي".

(٨) **كزيلبيك مصطفى قارما** مولود في ١٨١١، قائد سرية. شارك في الحملة على داغستان. منح مكافأة مالية على تميزه في حربه ضد بلاد القبرطاي.

(٩) **جانتيمير وفجوق جانبك** مولود في ١٨٣٠، جنرال في الجيش الروسي. شارك في عدد من الحملات العسكرية الكبرى. وحصل على أوسمة "على تميزه في المعارك ضد الجبلين"، وعلى المشاركة في الحملة العسكرية على الشراكسة في غرب القفقاس، و "على الخدمة العسكرية في القفقاس". كما أن والده و"فجوق جانبك" المولود في ١٨٠٥ كان ضابطاً في الجيش الروسي.

(١٠) **حطوخشيقيوا قسي حطرخشيقيوا** مولود في ١٨١٣، ضابط شركسي الأصل وصل إلى رتبة المقدم، شارك في الحملات العسكرية في مناطق ما وراء كوبان ضد "الاديغة" ضمن الوحدة القفقاسية الخاصة منذ عام ١٨٣٠.

(١١) **تشيمغوي بشيقوي اخجاقو:** مولود في ١٨٢٩، من أمراء البجدوغ. ضابط حصل على أوسمة للمشاركة في الحملة على القفقاس وكذلك للخدمة العسكرية في القفقاس وهو (ابن شقيقه الشخصية الشركسية البارزة خانغيري).

(١٢) **باتا باخوا:** يحمل رتبة ملازم ثان في شرطة الخط القفقاسي في القبرطاي. شارك في عدة حملات عسكرية روسية ضد "الجبلين المتمردين" عام ١٨٥٩ ومنح وساماً على تميزه في الخدمة العسكرية مع القوات الروسية.

(١٣) **شخانغيري باتوقوا:** تميز أثناء مشاركته في حملة عام ١٨٥٠ على شراكسة الكوبان ضمن القوات الروسية ومنح وسام (أنا القديسة) من الدرجة الثالثة.

* المقصود بالجبلين هم شعوب القوقاز عامة، والشراكسة منهم خاصة.

الفصل الرابع

عظماء ومشاهير وأبطال من القيادات السياسية والعسكرية والأدبية للأمة الشركسية (الأديغة) في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلادي

أولاً: عظماء ومشاهير وأبطال من القيادات السياسية والعسكرية في المراحل الأخيرة من حروب الإبادة والدمار التي شنتها سلطات روسيا القيصرية في الفترة ما بين ١٨٠٠-١٨٦٤

تشير سجلات ووثائق حروب الدمار والإبادة الروسية في السنوات (٦٥) الأخيرة بأن عشرات من الأمراء والقادة العسكريين الأبطال والسياسيين البارزون قد قاموا بأعمال عسكرية وسياسية خارقة، نذكر منهم كل من:- (أشاغواغوة - بشيقوي، الحاج حوزبيك، سلطان كورغوم - غيري، حاج محمد، حاود منصور، غيري شاميز، شيوخ دوغوظ، دزادزو علي، دزادزو ناوزوز، بستي بشه ماف، حاتوقوه سيلمان، حاتوقوه كالات، شارات حاميز، غيرا ندوقوه حاج برزج، حاج دوقوم برزج، حاج فازيك شارلوقا ينال أصلان غيري، إيندار نواي، وارداز او زيبش^(*)) كما تشير الوقائع والأحداث التي رافقت حرب الإبادة والدمار الروسية (١٨٠٠م-١٨٦٤م) بأن عشرات من القادة العظام من الشراكسة سيطروا بطولات خارقة في حربهم ضد الجيوش الروسية نذكر منهم:-

١. قادة وعظماء العقد الأول من القرن التاسع عشر:-

في عام ١٨٠٤م، قامت قوات مكونة من سبعة آلاف مقاتل قبرطاي بقيادة كل أغنياء القبرطاي وهم "جامبولاط ميسوستة" و"عادل جرى" و"شوماخ كوساي" و"دوفتوق أتاجوق ناورز" و"عثمان غيري"، وغيرهم من الأمراء بمقاومة القوات الروسية مقاومة كبيرة، إلا أنهم خسروا المعركة وتركوا على أرضها (٤٠٠) قتيلاً من المقاتلين الشراكسة و(٤٠) من النبلاء الأحرار، واثنين من الأمراء.

في عام ١٨١٨م، ثار حكام القبرطاي على الوجود الروسي في بلادهم وعلى ارتكابهم المظالم ضد شعب القبرطاي وأرسل أمراءهم وفداً إلى بلاط الإمبراطور إسكندر الأول مؤلف من الأمير (الحاج بزروقوه، والسيد حامرزا كوشوك بيك، والسيد شولوخ آخلوا، والأوزدن تيمروقة قازانشف، والسيد كتاغ قوده نيتو، والسيد ميسوست أنزور)، للتأكيد على تنفيذ المطالب السابقة لأمراء القبرطاي والتصديق على الامتيازات التي منحتها إياهم الإمبراطورة (كاترينا الثانية) أبان عهدها، فأكرم القيصر (إسكندر) وفادة الوفد ودعا أعضائه إلى عدة ولائم، حضرها بنفسه لاقتناعه بصداقتهم، ووافق على إرجاع بلادهم الواقعة في مناطق ما وراء نهر (المالقا)، وأمر زيادة الاهتمام بكتيبة الفرسان التي تشكلت كحرس خاص للإمبراطور، وخصص لنفقاتها مقداراً كافياً من المال.

وفي نفس الفترة قال الرحالة (بل) عن بطولة أحد القادة الشراكسة الأبطال في معركة من المعارك غير المتكافئة عدداً وعدة وهو النبيل (أسلان بك) بعد أن فرغت بندقيته صاح ساحباً سيفه: "يا إلهي أعرف بأ أنني عاجلاً أم أجلاً سوف أموت، فهني الآن هذا الموت"، وهجم على العدو يتبعه أخوه فاستشهدا دفاعاً عن الوطن والشرف، (كما ذكر المؤرخ الشركسي نغموقة) بأن أمير القبرطاي (جميرغوقة) كان من أعظم الأمراء في زمانه، وقاتل في أكثر من معركة وعلى أكثر من جبهة، ولشدة اعتزازه بنفسه أوصى دفنه ممتطياً صهوة جواده متقلداً كامل ملابسه وعدته الحربية، ونفذت وصيته بعد استشهاده في المعركة.

وفي شهر حزيران من عام ١٨٢٨م، قاتل وحدات من المقاتلين الشراكسة جنباً إلى جنب مع القوات التركية للدفاع عن (أنابه) ضد هجمات القوات الروسية بقيادة الأمراء (بشيقوي، سايتوغ، نودوق، تيميريوق)، وكان أمير الناتخواج "صفر بك" مستشاراً لباشا (أنابه) وبعد سقوط (أنابه) في أيدي الروس في ١٢/٦/١٨٢٨م تراجعت وحدات الشركس إلى مواقعها في منطقة الكوبان.

ومن القادة الشراكسة الأبطال الذين برزوا في حربهم ضد القوات الروسية في عقد الثلاثينات من القرن التاسع عشر هم:- الأخوين (علي زازي ومحمد زازي) اللذين قادا جيشاً مؤلفاً من أكثر من عشرة آلاف مقاتل شركسي، حيث استطاعت هذه القوات بقيادة الأخوين (زازي) من احتلال حصن (شه بسون) الواقع على ساحل البحر الأسود وتدميره نهائياً باستخدام تكتيك حربي جديد، وهو التكتيك الذي وصفه أحد شهود العيان الذين اشتركوا بالحملة ورجع منها سالماً، واسمه (يوسف توزي أوق) من أهل (نجه بسوخ) بقوله: "تحرك الركب من القاعدة الحربية في (قوبات) القريبة من (شه بسون) بعد الغروب بقيادة الأخوين المذكورين اللذين انتخبهما المجلس الحربي قائدين للحملة، حيث كانت الطليعة يؤلفها أشجع الشبان تحت رئاسة (زاقو) من أسرة (شابتة)، ثم قسما المشاركين بالحملة إلى ثمانية فرق، ولكل منها قائدها، وسرنا حتى اقتربنا من الحصن، وتنهائنا للهجوم بعد أن أقسم كل منا ذلك القسم الشركسي الرهيب الذي ينص (إما أن نموت أو نرجع منتصرين)".*

وفي عام ١٨٣٤م، قامت القوات الروسية بالإغارة على مدينتي (بيتسوندا وكاغري) الواقعتين على البحر الأسود واحتلالهما إلا أن قوات الأبخاز بالاشتراك مع القوات التي قدمها زعيم قبيلة الأوبيخ (الحاج برزج) قامت بمحاصرة المدينتين اللتين احتلتهما الروس، وبوصول قوات الكرج والقوزاق لمساعدة الروس المحاصرين فيهما أجبرهم بالتخلي عن الحصار.

في صيف عام ١٨٤١م، وقعت أربع معارك عنيفة ضد القوات الروسية القيصرية تحت شعار (الحرية أو الموت) وزج الروس في هذه المعارك ما لا يقل عن ١٨٠٠٠ مقاتل روسي وحاولوا التقدم في وادي (بشات) واخترقوا خط الدفاع الشركسي، ورغم ذلك لم يبلغوا هدفهم الحقيقي وهو التوغل براء، في الأراضي الشركسية فارتدوا خائبين، بفضل القيادة الحكيمة التي مكنت المقاتلين الشركس بقيادة (شروخ يقوه وجانبولات حاوكة منصور) وغيرهما من الزعماء الذين صمدوا أمام قوات الروس الكبيرة، واشترك في هذه المعارك الأحداث والفتيان الشراكسة الذين لم يبلغوا السادسة عشرة من أعمارهم، واستشهد البعض منهم وأشارت بعض الوثائق بأن أحد قادة هذه المعارك وهو الزعيم الكبير (حاوكة منصور) الذي كان يتقدم المقاتلين، قائلاً لهم "طالما سيوفنا بأيدينا، لن نفكر في الاستسلام أبداً..".

وفي عام ١٨٦٠م، امتدت الحرب إلى بلاد الشابسوغ، وأحدثت رد فعل شديد لديهم، فهبوا جميعاً في الدفاع عن بلادهم وصدوا تقدم العدو بقيادة الزعيم الكبير (علي بي حانتوخو) الذي كان يساعده نخبة من زعماء وفرسان شعب الشابسوغ مثل: (حاكتوص وحاج برام وإبراهيم ناتخو، وأرسلان بي، وحاكو، وشرتلي وغيرهم)، وتمكن هذا الزعيم من إحباط تقدم العدو ومنعه من إكمال بناء الحصون، كما تمكن من قطع المواصلات بين المعسكرات الثلاثة للروس، وكذلك فإن (الحاج اسماعيل باشا) لم يتوان عن العمل في سبيل مضايقة العدو، وعرقلة مساعيه وتحريض الشعب الشركسي على الكفاح، واستنهاض همته لمواصلة الحرب، وكان يساعده في أعماله (قره باتير ابن صفر باشا) وقد أراد بعد موت أبيه أن يقوم مقامه ويخدم أمته، ولأنه كان قد اعتدى على الروس مراراً فيما سبق، لذلك سلك مسلكاً معادياً لهم.

وكذلك الزعيم (تو) أفندي، أحد زعماء الشابسوغ، والذي كان من ذوي المكانة والنفوذ الواسع في البلاد الواقعة على البحر الأسود، حيث قام بالمساهمة بألفي محارب، لمساعدة المحاربين المدافعين عن السهول الأمامية المهددة بالاجتياح، وكان هذا الزعيم من ألد أعداء الروس، حيث سبق له أن وقع في أسرهم وهو عائد من اسطنبول على ظهر سفينة تركية، فأساءوا معاملته حتى تمكن من النجاة بعد أن افتدى نفسه بالمال.

وكان أصغر قائد لمع اسمه وأصبح يشار إليه بالبنان في حروب القرن التاسع عشر هو أمير (البطة - دوغ) الفتى بشي قوي الذي لم يبلغ الخامسة عشر من عمره، والذي توغل بين صفوف الأعداء وأسقط قائدهم الجنرال (زاس) عن ظهر حصانه الذي أخذه غنيمة لنفسه، علماً بأن هذا القائد

* لمزيد من المعلومات حول هؤلاء القادة العظام يتم الرجوع إلى شورا نغموقة في كتابه تاريخ الجركس القديم.

كما سبق ذكره كان من أكثر الروس العسكريين وحشية وهو الذي كان يلعبه الشراكسة (بشحاغوانه) ومعناه (ذو الرأس المنقوب).

يتضح مما تقدم بأن النصف الأول من القرن التاسع عشر الممتد من (١٨٠٠م-١٨٦٤م) كان عصر الأبطال والبطولات الشركسية، وأن المئات من الأمراء والقادة العسكريين استبسلوا في قتالهم ضد القوات الروسية القيصريّة البربرية، وكبدوا الأعداء مئات الآلاف من القتلى والجرحى، إلا أنه لم يتم توثيق أعمالهم البطولية لعدم وجود وقت للمتقنين الشراكسة من توثيق وقائع وأحداث المعارك بسبب انشغالهم في الحروب المستمرة أولاً، وكذلك تعتمد الكتاب والمؤرخين المأجورين من قبل سلطات روسيا القيصريّة طمس الحقائق وإخفاءها والتعظيم عليهم في وثائقهم وتقاريرهم الرسمية ثانياً.

* وفيما يلي نبذة عن أعمال وإنجازات للقادة العظام الذين تمكنوا من الحصول على معلومات وبيانات موثقة عن سيرتهم الذاتية وهم:-

١. الزعيم الشعبي والقائد العسكري الشهيد أرسلان بسلانوقة:-

• مولده ونشأته العسكرية:-

ولد في منطقة الأبراخ في منطقة ما وراء الكوبان الشركسية أواخر القرن الثامن عشر ونشأ نشأة عسكرية بحكم تعرض بلاده للغزو الروسي القيصري عامة وقوات الجنرال الروسي الشرير (زاس) خاصة.

• أعماله وإنجازاته البطولية في ميادين القتال:-

تشير الوثائق بأن أعمال (بسلانوقة) تميزت بالجرأة والشجاعة كما تميز أسلوبه في القتال المتمثل في سرعة الحركة ودقة التصويب، كما تميزت قيادته العسكرية بالحنكة والبراعة حتى لقب بـ(قاهر جنرالات العدو الروسي) لإحاقه الهزيمة حتى وأكثر من الجنرال الروسي وعلى رأسهم الجنرال الشرير (زاس - Zass) الملقب (بالمجنون) لارتكابه أعمالاً وحشية وإصداره أوامر لقادة (القوزاق) بقطع رأس كل قتيلا من الشراكسة، وإرسالها إلى أكاديمية العلوم في (برلين) لدراساتها. كما لقبه الشراكسة بالجنرال (شحاغوانه) أي ذو الرأس المنقوب، ومن أكثر جرائمه وحشية هو إخراج جثة الزعيم الشركسي (بسلانوقة) من القبر والتمثيل بها، انتقاماً من هذا الزعيم الشركسي الذي هزمه مراراً في المعارك التي تقابل فيها خلال حروب الإبادة والدمار في بلاد الشراكسة، ووصف أحد الكتاب هذه الواقعة بقوله:- "عند احتلال الجنرال الروسي السفاح (زاس) للموقع الذي دُفن فيه الشهيد البطل (بسلانوقة) أمر جنوده بإخراج جثته الطاهرة من القبر، ونقّس عن حقه وغضبه وغيظه من الانتصارات السابقة لهذا البطل المجاهد الشهيد على قواته المحتلة المستعمرة الغاشمة، بتسويه جثته الطاهرة وتقطيعها إرباً إرباً بوحشية لا نظير لها".

ويقول المؤرخون بأن (بسلانوقة) كان يستخدم تكتيك المباغته في هجماته على القوات الروسية القيصريّة المعتدية، حيث كان ينفذ هجمات على شكل غارات سريعة وخاطفة لايقاع أكبر خسائر ممكنة في الأرواح والعتاد، ثم ينسحب قبل أن تدركه قوات العدو.

٢. المجاهد الكبير الحاج قازبك (قيزيل) شارالوقا (الملقب بأسد شركسيا)

• مولده وصفاته العسكرية:-

- ولد عام ١٧٩٥م، وتدرّب على فنون القتال على أيدي قادة من قبيلة الشابسوغ.



المجاهد الكبير الحاج قازيك
(قيزل) شارالوقا

- لمع اسمه كمقاتل شركسي في إحدى المعارك عام ١٨٢٠م وكان عمره (آن ذاك) الخامسة والعشرين فقط.

- وصفه المؤرخون بأنه كان قائداً شجاعاً يتمتع بقوة جسدية ومهارة قتالية كبيرة، وأنه كان يمتاز بخفة الحركة وسرعة الإغارة مثله مثل المجاهد الداغستاني الحاج (مراد).

- يتمتع بشخصية قوية ولديه قدرة خطابية كبيرة للتأثير في الآخرين، وكان على مقدرة لجمع آلاف المقاتلين وتجنيدهم للقتال ضد الأعداء في أية لحظة.

• أعماله وإنجازاته وبطولاته:-

أصبح قائداً فذاً يشار إليه بالبنان بعد انتصاره على قوات الروسية تعدادها ١٤,٠٠٠ ألف جندي في معركة (آبين) بينما كان عدد القوات الشركسية التي يقودها البطل المجاهد (قيزيل بك) ١٧٠٠ فارس فقط واستطاع قتل ٦٠٠٠ جندي روسي ومنع التقدم الروسي لبلاد الشركسية في الجزء الشمالي الغربي من القفقاس.

وفي عام ١٨٣٧م، قاد (قيزيل بك) قوة من المقاتلين الشركسية البالغ عددها حوالي ١٥٠٠ مقاتل وتصدى لهجوم كبير نفذته جيش روسي مكون من ستة آلاف جندي عند نهر (طوابسة)، وهزمهم بعد أن قتل عدداً كبيراً منهم، ولاذ الأحياء منهم بالفرار، وغنم أسلحة وعتاداً منها مدافع عديدة.

انضم المجاهد الكبير البطل (قيزيل بك) عام ١٨٤٠م، إلى جيوش المقاتلين الشركسية في الغرب بقيادة كل من الأمراء والقادة (حاوتوقة منصور، وشروخ يقوه تغوج وغيرهما)، واحتلوا يوم ١٢ شباط ١٨٤٠م قلعة (روسية) وحصن طوابسة وقتلوا المئات منهم وأسروا ٥٠٠ جندي روسي، واستشهد المجاهد الحاج (قيزيل بك) يوم ٢٩ شباط من عام ١٨٤٠م، متأثراً بجراحه في المعارك الأخيرة وهو في الخامسة والأربعين من عمره.

وهكذا أقل نجم عظيم من عظماء الأمة الشركسية بعد أن قاد عشرات المعارك ضد جيوش روسيا القيصرية على مدى عشرين عاماً ولقب بـ(أسد شركسيا).



الزعيم المجاهد شروخ يقوه تغوج

٣. الزعيم المجاهد شروخ يقوه تغوج:-

• مولده ونشأته العسكرية:-

وُلد أواخر القرن الثامن عشر في قرية بمنطقة قبائل الناتخواج في الكوبان شمال غربي القفقاس وتدرّب على فنون القتال منذ الصغر بحكم اندلاع حرب الإبادة والدمار الروسية في القفقاس عامة وفي بلاد الأمة الشركسية خاصة.

• إنجازاته وأعماله البطولية العسكرية:-

بدأ أعماله القتالية عندما قاد مجموعة من المقاتلين الشراكسة في شن هجوم خاطف بمساعدة القائد الشركسي (جانبولات) على قوة روسية مؤلفة من ٥٠٠ جندي روسي واستطاعوا إبادة القوة والعودة إلى قواعدهم بأقل الخسائر في الأرواح والعتاد.

وفي شباط عام ١٨٤٠م، شارك الأمير (شروخ) كلاً من القادة الشراكسة الحاج قازبيك الملقب بـ(أسد شركسيا) وحاتوقه منصور في مهاجمة القلاع الروسية على البحر الأسود واحتلال قلعة (واية) وحصن (طوابسة) ثم قلعة (شابيس) واستطاعوا أسر ٥٠٠ جندي روسي وقتل المئات منهم وغنموا الكثير من المعدات المتطورة وغنموا ٢٠٠ مدفع روسي وبلغت خسائر الشراكسة (٣٥٠) شهيداً نتيجة انفجار مستودع البارود في حصن (طوابسة).

وفي نفس الفترة تمكن بقيادة الزعيم الأمير (شروخ) وبمساعدة كل من الأميرين (جانبولات) وحاتوقه من إيقاف جيش روسي مؤلف من (١٨) ألف جندي خرجوا من القاعدة الحربية المعروفة باسم (بشات) في محاولة لهم للتوغل في أراضي شراكسة الكوبان والاستيلاء على مواقع استراتيجية فيها، إلا أنها توقفت عند وادي (بشات) ولم يتمكنوا من اختراق خط الدفاع الشركسي بفضل القيادة الجماعية التي كان يترأسها الأمير المجاهد الكبير (شروخ).

٤. القائد البطل أشا غواغوة:-*

عُرف أشا غواغوة (بشيقوي) في انتصاراته على القوات الروسية أثناء حروب الإبادة والدمار في القفقاس في كل أنحاء شركسيا، وكان من أشهر القادة العسكريين الشراكسة، في عقد الثلاثينات من القرن التاسع عشر وهزم قوات الجنرال (ويليا مينوف) عدة مرات.

• أشا غواغوة الخطيب:-

كان (أشا) محط أنظار الناس في المؤتمرات لأنه بجانب مهارته الحربية كان متكلماً وخطيباً، وإنه ولد ليقود الشعب.

وكان النظام المتاح عند الشراكسة هو أن يتم تعيين القائد العسكري لكل منطقة في الاجتماعات العامة لنواب الشعب، وكان يوضع بأمرة كل قائد عسكري وحدة عسكرية ثابتة من (١٠٠) فارس، في حالة وقوع الأعمال القتالية كان يتم تقديم أعداد محددة من القوات حسب طلبات القائد العام، وكان لدى بعض القادة قوة دائمة تصل عدة مئات وأحياناً عدة آلاف، فمثلاً كان لدى الأمير الشركسي (أشا غواغوة) قوة ثابتة مؤلفة من ٦٠٠٠ فارس، وفي أوقات الحرب كانت هذه القوى تصل إلى ١٢٠٠٠ مقاتل.

وفي منتصف شهر أيار من عام ١٨٣٨م سقط (أشاغواغوة) في ساحة القتال، ونظم الشعب أغنية لتمجيد أعماله البطولية.

٥. المجاهد الأمير الحاج برزج جراندوقة:-

• نشأته العسكرية:-

- من مواليد منطقة الأوبيخ في منطقة ما وراء الكوبان.

* شفيق اسماعيل، مصدر سابق ص: (٢٢-٢٣).

- تدرب على فنون القتال على يد عمه قائد قوات الأوبيوخ لفترة طويلة، واسمه (برزج أداغوة)

• مناصبه القيادية والعسكرية:-

- تولى قيادة جيوش الأوبيوخ بعد استشهاد عمه (برزج أداغوة).
- انتخب لقيادة الجيوش المشتركة بين شراكسة الكوبان المؤلفة من الأوبيوخ، والأبزاخ، والشابسوغ، والحاتقواي، والأبخاز.

• إنجازاته وبطولاته العسكرية:-

- احتل عام ١٨٤٠م، الحصون الروسية على البحر الأسود كقلعة (واية) وحصن طوابسة وقلعة شابس وقلعة أبيس، كما احتل قلعة ويليا مينوف وغولوفينسكوية بعد طرد الروس منها ولم يغادرها إلا بعد أن هاجمته قوة تتكون من ٨٠,٠٠٠ مقاتل روسي وقوزاقي.
- شاركت الجيوش الشركسية بقيادته في غرب القفقاس في الفترة (١٨٤١م-١٨٤٦م)، حوالي (٨٨) معركة ضارية ضد القوات الروسية القيصريّة.
- قاتل الأمير (برزج) القوات الروسية حتى عام ١٨٦٣م، ولم يتوقف عن القتال إلا بعد انهيار المقاومة الشركسية وإعلان انتهاء الحروب الروسية الشركسية يوم ٢١ أيار ١٨٦٤م.
- هاجر الأمير برزج ضمن المهجرين الشراكسة إلى تركيا، ومُنح هناك لقب الباشوية تقديرًا لجهاده وأعماله البطولية ما يزيد عن عشرين عاماً.
- تطوع بالجيش الشركسي/ التركي الذي دخل بلاد القفقاس قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧م بقيادة الرواد الشراكسة (عمر حكمت باشا، وعزت مت جونا توقة، واسماعيل برقوق)، إلا أن الحملة توقفت بسبب انتهاء الحرب بهزيمة ألمانيا وحلفائها الأتراك.



الحاج برزج جرندوقة

- الأمير برزخ، شاعر موهوب وألف أشهر القصائد الشركسية (الغبزة) عن مأساة التهجير الشركسية والمُسماة "مبكاة التهجير" وهي قصيدة يرددونها الشراكسة في الوطن الأم وبلاد المهجر عامة في يوم الحداد القومي الشركسي الذي يصادف ٢١ أيار من كل عام.

توفي الحاج (برزج) في تركيا عن عمر يناهز ١١٠ سنوات قضاها مجاهداً ومناضلاً في سبيل الله والوطن الأم.

الفصل الخامس

عظماء ومشاهير من الادباء والمؤرخين ورجال العلم والادارة من شراكسة الوطن الأم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين الميلادي

برز في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي عدد كبير من الادباء والمؤرخين والعلماء اثروا الحركة القومية الشركسية عامة والحركة الادبية خاصة نذكر منهم:

(١) إسماعيل - بي حتاجيقوة (١٨١٢-١٧٥٠)

هو الامير الشركسي الذي حمل رتبة عقيد الجيش الروسي. وكان عنوانا للقصيدة التي نظمها لميخائيل ليرمونتوف عام (١٨٣٢) وعنوانها البطل اسماعيل - بي، وهو ايضا الرجل الاجتماعي السياسي البارز في عهده، تعلم في القرم وروسيا. وقاد الجيش باستيلاء قلعتي أوتشاكوف (١٧٨٨) واسماعيل (١٧٩٠). أهدي له وسام القديس جيورجوس من الطبقة الرابعة والميدالية الالماسية وشارك في محادثات معاهدة السلام البائسة بين روسيا والدولة العثمانية عام (١٧٩٢) واصبح سفير الكسندر الأول لدى القوقاز. وسعى لانضمام الشعوب القوقازية إلى روسيا بالطرق السلمية.

بالإضافة إلى شجاعته وبطولاته العسكرية وانجازاته السياسية. كان بارعا والف اكثر من كتاب منها. "وصف وجيز لشعوب القوقاز الشمالي الجبلية" و "مذكرة عن شعوب القوقاز" وغيرهما.

(٢) كتشوك جانخوتوف (١٨٣٠-١٧٥٨)



كتشوك جانخوتوف

آخر امراء القبردي العليا في الفترة (١٨٣٣-١٨٠٩) أول أمين سر المحكمة القبردينية المؤقتة (١٨٣٠-١٨٢٢) وكان يحمل رتبة عقيد في الجيش الروسي. وهو الذي وضع النظم الإدارية والقضائية الروسية في بلاد القبردي. ألغى منصب أمير القبردي العليا بالرغم من ذلك بقي (كتشوك) حتى آخر حياته زعيم معترفا به لأمير الاكبر لشعب القبردي - فهو من اوائل القادة الاداريين في بلاد القبردي، كما كان سياسيا بارعا نشطا، ومن انجح الامراء الذين استطاعوا إنشاء تفاهم متبادل بين الشعوب القوقازية الشمالية وروسيا القيصرية.

(٣) شورا بكمززا نغموقه (رائد الكتاب الشراكسة والمؤرخ الأول للأمة الشركسية) (١٧٩٤-١٨٤٤)

الكاتب (نغموقه) ويعرف باسم (نجوما شورا) ويعتبر من أوائل كتاب الشراكسة ومؤرخيهم، ساهم مساهمة فعالة في إحياء تاريخ وأدب ولغة الشراكسة، وأعماله في هذه المجالات لا تقدر بثمن.

ولد مؤرخ الشراكسة الأول (نجوما شورا) عام ١٧٩٤م لعائلة متوسطة الحال، كانت فيما مضى من طبقة النبلاء، تسكن في قرية على ضفة نهر (جستو) بالقرب من مدينة (قارمحبلا) في جمهورية كبادينو بلقاريا الحالية، ويعتقد أن هذه المدينة قد هاجر سكانها في النصف الأول من القرن التاسع عشر، (نجوما شورا) من أبناء إحدى القبائل الشركسية التي هاجرت إلى بلاد القبردي من مناطق مجاورة لمقاطعات الأبخاخ، وأنهى دراسته الإسلامية عام ١٨١٧م في مدينة (أندبري) في الداغستان، وأصبح ملماً بأمور الدين الإسلامي، فعمل بعد تخرجه ولمدة سنة واحدة في مجال تدريس

الدين الإسلامي، وفي عام ١٨١٨م انخرط في سلك الجيش الروسي القيصري العامل في شمال القفقاس في حوض نهر الفولجا، فعمل في قسم القلم ضمن فرقة القوزاق، ثم أصبح خازناً للأسلحة في بعض المناطق، ثم فارساً في فرق الفرسان، ثم مدرساً للغة الروسية والتركية في مدرسة الرهائن في مدينة نالتشك، وأخيراً سكرتيراً لهيئة المحكمة في نالتشك.

عاصر (شورا) عدداً من كتاب وشعراء روسيا اللامعين، منهم الشاعر أ.س. بوشكين، م. ويولير مونتوف، والعلامة أ.م. شيفرين، وقد قال عنه المؤرخ الروسي س.د. نيتشايف (أن المؤرخ والأديب الشركسي نجوماً شورا يجيد اللغات الروسية والتركية والعربية ولغة الأبخاز ويلم ببعض لغات الأقوام التي تسكن القفقاس، هذا بالإضافة إلى لغته الأصلية).

وفي كانون الأول عام ١٨٣٢م رقي (شورا) إلى رتبة ملازم في الجيش الروسي، وتهيأ له الجو للكتابة والبحث والتتقيب خاصة في قواعد وأصول اللغة الشركسية، وفي عام ١٨٣٥م ذهب ضمن فرقة الفرسان إلى تفليس في جورجيا، وخدم فيها حتى عام ١٨٣٧م حيث اعتزل الجيش وعاد إلى مسقط رأسه، وتفرغ لنشر الثقافة والعلم والمعرفة بين قومه، وانكب على دراسة تاريخ الشراكسة وأدبهم الشعبي، حيث جمع الكثير الكثير منه وقام بتحليله ودراسته، مما ساعده في إبداعه بأعماله الأدبية والتاريخية وفي دراسة اللغة وأصولها، وكان يقول دوماً: (سأصل إلى هدي، وهو أن أدرس قومي لغتهم واللغة الروسية، وأن أجعل الروس وشعوب أوروبا يهتمون باللغة الشركسية وبثقافة وتاريخ الشراكسة، حيث لدينا الكثير مما يجب أن يعرفه الباحثون والشعوب الأخرى) وكان هذا ما سعى إليه (شورا) بكل طاقاته وامكانياته واستطاع أن يحقق بعضها.



شورا بكمرا نغومقة

عمل (شورا) سكرتيراً في محكمة نالتشك في الأعوام ١٨٣٨/١٨٤٢ وفي هذه السنين أعاد النظر في كتاباته حول قواعد اللغة وأصولها، وفي الأدب الشعبي والتاريخ، حيث انتهى عام ١٨٤٠م من وضع مؤلفه الأول الذي أسماه (مبادئ وأصول قواعد اللغة الشركسية) وأرسله إلى الأكاديمية الروسية لإبداء الرأي فيه ومناقشته، فدرسه العلامة أ.م. شيفرين، وأبدى عليه ملاحظاته، وأعاده للمؤلف، وفي أواخر عام ١٨٤١م فكر (شورا) بإنشاء مدرسة في نالتشك لتدريس اللغتين الشركسية والروسية، وأيده في ذلك بعض رجالات الشراكسة، فبعثوا بالتماس إلى

الحاكم العام الجنرال (بيرياتينسك) يعرضون عليه مطلبهم، ويطلبون منه إيفاد (شورا) في بعثة إلى الأكاديمية الروسية.

استمر (شورا) في عمله في سكرتارية المحكمة، وإن كان يتطلع إلى ذلك اليوم الذي يستطيع فيه التفرغ لإنجاز أعماله الكتابية وأبحاثه القومية، وأراد أن يتفرغ لكتاباته حيث قدم فعلاً التماساً إلى المسؤولين لإعفائه من الخدمة في المحكمة، ولم ينتظر الرد بل ترك الخدمة نظراً لصحته التي بدأت تزداد سوءاً، وذهب إلى حمامات المياه المعدنية الساخنة في (بياتغورسك)، ولم يعد بعدها إلى العمل.

وفي عام ١٨٤٣م، انتهى (شورا) من وضع مؤلف آخر اسماء (الأساطير الشركسية)، وكتاب ثان حول (تاريخ الشعب الشركسي)، وأعاد النظر في كتابه (مبادئ وأصول قواعد اللغة الشركسية) ووضعه بعد تنقيحه في إطار جديد، وسعى مرة أخرى للذهاب بمؤلفاته الثلاث إلى الأكاديمية الروسية لمناقشتها هناك ثم طبعها.

وفي عام ١٨٤٤م، منح (شورا) منحة مالية وسمح له بالالتحاق إلى الأكاديمية برفقة خادمه، ووصلها في الرابع عشر من أيار عام ١٨٤٤م، ولكن المرض الخطير أقعده، وازدادت صحته سوءاً،

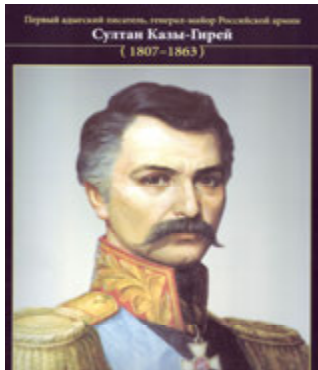
ولم يمهله القدر كثيراً إذ امتدت إليه يد المنون فاخترت تلك الشعلة المنيرة في العاشر من حزيران عام ١٨٤٤م.

ومات (نجوما شورا بن بكمزرا)، ذلك الابن البار للشعب الشركسي والمتقف الكبير، والمؤرخ الفذ، واللغوي والشاعر المبدع، مات ودفن في مقبرة المسلمين (مقبرة تارسك) في مدينة فولكوف، ونعتة الأمة الشركسية بمزيد من الحسرة واللوعة، والحزن العميق، وعزت وفاته على زملائه من كبار الشعراء والأدباء والعلماء الروس.

ترك (شورا) الحياة قبل أن يرى ثمرة دراسات وأبحاث أعدها خلال أكثر من ثلاثين عاما وبقيت مؤلفاته عشرات السنين مبعثرة هنا وهناك في أرشيف الأكاديمية الروسية، إلى أن عثر عليها بعض أساتذة الأكاديمية، أمثال (يوكتوف)، كما قام ابنه (لروستان) من نشر كتابه الأديكة (الشركسي) القديم عام ١٨٦١م وترجم إلى اللغة الألمانية عام ١٨٦٦م ثم ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور شوكت المفتي عام ١٩٥٣م.

(٤) الأديب والسياسي غازي غيري (١٨٠٨-١٨٦٣)* وهو رائد كتاب القصص الشركسية الطويلة:-

يمثل (غازي غيري) مكانة هامة في تاريخ تطور الأدب الشركسي، وقد كان من أوائل من كتب عن حياة الشركس بالإضافة إلى كونه رجل سياسي بارع.



الأديب والسياسي غازي غيري

ولد (غازي غيري) عام ١٨٠٨م في منطقة "كوبان" كما ذكر في كتابه "سهول أجيوتغاي"، فقد كاتبنا والده باكراً وكان الابن الوحيد لأمه، التحق بالجيش عام ١٨٢٦م برتبة جندي وبعد ذلك رفع إلى رتبة ضابط ونقل إلى بيتروغراد "ليننغراد"، وقد استغل (غازي غيري) وجوده في العاصمة فقام بتعليم وتنقيف نفسه عن طريق إتصاله بكتاب روس مشهورين، وقد لعب الكاتب الروسي "مورافيف" دوراً كبيراً في حياته الأدبية، وتعرف عن طريقه بشاعر عصره (بوشكين)، وقد نشر له بوشكين باكورة إنتاجه في عام ١٨٣٦م في جريدة "المعاصر"، وفي عام ١٨٤٠م ينقل إلى القفقاس برتبة رائد ويتنقل في عدة أماكن حتى عام ١٨٥٩م حيث يستقر، وبرتبة لواء يرأس "فرقة القفقاس" وقد توفي في عام ١٨٣٦م.

لقد كرس غازي غيري حياته في القفقاس لدراسة التاريخ الشركسي بكل تفاصيله بالإضافة لمساعدة أبناء وطنه في الدراسة، ومتابعة أمورهم الدراسية في مدينة "ستافروبول".

بشهادة معاصرة كان (غازي غيري) يملك مكتبة عظيمة تحتوي على مؤلفات نادرة ومن هذه المؤلفات "الزمن قبل ظهور الروس، وخاصة القوزاق في المناطق الشركسية"، اهتم غازي غيري بالأدب إضافة إلى السياسة، وقد ظهرت موهبته الفذة وثقافته في كتابه الأول "سهول أجيوتغاي" وقد ضَمَنه حبه الشديد لأبناء موطنه الجميل، وقد قام الشاعر بوشكين بنشرها في العدد الأول من مجلة المعاصر، لقد استحوذت هذه القصة اهتمام النقاد والكتاب وكان من بينهم الناقد والكاتب الروسي الشهير "بلينسكي" الذي أشاد بكتابة (غازي) وقال عنه "بأنه متمكن من اللغة الروسية أكثر من بعض الأدباء الروس المشهورين".

* ذكرت بعض المصادر التاريخية بأنه من مواليد عام ١٨٠٧.

قام بوشكين بنشر قصة (غازي غيري) دون أخذ تصريح من الرئيس المباشر له مما سبب غضبه فأرسل بكتاب تهديد إلى بوشكين بعدم نشر أي قصة لضباطه بدون علمه، ومع ذلك قام بوشكين بنشر قصة غازي غيري الثانية "نكتة فارسية" في العدد الثاني من جريدة "المعاصر".

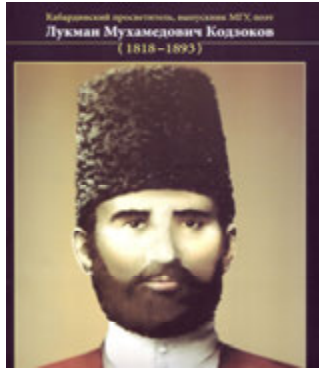
إن كتابات غازي غيري قد ساعدت في رفع مستوى الأدب الشركسي، وقد احتلت مكانة خاصة في الأدب الشركسي فيما قبل الثورة البلشفية؟ في قصته "سهول أجيوتغاي" التي تتحدث عن ضابط جبلي يعود إلى موطنه بعد غيبة طويلة قضاها في الخدمة العسكرية، ومحور القصة يدور حول أحاسيس وشعور ذلك الضابط حين يقوم بزيارة المناطق العزيزة عليه منذ الطفولة، ويصف الكاتب بأسلوب جميل رائع جمال الطبيعة الخلاب، كما يصف الحياة الجبلية التي يعيشها مواطنوه، ومن خلال وصفه لمدى حبه لوطنه يظهر لنا مدى خوفه على مصير وطنه الغارق في الحروب، كما يتناول المشاكل الاجتماعية الناجمة عن التطورات الاجتماعية وخوفه من المستقبل، ولكنه كمتقف يرى أن خلاص شعبه من مشاكله يتم عن طريق تثقيفه وتعليمه.

(٥) سلطان خان - غيري (١٨٤٢-١٨٠٨)

شارك في الحرب الروسية الفارسية (١٨٢٨-١٨٢٦). خدم في كتيبة البحر الأسود للفرسان، وقائد الكتيبة النصفية القوقازي الجبلي في سانت بطرسبرغ. وهو صاحب أثر كبير تاريخي أثنوغرافي في "مذكرات عن تشيركيسيا". لقبه الامبراطور نيكولاي الأول بـ "كارامزين شركسي".*
كما نشر هذا الباحث الموهوب المؤلفات التالية: "الحكايات الشركسية"، "ديانة، أخلاق، عادات ونمط حياة الشركس"، "الامير كانبولات" والخ.

وكان خان - غيري كان معتقد بأن انضمام الشركس لروسيا يتيح لهم فرصة لاخذ عنهم العلوم والثقافة. وشهد له علماء الروس بأن التاريخ والاثنوغرافيا الذي وصفه سلطان قد أسهمت بقسط كبير في العلم الروسي والعالمي.

(٦) لقمان مخاميدوفيتش كادزوكوف (١٨٩٣-١٨١٨)



رجل الدولة لقمان كادزوكوف

هو رجل الدولة والاجتماعي والمؤرخ العبقري والفيلسوف والصحفي. نشأ في اسرة أ. س. خومياكوف بعد تنصره أخذ اسم (دميتري ستيبانوفيتش) وهو خريج مدرسة بالوفسكي وجامعة موسكو. وأصدر كتابا تحت عنوان "قصيدة لشباب شركسي" حين كان طالب في جامعة موسكو عام (١٨٣٧) وعاش في بياتيجورسك وخدم في الجيش الروسي في القوقاز الجنوبي للاعوام (١٨٦٣-١٨٤٤). وفي عام ١٨٦٣م. عُين رئيسا للجنة الأراضي في تفيرسكايا أوبلاست. ويسجل له نضاله وكفاحه من أجل إنشاء المؤسسات التعليمية وتعميمها في القبردي. حيث أنشأ في قريته (ابوقوة) أول مدرسة ابتدائية. وهو أيضا صاحب فكرة انشاء مزارع خاصة بالخيول.

* نيكولاي ميخائيلوفيتش كرامزين المؤرخ، والروائي، والشاعر الروسي المشهور جدا.



الشاعر الكبير بكمرزة باش

(٧) الشاعر الشركسي الثائر بكمرزة باش (صاحب
المواقف الجريئة في مقاومة تهجير الأمة
الشركسية):-

مولده ونشأته:-

ولد عام ١٨٤٥م في قرية (قلشبي حابله) في شمال
القفقاس، واهتم منذ صغره بتاريخ الشراكسة وعاداتهم
وقصصهم وأساطيرهم القديمة.

ويعتبر مؤسس الشعر في بلاد القبرطاي منذ ان كان في العشرين من عمره وكان شاعراً
ثورياً في ظل استعمار روسيا القيصرية في الفترة (١٨٦٤-١٩١٧).

• مواقفه البطولية من الهجرة ودعوته للشراكسة المهاجرين للعودة إلى الوطن:-

هاجر إلى تركيا ضمن الأفواج التي هاجرت عام ١٨٨١م، وبعد أن أدرك حجم المآسي
والمصاعب والمخاطر التي واجهت الشراكسة في هجرتهم إلى تركيا بدأ بجمع عشرات الرسائل من
الشراكسة المهاجرين، يصفون فيها مآسي التهجير والجوع والمرض والإذلال والأخطار الكبيرة التي
تعرضوا لها (أثناء هجرتهم وبعدها)، وحمل هذه الرسائل إلى أهلهم

الذين ظلوا متمسكين بأرض وطنهم، وبدأ يقرأها عليهم مع إلقاء بعض أشعاره الوطنية الشعبية في
لقاءاته داعياً إياهم للتشبث بتراب الوطن، وعدم مغادرته إلى بلاد الشتات في الغرب.

وفي عام ١٩٠١م، زار المهاجرين الشراكسة في تركيا مرة ثانية، حاملاً معه رسائل من
أهلهم المربطين على تراب الوطن يدعوهم فيها للإسراع في العودة إلى الوطن الأم.

وفي عام ١٩٠٥م، انضم إلى حركة ثورية تحريرية كانت تطالب الروس القيصرية المحتلين
بتوزيع أراضي الاقطاعيين على صغار المزارعين في المناطق التي حددت لسكن الشراكسة الذين
نجوا من التهجير، كما تمكن بجهوده الشخصية المتواصلة أن ينثي أعداداً كبيرة من العائلات
الشركسية التي كانت تنوي اللحاق بأقرانهم وأهلهم الذين هاجروا إلى خارج البلاد وظلوا متمسكين
بأرض الأجداد بالرغم من الحياة الصعبة التي كانوا يعيشونها بين القوزاق المتوحشين.

وفي عام ١٩١٣ شهد انتفاضة شعب القبرطاي على سلطات القيصرية في (غازي مراد).

عاصر بكمرزة الفترة الأولى من حكم شيوعيين وهي الفترة الممتدة من ١٩١٧-١٩٣٦.

• أعماله الشعرية:-

تميزت أشعار (بكمرة) بالنبرة الوطنية العاطفية تحمل طابعاً فلسفياً وفي المراحل الأخيرة من
حياته اتجه لنظم أشعار لاذعة تحمل طابع السخرية، ونشرت جميع أشعاره بعد وفاته عام ١٩٣٦م في
مسقط رأسه في شمال القفقاس.

الفصل السادس

القادة السياسيين العظام والرواد الأوائل من أدباء ومفكري ومؤرخي شراكسة الوطن الأم في ظل حكم الشيوعي في الاتحاد السوفيتي (١٩١٧-١٩٩٢)

أولاً: القادة السياسيين والمناضلين الشراكسة الذين قاوموا الحكم الشيوعي في ظل الاتحاد السوفيتي

بالرغم من شدة الحكم الشيوعي في عهد (جوزيف ستالين) وبالرغم من تحكم انصار الحزب فإن عدداً من القيادات السياسية الشعبية وبدعم ومساندة من عدد من الشعراء والكتاب الشراكسة، ذات النزعات القومية التحررية، ويحتفظ التاريخ الشركسي بأسماء هؤلاء المجاهدين الأبطال بفخر واعتزاز ويعتبرهم من القادة العظماء في تاريخ الأمة الشركسية، نذكر منهم على سبيل المثال وليس الحصر كل من:-

- الثائر بيشماف كوتسوك، ثاني رئيس حكومة لجمهورية القفقاس في الفترة الممتدة ما بين أعوام (١٩١٧-١٩٢٥).
- القائد العسكري سلطان قلج كراي، قائد قوات جمهورية شمال القفقاس.
- البرلماني سنغدي جباغي، أول رئيس منتخب لبرلمان جمهورية شمال القفقاس المتحدة.
- وزراء حكومة (بيشماف)، في جمهورية شمال القفقاس وهم (نوح تارقو للدفاع، رشيد خان للداخلية، حيدر بامات للخارجية، أصلان كري جباغي للمالية، المهندس ملكخان للصناعة والتجارة، المهندس إبراهيم حيدر للمواصلات، والمفكر الأديب شاخصيوار للتعليم، آ.بوتات للزراعة وأملاك شؤون الدولة).
- الشهيد البطل اسماعيل كرتي، قائد الثورة الشعبية الشركسية عام ١٩٣٢م.
- الشهيد البطل اسلام كوتسوك، القائد الثاني للثورة الشعبية الشركسية عام ١٩٣٢م.
- المناضل القومي يوري موسى شينيه، أول رئيس لاتحاد شعوب القفقاس للأعوام (١٩٨٩-١٩٩٢).
- المناضل القومي فاخر كوتسوف، رئيس مجلس الشيوخ المنتخب في اتحاد شعوب القفقاس للأعوام (١٩٨٩-١٩٩٢).

وفيما يلي دراسة موجزة للأعمال والإنجازات السياسية والقومية والأدبية التي قدمها كل واحد من هؤلاء العظماء:-

١. الرئيس بيشماف كوتسوك، الرئيس الثاني لحكومة جمهورية شمال القفقاس المتحدة:-



الرئيس بيشماف كوتسوك،

ولد عام ١٨٨٣م في قرية (بايوك) قرب نالتشك عاصمة جمهورية كبادينا - بلقاريا حالياً ودرس القانون وعمل في المحاماة لفترة طويلة.

وفي يوم ١٥/٣/١٩١٧م، وبعد تنازل القيصر عن سلطاته الدستورية، كان (كوتسوك) أحد ممثلي شعوب شمال القوقاز الذين اجتمعوا لبحث إمكانية تأسيس دولة شركسية.

وفي يوم ١١ من شهر أيار/ مايو ١٩١٧م، شكلوا (مؤتمر شمال القوقاز الأول) ليكون الهيئة التشريعية العليا

التي أنيط بها تنظيم مستقبل تلك الشعوب، وتعمل في نفس الوقت كحكومة انتقالية لدولة شمال القوقاز المستقلة.

وفي أيلول/سبتمبر من نفس العام، وخلال المؤتمر الثاني لنفس الهيئة تم التصديق على مشروع دستور الدولة القوقازية الجديدة.

وفي ١١ أيار/مايو ١٩١٨م، أعلنت دولة شمال القوقاز استقلالها وتم الاعتراف بها من قبل القوى العظمى في ذلك الوقت منها: (ألمانيا، والنمسا، والمجر بالإضافة لتركيا)، وانتخب (عبد المجيد جرويوبييف تشيرموي)، أبرز رجالات الهيئة التشريعية العليا كأول رئيس للدولة الجديدة وهو شيشاني الأصل وكوتسوك نائباً له.

كما تم انتخاب برلمان لها برئاسة (سنغيري جباغي) وهو شركسي الأصل، وأقر بأن اللغة العربية واللغة التركية هما اللغتان الرسميتان في الجمهورية الجديدة بالإضافة للغات القومية للشعوب الأعضاء في الجمهورية.

وفي يوم ١٥/١٢/١٩١٨م، استقال عبد المجيد جرويوبييف (تشيرموي) الشيشاني الأصل أول رئيس لجمهورية شمال القفقاس، وقام بتأليف الحكومة الجديدة نائبة (بيشماف كوتسوك) من شراكسة القبرطاي بتاريخ ١٩/١٢/١٩١٨م.

وفي عام ١٩١٩م، غزى الجنرال القيصري (دينكين) جمهورية شمال القفقاس ورفض الاعتراف بها لقناعته بأن روسيا وحدة واحدة لا يمكن تجزئتها، وعندما رفض القوقازيون الانضمام لقواته، قام (دينكين) بحرق عشرات القرى والمدن.

وفي مارس/ ١٩١٩م، قدم الرئيس (بيشماف كوتسوك) استقالة حكومته إلى المؤتمر الشعبي نتيجة الضغوط العسكرية الكبيرة التي تعرضت لها بالإضافة إلى المصاعب المالية التي عانت منها.



رئيس حكومة القفقاس عام ١٩١٨م مع الوفد الذي رافقه إلى استنبول لاقتناع تركيا بالاعتراف باستقلال القفقاس

وفي شهر آذار/ ١٩٢٠م، قامت وحدات الجيش الأحمر (الشيوعي) باحتلال الجمهورية بعد أن استنزفت قواتها في حربها ضد القوات القيصرية بقيادة (دينكين) ومع حلول عام ١٩٢٥م ألغيت الجمهورية.

وانسحب كوتسوك مع قيادته السياسية إلى تركيا وعاش فيها حيث تفرغ لكتابة العديد من المقالات والدراسات عن وطنه الأم في الصحف التركية، وتوفي في المنفى في تركيا عام ١٩٦٤/١/١٨م.

٢. الشهيدان البطلان اسماعيل كرتي، وإسلام كوتسوك:-

ربما كانت القلة القليلة في العالم عامة وفي بلاد القوقاز خاصة الذين عرفوا أو سمعوا عن الثورة الشعبية الشركسية التي خطط ونظم لها البطلان (كرتي وكوتسوك) حيث أذاع اسماعيل كرتي ورفاقه عام ١٩٣٢م بياناً ونداءً عاماً موجهاً إلى سفراء الدول في موسكو، وإلى حكومات العالم الحرة باللغات الثلاثة العربية والتركية والروسية، وهز نشر هذا البيان كيان الحكومة السوفيتية أكثر مما هزتها هزيمة جيشها، فحاولت جاهدة أن تمنع انتشارها ولكن دون جدوى فقد أذيع البيان في كل أنحاء أوروبا عامة، وفي صحف فرنسا وبولونيا خاصة، فثارت نائرة السلطات الروسية لمنع إستفحال هذه الحركة الثورية الشعبية.

وحشدت جيوشها بأعداد تفوق أضعاف سكان الثوار الشراكسة، وتقهقر الوطنيون القوقازيون عامة والشراكسة خاصة نحو قمم الجبال حتى أحيط بهم في قمتي ألبروز وسالانا حتى عام ١٩٣٤م، وبعد نضال عامين متواصلين قُضي على آخر مناضل منهم، واستشهد البطلان اسماعيل كرتي وإسلام كوتسوك مع أعداد كبيرة من الثوار الشراكسة الذين شاركوا في هذه الثورة القومية والجدير ذكره هنا بأن عمر إسلام كوتسوك عند قيادته للثوار كان سبعة وعشرون عاماً فقط، وكان عمر إسماعيل كرتي رفيقه في القيادة خمسة وعشرين عاماً، وقد قام هذان البطلان بإدارة حركة الثوار إدارة احترافية ونفذاً خططاً عسكرية جريئة أخرجت القوات السوفيتية المدججة بالعدة الكبيرة في العدد لأكثر من عامين متواصلين.

٣. القائد العسكري سلطان قلج كراي الذي اصر على الموت مع جنوده الشراكسة الذين انضموا إلى صفوف الجيوش الألمانية النازية التي احتلت الجمهوريات الشركسية في شمال القفقاس عامي (١٩٤٢/١٩٤٣)، وتتلخص بطولته هذا القائد العسكري الشركسي الفذ في الوقائع والحقائق التالية:-



الشهيد البطل سلطان قلج كراي

- **الحقيقة الأولى:** تولى (كراي) قيادة القوات الشركسية لاتحاد جمهوريات شمال القفقاس التي تشكلت عام ١٩١٧م في شمال القفقاس بعد قيام الثورة البلشفية، وهي الجمهورية التي كان ثاني رئيس لها المناضل السياسي الشركسي الكبير (بيشماف كوتسوك).
- **الحقيقة الثانية:** تولى (كراي) قيادة القوات الشركسية التي قاتلت ضد الجيش الأبيض بعد تشكيل اتحاد جمهوريات شمال القفقاس عام ١٩١٧م، وهرب إلى ألمانيا بعد احتلال القوات الشيوعية لبلاد القفقاس عام ١٩٢٢م والقضاء على الإتحاد وعاش فيها حتى عام ١٩٤٢م.
- **الحقيقة الثالثة:** عاد إلى القفقاس مع القوات الألمانية أبان الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٣م، وساهم في تشكيل الفيلق الإسلامي وحارب مع القوات الألمانية لطرد الروس من شمال القفقاس حيث كان يحمل رتبة كولنيل عندما كان قائداً لفرقة الخيالة القفقاسية التي كانت تدافع عن رومانيا في الحرب العالمية الثانية حليفة روسيا (آن ذاك) ورفقي إلى رتبة جنرال عند تكليفه لقيادة الفيلق الإسلامي في شمال القفقاس عامي (١٩٤٣-١٩٤٤).
- **الحقيقة الرابعة:** بعد هزيمة النازيين في نهاية الحرب العالمية الثانية انسحب معهم إلى ألمانيا مع الفيلق الإسلامي ووضع في معسكرات الأسر لدى الحلفاء في أوروبا.

• **الحقيقة الخامسة:** عندما بدأت سلطات الحلفاء المنتصرة في الحرب العالمية الثانية بتسليم الأسرى والفلاحين القوقازيين عامة والشراكسة خاصة الذين حاربوا مع الألمان لتحرير بلادهم من الحكم الشيوعي الطاغوي، عرض الضابط الإنكليزي على الجنرال (سلطان كراي) استثناءه وحده من عملية التسليم إلى الروس على اعتبار أنه يحمل الجنسية الألمانية منذ عام ١٩٢١م، و باعتباره أيضاً بموجب هذه الجنسية خارج نطاق التبعية الروسية المطلوب من الحلفاء تسليمهم للروس، وكان جواب هذا القائد العظيم الرفض القاطع لمبدأ استثنائه من التسليم للسلطات الروسية مع علمه الأكيد بأنه سيتم إعدامه فور تسليمه قائلاً: (إنني أفضل الموت مع جنودي الشراكسة والقوقازيين الذين حاربوا معي)، كما قال جواباً على أمر استثنائه لوحده: (لقد استشهد أبائي وأجدادي في ميادين الكرامة القومية، أما رفاقي هؤلاء فقد شاركوني في السراء والضراء لنفس الغاية التي هدفت إليها، فتقاسمنا شرف الحفاظ على محارم وطننا المقدس، والآن لست بمنفرد عنهم، سأشاركهم مصيرهم المحتوم وفي تسليمهم إلى جلادينا الروس الذين يريدون أن تسوقونا إليهم، وإنني لن أترك شرف قيادتهم إلى المصير النهائي لغيري..).

هكذا تم تسليم حوالي عشرة آلاف شخص إلى السلطات الروسية يوم ١٩٤٥/٥/٢٨م وفي مقدمتهم البطل القومي الشركسي (كراي) ونفذت فيهم السلطات الروسية جميعاً حكم الإعدام فور وصولهم لمعسكرات اعتقالهم في الاتحاد السوفيتي.

٤. المناضل الشركسي يوري موسى تشنبه:-



المناضل يوري موسى تشنبه

كان (يوري) في مقدمة الشخصيات القوقازية التي بادرت في يوم ١٩٨٩/٨/٢٥م إلى عقد المؤتمر الأول لممثلي شعوب القفقاس في مدينة (سوخومي) عاصمة جمهورية أبخازيا، وأقر فيه نظامه الداخلي، وأرسل إلى مؤتمر نواب الشعب في الاتحاد السوفيتي (السابق) لإقراره هذا المؤتمر الذي شارك فيه ممثلو (الأبازة) من جمهورية قرتشي شركسيا، و(الأبخاز) سكان جمهورية أبخازيا، و(الأديغة) سكان جمهورية الأديغي، و(الأنغوش) سكان جمهورية الشيشان أنغوش، و(القبرطاي) سكان جمهورية قبردينيا بلقاريا، و(الشركس) من سكان جمهورية قرتشي شركسيا، و(الشيشان) من سكان جمهورية الشيشان أنغوش، ولم يحضر هذا المؤتمر القومي القوقازي كل من (الداغستان والأستين الشمالية والجنوبية).

وأعلن المشاركون في المؤتمر تأسيس (جمعية الشعوب الجبلية في القفقاس)، وانتخب (يوري موسى تشنبه) من شراكسة القبرطاي لرئاسة مجلس التنسيق، و(فاخر كوتسوف) لرئاسة مجلس الشيوخ.

وفي يومي ١٣-١٤/١٩٩٠، انعقد المؤتمر الثاني في مدينة نالتشك، وأقرت فيه وثائق كثيرة كما تم وضع الحلول للمشاكل التي تعترض بناء الدولة الجديدة، وأصدروا بياناً رسمياً حول الأخذ بمبدأ عدم استخدام القوة في حل المشاكل القومية القوقازية.

وفي تشرين الأول من عام ١٩٩٠م، وافقت حكومة الاتحاد السوفيتي على إقامة مؤتمر للممثلي الشعوب الصغيرة وحضره (٤٦) شعباً صغيراً من الشعوب التي تعيش في الاتحاد السوفيتي وتشكلت جمعية وطنية قومية متخصصة في رسم حدود الأراضي التي تعيش عليها هذه الشعوب وانتخب (يوري) رئيساً لهذه الجمعية.

وفي يومي ١-٢/تشرين الثاني/١٩٩١م، انعقد المؤتمر الثالث لجمعية ممثلي شعوب القفقاس حضره ممثلي (١٣) قومية، أقر فيه تشكيل اتحاد شعوب القفقاس، وانتخاب (يوري) رئيساً للاتحاد.

وفي يومي ٤-٥/تشرين الأول/١٩٩٢م، عقد المؤتمر الرابع للاتحاد للنظر في بقاء القفقاس موحداً مع الاستمرار ضمن جمهوريات روسيا الاتحادية أو عدم بقاءه وتقرر البقاء ضمن روسيا الاتحادية.

وفي أواخر شهر أيار عام ١٩٩٢م، انعقدت الدورة المشتركة لكل من البرلمان والمجلس الرئاسي للاتحاد لبحث ومناقشة مسألة اعتداء جورجيا على شعب أسيتيا الجنوبية واستمعوا إلى النداء الذي وجهه ممثلو هذه الجمهورية، وطلب من رئيس اتحاد الشعوب القفقاسية اتخاذ وسائل أكثر راديكالية لمنع الإبادة الجماعية في أسيتيا الجنوبية، وبناءً عليه وجه رئيس الاتحاد للمجتمع الدولي لوضع حد لاضطهاد وإبادة الشعب في هذه الجمهورية القوقازية الصغيرة، ووجه (يوري) النداء التالي لقادة العالم قال فيه: "إن هذه الأعمال تؤكد أن هناك خططا لبعض القوى من أجل إشعال الفتنة، ومن أجل التدمير الشامل للحضارة القفقاسية، هذه الحضارة التي لعبت دوراً كبيراً في تطوير البشرية.. التي كان لها كثير من التأثير الفعال وأنها ساعدت البشرية، فمثلاً استمر حكم المماليك الشراكسة ٣٠٠ سنة تقريباً في العالم العربي، وقامت الفرقة الشركسية بتدمير المغول قرب جدران مدينة دمشق، حيث أنقذوا الحضارة العربية من التدمير الشامل، كما كان الشركس من القوى الفعالة التي ساعدت على تشكيل الدولة المركزية الروسية، وعلى إعادة بناء تاريخهم، والمؤرخون الأتراك وصلوا إلى نتيجة، مفادها أنه بدون الشركس وخيالتهم لما كانت الجمهورية التركية قائمة الآن".

واستطرد قائلاً: "١٥٠٠ سنة من الحرب المستمرة لإخضاع القفقاس ولم تستطع تدمير هذه الحضارة القديمة والعريقة، أما الآن فهناك أفق واسع وحقيقي لذلك، فسيناريو الدراما لما وراء القفقاس يتحول إلى شمال القفقاس بهدف إبادة شعوبها مرة أخرى".

"ولكن لن يستطيع العالم أن يغض النظر طويلاً، كما حدث في القرن التاسع عشر، أثناء إبادة الشراكسة، إن ما يجري هو إبادة جماعية للشعب الأسيتي وأن الكارثة في أسيتيا الجنوبية نذير لشعوب المنطقة وللمجتمع الدولي، فالكارثة عبارة عن فاتحة لنقل سيناريو الدراما لما وراء القفقاس بهدف الإبادة الشاملة لشعوب شمال القفقاس".

وفي الختام وجه إنذار لجورجيا بقوله: "فإن لم يتوقف العنف ضد الشعب في أسيتيا الجنوبية، خلال مهلة قدرها عشرة أيام، فاتحاد الشعوب القفقاسية سيقدم الدعم لها بكل ما لديه من وسائل".

وفي يوم ٢٣/٩/١٩٩٢م، أُلقي القبض على (يوري) رئيس الاتحاد وتم اعتقاله ووجهت له اتهامات تقضي بسجنه ونفيه لمدة (٩٣) سنة.

وأدى اعتقاله إلى انتفاضة شعوب القفقاس، واعتصم أمام مبنى الحكومة في مدينة نالتشك عشرات الآلاف ليلاً ونهاراً لأكثر من (١٢) يوماً من (٩/٢٣ إلى ١٠/٢/١٩٩٢م) حتى اضطرت السلطات الروسية إلى إطلاق سراحه، بعد الإفراج عنه مع رفاقه إلى أبخازيا وأصيب هناك بطلق نارية في ساقه مما اضطره إلى العودة للمعالجة.

ألف كتاباً عنوانه (انتصار الوحدة في شمال القفقاس المتحرر) ونشر في مدينة نالشيك عام ١٩٩٤م، وترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية وطبع في سورية عام ١٩٩٧م.

ثانياً: الرواد الأوائل من ادباء ومفكري ومؤرخي شراكسة الوطن الأم في ظل حكم الشيوعيين في الاتحاد السوفيتي

يمكن تقسيم رواد هذه المرحلة إلى ثلاثة فئات

- الفئة الأولى ويضم الرواد من الادباء الذين ولدوا ونشأوا في عهد حكم القياصرة لبلاد الشراكسة.
- الفئة الثانية: ويضم الرواد من الادباء الذين ولدوا وعاشوا في ظل حكم الشيوعيين في الاتحاد السوفيتي.
- الفئة الثالثة ويضم ادباء وكتاب شراكسة روجوا للايدولوجية الشيوعية الماركسية.

وفيما يلي نبذة عن مسيرة رواد كل منهم:

(١) رواد الفئة الأولى من الادباء الشراكسة في هذه المرحلة من تاريخ شراكسة الوطن الأم ونذكر منهم:

١. الأديب والمعلم الكبير أحمد نوري تساغو (١٨٨٨-١٩٣٥):-

- نشأته ودراسته:-



المعلم الشاعر الكبير احمد نوري تساغو

ولد في مدينة القنيطرة في الجولان السورية عام ١٨٨٨م، وعاش فيها حتى تخرج من المدرسة الثانوية في دمشق عام ١٩٠٨، وفي عام ١٩٠٩ التحق بكلية الحقوق في اسطنبول في تركيا وتخرج منها عام ١٩١٢م.

- عضويته في جمعية الإخاء والتعاون الشركسية ونشاطه الأدبي في تركيا:-

بعد تخرجه انضم إلى جمعية الإخاء والتعاون الشركسية في اسطنبول، وأصبح سكرتيراً لها عام ١٩١١م كما ساهم في إصدار صحيفة (غوازة) التركية الشركسية وعمل مدير تحرير لها مع زميله الأديب (يوسف سعاد نجوج) الذي رأس تحرير الصحيفة وكان (تساغو) يكتب مقالاً يومياً يحارب به الهجرة الشركسية للخارج بعنوان "كيف نضيع نحن الشراكسة".

- تطوعه لنشر الأدب والثقافة واللغة الشركسية في الوطن الأم:-

افتتده جمعية الإخاء عام ١٩١٣م إلى مواطنه في شمال القفقاس لنشر الثقافة والأدب واللغة الشركسية من خلال المدارس التي افتتحتا في بلاد القبرطاي والأديغة (مايكوي) برفقة كل من المتطوعين:- (هاتسال، محمود قوبار، هارون بسروقة، عاكف تيغون، محمد حبيب، زكريا بستي، سعاد نجوج)، وتخرج على يديه عدد من أدباء شراكسة الوطن الأم منهم تبناه (تساغو) واهتم بتعليمه وخصه بتوجيهاته القومية الإصلاحية وبث فيه الروح الوطنية النضالية.

- أعماله الأدبية:-

نشر (تساغو) عشرات المؤلفات والكتب والمجلات نذكر منها: كتاب الأحرف الشركسية والتاريخ الإسلامي باللغة الشركسية عام ١٩١٧م، ومجلة صوت الأديغة، وكتاب التاريخ الشركسي عام ١٩١٨م، وغوازة للأطفال عام ١٩٢٥م، وكتاب النظام العالمي عام ١٩٢٥، وكتاب أدب الأطفال عام ١٩٢٦م.

وفي عامي (١٩٢٥-١٩٢٦) اضطر لتدريس اللغة الشركسية في مدرسة التكنولوجيا التابعة للحزب الشيوعي، وتوفي الأديب (تساغو) وهو صغير السن ووافته المنية في القفقاس عام ١٩٣٥م وهو في عمر السابعة والخمسين بعد حياة أدبية وفكرية حافلة، وبعد أن أسس مدرسة فكرية شركسية سميت بمدرسة (تساغو الشركسية للنهضة والتطوير).

٢. الشاعر والأديب المبدع علي شوجن تسوك (١٨٩٠-١٩٤٢):-

• مولد ونشأته ودراسته:-



الشاعر والأديب المبدع علي شوجن تسوك

ولد عام ١٨٩٠م في قرية (كوشمزقوي) الشركسية الكائنة قرب مدينة باخستان لأسرة من أسر المزارعين من القبرطاي، ورعاه جده وأدخله كتاب القرية، ثم المدرسة الدينية الإسلامية في مدينة باخستان، وفي مرحلة لاحقة اهتم به المعلم والأديب (أحمد نوري تساغو) وخصّه بتوجيهاته الفكرية الإصلاحية، وزوده بأراءه الوطنية والنضالية وفي مرحلة لاحقة درس في داغستان وفي شبة جزيرة القرم وفي استانبول حيث اتقن اللغات العربية والتركية والفرنسية.

• ابداعاته الأدبية ومساهماته في تعليم اللغة الشركسية، نشر سجل حياة (شوجن) بأنه كان من الأدباء القوميين النشطين جداً نذكر منها المساهمات التالية:-

- ساهم وهو في استانبول بالكتابة في مجلة (غوازة) الشركسية/ التركية.
- التحق بمعلمه (تساغو) بعد أن عاد للقفقاس عام ١٩١٩م.
- أصدر جريدة (صوت الأديغة) في الوطن الأم.
- ألف العديد من الكتب المدرسية لتدريس اللغة الشركسية والآداب والعلوم لأبناء الشراكسة في الوطن الأم.
- نشر العديد من القصص الطويلة باللغة الشركسية في الفترة ما بين أعوام (١٩٣٢-١٩٣٦) منها: البطل الشاب الصغير، روان قامبوت، لياتزا.
- له أعمال غنائية وملاحم شعرية عديدة ومجموعة كبيرة من القصائد المتميزة صدرت في ديوان شعره "الأعمال الشعرية الكاملة لشوجن تسوك علي".
- يعتبر "شوجن" رائد الشعر الشركسي الحديث، وأدخل الأشكال الكلاسيكية في كتابه الشعر الشركسي.
- كان أول من أدخل "القافية" إلى الشعر الشركسي، كما قام بتثبيت الأبحر الشعرية التقليدية الكلاسيكية بعد اطلاعه على الفنون الشعرية الشركسية منها والأوروبية.
- كما تشير وقائع سيرته الذاتية بأنه وقع في الأسر بعد أن دخلت القوات النازية إلى منطقة القبرطاي عام ١٩٤٢م، ومات في إحدى زنانات الألمان النازيين في القفقاس.
- وتقديراً للأعمال الأدبية الكبيرة (لشوجن) قامت حكومة جمهورية كبادردينا - بلقاريا بإطلاق اسمه على عشرات الشوارع والساحات الرئيسية والمدارس في مختلف مناطق شمال القفقاس، كما أطلق اسمه على المسرح الكبير في مدينة نالتشك، وأقيم له تمثال كبير أمام هذا المسرح تقديراً

وتكريماً لأعماله الأدبية والشعرية الكبيرة، ولدعوته الدائمة للشراكسة في الوطن الأم للتوجه للعلم والتعلم.

توفي شاعرنا الكبير (علي شوجن تسوك) عام ١٩٤٢م وهو في سن الثانية والخمسين من عمره.

كما تشير الوثائق بأن عدداً من الشعراء والأدباء الشراكسة قد شاركوا في نشر التراث القومي الشركسي، وفي تقديم أعمال أدبية قومية، وقاموا سرّاً وعلناً بنظام الحكم الشيوعي في أعمالهم الأدبية خلال فترة الحكم الشيوعي للأمة الشركسية في الوطن الأم للأعوام ما بين (١٩١٧م-١٩٨٩م)، نذكر منهم كل من الشعراء والأدباء:-

٣. الأديب القومي الشاعر كوبه شعبان (١٨٩٠-١٩٧٤):-

• مولده ونشأته:-

ولد عام ١٨٩٠م في قرية (حه كورنة حابلة) في منطقة الكوبان وهو من قبيلة الأيزاخ ووالده هو إدريس ووالدته فاطمة من عائلة حاراتوقة.

• دراسته وخبراته في التعليم:-

درس في معاهد نالتشك في منطقة القبرطاي، وتخصص في اللغة العربية والدين الإسلامي، ودرّس في مدارسها في عهد حكم قياصرة الروس قبل عهد الحكم الشيوعي.

وفي أوائل حكم الشيوعيين منع من التدريس في المدارس الشركسية في نالتشك، إلا أنه سمح له بتدريس اللغة الشركسية وأدائها باستخدام الأحرف العربية بعد خروجه من السجن إلا أنه لم يسلم من ملاحقته ومضايقته في عمله، واضطر للهرب والاختفاء.

بعد أن كان عدة سنوات في مسقط رأسه منطقة الكوبان، بعد نشوب الحرب العالمية الثانية تمكن من خلالها من جمع وتدوين الأشعار والأمثال والأغاني الشركسية القديمة.

• هروبه من القفقاس إلى خارج القفقاس:-

هرب الأديب (شعبان) مع القوات النازية المنسحبة بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية وأقام في مدينة ميونخ في الأعوام من (١٩٤٥-١٩٤٨) ثم غادرها إلى تركيا، وتجول بين القرى الشركسية فيها، وجمع العديد من التراث الشركسي (الشفوي) ودونها خلال عامي (١٩٤٩-١٩٥٠).

وفي عام ١٩٥٠م انتقل إلى سوريا ثم إلى الأردن وعاش بين الشراكسة في هذه البلدين العربيين حتى عام ١٩٥٦م وكان من أهم أعماله الأدبية خلالها هي:

• تحويل الكتابة باللغة الشركسية من الأحرف السلافية إلى الأحرف اللاتينية.

• نشر خلال وجوده في الأردن الكتب والأشعار التالية:-

- كتاب تاريخ عمان بلغة (الأديغة) عام ١٩٥٢م ونشر في بيروت.

- كتاب للأطفال الشراكسة عام ١٩٥٢م ونشر في عمان.

- قصص وحكايات بلغة (الأديغة) عام ١٩٥٣م ونشر في عمان.



الشاعر القومي الكبير كوبه شعبان

- المرأة الشركسية بلغة (الأديغة) عام ١٩٥٣م ونشر في بيروت.

- شعر بلغة (الأديغة) عام ١٩٥٤م ونشر في بيروت.

كما أعد العديد من الكتب والمؤلفات للطباعة نذكر منها: - "مجموعة الفلكلور الشركسي الجزء الثاني" وتضمن الأناشيد بالأديغة القديمة مع (١٥٠) شرحاً في حوالي ٥٠٠ صفحة. بالإضافة إلى قصص وحكايات أديغة، ومجموعة روايات، ومجموعة أخرى من القصائد والأشعار من الجزء الثاني وأوبريت (Tow Operettes) وقاموس شركسي عربي، وقصة تاريخية اسمها "تسر الجبل" وقاموس بجميع اللهجات (الأديغة)، وقواعد اللغة الشركسية.

• أعماله الأدبية والفنية في الوطن الأم القفقاس:-

نشر (كوبه) بعد تخرجه من معاهد نالتشك عام (١٩١٠-١٩١١) وحتى هروبه من القفقاس عام ١٩٤٣م أكثر من (١٢) مطبوعة باللغة الشركسية وهي:-

- القواعد المدرسية العملية في النحو باللغة الشركسية في جزئين هما (الصرف والإعراب) طبعة كرسنودار عام ١٩٣٠م.

- علم الإملاء في اللغة الشركسية في أربعة أجزاء، طبعه مايكوب عام ١٩٣٠م.

- مجموعة قصائد شعبية شركسية قديمة، ونشر في (مايكوب).

- رواية قطيع الخيول، ونشر في (مايكوب).

- الأبجدية الأديغة، ونشر في (مايكوب).

- القراءة الأدبية، ونشر في (كروندار).

- الأبجدية لمدارس الكبار، ونشر في (كروندار).

- القراءة الأبجدية في ثلاثة أجزاء، ونشر في (كروندار).

- الأبجدية للأطفال، ونشرت في (كروندار) عام ١٩٢٧م.

- قراءة للصديق، ونشر في موسكو عام ١٩٢٤م.

- تقويم Calender وصدر في موسكو عام ١٩٢٤م.

كما نشر روايات عن الحرب الروسية القفقاسية مثل (الهجوم الليلي المفاجئ على القبردينين) في القرن السابع عشر (وطرد الشراكسة إلى الدولة العثمانية) في خلال الفترة ما بين (١٨٥٩-١٨٦٤).

• أشرف على عرض مسرحيتين باللغة الشركسية خلال وجوده في عمان هما: مسرحية "هجرة الشراكسة" و"حروب الشراكسة" من خلال فرقة المسرح الشركسي في نادي الجيل الجديد في السنوات الأولى من عقد الخمسينات من القرن الماضي.

• انتقاله إلى فرنسا: انتقل من عمان إلى فرنسا في عام ١٩٥٦م وأقام فيها حتى عام ١٩٦٣م مع العالم الفرنسي (دوموزيل) الأستاذ في جامعة السوربون لمساعدته في أبحاثه عن اللغة الشركسية وعلاقتها باللغات الأوروبية، وفي نفس الفترة طبع الجزء الأول من أشعاره الشعبية الشركسية في باريس.

• هجرته إلى أمريكا: هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٦٣م وتفرغ للكتابة في مدينة باترسون، ونشر فيها الجزأين الثاني والثالث من كتابه المختص بالأشعار الشعبية الشركسية وأعاد إصدار التقويم الشركسي كما أصدر خلالها مسرحية (رجل الغابة وحجاره).

هذا وقد توفي (كوبه) في باترسون في الولايات المتحدة الأمريكية يوم ٢٠/١٢/١٩٧٤م، عن عمر يناهز الرابعة والثمانين.

٤. الشاعر القومي الأديب إبراهيم تسي (١٨٩٠-١٩٣٧):-

- مولده ودرسته:-



الشاعر القومي الأديب إبراهيم تسي

ولد يوم ١١ يناير ١٨٩٠م في قرية (شبخي) وتلقى العلوم الابتدائية في منزله حتى بلغ التاسعة من عمره، ثم التحق عام ١٨٩٩م بمدرسة (إيكاترينودار) ودرس فيها حتى الصف الخامس الابتدائي فقط، واضطر للعمل وهو في سن الرابعة عشرة من عمره، وتنقل في عمله من كاتب في المحاكم، إلى خازن في المستودعات، ثم أصبح عاملاً في مصانع التعدين، وأخيراً عمل محاسباً في شركة نفطية في القفقاس، وعاد لمسقط رأسه في قرية (شبخي) وعمل كاتباً للمجلس السوفيتي فيها ثم رئيساً له.

- ابداعاته الأدبية:-

كتب الأشعار والأغاني والمسرحيات بثلاث لغات وهي الشركسية والروسية والأوكرانية وأبدع في الكتابة، كما كتب وهو في سن مبكرة في مواضيع سياسية واجتماعية بأسلوب ساخر ينتقد فيه الأوضاع الصعبة التي يعاني منها العمال والفلاحون الشركاسة كما نشر الكثير من مقالاته الساخرة في المجلة الإسلامية التي كانت تصدر في بطرسبرغ وفي مجلة صدى مايكوب.

يعتبر (إبراهيم) من الأدباء الذين أبدعوا في كتابة الروايات والمسرحيات الجريئة والناقدة، من أشهر مسرحياته "قوجاس" و"الوحوش" و"السوط العظيم" و"وحي" الذي خصصه لوصف معاناة العمال والفلاحين الشركاسة من الاستبداد الإقطاعي الروسي كما كتب في الفلكلور الشركسي أكثر من مرة حيث اختص في الكتابة فيه ومن أشهر مؤلفاته قصة "وليمة مأتم الأرنب" كقصة للأطفال، ورواية "فاطمة" تحكي عن معاناة المرأة في القفقاس.

• مساهماته الشعرية:-

صدر له أكثر من ديوان شعر، ومن أشهر أغانيه وقصائده هي "لايريد" و"وطننا" و"جو" و"فارس الوطن الشركسي" و"نجل الشركسي البائس" وهي قصائد حماسية وطنية، هذا بالإضافة إلى ديوان شعره الذي تضمن قصصاً خرافية روسية، وأخرى شركسية يشجب وينتقد فيها النقائص البشرية، وسلبيات المجتمع عامة والانحرافات الاجتماعية مثل التفاخر والتحاسد والظلم الاجتماعي.

يعتبر (إبراهيم) من أنشط أدباء وشعراء عصره غزارة في الانتاج الأدبي ذات الطابع القومي أولاً، والناقد للنظم التي كانت سائدة في مجتمعه ثانياً، كما كان جريئاً في طرح قصصه الناقدة وأشعاره الحماسية ذات الصبغة الوطنية.

ترك لنا (إبراهيم) أعمالاً أدبية كبيرة، لم يتمكن من نشرها لوفاته وهو في ريعان شبابه، نذكر منها: رواية "الحاج حاتسوك"، ورواية أخرى بعنوان "زوجة إسحاق"، وقصة ثالثة هي "القوميسار شوجن"، وكلها أعمال أدبية ذات مستوى أدبي رفيع.

توفي (إبراهيم تسي) عام ١٩٣٧م، وقبل أن يكمل السابعة والأربعين من عمره.

٥. المؤرخ ورجل العلم والسياسة آيتك ناموتق (١٨٩٢-١٩٦٣):-



المؤرخ ورجل العلم والسياسة آيتك ناموتق

• نشأته ودراسته:-

ولد يوم ٦ كانون الثاني ١٨٩٢م في مقاطعة (الأديغي) في الوطن الأم، وأتم دراسته الثانوية في مدينة (ستافروبول) الروسية بامتياز، وأحرز ميدالية ذهبية لتفوقه في الدراسة على أقرانه، وفي عام ١٩١٦م أنهى دراسة الحقوق في جامعة (بترسبورغ) ثم التحق بجامعة (السوربون) في باريس بعد الهجرة إليها عام ١٩١٨م، وأتم دراسته فيها عام ١٩٢١م.

• خبراته العملية والسياسية في الوطن الأم في القفقاس:-

بعد إتمام دراسة الحقوق في جامعة بترسبورغ سجل في نقابة المحامين في تلك المدينة، وبقي فيها إلى ما بعد ثورة ١٩١٧م وأصبح ممثلاً لجمهورية شمال القفقاس المتحدة المؤقتة عند إنشائها عام ١٩١٧م، وفي نفس الوقت انتخبه (الحزب الديمقراطي المتحد) الذي كان ينتسب إليه ليكون عضواً في مجلس الجمهورية الروسية، غير أنه اضطر إلى ترك مدينة بترسبورغ بعد استيلاء الشيوعيين على الحكم عام ١٩١٧م وعاد إلى موطنه في القفقاس، واستمر في نشاطه الفعال للخدمة في وطنه الأم حيث عين حاكماً إدارياً لمنطقة الكوبان الشركسية في اتحاد جمهورية شمال القفقاس في عام ١٩١٨م، وفي نفس السنة سافر إلى باريس ممثلاً لبلاده في مؤتمر صلح (فرساي) واضطر للبقاء هناك بسبب احتلال الشيوعيين لأراضي جمهورية القفقاس عام ١٩٢٥م.

• خبراته ونشاطاته العلمية والسياسية في فرنسا وتتمثل في الأعمال والخبرات التالية:-

- أصبح عضواً في الجمعية اللغوية في جامعة السوربون بعد تخرجه منها.
- أسس عام ١٩٣٦م جمعية دراسات حوض البحر الأبيض المتوسط ونشر بالتعاون مع البروفيسور جورج دوموزيل ترجمة كتاب (القصص والأساطير الشركسية) إلى اللغة الفرنسية.
- أصدر في عام ١٩٣٩م كتابه "أصل الشركس" ويعتبر أفضل ما كتب حتى تاريخه في هذا الموضوع.
- تعاون مع العلماء المختصين بالدراسات القفقاسية، كما كان يكتب المقالات العديدة في المجالات الفرنسية والتركية عن بلاده وعن أمته الشركسية باللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية.
- شارك في تحرير المجلة العلمية الألمانية (انستيتوفور كونتننتال أوربانسين فورستويج) خلال الحرب العالمية الثانية، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أصبح رئيساً للجمعية الإسلامية التي أنشئت في ألمانيا، ولم يأل جهداً في تقديم المساعدة للمسيحيين والمسلمين من أخوانه القفقاسيين الذين هاجروا إلى ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية.

• خبراته ونشاطاته في تركيا:-

استمر في نشاطاته العلمية والقومية في تركيا بعد أن هاجر إليها عام ١٩٤٦م وساهم في نشر المقالات القومية في أكثر من مجلة بالرغم من القيود السياسية والثقافية التي كانت مفروضة على الشراكسة في تركيا خلال المرحلة التي انتقل للعيش فيها.

يعتبر (ناميتوق) من كبار رجال العلم والسياسة، وصاحب فكر قومي شركسي ومناضلاً جريئاً، وعالماً واسع الاطلاع، عمل بجد وإخلاص دون أن يعتريه التعب أو الملل في سبيل حرية القفقاس، ووضع علمه وخبرته ونشاطه طوال حياته في خدمة حرية مواطنيه واستقلال وطنه الأم.

٦. "الشاعر برتقوه مورات".

- ولد برتقوه مورات في ١٩١٢/٥/٥ في قرية بجلقواي الشركسية.
- التحق عام ١٩٢٥ بإحدى مدارس كراسنودار.
- في عام ١٩٣١ التحق بجامعة كراسنودار وبقي يتلقى العلم فيها لمدة ثلاث سنوات حيث انقطع عن دراسته.
- اشتغل في الصحافة (محرراً) في الأديغة مدة من الزمن.
- وفي عام ١٩٣٤ التحق بالجيش الأحمر وخدم فيه حتى عام ١٩٣٦ حين ترك الخدمة العسكرية لينصرف من جديد إلى عمله السابق في الصحافة.
- وعام ١٩٤١ حارب مع الروس في الحرب العالمية الثانية، وأبلى فيها بلاءً حسناً، ومنح عدة أوسمة وتقديراً لبطولاته وشجاعته.
- بعد انتهاء الحرب عاد يعمل في اللغة والأدب والفولكلور.
- من أهم آثاره الأدبية إصداره عدة دواوين شعرية حيث كانت أشعاره تمتاز بالحس الوطني والقومي الشركسي.
- قتل في حادث سيارة في أوائل شهر تموز ١٩٧٠.

٧. القاص "يوسف لوستن".

- ولد يوسف عام ١٩١٣ في قرية شحنكري حابلة، ودرس في مدرسة القرية كما درس في معهد الاقتصاد الزراعي في مدينة كراسنودار، ومن ثم في إحدى جامعات موسكو.
- عمل عدة سنوات في تحرير إحدى الجرائد وهو بحكم عمله هذا الذي مكّنه من الاختلاط بالعمال والتعرف على أعمالهم وطرق معيشتهم وبحكم ميلاده ونشأته في الريف أصبح ملماً بشؤون الريف الشركسي والروسي المأما كافياً.
- وكانت أولى القصص التي كتبها هي قصة "أمنية"، وخلال عامي ١٩٣٧-١٩٣٨ ألف رواية جديدة بعنوان "الطريق مفتوحة". وفي عام ١٩٤٠ كتب مسرحية "نالمس" كما أصدر عدة مؤلفات مأخوذة عن الفولكلور الشركسي.
- وفي أثناء الحرب العالمية الثانية عمل (يوسف) في الصحافة، ومنح وسامين لاشتراكه في الحرب، وفي عام ١٩٤٦ وبعد انتهاء الحرب ترك الجيش وعاد إلى (ميكوب) حيث أصدر رواية أخرى باللغتين الروسية والشركسية بعنوان "الجل يضيء". هذا بالإضافة إلى إصداره مجموعة أخرى من القصص الطويلة منها والقصيرة^(١٧).



الأديب والشاعر عليم كيشوكوف

٨. الأديب والشاعر "عليم كيشوكوف"

ولد عام ١٩١٤ في مدينة نالتشك، وترجمت مؤلفاته إلى الكثير من اللغات الأجنبية ومنح في عام ١٩٦٨ جائزة الدولة في الاتحاد السوفياتي لكتابه (القمم لا تنام) كما صدر أول ديوان لأشعاره عام ١٩٤١.

ومن أشهر رواياته (الحدود المهشمة) وقام بترجمتها الشاعر الروسي فلاديمير سولوجنين حيث طبع منها مائة ألف نسخة.

ووصف الكاتب الروسي (ميخائيل اليكسييف) الأديب عليم كيشوكوف وصفا رائعا حيث قال:

حينما تفكر بعليم كيشوكوف تلاحقك شخصية الفارس بالحاح، ولا يقتصر السبب على ان هذه الشخصية في كل مؤلفات الكاتب تقريبا، فهذا يمكن ايعازه إلى ابن الجبال المتوارثة. ولكن يجب ان نفهم شخصية الفارس في انتاج كيشوكوف على نحو اعمق واوسع وانه حركة ازلية جامحة، يعدو كعدو جواد اصيل يستحيل بدونها تصور الشاعر نفسه أو ابطاله الذين يسبغ عليهم الكاتب بتقة مكنونات افكاره^(١٨).

٩. "الشاعر البطل اندروخوي حسين"

ولد حسين في قرية شوجن حابلة/ حاكورنه حابله سابقا، عام ١٩٢١ واخذ عن والده خفة الظل وطيبة القلب وعن والدته ذكاءها وتعلقها بالأرض، تلقى علومه في مدرسه القرية، وفي مدرسة "مامكغ" ثم معهد المعلمين في الأديغي.

كان "حسين" ميالا إلى الادب ونظم الشعر منذ نعومة أظفاره، وظهرت باكورة إنتاجه الأدبي قبل أن يتجاوز عمره بعد الثالثة عشرة، وتولاه الشاعر الكبير "حققوه أحمد" برعايته وأخذ بيده، فاكسب منه مهارة الكتابة.

عمل في بداية حياته محررا للنشرة الثقافية الخاصة بالمعهد، ثم اشتغل في صحيفة "الأديغي" وعمل فيما بعد محررا في نشره المدرسة الحربية التي تلقى علومه العسكرية فيها قبل قيام الحرب العالمية الثانية.

ترك لنا "حسين" مجموعة قصائد، جمعت في كتاب صدر عام ١٩٤٦، ومجموعة قصائد أخرى جمعها له صديقه الشاعر "جان قرمز" كما ترجم مجموعة قصائد للشاعر الروسي فلاديمير ف. مايكوفسكي، بالإضافة إلى منشوراته الكثيرة في الصحف والمجلات.

كان (اندرخوي حسين) يتمنى الخدمة في صفوف الجيش، وتحققت امنيته عام ١٩٣٩ عندما دعي إلى التجنيد الاجباري، فالتحق بإحدى المدارس الحربية في البلاد وتلقى علومه العسكرية فيها بحماس واجتهاد، وتخرج منها ضابطا، وارسل إلى مدينة لينينكان "في ارمينيا".

في ٢٢ حزيران عام ١٩٤١ وعندما غزا النازيون الالمان بلاد القفقاس تقدم (حسين) مع فرقته لمقاتلة الالمان، وحارب بشجاعة وبسالة وقضى نحبه في الثامن من شهر تشرين الثاني عام ١٩٤١، وقررت رئاسة السوفيت الاعلى منحه لقب "بطل الاتحاد السوفيتي"^(١٩).

* رواد الفئة الثانية من الادباء الشركاسة في ظل حكم الشيوعيين في الاتحاد السوفيتي



الأديب حدا غالة اسكر

١. الشاعر "الأديب حدا غالة اسكر"

ولد (اسكر) في العشرين من شهر ايلول عام ١٩٢٢ في بلدة حاتقواي، وانهى دراسته الابتدائية فيها عام ١٩٣٤، وتابع دراسته فيما بين عامي ١٩٣٤-١٩٣٧ في مدرسة اداامي الاعدادية ثم انهى دراسته في معهد المعلمين (كلية الادب واللغة) عام ١٩٤٢.

التحق كبقية رفاقه بالجيش الروسي خلال الحرب العالمية الثانية، وعاد بعد انتهائها إلى ميكوب في عام ١٩٤٦، ليعمل رئيساً لقسم الادب والفولكلور في معهد البحث العلمي في الادبي.

وفي عام ١٩٤٨ اصدر باكورة انتاجه الادبي "اغنية القلب" كما اصدر عام ١٩٥٠ كتاباً جديداً بعنوان (الايام المجيدة) ثم قصيدة "كيف قرأت" عام ١٩٥٤، وملحمته "بلدي" في العام ذاته، وفي عام ١٩٥٦، أصدر قصته المشهورة "بنت الادبيغة" باللغتين الادبيغة والروسية.

يعمل (اسكر) بجهد متواصل منذ عام ١٩٤٦ في جمع الفولكلور في الادبيغة واعداده ونشره، وقد اصدر في هذا المجال مجموعة من القصص الشعبية، واعد ستة اجزاء من كتاب "اساطير النار".



الأديب اسحق مشباش يتسلم اعلى وسام في الأدب في روسيا الاتحادية من الرئيس فلاديمير بوتين

٢. الأديب والشاعر "مشباش اسحق"

ولد (اسحق) في قرية شحه شفع في منطقة ارمافير عام ١٩٣٠ وعاش طفولة قاسية يتيم الاب مع أربعة إخوة وأخت واحدة، كافحت والدتهم لتأمين لقمة العيش لأبنائها الصغار في ظروف صعبة إبان الحرب العالمية الثانية.

عمل مشباش رئيساً لإتحاد الكتاب والادباء في جمهورية الادبيغة وهو منصب احتفظ به لأكثر من (٣١) عاماً، وهو احد مستشاري رئيس الجمهورية في الادبيغة.

كتب أول ديوان شعر له عندما كان في السادسة عشرة من عمره بعنوان: (الناس الاقوياء) وتبلغ مؤلفاته اليوم أكثر من (٧٠) سبعين كتاباً ومجلداً، وقد حاز على جائزتين تقديريتين، الاولى على مستوى الاتحاد السوفيتي (سابقاً) والثانية على مستوى روسيا الاتحادية الحالية.

ومن اعماله المميزة، قيامه بالتعاون مع الاديب (كوشباي بشماف) والسيد (داود احمد لبزو) بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الشركسية الذي نشر عام ١٩٩١، وفي عام ١٩٩٣ نشرت له رواية باللغة الروسية ويقول ادبنا الكبير عن هذه الرواية بأنها تعريف بالقومية الشركسية وبالتاريخ الشركسي في الفترة ما بين عامي ١٨٣٠-١٨٦٤ حيث كانت نهاية الحروب الروسية / القوقازية وبداية التهجير الجماعي. والرواية تتحدث عن الشهداء والبطولات التي جرت في القفقاس، والكفاح من اجل الحرية والدفاع عن الوطن، وعن الاصابع التي كان لها دور في هذه الحرب سواء من داخل روسيا أو من خارجها كبولندا والمانيا وهنغاريا وفرنسا وانجلترا وتركيا.

ويقول (اسحق) بأن النظام السياسي السابق وان كان أمن ضرورات الحياة كالتعليم والرعاية الصحية والاجتماعية للناس، إلا أنه قيد حرية الكتاب والادباء لأنه كان عليهم ان يدينوا بأيديولوجية معينة، وإن استمرارية الكاتب منوطة باستمرار هويته القومية (٢٠).

وفي ٢٨/٥/٢٠٠١م: اصدر السيد الرئيس اعلان جازمة رئيس جمهورية الاديني قرارا بمنح الكاتب القومي الكبير اسحاق مشباش أرفع وسام في جمهورية الاديني، بمناسبة بلوغه السبعين من العمر، وذلك للأعمال الادبية الجليلة التي قام بها، ولخدماته القومية الكبيرة، وهذا وكان الكاتب قد سبق تكريمه بوسام الصداقة بين الشعوب، ووسام الميدالية الذهبية كمحارب من اجل السلام، وحصل على مواطن (شرف) في مدينة مايكوب (٢١).

٣. الاديب القاص ميخائيل لأخفينتسكي زكريا أجوق:



الاديب ميخائيل لأخفينتسكي زكريا أجوق

كاتب كبير له حوالي عشرين كتابا، قاتل ضمن القوات الروسية (السوفيتية) المسلحة في بلدان مختلفة مثل رومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا، ونال وسام الحرب الوطنية من الدرجة الأولى، وعلى أعلى الأوسمة من أسطول البحر الأسود، ومشاة البحرية وبعد تركه الجيش أكمل دراسته في كلية اللغة بتفليس وشغل منصب رئيس لفرع اتحاد الكتاب الجورجيين الذين يكتبون بالروسية، أما كتبه فله مجموعة قصصية (لقاء على الدروب) ونشر عام ١٩٥٥، وكتاب (طلقة بندقية في ميتخنا) و (دوي الرعد) وهي مترجمة إلى العربية طبع في دمشق.

٤. الباحث والاكاديمي حميد بن يحيى برتار:

ولد في ١٩٣١/٧/٩ تابع دراسته العليا في موسكو وفي كلية الصحافة، وتخرج منها عام ١٩٥٨، وحصل على الدكتوراه في التاريخ عام ١٩٧٠، وكان مستشاراً للأدب الشريكي في جامعة موسكو وهو شاعر بارز. ونشر أول قصائده عام ١٩٤٩ ومجموعته الشعرية (الفجر) هي أولى مجموعاته التي صدرت عام ١٩٥٧ ثم ديوان "حديث الربيع" عام ١٩٦٠، ومجموعته (شعاع الشمس) عام ١٩٦٥، ومجموعة أغنية المهد نشرت عام ١٩٧٥ ومجموعة (الحب الوحيد) نشرت عام ١٩٧٧ وله مسرحيات عديدة صدرت في كتاب المسرح وله كتاب عنوانه "إسلامي" ترجم إلى الروسية عام ١٩٦٥ كما قام بترجمة كتب من الروسية الشريكية أيضا.

٥. الباحث والناشط السياسي والاجتماعي والصحفي الناجح حافيتسه محمد موسابيفتش:

ولد يوم ٣٠ مارس عام ١٩٤٦م. في قرية زايبكوفو في جمهورية قبردينا - بلقاريا. وتخرج من جامعة قبردينا - بلقاريا الحكومية قسم اللغة الروسية - القبردينية في عام ١٩٧٠ فهو اديب وكاتب وله العديد من المؤلفات نذكر منها:

"ألمي - مركبي"، "النجوم في السماء وعلى الأرض"، "الحياة كلها على مرأى"، "المماليك الشراكية"، "الشراكية مشتتة في جميع أنحاء العالم"، "يوم النصر". وكذلك فهو صاحب التصنيفات: "يوري تيميركانوف"، "جبال زرقاء القوقاز"، "المصير واحد - الطريقة واحدة"، "فارس الشرف"، "الشراكية في إسرائيل"، "التراث" وأشرف على اعداد الموسوعة الشريكية الاكاديمية ويعتبر أول من اهتم بقضايا الشراكية، وله العديد من البحوث الصحفية عن هجرة الشراكية والمماليك الشراكية ونشر

في الصحائف والمجلات والمجموعات العلمية لشمال القوقاز، الشرق الأوسط وتركيا والمانيا وفرنسا والولايات المتحدة، فوجدت أعماله ترحيبا من مثقفي شراكسة الوطن الأم وفي بلاد الشتات.

زار (حفنسة) معظم بلدان العالم الذي يتواجد فيها شراكسة الشتات عامة وبالاخص امريكا، واليابان، والصين، والمانيا، وهولندا وفرنسا وانجلترا وتركيا، كما زار جميع الدول العربية التي يعيش فيها شراكسة الشتات.



الباحث حافيتسه محمد موسابيفتش

حاز محمد حافيتسه على العديد من الجوائز منها جائزة حكومية جمهورية قبردينا - بلقاريا، وجائزة وزارة الصحافة والاعلام وجائزة اتحاد الصحفيين لجمهورية قبردينا - بلقاريا، ومنح لقب "افضل صحفي العام".

وحصل أيضا على الميدالية الذهبية من الصندوق الروسي للسلام وميدالية السلام الذهبية الكبيرة من الصندوق الدولي للإمام شامل. لإسهامه الكبير في تطوير الثقافة الشركسية ودعم الروابط مع الشتات الشركسي كما حاز على جائزة "التميز" للصندوق الدولي الشركسي ومنح لقب المواطن الفخري لمدينة ستيلووتر الامريكية (اوكلاهوما). عضو في اتحاد الكتاب واتحاد الصحفيين في الاتحاد الروسي. كما منح وسام ابخازيا "الشرف والمجد".

وفي المجال النشاط السياسي والاجتماعي سبق ان تولى (حفنسة) منصب نائب رئيس المجلس الأعلى لجمهورية قبردينا بلقاريا، ورئاسة لجنة حماية السلام ورئاسة الاديغة خاصة في جمهورية كبادينا - بلقاريا وهي منظمة اهلية غير حكومية وهو الآن نائب رئيس الجمعية الشركسية العالمية وربما كان مجال الصحافة والاعلام اكثر المجالات التي ابدع فيها حفنسة حيث كان رئيس صحيفة "الحياة الجامعية" ومجلة "وجهة النظر" منذ عام ١٩٩٧ وحاليا فهو رئيس التحرير لصحيفة "أديغة بسالا" التابعة لبرلمان وحكومة جمهورية قبردينا - بلقاريا.

وكذلك فهو مؤسسة صحيفة "شركسيا في الخارج" ورئيس التحرير لمنشورات الرابطة الشركسية الدولية وصحيفة "نارت" ومجلة "العالم الشركسي".



تخاكوشينوف اصلان كيتوفتش

٦. تخاكوشينوف أصلان كيتوفتش

ولد يوم ١٢ يوليو عام ١٩٤٧ في قرية اولاب

وفي عام ١٩٩٣م. اسس وترأس معهد مايكوب الحكومي التكنولوجي واسمه حاليا جامعة مايكوب الحكومية التكنولوجية.

وفي عام ١٩٩٥م. في جامعة موسكو الحكومية على اسم م. ف لومونسوف دافع عن أطروحته للحصول على درجة دكتوراه في العلوم الاجتماعية.

نشر سلسلة من الدراسات أكثر من ١٠٠ دراسة علمية ووضع نظرية جديدة في "علم الاجتماع" والبرنامج التعليمي وهو علم اجتماع الأدب والثقافة".

انتخب مرارا نائبا في مجلس مدينة مايكوب وفي المجلس الأول الأعلى لجمهورية أديغيا، ثم عضوا في مجلس الدولة - خاسه. وترأس لجنة العلوم والتعليم والثقافة والشباب، ولجنة الشؤون الإنسانية في الجمهورية.

وفي يوم ١٣ ديسمبر ٢٠٠٦ منح برلمان جمهورية الأديغي في دورته الاستثنائية وبناء على اقتراح الرئيس الروسي فلاديمير بوتين سلطة رئيس الجمهورية الأديغي.

(٣) كتاب الفئة الثالثة وهم كتاب وادباء شراكسة روجوا للاديولوجية الشيوعية

يوجد في تاريخ الادباء قديما وحديثا فئة من الادباء الشراكسة الذين يسمون (ادباء السلطة) وهو ما حدث في عهد الشيوعيين، حيث ظهر عدد من كتاب الجيل الاصغر سنا، وأصبحت لهم شهرة كبيرة وإقبال على ترجمة مؤلفاتهم، لا لأنهم أدباء مبدعون في الأدب وفي فن الكتابة القصصية وإنما لقيامهم بتأليف قصص (منحازة) وحكايات موجهة من القيادات الشيوعية، وكانوا هم لسان حال الحزب الشيوعي وقيامهم بالدعاية للأفكار (البلشفية) في قالب قصصي، وللأمانة العلمية كان لا بد من إعطاء فكرة موجزة عن الانتاج الادبي لهؤلاء الادباء وهم:

١. "خ. ثيونوف" ولد سنة ١٩١٢ كاتب قصص، ولغوي وشاعر. وأولى قصصه اسمها (أهل الجبال) باللهجة القبردينية، وكتب هذه القصة بناء على امر خاص من زعماء (الكرملين) في موسكو وتبدأ حوادثها في القرية التي هي موطن المؤرخ واللغوي القبرديني المعروف باسم (شورا نوغموقة).

وأدى المؤلف المهمة التي كلف بها أداء ممتازا، وحقق رغبة الشيوعيين وبهجة (قبردينية) خالصة ولم يستخدم الكلمات والتعابير الروسية إلا عندما يضطر لنقل حديث شركسي يحاول ان يتكلم بالروسية المكسرة.

وركز في قصته السياسية الطويلة على القضايا السلبية في تاريخ الشراكسة والقوقازين التي رغب الشيوعيون ابرازها في قصته (المأجورة) وأهم القضايا السلبية في قصته هي:

- خيانة كثيرين من أمراء الشراكسة ودخولهم في احلاف مع التتار وتركيا في الوقت الذي دافع فيه شعب القبردي عن أرضه بشجاعة.
- الادعاء بدور الروس في حماية الشراكسة من الاتراك وأهل القرم، كما أبرز نشاط عملاء انجلترا وفرنسا وتركيا وايران مع ذكر اسماء اهم العملاء والجواسيس.
- الاهتمام (بالميريديية) كحركة دينية في الداغستان، إلا أنه ينتقد غزوات الشيخ شامل وحروبه ضد الروس.
- اتهام القوميات القوقازية المقاومة للشيوعية مثل: الشيشان، والانجوش، والقراشي، ويدافع عن سياسة تهجيرهم، باعتبارهم اقوام جلبت المصائب على الشعوب والقوميات الاخرى في القفقاس، ويحاول تبرير قيام (البلاشفة) بتصفيتهم وإبادتهم جماعية وتشيتت من بقي منهم حيا إلى مجاهل روسيا ومناطقها النائية.

٢. "اسكر ايفتخ Asker Evtykh وهو مؤلف لعدد من القصص والحكايات مثل (اخي الاكبر)، (ومهمة ممتازة)، و(باسيبا أول Psyba Awl)، (وفي قريتنا). وكتبها باللغة الشركسية المنمقة، بل وترجمت إلى الروسية عام (١٩٥٣) ونشرت في المجلة الادبية السوفياتية (العالم الجديد). وتعتبر هذه القصة نموذجا من الأدب المنشور في المناطق والجمهوريات غير الروسية في الاتحاد السوفياتي، وتصف هذه القصة الحياة في إحدى القرى في منطقة الحكم الذاتي في الأديغي بعد الحرب العالمية الثانية، وبطل القصة اسمه (رمضان). وملخصها قيام رئيس إحدى الكولخوزات بالمفاخرة بأن كثيرين لا يجدون الخبز الكافي في الولايات المتحدة الامريكية بينما يوجد خبز كثير في كولخوز. ولا يشكو أحد من نقصه. كما تتحدث القصة عن مفهوم "مساعدة الأخ الأكبر" لإخوانه

الاصغر منه بصورة مجردة عن الانانية (والمقصود بالأخ الاصغر هم الشعوب غير الروسية)، وتعزز القصة عموماً التطرف الوطني الروسي كما صورتها ملاحظة بطل القصة (رمضان).

ولقي هذا العمل الأدبي قبولاً حسناً من النقاد السوفييات، الأمر الذي أدى لترجمته للروسية بتفاصيل دقيقة كثيرة، تعبر عن دور المجتمع الشيوعي تجاه ما يقدمه للمجتمع الشركسي في ظل الحكم الشيوعي.

٣. "تسوغ تيوشيش Tsug Teuchesh"

واعتبره الشيوعيون واحداً من اعظم القصاصين البروليتاريين في منطقة الأديغي، وأملى قصائد موجهة إلى "ستالين" على سكرتيره الشخصي (م. قسطنوف) لأن (تيوشيش) نفسه كان امياً واحد الرعاة البسطاء في القرية، ولم يعرف القراءة والكتابة. ولكنه ككثير من كبار السن في القفقاس كان يتقن سرد القصص بمهارة فائقة، إلا أن جميع اعمال (تيو شيخ) كتبت بناء على تعليمات قادة الحزب الشيوعي من الشراكسة. (١١)

٤. الأديب والروائي تمبوت قراشيف:

صدر تحت إشرافه كتاب "الأغاني الشركسية القديمة" وكتاب الموروث والأغاني الشركسية وكان من المهتمين بقصص النار القديمة وله قصص تاريخية، ويبدو في كتاباته أنه ذو نزعة روسية ومن قصصه في زمن ستالين العاصفة، مهداة لتحرير المرأة من الشريعة وله قصة طريق السعادة وترجمت إلى الروسية عام ١٩٤٨، والكتاب منح جائزة ستالين من الدرجة الأولى.

كما ظهر في نفس الفترة قضاة ورجال دين من الشراكسة الذين أحيوا الدين الإسلامي في عهد جمهوريات شمال القفقاس (الجبالية) حيث تشكلت في هذه الجمهورية الجمعية الدينية الإسلامية ضمت ممثلي (٢٥٠) من رجال العلم والدين والائمة من جميع القبائل الشركسية في الوطن الأم، وعقدت هذه الجمعية خلال الاعوام من ١٩٢٠-١٩٢٥ خمس مؤتمرات بهدف الدعوة إلى الدين الإسلامي الحنيف وكذلك الاتفاق على أداء العبادات الدينية من غير اختلاف، وفي المؤتمر الخامس والآخر فئة العلماء للمسلمين الذين حضروه ادعاءات المشايخ القدامى وأكاديبهم الملفقة وأدرك الشعب الشركسي عامة أنهم ليسوا على شيء من الدين.

وفي ختام المؤتمر أجابوا على خمسة عشر تساؤلاً دينياً بالاستناد إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة.

وفي عام ١٩٢٦ نشرت الجمعية الدينية المذكورة خلاصة ما توصل إليه علماء الدين من إفتاء وتفسير وتفتيح للخمس عشرة موضوعاً المطروحة للنقاش والإجابة عن كل تساؤل من الكتاب والسنة.

وفيما يلي أسماء القضاة والمشايخ الذين نظموا المؤتمرات الدينية الخمسة سابقة الذكر وهم:

١- القاضي زابت أفندي الإدريس	٢- القاضي إبراهيم أفندي البرنقوي
٣- من الأفندية جانخوت الحاتقوي	٤- القاضي حاجبكر الوطى
٥- القاضي إدريس الدولي	٦- القاضي محمد الصومني
٧- القاضي مصوست النابوقي	٨- القاضي نوح المرتقوي
٩- من الكتاب يعقوب الخوادي	١٠- من الكتاب أحمد النابوقي
١١- القاضي اسميل القود إينيت	١٢- من المندوبين مجيد الحاتقوي
١٣- القاضي غورظ الحاج الشمغوي	١٤- القاضي شق غبلظقو
١٥- القاضي حاتقوظمقو ادمي	١٦- القاضي كاتب الجوبطي
١٧- القاضي يدج النقي.	

الفصل السابع

الرواد الأوائل من كتاب الاغنية والمغنين والملحنين والابطال الرياضيين في ظل الحكم الشيوعي في الاتحاد السوفيتي وروسيا الاتحادية

أولاً: الرواد الأوائل من كتاب الاغنية والشعر والمغنين الشراكسة المعاصرين في الوطن الأم في ظل الحكم الشيوعي وروسيا الاتحادية

ظهر منذ مطلع القرن العشرين العديد من الكتاب والمؤلفين والملحنين والمغنين المحترفين منهم:

- **اميرخان حي وباشا** Amirxan Hex'wpasche الذي لحن (اغنية لينين) عام ١٩٢٤ بمناسبة وفاة لينين، كما نظم قصيدتين غنائيتين تعبيريتين هما: (كن صادقاً مثل كلمتك) و (اغنية الكولخوز) عام ١٩٧٧ وقُلد أعلى وسام سوفيتي وهو وسام لينين.

- **يندريس قزهر** Yhdhis Qezher ألف أغنيته المشهورة بعنوان (مارجة - مارجة - Marzhe - Marzhe Qerahelha) وتعني بهذه الاغنية بالنظام الشيوعي الجديد واعتبر ببطال قالمق بطلا وطنياً.

- **حسن قاردن** Hasen Qarden له أغاني مشهورة، وهو ملحن موسيقى بارع وفضل من تخصص في الاغاني الوصفية الغنائية مثل (نور الصداقة) وهو ملحن للعزف المنفرد والاوركسترا، وعرض في موسكو يوم ١٩٥٧/٦/٢٠ بمناسبة مرور (٤٠٠) عام على انضمام امراء كباردا (القبرطاي) طوعا مع روسيا ومؤلف نشيد (بلادي) ايضا وكاتب قصيدة (خالدة) والقيت في ذكرى وفاة لينين، بالاضافة إلى كتابة قصيدة بعنوان (جمهورية).

- **زالمخان ديشك** Zalimxa'an Dischek

صاحب اغنية (طريق المجد) وغناها بمناسبة مرور اربعمئة عام على الانضمام (الطوعي) لامراء القبرطاي من شراكسة الشرق إلى روسيا عام ١٥٥٧ وفي عهد ايفان الرهيب، ومنح وسام العمل البطولي من رئيس مجلس السوفيات الأعلى. كما ألف أغنيته المشهورة (لازم الشباب الآخرين بنظراتك) وما زالت هذه الاغنية مشهورة بين الشعوب الشركسية في الوطن الأم حتى اليوم.

- **عمر تحبسيم** Umar Tahpsemove

يعتبر من المغنين التقليديين الذي امتدت شهرته خارج القفقاس، ووصلت إلى جميع جاليات الشتات. ومن أشهر أغانيه: عينك، كتبها بالاشتراك مع (زحانا zhane) وهل (اسمك ميدين؟) كتبها ليوان غوبشوفوف عام ١٩٦٢، والأغنية الشعبية الرقيقة "أغنية القلب" شارك في كتابتها (زحانا).

- **فلاديمير برغون** Vladimir Bercghwn

ويعتبر من أفضل المغنين في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي وهو صاحب صوت أوبري قوي ملائم أكثر للأناشيد القديمة. وأداؤه العاطفي في أغنية قدامى النارتين استشعار للأحاسيس الوطنية. وفي (أغنية بلادي)، يستنهض بطولة أمير محارب من القرن السابع عشر. ونسخته من "سيي فاكا" الساخرة تعتبر إحدى أفضل ألحانه الموسيقية ويحظى باعتراف عالمي.

- **حسين ميراميقو Husien Miramiqua** يتمتع بصوت قوي، لكنه صوت قيثاري يلائم تقديم أغاني تحتاج حنجرة قوية مثل اغنية (Xehw - خاصة) ومعناها (الوطن)، و "أغنية القلب"، وكتب كلماتها عمر تجسم وآخرون.
- **زاور توتوف**، وهو مغني اوبرا وكُرّم من حكومة روسيا الاتحادية مؤخرًا.
- * **كاتبات الأغاني والمؤلفات والملحنات والمغنيات الشركسيات في الوطن الام:**
اشتهرت بعض المغنيات الشركسيات في الوطن الام بكتاباته الاغاني والتلحين والغناء نذكر منهن كل من:
- **فالنتينا سوسماق Valentina Sosmaq** لها العديد من الاغنيات التقليدية وهي من المغنيات المعاصرات.
- **كوراتس قانشيرغا K'wartze Qashirghe** من مواليد ١٩٠١ وكانت موسيقارة مشهورة والفت اغاني عديدة مثل (رقصة الحب)، و(رقصة البارتران).. كما لحنّت عام ١٩٥٠ اغنية على شرف الكاتب الكبير (علي شوجن تسوك).
- **الفنانة تمارا نفي**، تحتل الفنانة الموهوبة (تمارا) مكانة كبيرة في قلوب الكثيرين من الشراكسة في القفقاس، والشراكسة الموجودين خارج القفقاس ايضا، واستطاعت هذه الفنانة الناشئة خلال مدة قصيرة، ان تكسب تقدير المستمعين واعجابهم بفنّها الرفيع، وصوتها العاطفي القوي، الذي يتميز مع المشاعر الانسانية النبيلة، وجمال صوتها ليس له مثيل حسب رأي (مخوص روسلان) بقوله للفنانة تمارا: "إنك أصبحت ذات شهرة رائعة"، فأجابت إن هذا القول سابق لأوانه، حيث لا يوجد لدي إلا القليل من الانتاج، وأردفت تقول: أنا، أرى نفسي مدينة لهذا الشعب الكريم، ولا يمكنني ان أوفيه حقه مهما عملت، هكذا قالت تمارا بذكاء شديد، واحترام كبير لقومها بعيدا عن الكبرياء والترفع، فهي تتحاشى الرياء في أغانيها، وتبتعد عن الاغنيات المبتذلة، ولم تقم بعمل إلا اتقنته وأكملته، ويقال إنها خلقت وبفهمها الغناء، كما كانت والدتها تجيد الغناء ايضا، وكانت تقلدها في أول حياتها الفنية، كما كانت هي الدافعة الحقيقية للسير في اتجاه الفن، كما ان وجودها في (مايكوب)، كمعلمة في أحد المعاهد ساهم في احتراف تلك المهنة.
- **مغنية الاوبرا المشهورة ناتشا غيتاشا Natasha, Ghestashe**
تعتبر (ناتشا) اعظم فنانة اوبرا في بلاد القبرطاي وهي الحائزة على لقب فنانة الشعب، في جمهورية روسيا الاتحادية السوفياتية الاشتراكية. كما سجلت العديد من الأغنيات الشركسية والروسية التقليدية، ومن اشهر اغانيها Adige naqme بمعنى اللحن الشركسي أو النغمة الشركسية.

ثانيا: الرواد الاوائل من الملحنين والعازفين على مختلف الالات الموسيقية من شراكسة الوطن الأم في ظل الحكم الشيوعي في الاتحاد السوفيتي.

تطور الموسيقى الشركسية:

تطورت الموسيقى الشركسية، واصبحت في مستوى الموسيقى الكلاسيكية الغربية منذ العقد الثالث من القرن العشرين وعلى النحو التالي:

ففي عام ١٩٣٦، وضع أرسيني آر. أبراموف لحنين هما: "قافا" و "إسلامي" لأوركسترا سيمفونية و "المسيرة الكباردنية" الشهيرة. وكانت هذه الأعمال ذات طبيعة بدائية؛ إذ لم يكن العمل السيمفوني قد تطور بعد كما يجب.

وفي الاعوام ما بين ١٩٣٦ - ١٩٣٩ لحن أبراموف ايضا ثلاثة قصائد للكاتب الشركسي العظيم علي شوجن تسوك Ali Schojentsik^(٤).

حدث تطور كبير على مقطوعة (ابراموف) السيمفونية، المؤلفة لمسرحية (أسكيري شورتان) و(قرية باتير). وفي عام ١٩٤٦، ألف (بارفوزوف) مقطوعة سيمفونية من ثلاثة أجزاء، مستندة إلى الرقصات الثلاث (قافا، إسلامي، وويج) والتزمت تماما بالموسيقى الأصلية، وفي الذكرى الثلاثين لتأسيس جمهورية قباردينا بلقاريا، كتب نيقولا بايكو، مقدمة السعادة حول مواضيع في (القباردي) وقد عرضت أول مرة في نالتشيك بقيادة (إيم، إس، أيكاريان).

في صيف عام ١٩٤٢ وخلال الحرب العالمية الثانية قررت الحكومة السوفياتية نقل بعض أفضل موسيقييها وممثليها وفنانينها وأساتذتها من موسكو إلى جمهورية (كاباردا) وكان من بين الموسيقيين: بروكوفيف، ومياكوفسكي، ونيتشايف، و إليكسندروف.

وفي كابارديا تحديدا، احتك (بروكوفيف) بالموسيقى الشعبية الشركسية وأعجب بها، وقال بأن "الرقصات والأغاني الكاباردينية (منجم ذهب للمادة الموسيقية) وقد أثبتت إقامة (بروكوفيف) المؤقتة في كاباردا، أنها منتجة إلى ابعد الحدود، إذ ألف مجموعته الرباعية حول (مواضيع كاباردينية) في نالتشيك عام ١٩٤٢ مستخدما الأنغام الموسيقية الشعبية الشركسية منذ القدم، ونال إعجاب الجماهير، ولاقى نجاحاً فورياً عندما عُرض لأول مرة في رباعية بيتهوفن الشهيرة، في موسكو، يوم الخامس من أيلول ١٩٤٢.

استغل رئيس مديرية الفنون في كاباردا، هيتوتايمرقان المعروف باسم (تيمرقانوف)، استغل فرصة اقامة الموسيقيين الروس المؤقتة في بلاده، لوضع الموسيقى الشركسية على طريق المجد، وقد كلفه (بروكوفيف) القيام بعمل موسيقي (وكان الأخير يشكك في مقدرة الموسيقيين المحليين القيام بمثل هذا العمل). فرد عليه هيتو: "أكتب بما تراه. فإن لم نفهم ذلك الآن، فسنستعلم كيف نبقيه في الذهن مستقبلا". وقد قابل نجله (بروكوفيف) خلال زيارات الموسيقى الكبير العديدة لبيت والده. وكان لا بد لتلك اللقاءات ان تترك اثارا لا تمحى على الصبي اليافع، الذي أصبح فيما بعد واحدا من أعظم قادة التأليف الموسيقي في النصف الثاني من القرن العشرين.

في عام ١٩٤٢ أيضا، كتب (بروكوفيف) أغنية بعنوان "ابن كاباردا" كما ألف (نيتشايف) لحنًا سباعيا قائما على مواضيع شركسية، وكتب عازف البيانو السوفياتي الشهير (غولدينفايزر) ست أغاني ومقطوعات موسيقية مستندة إلى ألحان كاباردينية وبلقارية.

وفي عام ١٩٤٣ تأسست مدرسة أوبرا في جمهورية (كاباردينو - بلقاريا) وهي مدرسة حكومية مقرها كان في نالتشك عاصمة الجمهورية.

وفي عام ١٩٤٦ أصبحت مدرسة الاوبرا الشركسية جزءاً من معهد لينغراد للموسيقى.

وفي عام ١٩٥٠ تخرج الفوج الاول من المغنين والموسيقيين وقادة الاوركسترا والمؤلفين الشراكسة، من معهد الاوبرا، وتجولوا في المدن الرئيسية لجمهورية كاباردينا، وقدموا عروضاً لمقطوعات-عالمية لكل من موزارت وكورسكوف وغيرهما.

وفي عام ١٩٥٥ وضع الموسيقار (اسفيرديمنان Esfir Dimenman) الحاناً لأربع اغاني شركسية نظم كلماتها الشاعر الشركسي عليم كيشوكوف^(٥) وفي عام ١٩٥٦، افتتحت كلية للموسيقى في نالتشيك تدرس فيها إدارة كورال، وموسيقى (صوتية) وبيانو، واقسام الات الموسيقى الشعبية.

وفي عام ١٩٥٩ كتب (محي الدين. ف، بالا) مقطوعة موسيقية من ثلاثة أجزاء بعنوان "قزبرون (Qizbrun) بالاستناد إلى مسرحية تحمل الاسم نفسه، وقامت بعرضها على مسرح فرقة كاباردينا المسرحية.

وفي عام ١٩٦٠ افتتحت كلية كبادرينو بلقاريا التعليمية الثقافية - وضمت اقسام الكورال والآلات الموسيقية التقليدية والفنون المسرحية.

وفي مطلع عقد الستينات من القرن العشرين، انتشرت مدارس الموسيقى في العديد من البلدات والقرى الكابردينية، والتحق فيها الأطفال في سن السادسة للدراسة لمدة سبع سنوات، وعند اتمام هذه المرحلة كان يُخير التلميذ لمتابعة دراسة الموسيقى في المدارس الثانوية للموسيقى. كما يستطيع المبرزون منهم الالتحاق بالمدارس الداخلية في المعهد الموسيقي حيث كانت الدراسة فيها عشر سنوات.

وفي أواخر الستينيات، تشكل اتحاد المؤلفين الموسيقيين في كاباردينو - بلقاريا لرعاية مصالح العدد المتزايد من الموسيقيين المختصين.

وفي عام ١٩٦٨، فاز "بالا" بالمرتبة الثانية في المسابقة الوطنية الثانية لقادة الفرق الموسيقية. وبعد سنة من ذلك، عين مديرا موسيقي لسيمفونية ليننغراد، وبفضل إسهامه الجوهري في فن الموسيقى، أنعم عليه مجلس السوفيات الأعلى في جمهورية كاباردينو - بالكاريا ذات الحكم الذاتي، لقب فنان الشعب في الجمهورية عام ١٩٧٣.

وفي عام ١٩٧٧، أصبح (تيمرقانوف)، المدير الفني، وكبير قادة اوبرا كيروف، وفي عام ١٩٨٠ كان الضيف الرئيس، على الاوركسترا الفيلهارمونية الملكية في لندن، ثم عين عام ١٩٩٢ المدير الرئيسي لاوركسترا سانت بطرسبرغ (ليننغراد سابقا) الموسيقية، خلفا (لأندية بريفين)، وقد اعتبر العديد من أعماله الموسيقية في مستوى الموسيقى العالمية.

* الرواد الموسيقيون وقادة الاوركسترا والملحنون الاوائل من شراكسة الوطن الام في عهد الاتحاد السوفيتي

يعتبر أرسيني م. أبراموف (Arseni M. Abraamove) (١٨٨٦-١٩٤٤): الذي ولد في نوفو تشيركيسك، رائد الموسيقى الشركسية. وفي عام ١٩٢٢، ذهب إلى بلاد كاباردا القبرطاي واهتم بدراسة الاغاني الشركسية الشعبية وجمع منها حوالي (٣٠٠) لحن ونغمة في حياته. واشتغل سنوات عديدة على اعداد كتاب عن الموسيقى الشعبية الكاباردينية الشركسية ولكنه توفي قبل ان يصدره.

• تروفور، ك. شايبلر (Truvor K. Shebler) (١٩٠٠-١٩٦٠): ولد في ريغا، (Riga) عام ١٩٣٩ ورحل إلى جمهورية كاباردا، وأمضى فيها السنوات العشرين التالية من عمره مشغلا بجد واجتهاد على تطوير الموسيقى الشركسية الكلاسيكية، ووضع المشهد السيمفوني (Adeywx) شركسي الأصل عام ١٩٤٨، والف اوبرا - باليه، الناريتين (The narts) عام ١٩٥٦ / ١٩٥٧، التي كتب كلماتها بيبال كوش (Betal Kuesh) وتألف هذا العمل من خمسة عشر وزنا موسيقيا، وكان أبطالها الرئيسون هم سوسريفوف، وباتيريز، واشيميز، وساتاناي، وعرضت على المسرح الكبير في موسكو في الأول من تموز ١٩٥٧.

• محي الدين ف. بالا: (Muhedin F. Bake) ولد عام ١٩٢٣، في قرية (كينجا) في جمهورية كاباردينو وأرسل لدراسة الموسيقى مع مجموعة الشباب والشابات الشركسيات إلى معهد ليننغراد للموسيقى عام ١٩٤٦ ودرس التأليف الموسيقي على يدي (يوري كوتشيبوروف) لمدة اربع سنوات تقريبا. وكتب (بالا) حوالي (٢٠٠) اغنية، وقصيدة رومانسية. كما ألف قطعاً موسيقية منها (بينمت Benemet وقيسبوليت Gesblat) وهي مقطوعة سيمفونية مكونة من ثلاثة اجزاء قدمها عام ١٩٦٠ كما ألف خمس رقصات سيمفونية بالاستناد إلى ألحان (القبردي، واديغي، وشركسيا، وبلقاريا، وقراشي، عام ١٩٦١، وقصيدة كاباردينو) بالقاريا السيمفونية، عام ١٩٦١، ولعلها أفضل أعماله بالإضافة لموسيقى مسرحية ميديين عام ١٩٦١، والمشهد السيمفوني (سهول أرجودان)، في عام ١٩٦١ ايضا.

• عمر تحبسم من مواليد كوش حابلة عام ١٩١٩م، وهو ملحن بارع ومن أهم أعماله الفنية الكثيرة وهو السلام الوطني لجمهورية الاديجي، وله ألحان لأغاني عديدة منها: أمي الجميلة، والعروس الشركسية.

• **حسن قاردن (١٩٢٣) ولد في بلدة (شيجيم) الاولى في جمهورية كبادردا، ودرس في معهد لينينغراد للموسيقى وتخصص في الأصوات الغنائية والتأليف الموسيقي. وتخرج عام ١٩٥٤. وكان (قاردن) مؤلفا موسيقي كبيرا وعمل على تأليف مختلف أنواع الموسيقى الكلاسيكية بما فيها الأوبرا. ومن أفضل أعماله هو "داخل الوطن"، وهي مقطوعات للأوركسترا السيمفونية، تسمى (شركس Sharjes) عام (١٩٥٧)؛ مقدمة للفرح التي تضم مواضيع كبادردينية وبالقارية؛ ومقطوعة للبيانو والأوركسترا، وثلاث مقطوعات سيمفونية راقصة عام (١٩٦٠)؛ و"جمهوريةتي"؛ و"قصيدة سيمفونية"؛ و "المساء في القرية"، وهي (فانتازيا) سيمفونية عام (١٩٦١).**

• **يوري تيمرقان - Yori . Temirkanov** وهو من عائلة تيمرقان المنتمية إلى قبائل القبرطاي، ولد عام ١٩٣٨ في قرية (زرغش) من قرى جمهورية كبادردينا - بلقاريا (الشركسية).

بدأت رحلته مع الفن في معهد الموسيقى (بنالتشك) حيث أتم دراسته بعد أربع سنوات متخصصا بالكمان، ثم انتقل إلى (لينينغراد) ليكمل تعليمه الموسيقي وحصل على الكونسرفتوار متخصصا بالاورغ ومايسترو، ونظرا لنموه واتقانه لفن الموسيقى رشح لنيل درجة الدكتوراه مع تنسيبه لقيادة الفرق الموسيقية.

في عام ١٩٦٨ وقبل ان يتم دراسته اشترك في مسابقة ضمت قادة الفرق الموسيقية الكبرى وحصل على المرتبة الاولى، وكان عمره آنذاك ستة وعشرين سنة، بعد هذا الفوز دعتة فرقة لينينغراد ليتسلم منصب كبير الفرق الموسيقية، وبقي يعمل هناك إلى ان حصل على درجة الدكتوراه.

في عام ١٩٧٦، وجهت إليه دعوة لقيادة فرقة الاوبرا والبالية اللينينغرافية التي اسست في زمن القيصرية وتعد من اقوى الفرق الموسيقية الاوروبية.

يتقن هذا الفنان العزف على اثنتي عشرة آلة موسيقية مختلفة، ويحفظ عن ظهر قلب احدى وعشرين اوبرا وبالية كلاسيكية لاشهر موسيقي العالم كبتوفن، وفردي وفاغنز وشوبان وشتراوس وغيرهم. وبلغ عدد العازفين في فرقته اكثر من ٢٠٠ عازف كما تضم الاوركسترا ٥٦ استاذًا بالموسيقى وكان راتبه الشهري عام ١٩٧٧ (١٥٠٠) روبل أي ما يوازي راتب وزير الخارجية والدفاع الروسي وكان راتبه اعلى راتب في العهد الشيوعي.

قاد هذا الفنان الفرق في كبريات المدن السوفيتية. كما وجهت له (الملكة اليزابث) الدعوة لقيادة الاوركسترا الملكية البريطانية، كما دُعي لأمريكا اثنتي عشرة مرة، ولبريطانيا خمس مرات، وفرنسا عشر مرات، وللسويد ثلاث مرات، اضافة لدعوته من قبل كل من المانيا الشرقية، والغربية، وبلجيكا، والدانمارك. وفي استفتاء لجريدة "الفيجارو الفرنسية" عن أفضل قادة الفرق الموسيقية في العالم جاء ترتيبه الثالث. وكان يشغل منصب بروفييسور كونسر فتوار في لينينغراد.

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن عائلة "تيمرقان" هي عائلة موسيقيين وفنانين متميزين، فشقيقة (تيمر تيمرقان) عمل في منصب رئيس مجمع الفنانين في جمهورية قبردينا بلقاريا، أما شقيقه الاصغر فعمل كمايسترو فرقة (نالتشك) للموسيقى الكلاسيكية^(٧).

• **اصلان على داويفا Aslan Dawrova**

ولد يوم ١٩٤٠/٧/٢٤ وتوفي يوم ١٩٩٩/٣/٨ وهو من جمهورية تشركسيا قراشي، ولقب (بالشاعر الموسيقي المعلم العظيم) وتقديرا لتفوقه وابداعه في الشعر والموسيقى فقد تقرر في المؤتمر الدولي الخامس للجمعيات الشركسية العالمية المنعقد في مدينة نالتشك عاصمة جمهورية كبادردينا / بلقاريا يوم ٢٠٠٠/٧/٢٨ تقديم المساعدة لإقامة تمثال له امام مبنى نقابة الفنون في مدينة شركسيا وكذلك تغيير اسم شارع النقابة والفنون في نالتشك إلى اسم الشاعر والموسيقي الكبير (اصلان علي داويفا)^(٨)

* فلاديمير مولا (Valdimir Mola)

وهو من الموسيقيين المعاصرين من شراكسة جمهورية القبردي والف كونسرت على الفلوت (النخية) وفي عام ١٩٧٤ وبمناسبة انعقاد المؤتمر الثالث لاتحاد الموسيقيين في روسيا الفيدرالية؛ قدم باليه، "فكرة الجبل".

* جبريل حيوية Jebrael Hewpe وألف أولى سيمفونياته أوائل السبعينيات

* أصلان داوروف Aslane Daurov ألف، في عام ١٩٤٠ الالحن الشعبية الشركسية، التي اعدت لتعزف على أربع آلات وترية (أو أربعة أصوات)، منها: ((رابسودي شركسي))، والمسلسل الغنائي "تيار الجبل"^(٩).

ثالثاً: عظماء الرياضة في الوطن الأم منذ القدم وابطالها الأولمبيين والعالميين في ظل الحكم الشيوعي في الاتحاد السوفيتي وروسيا الاتحادية

ربما كان من أبرز عظماء الرياضة في الوطن الأم هي بطلة المصارعة (لاشينقاي)، البطلة الأسطورية التي صرعت أقوى مصارعي خانات القرم

والبطلة هي من عائلة شركسية عاشت في منطقة القبرطاي في القرن السابع عشر الميلادي، وكانت تتمتع بقوة خارقة، تمكنها من التغلب على أقوى الرجال أكثرهم مهارة في المصارعة، وتقول أكثر من رواية من الروايات التاريخية الشركسية في هذه المرحلة عن قوتها الخارقة، وشهرتها في فن المصارعة وازدادت أكثر شهرة، واعتبرت بطلة قومية في عصرها بعد أن تمكنت من التغلب على أقوى مصارع في دولة (خانات القرم) واسمه (قيسين) ويمكن تلخيص أحداث هذه الواقعة على النحو التالي:-

عندما اقترب خان التتر - كيتان خان - من بلاد (الأديغة) وانتشر خبر انتصاراته، تنادى السكان الشراكسة إلى حمل السلاح والاستعداد للقتال لصد المعتدين من جيوش (خان التتر) إلا أن قائدهم غير رأيه وأرسل رسلاً إلى أمراء (الأديغة) قائلاً: "ليس الغرض من قدومي إلى بلادكم محاربتكم والاستيلاء على بلادكم بل الشوق إلى معرفتكم عن قرب ورؤيتكم وجهاً لوجه، وإنني لا أريد أن أكون عدوكم بل صديقكم لما سمعته عن شجاعتكم الفائقة، وقوة جيشكم العظيم، وفروسيكم المنقطعة النظير، وما تستحقون عليه من المديح والثناء"، واقترح على أمراء (الأديغة) انتخاب أقوى مصارع لدى الشراكسة في بلاد (الأديغة) لمنازلة أقوى مصارع لدى خان التتر (كيتان خان) كما أرسل مع رسله الشروط التالية:-

"إذا تغلب بطلنا على بطلكم وجب عليكم أن تعتبروا أنفسكم مغلوبين ولا يحق لكم الامتناع عن دفع الجزية، وإذا كان النصر حليف بطلكم فسنكون نحن المغلوبين، فندفع كل ما يجب علينا دفعه، وسوف نقبل بكل خدمة تلزموننا بها ونخدمكم كسادة لنا".

قبل أمراء (الأديغة) بهذه الشروط واختاروا بطلة اسمها (لاشينقاي) لمنازلة بطل التتر، فلما اجتمعت الجموع وازدحمت جماهير النظارة من الفريقين بدأت المصارعة ودامت أكثر من ساعة، ولكن الدائرة دارت على بطل خان (قيسين) وكان الفوز للبطلة (لاشينقاي)، فاكفهر وجه (الخان) وتغيرت ملامحه، إلا أنه كظم غيظه، واعترف بأنه غلب على أمره وهنا (الأديغة) بفوز بطلهم، دون أن يعلم بأنها امرأة وليس رجلاً، ولما اكتشف سر بطلهم وأنه لم يكن سوى (امرأة) تلبس ملابس الرجال، ازداد حزناً وشعر بالإهانة الكبيرة لبطل أبطال خانات القرم (قيسين).

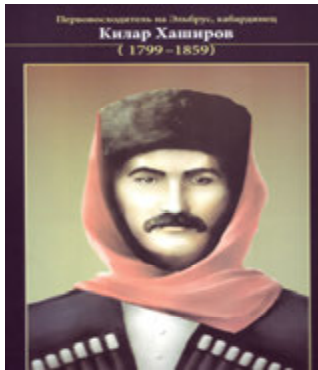
وطلب أمراء (الأديغة) من (الخان) أن ينتخب من جيشه الذي يعتز به بطلاً آخر إذا أراد أن يختبر قوة رجالهم، فرفض (الخان) واكتفى بما حدث، وقال:- "إن امرأة عادية تغلبت على أقوى أبطالنا الذي كنا نعتمد عليه، سأوفي بوعدى وأنفذ الشروط التي وضعتها بنفسى قبل البدء بالمصارعة"، ثم انصرف الخان مع جيشه ورجع إلى بلاده فوراً.

وتشير الرواية بأن هذه المنازلة جرت في موقع بالقرب من نهر "شكم" والموقع معروف حتى الآن باسم "شاشنسكايا".



صورة تمثل لحظة انتصار المصارعة الشركسية (لاشنيقي) على قيسين أقوى مصارعي جيش خانات القرم التي جرت في موقع بالقرب من (شكم) في بلاد القبرطي

وكذلك فإن من عظماء الرياضة من شركاسة الوطن الأم هو (كيلار خاشيروف) أول من تسلق قمة جبل البروز في بلاد القبردي وبطلنا العظيم ولد في منطقة القبردي عام ١٧٩٩ وكان في "القرية الحرة" دليل بعثة علمية للأكاديمية الروسية للعلوم كان يرأسها الجنرال (إيمانويل) في عام ١٨٢٩م. وتسلق القمة الشرقية لجبل البروز وارتفاعها (٥٦٣٣) للمرة الأولى في التاريخ وهو أيضا من رواد رياضة تسلق الجبال في روسيا. وإقيم لهذا البطل القبرديني في مدينة لوغانسك (نصب تذكاري) وتوفي بعد تسلقه الضخم بثلاثين عاما عام (١٨٥٩).



كيلار خاشيروف

وفي العصر الحديث منذ وضع الشراكسة تحت الحكم الشيوعي في الفترة من ١٩١٧ وحتى انهيار الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٩٢ وكذلك منذ أصبح شراكسة الوطن في ظل حكم روسيا الاتحادية ابتداء من عام ١٩٩٢ وحتى اليوم فإن عدد كبير من الشباب الشراكسة في هاتين المرحلتين من تاريخهم قد مارسوا مختلف الألعاب والمسابقات الرياضية التنافسية، كما احترفوا عددا كبيرا من الرياضات التنافسية المعاصرة منذ مارس الشراكسة في الوطن الام في هذه المرحلة رياضات وألعاباً جديدة تختلف اختلافاً كلياً عن الرياضات الشركسية القديمة، سواء

كان من حيث التنظيم أو التكوين، فإذا كانت الرياضات الشركسية التقليدية جزءاً من الثقافة القومية للشراكسة، جاءت الرياضات الجديدة بدعم من الدولة الروسية فمالت إلى الاحتراف حيث إن الكثير من الرياضيين الشراكسة أصبحوا يتقاضون رواتبهم لتفرغهم للتدريبات والمسابقات فقط. في الوقت الذي شملت فيه الرياضات الشعبية ألعاباً وتمارين معروفة وموروثة من الاجداد، كما حملت الرياضات الجديدة أسماء لم تكن لها علاقة بالثقافة البدنية الشعبية الشركسية القديمة وحلت محلها لتجعلها في زوايا النسيان، ولم يبق من الألعاب التقليدية الشركسية سوى المصارعة والرماية مع

ادخال التعديلات والتغييرات الجوهرية، كما ظهرت رياضات وألعاب جديدة مثل: كرة القدم، وكرة الطائرة، والتنس، وسباق الدراجات، ورفع الأثقال، والملاكمة، والمصارعة الرومانية، والجمباز، وكرة السلة، والسباحة، والتسلق على الجبال، وألعاب القوة.

يقول (غير غوف) مؤكداً بأن الرياضات القومية اخذت تفقد أسرارها وأساليبها التدريبية، مما أدى إلى زوالها أيضاً. ومرت سنوات وعقود طويلة قبل أن يتقن الشعب الشركسي قواعد الرياضات العالمية الجديدة التي قامت الحكومة السوفيتية بنشرها، وقد نشأ أبطال جدد ذوو معايير روسية وسوفيتية وأوروبية وحتى أولمبية وعالمية. كما ظهر مدربون عالميون مثل المدرب الشركسي البارز، المؤسس لمدرسة الجودو والسامبو (الدفاع عن النفس) وإسمه **يعقوب كوباييف من مدينة مايكوب**، وهي شاهدة لما يمكن ان يثمر عنه الجمع بين الرياضتين الشعبية والعالمية.

ولا شك بأن تقديم الشراكسة في الوطن الأم أبطالاً أوروبيين وعالميين حتى في الرياضات غير التقليدية فيعني ذلك بأن الشعب الشركسي بدأ يستعيد شيئاً فشيئاً ثقته بذاته التي كان قد فقدتها نتيجة للكارثة القومية التي وقعت خلال حروب الإبادة الدمار الروسية في القرن التاسع عشر، وزوال الرياضات الشركسية التقليدية.

وفي الاحتفالات الرياضية الإقليمية التي بدأت تقام في الاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٢٣ احتل الرياضيون الشراكسة مراتب عالية وحققوا انجازات عالية في بعض السباقات مثل سباقات الخيل، والتسلق إلى قمة البروز في عام ١٩٣٥، والعبور المائي من (فان) إلى (ماخاتشكالا) في عام ١٩٣٦، ومن نالتيك إلى موسكو في عام ١٩٣٧ والذي شارك فيه (شيس بليناف و مرجان شيناخوفا)، وسباقات الدراجات الذي قادها (ي. ي. خجاليف) في العام ١٩٦١، وقطع المشاركون الشراكسة في الوطن الام مسافة ٦٠٠٠ كيلومتر على خط (أرمافير - كراسنودار - يالطا - سيفاستوبول - أديسا - كيشينوف - كييف - مينسك - فيلنيوس - ريغا - تالين - لنينغراد - موسكو - خاركوف - رستوف - نالتيك) . وفي جمهوريتي (اديغي) و (تشركسيا) حدثت تطورات رياضية كبيرة حيث ظهرت رياضات غير تقليدية وإنشاء قاعات وملاعب رياضية واستقطاب الشباب الشركسي وظهر أبطال لامعون جدد، ويبدو أن الامور سارت على هذا النحو في كافة الجمهوريات والولايات القوقازية على حد سواء.

وبدأت اسماء الرياضيين الشراكسة تظهر في اواخر العشرينيات من القرن الماضي، ومن بينهم القبردي (مصطفى بيتوي ناكوف) الذي بقي في الساحة الرياضية مدة ثلاثين سنة في رياضة المصارعة الحرة والرومانية ووصفه مؤرخ الرياضة في جمهورية (كباردينا بلكاريا) بقوله: "... من العام ١٩٢٧ ولغاية ١٩٥٣ كان بطلاً في المصارعة الحرة والرومانية ورافعاً للأثقال هو الاقوى على صعيد جمهورية كباردينا بلكاريا ومنطقة شمال القوقاز والجمهوريات الفدرالية الاشتراكية السوفيتية الروسية، بالإضافة إلى كونه لاعب ألعاب قوة عظيم، شمل ارشيفه الرياضي الخاص (٥٠) شهادة تقديرية منحت له على فوزه في المسابقات في المصارعات الحرة والشعبية والرومانية ومسابقات ألعاب القوة.

وفي الفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ذاع صيت راكب الدراجة (يوسف خجاليف) الذي قطع ٤١ ألف كيلومتر في (٢٣) سباقاً للدراجات بصفته متسابقاً أو مدرباً أو مشرفاً، وفي العام ١٩٦٤ منح لقب "خبير الرياضة للاتحاد السوفيتي". كما اثبت مهارته في التدريب حيث قام بإعداد (١٤) خبيراً رياضياً وما يزيد عن مائة رياضي، حصلوا على درجات تقديرية مختلفة. كما عمل مدرباً لمنتخب فريق الدراجات لجمهورية روسيا الفدرالية ومدرباً للمجلس الاعلى لنادي "سبارتاك" وفاز كل من تلميذه (ب. شوخوف) و (أ. توكماكوف) ببطولة الاتحاد السوفيتي، وشارك في المنتخب الاولمبي للدراجات، أما (بوريس شوخوف) فحصل على الميدالية الذهبية في اولمبياد ميونخ في العام ١٩٧٢. كما منح (يوسف خجاليف) لقب المدرب الدولي للاتحاد السوفيتي تقديراً لإنجازاته الرياضية الدولية.^(٧)

* أنواع الرياضات المعاصرة التي مارسها الشركاسة في الوطن الام في العصر الحديث وتفوقوا فيها

١- رياضة الفروسية:

حقق الشركاسة في الوطن الام انجازات كبيرة في رياضة الفروسية المعاصرة في العهد السوفيتي لوجود خبرة تاريخية طويلة فيها. بشهادة (شورا نغموقة) الذي سبق ان قال: "كان جيران الشركاسة يغارون منهم على لياقتهم في الفروسية، ولباسهم الجميل، ومهارتهم في رمي الهدف، وقدرتهم على القفز من على ظهر الفرس لالتقاط خاتم او قطعة نقد من الارض"^(٨).

وظهر في منتصف القرن العشرين من شركاسة الوطن الأم فرسان موهوبون جدد وفي مقدمتهم الفارس (جامبوت باكو بشوكوف) الذي مارس هذه الرياضة أربعين سنة من عمره ابتداء من عام ١٩٥٤. وكرم من معهد الابحاث المركزي لتربية الخيل بصفة (فنجري) وكان قد حاز على ما يزيد عن ٥٠ جائزة، كما ضرب رقما قياسيا في سباق الحواجز على مستوى الدولة منذ عام ١٩٦١، وبدأت انتصاراته في البطولات الدولية وقد فاز بأكثر من ٢٠ جائزة في عدد من العواصم الأوروبية. ومنح في المؤتمر الدولي لتربية الخيل لقب "الفنجري الدولي" وهو أعلى لقب في الفروسية. لقد تميز بأسلوبه الرياضي الخاص، بالإضافة إلى جلسته على الفرس والتي قيل عنها إنها "جلسة الامراء". وقد بقي يشارك في المسابقات حتى أصبح عمره (٥٣) سنة مما يعتبر رقما قياسيا في رياضة الفروسية في العالم.

كما ظهر فارس آخر مارس هذه الرياضة منذ ان كان عمره ١٥ سنة، وقد حصل على لقب الخبير في الرياضة في عام ١٩٦٢ واسمه (محرابي جانخوت كونيجف)، الذي فاز بلقب بطل الاتحاد السوفيتي في أنواع مختلفة من سباقات الحواجز في السنوات ١٩٦٢ و ١٩٦٧ و ١٩٦٨.

وأما عن إنجازاته الكبرى كما جاءت في مجلة (التربية الرياضية) بأنه عمل في الفترة ما بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٨٢ مدربا لمنتخبي الجمهورية الروسية والاتحاد السوفيتي. وعلى يده تدرّب كل من (أرسين كاراتسوكوف) و (سيرغي روغوجين) وهما خبيران عالميان و (حاجيسميل شيناخوف) الحاصل على لقب الخبير الرياضي للاتحاد السوفيتي و (فلاديمير بوندارينكو) بطل أوروبا كما أعد سبعة أبطال في الاتحاد السوفيتي و ٥٢ خبيرا على مستوى الاتحاد السوفيتي. ويشغل الآن منصب مدير ميدان لسباق الخيل في نالتشيك.



وكان آخر أبطال الفروسية في بلاد الشركاسة في الوطن الأم هو البطل الأولمبي العالمي بوريس شوخن الذي فاز ببطولة العالم عام ١٩٧٠ والبطولة الأولمبية عام ١٩٧٢.

بوريس شوخن بطل العالم عام ١٩٧٠ وبطل

الأولمبياد عام ١٩٧٢ في الحواجز/فروسية

٢- رياضة الجودو وألعاب الدفاع عن النفس (سامبو وكاراتيه وتايكوندو والكيك والبوكسينج).

تعتبر مدرسة مايكوب لرياضة (الجودو والسامبو) التي أسسها (يعقوب كامبوليت كوبليف) في مايكوب عاصمة الأديغي صفحة لامعة في الرياضة الشركسية في الوطن الام في العهد السوفيتي. وفي عام ١٩٧١ افتتحت في مايكوب قاعة رياضية حديثة وأقيمت فيها بطولة في رياضة (سامبو) الثالثة للمصارعين القرويين، وكان الخمسة من بين الفائزين العشرة الأوائل من تلاميذ (يعقوب كوبليف) وهم (ف. نيفزوروف) و (أ. سبيروف) و (ي. أشينوف) و (أ. حاباي) و (ع. كوستوكوف).

وفيما يلي نبذة عن الابطال العالميين والاولمبيين والاوروبيين في رياضة الجودو والسامبو والالعاب الدفاع عن النفس الذين حققوا انجازات رياضية عظيمة وهم:

- إسماعيل يكويتيتش، الحائز على كأس أوروبا في عام ١٩٧٣ في المصارعة الرومانية وهو من مدينة كراسنودار .



ارمبي حاباي

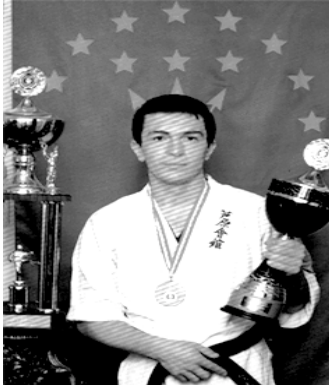
بطل العالم عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ وبطل العالم للكبار عام ١٩٩٣ في رياضة السامبا

- أرمبي حاباي، بطل العالم عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥، وكذلك بطل العالم بين كبار السن في عام ١٩٩٣ في سامبو (الدفاع عن النفس). ولد في أديغة في قرية (تاويحابل).

- كوستوكوف، بطل العالم لعام ١٩٩٣، وبطل أوروبا لعام ١٩٧٤.

- أرمبي يميچ، الحاصل على الميدالية البرونزية في اولمبياد ١٩٨٠ في مباريات سامبو وجودو.

- حميد حاباي، الحاصل على الميدالية الفضية في بطولة العالم لعام ١٩٨٧، وبطل أوروبا لعام ١٩٨٩ في سامبو وجودو. ولد في عام ١٩٦٠، وهو شقيق ارمبي حاباي.



مورات سيانشفيف

بطل كأس العالم عام ١٩٨٨ في الكاراتيه

- مورات كيشتوف، بطل أوروبا لعام ١٩٩٣ في التايكوندو وزن ٧١ كغم. ولد في ١٢ أغسطس عام ١٩٧٣ في كاراشايوف من جمهورية شركيسيا.

- مورات ساباتشيف، الحائز على كأس العالم في عام ١٩٨٨ في رياضة الكراتيه.

حافظت تليستيري، بطل أوروبا لأعوام ١٩٨٢، ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥، والحائز على كأس القارات في عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٦، وبطل العالم للجودو في وزن ٦٠ كغم. ولد في قرية (كازانوقاي) من جمهورية الأديغة عام ١٩٥٨.

- أيدمير اوتليف، الفائز ببطولة العالم لعامي ١٩٨٥ و ١٩٨٦ في سامبو. وزن ٦٢ كغم. ولد في ١٩٦٦ وهو من قرية شوفغينوفسكي.

- سحاتبي أخاوف، الفائز ببطولة أوروبا في ١٩٩٣ وبطولة العالم لعامي ١٩٩٣ و ١٩٩٥ في السامبو ولد في جمهورية الأديغة عام ١٩٨٥.

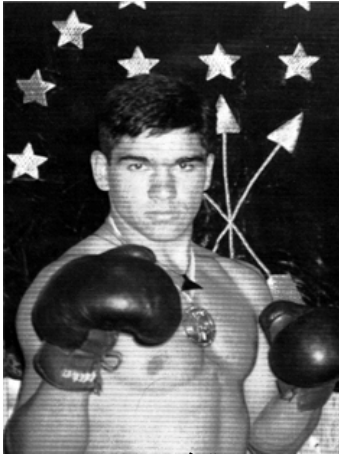
- مورات غوكوف، الفائز ببطولة العالم في ١٩٩٣ في السامبو. من مواليد تشيركيسك.



حافظت تليستيري

بطل أوروبا اعوام ١٩٨٤، ١٩٨٣، ١٩٨٢، وبطل العالم عامي ١٩٨٥، ١٩٨٦ في رياضة الجودو

- محمد كونيجف الفائز ببطولة أوروبا مرتين وبطولة العالم في ١٩٩٣ بوزن ٦٢ كغم، ولد في قرية بسيج في جمهورية شركيسك ١٩٧٣.
- أصلان بيجف، الفائز ببطولة العالم عامي ١٩٩٣ و ١٩٩٤ وبطولة أوروبا لعام ١٩٩٦ في السامبو.
- مورات حاسانوف، بطل أوروبا لأعوام ١٩٩٣، ١٩٩٤، ١٩٩٥، ١٩٩٦، و ١٩٩٧، وبطل العالم في عامي ١٩٩٤ و ١٩٩٥، وحائز على كأس العالم في عام ١٩٩٥ في رياضة السامبو. ولد في ١٠ ديسمبر ١٩٧٠ في قرية (يجرقواي) من جمهورية الأديغي.
- مورات أغيروف، الفائز ببطولات العالم لعامي ١٩٩٥ و ١٩٩٦ في السامبو.
- أدام ديلوك، الفائز ببطولة العالم لعام ١٩٩٥ في السامبو. وولد في جمهورية الأديغي عام ١٩٧٥.
- روبرت أغيروف، الفائز ببطولة العالم لعام ١٩٩٦ في السامبو وشارك في وزن ٧٤ كغم وبينما كان وزنه الحقيقي ٦٨ كغم. من قرية (أبسوا) - في جمهورية شركيسيا.
- أدام خوشت الفائز ببطولة أوروبا لعام ١٩٩٦ في السامبو. ولد في عام ١٩٧٩ في قرية (تختميقواي) في جمهورية الأديغي.
- مورات ماكوف، الحائز على كأس أوروبا وكأس العالم عام ١٩٩٦ في كيك بوكسينغ. من قرية (بسيغانسو).
- أصلان داوروف، الفائز ببطولة العالم عامي ١٩٩٤ و ١٩٩٦، والحائز على كأس أوروبا في ١٩٩٧ في السامبو، وزن ٧١ كغم و ٧٨ كغم. من مواليد جمهورية شركيسك.



مورات جانوف

- مورات جانوف، الحائز على كأس أوروبا وكأس العالم لعام ١٩٩٦ وبطل العالم لعام ١٩٩٥، وبطل العالم بين المحترفين لعام ١٩٩٧ في رياضة كيك بوكسينغ. ولد في قرية (بسيغانسو) في جمهورية كبادينا بلقاريا.
- أصلان غوباشيف بطل العالم عام ١٩٩٦ في الكاراتيه ولد في جمهورية كبادينا- بلقاريا.
- بطل كأس أوروبا والعالم عام ١٩٩٦ بطل العالم ١٩٩٥ وبطل العالم للمحترفين ١٩٩٧ في الكيك بوكسينج
- مورات أوزوف بطل العالم في ١٩٩٦ في السامبو. أبازين الأصل من مدينة تشيركيسك.
- أزومات تترشاو - الحائز على كأس العالم للشباب في عام ١٩٩٦ في الكيك بوكسينغ. ولد في ١٩٧٧ في قرية (بسيج) في جمهورية شركيسك.

٣- رياضة المصارعة:

- ليونيد بوغاتيريوف، الحائز على كأس العالم عام ١٩٧٤، في المصارعة الحرة.
- تيمور حاتسوكوف الفائز في بطولة أوروبا لعام ١٩٨٠، في المصارعة الحرة.

- **اصلان جانيموف** بطل اوروبا في ١٩٨٢، الحائز على كأس العالم عام ١٩٨١ في المصارعة الرومانية. وزن ٨٢ كغم. ابن الكاتب الكبارديني المشهور بورييس جانيموف.
- **ألبييرت غيرغوف** الحائز على الميدالية الفضية في بطولة العالم لعام ١٩٩١، وبطل الاتحاد السوفيتي لعام ١٩٩١ في المصارعة الحرة. ولد في جمهورية كباردينا- بلقاريا.
- **زاودين باجيف** الفائز ببطولة العالم عام ١٩٩١ في المصارعة الحرة وهو في عمر ١٦ سنة.
- **ألكسي كازيف** الفائز ببطولة العالم عام ١٩٩٢، والحائز على كأس العالم عام ١٩٩٨ في المصارعة الحرة. من جمهورية كباردينا بلقاريا.
- **مورات قردانوف** الفائز ببطولة العالم في ١٩٩١ والحائز على كأس العالم عام ١٩٩٢ وبطل اوروبا عام ١٩٩٨ في المصارعة الرومانية. ولد في عام ١٩٧١ في قرية (زاراغيج) وهي التي ولد فيها الموسيقار يوري تميرقانونف. وزن ٨٢ كغم.
- **رسلان تشرميت** الفائز ببطولة اوروبا لعام ١٩٩٣ في المصارعة الرومانية. ولد عام ١٩٧٥ في قرية (تختميقيوي) في جمهورية الأديغي.
- **اصلان نارتوقوف** الفائز ببطولة العالم عام ١٩٩٤ في المصارعة الحرة.
- **مايربيك خامبازاروف** الفائز في الالعاب العالمية للثقافات عام ١٩٩٥ في المصارعة الرومانية وزن ٦٨ كغم.
- **أصلان حاغوروف** الفائز ببطولة النوادي الاوروبية في عامي ١٩٩٥ و ١٩٩٦ في المصارعة الحرة. وزن ١٠٠ كغم.
- **محمد بالاخوف** الفائز ببطولة العالم لعام ١٩٩٦ في المصارعة الرومانية من مواليد جمهورية كباردينا بلقاريا.
- **أصلان بيك هوشتوف** من كبردينيا بلقاريا بطل العالم للمصارعة الرومانية في أولمبيات بكين ٢٠٠٨، احرز الميدالية الذهبية بوزن (٩٦) كغم والبطل الشركسي تمكن من الفوز بجدارة على البطل الالمانى ميركو، ولقد شهدت بلدة تيريك مسقط رأس اصلانبيك في جمهورية قباردينيا / بلقاريا احتفالات عامة حيث تجمع المئات من سكان القرية ابتهاجاً بهذا النصر الرياضي الكبير.



موحري كيرجينوف

بطل اوروبا عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٢

وبطل العالم عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٢

وبطل الاولمبياد عام ١٩٧٢ في رفع الاثقال

٤- رياضة رفع الاثقال:

- **موحري كيرجينوف** بطل اوروبا عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ وكذلك بطل العالم في ١٩٧٢ و ١٩٧٣ وبطل الالعاب الاولمبية في ١٩٧٢ في رفع الاثقال. ولد في قرية (كوشابل) في الأديغة ١٩٤٩. بدأ مسيرته الرياضية من الوزن الخفيف. وسجل آخر رقم قياسي له عام ١٩٧٥ في وزن ٧٧,٥ كغم.

- **مورات بيبوف** الحائز على كأس العالم عام ١٩٨٠ في رفع الاثقال. من مايكوب وهو اصغر (رباع) في العالم.

- **يوري خواجيف** بطل أوروبا لثلاث مرات وبطل العالم لعامي ١٩٩٦ - ١٩٩٧ ولد في مايكوب عام ١٩٧٠ في رياضة رفع الأثقال Power lifting، ويعتبر أقوى رجل في العالم حيث حقق رقما قياسيا عالميا برفعه ٢٧١,٥ كغم.

٥- رياضة الدراجات

- **بوريس شوخوف** بطل العالم في ١٩٧٠ والألعاب الأولمبية عام ١٩٧٢ في سباق الدراجات. ولد عام ١٩٤٧ في أوكرانيا حيث عمل والده في بعثة عسكرية وهو أول رياضي من جمهورية كبادينا بلقاريا حاصل على لقب بطل أولمبي.

٦- رياضة كرة الطائرة:

- **يلينا اخامينوفا** شاركت ضمن فريق الاتحاد السوفيتي لكرة الطائرة للالعاب الأولمبية لعام ١٩٨٠.

٧- تنس الطاولة:

- **فاطمة باتيروفا** الفائزة ببطولة أوروبا تنس الطاولة لعام ١٩٧٢.

- **مولود كوشخوف** الفائز ببطولة أوروبا لعام ١٩٨٤ في تنس الطاولة من جمهورية كبادينا-بلقاريا.

٨- رياضة الجمباز (حركات الايقاع)

- **سفيتلانا كوشو** - بطلة أوروبا لعام ١٩٩٧ وبطلة العالم في ١٩٩٧ في الحركات الايقاعية في الجمباز.

٩- **كرة القدم**، لم تكن رياضة كرة القدم من الرياضات التي مارسها الاجداد حتى النصف الأول من القرن العشرين، إلا أن هذه اللعبة أصبحت اللعبة الشعبية الأولى في السنوات العشرين الأخيرة ونجح فريق جمهورية كبادينا بلقاريا من الوصول إلى دوري أبطال المحترفين في روسيا الاتحادية في السنوات الأخيرة.



يلينا اخامينوفا / عضو منتخب الاتحاد
السوفيتي الفائز في اولمبياد موسكو
عام ١٩٨٠



سفيتلانا كوشو
بطلة المحترفين وأوروبا عام ١٩٩٧
وبطلة العالم ١٩٩٧ في الجمباز



فاطمة باتيروفا/ بطلة أوروبا في
تنس الطاولة